الاشتراك السنوي
١٠٠ ريال للأفراد و ٢٠٠ ريال لغيرهم
الإعلانات : يتفق عليها مع الإدارة
ثمن الجزء : ١٧ ريالاً

العرب
مجلة شهرية تعنى بتراث العرب الفكري
صاحبها ورئيس تحريرها : حمد الجاسر

العنوان
شارع الملك فيصل هاتف ٤٠٢٢٩١٥
ص . ب ١٣٧ الرمز البريدي ١١٤١١
الرياض - المملكة العربية السعودية

ج ١ ، ٢ س ٢٠ رجب / شعبان ١٤٠٥هـ - نيسان / أيار (ابريل / مايو) ١٩٨٥م

العرب في عامها العشرين

[لم أتمالك - حين بدأت بقراءة ماكتبه أستاذنا الجليل - أن أحس إحساساً غريباً بأنني أصبحت في عداد من يؤبنون بذكر محاسن أعمالهم ، خالية من الشوائب . وحاولت أن أمر بالقلم - كعادتي في غير ما يكتبه أستاذنا الطاهر - على كثير من الجمل - نهبت هذا الأمر ، لأنني أقدر الأستاذ وأجله إلى درجة المهابة ، فهو عالم أوجد - باحترامه لنفسه علماً وخلقاً - ما أوجب على من عرفه أن يحترمه ويجله ، ويحله بين العلماء منزلة سامية استحق عن جدارة أن يحلها . ومن ذا الذي لا يعرف ما بلغه الأستاذ الدكتور علي جواد الطاهر في عالم الثقافة العربية من منزلة ؟ !

إن من السذاجة أن يتظاهر المرء بأنه لا يحب أن تذكر أعماله ذكر إطراء وثناء ، ولا سيما إذا صدر هذا من عالم جليل ، يدرك ما سيكون لقوله من أثر ، ويعلم حق العلم منزلة هذا القول ، وموقعه في نفوس عارفيه ، وهم في القمة من رجال العلم والأدب . ولكن هل يجمل بي أن أقف من هذا الأمر موقف الأعرابي الذي سمع الثناء على حسن صلاته - وما ذاك من عادة الأعراب - فالتفت وهو في الصلاة نحو المثنين قائلا : ومع ذالك فأنا صائم ! ! ولو جاز تقارض الثناء في هذا المقام لما أخفيت أمراً يدركه من واكب سير مجلة « العرب » في سنيها الماضية من قرائها ، ممن استمتع واستفاد واستزاد مما دبجه قلم أستاذنا الطاهر ، مما أصبح أوثق مصدر وأشمله في جانب من جوانب ثقافة الأمة العربية في قلب بلادها ، بل دعامة من دعائم علمها وأدبها وتراثها خلال فترة من الزمن تكاد تكون مهملة منسية . فضلا عما كان للأستاذ من حسن التوجيه والرعاية والحث على مواصلة العمل ، والتنبيه على ما يحدث فيه من خلل . وبعد : فلعل من الخير للقراء أن أظهر أمامهم بصورة ذالك الأعرابي ، فأمتعهم بمقال أستاذنا الطاهر سوياً - كما أراده من أن تبلغ بي الجرأة على مقامه بالتصرف - حذفاً أو تغييراً] .

أنت ، أخي العزيز خارج الجزيرة ، بل خارجها وداخلها ، لا تعرف « العرب » ولا تعرف « الجاسر » أقولها بهذه الصراحة ، وهذه الجرأة ، وأبدأ

بأبناء الجزيرة نفسها ، وبنَجْد وبالرياض ، وبالبرود . الجاسر ، الشيخ حمد الجاسر معروف جداً . هذا صحيح ، ويقترن اسمه بالإعجاب بما عمل والتقدير لما قال ، والحب على ما سلك ؛ وتمتدُّ ألقابه من الشيخ والأستاذ إلى العلامة وعلامة الجزيرة العربية .

وما للمتحدث بذلك من فضل ، لأنه لم يزد في تعريف الجاسر ، ولم يبالغ في تحديد منزلته ؛ وإنما الفضل ، كل الفضل ، للجاسر نفسه حيث جدَّ واجتهد ، وكافح وناضل ، ومهَّدَ الطرق وشقها واجتاز عقباتها، مُضَحّياً بالوقت وبالمال وبالجاه ، مطمئناً إلى أن مكانَتهُ الطبيعي المقترن بزمانه الطبيعي المتفق مع الجاه الطبيعي إنما هو بالصبر الطويل والدأب المتصل ؛ هو بالبحث والتنقيب ؛ وهو باستغلال الثروات الفطرية الكائنة فيه ؛ هو بالصبر والدأب في شوق وارتياح وحب وأُنسٍ وبُلَهْنيَةٍ ونشوة . وهذا هو الذي حدث ، وهو الذي أجدى ؛ وإلاّ فكيف يبلغ امرؤ (معدم) هذه المنزلة العلمية مصحوبة بالمنزلة الاجتماعية مقرونة بالإعجاب والتعجب ؟ كيف تنصاع لامرئ فلاَّح في زاوية ضائعة من العالم هذه الحضارة التي تتحدَّى حضارة الغربي وتبذها عمقَ بَحْثٍ وسَعَةَ أفق ، وجمال سلوك . كيف ؟ وكيف يستوعب هذا المرء — على وجهِ الدقّة والوعي والذكاء وحسن التصريف — أسرار جزيرة مترامية الأطراف عريقة الميلاد . في مواقعها مذ كانتْ ، وفي أحداثها مهما توالت ، وفي قبائلها على تشابكها ... يستوعب الجزيرة فيما هو بداخلها ، وفيما هو في خارجها ، وفي أي أمرٍ يمتُّ إليها بأية صلة . وله في كل ذلك الموقف الحازم الجازم ، والرأي الراجح الحاسم ، مع كياسة الصلات ونضج المحاورة . وإنه ليمجِّدُ السليم من النظر والصحيح من العلم في أيٍّ موضوع كان ويكون ، وفي أية صورة من الإيجاب والسلب ؛ ويفضح الخطأ من أية جهة صدر ، وفي أي بحث استقر . الاستيعاب لديه ذكاء ، والذكاء خلق ، والخلق حضارة .

عجيب أمر هذا الصبي المسمى حمد بن محمد الجاسر مُذْ هَجَرَ البرود

إلى الرياض ، إلى مكة ، ومذ صار معلما وقاضيا ومشرفا ومديراً للتعليم ، ومديراً لكليّي الشريعة واللغة العربية ، فهو أستاذ الجيل بنجد بانتظار المدى الأوسع والتقدير الأجمع وقد هجر الوظيفة نَحْوَ ما هو أجمل منها وأجدى ، إلى صحافة رائدة في الرياض (اليمامة) ، ومطبعة أولى (مطابع الرياض) وإلى تصحيح الخطإ في الكتب والمناهج والتقاليد ، تَقْعيداً للقواعد ورياضة للأعصاب وتنويراً للأذهان ... وتوسيعا للآفاق . وهو في كل ذالك هو المخلص لقومه حتى لو ساء ظن فلان به وفلان ، وما أسرع ما يعود سوء الظن حسنا ، ويعرف الضال خطأه ، ويعتذر علنا أو سراً ....

يصل ما يكتبه حمد الجاسر إلى مَنْ يُقَدِّرُهُ داخل الجزيرة فيعجب— وقد يحسد ويغتاظ ؛ وإلى من يفهمه خارج الجزيرة فيبلغه احترامه بوجه من الوجوه ، ومن هذه الوجوه الرسالة ، والمساءلة ، والاستزادة ، والاستعانة على أعلى المستويات . وهل أعلى من المجامع العلمية في القاهرة ودمشق وبغداد ، وما جَدَّ ويَجِدُّ بعدها . يتحدث فيستمعون إليه ، ويأخذون عنه ، ويملأون بعلمه فراغا لا يَسُدُّهُ غيره ، وألواحا تبقى عاطلة بغير حُلِيِّه .

ويهتبل ، هو نفسه ، إقامةً هنا وهناك لاكتساب علم جديد ، لأنه يطلب ما بقي فيه رمق ، ويسعى إلى التعلم قبل التعليم ، وهكذا تراه حيث أقام ، قصيراً أو طويلا ، يقرأ ويقتبس وينسخ ويصوِّر ويقتني ، وشغله الشاغل الجزيرة ، وما الجزيرة بالبقعة الضَّيِّقة المساحة ، الحديثة الميلاد . أنَّها ، والعالم كله يعرف ما هي .

يقيم في القاهرة كما يقيم في بغداد ؛ كما يقيم في استانبول ... ولا ولن تبعد عنه مكتبات أوربّة أو أمريكة في مطبوعاتها ومخطوطاتها وفي وقوف عليها حيث هي ، وأهلا بالمشاق في سبيل ذالك ، وما أحلاها ! وسهلا ومرحبا !!

وينشر المقالة هنا وهناك ، داخل الجزيرة وخارجها في مجلات الوزن

العالي من البحث والمكانة ، ويلقي المحاضرة هناك وهنا في المنتديات الرفيعة التي تعرف وزن الرجل ووزن العلم الذي يحاضر فيه .

أنت ، أخي العزيز ، خارج الجزيرة ، بل خارجها وداخلها لا تعرف « العرب » ولا تعرف الجاسر . ستقول : كيف لا أعرف الجاسر وقد ذكرت من خَبَرِه ماذكرت . وأقول : جرى كل ذالك وأنت — أنت المثقف القارىء المتابع للجرائد والمجلات فتعرف أموراً كثيرة ، وتتعرف أعلاما كثيرين — ولكنك لم تعرف رجلا اسمه حمد الجاسر على وجه الشيوع والذيوع ، وعلى الدرجة التي هو لها . أما الذين ذكرتُهم ممن عرفه حق المعرفة فهم قلة محدودة معدودة خارج الجزيرة متّصلا بداخلها ، ولم تكن أنت — وأنا وملايين مثلنا — من تلك القلة . لأنك لم تعتدْ أن تصل إلى الحقائق عن سبلها ، وتأخذ العلم من مصادره ، وتميِّز من يدعو لنفسه ممن لا يدعو . إنَّ من شأن ثقافة ليست ثقافة أن تجهل رجلا اسمه حمد الجاسر وربما استهانت بعلمه إذا وُصِفَ لها .

ولكن لننتظر — كما انتظر الرجل نفسه — فلَن يضيع حق هو حق ، ولن يخفى قمر هو قمر . وها هي ذي الدائرة تتّســـع ، وتتسع فإذا حمد بن محمد (حمد الجاسر) الشيخ حمد الجاسر ، الشيخ الجاسر ، الأستاذ ، العلامة ، علامة الجزيرة العربية . وليس لك — أو لي — في ذالك فضل ، وإنما الفضل ، كل الفضل ، لحمد بن محمد نفسه ، بما سعى وطمح إليه ، وجد وطمع به ، وبما تواضع فارتفع ، ولما صبر فظفر . إنه الآن ، ومنذ سنوات غير قليلة ملء نجد والحجاز ، وملء الجزيرة ... وملء السمع والبصر ...

ويبقى العتاب لدرجة الحساب مع قوم يقعون خارج الجزيرة ويهمهم العلم بالجزيرة ولكنهم ينتظرون أن يصل الخبر إلى بيوتهم ، وأن تزحف المعرفة زحفاً وقصداً إلى مآويهم ، فلا يخطون خطوة ، ولا يكلفون أنفسهم قليلا . وليس المفروض برجل جليل كالجاسر أن يمرَّ بهم بيتاً بيتاً معلنا عن نفسه : أنا فلان ، كتبت في المجلة الفلانية ، حاضرت في المجمع الفلاني ، أُحدثكم بما شئتم عن

الموقع الفلاني ، وعن القبيلة الفلانية ، والحادثة ، والشاعر ، والمؤرخ ، والفقيه ، والتشريع ، والمطبوع والمخطوط في يسر وطلاقة ، فيما ظهر من الأمر وما بطن في هدوء ، وقد أشتد لدى فصاحة الشدة ، وفي لين وقد أقسو لدى بلاغة القسوة . فأنا — كما أود أن تعلموا — معلم في بداية أمري ، وسأظل معلما ... متعلما .

أجل ، ولابُدّ من أن ندرك الفرق بين من يأتي إليك (يخدعك) ومن تذهب إليه (ينفعك) .

ولا نطيل ، ولانُمَاحك ، ولا نرمي بالذنب من لم يكن مذنباً ... ونبتعد عن المصدر وقد صار قريبا . فقد قرر الشيخ حمد الجاسر قراراً متحضراً آخر ، بعد « اليمامة » و « مطابع الرياض » ، ونشر المقالات ، وإلقاء المحاضرات واقتناء المطبوع النادر ، والمخطوط الذي لا يعرفه غيره ... قرر وهو في عز الكهولة أن ينشيء داراً يسميها (دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر) ويصدر مجلة يدعوها « العرب » — تعني بتاريخ العـــرب وآدابهم وتراثهم الفكري . ولا نستطيع — أنا ولا أنت — أن ندرك عظم المشروع ، وإن قدرنا عظمه لم نقدر متاعبه ومخاطره ، وإن قدرنا متاعبه ومخاطره لم نَسْبُرْ غوره ونبلغ قعره . ويكفي ألاّ تكون المملكة كلها — ونحن في ستينيات القرن الهجري / وثمانينيات القرن الميلادي — مكاناً للتنفيذ . فأين المطبعة اللازمة ؟ وهذا أول مايجب أما الكاتب فقد ضمنه الرجل في نفسه ، فهو الكاتب — على المفرد ، وهو الكتاب — على الجمع . وبَعْدَ المطبعة الموقع المناسب للإيصال ، فأين ؟ وأين ؟

لِتكُنْ — إذَنْ — بيروت المحطة المختارة . وهكذا صدر الجزء الأول من « العرب » في رجب ١٣٨٦ — تشرين الأول ١٩٦٦ — (مجلة شهرية جامعة) وتتابعت أجزاؤها . مقرونة بتوالي المنشورات : تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد — مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ — بلاد ينبع . البرق اليماني في الفتح العثماني . المغانم المطابة من معالم طابة — القول السديد في أخبار إمارة آل رشيد ... أبو علي الهجري في سراة غامد وزهران ...

لا أحدثك عن الصعاب لأني لا أعرفها جيداً ، وإذا لمحت الظواهر فإني عاجز عن البواطن ، وإنما الذي لا شك فيه أنها لو استمرت واستعصت واستحكمت فحالت دون الاستئناف ، لكانت الخسارة بها مضاعفة والفجيعة متّصلة والمصائب ضخمة ، وأضخم منها من يعتليها ... فتكون له منشورات ومؤلفات ومجلة ...

ونعود ، مع المجلة ، إلى السياق ، والسياق عجب وإعجاب ، واحترام وتقدير لظاهرة تتصف بالفرادة والفذاذة ... وهي أنّ رجلا واحداً (لا يعرف تاريخ ميلاده إلاّ تقريبا ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م) خرج من أعماق قرية ضائعة في طوايا جزيرة شاسعة – ينهض وحده بمجلة رصينة راقية نادرة ، يغذيها – إذا تركنا المنشورات – ويشبعها ويسمنها ورصيده قلمه ؛ ويسهر عليها وماله من نصير ، ويتقدم بها وما يكون لها من نظير ... مدى عشرين عاما ، وعلى مدى ما يتمتع به من صحة ونظر وقلب ، وعلى الرغم مما انتاب الصحة وعكر النّظر وفاجأ القلب .

وبعد ...

فلقد أمضى الرجل أكثر من خمسين عاما من عمره المديد استعداداً لمشروعه المتميز في مجلة « العرب » ، وأمضى أكثر من عشرين عاما بعدها يُغَذّي المشروع ويشبعه ويسمنه من صحته وبصره وقلبه . وهو اليوم إذ يبلغ – أو يتجاوز الخامسة والسبعين ميلادياً (السابعة أو الثامنة والسبعين هجريا) فإنه يطلب الصحة العامة بكل الوسائل ، ومهما يكلف الأمر من أجل أن تبقى « العرب » كما يريد ، وكأنه لا يرى الحياة تطيب بدونها حتّى لو دعاه محبوه إلى أن يخفف من غلوائه ، وألاّ يدع مجالاً لحب أن ينهض على حساب حب .

حبٌ ينهض على حساب حبٍّ – ما معنى هذه العبارة ؟ أشهد أنها غامضة لا توصل ولا تبلّغ ، وأعترف كذالك أني صرفت في صياغتها وقتا طويلا ، وشغلت بها واعيا وغير واع وكأن شيئاً يعترض الوضوح ، وإنه لكذالك ، ولكنه

ليس بغيضا ، لأنه يدخل في باب (الأدب) ، وربما حالت حصافة دون فصاحة ، ومنعتْ لياقةٌ لباقةً !

ومضى يوم كامل وحسبتني (وجدتها) كافيةً شافية إذْ فهمت منها : أننا وقد أحببنا الجاسر بـ « العرب » لا نريد أن نحب العرب بالجاسر ! فما وجدتها إذْ وَجَدْتُها ، وما زال الغموض يكتنف العبارة ، ولا تكاد اللاحقة تختلف عن السابقة ، ولابُدَّ من شرح جديد فقد بات الجاسر عزيزاً علينا ، ولا نريد أن تجُورَ مجلة على صاحبها ، لقد أدّى الرجل الواجب وتعدّاه إلى تضحيات الهواة « الغواة » ، وعاد حُرًّا في اتخاذ القرار بين تكليف فوق الوَسْعِ ، وتمهلٍ مع الرفق أو أدنى جزء من معنى التسلية .

ـ أتراني بَلَّغْتُ ؟

ـ أشـــــك !

ولنعد إلى (ثُمالة) ما كنا فيه من سياق ، ونحكم على الشيخ حمد الجاسر في محصلة ما عرفنا عنه في أخباره وتجاربه ، في علمه وخلقه ، فيما كان له ولم يكن ، في منشورات اليمامة ومجلة « العرب » فإذا هو المثل الذي يتخذ في قياس (المتحضر) الحقيقي . وإذا عَدَدْتَني مبالغاً ، فأنت أحدُ أولئك الذين يشملهم العتاب ـ وحاشاك .

ولنقف قليلا نهنيء الرجل على سعادة تهيأت له ، ونشكره على خير هيأه لنا . (وقيمة كل امريءٌ ما يحسن) ، وقد أحسن الجاسر كتابا ومجلة ونشرا ، فلنحسن نحن قراءة وتعلما وشكرا .

علي جواد الطاهر

اغاليط الدكتور الصليبي الجغرافية

الدكتور كمال سليمان الصليبي باحث لبناني معروف ، وهو أستاذ التاريخ في الجامعة الأمريكية ورئيس قسم التاريخ فيها ، وقد ألف كتاباً حاول فيه أن يطبق النصوص التي وردت في التوراة على مواضع في بلادنا في جنوب الجزيرة .

ولقد كانت آراؤه لما فيها من الطرافة والخرافة ذات أصداء واسعة ، وتناولتها كثير من الصحف العربية بأكثر مما تستحق .

وقديماً كانت الخرافة ولا تزال مبعث تكرار وترداد .

وكنت حين حدثني أحد الإخوة بطرف من آراء ذلك المؤرخ حكيت له طُرْفَةً ساقها الفاكهي مؤرخ مكة بمعرض التندر ، فقد روى في كتاب « مكة وأخبارها » عن الأصمعي قال : قال رجل من أهل مكة : ما سمعت بأكْذَبَ من بني تميم ، زعموا أن قول القائل :

بيتٌ زرارةُ محتبٍ بِفنَائه ومجاشعٌ وأبو الفوارس نَهْشَلُ

في رجال منهم . فقيل له : ما تقول أنت ؟ قال : البيت بيت الله الحرام ، والزُّرَارة الحَجَبِيُّ ، فقيل له : فَمُجَاشِع ؟ قال : زَمْزَم جشعَتْ بالماء . قيل فأبو الفوارس ؟ قال : أبو قُبَيْس ، قيل : فنهشل ؟ ففكر طويلاً ثم قال : ونَهْشَل أشَدُّهُ . ثم قال : نهشل مفتاح الكعبة طويل أسود . ! !

وكان الأخ الدكتور زاهر الألمعي ذكر لي أنه يريد أن يكتب رداً على الصليبي فأوضحت له بأن آراءه – حسب ما اتضح لي – أضعف وأوهى من أن يشتغل هو أو غيره بكتابة الرد عليها .

ثم كثر إلحاح بعض الأصدقاء بأن أبين ما أراه حيالها ، فاتصل بي الأستاذ الكريم محمد بن عبدالله الحُمَيِّد – رئيس النادي الأدبي في أبها – وحدثني

بأنه أثناء مقال له نشرته جريدة « الشرق الأوسط » في ١٤٠٥/٤/٩هـ — في الموضوع ذكر اسمي في سياق ذكر مَنْ رغب منهم التصدّي للرد على الصليبي .

والأستاذ محمد ذُو دَالَّة عليَّ ، أقدرها حق قدرها ، فوالده الأستاذ عبدالله بن علي الحُمَيِّد — رحمه الله — من أعز أصدقائي — طيلة ثلاثين عاماً — وابنه الكريم ممن أحمل له في نفسي من الإكبار والتقدير ما هو أهلٌ له ، لفضله ، ولأدبه ، ولحفاظه على رعاية ما لأصدقاء أبيه من حقوق .

وخاطبني بالهاتف مدير مكتب جريدة « الشرق » في الرياض برغبة الأستاذ هشام حافظ أحد صاحبي الجريدة بأن أتحدَّثَ إلى قرائها برأيي ، فأوضحت له بأنني لم أُلـمّ بالموضوع من جميع نواحيه ، ولم اطلع على آراء الدكتور الصليبي اطلاعاً يمكّنني من تناولها من جميع جوانبها بما أراه حيالها .

فوعد بأنه سيتصل بإدارة الجريدة للحصول على ما رغبت الاطلاع عليه مما فيه إيضاح وافٍ لتلك الآراء .

ثم أكرمني أحد تلاميذي البررة وهو الأستاذ إبراهيم بن عبد العزيز السويلم بمقالات نشرت في صحف مختلفة في الكويت وفي اليمن وفي بلادنا كلها تتعلق بنقض آراء الصليبي — وحَبّذَ الابنُ الكريم الأستاذ إبراهيم الكتابة في الموضوع ، فلما تصفحت تلك المقالات رأيت في أحدها أن اسمي قد زُجَّ به زجًّا لا أدري ما حقيقته ، فقد جاء في مقال للأستاذ فيصل السماك في جريدة « الشرق الأوسط » — ع ٢٢٢٦ تاريخ ١٤٠٥/٤/١٠هـ — ما نصه : (أيُّ صدفة تلك التي جعلت الدكتور الصليبي يعثر على المعجم الذي فيه أسماء المدن والقرى اليهودية في منطقة عسير ؟ .

وأين عثر الدكتور الصليبي على هذا المعجم وفي أيِّ مكتبة .. وأي بلد .. ؟ وما اسم هذا المعجم ، ومن هو مؤلفه ؟ .

وليسمح لنا الدكتور الصليبي أن نوفر عليه مشقة الإجابة ، وأن نكشف الحقيقة كما استطعنا التوصل إليها وهي :

أن الصدفة التي يدعيها الصليبي في حصوله على المعجم ليست صحيحة ، وهو يعرف ذلك تماماً .. !!

إن اسم المعجم الذي افتعل حوله كل هذا الضجيج هو « المعجم الجغرافي التاريخي للبلاد العربية السعودية » ومؤلفه هو علامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر ، ومقدمة هذا المعجم في ثلاثة أجزاء . وقد حصل عليه الصليبي من مكتبة الجامعة الأمريكية في بيروت ، وبالتحديد منذ عامين وأربعة شهور ، وكان هذا المعجم قد وزع على جميع مكتبات الجامعات في لبنان .

وباستطاعة الصليبي الحصول على نسخة جديدة من هذا المعجم من مكتبة (الرسالة الإسلامية) ساعة يشاء ..!!)

بل سمعت ما هو أعجب وأغرب ، فقد حدثني أستاذ جليل بأنه قد جرى في مجلس عميد في إحدى جامعاتنا الحديث في الموضوع ، فتطرق إلى ذكر كتاب « المعجم الجغرافي » فاتخذ أحد الحاضرين ممن يحلو له (الاصطياد في الماء العكر) من ذكر اسم الكتاب ذريعةً لتناوله وتناول مؤلفه بما عرف عنه من خلق .

كما زُجَّ باسم أخي الأستاذ عبدالله بن خميس أيضاً في كلام منسوب للدكتور الصليبي ، نشرته جريدة « القبس » الكويتية — في العدد ٤٤٨٩ الصادر بتاريخ ١٨/٢/١٤٠٥هـ (١٢/١١/١٩٨٤م) .

كان الدكتور الصليبي قد دُعِي لحضور المؤتمر الثاني لتاريخ الجزيرة العربية الذي عقدته (جامعة الملك سعود) في الرياض عام ١٣٩٩هـ (١٩٧٩م) بصفته (رئيس إدارة الآثار والتاريخ في الجامعة الأمريكية) فذكر أنه اجتمع أثناء انعقاد ذلك المؤتمر بالأستاذ عبدالله، الذي قدم له نسخة من كتاب « معجم اليمامة » حين جرى البحث في أصل كلمة (حضرموت) وأنه وجد في « المعجم » اسم (خضرمات)وهو جمع مؤنث سالم لاسم (خضرمة) وحاول الربط بين (خضرمات) و (حضرموت) . وأنه لما عاد إلى بيروت بدأ في البحث عن أسماء الأماكن

العربية ، فاتضحت له الصلة بين كثير من الأسماء الواردة في التوراة وبين أسماء بعض المواضع في منطقة عسير ، وما يليها شرقاً وغرباً ، فاتجه إلى دراسة تاريخ التوراة ، وخرج من ذلك بكتابه عن المواضع الواردة فيها .

لا مندوحة إذَنْ – والأمر كما أوضحت – من الكتابة عما انطبع في الذهن إثر قراءة ما وقع في يدي مما نشر في الصحف حول آراء هذا الرجل الذي لا أدري بما أصفه ، ولا أدري ما هي البواعث لإثارة أفكاره التي أقلّ ما توصف به أنها مخالفة لجميع الحقائق العلمية الثابتة منذ أقدم العصور ، مما أتت به الكتب السماوية ، أو توصل إليه العلماء من حقائق تاريخية .

وإنسان يأتي برأي يدرك مصادمته للحق الثابت ليس من المستطاع إقناعه ، ولا شك أن الدكتور الصليبي ليس من السذاجة وعدم المعرفة بالدرجة التي تجعل من السهل تبصيره بالحقائق ، بالاستدلال بالنصوص والآراء الصحيحة ولهذا فإيراد النصوص والاستدلال بكلام متقدمي العلماء لايُجدي نفعاً مع امرىء يدرك أنه أتي بما يصادم جميع ذلك عن عَمْد وسبق إصرار ، وأنه بلغ من العلم – فيما أتي به – مالم تبلغه الأوائل – بلْ والأواخر .

ولكنني لاأعتقد أن الغرور يبلغ بباحث يتولى مركزاً علمياً بارزاً ويحمل من الدرجات العلمية في هذا العصر أعلاها – يبلغ به حالةً تدفعه إلى المكابرة ورفض الحقائق البدهية التي أعتقد أنه لم ينتبه إليها أثناء بحثه لموضوعه، ثم خروجه بما خرج به من نتيجة باطلة ، جاءت في رأيي بدون إدراك لتلك الحقائق .

الحقيقة الأولى : مما لاشك فيه لدى الباحثين أن التوراة التي بين أيدي الناس اليوم ، ليست الكتاب الذي أنزل على موسى – عليه السلام – وإنما ألفها الأحبار وجمعوها في فترات مختلفة ، كما يعترف بذلك علماء اليهود أنفسهم كالعالم الصهيوني (سيجموند فرويد) صاحب كتاب « موسى والتوحيد » وغيره من العلماء من أهل الملل الأخرى ، بل إن هناك من العلماء من يرى بأن من بين أسفار التوراة ماهو عربي الأصل ضمه الأحبار إليها ، مثل « سفر أيوب » الذي أوضح بعض العلماء المعاصرين أنه نقل إلى العبرية من اللغة العربية كالمستشرق

الانجليزي (مرجليوث) ـ أنظر كتاب « العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي ٢٥٢/١ ـ وفي الأسفار الأخرى كثير مما أدخله الأحبار من عادات الشعوب واخبارهم ومن ذلك أسماء مواطنهم ، بسبب المخالطة والاتصال أثناء الأسفار .

ولهذا فإن استناد الدكتور الصليبي على التوراة المعروفة الآن استناداً على غير أساس .

ثم الاستدلال بما فيها من الأسماء مع ما هو معروف من أن أسماء المواضع تتشابه وتتكرر مع اختلاف مواقعها ـ استدلال غير صحيح ، وهذا من الأمور البدهية .

الحقيقة الثانية: مما فات الدكتور الصليبي ـ أثناء استنتاجاته لآرائه تلك ـ محاولة الربط الزمني بين مواضع ورد ذكرها قبل ثلاثة آلاف من السنين ، وبين مواضع قائمة في زمننا ، أكثرها نشأ في عصور متأخرة ، فهو لم يحاول عند ايراد اسم من أسماء المواضع التي ذكرها البحث عن نشوء ذلك الاسم ومتى كان ؟ وما هو معناه ! ولماذا سمي الموضع بهذا الاسم ؟ .

ولو بحث هذا الأمر بتعمق لأدرك أنه يسير ـ فيمااستنتج على غير هدى ، وهذا ماسأعرض له بالتفصيل بعد عرض نماذج من أسماء المواضع التي ذكرها .

الحقيقة الثالثة : أن أسماء المواضع التي أوردها محاولا الربط بينها وبين ماورد في التوراة ـ مما نشرته الصحف التي اطلعت عليها ، وقد نشرت خلاصة آرائه آرائه وأفكاره ـ لا نجد لها ذكراً في الكتب القديمة باستثناء اسم فرع حديث لإحدى القبائل ، ظنه اسم موضع ، فكيف يصح له أن يستنتج فكرة بدون أن يستكمل قواعد استنتاجها ؟ !

الحقيقة الرابعة : أنه لم يفرق بين أسماء المواضع وأسماء أفخاذ العشائر ، فقد أورد منها ما ظنه من أسماء المواضع ، والجهل بالأسماء إلى هذه الدرجة يحول دون استنتاج نتائج ذات قيمة علمية .

وما هي الأسماء ، بل ما هو نمط من تخليط الباحثين في عصرنا وأغاليطهم ، ما كنت أوَدّ الاشتغال – أو الاشغال – بالحديث عنها ، فهي جديرة بأن تُوْأد ، ووأدها في إهمالها وتجاهلها – ككثير من الأفكار الفجة في كل زمان ومكان – فقد ينشأ عن الخوض فيها بلبلة في الأفكار ، وإظهارها بمظهر ليست جديرة به .

لقد اتخذ الدكتور الصليبي من تشابه الأسماء وتقاربها في الكتابة والنطق أساساً لأرائه ولهذا سأحصر ملاحظاتي في الناحية الجغرافية منها .

لقد خرج من دراسته المتعلقة بالأماكن بنتائج منها :

١ – أن حبرون مدينة إبراهيم – عليه السلام – على ما في التوراة تقع في بلاد عسير وتعرف الآن باسم (خربان) التي وصفها بأنها في عسير وذكر قرية (مقفلة) أنها قريبة من قرية خربان ، والقرى الأربع قرية آل سبلان وقرية الشباب وقرية عاصية وقرية عامر .

٢ – وصهيون مدينة داود – عليه السلام – حسب رواية التوراة أيضاً هي قرية (الصيان) الواقعة غرب أبها .

٣ – وأورشليم : تقع في منطقة آل شريم وأوراسلام من عسير .

٤ – والوادي المقدس طوى الوارد في القرآن الكريم هو قرية (طوى) الواقعة في وادي بقرة المنحدر من جبل هادي في تهامة عسير ، وفيه نزلت سورة البقرة .

٥ – وحورب الذي نزل فيه الوحي على موسى – عليه السلام – على ما في التوراة هو (حارب) في سفح جبل هادي .

٦ – واسم الأردن النهر المذكور في التوراة باسم (يردن) أو (هردن) مأخوذ من كلمة (يرد) بمعنى سقط ومنه الريدة التي هي الحرف الناتيء من الجبل ، واذن فليس اسم نهر في مكان معين ، بل وصف لأمكنة عدة ، وهذا ينطبق على الحروف الناتئة من سراة عسير الممتدة من جنوب الطائف إلى مشارف اليمن .

٧ – ويرحو الاسم الوارد في التوراة ليس أريحا بل (وراخ) القرية الموجودة الآن على حرف نائيء من سراة زهران .

٨ – ويردن الاسم الوارد في « سفر الملوك » من التوراة (٥ : ١ – ١٤) ليس حرفاً لجبل ، بل كلمة (يردن) هنا مشتقة من (يرد) العربية فهي تعني المورد وهو هنا مجمع مياه في وادي نعص قرب قرية شمران شرق القنفذة .

٩ – وجنة عدن : هي الجنينة الواقعة بمنطقة بيشة .

١٠ – والسامرة : هي شمران .

١١ – وعمورة : هي غمرة .

١٢ – ومصر : المتكرر ذكره في أخبار التوراة هو (مصر ما) القرية التي قال عنها : إنها بين أبها وخميس مشيط .

١٣ – وعدنة التي على وادي بيشة : هي عدن .

١٤ – (تيهوم) : (تهامة) .

هذه هي الأسماء التي اطلعت عليها مما ورد في الآراء المنسوبة إلى الدكتور الصليبي ، وقد حاول أن يوجد صلةً بينها وبين أسماء وردت في التوراة التي بين أيدي الناس ، ولكن الآراء التي أتى بها للربط بين تلك الأسماء مما يدرك أي قاريء لم يبلغ من الثقافة ما يمكنه من التعمق في البحث في معاني تلك الأسماء وفي أصول اشتقاق مفرداتها اللغوية ، يدرك انتفاء الصلة بينها فضلاً عن باحث مختص بالدراسات اللغوية والجغرافية ، فهل أتيَ الدكتور الصليبي بما وقع فيه من أخطاء من عدم تعمقه في البحث في معاني تلك الأسماء ؟ أو من قلة فهمه لتلك المعاني ، أو أنه لم يلاحظ أن أسماء المواضع في هذا العهد وفي العهود الغابرة أكثرها مشتق من صفات تتطابق وتتفق على مسميات كثيرة متباعدة ، كما أن شيوع أسماء المواضع المتماثلة في أماكن متعددة في مختلف أقطار الأرض ، موجود في كل زمان ومكان ، بسبب الاختلاط والتنقل بين الشعوب .

١ ــ أن اسم (خربان)التي وصفها بأنها في عسير ليست معروفة في هذه المنطقة بالذات ، بل في منطقة أخرى .

مع أن الاسم مشتق من (خرب) فالموضع الذي يبدأه الخراب أو يكون خَرِباً في أول الأمر يوصف بأنه (خربان) وهذا من الأسماء الشائعة ، ولهذا نجد هذا الاسم وما شابهه مما اشتق من تلك الكلمة يطلق على تسع عشرة قرية في مناطق مختلفة ، فاسم (الخربان) و (خربان) يطلق على خمس قرى و (الخرب) اسم لأربع و (الخرباء) و(خرباء) لِسِتّ قرى و (الخرابة) اسم لأربع قرى .

أما القول بأن (مقفلة) قريبة من قرية خربان التي في عسير ، فلا أدري من أين أتى الصليبي بهذا القول، فمقفلة القرية المعروفة تقع في منطقة القنفذة التابعة لإمارة مكة المكرمة وليست في عسير .

وكذلك القرى الأربع التي عدها بالقرب من خربان الذي زعم أنه في بلاد عسير ، هذه القرى الأربع هي من قرى آل المنتشر في وادي العرضية الشمالية في منطقة القنفذة التابعة لإمارة مكة المكرمة .

٢ ــ وما سماه قرية (الصيان) لعله يريد (قعوة الصيان) ، والصيان هنا ليس اسماً للقرية بل اسم فخذ من قبيلة ألْمع ، التي تكثُر فيها القرى التي تدعى (قعوة) ، ومنها قعوة آل تمام وقعوة العطف وقعوة آل سعوان وقعوة شعبي وقعوة شعوان وقعوة شهدان وقعوة الصيان وقعوة آل عاطف وقعوة آل ناطف ، وكل هذه الأسماء هي أسماء لأفخاذ حديثة من قبيلة ألمع ، ومنها الصيان ، فهو اسم لفخذ لا يتجاوز تاريخه مئات السنين ، فضلاً أن يبلغ آلافها .

٣ ــ وكما خلط بين اسم الموضع واسم الفخذ ، فعل ذلك حينما ذكر (آل شريم) فالاسم ليس اسم قرية بل اسم فخذ صغير من أفخاذ قبيلة الحَجْر وآخر من قبيلة بالقرن وهما حادثان لم يكونا معروفين في شيء من كتب الأنساب التي أُلِّفَتْ قديماً .

أما (أروا سلام) فلا أعرف من أين أتى بهذا الاسم ، وهناك فخذ من آل عمر من رجال الحَجر في منطقة تنومة يدعى (آل عمر أروا) فلعله يعنيه ، وهو اسم فخذ لا قرية .

٤ ـ واسم (طوى) الذي تخيله الوادي المذكور في القرآن الكريم ، لم يحسن نطقه الصحيح ، فهو (الطَّوَا) ـ بالفتح معرفاً ـ وهذا كما هو معروف في اللغة خلاف (طوى) الوادي المقدس الذي يكاد يجمع العلماء على تحديد موقعه ، ويأبى الدكتور الصليبي مع سبق الإصرار إلا مخالفتهم ، بذكر موضع حادث لم يذكره أحد ممن ألَّف في تحديد المواضع من متقدمي العلماء كالهمداني صاحب « صفة جزيرة العرب » وياقوت الحموي صاحب « معجم البلدان » والبكري صاحب « معجم ما استعجم في أسماء المواضع » وغيرهم .

ومن المضحك بل المخزي حقاً لمن يحترم نفسه أن يتصدى لتخطئة كل العلماء ثم يحاول الربط بين واد مغمور مجهول سمي حديثاً باسم فخذ من عشيرة بني شهر من قبيلة الحجر يدعى (بقرة) يحاول الربط بين هذا الوادي المسمى حديثاً وبين السورة الكريمة (البقرة) التي ورد النص فيها صريحاً واضحاً على الحيوان المعروف .

لقد ظن ـ والظن أساس الخطأ ـ أن اسم هذا الوادي يرقى إلى آلاف السنين ، ولم يكلف نفسه عناء البحث عنه في المصادر الجغرافية ليدرك أنه من الأسماء الحادثة التي لم تكن معروفة حين تدوين ما بين أيدي العلماء من تلك المصادر ، إن كلام الدكتور الصليبي لمحاولة الربط بين وادي طوى ونزول سورة البقرة هو أقرب إلى المغالطة منه إلى الحقيقة العلمية .

٥ ـ ويقال مثل ما تقدم في محاولة إيجاد صلة بين (حورب) الذي نزل فيه الوحي على موسى ـ عليه السلام ـ على ما في التوراة التي بأيدي الناس ، وبين (حارب) الجبل الذي في سفح جبل هادي ، ثم الربط بين هذا وبين ما سماه الصليبي (طوى) بقرب ذلك الجبل .

ويلاحظ أن اسم حارب يطلق على قريتين إحداهما من قرى وادي بقرة في تهامة والأخرى من قرى قبيلة يام في نجران .

٦ – ويحاول الدكتور الصليبي تعليل بعض الأسماء الموجودة في التوراة مما لا أصل له في اللغة العربية ثم يتمحّل لها أصولاً عربية مما يعتبر تخبطاً وسيراً على غير هدىً كما فعل بكلمة (يردن) و (هردن) حيث أورد لها معنيين متغايرين ، زعم أن أحدهما مأخوذ من كلمة (يرد) بمعنى سقط وهذا مما لم يذكر في « لسان العرب » .

وما أيسر السير على طريقة الدكتور الصليبي ، في العبث بجميع الأسماء الأعجمية لتصبح عربية مما يذكر بأضحوكة (الشيخ زُبَير) و (شكسبير) .

٧ – زعم أن (وراخ) قرية موجودة على حرف نائيء من سراة زهران .

ولقد سرت في تلك السراة وألّفْتُ عنها كتاباً فلم أرَ ولم أعرف قرية بهذا الاسم كما أن أحد أبناء هذه القبيلة قد ألف كتاباً جمع فيه كل ما عرف من أسماء قرى سراة غامد وزهران، فلم يذكر من بينها (وراخ) ، هو الأستاذ علي بن صالح الزهراني وكتابه عن بلاد غامد وزهران ، أحد أقسام « المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية » الذي أشرفت على نشر عدد من أقسامه .

وإنما (وراخ) وادٍ معروف شرقي السراة تنحدر فروعه من سلسلة جبال عيسان المتصل بالسراة ويمتد الوادي من الغرب من قرب قرية معشوقة ، فيتجه شرقاً حتى يجتمع بوادي كَرا قرب قرية عينين (فيما بين خطي العرض ٣٠ ٢٠/° و ٤٨ ٢٠/°) وكتب اسمه في الخريطة رقم ٢١٠ من «أبحاث جيولوجية » خطأ باسم (أوراخ) هذا الوادي ليس من قرى سراة زهران ، بل فروعه في بلاد غامد وأسفله في بلاد البقوم .

٨ – لا أعرف ولم أر فيما بين يدي من الكتب المؤلفة عن جغرافية بلادنا ما سماه الدكتور الصليبي (يردن) وقال إنه مجمع مياه في وادي نعْمَص قرب قرية شمران شرق القنفذة ، ولا أدري من أين أخذ هذا ؟ ولكن لو كان

هناك مجمع مياه يورد لأصبح مشهوراً ومعروفاً وهذا مالم أسمع به ، ووادي نعص من أودية تِهامة المعروفة وسكانه من بني شِهرٍ من قبيلة الْحَجْر .

٩ – يظهر أن الدكتور الصليبي لم يدرك أن كلمة (الجنينة) – تصغرجنة – هي من الكلمات المشتقة من الوصف ، فهي تعني الحديقة ولهذا تكررت التسمية بها ، ففي منطقة نجران وفي منطقة بيشة قريتان حديثتا التسمية ، وفي وادي التسرير في نجد ثَنْيٌ من أثنائه يدعى الجنينة ، وهذا قديم ، ورد في قول الشاعر :

قال الأطباء :ما يشفيك؟ قلت لهم: دخان رِمْثٍ من التسرير يشفيني
مما يضم إلى عمرانَ حاطبُـــهُ إلى الجنينة جزلاً غير موزون

فالموضع الذي يكثر نباته أو يَزْدَهِر بالخصب أو يعجب أهله يسمى جنة وجنينة ، ومن ذلك اسم القريتين ، وهما حديثا العهد ، ولم يذكرا في المعاجم المعروفة .

هذا بصرف النظر عن تأويل الصليبي المصادم لنصوص الكتب السماوية .

١٠ – وأورد في الخريطة التي رسمها في توضيح آرائه اسم (شمران) وكتب تحتها (السامرة) رسم الاسم غرب منطقة بيشة حيث تحل قبيلة شمران، فخلط بين اسم القبيلة واسم الموضع ، ولم يدرك أن قبيلة شمران هذه لم تكن قبل ما يقرب من تسعة قرون في هذه البلاد وإنما كانت منازلها مع إخوتها من فروع قبيلة مَذْحِج سَنْحَان وجَنْبِ وغيرهما في سفوح السراة الشرقية الجنوبية شرق سراة عبيدة الآن .

وما يتحدث عنه له آلاف السنين ، والذي أوقعه في الخطأ أنه لم يفرق بين اسم قبيلة من طبيعتها التنقل ، وبين اسم موضع ثابت .

هذا مع التكلف في محاولة إيجاد صلة بين الاسمين بسبب تقارب مخارج حروفهما .

١١ – وفي الخريطة اسم (عمورة) وتحته اسم (غمرة) في منطقة بلاد

عسير ،وكأنّ الدكتور الصليبي يرى اسم غمرة هو عمورة، مع أن اسم غمرة من الأسماء التي تطلق على عدد من القرى ، فهناك قرية بمنطقة حائل وأخرى في واد معروف بهذا الاسم من أودية خيبر ، وثالثة من مناهل البادية في منطقة ظبا وأربع قرى بهذا الاسم في بلاد قبيلة ألمع من بلاد عسير .

ويظهر أن الصليبي عنى إحدى قرى ألمع ،ولكن على أي أساس بنى حكمه بأن إحدى تلك القرى هي عمورة المذكورة في التوراة ، لا شيء سوى تقارب الحروف في النطق وهذا لا يصح اتخاذه قاعدة تبنى عليها آراء وتستنتج منها نتائج علمية ، وهذا مما يدرك بأدنى تأمل .

١٢ — لا أدري من أين أتى باسم (مصرما) القرية التي وصفها بأنها بين أبها وخميس مشيط ، وحكم بأنها (مصر) المتكرر ذكره في أخبار التوراة .

ومن المعروف أن اسم مصر عند الاطلاق لا ينطبق إلا على الاقليم المعروف .

وقد يسمى غيره بهذا الاسم ، فهناك قرية من قرى تبالة بمنطقة بيشة تسمى مصر ، ويقال بأن بقرب أبها قرية دارسة بهذا الاسم أيضاً ، ولعل التسمية هذه حدثت أخذًا من الآية الكريمة ﴿ادخلوا مِصْرًا فإنَّ لكم ما سألتم﴾، فكلمة مصر وصف وليست علماً ، ومن الأمثال المتداولة الآن : (كل دبرة عند أهلها مصر) .

إلا أنني لا أعرف هذه القرية التي سماها (مصرما) .

١٣ — ورسم في الخريطة أيضاً على وادي بيشة اسم (عدن) وتحته (عدنة) أي أن القرية التي تقع في منطقة بيشة هي (عدن) المذكورة في التوراة .

وأنا لا أعرف قرية في أعلى وادي بيشة بهذا الاسم بصرف النظر عن الخطإ الفاضح في الربط بين الإسمين .

واسم عدنة يطلق على قريتين إحداهما من قرى شِمْران في وادي العرضية الشمالية بمنطقة القنفذة ، والأخرى من قرى العصمان في وادي إضم بمنطقة الليث .

ومن قرى منطقة بيشة قرية العدنة ـ بالتعريف ـ وهذه من قرى تَبَالة في أسفل وادي بيشة غرب قاعدة الوادي .

١٤ ـ واتخذ الباحث من التشابه الحرفي بين كلمتّي (تيهوم) و (تِهامة) إلى ما دفعه إلى أن يجزم بأن المقصود بالكلمة الأولى هي المنطقة المعروفة باسم تِهامة .

وما أوسع هذا الباب او أردنا الدخول منه ، لحكمنا بأن آلاف الكلمات الأعجمية وما هو أكثر من آلاف ، هي كلمات عربية متى أغفلنا ما يوضح الكلمة المراد فهمها وإيضاحها من قرائن ، أو أردنا صرف فحوى تلك القرائن إلى ما نهواه ونريده بطريق التعنت وتحميل الألفاظ من المعاني ما لا تحتمل .

ومن الممكن أن تُعْزَى جُلُّ أوهام الدكتور الصليبي إلى أمر واحد أشارت إليه جريدة « صنداي تايمز » اللندنية في مقال نشرته عن كتابه بتاريخ ١٢/٨/ ١٩٨٤م بما تعريبه : (لا يزال العديد من المدن والقرى تحمل أسماء تعود إلى قديم الأزل) وهذا ما توهمه الدكتور الصليبي حين قال فيما نقلته عنه تلك الجريدة : (كنت أبحث عن أسماء الأماكن ذات الأصل غير العربي في غربي شبه الجزيرة ، وإذ الدليل أن أرض التوراة كلها كانت هناك يفاجئني ، فتقريباً جميع أسماء أماكن التوراة كانت مركزة في منطقة طولها ست مئة كيل وعرضها مِئَتَا كيل) .

من هنا وقع في الخطأ حيث ظن أن أسماء تلك الأماكن موغلة في القدم ، وأنها من غير أصل عربي ، ومن ثَمّ راح يحملها من المعاني ما لا تحتمل ويصرفها عما وضعت له في الأصل ، ويخلط بين أسماء القرى وأسماء السكان .

إنه لم يدرك أن أكثر المدن والقرى تحمل أسماء حديثة وأن كثيراً من المواضع عُمِرت وأنشئت في أزمنة متأخرة ، وليس الأمر كذلك بالنسبة لكثير من الأقطار الأخرى كالشام (سورية ولبنان وفلسطين وشرق الأردن) ومصر وغيرهما ، إذ تلك الأقطار غالب سكانها من الحضر المستقرين الثابتين فيها ،

وهو يذكر في المقدمة أنه رجع إلى « المعجم الجغرافي » المختصر الذي ألفته ، وهو كتاب يحوي (١٦١٠٦) من أسماء المدن والقرى والأماكن المسكونة في بلادنا، وضعته مقدمة للمعجم الكبير الذي دعوته بذلك الاسم ،وصدر منه تسعة عشر مجلداً ، ولكنني في الكتاب الذي رجع إليه الصليبي لم أورد شيئاً من المعلومات الجغرافية بل سردت الأسماء سرداً ، مع ذكر مناطقها وما ترتبط به من الإمارات (الإدارية) بدون تحديد جهاتها نقلاً من سجلات أعدتها (وزارة الداخلية) و (إدارة الإحصاء العامة بوزارة المالية) .

ويسرني حقاً أن يستفيد أيُّ قارىء مما أؤلفه لأن هذا لا يضيرني ، فرجوع المنحرف عن الطريق السويّ — أي منحرف كان — إلى أي كتاب من الكتب لا يعتبر مطعناً في ذلك الكتاب ولا يصح اتخاذه وسيلة للنيل ممن ينسب إليه الكتاب كموقف ذلك الجاهل المتعلم الذي سبقت الإشارة إليه في أول الكلام .

والصليبي نفسه قد رجع إلى كتاب الله ﴿الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ كما رجع إلى كتب أخرى .

ويظهر أن تلك المعلومات المتعلقة بوصف القرى التي ذكرها مما استفاده أثناء وجوده في هذه البلاد أثناء انعقاد الندوة العالمية الثانية لتاريخ الجزيرة في شهر جمادى الأولى سنة ١٣٩٩هـ (نيسان ١٩٧٩م) التي شارك فيها وألقى بحثاً عن (الإطار الخارجي لجاهلية العرب) أثار من المناقشة ما حمله على كتابته بأسلوب آخر ، ثم نشر في المجلد الذي صدر عن تلك الندوة بعنوان « دراسات تاريخ الجزيرة العربية — الكتاب الثاني الجزيرة العربية قبل الإسلام» من ص ٣١٣ إلى ٣٢٩ .

والغريب في الأمر بالنسبة للدكتور الصليبي سرعة تغير آرائه فهو في كتابه الأخير يناقض كثيراً من تلك الآراء التي عرضها في بحثه المشار إليه ، والذي حاول فيه إرجاع كثير من العوامل التاريخية إلى مؤثرات اقتصادية .

وساعود للحديث مرة أخرى .

حمد الجاسر

بل ولد في مكة.. صلى الله عليه وسلم

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾
صدق الله العظيم

ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم في جوف مكة على مقربة من الكعبة المشرفة : في بيت أبيه وجده عبد المطلب الواقع بشعب بني هاشم قرب سوق الليل ، وهو مكان لا يزال معروفاً إلى يومنا هذا .

وكانت منازل أهل مكة زمن ولادته صلى الله عليه وسلم تحيط بدارة الكعبة : تقترب منها وتبتعد عنها وفقاً لمكانة كل أسرة وفخذ من جلال خطر وجليل مقام ، فكان القرشيون أقربهم إليها داراً وأكثرهم بها اتصالا ، كما كانت لهم سدانتها وسقاية زمزم وكل ألقاب التشريف (أ) وفيما وراء منازل قريش تجيء منازل القبائل التي تليها في المكانة والخطر ثم تلي هذه المنازل من دونهم حتى تكون منازل العبيد والحلفاء ، وكان النصارى واليهود بمكة في ذلك الوقت عبيداً فكان مقامهم بآخر المنازل وأبعدها عن الكعبة المشرفة ، وهي المتاخمة للصحراء[(١)] .

تقول الآية الكريمة :﴿ وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾ [(٢)] .

والقرية المقصودة في الآية الكريمة هي مكة المكرمة ، واضافتها إلى النبي تؤكد أنها البلدة التي ولد فيها صلى الله عليه وسلم ، فالعرف لم يجر على نسبة

القرية إلى إنسان لم يولد فيها .. بل لابد أن يكون قد ولد فيها ، أي أنها مسقط رأسه .

وتقول الآية الكريمة : ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾[٣] .
والمعاد هو مكة المكرمة ولو لم تكن مكة البلد الذي ولد فيه صلى الله عليه وسلم ما بشره الله بأنه سوف يرده إليها : وقد ورد في سبب نزول هذه الآية الشريفة : أن النبي صلى الله عليه وسلم رضي بمفارقة مكة المكرمة وهي أحب بلاد الله تعالى إليه في سبيل نشر الإسلام وإقامة دعائم الدولة الإسلامية بعد أن استحال عليه ذلك بسبب تعنت قريش وعنادها وجحودها وإصرارها على وثنيتها وكفرها ، وقد نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خروجه مع صاحبه الصديق مهاجرين ، نظر إلى مكة وإلى بيتها العتيق وقال : « والله إنك لأحب أرض الله إلي .. ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت » .

وبعد فترة من السير اشتاقت نفسه إلى مكة فذكر مولده ومولد أبيه وأمه فيها فنزل جبريل عليه السلام وسأله : اشتقت إلى بلدك ومولدك ؟ فقال عليه أزكى الصلاة والسلام : (نعم) فنزلت الآية : ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾ — والأمر الذي يتوجب علينا أن نركز عليه هنا : هو قول جبريل عليه السلام : (اشتقت إلى بلدك ومولدك ؟) فهذا يعني أن مكة هي بلده صلى الله عليه وسلم وهي مولده .

نعم لقد ولد رسول الله في مكة وقد أجمعت روايات شيوخ كتاب السيرة على ذلك : فقد قال ابن حزم الأندلسي في عبارة قاطعة (ولد صلى الله عليه وسلم في مكة[٤] .

وقال ابن هشام (ولد بالشعب في الدار التي كانت عند الصفا وكانت بعد لمحمد بن يوسف أخي الحجاج ثم بنتها زبيدة مسجداً حين حجت[٥] وذكر ابن سيد الناس مثل هذا[٦] ،وكذلك أورده السهيلي[٧] وابن سعد[٨] وقد أضاف

ابن هشام تحت عنوان (أعلام جده عبد المطلب بولادته صلى الله عليه وسلم) فقال : (فلما وضعته أمه أرسلت إلى جده ـ أنه قد ولد لك غلام فأتِه فانظر إليه فأتاه فنظر إليه . وحدثته أمه بما رأت حين حملت فيه وما أمرت أن تسميه) وقد فرح جده وأخذه فدخل الكعبة وقام يدعو الله ويشكره على ما أعطاه منشداً :

الحمـــــد لله الـــذي أعطـــاني
هـــذا الغـــــلام الطيـــب الأردان
قـــد ســـاد في المهـــد على الغلمـــان
أعيـــذه بالبيـــت ذي الأركـــان
حتى أراه بـــالـــغ البنيــــان
أعيذه من شـــر ذي شنآن
مـــن حـــاسد مضطـــرب الجنـــان[9]

ورد عبد المطلب الوليد الكريم إلى أمه ثم أمر بأن تنحر الذبائح وتولم الولائم ويطعم الناس في الحرم ، وقد أطلق عبد المطلب على حفيده اسم محمد ـ وكانت أمه قد رأت فيما يرى النائم بعد أن حملت به ـ كأن نوراً قد خرج منها أضاءت به قصور بصرى من أرض الشام .

وفي رواية أن أم عثمان بن أبي العاص الثقفي[10] كانت مع آمنة رضي الله عنها أوان السحر من ليلة الإثنين ـ فأحست بشيء من الخوف ولكنها ما لبثت أن شعرت بنور يغمر دنياها ـ ثم زاولها الخوف فتجلدت للحظة الحاسمة : وما كاد نور الفجر يطلع حتى كانت آمنة قد وضعت وليدها الكريم .

وتقول أم عثمان : (فما من شيء أنظر إليه من البيت إلا نور وأني لأنظر إلى النجوم تدنو مني حتى إني لأقول : لتقعن علي) .[11]

وفي صحيح البخاري وردت قصة عتق ثويبة جارية أبي لهب عم النبي التي لم تكد توافي سيدها ببشرى المولد حتى أعتقها ـ وليس بمعقول أن تستطيع

ثويبة نقل الخبر إلى سيدها في الساعة نفسها لو لم يكن البيت الذي تمت فيه الولادة قريباً من بيت أبي لهب أي في الشعب نفسه ، ثم إن هنالك ما يؤكد أن بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيت أبي لهب كانا متجاورين في شعب واحد : وهو ما روى عن أم جميل زوج أبي لهب وكيف أنها كانت تلقي بالقاذورات ومحتويات الكروش أمام بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم – وكانت تحمل الحطب والأشواك وتطرحها على طريقه صلى الله عليه وسلم حين يمر : وقد أنزل الله سبحانه وتعالى في زوجها وفيها الآيات ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد ﴾ (١٢) .

هذا وقد قال شيخنا الجليل العلامة الأستاذ حمد الجاسر في كلمته المنشورة بمجلة العرب الغراء عن الآثار الإسلامية : (فالرسول عليه الصلاة والسلام من أهل مكة – لا شك في ذلك – وبنو هاشم عشيرته الأقربون كان ربعهم معروفاً في الشعب الذي عرف بهم ، ثم بأبي طالب والدار التي وقع فيها المولد كانت في ذلك الشعب . وكانت للرسول صلى الله عليه وسلم ، فلما هاجر استولى عليها ابن عمه عقيل ابن أبي طالب – كما في الحديث الشريف : (وهل ترك لنا عقيل من دار ؟) ومن هنا قال بعض العلماء ومنهم ابن القيم في كتاب زاد المعاد : (لا خلاف أنه صلى الله عليه وسلم ولد بجوف مكة) .

وعندما استعرض الطبري الأماكن التي تستحب زيارتها في مكة – ذكر الدار التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : (ان عقيل بن أبي طالب كان قد استولى عليها زمن الهجرة فلم تزل في يده ويد ولده حتى باعوها لمحمد بن يوسف) .

ولنأخذ مما أورده شيخنا العلامة الجليل الأستاذ حمد الجاسر خيط نور نستضييء به في بحثنا هذا فنقول :

المعروف أن والد نبينا الكريم هو عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضير بن كنانة (ب) بن خزيمـــة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معـــد بن عدنان من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

والمعروف أيضاً أن أبا الأنبياء عليه السلام جاء بولده إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر رضي الله عنها إلى مكة وأنه تركها في رعاية الله سبحانه وتعالى ثم مضى ، وأن زمزم تفجرت تحت قدمي إسماعيل عليه السلام ، وأن المنطقة عمرت بعد ذلك ووفدت إليها قبيلة جرهم واستقرت فيها ثم وفد العماليق وغيرهم وتحول المكان المقفر المجدب إلى بلد ينبض بالحياة .. بل تحول إلى جنة من جنات الأرض — والمعروف كذلك أن إسماعيل عليه السلام قد اشترك مع أبيه في رفع القواعد وبناء الكعبة وقد أصبحت مكة بعد بناء الكعبة عاصمة دينية كبرى ومركزاً تجارياً هاماً .

وأن إسماعيل عليه السلام قد تزوج وأنجب وأن أمه ماتت ودفنت بحجر إسماعيل ثم لحق بها ولدها ، وبقي أولاده يقيمون في مكة ، وكانوا يجلسون في الحرم لتدريس الدين الحنيف وقد ظل هذا حالهم حتى طغت خزاعة وبغت وأرغمت البعض منهم على الخروج من مكة ولكنهم لم يلبثوا أن عادوا إليها ثانية واستقروا بها مع الموجودين بمكة : وقام جدهم قصي بتقريشهم أي تجميعهم في قبيلة واحدة سميت بقريش وقد عاشت هذه القبيلة في مكة وسادت على القوم ولم تغادرها بعد ذلك .

أما أمه صلى الله عليه وســـلم فهي آمنـــة بنت وهب بن عبد مناف (ج) بن قصي .

أي أنها من قريش هي الأخرى — وقد تزوج عبدالله منها حوالي (٥٦٩م) بعد قصة النذر والفداء المشهورة : وقد جرت أحداث تلك القصة في مكة وتم الزواج فور الفداء ونجاة عبدالله من الذبح .

تقول الكاتبة الدكتورة عائشة عبد الرحمن[١٣] تصف البيت الذي تم فيه زواج عبدالله بآمنة وذلك نقلا عن كتاب الرحلة الحجازية للبتانوني (٥) : (لم يكن البيت كبيراً ضخم البناء لكنه إذا قيس ببيوت مكة يومئذ عد رحباً مريحاً لعروسين يبدآن الحياة المشتركة ـ كان كما وصفوه ذا درج حجري يوصل إلى الباب يفتح إلى الشمال ويدخل منه إلى فناء يبلغ طوله نحو اثني عشر متراً في عرض ستة أمتار وفي جداره الأيمن باب يدخل منه إلى قبة : في وسطها بميل إلى الحائط الغربي ـ مقصورة من الخشب أعدت لتكون مخدع العروسين) .

وتكمل الدكتورة عائشة حديثها فتقول :

وبقي عبدالله مع عروسه أياماً لم يحدد لنا التاريخ عددها ولكنها عند جمهرة المؤرخين لم تتجاوز عشرة أيام ـ إذا كان عليه أن يلحق بعير قريش المسافرة إلى الشام . . ومضى شهر شعرت آمنة بعده بالبادرة الأولى للحمل : وقد اختلفت الروايات في المكان الذي حملت فيه آمنة .. بسيد البشر ، ففي قول أنها حملت به صلى الله عليه وسلم في شعب أبي طالب ممتد الجمرة الوسطى ـ قاله الزبير بن بكار ، وفي قول آخر أنها حملت به في بيت آلها بني زهرة ـ قاله ابن عبد البر وهو الأرجح .

ونحن نضيف إلى كلام الدكتورة عائشة ما قاله الدكتور محمد حسين هيكل[١٤] عن الباحث العالمي الفرنسي كوسان دبرسفال[١٥] الذي انضم بدوره إلى هؤلاء وقال : (إن محمدا ولد في أغسطس أي عام الفيل وأنه ولد في مكة بدار جده عبد المطلب) .

ونقل ابن هشام عن ابن اسحق قوله :[١٦] .

(أرسل عبد المطلب ابنه عبدالله إلى المدينة ليمتار لهم فمات بها ـ وقيل بل كان في الشام فأقبل في عير قريش فنزل في المدينة وهو مريض فتوفي بها قبل أن يولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال ابن الأثير مثل هذا القول أيضاً[١٧] .

وقد ذكرت أكثر من رواية أن عبد المطلب ذهب إلى آمنة وقد تقدم حملها للخروج من مكة مع قريش إلى الجبال وشعابها ليتحرزوا بها خوفاً من معرة الجيش الذي جاء به أبرهة الحبشي يريد هدم الكعبة : فرفضت آمنة الخروج من بيتها ، وقد عز عليها أن تضع وليدها في غير دار أبيه بعيداً عن البيت الحرام — وأخذت تدعو الله أن يرد أبرهة وجيشه مهزومين عن مكة المكرمة وكعبتها المشرفة .. وقد استجاب العلي القدير وهزم أبرهة وجيشه هزيمة منكرة بالطير الأبابيل .

والسؤال الذي يطرح نفسه علينا الآن هو :

إذا كانت آمنة رضي الله عنها لم تترك مكة أثناء الهول الحبشي ، ولم تفزع لقدوم أبرهة وجيشه ، وأصرت في إيمان على البقاء في مكة لتضع مولودها في بيت أبيه المجاور للحرم — فهل يعقل أن تترك مكة بعد أن زال عنها الخطر لتذهب إلى عسفان لتضعه هناك وحيدة غريبة بعيدة عن أهلها وأهل وليدها ؟؟

وما ينبغي لنا أن نختتم هذا البحث دون أن نسمع كلمة حليمة بنت ذؤيب السعدية أم الرسول صلى الله عليه وسلم التي أرضعته : فقد قالت :

(خرجت من باديتي مع زوجي وابن صغير أرضعه — في قسوة من بني سعد بن بكر نلتمس الرضعاء في سنة شهباء حتى قدمنا مكة : فما من امرأة إلا وقد عرض عليها محمد فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم[١٨] [١٩] [٢٠] .

وأيضاً ما ينبغي أن نختتم هذا الجزء دون تعليق على ما أورد شيخنا الجليل وأستاذ الجيل حمد الجاسر في نفس المجلة عندما قال : (والولادة وقعت في زمن الجاهلية : وليس هناك من يعتني بحفظ الأمكنة ، سيما مع عدم تعلق غرض لهم بذلك — وبعد مجيء الإسلام فقد علم من حال الصحابة وتابعيهم ضعف اعتنائهم بالتقييد بالأماكن التي لم يتعلق بها عمل شرعي .. إلخ ..) (هـ) .

وتعليقي على هذا يأتي في شكل تساؤل هو :

ألم يكن بين أهل الرسول وجيرانه وأهل مكة بعد ظهور الإسلام من عاصر مولده صلى الله عليه وسلم ويعرف مكان ولادته ؟ لقد كان هناك ولا شك من يعرف ذلك ويعلم علم اليقين أنه صلى الله عليه وسلم ولد في جوف مكة في البيت المجاور للحروم .

وأغلب الظن أن الذين تحدثوا عن مولده في غير مكة توهموا أن آمنة رضي الله عنها قد خرجت مع القرشيين اتقاء خطر الهجوم الحبشي ولكنها لم تفعل كما أوضحنا .

وبعـــــد :

فلا شك عند العلماء والمحققين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ولد في مكة المكرمة وفي شعب عامر المنطقة المعروفة الآن .. وذلك لأنها جاءت بالتواتر وعلى الرغم من أن العرب لم تكن تعني بمكان الولادة .. ولا بحفظ الأمكنة كما ذكر الأستاذ الكبير حمد الجاسر (و) .

إلا أنه صلى الله عليه وسلم بعد نزول القرآن وإبلاغ الرسالة وظهور دين الإسلام كان في مكة المكرمة من الرجال والنساء من يعرف .. أمه وأبيه .. وعشيرته .. وأين ولد ومتى ولد .. وكان صحابته صلى الله عليه وسلم يحرصون على جمع كل ما يتصل به .. ومعرفة من يتصل به عليه صلاة الله وسلامه .

وقبل بعثته صلى الله عليه وسلم .. كان قد لفت الأنظار بما عرف عنه من الأمانة حتى قالوا : (جاء الأمين) وكذلك من الخلق والاستقامة .. وكريم الحسب والنسب مما جعله محط أنظار الجميع .

ولهذا لم يعد هناك أي شك كما ذكرت عند أهل العلم أنه ولد في مكة المكرمة .. عام الفيل وأن ولادته كانت في شعب عامر في مكة المكرمة .. وفي الدار التي

كانت معروفة لمحمد بن يوسف .. اعتماداً على التواتر من ناحية وعلى الآيات البينات في القرآن الكريم .. وما جاء في مصادر السيرة المعتمدة .. والروايات الموثوقة .. والله أعلم وهو الهادي إلى سواء السبيل ..

والحمد لله أن وفقنا إلى هذا . وإني أسأله سبحانه أن يهدينا سواء السبيل .

مجلة « الدوحة » (ع : ١٠٨ ربيع الأول سنة ١٤٠٥هـ)

محمد عبده يماني

المراجـــــع :

(١) محمد حسين هيكل – حياة محمد ص/١٠٤ .

(٢) سورة محمد : الآية ١٣ .

(٣) سورة القصص : الآية ٨٥ .

(٤) ابن حزم الأندلسي – جوامع السيرة النبوية ج/١ ص/١٦٥ .

(٥) ابن هشام المعافري – السيرة النبوية ج/١ ص١٦٥ .

(٦) محمد بن محمد بن سيد الناس : عيون الأثر في سيرة سيد البشر .

(٧) الإمام السهيلي : الروض الأنف ١/١٨٤ .

(٨) ابن سعد رواية عن الواقدي : الطبقات الكبرى .

(٩) ابن هشام المعافري : السيرة النبوية ١/١٦٧ .

(١٠) هي الصحابية فاطمة بنت عبدالله رضي الله عنها – الاستيعاب رقم ٤٠٥٩ – وعيون الأثر ١/٢٧ .

(١١) رواه ابن عبد البر في الاستيعاب وابن سيد الناس في عيون الأثر عن طريق ابن السكن .

(١٢) سورة المسد ٦٠٣ .

(١٣) أستاذ الدراسات القرآنية العليا بجامعة القرويين بالمغرب: تراجم سيدات بيت النبوة ١٠٦ .

(١٤) محمد حسين هيكل : حياة محمد – ١٠٩ .

(١٥) كوسان دبرسفال : رسالة في تاريخ العرب – ٢٠ .

(١٦) ابن هشام المعافري : السيرة النبوية – ١/١٦٧ .

(١٧) ابن الأثير : النهاية – ٢/٣ .

(١٨) ابن هشام : السيرة النبوية ١/١٧٠ .

(١٩) الزرقاني : ١/١٤٦ .

(٢٠) النويري : ١٦/٨١ .

حول المولد .. مـرة أخرى

كنت تحدثت ليلة الأربعاء ١٣ جمادى الآخرة سنة ١٤٠٢هـ في (جامعة أم القرى) عن (الآثار الإسلامية في مكة المشرفة) فتعرضت لذكر بعض المواضع المشهورة فيها ، ومنها المولد النبويُّ ، الواقع في سوق الليل ، على ما تناقل الناس منذ عصور قديمة ، وأشرت إلى الخلاف الواقع في تحديد موضع المولد كقول الحافظ مُغَلْطَايْ الحنفي (٦٨٩/٧٦٢هـ) في كتابه « الإشارة إلى سيرة المصطفى ، وتاريخ من بعده من الخلفاء » وهو من مخطوطات مكتبة الحرم المكي ، ونَصُّ كلامه : (وُلِد صلى الله عليه وسلم بمكة ، في الدار التي كانتْ لمحمد بن يوسف أخي الحجاج ، ويقال : بالشِّعب ويقال : بالرَّدم ، ويقال : بعسفان) وقول ابن سيد الناس محمد بن محمد اليعمري (٦٧١/٧٣٤هـ) في كتابه « عيون الأثر ، في سيرة سيد البشر » : (وولد في الدار التي تدعى لمحمد بن يوسف أخي الحجاج ، وقيل : إنه وُلِدَ في شعب بني هاشم) وقول الإمام السُّهَيْلِيِّ في « الروض الأُنُفِ » : (وَوُلِدَ بالشعب ، وقيل : بالدار التي عند الصَّفَا) . ثم أوردتُ كلام مؤرخ مكة تقي الدين الفاسيِّ : (مولد النبي صلى الله عليه وسلم بسوق الليل وهو مشهور ،وذكر السهيليّ فيخبر مولد النبي صلى الله عليه وسلم ما يستغرب) ثم أورد كلامه وأضاف : (وأغرب منه ما قيل مِنْ أنه صلى الله عليه وسلم وُلِدَ في الردم ، ردم بني جُمَحٍ) .

ومما أوردتُ قول الشيخ عبدالله العياشي المغربي (١٠٣٧/١٠٩٠هـ) صاحب الرحلة المشهورة « ماء الموائد » وملخصه : وقد عُلِمَ من كتب السيرة ما وقع من الاختلاف في مولده صلى الله عليه وسلم – والولادة وقعتْ في زمن

الجاهلية ، وليس هناك من يعتني بحفظ الأمكنة سيَّمَا مع عدم تعلق غرض لهم بذالك ، وبعد مجيء الإسلام فقد عُلِمَ من حال الصحابة وتابعيهم ضعفُ اعتنائهم بالتقييد بالأماكن التي لم يتعلق بها عمل شرعي ، لصرف اعتنائهم لما هو أهم ، من حفظ الشريعة ، والذَّبِّ عنها بالسِّنان واللسان ، وكان ذالك هو السبب في خفاء كثير من الآثار — إلى آخر ما ذكر العياشي .

وخَلَصْتُ من ذالك إلى القول : (وهذا الاختلاف في الموضع الذي وُلِدَ فيه النبى صلى الله عليه وسلم يحمل على القول بأنَّ الْجَزْمَ بإنه الموضع المعروف عند عامَّة الناس باسم المولد ، لا يقوم على أساسٍ تاريخيٍّ صحيح .)

فكلامي مُنْصَبٌ على الموضع الواقع في سوق الليل ، المعروف عند العامة باسم (المولد) ولم أنْفِ ولادته صلى الله عليه وسلم في مكة المكرمة ، وورد ذكر عسفان في كلام مُغَلْطَاي من قبيل نقل اختلاف العلماء في الموضع ، ولا يلزم منه أنني أقول به أو أُصَحِّحُهُ ، ونقلي القَول ليس من لازمه الاعتقاد بصحته .

ولكنَّ من الإخوةَ مَنْ سارع إلى النَّيْل مِنِّي وَوَصْفِي بما أنا منه بَرِيْءٌ — فنشر أحدهم في جريدة « عكاظ » — في ١٤٠٢/٨/٧هـ ع ٥٨٤٤ — كلاماً — بعد التَّجاوز عما وَرَدَ فيه من العبارات الصادرة عن انفعال وتأثرٍ — يُبْرِزُني بأنني : —

١ — من دعاة التشكيك في الآثار الإسلامية .

٢ — أحاوِلُ سَلْبَ مكة شرف مَوْلِد نبي الإسلام فيها ! !

بل لم يتورَّعْ أحدهم بأن قال : (إنَّ ما قاله الشيخ الجاسر فَلْتَةٌ لا يُغْفَرُ لها) ! ! جريدة « عكاظ » — ع : ٥٨٦٧ في ١٤٠٢/٩/٢هـ — .

وتناول الموضوعَ الصَّدِيقُ الأستاذ محمد حسين زيدان بِتَلَقُّفِ ما نَشَر

أولئك الإخوة راداً عليّ ، ومدافعا عني – كما قال في جريدة « عكاظ » ع : ٥٨٤٩ في ١٣/٨/١٤٠٢هـ – وهو في غاية الجهل بما يَرُدُّ عليه ، لأنه لم يقرأ محاضرتي في الموضوع ،ولهذا فكان موقفه موقف الخصم في دفاعه عني ،فكان أن نشرتُ كلمة في جريدة « الجزيرة » بعنوان : (أيُّها الأحباب منزلة أمّ القرى أسْمَى مما تتصورون) ونشرتْ في « العرب » – س ١٧ ص ٧٩٣ وما بعدها – ختمتها بقولي : وبعد كل ما تقدمَ : فإنّ لأحَبِّ بلاد الله إلى خير خلقه من المنزلة السامية في نفس كل مؤمن ما هي أجلُّ وأسمى من أن يُؤثّر فيها أيُّ مؤثر ، مهما كان مبعثه ، ولكنها المنزلة التي يجب أن تتفق مع الدين والعقل ، بدون إفراط ولا تفريط ، وبدون أن يتوهَّمَ مُتَوَهِّمٌ أنَّ للبقعة – أيّة بُقْعَة كانتْ – من الأثر في ساكنها ما يتنافى مع قول الله تعالى ﴿وأنْ لَيْسَ لِلإنْسَانِ إلاَّ مَا سَعَى﴾ سَلْباً أوْ إيجاباً .

ثم ها هو الصديق الجليل الدكتور محمد عبده يماني يتناول الموضوع تناول العالم، المتجرد من كل غاية لا توصل إلى الحقيقة،وهكذا يجب أن يتَحلّى كُلُّ مَنْ أراد أن يسير على النهج القويم ، الذي سلكَهُ وشرعه أشرفُ الخلق وأفضلُ الرسل عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم : ﴿ادْعُ إلىَ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ والْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجادِلْهُمْ بالَّتِي هي أحْسَنُ﴾ ، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ .

ولصلة ما كتبه الأستاذ الكريم الدكتور محمد عبده يماني بما أُثير حول ما تَحَدَّثْتُ به عن المولد ، ولِمَا لكاتبه من منزلة سَامِية في نفسي ، رأيْتُ إعادةَ نشره في مجلة « العرب » لأنَّ من قُرَّائها مَنْ لايَطَّلِعُ على مجلة « الدوحة » والمقال ذُو صلة بما نشر في مجلة « العرب » .

والمقال – بجمله – مُنْصبٌ على إثبات ولادة المصطفى صلى الله عليه وسلم في أمّ القرى ، وهذا ما لَمْ أتَعَرَّضْ له في مُحَاضَرَتي إلا اسْتِطراداً

حين أوردتُ بعض أقوال المتقدمين من العلماء ، ومن بينهم الحافظ مُغَلْطَاي ، والرَّحالة العياشي ، في كلامهما ذكر موضعين خارج مكة ، عُسْفَان والأبوَاء ، أوردتُ كلامهما ناقِلاً ، لاَ مُؤيِّداً .

ولكنَّ الأمر الذي لا أزال بحاجة إلى إيضاحه هو قول الأستاذ الجليل الدكتور : (وأنَّ وِلاَدَتَهُ – عليه الصلاة والسلام – في شِعْب عَامِر .. وفي الدار التي كانت معروفة لمحمد بن يوسف) .

فما أورده الدكتور عن هذا الأمر ملخصه :

١ – قول ابن هشام : (وُلد بالشِّعب في الدار التي كانت عند الصفا ، وكانت بَعْدُ لمحمد بن يوسف ثم بَنَتْهَا زُبيدة مسجداً حين حَجَّتْ) .

فكيف تكون الدار بالشعب – شعب عامر على ما ذكر الأستاذ الدكتور محمد – ثم تكون عند الصَّفَا ؟ ومعروف أنَّ المكان المعروف الآن باسم (المولد) في شعب علي – المعروف قديما بشعب بني هاشم – لا شعب عامر – وليس هذا الشِّعب عند الصَّفَا .

والدار التي عند الصَّفَا دارٌ أُخرى لَيْسَت التي في شعب بني هاشم – الذي عُرِف فيما بعد بشعب علي – إنَّها دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي ، التي كانت معروفة باسم دار الخيزران ، وكانَتْ دارُ الأرقم مكانَ اجتماع المسلمين الأولين بالرسول صلى الله عليه وسلم ، يعلمهم أمور الدين ، وفيها أسلم عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – وبُنِيَتْ في عهدنا داراً للحديث – انظر كتاب « أخبار مكة » للأزرقي جـ ٢ ص ٢٠٠ و ٢٦٠ – و « القِرَى » للمحبِّ الطبري – ص ٦١٤ .

وقد ذكر مؤرخ مكة السيد تقي الدين الحسني الفاسيُّ في « شفاء الغرام » – ج ٢ ص ٢٦٩ – مولد النبي صلى الله عليه وسلم في الموضع الذي يقال له سوق

الليل وهو مشهور عند أهل مكة . وعقب عليه قائلا : وذكر السهيلي ما يستغرب في تعيين الموضع الذي ولد فيه النبي صلى الله عليه وسلم وفيمن بناه ، لأنه قال : وولد بالشعب وقيل : بالدار التي عند الصفا ، وكانت بيد محمد بن يوسف أخي الحجاج ، ثم بنتها زبيدة مسجداً حين حجت انتهى . — ثم أورد كلام الحافظ علاء الدين مغلطاي وقال بعده : والمستغرب من ذالك ما قيل من أن النبي صلى الله عليه وسلم وُلِدَ بالرَّدْم ، وقيل : بعسفان ، والقول بأنه وُلِدَ بالرَّدْم رواه أبو حفص بن شاهين ، لأنه قال : حدثنا أحمد بن عيسى ابن السكن ، حدثنا هاشم بن القاسم ، حدثنا يعلى بن الأشدق عن عبدالله بن جراد قال : وُلد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرَّدْم ، وخُتِنَ بالردم ، واستبعث من الردْم ، وحُمِل من الردم . قال البكري : رَدْمُ بني جُمَحٍ بمكة ، كانت فيه حرب بينهم وبين بني مُحارب بن فِهر ، فقتلت بنو محارب من بني جُمَحٍ أشَدَّ القتل ، فسمِّيَ ذالك الموضع بما رُدِمَ عليه من القتلى . ثم أنتقل تقي الدين الفاسي — بدون تعليق على خبر الردْم — إلى الكلام عن المولد فوصفه وصفاً دقيقاً ، وحدده ، وبين مساحته طولاً وعرضاً .

٢ — لم أجِدْ نَصَّ كلام ابن هشام الذي نقله الأستاذ الكريم مُحيلاً إلى « السيرة النبوية » : ج ١ ص ١٦٧ ، وإنما وجدت في هامش ص ١٥٨ منها ما كتبه محققوها الأساتذة مصطفى السقا ورفقاؤه : (وكانت ولادته بالشعب) إلى آخر الكلام مع الإحالة إلى « الروض الأنف » للسهيلي ، و « الطبقات الكبرى » لابن سعد ، والطبري . فعلى هذا يتضح أن الكلام ليس لابن هشام بل لمحققي سيرته .

٣ — وأضاف الدكتور إلى الكلام المنسوب لابن هشام : (وذكر ابن سيِّد الناس مثل هذا ، وكذالك أورده السهيلي وابن سعد) .

نَصُّ كلام ابن سيد الناس في « عيون الأثر » ٢٦/١ : (ووُلِد صلى الله

عليه وسلم في الدار التي تدعى لمحمد بن يوسف أخي الحجاج – ثم ذكر الاختلاف في يوم الولادة وأضاف : وقيل : إنه وُلِدَ في شعب بني هاشم) فمفهوم كلامه أنّ الدار التي وُلِدَ فيها ليست في شعب بني هاشم ، وإلا لما كان لقوله : (وَقِيل) معنى .

أما كلام ابن سعد في « الطبقات الكبرى » فلم أجده في (ذكر مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم) وقد يكون في موضع آخر ، وكلام السُّهَيْلي في « الروض الأُنُف » تقدم في كلام الفَاسِيّ الذي قال : إنّ فيه ما يستغرب .

٤ – لِنَضْرِبْ صَفْحاً عَمَّا أورده الحافظ مُغَلْطَايْ وغيره ممن ذكروا مواضع خارج مكة كعُسْفَانَ والأَبْوَاء ، ولنَحْصُرِ الكلامَ فيما ذكره غيرهم من العلماء كابن القَيِّم الذي حكى الإجماع على أن ولادته عليه أفضل الصلاة والتسليم كانت في جوف مكة المشرفة ، وكما أوضح هذا الأستاذ الجليل الدكتور محمد في بحثه الممتع ، المُدْعَمِ بالأدِلَّةِ القوية ، وكما ورد في بعض الكتب السماوية ، كما أورد الحافظ ابنُ سَيِّدِ الناس في « عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير » – ص ٢٧ – وغيره عن كعب الأحبار : إنّي أجِدُ في التوراة : عبدي أحمد المختار مولده بمكة . ففي أيِّ موضع من هذه البلدة الطاهرة كانت ولادته عليه الصلاة والسلام ؟

هل كانَتْ في المكان المشهور المتعارف منذ عصور طويلة ، الواقع في الشِّعْبِ المعروف قديما باسم شعب بني هاشم ، وحديثا باسم شعب عليٍّ ؟ – لا في شعب عامر – وهذا الموضع هو الذي بنته الخيزران مسجدا ، أو في الدار التي كانتْ عند الصَّفَا ثم بنتها زبيدة مسجدا – كما نقل الأستاذ الدكتور عَمَّن ذكر من أئمة علماء السيرة .

أو في رَدْمِ بني جُمَحٍ – كما نقل مؤرخ مكة ، بل أوسعهم علما ، وأكثرهم مؤلفاتٍ في تاريخها السيد الفاسي – عن الحافظ ابن شاهين ، ورَدْمُ

بني جُمَحٍ هذا – كما يفهم مما ذكره الأزْرَقيُّ في كتابه « أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار » – يقع بقرب الـمُدَّعَا – .

أنا أُدْرِكُ أن مُؤَرِّخي مكة المشرفة يَكَادُون يجمعون على اعتبار الموقع الأول هو مكان مولده عليه الصلاة والسلام ، ولكنني وأنا أبحث الموضوع بَحْثَ من لا يُرِيد أن يبقى في نفسه أثَرٌ من تَرَدُّدٍ أوْ حَيْرَةٍ أرى فيما أورده الأستاذ الدكتور ما يستوجب الوقوف عنده .

ثم لماذا أورد تقيُّ الدين الفاسِيُّ القولَ بأنه – صلى الله عليه وسلم – وُلِدَ في الرَّدْمِ ولَمْ يُبْدِ رأيَهُ حياله ، كما فعل مع غيره من الأقوال ؟

إنَّنِي – وقد أدْرَكْتُ فيما أوضحه الأستاذ الجليل في بحثه من حجج وبراهين ، وفيما سلكه من طريقة البحث وتناول الموضوع تَنَاوُلَ من يسعى للوصول إلى الحقائق ، مُتَجَرِّدًا من جميع الغايات التي تصدف عنها ، شَأْنَ العلماء العارفين بما يجب عليهم من التَّحَلِّي به من الصِّفَات في سبيل نشر العلم ، التي من أهمها التَّخَلُّق بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ ، والتَّرَفُّعُ عمَّا يُسَبِّبُ الأخذَ والرَّدَّ ، والتمادي في التَّعَصُّبِ لأرَاءٍ لا تقوم على أساسٍ من العلم والحقِّ – لا أزال أتَطلَّعُ إلى مزيد من البحث في الموضوع ، لكي أصِلَ إلى دَرَجَةٍ من الاطمئنان واليقين ، لا غاية لي سوى هذا .

أما أولئك الإخوة الذين قد يَحْلُو لبعضهم تأويل ما قُلْتُ خلاف ما أوضحت ، فالله حَسِيبُهُمْ ، وهو عند لسان كل قائل وقلبه ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، ولن أُعِيرَ آراءهم أيَّ اهتمام ، إلا أنني – وقد خبرتُ بعضهم – لا أجِدُ غضاضة في القول بأنني – وأحمد الله على هذا – أقوى صلة ، وأعظم تعلقا بهذا البلد الأمين ، وأشدُّ حِرْصًا على صيانة تاريخه منهم ، وهذا ما يحملني على الحفاظ على هذا التاريخ ، وعلى صيانته مما قَدْ يُتَّخَذُ وسيلةً للغَضِّ منه ، أو القدح فيه .

وبعد : فلا أدري هل من حقي الإشارة إلى بعض هفوات وقعت في البحث الممتع ، الذي أتحف به الأستاذ الجليل القُرَّاء فلم يَجِدْ من مصححي مجلة « الدوحة » العناية التامة الَّتي تحول دون وقوع تلك الهفوات ، وإلى أخرى لي رأي حيالها ، ومنها ما يتعلق بنسبة كلام إليَّ وليس لي — مما قد يكون ناشئا من عدم مراجعة البحث قبل نشره ، إنني مدفوعاً بإدْلاَلي على أخي العالم الجليل إدْلاَلَ حُبٍّ وتقدير وإجلال — سأشير إلى بعض ما اتَّضَح لي من تلك الهفوات اليسيرة ، الَّتي لا تؤثر فيما لهذا البحث القيِّم من قيمة علمية .

(أ) القول بأنَّ منازلَ أهل مكة زمن ولادة المصطفى — عليه الصلاة والسلام — تقترب من الكعبة وتبتعد عنها وِفْقاً لمكانة كل أسْرة وفخذ ، من جلال وخطر — لمحمد حسين هيكل — يَصِحُّ لو ثبت أن المنازل خُطِّطتْ وحُدِّدتْ قبل السُّكْنَى ، وهذا ما لم يثبت من ناحية تاريخية ، فيما علمتُ ، وإنَّما كانت الدور تسكن حسبما اتَّفَقَ ، وللقرابة نسباً أو حلفاً — أثرٌ في ذالك ، ولو صَحَّ قول الدكتور محمد حسين هيكل لكانت رباعُ بني هاشم عشيرة المصطفى الأقربين أقربَ الدور من الكعبة ، ولما كانوا في الشِّعْب المعروف بشِعْب بني هاشم الذي يفصل بينه وبين الكعبة رباع (دُورٌ) كثيرة ، قد أوضحها الأزرقيُّ في كتاب « أخبار مكة » ج ٢ ص ٢٣٣ إلى ٢٦٥ .

ومثل ذالك قول محمد حسين هيكل — رحمه الله — أن منازل القبائل من وراء منازل قريش ، بالنسبة لموقع الكعبة المشرفة . بل لقد كانت منازل بعض الحلفاء من القبائل أقرب إلى الكعبة من منازل كثير من الأُسَر القرشية .

فرِباع آل عتبة بن فرقد السُّلمي — من سُلَيْم وليسوا من قريش — كانت تلي دار شيبة بن عثمان من عبد الدار من قريش الذي يُنْسب إليه باب بني شيبة ، لجوار داره للمسجد ، وكانت رباعهم — أعني آل عتبة — شارعة في السويقة — على ما ذكر الأزرقي ج ٢ ص ٢٤٨ .

ورباع آل داود بن الحضرمي – وهم من حضرموت من قحطان – حلفاء عتبة بن ربيعة عند المروة – الأزرقي : ٢٤٩/٢ .

ورباع آل عتبة بن غزوان وهو من مازن بن منصور من هوازن ، كانت إلى جنب المسجد الحرام – الأزرقي : ٢٥٠/٢ .

ورباع حلفاء بني زهرة كانت في أصل المسجد الحرام – الأزرقي : ٢٥٥/٢ – .

ورباع آل أنمار وآل قارظ من القارة – بين الصَّفا والمروة – الأزرقي : ٢٥٥/٢ – .

ورباع حلفاء بني مخزوم – مع رباع بني مخزوم – أجيادَانِ الكبير والصغير – الأزرقي : ٢٥٧/٢ .

ولا يتسَّعُ المقام لتفصيل أكثر من هذا .

(ب) هنا تطبيع – خطأ مطبعي – في سياق النسب الشريف ، صوابه (كلاب بن مُرَّة) و (مالك بن النضر) .

(ج) آمِنَةُ – أمّ خير الخلق وأشرفهم عليه أزكى الصلاة وأتَمُّ التسليم – ليست من أبناء قُصَيّ بن كلاب ، بل جَدُّها زُهْرة بن كلاب ، وسياق نَسَبِها – كما أورده مصعب بن عبدالله الزُّبيري القرشي في كتاب « نسب قريش » – ٢٦١ – وكما هو معروف لا يختلف في ذالك اثنان من العلماء – : آمنة بنت وَهْب بن عبد مناف بن زُهْرَةَ بن كلاب بن مُرَّة ، فنسبها يلتقي مع نسب المصطفى – صلى الله عليه وسلم – في كلاب .

وما وقع في الكلام المنشور في مجلة « الدوحة » سبق قَلَمٍ – إذ الأستاذ الجليل أجلُّ علماً وأوسع معرفةً من أن يخفى عليه ذالك .

(د) من المعروف أن موضع المولد – أعني المنزل الذي وصفته ابنة الشاطيء – لا تنطبق أوصافه الحاضرة على ما كان عليه في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقد غُيِّرَتْ مساحته ، وقد حَدَّدَها مؤرخ مكة السيد تقي الدين الفاسي في كتابه « شفاء الغرام » تحديداً قد يكون أقرب إلى حالته الأولى فقال – ج ۱ ص ٢٦٩ – بعد أن وصف الموضع : (وذرع هذا المكان طولاً أربعة وعشرون ذراعاً وربع ذراع ، وذالك من الجدار الشمالي إلى الجدار المقابل له وهو الجنوبي الذي يلي الجبل ، وذَرْعُهُ عَرْضا أحد عشر ذراعا وثُمْنُ ذراع ، وذالك من [الجدار] الشرقي الذي فيه بابه إلى جداره الغربي المقابل له ، وطولاً الزاوية المشار إليها ثلاثة عشر ذراعا ونصف ذراع ، وعرضها ثمانية ونصف ، الجميع بذراع الحديد ، وكان تحرير ذالك بحضوري) انتهى .

أما الزاوية التي ذكر فقد قال في أول الكلام : وفي ركنه الغربي مما يلي الجنوب زاوية كبيرة قبالة بابه الذي يلي الجبل . ويحسن الرجوع إلى وصف السيد الفاسي للموضع .

(هـ) ليس هذا قولي ولكنه قول الرحالة المغربيُ المعروف العياشي عبد الله ابن محمد (١٠٣٧/١٠٩٠هـ) صاحب الرحلة المشهورة « ماء الموائد » أورده فيها ، وقد ذكرته بنصّه ناقلاً ، لا قائلاً ، والكلام ينسب لمن قاله مبتدئا ، لا من أورده ناقلاً – كما هو معروف – وهو في تلك الرحلة – ج ١ ص ٢٢٥ .

(و) وهذا أيضا مما نقلته من رحلة العياشي – ج ٢ ص ٢٥٣ - فهو قوله وليس قولي .

حمد الجاسر

عرفات : حدودها الشرعية

منذ نحو عشرين عاماً وبعض علماء بلادنا يتباحثون في تحديد عرفات من الناحية الشرعية حتى عهدنا الحاضر ، ففي شهر المحرم من عام ١٣٨٦هـ نشرت مجلة « الدعوة » (ع ٥١ تاريخ ١٣٨٦/١/١٩هـ) فتوى للشيخ عبدالله بن عقيل — إجابة لسؤال عن حدود عرفة .

ولكن الشيخ ناصر بن حمد الراشد عقب على كلام الشيخ ابن عقيل بمقال نشر في جريدة « البلاد » (ع ٢٢٢٠ تاريخ ١١ صفر سنة ١٣٨٦هـ) .

وقد رأى الشيخ عبدالله بن عبد الرحمن بن جاسر — رحمه الله — في كلام الشيخ ناصر ما دفعه إلى التعليق عليه بمقال نشرته جريدة « البلاد » ثم صدر أمر ملكي بتشكيل هيئة من طلبة العلم ومن سكان عرفات ومن وزارة الحج والأوقاف ، فشكلت بقرار من رئاسة القضاة بتاريخ ١٣٨٨/٨/٢٢هـ من المشايخ عبدالله بن جاسر وسليمان بن عُبيد والسيد عباس علوي مالكي وعبد العزيز ابن فوزان ، ومعهم من أهل الخبرة الشريف فايز الحارثي والشريف محمد ابن فوزان الحارثي والشريف شاكر بن هزّاع أبو بُطَين ،ومن أهل عرفة المقيمين بها خيشان وكريدم ابنا حامد القرشي ؛ ومندوب وزارة الحج والأوقاف الشيخ محسن بن الشيخ بابصيل والمهندس فؤاد بن كامل حواريما . وبعد اجتماع الهيئة في عرفات بتاريخ ١٣٨٨/١٠/٦هـ وتطبيق نصوص متقدمي العلماء في تحديد الموضع على ما شاهدته الهيئة حسبما ظهر لها اتخذت قرارا حدّدت فيه الموضع من جميع جهاته (انظر نص القرار في مجلة « العرب » عدد ذي القعدة سنة ١٣٩١هـ — السنة السادسة ص ٣٧٥ وما بعدها) .

ثم إن الشيخ عبدالله بن سليمان بن منيع اطلع على ذالك القرار فرأى فيه

ما هو بحاجة إلى الإيضاح والاستدراك ، حين كان أحد المكلفين بتطبيق ذالك القرار ، فكتب إلى هيئة كبار العلماء بملاحظاته حوله .

وترى مجلة « العرب » وقد نشرت ذالك القرار بنشر ما دار حوله – إكمالا وتوضيحا للموضوع ؛ وتسجيلا لنقاش علمي حول موضوع يتعلق بركن من أركان ديننا الحنيف .

مقال الشيخ ناصر بن حمد الراشد :

بحث و تعقيب حول حدود عرفة

نشرت صحيفة الدعوة الغراء في العدد (٥١ – الصادر بتاريخ ١٩/١/٨٦هـ باب الفتاوي من إعداد الشيخ عبدالله بن عقيل إجابة لسؤال سائل عن حدود عرفة قال فيها : إنها من الجبل المشرف على عرفة إلى الجبال المقابلة له إلى ما يلي حوائط بني عامر . انتهى

ولما كان أكثر هذا التحديد غامضا فقد رأى فضيلة المجيب إيضاح هذا الغموض بما نقله عن كتاب «مفيد الأنام» ونصه : (أن الجبل المشرف المذكور هو الجبل العالي شمالا عن جبل الرحمة وهو شرقي عرفة والجبال المقابلة المذكورة هي الجبال الجنوبية وهي حد عرفة من جنوب . وحوائط بني عامر هي بساتين لبني عامر وكان فيها عين ونخل تنسب إلى عبدالله بن عامر بن كريز . وهي الآن خراب وموضع العين فيما يظهر غربي مسجد عرنة الذي يسمى الآن مسجد إبراهيم وآثار العين المذكورة موجودة الآن قرب المسجد . فحد عرفة من هذه الجهة ليس هو حوائط بني عامر بل هو الذي يلي الحوائط المذكورة والذي يليها هو المسجد ومنه يتضح أن المسجد ليس من عرفة لأن الحد لا يدخل في المحدود، والحد الشامي لعرفة بطن وادي عرنة لأنه يأتي من الشمال إلى الجهة الغربية الجنوبية، ووادي عرنة أيضا حد لعرفة من جهة الغرب لأن نفس المسجد في

وادي عرنة فهذه حدود عرفة من الجهات الأربع . قال : ولم أر من حددها غيري ولكن بالوقوف والتطبيق وفق الله لي ذالك قال:وهناك علمان فاصلان بين عرفة ووادي عرنة من جهة الغرب عن عرفة فما كان شرقا عن العلمين فهو من عرفة وما كان غربا منهما فهو من عرنة . انتهى

مجال النقاش لتحديد عرفة :

ونظرا لأنني أحد السائلين والباحثين عن تحديد عرفة وغيرها من المشاعر فإن في هذا البحث مجالا للتدقيق والمناقشة ورغبة مني في المشاركة في هذا فقد رأيت التعليق الآتي :

سبق لي أن قمت بمحاولة لتطبيق ما رأيته من كلام بعض الفقهاء وبعض المؤرخين على حدود عرفة فتبين أن التطبيق المسرود بهذه الإجابة لا يتفق من حيث تعيين موقع حوائط بني عامر ولا من حيث الحد الشامي لعرفة، وأن ثمة قصور في تحديد عرفة من الناحية الشرقية . والذي تبين لي أن حزام حدود عرفة هو على الوجه التالي :

الحد الشرقي

الحد الشرقي هو سلسلة الجبال والهضبات الواقعة شرقي جبل الرحمة ومصلى الصخرات . وتبدأ هذه السلسلة من الجبل العالي المسمى جبل (سعد) والذي يقع أدناه شمالا عن جبل الرحمة وتمتد السلسلة جنوبا إلى طريق نعمان طريق الطائف حاليا .

الحد الجنوبي

والحد الجنوبي الجبال المقابلة الواقعة على يمين السالك لطريق نعمان ـ الطائف وتمام الحد الفضاء الممتد من مقطع هذه الجبال حتى وادي عرنة وهذا الفضاء فيما يظهر لي هو الذي عبر عنه الفقهاء بما يلي :

حوائط بني عامر حيث تقع الحوائط جنوبا عن هذا الفضاء وهناك شاهدنا آثارا لبعض القناطر ، وآثاراً لبعض الآبار آنذاك .

الحد الغربي :

والحد الغربي هو بطن وادي عرنة الممتد من الشمال إلى الجنوب حتى يتجاوز منطقة عرفة وهناك العلمان اللذان أشار إليهما صاحب كتاب « مفيد الأنام » المنصوبان على شفير وادي عرنة الشرقي .

الحد الشمالي :

والحد الشمالي الواجهة الغربية للجبل العالي (سعد) الواقع شمالا عن جبل الرحمة[*] ، وهناك فضاء واسع واقع بين جبل سعد وبين وادي عرنة لم أر أحدا من الفقهاء والمؤرخين تعرض للبحث فيه من حيث تعيين التحديد .

وهذا الفضاء مقابل للفضاء الموالي لحوائط بني عامر حد عرفة من الناحية الجنوبية ولا يقل عنه في الاتساع[*] وهنا تتضح الفروق بين هذا التحديد الذي قمنا بتطبيقه عدة مرات وبين مانشر فالتحديد المنشور بإعداد الشيخ عبدالله العقيل يرى أن حوائط بني عامر تقع غربا عن مسجد عرنة وأن ما يلي الحوائط هو المسجد .

غربي المسجد جزء من وادي عرنة

وإنه ليبدو جليا لمن تتبع هذه الآثار أن الذي يلي المسجد غربا هو جزء من وادي عرنة يليه غربا سفح يتصل بجبل نمرة ، ولعل الآثار التي شوهدت هناك بقية من آثار كانت بقرية نمرة التي نزل بها النبي صلى الله عليه وسلم ورحلت له ناقته منها وأتى بطن عرنة وخطب الناس وصلى بهم الظهر والعصر جمعا هناك ثم توجه إلى عرفة لأن هذا الموضع هو الذي ينطبق عليه وصف مكان قرية نمرة كما ذكره أبو الوليد الأزرقي وغيره حيث ساق بسنده عن ابن جريج قال : سألت

عطاء أين كان رسول الله ينزل يوم عرفة ؟ . قال بنمرة منزل الخلفاء إلى الصخرة الساقطة بأصل الجبل عن يمينك وأنت ذاهب لعرفة يلقي عليها ثوب يستظل به صلى الله عليه وسلم . ومعلوم أن هذا يقع لمن يأتي عرفة عن طريق (ضب) من حيث أتى النبي صلى الله عليه وسلم وإذا أقبلت إلى عرفة تحف هذا الجبل فإن مسجد عرنة أمامك . ويزيد هذا وضوحا ما نقله المحب الطبري عن الشافعي رحمهم الله ونصه : وعرفة ما جاوز وادي عرنة وليس الوادي ولا المسجد منها إلى الجبل المقابل مما يلي حوائط بني عامر وطريق الحصن وما جاوز ذالك فليس من عرفة . انتهي

فعلم أن الشافعي والمحب الطبري لا يريان أن حوائط بني عامر غربي المسجد لأن المسجد يقع في نفس وادي عرنة . يؤكد هذا ما ذكره كثير من المؤلفين في المناسك وبعض المؤرخين وتؤكده المشاهدة وفي المقابل فإن ما نشر بصحيفة الدعوة في باب الفتاوي الذي أعده الشيخ عبد الله العقيل ينص على أن ما يلي حوائط بني عامر هو مسجد عرنة في حين أن الذي يلي المسجد هو بقية وادي عرنة .

سيل عام ١٣٦٠هـ

ولقد أتى سيل جارف في عام ١٣٦٠هـ فانحسر السيل غربا وشرقا عن المسجد وصار جزيرة في بطن الوادي ومعروف أن العلمين المنصوبين لحدود عرفة من الناحية الغربية قد وضعا على شفير الوادي وقد ذرع تقي الدين الفاسي ما بين ركن المسجد مما يلي عرفة إلى محاذاة العلمين الموجودين الآن فبلغت سبعمائة بتقديم السين وأربعة وسبعين ذراعا بالحديد عن ثمانمائة وخمسة وثمانين ذراعا بذراع اليد هذا ولقد سألت أشياخا من الجوابرة (هذيل) سكان منطقة عرفة عن الفضاء الذي ذرعه تقي الدين الفاسي ، وعن المظلة المقامة فيه والتي أقامها الشيخ عبد الرؤف الصبان إبان توليه مديرية الأوقاف فقالوا : إن هذه المواضع ليست من عرفة وأكدوا لي هذا في ثقةمما بقولون .. وأضافوا على حد فهمهم

بأنه لما بنت الحكومة المظلة أصبحت من عرفة . ولهـذا ينبغي الاهتمام بتنبيه الحجاج بأن الوقوف بالمظلة غير مجزي عن الوقوف بعرفة .

ومقتضى مفهوم ما نشر أن ما دون المسجد بينه وبين العلمين أنه من عرفة ويجزي الوقوف فيه وهذا ليس بمراد قطعا من صاحب كتاب «مفيد الأنام» .

وادي عرنة ومآتيه :

وقد تضمن ما نشر بأن حد عرفة من الناحية الشمالية هو وادي عرنة، وأن وادي عُرنة تحد به عرفة من الناحيتين الغربية والشمالية والأمر ليس كذلك بالنسبة للحد الشمالي . حيث أوضحنا تحديد عرفة آنفا من الناحية الشمالية لأن من تتبع تلك الأماكن يتضح له أن وادي عرنة يأتي من الناحية الشمالية أعلاه من الشرايع (حنين) والمغمس ويصب فيه رافد هو (وادي المجاز السوق العربية القديمة) المشهورة المتجمعة سيوله من جبل (هذيل) (كبكب) فإذا أقبل على عرفات فأنه يحف الجبال الغربية وقبل أن يصل عرفة قد شق منه خليج لمزارع الجوابرة (هذيل) الواقعة غربا شمالا عن عرفة وغربا عن وادي عرنة تلك المزارع التي تحف الطريق السالك لِلْمأْزِمَيْنِ ويستمر الوادي من الشمال إلى الجنوب حتى يتجاوز منطقة عرفة وبهذا يكون واضحا جليا أن وادي عرنة لا ينعطف من الغرب إلى الشرق فيمكن حينئذ أن تحدد به عرفة من الناحية الشمالية .

ويزيد هذا وضوحا ماذكره صاحب كتاب «شفاء الغرام» في بحثه لحدود عرفة وتصحيحه لبعض التصحيفات حيث قال : ولايصح أن يكون وادي عرنة بالنون لأن وادي عرنة لا ينعطف على عرفة بل هو ممتد مما يلي مكة يمينا وشمالا . هذا ما عن لي من تعليق على حدود عرفة .

حدود المزدلفة أيضا :

وبمناسبة بحث حدود المشاعر فإن ثمة اشتباها لدي في حد مزدلفة من الناحية

الجنوبية لأن حدود المزدلفة من الناحية الشمالية جبل ثبير الذي تحفه ، وغربا وادي محسر وشرقا مفضى المأزمين وجنوبا من الناحية الشرقية الجبال. هذا ملخص التحديد الذي نقله أبو الوليد الأزرقي عن ابن جريج عن عطاء وبعد مقطع الجبال فهناك فضاء من الناحية الغربية ممتد حتى جبال المفجر لم اطلع على بحث لأحد من المؤلفين في تحديد المزدلفة من ناحية هذا الفضاء .

كذلك فإنه يوجد فضاء في شرقي منى من الناحية الشمالية بعد مقطع مسيل السيل الذي يصب في محسر ما بين الوادي وواجهة جبل (ثبير) الغربية وهذا الفضاء ليس من مزدلفة حتما .

وينبغي بحث ما إذا كان من منى فيصح المبيت فيه أم لا ؟ لأنه إذا صح أنه من منى فإن فيه متسعا للناس ومفهوم كلام العلماء أن حد منى من الناحية الشرقية وادي محسر فهل محسر له حدود من الناحية الشمالية ينتهي إليها وما بعدها يكون من منى حتى ولو كان بعد تجاوز مسيل السيل من الناحية الشرقية أم أن محسرا يمتد شمالا حتى يكون مسيل السيل هو الفاصل وحد منى من الناحية الشرقية حتى يتصل بالجبال الشمالية . والحقيقة أن هذا بحث مهم ينبغي أن يؤلف له لجنة علمية تبحثه وتعطي قرارا ضافيا عنه وتعطي كذلك قرارا عن الفضاء الشمالي من عرفة والفضاء الجنوبي من مزدلفة لأن حجاجا كثيرين ينزلون في هذه الأمكنة ولا تحصل الطمأنينة التامة إلى أنهم نزلوا في المشاعر وقضوا بذلك أركان الحج وواجباته المتعلقة بتلك المشاعر .

فإذا صدر مثل هذا القرار ينبغي وضع أعلام تحدد المشاعر من هذه الجهات ويكتب عليها الإيضاحات المرغوبة باللغات العربية والأردية والجاوية والفارسية . وبالله التوفيق .

مقال الشيخ عبدالله بن عبد الرحمن الجاسر – رحمه الله – :

حدود عرفة

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله الملك الحق المبين وأصلي وأسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين أما بعد فقد اطلعت على التعقيب المنشور بصحيفة البلاد الغراء في عددها ٢٢٢٠ في ١١/٢/٨٦هـ نحو حدود عرفة ذكر فضيلة المعقب أن التطبيق المسرود بالإجابة التي ذكرها فضيلة الشيخ عبدالله بن عقيل في صحيفة « الدعوة » الغراء لا يتفق من حيث تعيين مواقع حوائط بني عامر ولا من حيث الحد الشامي لعرفة وأن ثمة قصورا من الناحية الشرقية وأنّ الحد الشرقي هو سلسلة الجبال والهضبات الواقعة شرقي جبل الرحمة ومصلى الصخرات وتبدأ هذه السلسلة من الجبل العالي المسمى جبل سعد الذي يقع أدناه شمالا عن جبل الرحمة وتمتد السلسلة جنوبا إلى طريق نعمان طريق الطائف .

هذا ملخص كلام صاحب التعقيب ولدى تأمله وتأمل ما ذكره فضيلة الشيخ عبدالله بن عقيل اتضح أن لا قصور فيما ذكره الشيخ عبدالله بن عقيل لأن الشيخ عبدالله ذكر أن حد عرفة من الشرق هو الجبل المشرف الذي يسمى الآن جبل سعد . فاكتفى بهذا الحد لأنه أشهر الحدود ولأنه يدخل فيه ما حاذى الجبل من الهضاب الشرقية التي هي تمام الحد ثم قال الشيخ عبدالله بن عقيل عن حدود عرفة : أنها من الجبل المشرف إلى الجبال المقابلة وهي الهضبات الجنوبية المتسلسلة التي هي حد عرفة من الجنوب المتصلة بالهضاب الشرقية التي هي حد حد عرفة من الشرق المحاذية للجبل المسمى سعد من الشمال فتحديد الشيخ عبدالله واف بالمقصود ولم يأت المعقب بشيء جديد . أما حوائط بني عامر فهي ليست معلومة الآن لأنها قد اندثرت وزالت آثارها وكل ما جاء من بحث في ذكر موضعها فإنما هو على حسب ما يظهر للباحث فيها وليس مع المعقب أي

دليل قاطع على موضعها وإنما هو رأي رآه وقد يرى غيره خلاف ذلك وبالجملة فإن التحديد بحوائط بني عامر أصبح الآن تحديدا بمجهول لخفاء آثارها وذكر فضيلة المعقب الحد الغربي لعرفة وأنه وادي عرنة وهذا الحد بالاتفاق بين العلماء وهو الذي ذكر فضيلة الشيخ عبدالله بن عقيل وذكر فضيلة المعقب أن الحد الشمالي لعرفة الواجهة الغربية للجبل العالي سعد الواقع شمالا عن جبل الرحمة وقال فضيلة المعقب: إن هناك فضاء واسع بين جبل سعد وبين وادي عرنة ولم أر أحدا من الفقهاء والمؤرخين تعرض للبحث فيه من حيث تعيين التحديد. هذا كلام فضيلة المعقب وفقنا الله وإياه ونقول لفضيلته: بل قد تعرض الفقهاء والمؤرخون للبحث فيه ونحن نتحف فضيلته بذكر ذالك قال الإمام الشافعي وحسبك به من إمام قرشي وطني عالم بمكة وشعابها قال: حيث وقف الناس من عرفات جوانبها ونواحيها وجبالها وسهلها وبطاحها وأوديتها وسوقها المعروفة بذي المجاز أجزأه. انتهى.

نقل ذالك النووي في شرح المهذب عن الماردي عن الشافعي فاعتبر الشافعي رحمه الله تعالى أن ذا المجاز من عرفة وذو المجاز يقع شمالا وبذالك يتضح أن عرفة متسعة تسع الملايين من الحجاج والحمد لله رب العالمين ونقل الأزرقي بسنده عن ابن عباس أنه قال: حد عرفات من الجبل المشرف على بطن عرنة إلى جبال عرفات إلى وصيق بفتح الواو وكسر الصاد المهملة وآخره قاف إلى ملتقى وصيق ووادي عرنة. انتهى. قال إمام الحرمين: ويطيف بمنعرجات عرفات جبال وجوهها المقبلة من عرفات انتهى.

قال فضيلة المعقب: إن الذي يبدو جليا أن الذي يلي المسجد غربا هو جزء من وادي عرنة ويليه غربا سفح يتصل بجبل نمرة ولعل الآثار التي شوهدت هناك بقية من آثار كانت بقرية نمرة التي نزل بها النبي صلى الله عليه وسلم ورحلت له منها إلى آخر ما ذكره المعقب مما لم يحصل من فضيلة الشيخ عبدالله بن عقيل كلام فيه وأين حد عرفة من جبل نمرة الذي ذكره المعقب والذي هو حد الحرم

من الحل وكلام فضيلة الشيخ عبدالله بن عقيل لا يؤخذ منه منطوقا ولا مفهوما أن سفح الجبل هو حوائط بني عامر ولا أن حوائط بني عامر في تلك النقطة لأن تحديد حوائط بني عامر من جهة الغرب يتصل تدريجيا بالجنوب لأن الحدود لها أجزاء فيقال: حده كذا وتمام الحد كذا وكله في جهة واحدة ويصدق الحد على المحدود ولو ببعض أجزاء الحد وتقدم أن حوائط بني عامر ليست الآن معلومة ولم يجزم فضيلة الشيخ عبدالله بن عقيل بذالك بل قال فيما يظهر وذالك لأن الحوائط غير معلوم موضعها أما ما ذكره المعقب عن الأزرقي من أن النبي صلى الله عليه وسلم ينزل إلى الصخرة الساقطة بأصل الجبل عن يمينك وأنت ذاهب لعرفة يلقي عليها ثوب يستظل به صلى الله عليه وسلم فالجواب على ذالك أن عهدي بفضيلة المعقب أنه لا يختار من الأقوال ما يخالف الأحاديث الصحيحة الصريحة وذالك أن النبي صلىالله عليه وسلم لم يحج إلا حجة واحدة وهي حجة الوداع سنة عشر من الهجرة النبوية ، وحديث جابر رضي الله عنه صريح في أن النبي صلى الله عليه وسلم ضربت له قبة بنمرة نزل فيها يوم عرفة إلى أن زالت الشمس ولم ينزل بغار كما زعمه الأزرقي فلا ينبغي أن نطرح الحديث الصحيح الذي رواه جابر رضي الله عنه في حجة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقول بقول الأزرقي أن النبي صلى الله عليه وسلم نزل في حجته يوم عرفة في غار بنمرة يلقي على الصخرة والغار ثوب يستظل به صلى الله عليه وسلم قال فضيلة المعقب: ولقد أتى سيل جارف في عام ١٣٦٠ﻫ فانحسر السيل غربا وشرقا عن المسجد إلى أن قال ولقد سألت أشياخا من الجوابرة سكان منطقة عرفة عن الفضاء الذي ذرعه الفاسي وعن المظلة المقامة فيه فقالوا إن هذه المواضع ليست من عرفة ولهذا ينبغي الاهتمام بتنبيه الحجاج بأن الوقوف بالمظلة غير مجزيء عن الوقوف بعرفة هذا ملخص ما ذكره فضيلة المعقب والجواب عليه أن حد عرفة من الغرب هو وادي عرنة وذالك باتفاق المسلمين فلا حاجة إلى قول أشياخ الجوابرة ولا يخفى على أحد أن المسجد لما وضع في بطن وادي عرنة انحاز السيل عن المسجد من جهة الغرب وإذا حصل سيل كبير فقد ينحاز منه جانب

إلى عرفة شرقا عن المسجد وحيث الحال ما ذكر فإنه ينبغي عدم الاسترسال في اعتبار الوادي حدا لو حصل فيه ما حصل من السدود وانحرف شرقا إلى عرفة لأن العبرة بمجراه الأول الذي قال فيه صلى‌الله‌عليه‌وسلم: «وارفعوا عن بطن عرنة» يدل على ذالك أنه لو عدل مجرى وادي عرنة إلى عرفة فإنه لا يسوغ أن يعتبر مجرى وادي عرنه الذي عدل إلى عرفة حدا لعرفة وبناء على هذا فإن المظلة الموجودة الآن تعتبر من عرفة قطعا لأنها بعيدة عن وادي عرنة الذي هو حد عرفة من المغرب ولا عبرة بمحاذاة العلمين القديمين الموضوعين حدا لعرفة بل العبرة بالوادي ومجراه القديم لأنه هو الحد الغربي لعرفة.

وقد تشكلت هيئة علمية لها خبرة ودراية للنظر في حدود عرفة وباشرت الهيئة عملها وتجولت في عرفة جنوبا وشمالا بالسيارات وطبقت الحدود المنصوص عليها في حدود عرفة واعتمدت الهيئة على ما ذكره ترجمان القرآن عبدالله بن عباس رضي الله عنه وعلى ما ذكره الإمام الشافعي رحمه الله في حدود عرفة وعلى ما ذكره المؤرخون والفقهاء وستضع الهيئة قرارا وافيا إن شاء الله تعالى وقد ذكر فضيلة المعقب حدود مزدلفة وذكر بعد ذالك أنه قد أشكل عليه الفضاء الواقع في الناحية الغربية الممتد حتى جبال المفجر وكذلك اشكل عليه الفضاء الواقع شرقي منى من الناحية الشمالية ورأى تأليف لجنة علمية تبحثه وتعطي قرارا ضافيا عنه إلى أن قال فضيلته: فإذا صدر مثل هذا القرار ينبغي وضع أعلام عليه إلى آخر ما ذكره وهذا الذي ذكره وجيه ولكن فيما لو قررت اللجنة أن الفضاء المتعلق بحدود مزدلفة والفضاء المتعلق بحدود منى ليس هما من مزدلفة ولا منى ولم يجد الحجاج موضعا ينزلون فيه سوى ذالك الفضاء الذي فيه الإشكال فهل يسوغ منعهم من النزول فيه بداعي أن فيه إشكالا وما حيلتهم وما ذنبهم وما يفعلون لو منعوا من النزول فيه؟! والذي ينبغي أن منى لو ضاق بالحجاج وكذلك مزدلفة فإن نزول الحجاج الذين لم يجدوا منزلا بمنى ومزدلفة بما جاور منى ومزدلفة يعطي حكم نزولهم في ذالك حكم نزولهم بمنى ومزدلفة للضرورة

وأصبح نزول الحجاج في ذالك سائغا ويكون حكمهم حكم المضطر المكره الذي نص المحققون من العلماء أنه لا دم عليهم وبذالك يندفع أيضا ما يحاوله بعض الأغنياء من طلب الإذن لهم بالبناء بمنى للتملك والإذن لهم لا يجوز بل الواجب هدم البناء الواقع الآن فيه للرجوع بذالك إلى عهد المصطفى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ومن كرم الله ولطفه بعباده المؤمنين أن المبيت بمنى ومزدلفة ليس بركن للحج ولا يفسد حج من لم يتزل بهما بخلاف عرفة فإن الحصول فيها ركن من أركان الحج فمن رحمة الله بعباده أن جعل عرفة تَسَعُ الملايين من الحجاج وقد تكلمت فيما استشكله فضيلة المعقب في الفضاء الواقع في حدود مزدلفة ومنى استطرادا لما ذكر قبله على أن الكلام في ذالك مرجعه رئيس الموحدين سماحة مفتي البلاد السعودية الشيخ الجليل محمد بن إبراهيم آل الشيخ حفظه وبالله التوفيق .

عبد الله عبد الرحمن بن جاسر

خلاصة قرار الهيئة :

وحاصل ما تقدم هو أن حَدّ موقف عرفة من الجهة الشمالية الشرقية جبل سَعْد .

ومن الجهة الغربية الأعلام الواقعة بين الموقف وبين وادي عُرَنَة ، ومنتهى مسجد إبراهيم القديم من الجهة الشرقية يبتديء هذا الحدُّ من الجهة الشمالية بملتقى وَصِيق بوادي عُرَنَة ، وينتهي من الجهة الجنوبية عندما يحاذي ما جاوز سفح الجبل الواقع بين طريق المأزِمَيْن ، وطريق ضَبٍّ من الجهة الشرقية غربي الواقف هناك بخط مستقيم .

ومن الجهة الجنوبية وجوه سلسلة الجبال الجنوبية من جهة الشمال والمخترق معها طريق الطائف ، وينتهي من الجهة الغربية بوادي عُرَنَة .

هذا وليعلم أن وجوه الجبال المحيطة بعرفات داخلة في الموقف . كما ذكر

ذالك إمام الحرمين حيث قال : ويطيف بمنعرجات عرفات جبال وجوهها المقبلة من عرفات .

وأن قرية عرفات وما أدخله الحد الجنوبي من حوائط ابن عامر داخل في الموقف ، ويشهد لهذا ما قاله الماوردي عن الشافعي : حيث وقف الناس من عرفات في جوانبها ونواحيها وجبالها وسهولها وبطاحها وأوديتها إلخ . ويُستَأنس لهذا بحديث عروة بن مُضَرِّس : والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه — الحديث . ولِما جاء في السُّنَن : أن يزيد بن شيبان كان في مكان بعيد عن موقف النبي صلى الله عليه وسلم ، فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم يقول : «كونوا على على شعائركم هذه» كما وأن وادي عرنة والمرتفع الذي بين العلمين وبين مجرى الوادي حاليا وبين مسجد إبراهيم القديم ووادي وَصِيق جميع ذالك خارج عن حدود موقف عرفات كما أوضحنا ذالك في مواضعه .

هذا وليُعْلَمْ بأنه لا فضيلة للوقوف على الجبل الذي يقال له جبل الرحمة ، بل كره الإمام مالك رحمه الله الوقوف على جبل عرفة . وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : ولا يُسَنُّ صعوده إجماعا .

هذا ما ظهر لنا من حدود هذا الموقف العظيم الهامّ بعد الاستقصاء للأدلة وتتبع الإشارة والمعالم التي يُهْتَدَى بها إلى معرفة الحدود وبعد سؤال أهل الخبرة والمعرفة من أهل مكة ومن سكان تلك الجهة .

هذا ونوصي بأن يوضع على الحدود التي أوضحناها والتي لم تحدد بعد أعلام كبيرة عالية لا يقل ارتفاعها ومتانتها عن أعلام حدود الحرم ، ويكتب عليها باللغات المشتهرة بأنها حدود الموقف وأن من وقف خارجها فلا يصح له حجه ، وأن يكون بين كل علمين مئة متر على الحد الأقصى . انتهى

ملاحظات الشيخ عبدالله بن سليمان بن مَنِيع

بسم الله الرحمن الرحيم : إلى أصحاب السماحة والفضيلة رئيس وأعضاء هيئة كبار العلماء وفقهم الله السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فأشير إلى قرار اللجنة المشكلة للنظر في حدود المشاعر ومحارمها والمؤيد من المقام السامي ومن هيئة كبار العلماء كما أُشير إلى تكليف معالي الرئيس العام لشؤون الحرمين وفضيلة الشيخ عبدالله البسام ومحبكم للقيام بالإشراف على تطبيق وتنفيذ القرارات الصادرة بتحديد المشاعر عرفة ومِنًى ومزدلفة .

وحيث أن القرار المطلوب الإشراف على تطبيقه وتنفيذه ، فيما يتعلق بمشعر عرفة هو القرار الصادر بتاريخ ١٣٨٨/١١/١هـ والموقع من المشايخ عبدالله ابن جاسر وعبد العزيز بن فوزان وعلوي مالكي رحمهم الله ومن الشيخ سليمان ابن عبيد .

وبدراستي القرار المذكور تمهيداً للاشتراك في تطبيقه ظهر عليه ملاحظات فيما يتعلق بالحدِّ الجنوبيِّ لِعَرَفَة .

وحيث أنَّ القرار المذكور قد نُسِبَتْ موافقة سماحة الشيخ محمد ابن إبراهيم رحمه الله ولم أعثر على ما يؤكد ذالك ، وقد صدرتْ موافقة المقام السامي ومجلس هيئة كبار العلماء على تطبيقه فلم يكن مَجَالٌ لبحث هذه الملاحظات مع لجنة الإشراف على التنفيذ ـ حتى لو أقرتها ـ حتى تعرض هذه الملاحظات على مجلسكم الموقر ، ويصدر بخصوصها ما يراه، مستنيرا في ذالك بما ذكره أهل العلم ، في تحديد الجهة الجنوبية لِعَرَفة .

وبناء على ذالك فإنني أتقدم لمجلسكم الموقر بهذه الملاحظات ذاكرا في مقدمتها ما يتيسَّرُ لي الاطلاع عليه من أقوال أهل العلم في تحديد الجهة الجنوبية لعرفة حتى يكون للملاحظات من هذه النقول مزيد وضوح وبيان ووجاهة .

١ ــ قال الشافعيُّ في « الأم » الجزء الثاني ص ١٧٩ :(وعرفة ما جاوز وادي عُرَنَة الذي فيه المسجد ، وليس المسجد ، ولا وادي عرنة من عرفة ، إلى الجبال القابلة على عرفة كلها ، مما يلي حوائط ابن عامر ، وطريق الحضن ، فإذا جاوزتَ ذالك فليس من عرفة) انتهى .

٢ ــ وقال النوويُّ في « المجموع » ج ٨ ص ١٠٥ ــ ١٠٩ : (وأما حدُّ عرفاتٍ فقال الشافعي رحمه الله : هي ما جاوز وادي عُرَنَة بعين مضمومة ثم راء مفتوحة ثم نون ــ إلى الجبال القابلة مما يلي بساتين ابن عامر ، هذا نص الشافعي ، وتابعه عليه الأصحابُ ، ونقل الأزرقيُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : حدُّ عرفةَ من الجبل المشرف على بطن عُرَنَةَ إلى جبال عرفاتٍ إلى وَصِيق ــ بفتح الواو وكسر الصاد المهملة وآخره قاف ــ إلى ملتقى وَصِيق ووادي عُرَنَة .

قال بعض أصحابنا : لعرفاتٍ أربعةُ حدود :

أحدها ينتهي إلى جادَّة طريق المشرق .

الثاني : إلى حافات الجبل الذي وراء أرض عرفات .

الثالث : إلى البساتين التي تلي قرية عرفات ، وهذه القرية على يسار مستقبل الكعبة إذا وقف بأرض عرفات .

الرابع : ينتهي إلى وادي عُرَنَةَ .

قال إمام الحرمين : ويُطيف بِمُنْعَرَجات عرفاتٍ جبالٌ وجوهها المقبلة من عرفات ، واعلم أنه ليس من عرفات وادي عُرَنَةَ ولا نَمِرَةَ ، ولا المسجد المسمَّى مسجد إبراهيم ، ويقال له أيضا مسجد عرفة ، بل هذه المواضع خارجةٌ عن عرفات على طرفها الغربيِّ ، مما يلي مُزْدَلِفَةَ ومِنًى ومكة . وأما مسجد إبراهيم فقد نص الشافعيُّ على أنه ليس من عرفات ، وأنَّ من وقف به لم يصحَّ وقوفه ، هذا نصه ، وبه قطع الماورديُّ والمتولي وصاحب « البيان » وجمهور العراقيين . وقال جماعة من الخُراسانيين منهم أبو محمد الجويني

والقاضي حسين في تعليقه وإمام الحرمين والرافعي : مُقَدَّمُ هذا المسجد من طرف وادي عُرَنَة لا في عرفات ، وآخره في عرفات . قالوا من : فوقفَ في مُقَدَّمِهِ لَمْ يَصِحَّ وقوفه ، ومن وقف في آخره صحَّ وقوفه قالوا : ويتميز ذالك بصخرات كبار ، فُرِشَتْ هناك . قال الشيخ أبو عمر بن الصَّلاَح : وجه الجمع بين كلامهم ونَصِّ الشافعي أنْ يكون زِيْدَ في المسجد بعد الشافعي هذا القدر الذي ذكروه والله أعلم — إلى أن قال — واعلم أنَّ عُرَنَةَ ونَمِرة بين عرفات والحرم ليستْ من واحدٍ منهما . وأما جبل الرحمة ففي وسط عرفات ، فاذا علمت عرفات بحدودها فقد قال الماورديُّ : قال الشافعيُّ : حيث وقف الناسُ من عرفات في جوانبها ونواحيها وجبالها وسهلها وبطاحها وأوديتها وسوقها المعروفة بذي المجاز أجزأه . انتهى كلام النووي من « المجموع » .

٣ — وقال الطبريُّ في كتابه « القِرى لقاصد أُمِّ القُرَى » قال الشافعيُّ في الأوسط ومناسكه : وعَرَفَةَ[١] ما جاوز وادي عُرَنَةَ وليس الوادي ولا المسجد منها ، إلى الجبال القابلة مما يلي حوائط ابن عامر ، وطريق الحضن ، وما جاوز ذالك فليس من عرفة حكى ذالك صاحب « الشامل » وحكى الشيخ أبو حامد الاسفرائيني أن الشافعي قال في القديم : وعرفةُ ما بين الجبل المشرف إلى الجبال القابلة يمينا وشمالا . ثم قال أعني الشيخ أبا حامد : والجبل المشرف جبل الرحمة . وحكى القولين صاحب « الذخائر » وقال صاحب « البيان » : حدُّ عرفة ما بين الجبل المشرف على بطن عُرَنَةَ إلى الجبال القابلة يمينا وشمالا مما يوالي حوائط ابن عامر وطريق الحضن . وروى الأزرقيُّ بسنده إلى ابن عباس أنه قال : حَدُّ عَرَفَةَ من الجبل المشرف على بطن عُرَنَةَ إلى أجبال عرفة ، إلى وَصِيْق ، إلى ملتقى وَصِيق إلى وادي عُرَنَة — إلى أن قال — وقال أبو زيد البَلْخيُّ : عرفةُ ما بين عُرَنَةَ إلى حائط ابن عامر ، إلى ما أقبل على الصخرات التي يكون بها موقف الإمام ، إلى طريق حضن . وقال : حائط ابن عامر عند عُرَنَةَ ، وبقربه المسجد الذي يَجْمَعُ فيه الإمام الظهر والعصر ، وهو حائط

نخل وفيه عين تنسب إلى عبدالله بن عامر بن كُرَيْز . قلت:وهو الآن خراب – إلى أن قال – وحَدَّدَ بعضُ أصحابنا عرفةَ فقال : الحد الواحد منها : ينتهي إلى جادّة طريق المشرق ، وما يلي الطريق .

والحد الثاني : ينتهي إلى حافّاتِ الجبل الذي وراء أرضِ عرفات .

والحد الثالث : ينتهي إلى الحوائط التي تلي قرية عرفة ، وهذه القرية على يسار مستقبل القبلة إذا صلّى بعرفة .

والحد الرابع : ينتهي إلى وادي عرنة انتهى .

٤ – وقال الشيخ عبدالله بن جاسر في كتابه « مفيد الأنام » ج ٢ ص ٢١ – ما نَصُّه : (قال في « المغني » « والشرح » « والمنتهى » « والإقناع » وغيرها : وحدُّ عرفات من الجبل المشرف على عُرَنَةَ إلى الجبال المقابلة له ، إلى ما يلي حوائط بني عامر انتهى . قلت : الجبل المشرف المذكور هو الجبل العالي شمالا عن جبل الرحمة ، وهو شرقي عرفة ، والجبال المقابلة المذكورة هي الجبال الجنوبية وهي حَدُّ عرفةَ من جنوب ، وحوائط بني عامر هي بساتين لبني عامر ، وكان بها عين ونخل تنسب إلى عبدالله بن عامر بن كُرَيز ، وهي الآن خراب ، وموضع العين فيما يظهر غربي مسجد عرفة الذي يسمى الآن مسجد إبراهيم ، وآثار العين المذكورة موجودة الآن قرب المسجد ، فحدُّ عرفة من هذة الجهة ليس هو حوائط بني عامر بل هو الذي يلي الحوائط المذكورة ، والذي يليها هو المسجد ، ومنه يتضح أن المسجد ليس من عرفة لأن الْحَدّ لا يدخل في المحدود ، والحدُّ الشاميُّ لعرفةَ بطنُ وادي عرفة . لأنه يأتي من الشمال إلى الجهة الغربية الجنوبية ، ووادي عُرَنَةَ حدٌّ لعرفة من جهة الغرب ، لأن نفس المسجد في وادي عُرَنَةَ فهذه حدود عرفة من الجهات الأربع ، ولم أرَ مَنْ حَدَّدَهَا غيري ولكن بالوقوف والتطبيق وفق الله لي ذالك) . انتهى

٥ – وقال الأزرقيُّ في كتابه « أخبار مكة » الجزء الثاني ص ١٩٤ :

(حدثنا أبو الوليد قال: حدثني جَدّي حدثنا محمد بن عبدالله بن عبيد بن عمير عن ابن نجيح عن مجاهد قال قال ابن عباس: حدُّ عرفة من الجبل المشرف على بطن عُرَنَةَ إلى أجبال عُرَنَةَ إلى الوَصيق إلى ملتقى الوصيق إلى وادي عُرَنَةَ قال: وموقف النبي صلى الله عليه وسلم عَشيّةَ عرفة بين الأجبل النبعة والنُّبيعة والنابت، وموقفه منها على النابت وهي الظِّرابُ التي تكتنف موضع الإمام، والنابت عند النشزة التي خلف موقف الإمام، وموقفه صلى الله عليه وسلم على ضِرْسٍ من الجبل النابت مضرس بين أحجار هنالك نَاتِئَةٌ في الجبل الذي يقال له إلاَل، بعرفة عن يسار طريق الطائف وعن يمين الإمام) . انتهى

وذكر محقق الكتاب رشدي مَلْحَس في حاشيته ما نصه : وعرفة أو عرفات ميدانٌ واسع، أرضه مستوية يبلغ نحو ميلين طولا في ميلين عرضا .

٦ ــ وقال ياقوت الحموي في كتابه « معجم البلدان » نقلا عن البشاري : (قرية عرفة قرية فيها مزارع وخضر ومباطخ، وبها دُور حسنة لأهل مكة ينزلونها يوم عرفة، والموقف منها على صيحة) . انتهى

٧ ــ وقال عبد الرحمن بن عيسى في كتابه « فتح المسالك » : (وحدُّ عرفة ما بين الجبل المشرف على بطن عُرَنَةَ إلى الجبال المقابلة لعرفة مما يلي حوائط ابن عامر وطريق الحضن؛ وما جاوز ذالك فليس منها) .

٨ ــ وقال حسين باسلامة في كتابه « حياة سيد العرب » الجزء الرابع (وعرفةُ هي الميدان المحدود بحدود أربعة .

الأول : شرقا جبال عرفة .

الثاني : غربا وادي عُرَنَةَ .

الثالث : شمالا الجبل العالي المسمى في كتب المناسك بجبل عُرَنَةَ وفي رواية جبل عرفة .

الرابع : جنوبا جبل وَصِيق ، ومنتهى الحدّ بساتين بني عامر المنسوبة إلى عبدالله بن عامر بن كُرَيز الأسدي[٢] وهو أول من أجرى العيون وزرع البساتين بعرفة ، وكانت هذه البساتين بين مسجد نمرة وجبل وصيق) . انتهى

قلت : لا يعرف جبل في الجهة الجنوبية لعرفة باسم جبل وصيق وإنما المعروف أنّ وصِيق وادٍ[٣] يأتي من خلف جبل سَعْد متجها شمالا ، ثم يتجه جنوبا ، ثم ينعطف متجها نحو الغرب ليلتقي بوادي عُرَنَةَ فيشكل ملتقاهُمَا حَدّ عرفة شمالا .

٩ ـ وقال الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه « مجامع الناسك » ما نصه : (فصل في حدود عرفة : اختلفت العبارات في ذالك . فقيل حده[٤] ما بين الجبل المشرف على بطن عُرَنَةَ إلى الجبال القابلة لعرفة مما يلي حوائط بني عامر وطريق الحضن وما جاوز ذالك فليس عرفة) . انتهى

١٠ ـ وقال ابن حجر الهيتمي في حاشيته على « الإيضاح » (قوله : مما يلي بساتين ابن عامر قيل كانت عند عُرَنَة ـ بالنون ـ وبقربها مسجد إبراهيم المسمى بمسجد عُرَنَةَ بالنون تارة وبالفاء أخرى لأن فيه جزء من كل منهما وكان بها نخل وعين ، تنسب إلى عبدالله بن عامر بن كريز) . انتهى

١١ ـ وقال النوويُّ في « الإيضاح » : (وبين المسجد والجبل الذي بوسط عرفات المسمى جبل الرحمة قدر ميل ، وجميع تلك الأرض يَصِحُّ الوقوف فيها) . انتهى

١٢ ـ وقال في « مراصد الاطلاع » الجزء الثاني : (وعرفة وعرفات واحد، وهو الموقف في الحج وحدّهُ من الجبل المشرف على بطن عرفة إلى الجبال المقابلة إلى ما يلي حوائط بني عامر) . انتهى

١٣ ـ وقال في « معجم البلدان » : (وعرفة حَدّها من الجبل المشرف

على بطن عَرَنَة إلى جبال عرفة و قرية عرفةَ ...، وقال ابن عباس : حدُّ عرفة من الجبل المشرف على بطن عرنة إلى جبالها إلى قصر آل مالك ووادي عرنة) . انتهى

وبعد تقديمي ما ذكرته أعلاه من أقوال بعض أهل العلم في ذالك أقدم ملاحظاتي وتتلخص فيما يلي :

١ ـ جاء في الصفحة الثالثة من القرار ما نصه :

وحدُّ موقف عرفة من الجهة الغربية وادي عرنة يبتديء من الجهة الشمالية من ملتقى وادي وَصيق لوادي عرنة ، وينتهي من جهة الجنوب عندما يحاذي أول سفح الجبل الواقع بين طريق الْمَأْزِمَين وطريق ضَبٍّ ، والذي بطرفه الشمالي قرية نَمِرَةَ من الجهة الشرقية غربي الواقف هناك وغربي سفح الجبال التي في منتهى عرفة من جهة الجنوب الشرقي بخط مستقيم . انتهى

هذه العبارة تدل على ما يلي :

أولا : أنَّ منتهى الْحَدِّ الغربي جنوبا هو ما يحاذي أول سفح الجبل الواقع بين طريق المأزِمَيْنِ وطريق ضَبٍّ وهذا الجبل إن أُريد(*) فهو يبعد غربا عن وادي عرفة قرابة الكيلوين(٥) وإذا أخذنا بمحاذاته شرقا إلى أن يجتاز الوادي إلى عرفة وصلنا إلى نقطة واقعة شمال المسجد وتبعد عنه بما لا يقل عن مئَتي متر ، وهذا يعني أن المسجد وما بعد المسجد شمالا حتّى قرابة مئَتي متر ليس من عرفة ، ولكن يظهر لي وقد وقفت على ذالك أنا والشيخ عبدالله البسام والشريف محمد ابن فوزان أن الجبل المقصود هو أول سلسلة جبال نمرة ، وإن كان يعتبر جنوبا عن طريق ضَبّ ، ولا يصدق عليه أنه واقع بين طريق المَأزِمَيْنِ ، وطريق ضَبٍّ إلاَّ أن محاذاته حتّى مجاوزة الوادي تتم عند ركن المسجد الجنوبي الغربي ، وهذا يتفق مع ما ذكره كثير من أهل العلم من أنّ حوائط بني عامر قرب المسجد ، وأنها الحد الجنوبي لعرفة ؛ ويتفق مع ما ذكره الشيخ عبدالله بن جاسر في كتابه

« مفيد الأنام » من قوله : وموضع العين فيما يظهر غربي مسجد نمرة وآثار العين المذكورة موجودة الآن قرب المسجد ، فحد عرفة من هذه الجهة ليس هو حوائط بني عامر بل هو الذي يلي الحوائط المذكورة والذي يليها هو المسجد . انتهى

ثانيا : قولهم : (بخط مستقيم) إذا أخذنا باستقامة الخط من غربي سفح الجبال التي في الجهة الجنوبية الشرقية لعرفة إلى ما يقابلها غربا فهذا يعني أنها تنتهي إلى نقطة في ضَفَّةِ وادي عُرَنَةَ ، تبعد عن المسجد جنوبا بما لا يقل عن الكيلومتر (٥) ولا يخفى أنّ المسجد على ضفة الوادي ، وبهذا تدخل حوائط بني عامر في مشمول عرفة ، وينتقض قولهم : بأن الحد الغربي لعرفة ينتهي بمحاذاة أول سفح الجبل الواقع بين طريق المأزمين وطريق ضب .

ولو قيل في القرار : بأن الحد الجنوبي يبتديء من انتهاء الحد الغربي لعرفة من محاذاة أول سفح الجبل الواقع بين طريق المأزِمَيْنِ وطريق ضَبٍّ حتى يصل إلى آخر سلسلة من الجبال الجنوبية حيث يكون الحد متجها من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي — لكان هذا متفقا مع تحديد القرار بانتهاء الحد الغربي إلى محاذاة أول سفح الجبل الواقع بين الطريقين ، ولما أُدْخِل حوائط بني عامر في عرفة ، ولَـمَّا امتدّ الحدُّ جنوبا عن المسجد بما لا يقل عن الكيلومتر (٥) .

ثالثا : جاء في القرار في الصفحة السادسة منه تحديدٌ لمسافة الحد الغربي الغربي من ملتقى وصيق بوادي عُرَنَةَ إلى منتهاه الجنوبي بخمسة آلاف متر . وقد تقدم القرار أنّ منتهى الحد الغربي لعرفة في اتجاهه إلى الجنوب هو أول سفح الجبل الواقع بين الطريقين — طريق المأزِمَيْنِ وطريق ضب . ولكن هذا القول يناقض ما ذكر في القرار في الصفحة السادسة منه حيث جاء فيه ما نصه : كما وأنّ مساحة ما بين منتهى مسجد إبراهيم من الجهة الشرقية الجنوبية وما بين منتهى الحد الجنوبي الغربي ألف وثلاث مئة متر . أه علاوة على هذا القول قد أدخل

حوائط ابن عامر وقرية عرفة الواقعة شرق حوائط ابن عامر في عرفة ، وفيه مناقضة أخرى وهي أن النص صريح في أن طول الحد الغربي لعرفة خمسة كيلو(ه) ، بينما جاء في القرار في الصفحة السادسة منه أن طول المسافة من ملتقى وصيق بوادي عرنة إلى جبل الرحمة ثلاثة كيلو(ه) ، ومن جبل الرحمة إلى ملتقى الحد الجنوبي بالغربي ثلاثة كيلو(ه) فهذه ستة كيلو(ه) لا خمسة ، إلا أن تكون زيادة الكيلو(ه) في مقابلة انحراف الحد إلى جبل الرحمة ، ومن جبل الرحمة ، فهذا يمكن اعتباره رداً على القول بتناقضه .

رابعا : لا يخفى أصحاب السماحة والفضيلة أن جمهور أهل العلم على أن حدّ عرفة من الجهة الجنوبية حوائط ابن عامر ، ويتضح ذالك من المنقول عنهم في صدر هذا الخطاب. وأكثر من أبان الموضوع ووضحه وذكر أن ذالك منه عن طريق المشاهدة وتطبيق نصوص أهل العلم عليها هو الشيخ عبدالله بن جاسر رحمه الله في كتابه « مفيد الأنام » وقد تقدم نقل قوله في ذالك ومع هذا فقد أدخل القرار حوائط بني عامر وقرية عرفة في مشمول عرفة ، ونص في القرار على ذالك في الصفحة السابعة منه وهـــذا نصه : (فتكون قرية عرفات وما أدخله الحد المذكور من حوائط ابن عامر داخل جميع ذالك في عرفات) . انتهى وما ذكره في القرار دليلا على ذالك لم تتضح لي الدلالة منه .

وقد خرجت أنا وفضيلة الشيخ عبدالله البسام والشريف محمد بن فوزان منذ أسبوع من تاريخ خطابي هذا وجرى منا التجول والتعرف على ما بَعْدَ المسجد جنوبا فاستغرب محمد بن فوزان أن تمرّ عرفة جنوبا بعد المسجد إلى ما ذكر في القرار وقال : إني أحفظ عن عمي فائز حين كنا مع المشائخ أصحاب هذا القرار قوله : الله يجزاكم خير وسعتم على المسلمين . وذالك حينما قالوا بعد الحد جنوبا إلى ما بعد المسجد بمسافة كيلو وثلاث مئة متر .

أصحاب السماحة والفضيلة : تعرفون حفظكم الله أن الحج عرفة ، وأن من

لم يقف بعرفة فحجه غير صحيح ، وأن الأمر في العناية بمعرفة حدودها أكثر أهميـــة من المشاعر الأخـــرى مزدلفة ومنى . وأن إدخال شيء فيها والحال أنه ليس منها يعني تعرض حجاج بيت الله لفساد حجهم ، وإذا كان في الأمر شيء من الغموض فإن الاحتياط يقضي بترك ما فيه شبهة أنه من عرفة إلى ما لا شبهة فيه أنه منها ، والمحقق من أرض عرفة والحمد لله مساحة واسعة قد لا تنقص عن عشرة كيلو متر(٥) .

هذا ما تعيَّن علي إحاطة المجلس به ، وأرجو أن يصدر منه قرار يُعَيِّنُ الْحَدّ الجنوبيَّ لعرفة ، وتكون اللجنة المشرفة على تحديده على بينة من ذالك والله يحفظكم .

محبكم

عضو هيئة كبار العلماء

عبدالله بن سليمان بن منيع

العـــــرب :

(١) وقع في المطبوع من كتاب « القرى لقاصد أم القرى » تطبيع – أي خطأ مطبعي حيث ورد النص فيه – ص ٣٤٧ – : (وعرفة ما جاوز وادي عرفة ، وليس الوادي ولا المسجد منها) . والصواب (وعرفة ما جاوز وادي عرنة) إلى آخره .

(٢) عبدالله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ، قرشي من بني عبد شمس وليس أسدياً ، ولد في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو من مشاهير الأمراء في العهد الأموي .

(٣) وقد تبدل الصاد سيناً ، وقال أبو علي الهجري : ووادي وسيق الذي يدفع في نعمان منشمه من كبكب ، يدفع منه حيث يدفع رهجان ، وقال الهذلي : وصيق – بالصاد – وقال هو موطء .

(٤) كذا (حده) ولعله أراد الموضع .

(٥) حبذا لو عربت هذه الكلمة الأعجمية فقيل (كيل) على وزن (ميل) كما عرب المتقدمون كلمة (ميل) وأصلها (مايل) وهي أعجمية فقالوا : ميل وميلان وثلاثة أميال وكامات كيل وكيلان – في حالة الرفع وكيلين في حالة الجر – وثلاثة أكيال تنسجم مع الأسلوب العربي .

(*) يظهر أن في هذه العبارة نقصا ، حيث لم يذكر الجبل المقصود بها .

— ٦ —

القَعْقَاعُ

— بفتح القافين بينهما عين ساكنة وآخره ألف وعين — قال في « معجم البلدان » يقال : طريق قَعْقَاعٌ إذَا بَعُدَ،واحتاج السائر فيه إلى جِدٍّ ، سُمِّيَ بذالك لأنه يقعقع الركاب ويتعبها .

وقال : القعقاع طريق تأخذ من اليمامة والبحرين ، كان في الجاهلية . انتهى . وكلمة (من) لعل صوابها : (بين) على أن الذي في كتاب « مراصد الاطلاع » وهو مختصر « معجم البلدان » : القعقاع طريق آخذ من اليمامة والبحرين . مما يفهم منه صحة كلمة : (من) وأن هذا الطريق يمتد منهما .

وفي « تاج العروس » : القعقاع طريق من اليمامة إلى الكوفة — كذا في « الصحاح » و « العُباب » وقيل : إلى مكة هكذا في بعض نسخ « الصحاح » وأورد بيت ابن أحمر في وصف الإبل .

وفي « معجم ما استعجم » : القعقاع طريق معروف من اليمامة إلى مكة ، قال أوس بن حَجَر :

يُوازِي مِنَ القَعْقَاعِ مَوْرًا كأنَّه إذَا ما انتحى للقَصْدِ سَيْحٌ مُشَقَّقُ

كلُّ طريق مَوْرٌ ، وشبه السُّبُل بالجداول .

كِلاَ طَرَفَيْهِ يَنْتَهِي عِنْدَ مَنْهَلٍ رُوَاءٍ فَعُلْوِيٌّ وآخرُ مُعْرِقُ

يريد أنَّ أحدهما إلى العالية ، والآخر إلى العراق ، فالقعقاع بينهما . وقيل إنه جبل الشُّرَيْف قال ابنُ أحمر :

وَقَفْنَ على العَجَالِزِ نِصفَ يَوْمٍ   وَأَدَّيْنَ الأَوَاصِرَ والخِـلالا
وصَدَّتْ عَنْ نواظِرَ واسْتَعَنَّتْ   قَتَاماً هاجَ صَيْفِيّاً وآلا
فلما أنْ بَدَا القعقاعُ لَجَّتْ   على شَرَكٍ تُنَاقِلُهُ نِقَالا

قوله : العجالِز : يريد رَمْلَ عَجَلْز . ونواظِر آكامٌ معروفة . واستعنَّتْ : أي عَنَّ لها انتهى .

أكثر الأقوال يفهم منها أنَّ القعقاع يُقْصد به الطريق الممتد من الكوفة إلى مكة مارًّا باليمامة ، وبعالية نجد ، ويزيد هذا إيضاحاً قولُ أوسٍ ، وشرحُ البكريِّ بأن طرفَيْ ذالك الطريق إلى العالية والآخر إلى العراق ، فالقعقاع بينهما .

وشعر عَمْرِو بن أحْمَرَ يؤيِّدُ هذا فقد وصف إبلا مُتَّجِهَةً شرقا وقفتْ على العجالز – جمع عجلز – وهي في طريق الحج البصري في غرب مدينة عُنَيْزَةَ في طرف رمل الشُّقَيْقَةِ على ما يفهم من تحديدها في كتب المتقدمين ، وانظر الاسم في « معجم بلاد القصيم » ولما صدَّتْ تلك الإبلُ عن نواظر ، وهي أنقية من الرمل لا تزال معروفة غرب الدهناء متصلة بها – حَدَّدْتُ موقعها في « قسم شمال المملكة » من « المعجم الجغرافي » وهي واقعة بين طريقي الحج البصري والكوفي ، ولعل قصد الشاعر أن تلك الإبل بعد أن جاوزتْ العجالز في غرب القصيم انحرفتْ عن الطريق البصري يمينا ، وتركت نواظر يمينها أيضا ، فبدا لها طريقُ القعقاع في الدهناء ، وهو الطريق المتجه من الأجْفرِ شرقا مارًّا بِزَرُود ، وما بعدها من منازل الطريق إلى الكوفة .

أمَّا نَقْلُ البكري أن القعقاع جبل الشُّرَيف فَمَنْشَأُه أنَّ لباهلة في أرض الشُّرَيْفِ جبالاً تعرف بالقعَاقِع – جمع قَعْقَاع – ذكرها ياقوت وغيره وتلك غير الطريق .

وما دامتْ كلمة (القعقاع) كانتْ في الأصل وصفا للطريق الطويل

المتعب ، فإنَّ طرق البحرين واليمامة إلى ما حولهما من الأقطار تَتَّصِفُ بذالك الوصف ، وعلى هذا يُحْمَلُ كلام ياقوت .

ومع بقاء استعمال كلمة (القعقاع) في نجد يقصد بها القاع الواسع — إلاَّ أنني لا أعرف في الطريق بين اليمامة والبحرين طريقاً بهذا الاسم ، وقد ذكرت أشهر الطرق في رسم دَرْبٍ وطريق .

القُعَامِيَّات

— بلفظ الجمع ، بعد القاف عين — : من نواحي الرُّبْع الخالي ، الذي تتجول فيه قبيلة آل مُرَّةَ ، ورد ذكرها في بحث أعده (قسم البحث والترجمة في شركة أرامكو) عن قبيلة آل مُرَّةَ ، ونشر في مجلة «العرب»[1] ومما جاء فيه : (أما الغرب عن المنطقة الرئيسة لآبار الماء الممتدة من شمال إلى جنوب مُتَجَوَّلِ آل مرة في المناطق التي تذكر أسماؤها أدناه : القعاميات ، الحوايا ، الشويكلة ، الأوراك ، كرش البعير) .

قُعْمَةُ

ماء من موارد البادية في منطقة الخفَقِي ،ومن الخطإ كتابة الخفقي بالجيم — (الخفجي) مجاراة لنطق سكان شرق الجزيرة ، حيث يكثر إبدالهم القاف جيما فيقولون في (قاسم) و (العنقري) : (جاسم) و (العنجري) وهكذا ما شابههما من الأسماء .

القُعَيْمة

— بضم القاف وفتح العين المهملة والميم بينهما ياء مثناة تحتية ساكنة وآخره هاء ، وهم ينطقون القاف جيما (الجعيمة) — : من قرى القَطِيف ، وقد تقدم ذكر هذا الاسم في حرف الجيم ، مجاراة للنطق وجاء في كتاب « دليل

الخليج » : جعيمة : من مياه واحة القطيف . في الشمال الشرقي من صَفْوَا بنحو ثمانية أميال ، بقرب ساحل البحر ، عليه نخل قليل لبنى هاجر . انتهى .

القَفَا

— بالقاف والفاء مفتوحتين ، وآخره ألف — : صحراء واقعة في شمال الظفرة ، جاء وصفها في الكتاب المتعلق بقضية البُرَيمي بما نصه(٢) : بين الطَّفّ إلى الشمال والبِطانة إلى الجنوب تقع رمال القفا المُتموجة المتراصة . وتحتوي هذه المنطقة على عدد من الآبار ذات الماء العذب ، غير أنها لا تُهَيِّئُ أفضل المراعي في الظفرة . ويسهل السفر على الإبل وبالسيارات نتيجة لسهولة مسلك التكوينات الأرضية .

وسُمِّيَتْ القفا بهذا الا سم لأنه إذا ما سار المرء إلى الشمال ترك رمال الجنوب الكثيفة قفاه — أي خلفه — في هذه المنطقة . وتسمى المنطقة أيضا بالسَّاروق وهي كلمة يستعملها البدو للدلالة على منخفض طويل يقع بين مرتفعين . والمرتفعان هنا هما أراضي الطَّفّ العالية ورمال البِطانة العالية .

وقد أخطأ الرحالة الانكليزي (ولفرد تسيجر) عندما وصف القفا والسَّاروق بأنهما مكانان مختلفان . ثم إنه يتضح من الطريق الذي اتبعه من الجِوَاء إلى (أبو ظَبي) ومن وصفه للتكوينات الأرضية ، أن ما وصفه بالقفا إنما هو حقيقة البطانة ، وما وصفه بالساروق إنما هو حقيقة الطرف الغربي للحمرة . انتهى .

قِفَاف الصَّمَّان

— جمع قُفّ ، وهو ما ارتفع من الأرض وغلظ ، ولم يبلغ أن يكون جبلا ، قال ابن شُمَيْل : ويكون في القُفّ رياضٌ وقِيعان .. قال الأزهري : وقفاف الصَّمَّان بهذه الصفة ، وهي بلاد عريضة واسعة ، فيها رياض وقيعان ، وسُلْقَانٌ كثيرة ، وإذا أخصبت ربعت العرب جميعا بكثرة مراتعها ، وهي

من حزون نجد[٣] . وأكثر أرض الصمان قفافٌ ورياض ، فالكلمة وصف ، وليست علما .

القُفَيْلَةُ

– بضم القاف وفتح الفاء وإسكان المثناة التحتية تصغير قفلة – : أكَمَةٌ تقع شرق جبل غُرَيْميل . جنوب بُقَيْقٍ ، وهي من الأماكن الأثرية .

القِلاتُ

– بكسر القاف وآخره تاء ، جمع قَلْتٍ واحدتها قَلْتَةٌ ، وهي المكان المنخفض الذي يستنقع فيه الماء –

ونقل ياقوت في « المعجم » عن الأزهريِّ قولَه : وقلات الصمان نُقَرٌ في رؤوس قفافها ، يملأها ماء السماء في الشتاء ، ووردتُها مَرَّةً وهي مفعمة ، فوجدت القلت منها يأخذ مِئَةَ راويةٍ ، وأقل وأكثر ، وهي حُفَرٌ خلقها الله في الصخور الصُّمِّ . وقد ذكرها ذو الرمة – وأورد بيتا من شعره الذي تكرر فيه ذكرها ، وما أراه عَنَى إلا ما وصفه الأزهري ، حيث قرن ذكرها بشارعٍ أحَدَ أنقية الدهناء .

على أنه يفهم من كلام أورده صاحب كتاب « بلاد العرب » وتقدم ذكره في الكلام على شارع أنَّ القِلاتَ مَصْنَعَةٌ لِضَبَّةَ بِالجِوَاء . والجِوَاء هنا أرضٌ واقعة شرق الدهناء ، بينها وبين الصمان ، تكثر فيها مجامع المياه كالقِلاتَ والمصانع والدُّحُول ، تقدم الكلام عليها ص : ٤٢١ – وقِلاتُ الصَّمَّان ورياضه من الأمكنة التي كان يألفها ذو الرمة ، وهناك مرابع أحبابه ، ومراتعهم . ومن شعره :

أمِنْ دِمْنَةٍ بَيْنَ القِلاتِ وشَارِعٍ
تَصَابَيْتَ حتَّى ظَلَّتِ العَيْنُ تَدْمَعُ[٤]

القلات : موضع ، وقيل : جمع قلت ، وهي نُقْرَةٌ تكون في الصفا ، يجتمع الماء فيها . وقال :[٥]

أَلاَ لَيْتَ أَيـَّامَ القـلاَتِ وشـارِعٍ
رَجَعْنَ لَنَا ، ثُمَّ انْقَضَى الْعَيْشُ أَجْمَعُ

وقال[٦] :

خَلِيلَيَّ عُوجا عَوْجَةً نَاقَتَيْكُمَا عَلَى طَلَلٍ بَيْنَ الْقِلاَتِ وَشَارِعِ

الْقَلاَيِبُ

من موارد آل مُرَّة ، في سَلْوَا ، في جنوب المنطقة بقرب حدود بلاد قَطَر .

القَلْت

بفتح القاف وإسكان اللام وآخره تاء مثناة فوقية — : موضع يقع غرب قرية الصُّفَيري الواقعة شمال وادي الباطن (فَلْج قديما) في أعلى شعيب الْفَأْوِ الشمالي ، جنوب الوقبا ، في الشمال الغربي من بلدة الحفر .

وهناك ماء في ذالك الموضع يدعى الْقَلْت .

القَلْعَةُ

— يطلق الاسم على كثير من المواضع التي تُهَيَّأُ للتحصن ، ولتكون مقرًّا للجند — وكان الاسم يطلق على حيٍّ من أحياء مدينة القطيف ، بشكل قلعة محاطة بسور ، وتدعى الْفُرْضة ، لكونها على شاطيء البحر . وقد أُزيل سور هذه القلعة ، فاتَّصلتْ في البنيان بأحياء المدينة — وتقدم الكلام عليها عند ذكر القطيف .

القُلَيْبُ

– على لفظ تصغير قَلْب – : جبيل يقع غرب جبل الحِصان ، شرقي الجربة ، شرق مُطَار ، بميل قليل نحو الشمال ، في غرب الصَّمَّان وشرق الدهناء .

القُلَيْب

– بضم القاف تصغير القَلِيب بمعنى البئر – : هِجْرَةٌ تقع في الجنوب الغربي من العيينة شرق جبل رُحَيَّة بمنطقة نطاع – وادي المياه – من هُجر قبيلة العُجْمان سكانها آل ناجعة منهم . وورد ذكرها في « دليل مدارس وزارة المعارف لعام ١٣٩٨/١٣٩٩هـ » باعتبارها من قرى منطقة النُّعيرية ، وأنها تبعد عن مدينة الدمام ثلاث مئة وخمسون كيلا ، في الشمال الغربي .

القَلِيبَةُ

– بفتح القاف – هجرةٌ لآل عَذْبَةَ وآل عازب وآل مُهَيدة من قبيلة آل مُرَّة بمنطقة حرض بقرب يَبْرِينَ ، جنوب جبل ضَبُع .

القُلَيْعَةُ

بضم القاف تصغير القلعة – : قال في « معجم البلدان » : والقُلَيْعَة بالبحرين لعبد القيس . انتهى .

ويفهم مما جاء في كتاب « المناسك[٧] » أنها بمنطقة القطيف ، فإنه بعد أن ذكر الزّارة وكانت قاعدةَ القطيف ، وذكر أنَّ صاحبها أحمد بن سَلْم العبدي قال : (ثم القليعة ، وهي لأحمد بن سلم ، وبها منبر ، مدينة كبيرة ، مدينة بَدْو ، ويسكنها بنو سعد ، والمملكة لعبد القيس) . انتهى .

وهي مما درس من المواضع ،ويظهر أنها في ضاحية من ضواحي القطيف ،في

طرف الواحة ، بعيدة عن المواضع التي تكثر فيها المستنقعات ، التي تسبب الإصابة بالحمى ، ولهذا كانت مدينة بدو ، يألفونها ، كقرية أم السَّاهِك وعُنَك – في عهدنا الحاضر بالنسبة لأبناء البادية – .

قَمَادَى

قال في « معجم البلدان » : – بفتح القاف – : قريةٌ لعبد القيس بالبحرين. انتهى .

كذا ورد الاسم في مطبوعة كتاب « المعجم » بالدال ، وفي مختصره « مراصد الاطلاع » ورد بالراء : قَمَارَى ، ولم أر لهذه القرية ذكرا فيما اطلعت عليه من كتب .

القِمْعَةُ

– انظر الكمعة حرف الكاف – .

القُمَمِيَّةُ

ماء ببطن فَلْجٍ ،فوق الحَفَر ليس لبني نَهْشَلٍ غيرها وغير لصاف (اللصافة) على ما ذكر صاحب كتاب « بلاد العرب »[8] قال : – بعد ذكر القرعاء – : (ثم يجنبها لَصَاف ، وهي لبني نهشل ، وفيها يقول الراجز :

يَالَيْتَ عَنَّـــــا وبني مَنَـــــاف
والنَّهْشَلِيِّيـــنَ عَلَـــى لَصَـــاف
قَد ارْتَمَيْنَـــا حَجَرَيْ قِـــذاف

وليس لبني نَهْشل غيرها وغير القِمَمِيَّة ، وهي ببطن فلج ، فوق الحفر) . انتهى .

وفلج هو وادي الباطن ، والحَفَرُ المدينة المعروفة الآن فيه ، واسم القممية ليس معروفا الآن ، وأكثر المياه التي فوق الحفر تغيرت أسماؤها القديمة . وبنو نهشل من بني تميم .

القُنَّتَانِ

مثنى قُنَّة — قال ذُو الرمةُ(٩) — يصف حمارَ وَحْشٍ — :

أَوْ مُخْطَفُ البَطْنِ لاحَتْهُ نَحَائِصُـــــه
بِالقُنَّتَيْنِ ، كِلاَ لِيتَيْــهِ مَكْـــدُومْ

لاحته : أضمرته . نحائصه : أتنُه التي لم تحمل ، وأحدها نَحُوص .
والقنَّتانِ : موضع كذا ورد في « ديوان ذي الرمة » شرح أبي نصر الباهلي .
وجاء في « معجم ما استعجم » قنة — معرفة لا تنصرف — موضع في ديار بني تميم ، قال رؤبة :

تَرَبَّعَتْ مِنْ قُنَّـــــة الْخُرْطُومَا

ويظهر أنّ الْقُنَّتَيْنِ من مواضع الصَّمَّان ، وهو من بلاد بني تميم — كما هو معروف — ويؤيد هذا قول ذي الرُّمَّة — بعد البيت المتقدم — :

حَـــــادِي مُخَطَّطَـــةٍ قُمْـــرٍ يُسَيِّرُها
بِالصَّيْفِ مِنْ ذُرْوَةِ الصَّمَّـــانِ خَيْشُـــوم

وجاء في شرح هذا : إذا جاء الصيف سَيَّرَ خَيْشُومُ هذه الحُمُرِ إلى موضع ماء يقال له خَيْشُوم . وقال أيضا : خَيْشُوم موضع ليس فيه ماء . كذا ورد في شرح الديوان ، وما أكثر القُنَنَ في الصَّمَّان وهي ذُرْوَةُ قفافه وآكامه .

القِنْـــعُ

قال في « معجم ما استَعْجم » القِنْعُ : بكسر أوله ، وإسكان ثانيه ، بعده عين مهملة : ماء لبني سعْدٍ ، على ثلاثة أيام من خَوٍّ ، وهو على ليلة من الدُّحْرُضِ ، إذا صَدَرْتَ عنها تريد هجر .

كلمة (خو) صوابها (جَوّ) كما سيأتي — وهذا الموضع — على ما يفهم من تحديد موقعه في طريق اليمامة إلى هَجَر ، المارّ بجَوّ الخضارم — في الْخَرْج ، ويظهر أنه بقرب الدهناء ، كما يفهم من معنى القِنْع إذ هو أسفل الرمل وأعلاه — كما نقل ياقوت في « معجم البلدان » عن أبي عُبَيد ، وأضاف : وقال الأصمعيُّ : القِنْع مُتَّسَعُ الحَزْنِ حين يُسْهِل ، وحكى نصرٌ أنَّ الْقِنْعَ جبلٌ وماء لبني سعد بن زيد مناة بن تميم باليمامة على ثلاث ليال من جَوّ الخضارم — ثم أورد ياقوت شاهداً من شعر مُزَاحِمٍ العُقَيْلِيِّ ما أراه ينطبق على هذا الموضع ، لبعد بلاد مزاحم عنه .

ويفهم من تحديد البكري أنّ الموضع يقع شرق الدُّحْرُض الذي تقدم الكلام عليه ، والاختلاف هل هو شرق الدهناء أو غربها ، والقول بأنّ الدحرض على ثلاث ليال من جَوّ يفهم منه أنه شرق الدهناء ، ويؤيد القول بأن الدحرض هو حَرَضٌ المعروف الآن ، والعامة كثيرا ما يتصرفون بالأسماء فيغيرونها بإبدال بعض حروفها وحذف بعضها .

وقول نصر الذي أورده ياقوت ليس نَصٌّ ما في كتابه ، فهو لم يقل في اليمامة ، ونَصّ ما ورد في الكتاب (باب القِنْع والْقَنَعِ . أما بكسر القاف وسكون النون — : جبل وماء لبني سعد بن زيد مناة على ثلاث ليال من جَوّ ، وما بفتح القاف والنون — : جبل بين مُربِخٍ والثَّعلبية) . انتهى — وبلاد بني سعد تمتد من الغرب : الخرج إلى الأحساء ، ومن الجنوب من يَبْرِينَ إلى السِّيدان — داخل حدود الكويت — ويظهر أن القِنْعَ يقع شرق حَرَض ، فهو خارج اليمامة .

الْقُنْفُذُ

— بضم القاف والفاء بينهما نون ساكنة — وآخره ذال معجمة : أبْرَقٌ بين الدهناء والصَّمَّان — تقدم ذكره في رسم الصُّبيغاء ، وأنه أبرق بعد برقاء الصُّبيغاء

التي بمنقطع الدهناء شرقا . فإذا جُزْتَ القُنْفُذَ استقبلت الصَّمَّان . ونقل ياقوت عن الأصمعيّ : كل موضع كثير الشجر قنفذ . وذكر قنافذ الدهناء .

قَنُّـــورُ

بفتح القاف وبالنون المشددة المضمومة بعدها واو ساكنة فراء — : موضع يقع شرق الحناة ، بنحو عشرين كيلا ، يدعه طريق الكنهريّ شمالا قبل وصوله إلى الحناة . وهو في الشمال الشرقي من ثاج بنحو خمسة وثلاثين كيلا ، أرض سبخة في جانبها آبار ، وفيها مَمْلَحَةٌ ، يستخرج منها الملح الحجري ألواحاً ومِلْحُهَا جيِّد ، ويمر طريق الكنهري من الجُبَيْل إلى الحنَّاءة بانحراف يسير إلى اليسار عنها ، وشرق قَنُّورِ أكمة تدعى الحلية (تقع قَنُّور بقرب خط الطول : ٥٠ َ/٤٨ ْ وخط العرض : ٢ َ/٢٧ ْ) .

وفي « معجم البلدان » عن الأزهري : رأيت في البادية ملاَّحة تسمى قنور — بوزن سَفُّود ، وملحها من أجود الملح . ومثل هذا في « تاج العروس »[١٠] وهو نص ما في كتاب « تهذيب اللغة » للأزهري[١١] .

(للبحث صلة)

الحواشي :

(١) ٤/٦١٨
(٢) « عرض حكومة المملكة العربية السعودية » : ١/٢٢ .
(٣) : « معجم البلدان » — القف .
(٤) : ديوانه : ٧١٨
(٥) : ٧٢٢
(٦) : ٧٧٧
(٧) : ٦٢١ .
(٨) : ص ٣٥٣ .
(٩) ديوانه : ٤٣٣ .
(١٠) : — ق ن ر — .
(١١) : ٩/١٠١ .

(مقنا) البلدة الأثرية والاغلاط حولها

أتحفتْ مصادفة بدون تطلع بنسخة من الكتاب الذي يحوي أبحاث الندوة العالمية الثانية لدراسة تاريخ الجزيرة العربية الذي أصدره قسم التاريخ والآثار والمتاحف في كلية الآداب جامعة الملك سعود في الرياض .

ولقد كان من أول ما شدني للمطالعة من الأبحاث بحث الأستاذ الدكتور رشيد سالم الناضوري من قسم التاريخ والحضارة في كلية الآداب (جامعة الاسكندرية) بعنوان (حول أرض مَدْيَن) ، لأنني قد عِشْتُ في تلك المنطقة حقبة من الزمن حين كنت قاضياً في مدينة ظبا في سنة ١٣٥٧هـ ، وعرفتُ كثيراً من مواضعها ، وكتبت عما عرفته منها في القسم المتعلق بشمال المملكة من كتاب « المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية » الذي صدر في ثلاثة أجزاء منذ سبع سنوات .

وكان مما لفت نظري في بحث الدكتور الناضوري أمران : أحدهما حول اسم (مَقْنَا) ، والثاني يتعلق بالرسم الجغرافي (الخريطة) الذي رسمه لتعيين مواضع في تلك المنطقة .

فحول **الأمر الأول** قال الأستاذ : (وقد اتجه الرأيُ إلى أنّ موقع ماكنة (MAKNE) هو موقع مدين، ولكن من ناحية أخرى اتجهت الأنظار إلى موقع مغاير شعيب والتي لا تزال تحمل اسم شعيب عليه السلام[1]) .

وما لاحظته هنا هو الخطأ في كتابة الاسم أولاً ، ثم في موقع رسمه في المصور الجغرافي[2] .

إنّ الاسم الصحيح هو (مَقْنَا) – بالميم المفتوحة بعدها قاف ساكنة فنون فألف مقصورة – كما هو معروف منذ القدم حتى الآن .

فقد أورد ابنُ سعد في كتاب « الطبقات[٣] » نصَّ كتابِ الرسول صلى الله عليه وسلم لأهل مَقْنا وقال : ومقنا قريب من أَيْلَة ، وذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح أهل مقنا على أخذ ربُعَ ثمارهم وربُعُ غزولهم ونقل عن محمد بن عمر الواقدي : وأهل مقنا يهود على ساحل البحر .

وفي كتاب « المغازي[٤] » للواقدي أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى رَجُلَيْنِ أسْلَمَا ، وقدِما عليه بتبوك ربُعَ مَقْنا مما يخرج من البحر ومن الثمر من نخلها .

أما كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أورده ابن سعد كاملاً في « الطبقات » وأورد الدكتور محمد حميد الله في كتابه « مجموعة الوثائق السياسية[٥] » الكتاب وبعده أورد نصَّ معاهدة تتعلق بمقنا .

والذي يعنينا من ذالك هو صحة الاسم الذي رسمه ياقوت في « معجم البلدان » صحيحا ، وساق بعض النصوص المتقدمة .

وفي عهدنا رسم المستشرق (الويس موسل) اسم مقنا صحيحا وقال في كتاب « شمال الحجاز[٦] » : (إن مكنا (MAKANA) الواردة في جغرافية بطليموس هي واحة مَقْنا المعروفة على ساحل خليج العقبة على الرغم من أن التفصيلات الّتي ذكرها بطليموس لا تتفق مع ظواهر المكان) .

وغرابة اسم مقنا سَبَّبَتْ وقوع التصحيف فيه منذ عهود قديمة ، فقد صُحِّفَ إلى (مينا) كما ورد في كتاب « السيرة النبوية[٧] » لابن هشام بهذا النص : (أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث زيد بن حارثة نحو مَدْيَنَ فأصاب سبياً من أهل ميناء وهي السواحل وفيها جماعٌ من الناس فَبيعوا فَفُرِّقَ بينهم ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يبكون ، فقال : « ما لهم » ، فقيل : فُرِّقَ بينهم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا

تبيعوهم إلا جميعا » ، أراد الأمهات والأولاد) . (ميناء) هنا تصحيف (مقنا) .

وصُحِّف الاسم أيضا إلى (ميتا) كما جاء في كتاب « الخطط[8] » للمقريزي في خبر سرية زيد بن حارثة إلى مدين فأصاب سَبْياً من أهل (ميتا) قال ابن اسحاق : وميتا هي السواحل .

وصُحِّف اسم مقنا (مسى) في كتاب « الروض المعطار[9] » للحميري في ذكر كتاب يزعم أهل مَدْيَن أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم كتبه لهم ، قال : (وهو عند أهل قرية من سواحل مدين يقال لها مسى) انتهى .

وقد انتقل التصحيف إلى هذه الكلمة حين صحف اسم مقنا إلى مينا ثم كتب هذا الاسم الأخير بدون نقط فقريء (مسا) ثم كتب بالألف المقصورة (مسى).

الأمر الثاني : مما لاحظته في بحث الأستاذ الناضوري يتعلق بالمصور الجغرافي (الخريطة) فقد وضع الأستاذ اسم (مكنة) كذا – يقصد (مقنا) – وضعه موضع مدينة حَقْل أو قريب من ذالك الموقع ، ولو رجع إلى ما رسمه بعض الباحثين المتأخرين ومنهم موسل وفلبي لوجد الاسم موضوعا في مكانه الصحيح .

ويظهر أنه تأثر بما ورد في بعض الكتب ومنها « مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية[10] » الكتاب الذي أصدرته إدارة الآثار في وزارة المعارف ، فقد جاء في طبعتيه الأولى والثانية ما نصه :(ومرفأ الحقل اليوم هو مينا البِدْع القديم ، وكان يسمى مقنا ، ويقع من البدع على مسافة تقدر بأربعين كيلو متراً إلى الشمال الشرقي) .

وكنت نَبَّهْتُ إلى هذا الخطإ عند صدور الطبعة الأولى من كتاب إدارة الآثار سنة ١٣٩٥هـ ، فنشرت في مجلة « العرب[11] » ما نصه : (ومقنا ليس

هو مرفأ حقل ، واسم حقل لا تدخله (ال) التي لا تدخل على الاعلام إلا ما سُمع عن العرب قديماً ، وشعراؤهم وعلماؤهم ذكروا الاسم مجرداً عن (ال) ، وتقع قرية مقنا على شاطيء خليج العقبة جنوب حقل بنحو ٨٠ كيلاً ، وشمال رأس الشيخ حميد بنحو ٣٥ كيلاً ، أسفل وادٍ يدعى وادي الحمض غربي جبل تيران ، الذي تقع مغاير شعيب في طرفه الغربي ، وذكرت أن مقنا تقع بقرب خط الطول ٤٥َ/٣٤ْ وخط العرض ٢٢َ/٢٨ْ .

ووضع الأستاذ الناضوري اسم مغارة شعيب على ساحل خليج العقبة : والواقع أنها بعيدة عن الساحل ، وموقعها الذي وضع فيه اسمها أقرب إلى أن يكون موقع مقنا ، إذ مغاير شعيب تقع غرب مقنا وسيولها تنحدر حتّى تصب في البحر عند ميناء مقنا .

والدكتور الناضوري لم يفرق بين ما يسمى مغاير شعيب ومغاير الكفار ، فمغاير الكفار هي الواقعة بقرب عينونة ، أما مغاير شعيب فتقع شمالها بمسافة تقارب ٤٠ كيلاً .

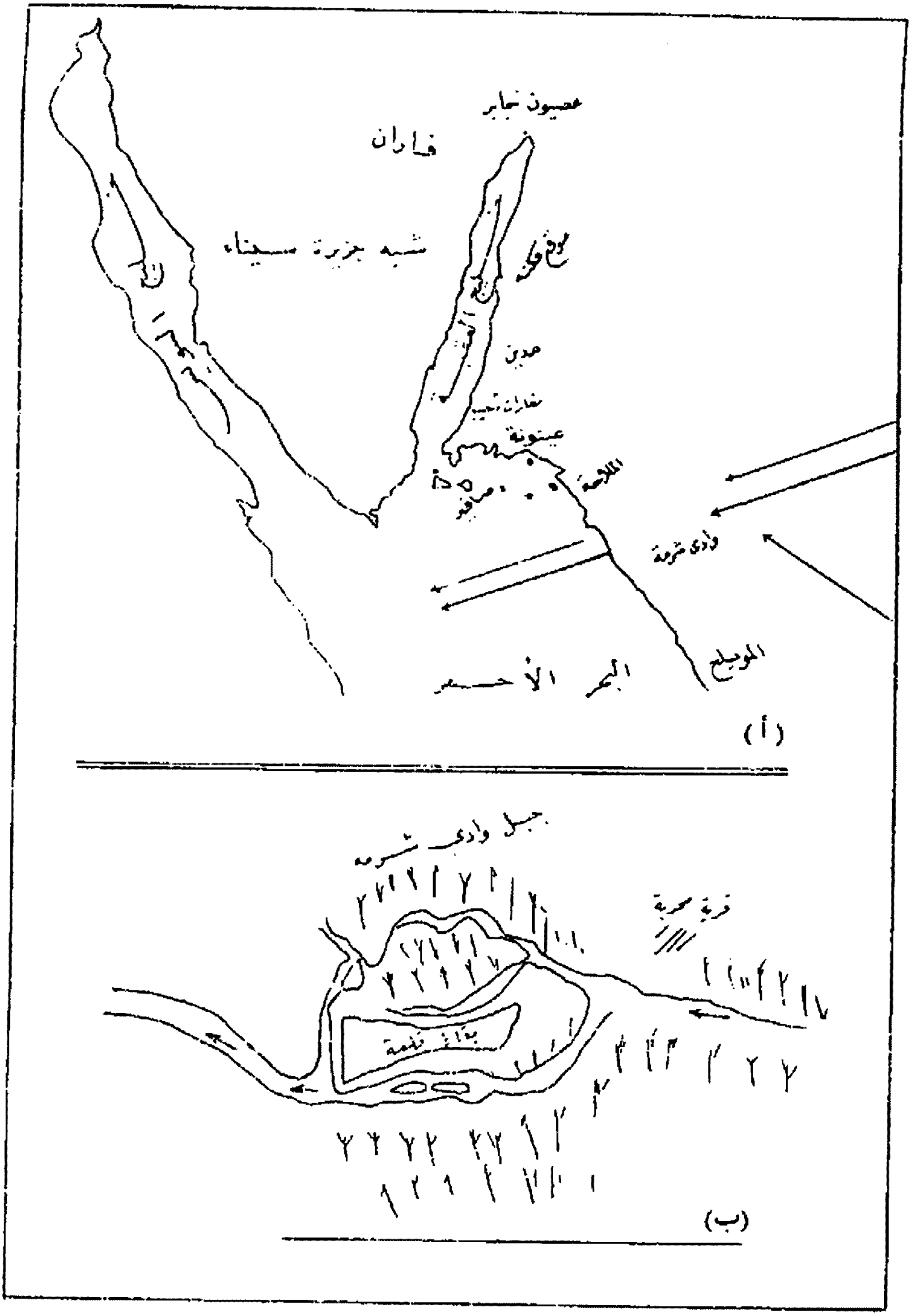
واسم (الملاحة) الذي وضعه الدكتور الناضوري على الساحل قبل مدخل خليج العقبة وشرق جزيرة صنافر ليس معروفاً ، وأخشى أن يكون هو (المويلح) الذي وضع الدكتور الناضوري اسمه في موضعه .

وفي رسم الدكتور لوادي شرمة كتب اسم قرية (مخربة) شمال الوادي .

وهو يقصد القرية الّتي تعرف باسم (الخريبة) .

ويظهر أنه عول على مصدر افرنجي ، ولهذا وردت الأسماء محرفة حين تعريبها .

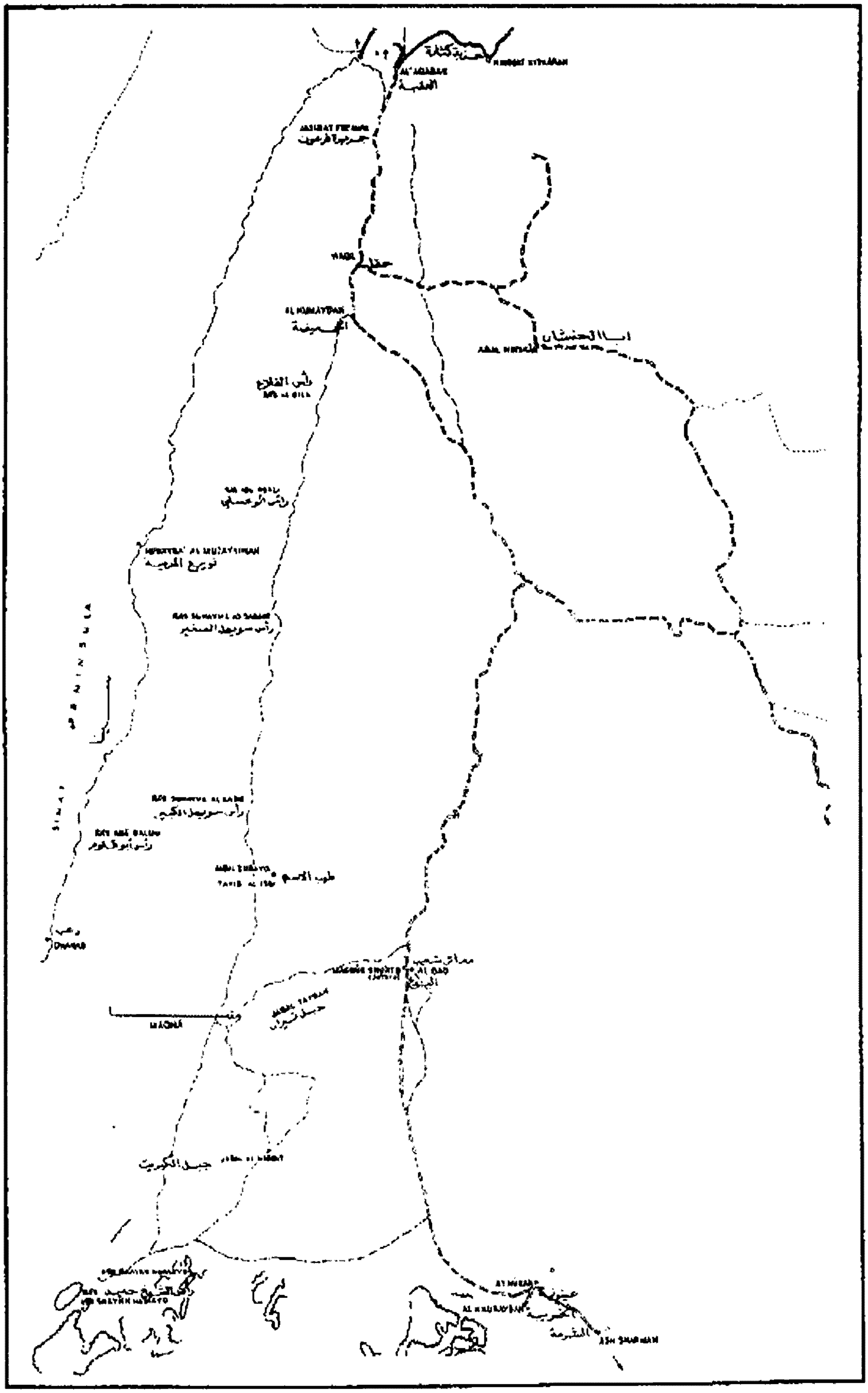
بقيت كلمة موجزة عن هذه البلدة الآثرية ، لقد كانت مقنا من قرى



الخارطة رقم (٢) : (أ) شمال غرب الجزيرة العربية وشبه جزيرة سيناء .

(ب) وادي شرمة .

صورة رقم (١)



صورة رقم (٢)

بني عُقْبة من بقايا قبيلة جذام المشهورة الممتدة منازلها من الشام حتّى شمال الحجاز فيما حول حسما ، وما يقع غربها ومن بلادها أرض مدين .

أما في عصرنا فمن سُكّان مقنا بنو عطية وأفخاذ غيرهم من بني عقبة .

وميناء مقنا ضيق لا يصلح إلا لرسو المراكب الشراعية ، لانتشار الصخور في مدخله .

وكانت مساكن القرية تتكون من أكواخ صغيرة قليلة ، ونخلها ضعيف لعدم العناية به ، ولم يكن للقرية شأن يذكر في العصور الماضية .

وفي شهر صفر من هذا العام (١٤٠٥هـ) افتتح صاحب السمو الملكي وزير الداخلية الأمير نايف بن عبد العزيز في مقنا مقر سكني سلاح الحدود ، يتكون من ٢٥٠ وحدة سكنية ذات مرافق عامة ، مقامة على نحو عشرة آلاف متر مربع ، بتكاليف تزيد على أربع مئة مليون ريال .

ولا شك أن تلك المنطقة بعد هذا سيزدهر عمرانها ويكثر سكانها .

حمد الجاسر

الحواشي :

(١) : « دراسات تاريخ الجزيرة العربية » – الكتاب الثاني – ص ٧٣ .
(٢) : نفس المصدر – ص ٧٥ .
(٣) : ٢٧٧/١ و ٢٩٠ – طبعة بيروت .
(٤) : ١٠٣٢ .
(٥) : ٣٣ .
(٦) : ١٣١ – تعريب الدكتور عبد المحسن الحسيني .
(٧) : ٦٣٥/٢ طبعة الحلبي بمصر سنة ١٣٧٥هـ .
(٨) : ٣٠٣/١ الطبعة الأولى .
(٩) : ٥٢٦ .
(١٠) : ٩٨ .
(١١) : ص ١١ ص ٦٩٥ .

التبيين في أنساب القرشيين

— ٩ —

ثم بعد كتابة ما تقدم اطلعت على نسخة مصورة عن مخطوطة محفوظة في مكتبة جستربتي رقمها MS ٣٩٧٤ من الكتاب المذكور تقع في ١٢٤ ورقة (٢٤٨ صفحة) في الصفحة الواحدة أربعة وعشرون سطرا .

جاء في آخر تلك النسخة (تم الكتاب بحمد الله ومنّه فرغ من نقله العبد الفقير ، العاصي المذنب ، الراجي رحمة ربه وغفرانه ، محمد بن محمد بن محمد البكري البغدادي المولد، في يوم الخميس السادس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاثين وست ماية ... بقلمه ... ... بمدينة ... حامداً الله ، ومصليا على نبيه صلى الله عليه وسلم) ومكان النقط كلمات غير واضحة .

ومع قدم كتابة هذه النسخة إن صح تاريخ نسخها فهي مشحونة بالأخطاء .

والورقة الأولى منها ساقطة وُضع مكانها ورقة حديثة الخط في طرتها : (التبيين في أنساب الصحابة القرشيين ، تأليف الشيخ الإمام موفق الدين أبي محمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قُدامة المَقْدِسي رحمه الله ونفعنا به) .

وفي الطرة أيضا : (من كتب عبد المعطي السقّا) .

ثم الصفحة الأولى بخط مغاير للخط الذي كُتِبَتْ به تلك النسخة ، إذْ هُو بالخط الفارسي وخط النسخة نسخي .

وفي بعض هوامش النسخة تصحيحات يسيرة لبعض كلمات وردت في الأصل .

والواقع أنْ كثرة الأخطاء في هذه النسخة تحول دون الاعتماد عليها بمفردها . وقد قابلتُ القسم المطبوع من كتاب « التبيين » الذي لم أقابله على

المخطوطة الأولى التي وصفتها وقابلت عليها الكتاب ، فاتّضح لي وقوع أخطاء في ذالك المطبوع أشِير إلى أهمها :

١ ــ ص ٣٣ : جملة قال الشيخ إلى (رحمه الله) ليست في المخطوطة .

وفي الصفحة : (السميع المنان) وهي في المخطوطة : (البديع المنان) .

وفي الصفحة : (من الشرف برسول له) وهي في المخطوطة : (من الشرف برسول الله) ويظهر أن هذا هو الصواب لمطابقته لما في احدى نسختّي المحقق .

٢ ــ ص ٣٧ : (وشايع أخواله من كعب في باديتهم) وفي المخطوطة : (ونشأ مع أخواله من كعب في باديتهم) وهو الصواب .

٣ ــ ص ٣٨ : (أهيب) في موضعين ، وفي المخطوطة : (وُهيب) .

وفي الصفحة : (أربعون سنة ويوم) وفي المخطوطة : (أربعون سنة ويوما) . وكذا في نسختّي المحقق .

٤ ــ ص ٤٠ : (مع أخيه في غنم له) وفي المخطوطة : (مع أخيه في بهمة له) وكذا في إحدى نسختّي المحقق . وفي « السيرة » لابن هشام : (مع أخيه في بَهْمٍ لنا ، خلف بيوتنا) . والبَهْمُ هنا أنسب لأنهما صغيرين لا يستطيعان رعي الغنم .

وفي الصفحة : (فلم يفجأني) وفي المخطوطة (فلم يفجأنا) .

وفي الصفحة : (قال : القرشي جاءه رجلان) وفي المخطوطة : (قال : أخي القرشي جاءه رجلان) . وهو مطابق لما في « السيرة » .

وفي الصفحة : (وقد وضع يده في الأرض) وفي المخطوطة : (وقد مدّ يده في الأرض) .

٥ ــ ص ٤١ : (قال ابن عمر) وفي المخطوطة : (قال أبو عمر) وهو الصواب إذ المقصود أبو عمر بن عبد البَرّ . صاحب كتاب « الاستيعاب » الذي أورد في مقدمته ملخص سيرة النبي صلى الله عليه وسلم .

وفي الصفحة : (ابن ثمان سنين) وفي المخطوطة : (ابن ثماني سنين) .

٦ ـ ص ٤٤ : (أو بعد أن صلت الفريضة) وفي المخطوطة : (وبعد أن صلت الفريضة) وهو الصواب .

٧ ـ ص ٤٦ : (قال : عشية الجمعة سنة ثلاث وخمسين) وفي المخطوطة : (فتزل عشية الجمعة) إلى آخر الكلام .

وإذَنْ فلا حاجة لتعليق المحقق .

٨ ـ ص ٤٧ : (سنة اثنين) وفي المخطوطة : (سنة اثنتين) .

٩ ـ ص ٤٨ : (وفرض عليه الحج) وفي المخطوطة : (وافترض عليه الحج) .

وفي الصفحة : (فإنها فرضت عليه) وفي المخطوطة : (فإنها افترضت عليه) .

وفي الصفحة : (يصلون عليه أفذاذاً يومهم ، آخرهم النساء) ، في هذه الجملة تصحيف وصوابها كما في المخطوطة : (يصلون عليه أفذاذا ، لا يَؤُمُّهُمْ أحدٌ ، ثم النساء) .

١٠ ـ ص ٥٠ : (ولكن تعفو أو تتجاوز) والصواب : (ولكن تعفو وتتجاوز) .

١١ ـ ص ٥١ : (ثم خلفه عليها عتيق بن عبدالله عمرو بن مخزوم) وفي المخطوطة : (ثم خلفه عليها عتيق بن عبيد بن عمر بن مخزوم) . وفي « الاستيعاب » في ترجمة خديجة : (عتيق بن عائذ بن عبدالله بن عمر بن مخزوم) وكذا في كتاب « نسب قريش » ـ ٣٣٣ ـ وإذن فقط سقط اسم (عائذ) أما كلمة (عمرو) فصوابها (عُمَر) .

وفي الصفحة : (فكان لا يسمع شيئا يكرهه) وفي المخطوطة : (فكان لا يسمع من المشركين شيئا يكرهه) .

١٢ ــ ص ٥٢ : (ثم قال : ما أبدَلَنِي الله خيراً منها) وفي المخطوطة : (ثم قال : لاَ والله ما أبْدَلَنِي خيراً منها) .

١٣ ــ ص ٥٣ : (وأمها أمُّ رومان بن عامر بن عبد شمس بن عتاب) وفي المخطوطة : (وأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس بن غياث) . وكذا في « الاستيعاب » في ترجمة عائشة ، وفي ترجمة أم رومان ، سوى كلمة (غياث) فهي (عتَّاب) وكذا في « الإصابة » في ترجمة أم رومان .

١٤ ــ ص ٥٤ : (حبيبة حبيب الله المبرأة) وفي المخطوطة : (حبيبة حبيب الله البريئة المبرأة) .

وفي الصفحة : (أيْنَ أنا غداة اليوم من عائشة) وفي المخطوطة : (أين أنا غداً ؟ حُبّاً ليوم عائشة) .

١٥ ــ ص ٥٥ : (ابن نضر بن ماللك بن حنبل) والصواب كما في المخطوطة : (ابن نصر بن مالك بن حِسْل) . وكذا في كتاب « نسب قريش » ــ ٤٢٦ ــ .

١٦ ــ ص ٥٦ : (ابن هلال بن صعصعة) والصواب : (ابن هلال بن عامر بن صعصعة) .

وفي الصفحة : (حجش) والصواب : (جحش) بتقديم الجيم .

١٧ ــ ص ٥٧ : (يعمر بن جبيرة بن مرة بن كُثَيِّر بن غُنْم) وفي المخطوطة وسيرة ابن هشام ج ٢/٢٢٣/٣٢٤ . :(يعمر بن صَبْرة بن مرة بن كَبير بن غنم) . وكذا في « جمهرة أنساب العرب » لابن حزم ــ ١٨٠ الطبعة الأولى وفي كتاب « الاستيعاب » ج ٤ ص ٣١٤ ــ : (يعمر بن صبيرة بن مُرَّة بن كثير) ولا شك أن (كثير) تصحيف (كبير) ــ كما يتضح هذا من مراجعة كتب النسب في تراجم آل جَحْش الأسديِّين . ومنهم زينب بنت جحش ــ زوج النبي صلى الله عليه وسلم ــ وأختها حَمْنة ، وأخوها عبدالله ــ شهيد أحد ــ وغيرهم .

١٨ – ص ٥٨ : (أنا خيرهن مفلحا) والصواب : (أنا خير منكن منكحا) .

وفي الصفحة : (وليس له من نسائه قرينة غيري) والصواب : كما في المخطوطة : (وليس له من نسائه قريبة غيري) .

وفي الصفحة : (وما رأيتُ امرأةً قطُّ خيرًا في الدين وأتقى لله) والصواب : (وما رأيت امرأة قَطُّ خيرًا في الدين من زَيْنب ، وأتقى لله) .

وفي الصفحة : (ويتقرب إلى الله) وفي المخطوطة : (ويتقرب إلى الله به) .

١٩ – ص ٥٩ : (ما الأوَّاهة يارسول الله قال : الخاشع) وفي المخطوطة : (ما الأَوّاهُ يا رسول الله قال : الخاشع) . وهو الصواب كما في « الاستيعاب » في ترجمة زينب بنت جحش .

وفي الصفحة : (أنبأ) تكررت مراراً وصوابها (أنبأنا) ، (و ثنا) وهي (حدثنا) .

وفي الصفحة : (حدثني زيد بن حصيفة عن عبدالله بن رافع عن برزة بنت رافع) وفي المخطوطة : (حدثني يزيد خصيفة عن عبدالله بن رافع ، عن برزة بنت رافع) وفي كتاب « الإصابة » في ترجمة بَرَّة بنت نافع : (قال ابن سعد في ترجمة زينب بنت جحش : اخبرنا يزيد بن هارون ، وعبد الوهاب بن عطاء ، عن محمد بن عمرو حدثني يزيد بن خُصيفة عن عبدالله بن رافع عن برة بنت رافع) ثم أورد القصة الواردة في كتاب « التبيين » بِنَصِّهَا ولكنها في « الطبقات الكبرى » لابن سعد – ج ٣ ص ٣٠٠ طبعة بيروت – بهذا النّص : (قال يزيد : قال محمد بن عمرو : وحدثني يزيد بن خُصيفة عن عبدالله بن رافع عن برزة بنت رافع) ثم أورد الخبر كاملا . وعلى ما تقدم فإن (زيد بن حصيفة) صوابه : (يزيد بن خُصيفة) . أما (برزة) في المخطوطة و (بَرَّة) في « الإصابة » فصوابها على ما يظهر (برزة) كما في المطبوعة وفي « الطبقات » .

وفي الصفحة : (صبوه واطرحوا عليه ثوبا فقالت) وفي المخطوطة : (صبوه واطرحوا عليه ثوبا فصبُّوه وطرحوا عليه ثوبا فقالت) .

٢٠ — ص ٦٠ : (المصطلق بن خزاعة) وهو : (المصطلق من خزاعة) كما في المخطوطة ، والمصطلق اسمه جذيمة بن سعد بن عمرو بن عامر بن لُحَيّ بن قمعة وقمعة هو خزاعة على ما في كتاب « جمهرة أنساب العرب » لابن حزم — ص ٢٢٢ وما بعدها — .

وفي الصفحة : (فلا تعلم امرأة كانت أعظم بركة) وفي المخطوطة : (فلا نعلم امرأة كانت أعظم بركة) .

٢١ — ص ٦١ : (تقوم على شأنه ودهنه) وفي المخطوطة : (تقوم على ثيابه ودهنه) .

٢٢ — ص ٦٤ : (بجير بن الهدم بن ردينة) وفي المخطوطة : (بجير بن الْهِزَم بن رويّبة) . كما في « جمهرة أنساب العرب » — ٢٦٢ — و« الإصابة » ترجمة لبابة بنت الحارث ، وكذا « الاستيعاب » .

وفي الصفحة : (عبدالله بن شداد بن الهادم) وفي المخطوطة : (عبدالله بن شداد بن الهاد) الهاد : ويقال فيه الهادي ، وهو شداد بن أسامة بن الهادي الليثي ابن أخت ميمونة — على اختلاف في اسم أبيه ، قيل لأبيه الهادي لأنه كان يوقد النار ليلاً للسارين ، صحابي ، مترجم في كتب الصحابة .

٢٣ — ص ٦٥ : (زوج الوليد بن المغيرة أم الْخُلْد ، وعصمى بنت الحارث ... وهذيلة بنت الحارث وهي أم حفيد) وفي المخطوطة : (زوج الوليد بن المغيرة أم خالد ، وعصمى بنت الحارث ... وهزيلة بنت الحارث وهي أم حفيد) . وفي « الاستيعاب » ج ٤/٤٠٥ — هامش « الإصابة » لُبَابَة الصُّغْرَى زوج الوليد بن المغيرة ، وهي أم خالد بن الوليد . وفيه : هُزَيْلَةُ بنت الحارث بن حَزْنٍ ، أم حُفَيد . وضبط صاحب « الإصابة » في الكنى : أمّ حُفَيْد : بفاء مصغرة (؟) وترجمها في رسم (هزيلة) .

←

نقد كتاب.:

غرائب التنبيهات

على عجائب التشبيهات

— ٤ —

١٤٤ ـ ص ١٢٦ ـ: أورد المؤلف بيتين للشاعر كُشاجم في قصب السكر:...

وأقول: هما في ديوانه ص ٦٣ مع ثلاثة أبيات أخر.

١٤٥ ـ ص ١٢٦ ـ: أورد المؤلف بيتين لابن المعتز أيضاً وهما في زهر الكتّان:...

والبيتان في ديوانه ص ١٨٠ و١٨١ ومعهما بيت آخر، مع خلاف في روايتهما.

١٤٦ ـ ص ١٣١ ـ: أورد المؤلف أبياتاً أربعة لأبي بكر الخالدي:...

وهي في «ديوان الخالديين» ص ٢٠ مع خلاف في الرواية.

١٤٧ ـ ص ١٣٢ ـ: أورد المؤلف أبياتاً أربعة لأبي بكر الخالدي:...

وهي في «ديوان الخالديين» ص ٧٤ مع خلاف في الرواية.

١٤٨ ـ ص ١٣٢ ـ: أورد المؤلف أبياتاً خمسة لأبي عثمان الخالدي:...

وهي في «ديوان الخالديين» ص ١١١ من قصيدة والأبيات فيها: (السادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر).

← أما غصمي وعصمي فصواب الاسم عصماء – كما في « الاستيعاب » في ترجمة أختها ميمونة بنت الحارث . وعصماء لقب ، واسمها لبابة الصغرى ، وهي زوج الوليد بن المغيرة ، أم خالد بن الوليد – كما ذكر ذالك ابن حجر في « الإصابة » وعلى هذا فصواب الجملة : أم خالد ، وهي عصماء . وصواب (هذيلة) : (هزيلة) بالزاي .

حمد الجاسر

وقد نسبها الثعالبي إلى أبي عثمان وقال: وهي منسوبة في بعض النسخ إلى كُشاجم .. وهي مما أُلحق بديوان كُشاجم (ديوان كُشاجم ص ٥٣).

١٤٩ ـ ص ١٣٤ ـ: أورد المؤلف بيتاً لأبي بكر الخالدي:...

وهو في «ديوان الخالديين» ص ٢٤ من قصيدة طويلة في ١٤ بيتاً.

١٥٠ ـ ص ١٣٥ ـ: قال المؤلف: وقال ابن خفاجة الأندلسي في ساق أسود أحدب، وأجاد:

وَكَأْسِ أُنْسٍ قَدْ جَلَتْها المُنَى   فباتَتْ النَّفْسُ بها مُعرِّسهْ

... الأبيات، ولا لزوم للشدة في آخر الشطرة الثانية في كلمة (مُعْرِسة)، ولا يستقيم البيت إلا بحذفها .. والأبيات من البحر السريع.

١٥١ ـ ص ١٣٦ ـ: أورد المؤلف أبياتاً ثلاثة للأسعد بن إبراهيم الأندلسي:...

والأبيات في «الذخيرة» قسم ١ مجلد ٢ ص ٧٩٦، من خمسة أبيات مع خلاف في الرواية.

أما الشاعر الأسعد بن إبراهيم بن أسعد بن بِلّيطة فقد تحدثنا عنه فيما مضى.

١٥٢ ـ ص ١٣٧ ـ: قالا في الحاشية رقم ٣: ابن مكنسة شاعر مصري معروف في عصر الفاطميين، واسمه أبو الطاهر بن اسماعيل بن محمد...

وأقول: هو أبو الطاهر اسماعيل بن محمد، المعروف بابن مكنسة وهو شاعر مكثر من أهل الاسكندرية .. ويجب حذف من ترجمته ومن تعليقهم كلمة (ابن) إذ تغير سياقة نسبته وتوهم بأنه (ابن اسماعيل) وهذا وهم واضح.

أما قولهم: (توفي في حدود الخمس مئة هجرية) فهو غير صحيح ولا حاجة لصيغة التمريض هذه، حيثُ نصّ محققو «خريدة القصر» ـ قسم شعراء مصر ـ، وهو من

مراجعهم ـ انظر ص ٢٤ من «الغرائب») على أنه توفي في سنة عشر وخمس مئة نقلاً عن ابن حجر في «التجريد» الورقة ٨٤، وعنهم أخذ الزركلي في كتابه الخالد «الأعلام» وفاته ونص عليها كما يلي: (... ـ ٥١٠ هـ = ٠٠٠ ـ ١١١٦ م). وانظر أيضاً «خريدة القصر» ـ قسم شعراء مصر ـ ٢٠٣/٢ ـ ٢١٥ و«فوات الوفيات» ١٩٤/١ و«الوافي بالوفيات» ٢١٣/٩ ـ ٢١٥ و«الأعلام» ٣٢٢/١.

١٥٣ ـ ١٣٨ ـ: ورد البيت الآتي هكذا:

وطافت علينا بشمس الدِّنان في غسق الليلِ شمسُ الخُدورْ

والبيت بهذا الشكل مكسور الوزن، وصوابه أن تنقل النون إلى الشطر الثاني لأن البيت مدوّر.

١٥٤ ـ ص ١٣٨ ـ: قال المؤلف: وقال ابن القيسراني في الإبريق:

نرى الإبْريق يَحْمِلُه أخُوهُ كِلا الظَّبْيَيْن يلثمُه ارتشافا
تراهُ كمُطْرقٍ في القوْمِ يَبْكي دماً أَوْ ناكسٍ يشْكُو الرُّعافا

والبيتان من قصيدة في سبعة أبيات لابن القيسراني في «خريدة القصر» ـ قسم شعراء الشام ـ ١٣٦/١ و١٣٧.

١٥٥ ـ ص ١٣٨ ـ: قال المؤلف: وقال ابن الخازن:...

ولم يعقّبا بشيء.

وأقول: هو أحمد بن محمد بن الفضل، أبو الفضل بن الخازن: شاعر جيد السبك حسن المقاصد، اشتهر بجودة الكتابة، أصله من الدينور، ومولده ووفاته في بغداد (٤٧١/٥١٨ هـ) وله ديوان شعر جمعه ولده أبو الفتح.

انظر: «الخريدة» ـ قسم شعراء العراق ـ الجزء٣ مجلد٢ ص ٣٤٥ و«شذرات

الذهب» ٥٧/٤ و«وفيات الأعيان» ١٤٩/١ و«الأعلام» ٢١٤/١ وفي «مرآة الزمان» ٨٦/٨ وفاته سنة ٥١٢هـ.

والبيتان اللذان ذكرهما المؤلف في «الغرائب» لابن القيسراني من قصيدة طويلة في «الخريدة» الجزء ٣ المجلد ٢ ص ٣٤٥.

١٥٦ ـ ص ١٣٩ ـ: قال المؤلف: من أحسن ما قيل فيه ـ أي في تشبيه الشراب الأسود ـ قولُ البحتري من قطعة:

لو تراني وفي يدي قَدَحُ الأَوْ ... شابِ أبْصرت بازياً وغُراباً

وأقول: ذكر البيت ابن أبي عون في كتابه «التشبيهات» ص ١٨٩ مع بيت آخر منسوبين لابن الرومي قالها في قَدَح رأى فيه نبيذاً أسْوَدَ .. ورواية «التشبيهات» هي:

لا تراني وفي يدي قَدَحُ الدّو ... شابِ أبْصَرْتَ بازِياً وغرابِ

وانظر «ديوان ابن الرومي» ٣٤٠/١ من قصيدة طويلة في عشرة أبيات، والبيتان في «المختار من شعر بشار» ص ٢٣٢ و«شفاء الغليل» (دوشاب) ص ١٢٥، والدوشاب: نوع من الخمر ... وقال الخفاجي: وفسّر في شرحه بالنبيذ الأسوذ، وقال السمعاني: إنه الدبس بالعربية.

وانظر أيضاً «ديوان البحتري» ٢٥٠٦/٤.

١٥٧ ـ ص ١٣٩ ـ: قال المؤلف: وقال أيضاً ـ يعني البحتري ـ:

شربت مشمّس قطْربُّل ... وَجَرَّعْتَنا دَقَلَ الدَّسْكَرَهْ
إذا صُبَّ في الكأْسِ مُسْوَدُّه ... فكأس النَّديم بِه مِحْبَرَهْ

وأقول: هما في ديوانه ٣٥٦/٢ ورواية الأول فيه هي:

تَرَكْتَ مشمَّس قَطْرُبُّلٍ ... وَجَرَّعْتَنا دَقَلَ الدَّسْكَرَهْ

وقطربل: قرية اشتهرت بحانات الخمر وينسب إليها الخمر وتقع بين بغداد وعكبرا ـ وأكثر من ذكروها ضبطوها بضم الراء إلا ياقوت الحموي فضبطها بالفتح ـ.

والدسكرة: بناء شبه قصر حوله بيوت ويكون للملوك، وهو معرّب، والدّقل: أردأ أنواع التمر.

١٥٨ ـ ص ١٣٩ ـ: قال المؤلف: وقال أبو الطيب المتنبي من قطعة:...

وأقول: البيتان في ديوانه ١٩٣/٤ و١٩٤ من خمسة أبيات.

١٥٩ ـ ص ١٣٩ ـ: قال المؤلف: وأنشدني القاضي النفيس أحمد بن عبد الغني الفطرسي في هذا لنفسه وزاد عليه زيادة بيّنة:

وافى بكأسٍ لُجَيْنٍ بها سَبَجٌ قد رصّع الماءُ في حافَاتِها دُرراً

كأنها مقلةٌ...

والصحيح: القُطْرُسي ـ بالقاف وليس بالفاء.

ابن خلكان ١٦٤/١ و«الأعلام» ١٥٢/١ وانظر ماقلناه فيما سبق.

وجاء البيت الأول مختل الوزن مكسوراً فيه الشطر الأول ويستقيم بإضافة سبب خفيف أمام (بها) والبيت من البحر البسيط.

١٦٠ ـ ص ١٤٥ ـ: قال المؤلف: للبحتري:

كَـأنَّما تـبـسُـمُ عن لؤْلؤٍ مُـنَـضَّـدٍ أو بَـرَدٍ أو أقَـاحْ

وأقول: البيت في «ديوان البحتري» ٤٣٥/١ من قصيدة طويلة عدتها ١٨ بيتاً وهي في مدح عيسى بن ابراهيم وهو الثاني فيها وروايته:

كَـأنَّما يضْـحَكُ عن لُؤْلُؤٍ مُـنَـظَّـمٍ أَوْ بَـرَدٍ أو أَقَـاحْ

ورواية الديوان أصح لأن الكلام في نديم والخطاب للمذكر.

وانظر «التشبيهات» ص ١٠٦ و«أمالي المرتضى» ١٧٩/٢ و«العمدة» ١٩٨/١ و«حماسة ابن الشجري» ٦٦٣/٢.

١٦١ ـ ص ١٤٥ ـ: قال المحققان في الحاشية رقم ٥ البيت زيادة «اليتيمة». (هكذا)

والمقصود بذالك بيت ابن سكرة الهاشمي: كَأَنَّني إذْ لَثَمْتُ فَاكَ بها ......

ولم أفهم ما يقصدون بهذا التخريج لأن البيت في «اليتيمة» ٥/٣ وهو البيت الثالث من نتفة ورواية «اليتيمة» و«الغرائب» واحدة طبق الأصل، وحَذْوَ القَذَّة بالقُذَّة كما يقولون..

١٦٢ ـ ص ١٤٩ ـ: قال المؤلف: وقال ابن الرومي فيها وفي أرغفة الخبز، وأحسن: ...

وقالا في الحاشية رقم ٢ حول أبيات ابن الرومي: الأبيات غير موجودة في مختار ديوانه المطبوع (أو كما قالا)، الله أكبر! كيف يكون هذا والبيتان ٣ و٤ في المختار من شعره ص ٢٤٠ وروايتهما فيه كالآتي:

هامٌ وأَرْغِفَةٌ وِضَاءٌ فَخْمَةٌ ... قد أُخْرِجَا من جَاحِمٍ فَوَّارِ
كوجُوهِ أَهْلِ الجَنَّةِ ابْتَسَمَتْ لنا ... مَقْرُونَةً بوجوهِ أهلِ النَّارِ

والأبيات كلها في ديوانه ٩٨١/٣، والثالث والرابع أيضاً في «محاضرات الأدباء» ٣٧٩/١ والأول والرابع في «جمع الجواهر» ٢٨٩.

١٦٣ ـ ص ١٥٠ ـ: قال المؤلف: ومن جيد الشعر في الفقّاع وكيزانه قول محمد بن علي التميمي، وأحسن:

تعتنق الكفُّ منه محتضناً ... كَأَنَّهُ ثُدِيٌّ غَادةٍ ناهد

وضبطت كلمة ثُدِيٌّ وكأنها جمع لثدي، وبهذا لا يستقيم وزن البيت، والصحيح إفرادها ليستقيم وزن البيت ويصح المعنى:

١٦٤ ـ ص ١٥٠ ـ: جاء بيت ظافر الحداد مكسوراً على الشكل التالي:

عندنا كِيْزانُ فقّاعٍ لَهُ خَبَرٌ ومنْظَرْ

والبيت مكسور، والصواب فيه:

عندنا كِيْزَانُ فقّاعٍ لَهُ خُبْرٌ وَمَنْظَرْ

ويستقيم البيت ويصح المعنى بضم الخاء من (خُبْر) وإسكان الباء فيها بمعنى الاختبار.

١٦٥ ـ ص ١٥٠ ـ: أخطأوا في ضبط البيت الثالث من قطعة السري الموصلي الرائية وهو:

رامٍ بسهمٍ كأنَّهُ خَصِرٌ أو طيب نشْرٍ نسيمُ كافور

وضبطت عندهم (خَصِرٌ) بالرفع على أنها خبر لكأن وهو خطأ وصوابه: النصب على التمييز. وبذالك يكون خبر كأن كلمة (نسيم) في الشطر الثاني.

١٦٦ ـ ص ١٥٢ ـ: قال المؤلف: وقال الأمير تميم:...

وأقول: البيتان في ديوانه ص ٣٠٣، وفيه الشطر الأول من البيت الأول على هذا الشكل:

كأن الراي حين أتى طريًّا .. ..

بدلاً من:

كأنّ الأبرميس وقد أتانا .. ..

وعنوان القطعة في الديوان (وقال في الراي)، والراي: ضرب من السمك،

وبُلَسْقِيات: جمع بلسقية وهي الزجاجة والقارورة، كما في دوزي.

١٦٧ ـ ص ١٥٤ ـ: قال المؤلف: لأبي نصر [بن] كُشاجم من مزدوجة يصف جفنة طعام...

وقالا في الحاشية رقم ١: كذا وهو خطأ، وكشاجم هو محمود بن محمد بن الحسين بن السري بن شاهك، ويُكنى أبا نصر..

وأقول: لم يُخْطِئ المؤلف، بل جاء الخطأ من سوء فهمها للنص المحقق، فالشاعر كشاجم كنيته أبو الفتح الرملي، أما ابنه فكنيته أبو نصر.

وقد قال كشاجم في ديوانه قصيدة يمدح فيها الرشيدي، وفيها البيت التالي:

يا ابن مولى (أبي أبي نصر السنـ ـدي) ركـن الخلافـــة الموطودِ

«ديوان كشاجم» ١٥٩.

فالشاعر يقصد (بأبي أبي نصر) نفسه فهو أبو الفتح وابنه أبو نصر، وجاء في «اليتيمة»: أنشدني أبو نصر بن أبي الفتح كشاجم بصيداء الشام لنفسه في وصف الكتاب من أبيات.

«يتيمة الدهر» ٢٨٥/١ وسياق الأبيات من ص ٢٨٥ ـ ٢٨٩ يدل على أنها لأبي نصر، وأبو الفتح كنية الشاعر كشاجم، ونجدها في خطيات ديوانه وفي مقدمته.

مثلاً: جاء في المخطوطة المحفوظة في (برنستن) في الولايات المتحدة الأمريكية (الورقة الأولى): كشاجم هو أبو الفتح محمود ...، وجاء في الصفحة الأولى من مخطوطة (لينغراد) في الاتحاد السوفياتي: هذا ديوان أبو الفتح (هكذا) محمود بن السندي شاهك الكاتب المعروف بكشاجم. وجاء في الصفحة الأولى من ديوانه المحقق: قال أبو الفتح كشاجم يصف الخمر:...

إذن هما الذين أخطأ ولم يخطىء العالم الجليل ابن ظافر الأزدي.

ولا بُدّ من الإشارة هنا إلى أن طبعة «اليتيمة» جاء فيها تحريف في زيادة (ابن) بين أبي الفتح وكشاجم وهو تصحيف وتحريف واضح صوابه ماذكرت.

١٦٨ ـ ص ١٥٧ ـ: أورد المؤلف بيتاً لابن المعتز في صفة الهلال:

فانظُر إليه كزورقٍ من فِضّةٍ قد أثْقَلَتْهُ حُمُولَةٌ من عَنْبَرِ

والبيت في ديوانه ٢٦٦/٢ من نتفة في بيتين وهو الثاني فيهما.

١٦٩ ـ ص ١٥٧ ـ: ثم أورد المؤلف بيتين آخرين لابن المعتز وهما:

كَأَنَّ آذرْيُونَهَا والشمسُ فيه كَالِيَهْ
مَداهنٌ من ذهبٍ فيها بقايا غالِيَهْ

والبيتان في ديوانه ٤٨٣/٢ من قطعة في خمسة أبيات وهما فيها الرابع والخامس.

١٧٠ ـ ص ١٥٧ ـ: وأورد المؤلف القطعة الضادية المذكورة في باب تشبيه قوس قزح التي أولها (وهي لابن الرومي):

وساقٍ صبيح للصَّبُوحِ دعوتُهُ فقَامَ وفي أجْفَانِهِ سِنَةُ الغَمْضِ

والبيت في ديوانه ١٤١٩/٤ من قطعة في خمسة أبيات وهو الأول فيها.

١٧١ ـ ص ١٥٧ ـ: أورد المؤلف قصيدة ابن الرومي الرائية المشهورة في صفَة صانع الرُّقاق والتي مطلعها:

ما أنْسَ لا أنس خبازاً مررت به يدحو الرُّقاقَةَ وشْكَ اللمح بالبصر

والأبيات في ديوانه ١١١٠/٣ و«المختار» ٢٣٩ و«العمدة» ٢٢٥/٢ و«جمع الجواهر» ٢٩٠ و«تاريخ بغداد» ٣٩٩/٩ و«خزانة ابن حجة الحموي» ٤٩٤.

١٧٢ ـ ص ١٥٨ ـ: قال المؤلف: وزاد أبو بكر النحوي أنه أنشد ـ أي ابن الرومي ـ في قالي الزّلابية:

ومستقر على كرسيه تَعِبٌ روحي الفداء له من عامل نصِبِ

وأقول: الأبيات في «ديوان ابن الرومي» ٣٥٣/١ مع خلاف في الرواية.

وانظر «نفحات الأزهار» ٢٦٧ و«معاهد التنصيص» ١٠٩/١.

١٧٣ ـ ص ١٦١ ـ: قال المؤلف: وقال ابن نباتة في أدهم من قطعة:

وكأنَّما لطم الصَّباحَ جبينُه فاقتصّ منه فخاض في أَحْشَائِهِ

وقالا في الحاشية رقم ٣: «يتيمة الدهر» جـ٢ ص ٣٩١، وابن نباتة السعدي وهو عبد العزيز بن محمد، أبو نصر من فحول شعراء القرن الرابع.

وأقول: هو عبد العزيز بن عمر بن محمد بن نباتة التميمي السعدي، أبو نصر: من شعراء سيف الدولة الحمداني .. قال ابن خلكان: معظم شعره جيد. توفي في بغداد سنة ٤٠٥ هـ.. وله ديوان مطبوع. والبيت في ديوانه ٦٣/١.

«تاريخ بغداد» ٤٦٦/١٠ و«وفيات الأعيان» ١٩٠/٣ و«الأعلام» ٢٣/٤.

١٧٤ ـ ص ١٦٢: ـ قال المؤلف: وفي البيت الذي قبله زيادة على قول المتنبي في صفة الظبي:

كأنَّه مضمَّخٌ بصنْدَلِ

وأقول: هو في ديوانه ٢٠٢/٣ وتمامه:

مُعْتَرِضاً بمثلِ قرن الأيِّلِ

١٧٥ ـ ص ١٦٣ ـ: جاء البيت الأول للسري الموصلي مكسوراً وهو من قصيدة يصف إوزّاً في بركة، وجاء على الشكل التالي:

قد كُلِّلتْ بنجوم للحباب ضحى فإن دجا الليْلُ عادَتْ أنجماً شُهُبَا

وضبطت كلمة (شهْبًا) بسكون الهاء، والبيت على هذا أصبح مكسوراً .. والصحيح ضم الهاء ليصحّ البيت ويستقيم.

١٧٦ ـ ص ١٦٤ ـ: وجاء البيت الثاني من ثلاثة أبيات لابن ظافر الأزدي على الشكل التالي:

قَدْ صَارَ بالقَمْلِ والبَقِّ والـ ـبَرْغَوْثِ من كرْبِهِمْ مُمْتَلي

وضبطت كلمة (كربهم) بإسكان الميم فيها وبهذا ينكسر البيت ولا يستقيم إلا بتحريكها بالضم وبذالك يصح وزن البيت.

١٧٧ ـ ص ١٦٥ ـ: قال المؤلف: من جيد ماقيل في السيف قول الشريف أبي الحسن علي بن اسماعيل الربذي القيرواني: ...

وأقول: الصحيح في اسمه ونسبه: علي بن اسماعيل الزبدي القيرواني. وانظر ماسبق رقم ٧ ورقم ١٩.

١٧٨ ـ ص ١٦٥ ـ: جاء البيت الثاني لابن قلاقس على الشكل التالي:

وَجُنَّةٍ شَبَّهتُ فيها كواكبها شَكْلَ الثريّا بدتْ في دَارَةِ القمرِ

والصحيح:

وَجُنَّةٍ شَبَّهْتُ فيها كواكبها ...

بإسكان التاء من الفعل شبهت، ليستقيم الوزن والمعنى.

١٧٩ ـ ص ١٦٧ ـ: أورد المؤلف أبياتاً لابن المعتز في تشبيه زامرة سوداء.
وأقول: البيتان في ديوانه بتحقيق الدكتور محمد بديع شريف ١٨٥/٢.

١٨٠ ـ ص ١٦٨ ـ: قال المؤلف: ومن جيد الشعر المجهول قائله في المصاليب:

أنْظُرْ إلَيْهِمْ في الجُذُعِ كَأَنَّهُمْ ... ...

والبيت على هذا الشكل مكسور ويصح على الشكل التالي:

أُنظُرْ إِلَيْهِمْ في الجُذُوعِ كَأَنَّهُمْ ... ...

وبذالك يستقيم وزن البيت:

١٨١ ـ ص ١٦٨ ـ: قال المؤلف: وينسب إلى ابن المعتز في مباضع الفِصادِ من قطعة:... وأقول: البيتان في ديوانه ١٧٤/٢.

١٨٢ ـ ص ١٦٨ ـ: قالا في الحاشية رقم ٢: ابن اللبانة، محمد بن عيسى بن محمد أبو بكر الأديب الأندلسي، توفي سنة ٥٠٧ هـ، له عدّة مصنفات وترجم له ابن خلكان في «الوفيات» ٥١٤/٢ ـ ٥١٨ و«شذرات الذهب» لابن العماد ٢٠/٤.

وأقول: لم يترجم له ابن خلكان وإنما مرت ترجمته عرضاً، لأن ابن خلكان لم يعرف تاريخ وفاته ـ وهذا من شرطه في كتابه «الوفيات» ـ انظر «وفيات الأعيان» ٣٩/٥، لذالك ترجم له ابن شاكر الكتبي في كتابه «المستدرك على وفوات الأعيان» «فوات الوفيات ٢٧/٤».

وانظر ترجمة ابن اللبّانة في «قلائد العقيان» ٢٨٣ ـ ٢٩٠ و«المغرب» ٤٠٩/٢ و«الوافي بالوفيات» ٢٩٧/٤ و«الخريدة» ـ قسم المغرب والأندلس ـ ١٠٧/٢ و«الأعلام» ٣٢٢/٦ وله موشحات في صفحات متفرقة من «نفح الطيب» و«دار الطراز» و«جيش التوشيح».

١٨٣ ـ ص ١٦٩ ـ: أورد المؤلف بيتين لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز في الهرَمين:...

وأقول: هما في ديوانه ص ٩٨.

١٨٤ ـ ص ١٦٩ ـ: قال المؤلف: وقال ابن سعيد الخير البلنسي فيه ـ أي في الدولاب ـ من قطعة:

وَكَـأَنَّـهُ صَبٌّ يطوْفُ بِمَعْهَدٍ ... يَبْكِي وَيَسأَلُ فيـه عَمَّنْ بَانَا
ضَاقَتْ مَجَارِي جَفْنِه عَنْ دَمْعِهِ ... فَتَـفَـتَّـحت أَضْلاعُـهُ أَجْـفَـانَا

وأقول: هو ابن سعد الخير البلنسي وليس ابن سعيد، وجاء على الصحيح في الهامش رقم ٣ ولم يصححاه في «المتن» وليس هذا خطأً مطبعاً.

انظر ترجمته في «زاد المسافر» ص ١٠٣ و«رايات المبرِّزين» ١١٦ و«المغرب» ٣١٧/٢ و«التكملة» لابن الأبار ٦٧١، والبيتان من مقطوعة في أربعة أبيات يصف فيها ناعورة يدور دولابها وهي منسوبة لابن سَعْد الخَيْر في «نفح الطيب» ٦٠٢/٣، و«تحفة القادم» ٥٣ و«المغرب» ٣١٧/٢ و«رايات المبرِّزين» ١١٦ و«المغرب» ٣١٧/٢ و«زاد المسافر» ١١٦ و«الذيل والتكملة» ١٩٠/٥ و«فوات الوفيات» ٤٦٠/٢ مع خلاف في الرواية.

١٨٥ ـ ص ١٦٩ ـ: وقال المحققان في هامش الصفحة رقم ٣: وتوفي ـ أي ابن سَعْد الخير ـ سنة ٦٧١ هـ. راجع «فوات الوفيات» ٨١/٢ ـ ٨٣ والمقصود في الراجح والده أو جده محمد بن عيسى...

وأقول: عندما نراجع «فوات الوفيات» نجده يقول في وفاته: وتوفي سنة إحدى وسبعين وخمس مئة، رحمه الله تعالى. وهو الصحيح لا كما زعما.

وقال المراكشي: ولد ببلنسية في حدود عشر وخمس مئة، وقدم إشبيلية في خدمة أبي الربيع المذكور مهنئاً المنصور ابن عمه بفتح شِلب وارتجاعها من يد الرّنق، فتوفي بها في ربيع الآخر سنة إحدى وسبعين وخمس مئة. «الذيل والتكملة» ١٩١/٥.

ولا أعرف ما المقصود من قولها: والمقصود في الراجح والده أو جدّه محمد بن عيسى.

١٨٦ ـ ص ٢٠٣ ـ: قالا في فهرس الشعراء: أمية بن أبي الصلت (ابن أبي الصلت) ٣٣، ١٠٤ وقالا في الصفحة ٢٠٥ في فهرس الشعراء: أبو الصلت: أمية بن

أبي الصلت ٦٤، ٧١، ١٠٤، ١٦٩ وهذا لعمري تخليط عجيب في الفهرس وفي الشاعر، وأصبح الشاعر عندهما في الفهرس شاعرين لذالك ذكروه مرتين وخلطوا بينه وبين الشاعر الجاهلي الحكيم ابن أبي الصلت الثقفي ...

والصحيح أنه: أمية بن عبد العزيز الأندلسي الداني، أبو الصلت (٤٦٠ ـ ٥٢٩): شاعر، أديب من أهل دانية بالأندلس. من تصانيفه «الحديقة» على غرار «يتيمة الدهر». وله شعر فيه رقة وجودة جمعه وحققه محمد المرزوقي وطبع في تونس سنة ١٩٧٩ م.

انظر ما قلناه عنه فيما سبق وانظر «وفيات الأعيان» ٢٤٣/١ و«الأعلام» ٢٣/٢.

١٨٧ ـ ص ٢٠٥ ـ: قالا في فهرس الشعراء: ابن صُرَّدُرّ ٣٩ ـ صُرَدُرْ ٥٣.

وقالا في الصفحة ١٨٥ من فهرس قوافي الشعر:

سِــرِّ ابن صُرَّدُرْ ٣٩

كالخدرِ ابن صُرَدُرّ ٣٩

والصحيح في كل ذالك أنه صُرَدُرّ وهو علي بن الحسن بن علي بن الفضل البغدادي ـ ٤٦٥ هـ وكان يقال لأبيه (صُرّبَعْر) لبخله، وانتقل إليه اللقب حتى قال له نظام الملك: أنت صُرَّدُرٌ، لا صُرّبَعْر، فلزمته.

«وفيات الأعيان» ٣٨٥/٣ و«شذرات الذهب» ٣٢٢/٣ و«الأعلام» ٢٧٢/٤.

وبعد، أقول مردِّداً ما قلته في البداية: لو حاولت تعقب كل ما جاء في هذا الكتاب لأعدت تحقيقه من جديد .. وقد أغضيت عن كثير من الأخطاء واعتبرتها من قبيل الأخطاء المطبعية ولولا العبث الذي لاحظته في تحقيق هذا الكتاب وغيره من الكتب التراثية التي حققها هذان (الدكتوران) ـ وأعدُ الباحثين والقراء بنشرها بمشيئة الله ـ لما نشرت ما نشرت، فقد بلغ السَّيْل الزُّبَى، وجاوز الحزام الطُّبْيَين، وطمع في تراثنا الحبيب من لا يدفعُ عن نفسه.

مروان العطيـة **دير الزور**

رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي المغربي
إلى الحج سنة ١١٤٣ هـ

- ٢ -

(تتمة الكلام على عرفة) :

في قوله صلى الله عليه وسلم : « عرفات كلها موقف وارتفعوا عن بطن عرنة » ، والواقف فيه لا يصح حجه ، فيجب التحفظ من ذالك لأنَّ الجمَّالين عشية الوقفة ربما استحثُّوا كثيراً من الحاج ، وحذروهم الزحمة في النفر ، واستدرجوهم بالعلمين اللَّذَيْنِ أمامهم إلى أن يصلوا بهم بطن عُرَنَة أو يجيزوه فيبطلوا على الناس حجهم ، والمتحفظ لا ينفر من الموقف حتّى يتمكن سقوط القرص من الشمس .

وجبل الرحمة المذكور منقطع عن الجبال ، قائم في البسيط ، وهو كله حجارة منقطعة بعضها على بعض ، وكان صعب المرتقى فأحدث فيه بعض ولاة الخير أدراجاً وطيئة من أربع جهاته ، يصعد فيها بالدواب الموقورة جزاه الله خيراً ، ولما جمع الناس بين الظهر والعصر تَهَيَّأَ الناس وتحملوا للوقوف خاشعين باكين ، وإلى الله عز وجل في الرحمة متضرعين ، والتكبير قد علا ، وضجيج الناس بالدعاء قد ارتفع ، فما رُؤِيَ يوم أكثر مدامع ، ولا قلوب خواشع ، ولا أعناق لهيبة الله خوانع خواضع من ذالك اليوم ، فما زال الناس على تلك الحال والشمسُ تلفح وجوههم إلى أن سقط قرصها ، وتمكن وقت المغرب ، فأشار الإمام الخطيب بيديه ، ونزل عن موقفه ، فدفع الناس بالنفر دفعاً ارتجت له الأرض ، ورجفت الجبال ، فياله موقفاً ما أهول مرآه ، وأرجى في النفوس عقباه ، جعلنا الله ممن خصه فيه برضاه ، وتغمده بنعماه ، إنه منعم كريم حنان منان .

ثم نرجع إلى استيفاء حال النَّفْرِ عشيةَ الوقوفِ المباركة المذكورة بعرفات ، وذالك أن الناس ينفرون منها بعد غروب الشمس كما تقدم الذكر ، فيَصِلُون مُزْدَلِفَةَ مع العشاء الأخيرة فيجمعون بها بين العشاءيْن، حسبما جرتْ سنةُ النبي صلى الله عليه وسلم ، واتَّقَدَ المشعر الحرام تلك الليلة كلُّه مَشًا عِلَ من الشمع المسرج ، والثريات ، وأمَّا مسجده المذكور فعاد كله نُورًا فيخيل للناظر إليه أن كواكب السماء كلها نزلت به على هذه الصفة كان جبل الرحمة ومسجدُهُ ليلة الخميس ، لأن هاؤلاء الأتراكَ المصريين أعظمُ الناس همَّة في استجلاب هذا الشمع ، والاستكثار منه إضاءةً لهذه المشاهد المكرمة،وعلى هذه الصفة عاد الحرم بهم مدة مقامهم فيه ، وكثيرا ما يقصدون حَطِيم الإمام الحنفي ، لأنهم على مذهبه ، وهذه عادتهم في الأماكن المكرمة مثل بَدْرٍ وغيره ، وكذا شاهدنا من ذالك بالحرم النبوي العجب العجاب،جزاهم الله بالخير ، إلاَّ أنَّ هذا كله بدعة منكرة ، مع ما فيه من إضاعة المال ، وشر الأمور المحدثات البدائع ، ذكر ذالك خليل في مناسكه .

فلما صلوا الصبح غَدَوْا منه إلى مِنَى بعد الوقوف والدعاء ، لأنَّ مُزْدَلَفَةَ كلها موقف إلا وادي مُحَسِّرٍ ففيه تقعُ الْهَرْوَلَةُ في التوجه إلى مِنَى حتى يخرج عنه ، ومن مزدلفة يستصحب الناسُ حَصَيَات الجمار وهو المستحب ، ومنهم من يلتقطها حول مسجد الخَيْفِ بمِنَى ، وكل ذالك واسع ، ومزدلفة أوسع وأَوْطَا من مِنَى ، والمشعر الحرام منها فيما يلي مِنَى ، والنزول بالمزدلفة بعد الرجوع من عرفة كما هو معروف في المناسك . وحدُّ مزدلفة مما يلي منى مُحَسِّرٌ ، وهو وادٍ هنالك ، وحدُّها مما يلي عرفة مَأزِمَا عرفة ، وهما جبلان مكتنفان للطريق أفسح من مأزِمَيْ مِنى . قال ابن جريج : قلت لعطاء أين المزدلفة ؟ فقال : من مَأزِمَيْ عرفة إلى مُحَسِّرٍ ، وليس المأزمان منها ، ومن مُحَسِّرٍ إلى مسجد مزدلفة نحو المِيل ، ومن مسجد مزدلفة إلى مسجد عُرَنَة أربعة أميال وهو مسجد كبير على يمين الطريق وأنت ذاهبٌ إلى الموقف ، مستطيل من الشرق إلى الغرب ، وفي غربه قبة ، ويعرف بمسجد ابراهيم عليه السلام ، وهو في أول عرفة ، وقلَّ منْ يعرفه من الحجاج ، لأن الموقف وراءه

بميل وهو على وادي عُرَنَةَ والوادي هو بطن عرنة . ويقال : إن حائطه القبلي على حَدِّه ، ولو سقط ما وقع إلاّ فيه ، وتوقف مالك رحمه الله فيمن وقف به حتى دفع ، حتى كأنه تشكك هل هو في بطن عرنة وقال اصبغ : لايجزيه وراه من بطن عرنة .

فلما انتهى الناس إلى منى بادروا لرمي جمرة العقبة بسبع حَصَيات ، ثم نحروا وذبحوا ثم حلقوا وحَلُّوا من كل شيء إلا النساء والطِّيب حتى يطوفوا طَوَاف الإفاضة ، ورميُ هذه الجمرة عند طلوع الشمس من يوم النحر .

ثم توجه أكثر الناس لطواف الإفاضة ، ومنهم من أقام إلى اليوم الثاني ، ومنهم من أقام إلى اليوم الثالث وهو يوم الانحدار إلى مكة .

فلما كان اليوم الثاني من يوم النحر عند زوال الشمس رمى الناس بالجمرة الأولى سبع حصيات والجمرة الوسطى كذالك وبهاتَيْنِ الجمرتين يقفون للدعاء وبجمرة العقبة كذالك ، ولا يقفون بها اقتداء في ذالك كله بفعل النبي صلى الله عليه وسلم ، فتعود جمرة العقبة في هذين اليومين أخيرةً ، وهي يوم النحر أُوْلَى منفردة لا يخلط معها سواها . وفي اليوم الثالث من يوم النحر بعد رَمْي الجمرات الثلاث تعجل الناس بالانحدار إلى مكة بعد أن كمل لهم تسع وأربعون جمرة سبع منها يوم النحر ، بالعقبة وهي المُحَلِّلة ، ثم احدى وعشرون في اليوم الثاني بعد زوال الشمس ، سبعا سبعا في الجمرات الثلاث ، وفي اليوم الثالث كذالك ، ونفر الناس إلى مكة ، فمنهم من صلى العصر بالأبطح ، ومنهم من صلاها بالمسجد الحرام ، ومنهم من تعجل فصلى الظهر بالأبطح ، قال مالك : وإذا رجع الناس من مِنَى نزلوا بالأبطح ، فصلوا به الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ويقال له المُحَصَّب ، ثم يدخل مكة بعد العشاء الإمام ، ووسَّع مالك في تركه لمن لا يقْتَدَى به ، وكان يُفْتي به سِرًّا . وفي البخاريِّ : ليس التَّحْصِيبُ بشيء وفي مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : نزول الأبطح ليس سنة إنما نزله رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه كان أسْمَحَ لخروجه .

ثم إنّ هذا النزول بالمحصب إنما هو لغير المتعجل ، وأما من تعجل فلا) رواه ابن حبيب عن مالك وقال مالك : وإذا وافق نفره يوم جمعة فلا أحبُّ للإمام أن يقيم بالمحصب ، وليدخل مكة ليصلي الجمعة بأهل مكة .

وأُنشدتُ للشافعي :

يا راكباً قِفْ بالمُحَصَّبِ من مِنَى   واهتِفْ بقاطِنِ خَيْفِها والنَّاهضِ

فانظر إلى قوله : من مِنَى فإنّ المُحَصَّبَ إذا كان هو الأبطح فإنه إلى مكة أقرب منه إلى مِنَى ، والشافعي أعرف ببلده . ومضت السنة قديماً بإقامة ثلاثة أيام بعد يوم النحر بمنى لإكمال رَمْيِ سبعين حصاة ، فوقع التعجيل في هذا الزمان في اليومين كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فمنْ تعجَّلَ في يَوْمَيْنِ فَلاَ إثْمَ عليه ﴾ وذالك مخافة ما يطرأ من الفتن بمنى ، فقد وقع ذالك غير مرة ، أُصيبت فيها دماءٌ وأموال ، نسأل الله السلامة والعافية، ونعوذ بالله من الفتن ، ما ظهر منها وما بطن .

لطيفة : عادة المصريّ وغيره أن يقفوا بالمحْمَلِ الذي عليه كسوة البيت العتيق بعرفات ، وكذالك عادة الشامي الذي يأتي بالمحمل الذي عليه كسوة الحجرة النبوية ، وقد وَقَفَا معاً بِعَرَفَةَ متسامِتَيْنِ ، ونفرا معاً نفرةً واحدةً ، ووقف بإزائهما سلطانُ مكة السلطان عبدالله(١) ، أصلحه الله وهو الذي حَجَزَ ابْنَيْ أميري الحاج المصري والشامي إذْ وقعت بينهما منافرة ومنافسة في أيّهما يقف أولاً وأولاً ينفر ، حتى كادت عِياب الود بينهما تَصْفِر ، حتى توافقت سماسرة الفتنة من الفريقين ، وسلم الله ذالك الجمع السالم من التغيير والتكسير ، والله على كل شيء قدير .

وفي يوم النحر المذكور سيقت كسوة الكعبة الشريفة المقدسة من محلة الأمير المصرى محمد باي إلى مكة على العادة يقدمها أبو جاهة ، والشيبي مولى المفتاح المبارك ، والطبول تضرب من ورائها ، وأمامها ، والرايات منشورة بحذائها حتى وصلت إلى المحل الرفيع ، فتولى أمرها وتعليقها وشدها بأمراسٍ في غاية ما يكون من الفتْلِ والإحكام السادةُ الشيبيُّون والقائمون بذالك الوظيف

من أهل البلد ، مجدون في ذالك غاية الجد ، فإذا البيت المبارك يؤول بزينة ما رأى الراؤون مثلها حسنا وجمالا وبهاءا ، وكانت الكسوة المباركة من الحرير الأسود وفيها كتابة بخط أبيض فيها آيات من كتاب الله بعد البسملة ﴿ إن أول بيت وُضِعَ للناس ﴾ الآية . وغير ذلك من الدعاء للسلطان العثماني ، فأخذ الكسوة القديمة سلطانُ مكة ، وبان بها لنفسه ، له في ذالك عادة معروفة تارة يأخذها وتارة يأخذها أمير الحج المصري ، فكملت كسوة الكعبة المباركة وشمرت أذيالها الكريمة صونا لها من أيدي الناس ، وشدة اجتذابهم لها ، وقوة تهافتهم عليها وإكبابهم فكأنها عروس جُلِيَتْ في أشرف ملابس وأحسن زينة ، لا يَمَلُّ أحد من النظر إليها ، تستوقف الأبصار ، وتعقل العجلان ، وتُذْهِل الأفكار ، أمتع الله النظر إليها كل مشتاق إلى لقائها ، حريص على المثول بفنائها بمنّه .

وفي يوم النحر المذكور فُتِحَ البيتُ المبارك ، بعد تَعَجُّلِ من تَعَجَّلَ من مِنًى ، فدخله أمير الحاج المصري حمد باي ، ومن معه من حاشيته ومن قُدِّرَ له ذالك من غيرهم ، ممن صبر على الازْدِحام على الباب المبارك ، فإنه يُرى من تَزَاحُمِ الناس على الباب الكريم وتطارحهم ووثوب بعضهم على بعض وسِبَاحة بعضهم على رؤوس بعض كأنهم في غَدِيرٍ من الماء أمرٌ لم يُرَ أهْوَلَ منه ، يؤدي إلى تلف المُهَج وكسر الأعضاء ، وهم في خلل ذالك لا يتوقفون ، بل يلقون بأنفسهم على ذالك البيت الكريم من فرط الطرب والارتياح ، إلقاء الفراشِ على المصباح ، وربما فُقِد في هذا المزدحم الشديد من دنا من أجله ، والله يغفر للجميع وينفع كلا بمعتقده وحسن مقصده بِقُوَّتِهِ آمين .

وكان ممن اتفق له الدخول للبيت المبارك مع أمير الحاج المصري صاحبنا الفقيه القاضي السيد بلقاسم العميري ، وبعض وصْفَان سيِّدنا نصره الله ، ولكنه على ما أخبرني به خرج بإخِرِ رَمَقٍ ، بقي ساعةً وهو مُلْقًى ، ينتظر الإفاقة من غشيته ، وكنا نحن تأخرنا قليلا مع ولد سيدنا نصره الله ، فلم يُقَدَّر لنا دخول البيت المبارك إذ ذاك ، ولا ليلة فتحوه للسيدة والدة مولانا نصره الله ، إذْ كان ذالك ليلاً على وجه الإخفاء بعد الإغفاء ، نسأل الله تعالى أن يتغمدنا برحمته ، وأن

يجزل حظنا من ثواب زيارة بيته العتيق ونظرته ، وأن يجعلنا ممن يشهد له بتقبيل حجره الأسعد وتقبيل سُدّته .

لطيفة : قبل دخولنا مكة المشرفة بأيام وجدنا شمرت أستار الكعبة المقدسة إلى نحو قامة ونصف من الجدار ، من الجوانب الأربعة ، ويسمّون ذالك إحراماً لها فيقولون أحرمتِ الكعبة ، وبهذا جرت العادة دائماً في أيام الحج ، ولا تفتح من حين إحرامها إلا بعد الوقفة ، فكأنّ ذالك التشمير إيذانٌ بالتشمير للسفر ، وإيذانٌ بقرب وداعها المنتظر ، لا جعله الله آخر وداع ، وقضى لنا إليها بالعودة وتيسير سبيل الاستطاع ، بعزته وقدرته ، وما أحسن قول العلامة الشيخ أبي سالم سيدي عبدالله اعياش(٢) لما رأى البيت المبارك مشمر الأذيال ، فوصف تلك الحال :

فكأنّهُ لما بدَا مُتَشَمِّــــــرًا ... والزّائِرونَ به جميعاً أحْــدقُوا
مَلِكٌ هُمامٌ ناهِضٌ للقاء مَنْ ... قَدْ زارَهُ ولهم إليــه تَشَوُّقُ
فتبادرَ الغِلْمَانُ رَفْعَ ذُيُولِــهِ ... حتّى إذَا رَجَعُــوا جميعاً أطلَقُوا

ثم نرجع إلى استيفاء الخبر عن المنازل بِمِنَى ، وذكر المناسك المعظمة بها فنقول : منازل تملأ النفوس بهجة وانشراحاً ومدينة عظيمة الآثار واسعة الاختطاط ، عتيقة الوضع ، قد دَرَسَتْ وصار أكثرها براحاً ، إلا منازل يسيرة يعمرها أيام الموسم بعضُ الباعة .

وأول ما يلقَى المتوجه إليها عن يساره بمقربة منها مسجد البيعة المباركة التي كانت أول بيعة في الإسلام ، عقدها العباس رضي الله عنه للنبي عليه السلام على الأنصار ، حسبما المشهور من ذالك .

ثم يفضي منا إلى جمرة العقبة وهي أول مِنَى للمتوجه إلى مكة وعن يسار المار إليه وهي على قارعة الطريق مرتفعة للمتراكم فيها من حَصَى الجمرات ، ولولا آيات الله البينات لكانت كالجبال الرواسي ، لما يجتمع فيها على تعاقب الدهور ، وتوالي الأزمنة ، لكن لله عز وجل سِرٌّ كريم من أسراره الخفيات لا إله سواه ، وعليها مسجد مبارك وبها علم منصوب ، فيجعلها الرامي عن

يمينه ، مستقبلا مكة شرفها الله ، ويرمي بها سبع حصيات ، وذالك يوم النحر ، إثْرَ طلوعِ الشمس ، ثم يفعل في اليوم الثاني والثالث من رَمْيِ الجمار ما ذكرناه قبل على الترتيب .

ثم بعد الجمرة الأولى يُعرِّجُ عن الطريق يسيراً ويلقى مَجَرَّ الذَّبيح صلى الله عليه وسلم ، حيث فُدِيَ بالذِّبح العظيم ، وعلى الموضع المبارك مسجد قديم البناء ، وهو بمقربة من سفح ثَبير ، وفي موضع المجرِّ المذكور حَجر قَدْ أُلْصِقَ بالجدار المبني ، فيه أثر قدمٍ صغيرة ، يقال إنها أثْرُ قدمِ الذبيح صلى الله عليه وسلم عند تحركه ، فَلاَنَ له الحجر ، بقدرة الله عز وجل إشفاقا وحنانا ، فيتبرك الناس بلمسه وتقبيله[٣] ثم يفضي من ذالك إلى مسجد الخيف المبارك وهو آخر مَبْنِيّ في توجهك أعني المعمور منها بالبنيان .وأما الآثار القديمة فهي آخذة إلى أبعد غاية أمام المسجد ، وهذا المسجد المبارك متسع الساحة كأكبر ما يكون من الجوامع ، والصومعة وسط رحبة المسجد ، وله في القبلة أربعة بلاطات ، يشملها سقف واحد ، وهو من المساجد الشهيرة بركةً وشرف بقعة ، وكفى بما ورد من الآثار الكريمة من أن بقعته الطاهرة مدفن كثير من الأنبياء صلوات الله عليهم .

وبمقربة منه عن يمين المار في الطريق حجر كبير ، مسند إلى سفح الجبل ، مرتفع عن الأرض ، يُظِلُّ ما تحته ، ذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم قعد تحته مستظلاً ، ومس رأسه المكرم فيه فَلاَنَ له حتى أَثَّرَ فيه تأثيراً بقدر دَوْرِ الرأس[٤] فيبادر الناس لوضع رؤوسهم في ذالك الموضع تبركاً واستجارة بموضع الرأس المكرم ألاَّ تمسها النار برحمة الله عز وجل .

ذكر مكة شرفها الله

وما بها من المزارات والآثار المكرمات والآيات البينات ، قال الله عز وجل ﴿إنَّ أولَ بيتٍ وُضِعَ للنَّاسِ للذي بِبكَّةَ مباركاً وهُدًى للعالمين﴾ الآية ، وقال : ﴿وهو الَّذي كَفَّ أَيْدِيهُمْ عنكم وأَيْدِيكُمْ عنْهُمْ ببطنِ مكَّة﴾ واخْتُلِفَ في هذين الاسمين فقيل : إنهما بمعنى واحد ، والباء تبدل من الميم كما يقال :

لازِمٌ ولازِبٌ وقيل : مكة بالميم اسم البلد وبالباء موضع البيت ، وقيل بكة بالباء بطن مكة وقيل موضع المسجد والبيت ،وهذا كله متقارب، واختُلِفَ في اشتقاق الاسمين فقيل : بكة بالباء مشتقة من الازدحام ، وقيل : من بكِّ العُنُق وهو التواؤها لأنه ما فجر فيها أحد في الدهر الأول إلا أصبحت عنقه ملتوية ، ويحتمل أنه من بكَّ الشيء إذا فرَّقه ، لتفرق الناس منها في كل جهة عند فراغ الحج .

قال امرؤ القيس :

ولله عَينا من رأى من تَفَــرُّق　　أمَــرَّ وأنـأى مِنْ فِراقِ المُحصَّبِ

وأما مكة بالميم فقيل : هو من قولهم : امتَكَّ الفيصلُ ما في ضرع أمِّه ، إذا مَصَّهُ مصًّا شديداً ، سميتْ بذالك لاجتِذَابِها الناس من الآفاقِ أوْ لاستِقْصائها محو الذنوب ، أو لقلة مائها حكاه ابن دريد ، أوْ لأنها تنقص من ظلم فيها وقيل : هو من المكاء وهو الصفير . قال الله عز وجل ﴿وما كانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ البَيْتِ إلا مُكَاءً وتَصْدِيَةً﴾ حكاه الزجاجي . ولها أسماء : مكة وبكة ، وصلاح معدول ، والعرش ، والقادس والمقدسة والسَّاسة والنَّاسَّة – بنون وسين مهملة – والباسة بالباء ، والبيت العتيق ، وقيل : هو الكعبة ، وأم رُحم بضم الراء ، وأم القرى، والحاطمة والرأس ، مثل رأس الإنسان ، والبلد ، وقيل : هو مِنَى والقرية القديمة ، والبلد الحرام ، حكاها كلها القاضي عياض في « مشارقه » فصلاح معدولة عن صالحة ، والعرش السرير ، لأنها أرفعُ البلاد ، والقادس والمقدسة من الطهارة ، والنسَّاسة من نسَّ الشيء أذهبهُ حكاه السُّهيلي ، لأنها تُذْهِبُ الظَّلَمَةَ وتُبيدهم ، وبالباء من النَّبسِ وهو الفتُّ بمعنى الأول ، والعتيق القديم ، وقيل لعتقها عن تملك الجبابرة عليها أو من تجبرهم فيها ، والرُّحم الرحمةَ وأم الشيء أصله أي موضع الرحمةَ وأم القرى أصلها لأن الأرض دُحِيَتْ مِنْ تحتها قاله الهرويُّ والحاطمة مهلكة الظالمين والرأس معروف ، لأنها في البلاد كالرأس في الجسد ، والبلدة الحرام لاحترام الله عز وجل إيَّاها وتعظيماً لها .

قلت : ويقال للكعبة البنيَّةُ اسم لها مشتق من البناء ،والبيت العتيق وقد مضى

ذكره ، وفي بدئها على أقوال كثيرة ، فحكى القاضي عياض عن كعب ووهب ابن منبه أنَّ البيت أُنزل من السماء ياقوتةً حمراء ، والركن ياقوتة بيضاء ، فبنى آدمُ قواعدَه ، ووضعه عليها فلما أرسل الله الطوفان رُفِعتْ وبقيت القواعد .

وذكر أبو الفرج بن الجوزيَّ نَحْوَ هذا عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه أن الملائكة قالت لآدَمَ : قد حَجَجْنَا هذا البيت قبلك بألف عام . وذكر الأزرقيُّ عن ابن عباس رضي الله عنه في الركن نحو ما تقدم قال : ليس في الأرض من الجنة إلا الركن الأسود والمقام ، فإنهما جوهرتان من جواهر الجنة ، ولولا مَا لا مَسَّهُمَا من أهل الشرك ما مسَّهُما ذُو عاهة إلا شفاه الله عز وجل . وذكر الترمذيُّ عن ابن عباس رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشدُّ بياضًا من اللبن فسوَّدته خطايا بني آدم » . وقيل : إن الملائكة بنتِ البيت وأنهم لما قالوا ﴿ أتجْعَلُ فيها منْ يُفْسِدُ فيها ﴾ غضب الله عليهم فعادُوا يطوفون بالعرش ، يسترضون ربهم فرضي عنهم وقال لهم : ابنوا في الأرض بيتاً يعوذْ به كلُّ من سخطتُ عليه ، كما فعلتم بعرشي ، فبنوا البيت وقيل : إنما بناه آدم عليه السلام ، وأنه لما أُهبِط من الجنة أوحى الله إليه ابْن لي بيتاً واصنع حوله كما كانت الملائكة تصنعُ حول عرشي ، فبناه . حكي هذا عن ابن عباس أيضاً ، قال وبناه من خمسة أجبل ، طور سيناء وطور زيتاء ولبنان والجودي وحراء ، قال مجاهد : وكان موضعه بعد الغرق أكمة حمراء لا تعلوها السيول ، وكان يأتيها المظلوم ويدعو عندها المكروب وقيل : إنما بناه شيث بن آدم عليه السلام حكاه أبو عمر بن عبد البر .

والذي يدل عليه ظاهرُ الحديث إن البيت كان قبل إبراهيم عليه السلام وذالك أنه دعا عند وضعه هاجرَ وابنها إسماعيل بمكة قبل بنائه البيت بزمان ﴿ ربنا إنِّي أَسْكَنْتُ من ذُرِّيَّتي بوادٍ غير ذِي زَرْعٍ عند بيتك المُحَرَّمِ ﴾

والحديث الذي اشرنا اليه هو ما قاله ابن عباس رضي الله عنه أن ابراهيم عليه السلام أنزل هاجر بولدها اسماعيل عليه السلام وهو صغير يرضع بمكة ولا ماء بها

ولا أنيس ، فقالت : الله أمرك أن تتركنا بهذا الوادي الذي لا أنيس به ؟ قال : نعم، قالت : إذَنْ لا نضيع معه. وذهب حتى غاب عنهما فاستقبل البيت فقال ﴿ربِّ إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم ﴾ إلى ﴿ يشكرون﴾ فلما عطشتْ هاجرُ وابنها ورأته يتَلَوَّى قامت كراهة أن تنظر إليه فصعدت الصفا فنظرتْ فلم ترَ أحدًا فهبطتْ، فلما كانت في الوادي رفعتْ ذيلها وسعتْ سعي المجهود، حتى صعدت المروة فلم ترَ شيئاً ، ثم رجعت إلى الصفا ، فعلتْ ذالك سبع مرّات ، فلذالك يسعى الناس بينهما ، فجاء المَلكُ فضرب بعقبه في موضع زمزم، فنبع الماء ، فجعلت تخوض بيدها ولوتركته لكان ماء مَعِيناً ، ثم قال لها الملكُ : لا تخافا الضَّيْعة فإنّ ها هنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، ثم نزل عندها رفقةٌ من جُرْهُمَ فلما شبَّ الغلام زوجوه ، فجاء إبراهيم عليه السلام وإسماعيل غائبٌ ، فسأل زوجته عن حالها فشكتْ فقال لها : قولي لزوجك يُغَيِّرُ عَتَبَةَ بَابِهِ ، فطلّقها ، وتزوج أخرى ، ثم جاء إبراهيم عليه السلام فسألها وأثْنَتْ على الله وقالت خيرا . فقال لها : قولي لزوجك يُثْبِتُ عَتَبَةَ بابِهِ ، وسألها عن عيشهم فقالت : اللحم والماء فقال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فلا يَخْلُو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه » . ثم جاء بعد ذالك وإسماعيل يَبْرِي نَبْلاً تحت دوحة قريباً من زمزم ، فقال له : إن الله أمرني أن أبنيَ له ها هنا بيتاً وأشار إلى أكَمَة فعند ذالك رفع القواعدَ من البيت ، يبني إبراهيم وينقل إسماعيل الحجارة ، فلما ارتفع البناء جاءه بالمقام فوقف عليه وهو يبني ، ويقولان : ﴿ ربّنَا تقبلْ منّا إنّكَ أنْتَ السميعُ العليم ﴾ ويحكى أنه لما أمرَ إبراهيمُ عليه السلام ببناء البيت قال : يارب بَيِّنْ لي صِفَةً فأرسل الله سبحانه غمامة على قدر البيت ، فسارتْ معه حتى نزل مكة فقيل : ابْنِ ها هنا ، فبنى ، وكان جبريل عليه السلام قد استودع أبا قُبَيْسٍ الحَجَرَ الأسودَ حين الغرق ، فلما بنى إبراهيم عليه السلام أخرجه إليه ، فوضعه ، قالوا: ولما تُوُفِّيَ إسماعيل دُفِنَ في الحِجْرِ عند أمّه ، ودَبَّرَ أمرَ الحرم ولدُهُ نابتٌ بن إسماعيل ، ثم غلبت جُرْهُمُ على البيت فانهدم ، فبنته العمالقة ، ثم انهدم فبنته جُرْهُمُ ،

ثم احترق في الجاهلية من تَجْميِرْ فهدمته قريشٌ ، وكان قصيراً تقتحمه العين ، فرفعوه نحواً من عشرين ذراعاً ، وقصتهم في بنائه وفي الحَيَّةِ واختطاف الطائر لها ووضع الركن مشهورة ذكرها ابن اسحاق في « السيرة » مستوفاة ، وذكرها أبو عمر بن عبد البر وغيره . واختُلِفَ في وقت بناء قريش لها فقيل : إنهم بنوها وقت بلوغ النبي صلى الله عليه وسلم الحُلُمَ ، وقيل : بنوها وهو ابن خمس وعشرين سنة ، وقيل : ابن خمس وثلاثين ، وهو قول ابن اسحاق ، وقال بعضهم : إنّ قريشا بنتها مرتين ، ثم احترقت في زمان يزيد بن معاوية ثم استشار ابنُ الزبير الناسَ في نقضها وبنائها فنقضها وبناها ، وزاد في ارتفاعها عشرة أذرع وأدخلَ فيها من الحِجْرِ ما ثبت أنه منها ، وجعل لها بابَيْن شرقياً وغربياً ، وألصقها بالأرض حسبما ثبت به الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قُتِل ابنُ الزبير كتب الحجاجُ إلى عبد الملك يعلمه ببناء ابن الزبير للكعبة ، وإدخالِه فيها ما أدْخَلَ من الحِجْرِ ، فكتب إليه عبد الملك يأمره بردّها على ما كانت عليه في زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن لا يُغَيِّرَ ما زاد في ارتفاعها فنقضها الحجاج وبناها على ما هي عليه اليوم ، ولما كان الرشيد استشار مالكاً في ردّها على ما صنع ابن الزبير كما أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له مالك رحمه الله : ناشدتُكَ الله يا أمير المؤمنين لا تجعل هذا البيت ملعبةً للملوك لا يشاء أحدُهُم إلاّ نقضَ وبناه ، فتذهب هيبتهُ من صدور الناس . فقبل الرشيد كلامه وتركه على ما هو عليه .

(للحديث صلة)

الحواشي :

(١) هو عبدالله بن سعيد بن سعد بن زيد بن محسن بن الحسين بن الحسن بن أبي نمي – الذي تولى إمارة مكة فترتين الأولى في ٢١ المحرم من سنة ١١٢٩هـ إلى ٢٧ جمادى الأولى من سنة ١١٣٠هـ ، والثانية من ١٥ جمادى الآخرة سنة ١١٣٦هـ إلى ١٥ ذي القعدة سنة ١١٤٣هـ ولكن يلاحظ أن عبدالله بن سعيد قد توفي قبل الحج ، والمؤلف قد صرح في مقدمة الرحلة أن حجه كان سنة ١١٤٣هـ وأن خروج السيدة خناثي والدة ملك المغرب التي حج مرافقاً لها من فاس للسفر كان يوم الإثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين ومئة وألف . وعلى هذا فأمير مكة أثناء الحج هو محمد بن عبدالله بن سعيد ، ولعل اسم محمد سقط خطأ من الناسخ .

(٢) هو الشيخ العياشي صاحب الرحلة المشهورة « ماء الموائد » .

ما اتفق لفظه وافترق مسماه
من أسماء المواضع
للإمام محمد بن موسى الحازمي (٥٤٨/٥٨٤هـ)

— ٣٢ —

٢٠٢ – بَابُ جَلِيلٍ وحُلَيْلٍ(١)

أمَّا الأوَّلُ – بفتحِ الجيمِ وكَسْرِ اللاَّمِ : – جَبَلُ الْجَلِيلِ فِي سَاحِلِ الشَّامِ ، مُتَّصِلٌ إلى قُرْبِ مِصْرَ ، كانَ مُعَاوِيَةُ حَبَسَ فِيهِ مَنْ كان ظفر به مِمَّنْ كان يَنبِز بقَتْلِ عُثْمَانَ ، وهُنَاكَ قُتِلَ عَبْدُ الرحمَنِ بنُ عُدَيْسٍ البَلَوِيُّ ، قَتَلَهُ بَعْضُ الأعْرَابِ لَمَّا اعْتَرَفَ عِنْدَهُ بِقَتْلِ عُثْمَانَ(٢) .

وذُو الْجَلِيلِ : وَادٍ قُرْبَ مَكَّةَ(٣) .

وأمَّا الثَّاني – أوَّلُهُ حاءٌ مُهْمَلَةٌ مَضْمُومَةٌ ثم لامٌ مَفْتُوحَةٌ – مَوْضِعٌ فِي دِيَارِ سُلَيْمٍ كَانَتْ فِيهِ وَقَائِعُ ، لَهُ ذِكْرٌ في أيَّامِ الْعَرَبِ(٤) .

٢٠٣ – بابُ جُلْجُلٍ : وحَلْحَلٍ(٥)

أمَّا الأوَّلُ – بِجِيمَيْنِ مَضْمُومَتَيْنِ : – دَارَةُ جُلْجُلٍ : قالَ الأصْمَعِيُّ وَأبُو عُبَيْدَةَ : هِيَ مِنَ الحِمَى ، وقالَ غَيْرُهُمَا : فِي دِيَارِ الضِّبَابِ ، ذَكَرَهَا امْرُؤُ الْقَيْسِ وغَيْرُهُ(٦) .

← (٣) التبرك بالأحجار وتقبيلها من الأمور المحرمة شرعاً ، وما ذكر عن الحجر وعن الحجر من الأمور التي لا أصل لها وما يتناقله العوام حولها من الأخبار الخرافية .

(٤) ليس فيما وصل إلينا من كتب التاريخ الموثوق بها ما يؤيد هذا ، ولو ثبت لذكره علماء السلف الذين لم يتركوا شيئاً من معجزاته – صلى الله عليه وسلم – إلا ذكروه ، ولهذا لا تجوز نسبة ذلك له صلى الله عليه وسلم ، ولا يجوز التبرك بذلك الحجر ، والاستجارة بغير الله شرك إذ هو سبحانه الذي يجير ولا يجار عليه .

وأمّا الثاني – بخاءين مهملتين مفتوحتين : – جبلٌ من جبال عُمان . وفي شعر الأخطل مُصغّرٌ – قال :

قَبَحَ الإلهُ من اليهودِ عصابةً
بالجزعِ بين حُلَيحِلٍ وصُحارِ (٧)

الحواشي :

(١) في كتاب نصر في حرف الجيم : (باب الجليل والخليل وخليل) .

(٢) قال نصر : – بفتح الجيم – : جبل الجليل قرب مصر ، وكان معاوية حبس فيه من ظفر به من أهل مصر المخالفين له سنة سبع وثلاثين ، منهم محمد بن أبي حذيفة ، وابن عديس ، وكريب بن أبرهة . انتهى . وفي « معجم البلدان » : جبل الجليل في ساحل الشام ، ممتد إلى قرب حمص ، كان معاوية يحبس في موضع منه من يظفر به ممن ينبز بقتل عثمان بن عفان – رضي الله عنه – منهم محمد بن أبي حذيفة ، وكريب بن أبرهة ، وهناك قتل عبد الرحمن بن عديس البلوي ، قتله بعض الأعراب لما اعترف عنده بقتل عثمان . كذا قال أبو بكر بن موسى . انتهى .
وأبو بكر هذا هو الحازمي ، ولكن النص فيه زيادة عما في كتاب الحازمي الذي بين أيدينا .
وفي المعجم أيضا : وجبل الجليل بالقرب من دمشق أيضا وهو جبل يقبل من الحجاز فما كان بفلسطين منه فهو جبل الحمل ، وما كان بالأردن فهو جبل الجليل وهو بدمشق لبنان ، وبحمص سنير . وفيه أيضا في ترجمة واصل بن جميل السلاماني الجليلي من جبل الجليل من أعمال صيداء وبيروت من ساحل دمشق – نقلا عن ابن عساكر في « تاريخ دمشق » .
أما كلمة (مصر) في كتاب الحازمي فخطأ صوابها (حمص) .

(٣) هذا نص كلام نصر . وزاد ياقوت في « معجم البلدان » : قال بعضهم : بذي الجليل على مستأنس وحد . وهذا عجز بيت النابغة الذبياني هو في ديوانه برواية الأصمعي :

كأن رحلي – وقد زال النهار بنا   يوم الجليل على مستأنس وحد

ولكنه ورد في « شرح المعلقات العشر » للنحاس : بذي الجليل . وفسره الشراح بأنه موضع ينبت الثمام ، إذ الجليل من أسماء الثمام . وما أرى النابغة أراد الموضع القريب من مكة ، إذ بلاده وبلاد قومه بعيدة عنها .

ويورد بعضهم شاهداً على الجليل الذي بقرب مكة البيت المنسوب لبلال – رضي الله عنه – :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة   بفخ وحولي إذخر وجليل

إذ جليل واد ينحدر من جبل حراء حتى يفيض في ادي فخ ، وقد بلغه عمران مكة ، وإذخر – وهو أذاخر – واد يدفع أيضا في وادي فخ ، على أن المتبادر إلى الذهن أن الإذخر والجليل في البيت هما النوعان المعروفان من النبات . وقد يسمى بهما المكان الذي ينبتان فيه ، ولهذا تعدد ذو الجليل . وقال نصر : وذو الجليل واد بقرب أجأ ، وذكر في بعض الكتب بضم الجيم وفتح اللام وتشديد الياء ولا يثبت . انتهى وذكر أنه عند أكة والقن بأجأ .

(٤) هذا تعريف نصر سوى جملة (له ذكر في أيام العرب) فمن زيادات الحازمي . ولم يزد ياقوت على كلام الحازمي إلا أنه هو ونصر أوردا الاسم معرفاً (الخليل) .
وقال نصر عن خليل : وأما بفتح الخاء المعجمة وكسر اللام – : أحسبه موضعاً من الشق اليماني ، ينسب إليه أحد الأذواء . انتهى .

←

اليمن تاريخاً وحضارة

للدكتور يوسف شلحد ورفقائه

ما كنت أدرك أنّ إتقان إحدى اللغات العالمية كالإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية من الأمور التي لابد منها للمثقف العربي في هذا العصر ، إذا أراد أن يُلِمّ إلماما شاملا بنواحي الثقافة العربية فضلا عن غيرها من الثقافات – ما كنت أدرك أنّ هذا الأمر من مكملات الثقافة في هذا العصر حتى فات الوقت الذي أتمكن فيه من دراسة إحدى اللغات ، وبعد أن اتضح لي أن المثقف العربي لا يكفيه الاطلاع على ما يؤلف بلغته ، مما يتعلق بثقافته العربية . إذ لهذه الثقافة روافد قوية

---

(٥) في كتاب نصر في حرف الحاء : (باب حلحل وجلجل) .

(٦) قال نصر : وأما بضم الجيمين – : دارة جلجل في دار الضباب ، مما يواجه ديار فزارة . انتهى وجمع ياقوت بين القولين ، وذكر معنى الجلجل لغة ، وأشار إلى أنه فسر الدارة في بابها . وما أورده الحازمي من قولي الأصمعي وأبي عبيدة وقول غيرهما ينطبق على موضع واحد ، فبلاد الضباب أغلبهـا في الحمى ، حمى ضرية ، أما قول نصر بأنها مما يواجه ديار فزارة – فيفهم منه أنها في الشمال الغربي من الحمى ، حيث عد الهجري من بلاد فزارة جبل الزهلول ومياهاً في جهته ، ولكن الهجري ذكر أن دارة جلجل يمانية من دور بني الحارث بن كعب ، وبلاد هاؤلاء في جنوب الجزيرة في بلاد نجران وما بقرب تلك البلاد ، ويمكن الجمع بين قول الهجري وبين قول الأصمعي وأبي عبيدة بأن الاسم قد يطلق على موضعين فأكثر .

(٧) لم يزد نصر من قول : أما بحائين : جبل من جبال عمان . وأورد ياقوت نص كلام الحازمي غير منسوب إليه بدون زيادة .وبيت الأخطل ورد في ديوانه – ٣١٤ – من مقطوعة أبياتها ستة هو أولها ونصه :

لعن الإله بني اليهود عصابة   بالجزع بين جلاجل وصرار

وكذا ورد في « الأغاني » ج ١٤٨/١٣ و ج ١٢٢/١٤ طبعة بولاق – مع اختلاف يسير في بعض الكلمات وهذه الرواية أصح مما في كتاب الحازمي وما نقله ياقوت عنه وإنلم يصرح بالنقل ، لأن القطعة في هجاء بني النجار أهل المدينة ، ومنهم ابن الفريعة يعني حسان بن ثابت ، ولا صلة البيت بعمان ، وصرار من المواضع المشهورة في المدينة وكان من آطام اليهود في شامي المدينة من ناحية الحرة ومنازل بني حارثة – على ما ذكر السمهودي في « وفاء الوفاء » .

بلغات أخرى ، إذا لم يحسنها فاته إدراك تلك الروافد ، وفهمها ، ومنها ما يعتبر إدراكه من ضرورات مثقف هذا العصر ، لارتباط المباحث العلمية واتفاق أصولها في مختلف اللغات .

ذكرت هذا وأنا أطالع في إحدى صحفنا وهي جريدة « البلاد » – ع ٧٨١٦ تاريخ ١٤٠٥/٣/١٢هـ (١٩٨٤/١٢/٤م) – خبراً نصه : (أصدرت دار نشر (ميزونوف ولاروز) في باريس التي يديرها (جوزيف شيلهود) المتخصص في علم الاجتماع وعرقيات الشرق الأوسط والأستاذ بجامعة باريس ورئيس قسم الأبحاث في المركز القومي للبحث العلمي ، مؤلفا شاملا مكونا من عدة أجزاء حول اليمن أو كما تطلق عليه الكتب الكلاسيكية اليمن السعيد باسم « عرب الجنوب تاريخ وحضارة » .

تمنَّيْتُ أنني أحسن اللغة الفرنسية لأعرف شيئا عن هذا الكتاب ، وما أدركت أنه قد أُهْدِيَ إلي منه مجلدان بتاريخ ١٩٨٤/٦/٢٧م – أي قبل نشر الخبر بما يقرب من ستة شهور .

وأنّ اسم مؤلفه الفاضل الذي ورد في الصحيفة (جوزيف شيلهود) هو من أصدقائي منذ سنين ، وأنّ وقوع الخطأ في كتابة اسمه حال بيني وبين معرفته ، وهذا ما يشكو منه الأستاذ نفسه حيث ذكر لي في أحد كتبه أنّ بعض المنشورات العربية تشوه اسمه تشويها قبيحا ظناً منها أنه من المستشرقين .

وهو عربيّ منشأً وهوىً وثقافة ، فهو من أسرة سورية تدعى (شلحت) والكلمة سريانية معناها (رسول) ، وقد ولد في مدينة حلب في ١٩١٩/١٢/٦م وتلقى دراسته في المدارس الخاصة التي أجاد فيها اللغة الفرنسية ، ولكن أسرته كان لها تأثير في توجهه لدراسة اللغة العربية دراسة عميقة ، فقرأ كتاب سيبويه ، قبل أن يكمل العقد الثاني من عمره ونال الجائزة الأولى في مسابقة شعرية أجرتها مجلة « الأمل » بين جميع طلاب سورية ولبنان ، وحاز شهادة (البكلوريا)

في العلوم سنة ١٩٣٨م ولكنه بسبب قيام الحرب العالمية الثانية لم يتمكن من متابعة دراسته العليا ، فاشتغل في التعليم ، ونشر عددا من المقالات في مجلات « الحديث » و « الضاد » و « برق الشمال » .

وفي سنة ١٩٤٦م صَدَرَ له أول كتاب باللغة العربية بعنوان « علم الاجتماع الديني » .

وسافر بعد ذالك إلى فرنسا للدراسة ، فنال شهادة (الليسانس) في العلوم الاجتماعية من جامعة السربون ، ثم (دكتوراه الدولة الممتازة) بدرجة الشرف من الجامعة نفسها سنة ١٩٥٢م .

ثم عاد إلى سورية للعمل في الجامعة ولكنه بقي سنة كاملة بدون عمل ، فعاد إلى فرنسا حيث عُيِّنَ باحثا في (المركز القومي الفرنسي للبحث العلمي) .

وقد قام بعدد من الرحلات إلى البلاد العربية لدراسة أوضاعها الاجتماعية موفدا من قبل المركز الفرنسي الذي أُسْنِدَ إليه شؤون البحث العلمي التعاوني عن اليمن وعن الجزيرة العربية مدة عشر سنوات .

وقام بتدريس العلوم الاجتماعية في معهد العلوم العليا ، وفي جامعة السربون وفي جامعة السربون الجديدة .

وقد اعتزل التعليم ليتفرغ للبحث والدراسة والكتابة .

وله أبحاث علمية نشرت في المجلات الفرنسية والألمانية وفي الموسوعة الإسلامية الدولية .

وقد قام بتحقيق كتاب « بغية المستفيد وذيله الفضل المزيد » لابن الديبع ونشره المعهد اليمني للدراسات التاريخية ، ونشرت له مجلة « العرب » أبحاثا تاريخية .

وقد نشر له من المؤلفات باللغة الفرنسية :

١ - حدود الموضوعية في علم الاجتماع (رسالة دكتوراه) .

٢ - الذبائح عند العرب .

٣ - المدخل لعلم الاجتماع الإسلامي .

٤ - أسس الحرام عند العرب .

٥ - الحقوق في المجتمع البدوي .

٦ - العربية الجنوبية تاريخا وحضارة ، في ثلاثة أقسام :

القسم الأول : عن العهد الإسلامي وشارك الدكتور يوسف شلحد الأستاذان أثين رينو وجون بالدري ، وقد صدر في ٢٨٢ صفحة .

القسم الثاني : عن التاريخ المعاصر ، اشترك في تأليفه الأساتذة يوسف شلحد وآلَن روو ودنيال رودسون وجاك كولان ، ويحوي من المباحث :

١ - الثورة اليمنية في الشمال والجنوب .

٢ - الناحية الاقتصادية .

٣ - الهجرة اليمنية .

٤ - تكوين المجتمع اليمني .

القسم الثالث : يتعلق بتاريخ اليهود في اليمن شارك الأستاذ يوسف في تأليفه الأستاذ يوسف طوبي ، وهذا القسم الأخير سيصدر في شهر شباط (فبراير) ١٩٨٥م .

ولاشك أن هذا الكتاب سيلقى من المهتمين بدراسة تاريخ الجزيرة العربية واليمن خاصة من العناية والاهتمام ما ييسر للباحثين الذين لا يحسنون اللغة الفرنسية الاستفاده منه .

وحبذا لو قام المركز اليمني للدراسات التاريخية ، أو قسم التاريخ بجامعة صنعاء بنقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية لتعميم نفعه .

حمد الجاسر

بنو رشيد : فروعها وبلادها

يرجع أصل فروع قبيلة بني رّشيد إلى قبيلة غطفان بن سعد بن قيس عَيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

وغطفان هذا جذمٌ عظيمٌ يجمع عدداً من القبائل تعرف مجتمعة فيه ، وتعرف متفرقة بفروعها منه ، وهم من ذريته ، ولذلك استحسن إعطاء القاريء نبذة موجزة عن تلك الفروع قبل الدخول في تفريع القبيلة الّتي نحن بصددها الّتي هي بقايا منهم(١) وهم :

١ ــ بنو عَبْس بن بَغيض بن ريث بن غطفان .

٢ ــ بنو ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان ، وذبيان جذم كبير يجمع قبائل منها :

أ ــ بنو فَزَارة بن ذبيان .

ب ــ بنو مُرّة بن عوف بن سعد بن ذبيان .

جـ ــ بنو ثعلبة بن سعد بن ذبيان .

٣ ــ بنو أشجع بن ريث بن غطفان .

ويتفرع من كل قبيلة منها بطون وفروع كثيرة يطول ذكرها ، ويتسع مجال حصرها ، ولكل منها تاريخ مليء بالأخبار والحوادث لا يخفى على من عُني بدراسة التاريخ والأدب ، وليس المقام هنا مقام تفصيل وسرد مفاخر ومآثر قبائل تشتت أحوالها ، بل لا يعدُ كونه محاولة لتبيين نسبها في غطفان لمن لم يكن على معرفة بها من قبل .

أما مواطن تلك القبائل قديما فقد أوفى الكلام عنه أصحاب المؤلفات القديمة ، ولم أر فائدة من تكراره .

تفكك غطفان : غطفان كغيرها من قبائل قلب الجزيرة بدأت تتفكك

أيام الفتوحات الإســلامية حيث تطوع كثير من رجالها في صفوف الجيش الإسلامي الذي قوامه آنذاك رجال القبائل .

وقبيلة غطفان يمكنني أن أوجز أسباب تفككها بأمور ثلاثة :

الأول : اشتراك عدد كثير من رجالها في بدء الفتح الإسلامي كمحاربين متطوعين في صفوف جيوش الإسلام ، وقد تولى عدد من رجالها مناصب قيادية عليا في جيوش الإسلام المحاربة ، في سبيل الله ونشر دينه والمرابطة ثم الاستقرار خارج الجزيرة . ومن المعروف أن أسر أولئك المحاربين لاتتخلف عنهم في مثل تلك الحالة ، فإذا افتتحوا بلدا اتخذوا منه لأسرهم موطنا ، مما جعل المقيمين من أقربائهم في أوطانهم الأولى ، أشد تطلعا للحاق بهم ، وهو ما حدث فعلا مما أضعف تماسك القبيلة وقلل من قوتها .

الثاني : غزوة القائد العباسي التركي (بغا) الكبير لغطفان عام ٢٣١هـ في فدك (الحائط) مما سبب تمزيق القبيلة تمزيقا غادرت على أثره بطون كثيرة منها مواطنها إلى الشام ومصر والمغرب وأماكن أخرى معروفة في أفريقية، وبقي منها عشائر تخلفت بمواطنها القديمة في حرار خيبر وجبلي أبانين . والمؤرخون يكادون يجمعون على أن هذه الغزوة من أقوى الأسباب التي قضي بها على تماسك غطفان وقوتها .

الثالث : ويُعَدُّ هـذا السبب أهم الأسباب ما حدث لقبيلة بني عبس في القرن الثامن الهجري على أيدي جاراتها من القبائل العربية المجاورة لها وغير المجاورة وما آلت إليه أحوالها من جراء تكالب عدد من قبائل الجزيرة إن لم تكن كلها على عبس ، وما أعقب ذلك من تشتيتها وإضعافها بسبب حرب وقعت بينها وبين قبيلة أخرى انتصرت عليها عبس ، على ما جاء في كتاب « مرآة جزيرة العرب » للمؤرخ التركي أيوب صبري باشا ، ويبدو أن هذه الحادثة ظلت مجهولة لدى كثير من الباحثين ، والكتابُ اليوم في متناول أيدينا وفيه تفصيلات لم تكن معروفة من قبل عن قبيلة بني رشيد ، وإن كان المؤرخ عفا الله عنه قد خلط مع بني رشيد فروعا لم تكن منها وليست معروفة فيها .

واسم (بني رشيد) من بطون عبس أصبح رمزاً انضوي بكنفه فيما بعد ما بقي من عبس ، وشمل كثيرا من البطون الأخرى من قبيلة غطفان .

وهذا تفصيل قد يكون وافيا عن بطون قبيلة بني رشيد الحاضرة وفروعها حسبما توصلت إليه من دراسة أحوالها ، وإن كانت الروايات المتداولة على الألسن بين أفراد القبيلة نفسها وبعض المراجع[٢] تظهر عبسا ظهورا بائنا بالذكر دون سواها بهذا الانتساب ولا أحد ينكر ذلك ، ولكن الذي لاشك فيه أن بقايا من بطون غطفان دخلت في بني رشيد ، ولا إشكال في ذالك فالجميع يرجعون لغطفان .

وليس معنى هذا إنكار دخول فروع صغيرة وقليلة عدنانية الأصل دخلت مع بني رَشيد بطريقة الحلف من غير غطفان . وأصبحت معدودة من القبيلة ، وهذا الوضع يكاد يكون عاما في القبائل ، وليس خاصا ببني رشيد وحدهم .

وها هم بطون القبيلة وفروعها :

١ ـ آل بَرَّاك ، وفروعهم :

أ ـ الرواشد : وفيهم الرئاسة لآل بَرَّاك ، منهم الفارس المشهور جاسم بن رشدان بن راشد بن براك ، وإليه ينسب بيت (الجواسم) من الرواشد ، وقد ساد بني رشيد أيام حياته وهو الذي استطاع بحنكته ودرايته أن يجمع شمل القبيلة تحت علم واحد ويوحد صفوفها ككتلة متراصة لها كلمة واحدة وداع واحد ، ويعتبر رمزا فذّا بين بطون القبيلة ، ومثله في المكانة شيخان كريمان من ذريته هما دليم بن جاسم وناهس بن فديغم بن جاسم كلاهما سادا القبيلة من بعده ولذالك ظلت الشيخة للقبيلة ومازالت في آل بيته .

ب ـ القصبات .
جـ ـ ذوي بركي .
د ـ ذوي خلـوي
هـ ـ ذوي خليفة .
و ـ السـوالم .
ز ـ العويسـات .

ومن ديارهـــــم :

(١) ضُرَيْغِد : – تصغير ضرغد – قرية تقع في الجنوب من حَرَّةَ ضرغد ، وغرب جبل الْفِرْس .

(٢) النَّبْوَانُ : قرية عامرة بالسكان ، وتعد من الهجر القديمة وتقع في سفح حرة ضرغد شمال الحائط .

(٣) مَرَاغَان : ماءة احتفرها الشيخ ناهس وأصبحت قرية مأهولة ، وتقع في وادي الرُّمَة أسفل الحُلَيْفَة .

(٤) سِنَافُ التِّمْيَاط : قرية تقع في ضمن عدنة قديما على الخط المزفت ما بين الحُلَيفة والغزالة .

(٥) الصُّخْنَة : قرية قرب النَّبَوان : .

(٦) المَثْوَاةُ : قرية تقع غرب الروض ببضعة أكيال .

٢ – الذِّيَبَةُ ، وفروعهم :

أ – السمرات : وفيهم رئاسة الذِّيَبَةِ ، ويرأسون شمل الفروع التي تصاليهم في المواضع من بني رشيد .

ب – الهـــــونـــة .

ج – السنــــين

د – الرجيـــــان .

هـ – العــــويض .

و – العنـــــيزان .

ز – العـــــويد .

ح – الفجـــــاوين .

ط – الصـــــوادر .

ي – البــــويدى .

خ – العتيـــــق .

ث – المسـمـــرة .

ومن ديارهـــــم :

(١) الصُّلْصُلَة : قرية تقع بين المدينة وخيبر .

(٢) البحـــرة : وهي في وادٍ تنطلق فروعه من وادي الْغَرَسِ ، ويفيض سيله في وادي خيبر .

وبالإجمال : فإنَّ المواضع الغربية من حرة النار قديما ما بين جنوب خيبر إلى ضواحي المدينة المنورة من منازل هذا البطن ويشاركهم بها فروع أخرى من بني رشيد .

الرويضات ، وفروعهم :

أ ــ العريجـــــات .

ب ــ الجمـــــادين .

جـ ــ الثنيـــــان .

د ــ المقاعيـــــة .

ومن ديارهـــم :

(١) الشعيلة : قرية تقع في أعلى وادي القهد .

(٢) الصُّور : قرية في أعلى وادي الروض .

٤ ــ العايضات ، ومن فروعهم :

أ ــ الدحيـــلات .

ب ــ الرواشـــد .

جـ ــ المزارمـــة .

ومن ديارهـــم :

(١) قُنَيٌّ : جبلٌ فيه قرية تسمى بـ (بدائع قُنَيّ) للعايضات ، وهو يقع شرقا من قرية مرَاغان بما يقارب ٧٠ كيلا وجنوبَ غرْبِ جبل قنَا ببضعة أكيال .

٥ – المهامزة (المهيمزات) وفروعهم :

أ – الزعـــــاترة .
ب – النميــــــان
جـ – المعيــــــوفات .
د – الفعــــــور .
هـ – الجبـــــيرات .
و – ذوي مطيـــع .
ز – الثعالبــــــة .
حـ – الفديمـــــات .
ط – الخوينــــــات .
ى – الدناهـــــرة .
ك – الحُشَيِّـــــات .
ل – العمامــــير .
م – الهميـــــدان .

وشيخ شملهم ابن هُديبان ، **ومن ديارهم :**

صفيط : وادٍ ينحدر من شرقي حرة فدك (الحائط) ويفيض في الحليفة .

(٢) الـمُرَيْرَ : وادٍ في الجنوب الغربي من الحليفة ، وسيلة يفيض من حرة خيبر منطلقا منها صوب الجنوب الشرقي حتى يتدفق في وادي الحِنَاكية . (نخل قديما) .

(٣) أبو سيدرَان : وادٍ بين الحائط والحويط .

(٤) أبو حُمَيْدة : وادٍ شرقي وادي سيدران .

(٥) أمْ رَوَشَن : قرية تقع في الجنوب الشرقي من صُفَيط بما يقارب عشرة أكيالٍ .

(٦) سامودة : قرية تقع غرب جبل العَلَم .

(٧) أبو رِمْث : وادٍ شرق الحرة .

(٨) الخفيق (الخفيج) : قرية في شرق الحرة .

ويلاحظ أن هذه الأماكن من أودية وغيرها أُنْشِئَتْ فيها قرى عرفت بأسمائها ، وكلها مأهولة بالسكان وبعضها كانت هجراً قديمة .

٦ ــ القعابيب ، وفروعهم :

أ ــ الصقــــرة .
ب ــ ذوي بليــم .
جـ ــ الصــوباء .
د ــ الشواحطــة .
هـ ــ العيفــان .
و ــ ذوي جُحَيل تصغير جحل ورد اسم هذا الفرع في « معجم قبائل المملكة» ج ١ ص ١١٠ باسم (جميل) وهذا خطأ وصوابه ما ذكرنا .

ومن ديارهــم :

(١) الخفق (الخفج) (٢) البحرة (٣) العسافية (٤) اللبانة .

وهذه المواضع أسماء أودية وقرى متقاربة وتقع ما بين شمال غرب الروض ، وجنوب غرب النبوان بسفح الحرة .

٧ ــ المضابرة :

وهم قسمان : قسم يسكن جبلي أبانين في القصيم ، والقسم الآخر يسكن العُقَيْلة في وادي الْغَرَسِ والْفَقْيِ في حرار خيبر .

أ ــ سكان أبان وفيهم الشهرة وفروعهم :

١) الســلام .
٢) الحنيــات .
٣) الشقمــان .
٤) القصــان .
٥) العــدوان .
٦) الزهاميــل .
٧) ذوي بــدوي .
٨) الردافــين .
٩) الذّ يخــان .

وشيخ شمل هؤلاء ابن سعدون ، وكانت الشيخة قديما في ذوي بدوي

ومن ديارهم :

أبانان ، وهما جبلان من أشهر جبال العرب ولا يضاهيهما بالشهرة سوى

جبلي طيّء ، وهما يقعان بمنطقة القصيم ، وسيل وادي الرمة يمر بينهما ، ولا يشارك المضابرة فيهما أحد ، وتمتد مواضع مواطنهم خارجا عنهما وخاصة أبان الأحمر شرقا إلى قرب ـ الحنينية ، وغربا أواسط رمال عُرَيْق الدَّسْم ، وشمالاً منتهى (الصريفات) بمحاذاة وادي الرمة ، وجنوبا قرب جبل (اللُّهَيْب) شمال شُعَبَا بأميال يسيرة ، ثم تنحرف آخذة باتجاه الغرب إلى قرب جبل (المقوقي) ثم منه تنحرف آخذة صوب الشمال باتجاه سناف الخيل وهو بخيشوم عريق الدسم (اللوى قديما) شرقي مشاش ابن ركيان .

ب ـ سكان العقيلة ، والفقي في حرار خيبر وفروعهم :

١) الرقـابين .
٢) الدواغـين .
٣) ذوى غـالي .
٤) الردافين وهاؤلاء غير الردافين من أهل أبان .
٥) الفغـوم .
٦) الخضرة ، ونسابة المضابرة يجمعون على أنهم حلفاء فيهم .

ومن ديارهـم :

(١) النُفَقِي : قرية تقع شرقي حرة خيبر .

(٢) العُقَيْلة : قرية تقع غرب حرة خيبر ، في وادي الْغَرَسِ .

٨ ـ العجاونة ، ومن فروعهم :

أ ـ العـايد .
ب ـ ذوي عنـبر .
جـ ـ ذوي صعينين .
د ـ ذوي جوهر .
هـ ـ ذوي راجـم .
و ـ آل حبيليـص .
ز ـ الميـازمـة .

ومن ديارهـــــم :

(١) بدائع المرموثة . (٢) بدائع العرادية غرب الحليفة .

٩ ـ العرارة ، وفروعهم :

أ ـ الجلـــــج . جـ ـ المراشـــــدة .

ب ـ الهـــــروف .

ومن ديارهـــــم :

(١) اللّحَنُ : وادٍ بين المدينة والصلصلة أعلاه بقرب الصلصلة وأسفلهُ يفيض بوادي الحمض .

(٢) الخـــــريبـــة .

(٣) زَبْرَان وكلها مواضع متقاربة وتقع بين المدينة والصاصلة .

١٠ ـ الشوالعة ، وفروعهم :

أ ـ الشنينـــــات . جـ ـ الكنـــــاديف .

ب ـ الجهـــــران .

ومن ديارهـــــم :

(١) بِدْعُ ابن شُوَيْلع : وتقع بوادٍ يحدها من الجنوب حرةٌ ، ومن الشمال جبال أبْلَة ، وواديها من روافد وادي المَخْروق .

(٢) فيضة أثْقُب (يثقب قديما) الجبل المعروف .

(٣) الغريسة وتقع بمنتصف وادي المِخْيَط .

(٤) الشّقّ : واد يقع شمال الحائط ببضعة أميال .

(٥) الوسعة قرية تقع أسفل وادي المخيط .

١١ ــ الزبون ، وفروعهم :

أ ــ المجـــــــادير . ب ــ الشـــــويمان .

جـ ــ ذوي عتيـــق .

ومن ديارهـــــم :

(١) الْمَعَـرَّش : قرية ببطن وادي الرمة أسفل الحليفة .

ويقيمون على مناهل آبار لهم جنوب السُّلَيْمِي .

١٢ ــ القلادان (الجلدان) وفروعهم :

أ ــ ذوي بويدي ، وهؤلاء غير بويدي (الذِّيَبَة) .

ب ــ ذوي حمـــد . ز ــ ذوي سعـــود .

جـ ــ ذوي حمـــود . و ــ النغامشـــة .

د ــ الهَدْبَـــان . ز ــ ذوى هـــادي .

هـ ــ الشميـــلان .

ومن ديارهـــم :

(١) الروض : (روضة الأجداد قديما) وادٍ ينطلق من الحرة ويفيض في وادي الحُلَيْفَة .

(٢) الحليفة العليا : قرية بوادٍ سيله يفيض من الحرة ، ويصبُّ في وادي الحليفة .

(٣) الوُسَيْطَا : قرية تقع ما بين الحليفتين .

(٤) الْعَلَم : جبل عظيم يخترقه وادي الرَّقَب (الرَّقْم قديما) وهناك قرى ومواضع لآل قلادان ، كلها قريبة من بعضها ومجاورة لتلك المواضع .

١٣ ــ العوامرة ، وفروعهم :

أ ــ العِدلات .
ب ــ الشنانية .
جـ ــ الشرمات .
د ــ العوران .
هـ ــ ذوي علي .

ومن ديارهم :

(١) أبلَةُ : وادٍ ينحدر من حرة خيبر بين الحائط والحوايط .

(٢) أبا الصُّبَّان : وادٍ أسفل من وادي أبلة .

(٣) أم كَرَانيف : قرية تقع جنوب الحائط .

(٤) عصمة : قرية تقع غرب النبوان .

١٤ ــ الخيارات ، ومن فروعهم :

أ ــ المغير .
ب ــ الدغمة .

ومن ديارهم :

(١) البرقة : قرية في وادي المخيط .

(٢) الشويمس .
(٣) الظهر .

١٥ ــ الجريشات ، وفروعهم :

أ ــ المسعد .
ب ــ السعدون .
جـ ــ الطرانية .
د ــ العساسيم .

ومن ديار هؤلاء : العين ، وادٍ بين المدينة واللَّحَن ، وسيله يفيض في وادي الحمض وعين طُوالة : وهي تقع شمالاً من وادي نَقَمي ، بقرب المدينة

١٦ – البراقعة ، وفروعهم :

أ – العليـــان . ج – السبـــة .
ب – الخوارقـــة . د – النـــديان .

وهؤلاء يسكنون في قرية المطاوي ، في منتصف وادي الْغَرَس .

١٧ – الوهادين ، وفروعهم :

أ – ذوى خزيم وفيهم الشيخة . د – ذوى فريجـــة .
ب – ذوى نمـــلان . هـ – ذوى بديـــع .
ج – ذوى عيـــاد . و – ذوى بخيـــت .

وهؤلاء يسكنون في وادي الرقب (الرقم قديما) وهو يخترق جبال الْعَلَم ، ويفيض في وادي الرمة ، ويسكنون أم هشيم قرية جنوب الحُلَيفة .

١٨ – المكاحلة، وفروعهم :

أ – العـــوينات . ب – المباخيـــت .
ج – السعـــالْوَة .

وهؤلاء يسكنون الحُمَيمة ، قرية شرق ضرغد .

١٩ – المشاعلة ، ومن فروعهم :

أ – ذوي شعيـــب . ب – ذوي مشخـــال .
ج – ذوي محســـن .

وهؤلاء يسكنون قرية الْهَمْجَة قرية تقع فيما كان يعرف قديما باسم ضِغْن عَدَنَة ، سفوح الحرار الشرقية شرق الحائط .

٢٠ ــ الفرادسة ، ومن فروعهم :

أ ــ الحيـــــــازين .   جـ ــ الهوينـــــــات .

ب ــ الهـــــــادي .   د ــ الرشـــــــود .

وهؤلاء يسكنون الثَّمَد وما حوله ، على طريق خيبر إلى المدينة ، في حرَّة خيبر .

هذا ما تمكنت من جمعه عن قبيلة بني رشيد وهذا لا يمنع القول من أن المعلومات الواردة فيه على درجة كبيرة من الشمول .

ومما تجدر الإشارة إليه في هذه المناسبة هو أن كثيرا من الناس منهم من هو متغلغل في الأوساط المتحضرة كالرياض وغيرها ومنهم من هو يقيم في أماكن مختلفة في عالية نجد والقصيم وفي الوشم نراهم هذه الأيام ينتحلون اسم بني رشيد وهم في حقيقة الأمر ليسوا من هذه القبيلة ، ولا يمتون إليها بأية صلة لا من قريب ولا من بعيد .

والمقصود من هذا لفت نظر أدبائنا فيما لو حاول أحدهم الكتابة عن قبيلة بني رشيد لكي لا يقع في تلك المغالطات فمن لم ينتسب إلى أحد البطون السابق ذكرها فليس هو من القبيلة سواء كان ذالك فردا أو جماعة . والله من وراء القصد .

عطاالله بن ضيف الله الرشيدي

الحواشي :

(١) أنظر كتاب شمال غرب الجزيرة ص ٢٢٧ وما بعده والعرب ج ٥ و ٦ ذوا القعدة والحجة ١٤٠٤هـ ص ٤١٨ .

(٢) أنظر « الرحلة الحجازية » للبتانوني ص ٥١ وكتاب « مرآة جزيرة العرب » ج ٢ ص ٢٧٣ .

مع القراء في أسئلتهم وتعليقاتهم

آل مَرْشد وآل حُسَيْن

جاء في الجزء الأول من « معجم اليمامة » ص : ١٦١ — مانصه :
(وآل حَمَّادٍ الذين يسكنون وادي بُرَيْــكٍ الآن ينقسمون إلى فَرْعَيْنِ كبيرين هما آل مَرْشَد ، وآل حسين .

فمن آل مَرْشَد : آل موسى الذين منهم آل فواز ، وآل عثمان الذين منهم وَجْعان الراس ، وآل رُقيب ... ومنهم آل خُرَيِّف وآل عبدالله وآل مسلم وآل مُعَدّي وآل مشارِي أهل الحَلْوَة . هذه الخمس الأسر ... ومنهم آل عون أهل القُوَيْع ...

ومن آل حسين : آل سعود بن حسين الذين منهم أبو شَيْبَة ، وآل شُرَيم وآل راشد ...) .

وليس الأمر كما ذكر المؤلف ، ولكن الصحيح أنّ آل موسى وآل عثمان وآل رُقيب من آل مرشد أهل الفرعة وهؤلاء أخوة آل حسين أهل الباطن الذين منهم آل سعود بن حسين وآل شُريم وآل راشد .

وآل مرشد أهل الفرعة وآل حسين أهل الباطن إخوة ، ويَدٌ واحدة على من سواهم .

أما آل خُرَيِّف وآل عبدالله وآل مسلم وآل مُعَدّي وآل مشارِي أهل الحلوة ؛ وآل عَوْنٍ أهل القُوَيْع فهم آل مَرْشد ، وهم أبناء عمومة لآل حسين

وآل مَرْشد الذين ذكرتهم آنفا ، ولعل أوضح دليل على ذالك أن الحوطة مقسومة إلى نصفين : نصف شمالي تحت نفوذ آل حسين وآل مرشد أهل الفرعة ونصف جنوبي تحت نفوذ آل مرشد أهل الحلوة والقويع .

ولا تزال العلامات (المراسيم) التي تقسم مناطق النفوذ معروفة ، حيث توجد عند بلدة الصدر .

فالصَّدْرُ ، والنْحِلَّةُ ، والباطن ، والفرعة وجميع الأراضي الرعوية في النصف الشمالي مثل السَّوْط والمِنْسَف وغيرهما تحت نفوذ آل حسين وآل مرشد أهل الفرعة ، وهم كما ذكرت آنفا يد واحدة على من سواهم .

والعِطْيَان ، والقُوَيْع ، والحُلْوَة وجميع الأراضي الرعوية في النصف الجنوبي مثل الفارعه ومُطْعِم وغيرهما يقع تحت نفوذ آل مرشد أهل الحلوة والقُوَيْع .

ولايزال هذا التقسيم معترفاً به في بعض الدوائر الرسمية ففي الحوطة بلديتان :

الأولى في الحِلَّة ، وتشرف على النْحِلَّةِ والصَّدْر ، والباطن ، والفرعة وما يتبعها .

والثانية في الحُلْوة : وتشرف على العِطْيان والقُوَيع والحُلوة ، وما يتبعها .

عبدالله بن سعيد عبد الرحمن الصفار
الرئاسة العامة لتعليم البنات — الشؤون الثقافية

(إيْوَهْ) هل الكلمة عربية ؟ !

يستعمل بعض الناس كلمة (إيْوَهْ) بمعنى (نَعَمْ) فإذا سألته : هَلْ فعلْتَ كذا وكان قد فعله أجاب بكلمة (إيْوَهْ) فما هو أصل هذه الكلمة ؟ وهل هي عربيَّة ؟

المدينة المنورة سعيد أحمد

« العرب » : جاء في كتاب « المعجم الكبير » : ٦٣٨/١ — : قال الزمخشريُّ في تفسير قول الله تعالى ﴿ قُلْ إيْ وربِّي إنَّهُ لَحقٌّ ﴾ — يونس : ٥٣ — : وسَمِعتُهُمْ يقولون في التصديق (إيْوَ) فيصلُونَهُ بواو القَسَمِ مع حَذْفِ المُقْسَمِ به ، ولا يَنْطِقُون به وَحْدَهُ — أي لا يقولون (إيْ) فقط . وقال الخفاجيُّ : والناس تزيد عليه هاء السكْت ، فيقال : (إيْوَهْ) فليس غلطاً كما يُتَوَهَّمُ . انتهى فظهر مما تقدم أصْلُ الكلمة ، وأنَّها عربية .

العامر في القصب من شمر

كتب الأخ عبد الكريم بن محمد العامر إلى المجلة يشير إلى أنه ورد في كتاب « جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد » ص ٥٣٣ أن العامر في القصب من بني هاجر من قحطان .

وذكر الأخ عبد الكريم أن هذا غير صحيح وأن العامر من الأسلم من شمر .

وكانوا في بلدة الزلفي ثم انتقلوا إلى بلدة القصب وأرفق بكتابه وثيقة مؤرخة تنص على : (أن عبد العزيز بن محمد بن عامر ساكن بلد القصب سألني عن نسبهم فأخبرته بما ثبت عندي من قول أهل الخبرة بمعرفة الأنساب من آل ماضي بأن العامر سكان القصب من شمر ، وأن مسكنهم أولا الزلفي وأنهم منتقلون منها إلى القصب ، هذا هو المستفيض من قول من ذكرنا قال ذالك كاتبه عبدالله

ابن عبد الوهاب بن زاحم ونقله من خطه بعد معرفته وعليه ختمه إبراهيم بن عبدالله ابن فنتوخ محرر النقلة ١٣ ن سنة ١٣٦٤) .

كما بعث بصورة وثيقتين عن عقار لعبد العزيز بن عبد الرحمن بن عامر الملقب الجنيني ولآخرين مذكورين من آل عامر ، والعقار في بلدة الزلفي وتاريخ أصل إحدى الوثيقتين سنة ١٣٩٩هـ .

الترابين من بني عطية من جذام

سألني الأخ جمعان بن عيد جرمي من مستشفى الملك فهد في الرياض عن أصل قبيلة الترابين الذين يسكنون سيناء وما حولها هل لهم صلة ببلدة تُرَبَة وبقبيلة البقوم ؟

فأجبته بما نصه : الذي أعرفه هو عدم صلة هذه القبيلة الكريمة ببلدة تربة ولا بسكانها البقوم وإنما أصلها كما جاء في كتاب « الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطرية مكة المعظمة » — ص ١٣٤٠ — : أن الترابين والوحيدات والحويطات واللحيوات من أصل واحد .

وذكر أن من رؤسائهم في عهد تأليف الكتاب أي منذ نحو ٤٥٠ سنة — من رؤساء الترابين سليمان العديسي ومحمد بن عجرمة الأسود وأولاده ، وونيس .

كما ذكر في صفحة ١٣٤٣ أن الترابين كانوا مسؤولين عن حماية ركب الحج حين يمر في بلادهم وذكر من تلك البلاد ثمد الحصى والفيحاء ووادي العراقيب ، كما ذكر أنهم يأخذون الربع مما قرر لحماية الحج في العقبة وذكر أنهم من بني عطية .

وبنو عطية قبيلة كريمة الأصل ، عريقة في النسب ، فهي من قبيلة جذام القحطانية المشهورة في التاريخ في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام ، والتي كانت تسكن من شمال الحجاز حتى شمال فلسطين وفي سيناء .

الشيخ عبد الرحمن بن سعدي : نَسَبُهُ

كتب الأخ محمد بن عبد الرحمن التميمي من مدينة حائل إلى مجلة « العرب » كتابا ملخصه : ذكر الشاعر التميمي عبدالله بن صقيه في مؤلفه « بنو تميم في بلاد الجبلين » أن الشيخ عبد الرحمن السعْدي من أسرة آل مفيد .

وهذا خلاف ما هو معروف من أن الشيخ من الحمران كما أشار إلى ذالك الشيخ عبد الرحمن البسام في كتابه « علماء نجد » حين أورد ترجمة الشيخ فذكر أن أجداده قدموا إلى عنيزة من بلدة المستجدة .

وأهل المستجدة من الحمران ، بل إن أسْرة السَّعْدِي لاتزال معروفة حتى الآن في بلدة المستجدة .

وصاحب كتاب « بنو تميم في بلاد الجبلين » لم يذهب بعيدا إذ أن آل مفيد والحمران كانوا جميعا في بلدة قَفَار التاريخية المشهورة في منطقة حائل ، وتجمعهم رابطة الانتساب إلى بني عَمْرو بْنِ تميم ، فآل مفيد من بني العنبر بن عمرو ، والحمران من النواصر من الحَبَطَات ، غير أن الذي ذهب إلى ما هو أبعد من هذا هو صاحب كتاب « أعلام تميم » — حسين حسن ص ٣٦٥ — إذْ عَدَّ الشيخ السعدي من بني سعد . ولعله ظن أن النسبة في كلمة (السعدي) هي للجد التميمي الجاهلي سعد بن زيد مناة بن تميم ، لا إلى سعد من بني تميم متأخر . انتهى ما كتب به الأخ محمد .

وكنت قد ذكرت أن الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (١٣٠٧/١٣٧٦) من آل مفيد ثم نقلت عن الشيخ القاضي عالم عنيزة المعروف أنه ذكر في ترجمة الشيخ ناصر والد الشيخ عبد الرحمن أنه من النواصر ، وآل مفيد والنواصر من أصل واحد ، كما أنَّ الأخ عبدالله بن صقيه ذكر أن أسرة السعدي في المستجدة وفي الحفنِ من الحمران لاتزال معروفة ومنهم الشاعر الشعبي شايع بن رباح السنافي السَعدي .

وشكرا للأخ التميمي على ما أبداه من إيضاح في الموضوع .

□ دراسات تاريخ الجزيرة العربية :

وصدر الكتاب الثاني من السلسلة التي تحوي أبحاث الندوات العالمية التي كانت تنظمها كلية الآداب في جامعة الملك سعود (الرياض) حول تاريخ الجزيرة العربية ، وهذا القسم يتضمن أبحاثاً عن الجزيرة قبل الإسلام ، قدمت للندوة العالمية الثانية التي أقيمت في جمادى الأولى سنة ١٣٩٩هـ (نيسان ١٩٧٩م) .

وقد أُعِدَّتْ هذه الأبحاث ورُوجعت من قبل لجنة تولت تحرير الكتاب برئاسة الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري ، وتناولت الأبحاث الموضوعاتِ الآتية : الآثار — عصور ما قبل التاريخ — العصور التاريخية حتى القرن الأول قبل الميلاد — العصور التاريخية بعد الميلاد حتى ظهور الإسلام — المعتقدات الدينية — الحضارة (المجتمع ، التجارة ، النظام المالي ، التعبير عن النفس) — الجزيرة العربية والبلاد المجاورة .

وضم الكتاب ٤٥ بحثاً لخمسة وأربعين باحثاً من العرب وغيرهم .

وهو يقع في ٧٠٥ من الصفحات منها ٤٦٠ باللغة الغربية و ٢٤٥ بغير تلك اللغة ، وفي الكتاب كثير من الصور (خرائط وكتابات ورسوم) ، والطباعة متقنة (بمطابع جامعة الملك سعود في الرياض) وصدر سنة ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م) .

أما القسم الأول عن أبحاث الندوة الأولى فقد صدر في قسمين (انظر «العربي» س ٦٣٥/١٥) ويتلوه القسم الثالث عن الجزيرة العربية في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين يحوي أبحاث الندوة العالمية الثالثة لتاريخ الجزيرة ، التي عقدت في شهر محرم ١٤٠٤هـ (تشرين الأول ١٩٨٣م) .

ولاشك أن هذا الكتاب بأقسامه الثلاثة يُعَد من أهم المصادر لدراسة تاريخ الجزيرة مما كتبه بعض أعلامِ هذا العصر في الدراسات الأثرية والتاريخية، وما بذله الدكتور الأنصاري من جُهْدٍ مثمر نافع في سبيل إعداد تلك الندوات، جدير بالتقدير .

ولقد تمنيت أن تكون فائدته أعمّ وأشمل بذالك بتعريب مالم يكن عربيّاً من أبحاثه، لأنّ كثيراً من المهتمين بالدراسات التاريخية العربية لا يتمكنون من الإستفادة من الأبحاث المنشورة بإحدى اللغات الأعجمية .

☐ شعر الحارث بن خالد المخزومي :

هذا الشاعر من شعراء الحجاز الغَزليين، الذين عاشوا في العصر الأموي، وقد تولى إمارة مكة المكرمة زمن عبد الملك بن مروان، وهو ذو شهرة تغني عن إطالة الحديث عنه .

والدكتور يحي الجبوري الأستاذ في جامعة قطر والمهتّم بدراسة الشعر العربي في عصوره الأولى – سبق أن نشر شعر خالد (انظر مجلة « العرب » س ٧ ص ٦٤٠) ثم اطلع على ثلاث قصائد في كتاب « منتهى الطلب » لم يحوها ما سبق نشره فأعاد النظر فيه بعد إضافة القصائد الثلاث، وأعاد النشر مرة أخرى، فصدر في طبعته الجديدة (عام ١٤٠٣هـ) في ٢٣٤ صفحة بفهارسه .

وعمل الدكتور الجبوري من حيث الشمول والتعمق في البحث مما لا يحتاج إلى إيضاح، وهو بما يقدمه للباحثين عن مصادر الشعر العربي القديم يعتبر في قمة ذوي الاختصاص في هذا الموضوع .

الاشتراك السنوي
١٠٠ ريال للأفراد و ٢٠٠ ريال لغيرهم
الإعلانات: يتفق عليها مع الإدارة
ثمن الجزء: ١٧ ريالاً

العرب
مجلة شهرية تعنى بتراث العرب الفكري
صاحبها ورئيس تحريرها: حمد الجاسر

العنوان
شارع الملك فيصل هاتف ٤٠٢٢٩١٥
ص. ب ١٣٧ الرمز البريدي ١١٤١١
الرياض - المملكة العربية السعودية

ج ٣، ٤ س ٢٠ رمضان / شوال ١٤٠٥هـ - حزيران / تموز (يونيو / يوليو) ١٩٨٥م

حياتنا الأدبيـة الحديثة

من خلال دراسة مظاهرها نشأً وسَيْرًا وتطلُّعاً

— ١ —

[ها هو أستاذنا الباحث الجليل الدكتور علي جواد الطاهر في مؤلفه الشامل الحافل في موضوعه « معجم المطبوعات العربية للمملكة العربية السعودية » الذي سبر به سير حياتنا الأدبية والفكرية فاستوفى تسجيل مظاهرها في حقبة من الزمن تقارب نصف قرن (١٣٤٣/١٣٩٠هـ) وصرف فترة من عمره تربو على واحد وعشرين عاما (من ١٣٨٣/٥/٢١ إلى ١٤٠٥/٣/٨هـ) في تأليفه - ها هو في (الخاتمة) يستخلص من آثار ذلك الجهد العظيم ما تسيل به أسلات قلمه طبعاً لا تطبعاً فصلا ممتعاً حقاً .

و « العرب » وقد اختصها الأستاذ الكريم - اختصاص إفضال خال من كل شائبة - بتقديم جل أبحاثه لقرائها - اعتباراً من شهر المحرم سنة ١٣٩١ (العرب س ٥ ص ٦٧٤) حتى أكملت بهذا البحث ثمانية وخمسين فصلا - لا ترى غضاضة في الإدلال على الأستاذ - وقد عرفته الكريم المتسامح - فتستبدل بالعنوان الذي وضعه ما اختارته من عنوان لجلب انتباه القارىء وأن نضع بعض العناوين الفرعية .

ولئن كان كتاب « معجم المطبوعات » ثمرة جهد عظيم ، وخلاصة دراسة مركزة شاملة ، ونتيجة خبرة ومعرفة ونظرات صائبة - وهو كذالك حقاً - فإن هذا الفصل الذي ختم به ليس خلاصة تلك الثمرة ، ولكنه قطف شهي من تلك الثمار اليانعة . وما على القراء - وسيكون الكتاب بين أيديهم في وقت قريب - سوى استخلاص ما يختارون من طيب ثماره] .

الخاتمـــة :

في هذه الخاتمة خلاصةٌ لنظرة ربما سبقتْ ١٣٤٤ / ١٩٢٥ ، ولنظرة بلغت ١٣٩٠ / ١٩٧٠ وليس هذا المهم فيها فقد كان ذلك في المقدمات الثلاث والتمهيد ،

وفي طول الكتاب وعرضه ؛ وإنما المهم فيها الإطلالة على ما بعد الحدّ المحدود للنهاية ، وما كان من شأن التطور ، وما حسن أن يكون . وقد أبدى المؤلف شيئاً من ذالك لدنْ إعادته النظر في الحلقات وهو يُحَوِّلُهَا إلى كتاب من رأيٍ لم يكن قد أذاعه ، ومن خبر لم يكن قد تَهيّأ له ، ومن حدثٍ لم يكن قد حصل ، ومن مؤلف جديد لمؤلف من الأسماء التي وردت في مكانها من حروف المعجم ، أو طبعة ثانية أو ثالثة لمطبوع سابق أو إحياء لمادة كان منتظراً جداً أن تُبْعَثَ في كتاب ... وقد اقتنع صاحب المعجم بضرورة إثبات ذالك مما قد يُرى زيادة وما هو بزيادة في غير موضعها ، وألزم نفسه بأن يخبر مراجعه بهذا الذي فعل ، ومهد له سبيل تمييز هذا (المضاف) من المضاف إليه .

حتّى إذا أتى الخاتمةَ وجد أشياء يمكن أن تُقال ، ووقف على جديد يمدُّ من تيار التأليف ، ويهيئ لما بعده فرأى ذالك شرطاً في وجود هذه الخاتمة ، فعمل على ذكره وإن كان خارج الحدَّيْنِ المقررينِ بين البداية والنهاية ، أو لأنه خارجٌ عن الحدَّيْنِ ، وما هو بخارج على وجه الدقة لأنه نتيجة لهما وانبثاق عنهما وإلحاقٌ بهما فهو إذْ ينير المستقبل يُنيِرُ الماضي كذالك .

وطبيعي أن تأتي وقفته في حدود الإمكان ، وحدود الإمكان تعني ما تفرضه الغاية التي قامت الخاتمة من أجلها ، وما هو مُتَهَيِّئٌ لصاحب المعجم منه وهو بعيد عن مواقع الأحداث مستعيناً بما يجود عليه (الخيرون) من هدايا ، ويَطّلِع عليه مباشرة بوسائل الاطلاع على البعد ، وهو لا ينَني يشكر الخيّرينَ للخير ويذكر الوسائل — حتّى ما جاء منها مصادفةً — بالفضل .

والمؤلف إذ يتقدم بهذا البيان لقارئه الكريم فإنما يكرر رجاءه في التّنبيه على التقصير والإشارة إلى المصدر الذي يملأ الثغرة ... ولعله يضمر تحميله جزءاً من المسؤولية . ويبقى باب المسؤولية مفتوحاً ما بقي باب المعجم كذالك ...

ومن أجل أن أقول لك كل شيء، تأكيداً لما قُلت، وزيادة عليه ... أقول إن الخاتمة ليست خاتمة ، لأن كتاباً **كمعجم المطبوعات العربية السعودية** في ظروفه

كلها ، وفي كونه استدراكاً لفائت ، وتأخراً عن وقت العمل ، وبحثاً عن ضائع ، وسعياً لإعطاء أوسع الصور الموسوعية وتهيئة إحدى الخدمات للباحث سعودياً كان أم غير سعودي ، وما كان حظ السعودي إزاء مطبوعاته بأحسن من حظ غير السعودي ؛ ومن هنا وجب التفصيل . ولأن المؤلف غير سعودي ومن شأنه في هذا أن يُعنى بما لا يُعنى به السعودي وأن يرى زوايا تخفى على السعودي ازدادت التفصيلات ووجدت ضرورتها ، وما كان حظ غير السعودي في هذا بأوفر من حظ السعودي .

الموضوع واحد : هو المطبوعات ، والغرض واحد : هو خدمة الباحث . والباحث قد يكون سعودياً مُقيماً في أرجاء المملكة ، وقد يكون غير سعودي أقام في المملكة حيناً أو لم يُقِمْ ، وكلهم في الغاية والموقف سواء .

ثم إنّ المعجم لا يُؤَلَّفُ لأبناء اليوم وحدهم ، وإنما هو للقادمين الذين سينقبون عن أمور ننقّب عنها اليوم وأمور لا ننقب عنها ولا نقدر ثمنها . ولابُدّ من خدمة القادم والمستقبل على مقدار خدمة القديم والمعاصر ... والحال بهذا الشرط صعبة ، يدرك أعباءها من زَاوَلَ البحث ، وألّفَ في موضوع أو أكثر ، ونظر إلى أنّ البحث كل واسعٌ وعالم فسيح متشابكٌ ، وأنه الحضارة بجوانبها وأكنافها ، وسطوحها وأعماقها ، ما ظهر منها وما بطن ، وما كان وما سيكون .

وإذا كان الأمر كذالك — وهو كذالك — ألزم صانعُ معجم للمطبوعات نَفْسَهُ أشياء كثيرة وقد تبدو خارج ما يلزمه . وهي فعلاً خارج ما يلزم صانع معجم مكتبي (ببليوكرافي) صرف ، والمكتبي الصرف محدود جداً بقواعد مقررة (جامدة أحياناً) لا يَهُمُّهُ منها إلا إيفاؤها قوانينها — حتى لو كان ذالك شكلياً فقط . وكثيراً ما كان المكتبيون مكتبيِّينَ فقط ، وربما لم يخرجوا عن حدود المنضدة التي يجلسون وراءها وإزاءهم المطبوعات التي أتى بها إليهم التسويق وفيها من كل فن مما يعرفون كنهه أو لا يعرفون . وأساسُ مَلْءِ البطاقة (الكارت) لديهم نظرة على ظاهر الأشياء بين العنوان والفهرست . وهم في هذا — وليس في القول غَمْطٌ لحقوقهم وتقليل لخدمتهم ، ولكنه تشخيص لواقع الأمر ومتطلبات واقع الأمر —

لا يرون ما وراء حدود عملهم ، ولم يعانوا ما عاناه الباحث في موضوع حضاري عموماً أو أدبي خصوصاً . وهذه نقطة لهم وعليهم . لهم لأنها تسهل مهمتهم وتجعلهم (منهجيينَ) جداً ، وعليهم وقد صار الأمر في ذالك واضحاً . وإذا وُجِدَ شاذٌ وقد يقع الشيء وعكسه .

ولم يشأ صانع « المعجم » عندما كان باحثاً وأراد أن يكون باحثاً وعامل (ببليكرافية) مطبوعات معاً ... أن يخسر نقطة (البيليوكرافي) المكتبي الصرف ، فقد وفّاها حقّها وزيادة . وفّاها بأن تابع قوانينها المقررة المنهجية : اسم المؤلف ، اسم الكتاب (المطبوع) ، مكان الطبع ، اسم المطبعة ، تاريخ الطبع ، عدد الأجزاء ، المحقق إنْ وُجِدَ ، الناشر إنْ وُجد ، المترجم إنْ كان ... عدد الصفحات ...

وماذا يعمل المكتبي المختص أكثر من هذا ؟ لا يعمل . باستثناء ما يلجأ إليه من تبويب ونظام عَشْريٍّ ومُستَلزمات (ديوي) كما هي أو كما تَطَوَّرَتْ ودَعَتْ ضرورة إلى تعديلها . وهذه إن كانت عملاً مكتبياً فلها مخاطرها في اضطراب التبويب أحياناً وتداخل الموضوعات واختلاف المكتبيين أنفسهم في درج هذا المطبوع في هذا الباب أو ذاك . ثم إنهم كثيراً ما يعتمدون على المظهر : العنوان ، الفهرس ، نظرة عابرة على مجموع المطبوع الذي يقع بين أيديهم ... وإلاّ فمحال — أو صعب — عليهم أن يطيلوا النظر في مادة الكتاب ، ومحال أن يختصوا بالعلوم كلها .. وكلما سعوا — هم أنفسهم — بحثاً عن كتب مضى بها الزمن ، ولم تجد من يجمعها أو يعرف بها قبلهم فضاع منها الكثير ، ومنها ما بقي اسماً ، ومنها ما فقد الاسم مع الجسم .

عمل المكتبيين — الموظفين في المكتبات — مشكور نافع ، وإلاّ لما كان ، وإنما هو محدود بالوظيفة نفسها ، وهو على أيٍّ حال غير العمل المعجمي ، وغير ملزم للمعجمات ، ولربما خرج بها قليلاً — أو كثيراً — عن المعجمية ، والأصل في المعجمية (الموسوعية) الترتيب الهجائي المطلق .

لقد جَدَّ صانع « المعجم » أن يكون مثل المكتبيين ، وكأنه موظّف معهم فسجل

ما يلزم تسجيله عن المطبوع في اسمه واسم مؤلفه ... إلخ ومن هنا كانت استفادة الآخرين من المكتبيين بعده .

وزاد على ذالك أموراً ليست من مألوف المكتبيين ومن قواعدهم المقررة ، وربما لم يكن في مقدور الكثيرين منهم ؛ فلم يكتف بعدد الصفحات وإنما ميّز فيها ما كان للمقدمة ، وما كان للناشر ، وما كان للفهارس وجداول الخطإ والصواب ، وما كان غير داخل في الأرقام ...

وزاد أن توسع في التعريف بفحوى الكتاب ، وما توسع به المؤلف نفسه خارج موضوعه لقصد أو لجهل بالمنهج ؛ وكثيراً ما سجل – صاحب المعجم – الأبواب البارزة والفصول ذات الدلالة ، وألزم نفسه نقل سطور ذوات دلالة من المقدمة وهو المنهج الذي لم يُسْبَقْ إليه – فيما يعلم – ومن هنا كانت استفادة المكتبيين بعده ، كما حدث للأستاذ عناني الذي لم يشر إلى مصدر سابق عليه – وذالك مؤسف ، ولا بأس ، وحسناً فعل إذْ أفاد ، وآمل أن يقتدي به مكتبيون آخرون ، فليس المفروض بالمكتبي أن يبقى جامداً عند حدود درسها ذات يوم ضمن مفهوم خاص وفي بلد خاص . نتمنى دائماً للمكتبيين المرونة وسعة الأفق والقدرة على التّصرف ... والثقة بالنفس وبالمهمة الجليلة التي يؤدونها مع شرط أن يكونوا مكتبيين عن رغبة واستعداد وطموح ...

إن زيادة العلم بالمطبوع ، وزيادة الكلام على فروع محتوياته ... وعلى منهجه ومصادره إنْ وُجِدَتْ ، وأمانته أو خيانته ، وخلاصة رأيه ... كل أولئك أمور مهمة في عالم البحث ، يدركها من كانتْ له أقل مزاولة فيه ، فقد يكون الكتاب غير متيسر ، فُقِدَ مَع الزمن ، وهذا من الأحوال المتكررة في عملنا ، وقد يكون الباحث بعيداً عن موطن الكتاب على مسافات شاسعة لا تسمح له بسهولة الوصول إلى المطبوع ... فإذا اسْتَشَفَّ من « المعجم » أهمية خاصة لذالك المطبوع في بحثه عمل المستحيل في الوصول إليه وإلّا بقي عمله ناقصاً ، وإذا لم يُقيِّض مضجعه النقص من أجل الحقيقة فسيقض مضجعه مهاجم لابد أن يقع على هذا النقص ، وله علم بالمطبوع الذي كان على الباحث أن يرجع إليه .

ومن أجل هذه الحقيقة التي يدركها من كانت له أقلُّ مزاولة للبحث ، فضلاً عن حقيقة السعي إلى استكمال أكبر ما يمكن من جوانب الحديث عن المطبوع ، عمل صاحب « المعجم » — قدر الإمكان - على التعريف بالمؤلف في ميلاده (ووفاته) ومجمل تحصيله وما حصل له وخلاصة اهتمامه ، والماح إلى خلقه بين العدالة والجور ، والسماحة والتعصب ، والموضوعية والانحياز .

لقد بذل صاحب المعجم في ذالك جهداً خاصاً وتحمل جهداً كان في غنىً عنه فرجع إلى المصادر والدراسات ، المتقدم منها والمتأخر ليفي — ما أمكن — من مستلزمات هذا الشرط الذي رآه لازماً ، ولم يفكر فيه يوماً المكتبيون بالمعنى الرسمي للوظيفة . والتعريف بالمؤلف يبيِّن أهمية كتابه في بحث من البحوث ، ويبين قيمة هذا الكتاب ، ولاشكَّ في ترابط الكتاب وصاحبه . فهل كان المؤلف مختصّاً بما ألَّف ؟ وهل كان شاهداً ؟ وهل كان أصيلاً ؟ أهو ناقل ، جمَّاعة ، سرَّاقة ... فإذا كان ثانوياً أو ثالثيّاً قلَّ شعور الباحثين بتجشم المستحيل من أجله ، وإلاّ شَدُّوا الرِّحَال وأوْغَلُوا في السعي .

أجل فالكلام في « المعجم » — هنا — ليس تطويلاً جِيءَ به للكلام فقط ، أو لتضخيم العمل أو للإسهاب والزيادة التي لا لزوم إليها : إنه جزء لا يتجزأ من العمل نفسه في وسيلته وفي غايته ...

وقد سعى صاحب المعجم إلى جمع (المعلومات) من هنا وهناك وعرضها كما هي في مراجعها حتى لو تناقضت ليكون الباحث الذي يراجع المعجم على علم بالأشياء كما هي . وكان من عوامل أسفه أنه لم يجد التعاون اللازم من المؤلفين السعوديين ومن العارفين بشؤون المؤلفين ليوفي هذه الخطوة نصيبها وليحفظ للأجيال القادمة في الزمان ، البعيدة في المكان ، ما كان ضائعاً أو شبه ضائع ، وما يمكن أن يضيع وأشبه بأن يضيع .

ويصِل صاحبُ المعجم مؤلفيه بكتبهم ، ويصلهم هم وكتبهم بالموضوع السائد من أدب وتاريخ أو فقه ... وبالعصر والمعاصرين ... وما سبقهم وما لحقهم .

ثم إنه ــ أي صاحب المعجم ــ لم يكن آلة (أو كمبيوتر) يقف عند حال الكتاب المادية ويسطّر ما قاله الآخرون وإن كان تسجيل ما قالوه حسناً ومفيداً ... وحاصلاً ، وإنما هو باحث في بعض من وجوه البحث ، ولنتذكر أنه جاء إلى المعجم باحثاً قبل أن يأتيه مكتبياً . وللباحث رأيه فيما يقرأ وفيما يتجمع لديه عند تواتر الأحداث وتلاقي الأفكار ، ومن هنا كان حقه في الحكم ، بشرط الاعتدال والتأكد والتأني والاكتفاء بالعبارة المركزة مع إشعار مراجع المعجم بأن هذا هو رأي صانع المعجم يعرضه على صورة تميزه من آراء الآخرين ، وله ، بعد ذالك ، قبوله أو رفضه . وكان صاحب المعجم من الاحتياط بحيث يَبْدُو بخيلاً بأحكامه ، شحيحاً بكلماته حتى في الحالات التي تقع في الحقائق الثابتة أو التي تدخل في التّمني غير ممكن الوقوع ...

صانع المعجم باحث ... قبل أن يكون مكتبياً ، وباحث أدَبِيٌّ قبل أن يكون باحثاً في شؤون الفقه أو التاريخ ... ولكن صنوف العلم مترابطة ولا يأتي الأدب معزولاً عن التاريخ نائياً عن الفقه ... أو معزولاً عن المطبعة والطبع (خارج البلاد وداخلها) أو الجريدة والمجلة (داخل البلاد وخارجها) ... ما كان رسمياً وما كان أهلياً ... أو أن تكون الـ ١٣٤٤/١٩٢٥ مقطوعة قطعاً باتّاً عما قبلها ، وما كان الحجاز وما فيه من العلم في الحرمين ومن عوامل النهضة الحديثة ليشغله عن نجد ، وتشغله نجد عن الأحساء ، وتشغله الأحساء عن عسير ، عن جازان ...

البحث متكامل الحلقات مترابط العناصر ... وقُلْ مِثْل ذالك بالعام ١٣٩٠/ ١٩٧٠ ، فما هو بالحدّ الفاصل القاطع ، المقطوع بسكين عما بعده ... في كل شيء ولاسيّما في المؤلفين الذين مازالوا أحياء يواصلون التأليف والكتابة ويعددون الأجزاء أحياناً أو يعيدون الطبع مع التنقيح أحياناً . بل إنّ من مؤلفي ١٣٤٤ ــ ١٣٩٠/ ١٩٢٥ ــ ١٩٧٠ من ألف خلال تلك السنوات وكتب المقالات الكثيرة ما تكَوِّنُ لو جمعت ــ وفيها المتسلسل ــ كتاباً ، أو نظم من الشعر ونشر من القصائد الكثيرة ــ أيضاً ــ ما لو ضُمّ إلى بعضه لجاء ديواناً ... ومثل ذالك شأن المواد الأخرى من

فقه وتاريخ ... وترجمة . ولكنهم ، لسبب ولآخر ، لم يعملوا هذا الكتاب المطلوب الذي يجعل منهم أصحاب مطبوعات تدخل على وجه مكتبيٌ في معجم المطبوعات الذي احتوى مَنْ هم أقَلُّ شأناً ، وأقل — أحياناً — كثيراً . وإذا ضَحَّى المكتبيُّ وهو مرتاح الضمير بأولئك المؤلفين الذين كان لهم تأليف ولم يكن كتابٌ ، فلا ولا يمكن أن يرتاح بَالُ الذي جاء إلى مَعْجَمَةِ المطبوعات باحثاً . أن لا يذكر المؤلفين الذين لم يطبعوا كتاباً خلال ١٣٤٤ — ١٣٩٠ ولكنهم كانوا في الحركة العلمية أعضاء مهمين بل رُوَّادًا وأعمدة نهضة — يذكرهم في تسلسلهم الهجائي مع الإشارة إلى الأسباب الموجبة لذكرهم ، والإ هابة بهم إن كانوا أحياء ، وبذويهم وذوى المسؤولية عن الطبع والنشر إلى جمع المتناثر وحفظ الضائع وإصدار الكتاب اللازم أو الكتب اللازمة .

ولم يكن صاحب المعجم ليصدر في ذالك عن خيال ، وإنَّما كانت الحقيقة ماثلة أمام عينيه ناصعة . وحسبك أن يكون من أولئك مثلاً :

عبد الوهاب آشي ، حمزة شحاتة ، عزيز ضياء ، محمد عمر عرب ، عبد العزيز مؤمنة ، أحمد ابراهيم الغزاوي ، أحمد العربي ، عُبيد مدني ، محمد علي قطب ، سيف الدين عاشور ، محمد العامر الرميح ، مقبل العيسى ، حمد الْحجِّي ... محمد بن عبدالله بن حُمَيد ...

ولك في الدوائر (●) التي تسبق أسماءهم في المعجم دليلاً عليهم ، وسترى أنَّ سَبْقَ صاحب « المعجم » للأحداث لم يكن وَهْماً ففيهم من طبع كتاباً أو أكثر وفيهم من سَيُطبع له كتاب أو أكثر ... وستدلك الدائرة (●) كذلك على كتب أخرى أُلِّفَتْ أو كتبتْ خلال الطرفين المقررين لمادة المعجم ودخل أصحابها المعجم ولكنها لم تدخل لأنها لم تنشر في ذالك المَدَى وإنما نشرت بعده — وهي منه ، والأمثلة كثيرة وانظر مثلاً :أحمد سباعي ، محمد سعيد العامودي ، محمد حسين زيدان ، وحسين سرْحان ، أحمد بن محمد المنقور ، عبد العزيز الخويطر ... — ولا تسل عن الجاسر .

وليست هذه المؤلفات بالقليلة الشأن وما أصحابها بخارجين عن طبيعة الأشياء — إن كان إدخالها بعد التاريخ المحدد خروجاً على قواعد جامدة يقيد بها المكتبيُّون أنْفُسهم . فهذه الزيادة من حقوقنا — وحقوق أصحابها ولا يصح فيها المثل القائل: الزائد كالناقص .

ثم إن الذي تهيَّأ له أن يطبع كتابه عام ١٣٩١/١٩٧١ لا يعني أنه لا يَمُتُّ إلى ما قبل ذالك بعام أو نصف عام أو عُشْر عام ؛ ولابُدَّ من عودة النهاية على بداية جديدة .

ثم ما رأيك وقد حَفَل المعجم بمؤلفين جاءتْ كتبهم متأخرة ولكنه لم ير بُدًّا من الحرص عليها والوقفة عندها إتماماً واستكمالاً وضرورة وحسبك أنها صارت مرجعاً يأخُذُ منه ، ويحيل عليه ، ولا غنى لباحث بعده عنها ، ويأتي في طليعة ذالك كتاب عبد الله البسام — « علماء نجد خلال ستة قرون » (١٣٩٨) . والفوزان — « الأدب الحجازي الحديث » (١٤٠١/١٩٨١) .

أما الذين دخلوا المعجم ولم يكونوا سعوديين أصلاً ، وهم غير قليلين عدداً أو شأناً ، فلا نُعيد الدفاع عن وجودهم ، فأكثرهم حصل على الجنسية السعودية ، ويستوي في ذالك الذين حصلوا والذين لم يحصلوا تأثُّراً أو تأثيراً بالحركة الفكرية للبلاد ، ولولا هذا الفعل الواقع لما كانت (الورقة) وحدها إذْناً لهم في الدخول . وقد أوضحنا ذالك في المقدمة مستشهدين بعدد من الأسماء ، ورد فيها اسم الشيخ إبراهيم الشورى ، ووروده صحيح . ونزيد هنا خبر وفاته ، فقد نعته « الفيصل » (عدد ذي الحجة ١٤٠٤ / أيلول/سبتمبر) ١٩٨٤ : (عن عمر يناهز الثمانين عاماً ، حيث ولد ... عام ١٩٠٠) وذكرت أعماله ومؤلفاته . وكان آخر عمل له : مدير الإدارة الثقافية الإسلامية برابطة العالم الإسلامي .

وتأتي — هنا — فائدة التعريف بالمؤلِّف ، وبالمطبوع ليعين المعجم لمراجعة مدى صلة هؤلاء بالمطبوع السعودي والسعودية ومدى انفصالهم فيكون في ذالك — بعد الذي كان من أمر الحدّ الزمني — على علم بما يأخذ وما يدع ... ولْيَقِفْ تلك

الوقفة عند مؤلفين أقاموا حيناً محدوداً في السعودية منتدبين للتدريس أو لغيره ، لاجئين للسياسة أو لغيرها ، فألَمّوا بشؤون من السعودية مالم يتهيأ لهم وهم بعيدون ، وما ربما لم يتهيأ لأبناء السعودية أنفسهم . ووجب – حينئذ – ذكرهم في التسلسل الهجائي مع بيان درجة الاتّصال أو الانفصال .

ولم يكن المَدى – أيُّ مَدى – بخافٍ على أيٍّ يراجع المعجم ، ويكفي ما يراه إزاء المؤلف والكتاب من تعريفٍ وتاريخٍ ثم ما سبقت الإشارة إليه ، وتكررت تلك العلامة الفارقة التي تبين له كل ما من شأنه الخروج قليلاً – أو كثيراً – عن الحدَّيْنِ المحدودَيْنِ في الزمان ، أو عن الأقطار التي وحَّدتها كلمة السعودية في المكان ، تلك العلامة – وقد عرفتَها وألِفْتَها – الدائرة (●) التي تتصدر مثل هذه الأسماء من مؤلفين أو من مطبوعات ... زيادة على تنبيهات في المقدمة تسبقها قائمة الرموز والمختصرات ... وتلحقها الخاتمة .

أجَلْ ، ولنتذكر أن صاحب المعجم جاء المعجم باحثاً قبل أن يكون مكتبياً . ولهذا كان قد ألقى برأي له في هذا الكتاب أو ذاك ، وفي ذاك المؤلف أو هذا من شؤون ليست أدبية فما أولاه بشأن أدبي وبتثبيت (انطباع) اكتسبه خلال مطالعة أو معايشة أو تأمل في قيمة البحث الذي قام عليه المطبوع ، ودرجة الإبداع التي تقدم بها الشاعر أو المقالي أو القاص . وله من اهتمامه الأساس بالأدب والنقد الأدبي ما يؤهل لمثل هذا الحكم وهذا الانطباع بشرط أن يأتي الرأي مُتّصلاً بالحركة العامة ، موازناً بين الخاص والعام ، ملاحظاً الظروف والتطور ، وأن يُعْرَضَ بصيغة تدل القارئ – أو المراجع – على أنه رأي صاحب المعجم وليس رأي الآخرين ... الذين احتفل بهم في حدود المتهيّء الممكن كذالك .

إن الرأي يخدم القارئ لأنه مخلص ، وثمرة تجربة وفي تجرد مطلق ، ثم يخدم العمل بوجه من الوجوه إذْ يزيده – وخاصة لدى التقائه مع أخبار أخرى واتصاله بآراء أخرى – طراوة تخرجه من جفاف المكتبة الصرف ، وربما أغْرتْ هذه الطراوة (الناس) بقراءة المعجم أو قراءة مَوَادَّ منه أو صفحاتٍ منه على أنها صفحات من

كتاب مؤلف تأليفاً أدبياً فيستمرون في القراءة ... وإذ يستمرون يزدادون قُرْباً من مادة المعجم وعلماً بالمطبوعات وأصحابها . وهذا قصدٌ انبثق لدى صاحب المعجم على مرِّ الزمن فاستحلاه ورآه يجمع بين الفائدة والمتعة ، ومن هنا لم يعدم في أفاضل الناقدين من استطاب المنهج أو مَنْ وصفه بالأدبي ... ومن أيَّدَ برأيه ما أراد إليه مؤلف المعجم نفسه .

وتبقى مسألة البحث والتأليف في الأدب السعودي .

واقترح أديب فاضل كريم سعودي — هو الأستاذ عبد العزيز الرفاعي ، ولم لا نذكر اسمه نَصًّا — على صاحب المعجم — وقد رأى في المعجم ما يبعث على حسن الظن — ، اقترح على صاحب المعجم أن يؤلف في الأدب السعودي أو في موضوع من موضوعاته : الشعر أو القصة ، أو المقالة ... أو ما إليها ومنها . وكان الباعث على الاقتراح موضوعياً مخلصاً ، فقد رأى الأديب الفاضل الكريم صاحب المعجم في معجمه فاقتنع — وهو العالم جيداً بشؤون الأدب السعودي فضلاً عن ريادته في جيله — بقدرة صاحب المعجم على التأليف في الموضوع السعودي . والرأي صائب ، والنيِّة حسنة ، والاقتراح مخلص مَسَّ من صاحب المعجم قصده الأول في غرضه من المعجم فَمَسَّ جرحاً — وهو لا يدري — وقل : ضرب على وَتَرٍ وهو يدري .

أجل كان في رغبة صاحب المعجم أن يؤلف في الأدب السعودي ، وربما بلغت الرغبةُ مبلغ المُنْيَة بعدما اكتسبت دواعي الضرورة والمنهج ... ولكنه لم يفعل ، لأنه رأى أن يأتي المعجم قبل التأليف . وحين ألَّفَ المعجم لم تبق الضرورة كما كانت — وربما الرغبة كذالك — ومن هنا كان اعتذاره الصادق إلى صديقه الأديب السعودي .

شكراً عزيزي الكريم ... فالذي لديَّ لا يُؤَهِّل للتأليف المختص إنَّ في الشعر وإنْ في القصة وإن في المقالة ... وإنْ ... وإنْ في النقد الأدبي . إنَّ الذي لديَّ آراء تكونت من قراءات متفرقة في هذا الديوان أو هذه المجموعة أو هذه المجلة ، وقد ثَبَّتُّها — راضياً — في ثنايا المعجم لأنها ممكنة التثبيت على تلك الصورة . أما التأليف فشيءٌ آخر — كما تعلم .

ولم أزِدْ ... لِعلمي بعلم الأستاذ الفاضل الكريم ، ولو أردتُ الزيادة لأشرت إلى التطور الذي جرَى بعدي كمّاً وكيفاً ، ولابُدّ لمن يتصدّى للتأليف من إلمام علمي به ، وهو خارج الطاقة ... ثم – وهذا هو المهمُ – لبيِّنْتُ اختِفاء الدواعي القديمة التي بَدَا معها التأليف عن الأدب السعودي ضرورة . ولم يكن هذا الاختفاء لأني لم أَعُدْ في السعودية أو لم أعد مدرساً للأدب الحديث ... يشعر شعوراً صادقاً في أن يدرس الأدب السعودي كما يدرس غيره ، وأن يُدْرس في الجامعة السعودية على الأقل – كما تدرس آداب الأقطار الأخرى ، وكم وَجَّهَ اللوم مُصَرِّحاً ومُلَحِّاً لأولئك الأساتذة العرب الذين انتدبتهم الجامعة السعودية ، مستعينة بخبرتهم منتظرة التنبُّه والتنبيه إلى ما يجب درسه ، فما قاموا بالواجب ، ولا أدّوا الرسالة – فضلاً عمن كان من شأنه الردِيء ما كان .

هكذا كانت الفكرة الباعثة الأولى على « المعجم » – وقد تكررت الإشارة إليها بما يمكن أن يؤدي إلى الملل – أما الآن ، فقد تغيرت الحال ، وخَفّت الأزمة ، وتَوَلَّى (العبء) من هو أهل لأن ينهض به فيسدّ الثغرة ويرأب الصدع ، ويحل الإشكال ... لقد توطد التقليد الجامعي ، وعاد الجامعيون السعوديون من الخارج ، وتعددت الجامعات وعملت فيها (الماجستير) و (الدكتوراه) ... ومازال سعوديون يسترفدون الدراسة العالية في الخارج ... وهذه حال تؤدّي بالضرورة إلى دخول الأدب السعودي في المنهج الجامعي ، وتؤدي بالضرورة – قبل ذالك وبعده – إلى أن يكون الأدب السعودي موضوعاً للماجستير والدكتوراه ، موضوعاً أو موضوعات ... وقد حصل هذا بحكم الضرورة كما قلتُ ، وحكم طبيعة الأشياء كذالك ... وبجدارة الأدب السعودي نفسه للدرس والتدريس . وحُلّتْ بذلك عقدة من عقد مؤلف المعجم ، فقد تولى المهمة عنه آخرون كرام علماء كاتبون ، وكأنّ تفكيره السابق كان في ظرفه الحتمي أي أنه لم يأتِ ابتداعاً ولم يَقُمْ على هَوَاء ، وإنما هو فرع من شجرة غير منظورة الفروع كانت تدفع إلى ثمرة واحدة ، ثمرة البحث والتأليف في الأدب السعودي .

في الوقت الذي كان فيه صاحب المعجم يدير الرَّأيَ في (الأدب السعودي) ويداوره و يُنَبِّهُ إلى درسه ويستعد ... ثم شرع جمع المادة يستغرق وقته ولم يلبث أن أغراه بصنع المعجم ... ويذكر بالخير الأستاذ عبدالله عبد الجبار وقد وقع على كتابه « التّيارات الأدبية الحديثة في قلب جزيرة العرب » المطبوع سنة ١٩٥٩ ولكن الأستاذ عبدالله وقف عند منتصف الطريق وشغل نفسه – والقاريء – بما هو تمهيد وخارج الموضوع أكثر من الموضوع نفسه – وربما كان ذالك لغرض في نفسه خارج المنهج – . وإذا كان الكتاب لم يلغ الفكرة ، فإنه أغرى بها ، ولاسيما باللهجة الدعائية التي تبناها – مخلصاً – لدى حديثه وحكمه وتأليفه في ذالك الوقت من النصف الثاني من ثمانينات القرن الهجري وستينات القرن الميلادي ... كان سعوديون خارج بلادهم يتلقون الدراسة العالية وقد قر قرارهم على دراسة الأدب السعودي ، ومنهم من كان في إنكلترا ومنهم من كان في مصر ... : محمد عبد الرحمن الشامخ ، محمد عثمان الصالح ، عبدالله علي آل مبارك ، عبد الرحيم أبو بكر ... والبقية تأتي كلما تقدم الزمن – والخير في البقية – وفيهم – في علمي – محمد بن سعد بن حسين ، وإبراهيم فوزان الفوزان ، وعبدالله الحامد ... ولا يلبث آخرون شُغِلُوا أول الأمر بموضوعات عامة من التاريخ الأدبي ... أن تقدموا خطوات في الشأن السعودي ومن هؤلاء الدكتور منصور إبراهيم الحازمي جاء من « الرواية التاريخية » إلى صحيفة أم القرى والقصة السعودية ، أما الدكتور أحمد محمد الضُّبَيْب فقد جاء من « أمثال الميداني » إلى مَعْجَمَةِ آثار الشيخ محمد بن عبد الوهاب و « حركة إحياء التراث » في الجزيرة ... والقائمة تطول مع الزمن ، ومناحِي الدراسة تتعدد ... كما بدأتْ موزعة على نجد أو الحجاز أو الشرقية ... على الشعر أو النثر أو الصحافة ...

كل هذا جميل ومطلوب وحاصل ... ويبقى في نفس صاحب المعجم (شيء من) الأدب السعودي . هذا الشيء هو الفكرة الأساس التي انطلقت منها فكرة العموم ، عموم الأدب السعودي في مختلف أنواعه ومختلف مناطقه ومختلف أعلامه . فمن يحمل ثقلها عنه ؟

لقد حملها — على خير ما يمكن — باحث سوري كريم هو الأستاذ بكري شيخ أمين الذي هيأت له إقامته مدرساً في كليتي اللغة (العربية والشريعة) في الرياض فرصة الاطلاع المباشر على الأدب السعودي ومصادره عن قرب ، وبِجُهْدٍ طبعاً . وكان من حب الحقيقة بما يجعله كالسعوديين في علمهم بأدبهم وكغير السعوديين فيما يمكن أن يكونوا عليه في النظرة الموضوعية . فإذا لم يكن الموقف موقف اطلاع فقط ، وإنما هو موقف الباحث عن موضوع نادر جديد ، يهب صاحبه الأصالة ، ازداد الأمر خطورة وأهمية . وهكذا كان ، وصار بكري شيخ أمين دكتوراً بحق ، برسالته الضخمة القيمة : « الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية » وقد طبعها (١٣٩٢/١٩٧٢) وبإمكان المرء — قارئاً كان أم طالباً أم أستاذاً — أن يطلع عليها ويفيد منها ويرى سعة عالمها وسعة أفق عالِـمها .

وماذا كان صاحب « المعجم » يريد أكثر من هذا ؟ ولعله — أي الأستاذ بكري — قد كفّر بعمله عن سيئات الآخرين !

ونعود إلى الباحثين السعوديين أنفسهم ، وهم أَوْلى بحمل العِبْء ، وقد حملوه مُجَزّأ ، وربما تطلب الجزء خصوصية أكثر مما يتطلبه الكل ... وإذا كان (غريب) مثلي قد أحسّ بضرورة أن يدرس السعودي أدبه ، فما أولى السعودي نفسه أن يحس بتلك الضرورة خصوصاً عندما يقف على أعتاب دراسة عالية تلزمه بالبحث والتأليف وتدفعه إلى التفكير الجدّي في الموضوع الذي يمكن أن يبرز فيه . وهكذا كان .

كان محمد عبد الرحمن الشامخ يحضر للدكتوراه في انكلترا ، واختار لنفسه موضوع « النثر الأدبي في الحجاز ١٩٠٨ — ١٩٤١ » وحصل به على الدكتوراه في ١٣٨٧/١٩٦٧ وعاد إلى البلاد مدرساً للأدب الحديث في جامعة الرياض (الملك سعود) وشرع يكتب ويؤلف في موضوعات من الشؤون الأدبية في الحجاز الحديث ذات اتّصال تام برسالته فكان من ذالك « الصحافة في الحجاز ١٩٠٨ — ١٩٤١ » و « التعليم في مكة والمدينة آخر العهد العثماني » والكتابان يدلاّن على عمق في البحث وإخلاص في التقصي وقدرة على العرض . ثم عاد إلى صميم رسالته ، وكأنه وَسّع

فيها شيئاً فأصدرها كتاباً بعنوان « النثر الأدبي في المملكة العربية السعودية ١٩٠٠ — ١٩٤٥ » .

ولئن كانت محاولة عبد الرحيم أبو بكر في حصوله على الماجستير من مصر (رجب ١٣٩٣ / أغسطس (آب) ١٩٧٣) بـ « الشعر الحديث في الحجاز ١٩١٦ — ١٩٤٨ » محاولة فقط ، مقبولة ، شهدتُ ولادتها وأنا في السعودية يوم كان أبو بكر في قسم (الدبلوم) من طلبة دراسة أصول التدريس بجامعة الرياض ... أجَلْ هي محاولة ومقبولة ، وقد طبع الكتاب مرتين (وتوفي المؤلف — قبل أوانه — بعد أن رأى ثمرة فكرته) .

كانت محاولة ، ولكن الذي في نفس إبراهيم فوزان الفوزان(●) أكثر من ذالك غايةً وباعثاً ، فخطا الخطوة اللازمة التي حدثنا عنها في مقدمة رسالته للدكتوراه (من القاهرة) عن الأدب الحجازي الحديث : (لقد حظي تراثنا العربي الذي خلفته الجزيرة العربية بعناية الدارسين والباحثين على مرِّ العصور حتى عصرنا الحاضر (...) أما أدب العصر الحديث في هذه الجزيرة فلم ينَلْ حظه من عناية الدارسين كما حظي أدبُ الأقاليم العربية الأخرى .

ونظرة واحدة إلى كتب الأدب وتاريخه في عصرنا هذا الحديث تؤكد لنا هذه الحقيقة ، التي طالما صَدَمَتْنا وصدمتْ أبناءنا في المدارس والمعاهد العلمية وسائر الجامعات في المملكة العربية السعودية .

ولقد عشت هذه التجربة وعانيتها ، حين كنت أدرس لهؤلاء الطلاب وليس في أيديهم إلاّ كتب الأساتذة من أبناء البلاد العربية الأخرى ، وفيها الدراسة الوافية لكل ألوان الأدب في تلك البلاد . ولطالما كان هؤلاء الطلاب يسألونني هذا السؤال :

وأيْنَ أدبنا ؟ أليس للجزيرة العربية أدب في هذا العصر الحديث ؟

وإذا كان كل إنسان يعتزُّ بوطنه الذي ولد في مهده ، ودرج على أرضه ، وشبَّ تحت سمائه ، فإنّي لا أنكر هذا الدافع الذي لا ينكره عليَّ أحد .. ذالك أنني من

أبناء شبه الجزيرة العربية ، تلك الأرض التي أعتز بانتسابي إليها ، وأعيش في صميم حياتها الأدبية المعاصرة ، وأقف على مظاهر نشاطها الأدبي ، وأعرف كل ما يمثل النشاط ويسجله من أدباء وشعراء ، وكتب ، وصحف ، وأندية ، ونحو ذالك ؛ مما قد لا يُتَاح لغيري من أبناء البلاد العربية الأخرى .

لهذا كله اخترت هذا الإقليم موضوعاً للدراسة الأدبية ووقفتُ جهدي ووقتي وكل ما أستطيع على التفرغ للكشف عن جوانبه المختلفة (...) .

وكان لعملي في تدريس مادة الأدب لطلاب المرحلة الثانوية في مدينة الطائف أكبر الأثر إلى هذا الاتجاه ، الذي نشأ بدافع القيام بالواجب الوطني والقومي . ثم تحول إلى إعجاب وعشق لأدب هذا الإقليم .

وقد بدأت بجهدي المتواضع منذ عام ١٣٨٨هـ حيث قدمت إلى المطبعة رسالتي للماجستير عن « أدب العواد والقرشي » سنة ١٣٩٠هـ .

ثم تَوَّجْتُ إعجابي بأدب هذا الإقليم ببحثي للدكتوراه الذي سجلته عام ١٣٩٢هـ بعنوان « الأدب الحجازي بين التقليد والتجديد » وقد شمل على توضيح شامل لسائر فنون الأدب الحديث منذ بداية العصر الحديث حتى تاريخ الانتهاء من إعداد هذا البحث ومناقشته سنة ١٣٩٦هـ) .

وهكذا وُلِدَ الكتاب الضخم الموسوعي ، وطبيعي أن يأتي موسوعياً ؛ لأنه الأول في بابه ، فبلغ ١٨٠٠ صفحة ، رأى المؤلف لدى طبعه أن يخرجه في كتابين الأول — في جزء واحد — بعنوان « إقليم الحجاز وعوامل نهضته الحديثة » ، والثاني — في ثلاثة أجزاء — بالعنوان الأصلي للكتاب . وصدر الكتابان ١٤٠١/١٩٨١ .

وإذا كانت لَهْجَةُ الباعث الأول على التأليف غيرةً ودفاعاً ودعاوة ملحوظة خلال الكتاب ، فإن ذالك لم يَحُلْ دون الإخلاص في الجمع والاستقصاء والمناقشة والقدر الممكن من الموضوعية ، وقد ربط المؤلف بين الغيرة وسعة الأفق .

ويبقى أدب الحجاز — مع هذا — مجالاً للدراسة وإعادة الدراسة ، في شعبه وتيَّاراته وأعلامه بعد أن استوفى كتاب الدكتور الفوزان عموم الحال .

وواضح أن الشعر هو النوع الغالب السائد حتّى لتعجب أن ترى في أدباء الرعيل الأول من لم يَقُلْهُ ، ومن اولئك أحمد سباعي . وليس في سيادة الشعر ما يدعو إلى الاستغراب فهو النوع السائد في الأدب العربي كله ، والسائد لدى العرب في نهضتهم الجديدة ، مع مفهوم غير صحيح — فيه متابعة لموروث الفترة السابقة — خلاصته أن الشعر هو كلام موزون مقفّى . وليس هذا بصعب لمن رامه من ملك اللغة وعرف العروض — ولم تَبْدُ (الموهبة) شرطاً أساساً .

ويلفت النظر كثرةٌ عجيبة من الأدباء برزوا في الحجاز طليعة أدبية ومظهر نهضة حديثة . الأسماء كثيرة ، تجد أمثلتها البارزة في كتاب « أدب الحجاز » :

عبد الوهاب آشي ، محمد صبحي ، محمد حسن عواد ، محمد عمر عرب ، محمد صلاح خليدي ، عبد القادر عثمان ، محمد سرور الصبان ، محمد جميل حسن ، حامد كعكي ، محمد سعيد العامودي ، عثمان قاضي ، محمد البياري ، محمد علي رضا ، عبدالله فدا ، محمد شيخ حمدي .

وتبحث عن أكثرهم بعد قليل من تأليف الكتاب فلا تجدهم ولا تجد لهم أثراً . وإذا أردت الدقة فإن الذين بقوا أدباء — والأدب غالب عليه — قليلون في طليعتهم محمد حسن عواد . قلتُ في طليعتهم مع أنه لم يبق إلا محمد سعيد العامودي وربما محمد عمر عرب .

— لماذا ؟

— ليس المفروض بالكثرة من الأدباء — في كل عصر ، ولاسيما عصور النهضة ، وأزمان الموت الجديدة — أن يبقوا أدباء ... في الساحة الأدبية .

ثم إن الأدب — كما ورد على لسان الأدباء مراراً ، حرفة خاسرة ، وَجَدَّ في

أمور الحياة في الوظيفة الحكومية والعمل التجاري ما يُغْرِي . وإلاَّ أيْنَ يكون محمد سرور الصبان لو بقي أديباً ولم يدخل وظائف الدولة والعمل التجاري ؟

وقد يكون لتغير الحال من هاشمي إلى سعودي أثر من الآثار .

وأحسب أن من الذين اجتذبتهم التجارة : حامد كعكي ومحمد علي رضا ...

وفي الأسماء من (يستحيل) عليك أن تعرف مكانهم .

وكرر كتاب « وحي الصحراء » أسماء وردتْ في « أدب الحجاز » وزاد ، وزاد ، وما أكثر الذين اختفوا من عالم الأدب بين تلك الأسماء ، فأين أمين بن عقيل مثلاً ؟ وأين عمر صيرفي ؟ وعبد السلام عمر ؟

وآخرون بقوا على علاقة بالأدب ولكنهم إلى البعد أقرب ، ومنهم أحمد العربي ، وعبد الحميد عنبر وعبد الحق نقشبندي وعمر عرب .

ومنهم من بقي والأدب غالب عليه : أحمد سباعي ، أحمد قنديل ، محمد سعيد العامودي ، حسين سرحان ، عزيز ضياء ، عبد القدوس الأنصاري ، وهذه الصلة درجات ، وهنا نذكر محمد حسن كتبي وحسين سراج وعلي حافظ ومحمد حسن فقي ..

وإذا كان « وحي الصحراء » قد تناسَى محمد حسن عواد فقد عوضه بمن تناساه « أدب الحجاز » : أحمد إبراهيم الغزاوي .

ولم يَرِدْ حمزة شحاته في الكتابين وهنا لابُدَّ لاستكمال الصورة من الرجوع إلى كتابي عبد السلام طاهر الساسي : « شعراء الحجاز ... » و « الشعراء الثلاثة » . — وفي الذكر والتناسي صورة لما كان بين الأدباء من (حزازات) — لا بأس بدراستها مع دراسة أسباب الظهور والاختفاء . وقد يعود إليها الدكتور الفوزان على وجه من الوضوح والتوضيح .

ونالتْ نجدُ حظاً من الدراسة الأكاديمية فقد حصل محمد عثمان الصالح على

الدكتوراه من انكلترة (كلية فتزوليام – جامعة كيمبردج) في سبتمبر ١٩٦٦/١٣٨٦ بـ « الشعر الحديث في نجد » – منذ بداية دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب حتى أواخر الخمسينات من هذا القرن الميلادي . ولكن الدكتور الصالح لم ينقل رسالته إلى اللغة العربية .

وأبدى الشيخ محمد بن سعد بن حسين اهتماماً خاصاً بالأدب الحديث في نجد فأصدر فيه كتاباً بهذا العنوان لا يفي الموضوع حقه من شرائط المنهج العلمي في الدراسة ، ولو عاد إلى الموضوع اليوم بعد أن صار دكتوراً ، وشرع يتولى نقد الكتب السعودية الصادرة لأخرجه مخرجاً جديداً .

وأصدر الدكتور عبدالله الحامد : « الشعر في ظلال دعوة الإمام محمد بن عبدالوهاب ١٣٩٩» لم يلبث أن ظهر أنه جزء من كتاب عاد به الدكتور الحامد إلى الميدان العام من بحث الأدب ودل على ما يسوغ هذه النظرة وأوضح في المقدمة ما يقنع بصحتها ، فقد صدر الكتاب كاملاً سنة ١٤٠٢/١٩٨١ بعنوان « الشعر في الجزيرة العربية خلال قرنين ١١٥٠ – ١٣٥٠» وقد سار فيه على المنهج العلمي للدراسات الحديثة متمتعاً بأفق واسع .

أما المنطقة الشرقية فقد تولى القيام بدراسة أدبها (ضمن مجموع شرقي الجزيرة) عبدالله علي آل مبارك – وهو من أبنائها – فحصل – من مصر – بدراسة الشعر على الماجستير وبدراسة النثر على الدكتوراه .

وتبقى في دراسة المنطقة الشرقية نقطة كانت واضحة في كتاب عبد الرحمن العُبَيِّد « الأدب في الخليج العربي » : طلائع نهضة ونشاط شباب وتجديد ... ولكنها فترت وكادت تخمد – لماذا ؟

ونسأل عن الجنوب ، وفي علمي كتاب جامع عنوانه : « الحياة الفكرية والأدبية في جنوب البلاد السعودية من سنة ١٢٠٠هـ إلى سنة ١٣٥١هـ درس فيه صاحبه الأستاذ عبدالله بن محمد بن حسين أبو داهش منطقتي تهامة وعسير ، وحصل على الماجستير من

جامعة الرياض وصدر عن دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام – الرياض ١٤٠٢ / ١٩٨٢ ، ٤٢٠ ص .

وللك مع الماجستير والدكتوراه داخل المملكة السعودية في جامعاتها العديدُ من البحوث في الأدب السعودي ... والإقبال في تزايد ومازال الموضوعات غزيرة وتُعَدُّ بِكْرًا ...

وطبيعي ألاّ يقتصر الباحث الأدبي السعودي على أدبه وحده ، وهذا ما حدث ورأيناه بدءاً بالدكتور منصور إبراهيم الحازمي والدكتور أحمد محمد الضبيب ... وليس لهذه البداية نهاية ... خارجاً وداخلاً ...

وطبيعي كذالك ألاّ يَكُفّ غير السعوديين – ممن تَتَهَيَّأُ لهم الإقامة العلمية في السعودية – عن تناول الأدب السعودي أو جوانب تروقهم منه أو تهمُّهم . وهذا ما حدث ، ولكنه – وللأسف – لم يَجْرِ كما جرى على يد الدكتور بكري شيخ أمين من الإخلاص والدقة والتأني في الحكم ، وإنما جاء أقل عمقاً ، وأقل انسجاماً ، ولك أن تنظر مثلاً في كتاب « شعراء السعودية المعاصرون » للدكتور أحمد زكي كمال – الرياض ، دار العلوم للطباعة والنشر ١٤٠٣/١٩٨٣ ، وكتابي : « أدباء السعودية » و « قراءة في ديوان الشعرالسعودي » للدكتور يوسف حسن نوفل . الأول عن دار العلوم ، الرياض ١٤٠٣/١٩٨٣ والثاني عن النادي الأدبي في الرياض ١٤٠٢ .

وكان الدكتور علي علي مصطفى في كتابه « المذاهب الأدبية في الشعر الحديث لجنوب المملكة العربية السعودية » – جدة ، تهامة ١٤٠٤/١٩٨٤ ، أكثر إحاطةً ومعايشةً ولكن لم يبلغ ما بلغه الدكتور بكري شيخ أمين أناةً وحذَرًا ونضجاً . وكثيراً ما جازف بالرأي ، وبالغ في الاستحسان وتكلف المصطلحات الغربية ،

وأقبل على الموضوع سوري آخر هو محمود رداوي (مدرس في المدارس الثانوية) أصدر كتاباً وكتابين وفي عزمه الأكثر . والرجل مشكور ؛ ولكنه إذ ملك

ما يدل على الإخلاص فإنه لم يدل على الدرجة التي للدكتور بكري مؤهلات ووسيلة وغاية .

أول كتاب أصدره الأستاذ رداوي عنوانه : « الأدب السعودي المعاصر في الكتب المدرسية » (الرياض ، النادي الأدبي بالرياض ١٤٠٣/١٩٨٣) وخلاصة الباعث على التأليف يبينها الأستاذ عبدالله بن إدريس – رئيس نادي الرياض الأدبي – إذ يقول في تقديمه للكتاب : ... ساطع فيه أضواء ساطعة على التقصير الذي يلقاه الأدب والأدباء السعوديون من واضعي المناهج التعليمية ومؤلفي الكتب .

وقد نص المؤلف في مقدمته على اقتصاره على (الكتب المدرسية للمرحلة الثانوية فقط) .

إن هذا التقصير – المشار إليه – كان بارزاً جداً منذ أيام الشيخ السباعي ، وبارزاً كذلك عندما لاحظه الفوزان ... يوم كانت السعودية تستورد الكتب المدرسية كما هي ... أما بعد ذلك فقد شرعت تؤلفها هي – مستعينة بأساتذة منتدبين ، وتزداد حصة السعودي من وضع المناهج التعليمية ، وتأليف الكتب المدرسية يوماً بعد يوم ، كما هو طبيعي ، وبعد أن توافر الأساتذة والمربون السعوديون ...

وأذكر جيِّداً أنه في عام ١٣٨٣/١٩٦٣ أعدَّتْ وزارة المعارف للثانوية منهجاً جديداً وكتباً جديدة كانت حصة الأديب السعودي منها لا بأس بها – وذلك طبيعي جداً وقد اشترك في إعداد ذلك مؤلفون سعوديون . وأقل ما يعني هذا أن العَتْب لا يُلْقَى على (المنتدبين) ثم لِمَ الشكوى ووزارة المعارف بيَدِ أبْنائها ؟ والطبيعي جداً أن تُعيدَ النظر في مناهجها وكتبها من حين إلى آخر . وأزيد أن النصوص السعودية التي وردت في الكتب التي أشرتُ إليها لم تكن بالمستوى المطلوب ؛ وأني حين اطلعت على الأدب السعودي بدرجة أكبر رأيتُ ما هو أحسن وأجدر بالاختيار ، وقلتُ : ربما تحكمت العجلة – باختيار إخواننا السعوديين .

وأحسب أن الملاحظة التي ترد – بهذه المناسبة – خُلُوُّ كتب الأقطار العربية

من نصوص سعودية. وهذه حال جديرة بالدراسة وبتنفيذ الصائب من الرأي . وهي لا تقف عند النصوص السعودية وحدها ؛ومن واجب (المؤتمرات) التعليمية ، ومكتب التّربية ، والجامعة العربية ... رعايتها ! ونعود إلى غير السعودي الذي يؤلف في الأدب السعودي فنذكر بالخير نصر محمد عباس (فلسطيني إقامته مصر ، حاصل على الماجستير والدكتوراه من جامعة الإسكندرية) – يعمل حالياً أستاذاً مساعداً في قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة الملك سعود – في كتابه « البناء الفني في القصة السعودية المعاصرة – الرياض ، دار العلوم ١٤٠٣/١٩٨٣ » وقد دل على متابعة وتأمل في أحدث ما صدر وبلغ من الانسجام بحيث تحسبه سعودياً .

إنّ المتتبع يَسُرُّهُ الاهتمام بالأدب السعودي ؛ وهو ليس منطقة محرمة على غير السعوديين ، ولكن الذي يكمل سروره أن يخلص الباحث في عمله ، وأن يكون مؤهلاً ، وأن يبعد عن ذهنه فكرة أنّ هذا بلد تجوز عليه الأشياء ، وليس فيه المختصون الذين ضربوا بسهم وافر من العلم والفكر والمنهج ... والتأليف والنقد ! !

حصل ، إذنْ ، التأليف في الأدب السعودي ، وحصل على درجة جيدة مرة على يد منتدبين في السعودية للتدريس ، ومرات على يد سعوديين سعوديين ... وقد حدث ذالك منذ السنوات الأخيرة من المدة المحددة التي يقف المعجم عندها (١٣٩٠/١٩٧٠)... فهو دليل تطور قَدْرَ ما هو دليل استمرار الفكرة وطبيعة ظهورها ... ثم هي بداية لما هو أعمق وأحسن وأغزر وأكثر تشعباً وتنقيباً في الاتجاهات العامة والخاصة ، والظواهر والبواطن ... والرءوس والزوايا ... مع متابعة ما يَجِدُّ ، والجديد حاصل في كل نوع وفن : الشعر ، المقالة ، القصة ، المسرحية ، النقد الأدبي ، الدراسة الجامعية ... التحقيق ... الصحافة ...

الشعر – الشعراء – الشواعر :

ورأينا الشعر في الحجاز ونجد وغيرها في طلائعه وتوطده الحديث حتّى صار فيه حمزة شحاته ومحمد حسن عواد (ويذكر أن ديوانه الذي ألفه سنة ١٩٢٤ باسم

« روح الشعر العربي » بقي مخطوطاً) وأحمد قنديل ... وحسين سرحان ومحمد حسن فقي ... وبقي الشعر في الصدارة إلاّ أن الذي دخله من تطور كثير ، فإذا كان عموم الروّاد يُعنون بالفكرة أولاً وإن تهيأت لهم اللغة ، وقلما عُنُوا بالصورة وتشدّدوا في عنصر الموهبة ، والذي امتاز منهم قليل ، وإنما امتاز لتوافر هذَيْن العنصرين فيه بنسبة تزيد عنها في الآخرين ، وفي الآخرين من زاول الشعر ولا موهبة له .

وقد تنبه إلى ذالك – مبكراً – شعراء في الصدارة وأعربوا عن ضيقهم به لدى وقفة لهم من هذا الكتاب أو ذاك مما صدر في « أدب الحجاز » و« وحي الصحراء » و « شعراء الحجاز في العصر الحديث » . لاحظ ذالك عبد القدوس الأنصاري في « المنهل » ، واتضح جيداً في المقدمة التي تصدرت « شعراء الحجاز ») بقلم الأديب الحجازي حمزة شحاته) – على شك ورد في أنه كاتبها !

جاء فيها : (ومن شعراء هذه المجموعة (...) مستحق الرثاء . ومنهم مستوجب التعزيز ، حتى يعلن التوبة من رفع عقيرته بمثل هذا الهراء ظنّه شعراً ... وأفسد به – أو كاد – جوّ هذه المجموعة ...) .

وإذا كان هذا رأى المتقدمين في معاصرين ، فأولى به أن يكون – بعد ذالك – رأى من هم أصغر سنّاً وأحدث نشأة وأكثر تطوراً في المفهوم الشعري خارج حدود الوزن والقافية . وأوضح ما يبدو ذالك على قلم شاعر كاتب ناقد حجازي هو إبراهيم هاشم فلالي (ولد عام ١٣٢٤) في كتابه « المرصاد » .

ثم شرع جيلٌ جديد يسعى إلى البعد عن المباشرة ويجاربُها وربما غالى بالصورة واللامنطق وضروب من الرمزيّة أو (السريالية) ... ثم غالى في الخروج على العروض الخليلي (الشعر العمودي) بالشعر الحر ، أولئك تأثّروا بما ورد إليهم من الأقطار السابقة في النهضة في مصر والشام والمهجر والعراق ، والعودة إلى التراث الخالد ؛ وهؤلاء تأثروا بما اتّصل من الأقطار السابقة في الجديد في العراق ومصر ولبنان وسورية ... وما يمكن أن يكون قد تهيّأ لهم الإلمام به من لغة أجنبية أو بلد أجنبي

ـ وهم قليلون جداً ، وشمل التأثر في هذه المرحلة الشرقية (ولا سيّما القطيف) ، والوسطى (نجدا) ...

ولا يصيب من يضع هوّةً بين الاثنين فيتعامل مع الآخرين ، وكأنهم طفرة ومفاجأة لأنه يجانب في ذالك الحقيقة الواقعة ويحسب حياة الأدب في السعودية الحديثة أمراً شاذّا لم يَجْرِ في تاريخ طبيعي من التطور في خطوات الولادة والنمو ...ثم إنه قد يقصد برأيه الرفعة من شأن الجديد وكأنهم أوجدوا أنفسهم وأتوا بالبديع البِدْعِ الذي لم يَكُنْ له أرض قبلهم .

لا ، وقد سارت الأمور على ما يسير فيه أمر طبيعي ، وكما سارتْ في غير السعودية ـ بغضّ النظر عن الأجود والأحسن والمطلوب ... وغير المطلوب وما تريده أنت وما لا تريده ـ .

وقد بحث العرب المحدثون في مصر وغيرها في الخروج ـ لسبب ولآخر ، ولصلة بالغرب ـ قليلاً أو كثيراً عن قيود البحور التّقليدية والقافية الواحدة فضلاً عن الضيق بالأغراض القديمة والصناعة اللفظية والمفهوم السهل للشاعرية ، وليس هذا مجال الكلام على عبدالرحمن شكري و « الديوان » ... وأبولو ... والغربال ... وجبران خليل جبران وأمين الريحاني ... وترجمة علي أحمد باكثير لشكسبير ... ـ والزهاوي كذالك ـ فذالك معروف وله مصادره المعروفة وإنما الذي يقال : إنه كان يصل إلى السعودية ، وقبل أن تكون السعودية ، إلى الحجاز ، فيتلقفه الشباب ويتأثرون به ويتأثرون خُطاه فيكون لهم النثر الشعري ، ويكون لهم الشعر المنثور ... ولك أن ترجع إلى شعر حمزه شحاته ودواوين محمد حسن عوّاد ، والقنديل ، لترى ذالك ، وجاء في الكتاب الفضّي للمنهل (ص : ٩) : (المنهل ... أول مجلة وطنية أدْخلت الشعر المنثور في قصائد فقد نشر أحمد السباعي ومحمد عالم الأفغاني وعبد القدوس الأنصاري قصائد من هذا النوع فيها في العامين ١٣٥٨ ـ ١٣٥٩) ـ ولاحظ كلمة (قصائد) وإن جاءت بين قوسين ، فللكلمة هنا دلالتها . وقد عالجوا الشعر المنثور دون أن يروا فيه غضاضة ـ ولابُدّ من ذكر عزيز ضياء .

وتسير خطوة طبيعية مع جيلٍ تالٍ لجيلِ العوّاد فترى الشعر الحرّ لدى حسن عبدالله القرشي ، وطاهر زمخشري وسعد البواردي ، ومقبل العيسى ، ومحمد عامر الرميح (نشر شعره في مجلة الأديب البيروتية ، وأصدر ديوانه باسم : « جدران الصمت » — شعر رمزي » سنة ١٩٧٤ . وعبدالله عبد الوهاب ... ، ومحمد الفهد العيسى ... وآخرين ، ولا تَنْسَ غازي القصيبي ، وربما كان ناصر بو حَيْمد صاحب « قلق » أكثرهم خصوصية وربما عاد به ذالك إلى تكوينه النفسي وإلى إلمام بالمترجمات . ثم إلى إلمام بالألمانية .

وقد جرى ذالك كما يجري أيُّ أمر طبيعي فلا غضاضة شديدة ولا نزاع بمعنى النزاع ... وفي حرية ولك أن تقول الشعر في هذا وذاك كما فعل القرشي والفهد ... دلالة على طبيعة المسيرة ، ولك أن تقوله حُرًّا فقط ... ولك أن تبقى حيث أنت من الخليل ، ويأتي الدارس بعد ذالك ليقرر الظاهرة كما هي (ينظر مثلاً : « شعراء نجد المعاصرون » ص ٥٢ ، ١٠٠ ، ١٤٥ ، وينظر الفوزان : ٣ .

ذكرت الحجاز ونجدا ، ونذكر (الشرقية) والقطيف خصوصاً حيث عبدالله علي الخنيزي ومحمد سعيد علي الخنيزي والحركة المتجددة المتأثرة في أقرب عواملها بالعراق ، ويذكر مع العراق : بدر شاكر السياب ونازك الملائكة ... ويذكر قبل العراق ومعه ، للقطيف ولغيرها . مجلة الأديب البيروتية التي فتحتْ صدرها للشعر الحرّ وشجّعته ، ولا غرو فصاحبها صاحب « لمن ؟ » ولم تبق جازان وأبها بمنأى أو منجى ... !

قلت : لم تكن غضاضة شديدة ، ولم يكن نزاع بمعنى نزاع ... ولكن لابُدّ من كلمة هنا وتعليق هناك وموقف عند هذا ... وليس غريباً أن تقرأ في « شعراء نجد المعاصرون » ص ٢٢٩ ، (عثمان بن سيّار ... معتقدا أن الشعر العربي الحديث في قوالبه وصياغاته ليس شعراً عربياً بل هو من آثار الاستعمار الغربي ...) — إنّ ابن سيّار خريج دار التوحيد وكلية الشريعة ومفتش في إدارة الكليات والمعاهد العلمية (الدينية) .

فهكذا تبدأ الأشياء ، وهكذا تتنامى ... حتى تتباعد الأطراف وتتنافى الثقافات ، وتتنابذ الأذواق ... والشعر في هذا جُزْءٌ من الحياة العامة في تطورها وفي الجديد جداً الذي يدخل عليها مع بقاء للقديم جداً وهو يعمل على استضافة عناصر جديدة للحياة .

النمط القديم ، وَسَمَّه : العمودي ، باقٍ ، يستمرُّ أصحابه القُدَامَى عليه ، وفيهم حسين سرحان ، ومحمد حسن فقي ، وحسين عرب ، وطاهر زمخشري ، ومحمد علي السنوسي ... وعبدالله بن خميس ، وعبدالله بن إدريس ... ويصدر عبدالله الفيصل ديواناً جديداً ، ويعيد طبع ديوان قديم . وتصدر دواوين جديدة لمحمد سليمان الشبل ، ومحمد إبراهيم جدع ، ومحمد سعد المشعان ، ومحمد سراج خراز ، وزاهر عواض الألمعي ، وعبدالله الحميد وعبدالله جبر ومحمد العيد الخطراوي ... وأسامة عبد الرحمن ... ويبقى آخرون ، وفيهم شباب ، ينشرون قصائدهم في المجلات والجرائد .

ويبقى آخرون بَيْنَ بَيْنَ : حسن عبدالله القرشي ، محمد الفهد العيسى ، غازي القصيبي ، ماجد الحسيني ، محمد هاشم رشيد ... وأنس عثمان ،يهمّون بالجديد ويجتذبهم القديم .

وإذا كان الجديد ــ وسمه الشعر الحرّ ــ قد وَجَدَ موضع قدم زاد الزمن من تثبيتها ونشأ جيلٌ جديد لم يكن لِيَشُدَّهُ بالقديم الذي شدّ جيل القرشي ؛ وربما حسب في النمط الجديد ما (ينتقم) به لنفسه بوجهٍ من الوجوه ، فيميزه ويشق به طريقه ، ويقول فيه ما يفهمه هو وأصحابه ولا يدركه الآخرون ... إذا كان ذاك ــ وهو في جملته حاصل ــ وتذكرنا ازدياد نفوذ ما يرد من البلاد العربية شعراً ورأياً ، وفي الشعراء أمثال : السيّاب، نازك الملائكة ... صلاح عبد الصبور ... أدُونيس ... محمد الماعوظ ، ومن هو أحدث منهم وأكثر تطرّفاً وأكثر حرية في الشعر الحر ، وأكثر نثرية في قصيدة النثر . إذا كان ذالك :

وتذكرناه ، قد نستغرب ما شرع يسود أوساط الشباب في نمط الشعر ــ بعد

جيل القرشي ومحمد الفهد العيسى والقصيبي ممن بقي فيهم كثير من النفس التقليدية ؛ وبعد الرميح وبو حميد اللذين ابتعدا أكثر من التقليدي واقتربا أكثر من الحر ...، — ومنذ سبعينات القرن الميلادي وتسعينات القرن الهجري — من جديد جديد .

وخلاصة شعرهم هموم لا تفصح عن نفسها بالصراحة والوضوح لأنّ هذا الشعر يقوم على الإيحاء وخلق الجوّ النفسي العام ، ولأن الصراحة قد توجب لهم من الأذى ما لا يريدون أن يَقَعُوا فيه . وهكذا لجأوا — عن قَصْد وعن غير قصد ، بحكم الفن الشعري والواقع الاجتماعي — إلى عرض الواقع حُلُماً ... وإذا كانت وإذا كانت كلمة (عرض) غير مناسبة قلنا : بثّ ، وإذابة، وتسريب ... وما أشبه . أما الشكل المفضل — والوحيد الذي لا ثاني له — فهو : الحرّ ، وأما الصفة المفضلة لديهم فهي الحداثة والمعاصرة والجدّة ... ولا يبقى الحر ملتزماً دائماً للتفعيلة ، فالأكثر جدة ما زايلها إلى الإيقاع في مطلق مدلوله .

ويسير هذا النمط قُدُماً ، ويتَثَبَّتُ قَدَماً ... فيكثر أصحابه ، وقل: تكثر أصواته وتعلو وتعمق والعوامل هي هي مع زيادة الإحساس بوقعها ، الإحساس بضرورة النمط وحيداً ، والإحساس بالضيق الذي لا منفذ منه ولابُدّ من النفاذ والخلاص . وإذا كان الأمر كذالك جاء الشعر على حظٍّ من الغموض — والأمر صار معروفاً — ولكنه الغموض الحي الناطق المحاط بالمشاعر والأفكار ، المتأزّمُ في حالة النفس ؛ وليس الغموض الذي اختِيرَ لذاته متابعةً لموجة الغموض في العالم العربي — والعالم كله — لكي يَصِف أصحابه نفوسهم بالجديد وبالمجدّدين . يريدون أنه غموض محكوم بالفن مُمْتَزِجاً بالأسباب والدواعي الموضوعية . ولكن الغموض الحقيقي قد يجرُّ إلى ما هو أكثر غموضاً وأقل حقيقة .

ويحرص الشباب — بحكم الظروف الاجتماعية في الأقل — أن يتسلّحوا بقسط من الحكمة والتأنّي وأن يبتعدوا — قدر الإمكان — عن الانفعال والاستفزاز وكأن لهم من ثقتهم بنفسهم وبفنهم ما يضمن لهم حقهم ويهيء لهم مكانتهم ؛ ومن حكمتهم احترام التراث الشعري وعَدُّهُ في الرائع من الآثار ، واحترامهم الشيوخ ومن هم

أكبر سِنّاً منهم – متابعة للتقاليد في الأقل – وأنهم لا ينكرون فضل رُوّاد النهضة الحديثة في الأدب فيذكرونهم بالخير ، ويحفظون لهم ما عانوا وما ثبتوا ، وما جددوا في حدود ظروفهم وزمانهم ، وإمكانات الاتّصال لديهم ... وأكثر ما يخصُّون بالذكر أولئك الذين عُرفوا بالتحرر أكثر ممن سواهم ، وهنا يتقدم اسم محمد حسن عواد فيما دعا إليه من تجديد في الأدب والفكر ، وفيما أخذه على نفسه من رعاية الشباب والتنويه بِآثارهم ، وفيما زاوله من أنماط الشعر بحيث لم يقتصر على العمودي الموحد القافية ، فكان له شعر منثور وكان ما رَأَوْا فيه مقدمة المقدمة من تاريخ الشعر الحر . ثم إنهم لا يلزمون الشباب كلّهم يقطهم (؟) ، وفي الشباب أعمارهم من يلزم العمود وزناً وقافية ... فينشر في الصحف ويصدر الدواوين ويجد الطريق إزاءه ممهدة .

هذا موقف ضرب من الاتّزان يحفظ لهم ، ولكنه لا يمنع البدوات الفردية ، والتطرف الخاص لدى جدال والمدى مقابلة الانفعال بالانفعال ... ولدى اتخاذ الحماسة للنمط الجديد مادة لتقوية الشخصية وسنداً لاحتلال مكانة ...

ثم يدخل الشعر في نمط أكثر جدة لديه ، ترك التفعيلة ، والاعتماد على الإيقاع ... ثم الوقوع في النثرية ولا يمكن أن يستمر إلى الأبد لدى التطرف .

البدوات تحصل ، ولكن الأناة حاصلة مطلوبة ، حتّى لو نبتت على مضض . ومن عوامل المضض أن يستهين بهم الآخرون ، وأن يَسُدُّوا – أو ألاّ يفتحوا – في وجوههم أبواب النشر في المجلات والمساعدات على النشر ...

ولا بأس فهم يبحثون عن منافذ خاصة بهم ، ولا يعدمون إيجادها ، وكانت هذه المنافذ الصفحات الأدبية من الجرائد اليومية وبعض المجلات الأسبوعية خاصة ... وبعض دور النشر .

ثم جمع المتيَسِّر من القصائد وإصداره – بأية وسيلة ممكنة – في ديوان (صغير

عادة) ، وهكذا تبدأ أكثر الدعوات الطليعية ، وربما كانت (دار العلوم) متميزة في العناية بالشباب وكأنها تريد أن تعد داراً طليعية كذالك ...

والشعراء الجدد هم المنتظرون بشعرهم ، فهم الذين يتحدثون عنه ، وينقدون الصادر منه في الديوان ، ومن ثم يولد الناقد الخاص من العارف بأسراره وأسرار أقلامه . أما السيادة والبقاء فأمرهما موكول بالمواهب الصحيحة والشاعرية الحقيقية ومدى استيعاب الزمن الحاضر بما يحفظ جوهر الخاود في المستقبل ... المسألة مسألة زمنٍ وليست مسألة نزاع انفعالي تتقاذف فيه الأطراف التُّهَم إلى درجة الاختلاف والافتيات والظلم والباطل . ويااما أكثر الحركات الطليعية في العالم — ومنها ما كان في العالم العربي على مدى عمره الطويل قديماً وحديثاً — ولكن الحركة شيء وإن بقاءها شيء آخر — والبقاء — كما هو معلوم — للصالح . ويحضرني — هنا — رأي لباحث مصري لا يبدو عليه الرضا عن الشعر الحر ، هو الدكتور إبراهيم أنيس ؛ وقد قال في كتابه « موسيقى الشعر » (٤ ، ١٩٧٢) ص ٣٤٤ :

أما الصراع القائم الآن بين أصحاب الشعر التقليدي وبين أصحاب الشعر الحر فهو حين يحسن الظن به يمثل في رأيي حيوية بين الأدباء المعاصرين ، أو إن شئتُ قلت : اختلاف العقلية بين جيلين : جيل الشيوخ وجيل الشباب . ومع قدر من السماحة وسعة الصدر يَجْدُرُ بنا ألاّ نَحْجُرَ على شباب الشعراء أو أن نلزمهم باتباع النظام التقليدي المألوف وتَرَسُّمِ خطاه ، فقد نُصيب خيراً لأدبنا العربي من وراء ثورتهم إن كان بها خير !) .

وقال (ص ٣٥٤) : (لا داعي إذنْ لإثارة النعرة القومية حين يناقش هذا الشكل الحر ، ولا مُبَرِّر للحديث عن تراثنا الأدبي والحفاظ عليه ، فسيظل بين يدي الراغبين فيه والمؤثْرين له ، أو على الأقل بين يدي الدارسين لعصور الأدب المختلفة ..فلنترك أصحاب الشعر الحرّ وشأنهم ، ينظمون كما تشاء أهواؤهم ونزعاتهم ، فالحكم الفيصل هو جمهور الشعر من الناس قرائهم وسامعيهم) .

هذا ما يقال أو يمكن أن يقال ، ولكن الذي يقع — عادةً — غيره ، يبدأ قليلاً

ثم يزداد ، يبدأ ليناً ثم يشتد ، وربما بدأ بالتسهل والتجاهل وانتهى بالخصام والصراع . وكأن لا مَعْدَى عن ذالك وإن اختلفت الدرجة واختلف المظهر

وإذا كان التجديد في الصياغة قد مرّ — في الخطوات السابقة التي رأيناها — من غير ضجيج ومن غير استفزاز للآخرين ، وقُلْ : من غير نزاع مفتوح أو صراع بمعنى الكلمة فإنه وقد بلغ هذه الدرجة وتعداها وصار كياناً ذا شأن ، وربما هدد كياناً آخر ، غير ما يستفز ومَنْ يستفز بحسن نية وأُلْفَة ذَوْقٍ معين ... إنه وقد بلغ هذه الدرجة أَذِنَ بصراع ، وتميَّزَتْ أطرافٌ وأوساط بين هذا وهذا . وقال شيخ يُؤْثِرُ أن يبقى محبوباً محترماً بمؤهلاته وتاريخه وفكره وهو جدير بذالك حائز عليه ، هو الشيخ حمد الجاسر وقد سئل في مطلع عام ١٤٠٤ / وختام ١٩٨٣ :

— مازال الشعر الحديث في المملكة غير معترف به تقريباً ... ما تعليقكم ؟

فأجاب المجيب قائلاً : أولاً يلاحظ أن ما يسمونه بالشعر الحديث هو نوع من النثر يصح أن يسمى النثر الفني خاصة إذا كان مفهوماً وصادراً عن تأثر عاطفي .

وألح السائل فزاد : الدول الأوربية قبلت التطور في شعرها وأصبح لديها شعراء عالميون معروفون في كل العالم ... فلماذا لا نقبله نحن ؟

فأثار ذالك الشيخ فأوضح : ياسيدي .. الشعر هو ما هزَّكَ وأثَّر في نفسك وحرك أوْتَار قلبك سواء أكان على بحور الخليل أو بحور أخرى ... (...) أنا أقرأ أشياء من هذا النوع الذي يسمونه شعراً لا أُحِسُ أيَ أثَرٍ عند قراءته .. إذَنْ لماذا تجعلني اسميه شعراً ... أنا أُسَمِّيه نثراً .. والغريب أن هذا النوع يعمد أصحابه إلى المبالغة في التعمية والرمزية ... — العرب ج٩ و ١٠ س١٨ — الربيعان ١٤٠٤ / كانون ١ ، ٢ ١٩٨٣ — ١٩٨٤ جزء خاص بجائزة الدولة للأدب ص ٧٦٧ ، وفي صيغة السؤال الأول ما يدل على شعور الشباب بالإهمال الذي يعانونه ويلمح إلى الطريق المسدود في وجوههم !

والصراع طبيعي ، وقد يجدي إذا كان مخلصاً ووقف عند الحدود الفنية ، أما

مسألة الاسم فليست مهمة جداً . وأخطر ما فيه أن يخرج إلى ضرب من العداوة البدائية فتكال فيه التهم جزافاً من كل نوع لا علاقة له بصميم الموضوع .

ويمكن أن نجد مزيداً من الدلالة في كتاب لأحمد فرح عسيلان، صدر عن نادي أبها ١٤٠٣/١٩٨٢ بعنوان : « جناية الشعر الحر » — ١١٥ ص .

يبدأ المؤلف كتابه قائلاً في المقدمة : (أعترف أني أكتب هذه الورقات وأنا ثائر منفعل ، يكاد يسطو بي الكمد ، ويكاد يقتلني الغضب .. وكيف لا أغضب (...) والجناة مصممون على المضي في تخطيطهم الفظيع الظالم بإملاء من الشياطين وإيحاء من الحاقدين) — تنظر مجلة عالم الكتب المجلد الرابع ، العدد الثاني ، شوال ١٤٠٣ / يوليو ١٩٨٣ ، ص ٢٩ .

هذا ما لم أكن أتصوره ، حتى لدى متابعة الشباب في سوء ظنهم بدوافع الناقد المصري . لقد تصورت التطور ، ولكني لم أتصور الدرجة ، ولابد من أن أكون على خطأ ، أو أن الأمر يُعْزَى إلى بعد عن (مواقع الأحداث) .

ولستُ منتصراً — هنا — للقديم أو الجديد ، ولكني مؤرخ يستكمل لمحات وردت في معجم للمطبوعات ... وقد يسير الأمر إلى أبعد من هذا الذي سار فيه .

والذي جرى للشعر السعودي في هذا المجال كثير وسريع وقد رأينا في تاريخه وشعرائه ودواوينه ما يدل على الكثرة والسرعة ... وكنت في حدود علمي — وصلتي وقربي — من التاريخ الحديث للشعر السعودي بَدْءاً برواده في الحجاز قبل جمع أقطار الجزيرة باسم (السعودية) وفيهم من ذكرنا من أمر العواد وشحاته والقنديل ... الخ ومتابعةً لتطوره في الحجاز ونجد والشرقية وجازان وأبها ... وفي ذالك من ذكرنا من أمر القرشي ومحمد الفهد والعيسى والقصيبي ... ومن وقفنا عنده باسم بُو حميد... ، كنت انتظر التطور إبداعاً وأصالة ، وأنتظر مكاناً خاصاً للشعر الحر ... ولكني ، وقد فارقت السعودية نحواً من خمسة عشر عاماً لم أنقطع خلالها انقطاعاً تاماً عن متابعة الحركة الأدبية ... ، كنت أنتظر تطوراً ... ولكن الذي حدث خلال خمسة عشر

عاماً كان أكثر كثيراً من مدى انتظاري ويكفي أن يكون جيل كامل قد وُلِدَ ، له همومه ومفاهيمه في الحياة والفكر ، وله نمطه في الإعراب عن تلك الهموم والمفهومات في شكل يراه هو الشعر ، ويراه الشعر الجديد ، ويرى قصيدته هي القصيدة الجديدة ...

وإذا كان هذا حالي ... فلا عجب أن يكون حال البعيدين جداً عن السعودية وشعرها حال دهشة وتعجب ... ومفاجأة ... أيكون هذا في السعودية ؟ أهؤلاء سعوديون ؟ ! ...

وتفجرت المفاجأة في بغداد حيث عقد مهرجان الأمة لشعراء الشباب من الحادي والعشرين وحتى التاسع والعشرين من نيسان ١٩٨٤ / شعبان ١٤٠٤ فالتقى الشعراء من كل قطر من أقطار العالم العربي ما بين المحيط إلى الخليج وتتابعوا يلقون بثمراتهم ، وألقى شباب من السعودية – فيمن ألقى – فكانت قصائدهم محطّ اهتمام ومدار حديث... ومثار دهشة . أيكون هذا في السعودية ؟ أيكون هؤلاء سعوديين ؟ وحكم لهم بالتجويد و (التفوق) نقاد المهرجان وفيهم الشباب والكهول من أقطار مختلفة ، وخرج الحكم مصحوباً بالدّهشة عن جدران المهرجان إلى أعمدة الصحف ...

دهشوا لأنهم لم يكن لهم علم بالمسيرة الأدبية في السعودية . أو اتصال بالفكر الأدبي منذ نهضته الأولى في الحجاز ، ولم يقرءوا لأديب رائد هو محمد حسن عواد في شعره وأفكاره ... و (نزواته) ويصلوا في قراءتهم إلى الرميح وبو حميد . أما أنا فما بلغت بي الدهشة ما بلغته في الآخرين لما لديّ من مقدمات ، ولأني منتظر التطور في كل مجال : في الشعر العمودي (ذي الشطرين) كما في الشعر الحر (ذي التفعيلة) . ولم استبعد قصيدة النثر . وكل ما في أمري أن الذي رأيته – وسمعته – جاء أبعد من تصوّري زماناً ومكاناً ، كمّاً وكَيْفاً . وليكن . والأمر طبيعي .

وتحدث ناقد عراقي شاب هو الأستاذ حاتم الصكر ، العارف بالشعر الشاب خصوصاً ، المتصل بالشعراء الشباب كثيراً ، العامل عضوًا فعّالاً في اللجنة التي تولّت إقامة المهرجان والإعداد له والسفر إلى الخليج العربي لدعوة شعرائه ... تحدث

في العدد السابع من مجلة الأقلام (تموز ١٩٨٤) فقال – فيما قال – : (... كان شعراء السعودية مفاجأة المهرجان بحق ... فالصيخان ، ومحمد (جبر) الحربي ومحمد الثبيتي قدّموا صُورًا لوعي شعري ينْمُو بَعيداً عن الضجيج ، مكتوباً بالتجربة ، طالعاً من أعماق الأرض ، جديداً يتوفر على أفضل ما في الشعر الحديث من مزايا وسمات ...) .

وبلغ الاهتمام والإعجاب بالأستاذ الصكر – وهو سكرتير تحرير مجلة الأقلام – أن توجه نحو السعودية توجهاً خاصاً فعاشر الشعراء وحاورهم ، وحصل على قصائد من شعرهم ليؤلف مَلَفّ العدد الثامن من المجلة خاصاً بـ (القصيدة الجديدة في السعودية) (مجلة الأقلام – آب ١٩٨٤ ، ص ١١٦ – ١٦٠ حجم كبير) وجعل عنوان كلمته التي قدم بها الملف : (شعر مسكون بالحلم والدهشة) ثم قال : (يكاد القارئ في أغلب أقطار الوطن العربي يجهل تفصيلات الحركة الجديدة في الجزيرة العربية (...) سَعة في المكان .. وحركة في الصحافة .. أجيال متعددة ، وأصوات أكثر تَعَدُّداً وتَنَوُّعاً .. ولكن المفاجأة الحقيقية : الشباب .

هذا هو الانطباع الذي تخرج به خلال إقامتك قريباً من نبض الحركة الشعرية .. ومعايشتك لتفاصيل حياتها ...

شباب مَهْمُومون بالحداثة .. متطلعون إلى قصيدة معاصرة تتمثل أبرز التيارات الشعرية العربية وتنتمي إلى الأصالة الواضحة في اللغة والبناء .. وتتجه إلى الإنسان مستلهمة وموجبة .

هنا : لا مغامرة لغوية تستهويهم فيريقون من أجل بريقها مياه الشعر في غير مصبّاتها ... ولا تشدُّهم الأناقة الكلاسيكية والمنابر فيحولون قصائدهم حداءً وإنشادا (...) .

أبرز ما يجتذب الشباب هنا : قصيدة الحلم ... » . انتهى .

ولي تعليق – أو توضيح – على (الحلم) ، خلاصته أن القصائد التي قالها – ويقولها – الشباب ليست حلماً بالمعنى المعروف للحلم مما يراود الإنسان نائماً ، أو ما يقدمه الشاعر على أنه من العقل اللاواعي ، أو أنه طلب المستحيل من المستقبل منفصلاً عن الممكن في الحاضر ، لأنهم جادّون – واقعيّون – يعربون عن همومهم الصغرى والكبرى بلغة الحلم وصور العقل الباطن لضرورة من ضرورات هذا التعبير عما يعتمل في نفوسهم ، ويصطرع في أفكارهم ، ليأتي كلامهم وعليه مسحة من الغموض ، ونبرة من الرمز... الموحي ، إنْ جَهِله – أو تجاهله – البعيدون عنهم – عرفه أو أحَسَّهُ القريبون منهم – وكما كان شعراء شباب ، كانت شواعر شواب .

وتحدث في « الملف » صالح الأشقر (من السعودية – مواليد حائل ١٣٧٠) عن أجيال الشعر في السعودية : الأول ... الثاني ... الثالث . وكأن الثالث لديه (جيل ما بعد احتلال فلسطين) الذين ترعرعوا على الشعر السياسي ؛ وامتداداً إلى النكسة ٦٧) ، وكأن أكثرهم شباباً محمد العلي وأحمد الصالح (مسافر) . وهذان الشاعران اختارا الشعر الْحُرَّ خلافاً لمعاصريهم مثل محمد المشعان وإبراهيم الزيد . ويمكن أن يضم إليهم الشاعر سعد الحميدين وديوانه « رسوم على الحائط » ...

وقال : (يمكن أن نضع (...) محمد العلي وأحمد الصالح (مسافر) كتجربتين سابقتين زمنياً ضمن الأصوات التي حاولت أنْ تَزِفَّ الأصوات الشعرية الجديدة إلى عالم التجديد والحداثة . وتعتبر الشاعرة فوزية أبو خالد في ديوانها « إلى متى يختطفونك ليلة العرس » الذي طبع في بيروت قبل (١٥) سنة من الأصوات الجميلة في مسيرة الحداثة ... » .

ثم يمضي في مسيرة الحداثة وما يذكر من أسماء شعرائها ، وكأنه يريد بهم أصحاب القصيدة الجديدة الفعليين ، وكأنهم جيل رابع بعد الثالث وإن لم ينص على (الرابع) وهذه هي الأسماء أو (بقية الأصوات الجديدة) كما قال : (عبد الكريم العودة . جارالله الحميد . محمد الدميني . علي الدميني . محمد عبيد الحربي . غيْداء المنفي . أحمد فقيه . عبد الإله البابطين . عبدالله الزيد . خديجة العمري . عبد العزيز سعد

العجلان . أحمد الملاّ . عبدالله الصيخان . محمد (جبر) الحربي . محمد الثبيتي ... وأسماء أخرى كثيرة) .

وأعود مرة أخرى وأكرر أني على ما حسبْتُ نفسي عارفاً بمسيرة الشعر السعودي لم أكن أنتظر هذا التغير على هذه الدرجة ، والتطور على هذا العدد . وقد تعني الحال توافر الفرص للشباب في أن يقرأوا ويفكروا ويناقشوا ويتابعوا ويتأملوا وينظموا ؛ وينثروا ، رغم ما يندُّ عنهم من شكوى الضيق أو التضييق .وإذا كانوا قد تأثروا بالشعر العربي الجديد فإنهم ليختلفون عنهم بالعوامل الدافعة إلى القول وما تؤدي هذه العوامل إليه من أجواء خاصة بمقدار ما يختلف مجتمع عن مجتمع ، وبمقدار ما يمنحه الجد والإخلاص من سمات القوة والأصالة ويبقى هذا التمييز ما بقيت الفوارق وبقي الشعراء صادقين لا ينفصم المضمون لديهم عن الشكل .

وطبيعي أن يحصل صراع بين الأجيال بدرجات متفاوتة ، إلّا أني رأيت على شهادات الشعراء التي أوردوها في (الملف) وعلى شهادة أدلى بها محمد جبر الحربي من إحدى الإذاعات ما يشير إلى تَأنٍّ ونُضج في الرأي الفنّي والاجتماعي ووعي للمهمة الأدبية والاجتماعية ؛ ولقد ذكروا اللغة والتراث بتقدير ، وبَدَوْا من التواضع بحيث عَدُّوا أنفسهم في دور التجربة – وأرجو أن تكون رؤيتي صحيحة ، وأن يكون الشباب – في جملتهم على الأقل – من النضج حيث بدوا . وأن يطيلوا الوقفة في دور التجربة من أجل اختمار أكثر وتَهَيُّؤ مواهب أعمق . والحذار الحذار من من السرعة والغرور

ثم ... توالت القصائد ... في الملف ...

وإذا كانوا قد تأثروا بروّاد الحركة من الأقطار العربية (العراق ، مصر ، سورية ، لبنان ...) وقد تأثروا فعلاً واعترافاً وحتماً ... فإنهم اجتازوا مرحلة التقليد وبَدَأوا مرحلة التميز والأصالة ومن هنا جاءت المفاجأة والدهشة من وجودهم فلقد تقدموا ... وتأخر الآخرون ، تقدموا بما لديهم من جدٍّ وإخلاص وطموح وظروف ، وتأخر

الآخرون إذ استحال الجديد لديهم قواقع جُوْفاً ، وألفاظاً وشكلاً ... وتعاورته أقلام لا تسندها موهبة وكأنهم فقدوا المضمون ، أو اجتنبوهُ إلى حيث مضمون غيرهم .

ويبقى بعد ذالك ، الاحتياط في الحكم بما يبتعد به التعميم عن التخصيص ، والقاعدة عن الشاذ ولا – ولنْ – تعدم في الشباب من يتطرف ، ومن يقع – عاجلاً أو آجلاً – في فخ عدّ التجديد غاية بنفسه – ولكننا رأينا الوجه الحسن المطلوب المرضي . وبه العبرة والعظة .

ولهؤلاء الشباب من « الدواوين » ما لا يغفله غداً معجم للمطبوعات – رضي صاحبه عنهم أم لم يرض – ولا يستغني عنها معجمنا من الإلماح إليها في خاتمته ومن ذالك : أحمد صالح الصالح (مسافر) – مواليد عنيزة ١٣٦١ وله : « عندما يسقط العراف » ١٣٩٨ « قصائد من السفر » ١٤٠١ / ١٩٨١ ، « انتفضي أيتها الميحة » ١٤٠٣ / ١٩٨٣ .

سعد الحميدين (مواليد ١٣٦٧) : « رسوم على الحائط » ١٣٩٧ / ١٩٧٧ ، ويعد للطبع « عندما بانت سعاد » .

محمد جبر الحربي (الطائف ١٣٧٦) : « بين الصمت والجنون » ١٤٠٤ / ١٩٨٤ ، وديوان تحت الطبع .

محمد الثبيتي وله مجموعتان هما : « عاشقة الزمن الوردي » ، و « تهيجت حلماً .. تهيجت وهماً » .

ومنهم من له « ديوان » تحت الطبع أو في طريقه للصدور ، ولعله صدر فعلاً ، ومن أولئك : عبدالله حمد الصيخان (حائل ١٣٧٥) في ديوان : « الهجرة من الغرفة المائية » وصالح الشهوان (عنيزة ١٣٧٣) في ديوان « كذب الراوي » .

ولنلاحظ في (جغرافية) الشعراء الشباب اختفاء السمة العائدة إلى المنطقة من بقايا أول توحيد أقطار المملكة ، يوم كانت أقطاراً متباعدة فظلت مع أدبائها نسبة

إلى الحجاز أو نجد أو الأحساء أو عسير ... أما هؤلاء الشباب فهم من « السعودية » وزحفت معهم (مدن) جديدة على الخارطة الأدبية لم تكن لها هذه الأهمية مثل أبها وحائل ...

ويمكن أن يقال في الشواعر ما قيل في الشعراء ؛ وفي الشوابِّ ما قيل في الشباب ، وفيهن من نَظَمْنَ – وينظمن – على النمط التقليدي (العمودي – ذي الشطرين) . وقد رأينا منهن « نداء » في « عبير الصحراء » وهي شاعرة حقاً ولا نقاش . ونداء اسم مستعار حقيقته سلطانة عبد العزيز السديري (مواليد القريات بالمنطقة الشمالية) ولها ديوان آخر هو : « عيناي فداك » ١٩٦٠ . ودخلت ثريا قابل بديوانها « الأوزان الباكية » الميدان مصحوبة بجدال لم يكن في مصلحة شاعريتها ، وهي تُعِدّ اليوم : « تلك ظلالي » . ولريم الصحراء ديوان « زهرة حنان » وريم الصحراء اسم مستعار حقيقته : الجوهرة العلي (ولها ديوان تحت الطبع باسم « وعد القمر » .

ثم صدر للدكتورة مريم البغدادي ديوان باسم « عواطف إنسانية » . وتنشر « المنهل » لأميمة خوجه قصائد رقيقة عاطفية تدخل في نطاق الشعر الحق .

ومن الشواعر الشوابّ من قالت شعراً حُرّاً شأن الشباب . وقد ذكرنا فوزية أبو خالد (مواليد الرياض ١٩٥٥) وديوانها المطبوع في بيروت « متى يختطفونك ليلة العرس » وتُعِدُّ للطبع ديواناً آخر باسم « اشهد الوطن » كما رأينا غيداء المنْفي وخديجة العمري .

ويذكر « دليل الكاتب السعودي » سارة بو حميد (سارة سليمان أبو حميد (مواليد الخبر ١٣٦٣) ويذكر في مشاركتها الأدبية : شعر حر ، إنها أخت ناصر سليمان بو حميد الذي رأينا مكانه البارز في مراحل الشعر الحر –) (العرب : الصحيح في هذا الاسم : ابن أُحَيْمد – تصغير أحمد – على تصرُّف وتحوير في نطقه من قبل العامة ، ليس هذا محل إيضاحه) .

ويذكر « الدليل » عزة فؤاد شاكر (مواليد مكة ١٣٦٥) وديوانها « أشرعة الليل » من الشعر الحديث ١٣٩٧ » .

ولابُدَّ من وجود أخريات ... ونشر « المنهل » في باب « الشعر المنثور » ، ومن الأسماء المتكررة فيه : نجوى صلاح الغرباوي .

ومما يمكن أن يدخل في باب ما يلفت النظر أن المنهل (رجب ١٤٠٤ / أبريل ١٩٨٤) تلقت اعتراضاً شديداً على تسمية « الشعر المنثور » من كاتب (أحمد محمود مبارك) يرتضي الشعر الحر ويقول : (الشعر الحر تطور شكلي للشعر العربي العمودي (...) رواد الشعر الحر (...) أخذوا تفعيلات الشعر الحر الموسيقية من تفعيلات الشعر العمودي التي تكون بحون الشعر الستة عشر المعروفة) .

وكان « المنهل » أقرب إلى تأييد المعترض على (الشعر المنثور) أو كمن يريد أن يرضيه ولو على غير قناعة .

ووجه الغرابة في الموضوع أن « المنهل » كانت تفخر — وقد رأينا ذالك — على لسان مؤسسها الشيخ عبد القدوس الأنصاري بالشعر المنثور !

وغرابة أخرى ليست عجيبة من صاحبها ، وصاحبها الشيخ الكبير — مكاناً وعمراً — أحمد سباعي وقد سئل في السنة الأخيرة من عمره : (يقال : إنك من مؤيدي الشعر الحر المنثور ؟ فأجاب : نعم كنت من المؤيدين له ولاأزال . وأذكر أن الأستاذ محمد حسن عواد (...) كان أول من قال هذا اللون من الشعر المنثور في السعودية وقد وقفت بجانبه ضدَّ من تصدى له بالنقد . ورأيي أن الشعر الجديد طالما أنه موزون وفيه موسيقى فلابُدَّ أن يأخذ مكانه من الساحة الأدبية . أما محاربة البعض للشعر الحديث فإنَّ المجتمع العربي درج على محاربة كل جديد . ويعتبر الجديد بدعةً ، والبدعة تستنكر دائماً . بالطبع أنا لا أنكر أن هناك أشياء في الشعر الحديث لا مكان لها من الإعراب ولا ينبغي أن تكون وهي أشياء ليست من الشعر — تنظر « العرب » الربيعان ١٤٠٤ / كانون ١ ، ٢ — ١٩٨٣ — ١٩٨٤ .

الشعراء الذين يرون أنهم شعراء كثيرون ، وربما كانوا كثيرين جداً ؛ ولا تعني الكثرة – في ميزان النقد – شيئاً ، فعمّا قريب يتقلص العدد – كما تقلّص من قبل – فيمضي منهم من يمضي إلى سبيل أخرى من إدارة وتجارة وصمت ... ويبقى في الساحة الأقلون ، وهم بين اثنين : شاعر حقيقي تحول موهبته وما يراه من مجد له دون تحوله ؛ وشاعر غير حقيقي ؛ يُسَوِّدُ الصفحاتِ وينشر ولا يبلغ درجة الوسط في خير ما لديه يستمر . – ولا تدري ، أو تدري – لماذا ؟ ألأنَّهُ لم يجد مجالاً آخر ؟ ألضعف – وجُبْن – في النقد ؟

مسيرة الشعر طويلة عريقة ، ومازال الشعراء بارزين في الحركة : الرواد القدماء ودواوينهم ما طبع منها وما أُعيد طبعه وما لم يكن مطبوعاً ... والجيل الثاني ... والثالث ولكنهم كانوا في بداية النهضة وكأنهم كل شيء ، ولا تكاد تجد أديباً من آخر العهد الهاشمي وأوائل العهد السعودي في الحجاز لا يقول شعراً ... ثم جاءت المقالة مع الصحافة فزاولها الشعراء كذالك – ولا غَرْوَ فإن فؤاد الخطيب محرر القبلة شاعر كاتب مقالة ، وخير الدين الزركلي كذالك وآخرون ممن ورد على الحجاز قبيل العهد السعودي وفي بدايته ... ثم إن الصحافة تتوطد وقوامها المقالة ... ولا تصعب المقالة على ذي لُغَة وقلم وهكذا كان هذا الذي تراه في « أدب الحجاز » و « وحي الصحراء » ... وربما تستغرب إذا رأيت أدباء متقدمين (مثل أحمد سباعي) لم يقولوا الشعر !

المقالة – كتابها – كاتباتها :

كانت « القبلة » وحدها ثم جاءت بريد الحجاز . وإذ انتهى العهد الهاشمي كانت « أم القرى » و « صوت الحجاز » ثم سارت القافلة ، وتعددت الجرائد ، وجاءت « المنهل » رائدة في المجلات ...

ولاشك في تأثر المقالة السعودية بالمقالة العربية عموماً وبالمصرية خصوصاً متمثلة بالمنفلوطي وطه حسين والزيات ... ؛ والمهجرية كذالك متمثلة بجبران خليل جبران . وتذكر مجلة « الهلال » ... ثم مجلة « الرسالة » الواردتين باحترام وتأثير من القاهرة .

وهذا يعني أنَّ من كُتَّاب المقالة ــ ولاسيما الروَّاد ــ من لم يكن يكتفي بالمضْمون وَحْده يوصله فكرة واضحة بلغة سليمة ؛ وإنما يقصد إلى الجمال ، إلى أن يقدم أثراً يجد فيه القارئْ ما يجد في الشعر ليزيد مفعول المضمون ، وليثبت مكانه أديباً فإذا في المقالة عاطفةٌ وخيال ... وصور ... وإيقاع ... وقد تقرب من الخطابة حيناً ومن القصة حيناً ... ولكنها أقرب إلى الشعر في كل حال ، وأوجد جبران النثر الشعري ، وَوُصِفَ نثر أحمد سباعي بالشاعرية ...

والوصف صحيح ، وهو شائع . وذلك أن تقرأ مقالاته لترى الشاعرية فيها والطراوة عليها . ومن فاته أن يقرأ في الصحف وفي سائر كتبه فليقرأهُ في « السباعيات » ــ وقد صدر منها جزءان ، ولنا أن ننتظر ثالثاً ــ وتذكر أن السباعي من الحجازيين القلائل من جيله الرائد من لم يجمع بين الشعر والنثر ؛ والشعر هو الطاغي عليهم ؛ فجاء السباعي شاعراً في نثره ، ولا غَرْوَ أن كان من الأوائل الذين كتبوا شعراً منثورا .

قال إبراهيم هاشم فلالي في « المرصاد » : (السباعي ... شاعر وإن لم يَدَّعِ الشعر شاعر وإن لم نسمع له بيتاً واحداً ، يترك نفسه على سَجِيَّتها في تعبيره فيأتي تعبيرهُ شعراً مرسلاً محلقاً كأحسن ما يكون التحليق والرفرفة ، والجمال (...) وهو في كل نثره شاعر صافي النفس قوي الأداء رقراق العبارة مُرَفْرِفُ الروح ...) .

وكتاب المقالة كثيرون ... وهم في دور الريادة هم الشعراء وهم المقاليُّون وظَلُّوا ــ بعد ذالك ــ غير قليل يشربون النوع نسغا(؟) من الإبداع تكلفاً أو طواعية أو تكلفاً يقربهم من الطبع ؛ ولا تهمنا الدرجة ــ هنا ــ قدر ما تهمنا الظاهرة . ظاهرة الفن والتفنُّن ، وفي الجرائد ما يمكن أن تختار منه مجلداً ممتعاً لوشئتَ ، ولابُدَّ من أن يصْنَع هذا المجلد من مختارات المقالات يوماً . وبانتظار ذالك المجلد ، نعود إلى « أدب الحجاز » و « وحي الصحراء » وربما إلى « نفثات من أقلام الشباب الحجازي » الصادر سنة ١٩٣٧ . ورأينا من الكتاب من جمع قدراً من مقالاته في كتاب . وفي طليعة أولئك الشيخ السباعي ... ثم إبراهيم فلالي وأحمد عبد الغفور عطار ... وسعد البواردي.

ثم رأينا ، بعد ذالك ، وبعد الـ ١٣٩٠/١٩٧٠ من جمع — أَوْ جُمِعَتْ — له المقالات ونشرت في كتاب ، ومن أولئك غير الشيخ السباعي : حسين سرحان ، ومحمد سعيد العامودي ، ومحمود عارف ومحمد حسين زيدان ... والبقية تأتي ... وفيها عزيز ضياء وعبد العزيز مؤمنة ... وآل حافظ ... وعبدالله مناع والدعوة إلى مجلد المختار من المقالات المبدعة قائمة ... كما الدعوة إلى دراسة المقالة دراسة أدبية في رسالة علمية قائمة كذالك وياحبذا لو عُنِيَ جامعو المقالات بتثبيت تاريخ النشر ومكانه ؛ وفي ذالك خدمة للدارس والناقد ....

وقد عرفنا حسين سرحان شاعراً لم تكن منزلته يوماً مجال نقاش أو مؤاخذة . ويبدو أن هذه الشاعرية — في الموزون المقفّى — غطّتْ على مكانته مقاليّاً مُبْدِعاً . أسهم في الصحافة السعودية منذ أول جريدة فيها : « أم القرى » ثم في « صوت الحجاز » ثم في « البلاد السعودية » ... ولمقالاته شخصية متميّزة هي سمة الإبداع ، وفي مقدمتها ، غير بنائها العام وتسلسل فقرها ، عُنْفٌ في الروح ، وسخريّةٌ ، وقوة في الرأي وجمال في الصورة ، ووثبات تزيد النصّ حياة ، والقارئ تَنَبُّهاً ...

من يقرأ « من مقالات حسين سرحان » — النادي الأدبي ، الرياض ١٤٠٠ — ٢١٦ص يكتشف في الشاعر كاتباً شاعراً من نمط خاصٍّ ، يتكامل فيه الفنّانُ ولَنْ يُدْرَسَ — بعد اليوم — شاعراً منفصلاً عن المقاليِّ ...

وبقيت الأقلام تراود الإبداع ، والإبداع يراودها طويلاً ، وكنت ألاحظه وقد تهيأ لِي ، منذ ١٣٨٣/١٩٦٣ ، أن أقرأ « المدينة » و « البلاد » وغيرهما واكتسب ضرباً من الحيوية بُعَيد نظام المؤسسات (في العام نفسه) ثم شرع يجف ويندر ، وعادت المقالة إلى الطابع العام ، طابع الصحافة فقط ، إلى الإيصال التعليمي وحده ، وكأنّ الكاتب على عجلة من أمره ، وربما كان القارئ كذالك ، لدى الإيصال والتَّلَقّي . ولم تكن السعودية في ذالك على خلاف ما جرى في العالم العربي ، وفي العالم كله .

وجمع عدد من كتاب المقالة ما كتبوه وأصدروه في كتب – وحسناً فعلوا ، وفي الذي كتبوه فَنّ وشاعرية أحياناً يكونون به الجيل التالي – أو المُتمم للجيل الأول في تواليه من السباعي إلى السرحان ...

ونبدأ هذه المرة بالرياض حيث صدرت – بنظام المؤسسات – جريدة الجزيرة ثم الرياض ، [وقبل ذالك] صدرت اليمامة ... فكان ذالك دعوة مباشرة للأقلام والمبادرة إلى الكتابة والتنافس في الأنفع الأجمل ... الأقوى تأثيراً .

ولدينا مما كتب في « الجزيرة » – ١٣٨٨ – و « الرياض » – ١٣٩٠ – مع أحاديث ومقالات أخرى – مجموعة الدكتور عبد العزيز بن عبدالله الخويطر : « من حطب الليل » – الرياض ط ٢ ، ١٩٧٨/١٣٩٨ – ٢٤٨ ص » . جاء في مقدمتها : (الفكرة تخطر في ذهن الإنسان ، فيقيِّدها ، تصبح بمنزلة ابنته ، يعزُّ عليه أن يئِدَها بعد أن تولد ، أو أن يهملها وهي جزء منه (...) إنها تصبح منه ، ومنسوبة إليه ، بما فيها ، وما لها ، وما عليها ... » .

ويمضي الكاتب في تواضع وكأن له من انصرافه إلى (الإدارة) و (التاريخ) ما يسد حاجته ، ويريه (الكثير) في غيرهما قليلا ...

والخاطرة الذهنية هي التي تحدد مركز الثقل في المقالات التي تضمُّها المجموعة ، ويقابل من المعنى الأدبي بناء وطراوة – غلبة القصد في التعليم الاجتماعي التربوي وربط ذالك بوسيلة الإيضاح بحدث وقع أو حكاية عرضتْ . وهذه التّعليمية مقصودة قبل الطراوة ومن ثَمَّ فهي مرتبطة بالعقل والموضوعية أكثر من ارتباطها بالقلب والذاتيّة . وقد تجتمع الموضوعيّة والذاتية كما في « إلى ابني » (ص ٩٢) .. وينظر الأسلوب ومنهج الكاتب ص ٨٥ ، ١١٨ .

وكتب في الجزيرة واليمامة ... آخرون ... ولو استمر الوهيبي لكان له مجموع فيه عنف الناقد وسيولة قلم الأديب ...

وأبرز المقاليين من أصحاب الكتب المجموعة عبدالله عبد الرحمن جفري : وهو في ذالك أقوى منه قصّاصاً — ومن كتبه المقالية : « لحظات » ، و « حوار وصدى » ...

وأصدرت له تهامة ١٤٠١/١٩٨١ « تَبَثُر » جاء للأستاذ سباعي عثمان في تقديمها :

(حينما صدر كتاب الزميل عبدالله جفري ، بعنوان « لحظات » منذ بضع سنوات ... تساءل كثيرون ممن اطلعوا عليه : شعر هو ، أم نثر ، أهو كلام بين الشعر والنثر ، وبعضهم وصفه بـ (الضبابية والتهويم الحالم) !! ... »

ثم أصدرت له « حوار .. في الحزن الدافيء » ١٤٠٣/١٩٨٣ وقد قال الناقد المصري رجاء النقاش في مقدمته : (... إن عبدالله جفري كاتب له (شخصية) (...) ومدخل عبدالله جفري إلى قلوبنا وعقولنا (...) من باب الشعر ... فالروح الشعرية عنده واضحة (...) باختيار ألفاظ تقطر بِالنَّدَى الشعري وفي حرصه على توفير جوٍّ من (الموسيقى الداخلية) لكتاباته حتى تبدو في معظمها وكأنها من «الشعر المنثور» ...

وننتظر مجاميع أخرى لأنّ الرجل في خضم عالم الصحافة وهو (المدير المتفرغ لتحرير صحيفة « الشرق الأوسط » العربية ، ومجلة « المجلة » الأسبوعية ...) .

وكنت أقرأ — الأستاذ عبدالله الحُصَيّن فألمح في مقالاته القصد الفني لدى إخراج فكرته محاولاً بذالك اجتذاب القاريْ والتأثير فيه ، وينجح أحياناً وكلما ابتعد عن التقريرية . وهو اليوم يجمع مقالاته لتصدرها له تهامة ١٤٠١/١٩٨١ بعنوان « أفكار بلا زمن » — ولا توجد أفكار بلا زمن ، ولكن توجد أفكار يمكن أن تقرأ خارج زمنها وكأنها ليست بنت زمانها بفعل (الإخراج) والإخراج فَنّ . وأهدى المؤلف كتابه : (إلى الباحثين عن الحقيقة وسط ظلام الحياة ، وظلم الأحياء . أقدم هذه السطور ، فلعل فيها ضوءاً من الحقيقة . لعل فيها مواجهة للنفس في لحظات صدق مع الذات) .

ولابُدَّ من أن تكون هناك كتب أخرى صدرت لِتَضُمَّ مقالات سبق نشرها ، وفي عناصر بقائها ودواعي إعادة نشرها سِمَةٌ من الفن وطابع من الشعر ، وعنفوان من الفكر ...

وهنا يرد اسم : أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري . قلت اسم ، وما هذا باسمه ، وإنما هو محمد بن عبد الرحمن العقيل ، من آل عبد الوهاب من الخزرج تَحَدَّرُوا من المدينة المنورة إلى نجد في حدود القرن الحادي عشر الهجري (...) مولده في حفيظة النفوس سنة ١٣٥٧هـ ثم ترجح له أن مولده سنة ١٣٥٩ بموجب وثيقة وجدها في أوراق والده عمر رحمه الله .

عمل موظفاً في إمارة الدمام ، ثم موظفاً بديوان الموظفين العام (ديوان الخدمة حالياً) ثم مديراً للخدمات برئاسة تعليم البنات . ثم مستشاراً شرعياً بوزارة الشؤون البلدية والقروية — وما يزال .

وعمل رئيساً للنادي الأدبي بالرياض ، ومايزال أحد أعضائه .

وكنا وقفنا عنده في صاب المعجم بما تَيَسَّر لدينا عنه آنذاك وأقدم ما ثبتناه له من الكتب طبع سنة ١٣٩١ / ١٩٧١ فهو بعد الحد المحدد لنهاية المعجم ، أما الآن وقد اتضح نشاطه (النادر) وجَدَّتْ لدينا هذه الأخبار عنه فقد رأَيْنَا ضرورة إثباتها ، وزاد في الضرورة قوله — وهو في عام ١٤٠١ — : (طبع له خمسة وثلاثون كتاباً) وبَدَا أن ليس من المنطق أن يكون قد طبع هذه الـ ٣٥ كتاباً في عشر سنين : فقد يكون بينها ما يدخل ضمن حَدَّي المعجم ، وذالك ممكن .

حدثنا الرجل عن نفسه بالأخبار الواردة هنا عنه على ظهر كتاب ، هو مجموعة مقالات ، أصدرته له تهامة ، جدة ، مطابع دار البلاد بجدة بعنوان « لن تلحد » هو الحلقة (٩٢) من سلسلة الكتاب العربي السعودي .

قال في مقدمته : (... لم يكن هذا السِّفْرُ مقصوداً منذ البدء في صميم هذه

الموضوعات وإنما كانت مواده من جملة المحاضرات والمقالات التي كنت أنشرها في الصحف خلال عشرين عاماً . فقد أهملتُ جملةً منها وحفظته لأنني غير راضٍ عنه ، وما رضيت عنه وزعته في أسفار تحت عنوان عام هو « الفنون الصُّغْرَى » إلّا أنني ميَّزتُ بعض الأسفار بعنوانات خاصة لما رأيت موضوعاتها موحَّدَةَ الهدف ، فكان السفر الأول بعنوان : « هكذا علمني وردزُورث » لأن موادَّه من موضوعات الفن والأدب التي توزن بالمعيار الجمالي . وكان هذا السفر ... وهو السفر الثاني ... عن قضية الإيمان والإلحاد ، وكان الثالث بعنوان : « اللغة العربية بين القاعدة والمثال » ، وكان السفر الرابع بعنوان « هموم عربية » — الرياض ، غبيراء ، دارة فيصل ١٤٠١/١/٢٦ — وجريدة البلاد أول ما يذكر لأماكن النشر .

وحدث — لدى الطبع تقديم الثاني « لن تُلحد » على الأول « وهكذا علمني وردزورث » فقد صدر هذا عن تهامة ، جدة ، مطابع سمر ، ١٩٨٣/١٤٠٤ — الكتاب العربي السعودي (٩٩) ... وبانتظار الكتابين الباقيين .

ويبدُو من المقدمات أن كتب — أو مقالات — أبي عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري تعترضها عقبات عند النشر ، تدعو مرَّة إلى التأخير ومَرَّةً إلى التعديل . وليس في الأمر غرابة لأن أبا عبد الرحمن ظاهرة لا تخلو من غرابةٍ في مكانها أو في نظرتها إلى الأشياء ... وهذه النظرة أو هذه الغرابة هي التي تجعل لمقالاته — وخاصة ما جاء في « هكذا علمني وردزورث » طابعاً خاصاً وشخصية متميزة ،وأسلوباً ... يدخلها في الأدب الفني ويقربها من المقالة المبدعة إن لم يدخله فيها .

وهاك سطوراً من المقدمة تُهَيِّئُ لصاحبها مكاناً بين الفنانين مزاجاً وهو أساس — فيما بعد — في تحديد هوية الناتج . قال : (... وهذا العنوان وحي مصادفة محضة لقصيدة لوردزورث ... — وإن كان أسبق مني زماناً — إنه إياي يعني . وجدته يبارك عملاً جليلاً كبيراً لطفل (...) يدور هذا السفر على ... اعترافات ذاتية (...) باعثها الصدق العاطفي أحد ظاهرات الجمال ، وهو خير مسجل لعبث الأطفال الكبار ...) .

هذه العاطفة التي يؤكدها أبو عبد الرحمن ليست العاطفة التي تتبادر إلى الذهن من شؤون الحب والغرام وما إليهما من قواعد الشعر الغنائي ، وإنما هي عاطفة ذِهْنية – إنْ صح التعبير ...

إننا لا نطلب عند الرجل الشاعرية الوجدانية ، ولا نطلب اللفظة المختارة الأنيقة التي تنتظم مع جارتها ضرباً من الموسيقى ... ولا أيَّ تأنق آخر يدخل في الترف اللفظي ؛ فالرجل من عالم آخر ، عالم العقل والمنطق والإقناع .

– فهو كاتب مقالة تعليمية تقريرية !

– قد يكون ذالك في عدد من مقالاته ، ولكنها ليست التعليمية التي توصل مادة جاهزة راكدة ، وإنما هي الوسيلة التي تحرك ذهناً ؛ ولا التقريرية الهادئة الجامدة الساكنة وإنما هي تَحَدٍّ وطموح وإثارة .

ومن هنا جاء حظُّه في المقالة الفنية . ليست تعليماً ولا تقريراً لأنه عنيف وإن شئت استفزازي ، يستفزُّكَ إن كنت معه ، ويستفزك إن لم تكن معه ، بضربات متلاحقة تبدو متباعدة الطرفين لديك وما هي كذالك في نفسه . فلا تَأمَنْهُ إن لانَ ، لأنه يلينُ لِيَشْتَدَّ ، ولا تُصَدِّقْهُ إنْ تواضع ، لأنه يتواضع لغزارة من الثقة بالنفس ، هي فخر يصل حدَّ الخيلاء ثم يرتدُّ إلى الألفة والمصادقة . تحتدم العاطفة خلال عقله ، ويحتدم عقله لِيبدُو عاطفة وخلال ذالك خليط عجيب من التجارب والآراء والمعارف ... مرة قديم جداً إلى جديد جداً ، ومن شرقي شرقي إلى غرْبي غرْبي ... لا تدري كيف تجمعت في ذاكرته ... وَكَمْ قرأ حتى جمعها !! ومن ثَمَّ تَنْبَثِقُ صورٌ تراها غير مألوفة – وربما غير معقولة – ولكنها مألوفة لديه – طوع يده – قد يذكرك بزكي مبارك إذا أردتَّ أن تتذكر روحه – ولا أقول عقله ، وإذا كان لابُدَّ من مقابلة . ولا يذكرك بالعقاد على أن الميدان ميدان عقل وثقافة وقراءات ، ولو كان كالعقاد لوصفناه بالتعليمية ومضينا .

فن المقالة لديه – إذَنْ – متميِّز بالعنفوان الفكري لدرجة أن يبدو اضطراباً

وشذوذاً وثقة مطلقة بالذات وما تعتقده هذه الذات ؛ ومتميز — كذالك — بـ (التّلاعب المنطقي) إن طلبت بديلاً عن (التلاعب اللفظي) الذي تراه لدى غيره واضحاً أو خفياً ...

وإذا بدأتَ معه مقالة ... لم تَجِد بُدّاً من السير معه حتّى ينتهي ؛ وعند الانتهاء ، ترضى أو لا ترضى — تضع علامة العجب والتعجب وكأنك تعايِشُ (طِفْلاً شكِساً) .

بقي أن الشيخ أبا عبد الرحمن بن عقيل الظاهري لم يحدثنا — إذْ عرَّفَنا بنفسه — مكان ميلاده ؛ ولكنه أشار إلى أن في كتاب « هكذا علمني وردزوورث » : (اعترافات ذاتية) وافتتحه بمقالة طريفة ذات دلالة على فنه وعقله ومقروثه عنوانها (الطفل الكبير وكفر أبي صير) والطفل الكبير هو هو دون شك ، و (أبو صير ريفٌ يمرح على ضفاف إحدى الترع المنسابة من النيل الخالد) في مصر . (وكفر أبي صير ريف لأسر من القبائل العربية الأصيلة المهاجرة من الجزيرة العربية وبلاد الرافدين . اتخذته مخدعاً للحب المحفوف بكلمة الله وخطبة ابن مسعود ! إذ غادرته مودعاً أرض الكنانة مستقبلاً تنائف نَجْد تمثلت بقول أبي الطيب :

أُحِبُّكِ يَا شَمْسَ البلاد وبَدْرَهَا وإنْ لامَنِي فِيكِ السُّهَى والفراقِدُ ..

[العرب : من كفر أبي صير اختار أبو عبد الرحمن زوجته الثانية ، أما مسقط رأسه الذي ولد فيه فدينة شقراء في نجد] .

ولم يعرفنا عن دراسته . ونعرف أنها أساساً شرعية وقد قال في مقدمة « هكذا علمني ... » (ومؤلف هذا الكتاب من حملة العلم الشرعي شهادته : ماجستير من معهد القضاء العالي في الرياض في التفسير) .

ولاشكّ أن علمه خارج المادة المنهجية أكثر في المادة المنهجية . أكثر كثيراً فلا تكاد تُحْصي أو تلاحق ما قرأ واستوعب من قديم وحديث ، وممنوع ومتبوع ...

وذكر لنا في مقدمته تلمذته لمجلة الرسالة ثم تلمذته بأخرة للآداب ...

ويهمنا من « الرسالة » أنها مدرسة المقالة العربية ، ومدرسة تذوق المقالة والإيحاء بمزاولتها .

وتذكرني الرسالة بالزيات ، وأذكرها وأذكر الزيات ، بعيداً جداً عن عالم أبي عبد الرحمن وأسلوبه ، لأذكر الأستاذ عبد العزيز الرفاعي وقد سمعته لأول مرة يلقي (حديثه) في بغداد — مؤتمر الأدباء العرب السابع ١٣٨٩/١٩٦٩ فكان اختياره للفظ ، وكانت أناته ازاء الجملة ... مما يذكر بالزيات ... أقول : (حديثه) إشارة إلى نبرة محببة في صوته تحسب لدى الإلقاء .

الأستاذ الرفاعي لم يجمع مقالاته والملاحظ عليها غلبة التعليم الأدبي والاجتماعي مع ميل مقصود إلى التطرية . سَعْياً إلى كسب القاريء في المتابعة . وقد تأتي التطرية مُلْحَة وفكاهة ، وقد تأتي شجوناً في الحديث .

نخلص إلى أن كتاب المقالة كثيرون ، ونشأوا وترعرعوا وشبّوا وشابَ جيلان منهم ، لحقهم كهول وهاجِسُهم لدى الكتابة الفن ، ويبقى الاختلاف في القدر المتحقق وذالك رهنٌ بالموهبة والجدّ والاستمرار ...

ثم شرع هذا الهاجس يَخِفُّ أوْ يَجِفُّ وعادت الكثْرة الكاثرة من المقالات كتابةً فقط . ترى أنطمع بخليفة لعبدالله جفري ؟

وطبيعي أن يكون للمرأة مكانها من المقالة خلال المدة المحدودة للمعجم ، وبخاصة لدى أواخرها ، في الأبواب النسائية — الاجتماعية من الصحف ... ثم ازدادت وتنوعت . وقد تشبثنا ذات يوم باسم خيرية السقاف وسميرة لاري : (خيرية إبراهيم محمد السقاف ، ولدت في ١٣٦٩/١٢/١٨ ٪ ١٩٥١ بكالوريوس أدب عربي ، سميرة أحمد لاري ، مواليد جدة ١٩٤٩ ، ليسانس صحافة من جامعة القاهرة)، وعُدَّ ذالك فَتْحاً بعدما كان من اختفائها في العقود الأولى ، ومن الدعوة إلى تعليمها ، وربما كتب الرجال بتوقيع نساء دفاعاً عنها وإعلاناً لها ...

وزاد نشاطها ، وصارت لها مجلتها — بعد الحد المحدود — بل مجلاتُها (الثلاث)... وكثيراً ما جمعت إلى المقالة القصة ... أو القصة إلى المقالة ... أو الشعر إلى المقالة ...

ولديّ من الأسماء : فوزية البكر ، رقية الشبيب ، شريفة الشملان ، قماشة السيف ، عهود الشبل (وهي حصة محمد صالح الشبل) ، فوزية العريفي ، فوزية أبو خالد ، شيرين حمزة شحاته ، سهيلة زين العابدين ، عابدية إسماعيل خياط ، منيرة المسعود ، نائلة قستي ، جميلة فطاني ، أميمة الخميس ، إيمان الدباغ ، بهية بوسبيت ، — ينظر دليل الكاتب السعودي . وتتردد في « المنهل » الجديد أسماء للمرأة منها : حياة عبد الحميد عنبر وأمجاد محمود رضا ... وغيرهن وغيرهن ، ومنهن من يعملن على جمع المختار من مقالاتهن لطبعه في كتاب — وتبقى العبرة في المقالة كما هي في الشعر والقصة فيمن تبقى وتستمر وتتقدم وتبدع . وليس من طبع الإبداع الكثرة !

أقول هذا وإزائي كتاب يضم مجموعة مقالات للدكتورة فاتنة أمين شاكر باسم « نبت الأرض » — جدة ، تهامة ، سلسلة الكتاب العربي السعودي (٣٥) ، مطابع النصر ١٤٠١/١٩٨١ — ٢٦٢ ص . وفي التعريف بالكاتبة المقاليّة يقول الغلاف الأخير من الكتاب : ولدت بمدينة جدة عام ١٩٤٠م .. وتلقت تعليمها الأوّلي فيها .. مارست الصحافة في وقت مبكر من حياتها .. فكانت أول صحفية سعودية تتولى الإشراف على صفحة نسائية بجريدة عكاظ بين أعوام ١٣٨١ — ١٣٨٣هـ (؟) .

أول مذيعة سُعودية .. قدمت البرنامج النسائي الشهير بعنوان (البيت السعيد) ...

تخرجت (في) كلية التجارة بجامعة القاهرة عام ١٩٦٢م . سافرت إلى أمريكا لمواصلة دراستها العليا وتحصلت على الماجستير عام ١٩٦٦م .. ثم تحصلت على الدكتوراه عام ١٩٧٢م وكان موضوع رسالتها : « التطور الاجتماعي والحضاري للدول النامية » .

عادت إلى المملكة عام ١٩٧٧م وانضمّت إلى هيئة التدريس بجامعة الملك عبد العزيز — جدة — أستاذة بقسم الطالبات .

واصَلَتْ « مشوارها » الصحفي في زاويتها المعروفة بعنوان « حوار » في جريدة « الشرق الأوسط » الدولية ..

اختيرت رئيسة لتحرير مجلة « سيدتي » التي تصدرها الشركة السعودية للتسويق .. حيث استعيرت خدماتها من الجامعة عام ١٩٨٠م » .

تقرأ في الكتاب ، كتاب « نبت الأرض » فترى (الفن) غالباً على قلم الكاتبة ، وتقع على (قطع) هي امتياز في الشاعرية الوجدانية لو درستْ صاحبتها مع الشواعر لما أنكر الحال عليك منكر .

كتابة المقالة ليست صعبة من حيث هي في (أبسط) دلالاتها التي تقف عند التعبير وحده . وهي حتى في هذه الحال ذات دلالة لدى الحديث عن المرأة اجتماعياً وفكرياً . لقد بدأتْ تبلّغ ، وكانت لها الأبواب الدائمة في الصحف ، وكان منهن المحررات الدائمات ... ثم دخل القصد الفني ، ووُجِد التوفيق أحياناً .

ومن هنا جاء عمل الأستاذ عبد الكريم بن حمد الحقيل في كتابه « من أدب المرأة السعودية » . قالت « العرب » : « مجموعة مقالات لنحو مئة كاتبة من فتيات هذه البلاد ... في ٢٥٦ صفحة وطبع الكتاب في المطابع النموذجية ، في الرياض ، صدر هذا العام (١٤٠٣) ... » .

القصة :

والقصة جديدة على السعودية كما هي جديدة – في شكلها الفني الواقعي – على الأقطار العربية كلها ، ولابُدّ لدى البحث في نشوء القصة السعودية أن ترجع إلى تأثير القصة المصرية ، والصحافة المصرية ... وما وصل الحجاز مترجماً إلى العربية ... حتى أحَسّ الأديب الحجازي بأهميتها وألمّ بشيء من سماتها وشرائطها ورأى ضرورة الكتابة فيها .

وفي عام ١٩٣٠/١٣٤٩ أصدر عبد القدوس الأنصاري : « التوأمان » : « أول رواية صدرت في الحجاز » .

ثم نشر في جريدة « صوت الحجاز » قصة قصيرة بعنوان « مرهم التَناسي » في العدد ٧٢ بتاريخ ٨ جمادى الثانية ٢٩/١٣٥٢ أغسطس ١٩٣٣ في باب : « قصص اجتماعية : رواية الأسبوع » .

وفي العدد ٨٢ كتب عنها محمد حسن عواد بما يدل على إلمامه بما هي عليه القصة الحديثة على الرغم من شدته في الحساب لدرجة التّهجم وظهور العنصر الشخصي الذي يجور على المعنى المطلوب في الناقد الأدبي الصحيح .

وتُعْنَى « المنهل » عناية جادّة بالقصة — ينظر الكتاب الفضي ١٣٨ — ١٤١ وللأديب الجزائري أحمد رضا حوحو مكانه البارز في القصة والمنهل ، ونذكر معه محمد عالم الأفغاني فيما نشر في المنهل ، وغيرها ، ومما له في المنهل قصة متسلسلة بعنوان : (الكأس الأثيرية) نشرت بَدْءاً من صفر١٣٦٥ / يناير١٩٤٦ في العدد الثاني والأعداد التالية حتى العدد الثامن .ونشر فيها سعوديون ، ومن ذالك « فكرة » للأستاذ أحمد السباعي موزعة على العددين الرابع والخامس من المجلد السابع ١٣٦٦ . ثم أصدرها في كتاب .

توقف الأنصاري عند البداية وذهب اهتمامه إلى المجلة والتاريخ واللغة ... على حين مضى السباعي في طريقه القصصي — مع شغله بالتاريخ والصحافة — حتى نشر في ثمانينات القرن الهجري / ستينات الميلادي في جريدة « المدينة » قصصاً قصيرة طليعتها « خالتي كدرجان » فدل على تطور وكتب قصة تقرأ وتعجب وتختار ، ثم جمع قصصه وأصدرها في مجموعة عنوانها « خالتي كدرجان » — أعادتْ تهامة نشرها في طبعة ثانية وأعلنت عن طبعة ثالثة وهذا ما لم يتهيّأ لأية قصة كتبها الرواد والشيوخ ...

وثالث « رواية » سعودية صدرت هي « البعث » لمحمد علي مغربي (١٩٤٨/ ١٣٦٧ ؟) ، وقد أعاد طبعها ١٩٨٣/١٤٠٣ بطلب من تهامة .

وكتب محمد سعيد العامودي القصة مبكراً في المنهل ، وكان من أوائل الداعين إلى هذا النوع من الأدب (ينظر المنهل الفضي) ولكنه لم يجمع ما نشره في كتاب . وصدر له مؤخراً عن دار الرفاعي بالرياض الحلقة الأولى من سلسلة « دنيا القصص » التي افتتحتها الدار ، وعنوانها : « رامز وقصص أخرى » ١٤٠٣/١٩٨٣ — هي سبع قصص الأولى (رامز) نشرت أول مرة في جريدة « صوت الحجاز » ١٣٥٥/١١/٢٧ ؛ والميراث ، وذكرى ، ومأساة أم ، وجزاء ، في المنهل ، والأخيرة (شيلوك الأخير) في البلاد السعودية ١٣٦٦/٨/٢٥ — وكان من المناسب أن تتقدم المجموعة ما كتبه الأستاذ العامودي في المنهل ١٣٥٦/١٩٧٣ مستعرضاً نواحي الضعف في أدب الحجاز ومنها خلوه من القصص ...

ترك الأستاذ العامودي القصة إلى اهتمامات أخرى ، أدبية ولكنها ليست للقصة . ويمكن لباحث في القصة التي صدرت على هيئة كتاب أن يقف عند أحمد عبد الغفور عطار ومحمد عمر توفيق .

وإذا وصلنا حامد دمنهوري وصلنا إلى مرحلة متطورة في الرواية قد تمثّل نهاية مرحلة قدر ما تمثل بداية مرحلة تكون رائدة فيها ... وشغل دمنهوري بالإدارة (في وزارة المعارف ، واخترمته المنيّة) ...

وحين دخلتُ الرياض ١٣٨٢/١٩٦٣ (فتحت عيني) على مجموعة « طين ودم » لعبد الرحمن الشاعر فإذا هي جديرة بالقراءة والدلالة على اطمئنان الفن القصصي ، ولكن « طين ودم » بقيت — لصاحبها — من غبْر غد ... ولئلاً نظلمه نقول : إنه نشرها وهناك (عن مجلة عسكرية) عدداً محدوداً من القصص ، وأنه يستعد لطبع مجموعة ثانية بعنوان « عذاب الحرية وأحدب منفوحة » .

أما الذي يتردد في الساحة ، فيؤلف ، ويوالي التأليف والنشر رواية وقصة فكان إبراهيم الناصر ... وقد وَدَّعَتُ الرياض ١٣٨٨/١٩٦٨ وهو بارز فيها مقترناً بها وقرأت له « أمطار » ولمحت التَّقدم ومضى (بعدي) يوالي النشر والتأليف وإعادة الطبع ...

وكتب آخرون غير قليلين ، منهم من كان له كتاب واحد ومنهم من كان له أكثر من كتاب ، منهم من انقطع ومنهم من استمرّ رأيناهم في « المعجم » ورأينا -- فيمن رأينا -- عبدالله جفري ، وأمين سالم رويحي ، ومحمد زارع عقيل ، وخليل إبراهيم الفزيع ، وأمين عبد المجيد وغالب حمزة أبو الفرج ، ومحمد عبدالله مليباري ومحمود عيسى مشهدي ...، وللقمان يونس نكهة خاصة ولكنه لا يجد في نفسه الشّجاعةَ أو الهمة على الاستمرار ! مع أنه يَبُذُّ كثيراً من المستمرين ، ويتميز منهم . وإذا كنا ذكرنا لعبدالله مناع (الدكتور في طب الأسنان ، ولد في جدة ١٣٥٨) لمسات وهي مجموعة قصص ١٩٦٠ فقد فاتنا ذكر مجموعة « أنين الحيارى » ١٩٦٨ .

أما بعد ذالك ، وبعد الحدّ المحدد لنهاية المعجم فقد ازدادت القصص ، ونشأ كتّاب جدد ، وإن ظلت القصة القصيرة -- كما هو طبيعي -- هي السيدة السائدة وتتعدد أجواؤها ما بين القلب والعقل ، والغاية الاجتماعية المباشرة أو غير مباشرة أحياناً بما تعكس من ضيق أو أزمة وتعريف بتقاليد يراها الكاتب بَالِيَة تحول دون التَقَدّم وبين القصد إلى الفن وأطوار من حالات النفس ... في العقل الباطن وتيار الوعي

وأصدرت مجلة عالم الكتب (مج ١ ، ع ٤ ، ربيع الآخر ١٤٠١/١٩٨١) عدداً خاصاً بالقصة في المملكة العربية السعودية لا يستغني عنه دارس . وللدارس أن يتابع الأعداد التالية فيما تذكره من أمور القصة دراسة أو تعريفاً أو إخباراً عن صدور .

ولك أن تلتقط من أسماء المؤلفين -- مستعيناً بيحيى ساعاتي ومطبوعات النوادي الأدبية وكتاب الدكتور نصر محمد عباس : « البناء الفني في القصة السعودية المعاصرة » ١٤٠٣/١٩٨٣ وكتاب الدكتور منصور الحازمي : « فن القصة في الأدب السعودي الحديث » : سليمان الحماد ، محمد المنصور الشقحاء ، حجاب يحيى الحازمي ، عبدالله السالمي ، محمد حمد الصويغ ، عبد العزيز صالح مشري ، صالح سالم باقارش ، عاشق عيسى الهذال ، جارالله الحميد ، عبدالله عبد الرحمن العتيق ، حسين علي حسين ، علي محمد حسون ، عبدالله سعيد جمعان ، حسين هاشم سالم ، محمد بن طلال ، فائز

عبد المجيد ، فؤاد عبد الحميد عنقاوي ، طاهر عوض سالم – هذا غير علوي طه الصافي في « مطلات على الداخل » .

وعُنِيَت النوادي والجمعية بالقصة والقصاصين .

ولابُدّ من أن يكون غير هؤلاء ، وأن يكون الذي تحت الطبع لعبد الرحمن العتيق ، وحسين علي حسين وعلي محمد حسون وعبد العزيز أحمد ساب وعبدالله باخشوين قد صدر أو صدر أكثره ، غير ما بقي ويبقى طيّ الصحف والمجلات .

وليس العدد بالقليل ، وتبقى مسألة النوعية العالية خارج دائرة « المعجم » ولابُدّ من الانتظار ، ولابُدّ للقاص السعودي من بحث عن عوامل تساعده على الإبداع والتميز ، على أنك لا تعدم الجودة أحياناً ، والجهد المبذول في أن تأتي القصة فناً .

ونشر الدكتور منصور الحازمي بحثاً قيّماً عن « القصة القصيرة في الأدب السعودي الحديث » – عالم الكتب ربيع الآخر ١٤٠١ / فبراير ١٩٨١ ، أعاد نشره في كتابه « فن القصة في الأدب السعودي الحديث » وسار في استعراضه حتى بلغ جيل الشباب فكان مما قاله : (لم تظهر فيما أعلم ، مجموعات قصصية لجيل الشبان من القصصيين قبل نكبة حزيران سنة ١٩٦٧م ؛ بل إن معظم هذه المجموعات من نتاج السبعينات (...) لقد اختلفت القصة القصيرة على أيدي هؤلاء الشباب اختلافاً كبيراً عما كانت عليه عند أسلافهم من الواقعيين . لم تَعُدْ تُعْنَى بالبيئة المادية أو الواقع الحسي ، بل باللحظات الشعورية والمواقف النفسية المتوترة . ولم تعد تهتم بالمشاكل الاجتماعية اهتماماً مباشراً ، بل بما قد تعكسه هذه المشاكل من أحاسيس ذاتية غامضة ، لا تبحث عن حل معين ، وإن كانت توميُ إليه أحياناً . والحقيقة أنه من الصعب أن نبحث عن موضوع معين في القصة الجديدة – على الطريقة التقليدية – ذالك لأن الموضوع الحقيقي هو القاص نفسه الذي اقتربت لغته من لغة الشعر : والذي يرى العالم الخارجي من خلال تأملاته وأحلامه وأفكاره التي لا تنتظم منطقياً في اتجاه محدد ، وإن كانت تتجمع آخر الأمر حول بؤرة شعورية واحدة .

إن الغربة في المدينة لم تعد غرْبة مادية (...) بل هي غربة الفكر وغربة الروح ...

إن قصة الجيل الجديد قد أثبتتْ رغم طفولتها – زمنياً – قدرتها على شقّ طريقها وفرض وجودها كفن أدبي متميز – ولكنه مزيج من مذاهب شتّى تختلط فيه الرمزية بتيار اللاوعي والسريالية واللامعقول (والوجودية) – وهي على الرغم من غموضها وعزلتها وتشاؤمها ، فقد استطاعت – بعض نماذجها الجيدة – أن تفتح آفاقاً جديدة للقصة المحلية لا عهد لها به) .

وقد وصف الدكتور الحازمي أبناء هذا الجيل (السبعيني) بالغرباء .

ونذكر أن هذه الظاهرة ليست سعودية فقط ، فما ذكره الدكتور الحازمي يكاد يكون وصفاً دقيقاً للجيل الذي سمي الستيني في العراق . ومثله كان في مصر والشام ...

ونقف قليلاً عند مجموعتين : الأولى لما أثارت من (نقد) والثانية لتمثيلها موجة الشباب « السبعيني » :

١ – الصمت والجدران لسباعي أحمد عثمان – من مواليد السودان ١٩٣٧ ، درس في الخرطوم وانقطع عن الدراسة في السنة الثانية بكلية الآداب . ارتبط عمله الصحفي بجريدة « المدينة » وهو المشرف على صفحتها الأدبية .. – طبعت مجموعته ثلاث مرات وليس هذا بالقليل وحالته نادرة أو فذة في بابها .

أحدثت « الصمت والجدران » حركة أدبية قليلة المثال . قال صاحبها وهو يقدم للطبعة الثالثة – وقد صدرت عن : نادي القصة السعودية ، الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون – فرع المنطقة الغربية بجدة ، مطابع دار البلاد بجدة ١٤٠٢/١٩٨٢ : (لا أدري كيف أعبّر عن إحساسي تجاه هذا الدفق الكبير من الاهتمام بمجموعتي « الصمت والجدران » فقد غيَّر الكثير من ظنوني ، وشكوكي وقت صدورها ... لأنها وإن ظهرت في عام ١٣٩٩هـ مجموعة في كتاب – فقد نشرت في جريدة المدينة متفرقة منذ عام ١٣٨٥هـ في أزمنة متباعدة ، أو متقاربة ، ونشرت آخرها في عام

١٣٩٠هـ ... ودفعت بها إلى الطبع في ذالك التاريخ .. حيث بقيت في بيروت تحت رحمة الحرب الأهلية سنوات ... ثم بادر نادي الطائف الأدبي فتولى طباعتها في عام ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .. ثم انتعشت طبعة بيروت فجأة – عن الدار السعودية للنشر – وصدرت في كتاب من القطع الصغير في عام ١٤٠٠هـ .. ونفدت الطبعتان من الأسواق خلال سنتين فقط ..

ومنذ صدورها في طبعتها الأولى .. والأقلام تتناوشها .. استحساناً أو استهجاناً أو استحساناً واستهجاناً في آن معاً ..) .

ولسباعي عثمان مجموعة ثانية صدرت باسم « دوائر في دفتر الزمن » ستصدر قريباً .

٢ – الخبز والصمت لمحمد علوان (في الدليل : من مواليد أبها ، خريج كلية الآداب بجامعة الملك سعود) ، صدرت عن دار المريخ ، الرياض ١٣٩٧/١٩٧٧ ، ٨٨ ص . وقد قدم لها الأديب المصري المعروف الأستاذ يحيى حقي مقدمة أظهر إعجابه الشديد بها على أنه من جيل الشيوخ وعلوان في طليعة الشباب السبعيني وما من معرفة بين الأديبين (الكبير) و (الصغير) .

قال الحازمي : (إن قصص محمد علوان تفيض بالحزن والتشاؤم مما حدا يحيى حقي أن يقول عنها : (هالني مقدار القتامة التي صبتها هذه المجموعة في قلبي ..) وأن يقول أيضاً : (كم أتمنى لهذه النظرة المنصرفة كل الانصراف للداخل أن تتحول – ولو نصف نصف – إلى الخارج أيضاً ، فتتجلى لها الطبيعة والناس ، غير محرومة كل الحرمان من بهاء الصورة) .

ولكن محمد علوان لم ينفرد بهذه الظاهرة . بل هي موجودة في أكثر الأقاصيص التي يكتبها رفاقه من الشباب (...) .

ولاشك أن قصتنا القصيرة المعاصرة قد استمدَّتْ مما حولها من نماذج عربية

وعالمية (...) ولكن الشعور بالملل أو القلق أو الإحساس بالغربة ليس وقفاً على أعمال (الوجوديين) فقد يكون له ما يبرره في الواقع المعاش في كل زمان ومكان . وينبغي أن نفرق بين (الوجودية) كفلسفة و (الوجودية) كإحساس عام (...) ...

ويرتاح الدكتور الحازمي لثناء (الكاتب الكبير يحيى حقي) — (شيخ القصة القصيرة في زماننا) — على مجموعة محمد علوان (وقد تحول إلى دراسة جادة متعمقة) : (حجم صغير ، بل في أغلبها قصير جداً ، تركيز شديد ، لم يمنعها تتابع التقطيع بسبب الجمل القصيرة المستقلة من أن تملك قدراً لا بأس به من السيولة والتدفق . لحنها شمولي ، بعدها عن الافتعال فهي صادقة كل الصدق (...) ذاتية الأسلوب ، النظرة إلى الداخل ، الاهتمام بالمشاعر ، عمق التحليل النفسي ، البراعة في استخدام الرمز ...) .

ويعلق الدكتور الحازمي فيقول : (... أليست شهادته ... بأن هذه المجموعة خير مثل للقصة الحديثة — مما يدعو إلى العجب والاعتزاز ؟ ... الاعتزاز لأن شاباً من بلادنا قد حقق أخيراً ذالك الأمل الذي كنا نتطلع إليه منذ أمد بعيد ، ألا وهو تأصيل فنّ القصة القصيرة في بلادنا ، وكنا لا نفخر بشيء سوى الشعر ...) .

وانظر كم تطورت الحال من « مرهم التناسي » والتوأمان وفكرة ... إلى « الخبز والصمت» ... وإذْ نقف عند نقد الدكتور الحازمي نقول : وكم تطور نقد القصة منذ هجوم العواد على الأنصاري ...

تذكر « عالم الكتب » مج ٤ ع ١ ص ١٤١ لمحمد علوان — الحكاية تبدأ هكذا . الرياض ، دار العلوم للطباعة والنشر ١٤٠٣/١٩٨٣ — ٩٦ ص : (ضمنها ثماني عشرة قصة قصيرة تتميز بأسلوب رشيق وفكر معبر) .

جاء في « دليل الكاتب السعودي » : محمد علي علوان . مكان الميلاد : أبها . الدراسة : خريج كلية الآداب — قسم الأدب العربي بجامعة الملك سعود بالرياض .

المشاركات الثقافية : الإشراف على الصفحات الثقافية بمجلة اليمامة لفترة من الزمن ، وكذالك ملحق أدب وثقافة بجريدة الرياض .

وبانتظار رأي النقاد ، والحازمي خصوصاً ، في بيان الذي حققه قاصّنا الشاب المتميز . وما حققه الآخرون ، وهم كثيرون ، عشرة ، وعشرون ... كم يستمرون ؟ وكم ينقطعون ؟ وكم يبحثون عن تأكيد ذواتهم في عالم آخر ؟ فقد علمنا التاريخ عموماً ، وتاريخ الأدب السعودي خصوصاً — فيما نحن فيه — أنّ الكثرة لا تعني كثيراً ، وإنما العبرة في المثابرة القائمة على الموهبة والاستعداد للتضحية والانسجام التام بين الذات والفن .

ولا يستغني قاريء عن كتاب الدكتور نصر محمد عباس لإخلاص الرجل في المتابعة والملاحقة وقد تعدى المطبوع في كتاب إلى ما تناثر في المجلات والجرائد وإلى ما هو « تحت الطبع » ... وهو يخرج بالسبعين إلى ثمنينيات القرن (الميلادي) تسعينيات القرن الهجري ، ويقف بعد محمد علوان ص ١١٥ عند عبد الله السالم — مكعبات من الرطوبة . الرياض ، دار العلوم ١٤٠١ (١٤٠٠) / ١٩٨٠ . وفتح صدر كتابه البناء الفني في القصة السعودية المعاصرة » واسعاً للمرأة القاصة . وقد صار في المملكة من القاصات عدداً وكيفاً ، ما يفرض نفسه على الدارس وإن كان الدكتور عباس قد تابع الموضوع طوعاً واختياراً ...

وأحسب أن القصة باب يتسع لخطوات المرأة تستطيع أن تلوذ به ، ولا يعلنها في الناس كما يعلنها الشعر (الوجداني) ، ولها من عالمها الذي تعيشه ما ينوع ويزين ويثري ... مضافاً إليه عالم الأخريات والمجتمع كله في تقاليده القديمة — وفيها الغريب المستغرب — وتطوره الجديد الذي يبدو كالطفرة ، وفيه ما يبدو شاذاً ...

ولا يخص هذا الكلام سميرة خاشقجي (من مواليد ١٩٤٠) كما يذكر د. نصر محمد عباس) وفي الدليل ١٥/٨/١٩٤٠ — كثيراً — أو قليلاً فقدرأيناها في « المعجم » وكأنها من عالم آخر ، تكاد تحتوي المراهقة أركانه وزواياه فتتلقفه القارئة والقاريء

من المراهقين والمراهقات في المملكة وخارجها وربما زاد الخارج على الداخل . قال نسيم الصمادي في مقاله (دراسة أدب المرأة السعودية القصصي) ، الذي نشره في مجلة عالم الكتب مج ١ ، ع ٤ (ربيع الآخر ١٤٠١ / فبراير ١٩٨١) : (... الملاحظ على كتابات سميرة خاشقجي أنها كاتبة عاطفية لا منتمية ، تعيش أجـواء روائية سينمائية ، وهي تظن أنها تمارس أدباً واقعياً حيّاً : لأن الواقع في نظرها لا يزيد على العلاقات الشخصية والممارسات الروتينية التي تحكم يومها ، وهي لهذا تتجرأ وتقول : (أنا أكتب القصص وأحيا الواقع ، وأكتب الواقع وأنا أعيش القصص (...) وتقول : وما العيب في كتابة القصص العاطفية ؟ ...) — مقالة الأستاذ الصمادي مهمة في بابها ، جادة ، مخلصة ، وسنفيد منها ، ونجعلها في مراجعنا .

ولسميرة خاشقجي في « دليل الكاتب السعودي » تسعة عنوانات قصصية تاسعها : شجرة الحب .

ويبقى الأمر — فيما عدا ذاك — ونحن في النصف الثاني من العقد التاسع من القرن الهجري / السابع الميلادي وكأننا لا نكاد نجد ما يذكر للمرأة ، وإذا ذكرناه ورد تَشَبُّثاً ... وكانت في ذالك نجاة خياط بمجموعة لها صدرت بتشجيع خاص من الأستاذ محمد حسن عواد وداره المستجدة آنذاك للنشر ومن حبه لرعاية الشباب (والشواب) . ثم ذكرنا خيرية السقاف اعتماداً ما كان لها في الجرائد ... وتفاؤُلاً بمستقبل قريب .

ثم اختلفت الحال بعد ذالك ، وكثُرت القصاصات ، وتعددت مجموعاتهن ... ولم تخلف خيرية السقاف الظن إذ أصدرت « أن تبحر نحو الأبعاد » (الرياض ، دار العلوم ١٤٠٢/١٩٨٢) .

وتناثرت في الصحف والمجلات قصص قصيرة كثيرة لعدد غير قليل من الكاتبات القاصات . ومن اللائي أصدرت « روايات » نذكر — اعتماداً على ما وصل إلينا من الآثار ، وعلى المراجع التي سبق ذكرها — : هند صالح باغفار ، ولها : « البراءة

المفقودة » ١٣٩٢ ، « جروح في جبين الحياة » ١٣٩٨ ، « الهدية » ١٣٩٩ ، « العطاء الأكبر » ١٣٩٩ ، الرحلة الأخيرة ١٤٠٠ — وفي كل كتاب قصة واحدة . ولعائشة زاهر أحمد — » بسمة من بحيرات الدموع ١٤٠٠/١٩٨٠ . ولهدى الرشيد — « غداً سيكون الخميس » ١٩٧٧ . ويذكرها دليل الكاتب السعودي كذلك « عبث » (رواية) . ويذكر الدليل لهيام محمد الكيلاني « الليل والغرباء » (قصة) .

وإزائي : « غداً أنسى » للدكتورة أمل محمد شطا والمؤلفة (طبيبة سعودية من مواليد مكة المكرمة ... تعتبر الأدب هوايتها الأولى ... نشرت فعلاً مجموعة من قصصها القصيرة في بعض الصحف المحلية . « غداً أنسى » الرواية الأولى للمؤلفة تلقى فيها الضوء على جانب من صور حياتنا الاجتماعية . وتعتبر الكاتبة على حَدٍّ تعبير الناقد الكبير الأستاذ عزيز ضياء (مفاجأة لي .. وستكون مفاجأة للقارئ حين يعيش أحداث روايتها ، وحين يتذوق أسلوبها السهل المتدفق مع سلامته من الخطأ واستقامة عباراته) ... — تهامة ، الكتاب العربي السعودي (٨) ١٤٠٠/١٩٨٠) .

ولقد تهيأ لي أن أقرأها واستمتع بها شكلاً ومضموناً . وهي أي القصة — أو الرواية القصيرة — إذا أردنا الدقة في المصطلح — خطوة متقدمة في تاريخ القصة (الرواية) السعودية تنسجم صياغتها مع فكرتها ، وتديرها المؤلفة بحذق وتمكُّنٍ ، وكأنها أطالت من قبل — أُلْفَةَ الروايات العالمية وتأمُّلَ بنائها ، كما أطالت تخمير التجربة التي تعرضها ، فجاءت سلسلة جذابة يتعاطف معها القارئ ، وينسجم ويرى في قناعة ووضوح ورضا مكان الحنان من النفس الإنسانية ، ومدى ما يمنح — هذا الحنان — صاحبه من قوة وتحمل ، ومدى ما يغير من سلوكه من قساوة إلى دماثة ولطف ولين — والحنان قرين الحب أحياناً .

وأحسب أن الأستاذ عزيز ضياء — وهو الأديب السعودي البارز من الشيوخ الذين واكبوا الحركة منذ بدايتها ، وفقه اللغة الانكليزية وما احتوت من أدب وقصص أصيل — قد وضع (الرواية) في مكانها اللازم — ولم يجامل .

وعجبت – ولم أعجب – للتقدم الذي أحرزته المرأة ، بل (الرواية) كلها . فإذا كان حامد دمنهوري أمسى حداً جديداً في تاريخ الرواية السعودية فإن أمل محمد شطا حدٌ جديد جديد . في روايتها عمق وتشابك ولغة وطواعية .

نفدت الطبعة ... وهي تحت الطبع في إصدار جديد .

وصدر في القصة القصيرة مجموعة « الزحف الأبيض » للطيفة إبراهيم السالم ١٤٠٢/١٩٨٢ .

وذكر الدكتور نصر محمد عباس قصّاصَات أخريات نشرن – وينشرن – في الصحف ، ومنهن من تعد مجموعة للطبع ، أولها مجموعة تحت الطبع : جميلة فطاني ، جواهر عبدالله العسعوس ، جوهرة المزيد ، رقية الشبيب ، شريفة الشملان ، عهود الشبل ، فوزية البكر ، قماشة الجابر .

ولابُدَّ من أن يكون قد صدر لهن مطبوع ... ولابُدَّ من أن تدخل الميدان قصَّاصات أخريات ... وذكر الصمادي : حصة التويجري ، وختم مقاله القيّم بتفاؤل كبير .

وفي العدد الأكبر من القصَّاصات مَنْ جمعن القصة إلى المقالة والعمل الصحفي (مباشرة وغير مباشرة) – ينظر « البناء الفني » للدكتور نصر محمد عباس .

وخلاصة القول أن القصة في السعودية في تكاثر وتنوُّعٍ لها مجالاتها للنشر وفي مقدمتها الصحف المتعددة المتنافسة ، وتبقى الدرجة في الجودة والابتكار رَهْناً بالمثابرة والاستفادة الجادة من التجربة المحلية متصلة بالتجربة العالمية (والعربية) – وبالانتظار . وقد تطورت فعلاً ، وزاد حظها من العنصر الفني في الأداء والعنصر النفسي في المضمون . ولعلها التقتْ – ولو قليلاً – بمنهج قصص الشباب السبعيني . جاء في « عالم الكتب » – ذكر أعلاه ، ص ٥٢٥ : (ردّ المحرر الأدبي في مجلة اليمامة على رسالة وصلته من قماشة السيف قائلاً : أسلوب يشفُّ عن معاصرة إبداعية (...)

تملكين قدرة عجيبة على خلق الجمل الشعرية .. لكن عن طريق التداعيات غير المنظمة ، والأحلام المبتورة ، حتّى أن لغتك تتحول إلى لغة تجريدية تميل إلى طرح الحكمة ، ورغم كثافة الصورة ، وحضور الشعر مما يساهم في غياب الموضوع .

كتابتك تنطلق من اعتبار الحلم كأساس ، ولذالك يأتي الواقعُ بما فيه من قسوة وجهامة كشيء عارض) .

مرَّة أخرى – وليست أخيرة : القصة في تقدم وتطور ، ولابُدَّ لها من ارتكاز متين من الثقافة والفكر والمتابعة والجد ، لكي تحقق درجة أخرى ... تحول دون التوقف أو الفتور أو الاجترار ... أو التراجع .

مع رجاء لمن يجمع – أو تجمع – قصصاً متناثرة في كتاب مراعاة تَثْبِيْت تاريخ النشر ومكانه للقصص المجموعة ؛ وفي ذالك خدمة للدارس والناقد .

المسرحية وكتابها :

وتذكر المسرحية مرتبطة بالقصة أو ملحقاتها ، لأنها مازالت في البداية وإن اكتسبت مع الوقت مشروعيتها بعد أن كانت صفراً أو حلماً أو غياباً متّصلاً بغياب المسرح نفسه وربما النظرة غير المحللة له ... ولن تبقى كذالك بعد اليوم ...

ليست السعودية بعيدة جداً عن أخبار المسرح العربي (المصري) وأخبار المسرحيات العربية (المصرية) ولم يصعب الوقوف على هذه المسرحية أو تلك ، ولاسيما عندما كانت شعرية بقلم أحمد شوقي ، ومشاهدة هذه المسرحية أو تلك والسعوديين – بدءاً من الحجازيين رَوَاحٌ إلى القاهرة ومجيءُ ...

بل إن شباب النهضة الأولى في الحجاز رأوا بين ظهرانيهم من أدباء العرب المرموقين من زاول الكتابة المسرحية ويكفي أن يكون من اولئك الشاعر العلم : فؤاد الخطيب(●) .

قال الزركلي (٥/١٦٠) فؤاد الخطيب (١٢٩٦ – ١٣٧٦ ٪ ١٨٧٩ – ١٩٥٧ ..) :
« ولد ... قرب بيروت واستكمل دراسته في الجامعة الاميركية سنة ١٩٠٤ ... نشر ... مسرحية « فتح الأندلس – ط » شعرية (١٩١٢) ... مكة ... جريدة القبلة – الملك حسين – ... الرياض ... – عاهل الجزيرة العربية عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ... » ذكرناه هنا – وقلما ذكره الآخرون إذ يتحدثون أو يبحثون عن المسرحية العربية .

وإذا ذكرنا الزركلي ذكرنا صلته المباشرة بالسعودية وأدبائها حتّى عاد سعودياً ... وإذا فاتنا اسمه عند الحديث عن القصة وله فيها أثر ، فلا يفوتنا اسمه هنا وله (قصة تمثيلية نثرية ... « وفاء العرب » مثلت أكثر من مرة ، ابتداء من سنة ١٩١٤ ببيروت .

أتَمرُّ أحاديث الخطيب والزركلي كلها دون ذكر للمسرحية والمسرح ؟ !

ويأتي الشيخ أحمد السباعي – الفتى السباعي – رائد لا يكذب أهله في الأدب والمجتمع ، في التعليم والفن ... ألَمْ يدعُ إلى تعليم المرأة ؟ ألَمْ يَدْعُ ويطابق الدعوة إلى الكتاب المدرسي ... وأشياء كثيرة يهمنا منها هنا ، وأعجبها دعوته إلى المسرح وخطواته المبكرة فيه ، ولكنها كانت إزاء ما جَدَّ في البلاد وكأنها في غير أوانها أو ظروفها ، ولابأس فيبقى للفتى – الشيخ –فضله ، وما أحسبه سكت تمام السكوت أو أن تكون بذرته من غير نباتٍ وثمر ... وكثيراً ما احتفظت التربة بالبذرة حتّى الوقت المناسب .

وبقي حقه محفوظاً في الأجيال حتّى إذا توفي يوم الثلاثاء ١٤٠٤/١٢/١٦ تردد مع ذكر اسمه : المسرح ، وقرر النادي الثقافي في مكة المكرمة أن يطلق على اسم مسرح النادي : مسرح أحمد السباعي تقديراً للدور الذي قام به السباعي نحو تأسيس أول مسرح سعودي في مكة المكرمة .

ثم كان حسين سراج ومسرحيّتان . بل مسرحياته الثلاث .

وأحمد عبد الغفور عطار في ترجمته لمفتش كوكول ، وللزنابق الحمر لطاغور في طبعتين (١٣٥٢/١٩٧١ ، ١٣٩٨) .

ولم تغفل « المنهل » هذا الجانب من أنواع الأدب الجديدة . وقد جاء في المنهل الفضي (ص ١٣٨) . أنّ في العدد السابع من السنة الأولى (١٣٥٥/١٩٣٧) أقصوصة تمثيلية بعنوان (الاتفاق الأخير) ، وفي العدد العاشر من أعداد ١٣٦٥/١٩٤٥ رواية ذات فصل واحد ، للأستاذ عبدالله عبد الكريم الخطيب . ولم يكن مصطلح (المسرحية) قد بدأ أو استقر ، فكانوا يسمونها رواية ، وربما ميزوها بالتمثيلية شأن الحال في مصر وغيرها ، وربما سموها قصة وميزوها بالتمثيلية .

ثم كانت « الشياطين الخرس » لعبدالله عبد الجبار وأمكن أن تُعَدَّ مسرحية رائدة . قال إبراهيم هاشم فلالي في « المرصاد » ج ٢ :

(إن القصة والمسرحية بالمعنى المفهوم حديثاً ، دخيلتان على الأدب العربي ، وناشئتان فيه ، (...) ومما لاشك فيه أن بلادنا (...) لم تحاول أن تسهم في أدب المسرحية محاولة جدية ، حتى جاء الأستاذ عبدالله عبد الجبار (...) وأخرج لنا مسرحيته « الشياطين الخرس » في جُرْأة وحماسة ... وقد تأثر الأستاذ محمد حسن عواد بهذه الجرأة بعد قراءته المسرحية وانفعل انفعالاً شديداً ، وطلب أن يقدم هذه المسرحية ، ولم يُمَانِع الأستاذ عبدالله — طبعاً — في ذالك (...) لقد عالج الأستاذ عبدالله في مسرحيته مهزلة الرجعية والتعصب والملق والرياء والضعف (...) ولا يمتلك النقد الأدبي في « المرصاد » إلّا أن يعتدّهُ رائداً جريئاً موفقاً ، ويستحثّه على مواصلة كتاباته المسرحية الحقة ، فإنه — إلى الآن — أقدر كتابنا على معالجة هذا اللون المسرحي الجريْ (...) ولعل الأصداء التي تجاوبت بها النفوس من مسرحيته هذه تكون حافزاً له على كتابة مسرحية أقوى فما أكثر المواد الصالحة للمسرحيات في بلادنا) .

لم يكن الأستاذ عبدالله عبد الجبار الأول في تاريخ المسرحية السعودية ، ولكنه الأول في الجرأة على تناول موضوع حسّاس خطير في صميم المجتمع . ولم يكن الأستاذ

فلالي مالكاً لزمام النقد المسرحي وإنّما تعامل مع المسرحية على أنها قصة ... وأنها جريئة ... ومن ثـمّ خيَّبَ الأستاذ عبدالله عبد الجبار المعجبين به ، فلم يستجبْ للنداء ولم يواصل المسيرة .

وقال الفوزان ٧٠٢/٢ : (وقد كتب أدباء الحجاز الكثير من المسرحيات الشعرية والنثرية ، مثل مسرحية « أصدقاء الظروف » للعاودي و « الهجرة » للعطار ، و « في غار حراء » لابراهيم فودة ، وغيرهم . ولكن الجميع بقي رهن المؤلفات لم يمثل ...) .

ولو رجعت إلى المعجم لوجدت مادة لموضوع المسرحية عند حسن عبدالله القرشي ، وعبد السلام هاشم حافظ .

ولابدّ من الانتظار ، فما زلنا بعيدين عن العوامل الحقيقية والمفهوم المدني المتدرج ... ويكون للخليج مسرحياته ومسرحه ، في البحرين والكويت ... فضلاً عن العراق ، (والبصرة) ... وتأتي الإذاعة ، ويأتي التلفزيون ... ولابُدّ من مناهج محلية تجمع بين التسلية والموعظة ... فكانت ...

ولعل هذا اقصى ما بلغته الحال ونَحْنُ في أواسط ثمانينيات القرن الهجري — أواسط ستينيات القرن الميلادي — ولتلفزيون جدة أثَرُهُ وفضله ، ومازلْتُ أذكر مسرحية شعبية يتردد فيها اسم (مشكاص) ، وهكذا تبدأ الأشياء ، فالمسرحية ، كائنة ما كانت سعودية والممثلون ... سعوديون (حجازيون أول الأمر) ...

ولا تَنْسَ رمضان ومتطلّبات مناهجه ، وهنا تبرز (أم حدَيْجان) وهي — أي هو أبو حديجان — عبد العزيز الهزّاع — أعجوبة أحكمتها الحاجة ، لابُدّ من التمثيل في إذاعة الرياض ، ومن أين لك بالممثلين ؟ وبالممثّلات ؟ ! إنّ رجلاً نجدياً موهوباً في التمثيل ، وتقليد الأصوات وتأليف المسرحيات من الحياة اليومية ومن لاشيء ... يتولى المهمة كلها فيجيد ويجتذب ويدل على قدرة في الابتكار ... ومازال مستمراً ... ولكنه لم يتطور ... وقد مضى عليه ما يقرب من ربع قرن ... وكان يمكن أن يتطور

لو كان في غيْر ظرفه ، وحسبك أنه كان يمثل وَحْدَهُ فرقة كاملة فيها الزوج والزوجة والجدّ والجدة والأطفال ... على اختلاف في الأصوات والعقليات والأحداث .

ولايطول الانتظار – بعد اليوم – فالمظاهر المدنية تأخذ طريقها وتتزايد ، ويتثبت ما فيها من إمكان الخير . وإذا لم يكنْ في البلد دور للسينما بمعنى الكامنة ، ففي الألوف وعشرات الألوف من البيوت أجهزة صغيرة للسينما ، تعرض ما شاء أهل البيت من الأفلام ثم جاء (الفديو) ... والسينما حاجة فنية قائمة بذاتها ، ولكنها تمثيل أيضاً ... ويزداد السفر إلى الخارج ، والدراسة في الخارج ، والاتّصال بمناهج التعليم أوأساليب شغل الفراغ ومنه المسرح والتمثيل ... والكويت قريبة جداً بمسرحها وأكاديميتها وما تنقل إلى العربية من روائع المسرح العالمي .

وهكذا تتطور الأشياء في هدوء ... ولابأس هنا حتّى بالبطء ... وتبقى المشكلة الأساس في الممثلين والمرأة ، وتحل موقتاً – كما حُلّتْ في بدايات المسرح في كل مكان – بالرجل ، الولد الذي يتنكر بزي المرأة ، البنت ، كما يمكن الاستعانة و (الاستعارة) من أقطار خليجية سبقت في هذا المضمار .

وكان مناسباً أن نذكر ضمن السعي الفردي أو الطموح الفردي الذي يعبر عن شعور غير فردي بالحاجة إلى الفن المسرحي على وجه سليم ... نذكر عبد العزيز الربيع (●) وقد قصد مصر للدراسة العالية – في الأدب والتربية – ولكنه انحاز – مع ذالك – فردياً ذاتياً إلى المعهد العالي لفن التمثيل العربي في القاهرة ... فأخذ الذي استطاع أن يأخذه – والعبرة في العملية نفسها . وسيعود الربيع إلى التّعليم في المدينة ويصل منصب مدير التعليم فيها لسنوات ... ولك أن تتصور مكاناً للمسرح والتمثيل في أحاديثه ومشروعاته ... وتعليمه ... – والبقية تأتي .

– تأتي مَتَى ؟

– الآن إن شئت ... مع قليل من الصبر ... وتذكر أولاً أن النوادي الرياضية ذات علاقة بالموضوع ... وتذكر مسارح جامعية ومدرسية وتذكر أكثر من ذالك

قيام الرئاسة العامة لرعاية الشباب ... وصدور قرارها بتأسيس (الجمعية العربية السعودية للفنون) في عام ١٣٩٢ ... ثم تعديل الاسم في غرة عام ١٣٩٨ إلى (الجمعية العربية السعودية للفنون والثقافة) . مقر الجمعية الرئيسي : الرياض ، ولها فروع في جدة ، والطائف ، الدمام ، الأحساء — وتتزايد وفي مدة قصيرة جداً لتأسيسها (أصبح يلتف حولها أكثر من ثلاثة آلاف أديب فنان) ، كان ذالك عام ٩٨ — ٩٩ فكيف وكم هم — وهي — الآن ؟

تهمنا الجمعية كلها في دلالة وجودها استجابة طبيعية لشعور حي وحاجة قائمة . وتهمنا بمركزها الرئيس الذي تفرع إلى ست لجان : الثقافية ، لجنة الفنون التشكيلية ، **لجنة الفنون المسرحية** ، لجنة الفنون الشعبية ، لجنة الموسيقى والغناء ، لجنة الإعلام والنشر ..

و (تعد لجنة الفنون المسرحية العدة لنشاط مكثف من أجل تقديم العديد من العروض المسرحية ذات المستوى الجيد . وعلى هذا الأساس فقد حصلت ... على ثلاثة نصوص لثلاث سهرات ... تنتجها بالتعاون مع التلفزيون في المحطات الثلاث : الرياض ، جدة ، الدمام . ويشترك فيها أعضاء اللجنة في الجمعية وفروعها في المنطقة الغربية والشرقية) .

وكان من نشاطات اللجنة أن قدمت في المركز الرئيسي في الرياض مسرحيتَي (طبيب بالمشعاب) ، و (آخر المشوار) .

وفي فرع جدة (بتاريخ ٢٥/١/٩٨هـ تمّ تسجيل حلقة من مسرح الإذاعة الذي اشترك فيه عشرة من الفنانين ...) . في برنامج (بطاقة دعوة) وحلقة أخرى لفنانين آخرين في الشهر التالي .

وفي فرع الدمام (كان أول عمل ... هو ... مسرحية بعنوان (رقم ٣) ... من إعداد وإخراج ناصر المبارك وشارك فيها عدد من الفنانين البارزين في المنطقة (وقد أنشأ الفرع — فيما أنشأ — قاعة لعمل بروفات التمثيل والأعمال المسرحية) .

وفي الأحساء أجريت التجارب والبروفات اللازمة لعرض مسرحية اجتماعية من ثلاثة فصول بعنوان (عقاقير وعقارات) يشارك في تمثيلها عدد كبير من ممثلي الفرع من الشباب السعودي ، إضافة إلى أن فرع الجمعية بالأحساء يشارك الأندية الرياضية الموجودة بالمنطقة في حفلاتها المسرحية) .

ونذكر مسارح تابعة للنوادي الأدبية والجامعية والمدرسية .

كان هذا في عام ٩٨ – ٩٩ وسارت الأمور بعده وطيدة ... ولابُدَّ من تطور في المسرح والمسرحية ... وقد تتبنّى رئاسة رعاية الشباب تأسيس معهد للفنون الجميلة لتأتي الأشياء جامعة بين الهواية والمهنة ، وقائمة على الأسس العلمية ... وقد تبتعث شباباً إلى مواطن المسرح والمسرحية ، وقد تنتدب مختصين بشؤون المسرح والمسرحية ...

وماذا بيْنها وبين المعهد المقترح ؟ وعلى ذكر الفنون التشكيلية فقد تطورت الأمور كثيراً ، وكنا قد رأينا في بداية الغيث الفنّان عبد الحليم رضوى ... وقد ابتعدنا عن الحرام ... وعن رسم الجسم من غير رأس أو بوضع خط قاطع للحياة بين الرأس والجسد ... واعترفت المدارس بالرسم وعُنِيَتْ به ، وصار الأطفال يدخلون المسابقات ويبدعون فيفوزون بالجوائز .. – وانظر مثلاً دليل (المعرض الجماعي الأول ، للجنة الفنون التشكيلية بالجمعية العربية السعودية للفنون والثقافة ٩٨/٥/٢٤ – ٩٨/٥/٣٠ ثم الأدلة الأخرى ، والمعارض الأخرى المتوالية جمعية وفردية – والأدلة كتب ... بانتظار كتب خاصة ، وكتب نظرية وكتب في فلسفة الفن ...

ولا تترك الفنون التشكيلية . ولابُدَّ من النص على التقدم الذي أحرزه الفن التشكيلي ، وما صار للبلاد من معارض في الداخل والخارج . ومن هذه المعارض ما يرعاه المسؤولون أنفسهم بافتتاحها وتشجيع العارض فيها واقتناء اللوحات والآثار بأسعار مشجعة .

ثم نذكر دخول المرأة في هذا الميدان ، وقد دخلته من أوسع أبوابه . جاء في

« عالم الكتب » ع ٢ مج١ ص ص٢٤٧ – ٢٥١ عرض لكتاب ألفته الفنانة السعودية صفية بن زقر ، بالانكليزية بعنوان « نظرة فنانة للماضي » وفيه (شهد الفن التشكيلي في المملكة العربية السعودية خلال النصف الثاني من القرن العشرين انطلاقة تقدمية ملموسة ، حيث نهض نهضة لحتمية تاريخية ... يضم الكتاب مجموعة كبيرة من أعمال الفنانة التشكيلية صفية بن زقر (...) والفنانة صفية بن زقر لها دور لا ينكر في دعم الحركة التشكيلية المعاصرة في المملكة العربية السعودية ، فهي أول فنانة تقيم معرضاً خاصاً مع زميلتها الفنانة منيرة موصلي في مكة المكرمة عام ١٩٦٨ ، افتتحه الأمير مشعل ابن عبد العزيز آل سعود أمير مكة المكرمة في تلك الفترة) ... (الفنانة صفية بن زقر ولدت في جدة (...) أقامت ثلاثة معارض شخصية في جدة (...) ومعرضاً في الظهران ، وأقامت معرضاً دائماً في لندن ...) .

وأصدر « المنهل » عدداً ممتازاً لمناسبة بلوغه السنة الخمسين خاصاً بالفن (شعبان – رمضان ١٤٠٤/١٩٨٤ (فيه ما لم نكن نتصوره عن الرسم والنحت والمسرح والموسيقى والفلسفة) و(علم الجمال) ، ممن كتب فيه (الكاتب الإسلامي الكبير أحمد محمد جمال) في موضوع (الفن وموقف الإسلام منه) فكان مما قال : إن الإسلام كما يحرص على تقدم المعاني والمضامين عن العقيدة (...) يحرص أيضاً على أن يكون أسلوب عرضها لافتاً للأنظار ولافتاً للأفكار ومؤثراً في القلوب .. وهذا هو (الفن) أداة جمال ريشتُهُ ولوحته وموسيقاه) . ومضى (الكاتب الإسلامي الكبير) الآخر الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار خطوة أبعد في تفصيل أكثر .

هذا غير كلمة طبيعية جداً كتبها د. عبد الحليم رضوى – رئيس الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون بجدة ، بعنوان : (الفنون في العالم المتحضر) . ونزيد على هذا المقال ، بصدد د. رضوى اسم كتاب صدر له ١٤٠٤/١٩٨٣ بعنوان « الحياة بين الفكر والفن » .

ونعود إلى « المنهل » الخاص بالفن لنرى (المسرح الوطني إلى أين ؟) ... ونرى صُوراً عالمية ومحلية وإسلامية أُجيد نقلها على ورق صقيل . وتذكرنا هذه الصور

بما صار شائعاً مألوفاً في الصحافة السعودية ، وفي المجلات خصوصاً (تنظر « الفيصل » — مثلاً ...) ولا تنس النظر في مجلة « سيدتي » — مثلاً ثم ما كان من فن (الكاريكاتير) وتزيين الكتب ، والأغلفة خاصة — تنظر مطبوعات تهامة — مثلاً .

وفي المنهل الخاص بالفن مجال للمرأة تقرأ فيه مفهومها للفن ، والتزاوج بين الأدب والفن ، وتقرأ في هذا المجال : (الأزياء تاريخ وتطور) و (مسرح العرائس) ... وتقرأ : (لقاء وحوار مع الفنانة فوزية عبد اللطيف — من مواليد جدة ، شاركت في عدة معارض في الداخل والخارج — وقد تحدثت عن لوحاتها الجديدة ، ورأيها في الفنانات السعوديات : (الأخوات الفنانات صفية بن زقر وسلمى الكثيري ونوال مصلي يعبرن في لوحاتهن عن تراثنا القديم ودن يتبعن الفن الكلاسيكي (...) أما الفنانتان دينا رشدي واعتدال عطيوي فهما يتبعان الفن التجريدي (...) أما الفنانة منى القصيبي فإن اتجاهها هو إحياء التراث الإسلامي الزخرفي (...) تحياتي لكل فنانة تشكيلية أعطتْ وكرَّستَت حياتها لهذا الفن العريق ...) .

ونعود مع « المنهل » إلى المسرح لنقرأ فيه (المسرح الوطني إلى أين ؟) بقلم الدكتور عبدالله محمد الزيد مدير عام التعليم بالمنطقة الغربية : (... ولقد شاهدت نماذج منها — من المسرحيات — في الجامعات والحفلات السنوية المسرحية المدرسية ووجدت أن وضعنا يبشر بخير حقيقي ، وكل الذي نحتاج إليه هو عملية تنظيم سريعة وتنسيق بين الجهود المختلفة والمبعثرة هنا وهناك حتى يتوحد الاتجاه وتتضافر الجهود لإنتاج وطني سعودي ...) . وقال الأستاذ محمد سعيد العامودي : (أول ما نبدأ به هو ... تكوين فريق مسرحي متوفر الكفاءات تمهيداً لقيام المسرح الوطني ، ومُهِمٌ جداً لقيام المسرح الوطني) . وقال الأستاذ غالب حمزة أبو الفرج رئيس تحرير جريدة المدينة : (المسرح في عالمنا اليوم هو مدرسة جديدة) .

وطبيعي أن يدخل شيء من شؤون المسرح والمسرحية في درس النقد الأدبي من كليات الآداب ، ولكن الحال الخاصة تستدعي تعاون الجامعة مع (الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون) فيكون فيها — غير الفرق الجامعية القائمة فعلاً — درس خاص للمسرح والمسرحية ينهض به أستاذ متخصص .

ويهمنا في « المعجم » الكتاب ، ولابُدّ من وجود النص المسرحي والتقدم به في الاحتفاظ بالنصوص القائمة وطبعها في كتب وتشجيع الكتابة ورصد الجوائز للفائزين مع تشجيع خاص للمسرحية التي تكتب بالفصيحة . وقد حصل شيء من هذا .

نعود لنذكر (المؤتمر الأول للأدباء السعوديين) (١٣٩٤) ، ولا نذكره لذاته لأنه لم يتعرض للمسرح أو المسرحية وإنما لنرى الشيخ حسن سراج(●) وقد رآى نفسه منسياً ، فتألم واستشاط ثم كأنه مر بالبيت القائل :

وإذَا افْتَقَرْتَ إلَى الذَّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ
ذُخْرًا يَكُونُ كَصَالِحِ الأَعْمَالِ

وللرجل ثلاثة أعمال سابقة هي ثلاث مسرحيات : الظالم نفسه — (١٩٣٢) ، جميل بثينة (١٩٤٢) ، غرام ولادة (١٩٥٢) فلينبِّه إلى وجوده بها ، وليعتب على من نسيه أو نسيها ثم أنّ إدارة تهامة للنشر حاضرة ولكن ليبدأ أولاً بجديد ، وهكذا كانت (الشوق .. إليك) مسرحية شعرية (١٤٠٢/١٩٨٢) ثم ليرجع إلى الذخائر ، وها هي ذي تهامة تصدر « غرام ولادة — مسرحية شعرية » في طبعة ثانية (١٤٠٢/ ١٩٨٢) ، ونَبْقَى ننتظر المسرحيتين الأخريين وقد نَفَدَا ، واستحال العثور عليهما .

ثم نذكر عصام خوقير — وهو قصّاص لم نورد اسمه هناك ادّخَاراً لموضوع المسرحية — وهو صاحب « في الليل لما خلى » بمسرحياته الإحدى عشرة . ثم (السعد وعد) التي سماها « مَسْرَ — وَايَة » ولابد من أن يكون له غير هذا ...

ينظر عن المسرحية ، الفوزان ؛ وتحيل مجلة عالم الكتب على مقالة لعبدالله الماجد بعنوان : المسرحية في الأدب السعودي — قافلة الزيت مج ١٨ ، ع ٨ ، شعبان ١٣٩٠ ص ص ٤٢ — ٤٤ .

وتذكر في عدد ربيع الآخر ١٤٠١ / فبراير ١٩٨١ ص ٥٥٦ لعبدالله بوقس : «المتنبي شاعر العرب» : مسرحية من ثلاثة فصول، دار مكة للنشر والتوزيع، ١٤٠٠هـ — ٧٧ ص .

وتذكر له: الزاهد (دراسة تاريخية) عن حياة الخليفة عمر بن عبد العزيز ، جدة ، دار الشروق ١٣٩٧/١٩٧٧ ، ١١١ ص – من المسرح الإسلامي .

وفي نظرة في« دليل الكاتب السعودي » ما يزيد العلم بشؤون المسرح والمسرحية، ففيه مثلاً – لسليمان الحماد (مواليد الرياض ١٣٦٣) :« النص والإنتاج مسرحية النادي الأدبي بالرياض » ، وفيه لعبد الرحمن الشاعر (حائل ١٣٥١) : «آخر المشوار» (مسرحية) عرضت على المسرح المحلي، «حلو يا حنظل» مسرحية لم تعرض . ويؤكد الدليل ما ورد عن آثار عبدالله بو قس (مكة ١٩٣٠) .

إذاً عددت هذه المسرحيات بدايات فهي كذالك ، وهي طلائع وأول الغيث ، ولكننا نطلب ما هو أكثر فنّاً وأصلح للتمثيل ، ولا يأتي ذالك دون تفرغ وتخصص وابتعاث إلى الخارج وانتداب من الخارج ... فقد صار الأمر واقعاً ، وجدّ الجد . وننتظر من النوادي الأدبية التفكير الجازم بإنشاء النص المسرحي ، ولا بأس من أن تُرْصَد جوائز له ... لتتضافر جهودها مع (الجمعية) ... وكان الأستاذ عبد العزيز الربيع – رئيس نادي المدينة المنورة– يدرك جيِّداً مثل هذه المهمة ، وقد رأينا عوامل الإدراك في مجرى حياته الدراسية في مصر ثم رأينا أدلتها في مقدمته لكتاب صدر عن النادي بعنوان : « الفنون التعبيرية – المسرح ، الموسيقى ، السينما » – وإذا كان الرجل قد توفي ، فلن يموت أثره . ويمكن للنوادي أن تستزيد المحاضرين المختصين ... أَوْ تتعاون هي والجمعية على إرسال من يدل على (موهبة) في الكتابة أو التمثيل إلى مواطن المسرح ليطعّموا الاستعداد بالعلم ، حتى لو كان الابتعاث لمدة محدودة لا تشترط الشهادة ...

وفي منهج (الجمعية) و (النوادي) العناية بالتراث الشعبي ... ولهذه العناية في (المملكة) تاريخ ... وبداية ... لم تخفَ على متصفح « المعجم » ... فلقد (تجمد) الإبداع الأدبي في الجزيرة قروناً طويلة بعد عصور الريادة الرائعة والازدهار العجيب . لقد غاضَ الشعر ، وقُلْ : غاضت الشاعرية لأن النظم لم يَمُتْ ، والذين يملكون

المفردات الفصيحة .. ويعرفون البحور ويَقْدِرُون على الرَّصْفِ الموزون المقَفَّى موجودون على أيَّة حال ، وهم في الغالب العلماء (في الدين) والشيوخ (في النحو واللغة) ، ولا تعدم مع ذالك انفعالاً يدخل الموزون المقفَّى لحزن أو فرح أو حماسة لمذهب أو دعوة إلى معركة ... ومن ذالك ما صار دواوين ، ومن الدواوين ما طُبع ، ومنها ما سيطبع ، ويبقى الأساس في قيمته : التاريخ .

الأدب الشعبي – الشعر العامي – القصص – الأمثال : –

أما السائد من النظم ، في نجد والبادية خصوصاً ، فهو باللهجة العامية وقد عرف بالشعر النبط ، وفي هذا النظم – وقل الشعر النبط (أو النبطي) – يمكن أن تجد تجويداً وأصالة ، ودلالة على الشاعرية والموهبة ، ثم إنه عزيز على أهله وسامعيه ، كائناً ما كان ، لأنه مفهوم ولأنه يعايشهم وفيه أحداثهم ومواقعهم وأنسابهم ومشاعرهم ... فهم يحفظون ويتوارثون روايته وكثيراً ما صحب إنشادَهُ إعجابُ المنشِد ، وإعجاب السامعين ، ويبرز فيه أعلام تذكرهم المجالس وتفخر بهم القبائل ...

ومن هنا ترى عناية العصر الحديث به ، فتجرد المؤلفون لجمعه وحفظه ودراسته وإخراج الكتب التي تقيه الضياع ... وكانت الكتب غير قليلة وعني الشيخ عبدالله بن خميس (●) به عناية المعجب الواثق من قيمة ما يجمع ويدرس ، ونذكر له كتابه « الأدب الشعبي في جزيرة العرب » – وقد أعيد طبعه ، ثم « راشد الخلاوي : حياته وشعره – حكمه – فلسفته » ، الرياض ، دار اليمامة ١٣٩٢/١٩٧٢ – ٣٨٢ ص ؛ وكتاب « أهازيج الحرب وشعر العرضة » الرياض ، ١٤٠٢ – ٣٦٨ ص . ولن يقف الشيخ ابن خميس من الشعر الشعبي عند حدٍّ .

وإذا كان سباقاً في الدراسة فقد وجد قبله رُوَّاداً في الجمع والاستقصاء منهم خالد الفرج وعبدالله خالد الحاتم ومحمد بن يحيى ومحمد العمري ثم « الدرر اليتيمة في أشعار النبط القديمة » لناشر مجهول و « الأزهار النادية » ..

ولم يقف الأمر عنده وعندهم وتستمر سلسلة « الأزهار النادية من أشعار البادية »

التي يصدرها محمد سعيد حسن كمال(●) صاحب مكتبة المعارف بالطائف ونذكر مكتبة النهضة ، وما يؤلفه سعد بن عبدالله بن جنيدل وتصدره له جمعية الثقافة والفنون عن شعراء العالية خاصة . — من أعلام الأدب الشعبي ، وعبد العزيز الأحيدب ، وفهد الرشيد ... وبرز أبو عبد الرحمن ابن عقيل في العناية (الصارخة) بما هو عامي وشعبي ، وفي مقدمته الشعر .

وللشعر النبط غير ما يستعذ به فيه أهله من إحساس بالتجويد ... ما يكون مصدراً للدراسة التاريخية، وهذا ما نادى به الشيخ الجاسر وكرر النداء بشرط الدقة في ضبط الرواية والحرص عليها كما هي في لفظها وتركيبها دون زيادة أو تغيير أو تصرف .

ومن إعجاب القوم بالشعر النبط أو من الاستجابة لهذا الإعجاب والاهتمام كان له في إذاعة الرياض برنامج خاص دائم ...

ولي على هذا وذاك تعليق قصير ونصيحة صغيرة ... أما التّعليق فهو أن ليس كل ما كان نبطياً كان جَيِّداً أصيلاً فلابُدَّ من نقده ومن أن يتولى ذالك صاحب ذوق ومراس ... خدمة لجيل جديد يسمع الشعر النبطي ويرى الإعجاب ... دون أن يرى مَوَاطِنَ الإعجاب أو أن يرى مَوَاطِنَ للإعجاب .

ثم إنَّ الجيد من شعر النبط عندما يوجد ، يوجد في قديمه أوّلاً ، يَوْم كان سائِداً ، وله شعراؤه الذين يعدلون شعراء الفصيحة بوجه من الوجوه ، أو هكذا ينظرون إلى أنفسهم وينظر المجتمع إليهم ... أما هذا الذي ينظمه معاصرون لنا ، وفي أغلبهم مثقفون ... فهو ليس شعرا نبطاً بمعنى الكلمة ، وأولى أنْ يميَّزَ باسم الشعر العامي أو ما أشبه ثم إنه كله — أو — جُلُّهُ — فاقِدٌ للنكهة الفِطْرِيَّةِ التي يتمتع بها الجيِّدُ من شعر النبط . وها هي ذي النَّصيحة تختلط بالتعليق ... : التمييز ، والتذوق الصحيح ، والحكم العادل ... رإني كثيراً ما استمعت إلى برنامج الإذاعة وقلما وَقَعْتُ على الجيِّدِ المستجاد ، ولكني كنت دائماً أسمع الإعجاب يُكَال بغير مِكْيالٍ ... للجديد المتكلف المصنوع فضلاً عن القديم لأنه قديم أو مشهور أو يسجل حادثة غريبة في الحرب أو في الغرام ...

كاد جمعُ الشعر النبط يَسْتَنْفِدُ غايته ومَنْجَمه وإنْ بقيتْ بقيةٌ على الأيدي أن تصل إليه قبل ضياعها ...

ومن التراث الشعبي الأمثال وكان للأستاذ عبد الكريم الجهيمان والشيخ محمد بن ناصر العبودي في جمع الأمثال المذكور المشكور ... قبل ١٣٩٠/١٩٧٠ وبعده طبعاً وإعادة طبع – ومدارُها الأول : نجد .

ثم يدخل الشيخ أحمد السباعي الميدان فيكون له : «الأمثال الشعبية في مدن الحجاز» (تهامة ١٤٠١/١٩٨١) وهو تحت الطبع لدى تهامة ثانية . ويلحق به حسين عبدالله محضر بـ « الأمثال العامية في مكة المكرمة » – مكة المكرمة ، نادي مكة الثقافي ، مطابع مؤسسة مكة للطباعة والإعلام ١٣٩٩ ، يحيى إبراهيم الألمعي – «الأمثال الشعبية في المنطقة الجنوبية » (عسير) ، مطابع الرياض ١٤٠١ .

ومازال الموضوع يحتمل الزيادة في الجهد ... والمملكة أوسع من نجد والحجاز ... فهناك الشرقية وأمثالها ، وجازان وأمثالها ... وعسير وأمثالها ...

ومع الشعر والأمثال : الحكايات ... ورأينا في المعجم من تَنَبَّه إليها . ونذكر مرة أخرى الأستاذ عبد الكريم الجهيمان مع محمد سعيد حسن كمال مع فهد المارك ... ومازال الباب مفتوحاً ...

ونذكر هنا مما وصل إلينا العلم به من ثمرات (جمعية الثقافة والفنون) في سلسلة (المكتبة السعودية) : « حكايات من الماضي » تأليف محمد بن زبن بن عمير – الرياض ، مطابع الفرزدق ١٤٠٢ – ٢٢٨ ص . و « مأثورات شعبية » تأليف محمد العبودي – الرياض ، مطابع الفرزدق ١٤٠٢/١٩٨٢ – ٣٨٨ ص .

وستقوم – وشرعت تقوم – على التراث الشعبي دراسةٌ ودراسات في فنونه المختلفة وفي دلالته التاريخية ... وفي لهجاته وصلتها بالفصيحة ... إلى جوار جمع التراث نفسه في مواقع مازالت غير مشبعة .

ونذكر هنا : « الأدب الشعبي في الجنوب » (تهامة – جزءان) للأستاذ محمد ابن أحمد(●) العقيلي ، أشرفت على إصداره دار اليمامة ، و « معجم اللهجة المحلية لمنطقة جازان » له ، ج ١ ، صدر في منشورات « تهامة » بجدة ...

وللمرأة مكان من التراث الشعبي ، الشعر ، ومن هنا كان كتاب « شاعرات من البادية » للأستاذ عبدالله بن ردّاس ...

وفي المعاصِرات من تقول الشعر بالعامية ويرد هنا اسم سلطانة السديري التي رأيناها شاعرة بالفصيحة كذالك فهي ندا ، ولها ديوان في الشعر الشعبي – يقول دليل الكاتب السعودي – إنه تحت الطبع ، ويزيد أن لها كتاب « صور من المجتمع » يتضمن حكايات من واقع البيئة السعودية . ويذكر ساعاتي أنه طبع في بيروت ، دار الآفاق الجديدة ١٩٧٥ – ١٤٢ ص .

وطبيعي أن يقع الاهتمام – ومنذ البداية – بالأدب الشعبي على أنه نشاط قام وحدث ، والحرص عليه كالحرص على غيره من مظاهر الحياة فضلاً عما قد يكون فيه من جمال وجودة ... ولا يمرُّ ببالِ المعنيين به منافسة اللغة العربية الفصيحة أو الجور عليها أو الدعوة إلى العاميَّة بديلاً عنها ...

اللغة – المجمع اللغوي :

هذا هو الطبيعي ، ومع ذالك لا تعدم من يضيق بالعاميَّةِ حرصاً منه على الفصيحة وغيرةً ، وإذا لم يعلن الضيق عن نفسه صريحاً في هذه الأيام ، فإنه لابُدَّ من أن يُحسب حسابه ، بل إنه صرح في الماضي القريب يوم كانت السيادة للعامية – والجهل – وكان المخلصون في بداية النهضة تهمهم يقظة الأمة ، والفصيحة جزء لا يتجزأ من الأمة ويقظتها فكيف إذا كان القائمون بالنهضة أدباء ويريدونها نهضة أدبية كما هي نهضة سياسية واجتماعية ...

أجل ، هي نَهْضة باللغة الفصيحة بعد كبوة وخمول وضمور ، ولا يكفي

هذا الذي يدرسه (الشيوخ) فقط فهم – مهما يبلغوا في العدد – فئة محدودة مقفلة ، واللغة كيان حيٌّ ، يُرَادُ لها العموم ، ويراد لها النص الأدبي المبدع الجديد ، ومجالات التأليف الواسعة ...

ولك أن تُلِمَّ بما كان يكتب في مطلع النَّهضة في الحجاز قبيل العهد السعودي وبُعَيْدَهُ لترى الغيرة على اللغة ، ولغة الأدب والكتابة والتأليف ... وكان من آثار ذالك في « المعجم » كتاب لمحمد سرور الصبان : « المعرض » (ولا تعدم من أنْ تَسْتَشِفَّ خلاله من يمنح العامية أهمية خاصة) ، وكتاب عبد القدوس الأنصاري : « إصلاحات في لغة الكتابة والأدب » ...

وقد نجح السعي – مع عوامل أُخرى – في لغة أدبية تناسب النهضة ، وتدل على الجدة ، ولك من أمثلتها ما ورد في كتاب « أدب الحجاز » و « وحي الصحراء » ... ومن يدري فقد يكون في التنبُّهِ إلى حماية الفصيحة ما ورد عن مصر من دعوات إلى العامية ... ولكن مصر لم تصدر تلك الدعوة وحدها ، وإنَّمَا صدرت الجيد من الفكر والإبداع ... والسليم من اللغة في الشعر والنثر ... والتأليف والصحافة ... والعرب في كل مكان يتأثَّرُوْن بذالك ، وينتفعون ... وتحسنت اللغة الأدبية على وجه ملحوظ ، سبقت إليه الحجاز وشتّان بين الشعر والنثر قبل النهضة وبعدها ، ثم لحقت نجد والشرقية ... والموازنة بين لغة عهدين قائمة والفروق لا تخفى ...

وفي مصر – كما في الشام – مجمع اللغة العربية ... فليكن للسعودية مجمعها اللغوي وأعلنت الدعوة إليه – وربما كان الأنصاري الأول – أو من الأوائل – في الدعوة مع كثير من الثقة بالنفس وبالنتيجة . ولكن مجمعاً للغة ليس أمراً سهلاً ، ولابُدَّ له من عدد من العلماء باللغة يَفِيْهِ حقه ، ويقوم برسالته . ولم يكن هذا العدد بالمتهيّىء ، ومن هنا تصدَّى للدعوة منْ لَمْ يقبلها على إطلاقها ... وقد يكون الأول في التَّصَدِّي – أو من الأوائل – الشيخ حمد الجاسر . ووقفت المسألة عند هذا الحد .

وظلَّت تردد بين حين وحين ، وربَّما أُسِيْىءَ فهم موقف الجاسر ، فَعُدَّ

مضادّاً للدعوة جملةً وتفصيلا ، وما هو بذاك ، وحانت فرصة إلى أن يوضح ما هو عليه ، وكأن الدعوة سابقة لأوانها وإن تقدم الزمن بمصلحتها ، وسواء كان هذا أم ذاك فليكن المجمع ، مجمعاً علمياً – على غرار المجمع العلمي العراقي مثلاً – فيه اللغوي واللغويون ولكن فيه – مع ذالك المؤرخ الجغرافي والفقيه ... والطبيب والفيزياوي ... يتعاونون ويتكاملون وقد صار للبلد – بعد ما قطع من خطوات علمية – العدد الذي يفي بالمطلوب ويوفي القصد .

وفي اللغة يذكر من جيل (الشيوخ) الذين أولوها عناية خاصة – وقد فقدنا الأستاذ عبد القدوس الأنصاري– : أحمد عبد الغفور عطار ، أبو تراب الظاهري ، عبد العزيز الرفاعي ، محمد سعيد العامودي ، عبدالله بن خميس – مع الاعتذار عن الجهل بالأعلام الآخرين .

ثم جاء جيلٌ جديد ، جامعي ، طليعته الدكتور حسن شاذلي فرهود ... وآخرون ... ومن الأكثر شباباً الدكتور محمد حسن باكلا ... وآخرون ممن لم تتهيأ لي معرفتهم أو تسعفني بهم الذاكرة . ولا تنفصل الدراسات الأدبية عن اللغة ، وللبلد في هذا خير وفير ... ولا تستغني اللغة العربية عن مُتَخَصِّص بلغة أجنبية ... وستجد في عزيز ضياء من يجمع الحسنيين . كما يستفيد من محمد إسماعيل الصيني وعزت عبد المجيد خطّاب ... ثم يكتمل (المجمع العلمي) ببارزين من العلماء في الفروع المختلفة ويتمكن الدكتور عبدالله الدفاع تمكناً مرموقاً مؤيداً بالمؤلفات اللازمة في مادة التراث العلمي للعرب ... وهكذا يتوزع المختصون إلى أعضاء عاملين ، وإلى أعضاء لجان يدعو العاملون إلى إنشائها .

لم يبق عذر للتأخر – إذَنْ – وقد كثرت المجامع العربية ، ولابُدَّ من التعاون ولا عجب بعد ذالك أن يرفع الشيخ الجاسر صوته مطالباً بالمجمع العلمي ، وأن يخطو الخطوة الرسمية بتقديم الطلب ... وأفلحت الجهود من حيث الشكل إذ صدر الأمر الملكي بإنشائه (في رمضان ١٤٠٣) وبقي الشروع بالتنفيذ ، وذالك آتٍ ، وسيكون مجمعاً لا يقل عن نظائره في الأقطار العربية إن لم يزد على بعضها من بعض

الوجوه ... وتلتقي المجامع في الخطوط العامة لوحدة العرب ، وتفترق قليلاً لدن توجه المجمع منها لخصوصية القطر الذي ينهض فيه .

ويبدأ حينئذ نشاطه في الدرس والبحث والنشر والتحقيق ... وستكون له مطبعته ومجلته ومطبوعاته ، ونرجو له سلفاً استمرار النّشاط والترفع عن الركون إلى (الهدوء) الذي يحدث لدينا عادة عندما نبلغ هدفاً ما ، وكأن بلوغ الهدف — القريب — غاية في نفسه ، وكل شيءٍ .

رابطة — أو اتحاد — للأدباء :

واقترنت دعوة الشيخ الجاسر بدعوة أخرى ، هي دعوة إلى رابطة الأدباء السعوديين ، لم تتحقق شكلاً مع حصول وجهٍ من مضمونها قبل الدعوة ، ومن ثمَّ لا يستحيل مزج الشكل بالمضمون فلا يوجد بلد متقدم من غير جمعيات أو أندية ، وقد كانت للجمعيات (بوادر) قبل العهد السعودي على شكل أهلي من منتديات ومجالس و (دواوين) بيوت ثم كانت جمعيات ، منها ما رأينا من جمعية الإسعاف ... ولكن لم تكن ذات مفعول ودوام ... ثم سادت النوادي الرياضية أولاً (وأخيراً) ولم يعد بُدٌّ من توجُّه خاص للأدب ومن اتحاد للأدباء أو رابطة ، والأدباء يريدون ذالك ، والدولة لابُدَّ لها من أخذ زمام المبادرة ... ولا يخلو قطر عربي من مظهر من هذه الظواهر ... زيادة إلى مجالس لرعاية الآداب والفنون في عدد منها . ومن هنا كان ونحن في أخريات ١٩٦٣/١٣٨٣ قرار مجلس الوزراء رقم ٢٥٨ بتشكيل مجلس أعلى لرعاية العلوم والفنون والآداب ، ومن ثم قرار وزير المعارف (الشيخ حسن آل الشيخ رئيس المجلس) الموافقة على اللائحة الداخلية . وتم تشكيل المجلس وعين له أمين سر دائم . ولم يسمع مؤلف « المعجم » عما حقق المجلس ، وربما كان ذالك لأن المجلس لم يصدر مطبوعات أو لِبُعْدِ صاحب المعجم عن مجرى الأحداث .

والأدباء في تكاثر وتجويد ، ونشاط واطلاع على ما لِرُصَفَائِهِم في الأقطار العربية من عوامل الاجتماع والالتقاء ، وتلحظ المملكة ذالك وتدركه ولابُدَّ من

تحقيق الرغبة بوجه من الوجوه ، وتصريف الشكوى بطريق من الطرق . وكان أقرب ما قام ، دعوة كلية الآداب بجامعة الملك عبد العزيز بجدة إلى « المؤتمر الأول للأدباء السعوديين » فعقد فعلاً خلال ١ — ٥ ربيع الأول ١٣٩٤ ، وقال الرئيس الأعلى للجامعة وزير المعارف — الشيخ حسن آل الشيخ : (الأدباء هم الأُمناء على التراث ، والعاملون بكل طاقاتهم وجهودهم لكيما تبلغ أمتهم ووطنهم المنزلة التي تليق بهما ...) .

ومرت الأيام الخمسة في نشاط وحماسة يتعاقب في أثنائها الأدباء على المنصَّة شعراء وباحثين ومفكرين .. وكانت التوصيات من منهج اليوم الخامس ... وفي التوصيات : أن المؤتمر يُوصي بحصر مصادر الأدب السعودي ، وإنشاء كرسي لمادة الأدب السعودي وإصدار دليل شعري ، وإحداث مؤسسة تتولى النشر — غير التوصية بإنشاء مجمع علمي سعودي .

ولم تكن في التوصيات إشارة إلى مؤتمر ثانٍ ، ولم يُعقد مؤتمر ثان . وكان من محاسن المؤتمر الأول إصدار وقائعه عن جامعة الملك عبد العزيز بخمسة مجلدات تكون مصدراً مُهِماً لدارس الأدب السعودي وإطْرَافاً من هموم الأديب السعودي . وربما كان في التوصيات نص على إنشاء نظام (الإيداع) .

ولكن (المؤتمر) كائناً ما كان لا يشبع الرغبة ولا يحقق الطموح ... وإذا كانت النوادي الرياضية مرتبطةً بالرئاسة العامة لرعاية الشباب ، فلتُنْشَأ ، (وقد أنشئت عام ١٣٩٥/١٩٧٥) مؤسسات خاصة بالأدب في طول البلاد وعرضها — قدر الإمكان — ولترتَبِطْ بالرئاسة العامة — إلى جوار النوادي الرياضية والجمعية العربية السعودية للفنون (وقد تأسست في ١٣٩٣/١١/٢٦ ٪ ١٩٧٣) حتى لو كان في أعضائها شيوخ ورُوّادٌ من أمثال أحمد سباعي ومحمد حسن عواد وعزيز ضياء ، وحمد الجاسر ، على أن تُسَمى نوادي ، فهذا النادي الأدبي في الرياض وهذا في المدينة المنورة ، مكة المكرمة ، جدة ، الطائف ، جيزان (جازان) القصيم ، أبها ... بانتظار فُرُوع أخرى ، الباحة . وقد تكون ذات يوم في تبوك والأحساء

أو القطيف ... تنظر في المعجم مادة نادي ، جمعية ... وللجمعية وقد عدل اسمها في غرة عام ١٣٩٨ إلى « الجمعية العربية السعودية للفنون والثقافة » ثم عدل إلى ... للثقافة والفنون — مطبوعاتها ، وللنوادي مطبوعاتها ؛ وهي كثيرة العدد ، ليست قليلة الشأن مع طموح إلى الأحسن وطمع بالأعمق .

أقول : في هذه النوادي والجمعيات شيء غير قليل من مضمون دعوة الشيخ الجاسر ، ولكنه ليس المضمون كله ، ولابُدَّ من مزج المضمون بالشكل ، وللشيخ الجاسر آراؤه في تلك الدعوة وتجاربه . وقد أذاعها صريحةً حرصاً على المملكة نفسها ، فقد رأى الأقطار العربية كلها تتمتع بما يسمى رابطة الأدباء (كالكويت) أو اتحاد الأدباء (العراق) ... وهذه الرابطات (الاتحادات) ذات كيان متميز ، وتجري فيما بينها المراسلات والمزاورات ثم إنهم ليجتمعون من حين إلى حين على شكل منظم — أو طاريْ — باسم المؤتمر ، ومؤتمر أدباء العرب ، ويكون للاتحاد منها كيان متميز ضمن الإطار العام للأدب العربي . فَلِمَ وكَيْفَ تَبْقَى المملكة غريبة على هذا التنظيم ، معزولة عن أخواتها من الأقطار العربية الأخرى ؟ ... ألا يُوجد فيها العدد الكافي من الأدباء ؟ بلى يوجد . ألم يكن أدباؤُها مجيدين ؟ بلى . لم تَبْقَ — إذنْ — إلا الدعوة إلى إنشاء رابطة للأدباء السعوديين وأن يعلن الشيخ الجاسر هذه الدعوة ويكررها مقرونة بالأسباب الموجبة — والشيخ الجاسر حريص على سمعة المملكة ، مؤتمن فيما يقترحه عليها .

وقد يكون في دعوة الشيخ الجاسر استجابة لإحساس يلمسه لدى الشباب خاصة في طماحهم إلى مثل هذه الرابطة (الاتحاد) وكأنَّ النوادي — متفرقةً — لا تُعَوِّضُ عنها ولا ترفع اسمهم إلى الدرجة التي ينشدونها بين أسماء أدباء الأقطار العربية الأخرى ، ولا تقع لدى المفاتحات موقع الرابطة — الاتحاد — ولا تَسُدُّ مَسَدَّها .

وأحسب أن خطوة أولى سهلة لتَحْقيْق نحو هذه الرابطة — الاتحاد — هي أن تتكون من النوادي القائمة لجنة عليا تدرس الموضوع وتضع النظام الرابط بينها ، ولتكن هذه اللجنة — أو لجنة منتخبة نظيرتها — الرابطة أو الاتحاد ، وتكوِّن النوادي بعد ذالك الرابطات أو الاتحادات الفرعية ...

وتكون للرابطة ــ الاتحاد ــ المطبعة والمجلة والمطبوعات ...

ولا بأس في أن يبقى اسم (الرئاسة العامة لرعاية الشباب) هو هو أو أن يتحول إلى (الرئاسة العامة لرعاية الآداب والفنون والرياضة) ... أو أي شيئ من هذا ... كوزارة الثقافة التي دعا إليها الشيخ عبدالله بن خميس أو وزارة الثقافة والشباب ...

ونعود فنقول : المهم المضمون وليس الشكلي ، والمهم الأعمال لا الأقوال ... وأسمع خلال الإذاعة السعودية وأقرأ في الصحف ... ما يدل على أن (الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون) بدأتْ أكثر نشاطاً ، وأنّ النوادي الأدبية بدأتْ أكثر نَشْراً ... وأن صلة إدارا تها بالأدباء تضعف شيئاً فشيئاً ، وأنها لم تعمل على استقطاب الجمهور . فإذا صح ذالك ، ولابُدّ من أن يصح شيء منه ، ويطلب الشيء الثاني تحقيق الطموح والرعاية الصحية ، فليس بالصعب تدارس الموقف وتدارك الحال .

والرابطة ــ أو الاتحاد ــ آتية على أي حال .

وإذْ نَصِلُ المجمع اللغوي العلمي والرابطة ــ الاتحاد ... نتذكر أمراً قد يكون تأخّر مكانه من هذا الاستعراض : هو الترجمة . ومفروض بنا أن نقدِّرَ خطرها ونمنحها حقها من الاهتمام إذ شئنا زيادة في التقدم واستدراكاً للفائت واستفادة من تجارب الآخرين ، واختصاراً للوقت ودلائل على الإبداع في الأدب والفن والعلم ... والفكر ...

الترجمة .. والمترجمون ..

ونبدأ بالبداية ...

وكان في العرب الذين عملوا مع الملك حسين من يجيد لغة أجنبيةً أو أكثر ، ومثلهم الذين عملوا مع الملك عبد العزيز ، ومنهم من تكرر وجوده في العهدين ...

وتفخر « المنهل » وهي تستعرض فتوحاتها في الكتاب الفضي لها (١٣٦٩/١٩٦٠) بعنايتها بالترجمة وتذكر بين الأسماء الأولى في هذا المضمار محمود عبد الوهاب

(ولد بمكة المكرمة وتعلم بمدارسها . وقد أسهم مدة من الزمن في الصحافة المحلية بمقالاته الأدبية والتاريخية . ثم تفرغ للعمل التجاري بمكة المكرمة – المنهل الخاص) .

ثم جاء (نصر) من خارج البلاد الجزائري : أحمد رضا حوحو (●) وما ترجم فيها من قصص .

وربما كان في المنهل آخرون ... ولابُدَّ من أن يكون آخرون ونحن نعرف من أدبائها محمد علي قطب (●) .

وكأن الصحافة تهمل أمر الترجمة إهمالاً تاماً إن لم تكن قد أهملته ، فهكذا هي كما رأيتها في ثمانينيات القرن الهجري / ستينيات القرن الميلادي . ومضى الأمر على ذالك ... ولكنه بدأ أخيراً – وربما منذ – خمسة الأعوم الأخيرة من القرن الرابع عشر الهجري / ١٩٧٥م يستيقظ ، فإنك واجد الترجمات في هذا العام في مجلات الفيصل ، الخفجي ، إقرأ ، اليمامة ، المجلة العربية . وربما عنيت بالترجمة الأعداد الأسبوعية من الجرائد .

وكنت أدعو – وأنتظر – أن تستخرج تلك الترجمات من قلب المجلة (أو المجلات) لتكون كُتُباً ، وليَعُمَّ النَّفْعُ ، ولم أكن على ضَلال ، ولابُدَّ من أن يكون آخرون على هذا الرأي . ومن هنا كان طلب الأستاذ عبد الرحمن المعمر (وهو أديب ، مؤلف وأحد صاحبي دار ثقيف للنّشر والتأليف) إلى الأستاذ محمد علي قطب أن يسمح بجمع ونشر ما نشر له بمجلة المنهل من قصص مترجمة ، فاستجاب ، فكان الكتاب الذي صدر في شوال ١٣٩٨ / سبتمبر ١٩٧٨ باسم « كانتفرستان وقصص أخرى » . أتُرَى هذه كل ما ترجم الأستاذ محمد علي قطب ؟ لم لا يترجم لنا جديداً ؟ لم لا ننشر القصص الأخرى التي ترجمها غيره في « المنهل » أو في غير المنهل ؟ فتلك ثروة وفائدة وكتب .

ورأينا في المعجم أحمد عبد الغفور عطار ومن ترجماته « الزنابق الحمر » لطاغور ، والمفتش لغوغور (جوجول) ... ولكن الأستاذ عطار ابتعد عن الأدب

ـ إنشاءً وترجمة ـ شيئاً فشيئاً وتحول إلى اللغة والإسلاميات والتاريخ والسياسة . وفي هذا التحول كانت ترجمته لبروتوكولات صهيون ـ وقد بلغت ط ٨ .

ويقفز إلى الذهن في خفة ورصانة اسم الأستاذ عزيز ضياء(●) وقد تكرر الحديث عن عمله الجيِّد باللغة الانكليزية ، وربما زيد على الانكليزية : الفرنسية والتركية . ولا غَرْوَ ، فهوأديب مرموق بالعربية ، وتهيأ له أن يعيش اللغة الانكليزية ويغرم بأدبها وفكرها وما نقل إليها من آداب أخرى ...

الأستاذ عزيز ضياء ما بَالُهُ لا يُتَرْجم ؟ ولا ينشر ما يترجمه في كتاب . إنه من من مواليد ١٩١٤ وقد تقدم شَيْئاً في السن ونال من الشهرة الأدبية ما نال ... أما تراه قد ترجم ونشر هنا وهناك دون أن يبلغ علمي ما ترجم أو نشر ؟ ممكن ... حتى إذا قارب القرن الرابع عشر أن ينتهي وقامت دار تهامة للنشر والتوزيع استثارته فكان أن أصدرتْ له النافع والطريف والممتع ، وكان قلمه مُتَمَيِّزاً بين ما صدر في الأقطار العربية . لابُدَّ من أن يكون في الذي نشره بعد ١٤٠٠/١٩٨٠ ما كان ترجمه من قبل ... والذي صدر له كثير جليل استدركناه في المعجم رغم تأخره عن الحد المحدود للنهاية . وعزيز ضياء ، سيد؟ قبل ١٣٩٠/١٩٧٠ دون شكٍّ . ولقد رأيت له في المعجم : « عهد الصبا في البادية » ، و « النجم الفريد » ، و « قصص من سومرست موم » ، و « قصص من تاغور » ج ١ ثم رواية جورج أورويل « العالم عام ١٩٨٤ » (في شعبان ١٤٠٤ / مارس ١٩٨٤) ـ ، وبانتظار المزيد ، فما قلم الأستاذ بقاصر وما دار تهامة بِمقصرة . ولا تنس ما نشرت له من حكايات مترجمة للأطفال وما ستنشره منها . وهي في حدود عشرين قصة وتزيد .

وتهامه نفسها نشرت لحمزة بوقري : « بائع التبغ » (مجموعة قصصية) سلسلة الكتاب العربي السعودي (٢٩) ، جدة ، دار الأصفهاني للطباعة بجدة ١٤٠١ ـ ١٩٨١ ـ ١٣٥ ص . (وبالمناسبة ، مناسبة أسف خبر وفاته ، وقد فقدنا الأستاذ حمزة بوقري مرَّتَيْن ، وكانت الثانية النهائية بعد أن استأنف نشاطه الأدبي في التأليف وأصدر : « محمود تيمور والقصة القصيرة » عام ١٤٠٠ عن دار الرفاعي) .

وزادت تهامة أن أسهمت جادة في التأليف عن قضايا سعودية باللغة الانكليزية فكانت لها في ذالك سلسلة خاصة ، ومما نشرته (Who's Who) (وقد أفدنا منه في طبعته الثالثة) .

وأحسب أن المثقف السعودي لم يطمئنّ تمام الاطمئنان إلى جَدْوى التّرجمة وإلى مفعولها في إذكاء الفكر وإثراء الإبداع وتقريب المعرفة ... أحسب لأنّي أرى كثيراً من الشباب المثقف المتخصص يعود من جامعات أوربا وأمريكا ومعه الشهادات العالية والعليا ، وفي تخصصات مختلفة منها ، ما لايكاد يَمُرُّ ببَال ... ولكن التّرجمة وكأنها هي هي ، تراوح في مكانها فضلاً عما في البلاد من جامعات ، وما في هذه الجامعات مع أقسام للغة الانكليزية ... وأساتذة للأدب الانكليزي نفسه ...

وأستطيع أن أُعَدِّدَ من الأسماء الكثير المجيدين بَدْءاً من زملائي الكرام الأوائل في جامعة الملك سعود : أحمد محمد الضُّبَيْب ، منصور إبراهيم الحازمي ، محمد عثمان الصالح ، عبد العزيز عبدالله الفدّا ، محمد عبد الرحمن الشامخ ... ثم من جاء بعدهم وبعدهم وانتهاء بما لا نهاية له .

أتَلَفَّتُ فلا أجد إلّا القليل ، على ما في هذا القليل من جودة تزيد في الأسَف وتُضَاعِفُهُ . وفي الكثيرين منهم لم يترجم رسالته ، وقد ترجم الحازمي قسطاً منها – فيما يبدو – وترجمها الشامخ أقساطاً موفقة ثم أصدرها كاملة ، موسعة ، تكرر طبعها ثلاث مرات ، ط ١ ، ١٩٧٥/١٣٩٥ ، ط ٣ ، ١٩٨٣/١٤٠٣ ... ونبقى ننتظر ، ولم يخيِّبْنَا الضُّبَيْبُ إذْ ترجم عن ت . م جونستون كتاب « دراسات في لهجات شرقي الجزيرة العربية » (١٩٧٥/١٣٩٥) .

ذكرنا الزُملاء العائدين من انكلترة ، وليست الانكليزية وحدها المقصودة بالتّرجمة ، ومن الزملاء الدكتور أحمد خالد البدلي الذي حصل على الدكتوراه من جامعة طهران في ١٣٨٦/١/٢٤ في « دور الشعر الفارسي في الدعاية المذهبية من منتصف القرن الخامس الهجري إلى أواخر القرن السابع في إيران » .

(للحديث صلة) الدكتور علي جواد الطاهر

الحيوانات في بلاد الرّوَلة

[للمستشرق ألويس موزل (ت . ١٩٤٤م) (*)

تعريب : د. محمد بن سليمان السُّديس]

الحيوانات الآكلة لِلُحوم :

تستوطن المراعي التي يرتادها الرُّوَلَةُ حيوانات شتّى ، فيعيش الفهدُ بخاصةٍ على المرتفعات شمالَ شرقيٍّ منخفضِ السِّرْحان ، وكذالك في نواحي (الحزِل) .

والقُرْطَةُ حيوانٌ مفترسٌ شبيهٌ بالقطِّ الوحشيِّ ، فلا يختلف عنه إلا في كونه أضخم حجماً ؛ ولونه أصفر قاتم ؛ وله أذنان مصلومتان، تنتهيان بخصلة من الشعر الطويل المستقيم ، يستوطن (الحجرَه) و (اللّبّتَةُ) . وهو يتربص بالغزلان ، ويُخفي نفسه عادة في شجرة (الحِمْرِي) . وإذا حرك النسيم الشَّجَرَ اهتزتِ الشعيرات التي على أُذُنَيْه ؛ فتنخدع الظباء وتدنو منه ، فيقفز على متونها ، ويغرس براثنه في حناجرها ، ويَمْتَصُّ دماءها .

وتسكن أعداد كبيرة من الضباع (المفرد : الضَّبْعَة) جحوراً في سلسلة (الطَّوِيل) . وهي تَجْبُن في النهار ، لكنها تجوب الأرجاء كلها ليلاً ، فتفتح الأجداث ، وتلتهم الجثث ، وتهاجم الإبل الجرحى أو العليلة ، بل وتفترس الرُّضَّعَ وهم يبكون . ولها ثلاثة فراعل أو أربعة[1] . وإذا رأى البدو أثراً جديداً لضبُع قُرْبَ جُحْرٍ أحاطوا به ، وأحْضَرُوا رِشاء طويلاً ، وعقدوا في طرفه أُنْشوطة ، وطلبوا من أحدهم دخول الجحر للبحث عنها . فيُدْخِلُ الصيّاد يَدَه اليسرى

في الأُنشوطة ، ويزحف على بطنه ، ويَجرُّ الحبل خلفه ، ويتحسس بيديه في كل جهةٍ حَذِراً بحثاً عن الحيوان . وحالما يمسك بها يصيح : إنها ليستْ هنا ! هذه ليستْ هي ! ليست هنا ! لقد عثرت على قطعةِ شَنٍّ بالٍ ، لكنها ليست هنا ![*] . ويضع في الوقت نفسه الأنشوطة في عنـــق الضبع ، ويزحف خارجاً . وبعد إيماءةٍ مُتَّفَقٍ عليها يَجُرُّ رفاقه الضبع خارج الجُحْر ، ويذبحونها ، ويأكلون لحمها .

ولحمُ الضباع الصغار ، التي يكون عمرها نحو ستة أشهر ، والتي تعيش مع أمها بخاصةٍ شَهِيٌّ .

وأسنان الضبع إذا عُلِّقَتْ حول العنق تحمي الأطفال من الأسقام المختلفة . وإذا مُزِجت مَرارةُ الضبع بِماء وشُرِب خفف حرارة الحمَّى[٢] ! .

والذئب مُوْلَعٌ أيَّمَا إيلاعٍ بزيارة الكهوف والصدوع الصخرية . وتزحف الذِئْبة داخل جحرِ الضبع المهجور حين تكون على وشك ولادةٍ وحسب .

أما من حيث اللَّونُ فإن الذئبَ لَيُكَيِّفُ نفسه للمحيط الذي يستوطنه . فهو بُنِّيٌّ غامق (أسحم) في المناطق البركانية ، وبُنِّيٌّ خفيفٌ مُشْرَبٌ بخضرةٍ (أزرق) في صحراء النفود ، ورماديٌّ مُشْرب بزرقة (أشهب) في سهول الْحَمَاد والأودية .

وتستخدم جلود الذئاب لعمل الرَّبابات (المفرد : الرَّبابَة) أو (الفِسْولات) ذات الوتر الواحد التي يضحي لها عندئذٍ نَغْمَةٌ مرتفعة[٣] .

وتجلب عينُ الذئبِ سعرًا باهضًا جدًّا لأنها تَحْمِي من أعظم الأخطار[٢] . والذئب يفهم كلام البشر فهماً تامّاً ، فقد كان هو في وقت مّا إنْسَاناً ، وكان اسمه سرحان ، وكان يمتلك الأغنام والماعزَ قاطبةً ، فاقترف خطيئة كبرى مُسخ بسببها ذئباً ، واستولى الإنسان على ماشيته ؛ لكن الذئب ما فيء حتى الآن يَعُدُّ

المَعْزَ والأغنام ملكه الذي لا يشاركه فيه مشارك .. ويُكِنُّ عداء للرعاة وكلابهم ، لأنهم يحولون بينه وبين الاستمتاع بماله .

قال ذئبٌ ، ذات مرةٍ ، لكلبِ غنمٍ : (اللّيلِه عَشايِه راسْ مالْ) أي : سأتَعشّى الليلة من مالي ! ، فأجاب الكلب : (إنْياعَشّوني هَلِي أفِكّها لا تذُوْقَها !) أي : إذا عشاني أهلي فسأمنع مالهم من أن تذوقه ! .

أمّا من لم ينل الكلبُ عَشاء كافياً فإنّ الجوع يضطره لِلْعَسِّ في أرجاء الحيّ التماساً للطعام ، فيتمكن الذئب من نهب كل ما تطلبه نفسه .

خرج بدويٌّ مرةً على جمله طلباً للغنيمة ، فلقي ذئباً منطلقاً مثله في التماس غُنْمٍ ، فاتفقا على أن يتعاونا كأخوين (تَخاوَوْا هُوّ والذّيب) ؛ فأقْعَى الذئبُ على البعير خلف الراكب . وحينما نام الراكب تولى الذئب رعي البعير . ولما دَنَوَا من تَلٍّ عالٍ (مِرقابْ) تُرَى من قمته أماكِنُ قصِيّةٌ ، زحف الذئب إلى أعلا التّلّ وأجرى (مَسْحاً) شاملاً للأرض من شتّى نواحيها . وأخيراً لمح إبلاً لقبيلة معادية ترعى ، فيمّما شَطْرَها حَذِرَيْنِ ، ثم ترك الراكب جملَهُ في أخدودٍ مُنْزَوٍ ، وانسَلّ معَ الذئب نحو الإبل . عدا الذئب على الرّعاء الذين ما أن رأوه حتّى قبضوا على أسلحتهم ، وانطلقوا إثره ، وقد تعالت صيحاتهم . وما أن اختفوا عن الأنظار حتّى انتقى البدويُّ أفْرَه الإبل وركبه قاصداً الأخدود . أما الذئب فمضى قائداً الرعاة بعيداً عن قطيعهم ، ثم عاد إليه مسرعاً ، وغرس براثنه في حلقِ قَعودٍ كان مُغَطّىً بجلدِ قعودٍ آخر ، ثم جرّهُ إلى الأُخدود .

(يسمى جلد القعود من هذا النوع (بو)[٤] وإذا ولدت ناقة قوية ، كانت تحلب مدة طويلة حليباً وافراً ، ولدت حواراً ضعيفاً ، فصله المالك عن أمه وذبحه ، وربط قطعة من جلده حول رقبة قعود آخر ونحره ؛ فتشم أم القعود الذبيح الجلد ، وتخاله ابنها ، وتمكنه من الرضاع ، وبذلك لا يجف لبنها مع حزنها ، بينما تستمر أم البعير الحي في معاملته كما لو كان ابنها . فتتبنى كل من الناقتين الحوار وترضعانه ، وللمالك أن يحلب كلا منهما) .

وحالما لمحت الناقتان حوارَهُمَا وقد مضى به الذئب ، انطلقتا في إثْرِهِ ،

ودخلتا الأُخدود وَخيداً(*) ، حيث عقلهما البدوي ، ثم ساقهما غنيمةً باردة إلى قَطِينْه . أما رفيقه الذئب ، الذي لم يشأ أن يجازف بحياته بدخول القَطِين ، فكمن في صدعِ صخرةٍ قريب ، وانتظر أن يأتيه البدويُّ بنصيبه ، وذالك ما غفل الأخير ، على أيةِ حالٍ ، عن فعله ! . وبعد يومين شرع الذئب يعوي : (عَوّو ، عوو ، عَوِّشْني !) . فنحر البدويُّ في الحال إحدى الناقتين ، وأحضر الأمعاء والنَّحْرَ والقوائم ووضعها للذئب وراء القطين .

وبعد أن تحدث البدويُّ في بيت الشيخ عن هذا الأمر أبلغ الحضور بأنه سوف يعاقب من يمس رفيقه الذئب بأذى .

وكان في الحيِّ فتى يتعلم الرماية . فلما رأى الذئب نَسِي التَّهديد ، وصوّب بندقيته نحوه فأرداه صريعاً . فما كان من البدوي إلا أن انتقم لأخيه الذئب وقتله به . وقد قال كبار السن جميعاً : إنّه كان مصيباً . وقد شرح البدي ي [موقفه قائلاً] :

(تخاوَيْتْ انَا وْذيبِ سرحان ، يا ويّا خَوِيِّي ما خلَّى خَوِيِّي) (*) .

أي (لقد تأخَيْتُ وذئباً سرحانَ فيا ويلي إن أخي الآخر لم يدعْ هذا الأخ) ! .

والسِّيب هو ولد الضبع من الذئب . ويعيش في الأراضي المتاخمة لبئر (الشَّقِيق) . ويهاجم البشر وإن لم يُهَيَّجْ .

والظَّرِبان (الظَّرْبول) حيوان أصغر من الكلب ، له متن أصفر باهت وبطنٌ أسودُ ، ورأسُ كلبٍ ، وأسنانٌ كأسنانِ الإنسَان ، وذيل طويل ، ولجلده رائحة مميزة ، وهو يقيم في جحور يحفرها لنفسه ، ويلتهم اليرابيع والفئران والحرابيّ .. إلخ . ولحمه يؤكل .

وإذا وجد بدوي ظَرِباناً مختبئاً في جُحْرِه صاح به : (كُرَّ الظَّرْبول كُرَّ الظربول) أي : قِرَّ أيُّها الظَّرِبان ! قِرَّ أيُّها الظَّرِبان ! .

ويعيش الثعلب (أبا الحصين ، الثَّعْلب ، أو الغُريرى) في كل مكان في منطقة الرولة . وإذا رؤي أَثَرُهُ في الصباح في الطل أُطْلِقَ كلبُ صيدٍ (سْلُقَة) في أثره . ويؤكل لحم الثعلب المصيد(*) .

ويحمل الثعلب ضَغينةً شديدةً لبني البشر لمطاردتهم له ؛ ويتَّهمهم بنكران الجميل . لقد وجد آدمُ الأبُ الأول لبني البشر كُلِّهم ، ذات مرةٍ ، أُفْعُوَاناً نصف متجمد خلف جنة عدن . وقد هزته الشفقة فوضعه في صدره ، وعاد به إلى جنّته . ولما شعر الأُفعوانُ بالدِّفء ،وأبَلَّ من سُقْمه ، صاح بآدم : عُدْ بِي حالاً إلى حيث أخذتني ! إنَّ عائلتي هنالك ! وإن لم تَحْملني وتَعُدْ بِي الآن فلألْدَغَنَّكَ ! . ولم يستطع آدم تذكُّرَ البقعة التي التقط الأفعوان فيها بعينها . فظل يسير تارةً إلى الأمام ، وتارةً إلى الخلف ، ومعه الأفعوان الذي ظل يصيح : ليس هذا موطن أُسرتي ! عُدْ بِي إلى هناك حالاً ، وإلا فسألدغك ! .

وقد سَرَّ آدمَ ، الذي بلغ منه الإعياء والخوف مبلغهما ، أن لقيهما ثعلبٌ ، فعرض على الأفعوان أن يكون الثعلبُ حكماً بينهما ، فوافق .

جلس آدم أمام الثعلب مجلس المدعي ، وشرع في إيضاح القضية ، لكن الثعلب قاطعهُ قائلاً : اصمتْ حتى يحضر خصمك . (قال) : إن خصمي هنا . قال الثعلب : إني لا أراه ! قال الأفعوان : أنا هنا . أنا مضطجع على بطن آدم تماماً ! . قال الثعلب : إذا كنت خصم آدم (قبيليه) فعليك أن تجْلس في مواجهته (قبيليه)، وإلا فلن اعترف بك بهذه الصفة . حسناً قال الأفعوان : إذنْ سأزحفُ خارجاً .

خرج الأفعوان من تحت ثوب آدم وجلس أمامه . ثم قال الثعلب : سأسَمِّيك أيها الإنسان (نَيْصُوب) فتيقَّظْ لتفهم كل شي ! . أمْسِك براس الأفعوان يا نَيْصُوب ، به ! . لكن (يا نَيصُوبْ به) تعني : (أوه . ضربة عليه) .

فهم آدم ما أراد الثعلب ، وقبض على هراوته التي كان لها عُجْرة ثقيلة (قنا) ، وهشَّم بها رأس الأفعوان .

ومُذْ ذالك الحين وأبناء آدم يقتلون كل أفعى يقع عليها نظرهم . لكن لما بدأوا يطاردون ذرية الثعلب أيضاً ، ويأكلون لحومها ، اشتكى الأخير قائلاً : (أَخْسَ يا اسَيْوِد الراس ! ليه اتَنَاكر ، تِسْلَى المَلِيح ! (أي : يا للعار عليك يا أُسَيْوِدَ الرأسِ ! لِمَ أُطَارَد ؟ ! أذالك لأني جوزيت لعملي المعروف) (٦) .

ويعلن الثعلب أنه يودُّ مسالمة الجميع ، لكنه في الحقيقة يرغب في خداع الجميع ! . فقد قام مرةً — مثلاً — ببعث رسالة للغراب : (أبْغِي أَكْرُمْ لك) أي ؛ يسعدني أن أقيم وليمة لك . قال الغراب : (زين أكْرُمْ) أي : حسناً اصنع لي (كرمة) أي (وليمة) . فقام الثعلب بِغَلْيِ عصيدةٍ وصَبَّها على صخرة منفرشة ، ثم دعا الغراب ، فجاء ، فحثه الثعلب قائلاً : (أَفْلِحْ يا صاحْبي) أي : تفضل يا صاحبي ! وبدأ في الحال يلعق العصيدة السائلة على الصخرة (الصفا) بينا لم يستطع الغرابُ الجائعُ رفْعَ شيء بمنقاره . فقال في نفسه : هذه إذَنْ هي ضيافة الثَّعْلب الحسنة ! . لكنه لم يُبْدِ للثعْلب استياءه ، ودعاه للتشريف بزيارته لتناول تمرات حُلْوة الطعم . فسال لعاب الثعلب ، إذ كان شغوفاً بالتمر الحلو ، لكنه لم يكن يجدْ إلى جَنْيِها سبيلاً لكونها مدلاةً من علوٍّ لا يستطيع الوصول إليه ؛ ولطالما كان يرغب في عَقْد صداقة مع الغراب من أجلها وحسب ! .

ألقى الغراب أطيب التَّمَرَات وأنْضَجَها في جوفِ شجرةٍ متشابكةِ الأغْصَان ، ذاتِ أشواكٍ طِوالٍ حِدادٍ (قتَادَة) ، وقال عندئذ للثعلب : (أَفْلِحْ ياصاحْبِي) : فأخذ الثعلب يطوف بالشجرة محاولاً استخراجَ ولو تمرةٍ واحدةٍ بلسانه أو بقدمه دون طائل . لقد جرحت الأشواك قدميه ، فظل يرقب الغراب الذي كان يَسْتدني التمراتِ تمرةً تِلْوَ تمرةٍ بمخالبه ، ثم يلتقطها بمنقاره .

ومذ ذالك الحين اعترف الثعلب بالغراب على أنه نِدٌّ مساوٍ له .

والثعلب مغرم بأكل الحبوب ، لذالك دعا القنفذ (القُمْفُذ ، والجمع القنافذ) لمشاركته في حرث حقلٍ وبذره قمحاً ، فوافق القنفذ ، وشرع مع أفراد

أسرته (لديه أربعة وعشرون طفلاً) في العمل ، فحرثوا التُّربة ، وبذروا القمح ، وتولوا حراستهُ من المعتدين . وكان الثعلب يأتي من حينٍ لآخر ضَابحاً ليلقي نظرة عليهم وهم يكدحون ، ولم يُعِنْهُم أية إعانة . لقد قطع لهم على نفسه وعداً بأن يتولى حصاد القمح ودَوْسَهُ وذِرَايته ، لكنه ترك هذا العمل أيضاً للقنفذ .

فلما دِيْسَ القمحُ وذُرِيَ ، قال الثعلب للقنفذ : سنتسابق ، ومن يَسْبُق صاحبه من جحري إلى كُوم القمح فالقمح كله له . نحن صديقان فلِمَ نقسمه ؟ فهز القنفذ رأسه موافقاً . وكان شروق شمس اليوم التالي هو موعد بَدْء السباق .

وفي الليل أحضر القنفذ زوجَتهُ وصغاره الأربعة والعشرين إلى كوم القمح ، وأسند زوجه عليه ، ومضى رأساً إلى جُحْرِ الثعلب ناصباً أطفاله في أماكن بعينها على طول الطريق حتّى وصل إلى الجحر وحده .

ـ يا والدي الثّعلب ! لقد طلعتْ ذُكاء ، ألن تعدوَ ؟ .

ـ أُعْدُ أنتَ فسأدركك ! .

ـ حسناً سأعدو .

ولما عَمَّ الدفء وجَفَّ الطلّ ـ أي في وقت الضّحى ـ قفز الثعلب من وجاره وصاح : أين أنت يا قنفذ ؟ ! .

ـ هنا . قدام وجهك ! .

وقد دهش الثعلب لرؤيته القنفذ أمامه . وانطلق مهرولاً بكل ما استطاع من قوة ؛ وكان القنفذ ما فتِئ أمامه ؛ فاشتد عادياً لكن القنفذ ما فتِئ أمامه .

وكان جسم الثعلب يتفصد عرَقاً عندما دنا من كوم القمح لِيُلْفِي القنفذ قاعداً عليه ! .

وهكذا انتصر القنفذ على الثعلب ! .

وشاءت الثعالب يوماً مصادقة الكلاب ، وبعد أن اجتمعتْ وتحدثتْ معاً ، كتبتْ رسالة طويلة وصفت فيها حُبَّها للكلاب ، وإخلاصها لها ، إضافةً إلى شغفها بالسلام وتعلقها به . وبعثت تَتْفُلاً (ثعلباً شاباً) ليسلِّم الرسالة إلى زعيم الكلاب . وما كادت قدما الثعلب الموفَدِ تطآن حدود بلاد الكلاب حتى لحظه الحرَسيُّ . فانطلقت إثره خمسة كلاب . فصاح الثعلب قائلاً : إنه أتى ليفاوض الكلاب من أجل السلام ، وأراها الرسالة ، لكنها لم تصدقه . فألقى الرسالة إليها لعلها تقرؤها . لكن الكلاب مضتْ في الهَرِير والاندفاع خلفه غاضبةً دون إعارة الورقة البيضاء أدنى اهتمام . لقد ابتهج الثعلب المندوب لأن نجا بجلده ؛ وفرَّ لا يَلْوِي على شيء ، ووصَل إلى أصحابه والدم يسيل من الجروح الكثيرة التي أصابته ، والعرق يغطي جسده كله . ولما استعاد نشاطه سألته الثعالب : وماذا عن الرسالة ؟ فأجاب : لم تصدِّقْها الكلاب . قالت الثعالب : ماذا ؟ ! لمْ تصدقْها؟ ! فَلِمَ إذن ختمناها بِخَتْمِنا ؟ ! قال : إن الكلاب لا تَحْفِلُ بختمكم . لقد أريت خمسةً منها الرسالة ، ولم يك من بينها من يحسن القراءة أو الكتابة ، لكنها جميعا تحسن أن تَهِرَّ وتَعَضَّ كما ترون مني ! .

الحيوانات الكبيرة آكلةُ العُشْب :

يعيش (البِدَنُ) أو (الوَعَلُ) ذو القرون الطويلة القوية في جبال (الرّواقْ) و (الشامةْ) و (الطّويل) و (الهُوج) . وإن هبط إلى السهل لم يَنْجُ من الكلاب ، لكنه في الجبال لا يُبارى . ويتقفر الصيادون آثاره الحديدة في طريقه ليلاً إلى المرعى ، فيكمنون في صدع صخريٍّ وينتظرون مروره . ويخرج أحياناً خمسةُ نَفَرٍ أو أكثر لصيده ، فيتقدم أحدهم في موازاة قمة الجبل ، ويسير الباقون بحذاء جانبه ، ويكون بين كل منهم والآخر مسافة معيَّنة ، ويُجِدُّون البحث في النهار عن المكان الذي تأوي فيه الوعول إلى الراحة .

وللوعل بَصَرٌ كليلٌ جِداً ، لكنه يتمتع بحاستَّيْ سمع وشمٍّ جيدتين .

وتحمي الأنثى صغارها بِرَوْقَيْها .

ويصل حجم بقرة المها أو (بقرة الوحش) إلى حجم عِجْلٍ قد أتمّ عامه الأول . وهي بيضاء ، ولها قرنان مستطيلان حادّان تذود بهما عن نفسها الكلاب . وهي شديدة الولع بزيارة الحفر الشبيهة بالقموع (المحاقن) الموجودة في صحراء النفود نهاراً ، أما في الصيف ، حين لا يقطن البدو في النفود ، فإنها ترعى بحرية تامة حتى في وضح النهار ، بينا لا تخرج للرعي في موسم الأمطار إلا ليلاً ، وتكون خائفةً تترقب ؛ وإن هُيِّجت شَرَدَتْ يوماً تاماً دون توقف .

وبَصَرُ المها كَلِيلٌ ، فيستطيع القانصُ الذي يرتدي لباساً أبيض اللون أن يدنو منها إلى أن يصبح على مرمى البندقية إن تقدم في اتجاه مضادٍّ للريح ، وخلف جوادٍ أبيض أو بعير .

ويدعى الذكر منها (ثور) ، والأنثى (بقَرَهْ) ، والصغير (عِجِلْ) .

ولحمها ذو طعمٍ لذيذٍ جداً .

وتتخذ من الجلد القِربُ والألحفة . ويتخذ البدو قُفَّازًا (دَرَقِهْ) من الجلد السمين الذي في قفا عنق المهاة (المعروف بالعَرْعَرَه) ، لحماية اليد من جراح السيوف .

وتؤلف الظباء (الظَّبي) أسراباً كبيرة (جِمِيله) في الحَمَاد ، وفي منطقة (المَناظِر) في حدّ تَدْمُر الجنوبي بشكل خاص .

ويسمى الذكر (تيسْ) ، والأنثى (عنز) . والصغير (خِشف) أو (غزال) .

وإن كان الغزال أبيض فهو (ريم) ، وإن كان بطنه أبيض ، وظهره يميل إلى الصفرة فهو (عِفْري) ، و إن كان ذا صبغة قرنفلية فهو (حِمْري) .

وخَيْرُ قَنَّاصي الظباء رجالُ قبيلةِ الصّلَيْب . وطريقة قنصهم المفضلة أن يشترك في عملية القنص رجلان يقوم أحدهما بالحَوْش (حَوَّاش) ، والآخر

بالصيد (قنّاص) . والذي يتولى تَهْييجَ الظباء وحَوْشها يلفُّ حول ركبتيه ومرفقيه جُلُوداً (حبّايات) ، ويزحف نَحْوَ سرب الظباء مُحاوِلاً حَوْشَها نحو الرامي الكامن . ويصيدان عادةً من عشرةٍ إلى عشرين ظبياً في اليوم الواحد .

وتُحاش الظباء في (المناظر) نحو حظائر عديدة ، فيبنى حائط حجري يبلغ ارتفاعه نحو متر ونصف على شكل العدد ثمانية (8) دون مِلاط . ولا يبنى من الدائرة السفلى إلا نصفها ، وتترك فتحة ضيقة (ثِنيّه) أو (ضيق) حيث تلتقي الدائرتان . وتكون أجزاء الحائط التي تغلق الحلقة العليا أقصر قليلاً في أماكن متعددة من أجزاء الحائط الأخرى . وتحفر حفرة يتراوح عمقها بين المترين والثلاثة عند كل من هذه الأماكن خارج الحظيرة . ويُحاش سربُ الظباء بِحذرٍ إلى الدائرة السفلى التي لم يتم بناؤها . ويجري ذالك سريعاً لأن أحد الحائطين على بعد نحْوِ ألفِ خطوة من الآخر . فتتقدم الظباء بهدوء في باديْ الأمر ، لكن بعد أن يصيبها الذعر ، فيما بعد ، تعدو بحذاء الحائطين محاولة أنْ تنفذ بأسرع ما يمكن من خلال الفتحة الضيقة في الدائرة العليا المقفلة إقفالاً تاماً ؛ وحالما تعدو داخلةً تنقفل الفتحة الضيقة ، ويهجم عليها كلب صيد (سلْقَة) ، فتظل الظباء المذعورة تعدو حول الحائط ، وتقفز عليه من لدن أقصر موضع منه ، فتتساقط في الحُفَرِ التي خارج الحظيرة .

ويقال : إن الظباء تَحلُمُ بالفتحة الضّيقة التي تمرق من خلالها إلى هلاك محقق (الضّيق)(٧) . وإذا شاء بدوي إيقاف ظبيٍ فارٍ صاح به : (الضّيق يا غزال !) أي : إن الفتحة الضيقة أمامك أيها الغزال ! فيتوقف الغزال في الحال ويلتفت .

وإذا لمح بدويٌ ــ وهو يؤدي عملاً هاماً ــ غزالاً فإنه يَفْرَق من سوء الطالع ، ويصيح : (غزال ! غزال ! وشرٌ زالَ !) .

الحيوانات الصغيرة :

تستوطن الأرانب أنحاء بلاد الرولة كلها ، وتكون بيضاء بياضاً قرنفلياً

في صحراء النفود ، وسوداء في الأراضي البركانية ، وصفراء صفاراً رمادياً في الحماد ، ومن هنا لا يمكن تمييزها عن محيطها . ويسمى الذكر (خُزَز) ، والأنثى (عِدْنِه) ، والصغير (خُرْنِق) . ولا يصل حجم الأرنب إلى مثل حجم الأرنب البرية الأوربية . وهي تطفئْ ظمأها بالطَّلّ فقط ، كالغزال وبقرة الوحش .

وإذا دنا إنسان من الأرنب الْتَصَقَتْ بالأرض ، أو اخْتَبَأت وراء جُحْر في مرج كثيف الشجر ، ولا تبدي حراكاً حتى وإن اقترب الإنسان منها اقتراباً تامّاً ، لكنها إن تبينتْ أن الإنسان قد عاد فإنها تلتمس النّجاة بالاندفاع كالسَّهم .

قيل إن الأرنب تفتخر قائلة : (أنا الشَّرْما ، بِقَاعَة القَرْما ، مِشْبِعْ أثنين ومِلْغِّم الثَالِثْ) أي : أنا الشَّرْمَاء (أي ذات الشفة المشقوقة)[٨] ، في السهل ذي النباتات الجافة ، مُشْبِعَةُ اثنين ومُسيلة لعاب الثالث . أو قائلةً : (أنا شْجيرَتِي خَفِيَّهْ ، ووبِيرْتي ضَفِيَّهْ ، ولا يِشُوفِنِي كُودْ راعي البلِيَّهْ) أي شجيرتي – أي التي أختبيُ تحتها – خفية ، ووُبَيْرَتي – تصغير (وبَرَة) دافئة[٩] ، ولا يراني سوى من يريد ابتلائي[١٠] .

وإذا نفرت الأرنب صاح بها الرولة : (وَبْرَه وَبْرَه ، وبالنار مِنْشَبْره) أي : (أيتُها الأرنب ! أيتُها الأرنب ! النار مأواك !) .

وإذا عَرَضت الأرنبُ للقانصين بالصقور صاحوا : (عَرَضْتِينَا لِخَيْرْ ، وعَرَضْنَاكْ لَلِطَيْر) أي : (إن اعتراضك دَرْبَنا لَفَأْلٌ حسنٌ ، لكنّا سنعرضك للبازي) .

ويستوطن الخنزير البَرِّيْ منطقة تَدْمُرَ ، وضواحي الأزْرق ، دون غيرها ، حيث يكمن في الأجَمَات السَّبِخة . ويدعى الذكر (شِهِلْ) ، والأنثى (شِيبه) ، والخنزير الرضيع (قرنوص) . ويستخدم الرولة كلمة (تهزير) بدلاً من (خنزير) . ولحم الخنزير الوحشي يؤكل على وجه العموم[١١] .

و (صيد الطَّسْعَه) حيوان آكل للعشب ، حجمه حجم حَمَلٍ عُمْرُهُ ستة أشهر ، ولونه رمادي ، ويقال : إن أسفل رأسه يشبه أسفل رأس الكبش ، وأعلاه يشبه أعلا رأس الإنسان . ولا يكاد يوجد إلا في حدٍّ (النِّفود) . ولحمه لذيذ جدًّا .

ويستوطن الْوَبْرُ الجبالَ التي يقطنها الوعل نفسها .

و (النَّيْص) متوفر بوجه خاص في المناطق المحيطة بـ (القَعَرَه) حيث تكون الكهوف والفجوات الصخرية العديدة ، ذات الأحجام المتنوعة مأوى له ، وهو إذا جُرِحَ هاجم الإنسان عضًّا وجرحاً . ولحمه لذيذٌ جدًّا (!!) .

ويصاد القنفذ أيضاً لأن لحمه ذُو طعم شهيٍّ جدًّا . ويُرْبَط جلدُهُ حول أعناقِ الإبلِ السريعة الإجفال ؛ ويقال : إنه بعد شهر من ربطه لا يعود الخوف يعرف طريقه إلى قلوبها [٥] .

والْجِرْدِي — بالدال المهملة — نوع من اليرابيع (كذا !) كثير الأصناف [١٢] . وهو يحفر حُفَرًا عميقة في المرتفعات ، ويصنع لها ممرات على شكلٍ يمنع الماء من اختراقها حتى خلال أغزر الأمطار . ولحمه ليس بلذيذ .

والجربوع (أو : اليربوع) نوع ذو أصناف عديدة ، وهي أصغر من سابقتها حجماً . وتؤثر حفر جحورها في الأراضي المنبسطة ذات التربة الرملية الناعمة . وتصنع ممراتٍ طويلةً تميزها تحت السطح مباشرة ، وتعــرف هذه المرات بـ (النَّطَّاقه) ؛ وإذا دخلتْ جحرها سدَّتْ مدخَلَهُ مباشرة بكوم صغير من الطين (قَصْعَه) خوفاً من الثَّعابين . فكوم الطين هذا أمارة لا تخطئُ على أن اليربوع في بيته .

وإذا أراد البدويُّ صيده ثَبَّتَ عِصِيّاً أو أعواداً في الممر في مواقع متعددة ، ثم انتظر إلى أن يتحرك أحدها ، وهذا يبين له أن اليربوع يحاول الخروج زحفاً

فيقتله بعصاه ، أو يطؤه . وإذا لم يستطع الانتظار وطيْ المرات (فَهَدَم سقفها) ليخرج الجربوع . فإذا أخفق البدويّ في إصابته بالعصا التي يرميها فإنه غالباً ما يخترق سقف المر مذعوراً ويفرّ .

إن لحم اليربوع لذيذ جدًّا ، فهو كلحم الفروج . يسلخ الجلد ، ثم تشوى (الذبيحة) كلها مع الأمعاء ، ويلقى بأسفل القدمين وحسب .

فَاخَرَ اليربوعُ (الجِرْذِى) فقال : (أنا الْجَرْبُوعْ إبِن المَرْبُوعْ ، مُعَشّيً عَشَرَه مَعْ عَشِرَه ، وقَصَالِيْمي على الشَّجِرَهْ) أي : أنا الجربوع ابن المربوع ، مُعَشّي عَشَرَةٍ (مع عشرة آخرين)[١٣] ، مع أن قوائمي ملقاة على الشجرة . وقال أيضاً : (لَوْ إيْدَيَّهْ طُولْ رِجْلَيَّهْ ما تَلْحَقْني كل عَبَيَّهْ !) أي : لو كانت يداي بطول رِجْلَيَّ لما استطاعتْ عتاقُ الخيل أن تدركني ! .

فقال الجِرْذى : (أنا الجِرْذِى إبْنَ الجِرذى ، رَمَّاي المِلْبِس بالخَبَارَى !) أي : أنا الجرذ بن الجرذ ! أنا الذي أُلْقِي الفارس المستلئم في جحور الفئران ! .. ذالك أنه إذا وقعت حوافر الحصان على جحر جُرَذٍ عميق تعثّر وطرح راكبه أرضاً .

كانت أنثى اليربوع توصي صغارها . فمما قالته :

فُزْ بْنَفْسَك إن شُفِت ضَيْمٍ   وخلَّ الدَّارْ تَنْعَى لِمِنْ بناها
الدارْ تَجِدْ داراً أخَيَر مِنهــا   وَروحَكْ لَمْ تَجِدْ رُوحْ سَوَاها

أي : انْجُ بنفسك إن رأيت ضيماً ، واترك الدار تبكي على من بناها
أما الدار فستجد خيراً منها ، وأما نفسك فلن تجد نفساً سواها

الْباحَلَّ الثّقيــل بِدار قومٍ   وما للســاكنين إلا الرحيل[١٤]

ويعيش الفأر في كل مكان . وهو يدخل البيوت ويذهب بالطعام ، بل إنه أحياناً ليقرض حتى الناس وهم نائمون . وأنشد بدوي :

١ ــ أنا اسْهَرَتْني تَالْيَ اللَّيلْ فارَهْ   تاخُذْ زَهابِي بَمَّ جِحْرَهْ تْوَدِّيهْ

٢ ـ ضَرَبْتُها قَصْدِي لَهَا بالفِقارَهْ   مِن جُودْ مِلْحِي راح دَمَّهْ يْبارِيه
٣ ـ وَادْخُل على حَصْنان وْشيخ الوَبَّارَهْ   والله يضيِّعْ من يْخَلِّي عَـوانيهْ
٤ ـ أمّا انتْ ياظَرْبُولْ مابِكْ حِماره   أقصى جودَك بْطارِف الجُحُرْ تفليهْ

أي :

١ ـ لقد أسهرتني في آخر الليل فأرة تأخذ طعامي وتنقله إلى جحرها ،

٢ ـ ضربتها (برصاصة) قاصداً إصابة فقارها ، ولجودة ملح بندقيتي فقد أصابتها الرمية وذهبت بدمها مع الملح .

٣ ـ وسأستجير بالثعلب والوبْر ، أضاع الله من يتَخَلَّى عمن يستجير به !

٤ ـ أما أنت أيها الظَّربان فلا خيرَ ولا شجاعة فيك ، وأقصى ما تصل إليه شجاعتك حَدَّ جُحْرِكَ ... ...

كان بدويٌّ نائماً في الخلاء خلال غارة له . وكان زاده موضوعاً على مقربة منه ، فاستيقظ ووجد فأراً يسرق منه ؛ وليخوِّفَه صَوَّبَ فوهة بندقيته ، التي كانت محشوَّةً ملحاً فقط ، نحو أعلى ظهره لكي يسفع شعر جلده ، لكن الملح كان حديداً ، فاخترق الجلد ، وانسفك الدم في الحال . ولخوف البدويّ من انتقام الفئران لجأ إلى الثعلب طالباً جواره ، وإلى رئيس الوُبور (جمع الوَبْر) المشهورة بعدم التخلي عن مَحْمِيِّها (عوانيه) ، والذين يشملون الجار (القَصِير) ، والرفيق في السفر (الخَوِي) ، والضيف ، بالإضافة إلى اللاجئ إليهم المستجير بهم (الدَّخِيل) ؛ فعاتبه الظَّربان (الظَّرْبُول) لعدم لجوئه إليه في الفلاة ، لكن البدوي ازْوَرَّ عنه ساخراً بقوله إنه (أي الظربان) حتى حين يسرح إلى المرعى لا يجرؤ على الذهاب إلى أبعد من حدود جحره ، فمن أين له الشجاعة ليحميَهُ بها من انتقام الفئران ! .

وتتحسر الفأرة قائلة : (أنا الفَارَهْ بِنْتْ الفَارَهْ . قَطَعَتْ إيْدَيْهْ المِحْفَارَهْ) .. أي : شَوَّهَ يَدَيَّ المِعْوَل ! .

وألدُّ أعداء الفئران ، بلا منازع ، النِّهِرُّ .

كانت أمُّ الفئران تخشى أمَّ القطط . وذات مرة كانت تزحف في سقف بيتٍ فلمحت القطةَ في أسفله ؛ ولِشِدَّةِ ذُعْرِها تخدَّرت أقدامُها ، وذكرت اسمَ الله ، كما يذكر الأطفال اسم اللهِ إذا عثَروا تماماً(١٥) ، وقالت : لئِن حَمَيْتَني ياربِّ من هذا الكائن ، فلن أطلب حمايتك مرة أخرى ! . ومن أجل ذالك غضب الله عليها ، وازدردتْها القطة في غَمْضَة عين ! .

ومرةً عقدت الفئرانُ اجتماعاً عامّاً ، واتفقتْ بالإجماع على أنه يجب أن يُقَلَّد كلُّ قِطٍّ جَرَساً صغيراً يحذِّرُ الفئران . فابتاعتْ أجراساً صغيرةً كثيرةً ، ودعا رئيسُها (كبير الفار) أشْجَعَها للتقدم لتعليق الأجراس في أعناق القطط . وحتى الآن لم يتقدم (لأداء هذه المهمة) فأرٌ واحد . وظلت الأجراس ملقاة في مخزن الفئران . وما برحت القطط تعذب هذه المخلوقات البائسة .

ويستوطن حيوان الخُلْد (الخَلِنْد) منخفض السرحان على وجه الخصوص ، وهو ذو لونٍ رماديٍّ قليلاً .

كان خُلْدٌ قاطناً مع بُومَةٍ و (رُقَيْعي)(١٦) وضِفْدعٍ (ضَفْعَه) وعَثَّةٍ (شِراره) ، ونزل بهم مَرَّةً ضيف ، فظلوا ساهرين على راحته قياماً بواجبه لأنه كان ضيفهم جميعاً . ولما ظهر نَجْمُ الصباح ، سُرِقتْ مطيتهُ . وما كاد مضيِّفُوه يطبقون أجفانهم حتى أيقظهم عويلُهُ . فانطلقوا للبحث عن البعير المسروق في كل مكان ، فبحث عنه الخُلْدُ تَحْتَ الأرض ، والبومة في الأماكن الخربة ، و (الرقيعي) بين قطعان الإبل في المراعي ، والضفدع في الماء ، والعَثَّة (الفراشة) بين الثياب والسجاد .

ولم تكن العَثَّة سعيدةً لإخفاقها حتى الآن في العثور على أيِّ أثرٍ للبعير ، فألقَتْ نفسها في النار قائلة : (النَّارْ وَلاَ العارْ) .

الطير الآكلةُ لِلّحم :

يقسم الرّوَلة الطير إلى : (طَيْبُور) و (حُمَّر) . ويقصد بالطيور كُلُّ ما يأكل اللحومَ من الطير :

الصقور والبَيْزَرَة[17] :

أهم ممثل للطيور الصقرُ الذي غالباً ما عُرِف بأنه (طير) .

ويشتري الرولة صقور الصيد من الحَضَرِ المقيمين في (الشَّيْخ مسْكين) و (الرّحَيبه) الذين إما أن يختاروا الصقور الصغيرة ، أو يصيدوا التامة النموّ .

وخير صقور الصيد (الحُرّ) . ولونه بُنّيٌّ مشرب بِحُمْرة (أشقر) ، وعلى ذيله نقط بيض عديدة (ثُرَيوات) ؛ أوْ بُنّيٌّ غامق (أدْبَس) ؛ أو حتى أسود . ويدعى الصقر الذكر (شَبُّوط) والأنثى (شيهانَه) .

ويرى البدو أن الصقر الصغير يمكث جنيناً أربعين يوماً ، وأربعين يوماً قبل تفقيسه من البيضة ، ولا يُتَبَيَّنُ ما إذا كان سيطير أوْ لاَ إلا بعد أربعين يوماً أخرى : (أرْبَعينْ يَومْ فيَضْ ، وارْبَعينْ يومْ بيَضْ ، واربعين يوم يطيرْ وْلا يطيرْ) .

وأحسن الصقور الصغيرة أي القرانيس يُدْعَى (زين النادر) ، ويليه في الأصالة (لِزيز النادر) ، ويأتي في الدرجة الثالثة من حيث الأصالة (القَطْعيِّه) والذي لا خير فيه بَتَاتاً هو (التِّبيع) .

ويُزَوِّدُ الذكرُ الأنثى والصغارَ بالطعام . ويجلب الحُبَارَيات (الحبَارِي) والأرانب إلى وكره .

وإن سقط الصقر الصغير خارج العُشّ لم يُقِمْهُ من سقطته ويَعْتَنِ به إلا الذكر .

وإن مات الذكر فحسب الأم سعادةً أن تستطيع إمداد صغارها ونفسها باليرابيع والفئران التي ليست بمَطعمٍ طيِّبٍ للصغار .

وخير وقت للخروج بالصقور الصغيرة حين تمسي قادرة على إطعام نفسها .

ويقدم بائع الصقور لها القوت إلى أن تستكمل بنية أجسامها فيبيعها البدو .

ويتطلب صيد الصقور المكتملة النُّمُوِّ جُهْداً أقل : يبحث صائد الصقور (الطِراح) عن بقعة بين الصخور ملائمة ، ويُعدُّ فيها لنفسه مخبأً ، ويضع أمامه حجرين أو ثلاثة ، ويربط بين الأحجار شبكة صغيرة ، ويلقي عليها طيناً ، ويصلها إلى مخبئه بخيطٍ ، ويربط غراباً وقليلاً من ريشٍ وحمامةً في حبلٍ دقيق . ويربط الغرابَ بخيطٍ دقيقٍ إلى حجرٍ كبيرٍ بين المخبإ والشبكة ويوفر له ماء وطعاماً . ويبقى هو في مخبئه مع الحمامة منتظراً إلى أن يسمع نقيق الغراب الذي يُنبيْ بأن الصقر يحوم فوقه ؛ فيَتَجُرُّ الغرابَ بحذَرٍ ورفقٍ إلى الداخل ، فيبقى الريش في مكانه مربوطاً بالحبل ، بينا تقع الحمامة قرب الشبكة . فإذا طرح الصقر نفسه على الحمامة جرَّ الصائدُ الخيطَ فسقطت الشبكة وقبض على الصقر ، وخاط جفنيه في الحال (يقَطّب الطير) . وبعد ثلاثة أيام أو أربعة يستأنس الصقر بعض الشيء (يوآلف) فيمكن حينئذٍ فك الخيوط .

ويبيع صياد الصقور ما لم يكن مدرباً منها بمبلغ يتراوح بين ثماني مجيديات وعشرين مجيدية للصقر الواحد (أي من ٧,٢٠ من الدولار إلى ١٨ دولارًا) .

ولابُدَّ أن يُدَرِّبَ البدويُّ الصقر بنفسه . ويكون لدى الشيوخ بصفة عامة عبدٌ يُدَرِّبُ لهم الصقور ، ويصيد معهم . وإذا رغب الشيوخ في الصيد بأنفسهم فعليهم أن يكثروا من الاشتغال بالصقور ، وإلا فلن تألفهم ، ولن تعود إليهم بصيدها .

ويحتاج الصَّقَّارُ إلى قاعدة خشبية يصل علوها إلى نحو ٤٠سم ، ولها رَزَّةٌ

حديدية في أسفلها ، ومغطّاةٌ بالجلد من أعلاها . ويعيش الصقر على هذه القاعدة (المَرْكابَه) . ويربط في كلٍّ من ساقيه أُنْشوطة جلدية (سِبِق) ، تمتد منها سلسلة (مَرْبَط) تصل إلى حوالى منتصف القاعدة . ويستطيع الصقر التحليق قليلاً ، وهو على قاعدته لكنه لا يستطيع الطيران بعيداً . ويرتَدي الصقر خوذَةً جلدية صغيرة (بُرْقع) على رأسه ، يمكِن سَحْبُها إلى أسفل لتغطي عينيه ، وربطها تحت منقاره حول عنقه لئلا يخلعها بمخالبه .

وقبل غروب الشمس بقليل يلبس القنّاصُ قفّازَ جلدٍ خشنٍ (دِس) بيده اليمنى ، ويحِلُ أنشوطات السلاسل ، ويولج فيها حبلاً دقيقاً طويلاً ، ويضع الصقر على يده اليمنى ، ويظل يدعوه باسمه ، ويُؤَرْجِحُهُ إلى الأمام وإلى الخلف محاولاً جعله يطير . فيرتفع الصقر ويأخذ يدورُ فوق القنّاص . ويربط الرجل طرفَ الحبلِ الآخرَ بوتِدٍ مثبّتٍ تثبيتاً قوياً ، ويأخذ خرُجاً بيده اليسرى ، وقطعة لحمٍ بيده اليمنى ، ويومئُ باللحمة إلى الصقر داعياً إياه باسمه . فإن لم يقع الصقر على الحبل وطئ الرجلُ الحبلَ إلى أن يندفع الطائر نحوَ اللحم .

وإذا عاد الصقر بنفسه بعد تدريبه عدة أيامٍ فإنه يدعهُ حرّاً طليقاً كما ولدته أمه ، ثم يأتي بأرنبٍ تكون قدْ رُمِيَتْ وجُرِحَتْ ، أو كُسِرتْ إحدى رجليها ، ويُطْلق (يهِدَ) الصقرَ وكلْبَ صيدٍ (سلْقه) عليها . فإن أنشب الصقر فيها براثنه تركها كلّها له .

وإذا صاد الصقر عدة أرانب جرحى بمعاونة كلب الصيد وأكلها خرج القنّاص به للصيد .. فيربطه بسلسلة صغيرة خلف رحل البعير ، ويأخذ معه خرجاً ، ويدعو كلب الصيد . ويركب البعير ذاهباً وراء القطين . فإذا ما أثار الكلب أرْنباً أو حُبَارَى فإن الصيّاد يحِلُ رباط الصقر . ويأخذه بيده اليمنى ، ويركب بعيره . ويمضي منطلقاً وراء الكلب . ويرسل الطائر على الصيد . ويظل الصقر يتلفت يمْنةً ويسْرةً ، ويرفرف بجناحيه (يفَرْفِر) . وحين يلمح الفريسة

تخرج يطير إثرها ، فيمسك بالحبارى في الحال ، لكن الأرنب تنسلُّ ، في العادة ، بعيدًا وتختبئ ، وبذالك تنجو من منقاره .

فإذا انقضَّ الصقر على الأرنب من علٍ عُبِّر عن ذالك بـ (الطيرْ يدْليه) ، فإن أفلح في إنشاب براثنه في متنها (علَق) ، ركب القناص إثره بكل ما استْطاع من قوة ، وغطّاه هو وفريسته بعباءته ، وربَّتَ (يطبْطب) على ظهره صائحاً : (كِشْ كِش) ، ويحاول نزعه من على ظهرها (تِنَشْنِش). ويتسلم الصقر قسطه من الفريسة داخل البيت ، ولا يتسلمه أبدًا في البرِّ خارجه .

ويستطيع الصقر المدرَّب تدريباً جيدًا أن يصيد في اليوم عددًا من الحباريات يصل إلى العشر . وعددًا من الأرانب يصل إلى العشرين ؛ لكنّ ذالك عند وفرة الصيد وحسب .

إن قلّةً من القناصين تستطيع الاحتفاظ بصقورها ثلاثة أشهر أو أربعة ، لأنها جميعاً تتيه ؛ ولا تعود في شهري فبراير ومارس ، لا سيما إن التقت بصقور برِّيَّةٍ .

والشاب البدويُّ متعلق بالصيد بالصقور والكلاب السلوقية . فإنه حينئذٍ يستطيع التمتع بحرية أكثر ، ويدنو من حبيبته ، ويخادنها ، أو يقدم إليها ما لديه من هدية ، ولذالك فهو يتغنَّى قائلاً :

يالَيتْ لِي جَرْوًا ويالَيْتْ لِي طَيرْ ... وقْعَيدِ يِنْسَفْ عليه الشّداد
نِجِي ما بَيْنَ السَّلَفْ والمِطَاهِيرْ ... ونْشَلِّي الجَرْوَا والطَّيْرْ غادي (*)

أي :

ياليت لي كلبةَ صَيْدٍ وياليت لي صقرًا ، وقعودًا نشدُّ عليه الرَّحْل !
فنأتي راكبين بين جنود الشيخ والعشيرة الطاعنة ، ونرسل كلبة الصيد ،
ويكون الصقر قد سبقها .

الجَرْوا : أنثى عائلة الكلاب السلوقية .

يتقدم جنود الشيخ المحاربون (السَّلَف) في العادة ، أمام القافلة بنحو كيل أو كيلين (كيلو متر أو كيلو مترين) . وتعدو (الجَرْوا) في المقدمة مهيِّجةً الأرانب وطير الحبارَى التي تفر من الخطر خلف السلف ، لكن القبيلة الظاعنة تصدها . وبهذا يكون للصقر الجيد خير فرصة للصيد بين الركب من الجنود والجمال حاملة الأثاث .

الطَيْرْ عيَّا بالْقَزَيْعِي يِصِيْـــدِ يا اللّي عَيَّا يصـــيدَ الحِبـــارَى
لَوَا حَسَايِفْ نَقْلِتِه على ايْدِي مْمَسَّح الرِّيضـــان عَفَنَ الطَّيارا

أي :

لقد امتنع الصقر يا (القزيعي) أن يصيد . يامن امتنع عن صيد الحُبَارى !

يا أسفاه على نقلي إياه على يدي . إنه كـ (مُمَسَّحَ الريضان) ذالك الطائر الرديء الطيران .

يمسك القناص بالصقر ، ويضعه على يمينه التي يغطيها قُفَّازٌ من جلدٍ ، ويحل السلسلة من قدمه ، ويجبره على الطيران بتحريكه إلى الأمام وإلى الوراء بيده ، وإذا كلَّتْ يدٌ نقله إلى اليد الأخرى ، ويعيد الكرة .

(ممسَّحَ الرِّيضان) : طائر من آكلات اللحوم شبيه بالصقر .

الطَّيرْ يا عمّارْ يا كاسْبَ الثّنـــا الله ولا لِهْ جِرَّةٍ نِهْتِدِي بَهْ
غَدَتْ به عَرْدا من القَرَانيص حايِلْ عامَيْنْ شَاتِ مُخَتّها بِجِرِيدَه(٥)

معنى البيتين :

أعَمّارُ يا كاسب الثناء ! ، لقد ذهبَتْ بصقرنا شَيْهانةٌ قويَّةٌ (قرناصة : قرناسة) ، حائل لم تفرخ ، فَمَنْخَهَا ما فيْ بسَاقَيْها صَيْفَيْنِ وشتاءيْن . وليس للصقر أثر (كالحيوانات التي لا تطير) فنستهدى به (على مكانه) .

القرناصة (الجمع القرانيص) : هي أنثى الصقر ذات النمو المكتمل .

الجرِيد : سِيْقَانُ الصقر من المخالب إلى الركب .

ظلت أنثى الصقر هذه دون أزواج (حايلاً) عقيماً سنة (صيفين وشتاءين) . ويرى البدو أن المخ ، وبخاصة ما تجمع في الساق وحوله يخرج من جسم الطائر أثناء التَّزاوج .

طيرٌ أخرى آكلةٌ لِلَّحم :

(الجلِيمِهْ) : طائر من آكلة اللحم ، أصغر من الصقر ، لكنه أكبر من (الباشق) . وتعرف (الجِلْمِه) أيضاً بـ (الكَحْلا) . وهي من ضروب الصقور (هكذا) ، وتصيد الحُمَّر بمختلف أنواعها – أنظر ص ٣٧ – ٤١ – من الأصل الانجليزي وتبحث عن القطا بصفةٍ خاصةٍ .

مِسِحّ الرِّبْضَان[*] : – وهو ضَرْب من الصقور ، شغوف بصيد (الجربوع) .

الباز : وهو صقر العصافير . والحْدِيَّهْ : الحِدَأة . العقاب : النسر .

إنه لا الباشق ، ولا الجلِيمه ، ولا حتى الصقر نفسه بمأمن من ذالك الصنف من العقبان المسمى (الجِبرْدَان) .

ويُقْتَنَص النِّسر (الجمع : النسور) ، وبخاصة أصناف (الحَبَشِي) ويؤكل لأن لحمه مفيد ، فأكْلُ سبعِ قِطعٍ منه مجففةً في الشمس خيرُ علاج للرَّثْيةِ (الروماتزم) والبواسير . وينبغي أن يزدرد المريض هذه القِطَع السبع معاً . ثم يلتحف بسبعة ألحفةٍ ، ويَعْرَقْ ، وسوف يعينه الله[١٨] .

وتُهاجر (الرَّخَمَه) عند ابتداء هطول أمْطار الخريف ، ولا تعود حتى ابتداء موسم (السَّماك) . ويرحب البدو بعودتها مسرورين ، لعلمهم أنه خلال

عشرة أيامٍ أو خمسة عشر سيكون ثَـمَّةَ طقسٌ أدفأ . ولا تقبل (الرّخَـمَة) التخلي عن غنيمتها ، وتبذل كل ما أُوتِيَتْ من قوةٍ للإبقاء عليها . ومن هنا قيل : (تَوَخَّمْ تْوَخَمَةَ الرّخَـمَه) أي : فلانٌ يحرص على الشيء حرص الرّخْـمَة .

(السّعَدِي) أو (أبو سعد) : هو اللقلق .

(الغَرْق) — بسكون الراء — : طير الماء .

وثمة من الغربان أنواع ثلاث : (زاغ البَقْع) — بتسكين القاف — : وهو أصغر الغربان ، ولونه أسود ، ويميل لون صـدره إلى الزرقة أو الخضرة ؛ و (الجَبْعا) : أكبر قليلاً ، وله ذيل قصير ، ولحم لذيذ الطعم (هكذا !) ؛ وغراب (العَقْعَق) : وهو أكبرها .

وتصحب هذه الأنواعُ الثلاثةُ كلُّها الإبلَ متوغلةً في الخلاء . وتلتقط من أجسادها القردانَ (القَرَّاد) والحَلَم (بفتح اللام جمع الحَلَمَه وهي صغار القردان (*)) . لكنها أيضاً تحفر الدَّبَر أي القروح التي تحت القتب . ولهذا السبب يطردها الرعاة ، فإذا رأوْا غراباً على بعيرٍ صاحوا به : غَرِّبْ ! غَرِّب !) أي : طِرْ إلى المناطق غير المأهولة . أو : (مِخَيْرِيزْ يبيطَ لِهاتَك !) أي : عسى أن يَخزَ المِخْرَازُ لهاتك[19] ! .

وإذا قام إنسان برحلة هامة ورأى غراباً واحدًا . فإنه يندب حظه قائلاً : (يا قِرْدَ الْعَيَنْ جاه الغُرابْ وْحيد !) أي : آه . إنَّ العين التي يأتيها الغراب وحيدًا ستنهكك من البكاء ! . إنه يعلم أن سيلاقي حظّاً سيِّئاً ، ولذا فإنه يختار العودة من حَيْثْ أتي (*) . أما إن رأى غرابيْنِ فإنه يهتف : (يا حَظَّ العَيْن من جَنَّهْ الغرابين)[20] ، أي : ما أسعد العين التي يأتيها الغرابان ! . أو : ما أسعد عين من يأتيه غرابان .

وصغار الغربان أكثر احتراساً من كبارها ، فقد كان غرابٌ هرمٌ يوصي

ابنًا لحفيدٍ له قائلاً : يا بُنيّ ، لا تثق بالبشر ! فإذا رأيت امرًا يدنو منك فَطِرْ حالما ينحني ، فربما رفع حجرًا ورماك به فأجابه : لا تخافَنَّ عليَّ من الإنسان يا جدّي ، فإنّي لن أنتظر إلى أن ينحنيَ ، بل سأطير حالما يقع عليه بصري . لماذا ؟ لأنه ربما يكون حاملاً حجرًا في يده فيستطيع إذنْ رَمْيي به دون أن يحتاج إلى الانحناء ! .

الطَّيرُ غير الآكلة لِلَّحم :

إن الطيرَ غيرَ الآكلةِ للحمِ المعروفةَ بـ (الحُمَّر) هي :

(الحبَارى – الجمع الحبارِي) : نوع من الـ bustards ، لونها رمادي قاتم ، وبعض ريش جناحيها وذيلها بيض . وهي كالدجاجة المتوسطة الحجم . وهي تعدو عَدْوًا سريعاً لكنَّ طيرانَها سيِّءٌ . وهي مولعةٌ بزيارة السهول والوديان المغطّاةِ بالنباتاتِ المعمرةِ (الدائمةِ الاخضرار) . وأكثرُ ما تقتاتُ البذورَ والبراعم الطرية .

وإذا خافت اختبأت تحت شجرة .

وهي لا تطير حتى يدنو منها عدوها . وتطير قريباً من الأرض مسافة مئة خطوةٍ أو مئتين ، ثم تقف هنيهة ، وتُقلع ثانية عدة خطوات ، ثم تستكن مرة أخرى تحت شُجيرةٍ أو لوح مائل . وإنه لعسير على المرء الدنوّ إلى أن يبيت على مرمى منها ، لأنها تطير طيرانًا متواصلاً ، ولا يستطيع إعياءها إلا راكبُ فرسٍ شديد التحمل .

وعدوُ الحبارى اللدودُ الصقرُ الذي يرقب حركاتِها وسكناتِها من عَلٍ ، فإذا استقرَّ قرارُها انقضَّ عليها كالبرق الخاطف .

وقد كانت الصقور في باديْ الأمر تخشى الحُبَارَى[٢١] ، لأنها أكثر منها عددًا : وحلَّ صقرٌ جريحٌ ، ذات مرةٍ ، ضيفاً عليها ، فاستقبلته بترحابٍ ، وأطعمته ،

وعالجته حتى أبَلَّ من دائـه . وقد لاحظ الصقر أن الحباري لم يعقدنَ أية اجتماعات معاً ، لذالك سأل ربة مثواه مستغرباً : إلى أية قبيلة تنتمين ؟

ــ نحن (قوم) الزِّنّارَه .

ــ ومن شيخكم ؟

ــ أنا الشيخه .

لكن جارةً لها ، سمعت الحوار فهتفت : أبدًا ! أبدًا ! : بَلْ أنا الشيخة ! ، فاعترض عليها طائر كان في تلك اللحظة ، صافاً جناحيه في الفضاء ، قائلاً : ماذا ؟ كيف يكون ذالك ؟ بل أنا الشيخ ! .

لقد سعد الصقر أيما سعادة ؛ لأنه قال في نفسه : حتماً لن أرهب هؤلاء ، فان يهاجِمْنَني جميعاً أبدًا . وسوف أقوى على افتراسهنَّ واحدةً تِلْوَ واحدةٍ . وإن ذالك سيكون أيسر عليَّ من صيد صغار الطير وحسب ؛ كما هي عليه الحال ، حتى الآن . ومنذ ذالك الحين والصقر (الطير) يأكل (الحَبارِي) .

وتسخر الحُبارَى من الصقر قائلة : (أنا الحُبَارَى ، بَارْض قَفَارًا ، حِسّ الرِّعْيانْ يْقَزِّنِي ، ما تَقْواني يا مَسْكِينِ !) أي : أنا الحُبارى ، بأرض قَفْرٍ ، أصوات الرعاة تؤرقني ، لن تستطيع قهري أيها المسكين ! . فيجيب : (أنا حُرٌّ لِكْ ، مذكور لِكْ ، مَكْحُولْ العينْ بْلا نيلِ !) أي : أنا الآمِرُ عليك[٢٢] ، لي عينان حادّتان جدًا مع أني لا أكحلهما .

الحُبارى : (أنا الحَيَّهْ ، تَحَتْ الصَفَيَّهْ ، ما تَقْواني يا مِسْكِينِ !) أي : أنا الحيةُ تحت الصُّفَيَّةِ (تصغير الصّفاة) ، لن تقهرني أيها المسكين .

الصقر : (أنا القَرّايْ ابْنَ القَرّايْ ! أقْرَا الحَيَّهْ ما تجيني) . أي : أنا القارئُ ابْنُ القارئِ ، أقرأ القرآن على الحية فلا تمسني بِسوء[٣٢] .

الحباري : (أنا السَّحلَهْ[٢٤]، بِرَاسْ النَّخلَهْ . ما تقواني يامِسكِين ! .
أي : أنا التمرة برأس النخلة ... إلخ) .

الصقر : (أنا الرَّقّايْ ابْنَ الرَّقّايْ أحَسْكْ الشوك بسكيني !) أي : أنا راقي نَخْلٍ ابْنُ راقي نخلٍ ، أخْضِد الشوك بسكيني ! (أي وأصل إليك) .

وتستوطن النّعامة النّفود ، بصفة رئيسة ، ولا سيما الجزء الشماليّ الغربيّ منه ، وكذالك غرب (النْعلِيّمْ) ، وفي ضواحي (الطَّويل) ، وفي (العرَيقْ) ، وفي (الْغويطه) . وتذهَب النعام في الفصل الجاف بعيدًا إلى الشمال ، فتصل إلى أماكن نائيةٍ كضواحي تَدْمُرَ مثلاً .

ويُدْعَى الذكر (ظلِيم) أو (مْظَلّل) لكون ريشه رماديّاً قاتماً ، وتُدْعى الأنثى (رَبْدا) ، والصغار (رِيلان) .

وتبيض الأنثى في فصل السِّمَاك من عشر بيضاتٍ إلى ثلاثين في أداحِيَّ غيرِ عميقة في الرمل . ويدعى كَوْم بيض النعام (دِحْو) . وحالما توضع البيضة الأولى تبدأ حراسة الأُدْحية ؛ ويقول الرولة : إن الذكر يحرسها نَهارًا بينا تطعمها الأنثى ، وتقوم هي خلال الليلَ بالحراسة . وإذا وضعت البيضة الأخيرة دَحْرجت ثلاث بيضاتٍ أو أربعاً على بعد خطوة واحدة من الأُدحية . ولا يُعِير الطائر هذه البيضاتُ اهتماماً ، بل يقلب البيضات الأُخَر ، ويجثم عليها خلال الليل ويُدْفئُها . أما الذكر — الذي يظل عند الأُدحية أثناء النهار — فلا يجثم على البيض لأن الشمس تُدْفئها ، لكن الأنثى تقيها برودة الليل بجسمها وريشها . ويقال : إن البيض يفقس بعد واحد وعشرين يوماً ، وإذ ذاك ينقر الذكر البيضات المتروكة جانباً فيفتحها واحدةً بعد واحدة ، ويدع الطيور الصغيرة تَطْعَمُ محتواها . فإذا فرغت من أكل ما في تلك البيضات ذهبت إلى المرعى تحت حماية أبويها . وتقودها دائماً أمُّها ، بينا يسير أبوها وراءها ، ويحميها من الذئاب والضباع والنُّسُور .

وللنعامة حاسَّةُ سمعٍ كليلةٌ جدًّا ، لكنها ممتازةُ البَصَر . ويكون صيدُها أيْسَرَ قربَ أدْحيِّها . وإذا لم تكن ثمة ريحٌ فإنَّ أثر النعامة يكون بيِّناً جدًّا في الرمل . ويتقفَّرُها الصياد ، مختبئاً وراء كل شجيرةٍ ، زاحفاً على بطنه ، وبذالك يدنو منها . وإن أحست الأنثى ، من بعيدٍ ، بأية حركةٍ مشتبهٍ بها من الشجرة أو القانص فرَّت بالسِّرب كله ؛ فلا يكون حتى لأسرع الجياد طاقةٌ باللحاق بها في الرمال .أما قرب الأُدحيَّة فإن القانص يرمي الطير التي يطاردها خلسةً . وشحم النَّعامة المعروف بـ (الزَّهِم) علاجٌ لأسقامٍ شتى .

● (القَنْدَره) : طائر قرنفلي اللون ، في نحوحجم الدجاجة . يطير طيراناً رديئاً ؛ ويعدو عدوًا أخرق . ويستوطن النفود وحسب ؛ وبخاصة المنحدرات ذات الميل الشديد المحيطة بالحُفَر .

● (القَطْره) : أكبر من الحبارى . وهي قليلة الطيران جدًّا . وإن هاجمها الصقر استلْقَت ودافعت عن نفسها بمخالبها .

● (الطَّرْشه) : طائر قاتم اللون ، في مثل حجم البطة الصغيرة . تعيش أزواجاً وحسب في (الحماد) . وهي صماء لا تسمع البتة .

● (البَوَّه) : في مثل حجم نصف القندرة . وثمة نوعان منها يَسْتوطنان الحماد : (الكِدْرِي) منهما هو الأكبر والأكثر سواداً .

● القطا : وتعيش داخل الصحراء طالماكانت الغدران والبرك الطبيعية مكتظةً بمياه السيول ؛ فإذا جفَّتْ هاجرتْ إلى طرف الصحراء على مسافة مئة كيلٍ (كيلو مترٍ) من الماء العِدّ (الذي له مادة لا تنقطع) .

والقطا ، و (الحجَل) — انظر الصفحة التالية — . والحمام هي الطيور الوحيدة التي ترد الماء بانتظام بعد شروق الشمس وقبيل غروبها .

ولا تضع القطاة بيضها قرب مورد ماء ، بل في وادٍ ناء تغطِّيه الأعشاب

والشجر ، فتحفر حفرة صغيرة قرب شجرة ، وتضع ثلاث بيضات أو أربعاً رمادية اللون ، وعليها نقط قاتمة ، وتكون في مثل حجم بيضة الحمامة . وتترك هذه الطيور أفاحيصها فقط عندما تطير نحو المَنْهل ، وإلاّ فإنها تمكث دائماً على مقربة منها .

ويكون في مثل تلك الأودية عادةً ألفُ أفْحُوصٍ في الأقل . وإذا فقستِ الصغار شرعتْ تعدو هنا وهناك كالفراريج الصغيرة التي تفوق الحصر ، وتبحث عن البذور .

ولا تطير القطاة وحدها أبدا ، بل دائماً ضمن سِرْبٍ وإذ لم يَحْتَوِ السِّربُ أكثر من عشرة من الطير فإنه يعرف بـ (فِرْس) ، وإلا فهو (رَفّ) .

ويعبر البدو عن دهْشَتِهم من أن القطاة حين تطير نحو مَنْهل ، حتى إن كان على بعد مئة كيل (كيلو مترٍ) لا تتيه أبدًا ، ولا تنحرف عن الخط المستقيم ، ولذالك يقولون عن الدليل البِرْتِ الحاذق الذي يعرف الفلاة المنبسطة معرفة ممتازة إنه (دِلِيل قَطاوي) .

والقطاة مغرمة كثيراً بدخول الأحياء حيث تبحث عن الحبوب .

ويعلم بوصول القطا مباشرة في طول الحي وعرضه ، لأن سماع هتافها : (قطا قطا) ممكن دوماً .

ويقول البدو : (جانا القَطا لِهْ فرقَطَه ، لا بارَكَ الله بَالقَطا) . أي : جاءنا القطا له صياح شديد ... إلخ .

و (القَيْرَوان) ضَرْبٌ من القطا ، لكنه أصغر منه . والنصف الخارجي من جناحه أسود .

● الحَجَلُ : ولا تستوطن إلا منخفض السرحان حيث يتوفر الماء في كل مكان . وتكون أسراباً من ثمانٍ إلى ست عَشْرة . وتكمن تحت الأشجار في الأيام الحارة .

ويدعو الذكر سربه كله بصياحه : (قُور ، قُور ، قُور) ؛ وبذلك يتنبه السرب فيخرج طائراً ، لكنه سرعان ما يعود ثانيةً ويختبيْ .

وإذا أراد بدوي منعها من الفرار صاح : (حَوْجِلُوا ، حَوْجِلُوا !!) .

● (المَربعِي) : ضرب من الحَجل ، صغير الحجم . ولا يعيش هذا النوع في أسراب ، بل أزواجاً ، وتطير طيراناً حسناً .

● (السَّمَقْمَق) : طائر ذو لون رماديٍّ قاتمٍ ، في مثل حجم الحمامة الصغيرة . وهو طويل العنق والساقين . ويقتات السمك في البحيرة القريبة من (الأزرق) .

● (الصَّبْرِي) : يجمع الحبوب والحشرات ، لكنه ينقر صغار الجرذان واليرابيع أيضاً .

● (ذبَّاح أُمّه وأبوه) : أي قاتل أمه وأبيه . وهو الهدهد .

(السَّمُّونه) : طائر صغير رماديٌّ قاتم . يتسلل بين الشجيرات .

● (الفَسيسى) : طائر صغير ذو بطنٍ أبيض ، وظهرٍ أسود . يطير على رؤوس الشجيرات والأشجار وحسب .

● (الصَّعْو) : طائر صغير شبيه بطائر الحسون (أو العصفور الدورى Finch) عندنا (أي في شرق أوربا) . ويميل ضربٌ منه للصفرة ، ومنه ضرب أسود ، وآخر أبيض .

● (الحَرْجَرَه) .

● (الشَّعيْلِه) .

● (الرَّقَيعي) : الخطَّاف ، أو السنونو (Swallow) .

● (الصَّفارَى) .

● (الذّهَيِّن) : طائر بُنّيّ اللون ، قاتمه . أصغر من الهدهد .

● (السّمَرْمر) .

● (مِلْهِيةْ الرِّعيان) .

● (أمّ طَوْيق) : القُمْرِية . وتستوطن الواحات دون سواها .

● (الخْضاري) : يستوطن بساتين النخيل دون سواها .

● (المْقَطّع) : يأكل الرطب .

● (أُم سالم) : طائر صغير لونه لون الرماد . وهي تطير دائماً قرب الإبل . وإذا طارت على ارتفاع عَشَرَةِ أمتارٍ أو خمسة عشر مترًا بدأت تَشْرَق ُ فتهبط في الحال . وصوتها جميل جدًّا .

جاءت أُمّ سالم مرةً إلى النملة ، وسألتها : (أعطِيني عَشاء لأطفالي !) . فتخلصت النملة منها قائلة : (إليك عني !) ، أنا هَمّي الحصايِدْ ، وِانْتِ هَمّكْ القَصايدْ ! (. أي : حين كنتُ مهتمةً بجمع الحبوب من الحقول الحصيدة ، كان كلُّ همّكِ الغناءَ وترديدَ القصايد . فأجابتها أمّ سالم : (أنا يُوم ٍ من ايّامْ طَرْبي ، يِسْواك يا مَحْزُوقَة الذّنبِ !) أي : إن يوماً واحدًا من أيام أُنْسِي لخيرٌ منك يا ذات الذنب المشدود ! .

الزّواحــــف :

يُبدي الرّوَلَهْ اهتماماً أكثر بما يلي من الزواحف :

● الضّبُّ : ويعرف أيضاً بـ (أبو حَمَد) . وكثيرون لا يعدونه من الزواحف ، لأن له أربعَ أقدام يستطيع استعمالها جيدًا .

والضب ضرب من السحالي كبير الحجم ، وله سبع فقرات ، وخمسة أظافر في كل قدم . وذيله أطول من جسمه الحقيقي .

وهو يقتات النباتات وحسب . ويهوى الاضطجاع في الصدوع التي بين الصخور .

ويحرص البدو حرصاً شديداً على تقفّره ، وإذا صادوه قلبوه ظهراً لبطن ليذكّوه ، فيرفع يديه ليحمي نفسه . ويظل لحم الضب الذبيح يرتعش طويلاً . وطعم لحم الضبّ لذيذ .

ويدفن البدو – في العادة – الضب في الرمل ، ويوقدون عليه ناراً ، وبعد نحو ساعة يزيحون النار والتراب عنه ، ويقلبونه ، ويدفنونه ثانية ، ويشعلون ناراً أخرى فوقه .

وقد كان الضبّ أصلاً رئيس الزواحف قاطبةً ، لأنه هو أول من دعاها إلى الصلاة ، وعلمها كيف تركع وتسجد في صلاتها . ولما بدأ البشر في التكاثر بثّ الضب عيونه في أوطانهم ليعرف ما لديهم من عتادٍ حربيٍ ، وما الطريقة المثلى لخوض الحرب معهم . فأبلغته العيون ، الذين لم يكونوا غير أبنائه الحقيقيين ، ما رأت وسمعت ، فأدرك أنْ ليس في استطاعتهم محاربة بني آدم ، وأن من الخير له الاختباء عنهم . وتطبيقاً لذالك طفق يحفر جحوراً عديدة لنفسه ولأسرته الكثيرة العدد ، ولم يخبر سائر رعيته بشيء من ذالك . وكان جبينهُ كلّه ، حين يعود من عمله إلى المجلس ، رماديّ اللون لما عليه من طين وغبار . فلما سأله صحابهُ : ما الذي جعل جبينك رمادياً ؟ أجاب : الصلاة الدائمة التي أسجد أثناءها كما يجب . وذات يوم أقبل حرس الحدود يعدون صائحين : لقد أقبلت العرب بكلابها وعتادها ! . فاختبأ أبو حمد وأسرته في الحال ، في الجحور المُعدّة ، فلم يمسس أيّاً منهم سوء .

● الأفاعي : يقسم الرولة الأفاعي إلى : (حيّة) و (دابّ) . وتطلق الكلمة الأولى على أية أفعى قصيرة ، والأخرى على أية أفعى طويلة سامةً كانت أو غير سامةٍ . ويستعمل الاسم الأخير دائماً في الشعر للثعابين السامة .

ومن بين الحيّات القصار يخشى الروله (الأفاعـِي) التي تستوطن المناطق الصخرية ، بالإضافة إلى (البَتْرا) و (الحضَفْ) اللتين تستوطنان الصحراء الرملية . ولا تزحف الأخيرة إلا في الليل ، وتدفن نفسها ، خلال النهار ، في الرمال فلا تظهر إلا أطراف رؤوسها .

ويختص (الحَنيش) من بين الحيات الطِّوال بكونه سامّاً جدًّا . وطولُه مترٌ . وتغطيه بقعٌ ملونة . ومن عادته العومُ في البرك والغدران .

ويفيد الجلد الرقيق (السِّلْب) الذي تخلعه الحية في علاج أدواء العين المختلفة .

ويأكل الرّوَلة كلُّهم الحياتِ الطِّوال . ويطعمون الإبلَ التي تعاني من آلام المعدة المعروفة بـ (الغُشّ) ، ومن نَخرِ العظام (الرَّسيس) ، لَحْمَ الحياتِ القِصار .

● (الحَرْذون) : وهو الحرباء . ويتشمس ،في الأماكن المشمسة ، ويهز رأسه للمارّة .

● (ابا الطَّحَيح) : وهو أصغر من الحَرْذون ، ولا يستوطن إلا النّفود حيث يختبيْ في الرمل مبرزًا رأسه دون سائر جسده .

● (المَلَس) : زاحفٌ شبيه بالحَرْذَون . يوجد أيضاً بالنفود . وعليه بقع سودٌ وحمر . والشيوخ الذين يعانون من العِنَّة يأكلون لحمه بعد تجفيفه في الشمس وسحقه .

● (السُّلَيماني) أو (الجُلَيماني) ، و (الحَبَنَنيّه) : ضروب من السحالي غير مؤذية .

(البَعَرْصِي) أو (البْرَيصي) : سِحْلِيةٌ سامّة من سحالي النفود . وإذا عَضَّ إنساناً بات الإنسان ضَجِراً ، فلا يستطيع اللُّبْثَ في مكان واحد ، فإن كان مضطجعاً في الظل حَنّ إلى الشمس ، فإذا حمل إلى الشمس أراد الظل . ومن هنا

يقولون فيمن يعدو من مكان لآخر : (هُو قِرِيص النّبِرَبْصِي ؟) أي : أَلَدَغَهُ بِرَبْصِي (سامٌ أبرص) ؟ .

● العقرب[٢٥] .

الحشـــــرات :

تزور الحشرات التالية بلاد الرولة :

● العنكبوت : وهي سامة .

● النحل : وتكون في الأقاليم الصخرية بخاصة . وهي مخلوقات ضئيلة الحجم ، ولدغتها ضعيفة . ولِعَسلها طعم حامض .

وإن وجَدَ شخص خَشْرَماً من النحل[٢٦] حاول الوصول إلى العسل .

وهنالك لغزٌ شائع : (قافِر الارْض مرعاها ، وما ذاق الناسْ لَحَمْها ، الا وَلَدْها ياكْلِهْ كِلّ مِنْ جاهْ) أي : قَفْر الأرض مرعاها ، ولم يذق الناس لحمها ، لكنّ ولَدَها يأكله من جاءه . الجواب : النحلة .

● (القَعَيسِي) : صنف من كبار النمل . ويعرف أيضاً بـ (شيخ النمل) . وهو موضوع اللغز التالي : (ياكِلْ الشّعيرْ ، وْلا هو بِعِيرْ ، ياكِلْ التّبِنْ وْلا هُو حْمارْ ، يَخْرِقْ الدارْ ولا هو فارْ ، أسْوَد اللّيلْ وْلا هو لَيل) .

● النمل : وهو الـ Ant العادي . وهنالك منه ثلاثة أصناف : (طَيّارْ) ، و (فَرْسِي) . و (ذَرْ) .

● الارْضَه : قارضة الخشب . حشرة صغيرة أكبر من النملة قليلاً . وتأكل كل ما تصل إليه .

(•) هذا فصل من القسم الأول من كتاب (أخلاق عرب الرولة وعاداتهم) للمستشرق التشيكوسلوفاكي ألويس موزل (١٨٦٦ – ١٩٤٤م) الذي يقوم الكاتب بتعريبه ، كما يقوم بتعريب القسم الثاني الدكتور عبدالله بن علي الزيدان . وهو الفصل الثاني في الكتاب وعنوانه هناك : (الحيوانات) . وقد أضفنا هنا (في بلاد الرولة) ، والمقصود ببلاد الرولة الأراضي التي يقطنونها في شمالي بلاد العرب ، ويقع بعضها في الوقت الحاضر في المملكة الأردنية الهاشمية ، ومنها منطقة (الريشه) .

(١) فراعل جمع فرعل ، وهو ولد الضبع .

(•) مخاطبة الضبع بمثل هذا الكلام معروف عند العرب قديماً ففي كلام للإمام علي : أتريد أن أكون كالضبع التي يحاط بها ويقال : دباب ، دباب ، ليست هاهنا ! حتى يخل عرقوباها ثم تخرج « تاريخ ابن جرير » : ٤/٤٥٦ طبعة دار المعارف بمصر (العرب) .

(٢) إن الاعتقاد الخرافي بنفع بعض الأشياء إذا علقت على عضو ، أو ربطت به سائد للأسف في كثير من المجتمعات الإسلامية . ونشاهد في الوقت الحاضر ، بعض المسلمين يربطون بأصابعهم مثلا أو حول سيقانهم خيطاً معتقدين فيه درء ضرر ما . ولا ريب أن شيوع الوعي والاطلاع على مصادر الشريعة كفيل بمحو أمثال هذه الخزعبلات .

(٣) الفيول Viol نوع من آلة الكمان الموسيقية .

(٤) في الأصل : (والقعود من هذا النوع) . فقد سقطت كلمة Skin أي جلد قبل«The Young Camel»».

(٥) الوخيد : ضرب من سير الإبل .

(•) : هذا بيت من الشعر ، صدره مختل الوزن . وكلمة (ياوي) فيما يظهر للتعجب والاستحسان (العرب) .

(•) لحم الثعلب حرام أكله ولا يأكله من البادية سوى الصلب ، وكذا النيص والقنفذ والجرذي ، أما الخنزير فلا يأكل لحمه المسلم . والصقر من جوارح الطير فلهذا لا يؤكل لحمه .

(٦) كذا ترجم المؤلف العبارة إلى الانجليزية ، والاختلاف واضح بين النصين ، ومعنى آخرها : لم تنكر وتنسى الجميل ؟

(٧) أي لخوفها منها فإنها تتراءى لها حتى في الأحلام .

(٨) ترجم المؤلف كلمة (الشرما) بـ (البيضاء) ، وهو وهم .

(٩) هذا تعريب ترجمة المؤلف لمعنى (ضفيه) ، مع أن المتبادر إلى الذهن أن المقصود (ضافية) أي (سابغة) . فلعل الكلمة (دفيه) لا (ضفيد) كما وردت في الأصل .

(١٠) ترجم المؤلف (واعي البلية) بـ (راعي الإبل) ، وهو وهم ظاهر .

(١١) إن من يعرف البادية لن يصدق مثل هذا الزعم البتة ، فمهما فشا الجهل بين القوم فلن يصل بهم إلى جهل أن هذا اللحم محرم بنص الكتاب !

(•) (وهذا من الخرافات المحرمة شرعاً – العرب) .

(١٢) الجردي : الجرذ . وهو ضرب من الجرذان ، متوسط الحجم عادة .

(١٣) ما بين المعقوفين إضافة ضرورية ، إذ سقطت من الأصل ترجمة (مع عشرة) سهواً كما يبدو .

ومعنى العبارة : إنني أكفي لإطعام أربعين شخصاً ، دون أن تكون قوائمي ضمن لحمي المقدم لهم .
(وكلمة قصاليمي عند عامة أهل نجد : قصاميلي : أرجل الجراد وأجنحته - العرب) .

(١٤) هذا البيت أصله بيت من الشعر العربي الفصيح معروف سائر على الألسن ونصه :
إذا حـــل الثقيـــل بـــأرض قـــوم فمـــا للســاكنين سوى الرحيــل
(وكذا الأربعة الأبيات التي قبله . وفيها تحريف أخل بوزنها) .

(١٥) من عادة المسلمين على اختلاف أعمارهم ذكر الله عند التعثر أو السقوط ، ولا معنى لأن يخص الأطفال في هذه الحكاية الخرافية بذالك .

(١٦) الرقيعي : طائر بحجم العصفور . وسيرد ذكره في آخر هذا الفصل حيث قال عنه المؤلف بأنه (الخطاف) أو (السنونو) .

(١٧) البيزرة والبزدره : تربية الصقور والصيد بها .

(*) مختل الوزن ويستقيم صدره (حتى نجي بين السلف) - العرب .

(*) وهذا مختل الوزن أيضاً .

(*) اسمه كما سمعته في البادية : مسح الريضان ولكنهم يدغمون الميم الأولى بالثانية ويشددونها ، لأنه وقت طيرانه حين يشاهد ما يصيد يقرب من الأرض فيميل جناحه حتى يكاد يمسحها . والريضان عندهم جمع روضة عند العامة - العرب) .

(١٨) هذا بطبيعة الحال ، حسب ماهو شائع لدى الرولة .

(*) المعروف عند عامة أهل نجد أن الحلم كبار القردان ، لا صغارها ، وإن ورد في كتب اللغة القول الأول ، والصواب ما ورد عن الأصمعي وهو من أعلم العلماء بأحوال البادية ، انظر مادة (حلم) في « تاج العروس » - العرب) .

(١٩) شرح المؤلف العبارة بما ترجمته : احذر الخبيز - تصغير الخراز - ! إنه سيخز لهاتك ! . وقد ابتعد عن مدلولها . فهي دعاء عليه لا تحذير له .

(*) التشاؤم بالغراب - أو التفاؤل برؤيته - من عادات أهل الجاهلية التي أبطلها الإسلام - العرب) .

(٢٠) جنه : جنها : أي جنتها . يحذف الروله ، كغيرهم من أهل شمال الجزيرة ، بل وحتى حائل والقصيم ، الألف من هاء التأنيث ، ويقفون على الهاء .

(٢١) تستعمل (حبارى) في اللغة العربية للمفرد والجمع والمذكر والمؤنث . انظر لسان العرب (حبر) .

(٢٢) هذا تعريب ترجمة المؤلف الحرفية للعبارة ، وكلمة (حر) لا تعني (آمر) بل : (أصيل) أو (نبيل) .

(٢٣) كانت ترجمة المؤلف للعبارة بما تعريبه : أنا ساحر حيات ! ابن ساحر حيات . أسحر الحية فلا تؤذيني ! (!!) .

(٢٤) وردت (سحله) في الأصل هكذا (Shala) أي(سحله) . لكن أنى للسخلة بفرع النخلة ؟ . ثم أن المؤلف ترجمها بـ (التمره) والتمرة يقال لها (السحه) وهي قريبة لفظاً من (السحله) لكن (السحله) هي الإناء لا التمرة ، كما ترجمها المؤلف . و (السحه) لا تؤلف سجعة مع (النخله) .

(٢٥) هكذا أورد المؤلف العقرب ضمن الزواحف ، والأولى أن ترد مع الحشرات .

(٢٦) الخشرم : جماعة النحل ونحوه .

رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي المغربي
إلى الحج سنة ١١٤٣ هـ

- ٣ -

ومكة شرفها الله بلدةٌ قد وضعها الله بين جبال مُحْدِقَةٍ بها ، وهي في بطنِ وادٍ مقدس ، كبيرة مستطيلة ، تسع من الخلائق عدداً لا يحصيه إلا الله عز وجل ،قال ابن جبير الغرناطي(١) بعد ما ذكر كثرة ما يجتمع بها من الركاب الوافدة إليها من سائر الآفاق في أيام الموسم كلها ما نصهُ : فمن الآيات البينات أن يَسَعَ هذا الجمع العظيم هذا البلد الأمينُ ، الذي هو بَطْنُ وادٍ سَعَتُهُ غَلْوَةٌ أوْ دُونها ، ولو أنَّ المدن العظيمة حَمَلَ عليها هذا الجَمعُ لضاقتْ عنه ، وما هذه البلدةُ المكرمة فيما تختص به من الآيات البينات في اتساعها لهذا البشر المعجز إحصاؤه ، إلا كما شَبَّهتْهَا العلماء حقيقة في أنها تتسع لوفودها اتساع الرَّحِمِ لمولودها ، وكذالك عرفات وسائر المشاهد العظيمة بهذا البلد الحرام ، عظم الله حرمته ، ورزقنا الرحمة فيه بكرمه وفضله .

ومن عجيب أمرها شرفها الله ، ما جعل الله لها في قلوب عباده من المحبة الصادقة التي تحملهُم على الوفادة عليها ، واعتقاد العودة إليها ، ولو كان لهم في ذالك ضَرْبُ الرِّقاب ، وذهابُ الأموال ، وتقطُّعُ الأسباب ، تسترق القلوب ، وتسبي عقول ذَوي النُّهَى ،حتى يقولوا :ما مَسَّنا من لُغُوب ، فالغائب عنها متشوِّقٌ إلى رؤية مغناها ، والقاطن بها لا يملُّ سكناها ، ولا يتبرم من عيشها ، ولو كان يمصُّ فيه النَّوى ، ويراه العِيشة الراضية أعلاها لا أدناها ، متاعا إلى حين ، ولو دام على هذا الضنك سنين ، على أنها كما قال الله عز وجل ﴿غَيْرَ ذِي زَرْعٍ﴾ فالمؤمن لا يضيق له بها ذرْع ، يَسْتَسْهِلُ في ذالك القرب وتلك القُرْبة مَضَضَ الغربة ، وما يلقاه فيها من عَرَقِ القِرْبة ، وفي أهلها بعض جفاء ، والتواءٌ عن الأحكام المشروعة ، وإذايَةٌ للحجاج ، وإن كانت

ممنوعة ، وشكاسة أخلاق ، تُخْلِقُ ثوبَ المروءة ، أيَّ إخلاق ، وأهل المدينة المشرفة خيرٌ منهم ، فيما يؤثر عنهم ، لو كانوا يعلمون ، والمدينة أفضلُ ثم مكةَ مما قاله العالِمُون ، وقد شاهدنا من صعاليك الحجاج ، الذين لا يملكون بَغْلة ولا بَلْغَةً ، ولا يجدون من العيش بُلْغَةً ، من يقول : له حجتّان وثلاثة حجج ، وأكثر ، وهو على تلك الحال في الحلّ والترحال ، سوى ما تَرْشَحُ له بَعْضُ أكُفِّ المتصدقين ، وقليل ما هم ، وهو مع ذالك لا يملُّ من الثواء ، ولا يكوده حر الصيف ، ولا برد الشتاء ، ولا خُلُوُّ الرِّجْل من المداس ، والبدن بما يقي من اللباس ، ما آبَ مِنْ سفرٍ إلاّ وأَزْمَعَهُ ، موكّلٌ بِفَضَاء الأرْضِ يَذْرَعُه ، فما يُسَلِّم على أهله حتى يُودِّع ، على بعد المرجع ، وما ذاك إلا حكمة من الله وتصديق لدعوة نبيه إبراهيم عليه السلام ، هذا مع قيام أسباب أُخر تُبيحُ أوْ توجب التأخُّرَ عن الحج في هذه الأزمنة من عاديّةِ الأعراب ، وامتهان الترك للحجاج ، وإذْلاَلِهِم لهم في المصادر والموارد ، ومصادرتهم في الأموال والأمتعة ، وقبض الخراج منهم عَنْ يَدٍ وهم صاغرون ، وقد شاهدناهم – قبح الله سعيهم – وَكَّلُوا على مُمَاكَسَةِ الحجاج على أحمالهم يهودياً من اليهود ، وقبض ذالك مرَّتَيْنِ ، وربما احتاج – لعنه الله ولعن من وجهه – إلى كشف بعض الخيام ، بل إلى الْحُرَم ، لاستخراج ما عسى أن يكون قد غُيِّبَ من الأحمال ، التي يُثْبِتُ نهايتَها في ديوان المكوس ، التي لا ترتضيها أطايبُ النفوس ، ويكفيهم مهانةً وقلّة ديانةٍ ، اتِّخَاذُهُمْ بيتَ الله الحرام سبباً للمعيشة الحرام ، بما يتساقطون عليه ، ويتهافتون عليه عند وُلاَتِهِم وأكابر مجرميهم ، من طلب التولية على الأعمال المكسية ، التي يزعمون أنّها قوام كسوة الكعبة المرضية .

وإذَا كانَتِ النُّفُوسُ كِبَارًا تَعِبَتْ في مُرَادِهَا الأجْسَامُ

هذه قريش في جاهليتها ، عندما أرادوا أن يبنوا البيت الحرام ، تعاقدوا وتعاهدوا على أنْ لا يُدْخِلوا في بنائه مالاً حَرَاماً ، فيالله من هذه الأوباش ، أراذل الْغُزِّ الذين اتخذوا مال الله دُوَلاً وعباد الله خَوَلاً ، قطع الله دابرهم ، والحق بأولهم إلى العذاب آخرهم ، وقطع بدعهم بسيوف الأشراف ، أهلِ البيت الذين تولى الله تطهيرهم تطهيرا .

لطيفة — نزل الركب بعض المعاطن المسماه عندهم بالبنادر ، فقام إليه الغزُّ واحتجزوه وحجروه عن المغاربة،حتى لا يصل واحدٌ منهم إلى شربة ماء، حتى يَرْوَوا وتَرْوَى إبلُهم ودوابهم ، فتقدم جماعة من أعيان الركب إلى شيطانهم المسمى بسلطانهم ، فرغبوا إليه أن يخصهم ببئر واحدة ، أو بناحية منها يدلون فيها دلاءهُمْ مع الغُزّ ، فأنعم لهم بذالك ، وعين لهم بئراً ، فما تلبث المغاربة بها يستقون إلا يسيرا ، حتى أقبلتْ إليهم الغزُّ بالعِصيِّ والدَّبابيز والسيوف ، فأزاحوهم عنها ، واحتازوها لأنفسهم ، وصعاليك الحجاج المغاربة رجالا ونساء ،يستسقون فما يُسْقَوْنَ ، وكنت أنا عبدالله لما تأخَّر عنّا السقّاء بهذا المنع ، ورأيت صبيّاً لنا صغيرا يَتَلَوَّى من العطش ، أخذتُ ديناراً من الذهب ، أُريد أنْ أَشْتَرِيَ به شربةَ ماء من البندر ، فما وجدتها ، فلما أعياني الطلاب ، جئتُ اميرَ الحاج المصري وقمه الله[2] — اعني الأمير — وهو يعرفني ، ووجدته قاعدا على حوض ،والأولى (؟) تختلف بين يديه على حوض يسقي إبله ، فقلت له : يا أمير احتجنا شيئا من الماء ، والله ما وجدناه حتى بالشراء ، وأرَيْتُهُ الدينار ، فضرب بذقنه إلى الأرض ، وأولاني أُذُناً صمّاء ثم عاودته ، وقلت له : أنت أمير وتعرفني ، أنا طالب علم ، وأيُّما أوجب وأسْبَقُ ؟ حرْمَةُ الآدمِيِّ أو الجمل؟ فاستنكر مقالتي ، وأخذته العزة بالإثم فانصرفتُ عنه، وبنفس ما وَلَّيْتُ عنه أمَرَ الغُزَّ وأغراهم بالمغاربة وذادُوهم ، كما تذاد غرائبُ الإبل عن الماء.فهذا بعضُ ما رأيتُ من قساوة قلوب هاؤلاء الأعاجم ، وقلة مبالاتهم بالمسلمين ، وما أراهم إلا يقولون في أنفسهم مقالة ملاعين اليهود، وأهل الجحود والتغيير والتبديل﴿ليسَ علينا في الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ قلت : فمن قال من علماء المغرب والأندلس بسقوط الحج عن أهل بلده واعتقده ، فاعتقاده صحيح لهذه الأسباب ، ولِمَا يُصْنَعُ بالحجاج ، مِمَّا لا يرتضيه الله عز وجَل قدْ أوْجَدَ الرخصةَ فيه على غير هذه الحال ، فكيف بارتكاب المخاوف والأوجال . قلت : وفي « مناسك الحج » للشيخ خليل ما نصه : وتُشترط في الاستطاعة الأمْنُ على النفس والمال من لِصٍ أوَ مكّاس ، إذا كان يأخذُ ما يُجْحِفُ به . وفي سقوطه بِأخْذِ المكَّاس مالم يُجْحف قولان ، ورجَّحَ

بعضهم عَدَمَ السقوط ، وقال أيضا : وبعضهم يعني المسافرين للحج يرى أنَّ نفس السفر مُبيح للتيمُّم ولو كان على الماء ، وهو جَهْلٌ عظيم ، بل بعضهم يتساهل في الصلاة بالكلية ، وليت شعري كيف يترك خمس فرائض كُلَّ يوم مِئَةَ يوم لفريضة واحدة ، بل بعضهم إنما هو في غير الفريضة ، حتى تجد بعض الناس إنما يفعل ذالك عادةً أو فرجةً أو صناعةً أوْ ليقول : لي كذا وقفة ، وكان سنة كذا وكذا وسنة كذا وكذا انتهى . قلت : وقول الشيخ رحمه الله مئة يوم يعني — والله أعلم — فيمن حَجَّ من مِصرَ لأن ذالك حسابهم في أيام سفرهم للحج ذهاباً وإيابا ، لا يزيدون عليها ولا ينقصون ، وهم على ذالك إلى الآن ، وإنما إذا اعتبرت من يحج منَ المغرب أو من غيره فحسابه غير يسير ، وحسابُهُ على ذالك التساهل في شأن الصلاة ، ولو تأخيرها عن وقتها عَسِير ، وقوله : أو صناعة من الناس من يحترف بالسفر إلى الحج ، فيسافر خدَّاماً أو قَيِّماً أو عكَّاماً أو صَوِيتِيّاً ، أو غير ذالك بأجرة معروفة ذهابا وإيابا ، ورأينا بعض مَنْ هذه حرفته من المغاربة ، يخدم من مصر إلى مكة ، ومن مصر إلى طَرابلس ، ثم يرجع إلى مِصر ، ويقعد بها أو يبتدىء سفراً آخر إلى الحجاز ، وهذه عادتهم ، ودَيْدَنُهم ، منهم من يحصل في ذالك مع متابعة الأسفار على شَيء من الدنيا ، ويعمــل منها رأس مال يَتَّجِرُ به ، ومنهم وهم الأكثر من لا يبارك له في شيء من ذالك ، وما حصل بيده في شهر أو أكثر يتلفه في ساعة أو أنزر ، وما رأيتُ متلفةً للمال مثل مصر ، فإنَّ شهواتِها كثيرة ، ومفاسِدَها والمعصوم من عصم الله .

قلتُ : وليتحقق المتحقق ، ويعتقد الصحيح الاعتقاد ، أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب ، لأنهم على جادَّةٍ واضحة ، لا بُنَيَّاتَ لها ، وما سوى ذالك مما بهذه الجهات المشرقية فأهواء متشعبةٌ وبدع ، وفرق ضَّالة وشِيعٌ ، إلا من عصمه الله من أهلها(٣) ، أما أهل المغرب فعلى مذهب الإمام مالك، في الفروع ، وعلى مذهب أبي الحسن الأشعريِّ في الاعتقادات ، سالمين من الشبهات والنزعات ، والتشيعات والنزوات ، وعِلْمُ علمائه سالمٌ من التخليط ، والتدليس رواية

صريحة، ودراية صحيحة ، كل عالم منهم فيهما رئيس ، يشاركون في العلوم كلها ، فقهاً وحديثاً وأصولا وتفسيرا وإعرابا ، وغير ذالك ﴿ جزاء مِن ربِّكَ عطاءً حسابا﴾ على أن المشرق اليوم فيما رأينا وخبَرْنَا ما بقي به من تُشَدّ إليه الرحال في طلب العلم ﴿ لله الأمرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ ﴾ .

رَجْعٌ : ولمكة شرفها الله ثلاثة أبواب حسبما ذكره غير واحد : (٤)

أوّلُهَا : بابُ الْمعلَى ، ومنه يُخْرَجُ إلى الْجَبَّانةِ المباركة ، وهي الموضع الذي يعرف بالْحُجُون ، وعن يسار الماشي إليها جبلٌ في أعلاه ثنيةٌ عليها علم شبه البرج ، يخرج منها إلى طريق العُمرة ، وتُعرف تلك الثنية بِكَدَاء ، وهي التي عنى حَسَّانُ بقوله في شعره :

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إنْ لَمْ تَرَوْهَا ... تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُها كَدَاء

فقال النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح للمهاجرين والأنصار : « ادخلوا من حيثُ قال حسان » فدخلوا من تلك الثنية، وهذا الموضع أيضا الذي يعرف بالْحُجُون هذا الذي عناه الحارثُ بن مُضَاضٍ الجُرْهُمِيُّ بقوله :

كأنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحُجُونِ إلَى الصَّفَا
أنِيسٌ ولَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ

قلت : يُضْرَبُ المثلُ بغربته وغربةِ قيس بن زهير ، قال الشاعر :

غُرْبَةٌ لَم تَكُنْ كَغُربةِ قَيْسِ بْـ ... ـنِ زُهَيْرٍ وَالْحَارِثِ بنِ مُضَاضِ

وقال الْمَعَرّيُّ :

فلا يَبْكِ مَكّيٌّ لِفَقْدِ حُجُونِهِ ... لِكُلٍّ بلادٍ مَصْرَعٌ وَحجُونُ

وبالجبَّانة المباركة مَدْفَنُ جماعةٍ من الصحابة والتابعين ، والأولياء والصالحين ، قد دَثرتْ مشاهدُهُمُ المباركة ، وذهبت عن أهل البلدة أسماؤهم ، وفيه الموضع الذي صلَبَ فيه الحجَّاجُ بن يوسف ــ لعنه الله ــ عبدَالله بنَ الزبير رضي الله عنه قالوا : وكان عليه بناء مرتفع ، فهدَمَهُ أهْلُ الطائف ، غيرةً منهم على ما كان يُجَدِّدُ من لعنة صاحبهم الحجاج المذكور ، وعن يمينك إذا

استقبلت الجبّانةَ مسجدٌ في مسيل بين جبلين ، يقال : إنه المسجد الذي بايعتْ فيه الجنُ للنبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى الباب المذكور طريق الطائف ، وطريق العراق ، والصعود إلى عرفات ، جعلنا الله ممن يفوز بالموقف فيها ؛ وهذا الباب المذكور بين الشرق والشمال ، وهو إلى الشرق أميَلُ .

ثم باب الـمَسْفَلِ وهو إلى جهة الجنوب ، وعليه طريق اليمن ، ومنه كان دخولُ خالدِ بن الوليد رضي الله عنه يوم الفتح .

ثم باب الزّاهِرِ ، ويُعرف أيضا بباب الْعُمْرة ، وهو غربي ، وعليه طريق مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وطريق الشام وطريق جُدّة ، ومنهُ يُتَوَجَّهُ إلى التَّنْعيمِ ، وهو أقرب ميقات المعتمِرِ ، يخرج من الحرم إليه على باب العمرة ، ولذالك أيضا سُمّي هو بهذا الاسم ، والتَّنْعيم من البلدة على فرسخ ، وهو طريق حسن فسيح ، فيه الآبار العذبة التي تسمى بالشُّبَيْكَةِ ، وعندما تخرج من البلدة بنحو ميل تلقَى مسجداً بإزائِهِ حجَرٌ موضوع على الطريق كالمصطبة ، يعلوه حَجَرٌ آخر مُسْنَدٌ فيه نَقْشٌ داثِرُ الرَّسْمِ ، يقال : إنه الموضع الذي قعد فيه النبي صلى الله عليه وسلم مستريحا عند مجيئه من العمرة ، فيتبرك الناس بتقبيله ومسح الخدود ، وحُقَّ ذالك[5] ويشدُّون إليه لِتَنَال أجسامَهُمْ بركةً لَمْسِهِ .

ثم بعد هذا الموضع بمقدار غلوة تَلْقَى على قارعة الطريق من جهة اليسار للمتوجه إلى العمرة قَبْرَيْنِ قد علتهما أكوام من الصخر عظام يقال : إنهما قبرا أبي لهب وامرأته ، فما زال الناس في القديم إلى هلُمَّ جرّاً يتخذون سنة رجمهما بالحجارة ، حتى علاهما من ذالك جبلان عظيمان ، وكنت حين توجهت للعمرة ، استصحبت معنا صبيّاً من أهل مكة ، بل هو تعلق بنا يُرِيْنَا أفعال العمرة على عادة صبيانِ مكة في تعلقهم بالحجاج ، رغبةً فيما ينالون منهم من الفضة ، فحين مررنا بالقبرين قال : تعَال ترْجُم ، وأتاني بالأحجار فقلت له : اذْهَبْ بنا . وسرتُ مُعْرِضًا عن القبرين ، فأنا رأيت أنَّ الاشتغال برجمهما لا يُفيد شيئا ،ولا ورد فيه شَيءٌ من كتابٍ أو سنة ، والصبي عَدَّ

ذالك الامتناع مني نَقْصًا إذْ خالفْتُ المألوف ، ولو كان ذالك بمحضر جماعة من أهل البلد ، وخشيت الإنكار عليَّ لفعلتُ ، إذْ لا ينبغي للإنسان أن يَرْتَكِب ما يُوجِب طَعْناً عليه ، لا سيِّما في أمْرٍ لَيْسَ في فعله محذور .

لطيفة — والشَّيء يُذْكَرُ بالشَّيء — ذكر بعض الأعلام من الأئمة المالكية أنهُ دخل بلدةَ السَّدْل(*) ، فيها من شعار الرافضة : قال : فكنت أقْبِضُ في صلاتي لِئَلاَّ أُرْمَى بالرَّفض .

قلتُ : ويزعمون أنَّ أحَدَ هذين القبرين أبُو رُغَالٍ .

قال العبدريُّ[٦] : ولا أتحقَّقُ شيئاً من هذا ، فإنَّ أبا رُغالٍ من ثَقِيف ، بعثه أهْلُ الطائف دليلاً على الكعبة ، لابْرَهَةَ مَلِكِ الحبشة ، حين أراد هَدْمَهَا فلما نزل الْمُغَمَّس ماتَ أبو رُغَالٍ ، فَرُجِم قبره هنالك إلى اليوم قلت : وقد قال جرير في مناقضاته الفرزدق :

إذَا مـاتَ الفرزْدَقُ فَارْجُمُوهُ كَرَجْمِكُمُ لِقَبْرِ أبِي رُغَالِ

قال العبدريُّ : والمُغَمَّسُ على يمين المُصَلِّي بعرفة ، وليس منها بعيداً ، وقد سألتُ عنه شيخاً من أهل البلد ، فأشار إلى ناحية اليمن ، وأنت مُسْتَقْبِلٌ القبلة ، وقد وَهِمَ فيه الأستاذ أبو القاسم السهَيْلِيُّ — رحمه الله — فذكر أنه من مكة ، على ثُلُثَيْ فَرْسَخ ، وذالك ما لا يصح . وليس المغمس من الحرم ، ولا وصل أصحابُ الفيل إلى الحرم ، بل المرويُّ خِلافُ ذالك ، وهو أنهم لما نزلوا بالْمُغَمَّسِ برك الفيل ، فكانوا إذَا وجهوه إلى ناحية الشام ولىَّ يُهَرْوِل ، وإذا رَدُّوا إلى اليمن فعل كذالك ، وإذَا وجهوه إلى الحرم بَرَكَ ولم يبرح ، وإنْ صحَّ الحديثُ الذي ذكره السهيليُّ وأنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أرادَ قضاء الحاجة وهو بمكة خرج إلى المُغَمَّسِ على ثلثي فرسخ ، فمعناه أنه يخرج إلى ناحية المغمَّسِ ، لا أنه يصل إليه ، ولعل التقييد بثلثي فرسخ إنما كان لمسافة المذهب ، لا لمسافة المغمس ، ولا يصح غير هذا والله أعلم . اللهم إلا أن يكون في الحرم موضع آخر يقال المغمَّس ، غير الذي انتهى إليه أبرهةُ ، ومات به أبو رغال ، وما أظنُّ ذالك كائنا والله الموفق .

وبعد ما تسير عن القبرين المذكورين مقدارَ مِيلٍ تَلْقَى الزَّاهِرَ(٧) وهو مبنى على جانبي الطريق ، وقد أُحْدِثَ فيه مطاهِرُ ، وسقاية للمعتمرين ، وعلى جانب الطريق دكّانٌ مستطيل يصف عليه كيزانٌ ومراكن مملوءةٌ للوضوء ، وهي القصاريّ الصغار ، وفي الموضع بئر عَذْبَة تُمْلأُ منها المطاهر المذكورة ، فيجد المعتمرون فيها مرفقا ، وعن جانبي الطريق في هذا الموضع ، جبال أربعة ، جبلان من هنا وجبلان من هنا ، يُذْكَرُ أنّها الجبال المباركة التي جعل إبراهيم عليه السلام عليها أَجْزَاء الطير ثم دَعَاهُنَّ ، حسبما حكى الله عز وجل عنه،عند سؤاله إياه،وحول تلك الجبال الأربعة جبال غيرها . وقيل : إنّ التي جعل إبراهيمُ عليها الطير سبعة منها والله أعلم .

وبعد مجاوَزة الزاهر المذكور ، تمرّ بالوادي المعروف بذي طُوَى ، والذي حُكِي أنّ النبي صلى الله عليه وسلم ، نزل فيه عند دخوله مكة ، وكان ابنُ عمر رضي الله عنه يغتسل فيه ، وحينئذ يدخلها ، وحوله آبَارٌ تعرف بالشُّبيكة ، وفيه مسجد يقال : إنه مسجد إبراهيم عليه السلام ، فتأمل بركة هذا الطريق ومجموع الآيات التي فيه ، والآثار المقدسة التي اكتنفته .

ثم تجيز الوادي إلى مضيق تخرج منه إلى الأعلام التي قد وُضِعَتْ حَجْزًا بين الحل والحرم ، فما داخلها إلى مكة حَرَمٌ ، وما خارجها حِلٌ ، وهي كالأبراج مصفوفة كبار وصغار ، واحد بإزاء آخر ، وعلى مقربة منه تأخذ من أعلى جبل يعترض عن يمين الطريق في التوجه إلى العمرة ، وتشق الطريق إلى أعلى جبل عن يساره ، ومنه ميقات المعتمرين ، وفيها مساجدُ مبنية بالحجارة ، يصلّي المعتمرون فيها ، ويحرمون منها ، ومسجد عائشة — رضي الله عنها — خارج هذه الأعلام بمقدار غَلْوَتَيْنِ ، وإليه يصل المالكيون ، ومنه يحرمون ، وأما الشافعيون فيحرمون من المساجد التي حول الأعلام المذكورة ، وإنما مسجد عائشة — رضي الله عنها — مسجدٌ ينسب لعلي بن أبي طالب — رضي الله عنه —

(للحديث صلة) ←

— ٧ —

قَنَوَّرُ

— بفتح القاف والنون والواو مشددة وآخره راء — كذا ورد هذا الاسم مضبوطاً ضَبْطَ قَلَمٍ في مخطوطات كتاب « بلاد العرب » وهو غير الموضع المتقدم ذكره قال (١) — بعد ذكر الرمادة وتقدم تحديد موقعها — : (ثم بَيْن طُوَيْلِع والرمادة ماءة يقال لها قَنَوَّر ، وهي لبني مناف بن دارم) . انتهى .

وطُويلع يعرف الآن باسم الضَّبْعيَّات كما سبق إيضاح هذا ، والرمادة تقع غربه في أسافل الصَّمَّان .

← الحواشي :

(١) رحلة ابن جبير — ص ١٣٢ — طبعة دار الهلال في بيروت ١٩٨١م .

(٢) فوق كلمة (وقمه الله) : كذا . وكأن الكاتب استشكل الكلمة ومعناها : أذله الله وقهره .

(٣) القول لابن جبير في رحلته — ص ٤٩ — إلى كلمة (من أهلها) .

(٤) ملخص من رحلة ابن جبير — ص ٧٨ — إلى جملة : (وكنت حين توجهت للعمرة قد استصحبت معنا صبياً) .

(٥) لا يجوز شرعاً تقبيل شيء من الأحجار — حاشا الحجر الأسود من أحجار الكعبة المطهرة — ولا دليل يثبت ما تتناقله العامة عن هذا الحجر وعن غيره من الأحجار التي تنسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولو صح ذلك لكان السلف الصالح أول من اعتنى بها .

(ه) السدل إرخاء اليدين في القيام للصلاة ، والسنة وضعهما فوق الصدر والكف اليمنى فوق الكف اليسرى ، ولكن المالكية لا يرون هذا بل يرون سدلهما على الجنبين .

(٦) صاحب الرحلة وكلامه هذا فيها .

(٧) رحلة ابن جبير — ص ٧٩ — إلى (لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه) .

قَــوّ

بفتح القاف بعدها واو مشددة — : في «معجم البلدان» : وقال أبو زيادٍ الكلابيُّ : قَوٌّ وادٍ بين اليمامة وهجر ، نزل به الحطيئة على الزبرقان بن بدر ، فلم يُجهّزه فقال :

أَلَمْ أَكُ نائياً فدَعَوتُموني فَخَانَتْني المَواعِدُ والدُّعاءُ
أَلمْ أَكُ جارَكُمْ فتركتموني لِكَلْبِي في دِيارِكُمْ عُواءُ
أُحيِلَ عَلَى الْخِباءِ ببطن قَوٍّ بناتُ الليلِ فاحْتُمِلَ الْخِباءُ

وعد الهمداني[٢] في ديار تميم : قَوَّيْنِ ، وقرار قَوٍّ . وقال في وصف طريق البحرين إلى اليمامة ، بعد أن ذكر الصمان[٣] : ثم ترجع إلى طريق زَرْيٍ قاصداً إلى اليمامة ، عن يسارك الدُّبَيْبُ ماءٌ ، وأنت جائز الصحصحان ، وعن يمينك ماء يقال له الدُّحرض ، ثم تقطع بطن قَوٍّ ، ثم السمراء وهي أرض سَهْبٌ ، ثم تأخذ في الدهناء .

وفي « معجم البلدان » الصُّلْبانِ : واديان في بلاد بني عامر . قال لبيد — وأورد شاهداً تقدم في الصُّلْبَيْن ، وقول نصرٍ أنَّ المقصود الصُّلْب وموضعاً آخر فَغَلَّبَ الصلبَ لأنه أعرف . وفي الشاهد :

نفى جحشانَنا بجمادِ قَوٍّ خليطٌ لا ينامُ إلى الزِّيَالِ
وأَمْكَنَهُ مِنَ الصُّلْبَيْنِ حتَّى تَبَيَّنَتِ الْمُخَاضُ من التَّوالِي

فمفهوم قول لبيد قُرْبُ جِمَادِ قَوٍّ قُرْبُهُ من الصلب . أما قول ياقوت عن الصلبين وأنهما من بلاد بني عامر فلعله مبني على كون لبيد منهم ، ولكن الشاعر كثيراً ما يذكر من المواضع ما هو خارج عن بلاد قومه .

وأورد صاحب كتاب « الأغاني »[٤] من قول المرقش الأصغر من قصيدة طويلة يصف ظُعُناً :

تَحَمَّلْنَ مِنْ جَوِّ الْوَرِيعَةِ بَعْدَ ما
تَعَالَى النَّهَارُ وانْتَجَعْنَ الصَّرائِمَا

سَلَكْنَ الْقُرى والجِزْعَ تُحْدَى جِمالُها
وَوَرَّكْنَ قَوًّا واجْتَزَعْنَ الْمَخَارِمَا

وقد ورد اسم قَوٌّ كثيراً في شعر جرير فمنه[5] :

كأنَّكَ لَمْ تَسِرْ بِجَنُوبِ قَوٌّ وَلَمْ تَعْرِفْ بِنَاظِرَةَ الْخِيَامَا
عَرَفْتَ مَنَازِلاً بِجِمَادِ قَوٌّ فَأَسْبَلْتَ الدُّمُوعَ بِهَا سِجَامَا

وقال[6] :

عَفَا قَوٌّ وكانَ لَنَا مَحَلاً إلَى جَوَّيْ صُلاَصِلَ من لُبَيْنَى

وقال[7] :

تَباعَدَ هذَا الوَصْلُ إذْ حَلَّ أهْلُهَا بِقَوٌّ وحلَّتْ بَطْنَ عِرْقٍ فَعَرْعَرَا

وقال جرير أيضاً[8] :

أَمِنْ دِمَنٍ بَلِيْنَ بِبَطْنِ قَوٌّ بَكَيْتَ لَهَا وَشَجْوٌ مَا شَجَاكَا ؟

وقال[9] :

ذَكَرْنا ما نَسِيتَ غَدَاةَ قَوٌّ وَقَدْ يَهْتَاجُ ذُو الطَّرَبِ الْوَصُولُ

وقال[10] :

قِفَا عُوجَا عَلَى دِمَنٍ بِرَهْبَى فَحَيُّوا رَسْمَهُنَّ ، وإنْ أحَالاَ
وشَبَّهْتُ الحُدُوجَ غَدَاةَ قَوٌّ سَفِينَ الْهِنْدِ رَوَّحَ مِنْ أَوَالاَ

قَوٌّ : ما بين النِّبَاجِ والعَوْسَجَةِ . وأوَالُ بالبحرين .

جَعَلْنَ الْقَصْدَ عَنْ شَطِبٍ يَمِيناً وَعَنْ أَجْمَادِ ذِي بَقَرٍ شَمَالاَ

— إلى أن قال — :

أُحِبُّ الظَّاعِنِينَ غَدَاةَ قَوٌّ وَلاَ أَهْوَى الْمُقِيمَ بِهِ الْحِلاَلاَ

وقال جَرِير أيضاً[11] :

ألا حَيِّ الدِّيَارَ بِسُعْدَ إنِّي أُحِبُّ لِحُبِّ فاطِمَةَ الدِّيَارَا

لقدْ فَاضَتْ دموعُــكَ يَوْمَ قَــوٍّ   لِبَيْنٍ كانَ حاجتَهُ ادِّكَارَا

إلى أن قال — :

إذَا مَا حَلَّ أهلُكِ يَا سُلَيْمَــى   بِدَارَةِ صُلْصُلٍ شَحَطُوا الْمزَارَا

وقال[12] :

فلوْ كُنْتَ عندي يَوْمَ قَوٍّ عَذرْتَنِي   بِيَوْمٍ زَهتْنِي جِنُّهُ وأَخَـابِلُهْ

وقال[13] :

ألاَ حَيِّ بِالْبَرْدَيْنِ دَارًا ولاَ أَرَى   كَدَارٍ بقَو لاَ تُحَيَّا رُسُومُهَـا

وورد اسم قَوٍّ في رَجَز العَجَّاج[14] :

فصَــادَفَتْ من خَشْــرَمٍ أَلْصَـاصَـا
فأصبحُــوا غاصُــوا بهَــا مَغَــاصَــا
لبطــن قَــوٍّ أو نَــووا فَيَــاصَــا

وقال أوس بنُ حَجَرَ[15] :

فَبَطْنُ السُّلَيِّ فَالسَّخَالُ تَعَذَّرَتْ   فَمَعْقُلَةٌ إلى مَطَــارِ فَوَاحِــفُ
فَقَوٌّ ، فَرَهْبَا فالسَّلِيْلُ فَعَاذِبٌ   مَطَافِيْلُ عُوْذِ الْوَحْشِ فيها عَوَاطِفُ

قَوٌّ — مع أنه علم مرتجل كما حسب ياقوت ، وليس وصفاً — فإنه يطلق على أودية متعددة ففي شمال الجزيرة ، غرب تَيْمَاء وادي قَوٍّ وهو مشهور ومعروف الآن ، حددتُ موقعه في قسم شمال المملكة — ص ١١٢٤ — .

وفي شرق القصيم وادٍ ذكره صاحب كتاب « المناسك » وحاول تحديد موقعه صاحب كتاب « معجم القصيم » فذكر أنه المعروف الآن باسم (قُصَيْبَا) .

وفي المنطقة الشرقية موضع يعرف باسم قَوٍّ ، كما يتضح من النصوص المتقدمة ومما جاء في كتاب « النقائض»[16] : يقال فيه فَرُوقُ قَوٍّ ، وهو الموضع الذي وقع فيه يوم الْفَرُوق بين بني عبس وبين بني سعد بن زيد مناة .

ولعل الوقعة حدثت في الفروق الموضع الذي لايزال معروفاً ، ثم امتدّت إلى قَوٍّ ، كما يفهم من تحديد الهمداني المتقدم لِقَوٍّ ، فهو بعيد عن الفروق وذالك التحديد واضح في أنّ قَواً يقع شرق الدهناء بقربها ، يسار منهل حرض الذي أصبح الآن بلدةً ، وقد تكون أعالي وادي قَوٍّ بقرب الدهناء ، وأن أسفله يمتد إلى الفروق . ومهما يكن فالموضع ليس معروفاً الآن بهذا الاسم – على ما بلغني .

أما النصوص الشعرية التي أورت فقد يكون من بينها ما لا ينطبق على قَوٍّ موضع الحديث ، إلاّ أن كونه في بلاد بني تميم ومن بين أصحاب النصوص من هو منهم ، فقد أوردت شعره للاستئناس به .

وقول الحطيئة الذي أورده ياقوت لا أراه ينطبق على الموضع المقصود ، لأنّ الزبرقان حين قصده الحطيئة كان على (بنبان) في اليمامة ، وإنما أراد الحطيئة قَوّاً الذي في بلاد عبس ، وهو الذي في بلاد القصيم .

وقد ورد اسم قَوّ بصيغة التثنية في قول ذي الرُّمَّة :

جَادَ الرَّبِيعُ له رَوْضَ الْقِـذَاف إلى قَوَّيْنِ ، وانْعَدَلَتْ عنه الأصارِيْمُ

وتقدم القول بأنّ روض القذاف وقَوَّيْنِ من بلاد بني سعد ، وأن القذاف في شِقّ حُزْوَا – أي شرق الدهناء ، حيث حدد الهمداني موضع قَوٍّ .

الْقُـوتُ

جاء في شرح قول ابن مُقَرَّبٍ :

كَمْ بِالْعَشِيْرَةِ مُذْ تولّى ماجِدٌ من سابقٍ بِعِتْمْ ومِنْ بُسْتَانِ

أن أهل الأحساء أثناء فساد حكم ماجد بن محمد بن علي بعثوا إلى الأمير علي ابن الحسين بن عبدالله بن علي فأدخلوه البلد ، وحاصروا ماجد بن محمد في القوت حتى أخرجوه منها ، وملكها علي .

فهل كلمة (القوت) صحيحة ؟

أخشى أن تكون من وضع شارح الديوان ، وأنه كان مُتَأَخّرًا إلى الزمن الذي انتشرت فيه كلمة (الكوت) بمعنى الحصن في القرن العاشر ، متأخراً عن زمن ابن المقرب وهو أول القرن السابع ، فاستعمل الكلمة بالقاف (القوت) .

القَـــوْسُ

قال في « نخبة الدهر » : بلاد البحرين ، ويسمى القوس ، وهجر اسم واقع على مجموعه ، وليس باسم مدينة ، ومن أمصاره الأحساء ، وهي القصبة ، وتعرف بأحساء بني سعد ، يحيط بها غوطة نخل . انتهى .

وقال الهجريُّ[١٧] : مَوْثِبُ أحد جِزْعَيْ يبرين ، والجزع الآخر الْخِن والقوس وهما أعظم من مَوْثِبٍ ، والمَوْثِبُ جِزْعٌ من يَبْرِيْن الذي يَلِي الْفَلَجَ ، والجزع الآخر الذي يلي البحرين ، وبين الجزعين مبدأة الإبل ، العشرة أميال . انتهى .

وكلام الهجري أوضح من كلام صاحب « نخبة الدهر » فقد أوضح أن القوس هو جزع يَبْرِيْنَ الموالي للبحرين ، أي الجانب الشرقي . ويبرين واحة معروفة طغت الرمال على كثير من جوانبها .

القُـــوع

رأيت في أحد البيانات[١٨] الموضوعة باللغتين العربية والانجليزية — القوع : من قُرى القطيف ، ولست على يقين من صحة الاسم فقد يكون محرفاً .

قَهْدِيَّـــةُ

— بفتح القاف وإسكان الهاء وكسر الدال المهملة وفتح المثناة التحتية مشددةوآخره هاء — : موضع يقع غَرْبَ العقير ، وفيه رمالٌ تدعى نقا قَهْدِيَّة ، ينحرف عنه طريق الْعُقَيْرِ إلى الأحساء نحو الجنوب ، فيه أغار آل مُرَّةَ والعُجْمَانُ على قافلة قادمة من ميناء العُقَيْرِ إلى الأحساء ، ومعها جند من الأتراك لحمايتها ، فقتلوا منهم نحو الخمسين ، ونهبوا القافلة ، وذالك في سنة ١٣٢٠ ، — وذكر الشيخ عبد العزيز

ابن صالح العلجي هذه الوقعة في قصيدة مدح بها السيد طالباً النَّقيب حين ولاه الأتراك الأحساء في تلك السنة قال فيها :

وَمِنْ عسكـــر الساطـــان خَمْسينَ غَـــادَرُوا
على وَهَدَاتِ الرَّمْلِ يَجْرِي صَدِيدُهَـــا[19]

وفي كتاب «دليل الخليج[20]» أمُ الذَّرّ على بعـــد ميل في الشمال الشرقي من البُسَيْتِين ، بقربها مجموعة من الرواني حيث كان في سنة ١٩٠٢ رجال من آل مُرَّة تنتظر فرقةً تركية حربية ، ففاجأتها بعد ذالك عند قَهْدِية . وفي سنة ١٩٠٦ تكرر الحادث .

قَهْــوَة

بالفتح وإسكان الهاء وفتح الواو وآخره هاء — : مُشَاشٌ يقع غرب دوحة مُنيفَةَ . وشرق الطُّرَيْفَةِ ، الواقعة شرق بلدة النُّعَيْرية ، وهو من موارد قبيلة العوازم .

قيَّـــاص

قياص موضع ورد ذكره في رجز للعجاج ، تقدم في الكلام على قَوٍّ ، وتقدم ذكر الاسم في حرف الفاء (فياص) . ويفهم من ذكره مع قوٍّ وقوعه في نواحي الصمَّان ، ولم أجد من المراجع ما أتمكن به من ضبط الاسم ، فضلاً عن تحديد موقعه.

القَيْصُومَــةُ

— على لفظ واحدة القَيْصُوم ، وهو نبات قريب الشبه بالشِّيْح ، شجيرته ذات أغصان دقيقة ، ترتفع عن الأرض قدر الذراع ، ولونها أشهب ، وورقها صغير ، ورائحتها طيبة — : واسم القيصومة يطلق على مواضع ، ولعله من صفات الأمكنة التي تُنْبِتُ القيصوم ، ثم أصبح علماً لتلك المواضع .

منها قيصومة فَيْحَان — وقد حددتها في قسم شمال المملكة من « المعجم الجغرافي »

ص١١٢٩[٢١] — وقد ورد ذكرها في كتاب « المناسك » في وصف طريقي البصرة إلى المدينة بما نصه[٢٢]— : بعد ذكر الوقباء — : (ثم يُؤْخَذُ في الْحَزْنِ على مياه يقال لها القيصومة، وقنة ، وحومانة الدراج ، حتى يخرجون على أبرق الْعَزَّاف ، ثم يمضون إلى بطن نخل) .

والقيصومة هذه لاتزال معروفة .

ومنها قيصومة ورد ذكرها في « بلاد العرب »[٢٣]. وكتاب نَصْرٍ ، و « معجم البلدان » بما ملخصه : ثم أعظم ماء لِضَبَّةَ بالبادية الدَّجْنِيَّتَانِ ، وهما ماءتان عظيمتان ، ليس بينهما ميل يقال لهما الدَّجْنِيَّةَ والقيصومة — إلى أن قال — : وتَعْشَارُ فوقهما، وهذا كله في ناحية الوشم ، وقال : والدَّجْنِيَّتَان وراء الدهناء ، قريب منها، ولما أورد ياقوت كلام نصر — ويظهر أن مصدره كتاب « بلاد العرب » أضاف إليه قائلاً : هذا لفظه إلا أنَّ الْوَشْمَ موضع باليمامة في وسطها ، والدهناء في وسط نجد ، فكيف يتفق ؟ والواقع أنَّ استشكال ياقوت لذكر الوشم هنا في مَحَلِّهِ ، فمفهوم قربهما من الدهناء يستلزم كونهما شرق جبل عارضِ اليمامة ، والوشم غرب هذا الجبل بمسافة بعيدة . وأقرب ماينطبق عليه تحديد الماءتين المذكورتين أنهما الدَّجَانِيُّ والقاعية ، من مياه الْعَرَمَةِ في شمالها ، ووصف موقع تَعْشَار بأنه فوقهما يدل على أنه خارج الدهناء غرباً ، على مقربة من العرمة .

وقَيْصُومَةٌ تقع شرقأالدهناء ، أصبحت الآن قرية تابعة لإمارة الْحَفَرِ ، وهذه لم أر لها ذكرا قديماً ، وهي أشهر مايعرف الآن لوقوعها على خط ضَخِّ النفط من شرق البلاد إلى الشام — الأردن ولبنان — وتقع في الجنوب الغربي من بلدة الْحَفَرِ وسيلها يفيض في واديه المعروف باسم (الباطن) وهي في الضفة الشرقية من وادي فُلَيْجِ الجنوبي . (بقرب خط الطول : ٥ً/٤٦° وخط العرض : ٢٣ً/٢٨°). وكانت روضةً ، فلما مُدَّ خطُّ الأنابيب في عشر الستين من القرن الماضي أُنْبِطَ فيها ماء غزير ، واتُّخِذَتْ مركزاً من المراكز التي استقرَّ بها المشرفون على ذالك الخط . وهناك مواضع أخرى تسمى القيصومة غير ما تقدم ذكره .

— انتهى حرف القاف ويليه حرف الكاف (كاظمة) .

- ٣٣ -

٢٠٤ - بَابُ جَلاَّلٍ ، وحِلاَلٍ ، وحَلاَلٍ وخِلاَلٍ[1]

أمَّا الأوَّل - بِفَتْحِ الْجِيمِ وتَشْدِيدِ اللاَّمِ - : اسْمٌ لِطَرِيقٍ نَجْدٍ إلَى مَكَّةَ ، ويُقَالُ لَهَا أيْضًا : مِثْقَبٌ والْقَعْقَاعُ ، وفي حديث الهِرْماسِ ابن حَبِيبٍ عن أبِيهِ عن جَدِّهِ ، قَالَ : الْتَقَطْتُ شَبَكَةً على ظَهْرِ الْجَلاَّلِ بِقُلَّةِ الحَزْنِ ، فَأتَيْتُ عُمَرَ بْنَ الخطَّابِ - رضي الله عنه - فَقُلْتُ : أسْقِنِي شَبَكَةً عَلَى ظَهْرِ جَلاَّلٍ . - الحديث - ذَكَرَهُ النَّضْرُ ابْنُ شُمَيْلٍ[2] .

الحواشي :

(١) : ٣٥٤ .
(٢) : « صفة جزيرة العرب » : ٣٣٣ .
(٣) : ٢٨١ .
(٤) : ١٢٨/٦ طبع دار الكتب .
(٥) ديوانه : ٢٢٢ .
(٦) ٣٥٣ .
(٧) ٤٦٨ .
(٨) ديوانه : ٥٩٩ .
(٩) ٧١٧ .
(١٠) ٧٤٨ .
(١١) ديوانه : ٨٨٦ .
(١٢) ٩٦٥ .
(١٣) : ٩٨٥ .
(١٤) ديوانه ٣٤٤ .
(١٥) « معجم ما استعجم » رسم (برك) .
(١٦) : ص : ١٠٧١ .
(١٧) أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع : ٣٨٩ .
(١٨) (أسماء أمكنة عربية) من وضع شركة (أرامكو) ذكرته في المقدمة ص ١٢ .
(١٩) : « تاريخ الأحساء » : ١٨٧/١ .
(٢٠) في الكلام على منطقة المقير .
(٢١) أنظر « العرب » س ٦ ص ٨٥٧ .
(٢٢) : ٦٠٤ .
(٢٣) : ٢٩٠ .

وأمَّا الثَّانِي : ـ أوَّلُهُ حاءٌ مُهْمَلَةٌ مَكْسُورَةٌ واللاَّمُ مُخَفَّفَةٌ : ـ بَعْضُ نَوَاحِي الْيَمَنِ ، له ذِكْرٌ[٣] .

وأمَّا الثَّالِثُ ـ بفتحِ الحاء واللاَّمِ والْبَاقِي نَحْوُ مَا قَبْلَهُ : ـ صَنَمٌ لِبَنِي فَزَارَةَ[٤] .

وأمَّا الرَّابعُ : ـ أوَّلُهُ خاءٌ مكْسُورَةٌ والْبَاقِي نَحْوُ ما قَبْلَهُ : ـ مَوْضِعٌ بِحِمَى ضَرِيَّةَ فِي دِيَارِ بَنِي نُفَاثَةَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ كِلاَبٍ[٥] .

٢٠٥ ـ بابُ جَمَلٍ ، وحَمَلٍ[٦]

أمَّا الأوَّلُ : ـ بفتحِ الجيمِ والْمِيمِ: ـ بِئْرُ جَمَلٍ بِالْمَدِينَةِ ، لها ذِكْرٌ فِي الْحَدِيثِ[٧] ، .

ولَحْيُ جَمَلٍ : مَوْضِعٌ بَيْنَ الْمدِينَةِ ومَكَّةَ ، وهو إلَى الْمَدِينَةِ أقْرَبُ ، وهُنَاكَ احْتَجَمَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عام حَجَّةِ الْوَدَاعِ[٨] .

ولَحْيُ جَمَلٍ أيْضًا : ـ مَوْضِعٌ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَفَيْدَ ، عَلَى طَرِيقِ الْجَادَّةِ بَيْنَهُ وبَيْنَ فَيْدَ ثَلاَثُونَ مِيلاً[٩] .

ولَحْيُ جَمَلٍ : جَبَلاَنِ بِالْيَمَامَةِ فِي دِيَارِ قُشَيْرٍ[١٠] .

وعَيْنُ جَمَلٍ : قُرْبَ الْكُوفَةِ[١١] .

وأمَّا بَدَلَ الجيمِ حَاءٌ مُهْمَلَةٌ : ـ قال الأزْهَرِيُّ : هو اسْمُ جَبَلٍ فِيهِ جبلانِ يُقَالُ لَهُمَا طِمِرَّانِ ، وقال :

كَأنَّهـا وقَـدْ تَدَلَّى النَّسْـرَانْ
وَضَمَّهَـا مِنْ حَمَـلٍ طِمِـرَّانْ
صَعْبَـانِ عَنْ شَمَـائِلٍ وأيْمانْ

وقال غيرهُ : حَمَلُ فِي أرْض بِالْقَيْنِ[١٢] .

وأيضاً : جَبَلٌ قُرْبَ مكّةَ[١٣] .

واسْمُ نَقاً مِنْ رَمْلِ عَالِـجٍ[١٤] .

الحواشي :

(١) في كتاب نَصْرٍ في باب الحاء : (باب الحِلاّل والحَلاّل والخِلاّل وجَلاّل) .

(٢) هذا نَصُّ كلام نَصْر . ولم يَزِد الحازميُّ في تعريف المواضع الأخرى على ما في كتاب نَصْر . وأورد ياقوت كلام نَصْرٍ وأضاف : ولا أعرف معناه ، وخبرنا رجل من ساكني الجَبَلَيْنِ أنَّ جلاّلاً رَمْلٌ في غربي سَلْمَى ، وحَدُّهُ من جهةِ القِبلةِ غُوطَةُ بني لامٍ ، ومن الشمال اللُّوَى ، ومن الغرب عَرْفَجاءُ ، وشرقيُّهُ بَقْعَاءُ . قال الراعي :

يَبِيتُ بِأَخْـراهَا بُرَيْمَـةُ بَعْـدَمَا ... بَدَا رَمْـلُ جَـلاَّلٍ لهَـا وعَوَابِقُهْ

– أي نواحيه – ثم أورد ياقوت حديث الهرماس بنصّه ولم يزد سوى قوله : والشَّبَكَةُ والشِّباكُ الآبَارُ المجتمعة . انتهى . وأورد البكريُّ في « معجم ما استعجم » في رسم (جلال) ورسم (قُلَّة الحَزْن) الحديث بهذا النَّص : رَوَى النَّضْرُ بن شُميل عن الهرماس بن حبيب عن أبيه عن جَدّه أنه التقط شَبَكَةً على ظهر جلال بِقُلَّةِ الحَزْن ، في خلافة عُمَر ، فقال : يا أمير المؤمنين أسْقِنِي شَبَكَةً على ظهر جلال بِقُلَّةِ الحَزْنِ . فقال الزُّبير بن العوَّام : إنك يا أخا تَمِيم تسأل خَيْرًا قليلا . فقال عُمَرُ : مَا هو خَيْرٌ قليل قِرْبتان من ماء وقِرْبَةٌ من لَبَنٍ تُغَادِيَانِ أهلَ بيتٍ مِنْ مُضَر بِقُلَّةِ الحَزْنِ ، لا ، بل خَيْرٌ كثير قَدْ أَسْقَاكَهُ الله ، الشبكةُ واحدة الشِّبَاكِ ، وهي آبار متجاورة قريبة القعر يفضي بعضها إلى بعض ، وجلال جبل معروف ، وقوله : قِرْبَةٌ من ماء وقِرْبَةٌ مِنْ لَبَنٍ : يُرِيد أن الإبل تَرِدُ الماء وتَرْعَى بِقُرْبِهِ فيأتيهم الماءُ واللبن . انتهى . وقد ترجم الحافظ ابنُ حَجَر الهِرْمَاسَ في « تهذيب التهذيب » فذكر أنه روى عنه النضر بن شميل ، وأنه تميميٌّ عَنْبَرِيٌّ ، خرج له أبو داود وابن ماجه ونقل عن أبي حاتم قوله : شيخ أعرابي ، لم يَرْوِ عنه غير النضر ، ولاَ يُعْرَفُ أَبُوه ولا جَدُّه .

مما تقدم يتضح أنَّ اسم جَلاَّل يُطْلَقُ على موضعين : أحدهما الرَّمْلُ الذي حَدَّدَهُ ياقوت وهذا غَرْبَ جبل سَلْمَى ، ويمتدُّ شرقاً حتَّى بَقْعَاء ، وسَلْمَى وبقعاء لا تزالان معروفتين بمنطقة حائل ، سَلْمَى أحد جبلي طَيِّء ، وبقعاء قرية معروفة . ولا صلة لجَلاّلٍ هذا بما ورد في كتابَيْ نَصْرٍ والحازمي.

الثاني : جَلاَّلٌ الطَّرِيقُ الذي ورد فيه خَبَرُ الهِرْمَاس ، وهو – كما يفهم من هذا الخبر – يَمْتَدُّ من العراق مارًّا بِالحَزْنِ ، مخترقاً بلادَ بني العنبر الواقعة بامتداد وادي فَلْجٍ (الباطن ، باطن الحَفَرِ) حتى الدَّهْنَاء ، التي يَجْتَازُها الطريقُ إلى نَجْد ، ولهذا فإنَّ عبارة (طريق نَجْد إلى مكّة) فيها إبهامٌ ، إذِ الحَزْنُ ، بَلْ بلاد بني العَنْبَرِ كلها يفصل بينها وبين نَجْد الدَّهْنَاءُ وهي تقع شرقَ نجد ، وشرقها يقعُ الحَزْنُ ، ومكة تقع غرب نَجْد . ومِثْقَبٌ والقَعْقَاعُ طريقان يمتدّان من شرق الجزيرة – العراق والبحرين – إلى غربها .

وللمستشرق (ألويس موسل) كلامٌ حول تحديد طريق جلاّل أوردته في قسم (شمال المملكة) من كتاب « المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية » بَنَاهُ على وَهْمٍ وخَلْطٍ بين جَلاّل وخلاّل .

(٣) نَصُّ كلامِ نَصْرٍ : الحِلاّلُ .. بكسر الحاء – : صُقْعٌ بِعُمَانٍ . انتهى . وقال ياقوت في « معجم البلدان » :

حِلاَل – بالكسر وتخفيف اللام – : من نواحي اليمن . ثم فَسَّرَ الكلمة تفسيرًا لُغَويًّا ولم يَزِدْ . ومع تَقَصِّي الهَمْداني في « صفة جزيرة العرب » فلم أرَهُ ذَكَرَ هذا الموضع . ولا أدري من أين أتى الحازمي بقوله عنه (لَهُ ذِكْرٌ) .

(٤) حَلاَل – صَنَمٌ بني فزارة ذكره ياقوت ، ويظهر أن مصدره كتاب الحازميّ ، ومصدر الحازمي ما جاء في كتاب نَصْر : الحَلاَل – بالفتح صَنَمٌ لبني فَزَارة . ولم يذكر ابنُ الكلبي في كتاب « الأصنام » في طبعته التي وصلتْ إلينا هذا الصنم ، ولم أر له ذكرًا فيما اطلعت عليه من الكتب .

(٥) خِلاَل : أورده نصرٌ مُعَرَّفاً : الخلال – بخاء مكسورة – : بِحِمَى ضَرِيَّةَ ، من ديار نُفَاثَةَ بن عبدالله ابن كلاب . وفي « معجم البلدان » : خِلاَلُ – بكسر أوله بلفظ الخلال الذي يستخرج به قذى الأسنان – : موضع بحمى ضَرِيَّة ، في ديار بني نُفَاثَة بن عديٍّ بن كِنَانَةَ . انتهى . وهذا يُصَحِّحُ خطأً وقع في كلام نَصْر والحازمي ، إذْ بنُو نُفَاثَةَ لَيسوا من بني عبدالله بن كلاب ، بل من بني عَدِيٍّ بن الدِّيل بن كنانة ، ولكنْ خطأً آخر لم يُصَحَّح ، وهو أنَّ بني نُفَاثَة دِيَارُهُمْ في تِهامَةَ بعيدة عن حِمَى ضَرِيَّة الواقع في نَجْد ، وبنو كِلاَب من سكانه قال الهجريُّ : وقد دخل في حِمَى ضَرِيَّةَ حُقُوقٌ لسبعة أبْطُنٍ من بني كِلاَب ، وهم أكثرُ الناس أملاكاً في الحِمَى ، ثم حقوق غني – ٣٥٨ « أبو علي الهجري ، وأبحاثه في تحديد المواضع » فهل اسم نُفَاثة يطلق على بطن من بطون بني عبدالله بن كلاب أو أن الاسم مُحَرَّف ؟! على أن اسم الخلال قد ورد في شعر للبيد ، أورده البكريُّ في « معجم ما استعجم » ولكن يفهم منه أنه يقع في جنوب نجد ، بقرب قضيب وتختم ، إن لم يكن الاسم مُصَحَّفاً ، وما أكثر التصحيف في كتاب البكري – رحمه الله – .

(٦) في كتاب نصر في حرف الحاء : (باب حَمَل وجَمَل وجَمْل) .

(٧) عند نَصْر : بئر جَمَلٍ في المدينة ، في حديث جَهْم . انتهى . وفي « معجم البلدان » : بئر جَمَلٍ في حديثِ أبي جَهْم في المدينة . أمّا البكريُّ في « معجم ما استعجم » فقال في رسم لَحْيِ جَمَلٍ : وبهذا الموضع احتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم في وَسَطِ رأسه وهو مُحْرِمٌ – رواه مالك – وهي بئرُ جَمَلٍ التي ورد ذكرُهَا في حديث أبي جُهَيْم بن الحارث ابن الصِّمَّة قال : أقبل النبيُّ صلى الله عليه وسلم من بِئْرِ جَمَلٍ ، فَلَقِيَهُ رجلٌ فسلَّمَ عليه فلَمْ يَرُدَّ النَّبيُّ عليه حتى أقبل على الجدار فمسح بوَجْهِه ويَدَيْه ، ثم رَدَّ عليه السَّلاَمَ . رواه البخاري . وقد قيل : بِئْرُ جمل ماءٌ آخرُ بالمدينة . انتهى . فقول البكري عن لَحْيِ جمل أنه بئر جَمَلٍ خَلْطٌ بين موضعين ، ولكنه استدرك بجملة : وقد قيل إلى آخرها .

وراوي الحديث هو – كما في « الإصابة » – ٢٠٨ الكُنَى و « تهذيب التهذيب » – أبُو جُهَيْم بن الحارث بن الصِّمَّة النجّاريُّ الأنصاريُّ ، اختلف في اسمه فقيل : عبدالله وقيل : الحارث ، ويقال : أبو جهم ، وهو صحابي ، روى عنه الجماعة .

وبِئْرُ جمل أطال السمهودي في كتاب « وفاء الوفاء » الكلام عليها ، وأورد بعض طُرُق الحديث المتقدم ومنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب نَحْو بِئْرجمل ليقضي حاجته ، فلقيه رجلٌ مقبل ، فسلَّم عليه ، وفي رواية النَّسَائي : أقبل من نحو بئر الجمل ، وهو من العقيق ، قاله المجد ، قال : وهي بئرٌ معروفة بناحية الجُرُف بآخِر العقيق ، وعليها مال من أموال أهل المدينة . قال : ويحتمل أنها سُمِّيَتْ بجمل مات فيها ، أو برجل اسمه جمل حفرها . قلت : وهي غير معروفة اليوم ، ولم أرَ من سبق المجْدَ بكونها بالجُرُف غير ياقوت . هذا من كلام السمهودي ، وهو من أهل القرن التاسع مما يدل على أنها جُهِلَتْ مِنْذُ ذالك العهد .

(٨) لَحيُ جَمَلٍ ويجوز كسر اللام — : يطلق هذا اسماً على كثير من الجبال والآكام التي تشبه في مَنْظَرِهَا لَحْيَ الْجَمَل ، ومنها للموضع الذي احتجم الرسول صلى الله عليه وسلم فيه بين مكة والمدينة ، وهو إلى المدينة أقرب في قول الحازمي ، وقال نَصْرٌ : بين السُّقْيا والمدينة . وفي « معجم البلدان » : لَحْيُ جَمَلٍ هي عقبة الجُحْفَة على سبعة أميال من السُّقْيا . وقد فُسّرَ في حديث الحكم بن بشّار في كتاب مُسْلِمٍ أنه ماء . وحدّد صاحب كتاب « المناسك » المسافة بين العَرْج وبين لَحْي جمل على هذا النحو : من العرج إلى الطُّلُوب أحد عشر ميلاً ، ومن الطلوب إلى السقيا ستة أميال ، فمن العرج إلى السقيا سبعة عشر ميلاً — ثم ذكر بعض المواضع التي بين العرج والسقيا وبعد أن ذكر الطلوب قال — : وعلى ميل من الطلوب مسجد للنبي صلى الله عليه وسلم وهو بين لحي جمل — ثم أورد حديث الاحتجام ، وأورد له رواية : أنه صلى الله عليه وسلم بالقاحة ، وذكر أن القاحة قبل السقيا بميل . وذكر السمهودي في « وفاء الوفاء » من المساجد النبوية مسجد لحْي جمل ، ونقل عن الأسديُّ قوله : وعلى ميل من الطُّلُوب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بموضع يقال له لَحْيُ جمل ، والطلوب بئرٌ بعد العرج بأحد عشر ميلاً ، والسقيا بعد الطلوب بستة أميال .

وعلى ما تقدم يتضح أن مكان الاحتجام يقع في الطريق القديم إلى مكة من المدينة ، بعد العَرْج الوادي الذي لايزال معروفاً بنحو اثني عشر ميلاً وقبل السُّقْيا بخمسة أميال ، والسُّقيا هذه تعرف الآن باسم (أمُّ البِرَك) جَمْع بِرْكَة ، بإسكان الراء . وعلى مقربة من أمّ البِرَك هذه تلعة كبيرة تدعى الآن اللّحْي ، سيلها يفيض في وادي تِعِهِنْ ، أحد روافد وادي القاحة الوادي الذي تقع أم البرك في أعلاه . وأرى أنّ أعلى تلك التلعة هو الموضع المعروف بلحي جمل .

(٩) لَحْيُ جملٍ — أو لِحيَيَا جمل — الذي بين المدينة وفَيْد كلام الحازمي في تحديده هو نَصُّ كلام نَصْرٍ ، ومثله في « معجم البلدان » إلا أنّ تحديد المسافة بينه وبين فَيْد عشرة فراسخ ، ومعروف أن الفرسخ ثلاثة أميال ، فهي ثلاثون ميلاً . ولعل أصل الكلام عن هذا الموضع ما جاء في كتاب « المناسك » — ٥١٥ — قال : تسمية المنازل التي كان الناس ينزلونها بين فَيْدَ والمدينة قديماً تعرف بطريق الأخرجة ، وأمياله بالميل الأول : من فَيْدَ إلى الأخرجة سبعة وعشرون ميلاً ونصف ، وعلى أربعة عشر ميلاً من فَيْد منازل للأعراب فيها نخل وآبار ، ماؤها غليظ ، يقال للموضع أُبْضَة ، وخلف أُبْضَةَ بثلاثة أميال ونصف عن يسار الطريق هضباتٌ يقال لها هَضَبَاتُ أُبْضَةَ . على بعضهن صخرتان منفردتان ليس يمسكهما شيء ، لَمْ يزَالاَ على ذالك ، تسمى أحدهما جمل ، والأخرى جميلة ، ثم لِحيُ جمل على ستة أميال من الأخرجة ، وبينهما بئران وأبيات للأعراب ، ومن لِحيَي جَمَلٍ إلى بريد إرمام خمسة أميال ونصف . انتهى . وفي كتاب « وفاء الوفاء » : لِحيَيَا جمل جبل بطريق فَيْد على ستة أميال من الأخرجة . قال الأسديُّ : سُمّيا بذالك لأنهما نَشَزَا وامتَدّا واقترب ملتقاهُمَا فَشُبِّهَا باللَّحيَيْنِ . انتهى . ويفهم مما تقدم أن هذا الموضع يقع بَعْدَ قرية أُبْضَةَ — التي لاتزال معروفة — للمتجه إلى المدينة بإحدى وعشرين ميلاً ، وأن المسافة بينه وبين فيد الواقع شرق أبضة ثلاثة وثلاثون ميلاً ونصف ميل . وأنه غرب بلدة سَمِيراء غير بعيد عنها . إذ الطريق الذي يقع عليه هذا الموضع يدع سَمِيراء الواقعة على طريق الحج الكوفي جنوباً .

(١٠) هذا نَصُّ كلام نَصْرٍ : ومثله في « معجم البلدان » ولَمْ أرَ تحديداً لموقعهما ، ولكن بلاد بني قُشَيْر تقع في جنوب اليمامة غربي الطرف الجنوبي من جبل العارض (طُوَيق) وفي بلاد الأفلاج وما حولها .

(١١) قال نَصْر : عين جملٍ : من طُفُوف الفرات ، قرب الكوفة ، سُمّيَ من أجل جَمَلٍ مات هناك ، أو لأنّ الماء الذي به نُسِبَ إلى رجل اسمه جمل . وكقول نَصْرٍ ورد في « معجم البلدان » في رسم (جمل) وجاء في رسم (عين) : عينُ جمل بنواحي الكوفة من النجف قُرب القُطْقُطانة ، وهي مع عدّة عيون يقال لها العيون ، في كتاب العزيزي : من البصرة إلى عين جمل لمن أراد الكوفة ثلاثون ميلاً ، ثم إلى عين

صَيْد ثلاثون ميلاً .

(١٢) حَمَلُ : قال نَصْرٌ : بفتح الحاء والميم — جبل يُذْكَرُ مع أَعْفَرَ ، وهما في أرض بَلْقَيْنِ من أعمال الشام ، وأورد ياقوت قولي الحازمي ونَصْرٍ غير منسوبَيْنِ ، وزاد : وقال العمرانيُّ : جبل بالشام في شعر امريءُ القيس ، ورواه السُّكَّرِيُّ عن الكلبي بالجيم فقال :

تَذَكَّرْتُ أَهْلِي الصَّالِحِيْنَ وَقَدْ أَتَتْ ... عَلَى جَمَلٍ مِنَّا الرِّكَابُ وأَعْفَرَا

بَلْقَيْن : بنو القين بن جَسْر بن أسد بن وَبْرة من قضاعة ، وبلادهم قديماً كانت تمتدُّ من شمال الحجاز إلى أطراف الشام (بلاد شرق الاردن) فيما بين تَيْمَاء جنوباً حتى بلاد كلبٍ إخوتهم في النسب جنوب وادي السرحان (قراقر ووادي السِّرّ قديماً) ومن بلادهم شَجْر ، الوادي المعروف الآن باسم (فجْر) والعلمان ، سلسلة الجبال المعروفة باسم (الطُّبيق) ومن هذه الجبال جوش والعلم وحمل وأعفر ، وقد يطلق على الأخيرين اسم العلمين ، ففي «معجم البلدان» : شَجْرُ ماءٌ لبني القَيْن بإقبال العَلَمَيْنِ حَمَلٍ وأعْفَرَ ، بين وادي القرى وتيماء . انتهى . والرَّجَزُ الذي أوله :

كأنها وقد تَدَلَّى النَّسْرَان .

نسبه ياقوت في رسم (جمل) من « معجم البلدان » للشماخ ، ونسبه البكريُّ في « معجم ما استعجم » — رسم أعفر — للأجلح بن قاسط الضبابي ، وزاد : ماءُ خليجٍ مَدَّهُ خليجانْ . وهو من ارجوزة في تسعة وعشرين بيتاً في « ديوان الشماخ » — ٤١٠ — منسوب للجعيل ، بدون تعريف بهذا ، وفي آخره (يا ابن جليح كُنْ دليل الركبان) .

(١٣) قال نصر : — عن جَمَل — : جبل قرب مكة عند نَخْلَةَ اليمانية . انتهى . ولم يذكره ياقوت . ونخلة اليمانية الوادي المعروف الذي يسمى الآن اليمانية من أشهر الأودية القريبة من مكة ، من روافد مَرِّ الظهران (وادي فاطمة) .

(١٤) هذا نَصُّ كلام نَصْرٍ ، وقال ياقوت في « معجم البلدان » : جمل موضع في رمل عالج ، قال الشماخ :

كأنَّها لمَّا استقلَّ النَّسْرَانْ ... وضَمَّهَا من جَمَلٍ طِمِرَّانْ

مع أنه أورد في رسم (حَمَل) بالحاء المهملة ما نصه : حَمَلُ — بلفظ الحَمَلِ من الشاء — : قال أبو منصور : هو اسم جبل فيه جبلان ، وأنشد للراجز : كأنّها — إلى آخر ما تَقَدَّمَ .

وزاد نَصْرٌ في هذا الباب : جَمْلَ قائلاً : وأما بالجيم وسكون الميم موضع في كتاب بني نَصْر بن معاوية ، لا أدري هو اسمه ، أو سُكِّنَ لضرورة الشعر ، قال : أهل عمَّق والجمْل .

هذا نَصُّ ما في كتاب نَصْرٍ بحروفه . ولم يذكره ياقوت في محله من « المعجم » . وفي « تاج العروس » : والجَمْل — بفتح فسكون — : موضع في ديار بني نَصْر بن معاوية ، عن نَصْر . انتهى .

□ « مواد لتاريخ الوهابيين » :

يعتبر بوركهارت من أشهر الرحالة الأوربيين الذين زاروا البلاد العربية في أول القرن التاسع عشر ، وقد زار بلادنا فكان مما دخله من مدنها مكة والمدينة وينبع فوصفها وصفاً مفصّلاً في كتاب ألفه عن رحلته نشر سنة ١٨٢٩ باللغة الإنجليزية ، وألف كتاباً ثانياً دعاه « ملاحظات على البدو والوهابيين » نشر باللغة الإنجليزية أيضاً سنة ١٨٣١ .

ووصف الدكتور عبدالله الصالح العثيمين – كلية الآداب – جامعة الملك سعود – بوركهارت بأنه كان مُحَايداً فيما أورده في كتابه الثاني بدرجة كبيرة ، ولعلّ هذا مما دفع الدكتور عبدالله إلى تعريب ذالك الكتاب باسم « مواد لتاريخ الوهابيين » والدكتور عبدالله في ذالك لم يقف عند حدّ التعريب بل أضاف ملاحظات وتعليقات قيمة ، صحح بها ما وقع فيه الرحالة الغربي من أخطاء ، ولهذا يعتبر عمل الدكتور عبدالله تَعْرِيْباً وتصحيحاً – إضافة مفيدة إلى مصادر تاريخ بلادنا في القرن الثالث عشر الهجري .

وقد وقع هذا المؤلف في ٢١٢ صفحة ، مطبوعاً طباعة حسنة طبع (شركة العبيكان للطباعة والنشر) في الرياض سنة ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م) .

□ « شقــــراء » :

هو عنوان مؤلف حديث عن هذه المدينة الكريمة التي تحمل هذا الاسم وهي قاعدة الوشْم في نجد ، ألفه الأستاذ الكريم الدكتور محمد بن سعد الشُّويعر من أهل تلك المدينة .

ويظهر أن الدكتور قد أعدّ العُدّة لإصدار كُتُبٍ عن مدن المملكة حيث جاء هذا الكتاب يحمل رقم (٢) من (فصول من تاريخ مدن المملكة العربية السعودية) .

والكتاب يتحدث عن كل ما له صلة قديماً وحديثاً بمدينة شقراء مما اطلع عليه المؤلف الذي رجع إلى نحو ٨٥ مرجعاً جمع منها معلومات قد لا يتيسر لغيره جمعها فجاء هذا الكتاب في أكثر من أربع مئة صفحة بطباعة حسنة — وصدر عن (دار الناصر للنشر والتوزيع في الرياض) سنة ١٤٠٥هـ (١٩٨٤م) وطبع في المطابع الأهلية للأوفست .

□ — « عيار الشعــر » :

وحقق الأستاذ الكريم الدكتوار عبد العزيز بن ناصر المانع — كلية الآداب — جامعة الملك سعود — كتاب « عيار الشعر » تأليف محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (المتوفى سنة ٣٢٢هـ — ٩٣٤م) مستدركاً ما وقع في مطبوعة الدكتور محمد زغلول سلام من أخطاء ، معتمداً على المخطوطة التي اتخذها الدكتور سلام أصلاً له ولكن سلاماً لم يحسن قراءة بعض نصوصها ، وقد أشار الأستاذ عبد العزيز إلى ذالك في هوامش الكتاب ، كما أشار إلى أن مطبوعة (دار الكتب العلمية في بيروت) ما هي سوى مَسْخٍ لمطبوعة الدكتور زغلول .

من هنا يطمئن الباحث إلى أن مطبوعة الدكتور عبد العزيز المانع هي خير مطبوعة يمكن الاعتماد عليها تحقيقاً وجودة طبع ، وكمال فهارس ، مع ترجمة مفصلة للمؤلف ، جاء ذالك كله في ٢٦٨ صفحة . وقامت بنشر الكتاب (دار العلوم للطباعة والنشر في الرياض) سنة ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م) .

□ — « لباب الإعــراب » :

هو كتاب كما وصفه محققه الأستاذ بهاء الدين عبد الوهاب عبد الرحمن : من المختصرات المشهورة في علم النحو ، حاول صاحبه أن يجمع فيه خلاصة مما في «المفصل»

للزمخشري » والكافية » لابن الحاجب مضيفاً إليه آراء ومسائل نادرة من أصول ابن السراج ونُكتاً من أمالي ابن الشجري .

أما المؤلف فهو محمد بن محمد بن أحمد الاسفراييني المتوفي سنة ٦٨٤ .

والمحقق الفاضل قد أفرغ في عمله من الجهد ما برز أثره واضحاً في كل صفحة من صفحات الكتاب ، بحيث يعتبر عمله شرحاً له ، وقد جاء في خمس مئة وثمانية وستين صفحة ، وقامت (دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع) بنشره فصدرت طبعته الأولى سنة ١٤٠٥هـ (١٩٨٤م) طباعة حسنة في مطابع الفرزدق التجارية في الرياض .

☐ – « ديوان تأبط شراً وأخباره » :

تَأَبَّطَ شَرّاً لقبٌ شاعر جاهلي مشهور هو ثابت بن جابر من قبيلة فَهْمِ بن عمرو بن قيسِ عَيْلان بن مُضَر ، القبيلة التي لاتزال معروفة باسمها ، ومقيمة في منازلها فيما قبل الإسلام أو فيما حول تلك المنازل في عصرنا الحاضر .

وقد تصدّى الأستاذ علي ذو الفقار شاكر لجمع شعر هذا الشاعر وأخباره فكان له من ذالك حصيلة طيبة ، جاءت في مجلد بلغت صفحاته (٤٢٤) – صدر عن (دار الغرب الإسلامي) سنة ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م) عن (مطبعة المتوسط) في بيروت طباعة جيدة ورقاً وحروفاً .

وحَبَّذَا لو أن الأستاذ الفاضل أكمل عمله بوضع فهارس للكتاب ، ولعله يتدارك ذالك في طبعته الثانية .

وكنت قبل بضع سنوات اقترحتُ على أحد الطلاب في جامعة الرياض – حين استشارني في موضوع يقوم بدراسته لنيل درجة جامعية – أن يقوم بدراسة شعر شاعر احدي القبائل المعروفة في بلادنا ، وسميتُ له قبيلة (فَهْم) وقدمتُ له نسخة مصورة مما جمعه ابنُ جِنّي من شعر تأبَّطَ شَرّاً ، عن مجموع في مكتبة (دير الاسكوريال) ولا أدري ماذا فعل .

العرب
مجلة شهرية تعنى بتراث العرب الفكري
صاحبها ورئيس تحريرها : حمد الجاسر

الاشتراك السنوي
١٠٠ ريال للأفراد و ٢٠٠ ريال لغيرهم
الإعلانات : يتفق عليها مع الإدارة
ثمن الجزء : ١٧ ريالاً

العنوان
شارع الملك فيصل هاتف ٤٠٢٢٩١٥
ص . ب ١٣٧ الرمز البريدي ١١٤١١
الرياض - المملكة العربية السعودية

(ج ٥ ، ٦ س ٢٠ ذوا القعدة / والحجة ١٤٠٥ هـ - آب وأيلول (أغسطس /سبتمبر) ١٩٨٥ م)

حباشة : أشهر أسواق تهامة قديما

هذا الموضع التاريخي الذي ألَّف ياقوتُ الحمويُّ أعظمَ كتاب وصل إلينا في تحديد المواضع بسبب البحث عن ضبط اسمه - أليس جديراً بأنْ يُحَدَّد ويُبَيَّنَ موقعه ؟ .

قال ياقوت في مقدمة « معجم البلدان » : (وكان من أول البواعث لجمع هذا الكتاب أنني سئلت في سنة خمس عشرة وست مئة عن حُبَاشة اسم موضع جاء في الحديث النبويّ ، وهو سوق من أسواق العرب في الجاهليه ، فقلت : أرى أنه حُبَاشة - بضم الحاء - قياساً على أصل هذه اللفظة في اللغة لأنَّ الحُباشة الجماعة من الناس من قبائل شتَّى ، وحَبَشْتُ له حُباشَةً أي جمعت له شيئاً ، فانبرى لي رجل من المُحَدِّثين وقال : إنما هو حَبَاشة بالفتح - وصمم على ذالك من غير حجة ، فأردتُ قطعَ الاحتجاج بالنقل - إلى أن قال : فألْقِيَ حينئذٍ في رُوْعي افتقار العَالِم إلى كتاب في هذا الشأن مضبوطاً) . إلى آخر ما ذكر .

ثم إنه موضع ورد في ذكره من الأخبار والآثار التاريخية ما لا ينبغي لطالب العلم أن يجهله ، فقد نقل الإمام ابن عبد البَرّ في كتابه « الاستيعاب » في ترجمة زيد بن حارثة عن عالم مكة الزبير بن بكار الزبيري وعن عمه مُصْعَب : (كان زيد بن حارثة أصابه سِبَاءٌ في الجاهلية فاشتراه حكيم بن حِزَام في سوق حُبَاشة ، وهو سوقٌ بناحية مكة كان مَجْمَعاً للعرب يتسوَّقون بها كل سنة ، اشتراه حكيم لخديجة بنت خويلد ، فوهبته خديجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل النبوة ، وهو ابن ثمان سنين ، فتبنَّاه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فكان يُدْعَى زيدَ بْنَ محمد ، حتى نزل قول الله تعالى ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبائِهم ﴾ .

وأورد البكريُّ في « معجم ما استعجم[1] » عن حُباشة : وهي أكبر أسواق تِهامة وكانت تقوم ثمانية أيام في السَّنَة ، قال حكيم بن حِزَام : رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يحضرها واشتريت فيها بَزًّا من بَزِّ الجاهلية .

ولعلّ أوفىَ وصف لسوق حباشة وصل إلينا ما أورده مؤرخ مكة الأزرقي في كتاب « أخبار مكة[2] » ونصه : (وحباشة سوق الأَزْد وهي في ديار الأوضام من بارق ، من صدر قَنَوْنَا وحَلْيٍ ، بناحية اليمن ، وهي من مكة على ست ليال ، وهي آخر سوق خَرِبَتْ ، من أسواق الجاهلية ، وكان والي مكة يستعمل عليها رجلا يخرج معه بجند، فيقيمون بها ثلاثة(؟) أيام، من أول شهر رجب متوالية ، حتى قتلَتِ الأزدُ والياً عليها من غنيٍّ بعثه داود بن عيسى بن موسى في سنة سبع وتسعين ومئة ، فأشار فقهاء أهل مكة على داود بن عيسى بتخريبها ، فخربها ، وتركت إلى اليوم) .

ويظهر أنّ ياقوتا — رحمه الله — لم يطلع على كتاب الأزرقي لأنه لم يذكر عن حباشة سوى قوله : — بعد ذكر المعنى اللغوي للكلمة — : وحُباشة سوق من أسواق العرب في الجاهلية ، ذكره في حديث عبد الرزاق عن معمر عن الزهريّ : لما استوى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغ أَشُدَّهُ وليس له كثير مال ، استأجرته خديجة إلى سوق حُبَاشة ، وهو سوقُ بتِهامة ، واستأجرت معه رجلاً آخر — وساق الحديث وأورد بعده خبراً يتعلق بسوق آخر يسمى حباشة — يظهر أنه من أسواق المدينة قبل الإسلام — ولم يذكر موقع حباشة من تِهامَة .

وما ذكره الأزرقيُّ في تحديد ذالك السوق واضح ، فوادي قَنَوْنَا ووادي حَلْيٍ لايزالان معروفَيْنِ ، وهما بناحية اليمن بالنسبة إلى مكة ، إذ كل ما هو يمينها يسمى يمناً ، ولايزال هذا معروفاً في عهدنا ، فبادية مكة وما حولها يطلقون اسم الشام على ما هو واقع شمال مكة ، واليمن على ما هو واقع جنوبها ، ومن ذالك

تقسيمهم قبيلة هذيل إلى هذيل الشام وهذيل اليمن ، يعنون هذيلا الساكنين شمال مكة ، وهُذَيْلاً يمنها .

وقبيلة بارقٍ التي يقع سوق حباشة في بلادها لاتزال معروفة مستقرة في مواطنها القديمة التي هي في غور سراة عَنْزٍ والْحَجْر(٤) . وهي أزدية قحطانية ، صريحة النسب من مازن بن الأزد ، وقبيلة بارق أخت قبيلة ألمع التي لاتزال في بلادها القريبة من بلاد بارق . وقد تحدثت عنها في كتاب « في سراة غامد وزهران » .

ويحد بلاد هذه القبيلة من جهتي الشرق والشمال بلاد بني شِهر من الحجر من الأزد أيضاً .

وبارق بلادهم منتشرة في صدور قنونا ، وما حولها من فروع الأودية .

ووادي قَنَوْنَا من أشهر الأودية التي تخترق تهامة حتى تبلغ البحر عند ميناء القنفذة .

وهذا الوادي لا يلي وادي حَلْيٍ – كما يُفْهَم من كلام الأزرقي – ، بل يفصل بينهما وادي يَبَة – (يقع وادي قَنَوْنَا على خط العرض : ١٠َ/١٩ْ وجنوبه وادي يَبَة على خط عرض : ٠٠َ/١٩ْ – ثم وادي حلي : ٤َ/١٨ْ – على وجه التقريب) .

والأودية الثلاثة مشهورة قديماً ومعروفة الآن .

ويظهر أنّ موقع السوق من صدر قَنَوْنَا هو حيث يتسع حوض الوادي بمجاوزته ما كان يحصر مجراه من الجبال ، وامتداده في سهل تهامة المتسع لنزول الكثير من الناس ممن يحضر ذالك السوق السنوي الشهير من مختلف الجهات .

وهناك في الأرض البراح ملتقىً للطرق المسلوكة قديماً وحديثاً ، حيث تقع قرية تدعى (الأحد) إذ يقام فيها سوق أُسبوعي كل يوم أحد ، لا أستبعد أن يكون

موقع سوق حُبَاشَة القديم بقرب هذه القرية ، وأنه أُعيد بعد تخريبه من قبل أمير مكة داود بن عيسى ، والتخريب – إن تَمَّ – يصدق على ما فيه من مَبَان ، والملاحظ في الأسواق التي لا تستمر زمناً طويلاً عدم الحاجة إلى المباني ، بل الاكتفاء بالبيوت المنصوبة كالخيام ونحوها مما يَسْهُلُ نقله عند انتهاء زمن السوق الذي لا يزيد على أيام .

ثم إنَّ من عادة القبائل أنها تستعيد ما قد تحتاج إليه عندما تَقْوَى على استعادته ، ومن المعروف أنَّ سيطرة الدولة العباسية على هذه البلاد بدأَتْ في الضعف منذ أول القرن الثالث الهجري ، وأنها لم تتمكن من إخضاع جميع قبائل الجزيرة .

ويقع سوق حُبَاشَة على ما ظهر لي بقرب خط الطول : ١٢َ/٤١ْ وخط العرض : ١٠َ/١٩ْ شرقي بلدة القنفذة بنحو عشرين كيلا .

وتحسن الإشارة إلى أنَّ الأزرقي أشار في كتابه إلى العلة في عدم شهرة سوق حباشة وأنه لم يَرِدْ ذكره كثيراً مع أسواق العرب المشهورة وهي أنه لم يكن في مواسم الحج ، ولا في أشهره ، وإنما كان يقام في شهر رجب .

أما قول الأزرقي عن السوق : (يقيمون بها ثلاثة أيام) فإنه لا يتفق مع قول البكري أن مدة الإقامة ثمانية ، ولعل هذا أعدل القولين ، فثلاثة الأيام قصيرة بالنسبة لإعداد ما يلزم لنزول السوق وتعاطي البيع والشراء فيه .

وما أسهل تصحيف كلمة (ثمانية) بـ (ثلاثة)

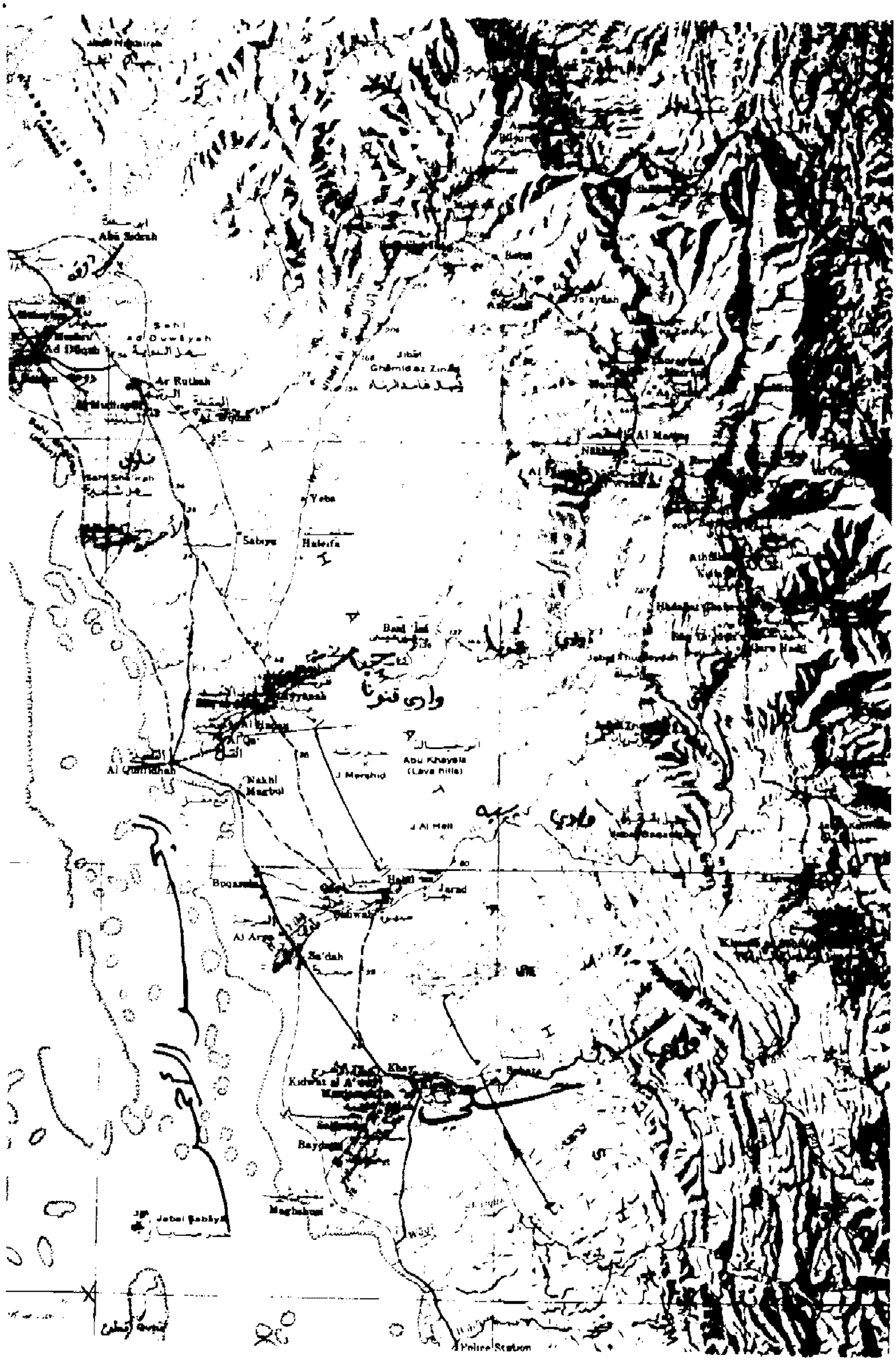
حمد الجاسر

الحواشي :

(١) رسم حباشة .

(٢) « أخبار مكة وما فيها من الآثار » : ١/١٩١ .

(٣) الهمداني في « صفة جزيرة العرب » : ١٢١ .



موقع سـوق حباشـة

— ٢ —

رسائل جامعية (بغير العربية) :

وأنظر في المجلد الأول من السنة الأولى من « مجلة كلية الآداب » بجامعة الرياض (١٣٩٠/١٩٧٠) فأرى من الرسائل الأدبية : رسالة الدكتور عزت عبد المجيد خطّاب : دراسة التاريخ النقدي لقصيدة روبرت براونج المعروفة باسم « الخاتم والكتاب » في الفترتين ١٨٦٨ — ١٨٨٩ و ١٩٥١ — ١٩٦٨ — من مدرسة الدراسات العليا ، جامعة نيومكسيكو ، أغسطس ١٩٦٩م / ١٣٨٩هـ .

الدكتور محمد صديق العوضي — « أبو نواس وفارسياته وتأثيره في الأدب الفارسي » جامعة طهران ١٣٨٩ .

ولو سرنا أكثر لوجدنا المزيد ففي الجزء الثالث (١٣٩٤/١٩٧٤) : الدكتور محمود إسماعيل صيني : « نظم الجملة في لهجة الحضر بالحجاز » من جامعة جورج تاون) ، الدكتور محمد حسن باكلا « دراسة القوانين الصرفية والصوتية وبخاصة في اللغة العربية » من جامعة لندن .

والمسألة تطول ، وقد حصل المطلوب وهو بيان غزارة العالمين بلغات أجنبية وتوافرهم ... مقابل قلة تقرب من الجدب في الترجمة (الأدبية — هنا) .

وتدخل المرأة عالم اللغة الأجنبية ، ويجب أن تدخل ، وإذا دخلتْ حُوسِبَتْ قليلاً . وكُنَّا في « المعجم » تشبَّثْنَا بالسيدة فاطمة المنديلي منتظرين المزيد ، وقد حصلتْ على الماجستير ، ولم تترجمها أو تُتَرْجِمْ غيرها . ثم حصلتْ على الدكتوراه بـ « الصراع بين الأسطورة الشعبية والواقع : دراسة بطلات المسرحيات عند جون ميلنجتون سينج » (من جامعة القاهرة ١٣٩٧) فزدْنا انتظاراً ... وفي ميدان المسرحية خصوصاً .

وتحصل الدكتورة مريم البغدادي على الدكتوراه من فرنسا (فيما يبدو) ويكون لها نشاط أدبي ملحوظ (يقترن بمؤسسة تهامة ... بجدة) ، وتقدم لنا — مما يدخل في الترجمة : « شعراء التروبادور » وأصله : Trobadors et ‘Cours d’Amour

من تأليف La Fitte - Houssa وسلسلة Que Sais - je ، باريس .

وكنتُ أوَدُّ لو أنّها قدمت الترجمة مَحْضاً ، وتحتفظ بدراستها التمهيدية لكتاب خاص بموضوعها — ونبقى ننتظر ترجمة رسالة الدكتوراه .

أملنا بالترجمة كبير ، وترجمة رسائل الماجستير أو الدكتوراه في مقدمة ذالك ، ونقرن الأمل هذا بتأليفٍ في موضوعات أجنبية مختارة في خدمة الفكر العربي وثقافته وتقدمه ... والذي حصل في هذا المجال قليل ، لم يبلغ علمنا منه إلّا ما صدر مقترناً بتهامة للنشر في جدة ، وقِوَامُهُ كتابان : الأول ، للدكتورة مريم بغدادي بعنوان « المدخل في دراسة الأدب » (١٤٠٢/١٩٨٢ — ١٦٨ في سلسلة الكتاب الجامعي رقم) ١٥ (...) وفصوله السبعة تقوم في الأصل ، وفي حدود ما يحتاج إليه القارئُ العربي ، على ما حققه الفكر الأدبي الغربي في مسيرته الثَّرِيَّةِ ، ولكن الأستاذة المؤلفة لم ترجع فيه إلى المصادر الأجنبية .

الثاني : كتاب الدكتور عبد الوهاب علي الحكمي — « الأدب المقارن » (دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوربية) — تهامة ، جدة ، ١٤٠٣/١٩٨٣ — ١٢٨ ص ، في سلسلة الكتاب الجامعي (١٩) ... وهو في جملته لا يشبع حاجة القارئُ إلى الموضوع ، وربما خَرَجَتْ بعض مواده عن صميم عنوانه ، ثم إنه ليس على مستوى شهادتي الأستاذ الحكمي : (سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث تحصل على ماجستير في الأدب الانجليزي ، وحصل على درجة الدكتوراه في الأدب الانجليزي والأدب المقارن) . ولابأس ، فالكتاب يطمعنا برؤية الرسالتين مترجمتين ، راجينَ ألاّ يَتجُوّزَ العمل الإداري (عميد القبول والتسجيل بجامعة أم القرى بمكة المكرمة) على الفعل العلمي ثم التأليف والترجمة والنشر وإلاّ فما تقصر الأيدي — لا مالاً ولا علماً — عن النشر وإثراء المطبوعات . وقد جار العمل الإداري قَبْلَهُ على كثيرين ، وسيجور كذالك بعده .

وورد للأستاذ عزيز ضياء ، في كتابه « جسور إلى القمة » استثمار خاص للعلم بالفكر الغربي عن طريق اللغة الأجنبية مباشرة . ويذكر الشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري مادة أجنبية في ثنايا كتبه – ولاسيما : « لن تُلحد » . ولكنه يصل إليها عن طريق المترجم إلى اللغة العربية .

ومسألة الترجمة ومتفرعاتها تطول ، ونقف عند هذا الحد ... لنقول كلمة في الجامعات السعودية ، فمكانها من الكتاب – المطبوع مَرْمُوق ... وقد صارت سبعاً نرجو لها التوطد والتركز والرصانة المتصلة وبلوغ السمعة العلمية المطلوبة . وأكثر ما عُنِيَ المعجم ضمن حَدَّيْهِ بجامعة الملك سعود ١٣٧٧/ نوفمبر ١٩٥٧ (الرياض) ثم جاءت فكرة جامعة الملك عبد العزيز الأهلية بجدة والسعي إلى تحقيقها ، ثم كلية البترول والمعادن في الدمام . وكليات هنا وهناك للغة العربية والشريعة في الرياض ومكة والمدينة مرتبطة بالشؤون الدينية أو بوزارة المعارف .

الجامعات السعودية :

وما نُوَدِّعُ الحدَّ الأعلى لمدى المعجم (١٣٩٠/١٩٧٠) حتى تتزايد الجامعات وتتزايد كلياتها من كل نوع وتكون :

جامعة الرياض (وقد عاد إليها اسمها الأول : جامعة الملك سعود) لمناسبة الاحتفال بربع قرن على تأسيسها .

جامعة الملك عبد العزيز – جدة (وقد صارت رسمية) .
جامعة البترول والمعادن – الدمام .
جامعة الملك فيصل في الأحساء والدمام .
جامعة أم القرى في مكة المكرمة .

وتكَوَّنَ لهذا وزارة جديدة ، هي وزارة التعليم العالي .

وتكون جامعتان أخريان إسلاميتان (دينيتان) : الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة .

وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض : وهي وإن سميت (جامعة) وبهذا الاسم عام ١٣٩٤/١٩٧٤ فإن نواتها الأولى وعدد من كلياتها ومعاهدها سبقت التسمية ففي عام ١٣٧٠/١٩٥٠ تأسس معهد الرياض العلمي (للغة العربية والشريعة) ، وفي عام ١٣٧٣هـ أنشئت كلية الشريعة في الرياض ، وأعقبها في عام ١٣٧٤هـ إنشاء كلية اللغة العربية . وقد أدّى ذالك إلى إنشاء جهاز مشرف على الكليتين والمعهد أطلق عليه : الرئاسة العامة للكليات والمعاهد . وفي عام ١٣٩٤/١٩٧٤ تحولت الرئاسة العامة إلى جامعة ...

وتضم الجامعة حالياً كليات ومعاهد عليا هي : كلية الشريعة ... وكلية اللغة العربية ... والمعهد العالي للقضاء الذي أنشيء عام ١٣٨٥هـ ، والمعهد العالي للدعوة الإسلامية ، وكلية أصول الدين ، وكلية العلوم الاجتماعية ، وقد افتتحت ثلاثتها في عام ١٣٩٦ . وجميع هذه الكليات في الرياض . وللجامعة فروع في أبها والقصيم والمدينة المنورة والأحساء – عن عالم الكتب مج ٥ ع ١ رجب ١٤٠٤ / أبريل ١٩٨٤ .

وكانت المرأة تلتحق بالجامعة انتساباً من الخارج ثم تأسّست لها كليات أو أقسام خاصة بها من الجامعة .

ورأت الرئاسة العامة لمدارس البنات حاجتها – ضمن ظروف البلد وتقاليده – ماسّة إلى كليات خاصّة بها في الآداب والتربية والعلوم ففتحتها في الرياض وغيرها كالأحساء وأبها والقصيم .

وصار لعدد من الكليات دراسات عليا الماجستير أو للماجستير والدكتوراه ...

ولعدد آخر – وكأنّ هذا تميّز للمملكة بين الأقطار العربية – عمادات خاصة بشؤون المكتبات تشرف كما هو طبيعي على المكتبات وتُصدر الفهارس والمجلة ، ولها مطبعة خاصة بها ، ومطبوعات – تزيد أو تقل – حسب نشاط الجامعة عموماً وعميد المكتبات خصوصاً . وقد ذكرنا بصدد جامعة الملك سعود أمثلة من هذه

المطبوعات ، ومنها من تأليف الأساتذة ، ومنها رسائل للدراسات العليا للطلاب وللطالبات كذلك .

جاء في « عالم الكتب » أن جامعة الإمام محمد بن سعود تهتم بالدراسات العليا ... فهناك معهدان تقتصر الدراسة فيهما على مرحلتي الماجستير والدكتوراه فقط ، هما المعهد العالي للقضاء والمعهد العالي للدعوة بالرياض . و ... جميع كليات الجامعة فتحت باب الدراسات العليا ... أن جامعة الإمام محمد بن سعود تعد أول جامعة في المملكة العربية السعودية تهتم بالدراسات العليا ، وقد بدأ الاهتمام منذ إنشاء المعهد العالي للقضاء في عام ١٣٨٥هـ .

وللجامعات الأخرى — باستثناء جامعة الملك فيصل في الأحساء والدمام — دراساتها العليا ، درجة الماجستير ... وفيها ما يستعد لمنح الدرجة الأعلى .

وقد عمل الأستاذ يحيى ساعاتي قائمة بالرسائل التي نوقشت في الجامعات السعودية ومنح أصحابها درجة الماجستير أو الدكتوراه (١٣٨٩ — ١٤٠٠هـ) — تنظر في عالم الكتب مج ٢ ، ع ٢ شوال ١٤٠١ / أغسطس ١٩٨١ ، بانتظار قوائم أخرى — في المجلة نفسها للأعوام التالية ... وعما كان من شأن جامعة الملك فيصل في الموضوع .

ويفهم من الجدول والتعليق عليه أن الجامعات التي منحت الدكتوراه هي : جامعة الإمام محمد بن سعود (٤) ، جامعة الملك عبد العزيز — فرع مكة (٣) ، الجامعة الإسلامية (١) .

ونلتقط من رسائل الدكتوراه — فيما يتعلق بالأدب واللغة : « علي بن مقرب العيوني — حياته وشعره » . حاز به الدكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود ، كلية اللغة العربية : علي بن عبد العزيز الخضيري سنة ١٤٠٠ — وقد طبعت الرسالة في السنة التالية . بيروت ، مؤسسة الرسالة ١٤٠١/١٩٨١ — ٤٥٩ ص .

وللمرأة حصتها من هذه القائمة ، وأكثر ما كان لها منشور — كما هو طبيعي —

في التربية والتعليم (كلية التربية بمكة التي كانت تابعة لجامعة الملك عبد العزيز بجدة) : هند بدر ، ريما الجرف ، ابتسام جفري ، نوال رواس ، نادية عبيد — والموضوع العام لهن : دروس اللغة الانكليزية في مرحلة المتوسطة .

وفي جامعة الرياض : نورة صالح الشملان — « شعر أبي ذؤيب الهذلي » ١٣٩٨ — وقد طبع ، كما طبعت رسالة سعاد عبد العزيز المانع « سيفيات المتنبي » — تنظر جامعة الرياض . ومن رسائل كلية الآداب فيها : رسالة وفيقة عبدالمحسن الدخيل — « وصف الحيوان في الشعر العربي القرن الثاني » : سنة ١٤٠٠ .

وسنرى رسائل للمرأة في قسم التاريخ ... والتربية ...

وفي غير الرسائل ورد في إصدارات تهامة : سلسلة مطبوعات : « التخلف الإملائي » تأليف الأستاذة نوال عبد المنعم قاضي .

وللجامعات فيما يذكر — مراكز بَحْث تنشر وتحقق . ولك أن ترجع على سبيل المثال إلى مطبوعات مركز أم القرى ، ومركز الإمام محمد بن سعود ... ومركز المدينة . بين إصداراتها وتحقيقاتها كتب مهمة .

وتبقى ملاحظتان صغيرتان : الأولى : الحرص الدائم على المستوى العالي ، الثانية : إيصال المطبوع — وقد بُذِل عليه ما بُذِل — إلى من يهمه أمره بالشكل المناسب ...

وإذا كان في بداية الأمر ما يدعو إلى شيء من العجلة وقليل من التسهل ... فقد زال ذالك الدافع اليوم ولابُدَّ من التَّشَدُّد لدى القبول ولدى التخرج ولدى منح الماجستير أو الدكتوراه ... وقبول الكتاب للطبع ... وفي قبول البحوث التي تنشرها المجلة — فهي وَجْهٌ مُبَاشِر من وجود الكلية — أو القسم . وكانتْ مجلة كلية الآداب بجامعة الرياض منذ عددها الأول ١٣٩٠/١٩٧٠ وجْهاً نَيِّراً . ومثالاً يُقْتَدَى ... ومازالت كذالك ... وفي المجلات الأخرى ما يُجْدي

وينفع ويرضي ... ولكن فيها ما يدعُو إلى إعادة النظر والتأمل والتريُّث – ورُبَّ توقُّفٍ خيَر من تعَجُّل !

المجلاّت في المملكة :

هذه المجلات الجامعية .. وقد تكاثرت ، ومثلها المجلات الأخرى أهلية أو رسمية .. ووقف « المعجم » عند ١٣٩٠/١٩٧٠ وأبرز ما فيه مجلتان أهليتان محترمتان : الأولى « المنهل » وقد أنشِئتْ سنة ١٣٥٥/١٩٣٧ وظلّتْ تُغِذُّ السَّيْرَ مع شيء من عناء وتعب يبدو عليها ، وفقدت عميدها الأستاذ عبد القدوس الأنصاري وهي تقترب من عامها الخمسين وعمل والده الأستاذ نبيه على تنشيط المجلة بعده وإعادة الشباب إليها ، وهو ماضٍ في ذالك . وظهر التقدم محسوساً وبانتظار نتائج أكثر قبل إصدار الحكم . وربط الأستاذ نبيه بالمجلة سلسلة منشورات وكأنه يريد أن يجعل من المنهل مجلة وداراً إلى جوار المكتبة العامة التي خصص لها ركناً مهماً من عمارة « المنهل » . والثانية « العرب » مجلة الشيخ حمد الجاسر وقد صدر عددها الأول في رجب ١٣٨٦ / تشرين الأول ١٩٦٦م ، وهي نشطة غنية عجيبة في عالم المجلات . وإذا قلت إنها مجموعة كتب وقلت إنّ مُؤَلِّفَ أكثر تلك الكتب هو الشيخ الجاسر صاحبها نفسه لم تخطيءْ ولم تبالغ ، وأنه ماضٍ في سبيله ويقترب بها من عامها العشرين .

ثم مجلات أخرى ذُكِرَتْ في مكانها مثل « قافلة الزيت » (وقد صارت : القافلة) ، ومجلة الحج ... وقد صار اسمها « التضامن الإسلامي » ومن المجلات ما لم تطل إقامته ...

ثم قامت بعد الـ ١٣٩٠/١٩٧٠ مجلات محترمة منها المتخصصة ، وللأدب مكانه من تخصصها وهي مجلة « الدارة » – مجلة دورية تصدر عن دارة الملك عبد العزيز بالرياض ، العدد الأول ، ربيع الأول ١٣٩٥ / مارس ١٩٧٥ ومازالتْ توالي الصدور ، أربعة أعداد في العام الواحد ، محافظة على مستواها .

ومنها العام وفي رأس ما يُذكر منها : « المجلة العربية » – شهرية ، بلغت العدد

الـ ٧٧ في شهر جمادى الثانية ١٤٠٤ / آذار (مارس) ١٩٨٤م من سنتها الثامنة من مسيرة لم تخل من عثرات .

« والفيصل » – وهي شهرية،أكثر رواجاً ، وتَنَوُّعاً – بلغت العدد ٨٧ في رمضان ١٤٠٤ / حزيران (يونيو) ١٩٨٤م من سنتها الثامنة . واستطاعت أن تجد لها سوقاً خارج المملكة قرّاءً وكتاباً ... وقد يكون لرئيس تحريرها الأديب القاص : علوي طه الصافي فضل لا ينكر في ذالك ...

وتصدر المجلتان عن قاعدة رسمية دون أن يبدو الوجه الرسمي عليهما ، وهذا من الحسنات التي تضاف إلى أمثالها .

ثم أطَلَّتْ علينا في المتخصصة مجلة نادرة المثال كبيرة الأهمية في عالم « المعجم » هي مجلة « عالم الكتب » – مجلة متخصصة تصدر أربع مرات في السنة تهتم بالكتاب وقضاياه . المؤسسان : عبد العزيز الرفاعي وعبد الرحمن المعمر . رئيس التحرير : يحيى محمود ساعاتي . العدد الأول ، رجب ١٤٠٠ / مايو ١٩٨٠ ومازالَتْ توالي الصدور ... ونتمنى لها التغلب على العقبات من أجل الدوام ومن أجل الكتاب .

والمجلات كثيرة أسبوعية وشهرية وفصلية ... أذكر منها : « إقرأ » ، « الخفجي » ، « الشباب » ، الشرق ، المكتبات والمعلومات العربية ، « المنار » رابطة العالم الإسلامي ، الجيل ، المجلة ، السعودية ، اللقاء العربي ...

وما لايكاد يُحْصَى من المجلات المتخصصة التي تصدر عن مؤسسات متخصصة جداً علمية وإدارية وتجارية ... الخ . والسكك مجلتها ، وللطيران ، وللوزارات ... الخ . ومن هذه : ابن سينا ، أطلال ، الاقتصاد ، الأمن ، أهلاً وسهلاً للخطوط الجوية ، البحوث الإسلامية ، التأمينات الاجتماعية ، التجارة ، تجارة الرياض ، التجارة والصناعة ، التوثيق التربوي ، التوعية الإسلامية ، الجندي الإسلامي ، حماة الأمن ، الخليج العربي للبحوث العلمية ، الدفاع ، الصقور ،

عالم الصناعة ، عالم السعودية (الخطوط الجوية) ، عالم الكتب والمكتبات ، الغرفة التجارية ...

وللمكفوفين حظهم من الصحافة .

ولك أنْ تَعُدّ نحواً من عشرين مجلة سنوية متخصصة أو إخبارية نصف وشهرية تصدر عن كليات الجامعات .

ولم يكن الطفل منسياً ، وقد رأينا طاهر زمخشري يصدر في جدة : الروضة ١٣٧٩/١٩٥٩ دامت نحواً من ثمانية أشهر . ثم جرت محاولة أخرى قامت بها مؤسسة عكاظ في جدة إذْ أصدرت « حسن » ١٣٩٥/١٩٧٧ دامت أكثر من ثلاث سنوات وتوقفت . وان تقف المحاولات وان يستحيل النجاح ، وتعوض في الوقت الحاضر سلاسل من الكتب تلقى نجاحاً تميَّزَتْ بها (تهامة) و (شروق) — ينظر يعقوب اسحق في « عالم الكتب » مج ١ ، ع ٤ ، ص ص ٥٥٢ — ٥٥٤ .

وللمرأة مكانها من المجلات (الجديدة) : الضياء مجلة جمعية النهضة النسائية (١٣٩٧/١٩٧٧) ، « والشرقية » ورئيسة تحريرها : سميرة محمد خاشقجي (منذ ١٣٩٨/١٩٧٨) ، « سيدتي » ورئيسة تحريرها الدكتورة فاتنة أمين شاكر (منذ ١٤٠١/١٩٨١) .

الجرائد السعودية :

ومع المجلات تأتي **الجرائد** ، وقد شهد صاحب المعجم السنة الأولى من عمله في الجامعة ١٣٨٣/١٩٦٣ مولد نظام المؤسسات وجرائد المؤسسات وقد بدأت بحماسة ملحوظة :

المدينة المنورة ، البلاد ، عكاظ ، الندوة ، اليمامة (أسبوعية) الرياض ، الجزيرة ، اليوم ، الدعوة (أسبوعية) وزاد العدد بعد ١٣٩٠/١٩٧٠ فكان — فيما كان — المسائية (يومية عن مؤسسة الجزيرة) ، الشرق الأوسط ... ولكنه لم يَزِدْ كثيراً وإنما الذي زاد هو الفن الصحفي في الإخراج وتَعَدُّدِ الأبواب وتَعَدُّدِ الصفحات

وزيادة النسخ المطبوعة والملاحق ، ومنها ما كان للجزيرة وللرياض ولليمامة . وللملحق « اليوم » اسم خاص هو « المربد » . وتولى حديثاً الأستاذ خليل الفزيع رئاسة تحرير « اليوم » والأمل به — وهو الأديب القاص المجرب — كبير في نهوضها .

وفي خَبَرٍ أن إمارة عسير تَسْتَعِدُّ لإصدار صحيفة باسم « السراة » . ... والمطابع التي استوردتّها المؤسسات .

(ينظر عن المجلات والجرائد كتاب « الدوريات الخليجية » بغداد ، مركز التوثيق الإعلامي ١٤٠٢/١٩٨٢) .

وفي مقابلة إذاعية جرت (في ٢ رمضان ١٤٠٤) مع الدكتور حمود البدر — مواليد الزلفي ١٣٥٨ ، وكيل جامعة الملك سعود المتخصص بالصحافة — أورد ما يشير إلى رضاه عن الصحافة السعودية في ناحية الإخراج (الشكل) ، وما يُهيب بالصحفي السعودي إلى أن يكون أكثر حَرَكَةً ومتابعة شخصية ... من الاعتماد على ما يصل إليه جاهزاً وهو وراء مكتبه ، ومن هنا كان التّشابه الكبير بين جريدة وجريدة . ولعله يشير بذالك إلى حاجة من حاجات العمق (المضمون) .

النقد الأدبي :

وما قاله عن مجموع النواحي ... يرد عن الناحية الأدبية — وأَوْلَى أنْ يَرِد — وصحيح أنّ هناك أخبار الأدب والأدباء وتعريف بالصادر ، وملاحظات تريد أن تكون نقداً ... ولكن الموجود أقل من المطلوب ، ولا يؤهل لوصف الصحافة الأدبية بالنشاط والابتكار ، ومايَرِدُ فيْها على أنه نقد [ليس] بالنقد الأدبي ، والفكر الأدبي — وهو ما يقال في الصحافة العربية كلها .

ومعلوم أن المجال الأول **للنقد الأدبي** هو الصحافة ، هو ما يكتب على صفحاتها ثمرة لدراسة الدارس ، وتخصص المتخصص ، وعلم الأستاذ ... على أن يأتي رَصيناً ، موضوعياً ... فيه عمق وتحليل ، ودلالة الذوق السليم ... والهدف البنّاء — على كل حال .

ولعل النقد الأدبي في حاله الحاضرة يعمل على أن يحقق شيئاً من ذالك ، ويسعى ، ويدّعي ، ويتكثّر ... ويخطو خطوة ... إلاّ أنّ ناتج الجمع يبقى ضئيلاً ، ولم يبق عُذرٌ ولم يَعُدْ طِفْلاً ... ولك أن ترجع بميلاده الحديث إلى ما قبل العهد السعودي أيام كانت « القبلة » (ومَنْ حَرَّرَ فيها من العرب) و « بريد الحجاز » والشباب المتوثب الساعي إلى المجد في الإبداع الأدبي والعمل على النهضة بعواملها ومراميها .

ثم كان العهد السعودي — ومازال الكلام متّصلاً بالشباب الحجازي — فلم تنقطع الحركة — وإن توقف بعضهم ، ووجد بعضهم موضوعاً جديداً — وظل الشباب في جِدّه ، وفي الجد ينظم الشعر ويحرر المقالة ويبثّ الفكر الأدبي في المعنى والمَبْنَى كما تلقاه من التجربة العربية إذْ يقرؤها في الصحف أو في الكتب ... ولم تكن قليلة الشأن ، ولم يكن تلقفه إياها من دون مناقشة وشخصيّة وإضافة تتناسب مع الظرف الخاص والبيئة الخاصة مع الشعور العربي العام ... — ولك أن تقرأ أطرافاً في ذالك في كتابَيْنِ تكرر ذكرهما هما : « أدب الحجاز » و « وحي الصحراء » ... وليسا وحيدَيْنِ في بابهما ولكنهما مما يمكن تيَسُّرُه والوقوف عليه ، خصوصاً بعد أن أعيد طبعهما . وفي جريدة « صوت الحجاز » صور أخرى .

لقد خاض الشباب في الموضوعات كلها : اللفظ ، التركيب ، اللعب اللفظي ومحاربته ، الخواء الفكري والسخرية منه ، السلاسة مع المتانة ، الوطنيّة ، القومية ، التجْديد ... وربما اختلفوا في جُزْئيات من التجْديد ، وربما اختلف مُجَدّدُونَ مُتَطرّفون مع قدماء متطرفين — كما هي طبيعة الأشياء ، وكثيراً ما أذكَى النّارَ شابٌ مندفع جداً كمحمد حسن عواد ... يريد أن يكون للأدب الحجازي — ثم السعودي — زعيماً يُشَار إليه بالبنان ، وقد يكون العقاد قدوة له . والحقّ أنه يمتلك عناصر كثيرة تؤهله ، وكتابه « خواطر مصرحة » وإن كان (ثورة)، وعراكاً ... فإنه ليس بالحدث العابر في حياة فتى مثله ، وحياة حركة فتيّة كالتي

كانت ... على أن العواد لا يصلح مثلاً في النقد الأدبي لأنه ينطلق من انفعال ويبقى عند الانفعال — ينظر كتابه : « تأملات في الأدب والحياة » (١٣٥١ — ١٣٥٥) .

الأدباء — الشعراء — هم هم النقاد ... ويتبادلون الإطراء مرّةً ، والذمَّ مراراً ، ويشتدُّ التناوُش ، ويتحزَّبُ هذا لهذا وذاك لذاك فيكون العواد في واد مثلاً ، وحمزه شحاته في واد آخر — مثلاً ... ولك أن تسمي ما يجري معارك ، وهي غير قليلة تكون موضوع بحث في الدراسة مع تنبه خاص للتواقيع المستعارة ولا غَرْوَ أنْ غابتْ أسماء من « أدب الحجاز » كان حقها أن تذكر . وأسماء من « وحي الصحراء » كذالك ... وحتى من كتاب عبد السلام طاهر الساسي : « شعراء الحجاز في العصر الحديث » — وتنظر مقدمته .

وكان الأدباء كثيرين ... ولك أن تعيد نظرة إلى هذه الكتب الثلاثة ، ومنهم منْ كان ينتظر أن يبقى في الرأس (وأذكر مثلاً) عبد الوهاب آشي ... ولكنه انزوى (توفي في جمادى الآخرة ١٤٠٥ مارس ١٩٨٥) .

وأدار آخرون وجوههم عن الأدب إلى الإدارة مرّةً ، وإلى التجارة مرات ... وممن كان اسمه يرد مقدماً : عبد اللطيف النشار . واختفى اسمه .

ويذكر للعواد ثباته الأدبي ... حتى تأسيسه النادي الأدبي بجدة ... حتى الموت

ومن رأي العواد أن خيِّر من يوصف بالناقد الأدبي الحق بين أدباء المملكة هو (عزيز ضياء) — وآسف أني لم أقف على نقْدِ الأستاذ ضياء .

كانَ الشباب — وهذا شأن الشباب — حركة دائبة وطموحاً ونشاطاً ، وانعكس ذالك على نتاجهم الإبداعي وعلى نتاجهم الفكري والنقدي . ولابُدَّ من تطرُّفٍ وحماسة ... ومن ثم حِدَّة وتعصب وشدة ... وخروج عن المقصود ودخول فيما ليس من الأدب نفسه إلى أمور شخصية وإلى حزازات خاصة ...

ويبلغ الأمر حدَّ التنبُّهِ إلى الخطر المحدق وضرورة التَّعقُّل ... وإذا كانت

« المنهل » قد فتحت صدرها للنقد الأدبي ، وصارت مصدراً لا يستغني باحث عنها .. فإن من مفاخرها قولها : إنها دعت إلى وقف هذه الحملات ، والمهاترات .

ولبيان مكانة « المنهل » من « النقد » خصص الكتاب الفضي (١٣٦٩/١٩٦٠) فصلاً بعنوان « بحوث النقد » (ص ص ١٣٣ – ١٣٥ – قال : لمجلة المنهل أسلوب خاص في النقد ... ويخال بعض من لا يُدَقِّقُون في الأمور أنها خالية في أكثر الأحيان من النَّقد ... ولكن الحقيقة الواقعة أنها مليئة بألوان النقد ... نقد الأدب ... نقد المجتمع ... نقد الحياة ... ولكن بأسلوبها الخاص ... والنقد فيها أخْفَى من دبيب النمل .. وقد تستعمل (أدب التقية) فيما تريده من نقد ... وهي لا تُجَابِهُ المنقُود بالنقد المرِّ المثير ، وذالك لضمان حسن توجيهه وحسن تنبيهه ... وقد قال الله تعالى لرسوله : ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وبُعْدٌ بالنقد عن المهاترة التي كثيراً ما رأينا النَّقْد يوصل إليها حتّى ولو كان نقداً موضوعياً .. ومع ذالك لم يسلم المنهل من عقارب المهاترات ...) .

ثم شرع يستعرض البحوث : (وأول نقد لأثر أدبي حديث في الحجاز كان موجهاً لكتاب « وحي الصحراء » (...) فقد أشار المنهل في استعراضه للكتاب إلى أن هناك بعض مقالات وقصائد ومقطوعات لم تَسْمُ إلى أوج الكمال والنُّضج في الكتاب . نشر ذالك في العدد الثاني من السنة الأولى الصادر في محرم ١٣٥٦ – مارس ١٩٣٧ .

وثاني نقد فيه كان موجهاً إلى صميم (الأدب الحجازي) يومئذ (...) وثالث نقد وُجِّهَ من المنهل إلى الأدباء (...) بعنوان (أدب النفس وأدب الدرس) (... ونقد المنهل كبار الأدباء المصريين إبراهيم عبد القادر المازني ، زكي مبارك ، طه حسين) ... ولأول مرة في تاريخ الأدب السعودي الحديث يوضع الأدباء في (قفص الاتهام) .. نشر في ذالك سلسلة مقالات بَدَأَنَ بعدد صفر ١٣٦٥ / يناير ١٩٤٦ بقلم الأستاذ عبدالله عبد الكريم الخطيب .

ويمضي المنهل يستعرض بحوثه ويفخر بموضوعيته وترفعه عن المهاترات ، ويمكن لفخره أن يعكس ظاهرتين غير محمودتين في الجَوّ الأدبي ، وفي النقد الأدبي : الذاتية والمهاترات . وعدّ « المنهل » من أوّلياته (ص ٨٩) : أنه (أول صحيفة وطنية قاومت نزعة أدب المهاترات ، بكل ما أُوتيت من جهد قولاً وعملاً حتى أطفِئَتْ جمرة هذه الجرثومة الوبيلة أو كادت من صحافتنا وأدبنا (أخيراً) ... فلا يصح إلّا الصحيح) .

وأشكّ في أنها ماتت بمعنى الكلمة ولكنها خفتت ، وكادت تُطفَأ ... ويسير تاريخ النقد الأدبي في هذه الطريق ، وهو دليل حيويّة – على أيّة حال . وتبقى الحِدّةُ سائدةً فيه وكأنها شرْط في النّقد مع محاولاتٍ لتخفيفها أو إخفائها ومع البعد الممكن عن المسائل الشخصية ... ولا أدل على بقاء الشدة من « المرصاد » الذي كتبه إبراهيم هاشم فلالي في نقد أدباء متقدمين في الصدارة مثل : القنديل ، ضياء الدين رجب ، محمد حسن فقي ، حسين سرحان ، حسين عرب ، محمد حسن عواد ... الخ .

ويذكر أن الفلالي اعتدل في الجزء الثاني ومال إلى الثناء ... – ينظر « المرصاد » و « مرصاد المرصاد » و « نقد المرصاد » وقد صدرت في كتاب واحد عن النادي الأدبي بالرياض ١٤٠٠ في طبعة جديدة .

وتكون صحيفة « الأضواء » بجدّة والقائمين عليها صفحة أخرى من تاريخ النقد الأدبي ، وكان على القائمين نُضْجٌ وفيهم حيوية ... ولابُدّ للدارس من وقفة عند عبد الفتاح أبو مدين هذا القادم من ليبيا ومعه ثقافة أخرى ولغة أخرى ... وتقف عند كتاب « أمواج وأثباج » كما تقف عند « المرصاد » والقائمة تطول

ولابد من عودة جادة إلى الصحف ، مع وقفة متأملة لمعرفة أصحاب التواقيع المستعارة ... وافادة مما صدر متأخراً من مقالات مجموعة في كتب ... وملاحظة أن الشباب الذين صاروا كهولاً – شيوخاً – لم يتوقفوا عن (مناوشة) بعضهم ،

ولم يتوقف الطالعون بعدهم عن مناوشتهم ... والفلالي مثل من هؤلاء وكأن الأذواق تتغير والأماكن تضيق بأهلها ... ولا يلبث المتقدم أن يسوءه المتأخر . وها هو ذا حسين سرحان يكتب في جريدة البلاد السعودية (١٣٦٩) : نفسية جديدة بجيل جديد : (... أتيح لي مرات وكرّات بلا قصد مني أن أتصل بفئات من شباب هذا الجيل من موظفين وغير موظفين فلم أشهد فيهم خلة تمدح أو تستطاب (...) جيل جديد يريد أن يساير زمنه ، وأن يسبقه أيضاً في أكثر الأشواط ، بلا أهبة تامة ، ولا استعداد كامل ...) .

وتجد مثل هذا لدى محمد حسن فقي في مقال : « الحالة الأدبية عندنا » — وحي الصحراء ص ص ٤٤٢ — ٤٤٤ : (ألمح بين عدد يسير من الشباب ظاهرة خطرة على كيان نهضتنا الأدبية الحديثة ، هذه الظاهرة هي حبهم للظهور وتكالبهم على الشهرة الكاذبة ...) .

وما نحن بصدد التاريخ الكامل للحركة ...

ولكني أدركت الصحافة السعودية في ثمانينيات القرن الهجري / ستينيات الميلادي فلم يلفت نظري شيء اسمه النقد الأدبي على وجهٍ صريحٍ ... مع أن الحياة الأدبية قد تطورتْ وتوسعت وجَدَّتْ فيها أجْيال ولم يبق الحجاز وحده في الحداثة ، فقد لحقتْ به المناطق الأخرى في الشرقية والوسطى ... والجنوبية وصدرت عنها وفيها الكتب والدواوين ...

ومن يدري فلعله الهدوء النّسْبِيُّ الذي أعقب عاصفةً من جدال وربما نزاع بين شيوخ وشباب ، وحرص على المكانة وسَعْي إلى الصعود ، ثم كان شعر عمودي وشعر حُرٌّ ... وكان غموض وسمات من السريالية والرمزية ...

من يدري ... ؟ (ينظر الفوزان ج ٣) ولكني لم أدرك الماضي حيًّا ... وربما كان لصدى هذه المذاهب ودلالتها على الجديد والتجديد أثر في بناء كتاب « شعراء نجد المعاصرون » على اهتمام خاص بالرومانتيكي والواقعي ... والرمزي والسريالي ...

ولا يعدم المتتبع دليلاً على (الحساسية) ... وكأنّ نَاقدك الأدبي يَمَسّ كرامتك ، رأيت ذالك في موقف للأستاذ عبدالله بن خميس من الأستاذ عبدالله نور ؛ أما الخلاف على جيم جدة بين الجاسر والأنصاري فكان يخرج بأصحابه عن الهدوء المطلوب منهما والمنتظر من علمهما ... في غير ذاك .

وربما كان الغالب على النقد — إن وُجِد — عين الرضا ، والوقوف عند الحسنات ، وتكبير هذه الحسنات أحياناً . ولا تعدم أن تحس أن وراءها صاحب الأثر المنقود نفسه .

يمكنك أن تصف حال النقد عموماً بالهدوء ... وإذا لم تلمح وراء الهدوء تحفزاً لخطوة جديدة ونشاطاً جديداً ... فإنك ستقتنع بالخطوة الجديدة عندما تقع والنشاط الجديد عندما يقع ... وإذا كنتَ قد بعدت عن البلد ... فلك من كتاب الأستاذ يحيى محمود ساعاتي ما يعوضك شيئاً في الاستدلال ، نقصد كتابه : « الأدب العربي في المملكة العربية السعودية — ببليوجرافيا » — الرياض ، دار العلوم ١٣٩٩/ ١٩٧٩ فإنك واجدٌ دليلك في عنوانات المقالات التي يلتقطها ويعيّن تاريخها ومكان نشرها من مجلة أو جريدة أو كتاب ... وربما لمحت وراء ذالك — مع متابعات متقطعة بعيدة — نُضْجاً أكثر ، وعمقاً نِسْبِياً ، وجديداً من الثقافة الواردة من قراءات لأدباء عرب ولترجمات ...

شرع النقد (يلم نفسه) ، ويثبت مكانه ، ويعرب عما يجب أن يكون عليه ، وشرع يتابع الأنواع المتعددة ، وقد يبدو (مُنَظِّرًا) ... وقد يميل عدد من أصحابه إلى ضرب من التخصص ، وتنال القصة في ذالك نصيباً وافياً ... كما اتّضح فيما نشر الدكتور منصور الحازمي مفرقاً ثم في كتاب فأطمعنا بالزيادة والاستزادة .

وتكون « الصمت والجدران » لسباعي أحمد عثمان دليلاً آخر (لبوادر) النضج والوقفة المتأملة وقُل : المسؤولة... وحسناً فعل الأستاذ عثمان إذ ألحق بالطبعة الثالثة من مجموعته ما قيل فيها من كلمات ، ولم يدل في مقدمته القصيرة على الخطوة

المشار إليها في تاريخ النقد وإنّما دلّ كذالك على الخطوة التي تحققتْ في موقف المنقود ، فلم يعد ذالك المستار المستشاط (كأنه مجروح الكرامة ، النادم على أنه لم يأخذ للأمر أهْبَتَه) . قال : (... والواقع ... أنّ اهتمام الأقلام الناقدة ، أو غير الناقدة – بمثل هذا الحرص – على العمل الأدبي الذي يطرح في الساحة ... أمرٌ يدل على عافية فكرية ، وصحوة أدبية ، في كثير من مثل هذه المناسبات .. وقد حرصت على أن أستفيد من كل كلمة ... معي ، أو ضدي ...) .

ولشهادة الأستاذ عثمان لديّ دلالة خاصة فقد كان – ومايزال – محرراً في جريدة المدينة يوم كنت في الرياض ... وعليه فقد رأى ما رأيت – أو رأيت ما رأى – من سير الأحداث في عالم النقد الأدبي ... وقل: عافيته وصحوته ... وإذا قرأت كتاب الدكتور منصور إبراهيم الحازمي : « فن القصة في الأدب السعودي الحديث » قلت : كم نحن بعيدون – أي متقدمون – عن نقد محمد حسن عواد لمرهم التناسي . لقد تقدمنا كثيراً ، فهذا نقد قصصي بمعنى الكلمة .

وحصل في نقد الشعر شيء من هذا ، فقد تطور – كما تطور الشعر – ولكننا نبقى ننتظر كتاباً مناظراً لفن القصة من الدكتور الحازمي (أو من غيره) ! وحال الشعر أكثر عنفاً وأدعى إلى الجدال ! والصراع بين قدماء وجدد يكاد يكون صارخاً . وليس هذا للتعجب ، وإنما لإثبات التحسن في السير أن يكون من سلب مع الإيجاب ، وما ينتظر أن يصدر لدى خلاف – ولا أريد أن أقول : عراك أو صراع – بين جيل وجيل ، وبين شباب يبلغون في مفهوم التّجْديد درجات مختلفة يداخلها ادّعاءٌ وفراغ ، وسعيٌ لاحتلال مكان ليس لهم ... رغم وجود من يمتلك الثقافة والأصالة ... ومن ثَمّ تهدأ الأحوال ويأخذ كل حقه ... ويذهب الزبد جفاءً ، ويبقى ما ينفع الناس ...

لا أشك ...

ولابُدّ من أن أذكر الباب الذي فتحه الشيخ الجاسر على مصراعيه في مجلة العرب لنقد المؤلفات والتّحْقيقات خاصة ما كان منها قائماً على تاريخ المملكة

وأدبها وقبائلها ومواقعها – وعلمه في ذالك عجيب غزير يصعب أو يستحيل أن يتهيأ لغيره . ..ويلج البابُ معه باحثون آخرون .

ثم

الدراسات الأدبية ... وقد رأينا أطرافاً منها ، أي من تقدمها ...

ثم

تحقيق المؤلفات القديمة :

التحقيق ، ولابد من وقفة خاصة عنده – ولنتذكر أننا هنا نتابع تيارات الأنواع الأدبية ، وهي أهم ما تقوم عليه الخاتمة لأن البحث الأدبي كان الدائع الأساس إلى المعجم ... ولأنه – بعد ذالك – يمكن أن يكون مثالاً لغيره من مظاهر الحياة الفكرية في التأليف والطبع ، مكتفياً من الوقفة عندها بالإشارة اللماحة – .

وتأخر التحقيق العلمي في الأدب (واللغة) ولم يدخل في مهمَّات الأديب السعودي الأساس ، وكأنه اكتفَى بما كان يتَهيّأ منه في العالم العربي الواسع ، والعالم الإسلامي ، بعد الذي عمله المستشرقون ومعه ...

والشيخ الجاسر سباق في أشياء كثيرة وكان يعنى خصوصاً بشعر يلاقيه خلال بحثه وقراءاته فيسجله ويبوّبه ، ويصدره – في العرب تباعاً في مجلته « العرب » منذ السنة الأولى : عبدالله السلولي ، الصمة القشيري ، جحدر العكلي ، يزيد بن الطثرية ، القحيف ، عروة بن أذينة ... – ينظر كتابه « مع الشعراء » .

وقد نال حسن شاذلي فرهود الدكتوراه من جامعة لندن في يوليه ١٩٦٦/١٣٨٦ بتحقيقه كتاب « الإيضاح » لأبي علي الفارسي – مع مقدمة تحليلية – في جزءين . ثم عاد وعين في قسم اللغة العربية من كلية الآداب من جامعة الرياض (الملك سعود) فطبع الجزء الأول ، ثم الثاني وبينهما تحقيقات أخرى ، وبعدهما كذالك – ينظر

وحقق الدكتور أحمد محمد الضُّبيب(●) كتاب«الأمثال» لأبي فَيْد مُؤَرِّج بن

عمر السدوسي ونشره في العدد الأول من مجلة كلية الآداب بجامعة الرياض (١٣٩٠/ ١٩٧٠) — وله اليوم تحقيق لكتاب الميداني : « مجمع الأمثال » مُعَدٌ للطبع .

ويعني الدكتور حسن محمد باجودة — إلى عنايته بالتفسير والتأمل الحديث في سور من القرآن الكريم — بتحقيق الشعر . فكان له في ذالك أكثر من كتاب ، عرفت منها :

ديوان عبدالله بن رواحة — دراسة وجمع وتحقيق ١٣٩٢/١٩٧٢ — ١١٦ص .

ديوان أبي قيس صيفي بن الأسلت الأوسي الجاهلي ١٩٧٣ — ٩٩ ص .

ديوان أحيحة بن الجلاح — دراسة وجمع وتحقيق ١٣٩٩/١٩٧٩ — ٩١ ص .

وأصدر د. محمود حسن زيني : قصيدة البردة لكعب بن زهير ، شرح أبي البركات ابن الأنباري — دراسة وتحقيق ، جدة ، تهامة ١٤٠٠/١٩٨٠ — ١٤٨ ص .

وعني الدكتور عبد العزيز محمد الفيصل بالقُشَيْرِيِّين فجمع شعرهم وأصدره محققاً سنة ١٣٩٨ باسم « شعراء بني قُشَير » .

كما أصدر ديوان الصِّمة بن عبدالله القُشَيْري ، الرياض ، النادي الأدبي ١٤٠١/١٩٨١ — ١٩٢ ص (بعد أن نشرته مجلة « العرب » س ٢ ص١٢٧) .

ولعلاء الدين أغا : ديوان أبي النجم العجلي ، صناعة وشرح ، الرياض ، النادي الأدبي ١٤٠١/١٩٨١ — ٢٨٥ .

وتوجه الدكتور عبدالله بن عبد الرحيم عسيلان إلى «الحماسة» — حماسة أبي تمام — فحققها وصدرت في الحلقة (١٤) من منشورات المجلس العلمي لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية — ٦٢٤ ص .

ثم حقق كتاب « معاني أبيات الحماسة » للحسين بن علي النَّمَري (المتوفي سنة ٣٨٥) وقد عوّل فيه على شرح أحمد بن أبي رياش القيسي ، وقد صدر عام ١٤٠٣ (١٩٨٣) عن مطبعة المدني بالقاهرة في ٣٢٨ ص . وله – غير ذالك في التحقيق – : أخبار أبي حفص عمر بن عبد العزيز ١٤٠٠ ، الاجتهاد في طلب الجهاد لابن كثير ١٤٠١ .

وصدر عن دار العلوم بالرياض : حسن عيسى أبو ياسين – شعر همدان وأخبارها ١٤٠٣/١٩٨٣ – ٤٥٥ ص .

وتوجه باحث آخر (أردني يعمل في السعودية) هو عبد الحميد محمود المعيني فجمع وحقق أشعار بني تميم في الجاهلية ، بريدة ، نادي القصيم الأدبي ١٤٠٢/ ١٩٨٢ – ٤٩٥ ص . الكتاب في الأصل رسالة دكتوراه .

وللدكتور ناصر بن سعد الرشيد : شعر يزيد بن الطثرية .

وللأستاذ عمر بن محمد سليمان القطان : شعر معن بن أوس المزني ...

وهناك تحقيقات مهمة في الشعر والأدب وفي غيرهما ، صدرت ، خصوصاً ، عن مراكز البحث في الجامعات ، ومن أساس رسالتها : إحياء التراث .

ونرجو أن يفيد المحقق السعودي من خبرة تجارب سابقيه من عرب وغير عرب ، وأن يحذر أن يقع فيما وقع فيه سابقون من عجلة وتكرار ومن تدليس ومن بذل الجهد فيما لا يستحق الجهد ... وتحقيق المحقق – إنّ عالم التُّراث واسع وغني . والمنافسة والسرعة والكسب الحرام لا تجدي صاحبها نفعاً .

وللمحقق السعودي مجال خاص في تراثه القريب .

وقد رأينا الخدمة التي أدّاها سعد بن عبد العزيز الرويشد بجمعه « العقد الثمين من شعر ابن عُثَيْمين » (١٣٧٥) . وعلمنا خبر تحقيق محمد بن سعد بن حسين

ديوان بن بُلَيْهِد ، وهناك من يحقق ديوان سليمان بن سحمان .. ولعبد الرحمن ابن إبراهيم زين العابدين الحفظي (جمع وتحقيق) : شعر آل الحفظي بعسير ومعاصريهم . أبها . النادي الأدبي .

وأحسب أن نشر التراث القريب واجب ... ومازالت آثاره مخطوطة ، وكم من مرة أشير إلى دواوين شعراء المدينة مع بيان مكان وجودها ... ديوان الأسكوبي ، ديوان الزالي ، ديوان البيتي ، الجداوي ، محمود شويل ... وشعر بَرّادة ، والصحّاف ، والعُمري وغيرهم ممن يعرفهم الدكتور الفوزان والدكتور عبدالله الحامد – جيداً في سلبهم وإيجابهم .

دواوين شعر لم تنشر :

وأحسنت دار تهامة إذ أصدرت لحمزة شحاته « الرجولة عماد الخلق الفاضل » بعد أن كدنا نفقد الأمل في الظفر به . ولعل الدار تعمل على إصدار شعر شحاته مجموعاً في ديوان ، ومقالاته وكلماته النثرية في كتاب ، كما أصدرت له « رفات عقل » ورسائله إلى ابنته – ان تراث حمزة شحاته تراث إبداع وفكر .

وأعلنت تهامة عن قرب صدور ديوان حسين عرب .

وليس من الصحيح أن يبقى شعر الغزاوي – وقد غادر صاحبه الدنيا – من غير جمع وتحقيق (وشرح المناسبات) ، فإنّ هذا الشعر – والشاعر – مَعْلَمٌ من معالم الأدب الحجازي – السعودي في خيره وشرِّه ، وسلبه وإيجابه ، رضينا أم لم نرض . ولا ندري – وندري – لِمَ لَمْ يُصْدِرْهُ صاحبه في حياته وهو المتمكن مالاً وجاهاً ومنزلة !

يحدثنا الأستاذ الشاعر محمود عارف في « المنهل » (ذو الحجة ١٤٠٣/١٩٨٣) فيقول : إنه (ولد أوائل القرن الرابع عشر بمكة المكرمة ، توفي يوم الاثنين الموافق ١٤٠١/٦/٢٢ ، ويعتبر طليعة شعراء الجيل الأول ، وأنّ ورثته أهدوا مكتبته إلى (جامعة أم القرى) . وقد ترك زهاء أربعين صندوقاً من الكارتون الورق مكتظة

بالثروة الأدبية وهي عبارة عن آلاف الصفحات مطبوعة بالآلة الكاتبة تحتوي على مختلف الموضوعات في الأدب واللغة والتاريخ والتحقيقات والشذرات ومعظمها قد نشر في الجرائد والمجلات المحلية . ويقال : إن هذه الكنوز الأدبية موجودة حالياً لدى سعادة السيد ياسين علاّف ابن أخت الغزاوي وشقيق الشاعر إبراهيم علاف (...) وربما يكون حجم الشعر الغزاوي يزيد على عشرة دواوين ضخمة . وحجم النثر يتجاوز اثني عشر مجلداً ...) .

وآن الآوان لجمع ما تناثر من شعر حمزه شحاته في ديوان جامع مانع ... وجمع دواوين أحمد قنديل ، مع ما لم ينشر له ، في ديوان واحد . وشرع محمد حسن عواد في إصدار ديوان موحد ومضى قبل أن يتم المشروع . وأحسب أن شعر محمد عمر عرب الذي صدر في طبعتين من « الشجرة ذات السياج الشوكي » في حاجة إلى الإكمال والتحقيق .

وفي الحديث الأسبوعي الذي يعده الدكتور محمد بن سعد بن حسين بعنوان « المكتبة السعودية » علمنا أن الأديب عبد الإله جدع — وهو شاعر على النمط الحديث — أصدر المجموعة الشعرية الكاملة لدواوين أبيه : محمد إبراهيم جدع ، وهي خمسة : وحي الشاطيء ...

وأشار الدكتور محمد بن سعد بن حسين إلى المجموعة الكاملة لشعر محمود عارف كذالك — كان الحديث ، الجمعة مساء ١٤٠٥/٣/٧٪ ١٩٨٤/١١/٣٠ — والبرنامج نافع في باب المطبوعات السعودية .

وحسناً فعل عبد الوهاب آشي إذ عاد مؤخراً إلى شعره فأصدره في « شوق وشوق » ، وحسناً يفعل حسين عرب إذ (يقوم حالياً بإعداد مجموعة من قصائده ليصدرها في أول ديوان له) حسناً فعل وإن جاء العمل متأخراً — ولد الآشي سنة ١٣٢٣ وتوفي في ١٧ جمادى الآخرة ١٤٠٥هـ ، وولد عرب سنة ١٣٣٨ — والمُهِمُّ العمل والجمع والإصدار .

ومهم كذالك الجمع التام ، وتذييل القصائد بتاريخ النشر ومكانه ، والأمانة المطلقة، ورد التواقيع المستعارة إلى حقيقتها ، ولا خوف في ذالك ولا ضَيْر ، ومن حق الشاعر أن يشرح المواقف ويبين ملابساتها وأن يعترف حيث يكون تناقض وحدوث مالم يَعُدْ يرتضيه أو يخشى أن يذكره ... من حقه وواجبه لأنه إن لم يفعل اليوم فسيُخْفِي حقيقةً أو يضيعها ، وان يعدم – غداً – محققاً مدققاً يظهر المخفى ، كما لا يعدم من يفسر الأشياء بغير ظروفها وحقائقها فيخسر صاحبها من حيث قدر الربح !

ثم لِمَ لَمْ يكمل محمد حسن فقي ما بدأ الخطوة الأولى منه بـ « قدر ... ورجل »؟ ولم لم يجمع حسين سرحان دواوينه ... في ديوان واحد ؟ !

ويبقى مشروع متكامل يتجرَّدُ له محقق أمين هو « ديوان الشعراء المقلين » من طلائع النهضة الحجازية : محمد صبحي ، محمد صلاح خليدي ، عبد القادر عثمان ، عبد الوهاب النّشار ، محمد سرور الصبان ، أحمد العربي ، حسين سراج ، عبد الحق النقشبندي ، عبدالله عمر بلخير ، عُبيد مدني ، حامد دمنهوري ، محمد سعيد العامودي (في غير الرباعيات) .

ويمكن أن يتعاونَ على هذا المشروع المجدي أكثر من محقق ، وقد يؤدي التعاونُ إلى تعليل علمي للقلة في الشعر ، أو في ترك الشعر ... والتوجه إلى غيره وغير الأدب من شؤون الحياة وسلّم مراقيها . ويحسن المباشرة العاجلة بالعمل لوجود عدد من هؤلاء الشعراء في الأحياء . وقبل أن تضيع الجرائد وتخفى المعالم – وهم في كتب « أدب الحجاز » و « وحي الصحراء » و « نفثات من أقلام الشباب الحجازي » منطلق أول .

وفي غير الحجاز شيء مما في الحجاز لشعراء ممن كانوا قبل المملكة ... أو بعدها ، في نجد وفي غير نجد : الشرقية ، الجنوبية ... فأين ديوان حمد الحُجِّي ، ولم لم نجمع شعر محمد العامر الرميح ... ولِمَ لَمْ يَصْدر مقبل العيسى – ١٣٧٦ – شعره في ديوان ؟ وأين دواوين محمد سعيد الخنيزي ؟ وغيرهم وغيرهم !

والقائمة تطول . ولسنا بصددها وإنما هي تذكرة للمحققين ... وللشعراء الأحياء كذالك . والدكتور محمد بن سعد بن حسين عارف بالمخطوطات النجدية ومظانّ الدواوين منها .

وليست المسألة مسألة الشعر وحده ، وإنما النثر ، والكتب المؤلفة ومازالت مخطوطة هنا وهناك ، عرضة للضياع . وقد ذكر — مثلاً — الفوزان : « اللآلئ الثمينة في أعيان شعراء المدينة » و « تراجم علماء جدّة » ... ولمثلهما مثلهما الكثير في أنحاء المملكة المترامية الأطراف . وللمحققين فيها نَدْحَةٌ عن التنافس أو التدليس . وعليهما واجب لا يقع على من سواهم .

جمع مقالات المقلّين من الكتاب :

ونذكرهم بجمع المقالات في كتب بأسماء أصحابها المكثرين ؛ فإذا كانوا مُقِلّيْنَ أُلِّفَتْ بين مجموعة منهم في كتاب واحد . وبعودة عابرة إلى « أدب الحجاز » يجدون عبد الوهاب آشي ، محمد جميل حسن ، حامد كعكي ، عثمان قاضي ، محمد البياري ، محمد علي رضا ، محمد عمر عرب ، عبد الوهاب النشار ، عبدالله فدا ، محمد شيخ حمدي ، محمد سرور الصبان ؛ ونظرة أخرى إلى « وحي الصحراء » : حسين خزندار ، عمر صيرفي ، عبد السلام عمر ، عبد الحميد عنبر ، محمد حسن كتبي ...

وتجد أسماء أخرى في المناطق الأخرى من المملكة ... وعلى الأحياء منهم واجب (المبادرة) إلى الجمع والنشر ؛ أمّا الأموات فينوب عنهم المحققون .

ولابُدّ خلال هذا وذاك من جمع ديوان خاص بالشعر المنثور فيه : أحمد سباعي ، عزيز ضياء ، عبد القدوس الأنصاري ، محمد حسن عواد ، ... ويمكن أن يكون هذا الجمع جزءاً من رسالة للماجستير — أو الدكتوراه — مسبوقاً بدراسة الظاهرة في سماتها وعواملها وحياتها وموتها ...

أما الجهد الذي بذله الأستاذ محمد بن أحمد عيسى العقيلي في « ديوان السلطانين »

و « ديوان القاسم ... ابن هُتَيْمل » فهو مشكور ولكنه ليس التحقيق المطلوب لأنه اختار واختصر وحذف ... وكأن غرضه التاريخ أوّلاً .

وزاول الأدباء – والكتاب – أنواعاً أدبية صغيرة ، تلتقي مرة مع المقالة ومرة مع القصة ، ولا تخلو أحياناً من نكهة شاعرية في حدود ما اصاحبها من قلم سيال وخيال ، وما يمكن أن يسكبه فيها من عاطفة أو تأثر ... زاولوها على قلة ، ولكنها تذكر ، وقد تتقدم مع الزمن .

السِّيَر الذاتية :

ومن هذه ما يُعَدّ من **السيرة الذاتية** (الكلام عن النفس في مسرد حياة صاحبها) ، ويرد هنا اسم الشيخ أحمد سباعي وقد راينا له « أبو زامل » الذي صار في طبعة ثالثة : « أيامي » – وفي تعدُّدِ طبعاته ما يدل على أهميته مضموناً وشكلاً . ويعرض الشيخ السباعي أطواراً من حياته مرتبطة بمجتمعها في مؤلفات أخرى وهو جريء نقّاد ، ذو قلم وملاحظة ...

ويذكر لمحمد حسن فقي كتابٌ مازال مخطوطاً يتحدث فيه عن نفسه وحياته على ما يشبه منهج طه حسين في « الأيام » – ياحبذا لو طُبع !

وينشر عبد العزيز الربيع : « ذكريات طفل وديع » . ولو عاش لكتب ذكريات الكهل وذكريات الشيخ – وكان لديه الكثير من شؤون الحياة والفكر والعلم والأدب مما يقوله .

ويؤلف كتاب أحمد قنديل « الجبل الذي صار سهلاً » ضرباً من السيرة الذاتية مختلطة تمام الاختلاط بالأحوال الاجتماعية في مرحلة من مراحل حياته ومراحل التاريخ . والجبل هو جبل (كرا) الذي كان يعترض (الصعود والنزول من الطائف وإليه) ثم شُقّ طريقٌ عَبَّرَهُ وذَلَّلَهُ ...

قال المؤلف في صدره : (ليس هذا الذي تقرأ هنا – قصة ولا هو رواية – بالمعنى الحديث ، ولعله .. نوع من .. حكاية مطلقة (...) هو سوانح مبعثرة ..

ذكريات متناثرة .. (..) إنه أوراق خريف تتَحاتّ .. وتتساقط من شجرة عمر مكتوب !!) .

وفي هذه الكتب المؤلفة في السيرة الذاتية ما يعرض عرضاً تاريخياً فقط كما يكتب أي تاريخ دون قصد إلى الإخراج الأدبي لأنَّ المهم الأول – والأخير – هو الحدث .

ومن أوائل ما يذكر في هذا « هذه حياتي » لمحمد حسن كتبي (أو حسن محمد كتبي) ، وقد أعاده في طبعة ثانية موسعة .

ويدخل في هذا « **ذكريات** » أحمد علي التي نشرها في المنهل أولاً ثم جمعها في كتاب – يا حبذا لو زاد فيه . ثم « ذكريات مدرس » لعبد الرحمن بكر صبّاغ ...

وفي المذكرات ترد « مذكرات طالب » للدكتور حسن نصيف – وقد طبع ثلاث مرات دليلاً على اهتمام القارىء به وإشارة إلى طراوة أدبيّة فيه ويمكن أن يَمُتَّ إلى قائمته ما ألفه محمد عمر توفيق في كتابيه : « أربعون يوماً في المستشفى » و « من ذكريات مسافر » .

ترى أيكتب شيوخ الأدب ذكرياتهم ؟ ولم لا ؟ ، وفيها نفع عميم ، ومتعة عميمة .

ولا تعدم في طول الصحافة وعرضها ، قديمها وحديثها ، وفيما حصل من مقالات مجموعة في كتاب من صفحات من الحياة ومن الذكريات ، منها ما عرض صرفاً ، ومنها ما سعى صاحبه إلى التاوين الأدبي .

كتب الرحلات :

وإذ ذكرنا « من ذكريات مسافر » نذكر للجاسر : « **رحلات** » ، ولعبدالله الحقيل « رحلات وذكريات » – طبع مرتين . والكتب – هنا – يغلب عليها التسجيل ، وقد يسعى صاحبها لاصطياد حادثة تلفت النظر بغرابتها .

ومن أوائل ما يذكر من ثمرات الرحلات كتاب فؤاد شاكر « رحلة الربيع » وقد طبع مرتين ، وكتاب محمد عمر رفيع : « في ربوع عسير » .

ويقيم الشيخ حمد الجاسر كتبه عن مناطق المملكة ومواقعها على المشاهدة العينية والرحلة إلى المكان نفسه . وفي هذا « التاريخ » تذكر ريادة لمحمد عبدالله بن بليهد في « صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار » – إلا أن هذه تاريخ وجغرافية ولا حَظَّ يذكر للطابع الأدبي ... في العرض ، وإن كان ذا قيمة أدبية بما أورد فيه من شواهد الشعر وما بيَّن لما ورد من هذه الشواهد من مواقع مازالت قائمة أو درست .

الرسائل الأدبية :

و « **الرسائل** » ضرب آخر يُعْنَى بها الدارس الأدبي – فضلاً عن المؤلف المعجمي والباحث . والمقصود بها ما يتباداه أهل القلم من رسالة أوجواب رسالة تُكَوِّنُ مصدراً لا يستهان به في الدراسة وقد عُنِيَ الغرْبيون بجمعه في كتب خاصة . أما إذا صدرت الرسائل عن أديب يسعى إلى التلوين الأدبي فإنَّها تكتسب أهمية خاصة في الأدب – الإنشائي – الإبداعي ...

ولا شكَّ في أن لِأُدباء السعودية حظّاً وافراً من هذه وهذه ... ولكن ليس لدينا منها على هيئة كتاب إلّا رسائل لحمزة شحاته كان يكتبها إلى ابنته أصدرتها تِهامة – بعد وفاته – بعنوان « إلى ابنتي شيرين » – وقلم حمزة شحاته قلم أديب يجمع الرأي إلى عمق لغة عرضه .. ووصف للأحوال والأشياء والعواطف ... مما يدخله في النوع الأدبي .

الفلسفة في كتابات الأدباء :

وفي عودة متأخرة – لابُدَّ منها – إلى كلمة (**الفلسفة**) نلاحظ أن الكلمة لم تكن غريبة عن السن – وأقلام – الرعيل الأول والثاني من أدباء الحجاز وهم يغترفون من الكتب – والمجلات – الواردة إليهم من مصر والشام وغيرهما ، وحسبك أن يكون من ذالك مجلة « المقتطف » فضلاً عَمَّن كان يرد عليهم من أدباء العرب ومفكريهم ، وما كان يتهيأ لهم لدى سفر أو معرفة للغة أجنبية .

وقد يكون محمد حسن فقي أكثر الأدباء استعمالاً للكلمة – غير ما يغلب من روحها على شعره – ولو رجعتَ إليه في « وحي الصحراء » لرأيت له قصيدة بعنوان « فلسفة الطيور » و « كلمة صغيرة في فلسفة التشريع » .

وصدرت له حلقة في سلسلة المكتبة الصغيرة في يوليه ١٩٨٠ / شعبان ١٤٠٠ فإذا عنوانها « فيلسوف » وإذًا به يقول في تقديمها : (... مجموعة ، مما استطعت العثور عليه من مقالات كنت أنشرها في الصحف المحلية تحت عنوان (فيلسوف) .. وإن كنت لم أستطع أن استخرج منها إلا القليل ..

ولقد كنتُ بَدَأتُ في كتابة هذه المقالات منذ أكثر من عشرين عاماً بجريدة « البلاد » (...) ومنذ سنوات قلائل ، طلب مني الكثيرون من أصدقائي ، وقراء المقالات الأقدمين – طلبوا إليّ بإلحاح ، أن أعاوِدَ كتابتها ، فاستجبتُ لرغباتهم وعاودت كتابتها ...) .

ولا تعدم أدلة أخرى عند كتاب آخرين ... والذي قرأه حسين سرحان كثير ... ومثله معاصروه .

ثم تتوالى الكتب المصرية (خاصة) بين مترجمة أو مؤلفة أو معدّة عن أصول غربية ... وتصل إلى المملكة دون شك ، ومن ذالك : « قصة الفلسفة – اليونانية » ، « قصة الفلسفة الحديثة » ... مؤلفات عبد الرحمن بدوي ... الأهواني ...« الفلسفة الإسلامية» لديبوير ... مؤلفات في الحضارة الإسلامية في طليعتها آثار أحمد أمين ، وفي الفلسفة الإسلامية ... غير ما نشر وحقق من آثار الفلاسفة المسلمين بمن فيهم ابن رُشْد ... و « التّهافت » و « تهافت التهافت » .

تصل هذه الكتب بأساليب شتّى ، ويقبل عليها القراء ، ومن القراء من يستطيبها أكثر من غيرها ... فالإنسان الواثق من نفسه – ومن دينه – لا يخشى الاطلاع وإشباع نَهَمِه إلى المعرفة – ولا أقول : كل ممنوع متبُوع ، فما علمتُ منعاً لهذه الكتب . وحين ألّف الشيخ عبدالله ابن خميس كتابه « راشد

الحلاوي » لم ير ما يمنع من دراسة ما سماه : فلسفته . ولم يكن الحلاوي فيلسوفاً ، وإنما المهم استعمال الكلمة (الفلسفة) .

وفي الأدباء — والمفكرين — من يجيد لغةً أجنبية ، ومنهم من تهيّأ له أن يدرس خارج المملكة ، وفي جامعات حديثة ... منها الجامعة الأمريكية ببيروت ، مثل أحمد عبد الجبار ، حسين سراج ... ولا تسل عن عزيز ضياء فنظرة واحدة إلى كتابه « جسور إلى القمة » وتلتقي بديكارت ، ورُوسُّو والدُوس هكسلي ... وابن سينا والفارابي ... ناهيك عن عشرات ومئات وألوف الشباب الذين درسوا مبتعثين أو على حسابهم في أوربة وأمريكة ... ونخرج بهم إلى ما هو أوسع من الحجاز ، إلى المناطق كلها ...

وأبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري — وقد رأيناه ورأينا اسم : محمد بن عمر — ظاهرة خاصة في موضوع الفلسفة ، في الفقه إن أردته فلسفة ، وفي الفلسفة الفلسفة إن خرجت إليها من الفقه والفكر ، وله في ذالك : « ديكارت بين الشك واليقين » ، الرياض ، مطابع الشرق الأوسط ١٣٩١ — ٥٦ ؛ وله (بالاشتراك) : « الفناء الباقي في رباعيات الخيام وغرامه أو فلسفة الكوز » ١٣٩٨ ؛ غير « النظرات اللاهثة » ، و « النظرات اللاهية » .

ولعل أبرز ما تبرز به الظاهرة كتابه « لن تُلحد » (١٤٠٣/١٩٨٣) — وقد رأيناه — وقد كان مقالات موزعة في الجرائد قبل عشرين سنة . وجعل مداره إذْ جمعه : الإيمان والإلحاد . وقال : (لم يكن الغرض من هذا السفر مُلاحقة شُبَهِ الملاحدة ، وإنما كان الغرض تحرير العقل من أغاليط الفكر وإقناع الناس بثمرة الإيمان بالله وبشرعه .

ولهذا كان العنوان : « لن تلحد » ، تفاؤلاً وثقة باستجابة العقول المنصفة لموجبات الضرورات الفكرية) .

تقرأ في الكتاب فتلتقي بأرسطو ، وهيوم ، ومل ، وباركلي ، ومالبرانش ، وسارتر ، الديالكتيك ...

يدهشك بسعة المعرفة ، وغزارة المقروء ويثير عجبك للثقة بالنفس وبالعقيدة التي لا يخشى عليها أن يُزَلْزِلَها أيُّ فيلسوف ، فضلاً عن انتفاعه أحياناً بما كان (للمؤمنين) منهم من أداة ...

وإذا كان ديكارت لديه فيلسوفاً كبيراً ، فإنه لا يلبث أن يعصره ويُضَيِّق عليه الخناق على مرأى منك ومَسْمع ، صدّقته أم لم تصدقه . وهُنَا ، هُنَا ، سِرُّ أسلوبه وخروجه من التّعليم إلى التأثير الأدبي بالمقالة : الاستفزاز يبدُو وكأنه مع الفيلسوف حتّى في مفارقته العقيدة ، وما هي إلّا أن يضرب عنه فإذا هو في صميم العقيدة ، وأنت تتابعه مجتذباً إيّاكَ بالإثارة العقلية والانفعال الذهني ... وطمعاً بآخر المطاف .

من أين لأبي عبد الرحمن ابن عقيل هذه الفلسفة (الغربية) ؟ لقد قرأها مترجمةً ومُعَدّةً ، مقالات وكتباً ، وكان عثمان أمين دليله البارز إلى ديكارت ... لقد قرأ أكثر مما تَتَصوّر ... ونأسَفُ أنه لم يكن ذا علم بلغة أوربية .

لقد قال في كتابه ما قال على النهج المناسب لتركيبه العقلي ... وعَلَّلَ تسمية كتابه بالذي رأيناه ، ولو أردنا أن نتدخل ونتوسعَ لقلنا إن « لن تلحد » تعني إنك لن تُلْحِدَ إذا قرأتَ الفلسفة ... حتّى ما كان فيها من فلسفة الملحدين والماديين .

ولم يكن مرتاحاً من المعرّي ...

ولعلك واجدٌ خلاصة موقفه من الفلسفة في مطلع مقالته (ص ٤٧) : الفكر المعتزلي حيث قال : (لايزال شعور العامّة الإيمان الشديد بعدم جدوى الفلسفة (...) وفلاسفة المسلمين الذين دخلوها من أوسع أبوابها (...) فإذا كان رأيي أن في الفلسفة خيراً كثيراً وكنتُ شديد الإيمان بجدواها فإنما أصطدم بشعور شعبيّ

بَيْدَ أن هذا لا يهمني إذا كانت براهيني على حدود الفلسفة – ضرورية فأول ما أَسْتَنِدُ إليه في هذه الدعوى أن الفلسفة الحديثة دفعتْ بأوربا إلى حياة علمية عملية ، فالمذهب التجريبي فتق آفاقاً بعيدة في مضمار الاختراعات والمصنوعات والطب والتشريح والاتجاهات العقلية ، محّصتِ الكثير من الخرافات في الأدب والتصورات ومرويات التاريخ وإن للمنهاج الديكارتي يَداً بيضاء في التأليف العلمية المعاصرة ، التي اتسمتْ بطابع التجرد والاستفاضة في البحث والارتباط بالموضوع والترتيب والتنسيق والأصالة الفكرية . وما الفنون النظرية الجديدة والتنظيمات الإدارية والاقتصادية التي تَعيشها الدول الراقية اليوم إلاّ نتاج فكر فلسفي عتيد .

والبرهان الضروري الآخر الذي أعْتمِد عليه على أهمية الفلسفة أن الذين حملوا عليها قديماً وحديثاً لم يقفوا على ثنيتهم إلّا بتعقيدات فلسفية فَالتَّفَلْسُفُ أمرٌ لابُدَّ منه . قال أرسطو – حسبما نقل عنه المترجمون – : إذا لزم التّفلْسف وجب أن نَتَفَلْسَفَ ، وإذا لم يلزم التّفلسف وجب أيضاً أن نتفلسف حتى نُثْبت عدمَ لزوم التَّفَلْسُف) .

ولأبي عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري حسابٌ خاص مع القصيمي – وقد مر معنا في « المعجم » أنه عبدالله بن علي النجدي ، وأنه حين ألّف « هذى هي الأغلال » لقب بملحد القصيم – إنّ القصيمي باختصار نجديٌّ يتفلسف وكأن أبا عبد الرحمن يتْبَع معه مقولة أرسطو .

لقد أطال حسابه مع القصيمي بدءاً من ص ٢٨٣ . وجاء في التوطئة (ص ٢٨٤) : (منذ نشر القصيمي) كتابه « العالم لَيْسَ عقلاً » يبرهن فيه على أن الهه المادة العمياء ثم أتبعه بخطاب مفتوح إلى المادة ، نشر في كتابه « كبرياء التاريخ في مآزق » ثم أخذ يهدم أدلة الواجب الوجود بقدم كتابه « هذا الكون ما ضميره » ؟ ... أخذ شعوره يتكاثر بخطورة الأمر) .

وفي ص ٣٠١ (بعد كتاب « هذى هي الأغلال » استقر فكر عبدالله بن علي

القصيمي في المجموعة التالية من كُتُبه : « الإنسان يعصي لهذا يصنع الحضارات » « فرعون يكتب سفر الوجود » . « كبرياء التاريخ في مأزق » . « هذا الكون ما ضميره » ؟ « أيها العار إن المجد لك » . « العرب ظاهرة صوتية » . « العالم ليس عقلاً » أو صحراء بلا أبعاد . « عاشق لعار التاريخ » . « أيها العقل من رآك » ... ولي مع هذه الكتب وقفة ... وفي ليلة ١٣/١٠/١٩٧٤ أهدى إليَّ المؤلف جملة من كتبه بمنزلي في (جاردن سيتي بالقاهرة ...) .

وفي ص ٣٠٢ : (ولقد قرأت كتب القصيمي بعد ذالك بتمعن فلم أجد فكراً جديداً متحرراً من بصمات أساطين الفكر والإلحاد . وإنما وجدتُ طراوةَ أسلوب — مع ضعف اللغة — والقدرة على المغالطة والإثارة) .

وبعد فأبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري ظاهرة تكاد تكون خاصة فريدة وكنت ذكرت في صلب « المعجم » أنه يتشبه بأبي تراب الظاهري ودافعي إلى ذالك الغرابة عموماً ، والإغراب اللغوي خصوصاً ، أما هُنَا فأقول : إنَّ الفرق بين الأديبين الظاهريين كبير ، ويبدو لنا أن أبا عبد الرحمن أوسع أُفُقاً وعلماً ، وأعمق في أشياء لم يطرقها أبو تراب ، وربما في أشياء طرقها أبو تراب ومنها الظاهرية ممثلة بابن حزم ... وأبو عبد الرحمن أصغر سناً ، وبمثابة الابن من أبي تراب .

ومع أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري ونحن في الفقه والفلسفة نقف عند « القائمة » التي مر ذكرها بالرسائل فنجد في رسائل الماجستير : أسس النظرية الماركسية — عرض ونقد في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود (١٤٠٠) ؛ والدين والفلسفة المادية في كلية الشريعة بمكة المكرمة (١٣٩٦) ؛ والمدرسة العقلية الحديثة في ضوء العقيدة الإسلامية في كلية أصول الدين أيضاً (١٣٩٩) .

ولابد من أن يكون قد جد بعد الـ ١٤٠٠ جديد ، ويكون الشيخ أبو عبد الرحمن ابن عقيل — على هذا — جزءاً من حركة عامة قد يعد هو طليعتها ... ورائدها .

ويسلمنا أبو عبد الرحمن إلى الفلسفة بمعناها العام ، وإلى ما اشتقَّتْهُ الحضارة

الإنسانية منها على مرّ الزمن ، ومن ذالك : علم النفس ، علم الاجتماع ، علم الاقتصاد . علم السياسة ... التربية ...

وإذا جئنا إلى هذه (العلوم) على أنها فلسفة أو من الفلسفة رأينا آثارها في المملكة لدى مُبْتعثين أو دارسين على حسابهم في أوربة وامريكة وبعض من البلاد العربية ... وإذا كان الأمر كذالك – وهو كذالك – نظرت إلى السعوديين أساتذة في الجامعات وفي المؤسسات ، ونظرت إليهم في المؤلفين : وأنهم ليجدون مكانهم في « معجم للمطبوعات » يبدأ بعد ١٣٩٠/١٩٧٠ وكنا تَشَبَّثْنَا تَشَبُّثاً بالدكتور حسن علي خفاجي في علم الاجتماع ، ثم لم يَلْبَثْ أن ألَّفَ وأصدر وثنّى عليه الدكتور عبدالله الخريجي ... ولابُدَّ مَنْ مُثَلَّثٍ ومربّع ... ومخمسة ومسدسة ...

والأمور في تطور وازدياد ...ومعها الكمياء والفيزياء والطب والصيدلة ... والطاقة ... والفلك ...

نكتفي – هنا – بهذا القدر من الخطوط العريضة للمسيرة الأدبية وبما تيسر لنا من موادها على القرب والبعد ، لنقول كلمة – على وجه الاختصار – عن الجوانب الأخرى من الحياة العلمية ومطبوعاتها ، وربما كانت خطوط من المسيرة الأدبية تفسر أموراً من الجوانب الأخرى وتلتقي وإياها ، وتسير معها متوازية ، متلاصقة أحياناً ... ضمن تطور جملة الحياة الحديثة في العصر الحديث .

التاريخ وعلم الأنساب :

وأقرب ما يذكر إلى الأدب : التاريخ ، وإذا بدأنا بنجد ، وتذكرنا النواة الحيّة في أدبها : شعر النبط ، ذكرنا أن النواة الحية من التاريخ تركزت في الأنساب ؛ والعناية بالنسب جُزْءٌ لا يتجزأ من الحياة ما سادت القبيلة ، ولصق الناس بأرض معينة محدودة ، لا يكادون يبرحونها فيبعدون إلى الاختلاط بغيرهم ويذوبون في مجتمع حضري للمدن ... ولا يكادون يفتحون أبوابهم لغريب ... ومع النَّسَب نسابة يحفظون ويروون ويُسْتَشْهَدُ بهم . ويظل النسب الهاجس الأول مع الإسلام

ومع ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ لأنه لدى أهله ليس نقيضاً للإيمان أو غفلة عن الإسلام ؛ ولكنها التقاليد والأعراف وطبيعة العيش .

ويمكن نقل علم النَّسَّابة من الحافظة إلى الورق ، ولا تعدم في المخطوطات ما يدلُ على هذا — وستُطبع هذه المخطوطات وطبع الكثير منها الذي رأيناه في « المعجم » باسم التاريخ .

والنسب ذو صلة بالتاريخ ... فإذا قامت دَعْوَةُ الشيخ محمد بن عبد الوهاب كانت هي وما صحبها من اتفاق مع آل سعود ، وما تخللها من غزوات ... عاملاً للتاريخ قد يقف عندها ويتوسع فيها ويزيد عليها ومن هذا وذاك كانت المخطوطات التي خلفها الفاخري ، وابن غنام ، وابن بشر ، وابن عيسى ... بانتظار من يتنبه إليها ، وينشرها كيفما اتّفق أو محققة ، وهذا ما حصل على مرّ الزمن خلال الحدّيْن المحدودَيْنِ للمعجم وبعد الحد الثاني فيما يخص الفاخري ، ومازال العمل مستمراً وربما عثر على مخطوطات عُدّتْ في المفقودات ، وربما صرّحت الأُسَرُ التي تدخر منها ما تدخر وراثة فقدمتها لمن يهمهم أمرها خاصة بعد أن يطمئنوا إلى ما تكسبهم من مجد ... ولا تفضح أسراراً لقوم لا يناسب فضحهم في أبنائهم ...

النَّسَب وتأريخ المنطقة خلاله، وتاريخ الدعوة ... أولئك شَاغِلُ أَهْلِ نَجد .

وشُغِل أهل الحجاز بتاريخ الإسلام والنبوة والخلفاء ، وكان من أبرز المؤرخين قبل ١٣٤٤/١٩٢٥ ودخلوا المعجم تمهيداً حيناً ، وأصْلاً حينا لدخول طبع كتبه في منْطوق المعجم : أحمد زيني دحلان . وتجد في (التمهيد) أسماء أخرى ...

ثم جاءت التجربة العلمية في النَّشر على يد أديب — باحث فلسطيني هو رشدي ملْحَس إذْ حقق — وجوّد في التحقيق — : « تاريخ مكة » للأزرقي .

وتقدم في التأليف أحمد سباعي فأحسن في « تاريخ مكة » وقد تكرر طبعه

دلالة على مكانته ، ولكنّ المؤلف لم يستطع السير بتاريخ مكة فيدخل العهد الذي عاصره جيداً وعاشه ولو استطاع لسَدّ فراغاً كبيراً، حتى لو عرضه بهدوء ولباقة لما يعرف عن المؤلف من أمانة وثقة بالرأي والنّفس مع تمكن من القلم وقدرة على اللغة — فهو أديب شيخ في الأدباء كما هو شيخ في التاريخ ...

وألّف حسين محمد نصيف « ماضي الحجاز وحاضره » فأصدر جزءاً ولم يصدر الثاني .

ولو ألّف والده الشيخ محمد حسين نصيف — وهو الذي عاصر العهدين على جانب كبير من النفوذ والوجاهة — لأدى خدمة كبيرة . ولكن المطلب صعب ... وفي مذكراته ومقالاته بعض الغنى .

وياحبذا لو نشرت مذكرات ظلت معلومة — أو مجهولة — منها ما كان لخير الدين الزركلي ، ومنها لفؤاد الخطيب ، ولابد من أن يكون لغيرهما ما لهما .

وخدم التاريخ المعاصر آخرون ذكر منهم المعجم : فؤاد حمزة (لبناني الأصل) ، وحافظ وهبه (مصري الأصل) ومحمد عمر رفيع ... وفؤاد شاكر ، وعبد القدوس الأنْصاري ، وأحمد عبد الغفور عطار ... وخير الدين الزركلي (سوري الأصل) — وكلهم عاصر الملك عبد العزيز وأُعْجب به غاية الإعجاب ، ومنهم من عاش في معيته .

ويَرِدُ في المؤلفين حسين باسلامة وأمين مدني (توفي في ١٦ شعبان سنة ١٤٠٤ (١٧ مايو ١٩٨٤م) ، محمد عمر توفيق ، محمد سعيد العامودي ... عمر عبد الجبار ...

ونذكر بصدد التحقيق « إعلام الأعلام ببناء المسجد الحرام » لعبد الكريم القطبي بتحقيق أحمد محمد جمال وعبد العزيز الرفاعي . ونُحيل إلى ما ذكرنا من كتب التاريخ مقترنة بأسماء المكتبات ولا سيما المكتبة العلمية بالمدينة ، وإن كان

الذي يصدر عن المكتبات نشراً فقط ، وطبعاً لمخطوط أوْ طبعاً لمطبوع ولا نبحث وراء ذالك عن تحقيق علمي – ولابُدّ من الانتظار ...

ولابُدّ من نصٍّ على اسم أمين مدني وقد رأينا عزمه وجهده في « موسوعة العرب في أحقاب التاريخ » وجرى فيها شوطاً ، ولكن المشروع ضخم ، وقد توفي في شهر شعبان ١٤٠٤ دون أن يتمه تاركاً قسماً مما أنجزه مخطوطاً ينتظر من يتصدى لطبعه – ولد أمين عبدالله مدني بالمدينة المنورة ١٣٣٠هـ .

ولو عُدْنَا إلى نَجْد ، ولم تَعُدْ نجد في معزل لوجدنا الشيخ حمد الجاسر علماً في التاريخ – تاريخ العرب كله ، والجزيرة كلها – فهو علامتها ، وتاريخ نجد بخاصة ، ومن آثار عمق النَّجْدية فيه هذه العناية التي لا تنفك بالنسب ، ولعلها ازدادت و (تفاقمت) في السنوات الأخيرة استجابة لاهتمام القاريء النجدي بها ، وغير القارىء كذالك . ثم لابُدّ من تسجيل الحقائق قبل أن تزول شواهدها .

والجاسر (مدرسة) إلى ذالك في التحقيق القائم على العلم الرصين الواسع والدراية العجيبة بفكّ رموز المخطوط ، ومن ثم نقل علم المخطوط إلى المطبعة الحديثة وقد زال من اللبس وصحح الخطأ ... من غير لغو في الحواشي ، وادّعاء لما لم يكن . بعد سعي طويل في البحث عن المخطوطات .

ولكن الشيخ الجاسر شُغِل بما قبل المعاصر عن المعاصر ، مع ثراء حياته وعمق علاقاته ونفاذ آرائه – أتراه يحتفظ بمذكرات يقول فيها كل شيء ، مما يرضي أناساً ويسخط آخرين ، ولكنه يُرْضِي الحقيقة على كل حال ، مع التحليل الذي يعرفه امْرُؤٌ عَرَكَ الأيام وخَبَرَ الأحْداثَ عن قرب ، وسمع الروايات عن أفواه طاهرة ... ورائدُهُ الحقيقة .

وشغله « النسب » في الأيام الأخيرة ، ولقي كتابه « أنساب الأسر المتحضرة في نجد » نجاحاً لم يكن يتوقعه ، وفي ذالك دليل على أن مسألة النسب مازالتْ حيّةً .

والقائمة تطول ونذكر – مع هذا – مؤرخ جازان محمد بن أحمد العقيلي ، ومؤرخ عسير هاشم سعيد النعمي . ولسنا بصدد الفهرسة قَدْرَ ما تكُون بصدد النقاط الأساس والمراحل الرئيسة أوْ ما أشرنا إليه من الخطوط العريضة ...

وتقدم في البحث التاريخي جيل جديد تامذ في العموم على الجيل السابق وانعكست عليه اهتماماته ، ولكنه اختلف – قليلاً أو كثيراً – بعد ذالك بدراسته الجامعية خارج المملكة وفي انكلترة خصوصاً ...

ويأتي في الطليعة الدكتور عبد العزيز الخويطر وفي قسم من رسالته تَأليفٌ ، وفي قسم تحقيق – وقد طبعا متفرقين متباعدين . الثاني منهما : « الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر » . والملاحظ أنه غيَّر مركز تخصصه إلى تاريخ المملكة ...

ثم عاصرنا من الزملاء الدكتور عبد الرحمن الطيّب الأنصاري وقد عاد بالدكتوراه من جامعة ليدز ١٣٨٦/١٩٦٦ « دراسة نقدية ومقارنة لأسماء الأعلام اللحيانية » وأبدى من النشاط في البحث والكشف درجة عالية ؛ ومازال كذالك .

وكان عبدالله بن صالح العثيمين آنذاك – فيما أذكر – قد أنهى دراسته في قسم التاريخ من كلية الآداب بجامعة الرياض مستعداً لبعثته إلى انكلترة ، وقد وفّاها حقها وحصل على الدكتوراه من جامعة أدنبره ١٣٩٢/١٩٧٢ : « محمد بن عبد الوهاب وأعماله » . وعاد الدكتور عثيمين نشطاً وأثنى الجاسر على جهوده مراراً تأليفاً وتحقيقاً ، وقد ترجم الدكتور رسالته ونشرها ، وهو الآن في الطليعة من المختصين وفي المقدمة من النشيطين .

ومن الفضلاء الذين عادوا أيام كنا نعمل في الجامعة : الدكتور محمد سعيد الشعفي برسالته : « الدولة السعودية الأولى » – جامعة ليدز ١٣٨٧/١٩٦٧ .

ثم عاد الدكتور عبدالله عقيل العنقاوي برسالته : « تنظيمات الحج ودوره في عصر المماليك » جامعة كمبردج ١٩٦٨/١٣٨٨ ، ثم عاد الدكتور صالح محمد العمرو برسالته : « الحجاز تحت الحكم العثماني ١٨٦٩ — ١٩١٤ » — جامعة ليدز ١٩٧٤/١٣٩٤ .

هؤلاء (بعض) ممن وصل إلينا خبرهم ، وغيرهم كثيرون — ويبقى العمل والنشاط في النشر والتأليف ، وفي ترجمة (الرسائل) في الأقل .

ويختلط التاريخ بالمواقع الجغرافية وبلغ في ذالك الجاسر المبلغ العجيب المدهش ، ويذكر في ذالك من الباحثين الكبار عبد القدوس الأنصاري ... وعبدالله بن خميس ... واختار الأستاذ عبدالله الناصر الوهيبي — الأمين العام لجامعة الرياض في أيامنا — هذا الميدان موضوعاً لدراسته في انكلترة للدكتوراه ، وقد حصل عليها من جامعة لندن في يونية ١٩٦٩/١٣٨٩ وعاد برسالته : « شمال الحجاز في كتابات الجغرافيين العرب ٨٠٠ — ١١٥٠م » وبقي لنا أن ينقلها إلى العربية ويزيد بما هو أهله وماله من ذِهْنٍ وقلم ...

وعدد العائدين المتخصصين بالتاريخ في تزايد ، وتفتح لهم الجامعات صدورها وتحاول أنْ تُغْرِيَهُمْ — كما تُغْري أهل الاختصاصات الأخرى لتجتذبهم من سحر الإدارة ...

وللتاريخ نَصيبُهُ الوافي من المجلات ، وتكون مجلتا « المنهل » و « العرب » ضروباً من التاريخ ومن البحث التاريخي والنقد التاريخي فهما في رأس المراجع بل المصادر الحديثة ... وقُلْتُ أكثر من مرّة : إن « العرب » ليست مجلة كما هي المجلة في أذهان الناس من شرقيين وغربيين ، إنّها نَسِيْجٌ خاصٌ ، إنها مجموعة كتب ، وقل : مجلدات من كتاب واحدٍ ضخم في تاريخ الجزيرة ومواقعها وأنسابها ... وتصويب لفضائح وقع فيْها الباحثون الآخرون والمحققون ... وقلناها — وأكثر — بقلم واحد ... لعلامة واحد .

ثم جاءت – بعد الحد المحدود للمعجم – « الدارة » ببحوثها الرصينة ... ولا تَنْسَ المجلات الجامعية ... بل إن داراً للنشر هي « دار المريخ » في الرياض (ص.ب ١٠٧٢) تولت نشر « العصور » وهي (مجلة نصف سنوية تُعْنَى بالتاريخ والآثار والحضارة ... تصدر عن مكتبها في لندن) .

مع ملاحظة عامة ، هي أنَّ المؤرخين ومحققي التأريخ وأساتذة التاريخ عُنُوا أكثر ما عُنُوا – بالتاريخ الماضي ، والماضي القريب على وجه الخصوص وكلما أرَّخوا الأحداث التي يعيشونها والمجتمع الذي يتطور أمام أعينهم ... على حين كان السلف النجدي يؤرخ زمنه ، والسلف الحجازي هَمَّ بذالك وكاد ... وكأنَّ المؤرخين المعاصرين – على أصنافهم – تخلوا عن مهمة تاريخ عصرهم للصحافة اليومية ولوزارة الإعلام . ومن يدري فلعلهم يؤلفون ولا ينشرون ولعلهم يكتبون مذكراتهم التي ستستحيل غداً تأريخاً ...

قلتُ : أريد أن أقِفَ عند التاريخ طويلاً في تَطَوُّرِ التأليف فيه والدرس والتحقيق ... فلنذكر للدكتور الأنصاري فضله – عابِرِيْنَ – في التَّنْقيب وما أقام للتاريخ من جمعية ... ومتحف ... وجُهْدَهُ في اكتشاف آثار (الفاوْ) مع إحالة في أمور الآثار والتنقيب على وزارة المعارف .

ولْنُشِرْ إلى أن أبا عبد الرحمن ابن عقيل لم يبق بمنأى ، فطفق ينشر سلسلة دراسات ونصوص في البيوتات العربية الحديثة – «آل الجرباء في التاريخ والأدب» . و « العجمان » و « أنساب الأسر الحاكمة في الأحساء » .

وتَنَبَّه الشيخ محمد علي مغربي – وهو أديب معدود في جيل رائد غابَ عنَّا مُدَّةً ثم عاد – إلى جانب من التاريخ يحفظ التَّقاليد التي آلَتْ إلى الزوال ، ويترجم – عن معايشة – لأعلام من المجتمع قَدَّمُوا خدمات لبلادهم ، فأصدر ما رأينا من « ملامح الحياة الاجتماعية في الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة » و « أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة » وما أحْسبه استنفد رَصِيْدَهُ ، فنحن بانتظار

المزيد ، وبانتظار أن يقتدي به مناظروه في أنحاء المملكة فينقلوا إلى الورقة مافي ذاكرتهم ومخزونهم عن المجتمع الذي عاشوا فيه والأحداث التي شهدوها ، والأعلام الذين واكبوهم — وذالك من أنفع وأطرف ما يكون . فهل ؟ أرجو .

ومن طرائف سبل البحث التاريخي الكتاب الذي أصدره كمال الكيلاني بعنوان « صور من حياة الملك عبد العزيز يرويها طلال بن عبد العزيز » — الرياض ، مطابع حنيفة للأوفست ١٤٠٢/١٩٨٢ ، ١٦٠ ص في ١٦ فصلاً . يبدو أن المؤلف قد أعد الكتاب من أوراق وتسجيلات صوتية عقدها مع راويته الأمير طلال بن عبد العزيز — عالم الكتب ، المجلد الرابع ، العدد الثالث ، ص ٤٧٦ .

وشرعت الجامعات السعودية تخرج حملة الماجستير في التاريخ ، وهناك القوائم بالحاصلين على هذه الشهادة وبأسماء موضوعاتهم — تنظر مثلاً مجلة « عالم الكتب » ...

ويلفت النظر — دون أن يكون مثار تعجب — إقبال المرأة على التاريخ ، أي التأليف في الموضوعات التاريخية للحصول على شهادة عالية داخل المملكة . ولك أن تُلْقِي نظرة على سلسلة « رسائل جامعية » من مطبوعات إدارة النشر في مؤسسة تهامة (جدة) لترى أمثلة ذوات دلالة :

« الخراسانيون ودورهم السياسي في العصر العباسي الأول » — ثريا حافظ عرفة . « الملك عبد العزيز ومؤتمر الكويت » — موضي بنت منصور بن عبد العزيز . « العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن » — أميرة علي المداح . « تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف » — فوزية حسين مطر . « الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة » — نورة بنت عبد الملك آل الشيخ .

هذا في قائمة تهامة . وطبيعي أن يكون قد طُبِع لدى غَيْرِها غَيْرُها . وأوردت « عالم الكتب » مج ١ ع ١ ص ٢٢٨ : مديحه أحمد درويش — تاريخ الدولة السعودية حتى الربع الأول من القرن العشرين . جدة ، دار الشروق للنشر والتوزيع والطباعة (١٩٨٠م) — ٢٢٤ ص .

ولقيت « الصحافة » في المملكة تاريخها ورأينا من مؤلفيها في « المعجم » — وإن جاء التأليف بَدْءاً من حافّة المعجم الأخيرة (١٣٩٠/١٩٧٠) ، فرأينا محمد عبد الرحمن الشامخ ، وعلي حافظ ، ومحمد ناصر بن عباس في كتابه « موجز من تاريخ الصحافة » الرياض ١٣٩١/١٩٧١ ، ومنصور إبراهيم الحازمي . ودخلت الدرس الأكاديمي في فروع التخصص فكان كتاب هاشم عبده هاشم : « الاتّجاهات العددية والنوعية للدوريات السعودية » . تهامة ، جدة ١٤٠١/١٩٨١ .

والذي ألّف في الصحافة قيّمٌ ، وقيّمٌ جداً وقد تكلم الأستاذ علي حافظ عن تجربة ومعايشة ... وننتظر من الدكتور الحازمي الاستمرار في مشروعه .

ثم لابُدّ من مواصلة الدرس وتثبيت المعاصر جداً بعد ١٣٩٠/١٩٧٠ تثبيتاً دراسياً علمياً في حينه قبل أنْ يصير ماضياً .. شكلاً ومضموناً ... مع ضرورة البحث في العوامل المؤثرة بين التجارة والسياسة زيادة على الثقافة والعلم بأصول المهنة ...

المؤلفات العلمية ودور المرأة فيها :

وتَتَشَعَّب المعرفة كما هو ضروري بتشعب الحياة الحديثة ومصادرها ومراميها وتنوع اختصاص المبتعثين رسمياً أو الدّارسين على حسابهم الخاص وتعدد الجامعات السعودية نفسها ، ولك أن تَعُدّ — فيما تَعُد — من هذه الاختصاصات ما بين (الإنسانيات) والعلم الصرف نظرياً وتطبيقياً ...التربية ، علم النفس ، علم الاجتماع ، الجغرافية . المكتبات... الكيمياء ، الفيزياء ، الرياضيات ، الطبوغرافيا ، الصيدلة ، الطب ... الخ .

وكنا قبل ١٣٩٠/١٩٧٠ لانكاد نرى شيئاً منها ، وما كان من متخرجين فهم الروّاد والبداية ولم يكن من التآليف إلّا النادر جداً وتَشَبَّثْنا باسمين أو ثلاثة من الكيمياء أو الرياضيات تَشَبُّثاً ...

ونقول هنا ، مع زيادة المتخصصين ، وقيام الجامعات ... فإن التأليف في

الميادين العلمية قليل جداً ، أقل من المنتظر دون شك . وماذا لو تَرْجم (الدكاترة) وأصحاب (الماجستير) رسائلهم قبل أن تتقادم ... ؟! ولو حَوَّلَ الأساتذة دروسهم كُتُباً ؟ ويمكن أن يشمل السؤال أهل الجغرافية ... ونالت المكتبات قسطاً واضحاً وعناية متميزة ونذكر جهود الدكتور عباس صالح طاشكندي والدكتور يحيى محمود ساعاتي ... وغيرهم كثير ...

ونالت المرأة نصيباً من هذه التخصصات ، محدوداً ولكنه يزداد .

وتمنح البلاد الماجستير في التربية ، ويمكن أن تلتقط في قائمة مطبوعات تهامة سلسلة رسائل جامعية : « النظرية التربوية في الإسلام » — آمال حمزة مرزوقي. « الجانب التطبيقي في التربية الإسلامية » — ليلى عبد الرشيد عطار . « دراسة ناقدة لأساليب التربية المعاصرة في ضوء الإسلام » — فتحية عمر حلواني .

ولابُدَّ من أن يكون قد صدر في غير تهامة غيرها ... جاء في « عالم الكتب » مج ٤ ع ٢ : مائسة محمد حامد الأفندي — « المؤثرات الاجتماعية والاقتصادية وتعليم المرأة » دراسة في اجتماعيات التربية ، مطبقة على المجتمع السعودي (مدينة الرياض) . الرياض ، دار العلوم ١٤٠٣/١٩٨٣ — ٢٣٢ ص .

وجاء في « دليل الكاتب السعودي » : لعابدية إسماعيل خياط : « دور التعليم العالي في التنمية الاقتصادية والاجتماعية بالمملكة العربية السعودية » ١٤٠٣ . وقد يكون المخطوط أكثر من المطبوع ... رأينا لدى وقفة عند الجامعات حاصلات على الماجستير في قضايا اللغة والأدب .

وذكرت تهامة كذلك : « تقييم النمو والنشوء » للدكتورة ظلال محمد رضا ، و « التصنيع والتحضر في مدينة جدة » للأستاذة عواطف فيصل بياري .

والخاتمة إذ تؤكد نشاط المرأة ، وإذ تفرزه عما سواه ، وتكاد تقف عنده في نهاية كل اتجاه من اتجاهات المعرفة فضلاً عن الاتجاهات الأدبية ... لا لِتُفَرِّق

بين جنسين ... ولو كان هذا النتاج قد حصل كله ـ أو مثله ـ قبل ١٣٩٠/١٩٧٠ لتخلفت أسماء النساء المؤلفات خلال أسماء الرجال حيث يحكم حرف الهجاء ، كما حدث مثلاً لسميرة خاشقجي ، و « ندا » ونجاة خياط ... أما هنا ، في الخاتمة فإن التمييز يأتي للدلالة على مدى التقدم ، والمرأة مقياس التَّقدم في مثل أقطارنا خاصة . التَّقدم عموماً ، وتقدم المطبوع خصوصاً وهو ما نحن فيه .

وفي الذي أوردته الخاتمة دلالة على مالم نورده ، وعلامة إلى ما سيأتي ويكون . وليس من أغراض الخاتمة الاستقصاء ... وإن كانت ترحب به عندما يتهيأ !

كَمْ نحن بعيدون عن جهلها أمس ! وعن نقاش بين حلال أن تتعلم شيئاً قليلاً وبين حرامه . وعجيب أن يجرى ذالك ، كأن لم يكن للمرأة في الإسلام مكان من التعلم والعلم ، ولم تكن في الأقل (شَهْدَة) في المحدثات اللاتي تلقين الحديث عن شيوخ وتلقّى رجال الحديث عنها (ينظر عنها وفيات الأعيان لابن خلكان).

وهي ليست غائبة في التراث القريب ولك أن تنظر ـ مثلاً ـ في « المختصر من كتاب نشر النَّوْر والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الحادي عشر » تأليف الشيخ عبدالله مرداد أبو الخير ، اختصار وترتيب محمد سعيد العامودي ، وأحمد علي ، نادي الطائف الأدبي ١٣٩٨/١٩٧٨ ... تنظر فترى أم الحسن الطبرية ـ وطبريات أخريات كثيرات ، وفاطمة الزبيرية ، .

وما بالموضوع مَجَالٌ لإطالة فقد انتهى الأمر ووصل إلى ما يجب أن يصل إليه فإذا وجب تعلم المرأة حسن مع ذالك أن تكون معلمة ، والعلم لا يقف عند حدٍ ، وإنّما المهم صلاحه وفلاحه . وإذا كنت في تقاليد تحترمها وتتحرَّج خلالها من أن تعرض زوجتك على طبيبٍ رجل ، أليس من الأجدى أن توجد المرأة الطبيبة ... وهكذا ، وهذا هو الذي حصل... وإذا لم تفتح الجامعات السعودية أبوابها للسعوديات وَجَدْنَ أبواباً في العالم كله... ولم تعد انكلترة أو أمريكا بعيدة المتناول .

هذا الذي حصل ، والخير فيما حصل ... وسيسير الأمر من حسن إلى أحسن ، وفي شُعَب لابُدَّ له من السير فيها ... ويكفي ما تنبهت له الرئاسة العامة لتعليم البنات من إنشاء الكليات اللازمة ، وما هو من شأن الانتساب وغير الانتساب .

أجل ، لقد تقدمت المرأةُ في مضمار العلم تقدُّماً ملحوظاً ، ومن العلم : الكِتاب ؛ أقول : ملحوظاً ، وهو أكثر من ملحوظ ، وأقولها ولو تصورته قبل ١٩٧٠/١٣٩٠ وقد تصورت شيئاً منه ، لما بلغت الذي تحقق .

ونترك الموضوع وقد نعود إليه .

عَوْدٌ إلى الفلسفة :

وتسأل عن (الفلسفة) ؟ وأقول : إنك لا تجد كتاباً واحداً بهذا الاسم ، وربما لم يكن في الجامعات كلها درس بهذا الاسم ومتخصص سعودي لهذا الاسم . وأحسب أنَّ الحذر في ذالك يعود إلى ما ترتبطُ به اللفظة من شؤون الفلسفة اليونانية ثم الأوربية على مَرِّ العصور ، وإلاَّ فقد وُجِدَتْ في التاريخ الإسلامي ، ووُجِدَ معها الفيلسوف المسلم أو المسلم الفيلسوف حتى اؤلئك العلماء الفقهاء كالغزالي وابن حزم فإنهم كانوا (فلاسفة) من حيث لا يعلمون لأنهم طرقوا موضوعاتها ولكن من وجهة نظر خاصة وقل : إسلامية .

وخير ما يقال في هذا المقام ما نفيده من وجهة نظر الشيخ – شيخ الجامع الأزهر – مصطفى عبد الرازق في كتابه القيم : « تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية » الذي أثبت أنَّ المسلمين عرفوا الفلسفة وزاولوها على مَرِّ العصور ، زاولوها معنىً ودلالة دون الاسم ، وما الفقه إلّا فلسفة ، وإذا شئت أن تدرس الفلسفة الإسلامية على حقيقتها وأصالتها فَدُونَكَ الفقه الإسلامي ...

العلوم الدينية :

وللفقه حَظُّهُ في الدرس الديني والتأليف الديني قديماً وحديثاً ، خارج الجزيرة وداخلها ، في غير السعودية ، وفي السعودية ...

والبحث في الكتاب الديني يطول ، و « المعجم » في قسط كبير منه – والقسط

الأكبر من عقود تاريخه الأولى قائم على مؤلفات الشيوخ والعلماء – ولم تكن كلمة العلماء لتطلق على غير الشيوخ المتبحرين في العلم الديني : من فقه وتفسير وحديث... وقد رأينا مكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب وآله من الكتاب ... المطبوع . والشيوخ الآخرين . وفتح الشيخ محمد بن عبد الوهاب فتحاً بالعودة إلى السلفية بعد أن دخل في التقاليد والعادات ما ليس من العقيدة ، والعودة تستدعي المحاجّة... وإطالة النظر في التراث (أحمد بن حنبل ، ابن تيمية ، ابن قيم الجوزية) ... وعلى نهجه سار آلُهُ وتلاميذه وتلاميذ تلاميذه... – وكثرت في ذالك الكتب ، وكان نصيب المطبعة منها كبيراً ...

وبدا ونحن في أوائل ثمانينات القرن الهجري / ستينات الميلادي – أن الكتاب الديني لم يَعُدْ على قوته وقد يظنّه ظانٌّ قد توقف أو كاد . وقد تكون الرؤية خارجية أو نسبية ، وأنها حصلت – أو تحصل – لأنّ الكتاب الديني لم يَعُدْ وحده في الميدان – كما كان . فقد تكاثرت مطبوعات الميادين الأخرى من أدب وتاريخ وما إليهما. ثم إنك لم تَعُدْ ترى شيوخاً يُوالون التأليف مثل عبد الرحمن آل سعدي ولا تجدُ تفاسير للقرآن الكريم كالذي عمله ابن سعدي أو عبد الحميد الخطيب المكي أو فيصل آل مبارك . أما المشروعات الضخمة التي يتولاها الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم في مطبعة أم القرى (الحكومية) فهي باقية ولكن ليست على النشاط التي كانت عليه . وأكثر ما في المكتبات كتيبات تبنّتْ أغلبها مؤسسة النور للطباعة والتجليد . ولاشك في أن أكبر شيخين عالمين في المملكة هما : محمد بن إبراهيم آل الشيخ (سماحة مفتي الديار السعودية) ، وعبد العزيز ابن باز . وللشيخين الكبيرين مؤلفاتهما ولكنها في جملتها ليست بتلك التي تُضيف كثيراً إلى السياق الفقهي ، وأكثر ما فيها أجوبة عن أسئلة وفتاوي في قضايا يستفتي عنها الناس ... وقيل في الثناء على الشيخين أنّ علمهما فوق كتبهما ، وأغزر من كتبهما.

وكان في البلد مؤسسات دينية ذات طابع حديث هي المعاهد والكليات ،

ولكنها إن كانت فاعلة في التدريس وتخريج المدرسين فإنها لم تكن كذالك في التأليف وطبع المؤلفات .

لابُدَّ إذَنْ من التنبُّه . وملاحظة مستجدَّات العصر والتوجه لها بمثلها ، ومن مستجدَّات العصر تعليم البنات فليكن إذَن بشرط إشراف (سماحة المفتي) عليه ، وهكذا تَمَّ الأمر ... ومضى يتطور... فاكتملت الابتدائية واكتَملتْ دُوْرُ المعلمات والثانويَّات ... وبانتظار المزيد دون انتظار لأيِّ مظهر من مظاهر المقاومة التي برزت في أول الأمر .

وحصل المزيد من المستجدات في البحوث طبق منهج البحث .

وإذا كان الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ قد توفي يوم ٢٤ رمضان ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م وخلفه ولده إبراهيم (المولود – حسب Who's سنة ١٩٢٩ ، خريج كلية الشريعة ١٩٥٦ وقد صار وزيراً للعدل بعد برهة من إنشاء الوزارة سنة ١٩٧٥) .

فقد أسند للشيخ عبد العزيز بن عبدالله ابن باز « رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد » .

ولابُدَّ من (جامعة) فكانت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، وكان مع الجامعة منهج البحث الحديث ، وعمادة شؤون المكتبات ، ومطبعة ، ومجلة ، ومركز بحث ، وسلاسل مختلفة من الكتب لمختلف الحاجات والأعمار غير الطبعة الكاملة لمؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومؤلفات ومحاضرات عنه ... ثم التدرج الحديث في سلّم العلم ، ومعنى ذالك الماجستير وقد أُحْدِثَت الدرجة ونالها كثيرون في الشريعة واللغة العربية والقضاء العالي .

ثم الدكتوراه وقد أُحْدِثَتْ كذالك .

وهكذا استأنف الكتاب الديني وجوده وحضوره ونشاطه واستعان بمنهج

البحث على أبعاد ما يناسب عقلية العصر والقاريء الحديث ... أو ما صار معلوماً أو ما لم تعد حاجة إليه من موضوعات تحريم حلق اللحى والدخان والسفر إلى بلاد الكفر ... وحكم تارك الصلاة ... والرسم ... والتصوير الفوتوغرافي ، وشكل الأرض ... والفضاء الخارجي .

وفي الإذاعة والتلفزيون وسائل لجواب السائلين . والشيخ ابن باز يتلقى الأسئلة في كل مكان وزمان وعن طريق التلفون وجريدة الدعوة ويجيب عنها بإسْهابٍ .

وفي الإذاعة منهج يومي دائم طويل العمر اسمه : (نور على الدرب).

وقبل الشيوخ في ستينات القرن الهجري / ثمانينات الميلادي التلفزيون لما فيه من نفع وما يمكن أن يستثمر عن طريقه ... ومضت البرامج تتوالى بين جدة والرياض . ولقي افتتاح محطة له في القصيم (في بريدة) مقاومة لم تَلْبَثْ أن أُحْبِطَتْ لأنها لم تأتِ من شيْخ كبير مسؤول ...

وهكذا تلتقي الأمور ... وإذا قبلنا الإذاعة ، وقد قبلناها فعلاً لما فيها من نفع ومجالي استثمار ... فإن التوقيت الذي تسير عليه المملكة لا يؤدي الغرض في الخارج الذي يسير على توقيت آخر ... فَلْتَتَغَيَّر الساعة ، وقد تغيرت بشرط أن يُذكر الغروبي مع الزوالي والتاريخ الهجري قبل الميلادي .

هكذا ... ولم تعد حاجة إلى النص على كليات للبنات في التربية والآداب والعلوم تابعة للرئاسة العامة لتعليم البنات التابعة (سابقاً) لدائرة سماحة مفتي المملكة ... مع قبول تلقيها العلم في الكليات الأخرى بأسلوب يناسب التقاليد وضمن مظاهر الحشمة والوقار ... — وتتقدم المرأة إلى الماجستير والدكتوراه ...

وقد كان للتداول بين الحكومة والشيوخ ... — وقل : لما للأسلوب الحكيم الذي يتفاهم به الملك فيصل مع مفتي الديار السعودية — أثره في حل المشكلات واتخاذ القرارات ... وتنفيذها ...

الانسجام بين شؤون الدين وتغيرات العصر :

ونريد أن نتخلص إلى تكيّف ومساوقة وانسجام بين شؤون الدين والدنيا أي بين تغيرات العصر... وأعقب ذالك – فيما نحن فيه من أمر المعجم – تجدُّدٌ في نشاط التأليف ، وتوسع في دائرته ، وكان فيه التحقيق والبحث التاريخي والمناقشة الفكرية ولم يقتصر هذا على جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ... فمنه ما كان في جامعة المدينة المنورة ، ومنه ما وسع الأفق خارج هاتين المؤسستين ... ويحضرني هنا اسم الأستاذ محمد حسن باجودة إذْ حصل على الدكتوراه من انكلترة برسالة عنوانها « الوحدة الموضوعية في سورة يوسف عليه السلام » . تهامة ، جدة ، ط ٢ ، ١٤٠٣/١٩٨٣ – ٥٦٢ ص .وكانت من الجدة بحيث استوعبتْ القديم والجديد ، وفي القراء مَنْ حَسِبَ المؤلفَ مستفيداً من مدرسة التَّحْليلِ النفسي أو متأثراً بها ... – ثم كانت له سلسلة من التأملات في السور ...

وكان المؤرخ أو المحقق أو المتحدث يحذر الاقتراب من كتب ذات ارتباط بالدين فيما لا ترْضَى عنها الدعوة أو فيما كان فيها أو في مؤلفيها من مخالفة معروفة للدعوة أو صاحبها .

وقد كان للحذر دواعيه... وخفَّتْ تلك الدواعي أوْ زالتْ ، وجدَّت نظرة لم تلبث أن حلَّتْ محلها ؛ فقد صار الرأي أن الحذر يُبْقِي الأشياء كما هي ، وخير منه نشر رأي المخالف مع مناقشته وبيان الخطأ والصحيح بصدده . ومثل على ذالك « كتاب لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب » بخط ، أو من تأليف حسن جمال الريكي . الكتاب غير مرغوب فيه لأنه يقول في الشيخ ما لا يرتضى . ولكن ذالك لم يمنع أن يحقق ويطبع كما هو – خارج السعودية ، ويَنْفُذَ – بشكل وآخر – إلى السعودية نفسها مع كلام المحقق لا ترتضيه السعودية إذ وصف المؤلف بالعدالة الموضوعية وقول الحق أكان الشيخ أم عليه .

وهنا رأت السعودية الوجه الآخر لما كانت ترى الأشياء عليه ، أي أن تتبنَّى هي نشر الكتاب وتحقيقه مع التعليق على ما فيه من أحداث وآراء ، وهو ما جرى

بأمر من وزير المعارف – الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ – بأن يتولى المهمة الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ ، ففعل ؛ وصدر الكتاب عن دارة الملك عبد العزيز (١٣٩٦) .

أعداء الدعوة ومؤلفاتهم :

ولقيتْ دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب – في حينها على الأقل – الأعداء ، كما لقيت الأنصار ، وفي الأعداء من هم قريبون من الشيخ نفسه ، نجديُّون كما هو نجدي . وإذا كان وجود هؤلاء الأعداء حقيقة – وهو ما يحصل في كل دعوة وحركة – فإن القائمين على شؤون الدعوة كانوا يحذرون الاقتراب من الأعداء ، ويتجنبون ذكرهم وربما حرموا ذالك على غيرهم أو حَظَروه . وهذا يحدث – كذالك – في كل دعوة ويبدُو مقبولاً طبيعياً ، ولكنه لا يستمر حتى النهاية ، فلابُدَّ من يوم تتبدل الظروف ويمكن إعلان الحقيقة كاملة دون خوف أو وجل . وهذا ما حدث فعلاً .

ومن أبرز المعادين : الشيخ عبدالله بن محمد بن حُمَيْدٍ صاحب كتاب « السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة » . كنتُ أعثر – أحياناً – باسمه أو باسم كتابه فلا أجد من يزيدني علماً به ، وأعجب من ذالك أن يذكر كتابه هنا وهناك وربما استشهد بسطور منه ، ويبقى – مع ذالك – مخطوطاً ، عرْضَةً للتلف ، وأكثر ما يثير الاهتمام أنه في طبقات الحنابلة ، والعنوان يدل على انسجام المؤلف والمذهب ، وهو حنبلي ولاشكَّ . والشيخ محمد بن عبد الوهاب حنبلي .

وجاء الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ يؤلف كتاباً قيِّماً ذا نَهْجٍ حديث في التعريف بمشاهير علماء نجد ، فرأيته ينقل عن صاحب « السحب الوابلة » ورأيت أكثر من حاشية تقول : جاء في « السحب الوابلة .. » وهذا يعني – عندي – أن الكتاب ليس مُحرَّماً ، وإلاَّ فكيف يذكره الشيخ وهو من آل الشيخ . وربما رأيت له ذكراً كذالك عند الشيخ حمد الجاسر مع حذر ملحوظ .

ويتقدم شيخ آخر ، عالم فاضل ليؤلف كتاباً ضخماً مهماً بعنوان « علماء نجد

خلال ستة قرون » هو فضيلة الشيخ عبدالله بن عبد الرحمن بن صالح البسام — العضو القضائي في محكمة تمييز الأحكام الشرعية ـ فإذا به يفتح — منذ المقدمة — صدراً أوسع من المعتاد ، ويقدم رأياً لم يكن مألوفاً ، لا لأنه مقتنع بما قاله الأعداء متسهل في متابعة الأنصار ، وإنما (العلمية) في منهجه ، فكتابه « علماء نجد » وأولئك المعارضون علماء على أية حال ، وكل ما في أمرهم أنهم علماء معارضون ، ولا تتمُّ للكتاب المطابقة بين الاسم والمحتوى دون الوقوف عندهم ، ولابأس بعد ذالك من أن يبين موقفهم ، وقد يبيّن الإيجاب في علمهم إذا رآه . وللقارىء أن يرى رأيه .

قال في المقدمة (ص ٢٠ — ٢١) : (... ثم إني في كتابي هذا ترجمت لعلماء كثيرين ممن عارضوا الدعوة السلفية (...) ترجمت لهؤلاء المعارضين المعادين لا لرضاً لمذهبهم ولا ارتياحاً لمسالكهم وإنما ذكرتهم لأني مؤرخ يجب عليه أن يُسَجّل ما جرى ويُدَوّن ما صار ، ولا يتمكن من تعديل المنحرف ولا تقويم المعوج ثم إنّ اعوجاج مسلكهم وانحراف طرقهم لا يحملني على رميهم جميعاً بالجهل وقلة التحصيل العلمي وهم على خلاف ذالك فقد بلغ بعضهم من العلم مبلغاً كبيراً ولكن استيعاب العلم شيء والاهتداء به شيء آخر ...) .

هذا نمط من (العلمية) فيه فتح لباب .

وسأل (ص ٢١) : (لماذا خَصَّصْتُ التراجم بعلماء نجد ؟ وأجاب : (... يعلم الله تعالى أنني (والحمد لله) من أبعد الناس عن العصبية الضيّقة والمذهبية والوطنية المحدودة حين خصصت هذه التراجم بالعلماء النّجديين دون غيرهم من علمائنا في الحرمين الشريفين أو في الأحساء وفي غير ذالك من أنحاء بلادي الحبيبة العزيزة ...)

وهذا نَمَطٌ من (العلمية) يتّسقُ مع الباب السابق . ويتّسقُ مع العقلية التي صار إليها الجيل الجديد المعاصر . بل يطلبها . بعد أن زالت الدواعي على الأقل. فلو ترجم الشيخ البسام لعلماء وأهمل علماء لما رضي عنه العصر ، وربما لقي

الاعتراض عليه . ولو لم يبيّن السَّبَبَ العلمي الصحيح لعنايته بعلماء نجد ... لكان في المؤاخذِينَ من يطالبه بالسبب أو يظن به الظنون .

وهنا ، هنا يأتي الجواب الذي انتظرته طويلاً كلما (عثرت) بكتاب « السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة » أو بمؤلفه (ابن حُمَيْد) فمن هو ؟ ولم لم يُنْشر كتابه ؟ الجواب في ٨٦٢/٣ — ٨٧٠ : (الشيخ محمد بن عبدالله بن حُمَيد : ... نشأ في بيئة علمية فنشأ محباً للعلم ... سافر إلى مكة للتزود من العلم ... ثم سافر إلى اليمن ومصر والشام والعراق فأخذ عن علماء هذه الأقطار ... ثم عاد إلى مكة ... عُيِّن لإمامة المقام الحنبلي في المسجد الحرام وإفتاء الحنابلة فيها وكان معطّلاً ... وقد أثْنَى عليه علماء عصره ومن بعده ...) . ما تقدم هو الصحيفة البيضاء ... أما الحياة القاتمة والصحيفة السوداء فهي أن المترجم بحكم وظيفته تَبِعَ الدولة العثمانية التي حاربت العقيدة السلفية ... فإنه في مؤلفه — « السحب الوابلة » — قد ضرب صفحاً عن الترجمة لأنصار الدعوة بل لم يكتف بهذا القدر حتى تناولهم بالتَّجْهيل والتضليل عند كل مناسبة ... — توفي بالطائف ... عام ١٢٩٥ ... » .

لم يحدد الشيخ البسام المعارضين في مقدمة كتابه ، ولكنك تجدهم في درجة على حين لا تجدهم في كتب أخرى منها كتاب الشيخ عبد الرحمن آل الشيخ . ومن أولئك : محمد بن عبد الرحمن ابن عفالق ومحمد بن عبدالله بن فيروز ، والشيخ محمد بن علي بن غَرِيب وقد أعاد إليه بالوجه العلمي كتاباً طبع منسوباً — خطأً — إلى الشيخ سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبد الوهاب ، هو الكتاب الذي طبع باسم : « التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق » .

وهناك مسألة حسَّاسة جداً يتجنَّبُها الباحثون من قبل ، ويحاولون أن يصفوها ضمن تجنبهم وبعامِلٍ من حساسيتها بما لم تكن عليه ، تلك مسألة موقف أخي الشيخ من أخيه أي موقف الشيخ سليمانْ بن عبد الوهاب من الشيخ محمد بن عبد الوهاب ؛ فقد كان منافياً للدعوة . وهذا ما لا نقاش فيه ولكنّ الباحثين

يعرضون الحال على أنّ الشيخ سليمان رجع عن منافاته واعتذر إلى أخيه ، وهم يرون في ذالك إرْضاءً لِحُماةِ الدعوة والمتنفّذِين فيها ... أما الشيخَ البسام فلم يقع فيما وقع سابقوه . وكان أكثر صراحة وجرأة فأثبت أنّ الشيخ سليمان ظل على منافاته ولم يرجع عنها ولم يعتذرْ — وهذا ما كان صعباً أن يقال كما قاله الشيخ البسام — ينظر البسام — « علماء نجد خلال ستة قرون » .

وكثر نقل الشيخ البسام من كتاب « السحب الوابلة » والاستشهاد بنصوصه ... ولم يخالف في فعله ورأيه جهة دينية عليا ، ولم يقدم كتابه إلى الطبع إلّا بعد أن (أجيز طبعه من رئاسة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية ... بتاريخ ٢٠/١٠/١٣٩٤هـ) — والرئيس هو الشيخ عبد العزيز بن باز .

ولم يَعُدْ ، إذَنْ ، كتاب « السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة » للشيخ محمد ابن عبدالله ابن حميد في موضع [النهي عن] الاقتراب منه والأخذ عنه والانتفاع به . ثم لم يَعُد الكلام على من نابذوا الدعوة أو عادوها في موقع الخوف .

ونعود إلى الشيخ حمد الجاسر وهو الذي عرف « السحب الوابلة » جيّداً ، وتابع اتساع النظرة ، وأعجبه « علماء نجد خلال ستة قرون » ... فإنه خطا خطوة أخرى بأن استل من « السحب الوابلة » كتاباً كاملاً نشره في « العرب » (س ١٢ ص ٦٤١/٧٣٦) .

وهكذا صار « السحب الوابلة » حقلاً محروثاً ، وصار ابن حُمَيْد اسماً مألوفاً ... ولم تبق إلا الخطوة الأخيرة في تحقيقه ونشره كاملاً ... كما نشر الشيخ عبد الرحمن آل الشيخ « كتاب لمع الشهاب » . وإذا لم يتولّ تحقيق « السحب الوابلة » محققٌ من أهل الدعوة ربما تولاه من ليس منها كما فعل أبو حاكمة في « لمع الشهاب » .

والمهمُ في هذه المسيرة بيان الأفق الذي اتّسع إليه البحث الديني ، والمنهج

الحديث الذي أخذ به ، ولو لم يفعل ذالك اصعب أن يكسب العوذ الذي كسبه من الأجيال الجديدة . والمهم المهم في عالم «المعجم» ما انبثق عن هذه الحال من موضوعات وكتب ورسائل ... وإن كان ذالك بعد الـ ١٣٩٠/١٩٧٠ على وجه الوضوح ..

اتساع مجال التأليف (دائرة معارف) :

ويمضي الطموح بالمؤلف السعودي إلى حدود بعيدة بعد أن تشعَّبَتْ تيارات التأليف ، وكثر المؤلفون ، ومنهم من ألف بالانكليزية . ومنهم من ترجم عن الانكليزية ، ومنهم من ترجم إلى الانكليزية . والقافلة سائرة . ورأينا النوادي الأدبية وما يرتجى منها ؛ و (المجمع) المنتظر ... والجامعات ... وكأن آن الأوان لعمل ضخم جامع تتعدّى مادتُهُ حدودَ المملكة جغرافية وتأريخاً ، وهو مشروع (دائرة المعارف العربية الإسلامية) وقد بدأت الخطوة الأولى منه بتأليف اللجنة التأسيسية من الدكتور أحمد محمد الضبيب ممثلاً عن جامعة الملك سعود . والدكتور محمد الرُّبَيِّع عن جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، والأستاذَيْن عبد العزيز الرفاعي وعبدالله حمد الحقيل . اللجنة محترمة ينتظر منها الجد ثم لابُدَّ من التنفيذ . وإلاّ فقد سمعنا عن مثل هذه المشروعات في أقطار أخرى . ولا يصعب على دور النشر المحلّية تنفيذ المشروع . ويكفي أن يكون فيها مثل (تهامة) و (الشروق) .

التناسق في اوجه الحياة العامة :

نلاحظ في خلاصة خطوط الخاتمة التوازي والتّلاقي في خطوط الحياة للمملكة العربية السعودية ، الحياة العامة وفيها العمارة والتجارة والبترول وتحلية مياه البحر وراحة الحاج وتنظيم مياه زمزم وشق الطرق ... ونشوء وزارات جديدة ، ودخول (دكاترة) في الوزارات ... ، وما هو من الحياة العامة في الرياضة وكرة القدم . والإذاعة والتلفزيون ، والفنون التشكيلية (والمسرح) والجمعية العربية للثقافة والفنون والنوادي الأدبية ، وما هو من الحياة الخاصة بالمعنى الذي نُريدهُ لموضوعنا في التأليف : الأدب ، التاريخ ، علوم الدنيا ، علوم الدين ، الجامعات ، البعثات ، عمادات شؤون المكتبات ؛ وما هو مرتبط بالعام قائم على الخاص : الطباعة ، الصحافة ، مكتبات السوق ، دور النشر ... ولا يجري شيء في البلاد داخلاً

وخارجاً دون علم السلطة العليا وتوجيهها ومتابعتها . وكل يجري بقدر مقدر ... وقد أسَّسَ هذا عبد العزيز منذ البداية . وكان واضحاً أيام فيصل .

وربما خفيت هذه الحال من التنظيم المدني على كثيرين في الخارج . وربما جهلها هؤلاء الكثيرون وبَقُوا على انطباعهم عن الصحراء والبداوة .

أذكر مرة أن جامعة الملك سعود تعاقدتْ ذات يوم من عام ١٣٨٣/١٩٦٣ تعاقداً شخصياً مع أساتذة انتدبتهم ، ومضى هؤلاء الأساتذة يُؤَدُّونَ واجبَهم سنة بعد سنة .

وغاظ ذالك التعاقد أعداءً لهؤلاء الأساتذة في بلادهم ، فأجمعوا أمرهم وتعاقبوا على فترات متقاربة ولمناسبات مختلفة (يخوّفون) المسؤولين في المملكة مغبةَ التّعاقد ، ويقدّمون في ذالك أسباباً مختلفة حيناً ، ولا تضير الجامعة حيناً ... ويظهرون بمظهر الناصح المخلص الأمين ... فما لقوا أذُناً صاغية . وكان المسؤولون يُرَحِّبُونَ من صدورهم إزاء ما يسمعون ، وربما قالوا لهم : ألديكم بقية منهم ؟ ولم يكُفّوا حتى بلغت الحال إلى ما لابُدَّ معه من الجواب البليغ .

وكان الجواب :

— وماذا تحسبوننا ؟ أغافلون نحنُ عن أمورنا ؟ (...) إننا نَعْتَزّ بهؤلاء الأساتذة ، وقد راقبناهم فما رأينا منهم إلّا الخير وخدمةَ الجامعة خدمة حقة .

روى المسؤول ذُو الجواب البليغ الواقعة كما هي في لقاء له مع أولئك الأساتذة وهم يزمعون العودة إلى بلادهم بعدما نَيَّفَتْ إقامتهم على خمسة الأعوام . وزاد في عبارات التكريم ما قد تأتي مناسبة لذكرها .

تجري أمور الدنيا في المملكة بعلم وتخطيط وتقدير بما يجب أن يكون قبل فوات الأوان ، وبالأسلوب المناسب ضمن الظروف القائمة والحاجة إلى توطيد الحكم .

أما أمور الدين فهي بيد أهلها ولكن « المملكة » منذ أيام الشيخ محمد ابن عبد الوهاب لدن التقائه (سنة ١١٥٧هـ) في الدرعية بأميرها (الإمام) محمد بن سعود، شركة وتكاتف. ومن هُنَا كانتْ حكمة الملك فيصل في المداولة مع مفتي الديار السعودية من آل الشيخ، والحكمة في إيصال ما يحسن أن يكون ويَقْتَنِعُ به الشيوخ، ومن ذالك ما رأينا من تعليم البنات وإنشاء الرئاسة العامة لتعليم البنات تابعة لمفتي الديار، والتلفزيون، والساعة الزوالية في الإذاعة مع الغروبية (العربية مع الغربية)، والتاريخ الميلادي مع التاريخ الهجري ... وأشياء كثيرة في الجامعة والمعاهد، وفي المطبوعات والمؤسسات الصحفية ... واستمرت القاعدة ... ولا تلبث البذرة أن تنبت، والنَّبْتُ أن يُثْمِرَ، والثمر هو ما تراه مرتفعاً عن تربة تراها حيناً ولا تراها أحياناً.

نشر الكتاب وطبعه :

والمفْرُوض بالعام أن يكون رسمياً، وهو كذالك في صميمه وغالبه بمعنى أنه تابع للدولة في وزاراتها أو رئاستها ومؤسساتها التابعة لمجلس الوزراء، فهي التي تخطط له، وهي التي تصرف عليه وتقيم أَوَدَهُ مالياً بالقدر الذي ترسمه... وهذا ما هو حاصل، وقد كنتَ ترَى في البدايةِ ما طُبِعَ على نفقة الملك عبد العزيز ... والملوك والأمراء بعده ثم كانت وزارة المعارف، ووزارة الإعلام، والجامعات ... والزراعة والعدل ...

والمفروض بالخاص من موضوعنا في الكتاب وطبعه أن يكون أهلياً، وهو كذالك، فالمؤلفون من أدباء ومؤرخين ... وفقهاء يختارون موضوعاتهم ويرجعون إلى مصادرها، ويُسَوِّدُونَ ويُبَيِّضُون.

ثم تأتي مرحلة الطبع أو التفكير الجدّي بالطبع، وكانت مرحلة صعبة في تاريخها الأول. فما في البلاد مطابع تذكر، والموجود قليل جداً ومُكَلِّفٌ جداً ويبقى بعد ذالك طريق الطبع في الخارج: مصر، سورية، لبنان ... وما هو بالطريق المتيسر فتكاليفه باهظة، والمؤلف تحت رحمة أصحاب المطابع في الابتزاز واضطراب المواعيد ... والعلم الأكيد بقدر من الخسارة المالية في نهاية المطاف.

قال أحمد سباعي : (... إنّ الأديبَ ضائعٌ ، وأخُصُّ بالذكر منهم إخواننا المؤلفين . (...) إن المؤلف منهم يُرْهِقُ أعصابه شهوراً أو سنوات إذا اقتضى الأمر حتى إذا انتهى من التأليف والطبع تحوّلَ إلى سائل يستعْطي من يُساعده على الثراء ، لا ليتقاضى أتعاب الشهور والسنوات التي عاناها في التأليف بل حسبه أن يستعيد ما أنفقه كرأس مال .

إن استعادة رأس المال يا إخوتي دونه خرْطُ القتاد ، فأكثر المؤلفات لا ينْفدُ ربعها أو نصفها إلاّ بعد جهد شاق (...) لهذا فهو ضائع ... وهو خليق بالتشجيع (...) — « سباعيات » / ١١٧ — ١١٩ » .

وقال في مكان آخر (« سباعيات » ٢/ ٨٣ — ٨٦) : (... كنت أتمنّى لو أجدُ من يثبت لي أن مؤلفاً أديباً واحداً في بلادنا استطاع أن يظفر بنصف ما أنفق على طبع مؤلفه لأقيمَ وإياه الحجة على خطإ كل الأدباء وتصورهم عن إبراز ما ينتجون .

إنّ بلادنا لا تبيع المؤلفات إلّا في نحو أربع مدن وبضع قرى كبيرة لا تتجاوز أصابع اليد ، وإنّ معدّل ما يباع في كل مدينة لا يتجاوز مئة نسخة لأديب سارتْ باسمه الركبان — كما كان يقول أجدادنا القدامى — وضجّت الصحف بشهرته كما يتحدث شبابنا المحدث . (...) لقد صدرت الطبعة الأخيرة من « تاريخ مكة » وساعدني في الإهداء الواسع — والحمد لله — على نفادها . وصدرتُ لي بعدها عدة مؤلفات أهديتُ منها وبعثْتُ بعضها وعندما شكا نفر من سعرها أعلنت التخفيض شهراً كاملاً فلم يحقق ذالك ما يصح أن يسمى رواجاً . ومع هذا استطيع أن أؤكد أن حظّي من رواج الكتب ربما فاق حظ البعض فكيف حال هذا البعض ...) .

وشكا السباعيُّ من الاستهداء ، وكثرة الذين يرون من حقهم أن تُهْدى إليهم النسخ ...

والسباعي شاهد عصره . والحال التي عرضها هي التي كانت السائدة ، وتُريْنَا من ثَمَّ سَبَباً للأدباء الذين أداروا ظهورهم للأدب مبكراً في وظيفة رسمية يحصلون عليها قبل فوات الأوان ، أو في مهنة حُرَّةٍ تَصِل بصاحبِها إلى أن يكون تاجراً مرموقاً ...

ولم تكن الشكوى خاصة بالسباعي ... فلابُدَّ من أنها كانتْ قاسماً مشتركاً بين أحاديث الأدباء ... ومادة النشر عند الحاجة ، ورأيْنَا للأستاذ حسين سرحان شيئاً منها ...

وظل الموقف من الكتاب السعودي قائماً على الفتور ، وربما الاستهانة . لمدة طويلة ، وعلى أيدي أصحاب المكتبات السعودية أنفسهم فيما يستوردون ويعرضون . ويرفضون ... وقد رأيتهم خلال إقامتي في الرياض (١٣٨٣ – ١٣٨٨/١٩٦٣ – ١٩٦٨) لا يحفلون بالكتاب السعودي ، ولا يفتحون له نافذة في معروضاتهم . ولا يكادون يُلَبُّون أيَّ طالب له ... وقد شغلوا بالمطبوعات اللبنانية والمصرية عن المطبوع السعودي حتّى عن الكتاب السعودي المطبوع في الخارج ! وكم سألتُ عن دواوين أحمد قنديل – وهي حديثة الطبع في لبنان – فما رجعت من السؤال بطائل ! فكيف الآخرون ؟ !

وحين عاد الدكتور عبد الرحمن الشامخ بعد انتهاء دراسته في انكلترة وتعيينه في كلية الآداب بجامعة الرياض صدمه الموقف فكتب سنة ١٣٩٢ مقالة بعنوان (كاتب الحي) جاء فيها : (إذا رأَيْتَ ما تعرضه المكتبات التجارية في بلادنا حَسِبْتَنَا أمَّةً لا تسهم في القول إلّا قليلاً . وإذا بحثت عن مؤلفات رجال الفكر والأدب عندنا فلن تجد منها إلّا بضعة كتب ألقت بها أيدي المكتبيين في ركن قصي من أركان مكتباتهم ...) – وفي العنوان إلماح إلى القول المشهور المأثور : مغنية الحي لا تطرب ..

الحال مؤلمة مزرية ، حال هوان الكتاب السعودي على أهله السعوديين ، ولكنها

تُربيتنا – كذلك – فضلَ الذين ثبتوا في الميدان ... ومواصلة (النضال) رغم الخسارة ... وحتى يصلوا إلى الحال التي تليق بالمؤلف ... وقد وصلوا فعلاً ، ومَهّدُوا السبيل لجيل من أبنائهم . ومنهم ، وفي مقدمتهم السباعي نفسه . ألَمْ يُعَدّدِ المؤلفات ؟ ألم يطبع تاريخ مكة ثلاث طبعات ...ويصل في آخر المطاف إلى إعادة طبع أكثر مؤلفاته – ثم كانت الجائزة التقديرية التي منحتها الدولة هذا العام (محرم ١٤٠٤/١٩٨٣) لثلاثة هم السباعي والجاسر وابن خميس . والجائزة ضخمة مادياً ومعنوياً .

لقد عانَى الرُّوَّاد كثيراً في سبيل توطيد التأليف والطبع ، ورأينا السباعي نفسه يصير صاحب مطبعة (مطبعة قريش) ... ومثله كانت معاناة الآخرين ؛ ولنا أن نقدّر صبر الأنصاري وهو ينشيء « المنهل » ويعمل على إقامة أَوَدها وتثبيت أركانها وقد استطاع . ولابُدّ من قابلية خاصة لديه واستعدادٍ مبكر وإلّا فهو يحدثنا عن أثر مبكر لديه هو « التوأمان » : الرواية الأولى التي صدرت في المملكة سنة ١٣٤٩/١٩٣٠ ، طبعها في دمشق – مطبعة الترقي بالقيمرية . وكان عدد النسخ التي طبعت منها ألفي نسخة نفدت كلها في ظرف ثلاثة أعوام ..

ولنا أن نَعُدّ هذه حادثة شاذّة لا تُمثل القاعدة أبداً ، ولابُدّ من أن يكون في عوامل رواج الكتاب المغري التربوي الأخلاقي الوطني وضرب من (الدعاوة) العلمية له إذا استنفر له إدارات المعارف .

كان لابُدّ من الطبع في الخارج ، وكانت مصر أوّلَ ما يَرِدُ على البال ، ورأينا أول مطبوع هو « أدب الحجاز » تأليف محمود سرور الصبان سنة ١٣٤٤/١٩٢٥ بالمطبعة العربية في القاهرة لصاحبها : خير الدين الزركلي ...

وتوالى الطبع ... في مصر . ويتردد اسم مطبعة المدني ، مطبعة البابي الحلبي (دار إحياء الكتب العربية) ، مطبعة الإمام ، دار القلم ، دار الكتاب العربي ، مطبعة مصر شركة مساهمة ، دار التأليف ، دار سعد ، دار مصر للطباعة ، السعادة ،

دار النيل ، دار المعارف ، ممفيس ، دار الفكر العربي ، الأخبار ، الرسالة ، الفجالة ، الجبلاوي ، دار وهدان ، العربي ، الناشر العربي .

وكان للمنار وللسلفية دور كبير في طبع الكتب الدينية خاصة ، عادت على المطبعتين بالربح الوفير .

ولم ينقطع الطبع في القاهرة ، ولكنه تضاءل كثيراً كثيرا . ومن أسماء المطابع المتأخرة : دار الجيل ، دار الاعتصام ، الدجوي ، دار العالم العربي .

ولدمشق مكان مبكر يذكر ، وقد رأينا طبع « التوأمان » بمطبعة الترقي ١٣٤٩ / ١٩٣٠ واحتفظت الترقي بنسبة كبيرة ثم الهاشمية لصاحبها محمد هاشم الكتبي ، وابن زيدون ، والمطبعة العمومية ، النضال ، زيد بن ثابت ، دار البيان ، خالد حسن ، اليقظة .

ويسعى (المكتب الإسلامي) سعياً دينياً فيبلغ ...

وفي بيروت : دار الكتب ، دار العلم للملايين ، المكتب التجاري ، دار الثقافة ، دار الفكر ، دار مكتبة الحياة ، الكشاف ، المكشوف ، القباني ، الوفاء ، دار العودة ، مؤسسة الرسالة ، دار الآفاق .

وتضاءلت المطابع الهندية منذ السنوات الأولى ، وانقطع ذكرها انقطاعاً تاماً . وتذكر الـ« النجف » في العقود الأولى . ولم تنل (العواصم) الأخرى إلا في حدود كتاب واحد : بغداد ، طهران ، عدن ، في وقت مبكر . ثم الدوحة بعد ١٣٩٠ / ١٩٧٠ .

وجرت في السنوات الأخيرة محاولة لإصدار سلسلة من الكتب السعودية في تونس ، ومن ذالك ما صدر لطاهر زمخشري وعبدالله جفري ومحمد أحمد باشميل .

إنَّ الحاجة إلى الطبع خارج المملكة أصبحتْ أقَلَّ من القليلة ؛ فلقد تَعَدَّدَتِ المطابع في المملكة ، وتوافرتْ وهَيَّأَتْ أحدثَ وأرقى وسائل الطبع ... زِدْ على ذالك ما قام في المملكة من دور للنشر لها مؤهلاتالدور الحديثة بما في ذالك ما تُسهله

لمؤلف من أمور الطبع ، وما تحققه له من حصة الربح المالي ... — لقد بلغت المطابع ودور النشر إلى ما لَمْ يمتَدّ إليها خيال الذي يُعْنَى بالكتاب السعودي ، وهو في ثمانينات القرن الهجري / ستينات القرن الميلادي ... ولا تَسَلْ عمّا جرى في حوالي القرن الخامس عشر الهجري قبيله وبعده ... وفي جدول عمله الأستاذ يحيى ساعاتي (عالم الكتب مج ٤ ، ع ١) لحركة التأليف والنشر في المملكة خلال عام ١٤٠٠هـ يبيّن أن الذي طبع خلال ذالك العام خارج المملكة (٤١) عنواناً من أصل ٣٣٥ أي ما يساوي ١٢٪ وأحسبها الآن لا تزيد على ١٪ غير قليل .

ونعود إلى ما كنا فيه حيث تركنا المؤلف السعودي يعاني (الأمَرّيْن) من الطبع ، وأقل ما في عوامل المرارة قلة المطابع الوطنية ، وضعف إمكانات الموجود منها ، وارتفاع التكاليف . أجل ، لقد امتلك الأهلون — تدريجاً — وسائل الطبع والنشر ، وقد رأينا جمعاً من هذه الكتب وعليها أسماء المؤلفين وأسماء المطابع ، والمكتبات ... والناشرين .

هذا حاصل ولاشَكّ ، ومن المؤلفين من يعتمدون على أنفسهم اعتماداً كلياً في الصرف على الكتاب اعتمادهم عليها في التأليف — وهذا أعلى الدرجات فيما نحن فيه ضمن النظام القائم — وهو حاصلٌ فِعْلاً على وَجْهٍ يذكر ، وقد أورد على سبيل المثال — المثال فقط — مؤلفات الأستاذ عبد القدوس الأنصاري ، ومؤلفات الأستاذ حمد الجاسر ، ولهؤلاء نظائر جزءاً أو كلاً وإن كنّا نرى القاعدة أكثر انطباقاً على مؤلفين من طبقة الشيوخ من الرعيل الأول والثاني منها انطباقاً على الذين جاءوا بعدهم — مع علامة من التعجب إذْ تَرى بَيْن هذا الجيل من امتلكوا من مادة الأدب والعلم ما يؤلف كتاباً أو ديواناً وامتلكوا معه المال — والمال الغزير أحياناً — ولكنهم لم يتقدّموا خطوة في الطبع والنشر !

إنّ الذين جاءوا بعدهم يؤلفون كذالك ، ولكنهم يعتمدون أكثر ما يعتمدون لدى الطبع على وسائل لا يقوم الصرف فيها من (جيبهم) الخاص كأن تكون

جهة رسمية أو جهة أهلية ، ولا نذكر هذا من باب الاعتراض ، وإنَّما من باب إقرار ما هو واقع على وَجه من الظهور ، وفيه من المستجاد ما فيه ... مع مَحْذُورٍ صغير هو ما يدفع المؤلف إلى التفكير بالربح أكثر من التفكير بالتأليف ،وما يَدْفعه إلى الاعتماد على (الغير) أكثر من الاعتماد على النفس ، ثُمَّ إنه لا يفكر بالقارىء قدر تفكيره بالجهة التي ستتولى طبع كتابه ، أو تعْضِيد طبعه ، أو شراء كمية كبيرة منه ، في رغباتها وأهدافها وشرائطها ... وربما ساعدتْ هذه الجهة مالياً لمعنى المساعدة دون أن يكون الكتاب مما يهمها وبِغَضِّ النظر عن الجودة والرداءة .

ثم إذا حدث لهذه الجهة أهليَّةً كانتْ أم رسمية ... داعٍ إلى الفتور في الطبع والنشر ، انعكس هذا الفتور على التأليف والمؤلف . أما القراء فلم يكُونُوا طرفاً رئيساً في القضية ، والذي يقرأ منهم كان يجد الكتاب بسعر مقبول ، فإذا ارتفع السعر استغلى الكتاب وتردّد في الشراء أوانصرف عن اقتنائه ؛ ولا يجد حينئذ — المؤلف مُسَوِّغاً للاعتماد على نفسه ، ومن ثَمَّ لا يجد المسوغ في التأليف أمَّا لو كانت العلاقة وطيدة بين المؤلف والقاريء — منذ البداية — ولا تدخل بينهما الجهات الخارجية من رسميةٍ وشبه رسمية وأهلية إلا بحدود العامل المساعد ، والوسيط الذي يَمُدُّ يده لإسناد الاثنين بقدْرٍ مقدر من نظرة تسعى بهما إلى الوقوف على أقدامهم والسير بعد ذالك في قُوَّة وثقة ... لو كانتْ لما تأثر موقفُ المؤلف كثيرا . ومعنى هذا وجُوبُ أن تَسْتقِرَّ تقاليدُ يكون فيها للمؤلف قرّاء يتابعونه ويسألون عنه ويطلبون كتابه .

قد تكون الفكرة — هنا — غير واضحة ، وقد يعود بعضٌ من غموضها إلى جِدَّتِها ، ووجوب التأمل طويلاً فيها ، وأن يشترك كثيرون ممن يعنيهم أمْر الكتاب في التأمل والمناقشة ... وكأنّي أُرِيْدُ أن أقول : إنه لابُدَّ لنا من السعي الطبيعي لإيجاد القاريءْ الطبيعي ، فإذا وُجِدَ استمرت سوق الكتاب مَهْمَا يعرض للجهات الخارجية من عوامل قد تدعو — منطقياً — إلى الفتور . إن من صحة

المطبوعات أن تَسْتَحِيلَ تقليداً شعبياً ، ولا بأسَ بعد ذالك – أو قبل ذالك – من رعاية رسمية – أو أهلية – في حدود النّظرة المستقبلية السليمة المدروسة .

دور النشر في المملكة :

وهنا يأتي دور الكلام في الخاتمة على دور النشر . وقولنا : يأتي دور لا يعني جدة الكلام عليها فلقد رأينا ذالك على وجه خاص في المقدمتين الثانية والثالثة ، فضلاً عما انبث خلال « المعجم » وكانت الدور في كثرتها وتكاثرها تدل على نفسها ... وقد رأينا (تهامة) تبرز – بعد الحد المحدد – أمراً مدهشاً ، لافتاً للنظر ، عجيباً ... وفاتنا أن نذكر دار الشروق قبلها . وكلتاهما في جدة .

ولو بدأنا بالبداية – بعد التمهيد ، لوقفنا عندما نشر (على نفقة) مميزين مكان الملك عبد العزيز ثم آله والأثرياء من وجهاء البلاد وفيهم حسن شربتلي ... ومحمد سرور الصبان وغيرهما وغيرهما . وكانت لذالك النشر ضرورته ، ثم زالت الضرورة تدريجاً بانتظام المؤسسات الحكومية وقيام الوزارات . ولكن مؤسسات الحكومة – في مثل النظام القائم في المملكة – ليست دور نشر بالمعنى الصحيح . إنّ دار النشر هي جهة أهلية يقصدها المؤلف بمخطوطه ليتفق وإياها على طبعه ونشره وتوزيعه بعد الاتفاق على حصته المالية لقاء جهده . وهذه غير تلك ، وغير « المكتبة » التي تختار كتاباً تحسبه رائجاً (من التراث عادة) وتطبعه وتذيعه وتحتكر ربحه – وقد رأينا منها أمثلة غير قليلة ...

إنّ دور النشر بالمعنى الاصطلاحي حديثة النشأة في البلاد ولعل النشأة متأثرة بالدور اللبنانية خاصة . ولا بأس بالنشأة المتأخرة ، إن كان التأخر فيها طبيعياً ، فنشأة الدور تستدعي خطوات سابقة عليها ، وقد تهيأت تلك الخطوات على مر الزمن ، وكان آخرها (دار اليمامة) بمعنى من المعاني ، والدار السعودية بمعنى آخر من المعاني ؛ وتمثل الاثنتان خطوات ذات بال ، جديرة بالذكر ، وهما آخر ما شهدنا في المملكة قبل وداعنا إياها (١٩٦٨/١٣٨٨) وحتى الحد المحدود لنهاية المعجم (١٩٧٠/١٣٩٠) . ومن ثَمّ لا ندري السبب الدقيق – لبعدنا عن موقع الأحداث –

لتكاثر دور النشر بعد ذالك ، وتنوعها ، وتوزعها على المدن الكبرى من المملكة ولاسيّما جدة والرياض ، ولك أن تقول الرياض وجدة ... وقد عددنا بعضها : ويمكن أن نستدرك ونزيد ونستعيد – مع إمكان الفوات والنسيان والجهل وهو كثير – ولابُدّ من أن يكون الربح – أيّاً كان مصدره – في أسباب هذا التكاثر . ولابُدّ من أن يدخل المصدر الرسمي على رأس تلك الأسباب .

في الرياض – غير دار اليمامة ، ومؤسسة اليمامة الصحفية ، ومؤسسة الجزيرة الصحفية ، ... والدعوة – :

دار الوطن ، دار العلوم ، دار المرّيخ ، دار الرفاعي ، دار الأشبال ، دار الأصالة ، دار الرسالة ، دار الرشيد ، دار الرياض ، دار الصحراء ، دار طيبة ، دار اللواء ، دار الناصر ، دار نجد ، دار الهدف ، دار اليقين ؛ الدار الوطنية ، الشركة السعودية للتجارة ، عالم الكتب ، دار الكتاب الجامعي ، دار الكتاب العربي ، دار المعارف السعودية ، مؤسسة خدمة العلم ، مؤسسة الأنوار ، دار الفيصل ، دار الهداية ، دار أمية ، الفاخرية ، مكتبة المعارف ، وكالة تبر – غير ما تنشره الوزارات والجامعات .

وفي جدة ، غير مؤسسة تهامة التي لم تمر فرصة دون الإشارة إلى إدارة النشر والمكتبات فيها والإعجاب بها – ونذكر هنا : ان مدير الإنتاج فيها هو الأديب سباعي عثمان – ، وغير الدار السعودية التي كانت قبل ١٣٨٨/١٩٦٨ : دار الشروق وهي نشطة جداً . سبقت تهامة في الظهور . قال ساعاتي في كتابه « حركة التأليف والنشر ١٣٩٠ – ١٣٩٩ ص ١٨٣ : (تعد جامعة الرياض أكبر جهة نشر في المملكة العربية السعودية حيث نشرت ٦٤ عنواناً (...) وتأتي دار الشروق بجدة في المركز الثاني إذ بلغ عدد ما تمكنا من إحصائه من منشوراتها حوالي ٤٨ عنواناً ولعلها نشرت أكثر من ذالك ... أغلب منشوراتها ذات صبغة أكاديمية بحتة .

ويحتل المركز الثالث نادي الطائف الأدبي الذي نشر حتّى الآن أكثر من ٣٦ عنواناً ...) .

حتى إذا تأسست إدارة النشر في تهامة بذّت ما سواها ففي بحث للأستاذ يحيى ساعاتي (عالم الكتب ، مج ٤ ، ع ١ ، رجب ١٤٠٣ / أبريل ١٩٨٣) بعنوان : حركة التأليف والنشر في المملكة خلال عام ١٤٠٠هـ يضع جدولاً بما نشرته دور النشر والهيئات الرسمية داخل المملكة .

تأتي على رأسه تهامة وقد أصدرت (٢١) عنواناً ، يليها النادي الأدبي في الرياض ، (١٨) عنواناً ، وجامعة الملك سعود ، في الرياض (١٨) عنواناً كذالك ، فدار الشروق (١٧) عنواناً ، والدار السعودية (١٧) عنواناً كذالك فجامعة الإمام محمد بن سعود (١٣) عنواناً ... الخ .

ومن دور النشر في جدة : شركة مكتبات عكاظ ، مكتبة المدني ، محمد سعيد باعشن وعبد الحميد مشخص ، دار البحوث العلمية ، دار المجمع العلمي ، مؤسسة الرجاء للتجارة ، مؤسسة القنديل للتجارة .

وأحدث دار فيها هي دار القبلة للثقافة الإسلامية ، استهلت مطبوعاتها بالجزء الأول من كتاب لأبي تراب الظاهري عنوانه : « ما لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذايا والبلايا » ، مطابع سحر د . ت (١٤٠٤/١٩٨٤) .

وفي مكة المكرمة : دار مكة ، دار الرائد ، مؤسسة هديل ، مكتبة الثقافة... دار عكاظ .

وفي المدينة المنورة : مكتبة الثقافة ، طيبة ، المكتبة العلمية ...

وفي الطائف : دار الزايدي ، دار ثقيف (ونذكر أن صاحبها الأديب عبد الرحمن المعمر) ، دار الحارثي .

وفي الدمام : دار الإصلاح .

هذا ما وصل إلى العلم – وهو ليس كل شي – غير ما نشرته الجهات الرسمية (كالمعارف ، والدفاع ، والإعلام ، والزراعة ، والداخلية ، والحج والأوقاف) والجمعية والنوادي والجامعات ودارة الملك عبد العزيز والمعاهد (مثل معهد الإدارة) ، والمؤسسات الدينية . وما نشرته المكتبات مثل مكتبة التوفيق ، الحرمين ، العلمية ، الرياض الحديثة ، المعارف .

وليس من غرضنا الإحصاء – وما ذاك بمستطاعنا لو أردنا إليه – وإنما أردنا إلى الأمثلة ذات الدلالة . ويحسن الرجوع إلى كتاب ساعاتي « حركة التأليف والنشر » ...

لقد تكاثرتْ دور النشر على شكل لافت للنظر ، ولو قلت : إنَّها زادت عدداً (ونشاطاً محلياً) على ما في أي قطر عربي آخر لما أبْعَدتُ (حتى لو أدخلت في حسابك مصر وربما لبنان) والمسألة تدعو إلى الدهشة أحياناً ؟ !

المطابع في المملكة :

ودور النشر تتّصل بالمطابع وتعتمد عليها ، والمطابع تَسُدُّ الحاجة بعض الشيء فكانت المطبعة الرسمية أم القرى (الحكومة) في مكة ، ومطابع الأصفهاني (الأهلية) في جدة مع مطابع أقل شأناً ! مثل شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر . ومكة ... وربما المدينة ، والدمام خصوصاً يوم كان المؤلف السعودي يفكر بالطبع في مصر أو لبنان قبل أن يفكر بالطبع محلياً حُبّاً بنشر أوسع ، وإخراج آنق . وسِعْرٍ أرخص ... ، ثم زادت المطابع بازدياد الحاجة أو شعور أهلي بدلالة وجودها ، كالذي جرى في الرياض ، فكانت مطابع الرياض .

وبقي – مع هذا – الطبع في الخارج هو السائد في الكتاب ويكفي أن (دار اليمامة) التي كان صاحبها (الشيخ حمد الجاسر) أساساً في قيام مطابع الرياض . لم يجدْ ما يَسُدُّ حاجته إلّا في لبنان (إن لم يكن الدوافع أخرى) ومثل دار اليمامة ،

الدار السعودية للنشر ... مع أن العدد قد زاد نسبياً ، وكان من مطابع مدينة الرياض : مطابع نجد التجارية ، ومطابع الفرزدق ... وشركة مطابع الجزيرة ، ومؤسسة النور — غير مطابع الجيش .

ثم توسعت وتطورت مطابع الأصفهاني ...

وجاءت المؤسسة الصحفية وفي صميم نظامها إنشاء المطابع التي تعتمد عليها وقد شرعتْ تُنْشِىءُ الجديد أو تُحَسِّنُ القديم .

ولك أنْ تَعُدَّ التَّطوُّرَ في ذالك طبيعياً ضمن أسبابه الموجبة الموضوعية ... كما عده صاحب المعجم وهو قريب منه .

ثم لم يلبث الأمر أن خرج عن مدى تصور البعيد عنه — وحتى القريب أحياناً — وكان ذالك على اتّصال مباشر مع تكاثر دور النّشر فالمطابع تبحث عن مادّةٍ تطبعها ، وهي تطبع المادة التي تبحثُ عنها دور النشر لنشرها ، ومعنى هذا كثْرة المؤلفين والمؤلفات من كل نوع من أنواع المعرفة ، وفي تلك الأنواع غير الجديد . القريب العهد الذي يُعاد طبْعُه ، والمخطوط القديم الذي يُحَقَّق . ويسند المؤلف غير دور النشر : مؤسسات رسمية علمية أهَمُّها الجامعات وفي عدد منها عمادات شؤون المكتبات ، والمطبعة ، ومراكز البحث (والتحقيق) . ولا تنس النوادي الأدبية والجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون ... وغير هذه وتلك ...

وقد وقفنا على عدد من دور النشر ، ووقفة عند المطابع قد تستدعي ربْط المطابع الجامعية بدور النشر في وجْهٍ من الوجوه ، مع فارق الأساس الرسمي لها وأنها تبذل لمؤلفيها جَيِّداً وتذيع مطبوعاتها هدايا وما أشبه .

إن مطبعة كمطبعة جامعة الملك سعود (مطابع جامعة الملك سعود) تطبع — غير الكتب — « فهرس معرض الرياض الدولي الخامس للكتاب » ١٤٠٣/١٩٨٣ بـ ١٢٦٠ صفحة من قطع كبير وإتقان منقطع النظير . هي مطبعة — أو مطابع — كبيرة الشأن .

وتزداد المطابع على أية حال ...

ولو ذكرتُ المطابع التي تتعامل معها إدارة النشر بمؤسسة تهامة (جدة) وحدها لكان في عددها – لو استطعت الدقة في ضبطه – دلالة ، وهذا الذي تهيأ منها : في جدة : شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر ، مطابع النصر ، سحر ، المطبعة العربية ، الروضة ، دار البلاد ، دار العلم للطباعة والنشر ، دار عكاظ للطباعة والنشر ، دار الأصفهاني – وربما غيرها !

ومن مطابع جدة مؤسسة الطباعة والصحافة والنشر ، مطابع البنوي ، مطابع مؤسسة القنديل ، مطابع دار المجمع العلمي ، مطابع مؤسسة الرجاء ، أوفست المدينة ، دار الفنون .

وفي هذه المطابع ما لم يكن له وجود أو احتمال وجودٍ قبل ١٣٩٠/١٩٧٠ .

وتكثر المطابع في الرياض على ما لم يكن يمتد إليه يوماً خيال – أو حلم – الشيخ حمد الجاسر ... فبعد الذي رأينا ، ومطابع اليمامة ، ومطابع مؤسسة الجزيرة ، تأتي مطابع إذا فاتنا حصرها فلا يفوتنا ذكر ما تهيأ لنا منه : مطابع الشرق الأوسط ، شركة الطباعة العربية السعودية ، المطابع الأهلية للأوفست ، مطابع وإعلانات الشريف ، مطابع القصيم ، المطبعة اليوسفية ، المطابع الوطنية الحديثة ، مؤسسة الأنوار ، مطابع المنطقة الوسطى ، مطابع دار الهلال ، مطابع النصر الحديثة ، مطابع الخالد للأوفست ، مطابع الإشعاع ، مطابع الأمل ، مؤسسة المنار الطباعية ، مطابع بحر العلوم ، مطابع اليمامة ، مطابع البادية للأوفست ، مطابع حنيفة ، مطابع المجد التجارية ، مطابع أبو نزار ، مطابع مرامر ، مطابع النهضة ، مطابع بطاقة دعوة ، مطابع الشمس ، مطابع السفراء (سفير ؟) ، مطابع صقر الجزيرة ، مطابع الوطن الفنية ، مطابع البكيرية ، مطابع الشهري ، مطابع الفيصل التجارية ، المطبعة النموذجية ، مطابع السامر ، مطابع دار العلوم ، مطابع القوات المسلحة .

قال ساعاتي : (تضم مدينة الرياض وحدها أكثر من سبعين مطبعةً تتفاوت مستوياتُها) .

وإذا ذكرنا مطابع جدة والرياض علينا أن نتصور أحدث ما في الأحدث في عالم الطباعة . وفي الْمُخْبَرِ : أن « الشرق الأوسط » تستعمل الأقمار الاصطناعية.

ثم إن المطابع القديمة لابُدَّ من أن تطور نفسها ولم تلبثْ مطبعة الزايدي في الطائف أن صارت مطابع الزايدي .

وفي مكة قامت – غير ما رأينا من مطبعة الحكومة ، وقريش والثقافة – دار مكة للتأليف والنشر فقامت معها ولها دار مكة للطباعة ، وتوسعت مؤسسة مكة للطباعة والإعلام ... مع مطابع قد تكون صغيرة أو أصغر ،أعرف منها : زمزم، مطبعة النهضة الحديثة ، الوفاء .

وفي المدينة المنورة : مطابع الرشيد ، المصحف .

وفي الشرقية ، في الدمام مطابع المطوع ، المطابع الفنية ، مطابع التريكي .

وفي أبها : مطبعة العسيري ، وفي حائل : المحيسن، وفي جازان : الأمل (؟) .
قال الشيخ حمد الجاسر (العرب ، شوال ١٣٩٢ / تشرين الثاني ١٩٧٢) : (ومنذ سنتين قام (...) الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي المؤرخ المعروف بإنشاء مطبعة في جازان قاعدة ذالك الإقليم الواقع في تهامة في الجنوب الغربي من المملكة ...) .

(وفي هذا العام وجدت الطباعة في مدينة أبها قاعدة بلاد عسير (...) فأنشئت مطبعتان في تلك المدينة إحداهما باسم الإقليم ، والثانية باسم الوديعة) .

ولسنا بصدد الإحصاء والدقة . ولسنا قادرين على ذاك لو أردنا، ولابُدَّ من القول هنا ، كما كان بصدد دور النشر ، والمكتبات ، من دراسة خاصة يتوجَّه إليها متخصص... لأهمـيَّـتها وقبل فوات الأوان – وعُذْرًا عن الخطإ أو السهو .

وتتضافر العوامل ليكثر المطبوع ، ويتعدّد الكتاب ، وأنواع المطبوعات الأخرى ...

ولا تعجب حينئذ أن تقُوم في البلاد مجلة متخصصة محترمة كمجلة عالم الكتب...

وتقام المعارض ومنها المعرض الدولي الذي يقام في جامعة الملك سعود ...

وكان مؤلف المعجم يسأل عن السبب في هذا الازدهار – أو ما يبدو ازْدِهاراً – ويصعب لمثله أن يقع عليه واضحاً أكيداً. ولكن الذي لاشك فيه أن هذه المطابع وتلك الدور ما كانت لتقوم لو لم يكن في البلاد مؤلفون وكتب ومخطوطات ، ولو لم يكن في تلك الكتب الجاهز المعدّ للطبع أو ما ينتظر (لمساتٍ) قبل الطبع.. وإلّا فماذا تطبع المطابع وماذا يَنشر الناشرون ؟ هذه بديهية .

ولابُدّ من أن يكون مثْلُها الاستنتاج السهل بأن الدور تربح مالياً ، لأنها قبل كل شيء مؤسسات تجارية ، حتى ما كان منها راجعاً لمالك أديب (والأدباء الذين أسسوا دور نشر في السعودية ليسوا قليلين ، ولا يحسن أن تَمرّ الظاهرة دون إشارة إليها ، ودعوة إلى دراستها لتميُّزها في موضوعها) .

بديهي – وواجبٌ أن تربح مالياً دورُ النشر .

ويتأسَّسُ على ذلك أن المؤلف يربح كذلك .

تلك أمور يمكن أن يصل إليها البعيد – فضلاً عن القريب – وهي أحوال دالة على نفسها ، ويكفي أن وَصَفْنَاهَا بِالبدِيْهِيَّة .

ترويج الكتاب وتسويقه :

يبقى بعد ذلك أمْرَانِ ليسا بَدِيْهِيَّيْنِ جداً :

الأول : القاريءُ – أو القراء – فهل القاريْ السعودي يستوعب كل ما تنشره دور النَّشر السعودية فضلاً عما يَرِد إليه سهلاً من الخارج وهو غير قليل ؟ ويدخل في الاستيعاب كل معانيه حتى الماليَّة .

لاشك في أن المثقف السعودي قاريْ جَيِّد ، ولكن الشَّك في الكميّة (والعدد) وليس الموضوع – هنا – موضوع الكيفية والنوع . وهو قادر – عموماً – على الأثمان المالية للشراء ، إذا أراد حتَّى لو بَدَا سعر الكتاب الواحد غير رخيص.

ومع هذا ، يبقى الشكُّ في العدد ، وربَّما فاق المطبوع قدرة القراء وعددهم وأبواب تلقّيهم . أنا لاشك في أن هناك مؤلفين يفرضون – أو فَرَضُوا – أنفسهم ، وأنَّ هناك موضوعات مُعَيَّنة كذالك ، ولكني أحسب أن المطبوعات أكثر من القراء ، وقُلْ : أكثَر من الذين يتقدمون طوعاً للشراء من المكتبات .

ويزيد من تضييق هذا الباب أنَّ دور النشر السعودية على كثرتها ونشاطها تبقى محليَّةً تطبع وتنشر لقراء من البلاد نفسها ، ومَهْما يكُنْ عددُ القراء أو الذين يشترون الكتاب منهم كبيراً فإنه يبقى دون المطلوب الذي يَسُدُّ النفقات ويوفر الأرباح – ولا تقنَع دور النشر بأرباح قليلة وإلّا لما كانتْ بهذا العدد ، ولوجدت إلى الأرباح طرقاً أخرى خارج عالم الطبع والنشر .

لم تفكر هذه الدور جديّاً في إخراج الكتاب السعودي عن مَحَلِيَّتِه . لقد نجحتْ كثيراً في (جمالية) الإخراج ، ولكنها بَقِيَتْ تدور – أكثر ما تدور – في موضوعات محلية – وقُلْ سعودية – قلما كَسَبَت – النِّطاق الواسع الذي يُهَيِّيءُ لها سوقاً خارج المملكة زِدْ على ما يُضْرَبُ عادةً على الأسواق الخارجية من أنْطِقَةِ صَعْبَةِ الاجتياز لدى التصدير . ولدى التّفاهم على العملة الصعبة (أو السهلة) .

وأسْتَدْرِكُ وأقول : إنَّ في هذا العدد الضخم من المطبوعات السعودية ما يمكن أن يَتَّخِذ صفةَ العموم ، وأن يَهُمَّ قارئاً عربياً أو غربيّاً بهذا العموم الذي يُعْنَى به وإن كان هذا قليلاً (أخذاً بالتزايد ... قليلاً كذالك) ...

ثُمَّ أستدرك وأقول : إن من الباحثين والقرّاء خارج المملكة سواءٌ في الأقطار العربية أم في العالم من يَهُمُّهُ أن يَقِف على خُصُوصِيَّةِ بلَدٍ مَّا . ولاشكَّ في أن في المطبوعات السعودية خصوصية مَّا ...

ثم هناك ما هو أوسع في الدلالة ، فليس هناك كتاب يُصَدَّر وكتاب لايصدَّر ، لأنَّ المفروض بأي كتاب عربي أن يكون له مكان مَّا في أي قطر عربي ، ومعنى هذا أن تَتَكَوَّنَ لجنة أو مؤسسة خاصَّةٌ تأخذ على عاتقها إيْصَال الكتاب السعودي إلى الأقطار العربية وإلى من يهمُّهُمْ أمره خاصَّةً ، بكل الوسائل من التجارة والمقايضة إلى المعارض إلى الإعلان إلى الإهداء ...

ويَبْدُو لي أنّي أطرق موضوعاً لم تمنحه دورُ النَّشر حقَّهُ في خدمة الكتاب ، وخدمة الدار ، وخدمة الثقافة العربية كلها ، وكأنها رضيَتْ بالرِّبح وهو حاصل من أقصر طريق ، ولعلها حاولت مرَّةً أو مرتين فتراجعتْ عند أوَّل مُثبِّط . والذي يُصيرُ يصل كما حصل – مثلا – لمجلة « الفيصل » ، وما يمكن أن يحصل جدًّا لمجلة « عالم الكتب » لو ...

إنَّ مسألة تَسويق الكتاب مسألة أخرى نُثيرُهَا وجَديرٌ أن يتدارسها أهلها ، ولكنها ليست مسألة أخرى لنا في حدود خاتمة لمعجم المطبوعات العربية – السعودية.

ونعود إلى الأمر الثاني ، وهو الحكوميّة ، وهي أساسٌ في أرباح دور النَّشر (والمطابع والمؤلفين) ، ومعلوم جدًّا أنها تُقدّم في ذالك تشجيعاً مالياً كبيراً بقواعد صارتْ مقررة يعرفها الناشرُ والمؤلف ويُنْتَفَعُ بها إلى أقصى الحدود ... وفي الحكومة جهاتٌ مختلفة من الوزارات والرئاسات والمؤسسات ، والتشجيع المالي المجزي يَرِدُ مَرَّةً مُباشرة ومرة غير مباشرة ، ولكنه يَرِدُ على كل حال .

وهذا موضوع جدير ببحث خاص ، ويستْطيع أن يقول الذي يعرفه عن قُرْب الكثير النافع ... والحكومة مشكورة على تشجيعها ، ولكن للحكومة ظروفها

وسياستها ومشاغلها الأخرى الأهم لديها ثم إنّ الكثرة في دور النّشر والمطبوعات – في هذه الحالة – لا ترصد علمياً المستوى الثقافي الشعبي، وهنا نعود إلى ضرورة تكوين القارئ والاعتماد عليه، وأول خطوة في تكوينه أن يرد العزم الأكيد في مخطط الناشرين والمؤلفين والمشجّعين.

قضايا المطبوعات كثيرة، جديرة بالإثارة فضلاً عن الدراسة والبحث، وفي المملكة من وسائل الدراسة ما يمكن أن يصل إلى كثير من الحقائق، ويكفي ما في جامعاتها من عمادات لشؤون المكتبات، وما في أقسامها من أقسام للمكتبات... ومع العمادات والأقسام أساتذة متخصّصون درسوا (الكتاب) على أصوله، وحصلوا فيما درسوه الشهادات اللائقة من ماجستير ودكتوراه، من مصر أو من أمريكا أو أوربا أو من غيرها. في كتاب أصدرته جامعة الملك سعود، عمادة شؤون المكتبات بعنوان: «مستخلصات رسائل السعوديين لدرجة الدكتوراه» الرياض، العمادة، ١٤٠٣/١٩٨٣ يشتمل على (٣٩٣)، منها (٣٩) باللغة العربية، والبقية باللغة الانكليزية – تنظر عالم الكتب مج ٥، ع ١، ص ٢٥٧. تضاف إليها التجارب الخاصّة بمطبوع بعينه في نشأته وتطوره، وما هو خيّر وما لا يراد له من نشر ... فعليهم تقع المسؤولية في البحث وإليهم نُشير وبهم نكتفي... ونختصر، وإلّا فالكلام كثير والمسألة تطول ... – والأقربون أولى بالمعروف.

لقد سارت المطبعة قدماً، وزادت دور النشر تكاثراً ونشراً ... كما سارت مكتبات البيع قدماً وتكاثراً واهتماماً بالكتاب السعودي. فخفت الشكوى أو زالت. ولم يعد المجال واسعاً إزاء مقالة الدكتور محمد عبد الرحمن الشامخ (كاتب الحي) بل إن الذي حصل تحقيق لمطلبه حين قال: (... ولكني أعتقد أنه لن ينقذ كتابنا المحلي من وضعه ...) إلّا أن تُنشأ مؤسسة كبرى تتولى توزيع المؤلفات المحلية وتنفق على نشر ما ترى نشره منها. ولاشك في أن هذه المؤسسة ستكون قادرة على أن تضمن للكتاب المحلي مكاناً ملائماً في معظم مكتباتنا التجارية، وأن تُقنع روّاد هذه المكتبات بأن علماءنا ومفكرينا لم ينتجوا بضعة كتب فحسب، ولكنهم

قد ألّفوا في علوم الدين واللغة والأدب والتاريخ وشؤون الفكر الأخرى ما قد تمتليء به رفوف المكتبات في بلادنا ؛ ولاسيّما إذا ما ساعدَتْ هذه المؤسسة في نشر ما خُطّ ، وإعادة طبع ما نفد وتشجيع ما سُوِّد) .

لقد تحقق هذا وما هو أكثر منه ؛ فلقد تأسَّسَتْ أكثر من مؤسسة واحدة ؛ وفي المؤسسات ما فتحتْ مكتبات تجارية لنفسها ، ومنها ما طبع كتباً في العلوم الصرف ، وشرع يطبع لمؤلفين من خارج البلاد ... ويُحاول – ولابُدّ من أن يصل – إخراج الكتاب المحلي عن محليته موضوعاً وسوقاً .

عَتْبٌ ورجاء .. !! :

وبعد : فقد قال مؤلف «المعجم» أكثر من مرّة : إنه وفّر ٩٠٪ لحدِّيْ كتابه بين ١٣٤٤/١٩٢٥ – ١٣٩٠/١٩٧٠ ولابُدّ من أن يحسب الـ ١٠٪ الباقية حسابها ، ورجا القراء من كل نوع التّفضّل بالتعاون على تسديدها ببيان النقص وتعيين المصدر إلى الكمال وإلّا فَهُمْ طرف – وليسمحوا له – في تحمل المسؤولية قال ذالك وقد عاش قريباً من جملة المادة في السعودية نفسها وهنا يَرِدُ مكان الإشارة إلى ظاهرة قد تكون سعودية وقد تكون عامة . خلاصتها أنك نشرت مادة المعجم في مجلة « العرب » على حلقات لأسباب في رأسها طمعك بالتنبيه على الخطإ ، والإسهام في رَدْمِ الهُوّةِ ، والتطوع في متانة الأساس . وأنّكَ أعلنْتَ ذالك منذ البداية و (ظلَلْتَ) في كل حلقة تطالب ملاحظات القراء و (تستجديها) ؛ وكان الحاصل قليلاً ... جداً . هذا وَجْهٌ من الظّاهرة ؛ أما الوجه الثاني فإن الحاصل القليلَ الذي يَرِد إليك يقترن عادة بحالة خاصة هي أن القاريْ لا يُنبّهك إلّا إلى خطإٍ يتّصل بشخصه مباشرة مع علمه بخطإ أكبر . وقُدْرته على نفع أعمّ . ويحضرني هنا مثل الأستاذ محمد حسن كتبي ، وهو أديب حجازي (ولد في مكة المكرمة سنة ١٣٢٩) وله في « وحي الصحراء » صورة ونماذج نثرية واسعة تختم الكتاب – بعد أن فات ذكره في « أدب الحجاز » . والأستاذ الكتبي عارف خبير

بالكتاب السعودي والحجازي خصوصاً ، وكان يقفُ على « العرب » وعلى حلقات « المعجم » في العرب ويَقِفُ خلال ذالك على نَقْصٍ يستدعي السدَّ ، وخَطَإٍ يتطلب التَّصويب . وانتظرتُ ولَمْ أفُزْ. وجاء تَسلْسُل اسمه الكريم من المعجم ووقع خطأ — لا أدري كيف — فجاء لدى التَّعريف به (أنه عمل مُدَرِّساً بالمدرسة الصولتية بمكة) فانبَرَى — حينئذ — مشكوراً ونبَّه إلى أنه عمل في مدرسة الفلاح وليس في الصولتية. ففرح المؤلِّف وخَفَّ يُصَحِّح ويستدرك . ويقول في نَفْسه : لابُدَّ من أن يكون في حلقات المعجم أغْلاط أُخْرَى ، وإنَّها لكائنة ولكن المشكلة في الذين يتفضَّلُون بالتَّنبيه .

هذا ما قاله في نفسه آنَذَاك ، وقد مَرَّ على الحادث سنتان أو أكثر ، عاد بعدها يُحَوِّلُ الحلقات كتاباً وإذَا به هو نفسه يرى من الفوات الكثير ، والخطأ الكثير ، ويصحح هو نفسه ما يُثِيرُ عجبه ، وكان جميلاً لو تَنَبَّهَهُ إليه العنيُّون أنفسهم ، العارفون ، العالمون... ترى ما ضرَّ لو نبهه مُنَبِّه مثلاً على فوات اسم : عبد الهادي محسن الفضلي ؟ أكان عليه أن ينتظر طويلاً ، فيصدر « دليل الكاتب السعودي » (١٩٨٤/١٤٠٤) ليقرأ أنه من مواليد الأحساء ١٣٥٤ وحاصل على الدكتوراه ، ويعمل أستاذاً مشاركاً اللغة العربية بكلية الآداب / جامعة الملك عبد العزيز بجدة . وهو عضو إداري في النادي الأدبي الثقافي في جدة . ويذكر مؤلفاته ، ويهمنا منها — تأريخياً — « مبدأ الاشتقاق في اللغة العربية ١٣٩٠هـ » وله مؤلفات أخرى متأخرة عن هذا التاريخ : « مختصر النحو » « مختصر الصرف » « القراءات القرآنية » « اللامات » « في علم العروض » . ويذكر أنه حصل على الماجستير برسالته « أسماء الأفعال والأصوات » ١٣٩٠هـ وعلى الدكتوراه بـ « قراءة ابن كثير وأثرها في الدراسات النحوية » ١٣٩٥ ، وأن « مختصر النحو » طبع سبع مرات . ويحتمل أن تقع الأولى ضمنَ حدود المعجم أو على حدوده . ويذكر ساعاتي « مختصر النحو » . جدة . دار الشروق ١٩٧٦ — ٢٦١ ص .

الأستاذ الفضلي — هنا — مثلٌ واحدٌ على الفوات ، يدل على ما سواه . وتقع

مسؤولية الإخلال على مؤلف المعجم والفضلي نفسه ، وقرّاء مجلة « العرب » كذالك . واليوم ، وقد أصلح ما أصلح واستدرك ما استدرك وزاد ما زاد ، مازال هو هو كما بدأ أول مرة يرجو ويُلِحّ في الرجاء بالتنبيه على النقص ، والإشارة إلى المصدر الذي يسدُّ الخلل — ولا ييْأس . ولاَ يَفُوتُه أن يكرر الشكر لمن تفضل فدّل على غائب ورفع من بناء .

هذا ما قاله مؤلف مفرد (غريب) وما عاناه ... ولكن الذي يقوله أبناء البلاد من الباحثين في الموضوع وما يعانونه ليس بالقليل فطالما شكا الأستاذ يحيى ساعاتي من قعود المؤلف السعودي عن عونه في أعماله الخيِّرة .

المؤلف الغريب فَرْدٌ ، والمواطن السعودي فرد كذالك فما ظنُّك بمؤسسة نشطة قوية متنفذة كالجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون وقد عزمت جادة على صنع « دليل الكاتب السعودي » فما جاء عملها كما تريد ، وسجّلت شكواها في مطلع كتابها « دليل الكاتب السعودي » — الرياض ، مطابع الفرزدق التجارية ١٤٠٤/١٩٨٤ — ٣٠٤ ص — فقالت : (... كانت الجمعية قد بعثت أكثر من ألف رسالة مع استمارة البيانات الخاصة بهذا الدليل ، إلى كتابنا وكاتباتنا للمشاركة في هذا العمل ، كما أعلنت عنه في الصحف المحلية ، ثم أرسلت استعجالات للذين لم تصل ردودهم . وكاد هذا المشروع — على أهميته — يتأخر تنفيذه طويلاً لعدم وصول كل الردود ...) .

وحسناً فعلت إذْ أصدرت الذي تهيأ لها ليكون أساساً تكمله وتصلحه في طبعات قابلة كما وعدت : (ومن هنا فكرنا في أن يصدر الدليل في طبعات متتابعة، وما هذه الطبعة سوى بداية ، وستعقبها أخرى مزيدة) راجياً أن تكون الطبعات القابلة أكثر تفصيلاً في حياة الكاتب وأكثر — أيضاً — في الكتاب نفسه في نوعه وتاريخ طبعه ، وموضوعه ، وعدد صفحاته ...

الوصية باستمرار تأليف هذا المعجم :

ويأتي — حينئذ — وقت الوصية — وهي جزء من هذه الدعوة ومُتَمِّمٌ لها

ولعمله . فهذا آخر عهد المؤلف بالمطبوع العربي السعودي ، وقد بَذَلَ ما وسعه من جهد ، واستنفد ما أمكنه من وسائل ، وهو إذ يودع الدنيا (دنيا المعجم – والموت حَقٌ) يوصي بألا يَقِفَ المعجم من الحد الزمني حيث وقف (١٣٩٠/١٩٧٠) فهو أقرب إلى أن يكون حلقة أولى تتبعه حلقة ثانية في الظروف القائمة(وثالثة ... ورابعة ... على مرّ الزمن وتوالي الأجيال ...) .

تبدأُ الحلقة الثانية من ١٣٩١/١٩٧١ ... ويمكن أن تقف عند ١٤٠٥/١٩٨٥ فقد جدَّ خلال هذه السنوات الـ ١٥ ما يُكوِّنُ مادة كافية ، ويمكن أن تمتدَّ قليلاً قليلاً بحيث تستغرق (٢٠) عاماً ، أو (٢٥) عاماً حسب طاقة الأخ – أو الابن – الذي يتولى تنْفيذ الوصية – وخَيْرُ البِرِّ عاجِلُه .

وأعلم – وأنا أُقِرُّ وأعترفُ في حال من الصحة والعافية – أن شيئاً من هذا قد عُمِلَ وأقصد ما ألّفه الأستاذ يحيى محمود ساعاتي في كتابه « حركة التأليف والنشر في المملكة العربية السعودية ١٣٩٠ – ١٣٩٩ » ، وأعلم كذالك أن الأستاذ (الدكتور) ساعاتي يُعيدُ النَّظَرَ في كتابهِ فيستدرك ويُصَحِّحُ ويزيد ... وأعْلَم إلى ذالك تَخَصُّصَ الرجل في الكتاب وهوايته فيه وأُقَدِّرُ خلالَ ذالك ما يمتلك من (بطاقات) بما يصدر ...

أعْلَمُ هذا ، ولكني في وصيَّتِي أُرِيدُ منْهجه في « حركة التأليف والنشر » إذْ يذكر اسم المؤلف واسم الكتاب ، ومكان الطبع ، وتاريخه ، وعدد الصفحات ... وهو ما سمّيته العمل البيبليوكرافي (المكتبي) الصرف ... وأُرِيدُ ما هو أزْيَد ، فما هو في منهج « المعجم » العتيد ، فأُلْزِمُ مُنَفِّذَ الوصيَّةِ بِما ألْزَمْتُ به نَفْسِي مما ليس يَلْزَمُها ، فَبَعْدَ السَّيْر على حروف الهجاء لأسماء المؤلفين (أو المحققين أو المترجمين ...) يرد التّعريفُ بالكتاب في موضوعاته ومنْهجه وسطور من المقدمة والخاتمة ... وبيان صلته بما سَبَقَ إنْ وُجِدَ ، وما لَحِقَ للمؤلف نفسه

أو لغيره ؛ ويَرِدُ بعضُ ما قيل فيه إيجاباً أو سلباً ؛ وما يمكن أن يتَهَيّأ قوله لصانع المعجم في حدود علمه ورأيه من غير مبالغة أو مجازفة ؛ وربط ما في الحلقة الثانية بما في الحلقة الأولى لدى وجود الرابط ... وأشياء أخرى تكررت الإشارة إليها أو يستنبطُها استنباطاً ويبتكرها ابتكاراً إذا كانت له تجربة في البحث والتأليف، أو يضع نفسه موضع الباحث إذا لم يكن ... وأن يَنْشُرَهُ حلقات في مجلة تَعرف قدر الكتاب، ويطلب التنبيه على الخطإ، ويُرَحب بما يرد إليه ومن ثَمّ يُقَدّم كتابه إلى الطبع ... مستعداً لتلقي الملاحظات، سائراً قُدُماً إلى الحلقة التالية ...

وإنّي أُقِرُّ وأعْتَرِفُ في حالة من الصحة والعافية أنّ هذا عملٌ صعب : وأن تَجَاوب المؤلفين فيه قليل، ولكنّي أقِرُّ وأعْتَرِفُ أنّ الحلقة الثانية ستكون أنقى وأقل صعوبة من الحلقة الأولى التي تعَامَلَتْ مع مادة فيها ضائع كثير وفَقِيدٌ كثير وضمن تجربة جديدة أصابها ما يصيب أية تجربة جديدة من تَعثُّر أو تَدَاخُل أو اضطراب تبقى آثارها مهما يحاول صاحبها التخفيف منْها . ثم إنه عمل مفيد جداً، ولابُدّ من أن يكون، ولَئِنْ يُصْنَع والمادة متوفرة والشباب مساعد خير من أن يبحث عنه في الزّوايا والظلمات بعد فوات الأوان .

والمسألة مسألةُ موسوعةٍ مكتبيّة، تخدم الباحث خدمةً جليلةً، إلى جوار كونها معجماً مكتبياً .

وبإمكان النوادي الأدبية والجمعية العربية السعودية أن تُقَدّمَ خدمات خاصة في هذا الباب للعدد الكبير الذي تضمه من الأدباء والمؤلفين، وما يحسن أن تَحتفظ به هي — وأية جمعية أو مؤسسة أخرى — من (استمارات) خاصة بكل عضو من أعضائها، فاسِحَةً لمؤلفاته مكاناً خاصاً واسعاً ... وإذا كانت الجمعية قد أصدرت « دليل الكاتب السعودي » فقد أدركت أهمية أن يكون للكاتب السعودي دليل.

وبعد : فإن هذا الذي رآه القاريء في المقدمات والتمهيد وفي صلب المعجم وخاتمته خاصًّا بقطر عربي بعينه (هو المملكة العربية السعودية) ليس خاصًّا به بكل معنى الكلمة ، وإن الخبرة التي انبثقتْ منه أو فيه هي سعودية وليست بنتَ السعودية وحدها ، فالكتاب السعودي ـ هنا ـ هو المدار ووسيلة الإيضاح ، ومركز الاهتمام والتجربة . وطماح المؤلف أبْعَدُ ، ودعوته أوسع . والمؤلف إذْ يَخُصُّ الكتاب العربي ـ السعودي بما يَبْذُو جهداً خاصّاً فإنه لا يدّعي لنفسه فضلاً ، وإنّما الفضل للكتاب نفسه حيث وفّر له الفرصةَ التي يُعْرِبُ فيها عن نفسه ، والمَجْلَى الذي يستغل فيه هوايته ويتصرف بما تهيّأ له من خبرة ... إنه يُحِبُّ الكتاب وهذا كل ما في الأمر ، وهو الشاكر الفضل ـ وكان (أدكار ألن يو) يقولُ الشِّعْرَ شَغَفاً .

علي جـــواد الطاهر

بغداد ـ الجادرية	يوم الاثنين ٣/١٠/١٤٠٤هـ	يوم الخميس ٨/٣/١٠٤٥هـ
٩٢٣/ ق ١٥ /٢٥	٢/٧/١٩٨٤م	١/١٢/١٩٨٤م

لهم عذر .. ولكن .. !

عتب أستاذنا الكريم (ص ٣٦٦ وما بعدها) على القراء في بلادنا . وانصب عتبه على ما اعتبره ظاهرة قد تكون خاصة بهم ، من سماتها عدم التجاوب مع الكاتب من خلال ما نشر في هذه المجلة طيلة خمسة عشر عاماً وفي نحو سبعة و خمسين نصلاً ، عن « معجم المطبوعات العربية في المملكة » حيث دعا ورجا وألحّ أن ينَبَّهَ على الخطإ أو القصور ، وألمح إلى جوانب من ذالك مما لم يلق من اولئك القراء اهتماماً بها .

من حق أستاذنا الجليل أن يعتب ، ولكل مَعْنيٍّ بدراسة تلك الظاهرة أن يأسى ويأسف لتغلغلها في النفوس ، وقد قيل : (العرب لا يقرأون) وهذا أكثر انطباقاً على مثقفي هذه البلاد في موقفهم حيال هذا المعجم المنبثق من ثقافتهم ، المتصل بحياتهم الأدبية ، فكانوا أولى بالاهتمام به من غيرهم ، ومن يدري ؟ فقد يبدو من بينهم بعد بروزه من يتخذ منه موقفاً آخر .

أفترى لهاؤلاء من عذر ؟ أجل ... ولكنه عذر ... وكفى !

تاريخ المدينة المنورة

لعمر بن شبة النميري (١٧٣ / ٢٦٢هـ)

[انظر « العرب » س ١٩ ص ٥٨٩ وما بعدها]

— ١ —

وأمْضَيْتُهُ أسبوعاً كنت فيه في القاهرة (من اليوم الثالث من جمادى الآخرة ١٤٠٥ إلى العاشر) أثناء انعقاد (المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية) أُقابل الجزء الثالث من كتاب ابن شبَّة في أخبار المدينة على صورة مخطوطته ، حَيْثُ بدأت من الصفحة الخامسة عشرة بعد المئة وانتهت إلى الصفحة الخامسة والسبعين بعد المئة .

ولا داعي لتكرار القول بأن صُعُوبَةَ قراءة المخطوطة كانتْ سبباً في استغلاق معرفة كثير من الكلمات ، مما اضطر المحقق الفاضل إلى الاستعانة بكتب أخرى لمحاولة معرفتها . ويا ليتَهُ وقف عند هذا الحدّ من حيث الاستعانة بتلك الكتب ، بل إنّه اتخذ منها مادةً يرجع إليها لإكمال ما يراه من نقص في مباحث الكتاب ، وهو نَقْصٌ في المخطوطة ، كان عليه أن يُشِير إلى مواضعه بدون أن يَتَصرَّفَ في أصل الكتاب فيلحق به ما ليس منه ، بحيث لا يُستطاع القول بأنّ النَّصَّ الوارد في مطبوعة كتاب ابن شبة هو من كلام ابن شبة نفسه ، ومن هنا تنعدم الثقة بصحة النِّسْبَة إلى هذا العالم الذي يُعَدُّ من أئمة علماء التاريخ والأدب القدماء عند الرجوع إلى هذه المطبوعة من كتابه الذي يعتبر من مصادر التاريخ الإسلامي الأولى ومن أمثلة ذالك :

١ — تسع صفحات بعنوان (موافقاته رضي الله عنه) أدخلها المحقق في ترجمة عمر بن الخطاب ، وليستْ من الكتاب — من ص ٨٥٩ إلى ص ٨٦٨ .

ولم يوضح أنها من إضافاته التي نقلها عن كتب منها ما أُلِّفَ بعد ابن شبة بقرون .

٢ ــ سبع صفحات ــ بل تزيد ــ تتعلق بوفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ــ نقلها المحقق من تاريخ ابن جرير ، وذكر أنها برواية ابن شبَّة ، فأدخلها في صلب الكتاب ، وكان ينبغي أن توضع في الحاشية (ص ٩٢٤/٩٣٢) .

٣ ــ صفحة أكمل بها بياضاً في الأصل ، نقل ما فيها عن « مسند الإمام أحمد » تتعلق بوفاة عمر رضي الله عنه (ص ٩٣٦/٩٣٧) .

٤ ــ ست صفحات تحوي نصوصاً تتعلق بوفاة عمر ، نقلها المحقق من كتب مختلفة (ص ٩٤٣/٩٤٩) .

٥ ــ خمس صفحات عن عثمان بن عفان ــ رضي الله عنه ــ أضافها المؤلف ليَبْدَأَ بها أخبارَ عثمان التي وردت في الأصل مبتورة (٩٥١/٩٥٦) .

٦ ــ نقص في الأصل بمقدار صفحة ونصف ــ كتب في الهامش(ورقة واحدة) وقد أكمل المحقق النقص من كتاب « شرح نهج البلاغة » وأشار إلى ذالك(ص ١٠٤٦/ ١٠٤٧) وتبدأ الزيادة من جملة : (فإني جئتك أستعذرك) إلى جملة : (حتى مات رحمه الله) .

٧ ــ أما الزيادات التي لا تبلغ الصفحات مما أضافه المحقق إلى أصل الكتاب ووضعه بين أقواس فهي من الكثرة بحيثُ لا يتَّسعُ المقام لإيرادها .

* * *

ولقد كان من أثر مقابلة هذا الجزء من كتاب ابن شبَّة أن مرَّرْتُ بكلماتٍ وجُمَلٍ ظهر لي أنَّها لا تتفق مع ما أورده المحقق الفاضلُ في مطبوعته ، مع أنه قد اكتسب من طول معاناة مطالعة المخطوطة ما يَسَّرَ له سهولة قراءتها ، وإدراك مميزات الرسم في كتابتها . ولكن هذا لا يمنع من القول بأن عدم وضوح

تلك الكتابة حال دون صِحَّتِها في مواضع يسيرة . أو هكذا اتَّضَحَ لي ، مما سأعرضه للقارئ الكريم ، إكمالاً لما بدأتُ به من الحديث عن هذا الكتاب ، وقد استغلقتْ عليّ قراءة كثير من الكلمات ، فلم أُشِرْ إلا إلى ما اتضح لي وجه الصواب فيه — غالباً — .

١ — ص : ٧٨٧ : — في خبر الحُطَيْئَة : (فجُعِل في نقير بئرٍ ، ثم أُلْقِي عليه حفصه) . وفسر المحقق الحفص . ولكن الذي في الأصل (خَصَفَة) الصاد قبل الفاء . والحروف مهملة ، والخصفةُ هنا أنْسَبُ ، وهي الحصير .

٢ — ص : ٧٨٨ — في شعر ابن الحمامة — : (لقد دار هذا الأمر) . كلمة (دار) في الأصل (رات) وقد تقرأ (راث) بمعنَى أبطأ .

وفي الصفحة : (ويدعى رياح) . وفي الأصل : (وتدعى رياح) على اسم القبيلة .

وفي الصفحة : (إن الرمضاء قد أحرقت قدمي . قال : بُلْ في موضعهما تبردان) كلمة (تبردان) في الأصل : (يبرد لك) . أي الموضع .

وفي الصفحة : (فألْفَيْتَ الأمارة لم يَخُنْها) . وفي الأصل : (فألْفَيْتُ الأمَانَة لم يَخُنْها) . وهو الصواب ، والبيت مشهور ، من شعر النابغة الذُّبياني.

٣ — ص : ٧٩٠ : (قيس بن غيلان) . وفي الأصل : (قيس بن عيلان) — بالعين المهملة — وهو الصواب — انظر « تاج العروس » رسم (عيل) .

٤ — وفي ص : ٧٩١ : (أن إبراهيم شكا إلى ربه ذرًّا في خُلُقِ سارة) وفسر المحقق (ذرًّا) قائلاً : أي شيئاً قليلا . ولكن الكلمة في الأصل ليست واضحة ، وهي إلى (ذَرَباً) أقرب . والذرب حِدَّةُ اللسان وسلاطته ، والذَّرِبَةُ من النساء السَّلِيطة اللسان — على ما في كتب اللغة .

٥ ــ ص : ٧٩٣ : (ولا تدرعوا نساءكم القُبَاطي فإنه إن لم يشفَّ فإنه يصف) وفي الأصل : (... القِبْطِي ، فإنه إلاَّ يشف فإنه يصف) .

وفي الصفحة : (فلقي علقمة بن عُلاثة عمر رضي الله عنه خالداً) والصواب ــ كما في الأصل : (فلقي علقمةُ بنُ عُلاثة عُمَرَ ــ رضي الله عنه ــ ليلاً بعد ما نزع خالِداً) .

٦ ــ ص : ٧٩٤ : (يعني ما كان في قاب علقمة) . وفي الأصل : (عنَى ما كان في قلب علقمة) .

٧ ــ ص : ٧٩٥ : (قال : وادّا : ما دما ؟) كلمة (وادا) في الأصل ليست مشكلة ، وقد تقرأ (وإذاً) .

وفيها (مال هنة) . وفي الأصل (مَاهِنَةٌ) ، وهي الخادمة ، لا كما فسرها المحقق في الحاشية .

وفي الصفحة : (وأمرنا ، أو قال : وحسابنا على الله) . في الأصل : (وأجرنا) بدل (وأمرنا) بدون نقط .

وفي الصفحة : (ما كان حديث علقمة إياك وقت البارحة) كلمة (وقت) هي أشبه بكلمة (منذ) .

وفي الصفحة : (قال يعزره) ليست كما في الأصل التي هي أقرب إلى (يَعْدُو) أي يتجاوز حده .

٨ ــ ص : ٧٩٦ : (اللقلقة : الجلبة) والذي في الأصل : (اللقلقة : الرَّنَّةُ) . والرَّنَّةُ صَوْتُ الحزين وهي المرادة هنا . كما يفهم من أول الحديث .

وفي الصفحة : (عبدالله بن نافع بن ثابت الزبيدي) . وما في الأصل يقرأ ــ

(الزبيري) – بالراء لا بالدال – وهو الصواب ، فثابت هو ابن عبدالله بن الزبير « تهذيب التهذيب » : ٦/٥٠ –

وفيها : (طلحة بن عبدالله) والصواب كما في الأصل : (طلحة بن عبيدالله) الصحابي الجليل .

وفيها : (فعل الجليل أضاع الحق من كثب) .

وكلمة (الجليل) بدون إعجام في الأصل ، ولهذا تقرأ (الخليل) بالخاء وهي أنسب .

٩ – ص : ٧٩٧ : (أوفوا الطحين ، واملكوا العجين) . كلمة (أوفوا) صوابها – كما في الأصل – : (أدِقُّوا) أي اجعلوه دَقِيقاً .

وفي الصفحة : (إذن أمسكك ، لما قيل فيك ، وما في قومك) ونص ما في الأصل : (إذن أمْسِكك لما فيك ، فيك ما في قومك) .

١٠ – ص : ٧٩٨ : (كذب النسَّابُون ، ما يرجون قول الله تعالى : ﴿ وَقُرُوناً بين ذَالِك كثيراً ﴾ . في الأصل بدل (ما يرجون) : (فأين) وبها يستقيم الكلام .

وفي الصفحة كما في ص ١٠٠٦ : (حدثنا الخزامي) والكلمة غير معجمة الحروف في الأصل . ولكن الاسم ورد (الحزامي) على الصحيح في الصفحات : ١١١١/١١١٤/١١١٥ وغيرها وهو ابراهيم بن المنذر الحزامي ١١١٦ – نسبة إلى حزام بن خويلد الأسدي القرشي – انظر ترجمته في « تهذيب التهذيب » : ١/١٦٦

١١ – ص : ٧٩٩ : (أي بني حلفت تغشانا ، حلفت تاتينا) كلمة (حلفت) في الأصل (جعلت) .

وفي الصفحة : (أثبت في رؤوسنا ما هدى الله وأنتم) ما في الأصل يقرأ : (إنما أنْبَتَ في رؤوسنا ما ترى الله وأنتم) كذا .

١٢ ـ ص : ٨٠٠ ـ : (تبكي بشجوكم) وفي الأصل : (تبكي لشجوكم)

ـ وفي الصفحة من قول عمر لأبي هريرة : (أو لأُلحقَنَّك بأرض الطفيح) . كلمة (الطفيح) هي إلى (الطبيح) أقرب وهذا الخبر أورده أبو زرعة في تاريخه ـ : ١/٥٤٤ عن السائب بن يزيد بلفظ : سمعت عمر بن الخطاب يقول لأبي هريرة : لَتَتْرُكَنَّ الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لأُلْحِقَنَّكَ بأرض دَوْسٍ ، وقال لكعب : لَتَتْرُكَنَّ الأحاديثَ أوْ لأُلْحِقَنَّكَ بأرْضِ القردة . وأورده الذهبيُّ في « سير أعلام النُّبَلاَءِ » ٢/٦٠٠ وابن كثير في « البداية والنهاية » : ٨/١٠٦ ـ بهذا اللَّفظ ولعل كلمة (الطبيح) أو نحوها مما استغلق فهمه على أحد رواة الحديث فلجأ إلى المعنى .

وفي الصفحة : ـ في خبر كعب الأحبار ـ : (أو لألحقنَّك بأرض القرية) كلمة (القرية) غير واضحة ، ولكن القاف تحتها كسرة ، ويظهر أن الدال اختْلطت بالهاء ، وأن الصواب (القِرَدَة) كما ورد في الكلام على أول الخبر .

١٣ ـ ص : ٨٠١ : (أصبح أهْلُ الرأيِ أعْدَاءَ السُّنَنِ ، أعْيَتْهُمْ أنْ يَعُوْهَا ، وتفلَّتَتْ أن يردوها ، فاسْتقوها بالرأي) . كلمة (يردوها) في الأصل (يرووها) وهي أظهر معنى .

١٤ ـ ص : ٨٠٢ : (انزعوا تفاريقه ، يعني أقماعه) . وكلمة (تفاريقه) مهملة من الإعجام ، وصوابها (ثفاريقه) بالثاء المثلثة ، واحِدُهَا ثُفْرُوقٌ ، وهو قِمْعُ التمرة وما لصق به .

ـ وفي الصفحة : (ثم إني لأترك اللحم وهو عندي) . والذي في الأصل : (ثم إني لا أترك اللحم وهو عندي) .

١٥ ـ ص : ٨٠٣ : (لا أفعل شيئاً مما يقولون) . وفي الأصل : (مما تقولون) وهي المناسبة لسياق الكلام .

١٦ — ص : ٨٠٥ : (يدفع الشيْءَ ليشتهيه سنة) وفي الأصل (يشتهيه) بلا لامٍ ، وهي المطابقة لسياق الكلام ، فهو يتركه مع رغبته فيه ، لا لكي يأتي الوقت الذي يشتهيه فيه ، والمقام مقام الإخبار عن زهد عمر

وفي الصفحة : (هان علي شيٌ أصلح به قوما) . وكلمة (عليَّ) أضافها المحقق والكلام مُسْتَقِيمٌ بدونها .

١٧ — وفي ص : ٨٠٦ : (عن عبدالله بن أبي سليمان عن عطاء) . وفي الأصل : (عن عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء) . وهو الصواب ، إذ عبد الملك ابن أبي سليمان العرزمي من الرواة عن عطاء بن أبي رباح — انظر « تهذيب التهذيب » : ٣٩٦/٦ .

وفي الصفحة : (أو يردوا عليكم فيئكم) . وهي : (وَيَرُدُّوا عليكم فيئكم) .

١٨ — ص : ٨٠٧ : (إن عاملك فلانا ضربني مئة سوط) . وفي الأصل : (عاملك فلان قام فقال : يضرب مئة) .

— وفي الصفحة : (ولا تُجَمِّرُوهم في البعوث) وفي الأصل : (ولا تُحَيِّرُوهم في البعوث) . ومعنى الكلمتين واحد .

١٩ — ص : ٨٠٨/٨٠٩ : (وكان ذا صوت ونكاية) . وغيَّر المحقق كلمة (صوت) بكلمة (سوط) وأشار إلى هذا في الحاشية . وكلمة الصوت في هذا الموضع صحيحة ، ففي كتب اللغة ورد الصوت بمعنى الصِّيت يقال : صوت وصيت أي ذِكْرٌ حسن .

٢٠ — وفي ص : ٨٠٩ : (من جميع ما أفاء الله علينا) . والذي في الأصل : (من جميع ما أفيء علينا) .

٢١ — وفي ص : ٨١٠ : (غاضبا بغير إذني) . وهي — كما في الأصل — : (عاصياً بغير إذْني) .

وفي الصفحة : (وأعادها عمر ثم قال) . وفي الأصل : (وأعادها ثلاثاً، ثم قال) .

وفي الصفحة : (وإن العدو لكبير) والكلمة الأخيرة غير معجمة الحروف ولهذا تقرأ (لكثير) . وهي في هذا الموضع أنسب .

٢٢ — وفي ص : ٨١١ : (فمشيتُ إلى جنبه أغبطه) . وكلمة (أغيظُهُ) هي المناسبة هنا . والكلمة غير معجمة الحروف .

وفي الصفحة : (قبح الله تلك القصعة ، ما أُحِلَّ لنا ما قد أصَبْنا منها) . وفي الأصل : (قبح الله تلك القصعة ، فإنا قد أحل لنا قد أصبنا منها) كذا .

٢٣ — وفي ص : ٨١٣ : (فاحتبس عليه بالهزل) و (فاحتبس بالهزيل) . وفسر المحقق الكلمة بقوله : (لعل المراد بالسمير المؤنس المفاكه) الخ . وصواب الكلمة في الموضعين (بالمنديل) لكي يمسح أثر الطعام ، فلما تأخر إحضار المنديل مسح بلحية الرجل عبد المسيح ، فشكاه إلى عمر ، ولهذا قال له : (ثم مسحت بلحيته) الخ .

٢٤ — وفي ص : ٨١٥ : (ثم غدونا إلى المسجد) وهي : (وغدونا إلى المسجد) .

وفي الصفحة : (فخرج إلينا سعد وهو يذم أهل الحيرة والمخالفة) . وكلمة (الحيرة) في الأصل (النجير) . والنُّجَيْرُ هو الموضع الذي تجمع فيه أهل الردة في حَضْرَمَوْتَ ، والقوم الذين شكَوْا سعدَ بن أبي وقّاصٍ ، الوارد ذكرهم في هذا الخبر هم من أهل حضرموت ، بزعامة الأشعث بن قيس الكندي الحضرمي ، وكان ممن ارتدَّ فأسِرَ ثم أسلم .

٢٥ — وفي ص : ٨١٨ : (إنه مَرَّ إليك عياض) . والذي في الأصل : (اندسَّ إليك عياض) .

٢٦ — وفي ص : ٨٢٠ : (هم كقِداح الحصير . فيها الأعضل ... وسعد

أمامها ، يقيم ميلها ويعمر عضاها) . كلمة (الأعضل) في الأصل : (الاعصل) و (أمامها) : (يتابعها) و (عضاها) : (عصلها) . والأعْصَلُ – لغةً – السَّهْمُ الْمُعْوَجّ .

– وفي الصفحة : (وقد قال قائل . قال) . وفي الأصل : (وقد قال قائل قالةً) .

٢٧ – وفي ص : ٨٢٢ : (يضرب بيديه فلا ينشب – أي ينقب –) والذي في الأصل : (يضرب بيديه فلا تنشب أن تنقب) . والضمير راجع إلى اليدَيْنِ فهي التي تصاب بالنَّقَبِ أي يَرِقُّ خُفَّاهما فَتَحْفَيانِ .

٢٨ – وفي ص : ٨٢٤ : (فلما هزه خلجه ... وقال : قبح الله من عملك هذا) . كلمتا (هزه) و (عملك) في الأصل : (أحضره) و (علَّمَك) .

٢٩ – وفي ص : ٨٢٥ : (تلوح صلعته في الشمس ، لا حقبة ولا خشبة). والكلمتان الأخيرتان ليستا واضحتين في الأصل ، إلا أن الأولى تقرأ (لاصقه) وما بعدها (ولاحسه) بدون نقط .

وفي الصفحة : (وطاؤه فروة كبش كرمى) . و (كرمى) في الأصل أقرب إلى (نجدي) بدون نقط وفيها : (وحقيبة نمرة) وفي الأصل : (وحقيبته نمرة).

وفي الصفحة : (فركب بغير سرج فأهزته) . وفي الأصل : (فركبه بغير سرج ، فَاهْتَزَّ به) .

– وفي الصفحة : (عن محمد بن سوقة عن ابن صالح) . وفي الأصل : (عن أبي صالح) وهو الصواب ، محمد بن سُوقة الغنوي الكوفي يروي عن أبي صالح السَّمان ، كما في « تهذيب التهذيب » : ٢٠٩/٩ –

وفيها : (على بعير أحمر ، بقتب) . والكلمة الأخيرة تقرأ (مقتبا) .

وفي الصفحة : (وفي يساره نمرة) . وفسَّرها المحقق بأنها شملة ، أو بردة . ولكن الكلمة في الأصل (عَنَزة) مهملة من الاعجام ، والعَنَزَةُ — بالتحريك — رُمْحٌ قصير .

٣٠ — وفي ص : ٨٢٧ : (وكان صاحب إمْرَة) والصواب : (وكان صاحب أمْرِهِ) .

٣١ — وفي ص : ٨٢٨ : (ثم وكد عمر رضي الله عنه) . كلمة (وكد) في الأصل (ذكر) وهي المناسبة هنا .

وفي الصفحة : (عليك ميرة الجيش) . وفي الأصل : (عليك نصرة الجيش).

وفيها : (والعسار علينا) . وتقرأ (والفساد علينا) .

وفيها : (من يهد الله) وهي : (من يَهْدِهِ الله) .

٣٢ — وفي ص : ٨٢٩ : (فلنحدثه عنها فنعيره ثيابا) . وكلمة (فلنحدثه) في الأصل تقرأ (فَلْنَخْدَعْهُ) ويفهم من القصة صِحَّةُ هذه الكلمة .

٣٣ — وفي ص : ٨٣٠ : (فربما أرخى فأخذ الحبلَ منه) . وفي الأصل (فربما أرخف ، فأخذ الحبل منه) . وكلمة (أرخف) من معانيها أرخى .

٣٤ — وفي ص : ٨٣٢ : (مَالَنُوا ألبسته قوما من الناس لسترهم) . كلمة (قوما) في الأصل (فياماً) ولم توضع الهمزة والكاتب يحذفها في كثير من الكلمات، مثل (الفى) في (الفيء) و (مايه) في (مئة) . والفئام الجماعة من الناس .

٣٥ — وفي ص : ٨٣٤ : (يفترش بطحاء يبوسة ووسادة برذعة). وصواب الجملة كما في المخطوطة : (يفترش بطحاء ، ويتوسد بردعة) .

وفي الصفحة : (قد أرهقه البَرْدُ) . والذي في الأصل : (قد أدلقه البرد).

وتقرأ (قد أذاقه البرد) بمعنى أقلقه . أما تفسير المحقق لكلمة (أرهقه) أي حمله ما لا يطيق فأراه لا ينسجم مع المعنى المراد من سياق الكلام .

٣٦ – وفي ص : ٨٣٨ : (لثكَّلْتُ بك). هي (لتَكَلْتُ بِك) كما في الأصل.

٣٧ – وفي ص : ٨٤٠ : (جاءني ببنية) . والصواب – كما في الأصل : (جاءني ببنيه) .

وفي الصفحة : (أفتاركهم تالله : لا أباللك) وفي الأصل : (أفتاركُهم أنالك ، لا أباللك) .

وفيها : (أنّ عمر رضي الله عنه حمى الرَّبَذةَ ، وأنّ عثمان رضي الله عنه حمى السَّرفَ) وفسَّر المحقق كلمة السرف بأنه المكان الذي أعرس فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بميمونة ، على ستة أميال من مكة . وهذا خطأ ، فصواب الكلمة (الشرف) – بالشين المعجمة – وهو موضع مشهور في عالية نَجْدٍ ، وكان من الأحماء المشهورة قبل الإسلام وبعده ، أما سَرِف – بدون تعريف – فلم يكن من الأحماء .

٣٨ – وفي ص : ٨٤١ : (فمكث أشهراً صحيحا) . والذي في الأصل : (فمكث شهرا صحيحا) .

٣٩ – وفي ص : ٨٤٢ : (إني وجدتَ مع عبدالله بن عمر رِيْحَ شراب) . الصواب – كما في الأصل – : (عُبَيدالله بن عمر) فَعُمَرُ له عدد من الأولاد أفضلهم عبدالله بن عمر .

٤٠ – ص : ٨٤٣ : (لتمسكن اسانك) في الأصل : (لتكمان اسانك) ولعل الكاتب أراد أن يكتب (لتملكنّ) كما في « طبقات ابن سعد » .

٤١ - ص : ٨٤٥ : (حاشا في إمارتنا أحداً غيره) . كلمة (حاشا) قريبة من (حابينا) ولكنها غير معجمة الحروف .

٤٢ ـ وفي ص : ٨٤٦ : (لا يُضْرب سكرانٌ حتى يصحو إلاّ إمامٌ فإنه إذا صَحَا امتنع) . كلمتا (يصحو) و (صحا) في الأصل : (يصح) و (صح) .

ـ وفي الصفحة : (ابن حنظلة الرزقي الأنصاري) . وفي الأصل (الزرقي) وهو الصواب ، لأنه من بني زُرَيق .

وفيها : (يا ابن أبيه) . والذي في الأصل : (يا ابن أميمة) .

وفيها : (الجارود العبدلي) والصواب ما في الأصل : (الجارود العبدي) .

٤٣ ـ ص : ٨٤٧ : (بني رباح بن يربوع بن حنظلة) و (خصيُّ بني رباح). وفي الأصل ـ في الموضعين (رباح) بالباء بنقطة واحدة ، ولكن كاتب الأصل لا يهتَمّ كثيراً بإثبات النقط . وهذا الاسم (رِياح) بالياء المثناة التحتية ـ كما في كتب النسب ، وكما ضبطه علماء اللغة ـ انظر « تاج العروس » رسم (روح) .

٤٤ ـ وفي ص : ٨٤٩ : (قدامة إنها) . وفي الأصل : (قدام فإنها) .

ـ وفيها : (استهام عبد الرحمن) وفي الأصل : (اسْتُهِيمَ عبد الرحمن) .

ـ وفيها : (فتسكن بُصْرَى) . والذي في الأصل : (تُدَمِّنُ بُصْرَى) . وهي كلمة فصيحة كقول عَبِيد بن الأبرص :

مَنْزِلٌ دَمَّنَـــــهُ آباؤنــــا المُو رثونَ المَجْدَ في أُولى الليالي

ـ وفيها : (أنْ تُوَفِيَا) وكانت في الأصْل : (أنْ تُلاقِيَا) فغيَّرها المحقق اعتماداً على كتابين أُلِّفَا بعد ابن شبَّة بقرون ، مع أنه ورد في أول البيت : (وأنَّى تلاقيها) فناسب ذكر (التلاقي) في آخره .

٤٥ ـ وفي ص : ٨٥٠ : (ثم نزل بها فهانتْ عليه) كلمة (نزل) في الأصل (مذل) ومعناها لغةً ضجر ، وهي هنا أقرب معنى ، لأنه سئم منها وكرهها .

ـ وفي الصفحة : (يعلى بن منبه) . والصواب : (يَعْلَى بن مُنْيَةَ) وهي أمُّهُ ، وأبوه أُمَيَّة ـ انظر ترجمته في « الاصابة » وغيره من كتب تراجم الصحابة ـ

٤٦ ـ وفي ص : ٨٥٢ : (قالت : نعم ، رفش : بدرهمين ، بالحبشية تقول : أجري بدرهمين) . كلمة (أجري) في الأصل : (أجر) .

٤٧ ـ وفي ص : ٨٥٣ : (فضربها أدنى الحد من مئة جلدة) . والصواب ـ كما في الأصل : (فضربها أَدْنَى الحدَّيْنِ : مئةَ جلدة) . إذ أعلاهُما الرَّجْمُ ـ كما هو معروف ـ .

٤٨ ـ وفي ص : ٨٥٤ : (البيعة ثم الخير) . في الأصل : (البيعة ثم الخبر) الباء بنقطة واحدة ـ والخبر هو المناسب هنا ، لأن عمر سأله : أجئتنا بظهر ؟ فأجابه : أبايعك ثم أخبرك .

٤٩ ـ وفي ص : ٨٥٥ : (أَكُلُّ المسلمين تَدَّهِنُ بهذا) . وكلمة (تدهن) في الأصل مهملة الحرف الأول ، ولهذا تقرأ (يَدَّهِنُ) لِتَلاَءَمَ كلمة (كلّ) .

ـ وفيها : (حدثني همام بن إسماعيل قال حدثني العلاء بن بشير) . وفي الأصل : (ضمَّام بن إسماعيل قال حدثني العلاء بن كثير) وهو الصواب ، ـ كما يتضح من ترجمة الأخير في « تهذيب التهذيب » : ١٩١/٨ ـ .

ـ وفي ص : ٨٥٦ : (أن رجلا نَعَى عمر بن الخطاب فاستوقفه) . كلمة (نعى) صوابها في الأصل : (لقي) ولا داعي لتفسير المحقق لكلمة (نعى) .

ـ وفي الصفحة : (وإني لا أَرْضَى له عَمَلاً) . والذي في الأصل : (وإني لأُوَرِّضُ له عملاً) . أيْ أُهَيِّئُ له عَمَلاً . وفي الحديث : لا صيام لمن لم يُورِّضْهُ من اللَّيْل ـ أي لم يُهَيِّئْهُ ولَمْ يَنْوِه .

٥٠ ـ ص : ٨٥٧ : (قال عبدالله بن جعفر بن برقان) . في الأصل : (قال عبدالله عن جعفر بن برقان) فالقائل ـ كما يظهر من أول الخبر ـ هو عبدالله ابن المبارك راوياً عن جعفر .

٥١ ـ ص : ٨٥٨ : (ميمَ ويْحكَ) وأشار المحقق إلى أنه أضاف كلمة

(ميمْ) ولكن الأصل لا يحتاج إلى إضافة ، فَنَصُّ ما فيه : (لِمَ وَيْحَكَ) .

٥٢ ــ ص : ٨٦٩ : (قال أبي عوف بن ماللك كَأَنَّ الناس اجتمعوا) . والصواب ما في الأصل : (قال : رآى عوف) الخ .

ــ وفي ص : ٨٧١ : (والمسلمون يضيعون به) . وهي : (والمسلمون مطيفون به) .

ــ وفيها : (رأيت فيما يرى النائم ... ستارا نزل من السماء بقدر الناس ، ففضلهم عمر بثلاث قصبات) . كلمة (ستارا) في الأصل بدون نقط ، وقد تُقرأ (سبّارا ... يُقَدِّرُ الناسَ) . ويورد علماء اللغة : «مفازة لا تُسْبَرُ أي لا يعرف قدر سعتها . وخير كثير لا يُسْبَر ، وأمر عظيم لا يُسْبَر . أفلا يكون السبّار من هذا ؟ !

وفيها : (فعدوت بها على عمر) . (وهي فغدوت بها) الخ .

٥٣ ــ وفي ص : ٨٧٤ وص : ٨٧٥ :

قَضَيْتَ أُموراً ثم غَادَرْتَ بعْــدَها فَوَائِحَ في أكمامِها لَمْ تُفَتَّــقِ

كلمة (فوائح) في الأصل (بوائح) بدون نقط وتقرأ (بَوَائج) جمع بائجة ، وهي الداهية ــ نصَّ على ذالك علماء اللغة كصاحب « اللسان » وصاحب « تاج العروس » وأورد الأخير البيت في رسم (بوج) .

وفيها : (نحل الناسُ هذه الأبيات شمّاخ بن ضرار ، أو جماع بن ضرار) وكلمة (جماع) في الأصل ليست كما وضع المحقق ، ولاشكَّ أن الصواب (جزء) وقد يكون طرف الزاي اختلط بالهمزة فأشبهت العين ، وانظر ترجمة الشماخ في كتاب « طبقات فحول الشعراء » لابن سلاّم .

٥٤ ــ وفي ص : ٨٧٥ :

فَمَــنْ يَسْــعَ أَوْ يركَبْ جَنَــاحَيْ نَعَــامة
لِيُدْرِكَ مَــا أسْــدَيْتَ بِالْأَمْــسِ يُسْبَــقِ

كلمة (أسديت) في الأصل : (سديت) .

٥٥ – ص : ٨٧٦ : (رماني رماه الله) . الصواب – كما في الأصل : (رماه رماه الله) إذ الـمَرْمِيُّ عمر ، وليس المتكلم .

– وفيها : (ثم يذكر قائم الليل حين يأخذ في النقصان .. وتمام الشمس) الخ . كلمة (قائم) لا تطابق ما في الأصل التي قد تكون (تام الليل) .

٥٦ – وفي ص : ٨٧٩ : (قد قَضَّتْ أضْلاَعَهُ) كلمة (قَضَّتْ) في الأصل : (فَضَّتْ) على الفاء نقطة واحدة ، من الْفَضِّ أي كسر الشيء وتفريقه .

وفي الصفحة : (قال قلت خيرا يقول :

وإنْ يَرْجِــع النُّعْمَــانُ نَفْــرَحْ ونَبْتَهِــجْ
وَيَأْتِ مَعَــــدًّا مِلْكُهَـــا ورَبِيعُهَـــا

والذي في الأصل : (قال : قلت حين يقول :

إنْ يرجع النعمـــانُ ... ... مَعَدًّا يُسْـــرُهَا وَرَبِيعُهَا

٥٧ – وفي ص : ٨٨٠ :

وإنْ يَهْلِكِ النُّعْمَــانُ تُعْرَ مَعِيَّةٌ ويُلْقَ إلى جَنْبِ الفِنَاء قُطُوعَهَا

وفي الأصل : تُعْرَمَطِيَّةٌ وىحد إلى

وفيها :

على إثْرِ خَيْرِ الناسِ إنْ كَــان هالكــاً وإن كَانَ في جَنْبِ الفتاة ضَجِيعُهَا

وكلمتا (هالكا) و (الفتاة) في الأصل : (هلكا) و (جنب الفراش) .

وفي الصفحة : (أَلِقُرْبَى في قرابَتِهِ) وفي الأصل : (التمس) والتاء غير منقوطة .

(للحديث صلة) حمد الجاسر

رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي المغربي
إلى الحج سنة ١١٤٣ هـ

—٤—

ذكر المسجد الحرام والبيت العتيق أدامه الله :

قلت : أردنا التبرك بذكر بعض أوصاف المسجد الحرام ، وأحوال البيت العتيق شرفه الله ، إلا أنّ ما شهدناه عياناً مما لا يحتاج فيه إلى زائد على الرؤية ، ومنها مالم نباشر حقيقته وغايتهُ مما يحتاج إلى كَيْلٍ بالذراع أو بالشِّبْر لضيق الوقت علينا ، ولكن اكتفينا بوصف من باشر ذالك بنفسه ، وتولى تحقيقه من العلماء الذين يوثق بهم ، حسبما نورد ذالك إن شاء الله. فنقول : وبالله الاستعانة على الإبانة : إنّ البيت المكرم له أربعة أركان ، وهو قريب من التربيع ، قال العلامة ابن جُبَيْر(١) : وأخبرني زعيم الشيبيين الذين إليهم سدانة البيت وهو محمد بن إسماعيل بن عبد الرحمن من ذرية عثمان بن طلحة بن شيبة بن طلحة ابن عبد الدار صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصاحب حجابة البيت ، أنّ ارتفاعه في الهواء من الصفح الذي يلي يقابل الصَّفَا وهو من الحَجَرِ الأسود إلى الركن اليماني تسع وعشرون ذراعا ، وسائر الجوانب ثمان وعشرون بسبب انصباب السطح إلى الميزاب ، فأول أركانه الركنْ الذي فيه الحَجَرُ الأسود ، ومنه ابتداء الطواف ، ويتقهقر الطائف عنه ليَمُرَّ جَميعُ بدنه به ، والبيت المكرم عن يساره ، وأول ما يلْقَى بعده الركنَ العراقي ، وهو ناظر إلى جهة الشمال ، ثم الركن الشامي ، وهو ناظر إلى جهة المغرب ، ثم الركن اليماني وهو

ناظر إلى جهة الجنوب ، ثم يعود إلى الركن الأسود وهو ناظر إلى جهة الشرق ، وعند ذالك يُتِمّ شوطاً واحداً ، وباب البيت المكرم في الصفح الذي بين الركن العراقي وركن الحجر الأسود ، وهو قريب من الْحِجْرِ بعشرة أشبار محققة ، وذالك الموضع الذي بينهما من صفح البيت يسمى الْمُلْتَزَم ، وهو موضع استجابة الدعاء . والباب الكريم مرتفع عن الأرض بِأحَدَ عشر شبرًا ونصف ، وهو من فضة مذهبة بديع الصنعة ، يستوقف الأبصار ... وعِضَادَتَاه كذالك ، والعتبة العليا كذالك أيضا ، [وعلى رأسها لوْحٌ ذهب خالص ، إبريز في سعته مقدار شبرين ، وللباب نقّارتَا فضة كبيرتان ، يتعلق عليهما قفل الباب] وهو ناظر لجهة الشرق ، وسعته ثمانية أشبار ، وطوله ثلاثة عشر شبرا ، وغلظ الحائط الذي ينطوي عليه الباب خمسة أشبار ، وداخل البيت المكرم ، مفروش بالرخام المجزّع ، وحيطانه رخام كلها مجزع ، قد قام على ثلاثة أعمدة من الساج ، مفرطة الطول ، وبين كل عمود وعمود أربع خُطًا ، وهي على طول البيت متوسطة فيه .

مقام إبراهيم صلى الله عليه وسلم (٢) :

وهو حَجَرٌ مُغَشّى بالفضة ، وارتفاعه مقدار ثلاثة أشبار ، وسعته مقدار شبرين ، وأعلاه أوسع من أسفله ، وأثر القدمين المباركتين وأثر الأصابع المكرمة بَيِّنٌ . قال ابن جبير : رأيناهما وصُبّ لنا فيهما ماءُ زمزم فشربناه ، وتبركنا بذالك كله نفعنا الله به ، ولم يُقَدَّرْ لنا نحن التبرك بهما على هذه الصفة في هذه الوجادة :

فَيَا دَارَهَا بِالْخَيْفِ إنّ مَزَارَهَا قَرِيبٌ ولكن دُونَ ذَالك أهوالُ

نسأل الله تعالى أن يحقق رجاءنا بتيسير الرجوع إلى هذه الأماكن المطهرة ، حتى نستدرك ما فاتنا في هذه بمنه وكرمه آمين .

[وبين الباب الكريم والركن العراقي] حَوْضٌ طوله اثنا عشر شبرا

وعرضه خمسة أشبار ونصف وارتفاعه نحو شبر ، يتصل من قبالة عضادة الباب التي تلي الركن المذكور ، آخِذًا إلى جهته ، وهو علامة موضع المقام مدة إبراهيم عليه السلام ، إلى أن صرفه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الموضع الذي هو الآن مُصَلًّى ، وبقي الحوض المذكور مَصَبًّا لماء البيت إذا غُسِلَ ، وهو موضع مبارك يقال : إنه روضة من رياض الجنة ، والناس يزدحمون للصلاة فيه ، وموضع المقام الكريم هو الذي يُصَلَّى خلفه يقابل ما بين الباب الكريم والركن العراقي ، وهو إلى الباب أَمْيَلُ بكثير ، وعليه قبة خشب في مقدار القامة أو أزيد قليلا مركنة مُحَدَّوْدِبَة ، بديعة النقش ، سعتها من ركنها الواحد إلى الثاني أربعة أشبار ، وقد نُصبت على الموضع الذي كان فيه المقام ، حوله تكفيف من حجارة ، نصبتْ على حرف كالحوض المستطيل في ارتفاعه نحو شِبْرٍ ، وطوله خمس خُطًا ، وعرضه ثلاث خُطًا وأُدْخِلَ المقام إلى الموضع الذي وصفناه احتياطا عليه، وبينه وبين صفح البيت الذي يقابله سبع عشرة خطوة والخطوة كلها فيها ثلاثة أشبار ، ولموضع المقام أيضا قُبَّةٌ مصنوعة من حديد ، موضوعة هنالك جانب قبة زمزم ، فإذا كان في أَشْهُرِ الحج وكثر الناس ، رفعت قبة الخشب ، ووضعت قبة الحديد ، فتكون أحمل للازدحام .

ومن الركن الذي فيه الْحَجَرُ الأسود إلى الركن العراقي أربعة وخمسون شبرا ، ومن الحجر الأسود إلى الأرض ستة أشبار ، فالطويلُ يتطامن إليه ، والقصير يتطاول إليه .

ومن الركن العراقي إلى الشامي ثمانية وأربعون شبرا محققة وذالك داخل الْحِجْرِ ، وأما من خارجه فمنه إليه أربعون خطوة وهي مئة وعشرون شبرا محققة ، ومن خارجه يكون الطواف .

ومن الركن الشامي إلى الركن اليماني ما بين الركن الأسود إلى العراقي لأنه الصفح الذي يقابله .

ومن اليماني إلى الأسود ما مِنَ العراقي إلى الشامي داخل الحِجْرِ ، لأنه يقابله أيضا .

وموضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة ، منها سُودٌ وسُمْرٌ وبيْض قَدْ أُلْصِقَ بعضها إلى بعض، واتسعت عن البيت بمقدار تسع خُطًا إلا في الجهة التي تقابل المقام فإنها امتدَّت إليه حتى أحاطتْ به .

وسائر الحرم مع البلاطات كلها مفروش برمل أبيض .

وطواف النساء في آخر الحجارة المفروشة، وربما اختلطن بالرجال وهو الغالب .

وبين الركن العراقي وبين أول جدار الْحِجْرِ مدخلٌ إلى الحِجْرِ ، سعته أربع خُطًا هي ستة أذرع محققة ، وهذا الموضع الذي لم يُحْجَرْ عليه هو الذي تركت قريش وهو ستة أذرع حسبما وردت به الآثار الصحاح ويقابله عند الركن الشامي مدخل آخر على مثال ذالك ، ودَوْر جدار الحِجْرِ تسع وعشرون خطوة ، وهي أربعة وتسعون شبرا محققة من داخل الدائرة ، وبين جدار البيت الذي تحت الميزاب إلى الذي يقابله في جدارِ الحِجْرِ على خط استواء يشق وسط الصحن المذكور أربعون شِبْرًا ، وسعته من المدخل ست عشرة خطوة وهي ثمانيةٌ وأربعون شبرًا ، ودَوْرُ الجدار رخام كله مجزع بديع الإلصاق ، وقد لُزِّتْ فيه قضبانٌ صفر مذهبةٌ وصنع منها في صفحها أشكال شطرنجية متداخلة بعضها على بعض ، وفي ارتفاع جدار هذا الحجر الرخامي خمسة أشبار ونصف وسعته أربعة أشبار ونصف ، وداخل الحِجْرِ بلاط ينعطف عليه الحِجْرُ كأنه ثلثا دائرة وهو مفروش بالرخام المجزع ... والميزاب في أعلى الصفح الذي على الحِجْرِ المذكور وهو — والله أعلم — فيما قيل لنا من صفر مذهب ، قد خرج إلى الحِجْر بمقدار أربعة أذرع ، وسعته مقدار شبر ، وهذا الموضع تحت الميزاب أيضا مظنة استجابة الدعاء بفضل الله تعالى وكذالك الركن اليماني ويسمى المستجار .

وتحت الميزاب في صحن الحِجْرِ بمقربة من جدار البيت الكريم قبر إسماعيل صلى الله عليه وسلم ، وعلامته رخامة خضراء مستطيلة على شكل محراب، يتصل بها رخامة خضراء مستديرة غريبة المنظر، وإلى جانبه مما يلي الركن العراقي قبر أمه هَاجَرَ — رضي الله عنها — وعلامته رخامة خضراء مستديرة ،

سعتها مقدار شبر ونصف، يتبرك الناس بالصلاة في هذين الموضعين من الحجر، وحُقّ لهم ذالك، لأنهما من البيت العتيق وقد انطبق على جسدين مقدسيْن مكرمين نورهما الله وبين القبرين المقدسين سبعة أشبار.

وقُبّةُ زمزم تقابل الركن الأسود، ومنها إليه أربع وعشرون خطوة، والمقام المبارك الذي يُصلّى خلفه عن يمين القبة، ومن ركنها إليه عشر خُطًا، وداخلها مفروش بالرخام الأبيض الناصع، وتَنُّورُ البئر المباركة في وسطها مائلا عن الوسط إلى جهة الجدار الذي يقابل البيت المكرم، وعمقها إحدى عشرة قامة، وعمق الماء سبع قامات على ما يذكر، وباب القبة ناظر إلى المشرق، وباب قبة العباس ناظر إلى الشمال، وتلي قبةَ زمزم من ورائها قبةُ الشراب، وهي منسوبة لسيدنا العباس — رضي الله عنه — والقبة العباسية لم تخل عن نسبتها الشرابية لأنها كانت سقاية الحاج، وهي حتى الآن يُبَرَّدُ فيها ماء زمزم ويخرج مع الليل لِسقي الحاج في الدوارق كل دورق منها ذو مقبض واحد، وتنور بئر زمزم من رخام، قد أُلصق إلصاقا لا تحيله الأيام، وأفرغ في أثنائه الرصاص، وكذالك داخل التنور، ودوره أربعون شبرا، وارتفاعه أربعة أشبار ونصف، وغلظه شبر ونصف. وقد استدارت بداخل القبة سقاية سعتها شبر، وعمقها نحو شبرين، وارتفاعها من الأرض خمسة أشبار، تُملأ ماءً للوضوء، وحولها مصطبة دائرة، يرتفع الناس إليها، ويتوضؤن عليها.

والحجر الأسود المبارك ملصَقٌ في الركن الناظر إلى جهة الشرق، ولا يعرف قدر ما دخل منه في الركن، وقيل: إنه داخلٌ في الجدار بمقدار ذراعين — قاله ابن جبير الغرناطي في رحلته — وسعته ثلثا شبر وطوله شبر وعقد، فيه [أربع] قطع ملصقة، ويقال: إن القرمطي — لعنه الله — كان الذي كسره وقد شُدَّتْ جوانبه بصفيحة فضة يلوح بصيص بياضها على بصيص سواد الحَجَر، ورونقه الصقيل، فيبصر الرائي من ذالك منظرا عجيبا هو قيد الأبصار، وللحجر عند تقبيله لدونة ورطوبة يتنعم بها الفم، حتى يود اللاثم ألا يقلع فمه عنه،

وذالك خاصة من خواص العناية الإلهية ، وكفى بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إنه يمين الله في أرضه » نفعنا الله باستلامه ومصافحته ــ وأوْفَدَ عليه كل شيق إليه بمنه .

وفي القطعة الصحيحة من الحجر ما يلي جانبه الذي يلي يمين المستلم له إذا وقف مستقبله نقطة بيضاء صغيرة مشرقة تلوح كأنها خال في تلك الصفحة المباركة ، وفي هذه الشامة البيضاء أثر : إنَّ النظر إليها يَجْلُو البصر ، فيجب على المقبل أن يقصد بتقبيله موضع الشامة المذكورة ما استطاع .

والمسجد الحرام يطيف به ثلاث بلاطات على ثلاث سواري ، من الرخام ، منتظمة كأنها بلاط واحد ذرعها في الطول أربع مئة ذراع ، وفي العرض ثلاث مئة ذراع فيكون تكسيره محققا ثمانية وأربعين مرجعا . وما بين البلاطات فضاء كبير ، وكان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم صغيرا ، وقبة زمزم خارجة عنه وفي مقابلة الركن الشامي رأس سارية ثابتة [في الأرض ، منها كان حد الحرم أولاً وبين رأس السارية] وبين الركن الشامي المذكور اثنان وعشرون خطوة ، والكعبة في وسطه على استواء من الجوانب الأربعة ما بين المشرق والجنوب والشمال والمغرب وعدد سواريه الرخامية ــ قال ابن جبير ــ : التي عددتها بنفسي أربع مئة سارية وإحدى وسبعون سارية حاشا الجصِّيَّةَ التي منها في دار النَّدوة ، وهي التي زِيدت في الحرم ، وهي داخلة في البلاط الآخذ من الغرب إلى الشمال ...

وللحرم سبع صوامع أربع في الجوانب الأربعة ، وواحدة في دار الندوة ، وأخرى على باب الصفا [وهي أصغرها وهي علم لباب الصفا] ، وليس يصعد إليها لضيقها ، وعلى باب إبراهيم صومعة ...

والبيت العتيق مبني بالحجارة الكبار الصم السمر ، قد رُصَّ بعضها إلى بعض ، وأُلصقت بالعقد الوثيق إلصاقا لا تحيله الأيام ، ولا تقصمه الأزمان .

ومن آياته البينات أنه قائم وسط الحرم كالبرج المُشَيَّد، وله التنزيه الأعلى، وفيه نُتُوء يسير، يظهر بعد التأمل... [وحمام] (٣) الحرم لاتُحصَى كثرةً ، وهي من الأمن بحيث يُضرب بها المثلُ ، ولا سبيل إلى أن تنزل بسطحه الأعلى حمامةٌ ولا تحل فيه بوجهٍ ولا على حال، فترى الحمام تتجلل على الحرم كله فإذا قربتْ من البيت عرجت عنه يمينا أو شمالا، والطيور سواها كذالك. وفي بعض أخبار مكة أنه لا ينزل عليه طائر إلا عند مرض يصيبه فإما أن يموت أو يبرأ ، فسبحان من اورثه التشريف والتكريم ، وقال الشاعر (٤) :

والمُؤمِنِ العائذاتِ الطَّيْرَ ترقبــه رُكْبَانُ مكة بين الْغَيْلِ والسَّنَدِ

ومن عجائب اعتناء الله تبارك وتعالى بهذا البيت المبارك أنه لا يخلو من الطائفين ساعة من النهار ولا وقتاً من الليل ، فلا تجد من يخبر أنه رآه دون طائف به ، فسبحان من كرمه وعظمه .

وللحرم أربعة أئمة سُنِّيَّة، وكان قبل هذه الأزمنة خامس لفرقة الزيدية (٥) ، وكان أشراف البلدة على مذهبهم وهم يزيدون في الأذان: (حيَّ على خير العمل) إثر قول المؤذن : حيَّ على الفلاح ، وهم روافض سبابون ، والله من وراء حسابهم وجزائهم . فأول الأئمة السُّنِّيَّة الشافعي — رحمه الله — وكان هو المقدم فيما سلف من الأزمنة ، لأنه المقدم من الإمام العباسي ، وأما اليوم فالإمام الحنفي أقوى مذهبا لما أن الترك على مذهبه ، وصلاة الإمام الشافعي خلف مقام إبراهيم ، وله حطيم حفيل ، ثم المالكي — رحمه الله — وهو يصلي قبالة الركن اليماني ، وله محاريب حجر تشبه محاريب الطريق الموضوعة فيها ثمَّ الحنفي — رحمه الله — وصلاته قبالة الميزاب تحت حطيم مصنوع له ، وهو أعظم الائمة أبَّهة وأفخرهم آلة من الشمع وسواها. ثم الحنبلي — رحمه الله — وصلاته مع صلاة المالكي في حين واحد وموضع صلاته يقابل ما بين الحَجَرِ الأسود والركن اليماني ولا حطيم له .

ذكر أبواب الحرم الشريف :

في كل جهة أبواب جملتها تسعة وثلاثون : وباب بني شيبة في ركن الحائط الشرقي من جهة الشمال أمام باب الكعبة متياسرا ، وفي جهة الشمال باب الندوة ، ودار الندوة قد جُعِلَتْ مسجداً شارعا في الحرم، مضافا إليه، وهي مقابلة لِلْحِجْرِ والميزاب ، وفي جهة الغرب بابُ العمرة وهو من أجمل أبوابه ، وهنالك مدرسة مليحة لها علوة وسفل، وفي جهة الجنوب باب الصفا وهو في ناحية الركنين الأسود واليماني ، وكلاهما إلى ناحية اليمن . وفي « الموطأ » عن عبيد بن جريج أنه قال لعبدالله بن عمر : رأيتك لا تمسُّ من الأركان إلاّ اليمانيَّيْنِ ـ الحديث (٦) وهذه الأربعة الأبواب أشهر أبواب الحرم، ونسبة هذه الجوانب إلى الجهات ليس على الحقيقة ولكن على التقريب ومراعاة الأكثر ، إذ الكعبة غير موضوعة على مسامتة حقيقة الجهات بل فيها انحراف .

واعلم أنَّ المسجد الحرام صانه الله تعالى لم يُبْنَ قديما ، ولا كان حول البيت حائط ، وفي البخاري عن عمرو بن دينار وعبدالله بن أبي يزيد قالا : لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حول البيت حائط كانون يصلون حول البيت حتى كان عُمر فبنَى حوله حائطا ، قال عبدالله : جدره قصير فبناه ابن الزبير ، قال بعضهم : والمسجد الحرام دو ما دار بالكعبة وهو المصلى ؛ ويطلق على الكعبة ، وهو الظاهر من حديث أبي ذَرٍّ أنَّهُ سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أول مسجد على ظهر الأرض وُضِع أوَّلاً ، قال : « المسجد الحرام » ، قال ثم أي ؟ قال : « المسجد الأقصى » قال كم بينهما ؟ قال : « أربعون سنة » فظاهر قوله (وُضِعَ) أنه أراد المبني وهو البيت بلا مرية في قوله تعالى ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ لأن القبلة البيت ، وكان المسجد الحرام ـ على ما ذُكِرَ ـ غير محجّر ، والدور به محيطة فاشترى منها عمر ديارا فهدمها ، ووسع المسجد ، وامتنع بعض الناس من البيع فوضع لهم الأثمان في خزانة الكعبة حتى أخذوها بعد ، وقال لهم : فناء الكعبة إنما نزلتم

عليها ، ولم تنزل عليكم ، وأحاط بالمسجد حائطا قصيرا ، ثم كثر الناس فصنع عثمان كما صنع عمر فأكثروا الشكوى وهاجوا به فقال لهم : قد فعل عمر مثل ما فعلت فلم يَصِحْ أحد .

الصفا والمروة :

قال في كتاب « نشق الأزهار في أخبار الأقطار » جبلا الصفا والمروة بين بطحاء مكة المشرفة ، وقال الله تعالى ﴿ إنَّ الصَّفَا والمروةَ مِنْ شعائِرِ اللهِ﴾ وتقدم سبب مشروعية السعي بينهما في حديث ابن عباس من قصة أم إسماعيل عليه السلام . قال أهل اللغة : الصفا الحجر الصَّلْدُ الأملس ، والمروة حجارة بيض رقاق ويقال هي حجارة القدّاح ، قال امرؤ القيس :

كَأنَّ صَلِيلَ المَرْوِ حِينَ تَشُدُّهُ صَلِيلُ زُيُوفٍ يَنْتَقُونَ بِعَبْقَرَا

قال في الكتاب المذكور : الصفا والمروة رجل وامرأة قد زنيا في الكعبة فمسخهما الله حَجَرَيْنِ فوضعوا كل واحد منهما على الحجر المسمى باسمه حتى يعتبر كل من رآهُما . وجاء في الحديث أنَّ الدابَّةَ التي هي من أشراط الساعة تخرج من الصفا ، وكان ابن عباس يضرب بعصاه الصفا ويقول : إنَّ الدابة تسمع قرع عصاي هذه ، وباب الصفا أحد أبواب الحرم المشهورة ، والواقف به يرى الحَجَرَ الأسودَ ، إن لم يَحُلْ بينه وبينه حائل ، وهو الذي يخرج عليه إلى السعي ، وكل وَافِدٍ إلى مكة — شرفها الله — يدخلها بعمرة فيستحب له الدخول على باب بني شيبة ، ثم يطوف سبعا ، ويخرج على الصفا ، ويجعل طريقه على الأسطوانتين اللتين أمر المهدي — رحمه الله — بإقامتهما .

والصفا أربعة عشر درجا ، وهو على ثلاثة أقواس مشرفة ، والدرجة العليا متسعة كأنها مصطبة ، وقد أَحْدَقَتْ به الديار ، وفي سعته سبع عشرة خطوة وأدراج المروة خمسة ، وهي تقويس واحد كبير ، وسعتها سعة الصفا سبع عشرة خطوة ، وجميع خُطَا الساعي من الصفا إلى المروة أربع مئة خطوة

وثلاث وتسعون خطوة ، وما بين الصفا والمروة مَسِيلٌ ، هو اليوم سوقٌ حفيلة بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب وسائر المبيعات الطعامية ، والساعون لا يكادون يخلصون من كثرة الزحام ، وحوانيت الباعة يمينا وشمالا ، وما للبلدة سوق منتظمة سواها إلا البزازين والعطارين فهم عند باب بني شيبة تحت السوق الكبيرة ، وبمقربة تكاد تتصل بها .

وعلى الحرم الشريف جبل أبي قبيس وهو في الجهة الشرقية يقابل ركن الْحَجَرِ الأسود ، وفي أعلاه رباط مبارك ، فيه مسجد وعليه سطح مشرف على البلدة الطيبة ، ومنه يظهر حسنها وحسن الحرم واتساعه ، وجمال الكعبة المقدسة القائمة وسطه . قال ابن جبير : وقرأت في « أخبار مكة » لأبي الوليد الأزرقي أنه أول جبل خلقه الله عز وجل وفيه اسْتُودِعَ الحَجَرُ من الطوفان ، وكانت قريش تسميه الأمين ، لأنه أدّى الحَجَرَ إلى إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، وفيه قبر آدم صلوات الله عليه ، وهو أحد أخشبي مكة ، والأخشب الثاني الجبل المتصل بقعيقعان في الجهة الغربية . وفي جبل أبي قبيس موضع موقف النبي صلى الله عليه وسلم عند انشقاق القمر له بقدرة الله عز وجل ، وناهيك بهذه الفضيلة والبركة ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء حتى الجمادات من مخلوقاته لا إله سواه .

ومن جبال مكة المشهورة بعد جبل أبي قبيس جَبَلُ حِرَاء ، وهو في الشرق منها على مقدار فرسخ أو نحوه ، مشرف على مِنًى ، وهو مرتفع في الهواء عالي القنة وهو جبل مبارك كان النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا ما ينتابه ويتعبد في غار فيه ، واهتزّ تحته فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « اسْكُنْ حراء فما عليك إلا نَبِيٌّ أو صدّيق أو شهيد » وكان معه أبو بكر الصديق وعمر رضي الله عنهما . ويُرْوى : « اثبتْ فما عليك إلا نبي وصديق وشهيدانِ » وكان عثمان رضي الله عنه معهم ، وأول آية نزلت من القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم في الجبل المذكور ، وهو آخذٌ من الغرب إلى الشمال ، ووراء طرفه الشمالي جبّانة المِعْلاَ التي تقدم ذكرها ، وسُورُ مكة إنما كان في القديم

من جهة المعلا ، وهو مدخل إلى البلد ، ومن جهة المسْفل وهو مدخل أيضا إليه ، وأما من جهة باب العمرة وسائر الجوانب فجبال لا يحتاج معها إلى سُور ، وسورها في هذه الأزمنة قد تهدم إلا آثار باقية .

ذكر بعض مشاهد مكة شرفها الله وبعض الآثار بها(٧) :

لا شكّ أنّ مكة – شرفها الله – كلها مشهد كريم ، يكفيها شرفا ما خصها الله من مثابة بيته الكريم ، وما سبق لها من دعوة الخليل إبراهيم ، وكفاها أنها منشأ النبي صلى الله عليه وسلم ، الذي آثره الله بالتشريف والتكريم ، وابتعثه بالآيات والذكر الحكيم ، فهي مبدأ الوحي ، ومبدأ نزول التنزيل ، وأول مهبط الروح الأمين جبريل ، وكانت مثابةَ أنبياء الله ورسله الأكرمين ، فمن مشاهدها التي عاينّاها قبة الوحي ، وهي في دار خديجة أم المؤمنين ، رضي الله عنها ، وفيها كان ابتناء النبي صلى الله عليه وسلم بها ، وقبة صغيرة أيضا في الدار المذكورة ، فيها كان مولد فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، وفيها أيضا وَلَدَتْ هي سيّدَيْ شباب أهل الجنة الحسنَ والحسينَ ، رضي الله عنهم ، وهذه المواضع المقدسة المذكورة مغلقة" مصونة ، بنيت بناء يليق بمثلها ، ومن مشاهدها الكريمة أيضا مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، والتربة الطاهرة التي هي أول تربة مسها جسمه الطاهر ، بُنيَ عليها مسجد . والموضع المقدس الذي سقط فيه صلى الله عليه وسلم ساعة الولادة السعيدة المباركة ، التي جعلها الله رحمة للأمة أجمعين . محفوف بالفضة ، فيالها تربة شرفها الله بأن جعلها مسقط أطهر الأجسام . ومولد خير الأنام ، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه الكرام ، وسلم تسليما .

يفتح هذا الموضع المبارك ، فيدخله الناس كافة متبركين به . في شهر ربيع الأول ، وفي يوم الاثنين منه ؛ لأنه كان شهر مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي اليوم المذكور ولد صلى الله عليه وسلم . وتفتح المواضع المقدسة المذكورة كلها ، وهو يوم مشهود بمكة . وتفتح المواضع المباركة للحجاج وقت الحاج ، دائما يتبركون بها ، ويتنعمون بمشاهدتها .

ومن مشاهدها الكريمة دار الخيزران ، وهي التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يعبد الله فيها سراً مع الطائفة الكريمة المباركة للإسلام ، من أصحابه رضي الله عنهم حتى نشر الله الإسلام منها على يد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكفي بهذه الفضيلة .

ومن مشاهدها أيضا دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وهي اليوم معروفة بمكة ويقابلها جدار فيه حجر مبارك ، يتبرك الناس بلمسه [٨] يقال : إنه كان يسلم على النبي صلى الله عليه وسلم متى اجتاز عليه . وذُكر أنه جاء يوما صلى الله عليه وسلم إلىدار أبي بكر رضي الله عنه ، فنادى به ولم يكنْ حاضرا فانطق الله عز وجل الحجرَ المذكور ، وقال : يا رسول الله ليس بحاضر ، وكانت من إحدى آياته المعجزات صلى الله عليه وسلم [٩] .

ومن جبال مكة التي فيها أثر كريم ، ومشهد عظيم ، الجبل المعروف بجبل ثور وهو في الجهة اليمنية من مكة ، على مقدار فرسخ أو أزيد ، وفيه الغار الذي أوى إليه النبي صلى الله عليه وسلم مع صاحبه الصديق رضي الله عنه ، حسبما ذكر الله تعالى في كتابه العزيز . قال ابن جبير [١٠] : وقرأت في كتاب « أخبار مكة » لأبي الوليد الأزرقي ، أن الجبل نادى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إليَّ يا محمد إليَّ يا محمد فقد أويت قبلك سبعين نبيا ، وخصَّ الله عز وجل نبيه فيه بـآيات بينات ، فمنها أنه صلى الله عليه وسلم دخل مع صاحبه على شق فيه ثلثا شبْر ، وطوله ذراع ، فلما اطمأنَّا فيه أمر الله عز وجل العنكبوت فاتخذت عليه بيتاً ، والحمام فصنعت عليه عُشّاً وفرّخَتْ فيه ، فانتهى المشركون إليه بدليل قصّاص للأثر ، مستاف أخلاق الطرق ، فوقف بهم على الغار وقال : ها هنا انقطع الأثر فأما صُعِدَ بصاحبكم من هنا إلى السماء ، أوْ غيض به في الأرض ، ورأوا العنكبوت ناسجةً والحمام مفرخة فيه ، فقالوا : ما دخل ها هنا أحد فأخذوا في الإنصراف فقال الصديق رضي الله عنه : يا رسول الله لَوْ وَلَجُوا علينا فَمَ الغار ما كنا نصنع ؟فقال رسول اللهصلىالله عليه وسلم : « لو

وبلجوا علينا فيه كنا نخرج من هنا » وأشار بيده المباركة إلى الجانب الآخر من الغار ، ولم يكن فيه شقٌّ ، فانفتح للحين فيه بابٌ بقدرة الله عز وجل وهو سبحانه قدير على ما يشاء ، وأكثر الناس يتنابون هذا الغار المبارك ، ويتجنبون دخوله من الباب الذي أحدث الله عز وجل فيه، ويرومون دخوله من الشَّقِّ الذي دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم تبركا به فيمتد المحاول لذالك على الأرض، ويبسط خدَّهُ بإزاء الشَّقِّ ، ويولج يديه ورأسه أولاً ، ثم يعالج إدخال سائر جسده ، فمنهم من يتأتّى له ذالك بحسب لطافة بدنه(١١) ،ومنهم من يتوسط بدنه فم الغار فيروم الدخول أو الخروج فلا يقدر ،فينشب ويلاقي مشقة وصعوبة حتى يُتَنَاول بالجذْبِ العنيف من ورائه ، فالعقلاء من الناس يجتنبونه لهذا السبب ، ولا سيما ويتصل به سببٌ آخرُ مُخْجِلٌ فاضحٌ ، وذالك أن عوام الناس يزعمون أنَّ الذي لا يسع عليه ويمتسك فيه ليس لرشدة(١٢) ، جرى هذا الخبر على ألسنتهم حتى عاد عندهم قطعا على صحته ، لا يشكُّون فيه ، فيحسب المتشب فيه الأمْرَ حقّاً لما يكسوه من هذا الظن الفاضح المخجل ، زائدا إلى ما يكابده من لَزٍّ في ذالك المضيق ، وإشراف على المنية توجعا ، وانقطاع نَفَسٍ ، وبَرْحِ ألَمٍ ، فالبعض من الناس يقولون في مثل : (ليس يصعد جبل أبي ثور إلاَّ ثور) .

وعلى مقربة من هذا الغار في الجبل بعينه عمود منقطع من الجبل ، قد قام شبه الذراع ، بمقدار شبه القامة ، وانبسط له في أعلاه شبه الكف ، خارجا عن الذراع ، كأنه القبة المبسوطة ، بقدرة الله عز وجل ، يستظل تحتها نحو العشرين رجلا ، وتسمى قبة جبريل صلى الله عليه وسلم .

ذكر شيء مما خص الله به مكة من الخيرات والبركات :(١٣) :

هذه البلدة المباركة استجاب الله فيها دعوة خليله إبراهيم في قوله ﴿ فاجعلْ أفْئِدَةً مِنَ الناس ﴾ إلى ﴿ يشكرون ﴾ فالأفئدة إليها منجذبةٌ من سائر الأقطار جَبْذَ الحديد حجارة المغناطيس ، فترى الناس يأتونها أبداً أفواجاً من كل فجٍّ عميق ، ومن كل بلد سحيق ، لا يصدُّهم عنها صاد ، ولا يحول بينهم وبينها

الموت الزؤام ، وأما رزقهم من الثمرات التي تُجبَى لهم من كل شيء فبرهان ذالك ظاهر ، ودليله باهر ، متصل إلى يوم القيامة وما رآه كمن سمع

أقلد وجدي فليبرهـــن... فما أضيع البرهان عند المقلـــد

فهي أكثر بلاد الله نعما وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر ،ولو لم يكن لها من المتاجر إلا وقت الموسم الذي يجتمع فيه أهل المشرق والمغرب ، فيباع فيها في يوم واحد فضلا عن سائر الأيام من الأمتعة وأنواع البز وأنواع الجواهر واليواقيت والذخائر النفيسة ، والثياب الهندية ، والأواني الصينية ، ومن أنواع الطيب كالمسك والعنبر والكافور والزباد والعود والعقاقير ، وغير ذالك ما لا يدخل تحت الحصر ، ولا ينضبط ، ولو فُرِّقَ على البلاد كلها لأقام لها الأسواق الحافلة النافقة ، دَعْ عنْك مِصْرَ وغيرها . وأما الأرزاق والفواكه وسائر الطيبات فشيء تغص به الأسواق ، وقد أدركنا شيئا من فاكهتها وخضرها ، فرأينا شيئاً عظيما طعماً وحسن مذاق . وحدثونا عما لم ندركه بها من الفواكه الصيفية والخريفية ، وأنواع البقول بما لا مزيد عليه في الوصف ، وكل فواكهها عجب ، ولا سيما البطِّيخ له فيها خاصة من الفضل عجيبة ، وذالك لأنَّ رائحته أعْطَرُ الروائح وأطيبها ، يدخل به الداخل عليك فتجد رائحته العَبِقَةَ قد سبقتْ إليك ، فيشغلك الاستمتاع بطيب ريَّاه عن أكلك إيَّاه ، وبها عسلٌ أطيب من الماذيِّ الذي يُضْرَبُ به المثل ، ويعرف عندهم بالمسعودي ، وأنواع اللبن فيها في نهاية من الطيب ، قبح الله أهل مصر الذين يغشون اللبن في ضروع الحيوانات ، وأذكر الفجَّار بما فيهم ليحذرهم الناس . وأما الْحلْوُ فيصنع بها منها أنواع غريبة من العسل والسكر المعقود ، على صفات شتّى ، حتّى أنهم يعملون بها حكايات جميع الفواكه الرطبة واليابسة ، يتصل منها أسمطة بين الصفا والمروة ، لم يشاهد أحدٌ أجملَ منظراً منها بمصر ولا بسواها ، قد جُلِيَتْ على منَصَّات كأنها العرائس ، تراها منضدة ملونة ، تلوح كأنها الأزاهر حسنا ، تقيِّد الأبصار ، وتستنزل الدرهم من صَيَاصِيه والدينار ﴿وإنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ الله لا تحصوها﴾ وهذه الفواكه تُجلب إليها من الطائف وهي على مسيرة ثلاثة أيام منها على الرفق

والتُّؤدَة ، ومن قرى حولها ، وأكبر هذه المواضع موضعٌ يعرف بالهَدَة ، هو من مكة على مسيرة يوم أو أزيد قليلا ، وهو من نظر الطائف ، ويحتوي على قرى كثيرة[١٤] ومن بطن مرّ وهو على مسيرة يوم أو أقل ، ومن نَخْلَة . وهي على مثل هذه المسافة ، ومن أودية تقرب من البلدة كعين سليمان وسواها . قد جلب الله إليها قوما من المغاربة ذوى بصارة بالفلاحة والزراعة ؛ فأحدثوا فيها بساتين ومزارع ، فكان أحد الأسباب في خصب هذه الجهات . وذالك بفضل الله عز وجل وكريم اعتنائه بحرمه الكريم وبلده الأمين[١٥] .

وأما لحوم ضأنها فقد وقع الاتّفاقُ ممن تطوف الآفاق ، وضرب نواحي الأقطار أنها أطيب لحم يؤكل في الدنيا ، وما ذاك — والله أعلم — إلا لبركة مراعيها ، هذا على إفراط سمنه ولو كان سواه من لحوم البلاد ينتهي ذالك المنتهى في السمن للفظته الأفواه سهولة[١٦] ودسَماً ولعافته وتجنبته ، والأمر في هذا بالضد . كلما زاد سِمَناً زادت الشهوة فيه رغبة ، والنفس له قبولا . فتجده هنيئا رخْصًا يذوب في الفم قبل أن يُلاكَ مضغاً ، ويسرع لخفته عن المعدة انهضاما . وما ذاك إلا من بركة البلد الأمين ، والله يجعل فيه رزقا لمن تشوق إلى بلد الله الحرام ، وتمنّى هذه المشاهد العظام ، والمناسك الكرام بعزته وقدرته .

ومن البركات التي خص الله بها هذا البلد الأمين ماء زمزم الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ماء زمزم لِمَا شُرِبَ له » . وهذا الماء المبارك في أمره عجب ، وذالك أنك تشربه عند خروجه من قراره فتجده في حاسة الذوق كاللبن عند خروجه من الضرع . وتلك من الله آية وعناية ، وبركته أشهر من أن تحتاج لوصف واصف ؛ ومن الأمور المجربة في هذا الماء المبارك أن الإنسان ربما وجد مَسّ الإعياء وفتور الأعضاء إمّا من كثرة الطواف أو عمرة يعتمرها على قدميه أو من غير ذالك من الأسباب المؤدية إلى تعب البدن ، فيصب من ذالك الماء على بدنه ، فيجد الراحة والنشاط لحينه ، ويذهب عنه كل ما كان أصابه . وأما الاقتيات به فأمر شاهدناه وذقناه بل أكلناه ، فإنه يقوم مقام الطعام

على كل حال ، وقد أخبرني بعض الناس ممن قدم معنا حاجاً من مصر أنه حج في بعض السنين الماضية،وكان ضعيف الحال ، بادي الإقلال ، فكان يظُّل صائما ويفطر على ماء زمزم ، ويصبح صائما فعل ذالك أياماً ، حتّى قيض الله له من تولى إطعامه . ويحكى أنّ أهل مكة كانوا في الجاهلية إذّا أصابتهم سنَةُ ، وأعوزهم القوت يلجأون إلى زمزم فيأتي الرجل بأهله وأولاده إلى زمزم يسقيهم منه وقت عشائهم ووقت غدائهم والله رؤوف رحيم .

(للحديث صلة)

الحواشي :

(١) رحلة ابن جبير – ص ٥٢ – ومنها أكمل نقص بعض الجمل بما وضع بين مربعين [...] .
(٢) رحلة ابن جبير – ص ٥٥ – .
(٣) بياض في الأصل وأكمل من رحلة ابن جبير .
(٥) هو النابغة الذبياني ، وفي ديوانه : (تمسحها) بدل (ترقبه) .
(٤) رحلة ابن جبير – ص ٧٠ – إلى الكلام على الصفا والمروة – مع إضافة جمل يسيرة عن الإمام الحنفي .
(٦) انظر الحديث بطوله في كتاب « القرى لقاصد أم القرى » للطبري محب الدين – ص ٦٩ – .
(٧) من رحلة ابن جبير – ص ٨١ – .
(٨) التبرك بالصالحين يكون بالاقتداء بأعمالهم الصالحة لا بما ينسب إليهم من مواضع نسبة الله أعلم بصحتها ، ولو ثبت لم يجز شرعاً التبرك بها .
(٩) لو كان من المعجزات لذكره علماء السلف الذين ألفوا المؤلفات فيها ، ولكن ما يتعلق بهذا الحجر من الأخبار مما تتناقله العامة من الأخبار الخرافية .
(١٠) رحلة ابن جبير – ص ٨٣ – .
(١١) في رحلة ابن جبير (قضاقة) .
(١٢) أي ابن زنا .
(١٣) رحلة ابن جبير – ص ٨٦ – مع تغيير بعض العبارات بإبدال أو حذف واختصار ، وزيادات يسيرة .
(١٤) في « رحلة ابن جبير » – ص ٨٨ – : (.. ومن قرى حولها ، وأقرب هذه المواضع يعرف بأدم ، هو من مكة على مسيرة يوم أو أزيد قليلا وهو من بطن الطائف ، ويحتوي على قرى كثيرة) .
(١٥) من كلام ابن جبير – ص ٨٩ – .
(١٦) في رحلة ابن جبير – ص ٨٨ – : (للفظته الأفواه زهماً ، ولعافته وتجنبته) .

أشعار الخليع الحسين بن الضحاك

الحسين بن الضحّاك من شعراء الدولة العباسية الذين لم تصل إلينا دواوينهم . غير أننا نـجد شعرهم في مصادر الأدب والتاريخ . وأبو علي صاحبنا هذا بَاهِلِيّ بالولاء ، ولد بالبصرة وبها نشأ ، ثم ارتحل إلى بغداد وأقام بها في عصر الرشيد والأمين والمأمون ، ثم تحول إلى سَامَرَّا حين مُصِّرت ، فصارتْ حاضرةَ الدولة العباسية في عصر المعتصم ، ومكث فيها في أيام الواثق والمتوكل ومن خلفه من الخلفاء وتوفي في خلافة المستعين سنة ٢٥٠ .

عُرِف الحسين الخليع بلهوه وعبثه ومجونه ، وشعره في كتب الأدب والتاريخ يفصح عن هذا ، وربّما لم نقع على شيء يخرج عن هذه الأشتات العابثة اللاهية ، قال أبو الفرج الأصبهاني في ترجمته في « الأغاني » : إنّ أبا نواس كان يأخذ معاني الحسين بن الضحاك في الخمر فيغير عليها ، وإذا شاع له شعر نادر في هذا المعنى نسبه الناس إلى أبي نواس ، وله معانٍ في صفتها أبدع فيها وسبق إليها فاستعارها أبو نواس .

وجاء في أخبار أبي نواس لابن منظور : « قال أبو عبدالله أحمد بن صالح ابن أبي نصر : كان أبو بحر عبد الرحمن بن أبي الهداهد شاعراً مُجِيداً ، وكان لا يكاد يقول شيئاً إلاّ نُسِب لأبي نواس ، وكذالك الحسين بن الضحاك . وقد غلب(١) الكثير من شعرهما .

وشعره يدخل في جملتِه في باب (الظرف) . وهو في ظرفه ومجونه متجنب

للفحش وهجر القول ، متين اللفظ رصينه مع رقة لا تقدح في هذه الرصانة ، تواتيه قريحة خِصْبة ينطلق فيها على سجيته .

وقد فطن الأستاذ عبد الستار فراج إلى أدب الخليج فجمع أشعاره ، كما جمع أشعار غيره ممن لم تصل إلينا دواوينهم فكان له من ذالك مجموع في أشعار المجنون ومثله في أشعار قيْس بن ذريح وأشعار جميل بن معمر .

وقد جاءت « أشعار الحسين الخليع » في مجموع لطيف ذيّله بأخباره التي وردت في مصادر الأدب(٢) . وكان لي أن استمتعت بهذا المجموع ، الذي وجدت من الفائدة أن أقف عليه قليلاً فأقول :

١ – جاء في الصفحة (١٩) قول الشاعر :

ما بين بطنٍ بثيرانٍ حللتُ بـــه إلى الفراديس إلاّ شـــوبُ أقذاء

وقد شرح الأستاذ فراج (بثيران) في حاشيته فقال : بثيران والفراديس أسماء مواضع ، وأراد اسمي موضعين ، ثم قال : ورويت ثبيران (بتقديم الثاء على الباء) ، ثم قال : وليس في « معجم البلدان » بثيران ولا ثبيران . أقول : وليس في غير « معجم البلدان » من كتب البلدان الأخرى هذا الذي أثبته جامع الكتاب . والذي أراه أن الباء في (بثيران) حرف الخفض ، والأصل « تيراب » وهو اسم موضع ذكره ياقوت وغيره ، وهكذا يكون الأصل (بتيرابٍ) .

٢ – وجاء فيها أيضاً البيت :

فعَدِّ همَّكَ عن طِرْفٍ يمارِسُهُ جِلْفٌ تلفَّعَ طِمْراً بين أحنـــاء

وقد شرح جامع هذه الأشعار الكلم الصعب في البيت فقال في (الأحناء) : جمع حِنْو ، ومن معانيه العود المعوجّ من الرحْل والسرج ، وهو في السرج ما يسمّى القربوص .

أقول : صحيح أن الحنو يفيد هذا المعنى ولكننا لا ندرك مكانه من (الطمر) ، فهل تكون الأحناء شيئاً يتصل بحواشي الطمر من طيّات اللباس وانثنائها ؟ أو كأن الشاعر أراد أن يقول : إن الخلف قد تلفع بثوب خَلَقٍ ! مُلَفَّقٍ .

٣ ـ وجاء في الصفحة (٢٠) البيت :

ففي غدٍ لكَ من زهراء صافيةٍ بطَيْـرناباذَ ماءٌ ليس كالمساء

أقول : والصواب : طيزناباز بالزاي وهو موضع بين الكوفة والقادسية كانوا يجتمعون فيه للشراب ، كما ورد اسم الموضع بالراء في الشرح أيضاً .

٤ ـ وجاء فيها أيضاً البيت :

فاستنفضَ القطرُ ما وَشَّى المصيفُ لها واستُبْدِلَتْ جُدُداً من بعد أنضاء

وقال الأستاذ فراج في شرح (أنضاء) : النضو الثوب الخَلَق وجمعه أنضاء ! !

أقول : ليس في معاني النضو هذا الذي ذكره جامع الأشعار ، لأن النضو هو البعير المهزول أو الناقة ، وقد يستعار مجازاً لكل شيء متعب مستهلك ، وفي استعمال الشاعر ما يفيد هذا على سبيل الاستعارة .

٥ ـ وجاء في الصفحة ٢١ البيت :

فُضَّتْ خَوَاتِمُها في نَعْتِ واصِفِها عن مثل رَقْراقةٍ في جَفْن مَرْهاء

وقال الشارح : والمَرْهاء : المرأة التي لم تكتحل ..

أقول : و (المرهاء) في البيت هي المرأة التي لم تكتحل . وقد أشار الأستاذ فراج إلى أن أبا نواس أخذ هذا المعنى فقال :

أتى بها قهوةً كالمسك صافيةً كَدَمْعَةٍ مَنَحَتْها الخَدَّ مَرْهاءُ

أقول : والمَرْهاء في بيت أبي نواس هذا هي العين وليست المرأة . وقد يتوسع في المرهاء فتدلُّ على المرأة التي لم تكتحل .

٦ ـ وجاء في الصفحة ٢٢ البيت :

لم يبقَ من شخصهــا إلاّ توهـُّمُــه   فَالشَّيْءُ منها إذا استَثبَتَّ كاللاّء

وقد علق الشارح على قول الشاعر كاللاّء فقال : اللّلاءُ قد يكون مقلوب الآل وهو السراب ولم أجد الّلاء بمعنى الآل في كتب اللغة ، وقد تكون اللاء ممدودة من (لا) النافية ...

أقول : ولا وجه أن تكون (اللاء) مقلوب (آ ل) ، وليس في البيت ما يعين على هذا بَلْه أنّ هذا القلب لم يُؤثر عن علماء اللغة ، ولم يرد في كتب القلب . وهو من غير شك (لا) النافية وقد مُدَّتْ القافية كما مُدَّت للوزن في شواهد كثيرة . والبيت يشير إلى أن هذا هو المراد .

٧ ـ وجاء فيها أيضاً :

رَيْحَانَةُ النفس تُهوَى عند شَمَّتِها   جاءتْ بذاك رواياتُ ابن دَيْحَــاء

وقد علق الشارح على (ابن ديحاء) في البيت فقال : لم نعثر في كتب اللغة أو كتب المضافات تعريفاً بابن ديحاء ولعله اسم لخمّارٍ في زمانهم .

أقول : هذا الذي ذهب إليه ظن الأستاذ الشارح من أنه اسم لخمّار صحيح . ولكن الصواب : ابن دَنْحاء و دنحاء هذا كما في البيت هو من (دَنْحا) السريانية . وهو علم عند النصارى مازال معروفاً في أسمائهم . وقد يكون بالضم فيقولون : (دنحُو) . والاسم من (الدنح) من أعياد النصارى . وهو من (دَنْحا) السريانية ومعناها الظهور أي ظهور المسيح لبني قومه يوم معموديته . وقد جاء ذكر (الدنح) في « الآثار الباقية » ص ٢٩٣ . و « المخصص » ١٣/١٠٣ . والمعرّب ص ١٥٤ ، وذكره أبو نواس في شعره الخمري . وقد ورد في معجم البلدان ٣/٣١٤ قول المعتمد :

بالدَّيْرِ بالعَلْـــثِ وَرُهبــانِــهِ   بينَ الشعــانينِ إلى الــدَّنحِ

٨ ــ وجاء في الصفحة ٢٤ البيت :

يَارَبِّ قد أملكْتَ من (بابك)　　فاجعَــلْ لِتَوْزِيلِهِمُ العُقْــــبى

وقد علق الشارح على (بابك) وأشار إلى أنه الخُرَّمي وهو الذي شغل الدولة العباسية في عهد المأمون والمعتصم بتَمَرُّدِهِ . وقد توسع الأستاذ فراج في الكلام على فتنة بابك هذا ، ولكنه لم يُعرِّف (توفيل) ملك الروم وسكت عنه ، ولتوفيل هذا مكان في الحرب التي شنَّها المعتصم ففتح بها عمُّورية المشهورة .

٩ ــ وجاء في الصفحة ٣٣ البيت :

لمَّا اصطبحتُ وعينُ اللَّهْوِ تَرْمُقُني　　قد لاحَ لي بَاكِراً في ثوبِ بَذْلَتِهِ

أقول : والصواب : بِذْلته بكسر الباء .

١٠ ــ وجاء في الصفحة ٣٧ قول الشارح :

قال في دير سابُرَ (كذا) ، وكأن الشارح أخذ اسم الدير من بيت للشاعر في القصيدة التي وردت في الصفحة نفسها :

في دَيْرِ سابُرَ والصبــاح يلُـوحُ لي　　. . . . .

أقول : واسم الدير (دير سابُور) والشاعر قد اكتفى بالضم عن المدّ لاقتضاء الوزن ، ودير سابور قد ورد في « معجم البلدان » و « الديارات » و « مسالك الأبصار » .

١١ ــ وجاء في الصفحة (٣٩) قصيدة أبي نواس الحائية ، وقد تسمّح الشارح فأثبتها مع أشعار الخليع ليشير إلى أنها كحائية الخليع وأنّ أبا نواس أخذ منها بعض معانيه (كذا) .

أقول : كان على الشارح أن يذكر القصيدة في الهامش .

١٢ ـ وجاء في الصفحة ٤٠ في آخر بيت من قصيدة أبي نواس الحائية التي أشرنا إليها :

صفراء تَفْتَرِس الفراس فلا تَرَى ... منها بِهِنَّ سوى السُّبَاتِ جراحا

أقول : لا وجه للفراس ، والصواب : النفوس ، وهي كذالك في ديوان أبي نواس .

١٣ ـ وجاء في الصفحة ٦١ قول الشارح :

وقال في دير عَمْرو (كذا) مريونان . . . .

أقول : إن الجمع بين كلمة (دير) وكلمة (عمر) من أوهام الشارح ذالك أن (الدير) هو (العُمْر) بضم العين لا فتحها كما أثبت الشارح . وقد عرض له هذا لأنه وجد في « معجم البلدان » (دير مريونان) ووجد في (الديارات) و (عمر مريونان) فأضاف الأول إلى الثاني .

١٤ ـ وجاء في الصفحة ٦٨ تعليق للشارح على قطعة من ثلاثة أبيات هجا فيها الشاعر جَرَّاحاً مخنّثاً اسمه نصير ، وقد كان البيت الثالث :

هل لكَ أن نلعبَ في فَرْشِنا ... تقلُّبَ الطير المراعيش

قال الشارح في الكلام على هذا البيت : يعني بذالك (...)

أقول : ما كان أغنى الشارح عن هذا التعليق البذيء .

١٥ ـ وجاء في الصفحة ٧٩ :

لم يفعلوا بالشَّطِّ إذْ حَضَروا ... ما تفعل الغيرانةُ الأَنِفُ

أقول : لم يَتَّجه لي شيء واضح من البيت ، ولا أدري ما علاقة العجز بالصدر ، ولم يتوقف الجامع وهو يثبت البيت بل اكتفى بشرح الفعل : أنِف يأنف .

١٦ ــ وجاء في الصفحة ٨٥ البيت :

هرَّتْ بطارِقُهــا هَرِيرَ ثعــالــبِ   بُدِهمَتْ بزَأرِ قَســاوِرِ طُــرَّاقِ

وقد شرح الشارح القساور فقال : هم الشجعان .

أقول : والقساور جمع قَسْوَر أو قسْوَرة ، أي الأسد ، والكلمة بهذا المعنى الحقيقي في البيت .

١٧ ــ وجاء في الصفحة ٨٨ البيت :

كَشَفَــتْ عَنْ وزَّةٍ مُزَعفَــرةٍ   في لِــين صِيْنِيــةٍ من الفَلَــكِ

وقد علّق الشارح فقال: الفَلَك التلُّ من الرمل وكثيراً ما تشبَّه العجيزة في الضخامة واللين بكثيب الرمل ، أو أنها : الفَنَك وهو جنس من الثعالب فروته من أحسن الفراء ...

أقول : ولا مكان للفلك في البيت ويبعده قول الشاعر(صينية) وهذه تشعر أن (الفرو) منسوب إلى الصين ، وهو أجود ما يكون .

١٨ ــ وجاء في الصفحة (٨٩) البيت :

سَقَى اللهُ بِالْقَاطُولِ مَسْرحَ طَرْفكا   . . . .

وقد علق الشارح على القاطول فقال :

القاطول اسم نهر كأنه مقطوع من دجلة .

أقول : إن قول الشارح : كأنه مقطوع من دجلة يشير إلى أنه بحث في (قطل) فوجده بمعنى (قَطَع) فذهب إلى ما أثبته في الشرح .

وما أظن أن يكون هذا هو الأساس في التَّسمية ، والذي أراه أن مادة (قَطَل) معروفة في العبرانية والسريانية وهي بمعنى (قَتَلَ) في العربية . ولفظ (قاطول)

اسم فاعل في السريانية ، ولعل التسمية جاءت من اسم موضع سبق النهر أو أن الموضع قد سمي باسم رجل هو (قاطول) .

وبعد فهذه جملة وقفات أفدتها من قراءتي لهذه الأشعار الممتعة .

ومن المفيد أن استدرك أبياتاً عدة وجدتها للحسين الخليع في كتاب « التحف والهدايا » للخالديين (ص ٩٧) كتب بها إلى يوسف الكاتب ليلة عيد ميلاد السيد المسيح يستهديه شمعاً :

وليلة ميلادِ عيسى المسيح قد طالبَتْني بميثاقِها
فهذي قُدوري على نارها وفاكهتي مِلْءُ أطباقِها
وبنتُ الدنان فقد أُبرزتْ من الخدر تُجلَى لعشّاقها
فكن مهدياً لي فدتكَ النفوس فجودُك مُمْسِكُ أرماقها
نظائرَ صُفراً غدَتْ فتنةً بلطف أنامل حُذّاقها
ومثل الأفاعي إذا أُلهبَتْ وللروم زُرْقَةُ أحداقها
ولم أرَ مِنْ قبلها أنفُساً تُذيبُ الجسومَ بإحراقها
وإنْ مرِضَتْ لم يكنْ بُرْؤها بشيء سوى ضَرْبِ أعناقها

الدكتور إبراهيم السامرائي
كلية الآداب ـ الجامعة الأردنية

الحواشي :

(١) كذا ولعلها (سلب) .
(٢) نشرته (دار الثقافة في بيروت) في ١٥٨ صفحة سنة ١٩٦٠م .

الأعراف اليمنية والقضاء البدوي

— ١ —

[كانت مجلة « العرب » تحدثت س ٢٠ ص ١٢١ – عن الكتاب الذي ألفه الدكتور يوسف شلحدعن « اليمن تاريخاً وحضارة » . وقد طلبت من الأستاذ الكريم إتحاف القراء بفصل معرب من ذالك الكتاب الذي ألف باللغة الفرنسية ، فأفضل مشكوراً بهذا البحث] .

توطئة : تفضل ... الشيخ حمد الجاسر فطلب من كاتب هذه السطور أن يوافيه بترجمة لفصل من فصول الكتاب الذي نشره باللغة الفرنسية عن اليمن تحت عنوان : « العربية الجنوبية : تاريخها وحضارتها » ، وهو يقع في ثلاثة أجزاء من الحجم الكبير .

وإني مع شكري العميق لصاحب مجلة العرب على اهتمامه بهذا المؤلَّف لابُدَّ من الإقرار بأنَّ هذا الطلب أوقعني في حيرة شديدة . أولاً لأن فصول الكتاب متماسكة ، كل واحد منها مرتبط بالذي سبقه ويمهد البحث للذي يليه . ولذا يصعب عزل بعضها عن بعض إلاَّ إذا تصرفنا بالترجمة . وثانياً لأن (الانترو بولوجيا) الثقافية علم له اصطلاحاته وتعابيره الخاصة . ولعل علماء اللغة العربية أوجدوا الألفاظ والمرادفات للإعراب عن مقتضيات هذا العلم الحديث . ولكني أُقِرُّ بكل تواضع بأني أجهلها . وحَدَثَ أنْ قرأتُ مقالاً باللغة العربية عن النظرية البِنْيوية . وكأني به كُتِبَ باللغة اليابانية أو الصينية . بل إني قرأتُ يوماً بعض مقتطفات من بحث لي ، تُرْجِمَتْ إلى اللغة العربية فالتوى علي فهمها ! ولذا رأيْتُ أن أختار فصلاً سهل المنال . وإن كانت النظرية العلمية التي أقْتَرِحُها لفهم التطور الاجتماعي غير ماثلة فيه . ولعله من المناسب أن أغتنم الفرصة لأقدم عرضاً وجيزاً لها .

لقد شغلَت النظرية البنيوية عالمَ الفكر ردحاً طويلاً من الزمن ضفت سنوهُ على العشرين ، وهي وإن كانت اليوم آخذة بالتقلص فإن لها عدداً من المناصرين

والأتباع على الرغم من الانتقاد الشديد الذي تعرضت له منذ أوائل السبعينات . والواقع أن هذه النظرية التي تستهوي العقل بشدة منطقها لا تُفَسّر كبير شيء لأنها لا تربط النتائج بأسبابها بل تكتفي غالباً برد الأمور إلى جذورها الأساسية . ويخال لأول وهلة أنها نظرية حديثة ، أما الحقيقة فإنها تعود إلى مبادئ قديمة قال بها سابقاً أهل اللغة . وعندما ردّ علماء العروض الشّعْرَ إلى بحور من طويل وبسيط وكامل ... وضعوا الأسس الأولى للنظرية البنيوية . ومن الغرابة بمكان أن نجد في كتاب « سرّ الليالي في القلب والإبدال » للمؤلف اللبناني الكبير أحمد فارس الشدياق بعض مباديء البنيوية اللغوية التي قال بها العالم السويسري فردينان دي سوسور بعده بعشرات السنين [1] .

وليس هنا مقام البحث عن هذه النظرية المعقدة وإن كان العمل بها يبدو سهلاً لأول وهلة . ولكننا لم نأخذ بها على الرغم من المحل الكبير الذي تشغله في الدراسات (الانتروبولوجية) لأنها تهمل الناحية التاريخية . والواقع أن المقبلين على هذه الدراسات أولوا كل اهتمامهم الشعوب البدائية . والمعروف عنها أنها تعيش على العادات والتقاليد ، وأن ليس لها تاريخ مكتوب ولا تحفظ منه غير المنقول سماعاً وأخذه الناس أباً عن جدّ . فمن الممكن والحالة هذه أن يهمل الباحث الاجتماعي الشواهد التاريخية إذ لا سبيل إليها . ولكنه إذا أكب على دراسة أمم عرفت الكتابة منذ أقدم العصور التاريخية فلابُدّ له عندئذٍ من الرجوع إلى كتب التاريخ ليقارن الحاضر بالماضي ليعلم كيف تمّ تطور الأوضاع الاجتماعية على ممر الزمن .

وهناك غيرها من النظريات لا مجال لعرضها هنا . وقد ضربنا صفحاً عنها لأنها لا تتماشى مع الأوضاع الخاصة التي تمتاز بها الشعوب العربية كما بيناه في المقدمة العامة ، وأخذنا بالنظرية التطورية الجديدة وهي تخالف النظرية التطورية المعروفة في نقطتين : أولاً أنها لا تزعم أن الإنسانية في تطورها تمرّ دائماً بنفس المراحل ؛ وثانياً أنها تسلّم أن تطور الإنسان يتم على خطوط مختلفة ، على حسب البيئة الخاصة التي تحيط به والعوامل الإنسانية الخارجية . وعلى الجملة فإن في كتاب « العربية

الجنوبية » محاولة لفهم الخصائص الاجتماعية استناداً إلى عاملين أساسيين لهما أكبر أثرٍ في الاختلاف الثقافي بين الأمم ، وهما المحيط الجغرافي والتاريخ الذي يستقي من عناصر سابقة للتاريخ .

ولهذه الأسباب درسنا أولاً ، في الجزء الأول والثاني ، تاريخ العربية الجنوبية وحضارتها . أما الجزء الثالث فهو يهتم خاصة بـ (الانتروبولوجيا)الثقافية والاجتماعية. وهذا ميدان واسع الأرجاء لأنه يتناول بالبحث جميع مظاهر الحياة الاجتماعية اللاشعورية وأعني بها ما يأخذه الإنسان عفواً عن المحيط الذي يعيش فيه مثل اللغة التي يتكلم بها ، والمعتقدات الدينية والشعبية ، والعادات والتقاليد والأعراف والمراسيم وأسلوب المعيشة والفنون الشعبية ... وأمام تعدد المواضيع لابُدّ للباحث من اختيار أكثرها أهمية ، لاسيما التي يستدل منها على الخصائص الاجتماعية مثل التركيب الطبقي ونظام القرابة والزواج والقضاء القبلي والفن المعماري والصناعات اليدوية .

وبناء على ما تقدم رأيت أن أقدم لقارئ مجلة العرب الفصل السادس من الجزء الثالث ، وفيه بعض الملاحظات عن الأعراف اليمنية وصلتها بالقضاء البدوي .

(للبحث صلة) يوسف شلحد

باريس : المركز القومي للبحث العلمي :

الحواشي :

(١) أحمد فارس شدياق ، سر الليالي في القلب والإبدال ، ج ١٠ ، ص ٤ وما بعدها ، وأيضاً ص ١١ ؛ الاستانة ، ١٢٨٤هـ . وكذلك للمؤلف نفسه : « أعجب العجب في خصائص لغة العرب » . ولاشك أن الشدياق أخذ عن ابن جني نظرية الاشتقاق الأكبر ولكنه وسعها وأضاف إليها بعض المبادئ التطورية في نشوء اللغات ، ويقرر أيضاً بعض مبادئ البنيوية اللغوية .

ما اتفق لفظه وافترق مسمّاه من أسماء المواضع

للإمام محمد بن موسى الحازمي (٥٤٨/٥٨٤هـ)

— ٣٤ —

٢٠٦ — بابُ جُمَالٍ ، وَحَمَّال[١]

أمَّا الأَوَّلُ — بِضَمِّ الجيمِ ، وتخفيفِ الميمِ — : بَلَدٌ نَجْدِيٌّ ، قال حُمَيْدُ بنُ ثَوْرٍ :

صُدُورُ دُوْدَانَ فأعْلَى تُنْضُبٍ فالأشْهَبَيْنِ فَجُمَالُ فالْمَحِجّ

قال الأَوْدِيُّ : دُوْدَانُ : وادٍ والأشْهَبانِ بَلَدٌ وجُمَالُ : بَلَدٌ ، والمَحَجُّ : طريقٌ[٢] .

وأمَّا الثَّاني : أوَّلُهُ حَاءٌ مُهْمَلَةٌ مفتوحةٌ ، ثم مِيْمٌ مُشَدَّدَةٌ : — جَبَلٌ في دِيَارِ بني كِلابٍ[٣] .

٢٠٧ — بابُ جُمُدٍ ، وَحَمَدٍ[٤]

أمَّا الأوَّلُ : بِضَمِّ الْجِيْمِ والْمِيْمِ — : جَبَلٌ قال زَيْدُ بْنُ عَمْرو ابْنُ نُفَيْلٍ الْعَدَوِيُّ :

نُسَبِّحُ اللهَ تَسْبِيْحاً نَجُودُ بِهِ وقَبْلَنا سَبَّحَ الْجُودِيُّ وَالْجُمُدُ

قاله أبو عُبَيْدَةَ مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى[٥] .

وأمّا الثّاني : – بِفتحِ الجيمِ والميمِ – : قريةٌ مِنْ أعمالِ مَدينةِ السّلامِ[٦] .

٢٠٨ – بابُ الجمّاء ، والخمّا[٧]

أمّا الأوّلُ – بعدَ الجيمِ المفتوحةِ ميمٌ مُشدّدةٌ وبالمدِّ – : مِنَ المدينةِ على ثلاثةِ أميالٍ وهي ناحيةُ العقيقِ إلى الجُرُفِ ، قاله الواقدي ، ولها ذِكرٌ كثيرٌ في المغازي ، وقالَ موسى بنُ عقبةَ وغيرُهُ في يومِ أُحُدٍ : وسارَ أبو سُفيانَ بنُ حرْبٍ في جمْعِ قُريشٍ حتّى طلَعوا مِنْ بيْنِ الجمّاويْنِ ونزلُوا بطْنَ الوادي إلى قِبَلِ أُحُدٍ .

وقيلَ : بالمدينةِ جمّاءُ العاقِرِ ، وجمّاءُ تُضارِعَ ، وجمّاءُ أُمِّ خالِدٍ ، جِبالٌ ثلاثةٌ[٨] .

وأمّا الثّاني – أوّلُهُ خاءٌ مُعْجمَةٌ – : في أشْعارِ كَلْبٍ[٩] .

الحواشي :

(١) في كتاب نَصْرٍ : (بابُ جُمَال وجَمَّال وحَمَّال) .

(٢) قال نصر : موضعٌ نجديٌّ – فيما أحسب – ولم يزد . وقد ورد بيت حُمَيْدٍ في ديوانه – ٦٣ – بهذا اللفظ

صُدُوْر دَوْدانَ فأعْلَى تَنْضُبِ ... فالأشْهَبَيْنِ فجُمَال فالمَجَجَ

وعلق عليه الشيخ الميمني قائلاً : البيت في البكري – ١١٨/٢٤٥/٣٥٥ – ودَوْدانُ قال البكري – في كلامه على دوران – : ورد في شعر حُميد بن ثَوْر (دودان) بدالين مهملتين ، وأنا منه أوجر (أوجل) وأظنه دوران – ثم أورد البيت برواية دودان ، ودوران واد يقع فيما بين قُدَيْد والجُحْفَة ، وتنضب هنا قرية من أعمال مكّة بأعلى نخلة ، فيها عين جارية ونخل ، والأشهبان : تثنية أشهب وهما جبلان متقابلان بنجد . وجُمال : قال البكريُّ : إنه بلد . ومجج : ماء لبني عبس . انتهى تعليق الشيخ الميمني ولكن يلاحظ أن الشاعر عطف أسماء هذه المواضع بحرف الفاء مما يدل على تقاربها ، والمواضع الواردة فيما نقل الشيخ الميمني من تعريفها متباعدة ، فدوران وتنضب في تهامة ، والأشهبان في نجد ، ومَجَجُ – الماء الذي لعبس – في حِمَى ضَرِيَّة في نجد ، كما أوضح ذالك الهجريُّ . ثم إنَّ بلادَ الشاعر في جنوب نَجْد ، وأسافل الحجاز الجنوبية خارجة عن تهامة ، ورواية الحازمي للبيت (المحج) .

ويظهر أن ياقوتاً اطلع على كلام الحازمي فقد قال في « معجم البلدان » : جُمال – بالضم والتخفيف – : موضع بنجد ، في شعر حُميد بن ثور الهلالي . وقال : دُودَانُ – بدالَيْن مهملتين الأولى مضمومة – : وادٍ ، في شعر حميد ، وقد ذُكِرَ في جُمال ، ودُودَانُ : قبيلة من بني أسد ، وهو دُودان بن أسد بن خزيمة . انتهى . ولكن قوله : وقد ذكر في جُمَال يستدعي التَّسَاؤُل : هل ما وصل إلينا في مطبوعة «المعجم» ناقصٌ ؟ فليس فيه ذكر لدودان ؟ .

(٣) قال نصر : جَبَلٌ من تناصيب في ديار بني كلاب . وكذا قال ياقوت . كذا وردت (تناصيب) هنا بالتاء ، ولكن نَصْرًا قال أيضاً في (باب الياء) : يَنَاصِيب .. وما أوله ياء تحتها نقطتان وبعد الصاد المهملة ياء تحتها نقطتان : أجبل متحاذيات ، في ديار بني كلاب ، أو بني أسد بنجد ، ويقال : بالألف واللام ، وقيل : أَقْرُنٌ طوال حمر بين أُضاخ وجَبَلَة ، بينها وبين أُضاخ أربعة أميال ، وبخط أبي الفضل : التناصيب : جبال وَبَرِ بن كلاب ، منها الحمَّال ، وماؤها العَقيلة . انتهى . وذكرها ياقوت : يناصيب ، ونقل كلام نَصْرٍ .

وفي كتاب « بلاد العرب » – ٢٠٨ – في الكلام على بلاد بني وبر بن الأضبط بن كلاب – : ومن بلادهم التناصيب ، وهي جبال ، ومما يُسَمَّى منها حَمَّال ، قال الشاعر :

هَلْ تُؤْنِسَن مِنْ جَانِبَيْ حَمَّالِ ... مِنْ ظُعُنٍ يُحْدَيْنَ كَالسَّيَالِ

وبلاد بني وَبَرٍ في عالية نَجْدٍ ، غَرْبَ جنوب ضَرِيَّة .

(٤) لم أرَ نَصْرًا بَوَّبَ لهذا .

(٥) قال البكريُّ في « مُعجم ما استعجم » : الجُمُدُ – بضم أوله وثانيه ، وهكذا ذكره سِيبَوَيْه – إلى أن قال : وهو جبل تلقاء أَسْنُمَةَ المتقدمة الذكر ، قال النُّصَيْبُ :

وعَنْ شمائلهم أنْقَاءُ اسْنُمَةٍ ... وعَنْ يمينهم الأنْقَاءُ والجُمُدُ

وقالَ أُميَّةُ بنُ أبي الصَّلْت :

وقَبْلَنَا سَبَّحَ الجُودِيُّ والجُمُدُ

وقال عن الثَّمَدِ : هما ثَمَدَانِ فالثَّمَدُ غير مُضَافٍ ماءٌ لبني حُوَيرة مِنَ التَّيْم ، قال أَرْطَاةُ بنُ سُهَيَّة :

عُوجَا نُسَلِّمْ على أسْماءَ بالثَّمَدِ ... مِنْ دُونِ أَقْرُنَ بَيْنَ القُورِ والجُمُد

وأورد في رسم (فيحان) لِعَبِيدِ بنِ الأبرَصِ :

فَالجُمُدُ الحافظُ الطَّرِيقَ من الزَّيْغِ ، فَصَحْنُ الشَّقِيقِ فَالأُمُلُ .

وأشار إلى وجود صلة بين (الجُمُد) المذكور في الأشعار التي أوردها ، وقال : إنه جبل تلقاء أَسْنُمَةَ ، غير أنني أرى أن الجُمُدَ المذكور في شعر نُصَيب وأرطاة وعَبِيدٍ – وَصْفٌ للأرض الصلبة وليس اسم جبل . فالموصوفون في شعر نُصَيْب جعلوا أنقاء أسنمة شمائلهم ، وهي في الطرف الشرقي من رمال الدهناء مما يلي وادي الباطن (فَلْج قديماً) وتركوا الأرض الجَلَدَ وبَعْضَ الرمال يمينهم وسلكوا الطريق المتجه غَرْباً إلى الينسوعة (بُرَيْكَة الأجرَدي) – وهو طريق الحج الكوفي القديم – والجُمُدُ في كلام أرطاة وعَبِيد هو الأرض الجَلَد ، أو كما ذكر ياقوت في « معجم البلدان » – رسم جُمْدَان – : والجُمْدُ أضعف الآكام .

وقال عن الجُمُد – بضمتين – : قال أبو عبيدة : هو جبل لبني نَصْرٍ بنَجْد ، قال زيد بن عمرو العَدَوي ، وقيل : وَرَقَة بن نوفل – في أبيات أوَّلُها – ثم أورد البيت – وهو تسعة أبيات – وقال : وقد ذكر طُفَيْلٌ الغَنَوِيّ في شعره موضعاً بسكون الميم ، ولعله هو الذي ذكرناه ، فإنَّ كُلَّ ما جاء على فُعُلٍ يجوز فيه

فُعْلٌ ، نحو عُسْرٍ وعُسُرٍ ، ويُسْرٍ ويُسُرٍ ، قال :

وبِالْجُمْدِ إنْ كَانَ ابن جُنْدُعَ قَدْ ثوى سَنَبْنِي عَلَيْـهِ بالصَّفَـائِحِ والحُجُبِ

ويجوز أن يكون أراد الأكَمَة — كما ذكرنا في جُمْدَان — انتهى .

وقال نصر في مفردات حرف الباء : بُسٌّ جبل لبني نصر وكذا الجُمُد .

جبل بني نَصْرٍ الوارد في كلام أبي عُبَيْدَةَ ونصر ذكره صاحب كتاب « بلاد العرب » — ص ١٢ — في كلامه على بلاد بني نَصْرِ بن معاوية بن بكْرِ بن هَوازِنَ ، فقال : ولبني نَصْرٍ من الجبال : الْجُمُدُ وبُسٌ ، وبلاد هاؤلاء في أسافل أودية الحجاز الواقعة بقُرْب الطَّائف شماله ، وبُسٌ لايزال معروفاً يُشاهَدُ رأي العين من قرية عشيرة ، وهو جانب بارزٌ من الحرَّة أسود ، أما الجُمُد فلم أعرف عنه شيئاً .

وزيد بن عمرو بن نُفَيْل من بني عَدِي بن كعب بن لُؤَيّ ، من قُرَيْش ، ابنُ عمِّ عمر بن الخطاب ، وكان ممن فارق عبادة الأوثان في الجاهلية وتَحَنَّفَ ، ومات قبل نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأخبر عنه الرسول بأنه مات على دين ابراهيم . وابنه سعد بن زيد من العشرة المبشرين بالجنة ، وقد ترجم ابن كثير في « البداية » : ٢٣٧/٢ — زيْداً فأطال في ترجمته .

(٦) قال ياقوت في « معجم البلدان » : الجَمَدُ — بالتحريك — : قرية كبيرة ، كثيرة البساتين والشجر والمياه ، من أعمال بغداد ، من ناحية دُجَيْل ، قرب أوَانَا ، ينسب إليها محمد بن أحمد بن عبدالله الجَمَدي ، ثم ذكر من روى عنه ، وأرخ وفاته سنة ٥٨٥ — ولم يذكر السمعاني ولا ابن الأثير في كتابيهما في الأنساب هذا ولا تلك القرية .

(٧) في كتاب نصر : (باب الجَمَّاء ، والحمَّاء ، وحِمَى) .

(٨) قال نصر : أما بالجيم وتشديد الميم والمَدِّ — : اسم لِكُلٍّ من أجْبُلٍ ثلاثة بالمدينة : جَمَّاء العاقر ، وجمَّاء تُضارع ، وجَمَّاء أمِّ خالدٍ . وأظُنُّ في ديار طَيِّء ما له هذا الاسم . انتهى .

وقال ياقوت في « معجم البلدان » : — بعد ذكر المعنى اللغوي — : والجمَّاء جُبَيْلٌ من المدينة على ثلاثة أميال من ناحية العقيق إلى الجُرُف . ثم نقل عن الزمخشري : الجمَّاءُ جُبيل بالمدينة ، سُمِّيَتْ بذالك لأنَّ هناك جبلين هي أقصرهما فكأنَّها جمَّاء . ونقل عن كتاب المهلَّبي : الجمَّاءُ اسم هضبة سوداء ، وهما جمَّاوان عن يمين الطريق للخارج من المدينة إلى مكة . قال حسان بن ثابت :

وكــان بِأَكْنَـافِ الْعَقِيقِ وَبِيْـــدِه يَحُطُّ مِنَ الجَمَّــاءِ رُكْناً مُلَمْلَمَا

ثم نقل عن كتاب ابن الفقيه الهمذاني وغيره فأطال . وقد أوفى الكلام على الجمَّاوات السمهوديُّ في كتاب « وفاء الوفاء » حيث عقد لها فصلاً خاصًا ، ومما ذكر يتضح أن عمران المدينة قديماً كان قد بلغها حيث اتَّخذَ بعض الأعيان قصوراً بقربها ، فيما بينها وبين العقيق ، وأورد بعض الأخبار الدالَّة على أن في الجماوات آثاراً تدلُّ على قدم العمران في ناحيتها . والجمَّاوات جُبَيْلات لاتزال معروفة الآن ، وعمران المدينة بلغها .

(٩) قال نصر : وأما بالخاء المعجمة — : في أشعار كلب ، وبالشام موضع يقال له الخمَّان — بزيادة نون — لا أعلم أهما موضعا(ن) أم غُيِّرَ اللفظُ . انتهى .

وقال ياقوت في « المعجم » خَمَّاءُ موضع جاء في أشعار بني كلب بن وبرة — ولم يزد على هذا سوى الضبط — وقال أيضاً : — خَمَّان بفتح أوله وتشديد ثانيه — : من نواحي البَثَنِيَّة ، من أرض الشام ، وقال أيضاً : خِمَانُ — بكسر أوله وآخره نون وتخفيف ثانيه — : جبال في بلاد قضاعة على طريق الشام — كذا قال

العمراني وأخاف أن يكون الذي قبله وقد صحفه ، على أنه ذكرهما جميعاً . انتهى .

وقال البكري في « معجم ما استعجم » : الْخَمَّاءُ – بفتح أوله وتشديد ثانيه ممدود – : موضع معروف . !! خَمَّانُ – بفتح أوله وتشديد ثانيه على وزن فعلان – : جبل مذكور في رسم تُرْبان ورَسْم رَهْبَى . وخَمَّانُ أيضاً : موضع آخر بالشام ، قال حسَّان :

لِمَنِ الدَّارُ أقْفَرَتْ بِمَعَانِ ... بَيْنَ شَطِّ الْيَرْمُوكِ فَالْخَمَّانِ

وأضيفُ : أما ما ذكر البكريُّ في رسم تُرْبان ، فهو قول حسان بن ثابت :

يَكَادُ بِعَلْيَاءِ الْعَقِيقِ خَسَوَاتُهُ ... يَحُطُّ مِنَ الْخَمَّانِ رُكْناً مُلَمْلَمَا

كذا أورد البيت ، وهو في « معجم البلدان » – رسم الْخَمَّاء – :

وكان بِأكْنَافِ العقيقِ وَبِيدُهُ ... يَحُطُّ من الخَمَّاءِ رُكْناً مُلَمْلَمَا

فَالْخَمَّاء هي التي على جانب العقيق ، وهي الواقعة بقرب تُرْبَان الوارد في قول حسان بعد البيت المتقدم :

فَلَمَّا عَلاَ تُرْبَانَ وانْهَلَّ وَدْقُهُ ... تَدَاعَى ، وألقى بَرْكَهُ ، وتَهَدَّمَا

وأورد البكريُّ – في رسم رَهْبَى – قول الأسود بن يَعْفُر – النَّهْشلي ّ :

فَإمَّا أنْ تَمُرَّ عَلَى شُرَيْبٍ ... وخَمَّانٍ ، وتَنْتَحِي الشمالاَ

وإمَّا أنْ تَزَاوَرَ نَحْوَ رَهْبَى ... وتَنْتَعِلَ الشقائقَ والرِّمَالاَ

– وقال بعد إيراده – : وهذه مواضع كلها متدانية . انتهى . والشاعر يصف أظعانا متجهة من شرق الجزيرة إلى غربها وهي شرق رَهْبَى . وشرق الشقائقَ والرِّمال من الدَّهْنَاء ، فإذا صَحَّتْ كلمة (خَمَّان) في هذا الشعر ، فهي اسم موضع آخر شرق الجزيرة غير الذي في الشام بِقُرْب مَعَان .

(١٠) وزاد نصر في الباب : الحِمَى بكسر الحاء المهملة وتخفيف الميم والقصر – : بَلَدٌ بِمَان للحارث بن كعب . وحِمَى الرَّبذة موضع ، وهو الذي كَثَّرَ النَّاسُ فيه على عثمان ، وحِمَى فَيْدَ مشهور ، وهو وحِمَى ضرِيَّة أشهرها ، ولكل واحد من هذه جبال تكتنفه ، تُسَمَّى الأَخْيِلَة والأخايل . انتهى . وقد أوفى الهجريّ – فيما نقل عنه السمهوديّ في « وفاء الوفاء » الكلام على هذه الأحماء ، وكلها واقعة في نجد ، ولاتزال أكثر معالمها معروفة .

تطبيـــع

في ج ٧ ، ٨ س١٩ وقع تطبيع (أخطاء مطبعية) رها هو صوابها :

ص	سطر	خطـــأ	صـــواب
٥٦٩	١٩	آل أبي عويمــر	العوارض (بني عــارض)
٥٦٩	٢٢	عيسى بن حسيـــل	عيسى بن حســـين
٥٦٩	٢٢	غزاي بن جـــرير	غازي بن جـــريد
٥٦٩	٢٣	عنــاق بن حــويص	عناق بن حــويت
٥٧٠	١٩	زيحــان بن مــالي	زيــدان بن مالــح
٥٧٠	٢٠	مشنــي بن جـــرو	مشنــي بن جـــرود

أنيف النبهاني .. لا النهشلي

(انظر « العرب » س ١٩ ص ٨٢١)

(وجه الأخ الأستاذ مروان العطية رسالة إلى الأستاذ الأديب الشيخ عبد العزيز الرفاعي – جاء فيها) :

قرأت بحثكم الممتع (من هو أنيف النبهاني ؟) في مجلة « العرب » (س ١٩ ص ٨٢١) فاستمتعت وأفدتُ وهو كما قال شيخنا حمد الجاسر : بحث شيق ممتع يحلو الحديث حوله . ووجدتني مدفوعاً للكتابة حول الموضوع حيث علقت فيما مضى – تعاليق وملاحظات فأحببت أن أسَجِّلَها لِيَتِمَّ بها النفع :

١ – جاء في « الحماسة البصرية » تحقيق الدكتور عادل جمال سليمان – : ١/ ١١٩ – وأخرجها عن مخطوطات صحيحة عثر عليها نفيسة وقعت له ، وبذل جهداً مشكوراً في ترجمة شعرائها وتخريج أبياتها .

وقال أُنيف بن زَبَّانَ النهشليُّ :

١ – ولمَّا التقى الصَّفَّانِ واشْتَجَرَ الْقَنَا
نِهَالاً . وأسبابُ المنايا نِهَالُهَا

٢ – تَبَيَّنَ لِي أنَّ الْقَمَاءَةَ ذِلَّةٌ
وأنَّ أعِزَّاءَ الرِجالِ طِوَالُهَا

٣ – فلمَّا أَتَيْنَا السَّفْحَ مِنْ بَطْنِ حائِلٍ
بِحَيْثُ تَلاقَى طَلْحُهَا وَسَيَالُهَا

٤ – دَعَوْا لِنِزَارٍ . وانْتَمَيْنَا لِطَيِّءٍ
كأُسْدِ الشَّرَى إقْدَامُهَا ونِزَالُهَا

٥ – ولَمَّا التَقَيْنَا بَيْنَ السَّيْفُ بَيْنَنَا
لِسَائِلَةٍ عَنَّا حَفِيٌّ سُؤَالُهَا

٦ – ولمَّا عَضَيْنَا (٢) بِالسُّيُوفِ تَقَطَّعَتْ
وَسَائِلُ كَانَتْ قَبْلُ سِلْماً حِبَالُها

٧ – فَوَلَّوْا وأطْرَافُ الرِّمَاحِ عَلَيْهِمُ
قَوَادِرُ ، مَرْبُوعَاتُها وطِوالُهَا

٨ – ولمَّا تَدَانَوْا بِالرِّمَاحِ تَضَلَّعَتْ
صُدُورُ القَنَا مِنْهُمْ ، وعَلَّتْ نِهالُهَا

وقال المحقق : لم أجدْ له ترجمةً . وذكر التبريزي « الحماسة » (٨٧٠) أنه النبهاني ، لا النهشلي ، وهو الصواب ، فنبهان من طيّء ، والشاعر يذكر أنه من طيء في البيت الرابع .

ثم قال المحقق ، في تخريج هذه الحماسية : الأبيات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ في « الكامل » ١ : ٩١ لأعرابي من بني سعد [سَمَّاه المبرد توبة بن مُضَرِّس] والبيتان : ١ ، ٢ فيه أيضاً ٣ : ١٣٩ (غير منسوبين) ، الحصري ١ : ٣٥٧ ، « المجالس » : ٣٤٣ – ٣٤٤ (غير منسوبين فيهما) ، « الخزانة » ٤ : ١٤٦ لأثال بن عبدة ابن الطبيب والأبيات : ٣ : ٨ مع أربعة في « الحماسة » (التبريزي) ١ : ٨٨ – ٩٠. والبيتان : ٤ ، ٥ في « الأشباه » ١ ، ١٤٢ . والبيت : ١ في « التنبيهات » : ١٠٤، ١٧٣ مع آخر (غير منسوب في الموضعين) .والبيت : ٢ في« المحتسب » ١ : ١٨٤ (غير منسوب) .

وبهذا نجد الأستاذ عادل سليمان يضيف أبياتاً جديدة غير موجودة في الطبعة الهندية ويزيد تخريجات جديدة للنص المحقق .

٢ – ونجد العلاّمة عبد القادر البغدادي يقول في كتابه « خزانة الأدب » : ١٤٦/١ : (والعرب تمدح بالطول وتذم بالقصر ، قال أثال بن عَبدة ابن الطبيب :

ولمّا التقى الصّفّان واختلف القنـا نهالاً ، وأسباب المنـايا نهـالهـا
تبيّـن لي أنّ القمـاءةَ ذلّـةٌ وأنّ أعزّاء الرّجـال طـوالهـا

يريد أن القنا وردتِ الدم ولم تُثْنَ وذلك أن النّاهِلَ الذي يشرب أول شربة فإذا شَرِبَ ثانيةً فهو عَالٌّ .

وقوله : نِهَالُها أي أول ما يقع منها يكون سبباً لما بعده .

٣ ـ ويقول العلاّمة عبد القادر البغدادي في كتابه : « شرح أبيات مغني اللبيب » : ٦٧/٤ ـ ، ما قاله في « الخزانة » إلاّ أن الاسم تصحف في المطبوعة إلى : (أثال بن عبدة بن الطويل) وهذا من غرائب تحقيق الكتاب ، وهو حافل بمثل هذه العجائب .

٤ ـ قال عبد القادر بن عمر البغدادي في كتابه « حاشية على شرح بانت سعاد لابن هشام » : ٥٣٩/١ تحقيق نظيف محرم خواجة (قوله : فإنّ أعزّاء الرجال طيالُها : صوابه : وأنّ أشدّاء الرجال طيالُها ، وهو شاذٌ قياساً واستعمالاً لأنّ القياس والاستعمال طوال ، وكذا أنشده المبرد في أول « الكامل » ثم قال : وأنشدني غير واحد : وأنّ أشداء الرجال طيالُها . وليس هذا بالجيِّد ، وإنما قلب الواو ياء لوقوعها بين كسرةٍ وألفٍ كقولهم : ثياب وحياض والواحد ثوب وحوض ، وهذا جيِّدٌ ، لسكون الواو في الواحد فأما في مثل طوال فإنما يجوز على التشبيه بهذا وليس بجيد لتحرك الواو في الواحد وأنشدني مسعودُ بن بِشْرٍ المازني :

لهم أَوْجُهٌ بِيضٌ حِسَانٌ وأذْرُعٌ طِيالٌ ومِنْ سِيْمَا الملوك نِجارُ

ومجاز هذا في النحو ما وصفت لك . انتهى . وهذا المصراع عجز وصدره :

تبيّنَ لي أنّ القمـاءةَ ذلّـةٌ وأنّ أشـدّاءَ الرجـال طيالها

وهو من قصيدة تقارب أربعين بيتاً ، لأُنيف بن حكيم الطائي النبهاني قالها في وقعة المُنْتَهَب ، كذا قال ابن السيد في حاشيته على « كامل المبرّد » وأورد منها ثلاثة أبيات وعزاها إلى أعرابيٍّ من بني سعد ، وردّ عليه ابن السيد بأنه كيف يمكن

ذالك وقد قال الشاعر فيها : (وانتمينا لطيِّء) وأورد أبو تمام منها في أوائل « حماسته » بيتين أو ثلاثة . وساق منها صاحب « الحماسة البصرية » ثمانية أبيات وهذا مطلعها :

تذكَّرْتَ حُبَّى واعتراكَ خيَالُهَا   وهيْهَاتَ حُبَّى ليس يُرْجَى وِصَالُهَا

وحُبَّى – بالضم والقصر – اسم محبوبته ، وهذه الأبيات الثلاثة التي اقتصر عليها المبرد :

ولما التقى الصَّفَّانِ واختلَفَ القنا   نِهالاً وأسبابُ المنايا نِهالُها
تبينَ لي أنَّ القماءةَ ذِلَّةٌ   وأنَّ أشداء الرجال طوالُها
دَعَوا بِالَسَعْدٍ وانْتَمَيْنَا لِطَيِّءٍ   أسودُ الشَّرَى إقْدَامُها ونِزَالُهَا

قال المبرد : قوله نِهالها ، إنما يريد أنها قد وردت الدم مرة ولم تُثَنِّ وذالك أنَّ الناهل الذي يشرب أول شربة فإذا شرب ثانية فهو عَالٌّ . يقال : سقاه عللاً بعد نَهَلٍ وعَلَلاً بعد نَهَلٍ ، والعالَّةُ لا حاجة بها إلى الشُّرْب ، إنما يعرض عليها تعذيراً ، قال : وأسبابُ المنايا نَهالها أي أول ما يقع منها يكون سبباً لما بعده .

انتهى . قال ابن السيد : الصحيح أن النهال العطاش والهاء عائدة على القنا لا على المنايا ، أي أن عطاش الرماح أسباب المنايا أنها تُحِبُّ الرِّيَّ من الدماء ، والناهل يكون العطشان ويكون الريَّان ، وقد جمع الشاعر اللغتين ، وجعل المبرد الضمير عائداً على المنايا ، وهذا من المواضع التي خَطَّأَهُ فيها عليّ بن حمزة البصري . وقوله : تبين لي ، ألخ : هو جواب لمَّا ، وأنَّ مع معموليها فاعل تَبَيَّنَ ، والقماءة – بفتح القاف والمدّ – : مصدر قَمُؤَ الرجُلُ – بضم الميم مهموز اللام – أي صار قَمِيئاً على وزن فعيل ، وهو الصغير الذليل الحقير ، وإنما كانت القماءة ذِلَّةً لأنه لا يهابه أحدٌ . وقوله : وأن أشداء ، ألخ ، هو جمع شديد ، وروى بدله أبو عمر الزاهد غلام ثعلب : وإن أعزاء الرجال . قال المبرد : العرب تمدح بالطول وتضع من القصر . ثم أورد أبياتاً وحكايات مناسبة ، وقوله : أسود الشرى ، أي كإقدام أسود ، وروي أيضاً : كَأُسْدِ الشرى . وهو موضع كثير السباع ، وقد أورد عليّ بن سليمان الأخفشُ عَشَرَةَ أبيات من هذه القصيدة

وشرحها في « الكامل » بعد إيراد المبرد الأبيات الثلاثة . قال ابن المستوفي في شرح أبيات « المفصَّل »: الشاعر هو أنيف بن زبّان النبهاني من طيء وهو إسلامي .

وأُنَيْف – بضم الهمزة وفتح النون على وزن مصغر – الأنف ، وزبان : بالزاي المعجمة وتشديد الموحدة ، ونبهان : بفتح النون وسكون الموحدة وقال مُغَلْطَاي في « الثغر الباسم » ، وفي هامش الكامل : قال الوزير في « الإينَاس » : وأثال بن عَبْدَة بن الطَّبِيب القائل :

ولمّا التقى الصفان واختلف القنا . . . . البيت[1] .

واسم الطبيب زيد بن مالك ، انتهى . هذا ما رأيته والله أعلم .

٥ – قال صاحب « الايناس » – ١١٠ (وص ٢١٢ طبعة دار اليمامة) : واسم الطبيب : زيد بن مالك بن امريء القيس بن مَرْثَد بن حنظلة بن سُبَيع ابن عبد نُهْم بن جشم بن عَبِشمس . وقد قيل في نسبه غير ذالك ، إلا أنني كذا وجدته بخط إسحاق وعرضه على علماء دهره ، وأنا به أوْثق ، ووجدته بخطه : عَبَ الشَّمْس ، وهذا يوهمني أنه كان يقول : عَبِشَمس ، بكسر الباء ، لأن اللفظ بذالك يقارب اللفظ بصورة الكلمة من خط إسحاق .

وهذا الذي في تميم لا يقال فيه إلا عَبَشمس ، بفتح الباء ، كما قيده ابن حَبيب ، وبسكونها ، كما قيده ابنُ الكلبي . وأصله : عبد شمس ، أي : حَبها ، أي : ضَوْؤها . والعين مبدلة من الحاء .

وقيل : عب الشمس : لعابها .

وإما أن يكون أصله : عبء ، بالهمز ، والعبء : العدل والنظير .

من المراجع :

١ – الإيناس : للوزير المغربي ص ١٨٠ .

٢ – « تاج العروس » (شمس) .

سورية – دير الزور : مروان العطية

الحواشي :

(١) : (العرب : وأورد في « الإيناس » – ص ٢١٤ – : بيتين بعده هما :
تبين لي أن القماءة – البيت –
هتفنا لسعد واعتزونا لطيء أسود الشرى – البيت – .

قصة مثل :

رمح الجميلات في فرسهم

قرأتُ للشيخ عبدالله بن محمد بن خميس في كتابه « من أحاديث السَّمر » ص : ٣٤ – قوله عن (رمْح الجُمَيْلات في فرسهم) فظهر لي أنه – حفظه الله لم يتمكن من معرفة قائله ولا معرفة بلد القائل أو قبيلته .

وحيث أن هذا المثل من التراث الذي ينبغي أن يعرف ويُعَرَّفَ للقراء الكرام كتبت هذا :

صاحب المثل : هو فيصل الجُمَيْلي من قبيلة سُبَيْع من بلدة رَنْيَة . . حدّثني ثقاة من كبار السِّن في رَنْيَة وممن يدعي الانتماء بالأصل إلى فيصل المذكور [١] .

قالوا : إنّ مَنْ يُعرف اليوم باسم (الصَّنادحة [٢]) الفخذ الموجود الآن في عداد عشيرة المراغين من الزكور من سُبَيْع الغلباء هم في الأصل من ذُرِّيَّة (الجُمَيْلي) وهناك آخرون منهم أيضاً يُدْعَون (السَّنادي) في الحدّار من الأفلاج وفي الوادي ونواحيهما وهم مرافقون هناك للدواسر . ولكننا نعرفهم وهم يعرفوننا ونحن منهم وهم منّا . وإن كانت المنازل متباعدة – فكلنا من سبيع – .

وقالوا : كان الجُمَيْلِيّ فيصلٌ وأخوه هجْرِسُ من أصحاب الإبل في البادية بناحية الشمال من رنية في الطرف الشمالي الغربي من عرق سُبيع [٣] مما يلي الحمار . في أناس من قومهم . وكانوا يردون موردهم المعروف اليوم باسم (اللّميْسة [٤]) بانسيّن – وكان فيصل أكبَرَ سِناً من هجرس . وكان مُتَزَوّجاً من ابنة عم . وله منها أولاد وكانوا صغاراً . وذاتَ يوم ورد فيصل وأخوه هجْرسُ

المذكور بإبلهما الماء . وبعد أن شربت الإبل وارتوت من الماء ــ أخذت ناحية من المعطن ، كعادتها بعد الشرب . فذهب هجرس خارج الإبل لبعض شأنه ، وبقي فيصل بجانب البئر . فقال في نفسه : سأعمل عملاً أختبر به أخي هجرس لأعرف منه هل يُحبّني أم لا . فنزع ثيابَهُ ووضعها إلى جانب البئر وقرّب حجراً كبيراً فرماه في البئر ثم اختفى في مكان لا يراه فيه أخوه . فلما عاد هجرسُ ولم يشاهد أخاه نادى فلم يُجبه أحد ، فنظر إلى البئر فرآى الثياب ، فأسرع بالنظر إلى قعر البئر فرآى الماء متحركاً مزبداً . وذالك من أثر رمية الحجر فيه فلم يشك بأن أخاه قد وقع في البئر . فرمى بنفسه وهو لا يحسن السّباحة ، فغرق . وجاء فيصل مسرعاً لإنقاذه . ولكن بعد فوات الأوان حيث وجده قد مات ففجع بسوء عمله وتفكيره . وقد عرف أنه هو الذي سبّب وفاة أخيه بدون ذنب فندم ندماً شديداً وعزم على عدم رؤية أهله وأولاده وقومه بعد هذا الحادث المؤلم . فترك بلاده . وذهب منها ناحية الشرق متخفّياً بين العرب ، سائراً معهم ، حتى استقر به الأمر مع حيّ من قبيلة تغلب وصار معهم أول أمره خادماً لأميرهم وهم لا يعرفون من حاله شيئاً ولا يسألونه عن أمره . فقال : فيما آل إليه من حال :

عوّدتْ عُقْبْ مْرَافَقَ الْهِجِنْ حشّاش (٥) ،
وهَجْسِي أنّي ابيــع (التفق) لي بْشومِي (٦)
وَاجِيْبِ لْزَيْنَــاتَ الْخَلاخيــلْ بِفْرَاشْ ،
وأثــاني مِــنْ عَالْيَــاتَ الرجُــوم

ثم دارت الأيام : ــ كانت حوادث الغزو والنهب والقتل شعار ذالك الزمان . فأُغير على القوم الذين هو فيهم وهم غارّون . فشارك الجميلي في صدّ الغارة فأظهر شجاعة وفروسيّة نادرتين لفتتا أنظار القوم إليه مما أكسبه احترامهم وتقديرهم له بعد ذالك . فقال له أميرهم : أطلب ما تُريده ! فطلب الزواج من ابنته (جهم) فحقق رغبته وبقي معهم وأنجبت له (جهم) ثلاثة بنين .

ثم إن القوم أخذوا يغارُون منه فدسّ عليه بعضهم حتى ظهر له أن بعض سفهائهم يقول : إن فيصل ليس له أصل (ضائع أصل) فحزّ ذالك في نفسه فعزم على الرّحيل إلى بلاد قومه وقد بلغ من العمر أرذله وأصبح أبناؤه رجالاً . فأخبر زوجته بما عزم عليه من رحيل وخيّرها في الذهاب معه أو البقاء في أهلها فاختارت البقاء : — فقال يوصيها : —

يا (جهم) وانْ زَاعْنَا عَنْك نيّهْ ... حَاذُورْ مَفْلُولَ الرجالْ حَذَارْ ! !
لاَ تَاخْذِينْ غَمْرٍ على شَانْ مالِهْ ... يِحطك جَوْفَ الصَّايْبَاتْ غَيَـارْ
ولاَتَاخْذينْ عَوْدٍ قَدَاقْفَى شبابِهْ ... يموتْ وعيَالِهْ عَلَيك صْغـارْ
لاَ تَاخْذِين الاّ رَجْلٍ مجـرّب ... رُمْحه نَهارَ الكاينَـات كْسَـارْ

ثم قال : أيضاً — يصف طريق العودة وموضع بلاده :

أنا الجميـلي والجميـلي فيصـل ... عـلى دَالْنهَات كَأنّهـنْ جْمالْ
لهـنّ ظلال في الضحى طاردَاتـه ... ومستتبعَـاتٍ في العْصَيْر ظْلاَلْ
يا دِيْرتي يا جَاهْلِين وْصُـوفها ... منْها الْعَرْوق التّايْفَاتْ شمَال[٧]
يَامَا حلَىوَرْدَةْ حَنَـايا بْفَاطْري ... لْيَالَجَ مُجَال لهـا وعمَـالْ[٨]
عليها فَيٍّ وفَيٍّ[٩] مَنَ الغَضَـا ... وعليها مِنْ فَيّ العـرين ظْـلاَلْ
يجيها مَال مِنَ الحمَّانْ حمَّان صَلَقْعَ ... مـال يَتْلُوه قبٍّ كالسّيَالْ[١٠]
ويجيها من يعومـه مال واردْ ... مـال أوَيّ والله مـالْ[١١]
يَا دِيْرتي فيْها ثمـانين عَيْلَـمْ ... واثمانْها الآلاف يوم تكـال[١٢]

وهي أطول من هذا .

ثم رحل بأولاده وبإبله عن القوم وفارق جهماً وسار إلى بلاده ناحية رنية . ولما قَرُب منها . وأصبح في طرف العرق فما يليها في الموضع المسمى (الخُلَيّج[١٣]) قال : لأولاده : أقيموا هُنَا وأنا سأذْهَبُ وأعود إليكم . فركب جواده وسارَ يبحث عن أولاده الذين تركهم ، حتى اهتدى إلى موضعهم . ولكنهم لم يعرفوه

لطول العهد . وقد ظنوا أنه قد مات ، ولكن أمهم أخذت تلحظه وتطيل النظر إليه ، فقالت لهم : هذا أبوكم الجميلي . فلم يصدقوها . فقالت :إن فيه عادة إذا ناوله أحدٌ الإناء وهو واقفٌ خلفه لا يتناوله دون أن يلتفت . فجربوا ذالك فكان كما قالت ، ولمَّا تمّ التعارف قال لهم : لست لكم بأب مادام الأعداء يرعون دياركم منذ ثلاثة أيام ولا أحد منكم يعلم بهم وكان يعني أبناءه الذين أمهم جهم .

فسألوه عن هؤلاء الأعداء . فأشار إلى موضعهم فلما أصبحوا شنُّوا الغارة عليهم . أمَّا هو فتأخَّرَ قَليلاً عنهم ثم لحق وقد بدأت المعركة بينهم . وعند اللقاء أرْسل أحدُ المغيرين رمحه فأصاب فرساً لأحد أبناء جهم وثبت فيها الرمح عالقاً . فصاح فيصل قائلاً : العافية — العافية (رمح الجُمَيْلاَت في فرسهم) فصارت مثَلاً حتى الآن ، يضرب للقوم يأتيهم الأذى من أنفسهم ، وتَمّ التعارف والتصافي بعد أن علموا من والدهم بكل ما جرى وبقوا زمناً في كنف والدهم حتى توفي فعاد أولاد جهم إلى موطن أخوالهم ، واستقروا هناك ، وهم كما ذكرنا اليوم — ناحية الأفلاج في الهدّار ووادي الدواسر .

رَنية : فهيد بن عبدالله بن تركي السبيعي

الحواشي :

(١) فضلت نقل القصة عمن له صلة نسب أكيدة بالجميلي ، كالمرحوم بنيان بن الرصيص بن فلاج توفي وعمره نحو مئة عام ومسلط بن مسلط . يبلغ من العمر فوق ٨٠ عاماً كان عضواً في هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في رنية .

(٢) الصنادحة : هم : الفلاليج وآل سويد .

(٣) يعرف قديماً برملة بني عبدالله بن كلاب انظر « بلاد العرب » للأصفهاني .

(٤) المليسة — بئر قديمة تقع في الحمار ، وهي من بني غي في الغرب ومن غرب جهة الشمال .
والحمار حزن تمتد فيه أبارق وأبراث ويقع شمال العرق مما يلي جبل ظلم وطريق نجد إلى الحجاز القديم .

وعن المليسة — حدثني مسلط قائلا : إنه باعها رجل منهم في الماضي يدعى : هجيرس على

أحد رجال البادية في ناحيتها وفي عهد ابن لؤي أمير الخرمة حدث فيها نزاع وخصومة فأرسل لنا ابن لؤي رسولا بشأنها ونحن في رنية لأنه يعلم أنها كانت لنا .

(٥) يأتي بأنواع الأعشاب للحيوانات .

(٦) العصا . والتفق (تفنك – تركية) : البندق .

(٧) العروق : مفردها عرق : وهو يقصد عرق سبيع .

(٨) حنايا : اسم بئر لهم تقع على ضفة وادي رنية مقابل نهاية جبل سلي شمالا مما يلي مجرى الوادي وهي مشهورة تردها البادية وهي بئر زراعية أيضاً . أنظر ص ١٦٨ من الكنوز الشعبية .

(٩) الفي : هنا بمعنى الظل : والغضا والعرين من أشجار الحمض الكبيرة التي تكثر في وادي رنية وما زالت .

(١٠) قب كالسيال : الخيل : والحمان : مجموعةأبرات في حقف رمال حنجران شمالا ويقابلها شمال شرقي جبل زنانير وبينها وبين ضلفع حبال رمل حنجران .

(١١) يعومة : بضم أوله وثانيه ، كأنه أخذ من العوم . والجمع يعايم وهن هضاب مركزة في قف من الأرض مرتفع . ولعل اسمهن مشتق من صفتهن والعرب قد تطلق من الأسماء ما يوافق الصفات . وهن شمالي مدينة رنية على بعد ٣٥ كيلا فقط يتوسطن الشعاب الكبيرة المنحدرة من المرتفعات الشمالية الغربية من رنية والنازلة إلى عرق سبيع وعندهن جرت عدة وقائع بين قبائل سبيع وقبائل من قحطان ومن يام وغيرهم . وذالك في منتصف القرن الثاني عشر الهجري وما بعده ولذالك ذكر يطول .

قال شاعر من سبيع :

يـاطـير يالي في (يعومـه) تثني   دوك الحـم أرهوه ربـع مناعير

وقال شاعر من يام ، يتأسف لما أصاب قومه ، في يعومه :

يـاحيفـا ياغلمة فـي يعـومـه   كلتهـم الرمضـا وذوب الفتايل

وذالك أن الوقعة جرت في اشتداد الهاجرة بعد حصار بدأ من أول النهار .

(١٢) عيلم : غزيرة الماء ، وهي آبار زراعية مشهورة مثل الرجع وجلاجل وحنايا والحفائر وغيرها أنظر صحيح الأخبار ص ١٢٠ ج ٤ والكنوز الشعبية ص ١٦٨ .

(١٣) الخليج : بسكون الياء (؟) على صيغة التصغير (؟) .

هو جزء من وادي رنية ينشعب منه عند الحد الغربي من المعمور من الروضة قاعدة رنية ناحية الشمال الشرقي ، وسيله يغمر منازل الأهالي في المدينة من الغرب إلى الشرق وفيه يصب وادي الأغر يأتي له من الشمال الغربي ويصب فيه في وسط المدينة وعندما يخرجان ناحية الشرق منها يسمى (الخر) يذهب ناحيته حتى تحويه رمال عرق سبيع من كل ناحية فيريع ماؤه ، ويبقى وله عطوف فيها مراع جيدة للبادية وهو في الشرق منرنية على بعد ٢٥ كيلا أنظر « الكنوز الشعبية » ص ١٣٣ ج ٣ .

□ « جمهرة النسب » :

هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفي سنة ٢٠٤هـ تقريباً ، يعتبر إمام علم النسب وأكثر ما وصل إلى الباحثين في عصرنا وأهمها ، مما خلفه هذا العالم في هذا العلم .

وقد قامت لجنة التراث العربي في الكويت ، فشرعت في نشر كتاب « جمهرة النسب » من تأليف ابن الكلبي بتحقيق الأستاذ عبد الستار فراج ، فصدر الجزء الأول سنة ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م) يحوي من أول الكتاب إلى آخر نسب هذيل (انظر العرب س ١٩ ص ١٣١) ويظهر أن العمل توقف ، وقام بعد ذالك الأستاذ محمود فردوس العظم بنشر الكتاب بطريقة تغاير الطريقة المعهودة ، ذالك أنه عمد إلى الكتاب فصار ينسخه بخط يده ، ثم ينشر ما نسخ مصوراً مضيفاً إليه تعليقات وحواش كثيرة ، من أهمها : التعليقات التي في دوامش مخطوطة « مختصر الجمهرة » في مكتبة راغب باشا في اسطنبول .

وقد صدر الجزء الأول من عمل الأستاذ محمود فردوس العظم ومراجعة الأستاذ محمود فاخوري وتقديم الدكتور سهيل زكار ، صدر الجزء الأول في ٤٣٤ صفحة من القطع الكبير .

ويحوي مما في الجمهرة إلى ذكر المغتربات من بني هاشم بعد نسب بني طابخة ابن الياس بن مضر .

وصدر الجزء الثاني على طريق الجزء الأول من حيث النسخ والتصوير في ٤٢٨ صفحة كبيرة حاوياً لأنساب قيس بن عيلان بن مضر ، وربيعة بن نزار بن معدّ ، وأول نسب الأزد .

وفي الجزءين تعليقات للمحقق الفاضل نقلها من أمهات الكتب المعروفة . واعلها من (لزوم ما لا يلزم) .

ومهما يكن فإن إخراج هذا الكتاب الذي يعتبر أهم مصدر للباحثين في علم الأنساب من القرن الثالث الهجري إلى عهدنا – يضيف ذخيرة قيمة لمصادر الثقافة العربية ، باعتبار علم الأنساب هو الأساس الأول الذي قام عليه علم التاريخ عند العرب .

☐ « **فضائل بيت المقدس** » :

وقام الأستاذ محمد مطيع الحافظ ، بنشر كتاب « فضائل بيت المقدس » للإمام محمد بن عبد الواحد المقدسي المتوفي سنة ٦٤٣ . عن نسخة مخطوطة بقلم المؤلف في دار الكتب الظاهرية بدمشق ، وقد جاء الكتاب في ١٣٦ صفحة بطباعة حسنة ، يحوي ترجمة للمؤلف عن أسرته ونشأته ومؤلفاته ، ووصف كتابه في ٢٦ صفحة من صفحات الكتاب ، وصدر عن دار الفكر مطبوعاً في المطبعة العلمية بدمشق سنة ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م) .

☐ « **فضائل المدينة** » :

رسالة ألفها أبو سعيد المفضل بن محمد بن إبراهيم الجندي اليمني المكي المتوفي سنة ٣٠٨ ، وقام بتحقيقها الأستاذان محمد مطيع الحافظ ، وغزوة بدير ، وجاءت مع مقدمتها وفهارسها في ٧٢ صفحة من القطع الصغير .

ومعروف رأي علماء الحديث في أحاديث الفضائل،والمحققان الفاضلان أضافا إضافات نافعة في تخريج الأحاديث إذ مؤلف الكتاب يوردها بأسانيد بروايته هو ، وأصل المخطوطة في دار الكتب الظاهرية بدمشق والرسالة مفيدة في موضوعها لكثرة ورود أحاديثها في كتب تاريخ المدينة المنورة ، منسوبة إلى الجندي مؤلف الرسالة المذكورة .

☐ « **السلوك في طبقات العلماء والملوك** » :

هذا الكتاب يعد من مصادر تاريخ اليمن من حيث الأحوال السياسية ، ومن حيث تراجم الأعيان، ومؤلفه هو محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي – بفتح النون ، نسبه إلى مدينة الجند – الشافعي ، المتوفي سنة ٧٣٢ ، بدأ كتابه بعد الكلام على التاريخ ،

وسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم باختصار ، فذكر ولاة اليمن في عهد الرسالة ، ثم استمر في تسجيل تاريخ ذالك القطر دولاً وتراجم إلى عصره . وقد قام مؤرخ اليمن في هذا العصر العلامة المحقق محمد بن علي الأكوع الحوالي بتحقيق الكتاب ، فصدر الجزء الأول منه ، في ٥٥٢ صفحة ، وينتهي بترجمة ابن الحطاب الزبيدي ، المتوفي سنة ٦٦٥ مزداناً بحواش توضح ما يحتاج إلى توضيح من تعريف بعض المواضع وترجمة بعض الأعلام وإيضاح معاني بعض الكلمات العامية اليمانية .

ويظهر أن الأستاذ الجليل المحقق لم يصحح تجارب الطبع ولهذا وقع في الكتاب من التطبيع ما حرف بعض الأسماء .

وصدر الكتاب عن وزارة الإعلام والثقافة في صنعاء ، وهو الحلقة الثانية عشرة من سلسلة (مشروع الكتاب) وتاريخ الطباعة ١٤٠٣هـ (١٩٨٣م) بدون ذكر اسم المطبعة ويظهر أنها في بيروت .

□ « معجم الأسماء الجغرافية » :

ويقوم الأستاذ الدكتور أسعد سليمان عبده – في قسم الجغرافيا كلية الآداب جامعة الملك سعود – بجهد مشكور في مواصلة الدراسات الجغرافية عن بلادنا وإمداد الباحثين بثمار طيبة لهذه الدراسات منها :

١ – معجم الأسماء الجغرافية المكتوبة على خرائط المملكة العربية السعودية ويعني بها إحدى وعشرين خريطة تغطي كافة أراضي المملكة وأجزاء من الأراضي والبحار المحيطة بها بقياس رسمها ١ : ٥٠٠٠٠٠ . رسمت في أزمنة مختلفة من سنة ١٣٧٥ إلى سنة ١٣٨٢ وقد قام الدكتور أسعد بدراستها دراسة دقيقة واستخرج منها أسماء المواضع ورجع إلى مؤلفات قديمة وحديثة للإستفادة منها في تصحيح بعض تلك الأسماء وقدم دراسته في كتاب يقع في ٤٨٤ صفحة رتبت الأسماء على حروف المعجم ، ثم ذكر موقع كل اسم وتحديد هذا الموقع بخطوط الطول والعرض ثم وصفه

هل هو قرية أو جبل أو بئر أو غير ذلك ، ثم الإشارة إلى الكتاب الذي رجع إليه في دراسة الاسم .

ويحوي هذا المعجم من الأسماء الجغرافية المكتوبة على الخرائط ٧٤٥٣ اسماً .

٢ – معجم أسماء الأماكن في المملكة العربية السعودية على خريطة جزيرة العرب . وهو صنو الكتاب الأول وهو خاص بالأسماء المكتوبة على خريطة جزيرة العرب (مقاس ١ : ٢٠٠٠٠٠٠) التي أعدت من قبل مصلحة المساحة الجيولوجية الأمريكية وشركة الزيت العربية الأمريكية تحت رعاية المملكة العربية السعودية ووزارة الخارجية في طبعتها الثانية سنة ١٤٠١/١٩٨١ .

وقد نقلت الأسماء الجغرافية المكتوبة على الخريطة ضمن حدود المملكة مع تحديد موقع كل مكان بدرجات العرض والطول وذكر المكان : (جبل – وادي – مكان مسكون) . وقد رجع الأستاذ الدكتور إلى كثير من الكتب الحديثة التي عنيت بتحديد الأماكن وضبطها في المملكة ورتبت على الحروف الهجائية وحاول الأستاذ تصحيح كثير من الأسماء بإيراد الاسم الصحيح بعد ما هو مكتوب في الخريطة ، وجاء هذا الكتاب في ١٣٢ صفحة .

وطباعة الكتابين حسنة وصدرا سنة ١٤٠٤/١٩٨٤ عن (مكتبة المدني للطبع والنشر والتوزيع) في جدة .

٣ – وقد نشر الأستاذ الدكتور أسعد كتاباً ثالثاً يتعلق بتصحيح الأخطاء الواقعة في الأسماء الجغرافية المكتوبة على خرائط المملكة الإحدى والعشرين التي خصص كتابه « معجم الأسماء الجغرافية » الأول المذكور ها – أفردها في كتاب خاص معتمداً في التصحيح على المؤلفات الحديثة من أقسام « المعجم الجغرافي البلاد العربية السعودية » وغيره من المؤلفات .

ولاشك أن جهد الدكتور أسعد في هذه الناحية جهد جدير بالتقدير لما له من أثر نافع في هذه الناحية العلمية التي تصدى لدراستها وللتأليف عنها .

العنوان
شارع الملك فيصل هاتف ٤٠٢٢٩١٥
ص.ب ١٣٧ الرمز البريدي ١١٤١١
الرياض - المملكة العربية السعودية

العرب
مجلة شهرية تعنى بتراث العرب الفكري
صاحبها ورئيس تحريرها : حمد الجاسر

الاشتراك السنوي
١٠٠ ريال للأفراد و ٢٠٠ ريال لغيرهم
الإعلانات : يتفق عليها مع الإدارة
ثمن الجزء : ١٧ ريالاً

(ج٧، ٨ س ٢٠ - محرم / صفر ١٤٠٦هـ - أيلول / تشرين أول (سبتمبر / اكتوبر) ١٩٨٥م)

كشف الحجب والستور
عما وقع لأهل المدينة مع أمير مكة سرور
- ١ -

أتحفني الأستاذ الدكتور عبدالله عبد الرحيم عُسَيلان عميد شؤون المكتبات في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بنسخة مصورة من رسالة أَلَّفَهَا أحَدُ علماء المدينة عن إحدى الحوادث التي جَرَتْ فيها عام ١١٩٤هـ فرأيتُ في طرافة موضوعها ، مع نُدْرَة المؤلفات المتعلقة بتاريخ طيبة الطيِّبة منذ القرن التاسع حتى عهدنا - ما رغَّبني في إطلاع القراء عليها .

مؤلف الرسالة : لم أجد - فيما بين يديَّ من المراجع - ما تتَّضح به معالم حياة المؤلف سوى لمحات تَبَيَّنْتُها من الرسالة ، أو قرأتها في كتاب طبع حديثاً مجهول المؤلف بعنوان « تراجم أعيان المدينة في القرن الثاني عشر » نشرته دار الشروق في جدة ، سنة ١٤٠٤هـ .

فهو في طُرَّة الرسالة السيد زين العابدين بن السيد محمد البرزنجي ، ووالده كما يفهم من فحوى مشاركته في الأحداث العامة التي وقعت في تلك الحقبة من أعيان المدينة . وزين العابدين لقب أما الاسم فهو - على ما ورد في كتاب « تراجم أعيان المدينة » محمد[1] وسياق نسبه هكذا - كما يفهم من هذا الكتاب : السيد محمد زين العابدين ابن محمد الهادي بن حسن بن عبد الكريم بن محمد بن رسول البرزنجي .

وأسرة البرزنجي من أشهر الأسر المدنية منذ استوطن مؤسسها السيد محمد بن رسول في المدينة في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري إلى يومنا هذا .

ومن مشاهير هذه الأسْرة – بل من مشاهير علماء عصره – محمد بن رسول البَـرْزَنْجِي . الذي وصفه أحد مترجميه بأنه مجدِّدُ القرن الحادي عشر[٢] ، ولد في شَهْرزُور في شمال إقليم كُرْدِستان في ربيع الأول سنة أربعين وألف[٣] ، وقرأ على والده وعلى علماء بلاده ، ودخل أكثر المدن الإسلامية ، وتلقى العلم عن علمائها ، ثم استوطن المدينة ، وتصدَّر فيها للتدريس ، وصار من سراة رؤسائها – كما قال عنه صاحبه وتلميذه ابن فتح الله الحلبي المكي في كتابه « فوائد الارتحال ونتائج السفر[٤] » : علاّمة المعقول والمنقول ، وإمام أهل الفروع والأصول ، ألف التصانيف العجيبة منها وهو أجلُّها « أنهار السلسبيل ، في شرح أسرار التنزيل » – للبيضاوي – و « الإشاعة في أشراط الساعة » ثم ذكر بعض مؤلفاته ، وأشار إلى حادثة وقعت له بالمدينة – لم يوضّحها – بل ذكر أن أكابر المدينة رفعوا أمره إلى القاضي ، وأراد بعض المتعصبين قتله ، فتَحبَّس أياماً ، إطفاء للفتنة ، ثم خرج إلى مكة ومنها سار صحبة الحج الشامي إلى بلاد الرُّوم – يقصد الترك – وكانت له منزلة علية عند كبرائها لتكرر ذهابه إليها ، فشكى ما حصل له من أناس من أهل المدينة،وأخرج فيهم أوامر سلطانية على ما أراد ، ورجع إلى المدينة ، ومرض قبل وصوله إليها أياماً ، ومات ظهر اليوم الذي وصل في أوله . وكانتْ وفاته في غرة المحرم سنة ثلاث ومئة وألف . انتهى ملخصاً وهذا هو جَدُّ الأسرة البرزنجية ، الجدُّ الثالث لزين العابدين محمد صاحب الرسالة . ومن مشاهيرها أيضاً : جعفر بن حسن بن عبد الكريم بن محمد ، وهو من أبرز علماء المدينةوله مؤلفات كثيرة ، وقد نشرت له في مجلة العرب[٥] رسالة بعنوان « النفح الفرجي في فتح جيتَهْ جِي » . وهو عمُّ صاحبنا الذي نتحدث حوله . أما جده حسن فكل ما أعرف عنه ما ذكره صاحب كتاب « تراجم أعيان المدينة » من أنه توفي بمصر ، وذكر من مؤلفاته « نفثة المصدور » و « النجم الثاقب » في المولد .

ثم اطَّلَعْتُ في رسالة « الأخبار الغريبة ، في ذكر ما وقع بطيبة الحبيبة » أنَّ حَسَنًا ولد سنة مئة وألف وتوفي مختفياً في بيت السيد محمد النحال بمصر ،

سنة خمس وأربعين ومئة وألف (١١٤٥هـ) ورثاه السيد جعفر البيتي المدني بقصيدة وردت في الرسالة المذكورة ، ذكر فيها أنه مات بالطاعون .

وكان قد هرب إلى مصر حين أمرت الحكومة التركية بقتله وبقتل والده عبد الكريم – الجد الثالث لصاحب الرسالة – بسبب وقوع فتنة بين أهل المدينة وبين أغوات الحرم في سنة أربع وثلاثين ومئة وألف لخّص خبَرَها صاحب كتاب « خلاصة الكلام[٦] » بأنَّ رَجُلاً من توابع الأغوات رغب التوظيف في وظيفة عسكرية فامتنع كبار العسكر من تحقيق رغبته ، لأنه كان موظفاً فوقعت منه خيانة فأخرج من العسكرية ، فأصَرَّ الأغوات على توظيفه ، فانضم أهل المدينة إلى كبار العسكر في عدم إدخاله العسكرية فاتّسَع الأمر حتى آل إلى القتال ، وبدأ به ذالك الرجل وأعوانه من الأغوات وبعض قبائل حرب ، فَرُفِع الأمرُ إلى قاضي الشرع ، فأرسل للأغوات بمنعهم من الفتنة وبطلب حضورهم لمجلس الشرع فامتنعوا من الكفِّ ومن الحضور عند القاضي ، فسجَّلَ عليهم أنهم عُصاة بُغَاة يجب قتالهم ، فشرعت العساكر وأهل المدينة في ذالك ، وضيَّقوا عليهم ، وقُتِل في تلك الفتنة أشخاص من الفريقين ، وعُطِّلَتْ صلاة الجماعة في المسجد النبوي ، فجنحوا للسلم ، فامتنع العساكر وأهل المدينة إلاّ بعد إحضار الأغاوات القائمين مع الرجل – واسمه علي قنا – وحبسهم في قلعة السلطان ، بالوجه الشرعي ، ثم يُرفع أمرهم إلى نائب السلطان في الحرمين الشريفين وهو أمير مكة الشريف مبارك بن أحمد بن زيد ، فحضر خمسة من الأغاوات كانوا رأس تلك الفتنة فَحُبِسُوا في القلعة ، ورفع الأمر إلى شريف مكة ، فطلبهم إلى مكة لإقامة الدعوى ، فوصلوا ، وحضر معهم مفتي المدينة السيد محمد أسعد ، وجماعة من أعيان المدينة ، فعقد الشريف مبارك لهم مجلساً حضره من جاء من المدينة . وقاضي مكة ، ووالي جدة إبراهيم باشا ، ومفاتي مكة وجماعة من علمائها وأعيانها ، فأقيمت الدعوى ، وثبت الخطأ على الأغوات ، فأمر الشريف مبارك بحبسهم في داره حتى يرفع الأمر إلى الدولة ويأتي الجواب ، فجاء بتنفيذ الحكم الذي حكم به قاضي المدينة على الأغاوات ، وأجروا عليهم العقوبات المحكوم بها من عزْلٍ أو نفيٍ . ثم مازال الأغاوات يسعون في

الانتقام من أهل المدينة بسبب هذه الحادثة ، ووسطوا لذالك الوسائط ، ورحل بعضهم إلى أبواب السلطنة حتّى انتقموا من كثير منهم . وكان من جملة من اتُّهِم بدخوله مع أهل المدينة في هذه القضية العالم الفاضل السيد عبد الكريم بن محمد البرزنجي وابنه حسن ، وكان الأغاوات عرضوا للدولة أسماء أولئك الجماعة ، الذين اتّهموهم في الدخول في تلك الفتنة ، فجاء الأمر من الدولة بقتل بعض أشخاصٍ ونفي آخرين ، فكان السيد عبد الكريم وابنه حسن من جملة المأمور بقتلهم ، ففرّ ولده قبل مجيء الأمر إلى مصر ، وبقي والده بالمدينة فصعب عليهم قَبْضُهُ بالمدينة ، فحسّن له بعض أعدائه الخروج إلى مكة ، فلما وصل إليها قبض عليه وزير جُدَّة أبو بكر باشا ، وأنفذه إلى جدة ، وحُبس بالقلعة ، ثم أمر بقتله ، فقتل خَنْقاً ، ورُمِيَ في سوق جُدَّة يوماً كاملاً ، ثم رفعه بعض أهل الخير بشفاعة والتماس ، وغُسِّلَ وكفن ، ودُفِن بجدة ، وهرعت الناس إلى جنازته ، وقبره مشهور ، يعرف عند أهل جُدَّة بالمظلوم ، وكان قتله في ثامن ربيع سنة ست وثلاثين ومئة وألف . انتهى .

ووالد المؤلف من أعيان أهل المدينة ، كما يفهم من مشاركته في الأحداث المذكورة في الرسالة ، هذا عن بعض سلف المؤلف ، وعنه هو فقد ذكر صاحب « تراجم أعيان المدينة في القرن الثاني عشر[٧] » – بعد إيراد اسمه ما نصه : (المدفون بسُوَيس ، بتربة عبدالله الغريب ، له :

١ – مولد – نونية – .　　　　٢ – مِعْرَاجيَّة .

٣ – نظم أهل بدر – همزية – .

ابناه السيد محمد الهادي ، وإسماعيل في بغداد . انتهى . ولم يَرِدْ في النسخة المطبوعة من الكتاب « تراجم أعيان المدينة » عنه أكثر من هذا . ومع أنه ورد فيه الإشارة إلى أنّ وفاته – بَلْ قَبْرَه – في السُّوَيس ، إلاّ أنه ليس لتاريخ وفاته ذكر . ويتضح من رسالته أنه من خطباء المسجد النبوي وقد أورد خطبة له ، لها صلة بالموضوع .

ويظهر أنّ انغماس الرَّجُل في غمار الحوادث التي وقعت في المدينة — ومنها الحادثة التي ألّف عنها رسالته — كان من الأسباب التي أبعدته عن وطنه ، خوفاً من أن يصيبه ما أصاب جَدَّهُ عبد الكريم ، ويظهر أنه سافر إلى مصر في آخر سنة ١١٩٦هـ حين تصالح الشريف سرور مع أمير الحج الشامي محمد باشا ، الذي كان ضالعاً مع أهل المدينة في أول الأمر ولكنه بعد أن جرى الصلح بينه وبين سرور قبض على ثلاثة من رؤساء عسكرها وثلاثة من أعيان أهلها من أهل النفوذ فيها .

ولما انتقل إلى مصر جُهِلَتْ أخباره ومنها تاريخ وفاته ، بينما كثير من أقرانه ومعاصريه من ذوي المراتب الدينيّة في المسجد النبوي كالخطباء — تصدّى مؤلفو كتب التراجم لإيراد تراجمهم ، ولكن كثيراً من أولئك المؤلفين ينطبق عليهم قول الشاعر :

والناسُ أعوانُ مَنْ وَالَتْهُ دَوْلَتُهُ   وهُمْ عليه إذا عَادَتْهُ أعْوَانُ

حتى صاحبه ومعاصره الشيخ عبد الرحمن الأنصاري صاحب كتاب « تحفة المحبين والأصحاب » ذكر الأسرة البرزنجية وسمّى مشاهيرها سواه . مع أنّ صاحب الرسالة استشهد ببيتين من شعر الأنصاري . ويستطيع القارىء أنْ يَسْتَشِفَّ أُسْلُوبَ المؤلف ، ويَلْمَحَ جَوانب — وإنْ لم تكن واضحة — من منزلته العلمية من رسالته هذه التي حاول أن يبرز من خلالها بمظهر الكاتب المتأنّق في أسلوبه ، بالتزامه السَّجْع ، وإيراد بعض المحسِّنَاتِ اللفظية ، فوقع — بسبب ذالك الالتزام — في كثير من الأخطاء النحوية ، واستعمال كلمات أعجمية تغلغلت في اللغة العربية من أثر استيلاء الأتراك على الحجاز منذ أوائل القرن العاشر الهجري .

بل إنّ المؤلفَ بدا في رسالته هذه غارقاً في تَيَّارِ الجمود ، كحالة أهل عَصْره — إلاّ مَنْ عصمه الله منهم — ولهذا ملأ رسالته هذه بعبارات التعلق بالمصطفى — عليه أفضل الصلاة والتسليم — تَعَلُّقَ المستجير المستنجد، الذي لا يُفَرِّقُ بين ما يجب

أن يُصْرَفَ خالِصاً لله وحده ، وبين ما هو لرسوله ، فالاستجارة والاستغاثة والدعاء ، وطلب النصر على الأعداء ، من أمور العبادة التي لا يجوز صرفها إلا لله سبحانه وتعالى ، والرسول عليه الصلاة والسلام تَجِبُ مَحبتُه وطاعتُه وتعظيمه باتباع أوامره واجتناب ما نهى عنه والتقيُّدِ في جميع أمور الدين بشرعه ، الثابت بنصوص الكتاب الكريم وبالصحيح من أقواله وأفعاله عليه الصلاة والسلام .

وقد تَرَدَّدْتُ حين ظهر لي من صنيع المؤلف ما أوضحتُ ، في نشر رسالته بين أمْرَيْنِ :

هَل أُهْمِلُها لما تحويه من آراء ، قد يكون في نشرها ما يعين على ترويجها . وفيها مايكاد يُدْمِي القلب أسىً من حالة بعض المنتسبين إلى العلم في ذالك العصر من الجهل المطبق ، وفيها ما قد يؤثر في مدارك من لم يهبه الله فهماً وتمييزاً ، وقديماً كان علماء السلف يُحَذِّرُونَ من قراءة كتب أهل البدع والأهواء ، خوفاً من التأثر بما فيها من الآراء الباطلة ؟! .

أمْ أنْشُرُها وأشير إلى مايجب التنبيه عليه مما تحويه من عبارات صَدَرَتْ من مؤلفها عن جَهْلٍ ، ومَنْ يَدْري فقد يكون المؤلف ممَّنْ لونُبِّهَ إلى ما تَحْوِيهِ مِنْ خطإ لبادر إلى قبول الحق ، بل قد يكون ممن رَجَعَ وأنابَ إلى الله مما تحويه تلك الرسالة من أخطاء ، فإنه لا يعرف خاتمة أمره إلا علام الغيوب ، الذي وسعتْ رحمته كل شيء . ثم إنَّ إيْضَاحَ الخطإ في أيِّ مُؤلَّف كانَ — من الأمور الواجبة على من عرف ذالك الخطإ ، لِئَلاَّ يستمرَّ التمادي في انتشارِهِ ، وفي هَذَا دِفَاعٌ عن المؤلِّفِ بالحيلولة بينه وبين مشاركَةِ من تأثر بآرائه بالإثم .

وهل عَدَمُ قيامي بنشر هذه الرسالة يحولُ دُونَ وقوعها في أيدي القراء ؟ لقد أصبح من الميسور لكل قاريء أن يتمكن من الاطلاع على أي كتاب يريد الاطلاع عليه بسهولة ويُسْرٍ ، وأصبح من السهل الحصول على آلاف النسخ — بل أكثر من الآلاف — في أقصر مُدَّةٍ ، وبأيسر كلْفَةٍ ، ولهذا تساوى الأمران

بالنسبة للقاريء الذي إن لم يجد الكتاب منشوراً بواسطة (المطبعة) فسيستطيع الاطلاع عليه مُصَوَّراً ، بمنتهى السهولة واليسر . وإذَنْ فمن الخير أن يطلع عليه وقد نُبِّهَ إلى ما فيه من خَطَإ ، لِيَحْذَرَ من الوقوع فيه .

ولهذا أقْدَمْتُ على نشر هذه الرسالة ، وكان الحافزُ إلى نشرها — في أول الأمر — معالجتَها ناحية من النواحي التاريخية ، توشك أنْ تكون مجهولة ، تتعلق بأهْلِ طَيْبَة الطيِّبة ، في عصر قَلَّ أن يجد الباحث في تاريخه من المؤلفات ما يُعْنَى بإبراز معالم الحياة الاجتماعية ، ويَهْتَمُّ بإيضاح جوانبها ، وإنَّما أكثر مؤلفات مؤرخي ذالك العصر تكاد تكون مُنْصَبَّةً على حياة الأعيان من الملوك والعلماء .

والحادثة التي أُلِّفَتْ هذه الرسالة عنها قد تناولها بعض مؤرخي ذالك العصر من ذوي الصِّلة بالدولة من حيث صلتها بأمير مكة الذي وقعتْ منه الحادثة ، فأوضح ذالك المؤرخُ الأمْرَ من جانب واحد هو جانب أحد الطرفين ، فجاءتِ الرسالة لإيضاح الجانب الثاني ، والمؤرخ المنصف لا يستطيع أن يصل إلى الحقيقة في قضيَّةٍ مَّا ، مالم تتوفر لديه الآراء المتعلقة بها من جميع النواحي .

وما تلك الحادثة سوى أثَرٍ من آثار الفوضَى التي عَمَّتِ البلاد من جرَّاء سوء الإدارة ، والجهل بالطبيعة العربية لسكانها منذ أن بسطت الدولة التركية نفوذها ، وسيطرت على جميع شؤونها طيلة حكمها الذي امتدَّ أكثر من أربع مئة عام ، كانت هذه البلاد ألعوبة في شؤونها الإدارية بأيدي ذوي النفوذ والصلة بتلك الدولة .

يصف العياشي في رحلته حالة الحكم في طيبة الطيبة حين زارها سنة ١٠٧٢هـ — قبل تأليف تلك الرسالة بأكثر من قرن ، والدولة التركية كانت أشد عناية واهتماماً وأقوى التفاتاً إلى هذه البلاد منها في العصور التي خلفته . فيقول [٨] : وعلى طول إقامتي بالمدينة لم أدْرِ كيف تَصَرُّف الولاة فيها . ولا من له التصرف التام ، فإنّ شيخَ الحرم — وهو كبير الخدّام — تنفذ أحكامه ، وكبير العسكر الساكنين بالقلعة أمير أيضاً ، وابن عَمِّ السلطان زيد [٩] ، وزوج ابنته النائب عنه في النظر في

مصالح البلد كذالك ، والأمير الذي تنسب إليه إمرة المدينة من الشرفاء الحسينيين كذالك ، والحاكم الذي يسجن ويضرب ويقتل ويؤدب ، هو من خدّام السلطان أيضاً) .

بل إن طبقة (الأغوات) وهم الخصيان الموقوفون على خدمة الحرم — قوي نفوذهم ، حتى أصبحوا يتصرفون بالشؤون العامة وبتصريف الأمور في هذه المدينة الكريمة ، ولم لا ؟ وشيخهم (من عبيد السلطان، يؤتى به من القصر السلطاني في اصطنبول[10]) فلِمَ لا يكون (ذا كلمة نافذة في المدينة ، تنفذ أحكامه ، وتمضي تصرفاته في القويّ والضعيف، والشريف والمشروف ويطأ عقبه الكبراء والأشراف) .

ولم لا تكون طائفته (الأغوات) لا يحكم فيهم سلطان ولا غيره ولا يكون لأحد عليهم ولاية — كما قرر العياشي .

لقد أصبح هاؤلاء يتدخلون في جميع شؤون أهل المدينة ، بل قد تمتد أيديهم إلى ما ليس لهم من الحقوق ، بحيث بلغ التذمُّر من تصرفاتهم أن أحد علماء المدينة وهو غرس الدين الخليلي ثم المدني المتوفى سنة ١٠٥٧ھ حين قام برحلة إلى اصطنبول سنة ١٠٤٨ھ — عرض خلالها شكوى أهل المدينة على الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) من شيخ الحرم — شيخ الأغوات ، وطلب إزالة الخصيان من المسجد النبوي . بقصيدة جاء فيها[11] :

لا تجعلنّ على المدينــة أســودًا ... شيخاً على حــرم النبي العـــدناني
وكذالك الحبشــان أيضــاً منهـــم ... فَهُمُ هُمُ لا خيرَ في الحبشـــان
قومٌ لهُمْ طبعٌ شــديد زائــدٌ ... لا يشبعــون من الحطــام الفاني
لولا المخــافة منكــم لأتوكُــمُ ... شــاكِينَ من هَمٍّ ومن أحزانِ
ما كلُّ ما يُدْرَى يقــال وأنتــمُ ... أدرى بِطَيْشِ الســادة الخِصيانِ
يستنزلُون لأخــذ ما قــد جاء من ... صدقــات خير للفقــير العـــاني
فيُصيبُ أهلَ الفقر من صدقاتكم ... ما ساءهُــم من أسهــم الحرمــان
فانظر لنــا شيخاً تقيــا صالحــاً ... مُسْتَنْزِهاً من ذَا الحُطَامِ الفاني
إنْ لَمْ يَجُزْ إلاّ خصياً أســودا ... فَاخْصُوا لنا شيخاً من البيضــانِ ! !

ويكرِّرُ الشكوى من تسلط الأغوات وشيخهم ، إبراهيم الخياري المدني المتوفى سنة ١٠٨٣هـ في رحلته ، إذ يقول مخاطباً السلطان – عن أهل المدينة[١٢] – :

يأمل من إحسانكم أن تَـروْا ... في شأنهم ما يقتضيه المقامْ
من كون شيخ الحرم اللّذْ سَمَـا ... من (الأغاوات) بذاك المقام
وفِعْلُهُمْ ليس كما ينبغي ... من حفظ جيرانٍ لذي الاحترامْ
وقد أتوا يرجون إحسانكم ... والمنهل العذب كثير الزحامْ
بأن تُوَلُّوا لَهُمْ حازماً ... ذا فطنة تسمو ، وعقلٍ تَمَامْ
فأدركونا وأصِيخوا لنا ... وبلغونا قصدنا والمرامْ
وخلِّصُونا من أناسٍ لهم ... عقلٌ كطفلٍ لم يَنَلْهُ الفطامْ

وبين يديَّ الآن رسالة عنوانها « الأخبار الغريبة في ذكر ما وقع بطيبة الحبيبة » ألفها السيد جعفر بن حسين بن يحيى الحسيني المدني ، ويظهر أنه من أهل القرن الماضي لأنه ينقل عن مؤلفات لبعض علمائه ومنهم أحمد زيني دحلان المتوفى سنة ١٣٠٤هـ ويقول : إنه لخص ما في الرسالة من مسودة تاريخ ... العالم الخطيب عبد الرحمن بن حسين بن علي الأنصاري المدني ، الذي وجده بخطه مخروماً ، وفيه من الوقايع التي وقعت في المدينة ما لا يوجد في غيره من المؤلفات .

وقد سرد في هذه الرسالة حوادثَ وَقَعَتْ في المدينة يدور أغلبها على سُوُءِ تصرف مشايخ الحرم من (الأغاوات) فمما ذكر من تلك الحوادث :

١ – في سنة ١١١١ حين تولّى مشيخةَ الحرم شاهينُ أحمد أغا سنة ١١٠٨ قال : وفي أيامه حصلت الواقعة العظيمة بين بني عَلِيٍّ وأهلِ المدينة في حرة بني قُرَيْظة سنة ١١١١ (احدى عشرة بعد المئة والألف) وقال : بعد أن أجمل خبر الحادثة : فأصل الفساد كله من مشايخ الحرم .

٢ – سنة ١١٣٤ وشيخ الحرم أيوب أغا (من الأغاوات) وقعتْ فتنة عرفت

عند أهل المدينة باسم (قصة العهد) وأورد قصيدة للسيد جعفر البيتي (١١١٠ – ١١٨٢هـ) جاء فيها :

فَجَرَتْ هنالك صيحةٌ يَرْقَى إلى أفُقِ السماء عجَاجُها بل يعتَلِي
وطَغَتْ عليهم بعدَ ذالك عُصْبَةُ الْـ أغوَات معْ أتْباعِهِم والجُهَّلِ

ومنها :

إنَّ المدِينةَ حَلَّ فيها مُنْكَرٌ لا يُرْتَضَى والجَورُ فيها قَدْ جَلي

وحادثة الأغاوات هذه هي التي قُتل بسببها السيد عبد الكريم البرزنجي في جدة المشهور بالمظلوم ، وقد تقدمت الإشارة إليها .

٣ – وفي سنة ١١٤٨ في زمن شيخ الحرم بلك بشير أغا ، أورد صاحب الرسالة خبر فتنة بسبب هذا الأغا ، ملخصها قوله : وفي زمن شيخ الحرم بلك بشير أغا وقعتْ فتنة عظيمة بين أهل المدينة وأغاواتِ الحرم ، فأدخل شيخُ الحرم الأعرابَ من قبيلة حرْبٍ المسجدَ النبويَّ ، وأغلق أبوابه ، وأطلعهم على المنابر ، فصاروا يرمون بالرصاص الناسَ فيصيب من حول المسجد ، واستمر ذالك خمسة وأربعين يوماً ثم أورد قصيدة للسيد جعفر البيتي مطلعها :

قِفُوا تَنْظُرُوا آثارَ ما صَنَعَ الظُّلْمُ
وجُوسوا خِلالَ الدَّارِ تُنْبِكُمُ الأُكْمُ

وفيها يقول :

سَلُوا كُلَّ دارٍ بِالْمَدِينةِ ما الَّذي
لَقِينَا فَعِنْدَ الدَّارِ مِنْ أهْلِهَا عِلْمُ
سَلُوهَا عَنِ الأَعْرَابِ كَيْفَ تَسَنَّمَتْ
ذُرَاهَا وكَيْفَ النَّهْبُ والهَتْكُ والغُنْمُ
وكَيْفَ أُعِيدتْ وَقْعَةُ الحَرَّةِ الَّتي
إلى هذهِ الأُخْرَى تُضَافُ وتَنْضَم

ومنها :

وفـي كُـلِّ مسكينٍ فَقيـرٍ ووالـدٍ
حَزِيـنٍ ومولـودٍ أُصيبَتْ بِـهِ الأُمُّ
وأرْملَةٍ جاءَتْ ثلاثينَ لَيْلَـةً
وعَشْرا بِهَا الخوفُ المُبرِّحُ والعُدْمُ

٤ ـ في سنة ١١٥٥ قال صاحب الرسالة في الكلام على فتنة عبد الرحمن أغا الكبير : وهو الذي صارتْ في زمنه الفتنة العظيمة المشهورة بفتنة (كابوس) وقال عن سببها : إن عثمان بك أتى بمال الغلال فأخذه ، ومنع كل ذي حقٍّ حَقَّه ، بعد أن اتَّفق مع رؤساء عسكر القاعة ، فحصل احتكاك بين أُناسٍ تزعمهم رجل عسكري يدعى حسن كابوس ، وبين من في القاعة ، ثم انتهى الأمر صُلْحاً إلا أنَّ شيخ الحرم ومن معه أثاروا الفتنة التي شارك فيها بعضُ أهل المدينة ، وقُتل من قُتل منهم كما قتل حسن كابوس الذي عُرِفَت الفتنة به ، فأرسل شيخُ الحرم إلى أمير مكة الشريف مسعود يستنجد به ، ولكنَّ مسعوداً أرسل إلى أمير المدينة سراً ، يحرضه على شيخ الحرم إن لَمْ يُخْرِجِ أهْلَ القلعة ، فعرف شيخ الحرم ذالك ، فأرسل إلى هزَّاع شيخ قبيلة حرب ، واستماله بالمال ، ليرد عنه المدد الذي أرسله الشريف مسعود لأمير المدينة ، فجمع هزَّاعُ من قَدر عليه ، وهجم على الذين أرسلهم أمير مكة في رابغ ، فقتل منهم من قتل وهرب الباقون ، واستدعى شيخ الحرم وهو عبد الرحمن أغا استدعى مشائخ حرب ومنهم هزاع وعبيد ، ومكنهم من المدينة فأخربوها ونَهَبُوها ، وجلا أكثرُ الناس إلى المناخة ، واستمر الحالُ على ذالك إلى شهر رجب سنة ١١٥٦ ، فأرسل الشريف مسعود ، وسعى في الصلح بينهم ظاهراً ، وكان مُبَاطِناً لأهل القلعة ، فتمت بينهم الهُدْنةُ إلى أن وصل الحاج الشامي إلى المدينة ومعه (فرمان) بعزل عبد الرحمن أغا شيخ الحرم ، ونصب عبد الرحمن أغا الصغير .

وأورد صاحب الرسالة قصيدةً طويلة للسيد جعفر البيتي مطلعها :

بكَى علَى الدَّارِ لَمَّا غَابَ حَامِيها وجَرَّ حُكَّامُها فِيها أعَادِيهَا

قال فيها :

سِتِّيْنَ يَوْماً أقَامُوا في محاصرهــا   قَتْلاً ونَهْباً وهَدْماً فِي صَيَاصِيها

ومنها :

يا شِدَّةً لَيْسَ إلاَّ الله يَكْشِفُهــا   وغُمَّةً لَيْسَ إلا اللهُ يُجْلِيهــا
يا آلَ عُثْمانَ عَيْنٌ فِي مَمَالِكِكُمْ   مَطْروفَةٌ لَطَمَتْهَا كَفُّ والِيهَا
أمَّنْتُمُوها فَضَاعَتْ عِنْدَهُ سَفَهاً   وَيْلُ الأمَانَةِ مِمَّنْ لاَ يُؤَدِّيْها
خَمْسُونَ عَاماً لَنَا والظُّلْمُ يَلْحَقُنَا   نُقَارِعُ البَدْوَ فِيْهَا أوْ نُدَارِيهَا

٥ ـ وأشار مؤلف الرسالة إلى وقوع فتن في المدينة منها في سنة ١١٨٧ (فتنة جماعة القمقمجي) وصفه بأنه (كتخدا نوبتجان) واسمه محمد جلبي بن مصطفى بن محمد أغا بن جعفر بن مصطفى باشا ، وكان قد حدث بين رؤساء الجنود الذين في القلعة شقاقٌ تدخَّل فيه شيخُ الحرم علي أغا ، فأمر بحبس بعض من شارك في ذالك الشقاق ، فافترق رؤساء الجند الذين في القلعة فرقتين مما اضطر شيخ الحرم إلى عَزْلِ بعض رؤساء الجند ، وأيده في ذالك (الكتخدا محمد قمقمجي) ولكن الفرقة المخالفة لرأيه من العسكر نفروا منه ، وتوجَّهوا إلى القاعة ، وصاروا مع جماعتهم ، فأرسل شيخ الحرم إلى أمير مكة أحمد بن سعيد يعرفه بهذا الأمرِ ، فوصل منه رسول فاجتمع العساكر ، وحكام المدينة وأعيانها ، في (دكَّةِ الأربعين) كما هي العادة ـ وهي دكّة الأغاوات داخل الحرم ـ فقرأ عليهم كتاب أمير مكة وفيه : الأمر بعدم التعرض المجند ، والأمر بإرسال الجماعة الذين حصل منهم الفساد . ولكنَّ أهلَ القلعة أبَوا من إرسالهم وبعد نزاع طويل ، اصطلحوا ظاهراً مع شدة الاختلاف بين (الوجاقات) مما سبب وقوع فتنة بين (وجاق القلعجية) و (وجاق النوبتجية) وأبلغ الأمر إلى أمير مكة الشريف سرور بن مساعد في أول ولايته ، فطلب من شيخ الحرم ومن (الكتخدا) محمد قمقمجي ، أن يبعث مُسَبِّبَ الفتنة ، فرأى القمقمجيُّ التوجه بنفسه إلى الشريف مسعود ، وطلب منه إحضار

خصومه ، ولكن لم يحضر أحدٌ منهم ، وأثناء وجوده عند أمير مكة حدثتْ حادثةٌ في المدينة ، اجتمع العساكر على إثرها وتوجهوا إلى شيخ الحرم ، واتفقوا معه على عزل القمقمجي وتعيين من يحِلُّ محله ، فعين مكانه أحمد مكي ، واتفق (الوجاقات الأربعة) والأغاوات وعبيدهم وشيخ الحرم على أنهم عُصْبَةٌ واحدة ، وأن لا يمكنوا القمقمجي من دخول المدينة ، فلما بلغه ما حدث ، وكان الشريف له مُسَاعِدًا أرسل معه وزيره وبعض أعيان رجاله ، وبعث إلى بَدَوي شيخ حرب بأن يعينه ، فخرج قاصداً المدينة ، فوصل حَرَّةَ النَّقا ، فبعث إليه أهل المدينة بِمَنْعِه من الدخول ، فنزل جماعته بالنَّقَا ، وتوجه هو إلى العوالي وقباء والقرى التي بأطراف المدينة يستنجدهم ، فأجابوه ، وأخيراً تَمَّ للقمقمجي ومن معه دخولُ المدينة حتى دخلوا المسجد ، وعَلَوْا فوق المنابر ، وأطلقوا منها رصاص البنادق ، فلما شاع خبرهم فتح أهل القلعة قلعتهم ، فحدثت مناوشات ، بين الفريقين .

قال صاحب الرسالة : (واستمر الحرب بينهم ثلاثة أشهر كوامل ، وصار المسجد النبوي بيت الفسوق بعد أن كان بيت العبادة ، إلى أن وصل الحاج الشامي) وكان واليهم محمد باشا بن العظم .

ولما وَصَلَ الْجُرُفَ طلع إليه (الكتخدا) محمد قمقمجي بجماعته و (الكتخدا) أحمد مكي بجماعته ، وكان محمد باشا مفوضاً من طرف الدولة ، ورأى مَيْلَ الشريف سرور إلى (الكتخدا) محمد ، فعينه في المنصب ، وأخذ (الكتخدا) أحمد معه إلى مكة ، وسلمه للشريف ، وأطفأ نارَ الفتنة – إلى أن قال – : وكان نصب القمقمجي وعزل المكي وتسفيره على غير رِضًا من أهل المدينة وغيرهم ، ولما رأى شيخ الحرم ما صار كتب (عروضاً) وحطَّ على القمقمجي ، وذالك باطِّلاعٍ من جميع أعيان المدينة ، وأرسل تلك (العروض) مع الأفندي تاج الدين الياس مفتِي المدينة ، وكان بينه وبين الشريف عداوة ، فتوجه صحبة الحاج الشامي ، ورجع في آخر عامه ، ومعه الأوامر السلطانية بعزل القمقمجي وتسفيره ، ونصب

أحمد مكي ، ولكنّ الشريفَ لَمْ يَأذَنْ له في المجيء إلى المدينة إلا بأن يلزم أدبه ويلازم بيته ، (وأن يكون في المدينة طلقة يعني حكمه لمن أطلقه) فجاء إلى المدينة وأوفى بما التزم

ثم أشار صاحب الرسالة إلى وقوع ضجة أثناء صلاة الجمعة نشأت عن صوت (طَبَنْجَة) عَبِثَ بها رجل من جماعة القمقمجي وسط المسجد ، قال : وعجّلت (الأغاوات) إلى دَكّتِهِمْ فأخرجوا منها السلاح لأنّ هذه عادتهم ، فصارت مأوى للفجور بعد أن أسّسَ بنيانُها على التقوى ، وأغلقوا باب السلام ، فصار ازدحام على باب الرحمة مات فيه نحو ثلاثين رجلاً ، وحدث قِتالٌ بين فريقي القمقمجي والمكي في المسجد وفي المحكمة السلطانية والمدرسة الكائنة برباط السلطان المطلتين على المسجد قال : فصاروا يترامون ، هؤلاء من نفس المسجد ، وأولئك على المسجد ، وقُتِلَ رأسُ الفتنة على ما يقال الجاووش علي قالي وغيره ، وطال بينهم الحرب ، وصار المسجد مأوى للفسوق والعصيان ومنع منه أهل الإيمان — كذا قال — .

ثم ذكر أن أمير مكة الشريف سُرُورًا أرسل السيد حسن العلوي فوصل إلى المدينة لخمس بقين من شعبان سنة ١١٨٩ ، فعقد بينهم الهدنة إلى مجيء الحاج الشامي ، ثم ذكر وصول الأفندي تاج الدين الياس بالأمر بعزل القمقمجي وحمله إلى الدولة وتسفيره ، وأنه قُيِّدَ وغُلّ وذُهِبَ به إلى مكة ، ولكن أميرها الشريف سرورًا منع أمير الحج من الوصول إلى مكة إلا بعد أن يسلمه القمقمجي فكان ذالك ، فأذنَ له في العودة إلى المدينة وأسرّ إليه بأنه سيأتي لنصرته .

هذا ما ذكر صاحب الرسالة ومنه يفهم سبب الحادثة التي ألف عنها البرزنجي رسالته .

الشريف سرور أمير مكة المكرمة :

يحسن إيراد ترجمة مجملة لهذا الأمير الذي أُلِّفَتِ الرسالةُ عما وقع منه .

هو سرور بن مساعد بن سعيد بن سعد بن زيد بن مُحْسِن بن حسين بن حسن ابن أبي نُمَيٍّ ولد سنة ١١٦٨ تقريباً ، وتولى إمارة مكة في شهر ذي القعدة سنة ١١٨٦ ، وكان عمره نحو ثماني عشرة سنة ، انتزع الإمارة من عمه أحمد بن سعيد ، بعد أن حاربه نحو سبع سنوات ، وجرى بينهما خمس عشرة وقعة انتهت بانتصار سرور ، فقبض على عمه وسجنه في ينبع ، ثم في جدة ، حتى توفي في السجن .

وإلى أحمد بن سعيد هذا وجه الشيخ محمد بن عبد الوهاب الدعوة بكتب أرسلها إليه يدعوه إلى قبولها فلم يستجب .

أما الشريف سرور فقد أمضى سني إمارته في عراك مع عمه ومع بعض القبائل كحرب وهذيل ، ولم يتجاوز حكمه الحرمين ونواحي الطائف .

وقد وصفه الأستاذ الزركلي بأنه كان حازماً شجاعاً صَعْب المِرَاس . ومكث في الإمارة على ما ذكر دحلان خمس عشرة سنةً وخمسةَ أشهر وثمانية أيام .

وقد كان النفوذ في المدينة بيد ولاة الأتراك من شيخ الحرم الذي هو رئيس (الأغاوات) ومن كبار العساكر الذين تبعثهم تلك الدولة من اسطنبول . ولهذا فكان أمير مكة كثير التحرش بأولئك الولاة باعتباره ينظر إليه بأنه (سيِّد الجميع) وأن أمور الحجاز راجعة إليه .

وقد تقدم إيضاح موقف الشريف سرور من القمقمجي الذي أتى أمر السلطان بعزله ، ولكن الشريف كان ضالعاً معه ، فأطلقه من أسر أمير الحاج الشامي وأعاده إلى المدينة ووعده بالنُّصْرة .

ومن هنا تتضح أسباب الحادثة التي ألفت عنها الرسالة .

قال صاحب « الأخبار الغريبة » : فما كان يوم خامس رجب سنة ١١٩٤ إلاَّ والشريف سرور قد وصل المدينة فجأة بخيله ورجاله وعدته وآلات قتاله ، فخرجوا إليه ملاقين ، وللعفو طالبين ، فنزل العنبرية وأنزل (عرضيه) المناخة السلطانية ، وهو مُنْطَوٍ على قُبْحِ النية ، فأتوا إليه في الحجرة الشريفة ، وطلبوا

من مراحمه أن يسمح عنهم فقال لهم : عفا الله عما مضى . فخرجوا فَرِحِيْنَ ، وأصْلح بينهم وبين القمقمجي ، ومكث بالمدينة أياماً ، وأشاع أنَّ قصده الظَّعْن إلى أن ظهرت منه الخيانة يوم ٢٦ رجب ، حين دعا جميع حكام المدينة ، فأتوا إليه ، فما راعهم إلا وقد دهمتهم الرجال ، وكَبَّلوهم في القيود والأغلال ، فحين عاين أهل القلعة هذا الأمر ، أغلقوا الباب على من في داخلها ، وصَوَّبُوا المدافع والبنادق من الأبراج على (عرضي) الشريف . انتهى .

ويظهر أن هذا العمل ممن في القلعة افتئاتٌ على أهل الحَلِّ والعقد من أهل المدينة ، قام به بعض الغوغاء ومثيرو الشغب كما يتضح من قول صاحب « الأخبار الغريبة » : وما كان بها غير نحو عشرين من الرجال وما بقي فأرامِلُ لا يُحْصَوْنَ وأطفال ، وما بقي من أهل القلعة فمستقرون على العهد ولم يَظُنُّوا بأنه مُضْمِرٌ للنِفاق ، وإلا لكان له ولهم شأن .

وأشار صاحب الرسالة إلى أن محمد مصطفى بن الكتخدا محمد قمقمجي كان هو المحرك لهذه الفتن ، وأعانه قوم آخرون ، وكان انتظر من سرور إنجازَ وَعْدِهِ بنصب والده (كتخدا نوبتجيان) كما كان أولاً — فلم يفعل .

وأشار أيضاً إلى أن محمد مصطفى وبعض من ساعده زوروا كتاباً على أعيان أهل المدينة ، موجَّهاً إلى شيخ قبيلة حرب ، يدعونه لمحاربة الشريف من خارج المدينة وهم من داخلها .

ويذكر كيف دُبِّرَتْ حيلةُ وصولِ الكتاب إلى الشريف سرور قال : فلما قرأه طلعت عيناه في أُمِّ رأسه ، فأرسل إليهم ودعاهمْ ورماهم في الحبس .

ثم وصف ما جرى مِمَّنْ في القلعة من رمي (صيوان) الشريف وخيامه وبيوته بالمدافع ، حتى هدموا عليه بعض منازله ، وحرقوا غالب (عرضيه) وما فيه ، فصارت جماعة الشريف يعملون على القلعة أنواع الخدع — ووصف شيئاً من أعمالهم — إلى أن ضاق الشريف سرور بما وقع عليه من الشرور ، وعزم على السفر ، وكان عنده رجل مغربي يدعى الساحر فأرشدهم إلى حيلة ، استطاعوا بها خرق

سُورِ القلعة من ناحية باب الصغير قال : وأذْرَعُوهم قتلاً وسلباً وفتكاً ونهباً ، وهتكوا المحرمات ، وأسروا الرجال والبنين والبنات .

ثم ذكر مسير سرور من المدينة بعد أن أخذ خمسين رجلاً من أهلها أسْرَى ، ووضع في القلعة نحو أربع مئة من اليمن ، وعيَّن وزيراً عليهم محمد بن ... العدواني المضايفي ، ولما وصل إلى مكة أمسك بعضهم عنده في النكال الشديد ، وأرسل بعضهم إلى القنفذة ، وبعضهم إلى الهند وبعضهم شتتهم في البلاد ، واستمروا كذالك إلى أن فرج الله عنهم .

مما تقدم يتضح أن حالة الفوضى التي عَمَّتِ المدينة في ذالك العهد كان من آثارها ما دعا أمير مكة إلى أن يستعمل العنف والشدة مع أهل هذه المدينة الكريمة ، وكان الأَوْلَى بل الواجب ألاَّ يَأخذ البَريء بذنب المُسيْء ، وأن يسير في معالجة تلك الأمور بتثبت وحكمةٍ ، ولكن يظهر أن هذا الأمير من طباعه العُنف ، ومن أبرز صفاته الصرامة كما يتضح من مواقفه مع عمه حتّى سلبه الملك .

ويورد ابن عبد الشكور في كتابه المخطوط عن « الأشراف أمراء مكة » وبعده أحمد دحلان في كتابه المطبوع « خلاصة الكلام » وهواهما كما هو معروف وميلهما مع الأشراف – يوردان الخبر بما يفهم منه أن الشريف سرورا حين توجه إلى المدينة كان قد استعدَّ بالقوة والرجال ، فكان معه سبعة آلاف وخمس مئة من الرجال ، ومن الخيل مئتان وخمسون مما يدل على أنه كان يتوقع حَرْباً . وها هو ملخص ما أورده ابن عبد الشكور ، ونقله دحلان بعد حَذْفِ سَجْعِهِ – : فلما مَرَّ بِبَدْرٍ ذكر له أهلها أنَّ لهم عوائد منها معلوم ثلاث سنين مما كان يدفعه أمير الحاج المصري ، ولكنه لم يستجب لطلبهم ، فحدثتْ بينهم مناوشة قتل منهم أربعة عشر نفراً ، وأخذ أربعين رجلاً رهائن ، ثم لما وصل المدينة قابله أهلها في العنبرية ، وحطَّ رحله في المناخة ، وجاءه (الأغاوات) و (الكواخي) وشيخ الحرم وطلبوا منه السماح فسمح .

ثم إنَّ قبيلة حَرْبٍ ومنهم من اعترضه في بَدْر ، حدثتهم نفوسهم بأن يقاتلوه في المدينة فطرح عليهم العيون ، فصادَفُوا نجَّاباً خارجاً من المدينة ومعه كتب من (الكواخي) لقبائل حَرْبٍ ، يحثُّونهم على القدوم إليهم بصدد الحرب ، فلما قرأها أحضر شيخ الحرمِ و(الكواخي) وسألهم عنها فأنكروا معرفتها ، وقالوا: إنها مزورة ولو كانت ممهورة فقال : إن كنتم صادقين فأعطوني القلعة تحت يدي ، فامتنعوا فأعاقهم عنده ، وأرسل شيخ الحرم لأهل القلعة يطلبها منهم فوجدهم قد تَرَّسُوهَا بالرجال ، وتعذروا بأننا رمينا عند (سيِّدنا) بالزور والبهتان ، ولا نسلمها ما لم يأتنا منه الأمان فقال لهم شيخ الحرم : خذوا هذه الْمَحْرَمَة أماناً لكم ، فلم يفطن إلا ورمي الرصاص عليه كالمطر ، وكان هذا مفتاح الشر ، فلما رأى ذالك قبض على الثلاثة (الكواخي) الذين عندهُ (أغات) القلعة ، وحطَّهم في الحديد ، وابتدروا بالرمي على بيته عن قَصْدٍ ، فنقل أهله إلى بيوت بعيدة عن القلعة ، ووقع القتال بينهم من ليلة المعراج واستمر ثلاثة أيام ، وأرسل عسكراً تَرَّسُوا البيوت التي حول القلعة من كل جانب ، وكانت هي السبب في إظهار عجز من في القلعة ، ثم جلس في بيت من البيوت المقابلة للقلعة ، وصار يحرض الرجال ، ويحثهم على سرعة الرمي حتى بدا العجز فيهم . فطلبوا الأمان ، ودخل القلعةَ العربانُ والعساكر ، فنهبوا جميع ما فيها من الأثاث والنقود وأنواع السلاح ، وكان غالب أكابر أهل المدينة وضعوا في القلعة عزيزَ أشيائهم الثمينة ، فذهبتْ شَذَرَ مَذَرَ . ومكثوا أياماً ينهبُونها ، وحفَرُوا أرضها حتى أخربوها ، وأمر بنهب بعض بيوت معلومة خارج القلعة ، فَنُهِبت في الحال منها بيت أحمد مكي وكان فيه مال جزيل ، وبيت أمين ميكائيل ، وبيت مفتي المدينة تاج الدين الياس ، ووجدوا فيه من معتبرات الكتب ما يضيع فيه القياس – تقدمت الإشارة إلى سفر هذا المفتي إلى اصطنبول بطلب تنحية (القمقمجي) وتعيين أحمد مكي ضد رغبة سرور – ثم لما تَمَّ له ما تَمَّ قام بأمورها بغير تراخي ، وألبث من طرفه الوزير و (الكواخي) وأسكن وزيره بداخل القلعة ، وهَمَّ بالنجعة ، فنصب خيامه

بالنَّقا ، وأسر من أهل المدينة نحو خمسين وُضِعُوا في الحديد وأطلق رُبَطَاء قبيلة حربٍ ، وأخرج (فرماناً) سلطانياً بعزل أحمد أغا شيخ الحرم .

مجتمع المدينة أثناء تلك الحوادث :

• ليس لدى الباحث من المصادر ما يستطيع أن يتبين منه بجلاء صورة المجتمع المدني أثناء حوادث ذالك العهد ، ولكنه لن يعدم بعض اللمحات التي يَسْتَشِفُّ من خلالها ملامح عن تلك الحوادث .

ومعروف أن أيَّ مجتمع لا ينضوي تحت قيادة قوية ، تشيع فيه الفوضى وخاصة حينما تتنازعه اتجاهات مختلفة ورغبات متباينة ، كما هي الحال في تلك المدينة الكريمة التي تتحكم في شؤونها جهات مختلفة في الأهواء متباينة في الآراء ، متعددة المقاصد ، مختلفة الرغبات . فهناك ولاة الأتراك من رؤساء الجند وكبار الموظفين كشيخ الحرم (شيخ الأغاوات) والمفتي التركي ، وهناك من يمثل أمير مكة الذي هو حسب العرف في ذالك المجتمع (سيد الجميع) بما أولته الدولة التركية ظاهراً من رعاية ، وإن كانت في الباطن تبسط العون لولاتها من قواد عسكرها ولكبار من توليهم بعض الشؤون في المدينة كشيخ الحرم ، مِمَّا يَحُدُّ من نفوذ ذالك الأمير ، ويقوي سلطة اؤلئك الولاة والحكام ، لهذا فليس بِدْعاً حين يتضح من استقراء تلك الفتن التي حدثت أثناء العهد التركي الطويل ، أنَّ أهلَ المدينة كانوا متفرقي الأهواء ، منهم من يميل هواه مع ولاة الأتراك . وهؤلاء في الغالب ذوو الصلة المباشرة بالدولة التركية من كبار الموظفين كالمفتي ، ومنهم من يرى في أمير مكة لما له من نفوذ ولما تظهره الدولة إزاءه من تقدير يراه الجدير بأن تسند إليه أمور المدينة .

وهناك آخرون يدركون من سوء تصرف كُلٍّ من تقدمت الإشارة إليهم ما يدعو للسعي لإزالة نفوذهم ، وقد ينضمُّ إلى هؤلاء أو اؤلئك من ليس لهم من الرأي بل من المصلحة سوى إثارة الشغب وإحداث الفتن .

وكل ما تقدم جدير بالدراسة والتفصيل مما ليس هذا محله .

قبيلة حرب :

يتكرر كثيراً اسم هذه القبيلة أثناء الحوادث التي وقعتْ في المدينة منذ القرن الثالث حتى عصرنا الحاضر ، ولا يَعْنّي الباحث هنا سوى ما له صلة بحوادث عصر الرسالة التي نتعرض بهذا البحث لمضمونها ، وهو القرن الثاني عشر الهجري .

كانت تلك القبيلة مسيطرة على الطريق فيما بين المدينتين الكريمتين مكة والمدينة ، وكانت في الغالب تعيش عيشة البداوة ، وإنْ وُجد لها في تلك المنطقة قرى وأماكن استقرار ، إلا أنها من الضعف بحيث لا تستطيع القيام بحاجة السكان بما تنتجه زراعتها ، ولهذا فكانت الحياة بين اؤلئك السكان تقوم على ممارسة بعض الأعمال اليسيرة ، كجلب الحطب والفحم للمدن ، وبيع ما يحتاج إليه الحجاج من علف وغيره من حاصلات تلك القرى ، يضاف إلى هذا نقل اؤلئك الحجاج بين المدينتين الكريمتين . وكانت الحياة في ذالك العصر تسودها الفوضى لضعف نفوذ الدولة الحاكمة ، فحين تقسو الحياة على السكان — وما أكثر ما تقسو ، إمَّا بقحط ، أو بمرض يأتي على أنعامهم — فيضطرهم الفقر وتُلْجِئُهُم الحاجة إلى أن تمتدّ أيديهم لأخذ ما يسدُّ رمقهم — والفقر قرنه الرسول صلى الله عليه وسلم بالكفر فاستعاذ بالله منهما — من هنا كان لابُدَّ من اتخاذ الوسائل لحماية الحجاج الذين يمرُّون بالطريق المذكور ، فكان أن قررت الدولة التركية مقابل ذالك للعشائر التي يمر الطريق ببلادها مبالغ من المال ، هي وإن كانت قليلة إلاّ أنها تساعد اؤلئك السكان الذين يتولون حماية الحاج ونقلهم وإرفاقهم بما يبيعون عليهم مما يحتاجون .

ولكن بعض ذوي النفوذ من أُمراء الحاجّ كان يتعرض لما هو مقرر لأولئك ، بل قد يقوم بهذا أمير مكة نفسه ، وهو المفروض بأن يكون ممن يعنى برعاية حقوق اؤلئك الضعفاء من مواطنيه ، وقد يكون ما هو أدهى من هذا هو أن يسعى هذا الأمير لدى اؤلئك المطلوب منهم حماية الحاج بأن يتعرضوا لهم بالأذى ، ليتخذ من ذالك وسيلة يتذرَّعُ بها إلى تحقيق بعض رغباته وطلباته من الدولة التركية لكي

يقوم بحماية الحاج (انظر « العرب » س ١٢ ص ٣٥٥) وقد يقوم هذا الأمير بأخذ ما هو مقرر للعشائر ، بحجة أنه سيدفعه لهم ، فلا يفعل ذالك ، وهذا ما يسبب لُجُوْءَ مَنْ يُحْرَمُون مما يعتبرونه حقّاً واجباً لهم بالتمرد والعصيان ، وهذا ما حدث من قبيلة حرب مع أمير مكة الشريف سرور .

ولقبيلة حرب مع أشراف مكة وولاة المدينة وأمراء الحج الشامي والعراقي ، تاريخ طويل ، هو بحاجة إلى إفراده بمؤلف .

لقد كانت قبيلة حرب تقوم بحفظ الطريق بين مكة والمدينة ، أو كما قال العصامي — « سمط النجوم العوالي » ج ٤ ص ٥١١ — : (وكان عليهم الدرك في حفظ الطريق من عسفان إلى المدينة) وكانت مشيختهم منذ القرن الحادي عشر ، وقد يكون قبل ذالك في آل مُضَيَّان من الظواهر من المراوحة من بني سالم من حرب ، وكان شيخهم سنة ١٠٧٨ على ما ذكر العصامي (شيخ العرب وسلطانها) أحمد بن رحمة بن مُضَيَّان ، واستمرت رئاسته إلى ما بعد سنة ١٠٨٥ ، وقد جرى في عهده سنة ١٠٨٤ قتال بينه وبين شريف مكة الشريف بركات كان الظفر فيها للأخير إذ قال العصامي — ٥٢٧/٤ — عن هذه الوقعة : استبيحت ديارهم ونهبت أموالهم وهلكت نساؤهم وأطفالهم وقتل خيارهم .

ونكتفي بإشارات موجزة إلى ما له صلة بالحادثة التي ألفت فيها رسالة « كشف الحجب والستور » كان لقبيلة حرب من المقرر لها عند أمير الحج المصري مبلغ من المال ، فاجتمع رئيس الحج المصري وبدوي بن عيد بن مضيان شيخ القبيلة في مجلس الشريف سرور في ٢٠ ذي الحجة سنة ١١٩١هـ ، فأراد التوفيق بينهما فأبى بدوي ابن عيد ، وتوعد أمير الحج (الصنجق) ثم علم أنه أخطأ ، فذهب إلى أمير الحاج الشامي ليطلب منه التوسط لدى الشريف في العفو عما صدر منه في مجلسه ، فأظهر قبول الرجاء ، ولكنه أمر بالقبض على الشيخ بدوي وأمر بأنْ يحبس في قَبْوٍ تحت الأرض ، فطال بقاؤه في الحبس ، ومرض ، وأصيب بالجدري ومات في الحبس

على ما ذكر ابن عبد الشكور ، ودحلان في كتابيهما ، وكان هذا من الأسباب التي دفعت قبيلة حرب إلى الخروج عن طاعة الشريف بعد أن عين بدّاي بن عيد شيخاً لها ، فازدادت قسوة الشريف على هذه القبيلة أو كما قال ابن عبد الشكور : (وعامل العرب بالقتل والصباح ، وأخلى الأرض منهم والبطاح) .

وفي سنة ١١٩٣ على ما ذكر دحلان وهو شريفي الهوى — « خلاصة الكلام » ص ٢١٦ قال : بعد الحج تعرض جماعة من حرب مراد بك (صنجق) الحج المصري وكان معه جملة من شيوخهم رهائن بعد ما مرّ تلك الجهات ، ولم يُعْطِهِم في ذالك العام شيئاً من المعاليم التي لهم .

ثم كانت الحادثة التي سبقت ما جرى من سرور نفسه على أهل المدينة وملخصها : أنه في شهر جمادى الأولى سنة ١١٩٤ ، سار سرور من مكة فأقام في جدة ثمانية أيام ثم سار حتى بلغ بَدْراً ، فتلقاه أهلها بتقديم الهدايا ، ويظهر أنهم أوضحوا له امتناع أمير الحج المصري عن دفع ما لهم من المعلوم وطلبوا منه ذالك .

قال ابن عبد الشكور : ادعوا أن لهم عوائد من الملوك إذا مرت بهم وقوانين وأنه أخذ عليهم من (الصنجق) معلوم ثلاث سنين .

إذن فالشريف قد أخذ ما هو مقرر لهم من أمير الحاج المصري قال : فمكث يعالجهم على الصلح ثلاثة أيام فثار الحرب بينهم ، واستمر ثلاث ساعات ، فانتصر عليهم ، وقتل منهم أربعة عشر نفراً ، فدخل شيوخهم بين الفريقين . وأصلحوا ذات البين ، على أن يعطيهم أربعة عشر ألف قرش ، وأن يعطوه ربايط منهم فسلمهم الْقَدْرَ المعلوم ، وأخذ منهم أربعينَ رجلاً رهائن ، قال : ولما وصل إلى الحمراء أمسك بولد نصار بن عطية ، وكان قد حاول الهرب فوضعه في الحديد مع الرهائن ، وتأكدت العداوة بينهم إلى أن قال بعد أن ذكر انتهاء سرور من زيارة المدينة : وأما رهائن حرب فقد شدد عليهم غاية التشديد ، وزاد فيهم القيود والحديد ، فلما بلغ ذالك قبائل حرب حنقت نفوسهم ، فأعاقوا جميع الزوار ،

ومنع نصَّار بنُ عطية زوارَ مكة وجدة والطائف وغيرها من البلدان ، حين وصلوا إلى الخَيْفِ من الذهاب إلى المدينة ، فرجعوا إلى مكة ، وأرادتْ قبيلة حرب أن تهاجم الشريف سرورًا وهو في المدينة ، ويظهر أنه خشي من ذالك فسار من غير الطريق المارّ ببلادهم — بعد أن استولى على القلعة ووضع فيها من جنده من يحميها ، وأشاع عند سفره بأن طريقه سيكون على قبيلة حرب . قال ابن عبد الشكور : ثم توجه من طريق الشرق قَصْرًا لِلشَّرِّ ، أي أنه سلك الطريق النجدية إلى مكة المكرمة وأطلق رهائن قبيلة حرب .

ويظهر أن أحد مشايخ حرب وهو نصار بن عطية ، أراد الذهاب إلى مصر ليشكو الشريف سرورًا الذي كان أمسك ابنه فحبسه ، فأوعز سرور لوزيره في ينبع لترصد نصار ، فَقُتِلَ وجيء برأسه إلى أمير ينبع ، وذالك في سنة ١١٩٥ ، فهرب ابنه إلى قبيلة حرب ، فاستصرخها فجاءت إلى ينبع ، وأحاطت بالوزير فهرب ، فَتَمَّ لها الاستيلاء على ينبع ، فحاول نزعها ، ولكن قبيلة جُهينة ساعدتْ حَرْباً فلم يستطع سرور الاستيلاء عليها .

كانت هذه الحوادث بين سرور وبين قبيلة حرب إرْهَاصاتٌ ، لما هو أعظم منها ، مما كان سبباً لاستيلاء الدولة السعودية الأولى على بلاد الحجاز ، فبعد موت سرور واستيلاء أخيه غالب على حكم الحجاز بسنين ، وفد آل مُضَيَّان رؤساء قبيلة حرب ، وهما بادي وبدّاي أبناء بدوي بن مضيان ومن تبعهم من عربانهم ، وفدوا على الإمام عبد العزيز ، وبايعوه ، فأرسل معهم من يعلمهم فرائض الدين ، فأجمعوا على حرب المدينة ، فنزلوا عواليها وبَنَوْا هناك قَصْرًا ، ضيقوا به على أهل المدينة بقطع ما يصل إليهم حتى طال الحصار عليهم ، فكتبوا إلى سعود بن عبد العزيز وبايعوه في سنة ١٢٢٠ على ما أوضح ابن بشر في كتابه « عنوان المجد » .

بعد ذالك لم يجد الشريف غالب أمير مكة بُدًّا من طلب الصلح من سعود فتم ذالك .

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض عشائر حرب لم تشارك أهل المدينة أثناء حوادث أهلها مع سرور ، ومنهم بنو علي ، وبنو السَّفْر ، ولعل السبب في ذالك أن أكثر هؤلاء كانوا مستوطنين في المدينة ، وكانت لهم صلات مع ولاة الأتراك فيها .

نهاية تلك الحوادث :

يظهر أن أمير الحج الشامي كان ضالعاً مع أهل المدينة ، فقد مَرَّ أن سرورا أخذ من أهل المدينة سنة ١١٩٤ نحو خمسين رجلاً ، وسافر بهم إلى مكة فطلب أهل المدينة من أمير الحج الشامي محمد باشا العظم التوسط في اطلاقهم ، فرفض ذالك الشريف ، وأرسلهم من مكة إلى العابدية ، ثم أطلق خمسة وعشرين منهم سنة ١١٩٥ ، وأرسل الباقين إلى القنفذة ليكون حبسهم هناك .

وفي سنة ١١٩٦ زال ما بين أمير الحج الشامي وبين شريف مكة من خلاف فاتفقا وتعاهدا داخل الحرم .

وقبل ذالك بزمن يسير طلب سرور إحضارَ المحبوسين من القنفذة وحبسهم في جدة ، وذالك في شهر ذي القعدة من سنة ١١٩٦ ، ويقول ابن عبد الشكور : إنه حبسهم في بيت الوزير ، ولم نعلم لذالك سبباً غير التقدير — كذا قال ، ولكنه لم يذكر عاقبة أمرهم .

أما أمير الحج الشامي ، فإنه بعد صلحه مع الشريف قبض على كبار الجند (الكواخي) وعلى ثلاثة من رؤساء أهل المدينة من أهل الصولة ، ويظهر أن هذا باتفاق مع أمير مكة .

وفي ١٧ شوال سنة ١٢٠١ ، دخل الشريف سرور المدينة فتلقاه أهلها بالتعظيم والاجلال — على ما يقول ابن عبد الشكور ودحلان ، وأقام هناك حتى وصل الحج الشامي ، وما تعرَّض لأهل المدينة بنقض ولا حل ، ولا تولية ولا عزل ، ثم عاد إلى مكة .

←

تاريخ المدينة المنورة

لعمر بن شبة النميري (١٧٣ / ٢٦٢هـ)

— ٢ —

٥٨ — وفي ص : ٨٨٢ : (ما أخرج هذا منك إلاَّ هَمٌّ . قال : نعم فويل لهذا الأمر) . كلمتا (نعم فويْلٌ) صوابهما — على ما في الأصل : (هَمٌّ طوِيلٌ) .

٥٩ — وفي ص : ٨٨٣ : (والله لئن وليها يحمل) والذي في الأصل : (لان والله يحمل) .

هذه لمحات مما حدث في تلك الفترة التي أُلِّفَتِ الرسالة عن حادثتها وبعدها بزمن يسير ، مما يعتبر امتداداً لها ، والموضوع بحاجة إلى دراسة أعمق ، وقد يكون في هذه الإشارات ما يوضح بعض جوانب تلك الحادثة .

(للبحث صلة)　　　　حمد الجاسر

الحواشي :

(١) : ١١٩ .
(٢) : « شعراء الحجاز في القرن الثاني عشر » للدكتور عايض الردادي — ص ٦٤٣ .
(٣) : « سلك الدرر » : ٦٥/٤ وفي كتاب « شعراء الحجاز » : — ٢٨٤ — أنه ولد (١٠١٤) ولعل هذا تطبيع — أي خطأ مطبعي — .
(٤) نسختي المخطوطة — الورقة ٣١٠ وما بعدها .
(٥) انظر العرب السنة الثانية عشرة ص ٣٥٧ .
(٦) ١٧٣ .
(٧) ١١٩ .
(٨) : « ماء الموائد » رحلة العياشي : ٣٠٩/١ .
(٩) يعني الشريف زيد بن محسن أمير مكة .
(١٠) رحلة العياشي ٣٠٥/١ .
(١١) : « خلاصة الأثر » ٢٤٧/٣ .
(١٢) رحلة الخياري « تحفة الأدباء وسلوة الغرباء » : ٣٣٣/١ .

وفي الصفحة : (أبو بكر العُلَمي) . وفي الأصل : (أبو بكر العُلَيمى) . وورد الاسم ص ٩١٧ (العليمى) كما في الأصل .

٦٠ ــ وفي ص : ٨٨٤ : (إلاّ نفس يُغْدَى عليها) . والصواب : (الأَنْفُس يُغْدَى عليها) .

وفي الصفحة : (فلئن يكن خيرا) . والذي في الأصل : (فلأَنْ يكون خيرا) .

وفيها : (كافر الغضب فكأنه لو ملك شيئا) الخ سقط هنا مما في الأصل بعد كلمة (الغضب) : (وأما عثمان) ولا يستقيم بدونها الكلام .

وفيها : (على شيء أعيبه فيه . فسألنا قتادة ما هو ؟ فقال : حِفَتُهُ) . والكلمة الأخيرة في الأصل : (خفة) .

٦١ ــ وفي ص : ٨٨٥ : (رأيت أن قد ضيع بأمر الأمة أعظم من ذالك) . والصواب كما في الأصل : (رأيْتَ قد ضيَّع ؟ فأَمْرُ الأُمَّةِ أعظمُ من ذالك) .

وفي الصفحة : (لو كُنتَ غلاماً يشانِئُك غِلمانٌ مِثْلُك حتى بلغتَ السِّنّ) كلمة (يشانئك) هي إلى (شانفك) أقرب صورة ، والفاء لا نقطة فوقها وقد تقرأ عيناً أو قافاً . وقد تكون الكلمة (شارفك) فلصق طرف الراء بالفاء .

٦٢ ــ وفي ص : ٨٨٧ : (يضيق الغار بأحد يجفو ويقسو ويغلظ فيعيينا ، وليس أحد ولي من القبائل شيئا من أمر الناس إلاّ حام على قرابته ، وقَرَى في عيبته) في هذا الكلام كلمات غير واضحة ، وغير مطابقة لما في الأصل ، ومنها (وقرى في عيبته) فكأنها : (ومرا في وعائه) .

٦٣ ــ ص : ٨٨٨ : (حدر عمر رضي الله عنه من مكة) . كلمة (حدر) صوابها : (صدر) كما في الأصل .

٦٤ – وفي ص : ٨٨٩ : (أنا ضربتهم بيدي هذا) كلمة (هذا) صوابها ما في الأصل : (هذه) .

٦٥ – وفي ص : ٨٩٠ : (ارفقوا عليّ) . في الأصل : (ارْبَعُوا عليّ) . ومعناها توقَّفُوا وانتظروني .

– وفي الصفحة : (ما فعل عُيَيْنة ؟ قالوا : هو بالجباب ، قال : إنّ بالجباب لَرَأياً) . كلمة (الجباب) في الأصل مهملة من الإعجام ، ولهذا تُقْرأ (الجِناب) بالنون بعد الجيم ، وهذا هو الصواب ، إذ الجِنَاب اسم موضع مشهور ، له ذكر في الأخبار والأشعار ، وكان من منازل بني فَزَارة قوم عُيَيْنة ، وفيه جَمَعَ جمعاً من غَطَفَانَ ليزحَفَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في شوال سنة سبع من الهجرة ، فأرسل إليهم سريّةً بقيادة بشير بن سعد ، فانهزموا – كما ذكر ذالك علماء السيرة ، كابن سعد في « الطبقات » : ٢/١٢٠ – وغيره ، والجِنَابُ أرض واسعة تقع بين خَيْبَرَ وتَيْمَاءَ وتَبُوك ووادي القُرَى . وتعرف الآن باسم الجهراء – انظر « المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية » قسم شمال المملكة – ص ٣٤٠ وما بعدها – .

٦٦ – في ص : ٨٩٤ : (رجال قد حلوا من الليل) . كلمة (حلوا) تقرأ (صَلّوا) وهي المناسبة لسياق الكلام .

٦٧ – وفي ص : ٨٩٩ : (قال ابن المبارك حدثنيه ، وحدثني أبو جعفر) . وفي الأصل : (قال ابن المبارك في حديثه : وحدثني أبو جعفر) .

٦٨ – وفي ص : ٩٠٠ : (وأفرق ستة . فبصر به رجلان) . والذي في الأصل : (وأفرق ستة ، وقيض له رجلان) والكلمات بدون نقط .

٦٩ – وفي ص : ٩٠١ : (مات من الذين جرحوا سبعة) . وكلمة (جرحوا) في الأصل : (جرح) نغيّرها المحقق ، ولها وجه من الصحة حيث يعود الضمير إلى قاتل عمر ، فقد جرح اثني عشر رجلاً .

٧٠ ـ ص : ٩٠٥ : (انظر من هاؤلاء فأتهم . فإذآ صُهيَّب) . تُقْرأ الجملة كما في الأصل : (انظر مَنْ هاؤلاء . فأتيتُهم فإذا صُهَيْب) .

٧١ ـ وفي ص : ٩٠٦ : (إنّي أعْزِمُ عليك ، قال : عليك من الحقّ) وصواب الجملة ـ كما في الأصل : (إنّي أعْزِمُ عليكِ بِمَالي عليكِ من الحقّ) .

وفي الصفحة : (فأما عينيك فلن أملكهما) . والذي في الأصل : (قالت : فلن أملكهما) بدون ذكر العينين .

٧٢ ـ ص : ٩٠٨ : (أن كعبا قال : فكان في بني إسرائيل) . كلمة (فكان) في الأصل : (كان) .

٧٣ ـ ص : ٩٠٩ : (حدثنا وهيب بن جرير) . في الأصل : (حدثنا وهب بن جرير) : وهو الصواب ـ انظر ترجمته في « تهذيب التهذيب » : ١٦١/١١ .

٧٤ ـ وفي ص : ٩١٠: (ما نراه مغش عليه) . والذي في الأصل: (مانراه . مسجا عليه) .

٧٥ ـ وفي ص : ٩١١ : (فخرج من جروحه) . وهي (فخرج من جرحه) .

وفيها : (أبو هلال المرامي) و (المرامي) تقرأ في الأصل (الراسبي) وهي الصواب ، فأبو هلال هذا محمد بن سليم نزل في بني راسب في البصرة فنُسِب إليهم ، على ما جاء في « تهذيب التهذيب » : ١٩٥/٩ ـ .

وفيها : (إن كان علي باس فقد قتلت) . جملة (فقد قتلت) أضافها المحقق ومكانها بياض ، وأشار إلى ذالك . والذي في الأصل : (إن كان علي بأس من قتلني) والبياض مقدار كلمتين .

ـ وفي الصفحة : (فدعونا طبيباً من الأمصار) . والكلمة الأخيرة في الأصل : (من الأنصار) .

٧٦ — وفي ص : ٩١٢ : (فلما نظرت إليه ضعفت بدنه ، فقال : يا بُنَيَّة إنَّما يبكي الكافر) . وكلمة (ضعفت بدنه) تقرأ : (صَعِقَتْ بِرَنَّةٍ) . من الصعق وهو شدة الصوت بالبكاء .

٧٧ — وفي ص : ٩١٣ : (دخل رجل على عمر رضي الله عنه وهو يَتَألَّمُ) . كلمة (يألّم) في الأصل : (نايم) بدون نقط ، وظاهِرُ الخبر لا يدلُّ عليها بل صلته بالألم أقوى ، ولكن هكذا في الأصل .

٧٨ — ص : ٩١٦ — بعد السطر السادس — سقط من المطبوعة ما نصه : (حدثنا عَمْرُو بنُ قسط . قال : حدثنا الوليد بن مسلم عن أبي جابر عن سليمان ابن يسار أنه حدث أباه وهو يسمع أن الوليد بن عبد الملك سأله : أيساءل الخليفة يوم القيامة ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إنَّ عمر رضي الله عنه قال : لو هلك حمل على سني الفرات ضَيْعَةً ، لخِفْتُ أنْ يسألني الله عنه يوم القيامة . قال الوليد : أو كذبت ؟ قال : أو ذاك) . وكلمة (سني الفرات) كذا في الأصل ولعلَّ صوابها (سقي الفرات) .

٧٩ — ص : ٩٢١ : (حدثنا عمرو بن مرزوق حدثنا عاصم بن محمد عن أبيه) . كلمة (محمد) شبيهة بكلمة (عمر) فالكاتب يكتبهما متشابهتين ، وعاصم بن عمر ابن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب أشبه بأن يكون هو المقصود ، لأنه من الرواة ، ولأن الخبر يتعلق بجده عمر بن الخطاب .

وفي الصفحة : (لو أنَّ بيني وبينه عرضي المدينة) كلمة (عرضي) غير معجمة الحروف ، وتقرأ : (عرصتَي) . والعرصتان — عرصتا العقيق — معروفتان في المدينة عند المتقدمين من العلماء .

٨٠ — ص : ٩٣٤ : (فرجع فأخبره فقال : قاتله الله) إلى (صَلَّوْا صلاتَكُمْ) الكلام بين الجملتين مما زاده المحقق وكان بياضاً في الأصل وأشار إلى ذالك ، ولكن يلاحظ أنَّ نَصَّ ما في الأصل : (فرجع فأخبره ، فقال : ما كانت) ثم بياض بمقدار ثلثي سطر ، وبعده (ألا نقتلهم ؟ قال : أبَعْدَ ما صَلَّوْا صلاتكم) فما زاده المحقق لا ينسجم مع الكلمتين اللتين في أول البياض وفي آخره .

وفي الصفحة : (ثم استخلفت فقال : ثم الشهادة) . والذي في الأصل : (ثم استُخْلِفْتَ فعَدَلْتَ ، ثم الشهادة) .

٨١ – وفي ص : ٩٣٦ : (ورفع رأسه ننظر إليه) . وفي الأصل : (ورفع رأسه فنظر إليه) . ولعل ما هُنَا تطبيع .

وفي الصفحة : (فخطب الناس : إني رأيتُ كأنَّ ديكاً أحمر نقر فيَّ نقرة أو نقرتين فما لبث إلا الجمعة حتى طعن ، فأذن للناس) ثم حديث طويل أضافه المحقق من كتاب « المسند » بعده حديث جاء فيه : (فدخل علي فكشف الثوب عن وجهه وقال : رحمة الله عليك) إلى (بصحيفته ، أو بمثل صحيفته) .

ونصُّ ما في الأصل : (فخطب الناس) ثم بياض نحو ثلاث كلمات وبعده (نقر نقرة أو نقرتين ، فما لبث إلا) ثم بياض نحو كلمة وبعده : (الجمعة حتى طعن) ثم بياض يتسع لثلاث كلمات ، ولكن في الهامش : (لعل هنا نقص ورقة أو نحوها) ثم بعد البياض : (عليٌّ وهو مُسَجَّى فكشف الثوب عن وجهه ، وقال : رحمة الله عليك أبا حفص ، فوالله ما بقي أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إليَّ أن القى الله بصحيفته منك . حدثنا زهير بن حرب ، قال حدثنا جرير عن بيان عن وبرة عن أبي جعفر قال : لما مات عمر رضي الله عنه ، وتسجَّى بثوبه على السرير ، قال علي : هذا أحب الناس إلى أن القى الله بصحيفته ، أو بمثل صحيفته) .

٨٢ – ص : ٩٣٨ : (فقال : هو هذا مآل أبي بكر رضي الله عنكما) . في الأصل : الميم من (مال) ليست واضحة و (أبي بكر) : (أبو بكر) و (عنكما) : (عنهما) .

٨٣ – في ص : ٩٣٩ : (من هذه اليمانية الحمر) الخاء مهملة في الأصل : (الحمر) . والكلام يتعلق بوصف بُرْدَةٍ لا صلة له بالخُمُر .

– وفي الصفحة : (قبع رأسه بالبُرْد) . وتقرأ في الأصل : (قنع رأسه بالبرد) أي غطَّى ، وهو أظهر وأوضح .

٨٤ – وفي ص : ٩٤٢ : (فظننت أني دعوت بذالك) . والذي في الأصل : (فظننت أني وعظت بذالك) . وهذا أوضح ، فقد ظَنَّ أن ما رآه في منامه موعظة له .

٨٥ – وفي ص : ٩٤٣ : (فقال حُذيفةُ رضي الله عنه : اليوم ترك النَّاسُ حافة الإسلام . وأيم الله لقد جار هاؤلاء القوم عن القصد) ثم صفحات كثيرة أضافها المحقق إلى ص ٩٥٦ حيث الخبر المبدوء بجملة : (حدثنا محمد بن سنان قال حدثنا أبو عوانة) أما نَصُّ ما في الأصل فهو : (فقال حذيفة رضي الله عنه) ثم بياض يسع ثلاث كلمات وبعده : (حلقة الاسلام) ثم علامة انتهاء الخبر دائرة في وسطها نقطة . ثم من أول السطر : (حدثنا موسى بن اسماعيل) ثم بياض نصف صفحة ، وليس في آخر هذه الصفحة تعقيبة – أعني الكلمة التي تصلها بما بعدها ، ولكن في هامش الصفحة التي بعدها : (مكتوب على بعض أصل هذه الكراريس

من سيرة سيدنا عثمان – رضي الله عنه – أنها من الجزء السادس ، وهذا الكراس لعله أولها سقط أوله وجميع هذه الكراريس إلى آخر الكتاب من الجزء السادس – ثم كلمة غير واضحة – فيه تخبيط فيحرر من مواضع البياضات إن وُجِدَت نسخة) .

وقد اكتفى المحقق بأن يكتب في حاشية ص ٩٤٣ : (ورد في هامش اللوحة بخط قارىء : (هنا نقص كبير) .

ولم يَرِدْ في المطبوعة ما جاء في أول الورقة الـ (١٤٠) من المخطوطة ، ونَصُّهُ : (أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث عثمان بن عفَّان – رضي الله عنه – إلى مكة ، فأجازه أبانُ بن سعيد ، فقال له : يا بْنَ عَمِّ أراك منحسها (؟) أسبل كما يُسْبِل قومك . قال : هكذا يتَّزِرُ صاحبُنَا إلى أنصاف ساقيه .

حدثنا محمد بن سنان) الخ .

٨٦ – وفي ص : ٩٥٦ : (وعليه ملاءة صفراء قد رفعها على رأسه) ومع

أن المحقق ذكر ما اعتمد عليه في صحة هذا الخبر إلا أن كلمة (ملاءة) في الأصل : (ملية) أي مُلَيْئَة تصغير مُلاَءَة ، ففي « تاج العروس » — ملأ — : (وفي حديث قيلة : وعليه أسمال مُلَيِّتَيْنِ تصغير مُلاَءَة مثناة مخففة الهمز . انتهى إذن (مُلَيَّة) صحيحة .

— وفي الصفحة : (أول نعل رايتها متسعة نعل رأيتها على ابن عفان) . كلمة (متسعة) وإن وردت في المصدر الذي سماه المحقق إلا أنها غير واضحة المعنى ، وقد تقرأ في الأصل (منسعة) أي ذات نِسْع ، ولعل المراد القِبال — كما سيأتي في خبر بعد هذا — .

٨٧ — وفي ص : ٩٥٧ : (أولُ نَعْلٍ رَبَتْ بفتال واحد نَعْلُ عثمان) . وفسر المحققُ (رَبَتْ : بمعنى استغلق) . والخبر وتفسيره غير مفهومين . وما في الأصل يُقرأ (أوّلُ نَعْلٍ رُئِيَتْ بقبالٍ واحد نَعْلُ عثمان) . وقِبَالُ النَّعْلِ السير الذي يقبل من أعلاها إلى السير الذي بِوَسَطِها ، بين الأصبع والتي تليها ، والنِّعَالُ الحجازيّةُ ذاتُ قِبَالَيْنِ ، وغيرها بقبالٍ واحد إلى عهدنا .

٨٨ — وفي ص : ٩٥٩ : (عن أنس قال : إن المقام كان كذالك على عهد النبي صلى الله عليه وسلم) . في الأصل بياض في أول هذا الخبر ، فأكمل نقصه المحقق بأن أضاف بقية سنده ومِنْه :(عن أنس قال إن المقام) ولكن الذي في الأصل بعد البياض (تمام . فكان كذالك على عهد النبي صلى الله عليه وسلم) فكلمة (المقام) ليست في الأصل ، بل (تقام) من الإقامة ، والضمير يرجع إلى الصلاة وباقي الخبر عن إحداث الأذان في عهد عثمان ، لا كما فهم المحقق حيث علّق على الخبر أنه في حديث قيام النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه بصلاة العيد ثم الخطبة بعد الصلاة — كذا — .

٨٩ — في ص : ٩٦٠ : (إنما كان أذان وإقامة ، والأذان إذا خرج الإمام يحدث) أضاف المحقق إلى هذا : (الناس عن أسعارهم وعن مرضاهم) وقال في

الحاشية : (بياض في الأصل والمثبت عن « تاريخ الخلفاء » للسيوطي) الخ . ولكن لا بياض في الأصل وكلمة (يحدث) مهملة الحروف ، وبعدها علامة تمام الكلام دائرة في وسطها نقطة .

٩٠ — وفي ص : ٩٦٣/٩٦٢ : (ثم يقرأ آخر سورة النساء آية ﴿ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ﴾ .. (. وأدركتُ عُمَرَ وعثمان) الخ . والذي في الأصل : (ثم يقرأ آخر سورة النساء) ثم كلمة غير واضحة في الأصل و ليست آية وبعد (الكلالة) : (ثم ينزل ولا يستغفر ، أدركت عمر وعثمانَ) الخ .

٩١ — ص : ٩٦٦ : (كأنما أنظر إلى جارية سوداء حَمَّمَهَا عبد الرحمن حيث طلقها هي أم أبي سلمة) . والذي في الأصل : (كأنما أنظر إلى جارية سوداء حممها عبد الرحمن أم أبي سلمة حيث طلقها) .

٩٢ — وفي ص : ٩٦٩ : (أخذهم معاوية) في الأصل (أحدهم معاوية) أي أحد البنين الأربعة المذكورين في الخبر .

٩٣ — ص : ٩٧١ : (والله إني لمظلوم مَتَنْعِيٌّ علي) وكلمة (منعي علي) في الأصل : (يبغى علي) الياء تحتها نقطتان وفوق الغين نقطة واحدة ولكن وسطها مفتوح .

— وفي الصفحة : (إنه لك وحق) . وفي الأصل : (إنك لك وحق) .

٩٤ — وفي ص : ٩٧٢ : (عن قطن بن خليفة) . وهو في الأصل (قطر) وصواب الاسم (فطر) بالفاء بعدها طاء مهملة فراء — انظر ترجمته في « تهذيب التهذيب » : ٣٠٠/٨ . .

— وفيها : (إما جئناك لأمر) . وهي كما في الأصل : (إنَّا جئناك لأمر) .

وفي الصفحة : (ثم شهد عليه الايمان) . والذي في الأصل : (لم يشهد عليه الاَ يمان) .

٩٥ ــ وفي ص : ٩٧٣ : (قال : وما أنت وهذا) . وفي الأصل : (قال : فِيم أنت وهذا) .

وفيها : (حصن أبو ساسان) وتقدم في أول الصفحة (حصين بن المنذر) وصوابه (حُضَيْن) بالحاء المهملة بعدها ضاد معجمة ــ تصغير حضن ــ صاحب راية علي بن أبي طالب يوم صِفِّين ، وفيه يقول :

لِمَنْ رايةٌ سَوْدَاءُ يَخْفِقُ ظِلُّهَا   إذَا قِيلَ : قَدِّمْهَا حُضَيْنُ تَقَدَّمَا

وحُضَيْنُ هذا مترجم في كتب الرجال لأنه من رواة الحديث .

٩٦ ــ وفي ص : ٩٧٤ : (لما ضرب عثمانُ الوليدَ الحدَّ قال : أبصرتني اليوم بشهادة قوم لَيَقْتُلُنَّك عاماً قابلاً) . كلمة (أبصرتني) صوابها ــ كما يفهم من سياق الكلام ــ (أتَضْرِبُني) .

وفي الصفحة ــ من شعر أبي زُبَيْد :

ولحِرْمتُ لحمَكَ المتعصِّي   ضِلَّة ضَلَّ حِلْمُهُم ما اغْتَالُوا

كلمة (المتعصِّي) في الأصل : (المتعضا) أي المقطَّع أجزاء .

وفيها : (لينالوا الذي أرادوا فنالوا) . كلمة (الذي) في الأصل (التي)

٩٧ ــ وفي ص : ٩٧٥ : (لا يطغى في سريرته ولا علانيته) . كلمة (يطغى) في الأصل : (يطعن) بدون نقط . وهي الصواب .

وفيها :

نادَى وقَدْ تَمَّتْ صلاتُهُمُ   سفَهاً : أرِيدُ بِكُمْ وما يَدْري

وكذا في الأصل ، ولكن كلمة (أريدبكم) يظهر أن صوابها : (أزِيدُكُمُ) لِتُلائِم (وقد تَمَّتْ صلاتُهم) .

وبعد هذا البيت في الأصل ولم يَرِدْ في المطبوعة :

فَأبَوْا أبَا وَهْبٍ وَلَوْ أذِنُوا   لَقَرَنْتَ بَيْنَ الشَّفْعِ والوِترِ

٩٨ ــ وفي ص : ٩٧٦ : (والجميع إلى افتراق) وكلمة (افتراق) في الأصل : (فراق) .

وفي الصفحة : (عن عاصم بن عمر عن قتادة) وكلمة (عن) الأخيرة كأنها (بن) .

٩٩ ــ ص : ٩٧٧ : (حتى ظنَنَّا أنها قد حُدِّثَتْ) . كلمة (حدثت) قد تقرأ (هَمَدَتْ) وهي أنسب في المقام .

١٠٠ ــ وفي ص : ٩٧٨ : (عن نافع بن جبير أن ابن عباس) . وفي الأصل (أن نافع بن جبير أخبر أنَّ ابن عباس) .

١٠١ ــ وفي ص : ٩٨٠ : (فَدُفِعتْ إلى عثمان) . في الأصل : (فَرُفِعَتْ إلى عثمان) .

١٠٢ ــ وفي ص : ٩٨٢ : (وأنْ يُزَوِّجَهَا كُفْئاً وإنْ كانَ بفِتَال) كلمة (بفتال) في الأصل : (لماك) لام بعدها فاء أو قاف ثم حرف غير منقوط وآخرها كاف واضحة ، وأراها من أخطاء كاتب الأصل ، وأن صوابها (بِقِبَالٍ) يوضِّحُ هذا ما في كتاب « أنساب الأشراف » : ١٣/٥ ــ الذي نقله المحقق : (وإن كان بشراك نعله) والشراك والقِبالُ من سُيُور النَّعل.

وفي الصفحة : (فأتى عمر رضي الله عنه يعتلي المنبر ، ضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال وكبر) . ونَصُّ الأصل : (فإنَّ عمر رضي الله عنه اعلى المِنْبَرِ يُكَلِّمُ الناسَ ، ضرب بإحْدَى يديه على الأخرى وقال وكرر) .

ــ وفي ص : ٩٨٣ : (ابسطي حبوتك) . كلمة (حبوتك) ليست ما في الأصل التي تقرأ (حولك) إلاَّ أن الواو أقرب إلى الراء وبعدها لام وكاف .

هذه الجملة ليست واضحة الكتابة في الأصل .

١٠٣ ــ وفي ص : ٩٨٤ : (هيهات سبقتك الفيدرية امرأة عبيدالله بن مَعْمَرٍ) . كلمة (الفيدرية) لاشَكَّ أنها غير صحيحة ، وتقرأ في الأصل : (العبدرية) وهي

الصواب ، فامرأة عبيدالله بن معمر هي فاطمة بنت طلحة بن أبي طلحة من بني عبد الدار ، وهي أم عمر بن عبدالله — انظر كتاب « نسب قريش » لمصعب الزبيري — ٢٨٨ — .

١٠٤ — وفي ص : ٩٨٥ : (كنت أمعث لعثمان الزبيب غُدوة فيشربه عشيَّةً) وتكررت كلمة (امعث) في هذه الصفحة وفي الّتي تليها ، وفسرها المحقق تفسيراً واضحاً : (امعث : أعرك) . ولكن الكلمة وردت في الأصل في كل المواضع (انعث) الباء والعين مهملتان ، وقد تكون من أخطاء كاتب الأصل .

وفي الصفحة : (تخلطين فيه رَهْواً) و (خلطت فيه رَهْواً) . وفسَّر المحقق بقوله (الرَّهْوُ : طعام يؤخذ السنبل ويُدَق ويُلَتُّ في اللبن) ، ولكن أيَّةُ صلة لهذا الطعام بنبيذ الزَّبيب ؟ إنَّ كلمة (رَهو) تقرأ في الأصل : (زَهْو) بإعجام الزاي ، والزَّهْوُ البُسْرُ المُلَوَّنُ وهو مما يُتَّخَذُ منه النَّبيذُ . فلعلها كانت تخلط الزبيب بالزَّهْوِ .

١٠٥ — وفي ص : ٩٨٦ : (وكان حُمْرَانُ مِنْ سَبْي قَدِمَ على عثمان — رضي الله عنه — من نُجَيْر باليمن ، فكان يخدمه ، وأسلمه إلى الكنات) . كلمة (من نجير) ليست كما في الأصل التي تقرأ (عمر باليمن) ولاشكَّ أنها تحريف (عين التمر) فحمران هذا أصله من النمر بن قاسط ، وهو من سَبْي عين التمر ، — انظر « الميزان » للذهبي : ١/٦٠٤ و « تهذيب التهذيب » لابن حجر : ٢٤/٣ — وكلمة (الكنات) في الأصل فوق التاء نقطتان ، والكلمة غير واضحة المعنى ، وأرى صوابها : (الكُتَّاب) . لأن حمران كان كاتباً .

١٠٦ — وفي ص : ٩٨٧ : (يَا رُوْمِيَّة إذا غَيَّرْتُ حُلَّتِي فلا تدخلي عليَّ) . صواب الجملة — كما في الأصل — : (يا رُومِيَّةُ : إذا عَرَكْتِ فلا تدخلي عليَّ) أي إذا حِضْتِ .

وفي الصفحة : (وأنا أُعَوَّقُ كل يوم) . صوابها (وأنا أُعْرَقُ كُلَّ يوم) — ظنَّت أن (عَرَكْتِ) : (عَرَقْتِ) بالقاف من العرق .

ـ وفي الصفحة : (فشقّ إزاراً مَطريّاً) . كلمة (مطريا) صوابها (قطرياً) بالقاف ـ والأُزُرُ القَطَرِيَّةُ كانت معروفة في ذالك العهد ، وهي منسوبة إلى قَطَرٍ البلاد المعروفة .

١٠٧ ـ وفي ص : ٩٨٨ : (ربما ينزَعُ السلطان) الخ . كلمة (ربما) كانت في الأصل (لَمّا) فغيّرها المحقق ظاناً أن الصواب ما وضع مكانها ، ولا داعي لتغييرها فهي صحيحة .

ـ وفي الصفحة : (زبيد بن السلط) . وفي الأصل : (زبيد بن الصلت) .

ـ وفيها : (كلمتكم في هذه النَّرْدِ فلم أذكر أحْرقتموها) . وتقرأ في الأصل : (فلم أركم أخرجتموها) . وفي أول الخبر : (فمن كانت في بيته فليخرجها) .

١٠٨ ـ وفي ص : ٩٩٠ :(فعدَّ له تسعين ديناراً ، وقال : حتما) وردت كلمة (حتْما) أربع مرات ، وهي في الأصل بالصاد (صُتْماً) وهي الصواب ، ومعناها كاملة تامّةً ، ففي « تاج العروس » : والمُصَتَّمُ المكَمَّل ، يقال : أعطيته ألفاً صُتْماً ومُصَتَّماً قال زُهير :

صحيحات ألف بعد ألف مُصَتَّمِ .

١٠٩ ـ ص : ٩٩١ : (أنَّ حُذَيْفةَ بنَ اليَمَانِ قدم على عثمان ، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينيَّة وأذربيجان مع أهل العراق ، وأفْزِعَنّ باختلافهم بالقراءة فقال) وأشار المحقق إلى ما في الأصل من بياض وغموض في إحدى الكلمات ، والأمر كما قال ، ولكن نَصُّ ما في الأصل يقرأ : (أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان وكان يقري أهل ـ ثم بياض ـ العراق ،وامرعن حذيفة باختلافهم قال كات فقال) كلمتا (افرعن) و (كات) غير واضحتين ، وفوق التاء حرف (ط) وهي علامة يضعها الناسخ فوق ما لا يتضح له من الكلمات . وكلمة (امرعن) قد تكون : (أخبر عثمان) لأن الكاتب لا يثبت الألف في عثمان ، ولا ينقط الحروف .

– وفي ص : ٩٩٢ : (أن حُذَيفةَ بن اليمان قدم من غزوة غزاها بفرج أرمينيَّة ، فحضرها أهلُ العراق وأهلُ الشام) . وفي الأصل – بعد كلمة أرمينية – : (فلم يدخل بيته حتى أتى عثمان رضي الله عنه ، فقال : أدْرِكِ الناس . قال وما ذاك ؟ . قال : غزَوْتُ بفرج أرمينية فحضرها) الخ .

١١٠ – وفي ص : ٩٩٤ : (ولا تجعلوه) وهي : (فلا تجعلوه) .

وفيها : (فكتبوه على قوله) وهي : (فيكتبوه على قوله) .

وفيها : (مَنْ أعرب الناس ؟ . قالوا : زيد بن ثابت) والصواب ما في الأصل : (مَنْ أعرب الناس ؟ . قالوا : سعيد بن العاص ، قال : مَنْ أكتبُ الناسِ ؟ قالوا : زيد بن ثابت) ويوضح هذا آخِرُ الخبر .

١١١ – ص : ٩٩٥ : (فأي الناس أفصح وأعرب ؟) . في الأصل : (فأي أفصح أوْ أعرب) .

١١٢ – وفي ص : ١٠١٦/٩٩٧ : (حبان بن يحيى البهرائي) . (حبان) غير منقطة الحروف في أكثر الكلمات والنسبة إلى بهراء : (البهراني) بالنون والبهراوي ، وسيأتي ص ١٠١٦ (البهراني) على غير القياس كصنعاني في النسبة إلى صنعاء .

١١٣ – ص : ٩٩٨ : (قد خشيت أن يتهون الناس فيه تَهون أهل الكتاب ، أما أنت يا أبو موسى) الخ . وكلمتا (يتهون) و (تَهون) في الأصل تقرآن (يتهوى) و (تهوى) . وكلمة (يا أبو موسى) : (يا أبا موسى) مع حذف الألف بين الحرفين الأولين .

– وفي الصفحة : (فوق إجار) . وأشار المحقق إلى أن الاجار والانجار السطح . والكلمة في الأصل (انجار لهم) والكلمة مهملة الحروف .

١١٤ – ص : ١٠٠٤ : (عن أبي مجلد) وتكرر هذا . وهو في الأصل (عن أبي مجلز) – بالزاي لا بالذال – وكذا تقدم – ص ٩٢٢ – .

١١٥ – ص : ١٠٠٧ : (وإن الكتاب كان ينزل او يتنزل من باب واحد) . وفي الأصل : (وإن الكتاب قبله كان) الخ .

١١٦ – ص : ١٠٠٨ : (حدودها وفرائدها) . والكلمة الأخيرة (فرائضها) في الأصل .

١١٧ – ص : ١٠٠٩ : (حتى ازداد علمه إلى علمي ، قد علمت أن رسول الله) الخ . وما في الأصل يقرأ : (حتى ازداد علمه إلى علم قد علمته ، إن رسول الله) الخ .

وفي الصفحة : (مرتين ، فكان إذا فرغ قرأت عليه فيخبرني أني محسن ، فمن قرأ على قراءتي فلا يدَعنَّها رغبة عنها . ومن قرأ على شيء من هذه الحروف فلا يدعنه رغبة عنه) . اعتمد المحقق في إثبات هذا على ما جاء في كتاب « تاريخ القرآن » للدكتور عبد الصبور شاهين – ص ٢٣٧ كما قال – ولهذا زاد كلمتين وغيَّر كلمتين ، زاد (فكان) و (فرغ) ويستقيم الكلام بدونهما . وغيَّر (فلا يدعها) و (فلا يدعه) فجعلهما (فلا يدعنَّها) و (فلا يدعَنَّهُ) . أما كلمة (محسن) فهي في الأصل غير واضحة وفوقها حرف (ط) صغيرة ، وهذه يضعها الناسخ فوق الكلمات التي لا يفهمها .

١١٨ – وفي ص : ١٠١١ : (رأيت ابن مسعود يحك المعوذتين من المصحف ، ويقول : لا يحل قراءة ما ليس منه) . وأحال المحقق إلى « مجمع الزوائد » : ١٤٩/٧ – ولكن الجملة تخالف صورتها صورة ما في الأصل ، ويقرأ النص : (ويقول : لا تخلطوا به ما ليس منه) .

١١٩ – وفي ص : ١٠١٢ : (إقرأ بهما كارها نمْتَ وقُمْتَ) وكلمة (كارها) التي قال المحقق عنها : (هكذا وردتْ في الأصل) . هي فيه (كل ما) كما توقَّع المحقق .

١٢٠ – ص : ١٠١٣ : (حدثنا عمرو بن قصد ، حدثنا الوليد ، عن ابن عمرو – يعني الأوزاعي) كلمة (قصد) صوابها : (قسط) – و (ابن عمرو) :

(أبي عَمْرو) وهي كنية الإمام الأوزاعي .

وفي الصفحة : (ابن عباس الجهني) والباء ليست منقوطة ، وفي « تفسير ابن كثير » :(عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبي عبدالله بن عابس الجهني) وفي « تهذيب التهذيب » : ــ ١٢/٣٠١ ــ : (ابن عابس الجهني عن النبي صلى الله عليه وسلم وعنه : أبو عبدالله) .

وفي الصفحة : (ما يتعوذ به) وفي الأصل (ما تعوذ) .

وفيها : (عبدالله بن فطيم) وفي الأصل : (عبدالله بن فطيمة) .

١٢١ ــ وفي ص : ١٠١٤ : (والملي يملي) وفي الأصل : (والملي يُمل) ومعروف أن (يُمِلُّ) بمعنى يملي ، وقد وردت في القرآن الكريم .

١٢٢ ــ ص : ١٠١٩ : ــ سقط من المطبوعة بعد السطر الأول من هذه الصفحة حديث نَصُّهُ في المخطوطة : (حدثنا الحسن بن عثمان ، حدثنا الربيع بن بدر عن الجريري عن الحسن قال : صلى بنا عثمانُ رضي الله عنه الغداةَ ، فانصرف الناسُ ، واضطجع في المسجد فنام ، فكأني أنظر إلى الذبان تنزو على وجهه ، وما عنده أحد .) وكلمة (تنزو) بدون نقط وغير واضحة .

١٢٣ ــ ص : ١٠٢١ ــ في ذكر إقطاع عثمان : (وعَدِيَّ بن حاتِمٍ الرَّوْحَاء) . وفسَّرها المحقق بقوله : (الروحاء من عمل الفرع على نحو أربعين ميلا ، وسُمِّيت روحاء) ولم يزد . ولكن كيف يُقْطِعُ عثمانُ الرَّوْحَاء وهي من بلاد مُزَيْنَةَ وعديُّ بن حاتِمٍ الطائي لَيْسَ منهم وليست في بلاد قومه ؟ ثم إنَّ أوَّل الحديث يَنُصُّ أنَّ ما أقطعه عثمانُ كان من صوافي كِسْرَى ومما جلا عنه أهله ، فهو ليس مملوكاً لأحد ، وفي أرض العراق . قد تكون (الروحاء) إذا صحَّت الكلمة في العراق ، لا الموضع المعروف بقرب المدينة في الطريق إلى مكة .

ــ وفي الصفحة : (والأشعري في موضع واحد نحو حمام ابن عمر) . وما في الأصل يقرأ : (نحو حمام بني عمير) .

١٢٤ – ص : ١٠٢٣ : (لم تكُن الدراهم في زماني أرخص منها في زمان عثمان) . كلمة (زماني) صوابها – كما في الأصل : (زمان) .

– وفي الصفحة : (يقال : يا معشر المسلمين) . وما في الأصل يقرأ (فقال) الخ ، وهي المطابقة للسياق : (فسمعته يخطب – وما من يوم إلا وهم ... – فقال) .

– وفيها : (قال الحسن : حتّى والله سمع أوس يقال : اغدوا السمن والعسل) . قد تقرأ الجملة : (حتّى والله تَسْمَعُ إذْ نُمْسي يقال : اغدوا على السمن) الخ .

١٢٥ – وفي ص : ١٠٢٥ : – في شعر ضابيء بن الحارث البُرْجمي – :

إذَا غيَّبَتْ من آخر اللَّيْلِ دخنة   يظلُّ لَهُ تحت السَّريرِ هَرِيرُ

كلمة (غيَّبت) في الأصل مهملة الحروف ، ولهذا قد تكون (عَثَنَتْ)وكذا ورد البيت في « الأوائل » : ٥٩/٢ – وفي « طبقات فحول الشعراء » لابن سلام – الطبعة الأولى – ١٤٥ – وفسَّرَها المحقق الأستاذ محمود شاكر : عَثَنَتْ : دخنت ، والعُثَانُ : الدخان .

وفي الصفحة : (ويقال : وُجِد خِصَافيْ نَعْلِهِ) . والصواب : (ويقال : وُجِدَ بَيْنَ خِصَافَيْ نَعْلِهِ) – أي الخَنْجر .

١٢٦ – وفي ص : ١٠٢٦ – :

ولا القتْل ما أمرت فيـه ولا الذي   تحدَّثُ ما لاقيـت أنك فاعلُه

وفي الحاشية قال المحقق إنه مختل الوزن . قد يكون مُخْتَلَّ المعنى أما الوزن فمستقيم ، وهو في الأصل (وما القتل) وكذا في « أنساب الأشراف » – القسم الرابع ج ٥٧٦/١ – تحقيق الدكتور إحسان عباس – : (وما القتل ما آمرت فيه ولا الذي تُخَبِّرُ) .

وابن شبة روى الشعر عن محمد بن سلاَّم ، وهو صاحب « طبقات فحول الشعراء » الذي ورد فيه البيت بهذا النص :

وما القَتْلُ مَا آمَرْتَ فيهِ ولاَ الَّذي   تُخَبِّرُ مَنْ لاَقَيْتَ أنَّك فَاعِلُهْ

وعلق الأستاذ محمود شاكر قائلاً : (آمَرْت فيه : شاورت فيه ، وكان ضابيء قد شاور ابْنَ عَمٍّ له يقال له فراس) . وورد البيت في كتاب « الأوائل » – ٥٩/٢ – كما في كتاب « الطبقات » .

وفي ص : ١٠٢٩ : (فكان يعلَمُ اللهُ موضعي) . كلمة (موضعي) صوابها – كما في الأصل – : (مِنْ ضَعْفِي) .

وفيها : (والله لا أفتكُ هذا من رقبتك) وكلمة (أفتاك) في الأصل : (أفُكُّ) .

١٢٧ – وفي ص : ١٠٣٠ : (قال : وما يدريك ؟) والصواب : (قالوا : وما يدريك ؟) إذ الضمير يرجع إلى (أصحابه) .

وفي الصفحة : (لبحران حاجب عثمان) وكلمة (بحران) في الأصل بدون نقط في هذا الموضع ، وفوقها حرف (ط) وهي العلامة التي يضعها الناسخ فوق ما يستشكله من الكلمات ، ولكنها سترد في الشعر – ص : ١٠٣١ (نَجران) في الأصل ، لا كما وَرَدَتْ في المطبوعة (بُحْرَان) .

١٢٨ – وفي : ١٠٣١ : (أوْ لأُسيلَنَّ دمك قال : لأقصَّن لك . فأخبره فدعا ببحران) . والذي في الأصل : (أوْ لأُسيلَنَّ دَمَكَ لا يضربك . فأخبره فدعا بحران) والكلمة الأخيرة بدون نقط .

١٢٩ – وفي ص ١٠٣٢ : (حدثنا عن ابن أبي شيبة) . والصواب : (حدثنا ابْنُ أبي شيبة) كما في الأصل.

وفي الصفحة : (ولَمْ أفِرَّ يَوْمَ عُيَيْنَ – يعني يوم أحُدٍ) .

وتكررت ص : ١٠٣٣ – و (عُيَيْن) صوابها : (عَيْنَيْن) مُثَنَّى عَيْن اسم جبل بِقُرْب أُحدٍ أقام عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الرُّماةَ يَوْمَ أحُدٍ ، وأمرهم بعدم النزول منه لكي يَحْمُوا ظهورَ المسلمين ، ولكنَّهُمْ تعجَّلُوا حين شاهدوا هزيمة المشركين فنزلوا ، فكرَّتْ خيلُهم على المسلمين من خلفهم فكانت الهزيمة – كما أوضح هذا علماء التاريخ – .

١٣٠ ــ وفي ص : ١٠٣٣ : (فوالله ما أظُنُّني أنا ولا هو يطيق سُنَّةَ عُمَر)
والصواب ــ ما في الأصل ــ : (فوالله ما أُطيق أنَا ولا هُوَ سُنَّة عُمَر) .
ولا حاجة لما زاده المحقق .

١٣١ ــ وفي ص : ١٠٣٤ : (عن أبي عمرو بن خماش) . وكلمة (خماش)
بدون نقط : (حماس) وهو الصواب كما في « تهذيب التهذيب » : ١٧٨/١٢ ففيه :
أبو عَمْرِو بن حِمَاسٍ الليثي ... روى عنه أبيه ... ومالك بن أوس بن الحدثان ،
وعنه ابنه شداد ومحمد بن عمرو بن علقمة ــ الخ ــ .

وفي الصفحة : (عن مالك بن أنس بن الحَدَثَان) . وكذا في الأصل ، ولكن
ورد مرة أخرى : (مالك بن أوس بن الحدثان) في الأصل . ويظهر أن (أنس)
خطأ من الناسخ ، إذ الصواب (أوس) ــ وأوس صحابي ترجمه ابن حَجَر في
« الإصابة » ــ برقم ٣٢٦ ــ وذكر ابنه مالكاً .

١٣٢ ــ وفي ص : ١٠٣٥ : (عن محمد بن هلال عن عبدالله بن الصامت قال :
دخلتُ مع أبي ذرٍّ على عثمان) . وما في الأصل : (عن حميد بن هلال ــ ثم بياض
يسع أربع كلمات بعده ــ ونفر من غفار على عثمان ــ) وبياض بمقدار كلمتين .

١٣٣ ــ وفي ص : ١٠٣٦ : (يا معاشر قُريش ! اعذموها ، ودعونا ودِيننا) .
والصواب (يا معاشر قريش ! اعذِمُوا دُنْياكُمْ ، ودَعُونا ودِينَنَا) ــ كما
في الأصل ــ العَذْمُ : الأكْلُ بِعُنْفٍ ــ .

١٣٤ ــ ص : ١٠٣٨ : (كُنْتُ بالمدينة لِنَأتِيَ عثمان) . كلمة (لنأتي)
في الأصل (ليالي) ولكنَّها بدون نقط .

١٣٥ ــ وفي ص : ١٠٣٩ : (حتى يَتَّقِيَ الحرقُ إخوانهم) . وما في الأصل
يقرأ : (حتى يلتقي الحرق أجوافهم) .

ــ وفي الصفحة : (حدثنا بكار بن عبدالله الربعي) . كلمة (الربعي) هي
إلى (الزُّبيري) أقرب . وبكار بن عبدالله الزُّبيري كان أمير المدينة في عهد الرشيد

وقد ترجمه ابنه الزبير بن بكار في كتاب « جمهرة نسب قريش » : ١٦٣/١ — فأطال ترجمته ، ولكنني لم أرَ له ذكْراً فيما اطلعت عليه من كتب الجرح والتعديل ، وكثير ممن يرد ذكرهم في كتاب ابن شبّة لم أرَ لهم ذكْراً لقلة ما تحت يدي من تلك الكتب .

١٣٦ — وفي ص : ١٠٤٠ : (وأوغر صدورهم) . وذكر المحقق في الحاشية أن في الأصل كلمة لا تقرأ ، وضع مكانها (وأوغر) والواقع أن الكلمة واضحة الصورة : (واخون) حروفها بينة سوى النون فغير منقوطة ، ولكنها غير واضحة المعنى ، وما وضعه المحقق مناسب لسياق الكلام .

١٣٧ — وفي ص : ١٠٤٢ : (لقد القى فيها العمار فأقبات) . هذه الجملة ليست واضحة وإن أشبهتْ حروفها مافي الأصل . وتقرأ : (لعدالة .. العمال) الخ .

— وفي الصفحة : (جعل خصومة إلى عقيل) . و (خصومة) في الأصل : (خصومته) . .

— وفي الصفحة : (على الذي له بيننا) . ويقرأ ما في الأصل : (على الذي له بفنائه) وإن كانت الحروف بدون نقط ، والكاتب لا يثبت الهمزة .

١٣٨ — وفي ص : ١٠٤٣ : (تعتق أمام الركب) . ولعل صواب (تعتق) : (تُعْنِق) بالنون ، والْعَنَقُ ضَرْبٌ من السير السريع .

وفي الصفحة : (فلقيتها منه) . و (فلقنتها منه) أقرب إلى ما تدل عليه جملة : (رَمَى بكلمةٍ عرفتُ أنه رفدني بها) . إذْ لقنتها : فَهِمْتُها بِسُرْعَةٍ .

١٣٩ — وفي ص : ١٠٤٤ : (قال سمعت (...) وأتاه عثمان بعسفان) . وأشار المحقق إلى ما في الأصل من بياض ، وما في الأصل هو : (قال سمعت سعيد بن المسيب — ثم بياض بقدر ثلاث كلمات وأكمل السطر كاتب غير كاتب الأصل بجملة — : وأتاه عثمان بعسفان) .

١٤٠ — وفي ص : ١٠٤٥ : (شكوى آدت منه) . كلمة (آدت) في الأصل (أدنفت) .

وفي الصفحة : (أنا دونك أُسَرُّ أَمْ ببقائِك) وكلمة (دونك) في الأصل : (بِمَوتك) وهي الصواب إذْ بعدها : (لئن مُتَّ لا أجِدُ منك خلفا) .

وفيها : (وإما حرب فتنابز) تقرأ الكلمة الأخيرة (فتنابذ) بالذال وإن كانت الحروف كلها مهملة .

١٤١ – ص : ١٠٤٧ : (عن جعفر بن يرقان) . وهو ابن بُرْقان – بالباء الموحدة المضمومة – ترجمته في « تهذيب التهذيب » – ٨٤/٢ – .

١٤٢ – ص : ١٠٤٨ : (لا أفعل ما تكرهون جهراً في الاسلام) . والصواب – كما في الأصل – : (لا أفعل ما تكرهون، فَمَرُّ أخي في الاسلام) وهو ما يدلُّ عليه سياق الكلام .

١٤٣ – ص : ١٠٤٩ : – في شعر تميم بن أُبَيِّ بن مُقْبِلٍ :

خَرَجْنَا وغَادَرْنَا ابْنَ عَفَّانَ مُدْنِفاً
مِنَ السيف لا يسلك إلى السيف ضارِبُهْ

يُقْرَأ عَجُزُ البيت : (من السيف لمَّا يسلل السيف ضارِبُهْ) مع مخالفة كلمة (يسلل) إذ الكاتب يخطيء فيضع اللام كافاً في بعض الأحيان .

وفي الصفحة : (مستحجن بوساده) . تقرأ الجملة (مستحجر بوسادة) وسقط من الشعر بَيْتٌ فلم يرد في المطبوعة ، ولعلَّ عَدَمَ وضوحِهِ في الأصل حال دون إثباته ، ومنه :

وتُضْرِمُ نارٌ بَيْنَ صنعا محاربها سعان وَمُحَارِبُهْ

وعَجُزُ البيت الذي قبله في المطبوعة : (على الناس فيه فرثه وأقاتبه) كلمتا (فرثه وأقاتبه) في الأصل : (قربه واقاشبه) .

– وفي الصفحة : (كتب إلى عثمان يبغضه على ابن مسعود) . كلمة (يبغضه) ليست كما في الأصل (نعصه) فهي إلى كلمة (يغضبه) أقرب .

١٤٤ ـ ص : ١٠٥٠ ـ أول هذه الصفحة في المطبوعة (حدثنا أبو بكر الباهلي) ليس تابعاً لما في الصفحة التي قبلها ـ ١٠٤٩ (فرجعوا) وما ذكر المحقق من أنه وارد في آخر اللوحة ١٥٧ في ورقة تسمى في عرف التراثيين طيّارة ـ ليس واضحاً .

وما في المخطوطة بعد كلمة (فرجعوا) التي هي آخر صفحة ١٥٦/أ ـ يليها في ص ١٥٦ب : (حدثنا يزيد بن هارون) الوارد في المطبوعة ـ ص ١٠٥١ السطر السادس . أما جملة : (حدثنا أبو بكر الباهلي) فموقعها في المطبوعة ـ ص ١٠٥٤ ـ بعد جملة (فأعطاه خمسة عشر ألف درهم . حدثنا أبو بكر الباهلي ـ السطر التاسع ـ على ما في المخطوطة فهي في ورقة تحمل رقم ١٥٧ ـ أولها (أن النبي صلى الله عليه وسلم آخى بين الزبير وابن مسعود) متصلة بالورقة التي تحمل الرقم ١٥٦ ـ كما تدلُّ التعقيبة الكلمة الواصلة بين الورقتين ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم ـ والورقة التي تبدأ بهذه الجملة ليس فيها سوى ستة عشر سطراً ، في كل صفحة من صفحتيها ثمانية ـ وهي متصلة بما قبلها وما بعدها ـ أي بين ورقتي ١٥٦ و ١٥٨ ـ أي أن الكلام في الورقات الثلاث مُتَّصِلٌ ـ وليس كما ورد في المطبوعة مما يدل على أن المحقق الفاضل لم يطلع على الأصل ، أو أن ما طالَعَهُ من الأوراق ليس مطابقاً لترتيب أوراق الأصل ـ كما يفهم من الحواشي التي وضعها مما لا داعي للإطالة بإيضاح ما جاء فيها من مخالفة .

١٤٥ ـ ص : ١٠٥٠ : (حدثنا عنان قال : حدثنا معمر) . (عنان) في الأصل (عفان) .

١٤٦ ـ وفي ص : ١٠٥٢ : (ولئن قتلتموه لا تستخلفونه) . وفي الأصل : (ولئن قتلتمنّهُ لا تستخلفونه) .

١٤٧ ـ وفي ص : ١٠٥٣ : (عن مسروق أر... ... حذيفة) كلمة (أر) في الأصل (أو) واضحةٌ .

وفي الصفحة : (فجعل ... يقع في عثمان) . وفي الأصل : (فجعل حذيفة يقع في عثمان) وعلى هذا فلا داعي لتعليق المحقق .

وفيها : (وكنا خلفاء نَرْضَى أو نسكتْ) . وما في الأصل يُقْـرَأ : (وكنا خُلَفَاء أنْ نَرْضَى أَوْ نَسْكُتْ) . وكلمة (حلعا) بدون نقط و لا همزة .

١٤٨ — وفي ص : ١٠٥٤ : (فجعل يضربه به) . وفي الأصل : (الشمراخ فجعل يضربه به) وما قبل (الشمراخ) بياض كما في المطبوعة .

١٤٩ — وفي ص : ١٠٥٦ : (فلما قال عبد الرحمن بن الحارث : فأنا أخطب إليك فنوله دركه فنزل) الخ . وما في الأصل يقرأ : (فلما قال عبد الرحمن بن الحارث : فأنا أخطب إليك حول وركه فنزل) أي حوّل وركه من الرحل فنزل .

١٥٠ — وفي ص : ١٠٥٧ : (فقال : إني صائم ، فاحتفظ من ذالك عثمان لسهوه ، وقال : أراك تواصل) . كلمة (لسهره) تقرأ (فَسَهّره) وهي الملائمة لسياق الكلام .

وفيها : (عن عبيدالله بن ثور قال : حدثني بكر بن الحلال بن ثور عن المجيد ابن وهب) . وما في الأصل : (عن عبيدالله بن ثور قال : حدثني أخي الحلال بن ثور عن عبد المجيد بن وهب) . وكلمة (الحلال) مهملة من النقط وتكررت ثلاث مرات .

وفي الصفحة : (لحم ظبي ذكر) وكلمة (ذكر) صوابها — ما في الأصل — (ذكي) من الذكاة .

وفيها — في شعر مسعود بن معتب الثقفي — :

لأُلْفِيَنّ قُرَيْشاً تشْتَري غيلى بني أُميَّة من زَرْعٍ وحجرانِ

وما في الأصل : (غيلى) بدون نُقط . و (بِابْنَيْ أميمة) و (جحدان) ولاشكّ أن (أميمة) هي الصواب ، إذْ أوضح المؤلف أنّ المراد أميمة بنت عمر بن عمير من ثقيف .

١٥١ — وفي ص : ١٠٥٨ : (زندي منهم وارِ) . وفي الأصل : (زَنْدِي فيهم وارِ) .

وفيها : (قال : بعث الشِّعْرُ ورُوي) وكلمة (بعث) لَيْسَتْ كما في الأصل (فَعُدَّ) وقد يكون الكاتب أراد كتابة (فعرف) إذ الدال شبيهة بالراء .

١٥٢ — وفي ص : ١٠٥٩ : (وأمُّ دينارٍ بين بني بَدْرٍ) . كلمة (بين) صوابها : (من) .

وفيها : (فقال الغطفيون) . وهي : (فقال الغَطَفَانِيُّون) وفيها — في شعر ابن دارة :

إنّي وإنْ حُذِّرْتُ شيخنا لَذَاكِرُ   لِشَتْمِ بني الطرماح أهـل حمام

وكلمة (شيخنا) في الأصل : (سخيا) وكلمة (الطرماح) : (الطماح) وكلمة (لشتم) اللام كأنها باء . وصواب البيت :

وإنّي وإن خُوِّفْتُ سِجْنًا لَذَاكِرٌ   بِشَتْمِ بني الطَّمَّاحِ أهْلَ حَمَامِ

كما يظهر هذا مما أورده البكريُّ في « معجم ما استعجم » في رسم حَمَام قال : على لفظ جَمْع حمامة ، بلد لبني طريف بن عَمرو بن قُعَيْن من أسدٍ ، قال سالم بن دارة يهجو بني الطمَّاح بن طريف :

وإنّي وإنْ خُوِّفْتُ بالسِّجْن ذاكِرٌ   لِيَهْجُوِ بني الطمَّاح أهْلَ حَمَامِ

وفي الصفحة : (وحفوا حوله بغرام) . كلمة (بغرام) في الأصل (بِقرام) واضحة . وكذا هي في « معجم ما استعجم » — ٤٦٧ — .

وفيها : (نبهان بن طيء) . (ابن) صوابها : (مِنْ) إذْ نَبْهانُ هو ابن عمْرو ابن الغوث بن طيء .

وفيها : (بني نفل) والصواب (بني ثُعَل) فالممدوح وهو عَدِيُّ بن حاتِمٍ منهم ، فحاتِمٌ هو ابن عبدالله بن سعد بن الحشرج بن امرئْ القيس بن عدي ابن أخزم بن ربيعة بن جرول بن ثُعَل — « جمهرة أنساب العرب » لابن حزم — ٤٠٢الطبعة الثانية — .

وفي الصفحة :

وأَنْتُمْ رِمامٌ من أَزِمَّــة طــيٍّء   وأنتم بِخَيْرِ جَنَّةُ السَّهْلِ والْجبَلْ

وصواب البيت :

وأَنْتُمْ زِمَامٌ مِنْ أَزِمَّــةِ طَــيٍّء   وأَنْتُمْ بِنَجْدٍ حَيَّةُ السَّهْلِ والْحَبَلْ

وفي الصفحة : (فإن تتقوا شرًّا فمثلكم اتقى) . كلمة (تتقوا) في الأصل ليست واضحةً و (شَرًّا) في الأصل (سما) كذا .

وفي الصفحة :

ياليْتَ شعْرِيَ والأيــام تحكمــــه   هل في مثولــة حامي راهب العــاري

كلمة (تحكمه) قد تقرأ (محكمة) و (مثولة) صوابها (مَثْوُلة) وهو اسم أمّ شَمْخٍ وظالم ومُرَّة بني فزارة القبيلة التي قيل فيها الشعر – انظر « جمهرة أنساب العرب » – ٢٥٥ – و « تاج العروس » – رسم (نال) – وكلمة (العاري) صوابها (العار) بحذف الياء .

وفي الصفحة : (إذا تغنَّتْ عُلُوجُ الحظِّ جَاوَبَها) . كلمة (الحظ) صوابها (الخطِّ) اسم الاقليم المعروف شرق الجزيرة .

وفي الصفحة :

فأيْنَ مَوْلاك منظورٌ لحلتـــه ؟   وأيْنَ مَرْقَةُ منها وابن عَمَّار ؟

كلمة (لحلته) في الأصل (حاته) كذا و (مَرْقة منها) صوابها (فِرْقة عنها) وفرقة ابن حذيفة بن بَدْرٍ ، وبنو بَدْرٍ هم بَيْتُ فَزَارة – انظر « جمهرة أنساب العرب » – ٢٥٦/٢٥٧ – .

١٥٣ – وفي ص : ١٠٦٠ : (فهزَّ القومُ زُمَيْلاً ، وخرج ركوب بن مراد وهو فيهم) . في الأصل : (فَهَزّ) بالزاي – أي حركوه للانتقام ممن هجاه ، وكلمة (ركوب بن مراد) . في الأصل (اركوب بني قراد) بدون نقط ، وقد تقرأ (ركب من بني قراد) ولاشكّ أن كلمة (قراد) أنسب للمقام إذْ لا صلة لِزُميل – وهو من فزارة القبيلة العدنانية ببني مُراد القحطانيين اليمنيين .

وفي الصفحة :

إذَا اتَّسَقَتْ أخفافُها فكأنَّما تكَسَّرَ بَيْضٌ بَيْنَهُنَّ وخيثمُ

كلمة (وخيثمُ) صوابُها — كما في الأصل — : (وحَنْتَمُ) وهو الحَنْظَلُ ، والجِرَارُ الخُضْرُ .

وفي الصفحة : (فَقَضُّوا مِنْ رِكابِهِم) وهي (فَغَضُّوا من ركابهم) أي قَصَّرُوا من سُرْعَةِ سَيْرِها .

وفيها : (مسلط بالسيف) . والصواب : (مُصْلَتٌ بالسيف) .

وفيها : (وأدرجوا بغبوق زينب) . كلمة (ادرجوا) في الأصل : (ورُوحوا) من الرَّواح .

١٥٤ — وفي ص : ١٠٦١ : (وذُو النَّخْيلِ من وادي نطاة فيعتق) كلمة (فيعتق) في الأصل : (فعتق) والصواب ، (تعنق) — على ما ذكر ياقوت في « معجم البلدان » حيث قال : — تعنق بالنون والقاف — : قرية قرب خيبر . انتهى . وفي « ديوان جَميل بن مَعْمَرٍ » — ١٤٦ — :

وَقَدْ حَالَ أجبالُ المُقَطَّمِ دُونَهَا فَذُو النَّخْلِ من وادِي نَطَاةَ فَتَعْنُقُ

وفي الصفحة : (بماء من مياه قومه يدعى الهجع) . كلمة (الهجع) غير واضحة ، وأرى صواب الكلمة (الهمج) وهو من مياه غطفان قديماً ، وهم قوم زُمَيْلِ الفَزَاري الوارد ذكره في الخبر ، ووادي الهَمْج له ذكر في السيرة النبوية ، ولايزال معروفاً — انظر لتحديد موقعه « المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية » — قسم شمال المملكة ص ١٣٩٢ — .

وفي الصفحة :

ما إنْ يُرِيدُ الكَوْمُ إلا كَتَلِي يَصْرَعْنَ أوْ يَلْتَوِينَ رِجْلِي

وكلمة (رجلي) في الأصل (برحلي) بدون نقط .

وفي الصفحة : (ثم جَعَلْتُ عَقْلَهُ البكاره) . في الأصل : (البكاره)

بدون نقط ، وقراءتها بالنون أنسب للمقام ، أي أنه أنكر القتل ، ولا معنى للبكارة هُنَا .

وفي الصفحة : (وإن أتاك بها تحذى) . كلمة (تحذى) في الأصل (تحدا) ولعل (تُحْدَى) أنسب .

١٥٥ ـ وفي ص : ١٠٦٢ : (أنْت والله البار الميتَّم) . تُقرأ الجملة : (أنت والله الثَّأرُ المُنِيمُ) . لأنه أتى القوم يَعْرِض عليهم دِيَةَ قتيلهم التي رفَضُوا قبُولها قائلين تلك الجملة ، أي إذًا قتلناك أخذْنَا بثأرنا فنُمْنَا راحةً واطمئناناً . فأجابَهُمْ : (أنا والله الثَّأرُ المُسْهِرُ) لا كما ورد في المطبوعة خطأً : (أنا والله البار المشهر) .

وفي الصفحة شعر للكميت بن معروف أورده صاحب « خزانة الأدب » ج ١١ ص ٣٨٩ ـ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون ـ نقلاً عن كتاب « ضالة الأديب » لأبي محمد الأعرابي ـ ما عدا البيتين الأخيرين ـ مع اختلاف في بعض ألفاظ الأبيات الأخرى ، ونسب الشعر للكميت بن ثعلبة .

وفيها : (وإن نقضوا نحرب عليه فتيله كرهط كليب) . يقرأ الشطر : (وإنْ نَقَضُوا تَحْدبْ عليه قبيلةٌ كَرَهْطِ كليب) .

وفي الصفحة : (وتشهر على بني أسد أكل الكلاب) . كلمة (وتشهر) في الأصل (ونشر) بدون هاء ، والنون ليست منقوطة .

وفي الصفحة : (الحارث بن دوران بن أسد) . (دوران) صوابه (دُودَان) من الدُّود بِدَالَيْنِ كما هو معروف ـ .

١٥٦ ـ وفي ص : ١٠٦٣ : (لو جاءك الله عليه حَرَّمَهْ) . كلمة (جاءك الله » صوابها ما في الأصل (خافك الله) .

وفيها ـ من شعر ابن ثوابة ـ :

يطلبن يوم عصـــابة حلبـــت وما وأتين بعـــد بلائهـــا أحســـابها

القافية في هذا البيت مغايرة لقوافي أبيات القطعة : زمانها – هوانها – يصطانها – ثم إن معنى البيت غير واضح ، وقد يُقْرَأ :

يطلبن قَرْمَ عصابةٍ ، حَفيَتْ دماً وأتَيْنَ بَعْدَ بلائهـا إحســـانها

والضمير في (حَفِيَتْ) يرجع إلى الركائب الواردة في البيت الذي قبله .

وقال المحقق – تعليقاً على البيت الثالث من هذه القطعة : (حذفنا ثلاثة أبيات تالية لشدّةِ اضطرابها وغموضها) . والواقع أنه حذف منها ثلاثة ، وحذف غيرها أبياتاً ثلاثة لمسافع بن عُقبة أبي سالم بن دارة . والواضح من الثلاثة الأول :

مازال مذ حمل السيـــوف مكلَّفاً يهوى الجياد وقَلَّ مـــا يَصْطَانُها
... ... ويبلغهـــــا المـــــدى يغشي وجهــــه قسطـــانهـــا
أفنى حواميهـــا وحـــد بســـورها عض الإكـــام يقضـــا صُوَّانُهـــا

وبعدها : (وقال مسافع بن عقبة أبو سالم بن دارة حين قُتِلَ عثمان رضي الله عنه :

جزانـــي الله في عُثْمَـــانَ إنِّـــي إذاَ أَدْعُـــو على عَبْدٍ جزاني
جزاني إذ ... تحرق صفحتاه ... ... أســـد العـــران
وذاك لـمـا خليت النـــاب عُرْيـــاً وراكبهـــا إلى جبـــل الدخـــان

– والأبيات الستة ليست واضحة ، ولكن ينبغي إثبات ما يمكن اثباته منها ليُبْحَثَ عنها في مَضَانِّها .

١٥٧ – وفي ص : ١٠٦٤ : (فيَّ وفي أصحابنا أُخرجنا من مكة بغير حق) . كلمة (أصحابنا) صوابها ما في الأصل (أصحابي) .

وفي الصفحة – قول عَمْرِو بْنِ العاص : (أيا معاوية إني قد أخذت بضاعتك) . كلمة (أخذت بضاعتك) ليست مطابقة لما في الأصل الذي يقرأ (أخبرت بصفتك) .

وفيها : (إن تزدني أزدك) . ونصُّ ما في الأصل (استزدني أزِدْك) .

– وفي ص : ١٠٦٥ : (يأتيني مواليك يدعونك عبداً فقلت : أروني جلدة عذبته ، وهو لكم ابن عمّ خير لكم منه عبداً) . جملة (أروني جلدة عذبته) تُقرأ : (أرَى جِلْدةَ عَرَبِيَّةً) . وبهذا يستقيم الكلام .

وفيها : (وكأن عثمان عضّ سناً) . الجملة غير واضحة المعنى وصورتها في الأصل : (وكان عثمان عصاسبا) . وقد تقرأ (عصابياً) .

وفي الصفحة : (وقال المدائني : قال له عثمان : إلى ما متى بنو الظرب يدعونك عبداً) . وما في الأصل يقرأ : (قال المدائني : قال له عثمان : إلى : يأتي بك بنو الظرب يدعونك عبْداً) . أي إن رواية المدائني تتفق مع الرواية الأخرى إلى جملة (يأتي بك بنو الظرب) إذ بهذه الرواية صرّح باسم الذين أتوا به بخلاف ما قبلها .

١٥٨ – وفي ص : ١٠٦٦ : (وشريك البني شركة حق) . كلمة (البني) صوابها (النُّبيّ) .

وفيها : (أنجب الناحلوك) . وهي (أنجب النَّاجِلُوك) – بالجيم من النجل – .

وقد سقط من المطبوعة بيت من شعر الوليد بن عقبة في مدح عثمان هو آخره ، ونصه :

مَنْ يُصَبِّحْ بِهِ يُصَبَّحْ بِحُلْــوٍ طَيِّبٍ طَعْمُهُ قليلُ المـــرارَهْ

وفي الصفحة : (أخي ذا الطول والحول والنائل الغمر) وأشار المحقق إلى اختلال وزن هذا الشطر ، ولكن كلمة (ذا الطول) ليست واضحة في الأصل ، وقد يكون الكاتب أراد كتابة (ذا الندى) فاختلطت الحروف .

وفي الصفحة : (جزى خير جزي الناس حيّاً وميتا) . وما في الأصل يقرأ (جزى حين يجزي الناس حيّاً وميّتاً) .

١٥٩ – وفي ص : ١٠٦٧ : (نسيت والله) وهي : (أنْسِيتُه والله) .

(للحديث صلة) حمد الجاسر

(سفرنامه) :

رحلة ناصر خسرو
بين جامعتي القاهرة والرياض

– ١ –

قامت (عمادة شؤون المكتبات في جامعة الملك سعود في الرياض) بنشر كتاب « سفرنامه – رحلة ناصر خسرو القبادياني » ترجمة وتقديم الدكتور أحمد خالد البدلي – مدير معهد اللغة العربية لغير الناطقين بها ، أستاذ الأدب والحضارة الفارسية بقسم اللغة العربية في كلية الآداب ، في الجامعة المذكورة . ونشر الكتاب سنة ١٤٠٣ (١٩٨٣م) بطباعة حسنة ، مصدراً بفهرس مجمل لمباحثه ، ثم بمقدمة عن ناصر خسرو ، وعن رحلته – في ٢٢ صفحة – ثم الكتاب متصل الصفحات بصفحات المقدمة حتّى (الصفحة الثانية بعد المئتين) .

وقد عُرِّبتْ هذه الرحلة – قبل تعريب الدكتور البدلي بما يقرب من أربعين عاماً ، حيث قام الدكتور يحيى الخشَّاب بنقلها إلى اللغة العربية ، وكتابة مقدمة ضافية عنها ، تكلم فيها بتفصيل عن حياة ناصر خسرو ، وعن رحلته ، وقام (معهد اللغات الشرقية) في (كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول) بنشر الكتاب ، وصدر مطبوعاً بـ (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) في القاهرة سنة ١٣٦٤ – ١٩٤٥م في ٣٠ + ١٣٦ صفحة من القطع الكبير ، يحوي تصديراً بقلم الدكتور عبد الوهاب عزام رئيس معهد اللغات الشرقية في ثلاث صفحات ، ثم مقدمة المعرب الدكتور الخشاب ، فالكتاب ، ففهارس مفصلة أحدها : لأسماء الرجال والقبائل والفرق ، والثاني : لأسماء البلاد والأماكن ، والثالث : لأسماء الكتب .

ثم بيان المقاييس والموازين والنقود التي جاء ذكرها في الرحلة ، ففهرس مباحث الكتاب ، فمصور جغرافي (خريطة) لتوضيح مواقع أهم المدن التي مَرَّ بها ناصر خسرو . والدكتور يحيى الخشاب كان ذا اهتمام وعناية بناصر خسرو ، وبرحلته ،

فقد ترجم منها الفصل الخاص بمصر سنة ١٩٣١م ملحقاً لبحث (الماجستير) بتوجيه من أستاذه الدكتور عبد الوهاب عزام ، – عميد كلية الآداب – وألف كتاباً باللغة الفرنسية عن ناصر خسرو ، نشره المعهد الفرنسي في القاهرة ، وما كتبه عنه في مقدمة « سفرنامه » من أمتع الدراسات وأنفعها عن حياة الرجل وعن رحلته من حيث إيضاح غايتها ، وبعض ما قد يستشكله القارئُ مما ورد فيها . مع الإشارة إلى أنها بنصها الذي ترجم ناقصة ، إذْ لم تصل الرحلة كاملة في الأصول المعروفة الآن . ويظهر من كثرة استشهاد الدكتور الخشاب بأقوال غني زادة أنه اتخذ مطبوعته التي نشرها محققة سنة ١٣٤١ – في برلين – أصلاً . وكنت اطلعت عليها فنقلت عنها ما يتعلق بمرور الرحالة ببلاد نجد ، منذ أن أنهى الحج سنة ٤٤٢ – حتى بلغ البصرة – من ص ١١٦ إلى ص : ١٣٠ – مطبوعة م . غني زادة – نقلت ذالك وأنا لا أحسن اللغة الفارسية .

ثم لما صدر الكتاب مُعَرَّباً سنة ١٣٦٤ – كتبت عنه كلمة بعنوان (سفرنامه أقدم رحلة شرقية مدونة) نشرت في مجلة « المنهل » في رمضان سنة ١٣٦٥ – في الجزء التاسع من المجلد السادس (من ص ٣٩٨ إلى ٤٠٤) .

ويظهر أن الدكتور الخشاب اطلع على ما كتبت ، أو ناشرها الذي قيل لي : إنه أشار إلى ذالك في الطبعة الثانية ، حيث أخذ ببعض الملاحظات التي أبديتها فيما كتبت ، ولم اطلع على هذه الطبعة التي صدرت عن (دار الكتاب الجديد) للدكتور صلاح الدين المنجد ، في بيروت قبل عشر سنوات .

تعريب الدكتور البدلي :

كان من الوفاء لعالم جليل تولى إدارة هذه الجامعة التي صدرت الترجمة عن أحد فروعها أن تشير إلى ما لذالك العالم من فضل السبق بتوجيه أحد تلاميذه لتعريب تلك الرحلة ، فإذا فات (المعرب) هذا فما كان ينبغي أن يفوت الذين قاموا بدراسة الترجمة ، ثم قرروا نشرها .

وكان من الوفاء لأستاذ كريم هو الدكتور يحيى الخشاب أن لا يتناساه الدكتور البدلي – وهو أحد تلاميذه – في المقدمة التي تعرض فيها لترجمة ناصر خسرو ، وقد سبقه الدكتور إلى تفصيل هذه الترجمة ، بل بتأليف كتاب عن المُتَرْجَم ، ولكن الدكتور البدلي تجاهل – وهذه أسهل من كلمة جهل في هذا المقام – عَمَلَ الدكتور الخشاب ، وزاد على ذالك بأن قال : – ص ١٧ المقدمة – وربما تحدثتُ عن الدور الخطير الذي لعبه ... ناصر خسرو ... في كتاب خاص ، يتناول جوانب شخصيته المتعددة الاتجاهات . وهذا مما يوهم القارىء بأن الموضوع لايزال بحاجة إلى التأليف .

ثم لما أراد الدكتور البدلي إيضاح أن « سفرنامه » في أصلها ربما كانت أكبر حجماً مما هي عليه الآن – كذا نقل ص ٢١ – وربما اختصرها بعض الوارقين – استدل بما أورده الدكتور الخشاب ، أو نقله كما نقله من كلام م . غني زاده .

وعندما تحدث الدكتور البدلي عن مؤلفات ناصر خسرو – ضرب صفحاً عن ذكر كتابين لقيا عناية واهتماماً من الدكتور الخشاب ، هما :

١ – « خوان الاخوان » وقد ذكر الدكتور الخشاب أنه نَشَرَ هذا الكتاب ، وطبع سنة ١٩٤٠م – في مطبعة المعهد الفرنسي في القاهرة (انظر حاشية ص ١١ من « سفرنامه ») .

٢ – جزء من كتاب « كشايش ورهايش » عثر عليه الدكتور الخشاب في (دار الكتب) وتحدث عنه في مقدمة « سفرنامه » – ص : خ – في حديثه عن مؤلفات ناصر خسرو . لِأدع الحديث عما ورد في مقدمة الدكتور البدلي ، وصلتها بمقدمة الدكتور الخشاب ، لئلا أخوض فيما هو خارج عن صميم الموضوع الذي أُريد الحديث عنه مما يتعلق بالترجمة نفسها .

لقد اتخذ الدكتور البدلي أصلاً لترجمته طبعة قال عنها : (ثم طبعت السفر (؟)

نامه في طهران سنة ١٣١٤ ... وانفرد محققها العلامة محمود غني زاده بالضبط والدقة – وبعد أن أورد طرفاً من آراء محققها عن أصل الكتاب قال – ص ٢٢ المقدمة – : ومن هنا يتضح لنا أنّ هذه الطبعة أكثر دقة وضبطاً وتوثيقاً ولذالك اعتمدت عليها ، وترجمتها إلى العربية) . انتهى .

فهل الدكتور البدلي يقصد مطبوعة برلين التي نشرها الأستاذ محمود غني زاده سنة ١٣٤١ – فوقع تطبيع أوقع القاريء بأن يتصور أن هذا المحقق نشر طبعتين إحداهما في طهران سنة ١٣١٤ – وهي التي اتخذها الدكتور البدلي أصلاً ، والأخرى في برلين سنة ١٣٤١ – وهي التي سبقت الإشارة إلى رجوع الدكتور الخشاب إليها ، والاستفادة من آراء محققها ؟! .

لا أرى إلا أنّ الطبعة واحدة ، وأنها في برلين سنة ١٣٤١ ، وقد اطلعت عليها ونقلت منها ، ولو صحّ غير هذا لكان على الدكتور البدلي أن يرجع إلى عمل المحقق الأخير فيتخذه أصلاً ، إذْ قد يكون فيه من الآراء ما قد يضيفه إلى مافي عمله الأول . مع أنه صرح في موضع آخر – ص ٢١ من المقدمة – بقوله : اعتمدت في اختياري هذه الترجمة من السفر (؟) نامه على النسخة المطبوعة في مطبعة (كاوياني) ببرلين ، وهي – كما أعلم – أحدث وأدق طبعة ظهرت عن السفر (؟) نامه حتى الآن . كذا قال ، ومطبوعة م. غني زاده هي التي جاء في طرتها : (برلين – درچابخانه شركة (كاوياني) سال ١٣٤١ بطبع رسيد) .

أما قول الدكتور البدلي – ص ١٢ المقدمة – : كلُّ مترجم لأي أثر علمي تحكمه عاطفتان علمية ووطنية ، وأنا عندما فكرت في ترجمة هذه الرحلة من الفارسية إلى العربية – رغم وجود ترجمة عربية لها بقلم أستاذنا الدكتور يحيى الخشاب طبعت سنة ١٩٤٥ – كنت مدفوعاً بهذين العاملين الوطني والعلمي . فحسب علمي وتتبعي فهذه أول ترجمة عربية مباشرة من الفارسية إلى العربية ، أما ترجمة الخشاب فقد كانت من أصل فرنسي . انتهى .

هذا القول من الدكتور البدلي ينبغي الوقوف عنده طويلاً لا لإثبات العامِلَيْن الدافعين له إلى تعريف الرحلة فيما عرب ، وحده ، ولكن لكون (ترجمة الخشاب من أصل فرنسي) ومعذرة فكذا وردت الجملة جافّةً من تلميذ لأستاذه ، علماً وسِنّاً وهذا مما لا يعني القاريء .

أترى رئيس قسم الدراسات الفارسية في الجامعة المصرية حقبة من الزمن ، الذي عَرّب عن تلك اللغة كثيراً من الأبحاث الأدبية والتاريخية لم يعرب (سفرنامه) عنها ؟ إنّ من يقرأ المقدمة الضافية التي كتبها الدكتور الخشاب – وخاصة – ص : ل – لا يخامره شكٌّ في أنه نقل عن الفارسية ، فهو يذكر نصوصاً من الرحلة ينقلها عن الأصل الفارسي ، ويشير إلى صفحاتها منه ، ثم يذكر ما يقابلها مما عَرّبَ .

ثم إن الدكتور عبد الوهاب عزام في مقدمته يضيف هذا الكتاب في مقام الإشادة بأعمال أساتذة الآداب الشرقية في كلية الآداب – في جامعة فؤاد – إلى الكتب التي أخرجها أولئك الأساتذة من عيون الأدب الفارسي .

لندع كل هذا فحسب القاريء الحصول على رحلة يكفي لإبراز ما لها من قيمة علمية قيام جامعتين عتيدتين من الجامعات العربية بتعريبها ونشرها . إلاّ أن من حق كل قاريء البحث في الوسائل التي توجد في نفسه من بواعث الثقة ما يُهَيّءُ له الاستفادة من أي كتاب يرغب قراءته .

وهذا – بالنسبة لي – ما سأتناول البحث فيه من جوانب منها :

١ – الاطمئنان بصحة ما تحويه هذه الرحلة من معلومات .

٢ – ما تضيفه وتزود به ذهن القاريء مما يزيده معرفة .

٣ – ملاءمة طريقة العرض بحيث تتم الاستفادة بأيسر الطرق .

الأمر الأول : الاختلاف بين الترجمتين :

يستغرب القاريء حين يمر بعبارات تختلف المعاني فيها باختلاف الترجمة ، فهي في ترجمة الدكتور الخشاب لها معنى يخالف معناها في ترجمة الدكتور البدلي ، وهي من الكثرة بحيث يصعب حصرها ، وأكتفي بذكر نماذج منها :

١ - (ص ٢٥ ب) : وسألت الله أن يمنحني الغنى .

وفي (ص : ١١ خ) : ودعوته تعالى أن ييسر لي أمري .

ويظهر أن العبارة الأخيرة أقرب إلى الصواب ، فالرجل لم يكن فقيراً ليسأل الغنى ، بل كان ذا جاه ومنصب وأملاك فخرج من كل ذالك بحثاً عن راحة النفس ، قال (ص : ٢ خ) : وتركت أموالي عدا القليل الضروري منها و (ص : ٢٦ ب) : وتخلصت من أملاكي إلا الضروري الذي لابُدَّ منه . ثم إنه كان من كبار رجال الديوان السلجوقي المسؤولين عن الأموال والأعمال السلطانية .

وقد تكرر مثل هذا المعنى في تعريب الدكتور البدلي (ص : ٦٠) : صليت في مقام التوبة ، وسألت الله التوفيق ... وطلبت منه سعة الرزق . ولم ترد الجملة الأخيرة في تعريب الدكتور الخشاب (ص : ٢٣) .

٢ - (ص : ٢٨ ب) : وبيعت كيلة الشعير بدرهمين .

وفي (ص : ٣ خ) : حتى بيع المن من خبز الشعير بدرهمين .

٣ - (ص : ٢٨ ب) : قزوين مدينة عظيمة ، ولها سور حصين ، ذات (؟) شرفات ومراقب . وفي (ص : ٤ خ) : قزوين مدينة عظيمة، ذات حصن مكين ، عليه شرفات . فكلمة (ذات شرفات) إذا كانت وصفاً للسور فصوابها (ذو شرفات) لأنه مذكر .

٤ - (ص : ٣٠ ب) : ولقد ذرعت مساحتها طولاً وعرضاً فوجدتها ألفاً

وأربع مئة ذراع . وفي (ص : ٥ خ) : وقد قست طولها وعرضها فكان كل منهما ألفا وأربع مئة قدم .

٥ ـ (ص : ٣٣ ب) : ومدينة الأخلاط هي الحد الفاصل بين ديار الإسلام وديار الكفر . وفي (ص : ٦ خ) : مدينة أخلاط ... وهي على الحدود ما بين بلاد المسلمين والأرمن .

٦ ـ (ص : ٣٤ ب) : وتَتِمُّ معاملات الناس هنا بالأوراق النقدية .

وفي (ص : ٧ خ) : والمعاملة هنا بالنقود النحاسية .

٧ ـ (ص : ٣٥ ب) : يحيط بالمدينة سور عظيم من الأحجار البيضاء ويزن كل حجر خمسين رطلاً .

وفي (ص : ٨ خ) : وميَّا فارِقين محاطة بسور من الحجر الأسود ، الذي يزن الحجر منه خمس مئة مَنّ .

٨ ـ (ص : ٣٥ ب) : ـ عن ميّا فارقين ـ : والمدينة مسجد جمعة يجل عن الوصف ولو أردت وصفه لاستغرق صفحات كتاب كامل .

وفي (ص : ٨ خ) : ويطول وصف مسجد الجمعة بها لوذكرته ، ولو أن صاحب الكتاب شرح كل شيء أتم الشرح ، وقد قال : إن للميضأة . الخ .

وعلق الدكتور الخشاب : هذه الجملة ـ كما يبدو ـ من وضع ناسخ الكتاب ، وهي تدلُّ على أن هذا الناسخ أو كاتباً سواه قد اختصر كتاب « سفرنامه » راجع تعليق الأستاذ غني زاده (ص ١٠) سفرنامه طبعة برلين . انتهى .

وهذه الملاحظة من الناشر م. غني زادة جديرة بأن تجد من الدكتور البدلي انتباهاً وتأمُّلاً ، غير أن ترجمته لما يتعلق بها من كلام بَدَا وكأن الكلام تامٌّ ومستقيم ، ولا نقص في الأصل .

٩ – (ص : ٣٦ ب) : ومدينة آمد تقع على مرتفع جبلي ، مساحتها طولاً ألفا خطوة ، وكذالك عرضها ... وقد أحاط بها سور عظيم ذو حجارة سوداء بشكل الآجُرّ ، وهي في غاية الضخامة .

وفي (ص : ٨ خ) : بلغنا آمد التي شيدت على صخرة واحدة ، طولها ألفا قدم ، وعرضها كذالك ، وهي محاطة بسور من الحجر الأسود ، كل حجر منه يزن ما بين مئة وألف من .

ويلاحظ هنا – الاختلاف بمقدار المساحة ، ومعروف أن الخطوة مقدار ما بين موطئْ القدمين أثناء المشي ، وهي تقارب ضعف القدم .

أما تَقْدِير وزن الحجر فلم يرد في ترجمة (ب) .

١٠ – (ص : ٣٧ ب) : – في وصف عين آمد : وفي وسط المدينة عين جارية ، تأتي من خلال حجارة رهيفة ، وماؤها غاية في العذوبة .

وفي (ص : ٩ خ) : وفي وسط المدينة عين يتفجر ماؤها من الحجر الصلب ، وهذا الماء من الغزارة بحيث يكفي لإدارة خمس طواحين ، وهو غاية في العذوبة .

لم يرد في الترجمة الأولى مقدار قوة حركة الماء .

١١ – (ص : ٣٨ ب) : وفي يوم الجمعة ٢٥ جمادى الآخرة سنة ٤٣٨ وصلنا إلى حوران ، وذالك يصادف من شهور آب من شهور الفرس . (كذا) .

وفي (ص : ١٠ خ) : وقد بلغنا حران يوم الجمعة ٢٥ جمادى الآخرة ٤٣٨ ... الموافق ٢٢ من شهر دي القديم .

وقد أورد الدكتور الخشاب – في حاشية ص ٢ – أسماء الأشهر الفارسية القديمة فذكر أنّ شهر (دي) الفارسي يوافق (ديسمبر ويناير) ولم يذكر شهراً فارسيا باسم (آب) ولكن باسم (آبان) وهذا يوافق فيما ذكر (أكتوبر نوفمبر) .

وسيأتي في الرحلة (ص ٣٩ ب) أن الشهر الذي يلي (دي) هو (بهمن) وأنه شديد البرودة — ورد هذا بعد مرور سبعة أيام هي آخر جمادى الآخرة ويومان من رجب .

ولا أرى الدكتور البدلي يقصد بترجمته شهر آب السرياني ، الذي يوافق شهر أغسطس الرومي — فهذا الشهر يقع في فصل الصيف (برج الأسد) .

١٢ — (ص : ٣٩ ب) : ولحلب قلعة عظيمة ... وهي أعظم من قلعة باخ بمراتب .

وفي (ص : ١٠ خ) : وبها قلعة عظيمة ... ويمكن مقارنة حلب ببلخ .

فهل تقارن القلعة بالقلعة ، أم المدينة بالمدينة ؟ .

١٣ — (ص : ١٣ خ) : في الكلام على مدينة طرابلس الشام : ومساحة المدينة ألف ذراع مربع . هذه الجملة لم ترد في ترجمة (ب ص : ٤٣) .

١٤ — (ص : ١٣ خ) : وغادرت طرابلس ... فرأيت على مسافة فرسخ قلعة تسمّى قلمون في داخلها عين ماء ، وسرت من هناك إلى طرابرزن ، ومن طرابلس إليها خمسة فراسخ ، ومنها بلغنا مدينة جُبَيْل .

وفي (ص : ٤٤ ب) : غادرنا طرابلس ... فوّصلنا إلى قلعة تسمى قلمون ، يقولون : إن في داخلها مياه (؟) كثيرة ، واتّجهنا إلى مدينة جُبَيل . ففي تعريب الدكتور البدلي لم يرد ذكر لتحديد المسافة بين طرابلس وقلمون ، ولا ذكر لطرابرزن ، ولا للمسافة بينها وبين طرابلس ، وفي وصف ماء قلمون اختلاف بين الترجمتين .

١٥ — في وصف الإيوان الذي شاهده ناصر خسرو في بيروت : (ص : ١٤ خ) : وفي الوسط تماماً الطاق الكبير ، يعلوها بخمسين ذراعاً ، وقد قِستُ

كُلَّ حَجَرٍ منه فإذا به ثمانية أذرع طولاً وأربعة عرضاً ، وأظنُّ الحجر الواحد يزن سبعة آلاف مَنٍّ .

هذا الوصف لما في وسط الإيوان (الطاق الحجري) لم يرد في تعريب (ب : ص : ٤٤) .

١٦ — (ص : ٤٥ ب) : توجد في عدة أماكن من الشام ... ويربو عدد هذه الأعمدة على خمسين ألف .

وفي (ص : ١٤ خ) : وفي نواحي الشام أكثر من خمس مئة ألف من أعمدة وتيجان وجذوع .

١٧ — (ص : ٤٥ ب) — في وصف مدينة صُور — : وأكثر المدينة داخل في مياه البحر ، وتُدْهَنُ بيوت المدينة بالقِير حتى تسلم من الصَّدَإ .

وفي (ص : ١٥ خ) — : مدينة صور ، وهي ساحلية ، وقد بُنِيتْ على صخرة امتدَّتْ في الماء ، بحيث أن الجزء الواقع في اليابس من قلعتها لا يزيد على مئة ذراع ، والباقي في ماء البحر ، والقلعةُ مبنيَّةٌ بالحجر المنحوت ، الذي سُدَّتْ فجواته بالقار حتى لا يدخل الماء من خلله .

١٨ — (ص : ٤٦ ب) : وللسور في الجهة الجنوبية بَوَّابةٌ حديديةٌ ضخمة ، تَشُدُّها سلاسل عملاقة مربوطة بطرفي السور . — عن مدينة عكة — .

وفي (ص : ١٥ خ) : وحائطاها داخلان في البحر ، وعلى امتدادهما مدخل مفتوح ، طوله خمسون ذراعاً ، وقد شُدَّتِ السلاسل بين الحائطين ، فإذا أُريد إدخالُ سفينة إلى الميناء أُرْخِيت السلسلة حتى تغوص في الماء فتمر السفينة فوقها الخ .

١٩ — (ص : ٤٧ ب) : ورأيتُ بالقرب من البوابة الشرقية للمدينة ، وعلى يسار الخارج عين (؟) ينحدر إليها الإنسان إلى باطن الأرض على درجات ، وتسمَّى عين البقر .

وفي (ص : ١٦ خ) : وعند الباب الشرقي ، على اليد اليسرى ، عين يصلون

إلى مائها بنزول ست وعشرين درجة ، وتسمَّى عين البقر ، ويقال : إنَّ آدم — عليه السلام — هو الذي كشفها ، وكان يسقي منها بقرته ، ولذا سُمِّيَتْ عين البقر .

وجملة : (ويقال ...) التي لم ترد في تعريب الدكتور البدلي وردتْ في كلام كثير ممن تحدثوا عن هذه العين من المتقدمين — كياقوت الحموي في « معجم البلدان » في رسم (عين البقر) والحِمْيَري في « الروض المعطار » في رسم (عكّا) وغيرهما ممن أشار إليهم الدكتور الخشاب عندما أورد كلام ناصر خسرو ، ولكن عبارات كثير منهم تختلف عن عبارة ناصر .

٢٠ — بعد ذكر بروة حيث قبر شمعون في الكلام على (عكة) قال : (ص : ١٦ خ) : ومن هناك بلغتُ مغارك التي تسمَّى دامون فزرت المشهد المعروف بقبر ذي الكفل — عليه السلام — .

وفي (ص : ٤٧ ب) : ومن هناك اتجهت إلى قبر يدعى دامون ، ويزعمون أنه قبر النبي ذي الكفل — عليه السلام — .

٢١ — (ص : ٤٧ ب) : ... أعبلين ، وبها قبر النبي هود — عليه السلام — ... ورأيت بجانب القبر حظيرة بها شجرة عجوز ، زعموا إلي أنه (؟) قبر عُزَيْر — عليه السلام — .

وفي (ص : ١٦ خ) : ... أعبلين ، وبها قبر هود — عليه السلام — ... وكان بحظيرته شجرة الخرنوب ، وكذالك زرت هناك قبر النبي عُزَيْرٍ — عليه السلام — .

٢٢ — في الكلام على قرية حظيرة من قرى عكة : (ص : ٤٨ ب) : وهناك رأيت قبرين أحدهما لشعيب — عليه السلام — والآخر لابنته التي كانت تحب موسى — عليه السلام .

وفي (ص : ١٧ خ) : ... قبران متجاوران أحدهما قبر شعيب — عليه السلام — والثاني قبر ابنته التي كانت زوج موسى — عليه السلام — .

فمن أين أتت كلمة (الحب) في مقام الحديث عن هذين النبيين الكريمين وقد أخبر الله أن موسى تزوج ابنة شعيب ، ولم يرد للحب ذكر ؟

٢٣ ــ (ص : ٤٨ ب) : وفي نهر طبرية أسماك كثيرة ، متعددة الألوان والطعوم .

وفي (ص : ١٧ خ) : وفي بحر طبرية سمك كثير . ولم يذكر تَعَدُّدَ الألوان والطعوم !

٢٤ ــ (ص : ٤٩ ب) : وسمعت أن في نهر لوط حيوان (؟) يشبه البقرة ، يصطاد من قاع النهر ، ويقطع قطعاً صغيرة ... ... ويزعمون أن العطارين يشترون هذا الدواء ، زاعمين أن آفة ما تتلف بعض الأدوية لا دواء لها سوى هذا الحيوان النهري .

وفي (ص : ١٧ خ) : سمعت من إنسان أن في بحر اوط شيئاً كالحجارة السوداء ، غير صلب ، يشبه البقر ، يخرج من قاعه فيأخذه السكان ، ويقطعونه ... ... وقيل : إن العطارين يستخدمونه لأنه يبعد دودة تصيب البذور ، اسمها النقرة .

٢٥ ــ (ص : ١٨ خ) : ــ في الكلام على طبرية ــ : وفي الجانب الغربي من المدينة جبل فيه قطعة من حجر المرمر ، مكتوب عليها بخط عبري أن الثريا كانت على رأس الحَمَلِ ساعة الكتابة .

لم ترد هذه الجملة في (ب : ص : ٥٠) .

٢٦ ــ في وصف مسجد القُدْس (ص : ٥٧ ب): وفي أعلى أحد الأبواب أن طول المسجد سبع مئة وأربعة أمتار ،وعرضه مئة وخمسة وخمسين متراً بالقياس الملكي الذي يسمونه في خراسان بالشاهاني .

وفي (ص : ٢١ خ) : ... طاقا مكتوباً على حجر منه : أنَّ طُول المسجد أربع وخمسون وسبع مئة ذراع ، وعرضه خمس وخمسون وأربع مئة ذراع ،

وذالك بذراع الملك المسمى في خراسان اكرشايكان ، وهو أقل قليلاً من ذراع ونصف .

ونقل الدكتور الخشاب عن (شيفر) أنّ قنصل فرنسا في القدس أرسل إليه النص المكتوب على الجامع وهو : بسم الله الرحمن الرحيم : طول المسجد سبع مئة وأربع وخمسين ذراع ، وعرضه أربع مئة وخمس وخمسين ذراع بذراع الملك . وأضاف الدكتور الخشاب : وهناك اختلاف بين ما جاء في النص الفارسي وبين ما ذكره القنصل ، هو أنّ النص الفارسي المطبوع في برلين ... قد سقط منه سهواً كلمة جهار (جهارصد) في ذكر عرض المسجد ... ولعل الفرق بين النّصّين في طول المسجد نتج عن إسقاط النساخ لكلمة (بنچاه) في بنچاه وچهار ، وهذا ما نرجحه ، وصححنا الترجمة على أساسه وبه يرتفع الخلاف . انتهى كلام الدكتور الخشاب .

٢٧ — (ص : ٥٧ ب) : وباب المسجد عظيم ، وارتفاعه في حدود ثلاثين ذراعاً ، وعرضه عشرون ذراعاً ، ويتصل به بابان عن يمينه ويساره ، أقل منه مساحة ، وتكثُر النقوش في الباب . — إلى آخر الكلام على باب داوود — .

وفي (ص : ٢٢ خ) : ... فيرى رُوَاقاً عظيماً جميلاً ، ارتفاعه ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون ، وللرواق جناحان ، وواجهتاهما وإيوانه منقوشة كلها بالفسيفساء — إلى آخر الكلام مما لا يتفق مع الترجمة الأخرى .

ومثل هذا الكلام على ما بين (باب الأسباط) و (باب الأبواب) حيث وصف الخشاب رواقاً ما سماه البدلي باباً .

ومثله (ص : ٦٢ ب) : ويحف بالمقصورة خمسة عشر باباً كلها تؤدي إلى ساحة المسجد المكشوفة . وعند (خ : ص ٢٥) : وعلى باب المقصورة وحائطها المطلان على الساحة خمسة عشر رواقاً ، عليها أبواب مزخرفة ، ارتفاع كل منها عشرة أذرع ، وعرضه ست .

والجملة الأخيرة لم يوردها (ب) .

٢٨ – (ص : ٥٩ ب) : ... باب التوبة ، وبجانب الباب مسجد جميل ... وهو مُزْدَانٌ بالرياض الجميلة ، والقناديل الثمينة .

وفي (ص : ٢٣ خ) : وعلى هذا الرواق مسجد جميل ... وزينوه بأنواع السجاد ، وله خدم مخصوصون .

ولم أُدْرِك معنى كلمة (الرياض) هنا .

٢٩ – (ص : ٦١ ب) : والمسافة بين كل عمودين اذرعة (؟) .

وفي (ص : ٢٤ خ) : وبين كل عمودين ستة أذرع .

٣٠ – (ص : ٢٨ خ) : وبيت الصخرة بيتٌ مُثَمَّنٌ منظم ، كل ضلع من أضلاعه الثمانية ثلاث وثلاثون ذراعاً ، وله أربعة أبواب على الجهات الأربع الأصلية ... وبين كل بَابَيْنِ ضلع ، وجميع الحوائط من الحجر المنحوت ، وارتفاعها عشرون ذراعاً ، ومحيط الصخرة مئة ذراع ، وهي غير منتظمة الشكل .

وفي (ص : ٦٦ ب) : والقبّةُ بناء مثمن الأضلاع مساحة كل ضلع ثلاثة وثلاثون أرشا (؟) وللقبة أربعة أبواب يواجه كل باب منها جهة من الجهات الجغرافية الأربع ... وبين كل بابَيْنِ ضلع ، ويحيط بجدر القبة حوائط حجرية ، وتبعد الصخرة عن الجدر بمساحة مئة شبر ، وليس الصخرة شكل هندسي .

ويظهر أن المقصود بكلمة (أرش) ذراع ، حيث ورد في وصف القبة التي فوق الصخرة : (ص : ٦٧) : وارتفاع هذا الغطاء نحواً من مئة وعشرين أرشا . وفي (ص : ٢٩ خ) : القبة التي تحتها الصخرة ، والتي يبلغ محيطها مئة وعشرين ذراعاً . وفي (ص : ٧٠ ب) : وسعة الدرجات المؤدية إلى مقام النبي عشرون أرشا .

وفي (ص : ٣٠ خ) : وعرض درجاته عشرون ذراعاً .

ويلاحظ أنّ الدكتور الخشاب أورد (ص : ٢٩) كلاماً طويلاً عما يحيط بقبة الصخرة من أعمدة ودعائم ، لم يذكره الدكتور البدلي (ص : ٦٧) .

٣١ – (ص : ٦٨ ب) : – في آثار الأقدام التي فوق الصخرة – : أنها آثار قدمي إبراهيم واسحاق – عليهما السلام – .

وفي (ص : ٢٩ خ) : ... آثار قدمي إبراهيم وإسماعيل – عليهما السلام – .

٣٢ – (ص : ٦٨ ب) : بيت المقدس فهو ثالث الحرمين .

وفي (ص : ٣٠ خ) : وهذا المسجد هو ثالث بيوت الله .

وفَرْقٌ بين العبارتين ، فالأولى تدل على أن بيت المقدس حَرَمٌ كحرمِ مكة وحرم المدينة ، لا يقطع شجره ولا يُصاد صيده ، وله من الأحكام الشرعية ما للحرمين المذكورين .

٣٣ – (ص : ٧٣ ب) : – عن بيت لحم – : يأتون إليه من رومية ، كما رأيت فيه خلقاً كثيراً من مسيحي إيران ... وصات إلى هذا المكان ليلاً قادماً من بيت المقدس .

وفي (ص : ٣٣ خ) : وهناك يقدم النصارى القرابين ، ويقصده الحجاج من بلاد الروم ، وقد بلغته مساء اليوم الذي قمت فيه من بيت المقدس .

٣٤ – (ص : ٧٦ ب) : ويقولون : إنّ المشهد الإبراهيمي لم يكن له وجود ، ولم يكن في مقدور الإنسان أن يصل إليه – الخ .

وفي (ص : ٣٥ خ) : ويقال : إنه لم يكن لهذا المشهد بابٌ ، وكان دخوله مستحيلاً – الخ .

في العبارة الأولى الإنكار لوجود المشهد ، وفي العبارة الثانية إنكار الوصول إليه (الباب) ويظهر من بقية الكلام في العبارتين أن الصواب ما ورد في الأخيرة .

٣٥ ـ (ص : ٨٣ ب) ـ في الكلام على تنيس ـ : ويكثر في أسواقها شراب الشعير المطبوخ ، في الصيف .

وفي (ص : ٣٨ خ) : وهناك في فصل الصيف يبيعون الكِشْكاب .

وفسَّر (خ) الكِشْكاب بأنه صنف منعش ، يشبه ما يسمى في تركيا (آيْرَان) يتكون من اللبن الزبادي المضروب مع الماء . وصنف آخر يتكون من السوبياء المخمرة ، مضافاً إليها بعض العناصر الأخرى ، ويسمى هذا الصنف الفقاع ، ويقصد ناصر الصنف الأول . انتهى .

٣٦ ـ (ص : ٨٤ ب) : ـ عن عمامة لسلطان مصر نُسجت في تنيس ـ : ولقد رأيت تلك العمامة فإذا هي تساوي ألفي دينار ذهبي مغربي .

وفي (ص : ٣٨ خ) : وقد رأيت هذه العمامة ، ويقال : إنها تساوي أربعة آلاف دينار مغربي .

٣٧ ـ عن تنيس (ص : ٨٤ ب) : وحامية المدينة تتكون من خمسين ألف مقاتل ، وترابط في ميناء المدينة ألف سفينة حربية .

وفي (ص : ٣٩ خ) : وسكانها خمسون ألفاً ، ويرابط حولها دائماً ألف سفينة .

٣٨ ـ (ص : ٨٦ ب) : وتحمل كل سفينة من السفن ما يعادل مِئَتي طن .

وفي (ص : ٤١ خ) : وتصنع بها سفن كثيرة ، وحمولة كل منها مئتا خَرْوار .

وفَسَّر (خ) : خروار : حمل حمار .

ومعروف أن الحمار لا يستطيع أن يحمل طنّاً ، وإنما يحمل عُشُرَهُ ، مئة كيل (١٠٠ كيلو جرام) .

٣٩ ـ (ص : ٨٦ ب) : ينبع نهر النيل من الجنوب .

وفي (ص : ٤١ خ) : يخرج ماء النيل من بين الجنوب والغرب .

٤٠ ـ عن النيل (ص : ٨٦ ب) : وعندما يفيض النهر فإنَّ مياهَهُ تزداد زيادة كبيرة ، تعادل ضِعْفَيْ نَهْرِ جَيْحُونَ بتِرْمِذَ .

وفي (ص : ٤١ خ) : ويبلغ نَهر النيل في زيادته ضِعْفَ نَهْرِ جَيْحُونَ عند تِرْمِذ .

حول « المعجم الكبير »

[أثناء انعقاد المؤتمر السنوي لمجمع اللغة العربية في القاهرة وفي يوم الأحد ١٩ جمادى الآخرة ١٤٠٥ عرضت نماذج من كتاب « المعجم الكبير » الذي يقوم المجمع بتأليفه من آخر حرف الحاء وأثناء دراسة تلك النماذج تحدث صاحب هذه المجلة بهذه الملاحظات التي كانت محل اهتمام من القائمين بصياغة مواد المعجم] .

١ ــ ص ٣ : (حَوْأَبُ) : موضع بين البصرة ومكة ، قريب من البصرة ،

في النص الأول : الزيادة تعادل (ضِعْفَيْ) نَهْر جَيْحون ، وفي النص الثاني : (ضِعْفَ) ذالك النهر ، وكلمة (ضِعْف) لُغَةً معناها (مِثْل) إلى ما زَاد ، فضعف الشيء مثله فما زاد عليه غير محصور إلا من حيث الأقل وهو المثل ، فإذا قلت : لك ضِعْفُهُ ، فالمراد مِثْلاَهُ ، وثلاثة أمثاله ، لأنه زيادة غير محصورة ، فأقلُّ الضِّعْف محصور ، وأكثره غير محصور ، وفي الآية الكريمة ﴿ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ أي يُجْعَلُ العَذَابُ ثلاثة أَعْذِبَة ، إذْ كان عليها أن تُعذَّب مرة ، فإذا ضُوعِفَ ضِعْفَيْنِ صار الواحد ثلاثة ــ ذكر هذا في « القاموس المحيط » وشرحه .

وأراني أوردت ــ بدون استيعاب أو حصر ــ من الأمثلة على اختلاف الترجمتين ما يُوَضِّحُ أنَّ القاريء ــ من جراء هذا الاختلاف ــ سيقع في حيرة لإدراك الصواب ، ما لم يكن ذا معرفة باللغة الفارسية ، وما كُلُّ القراء بهذه الصفة ، وإذَنْ فلايزال أكثرهم بحاجة إلى ما يُخْرِجهم من تلك الحيرة التي أوقعهم فيها هذا الاختلاف في ترجمتين صادرتين عن جامعتين لهما منزلتهما العلمية السامية .

(للحديث صلة) **حمد الجاسر**

وهو المنزل الذي نزلته السيدة عائشة (ض) لما جاءت إلى البصرة في وقعة الجَمَل .

وقيل : ماء لبني كلاب بين البصرة ومكة ، نبحت كلابُهُ أمَّ المؤمنين رضي الله عنها ، وفي الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنسائه : « أيتكنَّ تنبحها كلابُ الحوأب » ؟ (نه) .

يلاحظ على هذا الكلام الخلط بين موضعين أحدهما : بقرب البصرة وهو الذي ورد في خبر السيدة عائشة رضي الله عنها لما توجهت إلى البصرة فحدثت وقعةُ الجمل ، والثاني : في عالية نجد ، وهو من مياه بني عَبْدِ بن أبي بكر بن كِلاَبٍ ، بقرب البقرة والعُنَاب والحزيز ، والموضع الأخير يعرف الآن باسم مشقوق الْخَلْفِ ، أخذاً من صفته فهو واد واسع .

ومعروف أنَّ الْحَوْأبَ من معانيه اللغوية الواسع من الأودية ، فهو وصفٌ في الأصل سُمِّيَ به مواضع ، الموضعان المتقدمان وثالث ذكر ياقوت أنه من مخاليف الطائف .

وفي الصفحة نفسها : (حوأب بنت كلب من وبرة) .

والصواب : بنت كلب بن وبرة ، كما هو معروف من نسب كلب .

٢ ــ ص ٨ : (أَخْبَاب : موضعٌ وفي « المعجم » أنه بلد في جنب السُّوَارِقيَّةِ من نواحي المدينة) .

هذا الاسم اختلف في ضبطه فقد ورد في « ديوان الخنساء » ــ طبعة بيروت سنة ١٨٩٥م ــ قولها ترثي أخاها صَخْراً :

يَحْمِي لَهَا ذاتَ أَخْبَابٍ فَعَنْقُوَةً
فَمُحْدَثَ الأَثْمِ فالصَّرْدَاء أَحْيَانا

(قال السلميون : ذات أَخْباب ، وهو بلد من النَّقِيع ، قال : نحن نسميها ذات الْجَنْب لأنها كثيرة الأجنبة وهي المنازل والمحالُّ ، حكاه بعض أصحاب أبي عمرو ... أَخْبَرَتْ أنه يحمي هذه المواضع يحمي الصرداء مرة إذا أَمْرَعَتْ ، وذات أجناب مَرَّةً إذا أمرعت

قال عَرّامٌ : إنما هو ذات أخباب وكذا قال ابنُ أختِ الخنساء ، وهو وادٍ يصب في ذي الخَدْمَة ، وذو الخدمة يصب في الأحْمَاء في الأتْمِ ... والخدمةُ وادٍ بالحرَّة .

وفي إحدى نسخ الديوان المخطوطة : ذات اجناب . وشرحه : بلد إلى جنب السوارقية .) .انتهى ما في شرح الديوان ، ومنه يتضح الاختلاف في ضبط الاسم ، أما الموقع فهو في منطقة السوارقية البلدة المعروفة .

٣ ــ ص١٣ : (ألاَتُ الحَبِّ عينٌ بإضَم) .

لم يتقدم في « المعجم الكبير » تحديد دقيق لإضَمٍ ، وهو مجتمع أودية المدينة المُمْتَدُّ من أسفلها نحو الشمال حتى يفيض في البحر بين ميناءيْ الوجه وأمّ لُجٍّ ؛ ويعرف الآن باسم وادي الحمض .

٤ ــ ص ١٤ : (قال طرفة ــ نحو ٦٠ ه) .

والصواب : أنه توفي قبل الهجرة .

وفي الصفحة نفسها : (ابن الاحمر) .

ومعروف أنه ابن احمر و (ال) لا تدخل على الأعلام إلا سماعاً .

ص : ١٦ : عن الحبة السوداء (من جني نيجلة ... منبته مصر إلى والهند) .

والحبة السوداء تنبت أيضاً في نجد .

٥ ــ ص : ٢٢ : (وهو ذباب أو طول من الذباب في دقته يطير فيما بين المغرب والعشاء ؛ له نار كأنه شعاع كالشرر) .

هذا الكلام فيه تحريف صوابه من الكتب التي نقل عنها : وهو ذباب أطولُ من الذباب في دقة ، يطير فيما بين المغرب والعشاء كأنه شعاع شرارة . وهذه الجملة أوضح .

٦ – ص : ٢٦ : (حبحب اسم موضع قال النابغة (١٨ ق هـ = ٦٠٧م) : فساقنان فالحران ...) .

١ – القائل هو النابغة الجعديُّ وهذا صحابي توفي في منتصف القرن الأول الهجري وقد أورد البكري البيت منسوباً إليه مع بيت آخر .

٢ – واختلف في الاسم هل هو جبجب – بالجيمين – أو حبحب – بالحاءين – كما في كتاب البكري – ولهذا ينبغي أن يشار إلى هذا .

٧ – ص : ٢٧ : (فرخ الصَّعْو العصفور الصغير) .

في نجد يفرقون بين الصعو والعصفور ، فالصعو طائر صغير أصفر اللون ، يكثر وقت الصيف ثم ينقطع ويعتبر انتشاره في نجد علامة دخول فصل الصيف .

أما العصفور فهو أكبر منه جسماً ويألف البيوت ويبيض ويفرخ فيها ، وهو نوعان ذكر وأنثى .

٨ – ص : ٣٢ : عن كعب الأحبار (متفق على علمه وتوثيقه) .

يلاحظ أنَّ من العلماء المتأخرين من اتهمه بالمشاركة في تدبير قتل عمر رضي الله عنه ، وقال السيد محمد رشيد رضا في حاشية على « تفسير ابن كثير » للآية الكريمة ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ فقد علق على قوله : لولا آية في كتاب الله لأخبرتك بما هو كائن إلى يوم القيامة (ج ٤ ص ٣٥٧) : من الغريب أن تبلغ الجرأة بكعبٍ إلى هذا الحد الباطل شرعاً وعقلاً ثم يعتدُّون بدينه وعلمه ويروون عنه .

٩ – ص : ٣٤ : (حِبِرّانُ) : جبل (مي) ، وقال الراعي (٩٠هـ = ٧٠٩م) :

كــأنَّهــا ناشــطٌ جَمٌّ مَدَامِعُــهُ
مِنْ وَحْشِ حِبِرّانَ ، بَيْنَ الْقِنْعِ والظَّفَرِ (١)

(الناشط : الثور الوحشي . القنع : ماء في نجد . الظفر : موضع (لج) محالة على الأستاذ حمد الجاسر) .

• • •

سبق أن تحدثت عن حبران ، عند عرض مواد « المعجم » في العام الماضي تعليقاً على ما جاء في ص ١٠٠٩ من الأنموذج المقدم ، (وانظر ما قلت عن حبران في « العرب » س ١٩ ص ٣٥٣) .

١٠ – ص : ٣٦ : (حِبِرٌ جبل في ديار سُلَيم متصل بالذناب في ديار بني سعد من بني أسد) .

١ – في هــذا الكلام خلط بين منازل قبيلتين من العــرب : بني سُلَيم ، وبلادها في عالية نجد ، وبني أسد وبلادهم في شمال نجد ممتدة شرقاً على طريق الحج الكوفي .

٢ – حِبِرٌ كان في بلاد بني سُلَيم قديماً ، ولايزال معروفاً بقرب الذنائب الواقعة جنوبه رَأْيَ العين غَرْبَ بلدة عَفِيف ، على طريق المتجه إلى الحجاز ، بعد أن يجوز المسافر بلدة عفيف بنحو ١٠٠ كيل يُشَاهِدُ حِبِرًا وأجلى والذنائب يمينه (يقع حبر بقرب خط الطول : ١٠ً/٤٢° وخط العرض : ٣٥ً/٢٣°) .

٣ – الذناب : صوابها الذنائب – والخطأ تطبيع – وهي قور معروفة وردت في الشعر القديم كقول مهلهل :

فإنْ يَكُ بِالذَّنَائِبِ طال لَيْلِـي فَقَدْ أَبْكِي على اللَّيْلِ القَصِيرِ

١١ – ص : ٤١ : (وفي كلام طِهْفَةَ : لا يحبس دركم – أي لا تحبس ذوات الدر عن المرعى) إلخ .

هذا ليس من كلام طهفة بن أبي زهير النهدي بل من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتابه إلى بني نهد ، الذي أورده ابن الأثير في كتاب « منال الطالب في شرح طوال الغرائب » ص٨ في سياق خبر وفادة طهفة ، وقبله : (لا يمنع سرحكم ، ولا يعضد طلحكم ولا يحبس دركم) إلخ . والكتاب أورده ابن شبة في « أخبار المدينة » – ج٢/٥٦٤ – ولم ترد فيه الجملة الأخيرة ، ولكنها وردت في « الفائق » وفي « النهاية » وغيرهما .

١٢ ــ ص : ٤٣ : (الحَبْس موضع أو جبل في ديار بني أسد) .
ثم في ص : ٤٤ : (الحُبْس جبل مشرف على السلماء) مع إيراد الشاهد .
ثم في ص : ٤٥ : (الحبس جبل لبني أسد) .

١ ــ الأقوال جميعها تنطبق على موضع واحد هو الحِبس ، ويسمى حبْس القنان كما في كتاب « بلاد العرب » ــ ٣٩ ــ وهو جبل أسودُ غير مرتفع ، يقع في الشمال الشرقي من بلدة الفوَّارة في اِحْنفه من الشرق قرية تدعى بُقَيْعَاء ولهذا يُدْعَى سَمَارَ بُقَيْعَاء . (بقرب خط الطول : ٥٥ َ/٤٢ ْ وخط العرض : ١٥ َ/٢٦ ْ) يقع في القصيم شمال وادي الرمة .

٢ ــ كلمة (السلماء) في جملة (مشرف على السلماء) صوابها (الثلماء) .

٣ ــ والجبل والثلماء كانا قديماً في بلاد بني أسد . وكلام ياقوت أصله في كتاب « بلاد العرب » للغدة الأصبهاني بهذا النص : ــ في الكلام على بلاد بني أسد ــ : ولهم الثلماء .. وهي في عطف الحبس أي بلزقه لو انقلب لوقع عليهم ــ إلى أن قال ــ وقال الشاعر في الحبس :

سَقَى الحُبْسَ وَسَمْيُ السَّحَاب ولاتزل
عليه روايا المُزْنِ والدِّيَمُ الْهُطْلُ
ولولا ابْنَةُ الوَهْبِيِّ رَيْدَةُ لَمْ أُبَلْ
طِوالَ الليالِي أَنْ يُحَالِفَهُ المَحْلُ

٤ ــ وحِبْسُ سَيَل : موضع آخر قال عنه ياقوت : الحبس بين حرة بني سليم والسوارقية وفي حديث عبدالله بن حبشي : تخرج نار من حِبْسِ سَيَل : قال نصر : حبس سيل : إحدى حرتي بني سليم ، وهما حرتان بينهما فضاء .

وهو المكان الذي ثار فيه بركان سنة ٦٥٤ ــ فصل خبره السمهودي في « وفاء

الوفاء » ــ ج ١٤٠/١ وما بعدها ــ وأحدث سدّاً في وادي الشظاة أعلى وادي قناة يعرف الآن باسم السّدّ ، وباسم الحيْس ، شرق المدينة وبلغ قرب جبال وعيرة ، وموقع هذا البركان بقرب خط الطول : ٤٥ ̄/٣٩° وخط العرض : ٢٠ ̄/٢٤°) .

١٣ ــ ص : ٤٩ : (حُبَاشَةُ سوق تهامة القديمة ، وفي الخبر : لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أشُدَّهُ وليس له كثيرُ مالٍ استأجرته خديجةُ رضي الله عنها إلى سوق حباشة) .

هذا السوق يقع في صدر وادي قَنَوْنَا ــ الذي لايزال معروفاً ــ جاء في « معجم ما استعجم » للبكريّ : وهي أكبر أسواق تهامة . كانت تقوم ثمانية أيام في السنة ، قال حكيم بن حزام : وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحضرها ، واشتريت فيها بزًّا من بزِّ تِهامة ، وهي من صدر قنونا ، أرْضُهَا لِبارقٍ . انتهى .

ولايزال يقام في صدر وادي قَنَوْنَا سوقٌ أسبوعي ، يقع شرق ميناء القنفذة في صدر الوادي ، يقام يوم الأحد ، (يقع بقرب خط الطول : ١٥ ̄/٤١° وخط العرض : ١٠ ̄/١٩°) عند مجتمع الطرق .

١٤ ــ ص : ٦٠ : (قال أبو العرندس العوذي) .

سمَّاه الآمِديُّ العرندس من الأزد بصريٌّ إسلامي وهو في « تاريخ ابن جرير » عمرو بن العرندس ج ١١٢/٥ ــ في خبر قتل عبدالله بن عمرو الحضرمي وإحراقه .

١٥ ــ ص : ٧٧ : (حبل المشاة طريقهم الذي يسلكون إلى الرمل) .

حبل المشاة : هو حبل عرفة ــ الوارد ص ٧٦ ــ وهو موضع بعينه ورد في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم ركب حتى أتى الموقف ، فجعل بطن ناقته إلى الصخرات ، وجعل حبل المشاة بين يديه واستقبل القبلة ــ « صحيح مسلم » باب صفة حجة النبي صلى الله عليه وسلم ــ وفسر النووي في « شرح صحيح مسلم »

حبل المشاة أي مجتمعهم ، وحبل الرمل ما طال منه وضَخُمَ ، وأما بالجيم فمعناه طريقهم وحيث يسلك الرجالة . انتهى . وبعضهم فسر (جبل المشاة) بأنه إلاَل ، جبل عرفة – كما في كتاب « القِرَى لقاصد أم القرى » – ٣٤٩ – .

١٦ – ص : ٨٠ : (الْحُبَّلُ موضع باليمامة ... وبين الحبل والحجر نحو خمسة فراسخ) .

١ – حَجْرُ هنا غير مُعَرَّفٍ ، وهو قاعدة بلاد اليمامة قديماً ، وقامتْ مدينةُ الرياض موقعه ، والحبل ماء له قارات تضاف إليه ، ويقع في الشمال من مدينة الرياض على ما يفهم من كلام صاحب « بلاد العرب » قال : وإذا خرجْتَ من حَجْرٍ تريد الكوفةَ فأولُ ماء تَرِدُهُ يقال له الحُبَّلُ ، وهو في ناحية الْقُفِّ ، وهو ماءٌ لراعية اليمامة ، وبينه وبين حَجْرٍ نحو خمسة فراسخ ، ثم تخرج منه فترد الْقُفَّ وهي أرض خَشِنَةٌ ظاهرة حتى تأخذ بين بَنْبَانَ والعِرْض ، تدع بَنْبَان يميناً والعرض يساراً إلخ .

١٧ – ص : ٨٦ : (حَبَوْنَنُ : موضع باليمن من ديار مَذْحِج ، قال ابن مقبل (مخضرم) :

أقَــرَّتْ به نَجْرَانُ ثُمَّ حَبَوْنَنٌ فَتَثْلِيثُ فالأرصَــانُ فَالْقَرظَانِ

(نجران وتثليث وما عطف عليه : مواضع ، وقيل : حبونن اسم موضع بالبحرين (وانظر حبوني) .

حَبَوْنَى : اسم موضع ورد في قول الشاعر :

خليليَّ لا تَسْتَعْجِلاَ وَتَبَيَّنَــــا بِوادي حَبَوْنَى هَلْ لَهُنَّ زَوَالُ
ولا تيأسَا مِنْ رَحْمَةِ الله وادْعُوا بوادي حَبَوْنَى أنْ تَهُبَّ شَمَالُ

• • •

١ – حَبَوْنَنُ هو حَبَوْنَى ، قال أبو عبيدة في قول الفرزدق :

وأهْلُ حَبَوْنَى مِنْ مُرَادٍ تَدَارَكَتْ وجَرْماً بِوادٍ خَالَطَ الْبَحْرَ سَاحِلُهُ

قال : حَبَوْنَى من أرض مراد ، أراد حَبَوْنَنَ فلم يمكنه ، كذا قال ، ولكن اسم حبونى هو المعروف الآن .

٢ ـ الشعر في حَبَوْنَى يظهر أنه للسمهريِّ اللِّصِّ إذ أورده صاحب « الأغاني » في ترجمته ، كما أورده ياقوت قائلاً : أنشد ابن يحيى للسمهري ، وبعد البيتين :

ولا تَيْأسَا أنْ تُرْزَقَـا أرْحَبِيَّـةً كَعَيْنِ الْمَهَا أعْنَاقُهُنَّ طِـوَالُ
من الحارِثِيِّينَ الَّذِينَ دِمَاؤُهُـمْ حَرَامٌ ، وأمَّا مَالُهُمْ فَحَـلالُ

٣ ـ وادي حَبَوْنا ـ وينطقه العامة أيضا حبونة ـ من أشهر الأودية الواقعة جنوب الجزيرة ، وهو يُتَاخِمُ واديَ نَجْران من دونه ، وهو أطول منه ، إلا أن وادي نجران أخْصَبُ ، وحوضه أوسع ، فوادي حبونا يخترق شرقي السراة من قرب قرية بَدْرٍ غرباً متجهاً صوب الشرق ، ومجراه ضيق محصور بين الجبال ، حتى يبلغ الأرض البراح المتصلة بالربع الخالي ، وهي ذات رمال ، ولا ماء فيها ، وفي الوادي من المياه الخضارة وسلوى والحصينية ، وهي آبار معروفة (يقع وادي حبونا بين خطي الطول : ٤٠َ /٤٣ْ و ٠٠/٤٥ْ وعلى خط العرض : ٤٠َ /١٧ْ) .

٤ ـ كلمة (وادعوا) في الشعر وردتْ في « معجم البلدان » : (واسألا) والمعنى واحد ، إلا أن نَصَّ الشاهد لا يغيّر .

١٨ ـ ص : ٨٧ : عن أمِّ حُبَيِّن (وتعرف في جزيرة العرب بالسحينة) . إنها تعرف في نجد باسم أمِّ حُبَيْن .

١٩ ـ ص : ٩٨ : (الحبيا : موضع (ل) بالشام ، وهو بالحجاز أيضاً ، ويقال له حبيا (بدون أل) .

قال الراعي النميري (٩٠هـ/٧٠٩م) يصف النوق :

جَعَلْنُ حُبَيّاً بِالْيَمِينِ ونَكَّبْتَنْ   كُبَيْساً لِوِرْدٍ من ضَنِيْدَةَ باكِرِ

نكبت : تجاوزت ، كبيس وضنيدة : ماءان) .

١ — اسم الموضع — كما يفهم من قول البكري في « معجم ما استعجم » حُبَيٌّ على لفظ التصغير ، لا الحُبَيّا ، وفرق بين الموضعين ، وأورد الشاهد على الأول : جعلن حُبَيّاً باليمين .

٢ — نقل ياقوت في « المعجم » في رسم (الحُبَيّا) عن نصر : ربما قالوا : الحُبَيّا وهم يريدون الْحُبَيّ ووقع خلط بين تعريف الموضعين يتضح من إيراد ما جاء في كتاب « تاج العروس » : حُبَيٌّ — كَسُمَيّ — والْحُبَيّا كَثُرَيّا موضعان ، قال الراعي ثم أورد البيت ، وبعده قال : وكذالك حُبَيّات ، وأورد قول عمر بن أبي ربيعة ثم نقل عن نصر : حُبَيٌّ موضع تِهامِيٌّ كان داراً لأسَدٍ وكنانة ، وحُبَيّا : موضع شاميٌّ ، وأظن بالحجاز أيضاً ، وربما قالوا : الْحُبَيّا وأرادوا الْحُبَيّ . انتهى .

٣ — الشاهد صريح بِقرب حُبَيٌّ بِكُبَيْسٍ وضَنِيْدَة ، فالإبل نكبت كُبَيْساً وجعلت حُبَيّاً بِالْيمين لِتَرِدَ ضَنِيدة .

وضنيدة لاتزال معروفة في شرقي القصيم ، وكُبَيْس بقربها على ما حدد نصر في كتابه : الكبيستان شبكتان لبني عبس ، يكثران إذا كثر ماء المطر ، لهما واد بالنفّاخين حيث انقطعت حَلّةُ النباج ، والتقت هي ورملة الشّقيق . انتهى ، والنِّباج وحَلّة الشقيق معروفان بموقعهما وكذا ضَنِيدة (ضيدة) قرية الآن مسكونة ، وكل هذه المواضع معدودة في إقليم القصيم من بلاد نجد .

حمد الجاسر

الحواشي :

(١) وهو في « ديوان الراعي » ص١٠٤ — بين القنع والصفر طبع المجمع العلمي العراقي .

الأعراف اليمنية
وصلتها بالقضاء القبلي

– ٢ –

١ ـ حالة البحث اليوم :

تُطلَق غالباً كلمة طاغوت على القضاء القبلي في اليمن . وهذه اللفظة كانت معروفة في الجاهلية ووردت مراراً في القرآن الكريم[١] . وقد يستدل منها على أن هذا التشريع كان معروفاً عند العرب قبل الإسلام . والشاهد أيضاً على قدمه أن القبائل اليمنية تسميه (أحكام السالف) . أما كلمة عُرْف المصطلح عليها في البادية فهي غير شائعة عند اليمنيين ، وهم يفضلون جمعها أي أعراف . وفي حضرموت يقولون السارحة أو السالفة في كلامهم عن العادة العُرْفية ، ويعبرون عن القضاء القَبَلي نفسه بكلمة (فرع) ، وذلك لتمييزه عن (الشرع) الإسلامي الذي هو عندهم الأصل . والأغلب في هذا الجزء من اليمن الجنوبي أن تطلق على العادات القبلية كلمة (قَبْوَلَة) .

ولقد حارب الأئمة الزيديون الحكم القبلي باسم الإسلام وحاولوا أن يقضوا على الأصول السياسية التي كانت تدعمه ، فأوشكت مساعيهم أن تتكلل بالنجاح ، ولم يبق للقضاء القبلي من قوة تسنده سوى حرص الشعب على التقاليد وتمسكه بأهدابها . ونراه يذب عنها وينزل العقوبات الأدبية والمادية بمن يخالفها عمداً .

ومن البديهي أن القانون القبلي غير مكتوب ، بل يأخذه الأبناء عن الآباء بالسماع والخبرة . وتختلف مواد هذا القانون بعضها عن بعض من منطقة إلى أخرى . ولكن هذا الاختلاف لا يمس جوهر القانون ويكاد لا يتعدى الكلمات الفنية وصيغة التعابير .

وعلى الرغم من تعلق أهل الأرياف ورجال القبائل بهذا القانون وحرصهم على الرجوع إليه لتصفية مشاكلهم فإن الأشخاص الذين يعرفون مواده في القبيلة الواحدة يعدون على أصابع اليد . وكادت أسرة حميد الدين أن تقضي عليه تماماً . ولكن الحرب الأهلية التي جعلت الريف يعيش في شبه عزلة ، بعيداً عن السلطة الرئيسية ، أعادت له بعض نشاطه السابق . ولكن العمل به ظل محصوراً في نطاق ضيق ، وهو يتناول خاصة كل ما يمس شرف القبيلي أو يسيء بسمعته أو يسود وجهه ، وهذا ما يعبر عنه رجال القبائل بكلمة (عيوب) .

وبعد أن نجحت الثورة وعاد السلام إلى ربوع اليمن ، فقد القانون القبلي من أهميته من جديد ، وذالك بسبب رد الفعل الذي أحدثته الصناعات الغربية في التركيب الطبقي القديم . فمن المعروف أن رجال القبائل كانت تتمتع بمركز اجتماعي هام بين سكان الريف . أما أفراد الطبقة التي تعمل بيدها لكسب معيشتها وخاصة التي تمتهن الأعمال الوضيعة — مثل الحجام والجزار والدوشان والحمّامي والحايك والعصّار والمزين — فكانوا محتقرين[٢] . وأقرت الأعراف القبلية هذا الوضع الاجتماعي وأوجبت على أهل كل طبقة لزوم صناعة آبائهم وأجدادهم . بل إنها حرصت على أن يكون الزواج بين أفراد كل طبقة لا يتجاوزونها . ولكن بعد أن فتح اليمن أبوابه أمام الحضارة الغربية أقبلت هذه الطبقة الممتهنة على الصناعات الجديدة ورفعت من مستواها المادي والمعنوي بينما ظل القبلي معتصماً بكبريائه فأصبح مضطراً ، على رغم أنفه ، إلى التعاون مع أناس كان يحتقرهم وهو اليوم دونهم علماً ومعرفة . وهذا التطور الاجتماعي الحديث من شأنه أن يقضي على التركيب الطبقي القديم ويعمل على إهمال الأعراف . والواقع أنها اليوم دخلت في دور النسيان ، في شمال اليمن كما في جنوبه ، وقلّ من يعرفها حتى بين رؤساء القبائل ، ويكاد لا يلمّ بها تماماً إلا بعض الشيوخ والحُكّام الذين تعاطوا سابقاً أو لم يزالوا يتعاطون مهنة القضاء والإصلاح بين الناس .

ولقد أسعدنا الحظ أثناء بحثنا الميداني — الذي بدأ سنة ألف وتسع مئة وتسع

وستين ميلادية وطال عدة أعوام – بلقاء بعض كبار القضاة ، يقال لهم المناهي لأن الحكم النهائي يعود إليهم إذا لم يرضَ أحد الخصمين بالحكم الأول . ونخص بالذكر الشيخ يَحْيى عَمْران ، من قبيلة بني صُرَيْم الحاشدية ، بمدينة خمر ، والشيخ فيصل السُرَّي ، من قبيلة صُحار الخولانية ، بقرية صحن ، قريباً من مدينة صعدة . وفي حضرموت كان حديثنا مع السيد سالم سعيد بن العبث والسيد سليم بن عُجَيْل ابن عجّاج .

وبوسعنا أن نؤكد أن جميع المعلومات التي حصلنا عليها أخذناها من مصادر أولية يوثق بها . ولكننا لم نعثر على أية وثيقة مخطوطة في موضوع القضاء القبلي على الرغم من السعْي المتواصل في هذا السبيل ، إذ أكد لنا مراراً كبار رجال القبائل أن عند بعض الشيوخ وثائق مخطوطة وُضِعَتْ حفظاً للأعراف من الضياع . وهناك ، على مايقال ، ثلاث مخطوطات : الأولى عنوانها : « أحكام ابن زِنْباع » ، والثانية : « كتاب السَّبْعينيّات » ، أما الثالثة فهي مجموعة من الأحكام لا عنوان لها . ومع أني زرتُ اليمن مراراً وتحدثتُ مع عدد كبير من رؤساء القبائل وشيوخ العشائر ويَمَّمْتُ وجهي كل عارف بالقضاء قيل لي إنه يحفظ لديه مخطوطة بهذا الموضوع فإن جهدي لم يُكَلَّل بالنجاح ، ولكنه لم يذهب سدى إذ أفاد البحث العلمي بالحديث مع كبار العارفين بالقضاء القبلي ، فحصلت منهم على معلومات قيمة وعديدة قد ينتج عنها يوماً كتاب عن الأعراف اليمنية . أما اليوم فإنني أكتفي بعرض سريع لها مع مقارنتها بنظائرها عند البدو .

٢ – أصول الحكم القبلي في اليمن :

علينا أن نلاحظ باديء بدء أنه لا يمكن للمدعي أن يطالب ، في الوقت نفسه ، تطبيق الأحكام الشرعية والأحكام العرفية ، بل عليه أن يختار بين القاضي والعارفة . وذلك لأن الحُكْم الذي يصدر عن الأول قد يختلف اختلافاً كلياً عن الحكم الذي يقرره الثاني . ومن المعلوم أن الشرع يخول متولي القضاء حق إقامة الحدود وإنزال

العقوبات الجسمية في حالة وجوب القصاص . أما العرف فهو مربوط بالصلح يكاد لا يستطيع أن يتعداه وليس للعارفة أن يحكم بالقصاص بل عليه أن يخيّر الجاني بين الحد والدية ، ولا يحق له أن يحكم بإعدام القاتل أو هدر دمه إلا في بعض الأحوال الاستثنائية ، ويصدر الحكم عندئذ عن مجلس القبيلة ويقوم بتنفيذه وليّ الدم .

ومع أن الهدف الذي يتوخاه العارفة هو إصلاح ذات البين فإنه قد ينزل بالجاني أحياناً عقوبات صارمة لا يقرها الشرع . وهذا ما يحدث خاصة متى أساء رجل إلى امرأة ليست من أهل بيته . فالقضاء الشرعي ، في مثل هذه الحالة ، يكتفي غالباً بسجن المعتدي . أما العرف البدوي فإنه يرى في هذا الاعتداء ، ولو كان طفيفاً ، عيباً أسود ، وقد يفرض على المعتدي تعويضاً مالياً كبيراً يعادل دية القتل . فمن الواضح إذن أن المُدَّعي لا يستطيع أن يطلب في آن واحد حكماً شرعياً وحكماً عُرْفِياً .

ومن عادة أهل القبائل في اليمن أن يختاروا الحكم من رؤساء القبائل أو شيوخ العشائر خلافاً لعادات بدو الأردن حيث انفصلت السلطة القضائية عن السلطة السياسية . ولكن قد يقع الاختيار على رجل لا يتمتع بالسلطة السياسية على أن يكون بالغاً ، عاقلاً ، ذا سمعة طيبة ، عارفاً بالأحكام القبلية . وإذا أبان عن كفاءة ودراية في القضاء فإن اسمه يشتهر بين الناس ويقصده المترافعون ليفصل بينهم . إلا أن الجمع بين السلطتين القضائيـــة والسياسية هو المألوف المشهور في اليمن . ويقال للرجل الذي يحكم وفقاً للعادات القبلية المُحَكَّم ؛ ويسمى أيضاً المُقَوّل أي الذي له الحق بالكلام ، والمفوّض . ويخال أن السلطة القضائية في حضرموت تكون عادة بين أيدي رؤساء القبائل ، ولذا يقولون للقاضي العرفي المُقَدّم ، كلمة تطلق على شيخ العشيرة ورئيس القبيلة وسيد الطائلة ، وهي تضم عدداً من القبائل .

ويظهر أنه لا يوجد في اليمن رجال متخصصون يحكمون بنوع من الجرائم دون غيرها ، مثل القتل والجروح ، أو قضايا العرض وتقطيع الوجه ، أو الخلاف

على المواشي والأراضي ، كما هي الحالة في بادية الشام . وباستطاعة كل محكم أن يفصل بين المترافعين مهما كان نوع الخلاف . إنما هي شخصية المحكم ومكانته السياسية ومعرفته بالأعراف التي تضعه في مصاف كبار (القضاة) والواقع أن الاختلافات التافهة بين أعضاء الأسرة تعرض غالباً على (العاقل) أي الرجل الذي يمثل شيخ العشيرة وتكون له السلطة السياسية على (الحمولة)[٣] . أما القضايا الهامة فإنها تعرض غالباً على رؤساء العشائر أو على شيوخ القبائل .

وعلى الرغم من الطابع البدائي الذي يمتاز به العرف القبلي اليمني فإنه يصون حقوق المترافعين ويحفظها من جور الحكام ، وكأني به استوحى أنظمته من القضاء الحديث . فالمدعي أو المُدَّعَى عليه يستطيع أن يستأنف الحكم إذا وجده مجحفاً بحقه ويطلب إحالة الدعوى إلى حاكم آخر . وهذا (القاضي) أرفع مرتبة من الأول ويسمى المَنْهَى في قبيلة بني صُرَيْم ، والمَرَدّ في قبيلة نِهْم البكيلية . ومن الممكن أيضاً نقض الحكم الجديد . وفي هذه الحالة تُعرض القضية على أحد كبار (القضاة) ، يُعْرَف بالنقّاف عند بني صُرَيْم (وهم يلفظون النقّافي) ، كلمة عربية فصحى ، من نَقَفَ أي كسر الرأس لإخراج الدماغ ، ولذا قيل للرجل صاحب النظر في الأشياء : النقّاف لأنه يحسن تدبيرها . وفي العرف القبلي اليمني : النقّاف هو الحاكم الذي يعيد النظر في الحكم الذي صدر عن المُحَكَّم وعن المنهي . أما في حضرموت ، فالرجوع في هذه الحالة ، إلى مقدم الطائلة . ومن الغرابة بمكان أن على المحكوم له وعلى الذي أصدر الحكم أن يحضرا أمام المحكمة العُلْيا للمرافعة . ومن المخبرين من يؤكد أن في حالة نقض الحكم ، فعلى الحاكم المطعون في كلامه أن يتحمل نفقات مجلس القضاء الذي أصدر قراراً جديداً ، بل عليه أيضاً أن يعيد (الرزقة) التي أخذها من المحكوم عليه ، على زعم بعض المخبرين[٤] . ولا يمكن نقض حكم النقاف أي أنه يطبق وينفذ .

ونظام الحكم المتبع في اليمن قد يختلف بعض الاختلاف عما هو في البوادي . ففي الأردن مثلاً يعيش العارفة من مهنته ولا يرضى أن يحكم بين الخصمين قبل أن

يضعا (الرزقة) بين يديه . أما عند المزارعين في المرتفعات العليا اليمنية فقد يقيم الشيخ مجلس القضاء لوجه الله وللشرف والسؤدد . ولكن لابُدَّ للمترافعين من تحمل بعض النفقات لضيافة المحكم وأعوانه أو لحضور الشهود من أماكن بعيدة . وسنرى أن للمال دوراً كبيراً في القضاء القبلي اليمني .

٣ ـ طريقة التحكيم :

متى أراد الطرفان أن يحسما الخلاف على الطريقة التقليدية فعليهما أولاً أن يختارا حَكَماً . فإذا كانت المسألة ليست بذي شأن فإنهما يعودان إلى كبير الأسرة أو إلى (عاقل) الحمولة . وهذا المُحَكَّم يعمل على تذليل العقبات بالتي هي أحسن . أما الخلافات الهامة فإنها تُعْرَض غالباً على شيخ العشيرة . ولكن قد تتعقد الأمور فلا يرضى الخصمان بالحكم نفسه ، أو قد يتهرب الواحد منهما من العدالة ، فعلى الذي يزعم أنه صاحب الحق أن يلتجيء إلى بعض الرؤساء ليُرْغم خصمه على المثول أمام القضاء . ولا يسع المدعى عليه عندئذ إلا الإذعان . وإذا حدثته نفسه بالعصيان فإن أسرته ترغمه على الطاعة لأنها المسؤولة عنه دماً ومالاً على حسب التشريع القبلي .

ومن شروط التحكيم أن يرضى الطرفان بالمحكم . فإذا رفض المدعى عليه الحَكَمَ الذي اختاره المدعي فبوسعه أن يرجع إلى غيره من القضاة ، على أن يصدر القرار عن الاثنين معاً وتكون له عندئذ قوة التنفيذ . وهناك طريقة أخرى لاختيار القاضي يعمل بها خاصة في خولان صعدة ونجد نظيرها في بادية الشام . وذالك أنه يقترح على المترافِعَيْن أسماء ثلاثة قضاة . فيقوم المدعي برفض واحد منهم ، ويرفض المدعى عليه محكماً آخر ، فتعرض القضية على المحكم الثالث . وتسمى هذه الطريقة عند بدو الأردن : الحَذْف .

ويطلب المحكم الذي رضي به الطرفان تفويضاً كتابياً منهما يخوله حق إصدار الحكم . وقد يكون التفويض شفهياً ، أمام عدد من الشهود ، وذالك حين افتتاح الجلسة ، إذا كانت المسألة المنظور فيها ليست بذات أهمية .

والحكم الذي يصدر بعد هذا التفويض يكون نافذاً إلا إذا ذكر المترافعان أنهما يحتفظان بحق الرجوع إلى محكم آخر إن لم يرضَ أحدهما بقرار المحكمة .

ومهما كان عدد المحكمين المفوضين فإنهم يطلبون من الخصوم أن يسلموهم قبل عرض القضية بعض الأسلحة (ويسمونها العَدَل) كالبندقية أو الجنبية . وتطلب المحكمة منهم أيضاً تعيين الوكلاء .

والرجل اليمني ، عندما يسلم خنجره إلى مجلس القضاء ، يقوم بعمل كبير المغزى . فهو يعني أولاً أنه خاضع لأوامر المحكمة ، مستعد لتنفيذ قرارها ، إذ يضع بين يديها جنبيته ، رمز الحرية والمروءة . ولكنه في الوقت نفسه يعطي عربوناً قد يبلغ ثمنه المئات بل الآلاف من الريالات . ولذا فإن المحكم يصدر حكمه وهو واثق من تنفيذه لأن العربون لا يعاد إلى المحكوم عليه إلا بعد أن يعمل بقرار المحكمة .

وإذا كان الخلاف على أمر تافه قد ترضى المحكمة بالعَدَل وحده . أما في القضايا الهامة : فلابدّ من تعيين الكفلاء . وهم — بصورة إجمالية — على نوعين : كفيل الوفا وكفيل الدفا . فالأول يضمن التعويض المالي الذي يحق للمحكوم له ، أما الثاني فيكفل المحكوم عليه من كل اعتداء قد يقوم به المجني عليه أو بعض أفراد أسرته بعد قبول الدية . ولنعط على ذلك مثلاً : إذا حكم مجلس القضاء على الجاني بالدية فإن كفيل الوفا يأخذ على عاتقه إيصال الأموال التي أمرت بها المحكمة إلى المعتدى عليه أو إلى صاحب الدم في الوقت المعين . أما كفيل الدفا فإنه يحمي الجاني وأهله من اعتداء وليّ الدم . وإذا أخلّ الموتور بشروط الحكم وأخذ بثأره بعد قبول الدية فإنه يسود وجه كفيل الدفا ، وعليه عندئذ أن يعطي دية (محدّشة) ، على حسب الاصطلاح المعروف عند القبائل اليمنية في الشمال ، أي إحدى عشرة دية ، خمس منها تسلم للكفيل وذويه تعويضاً لسواد الوجه .

٤ — الرِّزْقة :

قد يرضى شيخ العشيرة أو القبيلة بأن يصلح بين الناس للشرف والسيادة فقط ،

ولكن الذي مهنته القضاء لابد له أن يكسب عيشه من عمله . وكان المحكم (سنة ١٩٦٩) يتقاضى مئة ريال في الدعاوي الكبرى . ويضاف إلى رزقة القاضي تكاليف المحكمة من ضيافة وتعويض مالي للشهود والكفلاء .

وعلى الرغم من المنزلة الاجتماعية التي يتمتع بها المَنْهى والمرَدّ والنقّاف فإن رزقتهم دون رزقة المحكم . وذالك لأن الحاكم الأول يقوم بدور قاضي التحقيق ويسمع الشهود ويحلف الناس بين يديه ... أما الحاكم الذي ينظر بالدعوى بعده فإنه يكتفي بنقض الحكم أو تثبيته وفقاً للأحكام المرعية . إلاّ أن النفقات الناتجة عن الضيافة تزداد كلما ارتفعت مكانة المنهى .

ويقوم الطرفان غالباً بدفع النفقات الناتجة عن الضيافة . أما رزقة القاضي فقد تدفع أيضاً مناصفة بين المدعي والمدعى عليه . ولكن إذا كان المدعي على ثقة تامة من حقه فإنه يطلب من المحكمة أن تكون الرزقة على المحكوم عليه ، لأن دعواه (هي دعوى الحق على الباطل) على حسب قول مخبري الشيخ يحيى عمران .

٥ – الدعـــوى :

وبعد أن يتم اختيار المحكم وبعد أن يضع الطرفان الودائع بين يديه – من بندقية أو جنبية – وبعد تعيين الكفلاء ودفع رزقة القاضي ، في بعض الأحوال ، يعرض المدعي دعواه على المحكمة ويجيب عليه الخصم .

وليس لدى المحكمة لإثبات الحق إلا ثلاثة أنواع من البينات : الإقرار والشهادة واليمين . أما البَشْعة فليست من مواضيع هذا البحث .

إذا أُخِذَ المتهم بالجرم المشهود أو لم ينكر ما يدعي به الخصم ، فالمحكمة تصدر حكمها دون أن تحتاج إلى غير ذالك من البيّنات . وهي لا تبحث عن الأسباب النفسية التي قد تكون دفعت إلى ارتكاب الجرم ، إلا إذا كان المتهم مختل الشعور أو به خبل أو جنون ، فإن المسؤولية الجنائية تسقط عنه عندئذ . ولكن لابدّ لذويه من دفع الدية أو إعطاء التعويضات المالية المتعارف عليها .

ومن النادر جداً أن تصدر المحكمة حكمها استناداً فقط إلى أقوال الطرفين ، إلا إذا أقر الجاني بجريرته . ولكي تعلم بحقيقة الواقع تطلب من الشهود إفادتهم ، بعد حلف اليمين .

والشهادة لا تقبل إلا بشروط : ومن أهمها أن يكون الشاهد ذكراً ، راشداً ، بالغاً من العمر خمس عشرة سنة ، مالكاً جميع قواه العقلية ، معروفاً بأمانته وصدقه . ويمكن للخصم أن يرفض أحد الشهود إذا أثبت أنه :

عدو له .

أو سيء السمعة .

أو قد حكم عليه لشهادة زور أو سرقة أو زنا .

أو تاركُ الصلاة .

أو مطعون بشرف زوجته .

ومن الممكن أيضاً رفض شهادة أحد أقرباء المشهود له .

ولا تقبل الشهادة كبينة إلا إذا صدرت عن شخصين موثوق بهما . ولكن المحكمة تأخذ بعين الاعتبار الشهادة الفردية إذا كان الشاهد من الرجال المعروفين بحسن السمعة والشرف والدين . أما النساء فإن شهادتهن لا تقبل إلا في الدعاوي النسائية ، ولا يحق لهن المثول أمام المحكمة في غير ذالك من الأحوال إلا إذا رضي الطرف الثاني . والعرف يتبع الشرع إذيقول: إن شهادة الأنثيين تعادل شهادة الذكر .

أما شهادة الولد فلاتقبل إلا في بعض الأحوال الاستثنائية ، إذا كان مثلاً الشاهد الوحيد لحادث هام . وفي هذه الحالة لابدّ للشخص الذي شهد الولد لصالحه من حلف يمين بالله العظيم أن هذه الشهادة هي وفق الحقيقة .

وإذا لم يثبت ادعاء رافع الدعوى بالبينات المادية أو بالشهادة فالمحكمة تطلب من المدّعَى عليه أن يحلف اليمين . ويحلف عادة بالله العظيم ويضع يده على القرآن

الكريم . ويكون التحليف غالباً في المسجد . أما في صنعاء فإن اليمين الأعظم يكون بين المسمورة والمنقورة ، حجرين قائمين في الجامع الكبير . أما أهل الوبر ، وهم قليلون في العربية الجنوبية ، فقد يحلفون على أشياء تافهة يعتبرونها مقدسة مثل عامود البيت والماشية ...

وهناك أيضاً عادة (تزكية اليمين) . ويكون ذالك متى حلف أحد أقرباء المدعى عليه ببراءة المتهم . فيجب في هذه الحالة أن (يُزَكّي) الحالف اثنان من أفراد أسرته : أبوه وأخوه أو عمه ، أي أنهما يحلفان أنه صادق وأنهما يشاركانه في يمينه .

وتعرف أيضاً القبائل اليمنية اليمين الاجماعي أو المشترك . ويكون ذالك إذا ارتُكِبَتْ جريمة قرب قرية واتهم أهلها بها ، فعلى رجال القرية ، دون النساء والأطفال ، وبالأولى على عدد منهم لا يزيد على الأربعين ، أن يحلفوا مشتركين متضامنين على براءتهم من هذه التهمة .

٦ ــ إصدار الحكم :

وبعد أن سمعت المحكمة ادعاء الطرفين وأقوال الشهود وأخذت بعين الاعتبار البينات المقدمة تصدر حكمها . وهذا الحكم يكون مسطوراً في وثيقة ، ويقوم بكتابته عادة الأمين ، أي مساعد شيخ العشيرة ونائبه أحياناً . وهذه الوثيقة تتضمن تفاصيل الدعوى وإفادة الشهود وأنواع البينات وصيغة اليمين ومقدمات المحكمة والحكم الصادر عنها ، مع تفاصيل التعويضات التي تحق للمحكوم له . ويوقع على هذه الوثيقة المحكم وأعوانه . وليس من عادة القبائل اليمنية أن يقول الشيخ عند إصدار حكمه : (من عندي ومن عند القضاة الذين قبلي أقول ...) ، كما هي الحالة في الأردن .

وعلى الكفيل أن يعمل على تنفيذ قرار المحكمة وإلا امتُهِنَ شرفُهُ وحُطَّ من مقامه . وتساعده أسرته كافة بل قبيلته جمعاء على أداء مهمته وترغم المكفول على احترام ما تعهد به الكفيل . وهناك طريقة خاصة باليمن لإرغام العاصي على الاذعان

وهي الضيافة ، شاء أو أبى ، إذ يحل الكفيلان عليه ضيوفاً ويقيمان لديه في أكل وشرب إلى أن يخضع لأمر المحكمة .

والمشهور عن القضاء القبلي أنه لا يتوانى في إصدار حكمه وتنفيذه ، خلافاً للمحاكم النظامية . إلا أنه يعمل بسرعة أكبر في بعض الأحوال الجنائية الهامة مثل القتل أو الاعتداء على شرف المرأة . ونلمس هذه السرعة عندئذ ليس فقط عند طالب الثأر إذا مكنته الظروف ، بل أيضاً عند ممثلي القضاء ورؤساء العشائر . وحدث مرة خلال اجتماع كبير ضمّ قبائل أرحب البكيلية أن بعضهم انتهز الفرصة ليأخذ بثأره من عدوه ، على الرغم من حرمة الوقت ، فأطلق عليه رصاصتين وأرداه قتيلاً . فألقي القبض عليه واجتمع حالاً مجلس الشيوخ واتفقت كلمتهم على الثأر ، على أن يُقْتَلَ الجاني بأربع رصاصات : اثنتين للنقا واثنتين للعيب . وقام أخو المقتول بتنفيذ الحكم فوراً . ولكن بما أن الجريمة وقعت خلال احتفال يحرم فيه كل عمل جنائي فإن الشيوخ حكموا أيضاً على أهل القاتل بدفع الدية لورثة القتيل ، وعليها أيضاً أن تذبح ستة رؤوس من البقر تعويضاً عن شرف أرحب ، لأن القاتل ارتكب عيباً كبيراً بخرقه حرمة العيد .

٧ ــ العيــوب :

إن الأعراف اليمنية لا تتماشى دائماً مع القضاء النظامي فنراها تطعن أحياناً في أعمال لا يرى فيها الشرع الغَرْبي بل الشريعة الإسلامية نفسها أي مأخذ فهي تندد مثلاً بالقَبيلي الذي يرفض قبول الضيف أو لا يدافع عن رفيق السفر أو لا يحمي جاره أو لا يحترم حق الخبز والملح أو يضع الكحلَ على عينيه أو يصبغ يديه بالحناء . فهذه الأعمال وغيرها تُعَدّ عيوباً في المصطلح القبلي اليمني . إلا أن جزاء المخالف ليس مادياً بل معنوياً وأدبياً ، إذ لا يحق عليه القصاص في مثل هذه الأحوال ولكنه يفقد من مكانته الاجتماعية ولا يحترمه الناس ، وقد ترفض شهادته ولا يؤخذ كلامه بعين الاعتبار .

ولا تكتفي الأعراف اليمنية بالتنديد بمن لا يعمل وفقاً لأحكام الشرف القبلي ولكنها تنزل به أحياناً العقوبات المادية إذا تجاوز الحد وتطاول على مَنْ تجب عليه حمايته وتناوله بالشتم والضرب . فهذا هو العار الكبير أو العيب الأسود ، على حسب المصطلح القبلي ، فهو يخلّ بشرف مرتكبه ويسقطه إلى أسفل الدركات إذا ما اعتدى على جاره أو على الضعفاء من الناس كالمرأة أو الولد أو أحد أفراد الطبقة الاجتماعية الوضيعة كالدوشان والمزين والحجام . وتفرض الأعراف على من ينتهك الشرف القبلي تعويضاً مالياً كبيراً يُعطى للمجني عليه ، يعادل أحياناً إحدى عشرة دية (وهم يقولون دية محدشة) . ومن البديهي أن أعمال العنف لا تتكافأ مع هذا العقاب الصارم ولكنها (تحدشت) بدورها لأنها أخلت بقواعد الشرف المرعية في المجتمع ، وما أكثر الأعمال التي تُسَوِّد العرض القبلي ! منها تقطيع وجه كفيل الدفا أو كفيل الوفا والاعتداء على رفيق السفر والأخذ بالثأر بعد قبول الدية .

ولا جرم أن الأحكام القبلية تقرّ الأخذ بالثأر ، بل إن العار يحل بالموتور الذي يتهاون بهذا الواجب ، ولكن عليه أن يتقيد ببعض القواعد وإلا انعكست الآية وزاد على عاره عيباً أسود . فعلى وليّ الدم الذي يصمم على الانتقام أن يرفض الصلح باديء بدء ليكون عدوه على حذر منه . ومتى مكنته الظروف من خصمه عليه أيضاً أن ينذره ويبقي له المجال ليدافع عن حياته ولو رمزياً . فلا يحق له أن يثأر منه وهو نائم أو غافل عن أمره . ولا يجوز له أيضاً أن يطعنه في ظهره ، بل عليه ، بموجب أحكام الشرف القبلي ، أن يصيح عليه ويقول له : (واجه) ، ليعلم أنه يموت بثأر فلان . وإذا لم يراع هذه التقاليد وقتل عدوه غيلة وعرف الناس بذالك وقع تحت طائلة القانون وعوقب . وتختلف العقوبة على حسب بداوة القبيلة . فعند بني صريم يحق عليه ديتان : دية القتل ودية العيب . أما في الجوف فإنهم علاوة على ذالك يحكمون عليه بقطع اليد لأنه بعمله هذا اقتدى بالسارق .

ومن أهم العيوب التي تخل بشرف مرتكبها الاعتداء على المرأة أو (الشوفة) على حسب تعبير القبائل الحاشدية . وهذا الاعتداء قد يكون غير ذي بال ، بل قد

لا يؤبه له في المدن ، مثل إبداء الاعجاب بجمال المرأة . ولكنه عيب في العرف القبلي ولابدّ لمرتكبه من تقديم ذبيحة أو ذبائح لغسل العار . أما إذا خطف المرأة وحاول الاعتداء على عرضها فإن عمله يعد جناية كبرى كقتل العمد ويطارده أهل المرأة كما يطاردون القاتل . فإذا لم يرتكب الفاحشة فإنهم يطالبون بديتين ، أما إذا سطا على عرضها فهيهات أن ينجو من جنبية أحد أقربائها إلا إذا لاذ بالفرار واعتصم برؤوس الجبال . ومع ذالك فإنه لا يأمن على حياته إلا إذا (هَجَّرَ) أي قدّم عدة ذبائح لذويها وأعطى الديات لأهلها وتزوجها شرعاً بعد أن رضي بعلها بالطلاق ، لقاء تعويض مالي ضخم . وإذا كان الخطف بموافقة المرأة ، فالقبائل اليمنية الشمالية تعمل بقول المتنبي :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق عــلى جوانبــه الــدم

أما في الجنوب وبالأحرى عند قبائل الحموم والمناهيل الحضرمية ، فإن نظرهم إلى العلاقات الجنسية غير الشرعية كان متأثراً ، إلى سنوات خَلَتْ ، بالعادات الجاهلية ، منها الكسب وحرّية اتخاذ الخدين لذات البعل ، كما بيناه في الفصل الرابع من الجزء الثالث (تطور نظام القرابة) .

وأشد العيوب سواداً قتل المرأة بعد محاولة الاعتداء على عرضها . فلابدّ في هذه الحالة من الأخذ بالثأر . ولا يكتفي أهل المرأة بموت الجاني ويطالبون أسرته بديتين . وإذا كانت المقتولة حاملة فالدية تكون مربعة .

٨ ــ الخــلاصة :

حاولنا في هذه الصفحات أن نعطي فكرة عامة عن الأعراف اليمنية ، ونأمل أن نخصص لها كتاباً شاملاً في المستقبل . وعلى الرغم من الإيجاز والاختصار فإن ما جاء في هذا البحث يظهر الصلة الوثيقة التي تربط هذه الأعراف بالقضاء البدوي(٥) .

إن نظام الحكم القبلي في اليمن مبني على التحكيم . والمحكم قد يكون رئيس

عشيرة أو قبيلة وقد يكون رجلاً عارفاً بالعادات القبلية . ويجب أن يختاره الطرفان المتحاكمان . أما مهمته الرئيسية فالإصلاح بين المتخالفين والأمر بالتعويض المالي للمجني عليه ، وفرض الدية على الجاني في حوادث الضرب والقتل . ولكن لا يحق له أن يحكم بالقصاص ، كما لا يحق ذالك للعارفة في المجتمع البدوي . إلا أن الأعراف اليمنية تجيز إعدام القاتل في بعض الأحوال الاستثنائية ، على أن يصدر الحكم عن مجلس القبيلة ويقوم بتنفيذه ولي الدم .

وتعطي الأعراف اليمنية المرافعَ الذي خسر الدعوى حقّ الرجوع إلى محكم آخر لنقض الحكم ، كما هي الحالة في البادية . إلا أنها تخوله أيضاً الحق (بجرّ) المحكم الأول أمام المنهى ، وفي حالة خلاف على القرار الجديد تعرض القضية على المردّ أو على النقّاف . وعلى الكفلاء أن يحرصوا على تنفيذ الحكم . وإذا رفض أحد الخصمين تنفيذ قرار المحكمة يسود وجه الكفيل ويُعد عمله عيباً كبيراً . وهناك عدد من الأفعال تسمى عيوباً تَسِمُ مرتكبها بأقبح السمات . ومن أهم هذه العيوب خرق حرمة البيت والضيف والاعتداء على الرفيق والتحرش بالنساء وخطف المرأة والاعتداء على عرضها . ويعاقب القضاء البدوي ، كما تعاقب الأعراف اليمنية بصرامة شديدة مرتكب العيب الأسود . وقد تبلغ الدية في الحالات القصوى إحدى عشرة دية .

وهذه المقارنة السريعة بين القضاء اليمني والقضاء البدوي لا تعني أن المجتمعين يخضعان تماماً لنفس القوانين القبلية ، ومن السذاجة بمكان أن يسلم الباحث بمثل هذا القول وذالك بسبب اختلاف المحيط الجغرافي ولأن اليمن مرّ بأدوار تاريخية خاصة لم تعرفها البادية . وإذا كانت بعض القبائل اليمنية ، وبالأحرى بعض أفخاذ منها ، مثل قبائل نِهْم وعَبيدة لاتزال على البداوة فإن الحياة البدوية تكاد أن تكون مجهولة في المرتفعات العليا حيث تهبط بكثْرة الأمطار الموسمية . وعرف اليمنيون كيف يستغلونها فبنوا السدود وحفروا الآبار واستفادوا من امكانيات الجبال الزراعية فحوّلوا القسم الأكبر منها إلى مدرجات . ولكن على الرغم من الزراعة نرى أن

المجتمع اليمني القروي يتبع ترتيباً اجتماعياً مأخوذاً عن النظام القبلي . فهو منقسم إلى قبائل وعشائر وحمائل على رأسها الشيوخ والعقال وتربط بينها الأواصر الدموية . إلا أن هذه المجتمعات ، بسبب استقرارها بالأرض ، تطلق على الأماكن المأهولة اسم العشيرة التي تقيم فيها ، فيقولون مثلاً : بنو مطر ، بنو بهلول ، ذو حسين ، ذو محمد ... وعلاوة على ذالك تمتاز هذه المجتمعات بتركيب طبقي خاص إذ تضع الحواجز بين الطبقات الاجتماعية ، كما لو كانت متأثرة بالنظام الهندي أو بقوانين زرادشت(٦) .

ومن البديهي أنه لا يمكن لمجتمع ريفي يعيش على هذا الترتيب الخاص أن يقبل على علاته العرف البدوي الذي يستمد تقاليده من المحيط الصحراوي . ونرى تأثير الحياة الريفية في ميادين شتى مثل الحياة الاقتصادية والتراث . ولذا يرفض المزارع اليمني مبدأ الشُّفْعَة والبَدْأة الذي يُعْمَل به في البادية ، فلا يحق للبدوي ، بموجب هذا القانون أن يبيع إلى شخص غريب فرساً أو ناقة إلا بعد موافقة جميع أفراد حمولته ، كما لا يحق له أن يزوج بنته إلى رجل من غير عشيرته ، بَلْهَ قبيلته . وإذا تمت عملية البيع دون استشارة الأهل والأقرباء يحق لمن يريد منهم أن يدفع الثمن المتفق عليه ويحتفظ بالحيوان أو بالشيء الذي اشتراه الغريب ، كما يحق له أن يعطي المهر المطلوب ويتزوج (بنت عمه) وأن يَعُدّ بينهما النسب . ولكن من الصعب العمل بهذا المبدأ في المجتمع القروي ، بل يستحيل تطبيقه في الأرياف حيث تقوم الأسواق كل يوم ويباع عدد كبير من السلع . إلا أن القرويين اليمنيين من أهل القبائل لم يزالوا متقيدين بهذا القانون عند بيع الأراضي ، كما أن لابن العم عندهم حقاً على بنت عمه .

وبالإضافة إلى ما تقدم كان أيضاً للأئمة الزيديين اليد الطولى في محاربة العرف البدوي باسم الدين ، فتقلص ظله وذهب رسمه من كل ما له علاقة بالأحوال الشخصية والميراث . ولكنهم أخفقوا أو كادوا يخفقون في منع زواج البدل أو

الشغار . أما أهل الوبر فإنهم يعملون به أيضاً دون تحرج ويَحْرِمون الأنثى حقها من الإرث ويقولون : إن ابن العم أولى ببنت عمه .

ولا جَرَمَ أن الأعراف اليمنية تكاد أن تكون صورة معكوسة للعرف البدوي وهي مستقاة من النبع نفسه . إلا أن المجتمع القروي ، بسبب بيئته الخاصة وماضيه الثقافي لا يمكنه أن يتقيد بجميع أحكام الصحراء غير أنه لم يزل متمسكاً بكل ما له علاقة بالشرف وبياض الوجه ، ونقاء العرض .

د. يوسف شُلْحُد
باريس ، المركز القومي للبحث العلمي

الحواشي :

(١) وردت هذه الكلمة ثماني مرات في القرآن الكريم : ست آيات منها مدنية ، أما الآيتان الأخيرتان فقد نزلتا في سورتين مكيتين (النحل والزمر) ولكن جاء فيهما آيات أوحيتْ بعد الهجرة . وهذا ما يجعلنا نتساءل إذا كانت كلمة طاغوت من أصل يمني ؟ ومن جهة أخرى لا نعلم تماماً ما تشمل عليه من المعاني . فمن المفسرين من يقول : إن المقصود بها الأوثان . ويصف ابن هشام الطواغيت كأنها بيوت للأصنام كانت العرب « تعظمها كتعظيم الكعبة لها سدنة وحجاب » . إلا أننا إذا رجعنا إلى القرآن الكريم لم يستقم تماماً هذا التفسير إذ جاء في سورة النساء : ﴿ يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ﴾ (الآية) . والتحاكم يعود بنا إلى القضاء والعرف . وهذا ما يجعلنا نميل إلى التسليم بالنظرية التي تقول : إن الطاغوت في الجاهلية يشير إلى الأعراف التي كان يُعْمَل بها قبل الإسلام .

(٢) وهذا الاحتقار قديم العهد . جاء في قصيدة لعبد الخالق بن أبي الطلح يهجو الأبناء :

وأنا الخبير بأنهم لم يُخْلَقوا ... إلا لبيع بضائع وشراء
ومعاصر ومجازر ومدابغ ... تؤذي مجاورها ونسج ملاء

(الهمداني ، الاكليل ١ ص ٤٨٢ ، طبعة بغداد ، ١٣٩٧ — ١٩٧٧) .

(٣) الحَمولة : كلمة وردت في الشعر الجاهلي . ومن ذلك قول طرفة بن العبد في معلقته :

على غير شيء قلته غير أنني ... نَشَدتُ فلم أُغفل حَمولة مَعْبَد

[ولكن بمعنى ما يتحمل الانسان أداءه]

(٤) لابدّ من الإشارة إلى أن هذه المسألة ، أي ردّ الرزقة ، غير مُسَلَّم بها ، بل أن بعض المخبرين يخطّىء من يقول بها (حديث مع الشيخ فيصل السرّتي) .

(٥) انظر : يوسف شلحد ، القضاء في المجتمع البدوي ، باريس ، ١٩٧١ (بالفرنسية) .

(٦) رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء ، ج ١ ص ٢٩٢ ، دار صادر ، دار بيروت ، بيروت ، ١٩٥٧ (الرسالة الثامنة : في قابلية الإنسان الصنعة) .

رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي المغربي إلى الحج سنة ١١٤٣هـ

— ٥ —

كنت أود إيراد جميع ما في هذه الرحلة مما يتعلق بالحج وذكر المشاعر المقدسة ووصف أحوال المدينتين الكريمتين ، ولكن اعترض ذالك أن المؤلف — عفا الله عنه — انغمس في تيار ما طغى في ذالك العصر من الجمود ، فأتى بعبارات وأقوال ونصوص وقصائد ، لا يستساغ نشرها ، وخاصة حين ذكر من اجتمع به من العلماء في مكة المكرمة ، وجُلُّهُمْ من المتصوفة ، ومعروف ما يتصف به هاؤلاء في ذالك العهد من أوصاف أقلُّ مافيها مجانفة ماعليه السلف الصالح من طريقة قويمة في أمور العبادة ، وهذا ما حمل على اختصار هذا الفصل من الرحلة والاكتفاء بذكر أسماء من اجتمع بهم من علماء ذالك العهد في مكة المكرمة ، مع الإشارة إلى ما لهم من آثار علمية ومن أراد الاطلاع على كل ما أورده عنهم فليرجع إلى أصل الرحلة .

فممن التقى به في مكة المكرمة :

١ — السيد عمر باعلوي البارّ الحسيني المتصوف ، وذكر أنه يمني الأصل ، وأورد ما ذكره ابن جبير في رحلته عن (السرو) ناقلاً عنه ما نصه[1] :
وهم أهل جبال حصينة ، وقبائل شتى كبَجيلة وغيرها ، عربٌ فصحاء ، جُفاة أصحاء ، لم تُغذِهم الرقة الحضرية ، ولا هذبتهم السيرة المدنية ، ولا سدّدتْ مقاصدهم السننُ الشرعية ، ليس معهم من أعمال العبادات إلا صدق النية ، فإذا قَدِموا حُجّاجاً تراهم يتطارحون على البيت الكريم تَطارُحَ البنين على الأُم الشفيقة ، وفي أثناء ذالك تَصْدَعُ ألسنتهم بأدعية تُصَدِّع القلوب ، وتنفجر لها الأعين الجوامد ، فترى الناس حولهم باسطي أيديهم يُؤَمِّنُون على دعائهم ، متلقنين لأدعيتهم من ألسنتهم .

وورد أنّ النبي صلى الله عليه وسلم ذكر هاؤلاء السَّرْوَ اليمنيين ، وأثنى عليهم خيراً وقال : « علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء »[٢] . قال ابنُ جبير : وأما صلاتهم فلم يُذْكَر في مضحكات الأعراب أظرف منها ، وذالك أنهم يستقبلون البيت الكريم فيسجدون بدون ركوع ، وينقرون بالسجود نَقْراً، ومنهم من يسجد السجدة الواحدة ومنهم من يسجد السجدتين والثلاث والأربع ، ثم يرفعون رؤوسهم من الأرض قليلاً ، وأيديهم مبسوطة عليها ، ويلتفتون يميناً وشمالاً التفاتاً مُرَوَّعاً ، ثم يسلمون أو يقومون دون تسليم ، ولا جلوس المتشهد ، وربما تكلموا في أثناء ذالك ، ورفع أحدهم رأسه من سجوده إلى صاحبه وصاح به ووصاه بما شاء ، ثم عاد إلى سجوده ، إلى غير ذالك من أحوالهم الغريبة . وذكر أن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما كان يتحرّى وقت طوافهم ، ويتحرّى الدخول في جملتهم ، تبركاً بأدعيتهم فشأنهم عَجَبٌ كله .

وشاهدنا منهم صبياً في الحِجْرِ قد جلس إلى أحد الحجاج يعلمه فاتحة الكتاب وسورة الإخلاص ، فكان يقول له : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ فيقول الصبي : هو الله أحد ، فيعيد عليه المعلم فيقول له : ألم تأمرني بأن أقول : هو الله أحد ؟ قلت ، فكابد في تلقينه مشقة وبعد لأي ما علقت بلسانه ، وكان يقول له : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين ﴾ فيقول الصبي : بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين ، فيعيد عليه المعلم فيقول له : لا تقل : والحمد لله إنما قُلْ : الحمد لله ، فقال الصبي : إذا قلت بسم الله الرحمن الرحيم أقول : والحمد لله للاتصال ، وإذا لم أقل بسم الله وبدأت قلت : الحمد لله ، فعجبنا من أمره ومن معرفته طبعاً بصلة الكلام وفصله دون تعلم ، وأما فصاحتهم فبديعةٌ جداً ، ودعاؤهم كثير التخشيع للنفوس ، والله يصلح أحوال جميع عباده . انتهى كلام ابن جبير — مع بعض اختصار منه .

ورحم الله صاحب « القاموس المحيط » إذ قال في افتتاح خطبته: الحمد لله منطق البلغاء باللُّغَى في البوادي، ومودع اللسان أَلْسَنَ اللُّسُن الهوادي ، ومخصص عروق القيصوم وغضا القصيم بما لم ينله العَبْهَرُ والجادي . قلت : وفي دراسة باب الوصل

والفصل اللذين اهتدى إليهما هذا الصبي بسليم فطرته وصَفَاء سليقته بادِيَ بدْءٍ شابَتْ نواظرُ القوم الذين لم يُطْبعوا على تلك الفصاحة ولا مُنِحُوا تلك الصباحة :

وَلَسْتُ بِنَحْوِيٍّ يلوكُ لِسَانَهُ ولكنْ سَلِيقِيٌّ أَقُولُ فَأُعْرِبُ

قلت : والسيد المبارك صاحب الترجمة ممن له قدم في الطريقة راسخة ، وهمة في الإعراض عن الدنيا شامخة ، يُفَكِّكُ فيها في الوحل ، ويطعم منها في المحل ، أخذ عنه ابن أختنا الفقيه النبيه ، السري الوجيه ، السيد العربي بن محمد بعض الأوراد ، على طريق تلقين الذكر ، وأخبرنا رضي الله عنه بنسبه تعديد الجملة من آبائه الكرام فضاع تقييده من أيدينا ، وهو شريف حسني من غير شك ، يدل عليه قوله في قصيدته التي أنشدنيها بالمسجد الحرام تجاه الكعبة المشرفة في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم :

نحن أضيافكم نزلنا عليكم ولنا رَحِمٌ صِلُونَا وعُودوا

ونص القصيدة التي أنشدناها : (أوردها كاملة وفيها من الغلو ما يحول دون ذكرها) .

٢ ــ الشيخ أبو عبدالله محمد بن أحمد عقيلة المكي :

اجتمع به وأجازه وأورد نص الاجازة في حديثين ، أحدهما حديث معاذ بن جبل : إني أحبك ، والثاني : حديث المصافحة .

وذكر أن الشيخ محمد بن أحمد بن عقيلة توجه مع الركب الشامي إلى القدس ، ونقل عنه أن قبر عبدالله بن عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنهما ــ بجبل خَرْمان ، عن يسار الذاهب إلى عرفات ، قال : والناس يزدحمون على قبر آخر هنا بمكة وليس بقبره .

٣ ــ الشيخ الصوفي محمد بن علي بن فضل الطبري ــ هكذا نسب نفسه ــ شيخ المقام الخليلي ، ذكر أنه ملازم لداره في الشتاء والصيف لا يخرج منها ، وأنه اطلع على بعض مصنفاته ومنها « تفسير للقرآن العظيم » في ثلاث مجلدات ، و « منتهى السول في الصلاة على النبي الرسول » و « حرز الخَشْيِي في حزب الصبح والعشي » ،

ووهب له المؤلفين الأخيرين ، وكتب على أحدهما إجازة مؤرخة في شهر الحجة سنة ١١٤٣هـ .

٤ ــ تاج الدين الحنفي ، مفتي الحنفية :

لم يذكر اسمه وأورده في الأجازة (أبو الفضل محمد تاج الدين بن عبد المحسن الشهير ــ ثم بياض ــ الحنفي ، وذكر أنه أجازه .

٥ ــ السيد عبدالله بن يحيى أفندي بن جعفر الواعظ ، وصفه بأنه من أهل الوجاهة بالحرم الشريف ، والتقدم فيما يهتم به من التوظيف ، وأورد له قصيدة في مدح عبدالله بن إسماعيل أمير المغرب ، مطلعها :

الحمد لله نلت السـول والوطرا ياسيدا بالمُنى من دهره ظفرا

في ٣٧ بيتاً وذكر أن لصاحب القصيدة مرتباً عند سلطان المغرب وهو مئة مثقال ذهب مطبوعة ، تأتيه كل سنة مع أمير حاج المغرب ، وكان هذا المرتب لأبيه الشيخ جعفر .

٦ ــ زين العابدين بن سعيد المنوفي ، وصفه بأنه أديب العلماء وعالم الأدباء ، ذكر أنه قدم حاجاً من المدينة وأن له في كلا الحرمين داراً ، الأصيلة بمكة ، ثم انتقل إلى المدينة فاستوطنها ، وذكر أنه صنع مأدبة كبيرة دعى إليها الجفلى ، لم يترك شيئاً من أنواع الطعام والأشربة الحلوة إلا وأحضره ، وأنه كتب للمؤلف كتاباً إلى والده بالمدينة أن ينزله بداره ، ففعل ، وأنه ناوله أربعة مثاقيل من الذهب حين أراد الارتحال من المدينة ، فردها ، وأورد من شعر زين العابدين قصيدة نبوية على حرف القاف ، وأنه ساجله الشعر في أحد مجالس الأنس .

٧ ــ تاج الدين بن عارف المنوفي ، وصفه بالدين والمروءة ، وأورد له أبياتاً من الشعر .

٨ ــ الشيخ عبدالله السكندراني الضرير ، اجتمع به وحدثه بمصنفاته في التفسير والحديث وعلم الكلام ، منها تفسير بالنظم يزيد على ثلاثة آلاف بيت في الرجز وقال : إنه كان عزم على توجيه مؤلفاته إلى الغرب .

٩ ـ الشيخ محمد بن محمد بن سليمان الرداني :

ويحسن إيراد نص ما ذكره المؤلف عنه لأن والده من أعلام عصره وقد ذكر عنه ما قد يفيد في ترجمته ، قال : وممن لقيناه بالمسجد الحرام وتكررت مجالستنا معه أيام الإقامة بالحرم المبارك الفقيه الوجيه السري النزيه ، السيد محمد بن الفقيه العلامة الرحالة الزاهد الورع السيد محمد بن سليمان الردّاني ، الذي كانت له الوجاهة والصيت الشهير بالحرمين الشريفين ، بل وفي البلاد المشرقية كلها ، وأخبار هذا السيد وأوليته ذكرها الفقيه الصوفي الراوية السيد عبدالله أعياش في رحلته [٣] ، وولده هذا له دار قرب المسجد الحرام ورثها من أبيه المذكور ، ملاصقة للحرم الشريف ،تُنُوسيتْ فيه النسبة إلى سوسن بالكلية :

وما بلد الإنســان غير الموافــق ولا أهله الأدنون غير الصــدائق

وأيُّ بلد أوفق من بلد جعله الله مثابة للناس وأمناً ، وأيُّ أهلٍ أكرم وأعظم وأفخم من أهلٍ يُسَمَّوْنَ جيرانَ الله : بجيرانها تغلو الديار وترخص .

وقد وقف معنا هذا الفقيه لشراء الدار المباركة التي اشترتها من أولاد العالم العلامة السيد عبدالله ابن سالم البصري ، وهي بباب العمرة أحد أبواب المسجد الحرام ، اشترتها أم مولانا أمير المؤمنين المجاهد في سبيل الله رب العالمين ـ نصره الله ـ بثمن يقرب من ألف مثقال ذهب مطبوعة ، وحبّستها على من يقرأ الختمة من القرآن في كل يوم ، وهم جماعة من الطلبة عُيِّنُوا لذالك والتزموا القيام به وعلى من يدرس صحيح الإمام أبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري ـ رضي الله عنه ـ انتدب لهذا الوظيف الفقيه العالم السكندراني المذكور ، واسم خراج الدار المذكورة في كل شهر على قسمة معينة ، كتبتْ لهم في حجة هي بأيديهم ، وصدرت ـ حفظها الله ـ ناظراً على ذالك الدار المذكورة والتصرف في مستفادها المذكور التاجر الأرضي الحاج الخياط قصارة الفاسي ، أحد التجار المجاورين ، وكنت أنا عبدالله توليت عقدة الشراء من أولاد العالم المذكورين ، بتقديم لي على ذالك من السيدة ـ حفظها الله ـ وكنا ذهبنا للقاضي القادم من اصطنبول برسم كَتْبِ عَقْدِ الشراء ، واستظهرت برسم التوكيل من قبل السيدة على الشراء ودفع الثمن ، واستظهر النائب

عن البائع عن نفسه وعلى من إلى نَظَرِه ممن شاركه من إخوانه في الدار المذكورة ، فقال القاضي : لا يمكن أن يُعقَدَ البيع بين وكيلين ، ولابُدَّ أن يباشر العقدَ أحدُ المتبايعَيْنِ بنفسه ، فيكون أصلاً والآخر فرعاً . فقلت له : أما السيدة المالكة فلا سبيل لكم إلى الاشهاد عليها استقلالاً . فعند ذالك وجه القاضي عَدْلَيْنِ فسمعا من البائع لأنه كان بحال المرض ألزمه الفراش ، فلما تَمَّ العقد ولم يبقَ إلا كَتْب الوثيقة قال القاضي : أوْ مَنْ ناب عنه : لابُدَّ لنا من مئة ريال على هذه الحجة وهم يسمون العقد حجَّة ، فلأياً بِلأْيٍ ما اتفقنا على خمسة وعشرين ريالاً ، فدفعناها لهم فلما قبضوها قالوا : هذا حَقٌّ عقد البيع ونعمل مجلساً آخر لكتب عقد التَّحْبيس ، فقلنا لهم تبارك الله ، وأرخينا لهم العنان حتى قبضنا عَقْدَ البيع وانصرفنا فكتبنا عقد التحبيس بشهادة أصحابنا العدول المغاربة تفادياً من جور القاضي وعُدُوله ، وذالك شيء لا بأس به عندهم ، هذا وكلٍ واحدٍ في يده قَضِيبٌ يشرب به الدخان ، وهو أيضاً شيء بتلك البلاد المشرقيَّة تعمُّ به البلوى ، وعزُّ أديمِهِ شديد العَدْوى ، والقاضي بمكان يشرف منه على الكعبة المشرفة في سراجيب ، وذالك لعمري من الأعاجيب ، حَدِّثْ عن البحر ولا حَرَج .

وهذه الدار من الحسنات التي جاءتْ بها هذه السيدة المباركة ، ولاشكَّ أن الحسنة تعظم بحسب الزمان والمكان ، فالحسنة في هذه البقعة الشريفة ليست كغيرها ، وكم لها من حسنات غير هذه ، ظاهرة وخفية ، في هذا الحرم المكي ، وفي الحرم النبوي — شرفهما الله وعظم حرمتهما — تقبل الله منها آمين .

وقد وصلت كثيراً من فقهاء البلد المكرم ، منهم الشيخ محمد الطبري إمام المقام الخليلي ، وكان كتب لها كتاباً نصه : الحمد لله الذي شرف السُّفَّار بنقل طيب الحديث والأخبار ، وأوقفهم على الأماكن المكيَّة والمشاعر الحرمية ، أحمده على عطائه ، وأشكره على آلائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تملأ المغارب والمشارق ، وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله الرسول الصادق ، صلى الله عليه وسلم عليه وعلى من انتسب إليه . أما بعد فيقول الفقير إلى الله تعالى محمد بن علي بن فضل الحسني الشافعي الطبري إمام المقام الإبراهيمي : لما كان سنة ألف ومئة وثلاث وأربعين حججت إلى بيت

الله الحرام ثمرة الشيوخ المعتبرين المنتخبين من أكرم سلالة، وأفلاذ أكباد العلماء المتغذين بلبان الجلالة، مغارس طابت في ربى المجد فألقت على الخلف معدن السؤدد وكيمياء السعادة وعنصر الحمد، مفرق السيادة الملكة (خناثة بنت المرحوم المبرور الشيخ بكار المغفري) زوجة المرحوم المقدس مولانا السلطان إسماعيل – أعلى الله مقامه في الجنان – ورفع لهذه الملكة أعلام السيادة تُتْلَى على مَرِّ الزمان. دخلت ليلة السادس بعد العشاء إلى مكة المشرفة، وعليها السكينة مرفرفة، راكبة في عجلها وهي في جلالة عظيمة، وسيادة فخيمة، في محفل من الأجناد، وجمع من الأجواد، ولهم زجل بالتلبية، ووغيرٌ بالتسبيح والتقديس والأدعية، فطافت طواف القدوم، وطلعت إلى دارها المكرى المعلوم، ثم إنها طلعت إلى عرفة ولهم دويٌّ بالتسبيح والتقديس، وكانت الوقفة بالخميس، ثم نزلت إلى منى فأقامت ثلاثة أيام، وأكثرت من الهَدْي، وبذلت الشراب والطعام، ثم نفرت إلى مكة وجاءت بعمرة الإسلام، وفي مدة إقامتها بمكة تَنْزِلُ في جنح الظلام، وتطوف بالبيت الحرام، وتكثر من الصدقات على الدوام، وبذلت بغير حَصْرٍ، وأعطت عطاء من لا يخاف الفقر، ولما فُتِحَت الكعبة دخلتها، وأفضلَتْ خدمتها، ومدة إقامتها بمكة المعظمة سارت بسيرة مكرمة، إلى وقت مدة لياليها والأيام وانقضَتْ بسلام، رحلت إلى دار مملكتها والكل إلى صنيعها شاكر، ولها في كل حين ذاكر، فالله يحملها بالسلامة، ويسلمها من الآفات ويجعلها من الناجين يوم القيامة، واعلمي بهذه السيدة أنها كأبائها الكرام إلى المدح ترتاح، دوَّنْتُ لها هذه الأبيات الملاح، وأرجو منها القبول وعن التقصير السماح وهي هذه:

غَنَّى على عود السعود هـزار ... وشدا على الأوتار بالأوطار
والأنس طاب وطابت اوقات الهنا ... بسلامة الحجاج والزوار
لاسيَّما بسلامة (الستّ) التي ... حظيت ببيت الله والأستار
فلها المنى بطيب من قد جاورت ... والأكرمون يرون حَقَّ الجار
فاحت بها أرجاء مكة رغبة ... ومحبة من سائر الأدوار

وهي الحقيقة بالجلالة في الورى | فجلالة الأضياف ليس بعار
والله قد ألقى عليها دائماً | حُسْنَ القبول كسيمة الأخيار
وهي الحليمة والكريمة مالها | في الجود ثانٍ مثل غيثٍ جاري
ولها كمال وافر في عفة | ولها حياء فاق في المقدار
فالله يحملها بحسن رعاية | منه إلى مكناس بالأوطار
ويحفها بسعادة وسيادة | من كل سُوء ماضي أو طاري
وعلى النبي وآله وصحابه | صلى وسلم ذو الجلال الباري
ما غردت وُرْقُ الرياض بِدَوْحِها | وترنمت ببشائر الأسحار

حرر في شهر الحجة سنة ١١٤٣ .

حين عزمت السيدة المباركة حفظها الله على شراء الدار المذكورة اختلف الناس عليها وأكثروا فقال بعض المغاربة المجاورين ممن استند إلى بعض الحكام الجائرين : لا يجوز بيع ديار مكة ولا شراؤها ، وقال آخرون ممن حذر مغبة الأمر ، من ذوي النهي والأمر — : نحن البراء من هذه الدار وشرائها ، فأرسلتْ إليَّ السيدة وقالت لي : إني راغبة في هذه الحسنة ، فإن كان لها وجه في الشرع فلا تحرموني منها ، وأنا قلدتك فقلت لها : هذه المسألة ما فيها بأس ، وجرى عليها قديماً وحديثاً عمل الناس ، وها نحن نكتب لك ما قيل فيها من الفقه إن شاء الله ، فطلبنا بعض كتب المالكية فكتبنا ما نصه : على نقل خليل في « مناسكه » والحطاب في « حاشيته » عليها وغيرهما : فَرْعٌ قال في « البيان » ولا خلاف عن مالك وأصحابه أن مكة افتتحت عنوة ، إلا أنهم اختلفوا : هل مُنَّ على أهلها بها فلم تُقْسَمْ لما عظم الله من حرمتها أو هل ... المسلمين ؟ وعلى هذا جاء الاختلاف في جواز كراء بيوتها ، فروي عن مالك فيه ثلاث روايات الأولى المنع والثانية الإباحة والثالثة كراهة كرائها في أيام الموسم خاصة ، قال الحطاب : قوله قال في « البيان » الخ ، قال في المقدمات في كتاب الدور والأرضين مثل ما ذكر عنه في « البيان » إلى قوله جاء الاختلاف في جواز كراء بيوتها ثم قال في المقدمات : فالظاهر من مذهب ابن القاسم في « المدونة » إجازة ذالك والظاهر من قول مالك في سماع ابن القاسم من كتاب الحج

منع ذالك[٤] ... الداودي عنه كره كراءها في أيام الموسم . وقال اللخمي : اختلف قوله في كراء دور مكة وبيعها فمنع من ذالك مرة ، وحكى أبو جعفر الأبهري عنه أنه كره بيعها وكراءها فإن بيعت أو اكتريت لم يفسخ ذالك فيتحصل في ذالك أربع روايات الجواز والمنع والكراهة وكراهة كرائها في أيام الموسم خاصة . وما ذكره المصنف عن « البيان » في رسم : حلف أن لا يبيع سلعة من سماع ابن القاسم من كتاب الحج .

وقال القاضي عياض وتقي الدين الفاسي : والقول بمنع ذالك فيه نظر ، لأن غير واحد من علماء الصحابة وخلفائهم عملوا خلافه في أوقات مختلفة ثم ذكر وقائع من ذالك عن عمر وعثمان وابن الزبير ومعاوية رضي الله عنهم. انتهى . وعلى القول بجواز البيع والكراء ، اقتصر ابن الحاج فإنه قال في منسكه : اختلف أهل العلم في كراء بيوت مكة وبيعها فذكر الخلاف بين العلماء ثم قال : وأباحتْ طائفة من أهل العلم بيع رِباع مكة وكراء منازلها منهم طاووس وعَمْرو بن دينار ، وهو قول مالك والشافعي ، ثم ذكر حجج كل قول ، وقال : والدليل على صحة قول مالك ومن قال بقوله قول الله عزوجل ﴿ الذين أُخْرِجوا من ديارهم وأموالهم ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل داره فهو آمن » فأثبت لأبي سفيان ملك داره ، وأثبت لهم أملاكهم على دورهم . وقال عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع : « هَلْ ترك لنا عَقيلٌ منزلاً » يدل على أنها ملك لأربابها وأن عمر ابتاع دار الشحر (؟) بأربعة آلاف درهم ، وأن دور أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بأيدي أعقابهم ، منهم أبو بكر الصديق ، والزبير ابن العوام ، وحكيم بن حزام ، وعمرو بن العاص وغيرهم وقد بِيعَ بعضُها وتُصُدِّقَ ببعضها ، ولم يكونوا يفعلون ذالك إلا في أملاكهم ، وهم أعلم بالله وبرسوله ممن بعدهم ، وتُأُوِّلَ قوله :﴿سواء العاكف فيه والبادي﴾بالبيت خاصة ، قال في « الذخيرة » ومقتضى هذه المباحث والنقول يعني من أنَّ أرض العنوة لا تُملك أنه يحرم كراء دُور مِصْرَ وأراضيها ، لأنَّ مالكاً صرح في الكتاب وغيره بأنها فُتِحتْ عنوةً ، وتلزم على ذالك تخطية القضاة في إثبات الأملاك ، وعقود الإجارات ،

غير أن أرض العنوة اختلف العلماء فيها هل تصير وقفاً بمجرد الاستيلاء أو للإمام قسمها كسائر الغنائم وهو مخير في ذالك ؟ والقاعدة المتفق عليها أن مسائل الخلاف إذا اتصل ببعض أقوالها قضاء حاكم تعين ذالك القول ، وارتفع فإذا قضى حاكم بثبوت أرض العنوة ثبت الملك ، وارتفع الخلاف ، وتعين ما حكم به الحاكم ، فهذا التقرير يطّرِدُ في مصر ومكة وغيرهما ونحوه في الثالث والمائتين (؟) وزاد بالقول بأن الدور وقف إنما يتناول الدور التي صادفها الفتح ، أما إذا تهدمت تلك الأبنية وبنى أهل الإسلام دوراً غير دور الكفار فهذه الدور لا تكون وقفاً إجماعاً ومحيت . قال مالك : لا تُكْرَى دور مكة لعل مالكاً يريد ما كان في زمانه باقياً من دور الكفار التي صادفها الفتح ، واليوم قد ذَهَبَتْ تلك الأبنية ، نعم يختص ذالك بالملك والشفعة في الأرضين فإنها باقية أبداً . انتهى . وقبله ابن الشاط ، وهذا القدر من النقل كاف في المسألة إن شاء الله وبه يندفع اعتراض المجاور الجائر وإلقاء كلامه وراء ، ونبذه بالعراء ، وهبْ أنّ المسألة ذاتُ خلاف فمن أتى شيئاً مختلفاً فيه لا ينكر عليه إلا أن يكون المدرك ضعيفاً كما قاله الإمام المواقُ في « سنن المهتدين » وغيره فإن من شرط المنكر أن يكون متفقاً على إنكاره ، أما المختلف فيه فلا حسبة فيه ، ولا ينبغي الآمر بالمعروف أن يحمل الناس على مختاره واجتهاده ، على أن المسألة والحمد لله تناولها النصوص على مذهب مالك رضي الله عنه وعلى الخصوص إذ حكم لنا الحاكم قاضي مكة الحنفي بصحة البيع والشراء ونفوذهما ، وحسبك أن حكم الحاكم إذا اتصل بقول من الأقوال في مسائل الخلاف يرفع الخلاف ويلزم المصير إليه كما تقدم في القاعدة المتفق عليها ، ومن قلد عالماً لقي الله سالماً . وحين كتبنا هذه النقول وأنهيناها للسيدة المذكورة — أعزها الله — وعرفت مضمنها ومعناها تلقتها بالرضا ، والقبول ، وأجمعت الشراء في الدار المذكورة والتحبيس ، ونبذت ما جاء به المجاور وغيره من التدليس .

(للحديث صلة)

الحواشي :

(١) رحلة ابن جبير طبعة دار ومكتبة الهلال في بيروت ١٩٨١ ص ٩٨ وما بعدها وما هنا مختصر منها .

(٢) هذا الحديث لم أر له ذكراً في كتب الحديث المعتبرة .

(٣) يقصد عبدالله العياشي صاحب الرحلة المشهورة « ماء الموائد » .

(٤) كذا ، وكتب في الهامش بياض في الأصل .

— ٨ —

كاظمة

— على وزن فاعلة من الكظم — : من المواضع المشهورة ، الواقعة شمال مدينة الكويت ، تُقْطَعُ المسافة من الكويت إليها في ساعة ونصف بسير السيارة المتوسط ، وهي رأسٌ ممتدٌ في الخليج فيه فُرْضَةٌ صغيرة للسفن وأكواخ للصيادين[١] .

وقد ألف الأستاذ الدكتور يعقوب الغُنَيم — وزير المعارف في الكويت — رسالة عن هذا الموضع ، نشرتْ منذ ربع قرن (سنة ١٩٥٨م) .

وأكتفي هنا بإيراد بعض ما ورد عن العلماء المتقدمين عن هذا الموضع ، لأنه داخِلٌ في مُسَمَّى البحرين قديماً .

ويبدو للباحث من تلك النصوص أن كاظمة كانت أشهر المواضع المعمورة قديماً في ساحل الكويت ، فقد كان الساحل يضاف إليها ، وكان فيها حصن ومنازل للتجار ، وكانت من الموانئ التي يَعْبُرُ منها العرب في العهد الجاهلي إلى بلاد فارس ، كما ذكر ابن جرير وغيره[٢] ونص كلامه : كانت بلادُ العرب أدنى البلاد إلى فارس ، وكانوا من أحوج الأمم إلى تناول شيء من معايشهم وبلادهم ، فسار جمع عظيم منهم في البحر من ناحية بلاد عبد القيس والبحرين وكاظمة حتى أناخوا على أبَرْشَهْر ، وسواحل أرْدَشير خُرَّه ، وأسياف فارس ، وغلبوا أهلها على مواشيهم وحروثهم ومعايشهم — ثم ذكر غَزْوَ سابور ذي الأكتاف لبلاد العرب . وفي السنة الثانية عشرة من الهجرة ، حدثت في كاظمة وقعة بين جيوش المسلمين بقيادة خالد

ابن الوليد ، وبين الفرس بقيادة هُرْمز ، انتصر فيها المسلمون ، وقتل خالدٌ قائدَ الفرس .

قال في كتاب « بلاد العرب[٣] » :

ثم تجوز إلى موضع يقال له المخارم ، حتى تهبط كاظمة وفيها يقول الراجز :

قُلْ لِجِمَالِ مُحْرِزِ بْنِ ذَرِّ ... لَا نَوْمَ فِي اللَّيْلَةِ فَاسْبَطِرِّي
أَوْ تَرِدِي ثَنِيَّةَ الْمجَرِّ ... الجَوَّ مِنْ كَاظِمَةَ الْمُغْبَرِّ
وأَهْلَ ماءٍ خُلِقُوا لِلشَّرِّ ... مُجَاوِرِي الْبَحْرِ بِهَا الْمُخْضَرِّ

وكاظمة على ساحل البحر ، وبها حصنٌ فيه سلاح ، قد أُعِدَّ للعدو ، وبها تُجَّارٌ ودُور مبنية ، وعامتهم تميم ، وثنيّةُ المجَرِّ هي التي تهبط منها على كاظمة . وهي تسمى خرما كاظمة[٤] .

ثم تَنْصَلُ من كاظمةَ فتُسْند في النَّجَفَة .

وعدَّ الهمدانيُّ كاظمةَ من شطوط بحر العرب ، مثل سفوان[٥] .

ومعروف أن سفوان ليس على ساحل البحر الأحمر . وقال في وصف ذالك البحر[٦] : وامتدَّ إلى عَبَّادان ، وأخذ البحر من ذالك الموضع مُغَرِّباً مُطيفاً ببلاد العرب ، منعطفاً عليها فأتى منها على سَفَوان وكاظمة ، ونفذ إلى القطيف وهَجَر ، وأسياف عُمَان والشِّحْر . انتهى .

والهمداني نقل هذا الكلام ، وهو في كتاب « معجم ما استعجم[٧] » منسوب إلى محمد بن فضالة برواية أبي اسحاق الحربي عن عبدالله بن شبيب ، عن الزبير قال حدثني محمد بن فضالة ، وهو في كتاب « المناسك » للحربي[٨] .

وعَرَّفَ البكريُّ في «معجم ما استعجم[٩]» أنه ساحل ما بين عُمَان إلى البصرة ، ومن كاظمة إلى الشِّحْر .

ونقل عن أبي مُجيب الرَّبَعيِّ وعن الأصمعي[١٠] : يخرج من البصرة على طريق المنكدر لمن أراد مكة ، فيسير إلى كاظمة ثلاثا ثم إلى الدَّوِّ ثلاثا ، ثم إلى الصَّمَّان ثلاثا ، ثم إلى الدهناء ثلاثا .

وذكر أنَّ شروان حفر الخندق من هيت حتى يأتي كاظمة مما يلي البصرة وينفذ إلى البحر[١١] .

وفي رسم كاظمة نقل عن يعقوب[١٢] : وماء كاظمة ملح يصلح عليه الحديد . وعدَّ كاظمة من مياه بني شيبان . وقال : روى الطبريُّ عن رجاله ، عن أبي عَمْرو الشيباني المحدِّث – واسمه سعد بن إياس – قال : أذكر أني سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنِّي أرعى إبلاً لأهلي بكاظمة .

وقال الأزهري في كتاب « التهذيب » [١٣] : كاظمة جَوٌّ على سِيْفِ البحر ، في طريق البحرين من البصرة ، بينها وبين البصرة مرحلتان ، وفيها ركايا كثيرة ، وماؤها شروب ، وأنشدني أعرابيٌّ من بني كُلَيب بن يربوع :

ضَمِنْتُ لَكُنَّ أنْ تَهْجُرْنَ نَجْداً وأنْ تَحْلُلْنَ كاظِمَةَ البُحُورِ

انتهى . وهذا البيت أورده الهمداني في « صفة جزيرة العرب »[١٤] بهذا النص : ثم مَعْقُلاَ طويلعٍ ، وهو عن يمين سنام ، ثم كاظمة البحور ساحل ، وفيه يقول فروة الأسديُّ :

عَدَتْهُنَّ الْمَخَاوِفُ عن سَنِيحٍ وعن رَمْلِ النِّقَارِ فَهُنَّ زُوْرُ
ضَمِنْتُ لَهُنَّ أنْ يَهْجُرْنَ نَجْداً وأنْ يَحْلُلْنَ كاظِمَةَ الْبُحُورِ

وقال الأزهري[١٥] أيضاً قال شِمْرٌ : قال أبوعدنان : سألت أبا عُبيدة عن الماء العد فقال لي : الماء العد بلغة تميم الكثير ، قال وهو بلغة بكر بن وائل : الماء القليل، قال: بنو تميم يقولون : الماء العِدُّ مثل كاظمة جاهلي إسلامي ، لم ينزح قط .

وفي « معجم البلدان » : الكظم إمساك الفم ، والكاظم المطرق ، لا يُجيرُ من الإبل ، قال :

فَهُنَّ كُظُومٌ ما يَفِضْنَ بِجِرَّةٍ لَهُنَّ بِمُسْبَيْضٍ اللُّغَامِ صَرِيفُ

– ثم أورد كلام الأزهري ، وزاد فيه : وماؤها شَرُوب واستسقاؤها ظاهر ، وقد أكثر الشعراء من ذكرها فمنه :

يا حَبَّذَا البَرْقُ مِنْ أكْنَافِ كاظِمَةٍ
يَسْعَى عَلَى قَصَرَاتِ المَسْرَخِ والعُشَرِ
لِلّهِ دَرُّ بُيُوتٍ كَانَ يَعْشَقُهَا
قَلْبِي وَيَأْلَفُهَا إذْ طَيَّبَتْ بَصَرِي
فَقَدتُهَا فَقْدَ ظَمْآنٍ أَدَوَاتِهِ
والقَيْظُ يَحْذِفُ وَجْهَ الأرضِ بالشَّرَرِ
أُمْنِيَّةُ النَّفْسِ أنْ تَزْدَارَ ثَانِيَةً
رِحَالَنَا والأَمَانِي حُلْوَةُ الثَّمَرِ

انتهى(١٦) كلام ياقوت .

أما قول الأستاذ أحمد الشرباصي في كتاب « أيام الكويت(١٧) » : ولم يتحدث عنها – يعني كاظمة – ياقوت في معجمه ، فيظهر أنه من قبيل الغفلة .

والقول بأن كاظمة من مياه بني شيبان يخالف ما ذكر صاحب كتاب « بلاد العرب » وهو يذكر مياه بني مالك بن سعد بن زيد مناة بن تميم : منها مُسَلَّحة ، والوفراء ، وكاظمة ، وكانت بنو شيبان وغيرها من قبائل ربيعة منتشرة في شرق الجزيرة ، حتى أزاحتها قبيلة بني تميم عند ظهور الإسلام .

وحدثت بين القبيلتين وقعاتٌ معدودة في أيام العرب ، فاستقرت بنو تميم في هذه البلاد ، ولهذا ورد ذكرُ كاظمة في شعر الفرزدق كثيراً لأنها من منازل قومه ،

وفيها قبر أبيه غالب ، وحين هرب من زياد سنة خمسين التجأ إلى امرأة من بني بكر ابن وائل ، كانت تنزل في قصيمة كاظمة ، فلما لحق به الطلب سلّته من كسر البيت فنجا ، ولم يقدر عليه(١٨) .

ومن لطيف شعر الدكتور عبد الوهاب عزام ، — رحمه الله — لما زار كاظمة في شهر ربيع الثاني سنة ١٣٧٢ (١٩ يناير ١٩٥٢) .

بِكاظمةَ طوّفتُ في ميْعةِ الضحى ... وقلبي إلى الماضينَ جمٌّ التشوّقِ
أكادُ أرى في رملِها قبرَ غالبٍ ... وأسمعُ في الآفاقِ شعرَ الفرزدقِ

ومن شعر الفرزدق :

وناجيةُ الخيرِ والأقرعانِ ... وقبرٌ بكاظمةِ المورِدِ

وقوله :

وما علِمَ الأقوامُ مثلَ أسيرِنا ... أسيرًا ، ولا أجدافِنا بالكواظمِ

وقوله : في يوم كاظمة(١٩) :

لقدْ رجعتْ شيبانُ وهي أذلَّةٌ
خزايا فقاظتْ في الوثاقِ وفي الأزلِ
وكانَ لها ماءُ الكواظمِ غرةٌ
وحربَ تميمٍ ذاتَ خبلٍ منَ الخبلِ
فما رمتُمُ حتّى لقيتُم حِمامكُم
وآبَ ملوكُكُم فرارًا منَ القتلِ

وقوله :

ويا ليتَ زوراءَ المدينةِ أصبحتْ ... بأحفارِ فلجٍ أوْ بسيفِ الكواظمِ

وقوله :

رعاءُ الشاءِ زيدُ مناةَ كانوا ... بكاظمةِ العراقِ بني لكاعا

وورد اسم كاظمة كثيراً في أشعار المتأخرين . وقدتَرِدُ بلفظ الجمع كما في قول الفرزدق المتقدم ، وقال ابن رُمَيْلَةَ :

لَوْ كُنْتَ ذَا لَوْثٍ من العِيرِ لم تَعُدْ
بقَيْسٍ ، ولم تَحْلُلْ بِسِيفِ الكواظِمِ[٢٠]

الْكُتَيِّبُ

– بضم الكاف وفتح التاء المثناة الفوقية ، وكسر المثناة التحتية وآخره باء – : هو الاسم القديم لقرية المركز الواقعة جنوب الرُّميلة ، وكانت القرية مَحَلاَّت أربع إحداها : المركز وقد درست تلك المحلات ، ولم يبق سوى محلة المركز . وكانت في منتصف القرن الماضي عامرة .

قال مقبل الذكير : الكتيب قرية صغيرة ، تبعد عن الهفوف شرقاً ساعتين أو أقل ، وسكانها يقدرون بـ ٤٠٠ أو ٣٠٠ نسمة ونخيلها قليلة ، وأرضها ليست بالجيدة ، وماؤها قليل . وحاصلاتها من التمر أربع مئة وخمسون منا ومن الحنطة سبع مئة وثلاثون قياسة ، وليس فيها مزارع أرز لقلة المياه وفيها بيت مال يبلغ ضمانه ثلاث مئة وعشرة أمنان ، يقطع عليهم بنازل ريالين عن السعر لرداءة التمر . وبساتين أهلها خمسة وسبعون ، ومزارع الحنطة ستة عشر – انتهى .

الكثيب

ذكر ابنُ الفقيه الْهَمَذَاني أن الكثيب الأكبر والكثيب الأصغر من قُرى بني محارب من عبد القيس في البحرين . وكذا في « معجم البلدان » وفيه : (وموضعان هناك) وقد أورد الاسم بالتاء (كتيب) ثم أعاده بالثاء المثلثة ، مما يدل على شكه في ضبطه . وورد هذا الاسم في « التكملة » للصغاني – بالثاء المثلثة[٢١] . ولا أستبعد أن يكون هو الموضع المعروف الآن بالكتيب فالعامة كثيراً ما ينطقون الثَّاء تاء ، ويُستأنس لهذا بأن ابن الفقيه الهمذاني عدَّ الكثيب والطربال من قرى بني محارب ،

مما يفهم منه وقوع القريتين في جهة واحدة ، والكثيب والطريبيل كذالك فهما من قرى الهفوف ، واقعتان في الجنوب الشرقي منه .

كُحَيْلِيلَةُ

– بضم الكاف بعدها حاء مهملة مفتوحة فياءان ساكنتان بينهما لام مفتوحة ، وآخره لام فهاء – : خبراء من خَبَاري الصُّلْبِ ، تقع شرق الشُّمْلُول ، جنوب خبراء أم المِصْرَّان ، بقربها .

الكُدَدُ

– بضم أوله وفتح ثانيه ، في « معجم البلدان » : موضع قرب أُوارة ، على مسافة أيام من البصرة . وكذا في كتابي نَصْرٍ والحازمي ، مع وصف الأيام بأنها يسيرة .

الْكِدَنُ

– بكسر الكاف وفتح الدال المهملة وقد تسكن وآخره نون – : صحراء واسعة منخفضة واقعة في الربع الخالي الشمال الشرقي .

يحفُّ بها شمالاً البطين وسهول الظفرة ، وجنوباً العروق المعترضة ، (في الربع الخالي) وهي ممتدة شرقاً .

ويحدها غرباً المحراض والعروق المهلكة (في الربع الخالي) .

وجاء في الكتاب المتعلق بقضية البريمي ما نصه[٢٢] : إلى جنوب البطين تقع الكدن ، وهي أبعد مناطق الظفرة إلى الجنوب . ونِقْيَانُ الكدن لا تبلغ نفس الارتفاع الذي تبلغه نقيان البطين ، مع أنها ترتفع إلى عُلُوٍّ يذكر ، وفي الكدن مراع خصبة تنمو بعد هطول المطر ، كما أن فيها موارد مياه هامة وتشكل القريني وهي مورد مياه جاء اسمها من نقا عال يقع في جواره ، نقطة تحول على خط الحدود الذي تطالب به أبو ظبي . وتقع القريني في الجزء الجنوبي من الكدن على بعد نحو ٢٢٥ كيلاً من الخليج .

كران

جزيرة تقع في الشمال الغربي من جزيرة (أبو علي) في وسط البحر ، بمحاذاة رأس السفانية شرقه ، وبقربها جزيرة صغيرة تدعى كربن .

الكُرْسُوع

– بضم الكاف بعدها راء ساكنة فسين مهملة مضمومة فواو ، فعين مهملة – : من مياه قبيلة آل مُرَّة ، بمنطقة الدكاكة ، في الربع الخالي .

كَسْكُوس

– تقع جزيرة كسكوس شرق ميناء الدمام غير بعيدة ، غربي فَشْتِ الجارم ، ورد ذكرها في شعر ابن المقرب ، وقد ذكرت في رسم (جزيرة) .

الكَعْبَةُ

على اسم الكعبة شرفها الله – : موضع بالقرب من بلدة سيهات ، بينها وبين قرية الجش الواقعة إلى الشمال الغربي منها . يقال : إنه المكان الذي بنى فيه أبو طاهر القرمطي بناءً وضع فيه الحجر الأسود ، حين نقله من الكعبة سنة سبع عشرة وثلاث مئة من الهجرة .

ولم أر – فيما اطلعت عليه من الكتب ما يؤيد هذا ، وما أراه اختار لذالك سوى قاعدة ملكه وكانت الأحساء .

ويطلق اسم الكعبة أيضاً على عين تسقي الجش وسيهات .

ومن أهل تلك الجهة من ينطق الاسم بالجيم (الجعبة) .

كَفْرِيَّةُ

– بفتح الكاف وإسكان الفاء وكسر الراء بعدها مثناة تحتية مفتوحة مشددة

فهاء — : ماء يقع غرب جبل الخرسانية ، بينه وبين جبل الفيضة . شمال ميناء الجبيل (عينين قديماً) .

الكُفْلَةُ

— بضم الكاف وإسكان الفاء وفتح اللام وآخره هاء — : ماء يقع شرق القصباء ، شرقي رمل عرق الكفلة ، شرق عروق الدِّحِي ، وشمال رملة السحمة في الربع الخالي .

الكِلاَبِيَّة

— بكسر الكاف وفتح اللام وكسر الموحدة وتشديد المثناة التحتية مشددة بعدها هاء : قرية مشهورة من قرى المُبَرّز .

وتقع قرية الكلابية شرق مدينة المبرز بمسافة تبلغ مسيرة ساعة ونصف على الدواب . وتقع في فضاء من الأرض ، تحفُّ بها الرمال من جميع جهاتها ، بحيث تراكمت على كثير من الأبنية القديمة منها فغمرتها .

وتقع غرب جواثا بميل نحو الجنوب بنحو مسيرة ساعة مشياً على القدم وهي أقرب القرى المعمورة إلى موقع جواثا .

قال في « تاريخ الأحساء[٢٣] » : ومن سكانها آل زُرَيْق ، ينتمون إلى بني نَهد ابن زيد من قضاعة . انتهى .

وجاء في « دليل الخليج » : في ذكر قرى الأحساء : الكلابية : تقع على مسافة ميل شمال غربي الحليلة .

قرية بها مئتان وخمسون منزلاً حيث أن ثلثي السكان سنة والباقي شيعة ، وبعض من بني خالد سنة والمذكورون منحدرون من المقدام . تقع على الحدود الزراعية بالامتداد الشمالي لحدودها .

كِلاَخُ

— ينطق بكسر الكاف وفتح اللام بعدها ألف فخاء معجمة — : ماء يقع في

السنام ، في الشمال الغربي منه ، في الربع الخالي شمال الدُّويرس ، وجنوب هرة .

كَلَــح

قال الأزهري في « التهذيب[٢٤] » : وفي بيضاء بني جذيمة ماء يقال له كلح ، وهو شروب عليه نخل بعل ، قد رسخت عروقه في الماء . انتهى .

وبيضاء بني جذيمة تعرف الآن باسم البياض ، وقد تقدم تحديد موقعها .

الكُمْعَةُ

جَوٌّ فيه سِدْرٌ في أعلى وادي الْفَأْوِ الجنوبي ، غرب اللّصافة من جِواء الصَّمَّانِ . وبعضهم ينطق الاسم بالقاف (القمعة) .

كَنْزَانُ

بكاف مفتوحة ونون ساكنة بعدها زاي مفتوحة فألف — : موضع يقع شرق شمال الأحساء .

ويقع كنزان في الشمال الشرقي من موقع جواثا ، البلدة القديمة ، وهو آكام ممتدة (جال) يشاهد من جبل القارة وما حوله ، وقدر المسافة صاحب كتاب « دليل الخليج » بين كنزان وبين الهفوف بعشرة أميال ، وأنه شمال جبل القارة بخمسة أميال . وذكر أن في كنزان بئراً فيها ماء ، وأن للبدو في ذالك الموضع مُخَيَّماً — أي أنه من الأمكنة التي اعتاد البدو نزولها وقت الصيف .

وشُهِر كنزان بالوقعة التي حدثت فيه بين الملك عبد العزيز آل سعود وبين قبيلة العجمان سنة ١٣٣٣ (١٩١٥م) وملخص الوقعة على ما جاء في كتاب « نجد الحديث وملحقاته » للريحاني[٢٥] أن الملك عبدالعزيز في صيف ذالك العام قدم الأحساء بفرقة صغيرة وحشد جيشاً من أهل الحساء ، وزحف بهم مُتَقَفِّياً أثر العجمان ، وكانوا عندما علموا بقدومه رحلوا تجاه قطر . وقد كان الحر شديداً فأَسْرَوْا فوصلوا مكاناً يسمى كنزان . كان العدو معسكراً فيه ، وكانت أشجار النخيل في الليل تبدو كأنها بيوت من الشعر . فشرعوا يطلقون عليها الرصاص ، وسكت العجمان وراء النخيل حتى أنفد المهاجمون ذخيرتهم على الأشجار ، ثم

خرجوا من مكامنهم فتلاحموا طيلة الليل في عِراكٍ ، وكانت الفوضى سيدة الظلام ، جُرح عبد العزيز ، وقتل أخوه سعد ، ودارت الدائرة على رجاله ، فعادوا منهزمين إلى الحساء ، فتقفاهم العجمان ، ونزلوا قرب الهفوف فحاصروها ثلاثة أشهر . انتهى .

كَنْهَرَةُ

قال الأزهري في « التهذيب »[٢٦] : وكنهرة موضع بالدهناء ، بين حَبْلَيْن ، فيها قِلاَت تملأها السماء .

والكَنَهْوَرُ منه أخذ . انتهى .

ومثل هذا في كتاب « التكملة »[٢٧] إلا أن فيهما : بين جبلين — والدهناء رمال لا جبال فيها — وفيها حبال رمل . ولم أسمع لهذا الموضع ذكراً . ولكنني لا أستبعد أن طريق الكُنْهُري ذو صلة به ، فهو طريق يخترق الدهناء ، ممتدًّا من ميناء الجبيل (عينين قديماً) مارًّا بِعُيَيْنَةِ كنهل ، والعامة يبدلون اللام راء (كنهر) وهذه غير التي ذكر الأزهري ، ويمر بِمَعْقُلَة ، ثم يقطع الدهناء حتى منهل رُماح ، الذي أصبح الآن بلدة . ليس من المستبعد أن يكون هذا الطريق أثناء اجتيازه الدهناء يمر بكنهرة التي ذكر الأزهريُّ أنها فيها . وكنت قبل اطّلاعي على نصِّ الأزهري ذكرت في الكلام على (درب الكنهري) : كأنه منسوب إلى كِنهر ، وهي عين كِنهل المعروفة التي يمر بها وقد يكون هذا صحيحاً .

وفي « تاج العروس » : الكنهور من السحاب قطع كالجبال ، أو المتراكم ، والضخم من الرجال ، والناقة العظيمة . وقال أبو عمرو : كنهرة — كمرحلة — موضع بالدهناء ، بين جبلين فيها قِلاَت يملأها ماء السماء . والكنهور منه أُخِذَ . انتهى ملخصاً .

٢٠٩ — بابُ : جِمَارٍ ، وجَمَّارٍ ، وحِمَارٍ وحَمَّارٍ : وخَمَار (١)

أمَّا الأوَّلُ — بِكَسْرِ الجِيمِ وتَخْفِيفِ المِيمِ — : الجِمَارُ الثَّلاثُ بِمِنًى (٢) .

وأمَّا الثَّانِي — بَعْدَ الجِيمِ المَفْتُوحَةِ مِيمٌ مُشَدَّدَةٌ وآخِرُهُ زاي — : بَلَدٌ بَحْرِيٌّ فِي جَزِيرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ اليَمَنِ (٣) .

الحواشي :

(١) « أيام الكويت » للشيخ أحمد الشرباصي — ٤٧٥ .
(٢) « تاريخ الأمم والملوك » : ٢/٥٥ .
(٣) ص ٣٢٠/٣٢١ .
(٤) وذكر البكري في « معجم ما استعجم » أن خرم بفتح الراء مشددة — موضع في كاظمة .
(٥) : ٢٦٨ .
(٦) : ٥٧ .
(٧) ٧ — الطبعة الثانية .
(٨) : ٥٠٣ .
(٩) : ٥٣٢ .
(١٠) رسم الصمان وكاظمة .
(١١) رسم عانات .
(١٢) لعله ابن السكيت .
(١٣) : ١/١٦١ .
(١٤) : ٢٨٠ .
(١٥) « تهذيب اللغة » : ١/٨٨ .
(١٦) — ص ٤٧٥ — .
(١٧) : ٣٥٠ .
(١٨) « تاريخ الأمم والملوك » : ٥/٢٤٥ .
(١٩) شرح ديوان الفرزدق — ص ٦٩٢ .
(٢٠) كتاب «الجيم» : ٣/١٩٦ — واللوث — العر .
(٢١) : ١/٢٥٣ .
(٢٢) « عرض حكومة المملكة العربية السعودية » : ١/٢٥ .
(٢٣) : ١/٤٥ .
(٢٤) : ٤/١٠٢ .
(٢٥) : ٢٢٥ — الطبعة الثانية .
(٢٦) : ٦/٥٠٨ .
(٢٧) : ٣/١٩٢ .

وأمَّا الثَّالِثُ – أوَّلُهُ حَاءٌ مُهْمَلَةٌ مَكْسُورَةٌ بَعْدَهَا مِيمٌ مُخَفَّفَةٌ –: وَادٍ بِالْيَمَنِ [٤] .

وأمَّا الرَّابِعُ – بِفَتْحِ الحاءِ وتَشْدِيدِ المِيمِ – : مَوْضِعٌ بِالْجَزِيرَةِ [٥] .

وأمَّا الخامِسُ – أوَّلُهُ خَاءٌ مَفْتُوحَةٌ ثُمَّ مِيمٌ مُخَفَّفَةٌ – : مَوْضِعٌ بِتِهَامَةَ ، قال حُمَيْدُ بْنُ ثَوْرٍ :

وَقَدْ قَالَتَا : هَذَا حُمَيْدٌ وأنْ يُرَى
بِعَلْيَاءَ أَوْ ذَاتِ الْخَمَارِ عَجِيبُ

٢١٠ – بَابُ جَمَاجِمَ ، وجُمَاجِمَ [٦]

أمَّا الأوَّلُ – بفتح الجِيمِ : – دَيْرُ الْجَمَاجِمِ فِي سَوَادِ الْعِرَاقِ ، حَيْثُ كَانَتِ الْوَقْعَةُ الْعَظِيمَةُ بَيْنَ الْحَجَّاجِ وَابْنِ الأشْعَثِ ، وقُتِلَ فِيهَا خَلْقٌ مِنَ التَّابِعِينَ ، وَقِيلَ لِذَلِكَ سُمِّيَ الْمَوْضِعُ الْجَمَاجِمَ ، وَقِيلَ : بَلْ سُمِّيَ بِهِ لأنَّهُ كَانَتْ تُعْمَلُ فِيهِ الأقْدَاحُ ، والْجُمْجُمَةُ الْقَدَحُ [٧] .

وَأمَّا الثَّانِي – بِضَمِّ الجِيمِ – : ذُوْ جُمَاجِمَ مِنْ مِيَاهِ الْعُمَقِ . عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ مِنْهُ ، وَقَدْ يُقَالُ فِيهِ بِالْفَتْحِ أيْضًا [٨] .

الحواشي :

(١) في كتاب نصر في باب الخاء المعجمة : (باب خَشَّان . وجُمَان ، وخِمَار ، وحِمَار ، وحَشَار ، وجَمَاز ، والجِمَار) .

(٢) هو تعريف نَصْرٍ . وقال ياقوت في « معجم البلدان » : جِمَارُ – بالكسر – جمعُ جمرة وهي الحصاة ، اسم موضع بمنى ، وهو موضع الجَمَرات الثلاث ، قال ابن الكلبي : سُمِّيَتْ بذلك حيث رَمَى ابراهيمُ الخليل عليه السلام – إبْلِيسَ ، فجعل يَجْمُرُ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ – أيْ يَثِبُ – وكان ابنُ الكلبي يُنْشِدُ هذا البيتَ :

وإذا حَرَّكْتَ غَرْزِي أجْمَرَتْ

وعجز هذا : أَوْ قِرَابِيّ عَدْوَ جَوْنٍ قد أَبَلّ

من شعر لَبِيْد . وفي « تاج العروس » : والجمرة الحصاة ، واحدة الجمار ، وفي « التوشيح » : والعرب تُسَمّي صغارَ الحصا جمارًا ، والجمرة واحدة جمرات المناسك ، وجِمارُ المناسك وجمراتُها الحصيات التي يُرْمَى بها في مكة (كذا والصواب : في منى) والتجمير رَمْيُ الجِمار ، وموضع الجمار بمنى ، سمّي جمرةً لأنها ترمى بالجمار ، وقيل : لأنها مجمع الحصا التي يُرْمَى بها ، من الجمرة وهي اجتماع القبيلة على مَنْ ناوأها ، وهي جمرات ثلاث : الجمرة الأولى ، والجمرة الوسطى ، وجمرة العَقَبَة ، يُرْمَيْنَ بالجمار ، وهي الحصياتُ الصغار . انتهى . والجمرات هذه معروفة ، في أسفل مِنًى مما يلي مكة ، ولعل القول بأنهن سُمّيْنَ جمرات لأنهن يرمين بالجِمار ، وهي الحصا الصغار — أعدل الأقوال الثلاثة .

(٣) قال نصر : جَمّاز — بفتح وتشديد الجيم وآخره زاي معجمة — : بلد بحريٌ في جزيرة تُواجِهُ اليمن ، قريبة منه . انتهى ولم يزد ياقوت على كلام الحازمي إلا بإيضاح المعنى اللغوي للكلمة : الكثير الجمز أي الوثب . ولم أرَ الهمداني في كتاب « صفة جزيرة العرب » وهو اليمني المعنيُّ بذكر مواضع بلاده ذكر هذا الموضع ، الذي أراه في إحدى جزائر البحر الأحمر — وإنّما ذكر موضعاً في نَجْد ، في إقليم سُدَيْر (الفَقْي) قائلاً : — ص ٢٨٥ طبعة دار اليمامة — : ثم تفترّ من العتك في بطن ذي أُراط ، ثم تسند في عارض الفقي فأول قراه جَمّاز ، وهي ربابية ملكانية عدوية ، من رهط ذي الرُّمّة ، ثم تمضي في وادي الفقي وهو واد كثير النخل والآبار ، فتلتقي قارة بِلَنْعبر — الخ .

(٤) قال نصر : وادٍ بِعُمان . وفي « معجم البلدان » : حِمار — بلفظ الحمار من الدواب — : وادٍ باليمن . انتهى ولم أر له ذكراً في كتاب « صفة جزيرة العرب » ولا في معجم القاضي الحَجْري عن بلاد اليمن وقبائلها . ولا أستبعدُ الصِّلَةَ بين هذا الاسم وبين اسم جوف حمار ، الذي ذكر ياقوت عنه ما نصه : والجوف اسم وادٍ في أرض عاد ، فيه ماء وشجر ، حماه رجلٌ اسمه حمار بن طويلع ، وفيه المثل : أكفر من حمار ، ووادٍ كجوف الحمار ، وكجوف العير ، وأخرب من جَوْف حمار ، وأخلى من جوف حمار . إلى آخر ما ذكر .

(٥) حَمّار : قال نصر : — بفتح الحاء المهملة وتشديد الميم — : من أرض الجزيرة . ولم يَزِدْ ياقوت على قول الحازمي — بدون نِسْبَةٍ إليه — .

(٦) الخِمارُ : عند نَصْر : بخاء مكسورة وآخره راء — : ذاتُ الخِمار ناحيةٌ تِهاميّةٌ كذا ضبط الاسم وعَرّفَهُ — وفي « معجم البلدان » : خِمار — بكسر أوله وآخره را مهملة — : موضع بتهامة ، ذكره حُمَيد بن ثَوْر — ثم أورد البيتَ بِنَصِّهِ — وأضاف : ويجوز أن يكون من الخَمَر ، وهو ما واراكَ من شجر أو غيره من وادٍ أو جبل . وفي كتاب أبي زياد : ذاتُ الخِمار - بكسر الخاء - وأنشد لحميد بن ثور :

وقائلةٍ : زَوْرٌ مُغَيَّبٌ وأن يُـــرَى   بِحَلْيَـــةَ أَوْ ذاتِ الخِمـــارِ عَجِيبُ

والبيت في « ديوان حميد بن ثور » — ص : ٥١ — على ما ورد عن أبي زياد . وفي « معجم ما استعجم » : ذاتُ الخِمار — على لفظ خمار المرأة — : موضع تلقاء علياء ، قال حُمَيد — وأورد البيت كما أورده الحازميُّ — ولكنه لم يُحَدِّدْ موقع علياء .

ووقع اسم (حميد) في البيت في المخطوطة الأولى من كتاب الحازمي مصحفاً : (حَمِيل) ولكنه ورد صحيحاً في المخطوطة الثانية .

(٧) في كتاب نَعثر بنصّه .

(٨) قال نصر : أما بفتح الجيم — : دَيْرُ الجَمَاجِمِ قُرْبَ الكُوفَة ، حَيْثُ كانت الحَرْبُ العظيمة بين الحَجَّاج وابْنِ الأشعث ، قيل : سُمِّيَ به لأنه كانت تُعمل فيه الأقداحُ ، الجُمْجُمَةُ القَدَح . انتهى .
وفي « معجم البلدان » : الجماجم جمع جمجمة وهو قدح من الخشب ، ودير الجماجم : موضع ذُكر في الدُّبَيْرَة ، قال أبو عبيدة : سُمِّيَ بذلك لأنه كان يعمل به الأقداح من خشب ، والجمجمة البئر تحفر في سبخة ، ويجوز أنَّ الموضع سُمِّيَ بذلك . انتهى . وفي رسم (دير الجماجم) قال : دير الجماجم بظاهر الكوفة ، على سبعة فراسخ منها ، على طرف البَرِّيَّة للسالك البصرة — ثم أورد قول أبي عُبيدة وما بعده ، ثم نقل عن ابن الكلبي أنه سمي بذلك لأن بني عامر لما انتصروا على بني تميم بَنَوْا بجماجمهم هذا الدَّير ، وأضاف : وهذا عندي بعيد من الصواب ، وهو مَقُولٌ على ابن الكلبي وليس يصح عنه فإنه كان أهدى إلى الصواب من غيره في هذا الباب لأن وقعة بني عامر وتميم وذُبْيان كانت بشعب جبلة بأرض نجد ، وليس بالكوفة . ولعل الصواب ما حكاه البلاذري عن ابن الكلبي أن بلالا الرّماح بن مُحرز الإيادي قتل قوماً من الفُرْس ، ونصب رؤوسهم عند الدير فسمي دير الجماجم ، وقرأت في كتاب « أنساب المواضع » لابن الكلبي قال : كان كسرى قد قتل إياداً ونفاهم إلى الشام ، فأقبل ألف فارس منهم حتى نزلوا السواد ، فجاء رجل منهم وأخبر كسرى بخبرهم ، فانفذ إليهم مقدار ألف وأربع مئة فارس ليقتلوهم ، فقال لهم ذالك الرجل الواشي : انزلوا قريباً حتى أعلم الكم علمهم . فرجع إلى قومه وأخبرهم ، فأقبلوا حتى وقعوا بالأساورة فقتلوهم عن آخرهم ، وجعلوا جماجمهم قُبَّةً ، وبلغ كسرى خبرهم ، فخرج في أهليهم يبكون فلما رآهم اغْتَمَّ لهم ، وأمر أن يُبْنَى عليهم دَيْرٌ ، وسُمِّيَ دَيْرَ الجماجم . وقال غيره : إنه وقعت بين إياد وبين بني نَهْد حَرْبٌ في مكانه ، فَقُتِلَ فيها خلق من إياد وقضاعة ، ودفنوا قتلاهُمْ هناك ، فكان الناس إذا حفروا استخرجوا جماجمهم ، فسمِّيَ بذالك ... وعند هذا الموضع كانت الوقعة بين الحجاج بن يوسف وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، التي كُسِر فيها ابن الأشعث ، وقُتِلَ القُرَّاء ، وفي ذالك يقول جرير :

وَلَمْ تَشْهَدِ الجَوْنَيْنِ والشِّعْبَ ذَا الصَّفَا ... وشدّاتِ قَيْسٍ يَوْمَ دَيْرِ الجماجم

والوقعة التي جرت بين الحجاج وبين الأشعث ، جرت سنة ثلاث وثمانين بعد أن خلع عبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي طاعة الخليفة عبد الملك بن مروان ، وقد فصّل خبرها ابن جرير في تاريخه ، وغيره من المؤرخين ، قتل فيها كثير من سادات المسلمين وقرائهم .

وفي شرق الجزيرة موضع يسمى الجَمَاجِم أيضاً ، ذكره الأزهريُّ في كتاب « تهذيب اللغة » ج ١٠/ ٥٢٠ — قال : والجماجم موضع بين الدَّهْنَاء ومتالع ، في ديار بني تميم ، كما ورد في شعر الفرزدق (ذو جماجم) وتحدثت عنه في « المعجم الجغرافي » - قسم المنطقة الشرقية — ٤١٣ — .

(٩) نَصُّ كلام نصر : ذُو جُمَاجِم بالضَّم — : من مياه العُمَقِ ، على يوم منه ، وقيل بالفتح . انتهى . وأورد ياقوت في « معجم البلدان » نَصَّ كلام الحازمي غير منسوب ، بعد أن قال : جماجم — بالضم ، وهو من أبنية التكثير والمبالغة . والعُمَقُ — بضم العين وفتح الميم وآخره قاف — من مناهل طريق الحج الكوفي المشهورة ، لايزال معروفاً ، ويقع في عالية نجد ، في منطقة (مهد الذهب) معدن بني سُلَيْم قديماً . أما الموضع الوارد في شعر الفرزدق فيقع شرق الدهناء . ويظهر أنه هو الذي ذكر الأزهري في كتابه .

مع «المعجم الوسيط» في طبعته الثانية

[كانت «العرب» نشرت في س ١٩ ص ٣٨١ نقداً للدكتور عدنان الخطيب الأمين العام لمجمع اللغة العربية بدمشق – يتعلق بكتاب «المعجم الوسيط» الذي أصدره (مجمع اللغة العربية) في القاهرة ، وفي هذا المقال ما له صلة وثيقة بالموضوع] .

خلط المعجم ما بين «الفَطور» بفتح الفاء وبين «الفُطور» بضمّها فأورد للأولى شرح الثانية وأورد للثانية شرح الأولى فشرح «الفَطور» بفتح الفاء كما يلي : «الفَطور» تناول الصائم طعامه بعد غروب الشمس وتناول الوجبة الأولى في الصباح (مج) وهذا على الأصح مدلول «الفُطور» بضم الفاء فيما يلي : «ما يتناوله الصائم ليفطر عليه ، والطعام يتناول صباحاً (مج)» وهذا ما يدل عليه لفظ «الفَطور» بفتح الفاء لا بضمّها .

وقد تبيّن لنا من شرحه لسائر مفردات مادة «فطر» أن الخطأ مطبعي وذالك أن المعجم أورد لكلمة «الفَطور» مدلولها الصحيح الذي أشرنا إليه آنفاً وذالك ضمن شرحه فعل «أفطر» إذ جاء في ذالك الشرح ما يلي : «وأفطر على الرطب ونحوه جعله فَطُورَهُ» بفتح الفاء . فنرجو أن يتدارك هذا الخطأ المطبعي كذالك مع غيره في الطبعة الثالثة .

فقد جاءت في كلام العرب أسماء ما يؤكل ويشرب من حيث الأوقات على وزن فَعول بفتح الفاء مثل «صبور» فقالوا «الفطور» و «السحور» و «الغبوق» (لما يشرب بالعشيّ) و «الصَّبوح» (لما يشرب في الصباح) . وجرياً على ذالك وضع المرحوم الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب مجلة «الرسالة» وأحد المخرجين للمعجم الوسيط كلمة «العصور» بفتح العين لما يتناول عند العصر وذالك لترجمة الكلمة الفرنسية «Le gouter» وهي لمنة اعتاد الأوروبيون مناولة أولادهم إياها

عند العصر وقد وقفنا عليها في ترجمته قصة « آلام فرتر » للكاتب الألماني جيته عن الفرنسيّة .

أغفل المعجم كلمة « هذا » (اسم الإشارة) فلم يذكرها لا في حرف الهاء ولا في حرف « الذال » وإنما جاء ذكرها بدون شرح على سبيل المثال في حرف الهاء .

شرح « آذار » اسم الشهر السرياني في حرف الألف شرحاً غير صحيح كما يلي :
« آذار الشهر السادس من الشهور السريانية يقابله أبريل (كذا) من الشهور الرومية » .
والصحيح أنه يقابله شهر مارس لا شهر أبريل .

وشرح « نيسان » في حرف النون كما يلي :

« نيسان : الشهر السابع من شهور السنة السريانية ويقابل أبريل وهو الشهر الرابع من شهور السنة الافرنجية وهو أيضاً اسم الشهر السابع من شهور السنة العبرية » .

واكتفى في شرحه اسم الشهر « أيلول » بما يلي : الشهر الثاني عشر « من الشهور السريانية » (اهـ) ولم يقابله بالشهر الأعجمي « سبتمبر » كما فعل في بقية الشهور ثم إنه أغفل اسم الشهر « تموز » فلم يورد ذكره في حرف التاء .

كما أغفل ذكر « شباط » من الشهور السريانية فلم يورده في حرف « الشين » .

ومن مادة « بطر » نقل إلى مادة « بيط » في الترتيب الألفبائي المعجمي المفردات التالية « بيطر » و « تبيطر » و « البيطار » و « البيطر » و « البيطرة » بينما المادة الأصلية لهذه المفردات هي « بطر » وذالك من قولنا « بطر حافر الدابة : شقه » ولم يذكر من أسرة « البيطرة » في مادة « بطر » سوى « البطير : الذي يبيطر الدواب » .

والمجمع في ذالك يخالف المسطرة التي جرى عليها طول سائر معجمه في ترتيب مواده متبعاً في ترتيب هذه المفردات وحدها طريقة معجم « الرائد » الذي يورد المفردات مرتبة حسب حروفها الأولى مهما كانت سواء كانت أصلية أم زائدة .

وشرح كلمة « تلغراف » بكلمة « البرق » وكان الأولى أن يثبت الشرح التالي :

هُذَيل : أوديتها وجبالها وقراها

هي تلك الأودية والشعاب والجبال التي تحيط بمكة المكرمة من جهاتها الأربع ، بعد حدود الحرم ، عدا جهة الغرب مما يلي جدة . وهناك أودية وجبال داخل حدود الحرم من جهة الشمال كانت تُعَدُّ من بلاد لحيان من هذيل ، وبعضها الآن أصبح

« جهاز نقل الرسائل من مكان إلى آخر بعيد بوساطة إشارات خاصة » . وهو الشرح الذي أورده لكلمة « البرق » .

أغفل المعجم في مادة « ثقل » المفردة : « ثِقَل » الواردة في معجم « متن اللغة » بالشرح التالي : « ضدّ الخفّة . والحِمْل الثقيل ج أثقال » على أن « المعجم الوسيط » مع إغفالها في مادة « ثقل » ذكرها في مادة « أطّ » ضمن شرحه لهذه المفردة وذالك عندما قال : « أطّ الظّهر صَوّتَ من ثِقَل الحمل . وأطت الإبل : أنّت من تعب أو ثقل حمل أو جنين » (أهـ) .

وختاماً نرجو من رجال مجمع اللغة العربية بالقاهرة المخرجين للطبعة الثالثة من « المعجم الوسيط » أن يتداركوا فيها هذه الأخطاء والاغفالات وألا يسمحوا بتكرارها مثلما تكررت أخطاء وإغفالات الطبعة الأولى في الطبعة الثانية مع تنبيهنا عليها في صفحات هذه المجلة في الوقت المناسب ، ولهم الشكر من أبناء لغة الضاد على إخراج هذا المعجم الغنيّ بالكلمات المحدثة من مصطلحات علمية وحضارية مما يكاد ينفرد به « المعجم الوسيط » من دون سائر معاجم اللغة العربية وإن ملاحظاتنا وملاحظات غيرنا عليه ما كانت لتنقص من قيمته ولا لتغمض من قدره ولا لتغمطه ما هو حقيق به من اعتبار وتقدير .

إدريس بن الحسن العلمي

عن مجلة « اللسان العربي » (ع ٢٣ ص ١٠١)

من أحياء مكة ، حيث امتدّ إليها العمران مثل وادي العُشَر ، وهو أعالي ما يسمى اليوم شارع الحج ، مما يلي جبل النور (حِراء) وجَليل واد شمال الجبل ، وجبال فخّ وهي جبال سُودٌ شمال غرب جبل النُّور ، ومَصَّابُ هذه الجبال وهو وادي فَخ ويبدأ من جبال فَخّ حتّى يجتمع بوادي الزاهر ، والأحياء المسماة صَايف والبحيرات وتقع شمال مسجد العمرة ، وصايف والبحيرات خارج الحرم وهناك أودية من الحرم كانت قبائل هذيل تنزلها ولكنْ لا تنسب إليهم ولا يحمونها ولا يدفعون فيها الدَّرَكَ .

و (الحِمَى) هو أن تختار القبيلة أحَد أوديتها أوْ شعابها وتمنع رعي المواشي فيه في موسم الأمطار (الربيع) حتّى إذا أجْدَبت الديرة ترعاه مواشيهم وحدهم ، وجميع أفراد القبيلة مكلفون بحمايته .

أما الدَّرَكُ فهو إذا حصلت سرقة في أحد الأودية أو الشعاب أُخِذَ بِأثر السارق حتّى ينقطع أثره ، ثم ينظر لمن الوادي أو الجبل الذي انقطع فيه أثر السارق فتكلف القبيلة التي تملك الموضع بِدَفع قيمة السرقة ، ولو لم يكن السارق منهم .

وهناك رجال من كل قبيلة يَدْرَكُونَ الديار (أي يحرسونها) وخاصة في أيام المواسم وعلى طرق الحج وذالك بأمر حاكم مكة المكرمة وظلّتْ هذه المهمة حتّى أوائل عهد الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله .

ومن هذه الأودية التي كانت قبيلة هذيل تنزلها وليستْ لهم : الحوض (حوض البقر) وهو الآن من أكبر أحياء مكة ويسمى العزيزية . وأم جَنَابِي (أم جَنْبيّة) وهو الشعب الذي يمر به الآن النفق الذي يربط أجياد بالعزيزية ، ويعد من الحوض وكان بأسفل الشعب بئر تسمى (ام سبعة وسبعين) وكانت موردا .

ومَحْبس الجن وهو الشعب الذي على يسار الذاهب من الحوض إلى أجياد مع النفق .

ومَصَافي أجياد وهي أعالي أجياد . وسَدِير (سديرات) وهو وادٍ جنوب أجياد . وخُم وخَمِيسُمْ وهما جبلان قرب أجياد . وجبل ثور المعروف ، والأودية التي حوله ،وضَبَع وهو من شعاب جبل ثور كان به نَجْلٌ ،ماء . وقد امتدّ العمران إلى جميع هذه الأمكنة وأصبحت من أحياء مكة المكرمة ، وربما كانت قديماً من بلاد هذيل أو بعضها . قال ابن حزم في كتابه « جمهرة أنساب العرب » : وديارهم حول مكة ولهم بها عدد وعُدَّة ومنعة وجاء في كتاب « العبر » : وديارهم بالسروات ، وسراتهم متّصلة بجبل غَزْوان المتصل بالطائف . وقال : ولهم مياهٌ وأماكن في جهات نَجْد[111] وتهامة بين مكة والمدينة منها الرجيع .

والرَّجيع هو وادٍ في أسفل مَدركة التي تقع شمال مكة ويصب في هدى الشام ، ويعرف أيضاً بالبنَاية ، ويسكنه الآن (العطيَّات من عُتَيْبَة)، وقد رأيت في هذا الوادي بناءً بأحجار كبيرة جدا غير مألوف البناء بها الآن على طرف الوادي وهذا البناء غير مرتفع وأعتقد أنه كانت خلفه مزرعة ، وربما عُرِف المكان الآن باسم (البناية) لوجود ذالك البناء .

وقد عدّ عرّام بن الأصبغ في كتابه « أسماء جبال تهامة وسكانها » أقساماً من هذيل تسكن ضرعاء ، وهي قرية فيها قصور ومنْبرٌ وحصون ، وأن منهم من كان يسكن في قريتي رهاط والحديبية ومنهم من يسكن مَرّ الظهران وهي قرية في واديها عيون كثيرة ونخيل وجُمَّيْز .

وضرعاء من أكبر جبال الحشاع الواقعة شرق (رَهجان) .

ورهاط قرية شمال مكة شرق مدركة وتراجع مَدركة إدارياً .

والحديبية تعرف اليوم بالشميسي غرب مكة .

ومرُّ الظهران يسمى اليوم وادي فاطمة .

ويقول ابن حوقل : ويغزوان ديار بني سعد وسائر قبائل هذيل .

وذكر ابن خلكان أن هُذَيْلاً قبيلة كبيرة وأن أكثر أهل وادي نخلة المجاور لمكة المكرمة هُذَلِيُّون .

وتمتد بلاد هذيل في الوقت الحاضر من عَيْن شمس شمال غرب مكة البهيتة (البوباة)شمال شرق مكة آخذَةً على بلاد بني مسعود الفوارة وحورة ، ووادي بني عمير (وادي الزبارة) والجعرانة وبلاد لحيان ونَخلة الشامية ، ونخلة اليمانية وسَوْلة ، والمضيق ، ووادي الصدر وسبوحة ، ويدعان شمالاً متَّصلة بجبل كبكب ووادي نعمان ، ووادي رهجان ووادي مِلْكان ، والصافح الغربي لجبل كَرًا ومصابُّ الجبل الغربية ووادي الكُرِّ ، وشدَّاد من جهة الشرق والجنوب الشرقي ، وَضيم وأم الزلّة ، وحَوِيَّة هُذيل إلى حدود يَلملم ميقات أهل اليمن جنوباً ، وفي الجبال المطلة على الطائف ما سال منها في تِهامة ، وتعرف بشفا هُذيل ، ويضمُّ شفا الطلحات وشفا السوالمة ، وشفا آل خالد ، وشفا آل زيد ، ويقع جنوب غرب الطائف وشفا زُلَيْفَةَ شمال غرب الطائف .

وهناك من يشارك هذيلا في بعض المواقع مثل الأشراف الْحُرَّث ، في المضيق ، والأشراف الجوازية في البجيدي ، والأشراف العبادلة وآل زيد في العابدية جنوب عرفة ، وقريش في المغمس ، والقناوية في الزَّيْمة .

وبلاد هذيل أودية وشعاب وجبال شاهقة مترابطة ، وغالباً ما يكون في هذه الجبال فِرَاعٌ – بتخفيف الراء ومفردها فرع – وهي الأرض المستوية في الجبل ، والتي تتفرع بها سيول الجبل وتكون بها قراهم ومزارعهم ومقاري النَّحْل – جمع مِقْرَى – وهو المكان الذي يُرَبَّى فيه النَّحل ، وخاصة في الجبال المطلة على الطائف ، المعروفة بشفا هذيل .

والشفا هو المكان المرتفع (شفا الجبل أي أعلاه) وهي جبال وشعاب مترابطة روعرة ، وبها الفراع ، وينبت بها الشثُّ والسَّذَاب والعرعر والبشام والبكا ، والضَّيمران وغيرها من النباتات التي ترعاها مواشيهم ويجمع النحل من زهورها

العسل ، ويعرف عسل هذه المناطق بالجودة .

وقد تمكنت من تحديد أشهر معالم بلاد هذيل ومعظمها بمساءلة رجال عاشوا فيها ووطئتها أقدامهم ، وذالك بإيعاز من شيخنا حمد الجاسر — حفظه الله — وقد رتبتها حسب حروف المعجم وبالله التوفيق .

(حرف الألف)

١ — أبو خَصَف : جبل كبير في وادي الزبارة (وادي بني عمير) .

٢ — أبو عَصِيدة : جبل يقع جنوب وادي فاطمة يسكنه لحيان من هذيل .

٣ — إحْليل : وادٍ جنوب مكة ، من فروع وادي دُفاق الكبير قرب ضيم ، ويصب في أمّ الزلّة ، ويسكنه آل محمود من هذيل .

٤ — الأحيا : من شعاب وادي الصدر يسكنهُ الحتَارشة من هذيل .

٥ — الأعوص : جبل في شفا الطلحات .

٦ — اسمَار (سمار) : وادٍ جنوب شرق العابدية الواقعة جنوب عَرفة ، ويصب فيها ، وتكنفه من جهة الشرق جبال تسمى الدحال السود ، ويسكنه دَعَنْدُ من هذيل .

٧ — الأشيعر : جبل في وادي سَبُوحَة ، ويتّصل بجبل قرى عصم ، يسكنه الحتارشة من هذيل .

٨ — الأشيب : جبل بين ضيم وملْكَان ، مشترك بين دَعَنْد والنّدويين .

٩ — الاشعر : جبل في ضهياه (ضهياء) البيضاء للحتارشة .

١٠ — اظافِر : جبال بين وادي الزبارة والمضيق .

١١ ــ أظلم : جبل غرب رَهْجان ، ويصبُ فيه ، لِدَعْد ، من هذيل .

١٢ ــ أم الزَّلَّة : وادٍ جنوب مكة مشترك بين القُرَّح والنَّدويين وآل محمود ، وتجتمع فيه سيول وادي دُفَاق وإحْليل وراية والحيا ، ومرس والنفلة وظبية ، ويصب في وادي الريغة .

١٣ ــ أمُّ الجُرْفَيْن : وادٍ يقع شمال مكة في وسط ديرة لحيان وجنوب مجرى وادي فاطمة ، وغرب وادي ثلثان .

١٤ ــ أمُّ المحاوي : وادٍ من روافد وادي ملكان ، ويصب فيه ، يسكنه دَعْد ، من هذيل .

١٥ ــ أم دَوْحَة : وادٍ يقع جنوب شرق وادي اسمار ، وتجتمع مياه هذا الوادي في مكان يسمى المقرح ، تصب في وادي ملكان ، يسكنه دعد من هذيل .

١٦ ــ أم طُخْر : من روافد نخلة الشامية .

١٧ ــ الأُمَيْلح : (حزم الأميلح) : وادٍ كبير شمال شرق مكة ، جنوب وادي الصدر ، ويُعَدُّ منه ، يصب في الشرائع يسكنه الحتارشة من هذيل .

١٨ ــ آنَف (ربع أنف) : جبل قرب جبل كبكب ، ومُتَّصل به ، ويصب في البجيدي .

(حرف الباء)

١ ــ بَام (أبام) : جبل شمال الزَّيْمة .

٢ ــ بَدالَة : وادٍ شمال مكة ، أعلاه لبني مسعود ، وأسفله لبني عمير ، يصب في وادي الزبارة .

٣ ـ بَانة : من شعاب وادي الصدر .

٤ ـ بجَلَة : من شعاب وادي الصدر .

٥ ـ بَطحَان : جبل لِلْقُرَّح من هذيل ، يصب في وادي إحليل .

٦ ـ بَلَم : جبل بين وادي ضِيَم ودُفَاق ، مشترك بين الندويين والقرَّح .

٧ ـ بير الخيام : شعب من شعاب جبل كبكب من جهة الغرب ، وبهذا الشعب بئر تعرف بهذا الاسم وهي مورد .

٨ ـ بَيَّم (أبَيَّم) : جبل كبير شمال الزَّيمة قرب بام (أبام) .

٩ ـ البهيتة (البوباة) : وادٍ شمال شرق مكة بعد نخلة اليمانية ، يسكنه الصلمان من هذيل .

(حرف التاء)

١ ـ تَفْتَفان : وادٍ من روافد نعمان ، من جهة الشرق ، ويصب فيه .

٢ ـ التَّيْس : جبل جنوب وادي الغريف في شفا آل خالد ويصب في الغريف .

(حرف الثاء)

١ ـ ثَلْثَان : وادٍ يقع شمال مكة ، شرق طريق الحرمين جنوب مجرى وادي فاطمة ، وبه جبال تعرف بجبال ثلثان يسكنه لحيان من هذيل .

٢ ـ الثَّنيّة : من أودية وادي الصدر وتصبُّ فيه .

(حرف الجيم)

١ ـ الجَبْلَةُ : جبل كبير شمال وادي نَخلة اليمانية ، وفي أعلاه فِرَاعٌ بها مزارع كثيرة ، ومنازل ، ويصب في شعب سقام ، ويسكنه السعايد من الصلمان ،

ويسمى جبلة السعايد .

٢ ـ جَرْول : وادٍ في أعالي وادي رهْجان تصبُّ فيه جبال الشُّقْرة ، وهذا الوادي مملوءٌ بالأحجار الكبيرة والصغيرة التي تجلبها السيول من الجبال .

٣ ـ الجِعْرانة : وادٍ شمال مكة ، وأهل مكة يعتمرون منْه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أصبح الآن فيه عدة أحياء يسكنها كثير من الناس من هذيل وعُتيبة والبقوم وفيه مزارع كثيرة أغلْبها أحدثت قريباً ، ويُعَدُّ من ديرة لحيان من هذيل ، ولهم فيه مزارع ومساكن .

(حرف الحاء)

١ ـ حَراضُ : وادٍ جنوب نخلة الشامية شمال شرق اليمانية ويصبُّ في الشامية ، ومن شعابه سقّام ، يسكنه المطارفة من هذيل .

٢ ـ الحرة العجيفا : حرة شمال مكة ، جنوب وادي فاطمة يسكنها لحيان من هذيل .

٣ ـ حَفَايلُ : من أودية نخلة اليمانية يسكنه الصلمان من هذيل .

٤ ـ حُوْرة : وادٍ كبير شمال مكة بعد المضيق ، فيه مزارع ونخل وقرى منها المعصب والعمير وأبو عشر وام الغدف ، والقُرَيَّة ـ تصغير قَرْية ـ يسكنه بنو مسعود من هذيل .

٥ ـ حَوِيَّةُ هذيل : وادٍ كبير ، جنوب مكة ، بعد ضِيْم ، يصب في وادي يلملم ، ميقات أهل اليمن ، وفيه مقاري نَحْل كثيرة .

٦ ـ الحيا : وادٍ جنوب وادي دُفاق ، ويعتبر من فروعه ، يصب في أمّ الزّلة ، يسكنه القُرَّح من هذيل .

(حرف الخاء)

١ ــ الخَرّار : من شعاب جبال الْخِشَاع ، من جهة الغرب الواقعة شرقي رهجان ، وكان بهذا الشعب ماء يصب فيه من أعالي الجبال باستمرار ، وقد نضب منذ عهد قريب ، ويعود في موسم الأمطار .

٢ ــ الخِشَاع : جبال مترابطة شرق رهجان ، وتعد من جباله ، متصلة بجبال الشقرة الواقعة أعالي رهجان من الجنوب الشرقي ، وهي جبال حمر في أعلاها فِرَاعٌ فيها مزارع ومقاري نَحْل ، يسكنها الجوابرة من هذيل .

٣ ــ الخَشَاش : من شعاب وادي الصدر .

٤ ــ خماس : وادٍ في شفا الطالحات .

(حرف الدال)

١ ــ الدَّحَالُ السُّود : جبال سودٌ مترابطة ، شرق وادي اسمار (سمار) يسكنها دعد من هذيل .

٢ ــ الدَّحيض : من شعاب جبل كبكب من جهة الجنوب ومُتّصلة بوادي نعمان وتصب فيه .

٣ ــ دُفَاق : وادٍ كبير جنوب مكة بعد ضيم ، يصب في أُمّ الزّلّة ، يتفرع منه الحيا وإحليل والجواه وصيف ، يسكنه القُرّح من هذيل .

(حرف الراء)

١ ــ الراضَة : قرية في وادي الزبارة (وادي بني عمير) .

٢ ــ الرَّتَجَةُ : قرية صغيرة في وادي سَبُوحَةَ .

٣ ــ راية : وادٍ جنوب مكة ، مشترك بين الحجادلة والقُرّح ، يصب في أم الزلة .

٤ ــ رَخَمان ورُخَيمَين : جبلان متقابلان في وادي إحليل ، وتصبُّان فيه ويسكنها القُرَّحُ من هذيل .

٥ ــ الرِّدَيْم : من جبال الخشَاع الواقعة شرق رهجان .

٦ ــ رَهْجَان : وادٍ كبير ، جنوب شرق مكة المكرمة ، ويبعد عنها بحوالي ٤٠ كيلاً ، ويصب في العابدية ، وهذا الوادي مشترك بين دَعْد والجوابرة وبني كعب جميعهم من هذيل ، فيه الآن قرى لهذه العشائر ، ومن أشهر جباله الشقرة ، وجبال الخشاع وجبل قرضة وعُصُم .

٧ ــ الربَّان : وادٍ شمال مكة المكرمة ، جنوب جبال ثلثان يسكنه لحيان من هذيل .

(حرف الزاي)

١ ــ زاق (؟) : من شعاب وادي الصدر .

٢ ــ الزبارة (وادي بني عمير) : وادٍ كبير شمال مكة ، ويبعد عنها بحوالي ٣٠ كيلاً وفيه قرى منها القويعية والراضة ، وفيه مزارع ومن أشهر جباله جبل أبو خصف ، ويصب وادي الزبارة في وادي الشريف .

(حرف السين)

١ ــ ساق : جبل غرب الغريف في شفا آل خالد ، ويصب في الغريف .

٢ ــ سَان : وادٍ في شفا هذيل ، جنوب شرق مكة ، وجنوب غرب الطائف مشترك بين آل خالد والسوالمة فسان الأعلى لآل خالد ، وسان الأسفل للسوالمة ، وبهذا الوادي جبل يعرف بجبل سان .

٣ ــ سَبُوحة : وادٍ كبير شمال شرق مكة على يمين الذاهب إلى الطائف مع طريق السيل ، بعد وادي يدعان ، يبعد عن مكة حوالي ٣٥ كيلاً تقريباً وفيه قرية صغيرة تسمى الرتّجة .

٤ ــ سُحار : جبل في وادي رهجان ، مشترك بين الجوابرة وبني كعب .

٥ ــ سُقَام : شعب كبير من شعاب جبل الجبلة ، من جهة شرق الجبل ، وغرب وادي حراض ، ويُعَدُّ من حراض ويصب فيه ، وهو الشعب الذي كانت فيه العُزَّى التي تعظمها العرب قبل الإسلام، يسكنه المطارفة من هذيل .

٦ ــ سِدْر وضَاف : جبلان شرق البرابر ، أمرهما لبني لحيان .

٧ ــ سمَر : وادٍ قرب نَخلة الشامية ، ويصب فيه .

٨ ــ السُّودَة : جبل يطل على قرية المضيق لبني مسعود من هذيل .

٩ ــ سَوْلة : قرية كبيرة شمال مكة ، قرب المضيق ، فيها مزارع كثيرة ، كانت بها عين ، أجري ماؤها في عهد الملك خالد رحمه الله إلى مكة ، ومن قرى سولة المحطة ، وقبل عيفان ، يسكنها الزواهرة ونباتة .

(حرف الشين)

١ ــ الشَبَكَة : جبل غرب جبل أظلم ، يقع في وادي رهجان يسكنه دعد من هذيل .

٢ ــ شَجِي : من شعاب وادي الصدر .

٣ ــ شَدَّاد : وادٍ في أعلا وادي نعمان .

٤ ــ الشَّرَا : وادٍ شمال نعمان ، ويصب فيه ، ويُعَدُّ من روافده يسكنه الكباكبةُ من هذيل .

٥ ــ شُعَار : جبل في شفا السوالمة ، يصب في وادي سان .

٦ ــ شفا آل خالد : ويضم وادي الغريف ووادي سان وجبل ساق وجبل التيس وغيرها من الجبال والفِرَاع .

٧ ــ شفا الطلحات : ومن أهم معالمه وادي قَاوَة وخماس ، والمبيرك والحيط والرحبة .

٨ ــ شَفَا زُلَيْفَة : ومن أهم معالمه : الشعب والجرين والقرن ، وأم الهضاب والحدب والقبيس والصفاة ، وغرزة والحصن .

٩ ــ الشُقْرَة : جبال حمر مترابطة جنوب شرق رهجان متّصلة بجبال الخشاع ، شرقي رهجان ، وتصب في جرول ، أعلا رهجان ، يسكنها السوالمة من هذيل .

(حرف الصاد)

١ ــ الصَّدْرُ : هو صدر وَادِي حُنَيْنٍ وادٍ كبير شمال شرق مكة المكرمة ، ويبعد عنها بحوالي ٣٥ كيلاً تقريباً ، يصبُّ في خشم المبرك ، ثم يتفرَّع إلى شرائع النخل والبجيدي ومن شعابه الأحيا وزاق وشجي وبانة والخشاش يسكنه الحتارشةُ من هذيل .

٢ ــ صفيَّةُ : وادٍ شمال مكة ، بعد المضيق ، يصب في وادي حورة ، فيه مزارع نَخْل ومقاري نَحْل ، يسكنه بنو مسعود من هذيل .

٣ ــ صُلب : جبل كبير في الزَّيمة .

٤ ــ صَيْف : جبل في وادي دُفَاق ، يسكنه القُرَّح من هذيل .

(حرف الضاد)

١ ــ ضَرْعَاء : من أكبر جبال الخشاع الواقعة شرق رهجان .

٢ ــ ضِلْعة : من شعاب جبل كبكب .

٣ ــ ضَهَايا : من أودية الصدر ، وتعرف بِضَهْيَاه البيضاء ، تصب في يدعان ، وضهياه السمراء تَصُبُّ في الصدر ، يسكنها الحتارشة من هذيل .

٤ ــ الضَيْقَة : وادٍ في صدر وادي نعمان ، من جهة الشرق يسكنه بنو إياس من هذيل .

٥ ــ ضِيْم : وادٍ كبير جنوب مكة المكرمة فيه هجرة للنَّدَويين من هذيل ،

ويصب في الخبت ويبعد عن مكة بحوالي ٤٠ كيلاً تقريباً ، وطول الوادي حوالي ٣٠ كيلاً تقريباً .

(حرف الطاء)

١ – الطَحْلاَ : جبل في وادي إحْليل ، يسكنه القُرَّحُ من هذيل .

(حرف الظاء)

١ – ظَبَبْية : من أودية القرح من هذيل ، يصب في أم الزلة .

(حرف العين)

١ – العَجُوز : جبل يقع غرْبَ وادي اسمار (سمار) يسكنه دعد من هذيل .

٢ – عرْعَر : وادٍ من أودية نعمان في جهة الجنوب الشرقي ، ويصب فيه ، تَحُدُّه جبال الخشاع من الجنوب والغرب ، ويَحُدُّهُ جبل سحار من الجنوب الشرقي .

٣ – عَرْوان : جبل كبير في وادي دُفَاق ، ويصب فيه ، ومُتَّصل بجبل قَصْعَان ، وفيه مقاري نَحْل كثيرة ، يسكنه القرح .

٤ – عُصْم : جبل يقع في أسفل وادي رهجان من جهة الغرب يسكنه دعد من هذيل .

٥ – عَيْن شمس : قرية شمال مكة ، وتبعد عنها بحوالي ٢٨ كيلاً وتراجع الجموم إدارياً ، يسكنها لحيان من هذيل .

(حرف الغين)

١ – الغَريف : وادٍ في شفا آل خالد من هذيل ، جنوب شرق مكة يحده من جهة الشرق جبل الفُرْع ، والجنوب جبل التيس ومن الغرب جبل ساق ، وتجتمع فيه سيول هذه الجبال وتصبُّ في تهامة .

(حرف الفاء)

١ ـ الفُرُع : جبل شرق وادي الغَريف ، من شفا آل خالد ، .

٢ ـ فَصْعَان : جبل كبير في وادي دفاق ، ومُتَّصل بجبل عروان وفيه مقاري نَحْل كثيرة ، يسكنه القرح من هذيل .

٣ ـ الفَوَّارَةُ : قرية كبيرة شمال مكة ، فيها مركز إمارة ، وتبعد عن مكة بحوالي ٧٥ كيلاً تقريباً ، تجتمع فيها سيول وادي (...) وعاجل وصفية وقانة ، يسكنها بنو مسعود من هذيل .

٤ ـ الفَيّ : واد جنوب اليمانية ، وفيه مخابيء لا تصيبها الشمس من الجبال المحيطة به يسكنها الصّلمان من هذيل ويعرف سكانه بِصُلَيْم الفيّ .

(حرف القاف)

١ ـ قَانَة : وادٍ لبني مسعود شمال مكة قرب الفوارة ويصب فيها .

٢ ـ قَاوَة : وادٍ في شفا الطلحَات ، وتُحيط به الجبال .

قال الهجري : قاوة فرع . وهي راحة به المحارث من سراة عروان بثنيَّة الحمار من اللصب .

٣ ـ قبل عيفان : قرية في سَوْلة ، يسكنها الزواهرة .

٤ ـ قَرْضَة ـ بالضاد ـ : جبل مفرد في وادي رهجان من جهة الجنوب ، مقابل لجبال الشقرة ، يسكنه دعد من هذيل .

٥ ـ قَرى عُصْم : جبل جنوب الزّيمة ، متصل بجبل الأشيعر .

٦ ـ القوْبَعيَّة : قرية في وادي الزبارة (وادي بني عمير) .

(حرف الكاف)

١ ـ كَبْكَبُ : جبل كبير شمال المغمس ، مشرف على موقف عرفة ، ومن شعاب المجاز من الشمال يميل إلى الغرب ، والدحيض من جهة الجنوب ، وتصُبُّ في نعمان ، وبئر الخيام من جهة الغرب ، يسكنه الكباكبة من هذيل .

٢ ـ الكُرُّ : وادٍ غرب جبل كرا المعروف ، وتصُبُّ فيه سيول الصافِح الغربي لجبل كرا ، يسكنه آل علية من السراونة من هذيل .

٣ ـ كَسَابُ : جبل شمال وادي ملكان وجنوب العقَيْشيّة يسكنه دعد من هذيل .

٤ ـ الكُفو : من أودية نَخْلة اليمانيّة يسكنه الصلمان من هذيل .

٥ ـ كَنْثِيلُ : جبل كبير مقابل لجبل كبكب ، يقع في وادي الصدر ويصب فيه ، وفي أعلاه مروة بيضاء ، فيه مقاري نَحْلٍ قديمة يسكنه الحتارشةُ من هذيل .

(حرف الميم)

١ ـ مَابِدُ : جبل في أعلا وادي رهجان ، ويصبُّ فيه، يسكنه بنو كعب من هذيل .

٢ ـ المُبَيْرك : وادٍ في شفا الطّاحات .

٣ ـ المجَاز : شعب كبير ، من شعاب جبل كبكب ، شمال الجبل . يميل إلى الغرب بين شِقّيْنِ من الجبل ، قيل : إنه من أسواق العرب القديمة(٢) ، ويوجد فيه دور قديمة مبنيّة بالحجر ،ومقتطر على طرف الشعب وخربه (؟) ،وفي فم الشعب بئر تعرف ببئر المجاز ، يسكنه الكباكبة منهذ يل .

٤ ـ المحْضَرَةُ والرُّوس والبصرةُ : جبال وشعاب بين الشّفَا وتهامة ، تصب في وادي ملكان وتعرف بشفا السوالة .

٥ ـ مَرْس : وادٍ قرب أُمِّ الزّلّة ، ويصب فيها يسكنه القرَحُ من هذيل .

٦ ـ المَضِيق : قرية كبيرة شمال مكة ، أسفل نخلة الشامية ، كانت فيها مزارع كثيرة تسقى من عين تسمى عين بردان ثم سُحِبَتْ في عهد الملك خالد رحمه الله إلى مكة ، وفي وسط الوادي مقبرة تُسمّى (سوق عكار) سمعت من كبار السن من أهل المضيق أنها كانت سوق كبير في القديم ، ويسمّى سوق عكاظ (٣) حدثت فيه معركة كبيرة بين قبيلتين قُتل فيها أناس كثيرون حتى امتلأت ساحة السوق من القتلى ، ثم هُدِمَتْ عليهم الدكاكين والمنازل ، وأصبحت مقبرةً من

ذالك الحين وصرف اسمه الناس إلى سوق عكار ، لما حصل فيه من تعاكر الأخصام ، ولازالت هذه المقبرة تعرف بسوق عكار ، وبها آثار مبان لازالت أساساتها باقية ، وفي جنوب المقبرة آثار عين مَيّتَة تسمى عين التنضب .

٧ ــ المُغمَّس : وادٍ شمال عرَفة ، يبدأ من بعد علَمَيْ عرفة ، من جهة الشمال ، أعلاه للكباكبة ، وأسفله لقريش ، تصبُّ فيه شعاب كبكب .

٨ ــ مكة الرقة : وادٍ في أعلا نخلة الشامية ، من جهة الشمال الشرقي ، وفيه آثار مبانٍ قديمة ، وربما كان من أسواق العرب القديمة ، يسكنه المطارفة من هذيل .

٩ ــ ملكان : وادٍ كبير ، جنوب مكة ويبعد عنها بحوالي ٤٠ كيلاً تقريباً يجتمع فيه سيل جبل أظلم والشبكة ويصبُّ في وادي صقيعة .

(حرف النون)

١ ــ نخلة الشامية : واد كبير شمال مكة ، فيه قرى ومزارع كثيرة ، ويبعد عن مكة بحوالي ٥٠ كيلاً تقريباً ، يصب في وادي الزبارة ، ومن أوديته وثال (اثال) وأم طخر يسكنه المطارفة من هذيل .

٢ ــ نخلة اليمانية : وادٍ شمال شرق مكة ، على طريق الطائف المارّ بالسيل ، ويبعد عن مكة بحوالي ٥٠ كيلاً تقريباً ، ويصب في وادي الزبارة ومن أوديته الكفو وحفايل ، يسكنُه الصلمان من هذيل .

٣ ــ نعمان : وادٍ كبير ، جنوب شرق مكة ، وجنوب عرفة ، وبهذا الوادي قرى ومزارع لفروع من هذيل ويشتهر هذا الوادي بوفرة المياه ، وخصوبة أرضه ، ومن أهم أوديته : عرعر من جهة الجنوب الشرقي ، والشَّرا من الشمال ، والضَّيقة في صدر الوادي من جهة الشرق ، ومن أشهر جباله يَعْرُج في أعالي الوادي من جهة الشمال .

٤ ــ النَّفْلة : وادٍ يصب في أمّ الزَّلّة يسكنه القرَّح من هذيل .

٥ ــ نمار : جبل كبير في وادي دُفاق ، يسكنه القرح من هذيل .

٦ ــ النَّوارِيَّة ـ واد شمال غرب مكة ويبعد عنها بحوالي ١٥ كيلاً تقريباً وفيه الآن مصانع الطوب الأحمر (الآجر) وكانت تصنع فيه النّورة .

(حرف الواو)

١ ــ الوَسِيعَة : وادٍ شمال مكة شرق طريق الحرمين الشريفين ، جنوب شرق مجرى وادي فاطمة ، يسكنه لحيان من هذيل .

٢ ــ وَصيقُ : وادٍ شمال نعمان ، ويصب فيه ويعد من أوديته .

٣ ــ وعَاجل (؟) : وادٍ قرب الفوارة يصب في وادي صفية يسكنه بنو مسعود من هذيل .

(حرف الياء)

١ ــ يَدَعانُ : وادٍ كبير شمال شرق مكة ، يصب في الشرائع ، أعلاه للحتارشة ، وأسفله للحيان .

٢ ــ يَعْرجُ : جبل كبير في أعالي وادي نعمان من جهة الشمال يسكنه الحساسنة من هذيل .

مكة المكرمة **محمد بن علي بن هلال الحتيرشي**

الحواشي :

(١) قول ابن خلدون في كتابه « العبر » عن هذيل : ولهم مياه وأماكن في جهات نجد . بحاجة إلى التثبُّت ، فابن خلدون ــ رحمه الله ــ كتب أشياء كثيرة عن منازل قبائل العرب اعتماداً على النقل ، فوقع فيما كتب كثير من الأخطاء . والمتتبع للمؤلفات التي تحدد منازل القبائل في جزيرتهم قبل ابن خلدون ، لا يجد ما يؤيِّدُ قوله ، بل لا يكاد يعثر على اسم موضع خارج عن تهامة يُعَدُّ من منازل هذيل ،وأقرب مصدر بين أيدينا كتاب « أشعار هذيل » وهو يضم أسماء كثير من بلادهم ، وكلها في تهامة حول مكة ، وفي كتاب « بلاد العرب » للغدة الأصفهاني من أهل القرن الثالث الهجري ذكر كثير من منازل هذه القبيلة في تهامة بقرب مكة .

(٢) هذا هو موقع سوق ذي المجاز القديم ، كما حدده العلماء المتقدمون .

(٣) سوق عكاظ لاشك أنه بقرب الطائف في الموضع الذي كثرت الكتابات في تحديده ، وقد يكون هذا الموضع من الأسواق القديمة ولكنه ليس سوق عكاظ .

آل رُبَيْعَان من العرينات من سبيع

الربيعان في القصيم أسرة كبيرة متشعبة الأطراف ، أصلها من الخضران من بني عمر من عُرَيْنة من سبيع ، وكانت قبل ذالك تسمى : (آل عمران) . وكانت تقطن في (العطار) بسُدَيْر .

ولعوامل القحط والمجاعة انتقلت مع بعض أسر من بني عمها من العطار ، مع زُهْرِي بن جرّاح بن سالم الثورى واستقرت في (عنيزة) في القصيم سنة ٦٣٠هـ .

وفي القرن الثامن الهجري وقعت حروب وفتن في (عنيزة) فتفرقت بعض هذه الأسر ، وأسر أخرى من قبائل مختلفة إلى جهات متعددة في القصيم ، ربعضها عاد إلى (سُدَيْر) و (العطار) .

أما آل (عمران) وأبناء عمهم : آل سُويلم وأصلهم السالم ، ومنهم الدخيل الله ، والخُضَير ، واليوسف .

وكذالك آل عمير ، وآل المَقْوشي ؛ فقد اتجهوا إلى وادي (الضَّلْفَعة) وسكنوه .

وفي القرن الحادي عشر الهجري . انتقل بعضهم إلى (البكيرية) والبعض الآخر إلى (الخَبْرَاء) واللُّسَيْب وبقي البعض في (الضلفعة) .

أما جدنا (رُبيعان بن حميدان بن ناصر بن حُمَيْدان بن عبدالله بن عيسى ابن عمران العريني فقد انتقل من الضلفعة بأسرته وبعض أقاربه ، واستقر في روضة (الشّيْحية) سنة ١١٠٢هـ وهو أول من عمرها وسكنها وتأمر بها ، ولازالت الإمارة في ذريته إلى يومنا هذا ، وهذا هو الجد الأخير الذي تنتسب إليه أسرة الربيعان ومنها : آل ماضي ، وآل حوّاس ، وآل غانم ، وآل حُمَيْدان ، المنتشرون في القصيم وفي الرياض .

ولهذه الأسرة أبناء عم قريبون لهم أحب أن أبينهم هنا :

آل عمير ، وآل عامر ، وآل سويلم ، وآل عثمان ، وآل خُضَيِّر ، وآل يوسف ، وآل دخيل الله ، وآل صُقَيِّر ، وآل ثنيان ، وآل رُمَيِّح ، وآل عيسى ، وآل فارس ، وآل فالح ، والدُّوشان ، وآل فائز ، وآل محمد ، وآل المَقْوشِي ، وآل مهيزع ، وآل ناجم ، وآل حسين ، وآل حسن ، وآل راشد ، وآل سليمان ، وآل سَيْف ، وآل شَوَيْهٌ أمراء العُرينات ، وآل غنيمان ، وآل عبد الكريم ، في كل من البُكَيْرية والخبراء والضلفعة وعنيزة ، والشيحية والشماسية ، وسدير ورغبة والعطار ، والرياض وحُريملاء والأحساء وبريدة ، والزُّلفي .

وكذالك : آل عُبَيْد في الكويت ، وآل عُجَيْمِ في البحرين ، وآل شافِي في عرعر ، وآل مَخْلَد في سكاكا ، وآل نذير في الزبير ، وآل عُضَيبه في الأردن .

وفي باب (الراء) من « جمرة أنساب الأسر » لماذا لا يذكر اسم الربيعان أهل نَفِي من رُوقة عتيبة ، والربيعان بحائل من طَوْقة شَمَّر ، والرُّبَيْعان بحوطة بني تميم من تميم ، والرُّبَيْعَان بشقراء من بني زيد ، والربيعان في الكويت من بني خالد ، والرُّبيعان في الشّيحية من عُرينات سبيع .

وهناك أسر كثيرة لم تدرج في الكتاب ، وأسر أخرى نُسِبَتْ إلى قبيلة غير قبيلتها .

على كل حال — هذا الأمر يحتاج إلى بحث دقيق وشامل ...

فهد بن محمد الرُّبَيعان

العرب : ورد هذا الكتاب من الأخ فهد بن محمد الربيعان ، ومن عادة المجلة أن لا تهمل أية ملاحظة ترد إليها تتعلق بأثر من آثار صاحبها .

والكتاب يحوي كثيراً من المعلومات التي ليست لدى مؤلف كتاب « جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد » من المعرفة ما يتمكن به من التثبت بصحتها ، كما أنَّ كثيراً من الأُسَر التي ورد ذكرها قد نُسِبت في الكتاب المذكور إلى أصول أخرى ، غير ما ذكر الأخ فهد .

ولهذا كان من المناسب نشر الكتاب برمته لاطلاع القراء ، ليتفضل من لديه ملاحظة حوله بإبدائها .

أما التساؤل عن عدم ذكر جميع الأسر التي تحمل اسم (الربيعان) ، فالكتاب خصص للأُسر المتحضرة قبل إنشاء الهجر مثل (نفي) . وأمر آخر فهناك كثير من الأُسر لم يعرف صاحب الكتاب عنها شيئاً مع شدة حرصه على تدوين كل ما يعرفه بصفة عامة . وحبذا لو أن الأخ فهد بن محمد أو غيره من القراء ذكر ما يعرف من الأسر التي وصفها بالكثرة أوِ الأُسر التي نُسِبت إلى غير أصلها لكي يضاف كل هذا إلى الكتاب في طبعته المقبلة إن شاء الله . وما كتاب « جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد » سوى محاولة من المحاولات للشروع في تسجيل أصول جميع الأُسر في بلادنا بصفة عامة متى وُجدت الوسائل التي تمكن من ذالك ووجد المهتمون بهذا الجانب من تراثنا .

أسرة الدفَّاع من آل عُوَيِّد

لفت نظري الأستاذ الدكتور علي بن عبدالله الدفاع ، أستاذ الرياضيات وتاريخ العلوم في جامعة البترول والمعادن في الظهران إلى أنَّ لقب (الدفاع) أُطلِقَ على أسرة الأستاذ علي ابتداءاً من جدّه صالح بن عبدالله العويد الذي انتقل من بلدة المِذْنَب إلى مدينة عُنيزة ، وتزوج من أسرة آل يحيى المشهورة في تلك المدينة ،

☐ سير أعلام النبلاء :

قبل ما يقرب من ثلاثين عاماً قررت الجامعة العربية نشر كتاب « سير أعلام النبلاء » لمؤرخ الإسلام الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفي سنة ٧٤٨هـ ، فصدر الجزء الأول منه مصدراً بمقدمة للدكتور طه حسين بدأها بقوله : (هذا كنز رائع نفيس من كنوز التّراث العربي الإسلامي ، قررت الجامعة العربية نشره) . وأشار في المقدمة إلى أن السيد حسن الشربتلي عرض عليه نيفاً وخمسين ألفاً من الجنيهات لنشر ما يرى نشره من الكتب العربية ، فلم يقبل منه إلا عشرة آلاف جنيه فحسب .

وقد أصدر معهد المخطوطات في الجامعة العربية جزءين منه ، الأول : بتحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، والثاني : بتحقيق الأستاذ إبراهيم الإبياري ، طبع سنة ١٩٥٧م ثم توقف العمل حتّى هيأ الله له الأستاذ رضوان دعبول صاحب « مؤسسة الرسالة » في بيروت ، فشرعت هذه الدار في نشر الكتاب منذ سنة ١٤٠١/١٩٨١ ، فأصدرته في ٢٣ مجلداً صدر آخرها هذا العام (١٤٠٥/١٩٨٥) .

← فرزق بولد سماه عبدالله ، نشأ صغير الجسم سريع الحركة ، فلقب بالدفاع ، أما أعمامه الذين يسكنون المِذْنَبَ فلا يزالون معروفين باسم العُوَيِّد والذين انفردوا بلقب الدفاع هم أسرة الدكتور علي وهم أبناء عبدالله بن صالح العُوَيِّد : علي وصالح وعبد العزيز وعبد الرحمن وسليمان ، عُرِف هاؤلاء باسم الدفاع . والأسرة من الوهبة من بني تميم كما ورد في كتاب « جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد » — ص ٦٥٠ .

وقد صدر الجزء الأول بمقدمة ضافية للدكتور بشار عواد معروف أستاذ التاريخ بكلية الآداب في جامعة بغداد عن الذهبي وكتابه ، تعتبر دراسة وافية في موضوعها وتقع في ١٦٨ صفحة .

وهذا الكتاب مرتب على « الطبقات » والجزء الأول منه يبدأ بترجمة أبي عبيدة بن الجراح أحد العشرة المبشرين بالجنة ثم بقيتهم .

ولم يفرد المؤلف الذهبي سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام وسير خلفائه الأربعة بتأليف ، وإنما أراد أن يُرْجَعَ في ذالك إلى كتابه العظيم « تاريخ الإسلام » .

ويقف المجلد الأخير من الكتاب عند وفيات الذين عاشوا إلى منتصف القرن السابع الهجري . أما المجلد الذي يحوي تراجم من بعدهم إلى زمن وفاة المؤلف فمفقود .

ويعتبر هذا الكتاب من أوفى كتب التراجم وأشملها ، باستثناء ما أُلّفَ بعده ، ككتاب « الوافي » للصفدي .

وقد قام بتحقيق الكتاب الأساتذة شعيب الأرنؤوط (في أكثر الأجزاء) وحسين الأسد ، ومحمد نعيم العرقسوسي ، ومأمون الصاغرجي ، وعلي أبو زيد ، ونذير حمدان ، وكامل الخراط ، وصالح السمر ، وأكرم البوشي ، وإبراهيم الزيبق ، وبشار عواد معروف ، ومحيي هلال السرحان ، وساعدت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية على نشر الكتاب ، وطبع طباعة جيدة على ورق صقيل وبحروف واضحة ، قد شكلت الكلمات الصعبة وأُضيفت إلى الكتاب حواشي تضيف معلومات قيمة عن المترجمين .

ولو قيل بأن هذا الكتاب هو أهم كتاب تَمَّ نشره في هذه الأعوام من كتب التاريخ الإسلامي لما كان في هذا القول مبالغة .

وحَبَّذا لو أُفرِدت أسماء المترجمين كلها في جُزْءٍ خاص ، ورتبت على حروف المعجم ، ليسهل الاهتداء إلى مواقعها من هذا الكتاب ، وما ذالك بالأمر الصعب بعد أن وضع المحققون في آخر كل جزء من أجزائه فهرساً مفصلاً وافياً لمن ترجموا فيه .

الاشتراك السنوي
١٠٠ ريال للأفراد و ٢٠٠ ريال لغيرهم
الإعلانات: يتفق عليها مع الإدارة
ثمن الجزء: ١٧ ريالاً

العرب
مجلة شهرية تعنى بتراث العرب الفكري
صاحبها ورئيس تحريرها: حمد الجاسر

العنوان
شارع الملك فيصل هاتف ٤٠٢٢٩١٥
ص.ب ١٣٧ الرمز البريدي ١١٤١١
الرياض - المملكة العربية السعودية

ج ٩/ ١٠ س ٢٠ الربيعان ١٤٠٦ ـ تشرين ثاني/كانون أول (نوفمبر/ ديسمبر) ١٩٨٥

نعم... ولد ﷺ في مكة المكرمة

لعلَّ المسافة الزمنية .. التي فصلتْ بين تعليق الأستاذ الجليل حمد الجاسر على مقالي المنشور بمجلة «الدوحة»، عدد ديسمبر ١٩٨٤م، وبين هذا المقال الذي أهدف من ورائه استمرار الحياة لنقاش في حقيقته يهدف إلى تقرير أمر هو من أمور المسلمين جميعاً. وضع حوله خلاف مخطىء، لا تعنينا أهدافه ومسبباته بالقدر الذي يعنينا أن نضع الموضوع في قمة الحقيقة.

لعلَّ تلك المسافة الزمنية الفاصلة، توجب عليّ ـ أن أتقدم بالإعتذار لشعوري بحساسية الموضوع ومكانته الجليلة، حيث إنه موضوع يختص بالبلد والموضع الذي ولد فيه ﷺ

وأعترف بأنَّ الفضل في إثارة هذا النقاش يعود أساساً إلى أستاذنا المؤرخ الشيخ حمد الجاسر الذي عرض له في محاضرته التي ألقاها يوم ١٣/٥/١٤٠٢هـ بعنوان (الآثار الإسلامية بمكة المكرمة) وكانت في جامعة أم القرى.

والحقيقة أن هناك اتفاق على الروايات الموثوقة عند العلماء والمؤرخين التي تؤكد

أن رسول الله ﷺ قد ولد في مكة المكرمة، وأنه من أهل مكة المكرمة، وأنه من بني هاشم، قرشيٌّ، هاشميٌّ.

ولقد سرّني مقال العالم الجليل المؤرخ، الأستاذ حمد الجاسر، الذي أيّد فيه هذا الرأي، وأزال اللبس والغموض الذي وقع عند بعض الكتاب، من أنه ــ أي الأستاذ حمد الجاسر ــ ينكر ولادة رسول الله ﷺ، في مكة المكرمة..

ولقد أكد الأستاذ الجليل حمد الجاسر، أنه لم يَنْفِ ولادته ﷺ، في مكة المكرمة، وقال في معرض تعليقه على مقالي المذكور في مجلة «الدوحة» عدد ديسمبر ١٩٨٤م: «ولم أنف ولادته، ﷺ في مكة المكرمة، وورد ذكر عسفان في كلام مُغَلْطَاي، من قبيل نقل اختلاف العلماء في الموضوع ولا يلزم منه أنني أقول به أو أصححه، ونقلي القول ليس من لازمه الإعتقاد بصحته». إنتهى كلام الأستاذ حمد الجاسر. وهو هنا يقرر بجلاء ووضوح أن لا خلاف عنده في أن رسول الله ﷺ قد ولد في مكة المكرمة، وأنه إنما نقل تلك النصوص سواء قول الحافظ مُغْلَطَاي الحنفي (٦٨٩ ـ ٧٦٢) في كتابه «الإشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ من بعده من الخلفاء»، أو قول الشيخ عبدالله العياشي المغربي (١٠٣٧ ـ ١٠٩٠) صاحب الرحلة المشهورة «ماء الموائد» إنما نقل الأستاذ حمد الجاسر كل ذلك أو تحدث به في محاضرته التي ألقاها في جامعة «أم القرى» يوم الأربعاء ١٣ جمادى الأولى عام ١٤٠٢هـ عن الآثار الإسلامية في مكة المشرفة من قبيل نقل اختلاف العلماء وهذا أمر لا غبار عليه، لأن الأستاذ حمد الجاسر عالم ومؤرخ ومن حقه أن يستعرض الروايات التأريخية ويتعرض لها بالنقد والتحليل، والفحص والتعليق، خصوصاً أنه يتحدث في جامعة، وأمام علماء ومؤرخين، ومن حقهم أيضاً مناقشته ومعارضته بشرط أن يتم الحوار بأسلوب علمي، وعلى أساس موضوعي، يحيطه الخلق وتحرسه القيم، ويهدف إلى الوصول إلى الحقيقة ولعل من استمع إلى تلك المحاضرة كان يتطلع إلى مؤرخنا الجليل أن يقول في نهاية المحاضرة كلمته ترجيحاً لأي الأقوال تستند الحجة، وأيها سار في الطريق الخطأ ولكن اكتفاء مؤرخنا

بالعرض دون الترجيح، قد أثار حول المحاضرة ما أثير في وقتها من مواضيع، كادت تطغى على هدف الوصول إلى الحقيقة، ومحور الموضوع حول بلد ومكان مولده ﷺ . .

وقد فاتني حضور تلك المحاضرة القيمة التي ألقاها الأستاذ حمد الجاسر، وبالتالي فاتَني حضور وسماع ماجرى من نقاش وحوار حول موضوعاتها . . ولكنني قرأتها منشورة بمجلة «العرب» . . واطلعت على بعض الحوار الذي دار حولها، والشبهات التي أُثيرتْ بصورة خاصة حول موضوع مكان وموضع ولادته ﷺ، ولكن اتهاماً صريحاً واضحاً من بعض الكتاب والمعلقين على محاضرة الأستاذ حمد الجاسر أزعجني جدًّا، فقد أكد أن الأستاذ الجاسر إنما أثار هذه الشبهات بغرض التشكيك في أثر إسلامي هام، وهو مكان مولد رسول الله ﷺ، بل وزاد على ذلك بأن الأستاذ حمد الجاسر لا يعتقد بأن رسول الله ﷺ قد ولد في مكة المكرمة وبذلك يكون قد نَفَى ولادته ﷺ بمكة المكرمة، وسعى إلى سلب مكة المكرمة شرفَ مولد النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، وقد أزعجني هذا الأمر كما ذكرت، خصوصاً وأن الموضوع لا خلاف عليه بين العلماء والمؤرخين، وولادته بمكة المكرمة ثابتة، واقعة بالتواتر، والقرآن الكريم شاهد على ذلك، والأستاذ حمد الجاسر عالم ومؤرخ، أعرفه وأعرف رأيه وبحثه، وحرصه على تقصِّي الحقائق، ولا أتصور أن ينفي أو يشكك في قضية واضحة كهذه، أو أن يتعرض لجزء من تاريخ وسيرة رسول الله ﷺ بالتشويه أو التشكيك، وقد كانت له كتابات عن مكة المكرمة أقل ما يقال عنها أنها كتابات منصفة وقيمة . .

ولهذا فقد حاولت الاطلاع على أساس المحاضرة، ومن ثم النقاش الذي تَمَّ، وسعيت إلى مقابلة الأستاذ الجليل، واجتمعت به مع الأستاذ الأديب الجليل عبد العزيز الرفاعي، والصديق الكريم الشاعر الدكتور عبد العزيز خوجة وكان لقاءًا ممتعاً . .

وجاءت الفرصة مواتية للحديث عن الموضوع وحدثت الأستاذ حمد عن ما أثير حول محاضرته، وقلت له يومها: أنه إن كان هناك وَهْمٌ أو تَرَدُّدٌ حول موضع

الولادة، وهل هي في الدار التي تدعى لمحمد بن يوسف أخي الحجاج، أو بالدار التي في شِعْبِ بني هاشم. وكما قال الإمام السهيلي (٥٠٨/٥٨١) في كتاب «الروض الأنف». وكما أورده الأستاذ حمد الجاسر: «ولد بالدار التي عند الصفا، وكانت لمحمد بن يوسف أخي الحجاج ثم بنتها زبيدة مسجداً حين حجت» .. وذكر كذلك ما أورده تقي الدين الفاسي من نفس النص السابق حيث استغربه وقال: (مولد النبي ﷺ بسوق الليل وهو مشهور).

قلت يومها للأستاذ الجاسر: إن كان هناك اختلاف على الموضع، فلا خلاف في أمر ولادته بمكة المكرمة على أي حال، ولم يدهشني موافقته على ذلك، فقد اطلعت على رأيه المنشور، ولكنني سعدت بسماع تأكيده على ذلك، مما لم يدع مجالاً للشك عندي أنه قد فُهِمَ حَدِيثُهُ من المحاضرة على غير ما أراد وقد يكون مردُّ ذلك إلى حساسية الموضوع ودقته وأن الأستاذ حمد الجاسر عندما أورد تلك النصوص صدمت بعض الحاضرين لغرابتها وشذوذها، وتوهموا أنها من كلام الأستاذ حمد الجاسر وربما ظَنُّوا أنه موافق عليها وهو يقول صراحة، أنه إنما نقل ذلك الكلام من حديث مُغْلَطَاي من قبيل نقل اختلاف الأقوال، ولا يلزم ذلك ولا يعني أنه يقول به أو يؤيده أو يصححه أو حتى يعتقد بصحته..

وما دمنا قد اتفقنا على الجزء الأول من البحث، وأنه ﷺ من مواليد مكة المكرمة فلننتقل إلى الجزء الثاني وهو تحديد موضع ولادته، ﷺ وفق ما ورد من روايات وأخبار دقيقة.

ومن المناسب أن لا ندع باب نقاش كهذا. يُقْفَلُ في وجه الوصول إلى معرفة أي المواضع على وجه التحديد هو الموضع الذي تمت فيه ولادته ﷺ من مكة.

وبالمقدار الذي استطعنا به أَنْ نَرُدَّ قول القائلين بأن ولادته ﷺ لم تكن في مكة المكرمة فإني سأحاول بالمقدار نفسه أَنْ أَضَعَ أَمَامَ مؤرخِنا صورةً تقرر موضع المولد الشريف في مكة، معتمداً في ذلك على ما بين يديَّ من أقدم ما كتب في تاريخ مكة المكرمة، وأعتقد أنها هي الصورة الحقيقية التي تبقى إلى أن تظهر حقيقة أخرى

أقدم منها، أو يظهر أثرٌ يقرر عكس ما قررته تلك الصورة.

ولقد حاولت أن أضع مقالي هذا على قسمين القسم الأول منه بعد هذه المقدمة يتحدث عن ولادته في مكة المكرمة، حتى يكون هذا المقال قد حمل موضوعاً متكاملاً رغم أنه سبق الفصل فيه في السابق. على أني أعترف لمؤرخنا بقصر خطواتي في هذا المجال أمام خطواته الواسعة.

لذلك فإنه من حقّنا عليه أن نستزيد من بحوثه، وسعة معلوماته، لا سيما وأنه قد قرر في محاضرته ـ التي هي موضع البحث ـ أنه من محبي الآثار والباحثين عنها والمحققين فيها، وهذا الأثر الذي هو موضع نقاشنا وبحثنا من أعظم الآثار الإسلامية، ولعلّ الخطوة الأولى هي أن نحدد أقدم من ألف في تاريخ مكة وهم كالتالي:

(١) محمد بن عمر الواقدي ـ المتوفي سنة ٢٠٧هـ
(٢) علي بن محمد المدائني ـ المتوفي سنة ٢٢٥هـ
(٣) أبو الوليد الأزرقي ـ المتوفي سنة ٢٥٠هـ
(٤) الزبير بن بكار ـ المتوفي سنة ٢٥٦هـ
(٥) عمر بن شبة ـ المتوفي سنة ٢٦٢هـ
(٦) محمد بن إسحاق الفاكهي ـ المتوفي سنة ٢٨٠هـ

ومعروف أيضاً أنه لم يبق في التداول بين الناس سوى كتاب الأزرقي «أخبار مكة» كما توجد نسخة من كتاب الفاكهي في إحدى خزائن أوربا.

فالعمدة في تاريخ مكة إذن هو كتاب الأزرقي «أخبار مكة» وهو موضوع في القرن الثالث الهجري، ومعنى هذا أنه أقرب صلة بالعهود التي سبقته، كما أن الرجل مكيٌّ يروي عن جده المكي فمعلوماته إذَنْ أدق وأوثق من أي تاريخ .. إلا أن تظهر آثار من تلك العهود تقرر غير ما قرره الأزرقي.

إعتمادنا إذن في موضوع البحث يكون على كتاب الأزرقي «أخبار مكة».

نأخذ الصورة الجغرافية التي رسمها الأزرقي في كتابه، والتي أضاف إليها الأستاذ أحمد السباعي رحمه الله شيئاً من الإيضاح في كتابه «تاريخ مكة» يقول الأستاذ السباعي رحمه الله ص ٣٠ الطبعة الرابعة: (لتوضيح ذلك في الأذهان نستطيع أن نجعل من باب بني شيبة نقطة ابتداء لتخطيطاتهم، فقد كان موضع ارتكاز الحركة العمرانية في أم القرى، كما كان أهم مداخل المسجد الحرام، وكانت البيوت تتكاثف حوله متجهة في الشرق إلى حَصْوة باب علي، وفي الشمال قليلاً إلى حصوة باب السلام، تنزلها بطون من غساسنة الشام وبعض السفيانيين، وتتخللها متاجر للعطارين.

فإذا مضى بنا الخط مستقيماً إلى جهة باب النبي واجهنا بيت العباس ودار جُبَيْرِ بن مطعم، ودورا لبني عامر بن لؤي واستقام أمامنا زقاق أصحاب الشيرق، وهو إلى جانب زقاق الحجر، حيث تقوم دارٌ لابن علقمة ودور أخرى لآل عدي من ثقيف.

فإذا نفذنا من ذلك إلى شارعنا العام في القشاشية متوجهين إلى أعلى مكة استقام أمامنا سوق كانوا يسمونه سوق الفاكهة، ثم سوق الرطب، ثم رِبَاعٌ كانت لبعض بني عامر ـ وعند سوق الليل تصافحنا الدار التي كانوا يسمونها دار مال الله، وبالقرب من الدار يلتوي شعب ابن يوسف وهو ما نسميه اليوم شِعْبَ علي، وفيه دور عبد المطلب بن هاشم ودور أخرى لأبي طالب وأخرى للعباس بن عبد المطلب.

وإذا عُدْنَا إلى استقامتنا في شارعنا العام يصافحنا دار العاص في فوهة شعب بني عامر، ثم يلتوي شعب بني عامر في دروب متعددة.

إلى هذه النقطة هو الحد الذي يهمنا. وأخذناه موضحاً من تاريخ الأستاذ السباعي رحمه الله وقد أخذه من تاريخ الأزرقي وأحال إلى صفحات الجزء الثاني الصفحات ١٨٧ إلى ٢١٤ من هنا وجب علينا:

أولاً:

أن نعود الآن إلى كتاب الأزرقي ــ الجزء الثاني صفحة ٢٣٣ ــ ونقف أمام رباع قريش وحلفائها.

يقول الأزرقي: أولها رباع بني عبد المطلب بن هاشم ــ قال أبو الوليد: «الدار التي صارت لابن سليم الأزرق وهي إلى جانب دار بني مرحب صارت لاسماعيل بن ابراهيم الحجبي، وهي قبالة دار حويطب بن عبد العزى إلى منتهى دار ابراهيم بن محمد بن طلحة ابن عبدالله (فلولده الحارث بن عبد المطلب أول ذلك الحق ــ يعني الملك ــ وهي الدار التي اشتراها ابن أبي الكلوح البصري والحق الذي يليه (يعني الملك) هو الشعب شعب ابن يوسف (المسمى حالياً شعب علي) وبعض دار ابن يوسف لأبي طالب ــ والحق الذي يليه (يعني الملك) وبعض دار ابن يوسف المولد مولد النبي ﷺ وما حوله لأبي النبي ﷺ عبدالله بن عبد المطلب ــ والحق الذي يليه (يعني الملك) حق العباس بن عبد المطلب (وهي دار خالصة ــ مولاة الخيزران ــ) ثم حق المقوم بن عبد المطلب (وهي دار ــ الطلوب ــ مولاة زبيدة) ثم حق أبي لهب وهي دار أبي يزيد اللهبي ــ فهذا آخر حقهم في هذا الموضع.

وللعباس بن عبد المطلب أيضاً الدار التي بين الصفا والمروة التي بيد ولد موسى بن عيسى التي إلى جانب الدار التي بيد جعفر بن سليمان، ودار العباس هي الدار المنقوشة التي عندها الْعَلَم الذي يَسْعَى منه من جاء من المروة إلى الصفا ــ ويزعمون أنها كانت لهاشم بن عبد مناف ــ ولهم أيضاً دار أم هانيء بنت أبي طالب التي كانت عند الحناطين عند المنارة، فدخلت في المسجد الحرام حين وسعه المهدي ــ الهدم الأخر سنة سبع وستين ومائة.

ثانياً:

نعود إلى الصفحة (١٠٩ ج٢) ــ «أخبار مكة» للأزرقي ــ تحقيق رشدي الصالح ملحس الطبعة الثانية ــ نَجِدُ:

قال أبو محمد اسحاق بن أحمد بن اسحاق بن نافع الخزاعي: (فكانت دار الندوة على ما ذكره الأزرقي في كتابه ـ لاصقة بالمسجد الحرام في الوجه الشامي من الكعبة وهي دار قصي بن كلاب، وكانت قريش لتبركها بأمر قصي تجتمع فيها للمشورة في الجاهلية ولإبرام الأمور وبذلك سميت دار الندوة للإجتماع الذي فيها.

ثم كانت الندوة بعد لهاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ـ ثم إلى ابنيه عمير أبي مصعب بن عمير وعامر ابني هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، ثم ابتاعها معاوية بن أبي سفيان في خلافته من ابن الرهين العبدري، وهو من ولد عامر بن هاشم بن عبد مناف ابن عبد الدار، فطلب شيبة بن عثمان الشُفعَةَ فيها من معاوية فأبى عليه، فعمرها معاوية، وكان ينزل فيها إذا حج، وينزلها من بعده الخلفاء من بني أمية إذا حجوا ـ وقد دخل بعضها في المسجد الحرام في زيادة عبد الملك بن مروان وابنيه الوليد وسليمان ثم دخل بعضها أيضاً في زيادة أبي جعفر المنصور في المسجد.

وكان خلفاء بني العباس ينزلونها بعد ذلك إذا حجوا ـ فنزلها أبو العباس وأبو جعفر والمهدي وموسى والهادي وهارون الرشيد إلى أن ابتاع هارون الرشيد دار الأمارة من بني خلف الخزاعيين وبناها.

ثم خربت دار الندوة وتهدمت ـ يقول أبو محمد الخزاعي: (رأيتها على أحوال شتى، كانت مقاصيرها التي للنساء تُكْرَى من الغرباء والمجاورين، ويكون في مقصورة الرجال دواب عمال مكة، ثم كانت بعد ينزلها عبيد العمال بمكة من السودان وغيرهم، ثم كانت تُلْقَى فيها القمائم، ويتوضأ فيها الحاج وصارت ضرراً على المسجد الحرام وفي سنة ٢٨١ كتبوا إلى أمير المؤمنين أبي العباس المعتضد بالله أبي ابن أحمد الناصر لدين الله ابن جعفر المتوكل على الله بأحوال دار الندوة والمسجد الحرام، فأمر كاتبه عبيد الله بن سليمان بن وهب وغلامه بعمل ما رفع إليه من عمل الكعبة والمسجد الكبير وبعمارة دار الندوة مسجداً يوصل بالمسجد الكبير.

فأمر بذلك القاضي ببغداد يوسف ابن يعقوب وحمل المال إليه ـ فقدم عبدالله بن يوسف في وقت الحج، وقدم معه برجل يقال له أبو الهياج عمير بن حيان الأسدي من بني أسد بن خزيمة، فوكله بالعمل، ثم أخرج القمائم من دار الندوة وهدمت، ثم أنشئت من أساسها فجعلت مسجداً بأساطين وطاقات وأروقة مسقفة بالساج المذهب، ثم فتح لها في جدار المسجد الكبير إثنا عشر باباً.

قال أبو الحسن الخزاعي: (قد كان هذا الجدار معمولاً على ما ذكره عم أبي محمد الخزاعي إلى أيام الخليفة جعفر المقتدر بالله ثم غيره القاضي محمد بن موسى حتى صار من في دار الندوة من مصل أو غيره يستقبل الكعبة فيراها كلها ـ عمل ذلك في سنة ٣٠٦.

ثالثاً:

نرجع إلى الصفحة التاسعة والستين من كتاب الأزرقي حيث نبحث في زيادة ابن الزبير في المسجد الحرام فنجد أن الأزرقي يتحدث في صفحة (٧٠) فيقول:

(ثم رد جدار المسجد منحدر على وجه دار الندوة وهي يومئذ داخلة في المسجد الحرام، وبابها وسط الصحن أشار جدي إلى موضع يكون بينه وبين موضع الصف الأول، فضرب جَدِّي بِرِجْلِهِ في هذا الموضع فقال: (كان ها هنا باب دار الندوة، فلم يزل باب دار الندوة في موضعه هذا حتى زاد أبو جعفر أمير المؤمنين في المسجد فأخَّره. إلى ما هو عليه اليوم ـ قال جدي: لم أسمع أحداً ممن سألت من مشيخة أهل مكة وأهل العلم يذكرون غير ذلك).

رابعــاً:

نقف عند الصفحة ١٩٩ ج٢ من كتاب الأزرقي لنبحث منزل خديجة بنت خويلد وهو البيت الذي كان يسكنه رسول الله ﷺ وخديجة رضي الله عنها ـ وَلَدَتْ فيه خديجةُ أولادها جميعاً، وتوفيت فيه، وسكنه النبي ﷺ حتى هاجر، فأخذه عقيل ابن أبي طالب ثم اشتراه منه معاوية ـ وهو خليفة ـ فجعله مسجداً يُصَلَّى فيه، وبناه بناءه هذا، وحدوده الحدود التي كانت لبيت خديجة لم تغير فيها

ذكر عمن يوثق به من المكيين، وفتح معاوية فيه باباً من دار أبي سفيان بن حرب هو قائم إلى اليوم، وهي الدار التي قال رسول الله ﷺ يوم الفتح: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» وهي الدار التي يقال لها اليوم دار ربطة بنت أبي العباس أمير المؤمنين.

(وفي هامش الصفحة قال الأزرقي: «يسمى الزقاق الذي فيه هذه الدار زقاق العطارين أما اليوم فيسمى زقاق الحجر ويقال لهذه الدار دار فاطمة الزهراء رضي الله عنها).

الحصيلة التي نخرج بها:

أولاً: أثبتنا من وقوفنا أمام رباع بني عبد المطلب بن هاشم أن دار عبدالله بن عبد المطلب كانت في ذلك الرباع وإلى جوارها دار أبي طالب ثم دار العباس ثم دار المقوم بن عبد المطلب ثم دار أبي لهب.

ثانياً: استعرضنا دور كل بني عبد المطلب فلم نجد لهم غير الدار التي للعباس بين الصفا والمروة ثم دار أم هانيء بنت أبي طالب التي دخلت في توسعة المسجد الحرام زمن المهدي سنة ١٦٧ ثم دار الندوة التي بناها قصي بن كلاب، ووصلت إلى هاشم بن عبد مناف ثم إلى ابنيه عُمير وعامر، ثم ابتاعها معاوية من ابن الرهين العبدري وهو من ولد عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار، ثم ظلت لخلفاء بني أمية، ثم خلفاء بني العباس حتى بني هارون الرشيد داراً فخربتْ دار الندوة، ثم عمرها أبو العباس المعتضد، بالله، وكان الذي قام بالإشراف على تعميرها القاضي ببغداد يوسف ابن يعقوب.

ثالثاً: من هذا يتضح لنا أن البيت الذي ولد فيه رسول الله ﷺ هو بيت والده عبدالله بن عبد المطلب، وهو البيت الذي في رباع بني عبد المطلب، فليس معقولاً أن يولد في دار الندوة لأنها ليست دار أبيه ولأنها دار لإبرام الأمور، وليس معقولاً أن يولد في بيت العباس ما بين المروة والصفا ولا في بيت أم هانيء ولا في بيت خديجة بنت خويلد القريبة من ردم عمر.

رابعاً: من هذا أيضاً يتضح أن الذي اشترى بيت أبي طالب وبيت عبدالله بن عبد المطلب هو محمد ابن يوسف أخو الحجاج بن يوسف الثقفي وبنى عليها داراً. أما الذي أشرف على تعمير دار الندوة في خلافة المعتضد بالله هو القاضي يوسف ابن يعقوب وفرق بين الاثنين.

خامساً: من الواضح أنَّ الْعِدَاءَ الذي كان في نفوس الأمويين وولاتهم وخاصة الحجاج كان يقتضي أن يزال ما يمكن من التفاف الناس حول الهاشميين لذلك كان لا بد من شراء دار المولد وبناء دار عليها لأخي الحجاج حتى يُمْحَى بمرور الأزمان أثر مهم من آثار بني هاشم. يدلل على هذا أنه عندما جاءت دولة العباسيين عمدت الخيزران أم الخليفتين موسى وهارون إلى شراء الدار وجعلتها مسجداً يُصَلَّى فيه، وأخرجت مكان المولد، وأشرعته في الزقاق الذي من أصل تلك الدار يقال له زقاق المولد.

سادساً: إذا أُضيف إلى هذا الإثبات تواتر الأجيال جيلاً بعد جيل، وهم يشيرون إلى هذا الموضع بأنه هو المولد النبوي فإنها إضافة إلى الإثبات لم تأت من فراغ وإنما جاءت من يقين.

وخلاصة القول أنه إذا لا خلاف إطلاقاً على أنه ﷺ من أهل مكة، وأنه قد ولد بمكة المكرمة، وأبوه من أهل مكة، وأمه من أهل مكة، وعشيرته من بني هاشم وقبيلته قريش. وهذا رب العزة والجلال يقول في محكم التنزيل: ﴿ وكأَيِّن من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ إنَّ الذي فرض عليك القرآن لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾.

والقرية المقصودة في الآية الأولى هي مكة المكرمة وقد أُضيفت إلى النبي ﷺ، وإضافتها إلى النبي تؤكد أنها مكان ولادته لأن العرف ما جرى على أن تنسب قرية إلى إنسان لم يُولد بها.

وفي الآية الثانية: المعاد هو المكان الذي بشره الله بأنه سوف يعود، ويرده الله

إليه، وقد كان ﷺ شديدَ التعلق بمكة المكرمة، وتألّمَ لفراقها كثيراً، وقد ورد في أسباب النزول أن جبريل عليه السلام سأل رسول الله ﷺ: «اشتقت إلى بلدك ومولدك»؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «نعم» فنزلت الآية: ﴿ إنَّ الذي فرض عليك القرآن لَرَادُّكَ إلَى مَعَادٍ﴾.

أما عن الشعب الذي قصدته وتحدثت عنه في مقالي المنشور في مجلة «الدوحة» فهو شعب بني هاشم الذي عرف فيها بعد بشعب علي، وهو مكان معروف حتى اليوم في مكة المكرمة، وليس شعب عامر كما ورد خطأً في المقال وصححه الأستاذ حمد الجاسر.

والمكان والموضع المعروف الآن في مكة المكرمة بمكان المولد هو مكان ثبت بالتواتر، وهو في أول شعب علي، وفي مكان المكتبة المعروفة الآن بمكتبة القطان التي بناها الشيخ عباس قطان في نفس مكان المولد المعروف، وهو مكان الدار التي تدعى لمحمد بن يوسف أخي الحجاج وقول الإمام السهيلي: (ولد بالشعب وقيل بالدار التي عند الصفا) يؤكد هذا الكلام. لأن الدار تقع في أول شعب عند بداية الشعب ومُطِلَّةٌ على الصفا وهي أيضاً قرب منطقة سوق الليل التي تحدث عنها تقي الدين الفاسي عندما استغرب قول الإمام السهيلي فقال: (مولد النبي ﷺ بسوق الليل وهو مشهور) فالدار في أسفل الشعب، بل في أوله فيما بقي منه الآن أي ما بقي من أسفل الوادي، وهي في منطقة سوق الليل، وعلى مقربة من الصفا، ولا يستبعد أن بعضهم نسبها إلى شعب بني هاشم لأنها في أسفله وبعضهم نسبها إلى الصفا لقربها منه، وكلام تقي الدين الفاسي ينطبق على ذلك، لأنها في منطقة سوق الليل، أو على مقربة منها.

والحقيقة أنني قد استغربت كثيراً رأي الشيخ العياشي المغربي صاحب رحلة «ماء الموائد» والذي قال فيه ما نصه نقلاً عن محاضرة الأستاذ حمد الجاسر. (وقد عُلِم من كتب السيرة ما وقع من الاختلاف في مولده ﷺ .. والولادة وقعت في زمن الجاهلية، وليس هناك من يعتني بحفظ الأمكنة، سِيَّما مع عدم تعلق غرض لهم

بذلك . . وبعد مجيء الإسلام فقد عُلِمَ من حال الصحابة وتابعيهم ضعف اعتنائهم بالتقيد بالأماكن التي لم يتعلق بها عمل شرعي . . لصرف اعتنائهم لما هو أهم من حفظ الشريعة) إلى آخر ما ذكر.

وهنا الكلام مستغرب، لأن الصحابة ــ رضوان الله عليهم ــ كانوا شديدي التعلق بآثار رسول الله ﷺ.

وهذا ابن عمر رضي الله عنه وكان من أشد المتبعين لأثاره ﷺ وقد روى عن نافع بن عمر رضي الله عنهما، كان يتبع آثار رسول الله ﷺ . . في كل مكان صلى فيه، حتى أن النبي ﷺ نزل تحت شجرة، وكان ابن عمر يتعاهد تلك الشجرة فيصب في أصلها الماء كي لا تَيْبَسَ. («أسد الغابة» ج٣ ص٣٤ «سير النبلاء» ج٣ ص٢١٣»).

عن ابن وهب، عن مالك عمن حدثه، أن ابن عمر كان يتبع أمر رسول الله ﷺ وآثاره، وحاله ويهتم به.

عن عاصم الأحول عمرة قال: كان ابن عمر إذا رآه أحد قال كأن به شيئاً من شدة اتباعه آثار النبي ﷺ «طبقات ابن سعد» ج٤ ص ١٤٤.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما كان أحد يتبع آثار النبي ﷺ في منازله كما كان يتبعه ابن عمر.

قال الزبير بن بكار: (وكان ابن عمر يتتبع آثار رسول الله ﷺ في كل مسجد صلى فيه، وكان يعترض براحلته في كل طريق مر بها رسول الله ﷺ، فيقال له في ذلك، فيقول: (أَتَحَرَّى أن تقع أخفاف راحلتي على بعض أخفاف راحلة رسول الله ﷺ). «تاريخ بغداد» ج١ ص ١٧٢).

عن أنس رضي الله عنه: (قال رجل من الأنصار: «يا رسول الله إني رجلٌ ضخم لا أستطيع أن أصلي معك»، وصنع له طعاماً ودعاه إلى بيته وقال «فصلِّ حتى أراك كيف تصلي فأقتدي بك» فنضحوا له طرف حصير كان لهم فقام عليه

السلام فصلى ركعتين) (البخاري وأبو داوود ج١ ص ٤٣٠).

ومعنى الحديث أنه أراد أن يتخذ مكاناً يصلي فيه الرسول فصلى له في البيت لعدم استطاعته حضور المسجد معه لبدانته.

كان ابن عمر رضي الله عنهما يتبع آثار النبي ﷺ في كل مسجد صلى فيه وكان يقف في الموقف الذي وقف به «الإصابة» ج٢ ص ٣٤٠.

فكيف بعد هذا يمكن القول بأن الصحابة لم يهتموا بتتبع آثار النبي ﷺ..

وهناك نقطة على جانب من الأهمية .. وهي أن ما ذكره العياشي من أن الصحابة رضوان الله عليهم قد انشغلوا بتدوين السيرة عن تتبع آثار رسول الله ﷺ ومكان ولادته ونشأته .. هذا الكلام مردود عليه من ناحية:

أولاً: إن تدوين السيرة لم يتم في مكة المكرمة .. وإنما بعد هجرته ﷺ واستقراره في المدينة المنورة فكيف يكونون قد انشغلوا عن ذلك .. ومعظمهم ملتصق برسول الله ﷺ، متتبع لآثاره؟

ثانياً: إن الذين حضروا ولادته وحضانته ﷺ مثل حليمة السعدية والشفاء رضي الله عنهما تعرف مكان ولادته ومسقط رأسه وقد قالت في حديثها المشهور: إنها حضرت الولادة، وأنها رأت نُوْراً يسطع في جميع جهات الدنيا .. والملائكة ترد على رسول الله ﷺ فتقول .. رحمك الله أو رحمك ربك.

فإذَنْ الشفاء رضي الله عنها حضرت الولادة وعاشت وأسلمت فكيف لا يكون هناك من يعرف مكان ولادته .. ثم إن هناك الكثيرين ممن حضروا فترة ولادته عليه السلام وعاشوا بعد ذلك .. بعد بعثته ﷺ ... وكانوا يعرفون أمه وأباه وعشيرته .. ومكان ولادته .. ومكان نشأته ومكان رعيه للأغنام فبعد أن بعثه الله عز وجل نبياً ورسولاً زاد تعلقهم بتلك الأماكن التي كان يغشاها رسول الله عليه الصلاة والسلام أو التي ولد فيها.

وخلاصة القول: أن رسول الله ﷺ ولد بمكة المكرمة، وأن ولادته كانت في ←

كشف الحجب والستور
عما وقع لأهل المدينة مع أمير مكة سرور

- ٢ -

وهذه هي الرسالة:

أصل النسخة المخطوطة محفوظة في مكتبة (جستربتي)، ويظهر أنها في مجموع يحوي ثلاثة كتب، هي الأول منها.

والثاني: «حوادث تاريخ دمشق اليومية من سنة ١١٥٤ إلى سنة ١١٧٦».

والثالث: (تاريخ ذيل حديقة وزراء بغداد للمهذب سعيد السويدي).

وقد كتب تحت اسم الرسالة التي الكلام بصددها جملة: (بخط مؤلفه) وكذا ذيل حديقة وزراء بغداد. وإذا صح أن الرسالة بخط المؤلف فيظهر أنه دفعها إلى خطاط قام بتجميل الصفحات الأولى بوضعها بين خطوط مستطيلة، يظهر أنها مذهبة في العشر الورقات الأولى، كما وضع زخرفة في الصفحة الأولى، ونُقَطاً في نهاية الجمل.

وخط النسخة حسن بالقلم النسخي، وتقع في ثلاث وعشرين ورقة عن ست وأربعين صفحة، في الصفحة الأولى ما نصه: (كشف الحجب والستور، عما وقع

← شعب بني هاشم المعروف الآن بشعب علي، وفي الدار التي عند أسفل الشعب على مقربة من الصفا، وهي الدار التي كانت لمحمد بن يوسف أخي الحجاج والمعروفة الآن في مكة المكرمة بمكتبة الشيخ عباس قطان بسوق الليل وهذا أمر تلقته الأجيال جيلاً بعد جيل. والله سبحانه وتعالى أعلم وبالله التوفيق..

الدكتور محمد عبده يماني

لأهل المدينة مع أمير مكة سرور، تأليف الفقير، المعترف بالتقصير، الراجي عفو ربه الكريم المنجي، السيد زين العابدين ابن السيد محمد البرزنجي، لطف الله به) وفي الصفحة الأخيرة: (وكان الفراغ من تبييضها ليلة الجمعة ٩ من محرم الحرام افتتاح سنة ألف ومائة وخمسة وتسعين من هجرة سيد المراسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين).

وليس في النسخة من الإشارات كتغيير بعض الكلمات، أو إضافة بعضها، أو التصحيح، ما يفهم منه أن النسخة بخط المؤلف. (الصفحتان الأوليان من أصل الرسالة في الصفحة المقابلة).

(الصفحتان الأخيرتان من أصل الرسالة في ص ٥٩٤).

وقد تكون النسخة قدمها المؤلف لأمير الحاج الشامي محمد باشا، ويستأنس لهذا من إضافة الرسالة المتعلقة بتاريخ دمشق إليها.

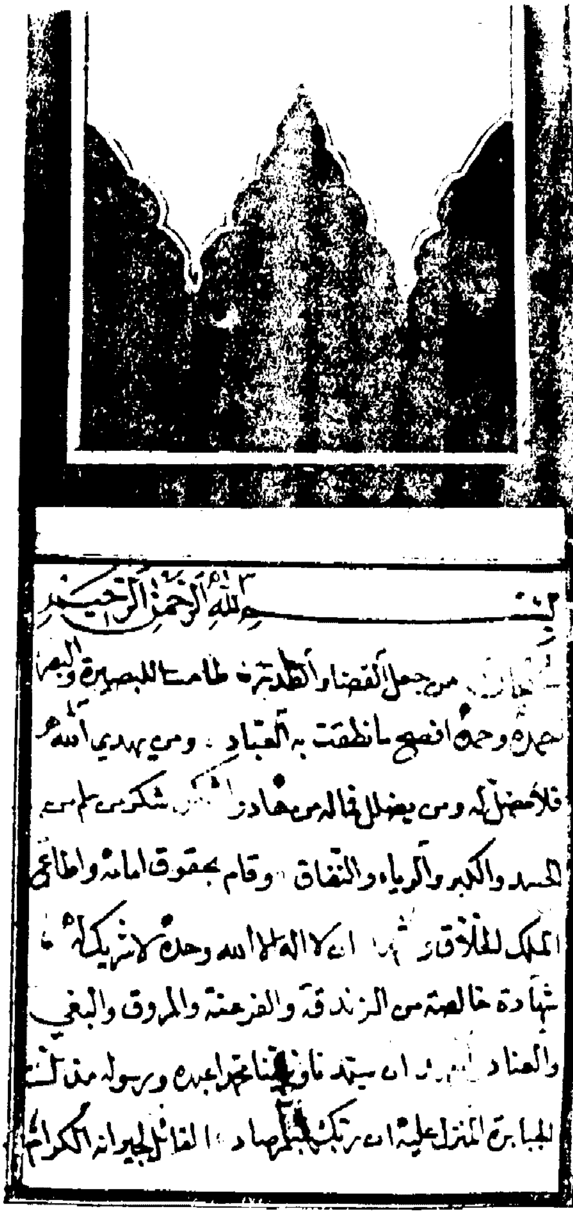
وقد اكتفيت بعرض صور أربع صفحات منها عن الاسترسال بالإطالة في وصف المخطوطة، ولم أُرد إثقال القارىء بكثرة الحواشي والتعليقات، بل اكتفيت بمحاولة تقديم الرسالة بنصها، مع إشارات موجزة إلى ما يحتاج إلى تعليق مما ورد فيها.

وهناك ملاحظات يجب أن لا تغيب عن ذهن القارىء، منها ما يتعلق بأسلوب الرسالة:

١ ــ يكثر فيها اللحن، لأن المؤلف التزم السجع، وكثيراً ما يحمله هذا على عدم التقييد بقواعد الإعراب، وقد اكتفيت بالإشارة إلى بعض الكلمات التي لم تُعْرَبْ بوضع علامة الاستفهام بجوارها (؟).

٢ ــ في الرسالة كثير من الكلمات العامية، أوردتها على عِلاَّتها، ومنها ما لم يتضح لي صوابه.

٣ ــ وقع في المخطوط طَمْسُ بعض الكلمات، مما لم تتضح لي قراءته، فوضعت



بسم الله الرحمن الرحيم

[illegible] من جعل القضاء والقدر طاعة للبصيرة والبصر

[illegible] وحمده انصح ما نطقت به العباد ، ومن يهدي الله

فلا مضل له ومن يضلل فما له من هاد [illegible] شكر من سلم من

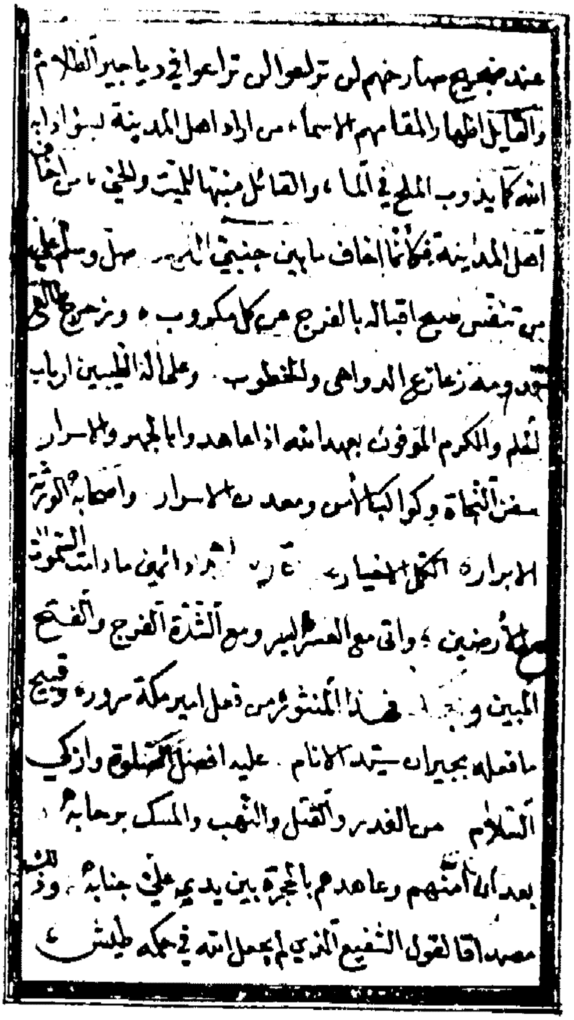
الحسد والكبر والرياء والنفاق ، وقام بحقوق امامه واطاع

الملك الخلاق ، [illegible] ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ،

شهادة خالصة من الزندقة والفرعنة والمروق والبغي

والعناد [illegible] ان سيدنا [illegible] عبده ورسوله [illegible]

[illegible] المنزل عليه [illegible] الجهاد ، القائل الجيران الكرام



عند ضجيج صارخهم لن ترعوا الى تراعوا في دياجير الظلام

والقائل اظهار المقام [illegible] الاسماء من اراد اهل المدينة بسوء اذابه

الله كما يذوب الملح في الما ، والقائل فيها الميت والحي من [illegible]

اهل المدينة فكأنما اخاف ما بين جنبي [illegible] صلى وسلم عليه

من تنفس صبح اقباله بالفرج من كل مكروب ، وزحزح [illegible]

[illegible] ومنه زعازع الدواهي والخطوب ، وعلى آله الطيبين ارباب

[illegible] والكرم الموفون بعهد الله اذا عاهدوا بالجهر والاسرار

سفن النجاة وكواكب الانس ومعدن الاسرار ، واصحابه الورثة

الابرار الكمل الخيار [illegible] ما دامت السموات

[illegible] والارضين ، واتى مع العسر اليسر ومع الشدة الفرج والفتح

المبين [illegible] فهذا المنثور من فعل امير مكة [illegible]

ما فعله بجيران سيد الانام ، عليه افضل الصلوة وازكى

السلام من الغدر والقتل والنهب والمسك [illegible]

بعد ان امنهم وعاهدهم بالحجرة بين يديه على جنابه ، [illegible]

مصداقا لقول الشفيع الذي لم يجعل الله في حكمه [illegible]

(الصفحتان الأوليان من المخطوطة)

جزيتهم اليوم بما صبروا انهم هم الفائزون • وقد بواعي الانتهاك
بارواحكم فقد وكم وروا وضحكم • وقد ورد في الخبر عن صاحب
هذا القبر الاعظم صلى الله عليه وسلم انه قال من قتل دون
ماله وروحه فهو شهيد • جعلني الله واياكم من اهل التوحيد
ان احسن الكلام وابلغ النظام كلام الله الملك
العلام • والله سبحانه وتعالى يقول على لسان نبيه الانام
ويقول لهم يهتدي المؤمنون • واذا قرئ القران فاستمعوا
له وانصتوا لعلكم ترحمون • اعوذ بالله من الشيطان
الرجيم • بسم الله الرحمن الرحيم يا ايها الذين امنوا اصبروا
وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون • بارك الله لي ولكم
في القرآن العظيم ونفعني واياكم بالايات والذكر الحكيم
وامركم عباد الله بما امركم الله به من حسن الطاعة فاطيعوه
وانهاكم واياي عما نهى الله عنه من قبح المعصية فاتقوا
الله ولا تعصوه • واستغفر الله العظيم لي ولكم ولوالدي
ولوالديكم ولجميع اخواننا في الاسلام • واسمحه بجلال
حسن الختام •

حسن الختام • وهذا آخر ما تيسر جمعه من هذه الرسالة • مع
غاية من الاختصار في المقاله • لضيق الوقت وخشية التطويل
وستندها انشاء الله بما يصدر [illegible] العامرة من الامور التي
يشاهدها الخاص والعام • والمرجو ممن يقف عليها ان ينظر
بعين القبول والانصاف اليها • فان راى خللا اصلحه بقلمه
او [illegible] ستره بذيل كرمه • فقد قيل من صنف فقد استهدف
ومن انصف فقد استعفه وعلى كل حال فقد اجاد الشاعر حيث قال
كتبته مجتهدا • وليس يخلو من غلط
فقل لمن قد لا سني • من ذا الذي ما ساء قط
والله الموفق للصواب • واليه المرجع والمآب • وكان
الفراغ من تبييضها ليلة الجمعة ٩ من محرم الحرام
افتتاح سنة ١١٩٠ الف ومائه وتسعين
وتسعين من هجرة سيد المرسلين
صلى الله عليه وعلى آله
وصحبه اجمعين
والحمد لله رب
العالمين
م

(الصفحتان الأخيرتان من المخطوطة)

مكانها نقطاً (. . .) وهي كلمات قليلة.

وأهمُّ من كل ما تقدم: ورودُ عباراتٍ لا تستساغ شرعاً بالنسبة إلى جناب المصطفى ــ عليه أفضل الصلاة والتسليم، ــ من التعليق به والاستجارة، ودعائه وغير ذلك من الأمور التي هي من أنواع العبادة، مما لا يجوز صرفه إلا لله وحده، ونحمد الله تعالى أنَّ مثل هذه الأمور أصبحت لا تخفى على كل منصف، ولهذا لم أرَ ما يدعو إلى التعليق على الجمل الواردة من المؤلف من هذا القبيل، إذْ هي مما يدركه القارىء، ويدرك مجانفته للحق متى أراد سلوك النهج السويِّ، سالكاً سبيل الإنصاف، نائياً ما استطاع عن متابعة الهوى ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾.

وها هو نص الرسالة:

بسم الله الرحمن الرحيم: سبحان من جعل القضاءَ والقدرَ طامِساً للبصيرة والبصر، أحمدهُ وحمده أفصح ما نطقت به العِباد، ومن يَهْدِ الله فَلاَ مُضِلَّ له، وَمَنْ يُضْلِلْ فما لَهُ من هَادٍ، وأشكره شكر من سلم من الحسد والكبر والرياء والنفاق، وقام بحقوق إمامه وأطاع الملك الخلاق، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، شهادة خالصة من الزندقة والفرعنة والمروق والبغي والعناد، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله مُذِلُّ الجبابرة المنزل عليه: ﴿إنَّ رَبَّك لَبِالْمِرْصَاد﴾ القائل لجيرانه الكرام عند ضجيج صارخهم: «لن تُرَاعُوا، لَنْ تراعوا» في دياجير الظلام، والقائل إظهاراً لمقامهم الأَسْمَى، «من أراد أهل المدينة بِسُوءٍ أذَابَهُ الله كما يذوب الملح في الماء»، والقائل مُنَبِّهاً للميت والحي: «مَنْ أخاف أَهْل المدينة فكأنما أخافَ ما بين جَنْبَيَّ»[1]، اللَّهُمَّ صلِّ وسلم على من تنفَّس صُبْحُ إقباله بالفرج عن كل مكروب، وزحزح طالِعُ قدومه زعازِعَ الدَّوَاهي والخطوب، وعلى آله الطيبين أرباب الحلم والكرم، الموفون بعهد الله إذَا عاهدوا بِالْجهر والأسرار، سفن النجاة وكواكب الأَمْنِ ومعدن الأسرار، وأصحابه الورثة الأبرار، الكُمَّلِ الأخيار، صلاةً وسلاماً دائمين مادامت السموات مع الأَرَضِين، وإنَّ مع العسر اليسر، ومع الشدة الفرج والفتح المبين.

وبعد: فهذا المنثور من فعل أمير مكة سُرور، وقبيح ما فعله بجيران سيد الأنام، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، من الغدر والقتل والنهب والمسك برحابه، بعد أن أمَّنَهُمْ وعاهدهم بِالْحُجْرَةِ بين يَدَيْ عَلِيٍّ جنابهِ، وذلك مِصْدَاقاً لقول الشفيع الذي لم يجعل الله في حكمه طَيْش، حيث قال: «يكون هلاك أُمَّتي على يَدِ أُغَيْلِمَةٍ من قُريش»، وحيث قال رسول رب العز والسموات: «ليخرُجَنَّ أَهْلُ المدينة منها أعمر ما كانت نصفاً رطباً»، قيل: من يخرجهم، قال: «أمراءُ السوء»، وحيث قال ﷺ: «إن من أشراط الساعة إذاَ ساد القبيلة فَاسِقُهم، وكان زعيم القوم أرذُلهم، وأُكْرِمَ الرجل مخافة شرِّهِ لا للطاعة، وحيث قال سيدكم، ورجاؤُكُمْ: إن من أشراطها إذا كانت الفاحشة في كبارِكُمْ والملك في صغاركم والعلم في رذالكم، والمداهنة في خياركم، وحيث قال مَنْ حَظَّ على الجُمُعَةِ والجماعة: «إذا رأيتم الحُفَاةَ العراة يتطاولون في البنيان فانتظروا الساعة»، لأنهم لا يشتغلون بالذكر ولا بالعلم ولا بِالجهاد، وإنّما هُمْ من الأعراب الذين يَسْعَون في الأرض الفساد، وحيث قال خاتم أنبياء الله ورسله: «إنَّ من أشراط الساعة إذَا تَوَلَّى الأمر غَيْرُ أَهْلِه»، وحيث قال المظلل الغمام، الطاهر المعصوم فارس الإسلام الذي جَرَّدَ حُسَامَهُ: «يأتي زمان على أُمتي لا يُتْبَعُ فيه العالِم، ولا يُسْتَحْيَا فيه من الحليم، ولا يُعَزُّ فيه الكبير، ولا يُرْحَمُ فيه الصغير ويقْتُلُ بعضُهم بعضاً على الدنيا، قلوبهم قلوب الأعاجم، وألسنتهم ألسنة العرب، ولا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، يمشي الصالح فيهم مستخفياً، أوْلئك شِرارُ خلق الله، لا ينظر الله إليهم يوم القيامة»، ولله درُّ القائل حيث قال، وأبدع في المقال:

أيـا دَهْـر أَعْمَلْتَ فِينَـا أَذَاكَ ... وأوليتَنَـا بَعْـدَ وَجْـهٍ قَفَـاكَـا
قَلَبْتَ الشّرار علينـاَ رُؤوسـاً ... وأَجْـلَسْتَ أَرْذَالَـنَـا مُسْتَـوَاكَـا
فيـا دَهْـر إنْ كُنتَ عَـادَيْتَنَـا ... فَهَا قَدْ صَنَعْتَ بِنَـا مَا كَفَـاكَا

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، وهي في مضَانِّها أظهر من شمس الظَّهيرة، ومن أراد عن ما أوردناه كشف القناع، فليراجع من كتاب «الإشاعة» لِجَدِّي(٢)

حَدِيثَ حَجَّةِ الوداع، فحيث تَمَّ مَا أَوْرِدْنَاه من كلام الصادق، الذي ضوء بيانه أشرق من الفجر الصادق.

فأقول، وبحول الله أصول: ولما كان شهر رجب الحرام الأصب، سنة ألف ومئة وأربع وتسعين، من هجرة صاحب العز والتمكين، أقبل أمير مكة إلى المدينة يسير، وكتب كتاباً لأهلها بالأمانِ للصغير والكبير، ثم بعد الوصول، أظهر المسكنة والخمول، فانكب عليه أغاةُ القلعة، وأحمد المكي وأمين، متشفعين عنده بسيد العالمين في ضريحه وبين يديه، وهو حيٌّ في قبره يَرَى مَنْ لديه(٣)، ولم يك لهم معه سابقية أذِيَّةٍ وعصيان، إلاَّ عدم الرِّضا بإدخال الذين حاربوا الله ورسوله والسلطان، فقال: قد عفا الله عنكم أجمعين، إكراماً لإمام المرسلين، وأَمَّنَهُمْ أماناً بين يَدَيْ سَيِّدِ الأنام، يعم الخاص والعام، ثم صنع بَاباً من فِضَّةٍ لباب الوفود، والله أعلم أنه عليه مردود، فمن ما رَسَمَهُ على الباب الخارج عن الحدِّ في الإطناب، المشعر بإظهار البغي والعصيان، على ملك آل عثمان: عمر بيت الله سلطاننا سرور لَهُ رَأْيٌ وَعَقْلٌ مُصِيب، كذا وغير ذلك، مما هو ثابتٌ هنالك، وقد أدْخَلَ القُمقُمْجيَّ ومن معه من الأخوان، الذين ورد بالنفي فيهم (الفرمان)، وأشاع من مكره وخِبِّه، أنه لا يروع آمناً في سِرْبِهِ، وأنه إذا خرج يخرجهم معه، ولا يبقيهم بعده جُمُعَة، وكان وصوله تاسع رجب، فأظهر العَجَب، وهو أنه لما كان يوم السادس والعشرين دعاهم ضحوةَ النهار إلى داره، وهم بأمانةٌ وأيمانه مُغْتَرِّيْنَ، فحين بين يديه أجلسهم، مسكهم وحبسهم، وأرسل عسكره بسرعة، وأمرهم بملك القلعة، فحين رأى أهل القلعة عسكره مقبلين، قفلوا الباب وتَرَّسُوا في الحين، فأرسل إليهم يأمرهم بتسليمها، وعليهم الأَمَانُ، فقالوا: ما نسلمها إلا إن كان معك أَمْرٌ من حضرة مولانا السلطان، وأما أَنْتَ فكيف نأمُنك أو نُطِيع أَمْرَك وقد غدرتْ حكامنا و ـرت مكرك، ثم رضوا بالخروج والمهلة، ويخرج كل منهم ماله وأهله، فامتنع وبغى، وتجبر وطغى، ورمَتْ جُنُودُهُ الذين أرسلهم لملك القلعة الباغين، بالبنادق على من بمساكنها مقيمين، وقال بَيْرَقْدَارِهم: يخرجون وهم كلاب، فَرُمِيَ من القلة الشامية برصاصة فوقع ميتاً على الباب، فحمل على

القلعة أمِيرُ مكة بجنوده، وقد أقام أعلام البغي بنوده، ونهبَتْ عساكره ما حول القلعة من الدُّور وأشعلوا بها النار، وأخرجوا النساء عارياتٍ مسفراتٍ، ودمعهن كالوابل المدرار، وسدَّد على أهل القلعة العيون، وأسَالَ بذلك منهم العيون، وهو مع ذلك يرى أنه على الحق المبين، ولسان حاله يقول: ﴿إن أَصْبَحَ مَاؤُكُم غَوْراً فَمَنْ يأتِيكُمْ بماءٍ مَعِينٍ﴾، وكان عدد جنده خمسة الآف، وحمل معهم ما يقارب ألفين من عبيد أغوات الحرم، وجماعة القمقمجي، وبعض من الأصناف، وتَرَّسَ على القلعة من اثني عشر مكان، فلم يصب من فيها ضرر بوقاية الله المنان، ثم حمل مقدار ألف من الأرض بالسلالم، فلم يصل منهم أحدٌ إلى جدار القلعة وهو سالم، فتركوها وولوا الأدبار، فنزل ثلاثة من القلعة إلى السلالم وأشعلوا بها النار، واشتدَّ عليهم الحصار، فثبتوا يومين وثلاث ليال، ثم نزل بعضهم في اليوم الثالث على الحبال، وسبب هذا الخوف والنزول، سِحْرُ ساحره المخذول، ونَقْبٌ صغير، في قلة باب الصغير، والدالُّ له على النقب المفسد القمقمجي، والشَّقيُّ شَقْلِبْها، وكلٌّ منهم آذى المدينة وشَقْلَبَهَا، وقد أمر سرورُ عسكره بقتل من نزل من السور، فقتل ثمانية عشر رجلاً، أسكنهم الله جنته مع الحور، وقتل من جماعته نحو خمس وستين، وقيل ما ينوف على السبعين، وأباح القلعة وأموالها، وهتك نساءَها ورجالها، ثم مسك الباقين بعد أن رموا السلاح طائعين، وباعوا أمتعتهم ينادون عليها بِالحَرَاج في الأسواق، مستحلِّين ذلك والناس يشاهدون وتذرف منهم الآماق، ويشتمون أهلَ المدينة بالليل والنهار، ولا ينادونهم إلا بِيَا يهود يَا كفار، وقد فعل بعد أن أخذ القلعة وقتل من قتل ومسك من مسك من الأشخاص، تَعْشِيرةً ونِظَاماً ما رآه العام والخاص، وجملة من مسك من الذين كانوا مُحَاصَرِيْنَ نَيِّفاً وخمسين، ثم مسك أيضاً من أعيان أهل المدينة، المتردِّين برداء الوقار والسكينة، والسبب في مسك الباقين إلقاء بعض المنافقين كالقمقمجي، الذي لم يفعل أفعاله نصراني ولا يهودي، والمفتن المفتي السمهودي، وأراد أن يمسك بعض الخطباء والسادات المحترمين، فكان الله لهم أعظم حافظ ومُعين، ثم لما تَمَّ له الحال، أخذ (شَقْلِبْهَا) وفي عنقه الأغلال، وأقام بالمدينة بعد أخذ القلعة شهراً،

وخرج منها عصراً، والحال أنه بعد أن وصل، وفعل بالمدينة ما فعل، كتب عرضاً إلى الدولة العلية، على لسان أهل المدينة النبوية، ومضمون العرض: أنه لما وصل الحاج المصري بعد أن عاد من المدينة وبِالْخَيْفِ نزل، قاتلته العرب من كل جبل، وقتلوا الحجاج، وقطعوا السبل والفجاج، ركبنا عليهم غيرةً لحضرة السلطان، فانتصرنا عليهم وقصدنا زيارة جدنا سيد الأكوان، فلما وصلنا إلى البلدة، وجدنا أهلها في غاية من الكرب والشدة، والقتل والنهب والطعن والضرب، وانقطاع المسالك ــ والحال أن أهل المدينة على خلاف ذلك ــ فأرسلنا إليهم بالأمان، والإكرام والإحسان، ثم بعد أن أقمنا بالمدينة اثنيْ عشر يوماً، وقفنا على كتب من كبارهم يستصرخون بها لقتالنا باديةً وقوماً، فمسكنا عند ذلك رؤساءَهُم المفسدين، وأبقيناهم عندنا مُصَفَّدِين، وأرسلنا لأغواتهم بالأمان، وأمرنا بعض عسكرنا بالدخول معهم في القلعة، خوفاً من الخديعة والخذلان، فأغلقوا القلعة ورموا بالرصاص على الأوادِم والبهائم والشرايف، وتركوا كُلَّ مَنْ بالمدينة وهو مرعوب خايف، فحملنا عليهم بعساكرنا المنصورة، وقاتلناهم قتلاً أحرَّ من حَرِّ الظُّهِيرة، وفتحنا القلعة يوم التاسع والعشرين من رجب الحرام، وأسكنَّا بها وزيراً من طرفنا والسلام.

وأمر أَهْلَ المدينة والمجاورين بمهر العَرْض المزوَّرِ في الحال، فَمَهَرُوهُ خوفاً على الروح والعِرْض والمال، ثم عزل أحمد أغا شيخ الحرم، وأمره بالمسير معه إلى بيت الله المحرم، فصادف بعد عزله ورود الأمر السلطاني بنصب عَلي أغا، الذي كان في السابق مصاحباً للملك العثماني.

ودخل الحُجْرَةَ وأتباعُه قبل رحيله بساعة، وطلب سُلَّماً من السلالم، وتهجَّم على قبر الفاتح الخاتم، ولم يَخْشَ من تصرفاته وذلك لوفور البغي، ولم يتذكر أنه ﷺ في قبره حي، ثم رمى بكتاب، وأخرج شيئاً من الحجرة قيل: إنه تراب، وبات ثلاث ليال مع أتباعه والحُرَم، وطرد جميع الأغوات الطواشية إلى مؤخَّر الحرم، فشاع فقْدُ الكوكب الدُّرِّي واشتهر، ولم أقف على حقيقة الخبر، ثم أخرج

المربوطين، وعددهم ستة مع ستين، فساقهم ماشين على أقدامهم، وفي أعناقهم السلاسل والقيود، محيطة بهم عساكره والجنود، فعلا البكاء والنحيب، من البعيد والقريب، ونادوا: يا رسول الله جيرانك، عودتنا فضلك وإحسانك(٤).

وكان رحيله يوم الثاني والعشرين من شعبان، والقلوب قد استعرت بالنيران، وسار من الشَّرْق، وبعد مسيره سَحَّ علينا الْوَدْق، وقد أقام بالقلعة وزيراً مختالاً كفوراً، فبعد سفره جاءنا الخبر الصحيح عن العمدة، أنه أمر بزينة مكة وينبع وجدة، فزينوهم امتثالاً لِأمره، وخوفاً من قهره، ولما توطن وزيره القلعة ومن معه جعلوها دارَ لَهْوٍ وغنا، وخمور ومفاسد وزنا، وآذَوْا الكبار من أهل المدينة والصغار، وقالوا: هكذا أُمِرنا أن نصنع بهذه الكفار، وأبطل وزيره الشرعَ الشريف، وأهان العالم والصالحَ والقويَّ والضعيف، وجعل على إجازة . . . . . ريال(٥)، وتحدَّث بأخذ ثلث ما يرد من الدولة العثمانية، وأخذ بيوت المال، وأقام على العُتُوِّ والطغيان، وأفطر هو ومن معه بثبوت العدول شهر رمضان، ولم يكفهم هذا حتى هتكوا الحُرَمَ، وآذوا مُخَدَّرات أهل الحرم، وصاروا يخرجون في الظلمة، ويتعرضون لكل حُرَّةٍ وأمة، ولقد زاد بهم الحال، حتى شوهد منهم بعض رجال مواقعين بعضَ من أغواهن الشيطان، عند باب قلعة السلطان، وبغوا واستكبروا استكباراً، وفعلوا ذلك نهاراً جهاراً، غير محترمين جوار مُشَرِّعِ الشرائع، بل استحلوا الورود من خَبَال هذه المشارع، لأنهم لا يجدون مَنْعاً من مانع، ولا دَفْعاً من دافع، فانتدب لذلك أهل الأعراض، وجعلوا نفوسهم أغراضاً للحق لَا للأغراض، مشمِّرين للقيام بحقوق الجوار، باذلين مُهَجَهُم في حفظ هذه الديار، مُرَابِطِينَ في سبيل الله آناءَ الليل وأطراف النهار، لإزالة هذه الخبائث والأقذار، فاجتمعوا في بيتٍ وتعاضَدُوا، وتلازموا في الله وتعاهدوا أنهم إخوان، وللحق أعوان، وأنهم يُخْرِجُونَ من القلعة السلطانية هذه الفرقة الشيطانية، فظهر الخبر وشاع، وملأ الأسماع، فَبَعْدَ أن بلغ الوزير الخبر، أضمر على قتلهم وأَصَرّ، فشرعت عساكره بالبطش في الخلق والأَذِيَّةِ، فعند ذلك قامت الرعية، فأغلَقَ الوزيرُ باب القلعة، ورمى بالمدفع والبنادق، على بيوت المدينة ومن فيها من

الخلائق، واشتدَّ عليهم الحصار ولم يبالوا بما وقع وما صار، وقال لسان الأقدار: ﴿وسَيَعْلَمُ الكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّار﴾ واستعرت نار القتال، إلى ثالث عشر شوال، وكان قيام الرعية لقتال هذه الطائفة أرباب البغي والعدوان، ضحوية الرابع والعشرين من رمضان، ولم يتخلف أحدٌ عن قتالهم إلا الأغوات الطواشية، مراعاة لأمير مكة، وبغْضاً لأهل المدينة النبوية، فبلغ خبرهم إلى (حَرْب) بأنهم لم يعينوا في هذه الحرب، فكتبوا لهم كتاباً، أرعبوا به قلوبهم إرعاباً، ومضمونه: قد بلغنا ما فعلتم أيها الزنج الباغية، والفئة الخائنة عيشَ السلطان، والطاغية، بجيران أشرف القبائل من البوادي والحضور، وإعانتكم لهذا الخارجي أمير مكة سرور، فإنْ لم تنتهوا عمّا أنتم فيه من الخيانة والنفاق، لَنُجَرِّدَنَّ عليكم السيف الذي هو أصدق أنْبَاءً من الأوراق. فَضُرِبَتْ عليهم الذِّلةُ، وتعاهدوا مع أهل المدينة وهم أذِلَّة، فبعد انصراف أعيان أهل المدينة من الجمعية، ظهرت أشايِرُ نَقْضِ العهد منهم والتعرض للأذِيَّةِ، وذلك أنهم طلبوا الإعانة من بني عليٍّ وبني سَفَر، وبذلوا لكل منهم عشر ريالات على أنهم يُبْقُوا أهلَ المدينة خبراً بعد أثر، فبلغ خبرهم أهلَ البلاد، فارتعبت منهم الأكباد، لأنهم صاروا بَيْنَ عَدُوَّيْن، كاللّيث بين فارِسَيْن، فبينما هم في الأمر مفكِّرين، بلغهم أنه وصل ابن جُوَيْبِر وهو للوزير مُعِين، لأنه الشيخ الذي ولاه أمير مكة سرور، لازال مذموماً مدحور، فحصل الرعب، وأيقنوا بالقتل وانتهاك الحرم، وأن جُرْحَ الزنج قد انحسم، وقد زلَّت بهم القدم، ولم يدرون (؟) ما جرى به القلم من القِدَم، فبينما هم في غاية القلق والضجر، متضرعين إلى الله بسيد الملائك والبشر[٦]، بلغهم أنَّ جُرُودَ محمودٍ ونصَّار وصلَتْ، وبِآبَارِ سيدنا علي رضي الله تعالى عنه نزلَتْ، ففرح أهلُ المدينة الفرح الشديد، وخافت بنو عَلِيٍّ وبنو سَفَرٍ والزنج والعبيد، فضجَّ أهل المدينة من جميع الأماكن مهللين ومكبرين، وساء إن شاء الله صباح الزِّنْج المنذَرين، فالذين وصلوا تلك الليلة من مشائخ حرب محمود ونصار، وقالوا:

نحن جئنا نصرة لجيران المختار، ونزلوا بخارج السُّور، ونادوا: اخرجوا من القلعة يَا قوم شرور، فلم يردُّوا جواب، نبحوا كالكلاب، ثم بعد يومين جاء الصديق

الناصح، وأخبرهم أن أمير المدينة صالح، صاح في بني علي وبني سفر، وأوعدهم بالدراهم ونهب جيران طه المفتخر، فتوجه إلى نائب شيخ الحرم، بشير أغا المحترم، من السادة الخطباء، والسماسرة النجباء، مولانا الأفندي عبد الله الخليفتي المفتي الحنفي، والوالد مولانا السيد محمد البرزنجي، والعم السيد حسن أخيَه، والخطيب قاسم مغلباي، وابن عمه، والخطيب محمد البَرِّي ومن يليه، ومن الرعية عبد الله الطيار وبعض التجار، ومن العساكر الشهم الأبيُّ الشاب الضرغام محمد سعيد المَغْيربي، وبقية رؤساء العساكر، وكل واحد من الجميع كالليث الزائر، وطلبوا منه أن يخرج لهم من بيت المال، مايستعينون به على القتال، فوعد وأخلف، وأفسد البلاد وأتلف، وامتنع وتَزَرْبَن، ودخل داره وتَمَلْعَن، إعانة للزنج اللئام، وأذيَّةً لجيران النبي عليه الصلاة والسلام، وأمر بترك القتال، ووضع السلاح وتفرق الرجال، وأراد بعد أن يتفرقوا يسجن كبارهم بالخديعة، العاجلة السريعة، ويرسلهم إلى أمير مكة الكئيب، لأنه قال: السلطان بعيدٌ وهذا قريب، فأجابه الحاضرون من حقير وجليل: سيف مولانا السلطان طويل، فحين علموا بذلك، مسكوا بالرجال والشباب والصبيان جميع المسالك، ومعهم العلماء والصلحاء، والسادات والخطباء والمجاورين، يحمون مدينة طه الأمين، من كل شيطان رجيم، وزنجي لئيم، فاجتمع أعيان البلدة والتجار، ووضع كل منهم بقدر طاقته من الدرهم والدينار، وقد طَلَّقُوا من الجفون الْكَرى، إطاعةً لحضرة السلطان وإظهاراً لدين خير الورى، وفتحوا أبواب البلاد بالليل والنهار، وتقلد بالسلاح الكبار والصغار، ثم جمعوا بعد ذلك جمعية، وولوا عُبَيد قبيطي (كتخدا النوبجتية)، وجمعوا جمعية أخرى، وقلدوا محمد سعيد المغيربي حِسْبَةَ السُوق، وهو بها أحرى، ثم أشار على الناس أمير الصرة العثمانية سابقاً طاهر أفندي وبعض السفط المجاورين، أن يجعلوا لَغْباً تحت القلعة . . . (٧) وقد أعد لهم أهل المدينة أنواع الاستعداد والأرباج (؟) فمن ذلك عَشْرُ سلالم تصل إلى الأبراج، ولم يقاتلوهم بعد القتال الأول إلاّ ليلة سابع شوال، حمل عليهم من جميع الجهات الدُونُ والعال، فوصلوا من خارج السور إلى باب الصغير وباب الشامي، ومن داخله إلى عَيْنْ الساحة، مُنْكَرِّيْنَ كالسَّيْلِ الطَّامي، ومعهم النساء والولدان،

والكهول والشبان، ثم رجعوا سالمين إلى آجامهم، وتركوهم مذعورين يصرخون من حُمَامِهم، ثم يوم أربعة عشر من شوال أُخْبِرْنَا أنَّ ابنَ جُوَيْبِر قصد المدينة ومعه طائفة من الرجال، وكان يوم الجمعة، فصاح محمود شيخ (حرب) في من معه، وركب جواده وأخذ عنانه، واستصرخ أصحابه وأعوانه، وقال: أنتم لأهل المدينة معاهدون، ولزادهم آكلون، فمن رأى منكم ابنَ جُوَيْبِر يرميه، ولا يرحمه ولا يبقيه، ومَسَك المتارِس، وأخذ طائفة ومضى بها إلى الحَرَّةِ، ونظر شمالاً ويمين، فلم يجد أحداً من البغاةِ العادِين، ثم بلغ أهل المدينة أنَّ الطواشية للعهد نقضوا، وأدخلوا ابنَ جُوَيْبِر وللأذِيَّةِ تعرَّضُوا، فذهب لتحقيق الأمر من طرف المدينة عبد الله جاووش، فظهر له أن حديث الراوي مخدوش، فلما وصل إليهم عبد الله جاووش لبسوا السلاح ووقفوا عند الباب، فأقبل أمير المدينة صالح، ومعه طائفة من قوم ابن جُوَيْبِر المرتاب، فغلقوا الباب، وتَرَّسوا السُّور، ولزموا المتارس والدُّوْر، ولبس أهل المدينة أسلحتهم، يحمون بيوتهم، وأمكنتهم، ثم بعد العصر بقليل، أتى أُخُو ابْنِ جويبر الذليل، ومراده السعي بالصلح بين الفئتين، بالصِّدق لَا المَيْن، فطلب من أهل المدينة أن يُرْسِلُوا معه بعض السادات والعلماء إلى الوزير، ويأمره بالخروج من القلعة كَظْماً ذليلاً حقير، فأرسل معه أهل المدينة الشيخ محمد بن عبد الله، والسيد حسين العلوي بَالْفَقِيه، فخاطبه كلهم بما يرضي أهل المدينة ويرضيه، فطلب الهُدْنَة، وبالخروج أذعن لهم، لكن بشرط أن يأتوه في غدٍ بأعيان البلدة ومشائخ العربان، وأن يحضر الجميع كلهم، فحينئذ يأخذ منهم المواثيق والعهود، ويطلقون له القيود، وأنه يخرج ومن معه من المدينة، وعليهم السكينة، لا السكينة، فوقف الرمي إلى أن أقبل الصباح، وطلع الفجر ولاح، أتى محمد أُخُو ابْنِ جُوَيْبِر ومعه رؤساء البادية مبكر، فتوجه الحقير(٨) إلى الشيخ محمد بن عبد الله، والسيد حسين، ومضى بهم إلى تقبيل أعتاب سيد الكونين، فأشار علينا الشيخ أن نستأذن نائب شيخ الحرم النبوي، ليكون خطابنا للوزير قوي، فمضينا إلى داره، وأخبرناه عن الوزير وأخباره، وأشار الشيخ أيضاً بعدم الوصول، وإرسال كتاب معه ومع السيد والمرسول، فنفهم مطلوبه وخطابه، ونرد له جوابه، فرضوا بذلك واستحسنوا، وكتبوا الكتاب وختموه، ثم مضى

الحقير[٨]، والسيد والشيخ إلى الكواخي ومشائخ العربان، وأخبرناهم بما اتُّفِق عليه رأيُ الأعيان، فمضى السيد والشيخ وأخو ابنِ جُوَيْبِر وأعطوه الكتاب، وطلبوا منه الجواب بفصل الخطاب، فأَذْعَنَ بالخروج من القلعة، وأنه لا يسلمها إلّا لنائب الحرم، ومن يأتي من الأعيان معه، وأن يعطيه رؤساء أهل المدينة ورؤساء البادية الوجوه والأمان، ويأتوه بمرزوق الجندي لأنه ذو وَجْهٍ وَجيهٍ، في العربان، فتفرق مَنْ هناك، وقد رضي بذلك، وأنهم بعد صلاة العصر يأتونه، وبمرزوق الجنديِّ يجمعونه، فلما كان بعد العصر مضوا إليه، ومعهم أخو ابن جويبر ومرزوق الذي اعتمد عليه، فقال: الآن الليل أقبل والوقت راح، ونحن وإياكم على ما نحن عليه إلى الصباح، ويأتيني مرزوق، ومعه ما يحمل متاعي من النُوق، ويأتيني شيخ الحرم والأعيان، فأُسَلِّمُهم قلعة السلطان، وأمضي إلى البِرْكَةِ أنا ومن معي من القوم، وأُقيم نهاري ولا أبقى لثاني يوم، فحصل للقلوب بعض انشراح، وتواعدوا للصباح، فقال أهل المدينة، إنْ أَوْفَى بعهده كفى الله المؤمنين القتال، وإلاّ فاللَّعَبُ قد تم وَلَّعْنَاهُ وحملنا على القلعة بالرجال، فهوّنا على الشّان (؟) وإنه إنْ أَخْلَفَ، فجميع الأمة تقاتل معكم غيرةً لحضرة السلطان، وحرضنا عليهم بحفظ المتارس، وتطليق الكرا من طَرْفِ كل ناعس، إلى أنْ يبزغ فجر الصباح، وينادي المؤذنُ (حي على الفلاح)، فعند ذلك يظهر الختّال ويستريح البال، فلما كان بعد الإشراق بساعة، أتى نائب الحرم والجماعة، ومعه السيد حسين والشيخ محمد والمفاتي الأكياس، والسيد محمد البرزنجي والسيد حسن، وعبد الله الياس، إلى بيت من بيوت الساحة، وكل منهم قد جعل وشاحه سلاحه، فجلسوا هناك، وأعلمه أخو ابن جويبر أن شيخ الحرم قد جَاك، فحرَّضَ على من معه في كف الأَذِيَّة، فمضى شيخ الحرم ومن معه من كبار البادية وأعيان الرعية، فقال الوزير: أيها الأعيان، إني كنت كافراً والآن قصدي العود إلى الإيمان، ومن آمَنَ حرم عليكم قتاله، وإني والله خائف وخارج لا محالة، فأعيدوا لي الأمان، وفي الغد يأتيني مشائخ العربان، فقال له بعض السادات: هذه أحوالك أحوال الْوَلْدَنَةِ والاستهزان (؟)، وها نحن إلى أماكننا راجعين (؟)، والموعد بيننا وبينك يوم الدين، فصاحت عساكره من جميع الجهات: لا تذهبوا

وراجعوه في الخطاب أيها السادات، وعلى وجوههم قبرة (؟)، ترهَقُها قترة، فأجابوهم: ها نحن متوجهين (؟)، وإنْ كان مرادكم الخروج فخاطبوه كلكم في الحين، والحال أنَّ أمير مكة أبقى عنده ثلاثة بالقلعة من أهل المدينة مجروحين، فقال أهل المدينة: إن كان صادقاً في قوله يطلق لنا المحبوسين، فقال: في غدٍ إذَا فَتَحْنا باب القلعة نخرجهم ونسلم كل منهم وِجاقَهُ . . .(٩)، ثم رمى بكتاب إلى عبد الله الطيار، ووكله في الحساب له . . .(٩) في الدرهم والدينار، فتم الخطاب أنه يبقى . . .(٩) اليوم وتلك الليلة، ويأتيه كبار البادية ويخرج منها وقد عَلَتْهُ الذلة، وأما الزنج فإنهم أرادوا نقض الهدنة، وإِشْعار نارَ الفتنة، فبلغ خبرهم إلى شيخ (حَرْب) محمود، فأخذ بالليل طائفةً معه من الجرود، وقد حذرهم من النهار بكتاب، وأتى بعد العشاء من البقيع إلى الباب، ووضع تحته العتال، وبَوْشَنَ ومن معه من الرجال، فارتعب منهم الجنان، واشتعلت في قلوبهم النيران، وقال: إنْ لم ترجعوا إلى ما أنتم عليه من المواثيق والعهود، وإلا قتلنا الكبار وأخذنا الأموال، وفعلنا بكم ما يفعل المسلمون باليهود، ثم ذهب إلى موضع ونام، جزاه الله خيراً عن جيران خير الأنام، . . .(٩).

ثم لما كان يوم سبعة عشر من شوال، جاءتْ كبارُ البادية والمشائخ والأطفال، وأتَى إليه مرزوق بالركائب، وقال له: اخرج قبل أَنْ تَدْهَمَك المصائب، وأتاه بوثيقة ممهورة بجملة أمهار، وهي أمهار مشائخ حَرْبٍ الذين أَتَوْا نُصْرَةً لأهل هذه الدار، فعند ذلك أُطْلَقَ الوزيرُ المحبوسين، الذين أبقاهم عنده أمير مكة سرور، فانشرحت من أهل المدينة الصدور، وأُخْرَجَ الشراميط وما جاء به من الخروق، وحملها على النوق، وأُخَذَ جميع ما بقى في (الجبخَانة) واقتفى أثر من غدر السلطانَ وخانه، وخرجت عساكره فإذا عددهم ثمانين (؟)، بعد أن كانوا مئة وتسعين، فحين خرجوا عند باب القلعة، ثارتْ منهم بندق بغير قَصْدٍ، فأتتْ أهلُ المدينة مشهرين سيوفهم بسرعة، فصاحوا: عوافي يا أهل المدينة !!، فأنزل الله عليهم السكينة، وقد ضُبِطَ ما رماه الوزيرُ من المدافع على المدينة ما يزاحم أَلْفَيْن، ولم يراعي (؟)، إمام الثقلين، ومن البنادق مالا يُحْصَى ولا يعدُّ، ولا يحصر ولا يحدُّ،

فلم يُجْرَحْ بحمد الله إنسان، سوى بقرة وكلبة وأتان، وقد أُخْبِرَ بعضُ الصالحين أنه بينما هُوَ وَسْنَانٌ، إذْ رآى النبيَّ ﷺ وفي يده الكريمة بعض سواد فسأله عن سببه، فقال: سببه دفع الرصاص بها عن الجيران، وحين خرج الوزير وقومه من الباب الشامي، أقبل عليهم مقدارُ ستِّ مئة من الجرود، وأرادُوا نهبهم، فمنعهم من ذلك أهلُ المدينة ونصَّارٌ ومحمود، وذلك إيفاءٌ بالعهد، ووقوف عند الحد، ولم نفعل بهم كما فعلوا بنا من الغدر والعدوان، بعد العهد والأمان، فأقبلتْ أَهْلُ المدينة على باب القلعة مهللين ومكبرين، ومبيضين لسيِّدِ الأولين والآخِرين، وأَدْخَلُوا في القلعة بعض الأعيان، ليضبطوا ما بقي بقلعة السلطان، فلم يَجِدوا بها غير المدافع وقد تفجر منها نحو عشرين، وقد وضعت عساكر الوزير بناحية (الجبخانة) ناراً فطفَتْ في الحين، وقد أخذ سيدهم أمير مكة من المدافع أربعة [. . .] من مدافع المرحوم السلطان سليمان، ــ تغمده الله بالرحمة والرضوان ــ

ثم بعد العصر أتتْ إلى باب القلعة العساكر بالطِّيَاس، وحضر لحضورهم جَميعُ الناس، فوقفوا صفوفاً بعد صفوف، وتلاعبوا بالأرماح والسيوف، ووقف الجميع إلى الغروب، فَرُمِيت المدافع، ولَجَّتِ الغطارف من كل هيفاءَ خرعوب، وتعايدت الناس، وكثر الفرح والاسْتِئْناس، وقد بدلوا النواقيس بالآذان، والمزامير بالقرآن، فأنشد مؤرخاً عند ذلك الواثق بالملك الكريم الباري، الخطيب عبد الرحمن الأنصاري:

خــرجَ الْــوَزِيــرُ بِــشِــيــعَــتِــهْ　　وقــد انْــقَلَعُــوا أقْــوَى قَــلْعَــهْ
وأتَى فِي الْحَــالِ مُــؤرِّخُــهُ:　　(خَــرَجُــوا الــزُّيُــودُ مِنَ الْقَلْعَــهْ)

وقال خطيب منبر سيد الكونين، المكرم بن الأنصاري حسين ــ ١١٩٤ ــ:

ياحِصْنَ طَيْبَةَ مَنْ أَوْلاَكِ مَنْقَصَةً　　وسَامَكِ بالرَّخَا فِي كُـلِّ ميزان
حتَّى تَوطَّنَكِ هَذَا الْخَبِيثُ فَمَنْ　　بالله زَوَّجَكِ مِنْ كَلْبِ عَدْوَانِ(١٠)

بِلاَ صَدَاقٍ ولاَ عَقْدٍ ولا شَهِدَتْ   شَوَاهِدُ الْحَالِ في تَحْقِيقِ بُرْهَانِ
قَالَتْ: وحَقِّ الَّذي أَنْشَاكَ مِنْ عَدَمٍ   مَـاثَـمَّ شيَءٌ ولكـن إنَّـهُ زَاني

وبات تلك الليلة من الرعية بالقلعة خلق كثير، ورفعوا أصواتهم بالقراءة والتهليل والتكبير، وهم في غاية الانشراح، إلى أن طلع الصباح، ثم استدْعَى نائبُ حرم النبي المختار، محموداً مع نَصَّار، فالبسهما فَرْوَيْنِ (قَاقُوم)، وأَلْبَسَ عِبِياً مَنْ بقى من كبار القوم، ثم جعلتْ رؤساءُ العساكر وأعيانُ الرعية قَيْلَةً لجميع حرب في الكركية، وحضر لحضورهم بعض خطباء منبر سيد البرية، ورؤساء العساكر وأكابر أهل المدينة النبوية، فبعد أن أُكلوا الطعام، وحمدوا الملك العلام، قرأوا الفواتح وتعاهدوا، وتلازموا وتعاضدوا، أنهم من الآن، في الله إخوان، وما مضى من الحقوق لا يُعَادُ بين الطرفين، إلاَّ من له حَقٌّ شرعي أَوْ دَيْن، ومن له عند رجل دعوة شرعية يطلبه مرة وثانية وثالثةً ويشهد عليه اثنين، فإن امتنع جُرَّ إلى شريعة إمام الثقلين، ومن أصلح أو أعان أمير مكة سرور، أَوْ زَيَّنَ مُعيناً له بغير لزوم الأَدب فهو بائقٌ مثبور، ونحن وإيَّاكم عليه، والأمر إلى الله والمصير إليه، فكتبتْ على ذلك الوثائق، وانقطعت العلايق.

ثم اجتمع رأيُ الكبار والصغار، أن يجعلوا (كتخذا) القلعة عبد الله الطيار، فَأَبَى وامتنع، وحلف وارتفع، وقد سكن بها الفتى الصنديد (الجوربجي) محمد سعيد وتحدث بالسكنى معه بعض الموالسين، ومن كان لأمير مكة مُعِين، فجمع عند ذلك أهل المدينة جَمْعِيَّة، وفيها محمود ونصار بن عطية، واتفق الحال على منع سكناهم فيها خصوصاً كمال، وأنْ يسكن بالقلعة السلطانية، كلُّ من حصلت له من أمير مكة الأَذِيَّة، وبعد ذلك كتب أهل المدينة عرضاً لخليفة الله في الأرض طولاً وعرضاً، وأَرْسَلُوا به عبد الله الياس الخطيب، وأحمد أفندي (يَني شِهِرْلي) اللبيب، لأنهم متعلقون بذمته، لقوله ﷺ : «كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته»، وأخبروه في العرض بحقيقة الحال، وطلبوا منه الإعانةَ بالمال والرجال، لأنهم في غاية الكرب والشدة، خوفاً من أَنْ يخرب أمير مكة هذه البلدة، وما شاء

الله أمضاه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ومازال يولي الجميل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

(للرسالة بقيـــة)

الحواشي:

(١) هذه الآثار مما يتعلق بفضائل البلدان، وكان المتقدمون من العلماء يتساهلون في روايتها، إذ لا يترتب عليها شيء من الأحكام الشرعية، ولهذا لم أر ما يدعو لإيراد كلام المحقّقين من العلماء في منزلتها من حيث الصحة.

(٢) هو: «الاشاعة في أشراط الساعة» للسيد محمد بن عبد الرسول [والتعبيد لا يجوز لغير الله] بن قلندر بن عبد السيد البرزنجي الشهرزوري ثم المدني الشافعي المتوفى سنة ١١٢٣ هـ.

(٣) حياته ﷺ ــ وحياة إخوانه من الأنبياء هي حياة برزخية، الله سبحانه وتعالى أعلم بها، ولا شك فيها كما ورد عنه ــ ﷺ.

(٤) دعاء الرسول ــ ﷺ ــ من الأمور المحرمة، لأن الدعاء من أمور العبادة التي لا يجوز صرفها لغير الله تعالى، كما ورد في القرآن الكريم وسنة المصطفى ــ ﷺ.

(٥) كلمة مطموسة في الأصل.

(٦) التضرع إلى الله بسيد الملائك والبشر إن كان المقصود بمحبته وبطاعته وباتباع أوامره وباجتناب نواهيه فهذا أمر محبوب مرغوب، لأن التضرع إلى الله والتوسل إليه بالأعمال الصالحة من الأمور المحمودة، أما إذا كان المقصود التوسل بذاته، ــ ﷺ ــ فهذا من الأمور التي لم ترد عن السلف الصالح.

(٧) كلمة مطموسة، واللغب علوما يعبّر عنه في عصرنا بـ (اللغم) وضع كمية من البارود في حفرة أو إناء محكم ثم إيصال النار إليه لينفجر ويشتعل البارود، فيهدُّ ما أمامه من بناء.

(٨) يقصد بالحقير هنا المؤلف نفسه من قبيل التواضع.

(٩) كلمات غير واضحة في الأصل.

(١٠) لولا الأمانة العلمية التي توجب المحافظة على النصوص، لكان حذف هذه الأبيات وحذف كثير من الكلمات السيئة أولى من اثباتها، وكلمة (عدوان) إشارة إلى القبيلة الكريمة التي منها الوزير الذي تركه أمير مكة رئيساً للجند الذين في القلعة وقد تقدم ذكر اسمه في المقدمة، وهو من أسرة المضايفي المشهورة.

رحلة ناصر خسرو
بين جامعتي القاهرة والرياض

ـ ٢ ـ

الجانب الثاني: القيمة العلمية لهذه الترجمة الجديدة:

اتخذ الأستاذ الدكتور البدلي من التأكيد بأن: (من واجب المهتمين بالدراسات التي تتناول الحضارة الإسلامية المشاركة في إبراز نشاط الأعراق المتعددة التي ساهمت في تكوين تلك الحضارة، فيبرز دارسٌ دَوْرَ الفُرْس، وآخر دَوْرَ الهنود، وثالث ..) إلخ. ـ المقدمة ص ١ ـ اتخذ من ذلك ما دفعه إلى أن:

١ ـ اعتبر (رحلة ناصر خسرو مصدراً من أهم مصادر التاريخ الإسلامي والجغرافيا التاريخية) وألمح بإيجازٍ إلى بعض ما شملته أو تحدثتْ عنه، ومن ذلك (أهم أجزاء الجزيرة العربية في الحجاز ونجد، وتناولتْ جانباً من اليمن) ـ ص ١٠ ـ وأضاف: (فحديث ناصر عن مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة والطائف والأفلاج واليمامة والأحساء ذُو قيمةٍ تاريخية وحضارة كبيرة ... فقد رأى الرحالة من المظاهر الصناعية والعمرانية والنشاط التجاريِّ في قَلْبِ نَجْدٍ ما لم يكن يخطر ببال أكثر المتفائلين والمتحمسين، ولقد أزاح برحلته السِّتارَ عن جهاتِ استقرارٍ كثيرة في جزيرة العرب من الطائف إلى الأحساء مروراً بقلب نجد).

٢ ـ ولم يقف الدكتور البدليُّ عند هذا الحدِّ، بل بنَى عليه اتهام المؤرخين المسلمين (؟) بأنهم يوحون من خلال تناولهم لهذا الجزء من الجزيرة بأنه مُغْرِقٌ في التخلف، ولا عَهْدَ له بِأيٍّ درجة من الاستقرار المفضي إلى أيِّ نوع من أنواع الحضارة.

٣ ـ بل اتَّسَعَتْ نظرةُ الدكتور إلى هذه الرحلة فاعتبرها بأنها (امتازت من بين الرحلات التي تَلَتْهَا كَرِحْلَتِي ابن جُبَيْر وابن بطُوطة وغيرهما) ـ ص ١٢ ـ كذا بدون أن يلاحظ الدكتور في هذه المقارنة الشاملة لكل الرحلات، لم يلاحظ أَنَّ أَيَّةَ

مقارنة لا تصح إلاَّ بين مُتَمَاثِلَيْنِ أو مُتَقَارِبَيْنِ في المُحْتَوَى والمضمون، وكلُّ باحث يدرك ضآلة ما تحويه رحلة ناصر من المعلومات بالنسبة للرحلتين الأُخْرَيَيْنِ، فضلاً عن امتيازها عليهما. مالنا ولهذا، فهو من اختصاص الباحثين المتعمقين في دراسة الرحلات.

ولكن مما لاشك فيه أنَّ قاريء هذه الترجمة الجديدة يتوق بعد أن أدرك نظرة المعرب الكريم إليها، ويتمنَّى أن يجد فيها من المتعة والفائدة وغزارة المعلومات ما يقوي في نفسه الثقة والإطمئنان بصواب نظرة الدكتور البدلي إليها.

ولقد كان من المناسب الوقوف طويلاً عند اتهام المؤرخين المسلمين (؟) بدون استثناء بالجهل المطبق بأحوال قلب جزيرة العرب بحيث أبرزوه للقراء مغرقاً في التخلف والبعد عن كل مظهر من مظاهر الحضارة، حتى سجل الرحالة ناصر ما سجل من معلومات (جيدة عما مر به في تلك البلاد). ولكن من المعروف أن من طبيعة المرء عالِماً كان أو باحثاً أو عاملاً في أي مجال من مجالات العمل أَنْ يُبْرِزَ عمله بالصورة التي يختارها، إلاَّ أَنَّ النظر إلى العمل نفسه ـــ متى كان منبعثاً عن تجرد تام من المؤثرات التي قد تطمس الحقائق، أو تحول دون إدراكها ـ ذلك النظر به وحده يمكن أَنْ تتضح معالمُ الصورة على حقيقتها، يضاف إلى هذا أنَّ الأسس العلمية هي التي تُبْنَى عليها الأحكام، والعلماء أنفسهم هم أولى الناس بالبعد عما يصور الأشياءَ بما لا ينطبق على واقعها.

والأستاذ الدكتور أحمد البدلي من مثقفي هذه البلاد الذين نالوا قسطاً من العلم بدرجة تحمل على الثقة بهم، والاعتقاد بأن ما يقدمونه من أفكارٍ وآراءٍ، تقوم على أسس صحيحة، بِحَيْثُ تعتبر من روافد الثقافة التي تسهم في بناء المعرفة وتوسيع مدارك الباحثين في كل ما له صلة بهذه البلاد تاريخاً وجغرافية في حدود علمهم.

وما دام الأستاذ الكريم يرى أنَّ تلك الرحلة قد أَضَافَتْ من المعلومات عن هذه البلاد ما لا يوجد في غيرها، و (تحدثَتْ عن بعض أجزاء بلاد العرب بشكل جَيِّدٍ، ولولا إشارة هذا الرحالة لظلت المعلومات عن تلك المناطق رغم قلتها مشوشةً مضطربةً).

فمما لا شك فيه أن كل باحث متطلع إلى الاستزادة من المعرفة سيجد في آراء الأستاذ عن هذه الرحلة ما يحفزه إلى مطالعتها للاستفادة مما فيها من معلومات (جيدة) ويتطلع برغبة وأملٍ إلى ما أُضفاه وأضافه إليها أستاذٌ من أهل هذه البلاد أدرك ما امتازت به وما اختصت من روافد العلم والمعرفة دون غيرها من الرحلات. فهل يجد الباحث كل ذلك في هذه الترجمة الجديدة فيما أُضافه إليها المعرب الكريم؟ ثم هل يجد في الرحلة نفسها معلومات جيدة انفردت بها فأصبحتْ بذلك مصدراً يُرْجَعُ إليه في جوانب مما يتعلق بتاريخ بلادنا وجغرافيتها؟

لقد كنت ممن عُنِي بقراءة هذه الرحلة في ترجمتها الأُولى منذ نحو أربعين عاماً، قراءةَ تَمَعُّنٍ واستفادة، ولكنني لم أُجِدْ فيها مما يتعلق بتاريخ بلادنا أو بجغرافيتها سوى معلومات يسيرة مشوشة مضطربة ناقصة، وغامضة في كثير من الأحيان، . وَتَمَنَّيْتُ أنْ يتولى دراستها في أصلها الفارسي أَحَدُ أبناء هذه البلاد ممن نالوا ثقافة واسعة، وإلماماً تاماً باللغة الفارسية، لا سيما وأنَّ هذه الرحلة قد خُدِمَتْ من قبل ثلاثة من العلماء، وقد يكون هناك غيرهم، أحدهم فرنسي وهو شارل شيفر (Charles Schefer) الذي نشر الرحلة مترجمة إلى الفرنسية محققة نشرة استفاد منها الدكتور يحيى الخشاب، والثاني: الدكتور يحيى الخشاب الذي عَرَّبها، ورجع إلى تحقيق المستشرق الفرنسي، وقبله الاستاذ م. غني زادة الذي أضاف إلى نشرته باللغة الفارسية معلومات استفاد منها الدكتور الخشاب.

ثم جاء الاستاذ محمد دبير سياقي فحقّق تلك الرحلة ونشرها نشرة علمية، بحيث رجع إلى ما عرف من مخطوطاتها، وتصدَّى لإيضاح كثير من الكلمات الغامضة فيها، أو التي وقع اختلافٌ فيها بين المخطوطات، وصدرت نشرته هذه قبل عشرين عاماً.

من هنا كان التطلع إلى نشرة علمية عربية لهذه الرحلة تقوم على أساس ما سبق أن قام به اؤلئك الباحثون حيالها من دراسات، مع إضافة ما هي بحاجة إلى إضافته مما يتعلق ببلادنا، ومَنْ أَوْلَى من الدكتور البدلي الأستاذ في كلية الآداب في جامعة الملك سعود.

إنَّ القاريء يحس بصدمة عنيفة حين يتصفح ترجمة الدكتور البدلي، لا من حيث مطابقة النص العربي للنص الفارسي مما سبق أن أطلع القارىء على نماذج من الاختلاف بينه وبين ترجمة الدكتور الخشاب للرحلة، وهي نماذج أرِيدَ منها التمثيل لا الحصر ـ ولكن الصدمة تحدث حين يجد القارىء أنَّ كثيراً من المعلومات المشوشة المضطربة وردت في ترجمة الدكتور البدلي بدون إشارة إلى ما فيها من اضطراب أو تشويش، وقد يستغرب المرء المتصفح لترجمة الدكتور البدلي حين لا يرى في أية صفحة من صفحات الرحلة أيَّ أثرٍ من آثار من درسوها ممن تقدم الدكتور البدلي، ولا أية إشارة إلى اختلاف النسخ الفارسية، وهو اختلاف لا شك أنه كان عميقَ الأثر في كثير من النصوص.

وأعجبُ من ذلك كله وقوعُ خَلْطٍ شنيع في تحديد بعض المواقع الجغرافية وتسمية بعضها بغير اسمها، مما لا يُعْذَرُ الدكتور البدليُّ بعدم إدراكه والتنبيه عليه وهو من أهل هذه البلاد، كالقول بأنَّ جُدَّةَ تقع إلى الشمال من البحر ـ ص ١٣٥ ـ والقول بأنَّ ذا الحُلَيْفةِ ميقات أهل المدينة المعروف يقع على بعد منزلتين من المدينة، وأنه ميقات حاج الشام ومصر والمغرب ـ ص ١٢٢ ـ وأن قبر حمزة يقع جنوب المدينة ـ ص ١٢٢ ـ إلى غير ذلك من أخطاء هذه الرحلة التي كان المفروض أن يكون من أولى ما يتنبه إلى تصحيحها أساتذة الجامعة، حتى تخلو المنشورات التي تصدر عن جامعاتنا منها، فذلك الأمر من أوجب ما تقوم به هذه الجامعات، وإيضاح النواحي التي لا تتفق مع الواقع في تاريخ أمتنا وجغرافية بلادنا هو أساس ما يُعْنَى به علماؤنا قبل غيرهم.

وسأحاول بإيجازٍ عرضَ نماذج مما تحدث به هذا الرحالة عن بلادنا لكي أُبَيِّنَ أن الأستاذ الكريم الدكتور البدلي كان بحاجة إلى أن يتعمق في دراسة هذا القسم قبل أن يوضح آراءه بصفة عامَّةٍ عن الرِّحلة كلها توضيحاً لا أَتَجَنَّى على الدكتور حين أصفه بأنه لا ينطبق على الواقع.

١ ـ المظاهر الصناعية والعمرانية في قلب نجد: قال الدكتور البدلي: فقد رأى الرحالة من المظاهر الصناعية والعمرانية والنشاط التجاري في قلب نجد ما لم

يكن يخطر ببال أكثر المتفائلين والمتحمسين ـ المقدمة ص ١٣ ـ .

لنستعرض نص كلام الرحالة فيما ترجمه الدكتور نفسه ـ ص ١٦٢ ـ منذ خروجه من الطائف حتى بلوغه الأحساء، ليتبينَّ في استعراضنا أن الرحالة وصفَ ما مر به باعتباره جُزْءاً من الصحراء محفوفاً بالمخاطر، خالياً من العمران، فضلاً عن المظاهر الصناعية والنشاط التجاري الذي لم يكن يخطر ببال أكثر المتفائلين ـ كما عبر الدكتور البدلي ـ .

لقد خرج من الطائف فكان أول ما مر به الحصن الذي دعاه (المطار) وقال: إنه يبعد عن الطائف أحد عشر فرسخاً.

وهنا لم يشر الرحالة إلى أي أثر للعمران في هذا الحصن، بخلاف غيره من العلماء ممن وجه إليهم الدكتور البدلي تهمة إبراز تلك الأجزاء من الجزيرة في صورة من التخلف، وأنه لا عهد لها بأيٍّ درجة من الاستقرار المفضي إلى أي نوع من أنواع الحضارة.

لقد وصف عَرَّامُ بن الأصبغ السلميُّ في رسالته عن تهامة، وصف قرية (مُطَارٍ) بأنها من قرى الطائف كثيرة الزرع والموز، وذكر البكري في «معجم ما استعجم» ما يدل على عمران مُطَار، فنقل أنَّ في مطار أَبَدَ الدَهْرِ نخلاً مُرْطِباً ونخلاً مُصْرِماً ونخلاً مُبْسِراً، ونخلاً يُلَقَّحُ.

وقال الرحالة بأنه وصل بعد رحيله من مُطار إلى موضع يقال له (الثريا) رأى فيه نخلاً كثيراً وشيئاً من الزراعة وتسقى أشجار النخيل والمزارع من بئر عليه سانية.

والدكتور المعرب لم يعرف القارىء بالثريا هذه، وهي فيما ظهر لي (تُربَة) ورد الاسم محرفاً، وتُرَبَة أسفل وادي أُبيدة، وواديها من أخصب الأودية وأكثرها مياهاً، ونخلاً، ومياهه ظاهرة على وجه الأرض إلى عهد قريب.

وتُرَبَةُ هذه التي أصبحت الآن مدينةً لها ذكر كثير في معجمات الأمكنة وفي كتب التاريخ، وورد فيها المثل (عرف بَطْنِي بَطْنَ تُرَبَةَ) وإليها سارت سَرِيَّةٌ بقيادة عمر

بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في عهد الرسول ـ ﷺ ـ.

ويرى بعض الباحثين أن المقصود في كلام ناصر خسرو منهل الثريا الواقع في الهضب، هضب الدواسر كما في كتاب «عالية نجد» أحد أقسام «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية»، وما أرى هذا صحيحاً، فليس على منهل الثريا من النخل ولا من الزراعة ما ينطبق عليه وصف الرحالة، ثم إنه قال: إن هذا المكان يبعد عن الطائف خمسة وعشرين فرسخاً (٢٥ × ٣ = ٧٥ ميلاً) بينما الثريا التي في الهضب تبعد مسافة أكثر من مئتي ميل عن الطائف.

لم يصف ناصر خُسرو تُربَةَ بتقدم صناعي ولا عمراني، بل اكتفى بوصف الموضع بكثرة السرقة وانتشار الحروب، وأن الأمر فيه فوضى، كلُّ أعرابيٍّ يرى نفسه حاكماً لا سلطان لأحد عليه.

ثم ذكر الرحالة الموضع الذي وصل إليه بعد مغادرته ما سماه الثريا (تربة) وسمّاه (الجزع)، وقال: وفي هذا الحصن قليل من الزراعة وطائفة من النخيل. ولم يزد على ذلك.

ولا يوجد في تلك الجهة التي مرّ بها الرحالة من المواضع المذكورة ما يطلق عليه هذا الإسم فيما أعلم. وما أراه قصد إلا (الخرمة) ولا أستبعد تحريف هذا الإسم بـ (الجزع)، فالخرمة تقع في طريق المتجه إلى الأفلاج بَعْدَ تُربَةَ، وقد مكث ناصر خسرو في هذا الموضع خمسة عشر يوماً يبحث عَمَّنْ يواصل معه رحلته لئلا يتعرض للنهب وما هو أسوأ منه.

ثم ذكر أنه مرَّ بحصن بني نُسَير، وهذا الحصن من الأمكنة المجهولة، ولا أستبعد أن يكون في وادي رَنْيَةَ، إذِ الرجل الذي نقله منه على ما ذكر شيخ قبيلة من الأعراب تسمى بني سواد.

وقد يكون المقصود ببني سواد عشيرة السُّوَدَة من قبيلة سُبَيْعٍ سكان بلدة رَنْيَةَ حتى هذا العهد.

ثم ذكر تنقله من يد خفير إلى يد خفير آخر، كالسلعة في هذه البوادي الموحشة التي قال: إنه لا شيء فيها سوى هذه الأعلاف الهزيلة التي تتغذّى عليها الإبل لتصبح الإبلُ بدورها غِذَاءً لهاؤلاء الأعراب.

فأين مظاهر العمران والحضارة التي وصفها ناصر خسرو في رحلته؟

ثم ذكر وصوله إلى الأفلاج بعد جهد ومشقة ومعاناة أهوال وسَمَّى الموضع (فَلَج) ووصف الأفلاج بأنها واحة كبيرة ولكنه عندما وصلها كانت أشبه بأَطْلَال، خربتها العصبيات القبلية، ولم يبق عامِراً من هذه الواحة سوى قدر نصف فرسخ في ميل واحد.

وذكر أن فيها أربعة عشر حِصْناً يمتهنُ أهلُ كل حصن العبث في الأرض فساداً ـ كذا قال!! ـ وأشار إلى وجود أربع عيون وذكر أنه لم يَرَ البقر في هذه الصحراء، ووصف الزراعة في الواحة بأنها ليست كثيرة، فالفلاحون يزرعون القمح ليصنعوا منه ما يأكلون، ووصف تَمْرَ الأفلاج بالجودة، وقال عن السكان: إنهم في غاية الفقر والمسكنة، وعلى درجة كبيرة من الجُوعِ والْعُرْيِ وشيوع الأُمِّيَّة بينهم، ولا قيمة للكتاب لديهم ـ ص ١٦٥ وما بعدها.

ومن الأفلاج وصل إلى اليمامة، إذْ رافق قافلة تحمل الجلود إلى الأحساء، وهذه الجلود تجلب من اليمن إلى الأفلاج، فيبيعها تجار الأفلاج على تجار اليمامة الذين يتولون نقلها إلى الأحساء.

أما وصفه لليمامة فلا يَعْدُو ذكرَ المسجد العظيم في المدينة المحاطة بسور حصين وفي خارج السور سوق فيه كل أنواع الصناع.

أترى الدكتور البدلي اتخذ من كلمة (كل أنواع الصناع) ما اعتبره أساساً ليصف ما أبرزه الرحالة من المظاهر الصناعية والعمرانية والنشاط التجاري في قلب نجد؟ ولم يلاحظ أن مدينة تعتبر قاعدة بلاد نجد من أقدم العصور لا يستغرب أن تضمَّ أنواع الصناع.

ووصف ناصر خسرو اليمامة بأنها وفيرةُ المياهِ حيث تنتشر القنوات وتكثر أشجار النخيل وعندما يكثر التمر فيها يباع الألْفُ مَنٍّ بدينار.

ما تقدم هو مجمل ما ذكر ناصر خسرو عن المواضع التي مَرَّ بها في قلب نجد، وللقارىء أنْ يُقَارِنَ بينه وبين كلام الدكتور البدلي.

تبقى الإشارة إلى أنَّ المواضع التي مرّ بها ناصر خسرو في رحلته ووصفها وصفاً أَثَارَ إعجاب الأستاذ الدكتور البدلي إثارةً حملته على أن يُنْحِيَ باللأئمة على المؤرخين المسلمين الذين بخسوا ذلك الجزءَ حَقَّه، مما ينبغي أن يوصف به من التقدم العمراني والحضاري.

إنَّ هذه المواضع لقيت من اهتمام بعض المتقدمين وعنايتهم ما يبرز بعضها بصورة هي في صحتها وحسنها أوضح وأكمل مما صورها هذا الرحالة.

فالأفلاج مَهْدُ حضارةٍ قديم، بقيت آثارها إلى أوائل القرن الرابع الهجري، حيث نجد في «صفة جزيرة العرب» للهمداني فصلاً خاصاً في وصف هذه البلاد، وما تتمتع به من تقدم زراعي وعمراني، قلَّ أنْ نَجِدَ مثله لغيرها من أجزاء بلاد العرب الأخرى باستثناء اليمن.

وكانت تلك البلاد معمورة منذ أقدم العصور.

أما ما جاء في رحلة ناصر خسرو ــ ص ١٦٥ ــ من قوله: ويقول سكان هذه الواحة نحن أصحاب الرسيم الذين جاء ذكرهم في القرآن، إنهم قوم جهلاء غلاظ الأكباد. فيحسن الوقوف عنده حيث لم يُشِرِ المعرب الكريم إلى معنى (الرسيم) ولم يدرك أن صواب الكلمة (الرَّسِّ) اسم أُمَّة من الأمم مذكورة في القرآن الكريم في آيتين هما: ﴿وعاداً وَثَمُودَا وأصْحَابَ الرَّسِّ وقُرُوناً بَيْنَ ذَلِك كَثِيراً﴾ ــ سورة الفرقان الآية ٣٨ ــ وقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ ــ سورة ق الآية ١٢ ــ.

وقد اختلف المفسرون في أصحاب الرَّسِّ هاؤلاء، وهناك من يرى أنهم أهل

الأفلاج، وقد ذكر هذا إمام المفسرين ابنُ جَرِير في تفسيره فيما رواه عن عكرمة، وعلى هذا فقول أهل الأفلاج: إنهم أصحاب الرَّسِّ له أَصْلٌ، وليسوا كما وصفهم ناصر خسرو بالجهل وغلظ الأكباد.

نماذج من أغلاط الرحالة في الترجمة الحديثة:

ليس في استطاعتي حصر ما في هذه الرحلة من أخطاء، ومعلومات مشوشة مضطربة لا تُطَابِقُ الحقيقة، لأنني لا أُحْسِنُ اللغة الفارسية، ولكن الترجمة التي قام بها الدكتور البدلي وخاصة ما يتعلق منها بالبلاد العربية تحوي من ذلك ما يُسْتَكْثَرُ ويستغرب، بالنسبة لأنَّ المعرب الكريم من أهل هذه البلاد، وعلى درجة من الثقافة والعلم تمكنه من إدراك كثير منها، وتحتم عليه إزاء ذلك إيضاح ما تدعو الحاجة إلى إيضاحه. وأكتَفِي بإيراد أمثلة موجزة منها:

١ ــ ص: ١٢١: (وتقع قبلة مسجد المدينة نحو الجنوب) و ص: ١٢٢: (ومكة تقع شرق المدينة).

هاتان الجملتان متناقضتان، فما دامت مكة تقع شرق المدينة، فينبغي أن يكون اتجاه أهل المدينة غرباً ــ والقول بأن قبلة مسجد المدينة نحو الجنوب يفهم منه أن المدينة تقع شمال مكة.

فكيف هذا؟

٢ ــ ص ١٢٢: (وعلى بعد منزلتين من المدينة رأينا جبلاً ذا مضايق شبيهة بالوديان، ويسمى المكان ذا الحليفة، وهي ميقات حاج الشام ومصر والمغرب).

من المعروف أنَّ ذَا الحُلَيْفَةِ هو ميقات أهل المدينة، وهو واقع في العقيق المجاور لها، وقد بلغه عمران المدينة الآن، ويعرف الآن بآبار علي.

أما ميقات حاج الشام ومصر والمغرب فهو الذي يبعد عن المدينة مسافة تزيد على مرحلتين، واسمه الجُحْفَة، ولا يزال الموقع معروفاً على مقربة من بلدة رابغ، على نحو خمسة عشر كيلاً منها في الجنوب الغربي.

فمن أين أتى وصف ذِي الحليفة بِكونه ميقات حاج الشام ومصر والمغرب؟ يظهر أنَّ هذا من خطإ المعرب، إذ في ترجمة الدكتور الخشاب وضع الإسم صحيحاً، كما ورد الإسم في الرحلة الفارسية التي طبعت محقّقة في ايران صحيحاً ـ ص ١٠٣ ـ .

ولا أستبعد أنْ يكون وَضْعُ الإسم الخطأ من قبيل سبق القلم من الدكتور البدلي، إذْ هو من أهل هذه البلاد العارفين بمواقيت الاحرام، ولا شك أنه يعرف الفرق بين الميقاتين ذي الحُلَيفة والجُحْفة.

وفي ترجمة الدكتور الخشاب (٦٧) حاشية على (الجُحْفة) فيها إشارة إلى سيل الجُحَاف الذي وقع سنة ثمانين من الهجرة، وهذه الحاشية لا تنطبق على (الجحفة) التي كانت معروفة قبل ذلك السيل، منذ العهد الجاهلي، ثم لما هاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة دعا الله أن ينقل حُمّى المدينة إلى الجُحْفَة، وقد وَقّتَها رسول الله ﷺ لأهل الشام، مما يدل على وجودها قبل سنة ثمانين من الهجرة.

ويلاحظ أنه ورد في ترجمة الدكتور الخشاب كلام يتعلق بالجحفة لم يرد في ترجمة الدكتور البدلي.

٣ ـ ص: ١٢٢: لما وصف ناصر خسرو ما وقع في الحجاز من شدة الفقر قال: (وفي هذه السنة (٤٤٠) جاء إلى مصر من الحجاز خمسة وثلاثون شخصاً، فأكرمهم السلطان). ثم ذكر أنهم عادوا إلى بلادهم بعد هطول الغيث.

عندما تَحْدُثُ الفاقةُ ويشتدُّ الفقر في قطر من الأقطار فإنَّ من يغادره إلى الأمكنة التي يمكن أن يوجد فيها الغوث والعون لا يقتصر على مثل هذا العدد القليل (٣٥ شخصاً).

والواقع أنَّ الذين غادروا الحجاز في تلك السنة على ما جاء في أصل الرحلة وفي ترجمتها العربية الأولى خمسة وثلاثون ألفاً، فلعل كلمة (الفا) سقطت سهواً من المعرب، أو تطبيعاً في المطبوعة.

٤ ــ ص: ١٢٤: ذكر الرحالة أنَّ قوماً من خراسان حجُّوا عن طريق الشام ومصر، قال: (ووصلوا إلى المدينة عن طريق البحر). وفي ترجمة الدكتور الخشاب ــ ص ٦٨ ــ : (فبلغوا المدينة في سفينة). ومن هنا يتضح خطأ ما جاء في الأصل الفارسي وفي الترجمتين، فالمدينة لا يُوصل إليها عن طريق البحر، وإنما يوصل إلى ميناء الجَارِ الواقع غرب المدينة بما يقرب من مسيرة ثلاثة أيام تقطع على ظهور الإبل قديماً.

٥ ــ ص: ١٣٥: (وتقع مدينة جدة على ساحل البحر الأحمر، وعدد سكانها نحوا (؟) من خمسة الآف نسمة، وهي تقع إلى الشمال من البحر).

ومعروف أن جدة تقع شرق البحر لا شماله.

٦ ــ ص: ١٣٥: (إذا خرجْتَ من جدة واتجهت جنوباً وصلت إلى اليمن وإلى مدينة صعدة).

ومعروف أنَّ صعدة لا تقع جنوب جدة، وقد كرر مثل هذا الخطأ حين عَدَّ مدينة صعدة من مُدُن تِهامة على ما سيأتي:

٧ ــ ص: ١٤٠ وَ ١٤٢: (ويقال إنَّ أَحَدَ أُمراء مدينة عدن ويسمى ابن شاهدل اكتشف عين ماء غزيرة تحت الأرض فأمر بإجرائها إلى مكة) و (يحكم تهامة مملوك حبشي من مماليك عدن المسمى شاهدل).

(شاهدل) هذا الذي تكرر اسمه ليس معروفاً فيما اطلعت عليه من كتب التاريخ، وأمراء عدن معروفون إلى زمن المؤلف ــ منتصف القرن الخامس ــ وهم في ذلك العهد من موالي بني زِياد، ومن أشهرهم الحسين بن سَلاَمة، الذي له مآثر كثيرة عمرانية في طريق الحج وفي مكة وفي عرفات، وهو الذي ينطبق عليه قول المؤلف: (وقد أوصل ابن شاددل الذي كان أميراً لعدن الماء إلى جبل الرحمة من مكان بعيد، وقد بنى هذا الأمير فوق جبل الرحمة طاقاً مربعاً كبيراً) ترجمة الخشاب ــ وقد نص الخزرجي في «العسجد المسبوك» ــ ص ١٠٧ نسخة مكتبة

الحرم المخطوطة ـ أنَّ الذي بنى فوق جبل عرفات هو الحسين بن سلامة، مولى أمير عدن إسحاق بن ابراهيم بن زياد، وهو عَبْدُ حبشي يُنْسَبُ إلى أُمِّهِ، وقد حكم بعد وفاة سيده من سنة ٣٧١ إلى سنة ٤٠٢، وقيل إلى سنة ٤٢٦، وله مآثر عظيمة في الحجاز في حفر الآبار وإصلاح الطرق.

لهذا أرى أن كلمة (ابن شاهدل) أو (ابن شاددل) كما في ترجمة الدكتور الخشاب تحريف كلمة (ابن زياد).

٨ ـ ص: ١٤١: (رأيت خارج مكة بئراً يقال لها بئر الزاهد، وبجانبها مسجد كبير وماء هذه البئر عذب).

كنت ظننت أنَّ كلمة الزاهد ـ بالدال ـ تطبيع ولكنني رأيت الإسم ورد هكذا في الأصل الفارسي، وفي النسختين المعربتين، ولا شك أنَّ المقصود هو الزاهر ـ بالراء ـ الذي لا يزال معروفاً ومنه كان يجلب الماء العذب قديماً إلى مكة.

٩ ـ ص: ١٤٢: يأتي هذا الرحالة بتعابير ليست معروفة عند متقدمي العلماء ممن تحدثوا عن بلاد العرب فيقول ـ ص ١٤١ ـ: (وتُسَمَّى أَرْضُ اليمن حمير، وأرض الحجاز أرض العرب) وأضاف: (أرض العرب تمتدُّ من الكوفة إلى مكة، أما من مكة إلى عدن فيسمى أرض حمير).

لا شك أن إسم حِمْيَرَ كان قبل الإسلام يطلق على قبيلة كان لها نفوذٌ وسيطرة وحكم في بلاد اليمن، امتدَّ إلى نواحي من بلاد العرب، ولكن هذه القبيلة ضعفت وزال حكمها ونفوذها قبل ظهور الإسلام، ولما ظهر الإسلام لم يبق من نفوذها سوى مجرد ذكرها باعتبارها قبيلة من بين القبائل المنتشرة في بلاد اليمن، ثم بعد أن رسخ الإسلام ـ في تلك البلاد من العهد النبوي إلى عصرنا ـ زال اسم حِمْيَرَ من حيث النفوذ وأصبحت اليمن من حيث التقسيم الجغرافي جزءاً من بلاد العرب، التي لا تقتصر على ما حدده هذا الرحالة الذي لا يعرف شيئاً عن تلك البلاد، ولهذا قال ـ ص ١٤٢ ـ: (أرض حمير تنقسم إلى ثلاثة أجزاء:

١ ـ تِهامة: وفي تهامة مدن كثيرة عامرة بالسكان مثل صَعْدة وزَبِيد وصنعاء).

فقد عَدَّ صعدة وصنعاء من مدنِ تهامة، ومعروف موقعهما من بلاد اليمن، وأنهما بعيدتان عن تهامة.

٢ ــ ثم عد من الجزء الثاني من تهامة نجداً، كذا واعتبار نجدٍ جزء من تهامة مما يدل على أنه تلقف تلك الأسماء فوضع تعريفات لها هي أقرب إلى السذاجة والجهل من أن توصف بأنها (ذو قيمة تاريخية) أو أن تنعت بالجودة.

٣ ــ وعد من الجزء الثالث من تهامة نَجْرَان وعَثْر وبيشة، وهذا من الخلط الذي ما كان ينبغي أن يَمُرَّ على الأستاذ المعرب الكريم بدون أن يلفتَ نظره. إذْ نجرانُ وبيشة يفصلهما عن تهامة منطقة الحجاز.

وهنا ملاحظة هامة جداً، وهي أنني أخشى أن المعرب الدكتور البدلي لم يكن في تعريبه لكلام الرحالة دقيقاً، حين قسم تهامة هذا التقسيم. ويدلُّ على هذا أنَّ الدكتور الخشاب أتى بما يخالف هذا ويطابق في كثير من وجوهه ما جرى عليه متقدمو علماء تقويم البلدان، فقد قسم بلاد اليمن ــ ص ٧٨ ــ وهي بلاد حمير ثلاثة أقسام: قسم منها يسمى تهامة وهو على الساحل الشرقي لبحر القلزم، والقسم الثاني جبلي يسمى نجدا، والقسم الثالث ناحية المشرق، وعَدَّ من مدنه نجران وعثر وبيشة.

أمَّا ذكر عَثَّرَ في ناحية المشرق فمن أخطاءِ ناصر خسرو، وكذا عَدُّ صَعْدَةَ وصنعاء من مدن تهامة.

ومهما يكن فإنَّ تقسيم ناصر خسرو لبلاد العرب وللقسم الجنوبي منها في غاية الاضطراب.

١٠ ــ ص: ١٤٦: بعد أنْ ذكر أنَّ في المسجد الحرام (١٨٤ عموداً): (ومن بين تلك الأعمة عمودٌ عند باب الندوة من الرخام الأحمر. ويقال: إنَّ خلفاءَ بغداد اشتروا هذه الأعمدة بوزن ما يباع الذهب) كذا.

ومفهوم هذا الكلام أنَّ جميع أعمدة المسجد الحرام اشْتُرِيَتْ بوزنها ذهباً، ولكن هذا مع مخالفته للمعقول لا يتفق مع ترجمة الدكتور الخشاب ــ ص ٨٠

ـ : (ومن هذه العمد عمود من الرخام الأحمر وُضِعَ عند بابِ الندوة قيل : إنه اشْتُرِي بوزنه ذهباً، ويقدر وزنه بثلاثة آلاف من).

وقد أوضح الدكتور الخشاب في آخر ترجمته عند ذكر المقاييس والموازين أنَّ المن يساوي أربعين سِيْراً والسِّيْرُ خمسة عشر مثقالاً.

١١ ـ ص: ١٤٦ : أورد الرحالة أسماء أبواب المسجد الحرام في عهده، ذكر من بينها باب الفسانين، واستشكل المعرب هذا الإسم فوضع بجواره علامة استفهام كما فعل قبله الدكتور يحيى الخشاب.

وصواب هذا الإسم باب السُّفْيانِيِّيْنَ، نسبة إلى بني سفيان بن عبد الأسد كما أوضح ذلك الأزرقي في كتاب «أخبار مكة» ـ ج٢/٧١ .

وذكر ص: ١٤٧ : من أبواب الحرم باب (السطوي) مجاوِراً لباب الصفا من جهة الغرب.

ولا شك أنَّ هذا الإسم غير صحيح، ولم أَرَ فيما اطلعتُ عليه من الكتب المتعلقة بتاريخ مكة ذكراً لهذا الإسم، ولكن ورد في رسالة في وصف مكة مخطوطة في (مكتبة دير الاسكوريال) في أسبانية ومؤلفها من أهل القرن الرابع الهجري، وقد نشرتْ في مجلة «العرب» ـ س ٨ ص ٣٥٧/٣٢٤ ـ جاء في تلك الرسالة في ذكر أبواب المسجد الحرام ما ملخصه: وفي الشق الذي إلى جانب الوادي وأبي قبيس ستة أبواب: باب البقَّالِيْنَ ثم باب الحنَّاطِين، ثم باب الغزَّالِيْنَ ثم باب الشطوين ثم باب الصفا. انتهى. فما سماه الرحالة الفارسي (السطوي) ورد في تلك الرسالة (الشطوين) وقد يكون محرفاً أيضاً، ولا أستبعد أن يكون منسوباً إلى أحدِ أصحاب الحِرَف، كالأبواب التي قبله. ويُلاحظ أنَّ أسماء أبواب المسجد لم تثبت على حالةٍ، بل كثيراً ما تغيرت بتغير الأزمان.

وذكر من أبواب المسجد الحرام باب (عروة)، وكذا ورد في ترجمة الدكتور الخشاب.

وصواب هذا الإسم باب الحَزْورة باسم سوق مكة القديم الذي ورد أنّ رسول الله ﷺ وقف فيه وقال ــ يعني مكة ــ : «والله إنَّكَ لخير أرضِ الله، وأحَبُّ أرضِ الله إلى الله، ولولا أني أُخْرِجْتُ منكِ ما خرجت» كتاب «القِرَى لقاصد أم القرى» ــ ص ٥٩٨ .

وذكر الفاسي في «شفاء الغرام» أن اسم (حزورة) حُرِّفَ إلى عَزْوَرَة .

١٢ ــ ص: ١٤٨ : (وارتفاع الكعبة ثلاثون ذراعاً وعرضها ستة عشر ذراعاً) وفي ترجمة الدكتور الخشاب ــ ص ٨١ ــ : (والكعبة في وسط ساحة المسجد، وهي مستطيلٌ طوله من الشمال إلى الجنوب ثلاثون ذراعاً، وعرضه من الشرق إلى الغرب ست عشرة ذراعاً).

هكذا اختلفت الترجمتان، فأيهما أصوب ؟

كانَ على المترجِمَيْن الفاضلين أن يرجعا إلى الكتب المؤلفة في الموضوع ليثبتا الصواب وأن لا يَعْتمدا على رحَّالَةٍ كثيراً ما يورد معلومات لا تقوم على أساس من الصحة .

لقد أوضح الأزرقي وغيره من مؤرخي مكَّة كلَّ ما يتعلق بالكعبة ومن ذلك قياس طولها وعرضها، جاء في «أخبار مكة» ــ ١/ ٢٨٩ ــ باب ذرع البيت من الخارج : (طولها في السماء سبعة وعشرون ذراعاً، وذَرْعُ طول وجه الكعبة من الركن الأسود إلى الركن الشامي خمسة وعشرون ذراعاً، وذرع دُبُرِهَا من الركن اليماني إلى الركن الغربي خمسة وعشرون ذراعاً، وذرع شِقِّها اليماني من الركن الأسود إلى الركن اليماني عشرون ذراعاً، وذرع شِقِّها الذي فيه الحِجْرُ من الركن الشامي إلى الركن الغربي أحدٌ وعشرون ذراعاً) انتهى . والذراع هنا ذراع اليد، وقد أطال تقي الدين الفاسي في «شفاء الغرام» ١/ ١٠٧ وما بعدها الكلام في الموضوع مما يفهم منه أنَّ القياس تقريبي .

ومما تقدم يتضح أنَّ الكعبة ــ شرفها الله ــ أقرب ما تكون إلى التربيع، لا كما

ورد في الترجمتين، ولعلَّ الخطأ فيهما راجع إلى وصف الرحالة الفارسي.

١٣ ـ ص: ١٥٣: عن سدنة البيت: (وهم من ذرية عثمان بن طلحة بن شيبة بن طلحة بن عبد الدار).

مع أن الاسم لم يرد في ترجمة الدكتور الخشاب، حيث اقتصر فيها على القول ـ ص ٨٦ ـ : (امتازت قبيلة من العرب تسمى بني شيبة بحفظ مفتاح باب الكعبة) ـ إلا أنَّ نسب عثمان الوارد في ترجمة الدكتور البدلي غير صحيح، وصوابه: عثمان بن طلحة بن عبد الله بن عبد الْعُزَّى بن عثمان بن عبد الدار. انظر «الإصابة» رقم ٥٤٤٠ وغيرها ممن ترجم الرجل. أمَّا شَيْبَةُ فهو ابن عثمان بن أبي طلحة عبدالله بن عبد العزى، كما في «نسب قريش» ـ ٢٥٢ ـ

١٤ ـ ص: ١٥٩: تكرر في هذه الصفحة اسم أمير عدن (شاهدل) وكذا في ص ١٦٠ ففي الأولى: ذكر أنه أمر بإحداث أحواضٍ للماء في جبل الرحمة. وفي الثانية: ذكر أنه بنى فوق ذلك الجبل. وتقدمت الإشارة إلى أن صواب هذا الإسم فيما يظهر: الحسين بن سلامة مولى بني زياد.

١٥ ـ ص: ١٦٤: (وصلنا إلى مكان جبلي تكثر فيه المنعطفات).

وفي ترجمة الدكتور الخشاب ـ ص ٩٠ ـ : (وبلغنا مكاناً في وسط أرْض ملؤها الصخور يسمى سربا، رأيت به جبالاً كل منها كالقبة).

لم ترد تسمية الموضع في ترجمة الدكتور البدلي.

ويحسن التنبيه على أن ما ورد في تعليق الدكتور الخشاب مما نقل عن (شيفر) من قوله: تسمى هذه الجبال بجبل الطويق. هذا ليس بصحيح، فجبل طويق يقع بقرب الأفلاج، والظاهر أن هذه الجبال هي جبال الهضب، ولعل اسم سربا محرفاً عن الثريا اسم منهل في تلك الجبال.

١٦ ـ ص: ١٦٥: في الكلام عن الفَلَجِ وأنَّ أهله يقولون: نحن أصحاب الرسيم وتقدم القول بأن الصواب: أصحاب الرَّسِّ. ودعت المناسبة لذكر الاسم

مرة أخرى لأنه ورد في ترجمة الدكتور الخشاب ــ ص ٩٠ ــ محرفا (الرقيم)، والرقيم موضع آخر، وهو مذكور في القرآن أيضاً، ولكن النص الفارسي ــ كما هو في أصح طبعة لكتاب «سفر نامه» تحقيق دبير سياقي ص ١٠٦ ــ ورد الرسيم.

١٧ ــ ص: ١٦٧: (وحكام اليمامة من العلويين).

كان حكام اليمامة من منتصف القرن الثالث الهجري من بني الأُخيضر العلويين، أبناء يوسف الأُخَيْضر بن ابراهيم بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، على ما ذكر ابن خلدون في تاريخه «العبر» ــ ٤/٩٨ ــ والجنابي في «البحر الزاخر» وابن عِنَبَة في «عمدة الطالب» وغيرهم من المؤرخين.

أما ما نقله الدكتور الخشاب في هامش ترجمته ــ ص ٩٢ ــ من أنهم من عائلة طباطبا ورأسهم هو الإمام يحيى الهادي، فهذا غير صحيح.

١٨ ــ ص: ١٦٨: في وصف عيون الأحساء: (وعلى كل العيون سواق ترفع الماء تسقي المزارع).

عيون الأحساء تجري في السواقي بدون أَنْ يُرْفَعَ ماؤُهَا، لأنها تفيض على وجه الأرض، ويلاحظ الاختلاف بين ما ورد هنا وما ورد في ترجمة الدكتور الخشاب ــ ص ٩٢ ــ: (وفي المدينة عيون ماء عظيمة تكفي كلٌ منها لإدارة خمس سواق).

ولكن النص الفارسي هو: (وجشها هي آب عظيم است ورآن شهركه هريك بنك اسيا كرد باشد وهما اين آب) ــ ص ١٢٣.

وذكر الدكتور نقولا زيادة في كتابه «رواد الشرق العربي في العصور الوسطى» أن معنى الجملة أنَّ جريان الماء يكفي لإدارة خمس طواحين لقوته، وأما القول بِأَنَّ العين الواحدة يجري منها خمسة سواقٍ، فهذا لا ينطبق على الواقع، لأن بعض العيون يجري منها من السواقي المتفرعة ما يزيد على العشرة، ومن المجاري الأصلية ما يبلغ السبعة، كعين أم سبعة التي أدركناها منذ عهْدٍ ليس ببعيد. وما أسرع ما ضعفت مياه تلك العيون منذ النصف الأخير من القرن الماضي حين

استنبطت المياه من جوف الأرض بالآلات الحديثة، فانخفض مستوى مياه العيون بسرعة، وأكثرها غار منها الماء.

لعل في هذه النماذج المتقدمة ما يوضح الحاجة إلى وجود ترجمة صحيحة لهذه الرحلة، مع عناية بدراسة ما ورد فيها مما يتعلق بتاريخ بلادنا وبذكر الأمكنة الواردة فيها، لتصبح الاستفادة منها تامة.

أما الجانب الثالث مما يتعلق بهذه الترجمة الجديدة:

فقد يتساهل به بعض المعنيين بنشر كتب التراث، ولكن ظروف العصر ومتطلباته أَبْرَزَتْ شدةَ الحاجة إليه. إنه وَضْعُ فهارس مفصلة للكتاب المنشور، لأنَّ أيَّ قارىءٍ في عصرنا الحاضر ليس في استطاعته أنْ يستوعب قراءة الكتاب، باستثناء المعنيين بتتبع جميع ما فيه من معلومات، لهذا كان من أَهَمِّ ما يُعْنَى به ناشرو هذا العصر تقريب مباحث الكتاب ومحتوياته بوضع فهارس مفصلة لها.

وكان من أولى من اهتَمَّ بذلك المعنيون بالنشر في الجامعات فَقَلَّ أَنْ يصدُر كتاب عنها إلا وقد استوفى ناشروه ما يلزم له من فهارس مفصلة شاملة.

وأذكر أنَّ إحدى دور النشر في بلادنا (دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر) نشرتْ رحلة معربة لسائحة بريطانية هي الليدي آن بلانت، فكان مما لوحظ على طريقة النشر لتلك الرحلة عدمُ إيرادِ فهارس مفصلة لها، وكان ممن لاحظ ذلك أستاذٌ جليل من أساتذة جامعة الملك سعود التي أُصْدَرَتْ ترجمة الدكتور البدليِّ لرحلة ناصر خسرو، فقد قال ذلك الأستاذ وهو الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري ما ملخصه:

١ ـ هناك أماكن وشخصيات لا أشك في أنَّ القارىء قد يحتاج في كثير من الأحيان إلى أن يعرف عنها أكثر من مجرد ذكر اسمها، دون تعريف بها.

٢ ـ كما أنَّ هناك حوادث كان يمكن أنْ يستفادَ من تاريخ المنطقة التي حدثت

فيها لتوضيحها. وأضاف الدكتور الأنصاريُّ: هذه وظيفة المترجم إن كان عليماً بهذه الأشياء، وإلا فهي وظيفة المشرف على طبع الكتاب وإخراجه.

وقال الدكتور الأنصاري: ورغم أهمية الكتاب فإنه يحتاج إلى جانب ما ذكرناه إلى مجموعة من الفهارس، فهو يحتاج إلى فهرس للأماكن وفهرس آخر لأسماء الاعلام ــ الخ ــ «العرب» ١/٤٥٥.

هذا ليس رأي الأستاذ الانصاري وحده بل هو أمر يوشك أن يتفق عليه جميع المعنيين بشؤون النشر والمختصين به من الباحثين.

وترجمة الدكتور البدلي برزت خالية من ذلك مع أن رحلة ناصر خسرو قد خُدِمَتْ في نشراتها الأولى بوضع فهارس مفصلة ما كان على المعرب الكريم الدكتور البدلي أو على المشرفين على نشر ترجمته إلا نقل تلك الفهارس ووضع أرقام المطبوعة الجديدة بالنسبة إلى ما ورد فيها من اعلام.

وأراني بعد هذه الكلمة المفصلة عن هذه الترجمة الجديدة لا أجد غضاضةً في أن أقول: بأننا نتطلع إلى الدكتور البدلي لكي يقدم لنا ترجمة خيراً من تلك الترجمة التي لا أرى الدكتور الخشاب مبالغاً حين وصفها: بأنها تحوي هنوات ليست هينات ــ مجلة اليمامة عَ ٨٦٣ في ٧ ذي القعدة ١٤٠٥ ص ٥٤ ــ.

كما نتطلع إلى ما تنشره جامعاتنا تطلع مَنْ يرى في تلك الجامعات ويود ويحرص على أن تبلغ خير ما يمكن أن تبلغه جامعة تسعى لتقريب العلم، وتسهيل طرقه بمختلف الوسائل، ومن ذلك السير في منشوراتها على الطرق الحديثة للنشر التي تتلاءم مع روح العصر، وما يتطلبه من حفاظ على الوقت، وسهولة ويسر للوصول إلى المعرفة من أقصر سبلها. والله الموفق.

حمد الجاسر

- ٩ -

كِنْهَـــــــل

جاء في كتاب «بلاد العرب»[١] كِنْهَلُ: فإذا خَرَجْتَ من الأحساء أتيت الأجوافَ، وهي قرى ومياه، ثم تصير إلى بطن غِرٍّ، وهو بطنٌ فيه مياه وقرى وعيون، منها بثاءات[٢]، وماءة يقال لها كِنْهل. قال الشاعر:

تَجَانَفَ عَنْ شَرائعِ بَطْنِ غِرٍّ   وحدثه عن السِّيْفِ الكُرَاعُ[٣]

وقال في كنهل:

إنَّ لَهَا بِكِنْهِلِ الْكَنَاهِلِ   حَوْضاً يَرُدُّ رُكَبَ النَّوَاهِلِ

ثم تخرج من بطن غِرٍّ فتقع في السِّتار، وفيه لهم أكثر من مئة قرية، لأفناء سعد ولإمرِيء القيس بن زيد، ومن قراها ثاج.

وذكر الأزهريُّ في «تهذيب اللغة» أن كنهل ماء لبني تميم معروف. وفي كتاب نصر: كنهل ماء لبني سعد.

كنهل يسمى به في عهدنا عين تقع في وادي المياه (وادي الستار قديماً) تدعى (العوينة) و(عوينة كنهل) وبعضهم ينطق اللام راء (كنهر) كان يَمُرُّ بها درب الكنهريِّ من ميناء الجبيل (عينين قديماً) وموقعها غرب ثاج، بما يقارب خمسين كيلاً، ولكن مفهوم كلام صاحب كتاب «بلاد العرب» وقوع كنهل جنوب وادي

السِّتار خارجاً عنه، في بطن غرٍّ، شمال الأجواف (الجوف). ويمكن توجيه كلامه بأن ما سماه بطن غِرٍّ، هو الجانب الجنوبي من وادي السِّتار، وأن يكون كنهل واقِعاً فيه على هذا الاعتبار، لأنه وصف بَطْنَ غِرٍّ بأن فيه قرى وعيوناً. والواقع أنَّ جنوب كنهل قرى وعيون منها ما لا يزال باقياً مثل حَنيذ وعِرْج، وشُفَيَّة.

(تقع عُيينة كنهل بقرب خط الطول: ٢٠َ/٤٨° وخط العرض: ٤٥َ/٢٦°) ويكاد إسم كنهل أن يُنْسى الآن إذْ يقال (العوينة) غير مضافة.

ويحسن إيراد نصوص المتقدمين من العلماء عن هذا الموضع، على ما في بعضها من إشكال.

قال ياقوت الحموي في «معجم البلدان»: كِنْهِلُ ــ بالكسر، ثم السكون، والهاء تفتح وتكسر، وآخره لام ــ: عَلَمٌ مرتجل لِاسْمِ ماءٍ لبني تميم.

ويوم كِنْهَل قَتَلَ فيه عُتَيبةُ بنُ الحارث بن شهاب اليربوعيُّ الهرماسَ وعمرُ بن كبشة الغسانِيِّيْن، وإلى بينهما.

وقال جرير:

طَوَى الْبَيْنُ أَسْبَابَ الْوِصَالِ وحَاوَلَتْ ... بِكِنْهِلَ أَسْبَابُ الْهَوَى أَنْ تَقَطَّعَا

وقال غيره:

إنَّ لَهَا بِكِنْهِلِ الكَنَاهِلِ ... حَوْضَا يَرُدُّ رُكَبَ النَّواهِلِ

وقال الفرزدق، في أيام كنهل وكان في أيام زياد بن أبيه في الإسلام:

سَرَى مِنْ أُصُولِ النَّخْلِ حَتَّى إذَا انْتَهَى ... بِكِنْهِلَ أَدَّى رُمْحُهُ شَرَّ مَغْنَمِ
لَعَمْرِي وَمَا عَمْرِي عَلَيَّ بِهَيِّنٍ ... لَبِئْسَ الَّذِي أَجْرَى إليهِ ابنُ ضَمْضَمِ

انتهى كلام ياقوت.

وخبر هذا اليوم ورد ذكره في شرح ديوان الفرزدق(٤) بما نصه: أصاب القعقاع

بن عوف بن القعقاع بن مَعْبَدِ بن زُرَارَة دماً في بني سعد بن زيد مناة، فخرج القعقاعُ هارباً حتى نزل ماءً يقال له كِنْهِل، فاستعْدَتْ بنو سعدُ عُبيدَ الله(٥) على القعقاع فبعث هُبَيْرَةَ بنَ ضمضم في خيل وقال له: لئن لم تأتني به لأقتلنك، فظفر به هبيرةُ فامتنع عليه فبوأ له هبيرةُ الرمح ليستأسر وهو لا يريد قتله، فأصابه الرمح، فهجم على جوفه فمات من تلك الطعنة مكانه فرجع هبيرة خائباً فقال الفرزدق:

وقـائلةٍ والـدَّمْـعُ يَحْـدُرُ كِحْلَهَـا   لبِئْسَ الْمَدَى أَجْرَى إلَيْهِ ابنُ ضَمْضَمِ
غَزَا مِنْ أُصُولِ النَّخْلِ حتَّى إذَا انْتَهَى   بِكِنْهِـلَ أَدَّى رُمْحَـهُ شَرَّ مَغْنَمِ

وفي كتاب «النقائض»(٦): أنَّ زياد بن أبيه بعث إلى بني عوف بن القعقاع من بني مالك بن حنظلة ــ بعث إليهم هبيرة بن ضمضم المجاشعي فطلبهم فأدركهم بكنهل فقتل منهم عمرو بن عوف فقال الفرزدق:

سَرَى من أُصُولِ النخلِ حتَّى إذَا انْتَهَى   بِكِنْهَـلَ أَدَّى رُمْحَـهُ شَرَّ مَغْنَمِ
لَعَمرِي وَمَا عَمْـرِي عَلَيَّ بِهَـيِّنٍ   لبِئْسَ الْمَدَى أَجْرَى إلَيْهِ ابنُ ضَمْضَمِ

ــ إلى آخر الخبر ــ

وفي «النقائض»(٧) أيضاً ــ في شرح قول جرير:

هُمُ تَرَكُوا عمراً وَقَيْساً كِلاَهُمَا   يَمُجُّ نَجِيعاً مِنْ دَمِ الْجَوْفِ أَحْمَرَا

قيس: هو أخو الهرماس وهما ابنا هُجَيْمة، من غَسَّان، بارزهما عُتَيْبَةُ بن الحارث، فعادَى بينهما عِدَاءً، يوم كنهل، وهو يوم غَوْل.

وجاء في «ديوان جرير»:(٨):

كان الهذيل بن هبيرة التغلبي غزا بني أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان، فأطرد إبلهم يوم كنهل، فقال له قومه: أين تطرد هذه الإبل؟ أغِرْ بنا على بعض من نُمُرُّ به، فأغار على بني كُوز وبني هاجر من ضَبَّة، فأصاب فيهم ثلاثين امرأة، منهم منظورة بنت شقيق، فأطلقهن مكانه وهو في دارهم غيرها، فإنه احتملها، فطلبها

زوجها وأخوها. فقال: هي بيني وبينكما . . فَخُيِّرَتْ فقالت: والله ما كنت لِؤُأَيِّمَ زوجي ولا أنكس برأس أخي فأعطاهم إياها. وقال:

أَعْتَقْتُ من أَفْنَاءِ كُوزٍ وهاجرٍ ثلاثين لم تُهْتَكْ لِسِرٍّ جُيُوبُها
وَمَنْظُورة الْحَسْنَاءُ كُنْتُ اصْطَفَيْتُهَا فَأَعْتَقْتُهَا لَمَّا أَتَاني حَبِيبُهَا

وقال جرير[٩]:

وساقَ ابْنَيْ هُجَيْمَةَ قَدْ عَلِمْتُمْ إلى أَسْيَافِنَا قَدَرُ الحُمَامِ

ابنا هجيمة: غسانيان قتلهما عتيبة يوم كِنْهِل، واسمهما قيس والهرماس، أقبلا في جيش حتى جاورا طارق بن ديسق أحد بني ثعلبة بن يربوع، وكان نازلاً على ماء يقال له كنهل، فأغارت بنو ثعلبة بن يربوع فأخذوا إبلها وصنائعها ــ والصنائع مثل الجند المرابطة تكون مع الملوك ــ فركب قيس بن هجيمة حتى أدرك بني ثعلبة يطردون النعم، فكر عليه عتيبة بن الحارث فقال: يا عتيبة هل لك في البراز؟ فقال عتيبة: ما كنت أسأله، وما كنت أَدَعُهُ إذا سُئِلْتُهُ ــ ثم ذكر مبارزتهما وقتل قيس، وقول مالك بن نويرة:

وَقَدْ عَلِمَ الْهِرْمَاسُ أَنَّ سُيُوفَنَا تُقَطِّعُ فِي هَامِ الْمُلُوكِ وَتَنْشَبُ
عَلاَ البيضة العليا على حَدِّ قَرْنِهِ عُتَيْبَةُ بالمَعْلُوب غيرَ التَّجَنُّبِ

المعلوب: سيف قد شُدَّ قائِمُهُ بالعلباء ــ عصب عنق البعير ــ التجنب: الكذب.

أَسَرَّكُمَا يا ابْنَيْ هُجَيمة أَنَّه بِكِنْهِلَ إِذْ لاَقَاكُمَا مُتَغَيِّبُ

وقد أورد النويري في كتاب «نهاية الأرب»[١٠] هذا اليوم باسم (يوم غَول الأول، وهو يوم كنهل) وساق خبره كما تقدم، وأورد بيت جرير بهذا النص:

وَسَاقَ ابْنَيْ هُجَيْمَةَ يَوْمَ غَوْلٍ إِلَى أَسْيَافِنَا قَدَرُ الْحُمَامِ

وفيما أورده إشكال، إذْ غَوْلُ في عالية نجد ـ لايزال معروفاً ـ وكنهل شرق الجزيرة والمسافة بينهما بعيدة ـ

وبلاد بني تميم لا صلة لها بِغَول. فهل هناك موضع آخر بقرب كنهل كان يعرف باسم غول، أو أنه حصل خلط من رواة خبر يوم كنهل به وبيوم غَوْل؟

وفي «معجم ما استعجم» ـ كنهل ـ بكسر أوله، وإسكان ثانيه، وكسر الهاء: ماء لبني عوف بن عاصم بن ثعلبة بن يربوع، جاورهم عليه قيس والهرماس ابنا هجيمة، من غسان، في جماعة من قومهما، ورئيس بني عوف يومئذ ديسق بن عوف بن عاصم، فأغار على ابني هجيمة قوم من بني يربوع، رئيسهم عتيبة بن الحارث بن شهاب، فاتبعهم ابنا هجيمة في قومهما، فقتلهما عتيبة، فهو يوم كنهل، ويوم غَوْل، قال جرير:

وساق ابْنَيْ هُجَيْمَةَ يَوْمَ غَوْلٍ   إلى أسيافنا قدر الحمام

فكنهل وغول متجاوران. انتهى. والقول بأنهما متجاوران يدل على وجود موضع بقرب كنهل اسمه غول.

كواكب شحم

من مياه منطقة القطيف، شمال صَفْوَا بنحو ثمانية أميال، غير بعيد من ساحل البحر على ما قرأت في أحد البيانات، ولست على يقين من صحة الاسم، وقد يكون من المياه التي نضبت.

الكُوْتُ

ـ بضم الكاف وإسكان الواو وآخره تاء ـ: يسمى به المكان المعد لإقامة الجند وحماية البلد كالقلعة والحصن، والكلمة ليست عربية الأصل، وقد تكون برتغالية أو هندية ، وقَدِمُ نَصٍّ اطلعت عليه ورد فيه ذكرها ما جاء في كتاب «البرق اليماني

في الفتح العثماني» لقطب الدين النهروالي المكي المتوفي سنة ٩٩٠هـ حين تكلم على دخول البرتغال إلى ديار الهند في أول القرن العاشر، قال[١١]: فكثروا في بحر الهند، وبنو في كُوَّة من بلاد الدكن. قلعة يسمونها كُوتاً، ثم أخذوا هرموز. انتهى.

ولما استولى البرتغاليون على الخليج العربي أنشأوا في موانئه قلاعاً عرفت الواحدة منها باسم (كوت).

ولما استولى العثمانيون على الأحساء في أول النصف الثاني من القرن العاشر اتخذوا مقرًّا لجندهم وولاتهم مكاناً مرتفعاً عن الأرض المغمورة بالمياه والزراعة ومجاري العيون حيث تنتشر الحُمَّى ــ فبنوا فيه قلعة كبيرة عرفت باسم الكوت، وأصبحت منذ ذلك العهد قاعدة للمنطقة إلى سنة ١٣٧٠، حيث أصبحت القاعدة الدَّمَّام.

وبعد اختيار مكان الكوت ــ في العهد التركي ــ كثر السكان حوله حتى أصبح مدينة ذات أحياء عديدة، منها الكوت، والرِّفَعَة، والنعاثِل، والصالحية، والرقيقَة. وعرفت المدينة باسم الهفوف (الهفهوف) ــ وسيأتي ذكرها.

وقد اتخذ الكوت مقرًّا للولاة منذ منتصف القرن العاشر الهجري حيث أنشأ ولاة الأتراك فيه كثيراً من القصور والمساجد الجميلة الرائعة الهندسة ــ وأُحيط بسور وأبراج مرتفعة، وبخندق من وراء السور . . وأقدم ما رأيته مؤرخاً من مبانيه مسجد الدبس ففيه حجر منقوش فيه اسم بانيه محمد باشا والي بلد الأحساء، في عهد السلطان سليمان القانوني، وتاريخ العمارة سنة اثنتين وستين وتسع مئة، ٩٦٢هـ ــ وكان إلى ما قبل عام ١٣٥٨ منفصلاً عما حوله من العمران الذي امتدَّ حتى أحاط به من جميع الجهات، بعد إزالة سوره وردم الخندق المحيط به، فاتصل بأحياء المدينة التي اتصل بعضها ببعض. وتغيرت المدينة بما طرأ عليها من العمران، تغيراً عظيماً، كغيرها من مدن المملكة.

الكُـــوْعُ

ـ بضم الكاف وإسكان الواو، وآخره عين ـ: جبيل يقع في الشمال الشرقي من دَحْلِ (أبو سُخَيْل) على الجانب الجنوبي الغربي من شعيب الشُّيِّطِ الريَّان.

الكُـويْخـــا

ـ بضم الكاف تصغير الكوخاء[١٢] ـ ماء يقع غرب قرية الحناءة، في سفح جبل يدعى الكويخا، شمال جبل الأحصّ.

الكـويكـــب

تصغير كوكب، ومن معاني الكلمة عين الماء الجارية، ولعل إسم هذا الموضع من هذا ـ إسم قرية من قرى القطيف، منفصلة عنها في الماضي، أما الآن فقد تجاوزها عمران المدينة.

ونسب مؤلف كتاب «أنوار البدرين»[١٣] إلى قرية الكويكب السيد حسين الكويكبي وصفه بالعلم، ولم يحدد زمنه، ويظهر أنه قريب العهد.

وجاء في كتاب «دليل الخليج» في الكلام على قرى القطيف: كويكب عند الطرف الجنوبي لمدينة القطيف على بعد ربع ميل جنوب الكوت وعلى بعد مسافة مساوية إلى الداخل من البحر.

قرية مسورة تتكون من خمسين ومئتي منزل، ومعظمها مبنية بالحجارة وبعضها أكواخ والمكان إحدى ضواحي مدينة القطيف، ويعمل السكان بزراعة النخيل وصيد اللؤلؤ. انتهى.

الكُـهَـفَـــــة

وبعضهم ينطقها الكهفا ـ من هجر آل ناجعة من العجمان ذات نخل وفيها

عين قديمة وآبار أرتوازية، وتقع في الجنوب الغربي من عُرَيعرة على نحو ثمانية أكيال، بين الصُّرَّار والنُّعيرية، على يمين الطريق للمتجه إلى الصُّرَّار، وهي في منطقة النعيرية.

وقدرت المسافة بينها وبين الدمام في «دليل مدارس وزارة المعارف لعام ١٣٩٨هـ» بمئتين وخمسين كيلاً ـ هذا على وجه التقريب.

كُهَيْلَـــــةُ

تصغير كهلة ـ قال في «معجم البلدان»: موضع في بلاد تميم.

قال الفرزدق:

نَهَضْنَ بِنَا مِنْ سِيْفِ رَمْلِ كُهَيْلَةٍ　　وَفِيهَا بَقَايَا مِنْ مَرَاحٍ وَعَجْرَفِ(١٤)

وقال الراعي:

عَمـيرِيـة حَلَّتْ بـرمـل كُهَيْلَة　　فَبَيْنُونَةٍ تُلْفَى لها الدَّهْـرُ مِرْبَعَـا

وقال البكري في «معجم ما استعجم»(١٥) بعد إيراد هذا البيت: عميرية: حي من الأبناء، وكهيلة رملة معروفة هناك. انتهى. والأبناء ـ هنا فيما يظهر ـ من بني سعد بن زيد مناة بن تميم.

ويظهر أن كهيلة من نواحي بينونة ـ التي تقدم الكلام عليها ـ وأن سيفها في جهات بلاد قطر.

كيبـــــوس

تقدم في الكلام على القطيف أن كلمة (كيبوس) تطلق على ما يعرف الآن باسم

خليج القطيف، الواقع بين جزيرة تاروت، ورأس تنورة، على ما ورد في بعض المؤلفات الأعجمية القديمة.

وهذا مما يستدعي التثبت من صحة الكلمة.

(للبحث صلة)

الحــواشي:

(١) : ٣٤٤.
(٢) في المطبوعة (ثباءات).
(٣) كذا ورد البيت (وحدثه) وورد البيت في «صفة جزيرة العرب» ــ ٣٩٧ ــ

تجانف عن شرائع بطن عمرو وجدبه عن السيف الكراع

منسوباً إلى ربيعة بن مقروم الضبِّي، وهو من قصيدته المفضلية التاسعة والثلاثين قال في وصف حمار وحش وأتانه ــ:

إذا ما أسهلا قنبت عليه وفيه على تجاسرها اطِّلاعُ
تجانف عن شرائع بطن قَوٍّ وحاد بها عن السبق الكراع
وأقرب منهل من حيث راحا أثالٌ، أو غمازة، أو نطاعِ

ــ وكلمة السبق يظهر أنها تصحيف السيف ــ وكلمتا (وحدثه) و(جدبه) يظهر أنَّ صوابها (وحادبه).
(٤) : ٤٧٩.
(٥) هو عبيد الله بن زياد حين استعمله معاوية على البصرة.
(٦) : ٦٠.
(٧) : ١٠٠٠، ٨٦٥.
(٨) : ٥٩، ٦٠.
(٩) ديوانه: ٢٠٤.
(١٠) : ١٥/٤١٦.
(١١) : ١٩.
(١٢) الكوخاء هي العين العوراء.
(١٣) : ٢٧٥.
(١٤) في ديوانه:

بدأنا بها من سِيف رمل كهيلة وفيها نشاط من مراح وعجرف

(١٥) رسم بينونة.

فضائل أم القرى حقائق ثابتة

تسمو عن مأثورات القصاصين، وموروثات ذوي العواطف

قرأت في إحدى صحفنا (عكاظ ع٦٩٧١ في ١٤٠٥/١١/٣) خبراً عن تحديد سبعة عشر أثراً ومَعْلَماً تاريخياً في مكة المكرمة، منها:ـ

١ ــ مسجد الصحابي سيدنا بلال في جبل أبي قبيس.

٢ ــ مسجد الخليفة سيدنا أبي بكر الصديق في حيٍّ المسفلة.

٣ ــ مسجد خالد بن الوليد في حارة الباب.

٤ ــ مقبرة السيدة خديجة في الحُجُون منذ فجر الإسلام.

ثم قرأت كلمة بعنوان: (أشهر المساجد بمكة المكرمة) بتوقيع الأخ الشيخ إبراهيم الراشد الحديثي (عكاظ ع٦٩٨٦ في ١٤٠٥/١١/١٨) ذكر من بين تلك المساجد:

١ ــ مسجد أبي بكر الصديق، قال عنه: وهو دار أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ــ حيث أقام بها مسجداً ليصلي فيه ويتعبد، ويقرأ القرآن عندما كانت قريش تضطهد المسلمين في مكة وتعذبهم.

٢ ــ مسجد بلال بن رَباح ــ رضي الله عنه ــ قال: وقد أُقيم في الموضع الذي كان يتعبد فيه بلال في أعلى جبل أبي قُبَيس، في شمال شرق الصفا، ويطل على المسجد الحرام والمسعى.

٣ ــ مسجد حمزة بن عبد المطلب ــ رضي الله عنه ــ في حي المسفلة بمنطقة السبع آبار عند لقاء شارع ابراهيم ـ عليه السلام ــ مع شارع حمزة بن عبد المطلب ــ رضي الله عنه.

٤ ـ مسجد الخيف، قال عنه: مسجد الخيف بمنى، ومناسبته أنه قد تآمرت أحزاب الشرك في العام الخامس الهجري بسفح جبل الخيف بمنى، واتجهت للمدينة ولكن الله تبارك وتعالى نصر رسوله الكريم، وأصحابه، وهزم الأحزاب، فحوَّل رسول الله ـ ﷺ ـ المكان الذي تآمرت فيه أحزاب الشرك على الإسلام والمسلمين إلى مسجد يعبد الله فيه، فأقيم مسجد الخيف، وهو يقع على المنحدر الشمالي لجبل الخيف على مقربة من الجمرة الصغرى. انتهى.

وما كنت أودُّ إثارة مشاعر بعض الإخوة الذين لا يروق لهم أن يُنْظَرَ إلى بعض الأمور التي لها أثر عميق في نفوسهم نظرةَ بَحْثٍ وَتَعَمُّقٍ، لإدراك هل لتلك النظرة من الأسباب الصحيحة ما يؤيدها.

ولكنني رأيت الأمر في أيامنا هذه اتَّسَعَ، بحيث اتخذنا من النظرة إلى التراث وإلى الأثار بصفة خاصة ما جعلنا نتسرع في الحكم على أمور لها صلة بتاريخنا القديم، بدون أن نتخذ لذلك الحكم أسسه وقواعده من البحث والدراسة وعمق المعرفة، بعيدين في ذلك عن التأثر العاطفي، أو الاسترسال في الأخذ بما يتناقله القَصَّاصون عن العامة وأشباههم من الأخبار التي لا تقوم على أساس من الحقيقة.

وأنا لا أهتم كثيراً باؤلئك الأخوة الذين سيصمونني وصمة أبرأ إلى الله منها، وهو أنني أريد (أن أسلب مكة كرامتها) ومعاذ الله أن أقصد هذه الغاية السيئة، ومعاذ الله أن يستطيع أي إنسان أن يسلب ما لهذه المدينة الكريمة في نفس كل مسلم من كرامة وما لها من منزلة سامية، لا يجهلها ولا يتجاهلها إلا من أعمى الله بصيرته.

ولكن حفاظي على تاريخ هذه المدينة الكريمة حفاظاً يصونه من التقول والطعن، ويثبت منه الصحيح الذي بإثباته تَبْدُو هذه المدينة الطاهرة على حقيقتها التي أراد الله لها.

ولا يخفى على كل مؤمن أن كرامة الأوطان وشرفها وفضلها لا يتعدّى شيء منها

إلى سكانها، كما أن ما يحدث من السكان من الأعمال أيًا كانت خيراً أو شرًا، لا أثَرَ لها في تلك الأوطان. إلا ما نص الشرع الشريف عليه، وثبت بطرق صحيحة، مما لا يتسع المقام للتبسط في إيضاحه.

وبعد هذه المقدمة أعود إلى الإشارة إلى أنَّ كل هذه المساجد التي تقدم ذكرها باستثناء مسجد الخيف، لم أجد فيما بين يدي من المؤلفات التاريخية ما يثبت قدمها قدماً يجعل المرء يحكم بصحة نِسْبَتِهَا إلى من نُسِبَتْ إليه.

وإيضاح ذلك في أمور:

الأمر الأول: أن مكة ــ شرفها الله ــ تصدَّى لتدوين تاريخها منذ القرن الثالث الهجري إلى عهدنا هذا علماء معروفون بفضلهم وبعلمهم، لم يغادروا من أخبارها ولم يدعوا من آثارها شيئاً، ومن أقدمهم الأزرقي والفاكهي ومن بعدهما الطبري والفاسي، ثم ابن ظهيرة والقطبي، فقد تصدى هاؤلاء لتدوين تاريخ مكة وذكر ما فيها من الآثار، منذ أقدم العصور حتى القرن العاشر الهجري. وهم لم يقتصروا فيما دونوه على ذكر الصحيح الثابت من ذلك، بل منهم من تساهل في تدوين أخبارٍ تتعلق بأمكنة في مكة لا يجد المعني بدراسة التاريخ ما يعتمد عليه في صحة ما دُوِّنَ عنها.

ولقد كان من عادة العلماء المتقدمين التساهل في نقل الأخبار المتعلقة بفضائل الأمكنة، وبنقل الحكايات والقصص التي تتصل بها بدون تمحيص أو تثبت.

الأمر الثاني: يجب أن لا يغيب عن البال أن ما له صلة بالأمور الدينية يجب التثبت بجميع ما يتعلق به من الأخبار، ومن ذلك المساجد التي تنسب إلى أصحاب رسول الله ﷺ، فالجزم بأن هذا المسجد منسوب إلى الصحابي فلان من الأمور التي لا ينبغي التساهل فيها، وأنا وإن لم أر في تحديد المواضع الأثرية من قبل إدارة الآثار ما يثير الاهتمام، لأننا اعتدنا في هذا الزمان أن نرى إدارة الآثار تهتم بمواضع قد تعتبرها أثرية، وإن كانت حديثة العهد، كالبيوت التي ذكرت في الخبر الأول، وبيوت أخرى في بعض قرى نجد.

ولكن الذي رأيته غريباً وعجيباً هو قول الأخ الحديثي عن مسجد بلال: وقد أُقيم في الموضع الذي كان يتعبد فيه بلال.

ومعروف أنَّ بلالاً ــ رضي الله عنه ــ لم يرد في كتب السيرة التي اطلعت عليها أنه اتخذ مكاناً للعبادة، وإنما ورد أن مولاه كان يعذبه في بطحاء مكة حتى اشتراه الصديق ــ رضي الله عنه ــ فأعتقه.

وأمر آخر: هو أن بلالاً ــ رضي الله عنه ــ كان على درجة من الضعف لا تمكنه من أن يخصص له مكاناً للعبادة، فيجاهر قريشاً بما يكرهون في وقت طغيانهم، واستضعافهم للمسلمين. وأمر ثالث: هو أنَّ المكان الذي كان يجتمع به المسلمون في عهد الرسالة هو دار الأرقم التي كانت في الصفا، ثم جعلت داراً للحديث، ولعلها دخلت الآن في زيادة المسعى.

أما المسجد الذي في أعلى جبل أبي قبيس، فقد ذكر مؤرخو مكة ومن آخرهم محمد بن ظهيرة مؤلف كتاب «الجامع اللطيف في فضل مكة وبناء البيت الشريف» ألفه في منتصف القرن العاشر الهجري، قال في ذلك الكتاب ــ ص ٣٣٢ ــ: ومسجدٌ على جبل أبي قبيس يقال له مسجد إبراهيم، وليس الخليل ــ عليه السلام ــ وإنما هو إبراهيم القُبَيْسي، إنسان كان يَسْأَلُ عنده، ذكره الازرقي. انتهى.

وكذا ما ذكر الأخ عن مسجد أبي بكر الصديق، ونصه: دار أبي بكر حيث أقام به مسجداً ليصلي فيه ويتعبد ويقرأ القرآن عندما كانت قريش تضطهد المسلمين في مكة وتعذبهم.

لا أدري من أين أتى الأخ بهذا الكلام، فأبو بكر الصديق ــ رضي الله عنه ــ لا يسعه في ذلك العهد، أن ينفصل عن المكان الذي كان يجتمع فيه المسلمون بالرسول ﷺ وهو دار الأرقم، حتى أسلم عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ فعز الإسلام، واستطاع المسلمون أن يصلوا في المسجد الحرام، ولم يعرف مسجدٌ في مكة في عهد النبي ــ ﷺ غير المسجد الحرام.

ويلاحظ أنَّ أبا بكر الصديق كانت له دار ليست في هذا الموضع الذي نُسب

إليه المسجد الذي فيه، بل كانت في زقاق الحجر ــ زقاق العطارين ــ الذي فيه دار خديجة ومولد فاطمة، على ما حدد تقي الدين الفاسي في كتابه «شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام» ــ ج١ ص ٢٦٢. وذكر في موضع آخر من هذا الكتاب المسجد المنسوب إلى أبي بكر بأسفل مكة، ولكنه أورد الخبر بصيغة (ينسب لأبي بكر) ويقال: إنه من داره التي هاجر منها إلى المدينة والله أعلم ــ كذا قال حين أورد الخبر بصيغتي (التمريض) ينسب ويقال، مع أن الأزرقي في كتابه «أخبار مكة» ــ ج٢/ص٢٥٧ ــ لم يذكر لأبي بكر إلا داراً واحدة في خط بني جمح، قال عنها: بيت أبي بكر الذي دخله رسول الله ﷺ ومنه خرج النبي ﷺ وأبو بكر الصديق إلى ثور مهاجراً، وحدَّد هذه الدار في ناحية أجياد، بعيدة عن الموضع الذي في أسفل مكة.

أما مَسْجدَا خالد بن الوليد وحمزة بن عبد المطلب ــ رضي الله عنهما ــ فلا أدري على أي مصدر اعتمد هاؤلاء الذين نسبوهما إلى الصحابيين الجليلين، والمؤلفات التي بين أيدينا في تاريخ مكة لا تذكرهما، وأعني بالمؤلفات الكتب التي ألفها المحققون من مؤرخي مكة كالأزرقي والفاسي والطبري.

أما ما جاء في كتب المتأخرين من الرحالة والمؤرخين الذين يتلقفون الكلام من كل قائل بدون تثبت أو تحقيق، فهاؤلاء لا يصح الاعتماد على أقوالهم، وخاصة فيما يتعلق بتاريخنا الإسلامي القديم الذي يجب أن تسد جميع الثغرات التي تسبب الطعن فيه.

ولن أزيد القول عن مقبرة خديجة ــ رضي الله عنها ــ على ما سبق أن أوضحته في حديث لي كان مثار تعليق كثير من الإخوة، وملخصه أن قبر خديجة لم يُعْرَف إلا في القرن التاسع الهجري بطريق رؤياً منامِيَّةً، رآها بعض المتسبين إلى الصلاح، فأخبر بها أمير مكة، الذي أمر ببناء قبة في المكان الذي تخيل ذلك الرائي أنه انبعث منه نور، أوَّلَهُ أمير مكة بأنه انبعث من قبر سيدتنا خديجة!!

فهل على مثل هذا القول يصح أن يُبْنَى تاريخنا؟!

وعجبت من قول الأخ الحديثي عن مسجد الخيف: (إنه تآمرت أحزاب الشرك في العام الخامس الهجري بسفح جبل الخيف بمنى وأن الرسول ﷺ حَوَّلَ ذلك المكان إلى مسجد يعبد الله فيه).

لا أدري من أين استقى هذا الخبر، ولكن الذي أدريه أنَّ مسجد الخيف مسجد عظيم الفضل، وردت فيه أحاديث وأخبار، وفيه صلى رسول الله ﷺ وقد عُني متقدمو المؤرخين بتاريخ هذا المسجد، وبتحديد المكان الذي صلى فيه الرسول ﷺ انظر «شفاء الغرام» ج١ ص ٢٦٣ وما بعدها.

وأخشى أن يكون الأخ اشتبه عليه خَيْفُ بني كنانة بخَيْف مِنى، ولم يلاحظ أن كلمة (الخيف) في الأصل اللغوي: ما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء، ولهذا فهو يطلق على مواضع كثيرة تتصف بتلك الصفة، منها خيف مِنى، وخَيْف بني كنانة وهذا هو الذي ورد في الحديث عن أسامة بن زيد قال: قلت يا رسول الله أين تنزل غداً في حجك؟ قال: «هل ترك لنا عقيل منزلاً؟ نحن نازلون بخيف بني كنانة، حيث تقاسَمَتْ قريش على الكفر» يعني المحصّب. ومعروف أن المحصب هو الأبطح ــ بطحاء مكة ــ.

ويبقى النظر في نِسْبَة تحويل ذلك الموضع إلى مسجد، هل ثبتت عنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ أم لا؟ وَمَردُّ ذلك إلى علماء الحديث الذين حفظوا كل ما أُثِر عنه ــ ﷺ من أقوال أو أفعال، فهل ذكروا ذلك؟

حمد الجاسر

رحلة الوزير الشرقي الإسحاقي المغربي
إلى الحج سنة ١١٤٣هـ

— ٦ —

ثم تحدث صاحب الرحلة في فصل جعل عنوانه: (فصل من الفقه في مناسك الحج على جهة الاختصار)، تحدث عن مسائل فقهية تتعلق بالحج، نقل كثيراً مما جاء في هذا الفصل عن كتب الفقه على مذهب الإمام مالك ــ رحمه الله .

وأورد بعد ذلك فصلاً عنوانه: (فصل في حدود الحرم)، وأورد بعده كلاماً يتعلق بالمناسك (بطريق الإشارة إلى معانيها) مما نقله من «مناسك الشيخ خليل» ــ رحمه الله .

وأورد بعد هذا أسئلة في الحج منها: ــ

١ ــ ما الحكمة في أنه وضعها بِوَادٍ غير ذي زرع ؟

٢ ــ ما الحكمة في الوقوف بعرفة والمشعر الحرام دون الحرم ؟

٣ ــ ما الحكمة في الْعَدْوِ والهَرْوَلَةِ ؟

٤ ــ ما معنى قوله الجمعة حج المساكين .

٥ ــ لما سمي عرفة عرفة ؟ وسمي البيت العتيق عتيقاً ؟

ثم بعد إيراد الأجوبة على هذه الأسئلة، قال: ذكر خروجنا من مكة المشرفة: (كان خروجنا من مكة المشرفة ضحوة يوم الجمعة السابع عشر من ذي الحجة بعدما طوفنا طواف الوداع، وودعنا البيت العتيق وداع أحبَّةٍ راعها ــ والشمل منتظم ــ داعي الوداع، فمن باك ومعتنق، وخرجنا من باب كُدَى من أسفل مكة عملاً بسنة رسول الله ﷺ ، واقتداءاً بفعله، وكان الركب المصري قد خرج قبلنا، فوجدناه قد ضرب مضارِبَهُ بوادي فاطمة ــ رضي الله عنها[1]ــ وفي هذا

اليوم توفي الفقيه المؤدِّب لولد سيدنا ــ نصره الله ــ السيد بلقاسم النسولي، تشوم (؟) في أثناء الطريق، وكان اليوم حاراً، توفي قريباً من قبر السيدة ميمونة زوج النبي ــ ﷺ ــ ومشهدها على طريق الحاج(٢)، وحمل إلى وادي فاطمة، حيث نزل الركب في هذه المرحلة، ودُفِن هنالك، ومن الغد ارتحلنا الركاب، وكان مسيرها على طريقها الأولى، داراً داراً إلى بَدْرٍ، فأخذ الركب ذات اليمين للمتوجه للمدينة المشرفة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، على طريق الصفراء، فكان المبيت بالموضع المسمى بالجُدَيِّدة(٣)، ومنه إلى قبور الشهداء، ومنها أصبحنا على البئر المعروفة ببئر علي، وبه آثار بنيان ورسوم داثرة، ودون المدينة المشرفة على نحو من مسافة نصف يوم وادي العقيق وليس به ماء ولا عمارة، وحصاه يَنْحُو نَحْوَ الحمرة، وهو وادي ذي الحُلَيفة، والعقيق خرزٌ أحمر، واحده عقيقة، وقال ابن دريد: كل شَقٍّ في الأرض فهو عقيق، وعقَّ الشيءَ شَقَّه، والعقيق أيضاً وادي المدينة الذي فيها أموالها ونخيلها، وذُو الحليفة على طريق المدينة بنحو سبعة أميال، وهو بطحاء سهلة لينة وفيها أوحي إلى رسول الله ــ ﷺ ــ : «إنَّك ببطحاء مباركة»، وهي مَهَلُّ أهل المدينة كما تقدم.

وفي يوم ......(٤) من ذي الحجة وصلنا إلى معهد الفضايل المشهورة، ومعقد ألوية الدين المنشورة ثم تحدث عن طيبة الطيبة وأورد أقوالاً كثيرة عن متقدمي العلماء تتعلق بفضلها وبما ينبغي أن يتصف به القادم إليها، وغير ذلك مما له صلة بالزيارة، وكل ما أتى به من هذا القبيل لا يخرج عما ذكره أهل عصره، مما لا داعي للإطالة بذكره.

وأورد بعد ذلك فصلاً في فضل البقيع، وأشار إلى مَنْ قُبِرَ فيه من الصحابة فمن بعدهم، وأورد أشعاراً منها قصيدة للسيد محمد بن سعيد بن الشيخ عبد الكريم الأنصاري الخزرجي المدني أنشده إياها وكتبها له بخطه، مطلعها:

لعثمان ذي النورين تَفْدِي الجوانحُ　　　وتَسْعَى إليه العارفون الجحاجحُ

وقال: إنه أنشدني في هذه القصيدة بمحضر أبيه الشيخ عبد الكريم في دارهم المعروفة بدار أبي أيوب الأنصاري.

وتحدث عن أبناء الشيخ عبد الكريم الأنصاري وأقاربهم فقال: ولصاحب القصيدة المذكورة أخٌ اسمه محمد أبو البركات بن الشيخ عبد الكريم المذكور وأخوهما.

وذكر ممن لقيه بالمدينة الفقيه الأديب عبد الله بن عبد الكريم العباسي الحنفي مفتي المدينة الشريفة سابقاً، الخطيب والمدرس والإمام بحرم خير الأنام، وأورد له قصيدة في صاحب الرحلة.

وذكر بعض الأمكنة التي زارها في المدينة، وأورد بعد ذلك فصلاً في ذكر فضل جبل أُحُـدٍ، وانقطع الكلام في أوله، وبهذا انتهى الموجود من تلك الرحلة.

الحواشي:

١ ــ نسبة الوادي إلى فاطمة ــ رضي الله عنها ــ ليست ثابتة من الناحية التاريخية، وليس فيما اطلعت عليه من المؤلفات ما يوضح مَن المقصود بهذا الإسم، واسم الوادي قديماً (مر الظهران).

٢ ــ قبر السيدة ميمونة ــ رضي الله عنها ــ في سَرِف، بقرب ميقات العمرة لأهل مكة المعروف باسم التنعيم.

٣ ــ الـجُذَيْدة من قرى الصفراء التي لا تزال معروفة.

٤ ــ بياض في الأصـــل.

رحلة الوزير الشرقي الاسحاقي إلى الحجاز

كانت مجلة «العرب» نشرت القسم المتعلق بالحج من رحلة الوزير محمد الشرقي الاسحاقي سنة ١١٤٣هـ في سنتها الـ ١٩ ص ٧٣٦ والـ ٢٠ ص ١٠٨، ٢٦٤، ٣٨٦، ٥٢٨، ٦٤٧ ويظهر أن استاذنا الجليل محمد بن عبد العزيز الدباغ محافظ خزانة جامعة القرويين في مدينة فاس لم يطلع على ما نشر. وقد أتحف مجلة «العرب» بِبَحْث ضاف يعتبر ملخصاً وافياً لتلك الرحلة وقدم له بكتاب هذا نصه:

فاس في: ٢٥ ذي القعدة عام ١٤٠٥ الموافق: ١٣ غشت سنة ١٩٨٥

إلى .... حمد الجاسر

السلام عليكم ورحمته تعالى وبركاته

وبعد فإني لأجد نفسي منساقاً إلى الكتابة إليك بدافع روحي لا أدري كيف أُصَوِّرُه أَوْ أُعَبِّر عنه.

إنه باعث أجده في أعماقي منذ سنوات قبل أن تجمعني بكم صلة الكتابة وقبل أن أتوصل أنا وخزانة القرويين ببعض مؤلفاتكم المهداة إلينا.

ولعل السبب في ذلك مرجعه إلى أنكم قد وجهتم عنايتكم لدراسة أحوال مكة المعظمة والمدينة المشرفة ودراسة الرحلات الحجازية التي قام بها عدد من العلماء والأولياء والصالحين فاستمددتم بسبب ذلك، نفحات إلهية أعانتكم على عملكم وجعلتكم محبوبين لدى كل من يقدر العلم ويعرف قيمة أهله خصوصاً بالنسبة إلى الذين جعلوا مدار اهتمامهم على مركز الوحي وطريق الوصول إليه.

وإني لأشكركم من جديد على الكتابين اللذين أرسلتموهما لنا وللخزانة وهما

المتعلقان برحلتي ابن عبد السلام الدرعي وبرحلة العياشي، وأبارك الطريقة التي اخترتموها في تقريب محتواهما لأن اختصار الأصول أصبح معيناً على الاستفادة منها وعلى محاولة البحث عنها للاطلاع عليها من جميع نواحيها.

ولقد قرأت الجرد الذي ذكرتموه لعدد من الرحلات في التمهيد الذي وضعتموه لملخص رحلتي ابن عبد السلام الدرعي فدل على أن عدد الرحلات كان كثيراً ومفيداً إلَّا أنني لم أجد من بينها رحلة قيمة كتبها أحد الفقهاء المغاربة في أواسط القرن الثاني عشر الهجري وهي رحلة العالم الاجل، والكاتب المبجل، السيد محمد الشرقي الاسحاقي الذي صاحب في رحلته عام ١١٤٣هـ السيدة اخْنَاثة زوجة السلطان المولى اسماعيل، وأم السلطان المولى عبدالله رحمهم الله، وقد حَجَّ معها آنذاك حفيدها سيدي محمد رغم صغر سنه وهو الذي أصبح فيما بَعْدُ يُعرف بالسلطان سيدي محمد بن عبدالله أو محمد الثالث، وكان من أعظم ملوك الدولة العلوية قدراً ومن أَحْرَصِهم على حماية العلم ونشره وتيسير استنساخ كتبه.

وفي خزانة القرويين نسخة من هذه الرحلة مكتوبة بخط مغربي جيد، تحمل الرقم ١٢٥٨ وقد كنت كتبت في السنة الماضية بحثاً للتعريف بها وبمؤلفها اقتبسته من صلب الرحلة، وحاولتُ أن أُبرز فيه الجانب الثقافي والأدبي وأن أتعرض لبعض الإجازات التي نالها المؤلف من بعض علماء مكة رحمهم الله.

وقد أُذِيع هذا البحث على أمواج الإذاعة الوطنية المغربية وربما سينشر في شهر مارس ١٩٨٦ ضمن العدد الخاص الذي تصدره مجلة «دعوة الحق» حول عيد العرش المجيد، وأُوافيكم الآن بنسخة منه قبل تهذيبه وإعداده للنشر الكتابي لتطلعوا على هذه الرحلة ولتروا بعض نماذجها.

وقد اعتنى بعض الباحثين المغاربة بهذه الرحلة فلخصها المؤرخ السيد عبد الرحمن ابن زيدان في كتابة «اتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس» (ج ٥ ص ٥٤٢) ونشر جزءاً منها يتعلق بليبيا الدكتور عبد الهادي التازي وهي لحد الآن لم تنشر نشراً كاملاً أتمنى أن تطلعوا عليها وأن تقارنوا بينها وبين مختلف

الرحلات التي قرأتم لتضعوا هذا الكاتب في عداد من تؤرخون لهم جازاكم الله وأعانكم والسلام.

محمد بن عبد العزيز الدباغ

وترى مجلة «العرب» أن تتحف قراءها بنشر ما أفضل به الاستاذ الجليل محمد بن عبد العزيز الدباغ وافياً، إذ لديه من سعة الاطلاع ومن العلم والمعرفة التامة بالرحلة وصاحبها ما يجعل لما تحدث به عنهما من القيمة العلمية ما هو جدير بأن يقدم، وها هو نصه:

(١)

في يوم الجمعة الحادي عشر من جمادى الثانية سنة ثلاث وأربعين ومئة وألف بعد صلاة الجمعة خرجت السيدة خناثة بنت بكار والدة السلطان المولى عبدالله مع حفيدها الصغير سيدي محمد بن عبدالله من مدينة مكناس عاصمة المملكة المغربية آنذاك متوجهة إلى البقاع المقدسة وهي في شوق ولهفة لتحقيق هذه الأمنية التي طالما حنت إليها وتمنت إنجازها.

وكان في مصاحبتها وفد يتكون من بعض العلماء والموظفين الذين وثق الملك في علمهم وأخلاقهم وحصافة عقولهم أمكننا التعرف على بعض أعضائه من خلال الرحلة التي دونها السيد الوزير محمد الشرقي الاسحاقي الذي كان له الفضل في تسجيل مراحلها وتدوين أخبارها ووضع تقارير كافية حولها زيادة على ما أبداه من الاهتمام العلمي والصوفي الدال على ما كان للمغاربة من العناية بمختلف الفنون والعلوم ومن التشوق إلى الاطلاع على أحوال المسلمين وتتبع أخبارهم وعاداتهم وتسجيلها تسجيلاً يفيد الذين يرغبون في التوجه إلى الحج سواء من الناحية الجغرافية أو التاريخية أو الأدبية أو العلمية أو غير ذلك من مختلف الأحوال الثقافية المفيدة.

كان الوفد يتكون من قائد الركب الحجازي السيد عبد الخالق عديل باعتباره المكلف الرسمي بشؤون الحج ومن السيد الوزير محمد الشرقي الاسحاقي المؤلف لهذه الرحلة والغالب أنه كان مسؤولاً عن وضع تقرير كامل حولها ليقدمه إلى السلطان المولى عبدالله إثر رجوعه ومن ابن اخته الطالب الفقيه السيد العربي بن محمد ومن القاضي السيد بلقاسم بن الفقيه سيدي سعيد بلقاسم العميري (٤٨ ــ ١٤٣ ــ ١٨٠) (الاتحاف ج ٥) ومن الفقيه السيد أحمد المكودي (٨١) ومن الشيخ محمد بن محمد بن أبي بكر المرابط الدلائي الذي توفي بليبيا قبل الوصول إلى مكة ومن مؤدب ولد السلطان السيد بلقاسم التشولي الذي وافته المنية في اليوم التاسع عشر من ذي الحجة بعد الانتهاء من مناسك الحج.

وكان مع الوفد جماعة من عبيد سيدي البُخاري يحسنون الركوب على الخيل ويتوفرون على مهارة في اللعب بالبارود ولهم دربة عسكرية فائقة كلفوا بحماية الركب وبإظهار براعة المغاربة في الفروسية كلما احتاجوا إلى ذلك وقد كان دورهم فائقاً في ليبيا أثناء وصول الركب الحجازي إليها مما جعل كل الذين شاهدوهم يبدون إعجابهم بقدرة المغرب في الميدان العسكري وفي الدربة على ركوب الخيل وممارسة استعمالها.

ولقد برع السيد الاسحاقي في تدوين مختلف المراحل وأبدى عناية فائقة بكثير من الدقائق العلمية والأدبية وأكثر من نقل الاشعار ومن نقل النصوص العامة المتعلقة بوصف بعض الأقاليم أو بوصف بعض المزارات مما يدل على أن الكتاب كان يجمع بين الطريف والتليد فهو لا يقتصر على المشاهدات الفردية ولكنه يضيف إليها أحياناً ما سجله السابقون إذا كان في نقله فائدة أو في تقديمه منفعة عائدة وفي خزانة القرويين نسخة من هاته الرحلة مسجلة تحت عدد ١٢٥٨ مكتوبة بخط جيد واضح في حجم متوسط تبلغ صفحاتها ٢٧٢ حبسها المولى عبدالله على هاته الخزانة عام ١١٥٦هـ.

ولقد حاولنا من خلال هاته الرحلة أن نستشف بعض الجوانب من حياة مؤلفها وأن نتتبع أحواله وأن نطلع على مؤهلاته الثقافية التي خولت له القيام بهذا العمل

الجليل فهو فيما نعلم لم يحظ بترجمة خاصة به إذ غالباً ما يذكر مع ترجمة السيدة خناثة بنت بكار حينما يتحدث عن رحلتها إلى المشرق أو يذكر مع السلطان السيد محمد بن عبدالله حينما يشار إلى طفولته وإلى مصاحبته لجدته في رحلتها هاته.

ففي كتاب الاتحاف مثلاً نجد المؤرخ الشريف سيدي عبد الرحمن بن زيدان يتعرض لهاته الرحلة أثناء ترجمته للسيدة خناثة ذات الفضل والعلم والأدب ويقوم بتلخيص دقيق جداً لجميع مراحلها من بدايتها إلى النهاية ولا يفصل الحديث عن مؤلفها ولا يذكر شيئاً من ثقافته وسيرته وترجمته مما جعلنا نفكر في محاولة البحث عن هذا العالم الجليل عسانا بذلك أن نبرز بعض خصائصه وسماته وأن نتعرف على ثقافته وأحواله واعتمدنا في ذلك على ما نستشفه من الرحلة ذاتها ففيها جوانب متعددة صالحة للتعريف به ولاظهار اهتمامه الفكري وسلوكه الذاتي لقد كان والده من أتباع السيد الشرقي المعجبين به المحبين له المتفانين في نهج طريقته لذلك سمى ابنه به ليتفاءل بهذا الرجل الذي كان المغاربة يجعلونه شعاراً صوفياً مقدساً ولم يكتف بالتبرك الاسمي فقط بل وجهه للمعرفة وحبب إليه العلم واعتنى بتربيته وحفظه القرآن وجعله من رواد المجالس العلمية سواء في حلقات الدروس التي تعقد بالرُّبُطِ والزوايا أو في حلقات الدروس التي كانت توجد بالمدن الكبرى كمدينة فاس مثلاً.

وكانت المجالس العلمية الناجحة آنذاك تستمد عناصر وجودها من العلماء الذين نزحوا عن الزاوية الدلائية وتفرقوا بين المدن والقرى فكان لهم فضل كبير على ازدهار الفكر الحي ونشر أصول الأدب وأصول الفقه ومن أشهرهم حماسة وعلماً وموسوعية أبو علي الحسن اليوسي الذي فاقت شهرته الآفاق وتداولت كتبه شتى الجهات والذي أصبح الاستمداد من علمه دليلاً على الكفاية وبرهاناً على النجابة والدراية.

وفي حديقة مجالسه استمد الاسحاقي كثيراً من علومه وآدابه يبدو ذلك في

طريقة آدائه وفي أسلوب عرضه وفي مزجه بين الفقه والأدب ولقد أشار إليه أثناء الرحلة وأثنى عليه وجعله من بين شيوخه إلا أنه لم يذكر مكان الأخذ عنه ولا زمن ذلك الأخذ.

الغالب أن هذا التلقي كان في السنوات الأولى من دراسة الاسحاقي فلقد نزح الحسن اليوسي عن الزاوية الدلائية عام ١٠٧٩ هجرية بعد قضاء المولى الرشيد عليها وحينئذ توجه إلى فاس ولكنه لقي عنتاً من بعض طلبتها الشيء الذي دفعه إلى عتابهم وإلى إظهار القلق من موقفهم فقد قال رحمه الله (الاعلام ج ٣ ص ١٥٧).

ما أنصفت فاس ولا أعلامها علمي ولا عرفوا جلالة منصبي
لو أنصفوا لصبوا إلي كما صبا راعي سنين إلى الغمام الصيب

وهما بيتان معبران عن إحساس دفين في أعماق الشاعر وهما خاليان من أي بذاءة ولكنهما رغم ذلك أثارا حمية طالب ما زال في عنفوان شبابه هو السيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسي فقال:

بل أنصفت فاس ومن إنصافها أبداً سقوط المدعي والمعجب
تنفي الدجاجل عاجلاً أو آجلاً منها كنفي قريظة من يثرب

وهو رد قاس ما كان ليتحمله اليوسي ولا ليقبله ولا ليرضى الإقامة في مدينة أساء إليه بعض طلبتها فاضطر إلى مغادرتها وإلى التوجه إلى البادية حيث أصبحت مجالسه قبلة الطلاب من مختلف القبائل وصارت دروسه نبراساً يستضيء به كل الذين كان لهم ولوع بالثقافة الإسلامية النافعة ولهذا قال فيه أبو سالم العياشي (النبوغ ج ١ ص ٢٨٦):

من فاته الحسن البصري يدركه فليصحب الحسن اليوسي يكفيه

وسواء كان تلقي الإسحاقي أيام إقامة اليوسي بفاس أو بعدها فإن ذلك لا

يتصور إلّا أيام الشباب لأن اليوسي توفي عام ١١٠٢ والرحلة التي قام بها الإسحاقي كانت عام ١١٤٣ فبين الرحلة وموت اليوسي إحدى وأربعون سنة وأيام التلقي إنما كانت بين ١٠٧٩ وبين ١١٠٢ ولهذا نرجح أن الإسحاقي لم يقم بالرحلة إلّا بعد أن تجاوز الستين من عمره وقرب من السبعين.

وعلى كل حال فإن الإسحاقي كان يشير إلى اليوسي إما مباشرة أو بواسطته، وفي كلتا الحالتين كان يقول قال شيخنا أو لله در شيخنا.

(٢)

لقد سبق لنا أن قلنا إن الإسحاقي قد تلقى بعض دروسه عن الشيخ أبي علي الحسن اليوسي وأنه قد أشار إليه في رحلته ونعته بأحسن الأوصاف سواء كانت الإشارات مباشرة أو غير مباشرة.

فمن الإشارات المباشرة تحدثه عنه أثناء التعقيب على رحلة العبدري فقد لاحظ الإسحاقي أن العبدري كان يندد بأهل مصر لأنهم كانوا ينوهون بالإمام الشافعي ويغفلون ذكر غيره من الصحابة وأهل البيت النبوي مع أنهم أولى بالاهتمام فقرر أن هذا التنديد لا محل له لأمرين (١١١).

أولاً: لإن خفاء مشاهد بعض الصحابة لا غرابة فيه واستدل بقول الشاعر:

ليس الخمول بعار على امرىء ذي جلال
فَليلة القدر تخفى وهي خير الليالي

ثانياً: لأن الإظهار والإخفاء أمر إلهي ليس للعبد فيه تَعَمُّلٌ فمن أظهره الله للناس ظهر حياً وميتاً ومن أخفاه خفي.. وهنا قال ولله در شيخنا أبي علي الحسن اليوسي رحمه الله في قوله من قصيدة يمدح بها الشيخ أبا يعزى نفع الله به.

مَاذا طوت منهم الغبراء من نجب كالمشرفية إذ تطوى بأغماد
لو التقينا لأسعدنا بأوجههم كما الأولى عاشروا فازوا بإسعاد

وأما الإشارة غير المباشرة فتوجد حين الحديث عن مصر وعن ضياع العلم بين أهلها فهو قد لاحظ ضعف كثير من علماء الأزهر وذكر أنه حضر عدداً من

المجالس بهذا الجامع فما وجد ما يشفي الغليل ولا ما يبرىء العليل ثم قال وبالجملة فالعلم بالبلاد المشرقية كغيرها قد وقف على ثنيات الوداع وهَمَّ مزنه بالاقلاع وآزر ملاحظته وبقوله: وأخبرني بعض أصحابنا أنه سمع شيخنا أبا علي الحسن اليوسي بعدما رجع من حجته يقول ما بقي بالبلاد المشرقية من تشد إليه الرحال في طلب العلم وما راء كمن سمع.

لم يكن الإسحاقي يهمل الرواية في الأخبار إلا أنه كان يذكر أحياناً أسماء من يَرْوِي عنهم وكان يكتفي أحياناً بالإشارة إلى جنسِهم أو إلى حَيْثِيَّتِهِمْ كقوله رويت عن بعض المغاربة أو أنشدت بعض أصحابي وما أشبه ذلك.

وتجتمع الظاهرتان معاً فيما يأتي فهو يقول مثلاً أنشدني بعض المغاربة للشيخِ المحدِّثِ الفاضل فتحِ الدين أبي عُمَر بن سيد الناس رحمه الله:

بالله إن جُزْتَ بَوَادِي الأرَاكْ وقبِّلَتْ عِيدانُه الخضرُ فاك
فابعث إلى المملوك من بعضِها فإنني والله مالي سواك

ثم يقول وأنشدتُه لبعضهم

جعلتُ هديتي لكمُ سِواكا ولم أقصد بها أحداً سواكا
بعثت إليك عوداً من أراكٍ رجاءً أن أعود وأن أراكا

وأنشدته لصاحبنا الفقيه الأديب السيد محمد ابن زاكور الفاسي رحمه الله:

أبغي السواكَ ولا أرومُ سواكا سبحانَ يا بدرُ الذي سوَّاكا
فَلَمَاكَ يمتهنُ السواك ولا رَشَا يُغنِي لِمَاهُ عن السواكِ سواكا،

ومن المعلوم أن ابن زاكور المشار إليه قد توفي عام ١١٢٠هـ وهو قد كان علماً من أعلام الفقه والأدب بالبلاد المغربية وكانت له عناية بشرح النصوص وتأليف الكتب البلاغية والأدبية فهو قد شرح قلائد العقبان لابن خاقان وشرح لامية العرب وهو صاحب الديوان الشهير الذي أسماه الروض الأريض في بديع التوشيح ومنتقى القريض.

ومن خلال بيتيه السابقتين يتجلى لنا حبه للجناس وتعمُده لاستعماله سيراً على نهج البديعيين الذين كان لهم ولوع بذلك فكانوا يتبارون في تنويعه وتلوينه.

إن الإسحاقي في رحلته لم يتعرض لذكر جميع شيوخه أو جميع أصدقائه بحيث لو حاولنا تحديد أسمائهم أو معرفة أخبارهم لتعذر علينا ذلك إلا أن اعتزازه بشيخه اليوسي وإشارته لصاحبه ابن زاكور لما يدل على أن عنايته بالفقه كانت ممزوجة بعنايته الأدبية العامة وتظهر آثار هاته العناية فيما كان ينتقيه من موضوعات أو فيما يشير إليه من كتب أو فيما يحلله من نظريات أو فيما يجول فيه من آراء سواء كانت تتلاءم مع عصره أو كانت معبرة عن ثقافة سابقة.

إن ثقافته العامة كانت تدل على اعتنائه بالتاريخ والسيرة النبوية وعلى اعتنائه بالأدب والفقه ويتجلى ذلك فيما ينقله من أشعار وفيما يتعرض له من أحوال وفيما يشير إليه من أقوال فقهية متعددة تدل على خبرته بالفقه المالكي وببعض القوانين الفقهية في المذاهب الأخرى.

ويبدو من خلال ما كتب أنه كان يدعو إلى الفهم والتأمل وسعة الخاطر مع الاعتزاز بالكرامة النفسية والإفتخار بالهمة الذاتية فليس هناك ما يفسد العلم مثل الحفظ الآلي الذي لا يكون معه تدبر ولا قدرة على المناقشة والمعارضة وحضور البديهة.

وإن نظرة في هاته الرحلة لترسم لنا زيادة على ما أطلعنا عليه صورة من سلوكه وأخلاقه وسلامة ذوقه ورقة حواره كما تبرز لنا قدرته على السخرية اللاذعة التي لا بذاءة فيها،

ومن طبيعته في تأليفه أنه يشير إلى المصادر التي استفاد منها سواء فيما يتعلق بالرحلات السابقة التي كانت متداولة في المغرب كرحلة أبي محمد عبدالله بن محمد بن أحمد التيجاني التونسي، (في أوائل القرن الثامن للهجرة لمحات من تاريخ العرب ٣٠٠ (ظ / ١٠٥٧٨)، وكرحلة البلوي وكرحلة العياشي وكرحلة الغرناطي وكرحلة ابن جبير وكرحلة العبدري أو فيما يتعلق بكتب السيرة والحديث

وتاريخ الصحابة كالشفا للقاضي عياض والروضِ الأُنُف للسهيلي والاستيعاب لابن عبد البر والإصابة لابن حجر ودَرّ السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة للسيوطي أو فيما يتعلق بالفقه كالبيان والتحصيل لابن رُشد والمقدماتِ له أيضاً وواضحةِ ابن حبيب وبعضِ المناسك المشهورةِ لمختلفِ الفقهاء زيادة على اهتمامه بكتب اللغة التي ذَكَرَ أسماء بعضها.

ولم يكن المؤلف في رحلته مندفعاً اندفاعاً يلهيه عن التحكم إلى العقل ولعل السبب في ذلك راجع إلى كونِه لم يكتب الرحلة إلا بعد أن خبر الحياة فاستأنس بتقلباتها وأهوالها وتعلم منها أن الإندفاع العاطفي لا يؤتي أكله إذ لا بد من الاستخدام العقلي ومن التحري في الأحكام ومن مراعاة مقتضيات الأحوال وإلا كانت الأحكام عَبَثِيَّةً لا فائدة ترجى من ورائها.

وليس معنى هذا أن المؤلف كان مسالماً إلى أبعد الحدود فهو بطبيعَة الحال كان يقلق كغيره إذا وجد ما لا يرضيه إنما طريقة التعبير والأداء هي التي كانت تصور نضجه العقلي وما يمتاز به من قدرة على التبليغ الهادف الهادىء الذي يجعلك تستأنس به وتعيش معه في لذة فنية ممتعة تجمع بين روح الأديب وعقل العالم ولا أدل على ذلك من قصة ظريفة كتبها بأسلوب ساخر يكاد يكون أسلوب الجاحظ في سَبْرِ الأغوار وفي التحليل النفسي الدقيق إنها قصة رجل مصري أراد أن يتقرب إليه وإلى الوفد الذي معه وأن يستمنحهم عن طريق المدح والارتزاق بالشعر وكان الهدف عنده من كتابة هاتة القصة إظهار بعض الجوانب المتعلقة بحب المال وبالحرص على اكتسابه بأي صورة كانت في المجتمع المصري آنذاك وأن يؤيد بذلك بعض الأوصاف التي وصف بها الرحالة العبدري أهل مصر هذا مع العلم بأن العبدري في كتاباته العامة كان مندفعاً مغالباً.

(٣)

أراد التطاول على الشعر وحاول التملق إلى الوفد المغربي مما جعل الإسحاقي رغم حصافة عقله ورصانة سلوكه أن يكتب هذا الوصف الذي ـ اعتبرناه داخلا في إطار الأسلوب الجاحظي نظراً لما يحمله من تحليل نفسي لكثير من الصور

الشبيهة بهذا الرجل الموصوف بالطمع والجشع قال المؤلف (١٣٨) «ومن أعجب الملق والطمع الذي وصفهم به صاحب الرحلة المذكورة (ويشير بذلك إلى العبدري) ما شهدته من بعض من ينتحل العلم منهم قصدونا إذ سمعوا بخبرنا أننا من جملة كتاب السلطنة بالمغرب عمره الله بوجود مولانا نصره الله مادِّيْنَ أيدي القانِعِينَ والمعترين فرضخت لهم على قدر الميسور ثم تتابعوا وتراسلوا حتى عالت فريضتهم وأحرجتنا سنتهم وفريضتهم فانحزنا عنهم إلى حيز الإهمال وأوليناهم أذناً صماء وتشاغلنا عنهم ببعض الأشغال تفادياً منهم فبينا نحن في ذلك ما شعرنا يوماً حتى دخل علينا شيخ على رأسه عمامة مفرطة الطول والعرض وجوخة يسحبها على الأرض طويل السبال يمشي مشية مختبل أو مختال فسلم وهش وبش من تلقاء نفسه ورفع يديه وقرأ فاتحة ودعا لنا ولنفسه بكل سانحة من أمينة وبارحة ثم أخرج قصيدة امتدحنا بها هي إلى الهجو أقرب فجعل يقرؤها حتى فرغ منها فناولنا إياها فتأملناها فإذا هي عن الإعراب في غاية الانحراف، محتوية على المتقيات الأقواء والإجازة والإصراف، فقلنا له: يا شيخ لم رفعت هذا وحقه النصب فقال نعم رفعته لإقامة الوزن فقلنا له أيجوز لك أن تلحن لإقامة الوزن فقال نغيره يا سيدي ثم قام وتولى وكان هذا الشيخ جاء راكباً على حمار نزل عنه في وسط الحوش الذي به بعض قشنا وطلع إلينا إلى المقعد الذي كنا فيه فرأى الحمار بردعة صغيرة هنالك والموضع فارغ ما فيه أحد فقبض عليها بأسنانه وقصد باب الدار خارجاً بها فخرج الشيخ وراءه يجري حافياً فأدركه قرب من الخروج إلى شارع الطريق فرده ورد البردعة فأغربنا في الضحك وما عرفنا من أيهما نعجب من الشيخ أم من حماره والناس يقولون: قلب الجواد على قلب مولاه».

فهذه الحكاية تعتبر من أقسى ما يهجى به شخص وألذع ما يوصم به إنسان فقد وسمت هذا الرجل بالجهل والدناءة وسوء الإلحاح وعدم القدرة على التمييز بين الجيد والرديء مع صغار النفس وقلة الحياء.

وقد استغل فيها المؤلف خبرته بعلم العروض ودرايته بقواعد الشعر وقوانين القافية واعتزازه بجمال الطبع مع عدم السماح ببعض الضرورات التي لا تترك

للشعر جاذبيته والتي تدفع إلى الأخطاء اللغوية الفاحشة.

والظاهر أن الإسحاقي كانت له خبرة بعلم العروض وأنه كان في أيام شبابه ينظم الشعر ويمارسه إلا أننا لا نستطيع أن نحكم على شاعريته حكماً دقيقاً لأننا لم نطلع على ما يكفينا منه فليس بين أيدينا لحد الآن إلا أبيات أوردت في الرحلة نذكرها للاستئناس بها ولعلها كانت من الشعر الأول الذي قاله في شبابه قبل أن يتمكن من ناصية اللغة وقوة البيان.

فقد أورد هذه الأبيات حينما كان يترحم للفقيه مفتي الشافعية بالحرمين الشريفين زين العابدين بن سعيد المنوفي وكان ذا أخلاق طيبة وكرم وسخاء متجاوز الحد يقول الشعر ويحسن إلى الناس كثيراً ولقد استأنس بالإسحاقي وزالت بينهما الكلفة وأنشده في يوم من الأيام قصيدة في مدح الرسول ﷺ فتذكر الإسحاقي أيام شبابه وقال بعد سماعه للقصيدة المشار إليها: (٢٣٣): ولما فرغ صاحب الترجمة أعزه الله مما أنشدني لنفسه أنشدته على وجه المطارحة في مجلس أنسه مع بعض إخوانه وأبناء جنسه ما كنت قلته قديماً على وجه التمليح والاقتباس.

يا ذا الذي عذبني وما درى كيف فعل
جد لي بريقك الذي ألذ من طعم العسل
إياك والبطء به إني خلقت من عجل

فكتبها وسمطها للحين..

ومن يسمع هذه الأبيات فسيرى أنها لا تمثل قوة أدبية ولا رقة شعرية كافية وإنما هي أبيات تكاد تكون من المحاولات الأولى التي سار عليها الشاعر ونحن لا ندري هل وقف الإسحاقي مع هذه المحاولات فلم يتجاوزها إلى غيرها أو استطاع أن يقوي ملكته الشعرية وينمي قوته الخيالية ويصقل معطياته التصويرية فليس بين أيدينا ما نبرزُ به الجانب الثاني لأن الرحلة خالية من شعره رغم اهتمامه بالنقول الأدبية إلى حد كبير.

وكانت النقول الأدبية مختلفة الأغراض ومتعددة الجوانب وممثلة لعصور مختلفة مما يمكّننا أن نستدل به على حسن اختياره وسعة ثقافته.

ولم يكن في اختياراته يهمل الجوانب العاطفية الرقيقة الدالة على رقة طبعه وسلامة طويته.

فمن ذلك مثلاً قوله وهو يغادر البلاد المغربية أثناء شروعه في السفر (١٩): وخرج معنا مشيعون من الأولاد والطلبة والأحباب والأصحاب فجمعنا بين حلاوة التشييع ومرارة التوديع وإن كان الشيخ أبو الفتح ابن دقيق العيد رأى صواب ترك الجميع إذ قال:

صدني عن حلاوة التشييع ما أرى من مرارة التوديع
لم يقم أنس ذا بوحشة هذا فرأيت الصواب ترك الجميع

ولما ودعنا من كان معنا من الطلبة والأصحاب أنشدت متمثلاً في الحال قول من قال:

ليت شعري أنلتقي بعد هذا أم وداعاً يكون هذا اللقاء
فاذكروني وزودوني دعاء خير زاد تزودوني الدعاء

وكان حنينه إلى وطنه متجدداً يذكره في كل مناسبة ويتحدث عنه كلما واتته الظروف ولقد نقل قصيدة كاملة من نظم صديقه القاضي العميري أنشده إياها وهو بمصر فسجلها في رحلته ننقلها للتعرف على بعض النماذج الأدبية المغربية في هاته الحقبة التي تتحدث عنها قال الإسحاقي: (١٤٣): تذاكرنا الغرب يوماً ونحن بمصر فذكرنا مطمح النفس ومحل الأنس مكناسة الزيتون وما بها من المعاهد التي استفتى القلب فيها نفسه وإن افتاه المفتون ففتت الشوق منا كل كبد وبرح كل منا بما يجد فأنشدني صاحبنا الفقيه الأديب السيد بلقاسم بن الفقيه العلامة السيد سعيد العميري لنفسه ما أنشده أيام نزوحه عن الحضرة المذكورة وجلائه عنها أيام الحادث الجارف الذي استوعى التالد والطارف بناحية غمارة:

يا للورى لعمارة ... سئمتها بعماره
أرابني اليوم أمر ... كنت امتطيت غماره
فصنتها عن مقامي ... صون الغيور ذماره
وملت عنها بوجه ... أمطت عنه خماره
من احتسى الكأس صرفاً ... لا ينكرن خماره
وما بغير بلادي ... أرضى ولو بإماره
لا تجهلن وفائي ... فلي عليه أماره
وكيف لا وبكره ... خلى الحبيب وداره
فليس يبغي سواها ... مأوى ولو كان داره
وكان منها لبدري ... في أفق عزي داره
ما حيلتي في رجوعي ... وَاحَرَّ قلبي وناره
واللوم في ذاك لوم ... لا ترفعن مناره
يا هل يرد لشمسي ... بعد الأفول إناره
حتى يقال فلان ... يا سعده الحب زاره
وسرت في الأرض أبغي ... مزارة فمزاره
رثى لي الناس طرا ... معده ونزاره
وما وجدت عزيزاً ... يجير من كان جاره
فتم في الله قصدي ... وكنت حقاً مجاره
ورد كيد قلوب ... قساوة كالحجاره
حتى يصون رجائي ... عن خيبة وخسارة
حتى يمن عليه ... حتى يفك إساره
حتى أعود قريباً ... لمعشري عود ساره

ثم قال المؤلف:

وربما اتبعنا الزفرة بالزفرة وواصلنا العبرة بالعبرة وأنشدنا من الإشتياق إلى الأوطان وتزاحم الأشواق قول أبي حيان:

يا فرقة أبدلتني بالسرور أسىً ... وأسهرت ناظراً [قد] طالما نعسا
أنى يكون اجتماع بين مفترق ... جسم بمصر وقلب حل أندلسا

وهكذا نرى رغم حبه للتنقل واشتياقه لزيارة البقاع المقدسة لا ينسى وطنه ولا تغيب معالمه عن نفسه فهو يذكره في جل الأحيان ويختار من الشعر ما يعبره عن حزن الفراق وعن لوعة الإشتياق.

(٤)

لقد بينا في حلقات سابقة أن الوزير الإسحاقي كان كثير الاهتمام بالشؤون الثقافية وأنه كانت له عناية بذكر الإشعار وتدوين بعض الأخبار المتصلة بشؤون الفكر سواء كانت مرتبطة بالإطار الفقهي أو بالإطار التاريخي أو بالإطار الإجتماعي ولهذا لا نظن أن المهتمين بتاريخ المغرب يمكنهم الإستغناء عن المعلومات المقتبسة من هاته الرحلة فهي بعد النشر ستمَكن الكثير من الدارسين من الإطلاع على بعض أحوال المغرب وعلى بعض اهتماماته التاريخية العامة وعلى بعض شؤونه الفكرية والأدبية في القرن الثاني عشر الهجري.

وقد تجلى لنا ذلك واضحاً في بعض ما ذكرناه سابقاً وسيتجلى ذلك لنا أيضاً فيما سنشير إليه

إن المؤلف كان دقيق الملاحظة وكان يربط بين الواقع المغربي وبين المعطيات الحضارية العامة سواء بالنسبة إلى التاريخ القديم أو إلى التاريخ الذي كان يحياه بنفسه فهو مثلاً حينما كان يتحدث عن الدولة العلوية ربط بين أصولها من الأشراف الذين وفدوا على المغرب من الحجاز وبين رجال الدولة الحاكمين وأحس بوجود روابط ذاتية بين الأشراف الحاليين وبين أجدادهم في ينبوع النخل لا تتصل بالطباع فقط بل تصل إلى حد التشابه في الخلقة الجسمية نفسها فهو حينما كان يتحدث عن أشراف ينبوع النخل بالحجاز قال: (١٦٤): ومن العجب أن هؤلاء السادة مشابهون للشرفاء أهل تافلالت في ألوانهم جمعتهم سمرة الحجاز والله لقد رأيت شريفاً منهم لهو أشبه بمولانا اسماعيل رحمه الله لوناً وقداً وسلامي يدين.

وحديثه عن الأشخاص الذين التقى بهم في الرحلة مفيد جداً خصوصاً فيما يتعلق بالمجال السياسي أو فيما يتعلق بالمجال العلمي ولقد كانت لهذه الإشارات التي دونها في رحلته فائدة أعانت على معرفة كثير من العادات السائدة ويسرت الإطلاع على جوانب من تاريخ بعض الأعلام الذين كان لهم أثر في التسيير العلمي أو التاريخي.

ففي مدينة فاس مثلاً (٢٣) أشار إلى الفقيه الخطيب السيد البكري بن محمد الشادلي بن الولي الصالح سيدي محمد بن أبي بكر الدلائي حيث استمع إليه في مسجد الأشراف وهو يصلي هناك يوم الجمعة فرأى فيه خطيباً بليغاً تهتز لخطبته النفوس وتخشع القلوب وتدمع العيون وتهيج شوقاً إلى زيارة البقاع المقدسة فقد قال في رحلته حين كان يصف هذا الخطيب أثناء صلاة الجمعة، فما ترى من الحاضرين إلا من ذرفت منه العيون واستنفد ماء الشؤون وود أن لو كان له جناح يطير به مع الرياح ومن لم يساعده المقدور ببلوغ ذلك المنى والسول ينشد بلسان حاله أو مقاله ويقول:

يا راحلين إلى المختار من مضر ... سرتم جسوماً وسرنا نحن أرواحاً
إنـا أقمنا عـلى عـذر ومعجـزة ... ومن أقام على عذر كمن راحا

وفي مدينة تازا اتصل بالفقيه الأديب السيد عبد القادر بن محمد المصيني وقال عنه إنه فقيه نجيب له مشاركة تامة في فنون من العلم وتسلط عليها بفهم ثاقب يرد المجهول إلى المعلوم ذاكرته في مسائل أنبأنا فيها شاهده عن غائبه.

ومن وصفه لهذا الفقيه تتبين لنا العناصر التقديرية التي يبني عليها المؤلف قيمة المثقف النافع.

فمن هذه العناصر:

أولاً ــ المشاركة التامة في مختلف الفنون وهذه الظاهرة كانت صورة للمثقف الحقيقي في المجتمع العربي حيث كان يحسن اللغة والأدب والفقه والحديث والتاريخ وبعض مقدمات الطب والحكمة فإذا تحدث جال في مختلف المعارف

جولة العالم الموسوعي الذي يطمئن إليه من سأله ويرتاح إلى معرفته من احتاج إليه.

ثانياً ـ التسلط على هذه الفنون بالفهم الثاقب فليس هناك ما يضيع العلم مثل الإنغلاق على المعرفة وعدم استخدام العقل في استيعاب كنه الأشياء لأن ذلك الإنغلاق يحجر الفكر ويجعل الإنسان كالببغاء يردد ما هو موجود ولكنه لا يَعِي ما يقول.

ثالثاً ـ القدرة على الافهام وذلك لا يتم إلا بالفهم إذ من المعروف أن الذي يستوعب الأشياء ويفهمها فهماً جيداً يقدر على حصر معلوماته وعلى تحديد طريقة تلقينها ووسيلة تبليغها وعلى البحث عن أيسر الوسائل التي يستطيع بها ابراز المجهول وربطه بالمعلوم فالإلمام بالمادة كما يقول أهل التربية ييسر البحث عن وسيلة التبليغ ويعين الملقن على اختيار السبل النافعة والطرائق الناجعة التي يستطيع بها رد المجهول إلى المعلوم.

رابعاً ـ القدرة على الحوار والمذاكرة وعدم الإقتصار على المحفوظ فإن الذي لا يحسن الحوار ولا يعرف كيفية التصرف في معلوماته هو أقرب إلى الجهل منه إلى العلم فالمذاكرة أصل من أصول المعرفة وسعة الخاطر فيها دليل على التمكن من آداب العلم وآداب الحوار.

وفي مدينة تازا لم يكتف المؤلف في الإطار الثقافي بذكر من التقى بهم مباشرة بل أشار إلى بعض العلماء الذين زار قبُورهم وتحدث عنهم تحدث المعجب بهم وبقيمتهم كما أشار إلى بعض المآثر الحضارية التي اشتهرت بها هاته المدينة في تاريخ المغرب.

فقد زار مسجدها ووصفه وصفاً أبان فيه ما يختص به هذا المسجد من الجمال والإتقان كما وصف المدرسة الملاصقة له المكتوب على بابها:

لعمرك ما مثلي بشرق ومغرب يفوق المباني حسن منظري الحسن
بناني لدرس العلم مبتغياً به ثواباً من الله الأمير أبو الحسن

وعند حديثه عن المسجد أشار إلى ثرياه الكبرى التي أقامها المرينيون وإلى ما كتب عليها من أشعار كما أشار إلى الخزانة التي بقبلته على يسار المحراب وإلى المنبر وما يمتاز به من إتْقان.

وبعد الإنتهاء من ذلك قال: . . والكل من عمل بني مرين جزاهم الله بالخير إذ كانوا على السنة والسذاجة في الدين عقدهم أشعري والمذهب ليس بقدري.

ونظراً لاهتمامه العلمي لم يهمل في مدينة تازا بعض مزاراتها المختصة لعلماء أجلاء كان لهم وزن علمي من بلادنا من أولئك العالم ابن بري الذي قال عنه:

(٢٩)ابن بري هوعلي بن الحسين الشهير بابن أبري التسولي النسب التازي الدار.

قال ابن عبد الكريم هو من بني لنت وكنت أسمع أنه من بني مقورة منهم وقال المجاصي التسولي البلنتي صاحب الكلام البديع والخط الرفيع. قال ابن مسلم الرباطي قال الحصار قال ابن المجراط ولد بتازة في الستين والست مئة ونشأ بزقاق الزفانين منها واجتهد كثيراً في الذكر والبحث والمطالعة وكان من طلبة تازا من عدولها وانتقل إلى فاس كاتباً سنة أربعة وعشرين وسبع مئة وتوفي يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شوال عام ثلاثين وسبع مئة.

قال ابن عبد الكريم توفي بفاس ــ قال الحصار ودفن ببلاده يعني تازة قلت في روضة الترجايين قال: الشريف عمر بن ابراهيم قدس الله روحه رأيت قبره في روضة الترجايين بتازاً.

وشيوخه أبو جعفر بن الزبير وأبو الحسن بن سليمان وأبو الربيع ابن حمدون ذكر ذلك في إجازة له.

وتواليفُه عشرة الرجز المشهور وتأليف في القراءة أيضاً وشرح وثائق الغرناطي والكافي في العروض والقوافي وشرح ابن السقاط في العروض وشرح الإيضاح للفارسي واختصر زهر الآداب واختصر الشريشي على المقامات وذكر الحصار أنه

ابتدأ شرحاً على المدونة والقانون في رواية ورش وقالون مختصر انتهى من خط بعض الأفاضل الفاسيين البوعنانيين.

ويتضح لنا من هذه الترجمة أن المؤلف لم يكن ينطلق مع قلمه عند ذكر أخبار الناس دون أن يعتمد على توثيق دقيق فهو لم يكتف بذكر ترجمة ابن بري ولكنه نقلها عن أصول ذكرها ليكون القاريء على بينة من أمره وليعلم مصدر هاته الأخبار وتلك سجية العلماء لا يدعون ما ليس لهم ولا ينتحلون ما لغيرهم وإنما يشيرون إلى الأصول لتبقى حرية النقد عند السامع والقاريء فيربط كل خبر بأصله وعن طريق ذلك تنطلق تقديرات التعديل والتجريح.

ومن تازا يمكننا أن نسير مع المؤلف في رحلته لنقف بالخصوص على بعض الجوانب الثقافية الأخرى ولنطلع على بعض أحواله.

(٥)

إن الإعتناء بذكر أهل العلم وبزيارة قبورهم ظاهرة طبعت رحلة الإسحاقي منذ بدايتها إلى نهايتها ولقد سبق لنا أن أشرنا إلى أن هذه الرحلة صالحة لتحديد بعض الملامح الثقافية الموضحة لاهتمامات العصر الذي كتبت فيه.

فالإسحاقي لم يكتف بذكر بعض المعالم التي أعجب بها في المغرب فقط بل تتبع ذلك أثناء مسيرته فهو حين وصل إلى تونس زار مدينة توزر وفي هذه المدينة ذكر أنه التقى بالفقيه السيد محمد بن منصور وببعض طلبته والتمس منه أن يعيره جزءاً من شرح القسطلاني على كتاب البُخاري فاستجاب له الفقيه وحينئذ قضى كثيراً من أوقاته في التبرك بدراسة هذا الكتاب شأنه في ذلك شأن المغاربة الذين لهم إعجاب كبير بصحيح البخاري وبشروحه المختلفة وبقي هذا الجزء بيده إلى أن رده إلى صاحبه بمدينة طرابلس.

ولاحظ المؤلف في مدينة توزر أن النساء يكثرن من لباس السواد فأثار ذلك انتباهه ودفعه إلى استفسار أحد الفقهاء من تلامذة السيد ابن منصور يعرف بأبي رمضان عن العلة في ذلك وقارن بين هاته العادة وعادة أهل الأندلس كل ذلك

بأسلوب جميل وبرقة في التعبير والاستدلال قال: أخبرني الفقيه السيد بو رمضان المذكور لما سألته عن لباس أهل البلد ــ أعني توزر ــ لا سيما النساء لا يلبسن إلا السواد فقال تلك عادتهم. النساء يلبسن السواد حالة السرور والرجال يلبسون البياض حالة السرور فإذا تغيرت الحال بالحزن والعياذ بالله لبس النساء البياض ولبس الرجال السواد. تذكرت ما أنشده بعضهم في أهل الأندلس إذ كانوا يلبسون السواد في سائر أحوالهم فإذا أحدهم حزن لبس الثياب البيض:

ألا يا أهل أندلس فطنتم بلطفكم إلى شيء عجيب
لبستم في مآتمكم بياضاً فجئتم منه في زي غريب
صدقتم فالبياض لباس حزن ولا حزن أشد من المشيب

وفي هذه المدينة زار المؤلف قبور ثلاثة أعلام من أعلامها المشهورين في التاريخ العلمي والأدبي وهم الإمام الشقراطيسي صاحب اللامية المشهورة المتوفي سنة ٤٦٨هـ وأبو الفضل ابن النحوي صاحب المنفرجة المتوفي سنة ٥١٣ وابن الشباط شارح الشقراطيسية المتوفي سنة ٦٨١هـ.

وإن زيارته لهؤلاء وذكره لهم في رحلته ليدل دلالة قوية على ما كان يشعر به هذا الرجل إزاءهم فهم كانوا ذوي شهرة في البلاد المغربية تتلى قصائدهم وتقرأ كتبهم ويفتخر بالإنتهاء إلى أخلاقهم وسلوكهم.

ولعل من المفيد أن نقدم ترجمة موجزة لكل واحد منهم:

فالشقراطيسي هو أبو محمد عبدالله بن أبي زكرياء التوزري المشهور بالدراسات اللغوية والفقهية والحديثة ولقد كان سكان بلده يعتمدون عليه في الأحكام الفقهية ويستندون إلى فتاواه واجتهاداته وقد ألف كتاباً سماه الأعلام في معجزات خير الأنام ختمه بقصيدة لامية شهيرة أصبحت تعرف فيها بعد بالشقراطيسية يقول في مطلعها:

الحمد لله منا باعث الرسل هدى بأحمد منا أحمد السبل
خير البرية من بدو ومن حضر وأكرم الخلق من حاف ومنتعل

توراة موسى أتت عنه فصدقها إنجيل عيسى بحق غير مفتعل
أخبار إخبار أهل الكتب قد وردت عما رأوا أو رووا في الاعصر الأول

ولقد خمسها الشيخ محمد بن علي بن الشباط أحد هؤلاء الثلاثة المذكورين وشرحها بشروح ثلاثة كبير ومتوسط وصغير (ج ١ ص ٤٢ من عنوان الأريب).

وأما أبو المحاسن يوسف بن محمد المعروف بابن النحوي التوزري فهو أحد الطلبة الذين تلقوا العلم عن الشقراطيسي السابق وكان له اهتمام بالفقه ويكفيه فخراً أنه سافر إلى صفاقِس ليروي عن أبي الحسن اللخمي كتاب البُخاري ولينسخ منه تبصرته ثم سافر إلى قلعة بني حماد بالقطر الجزائري.

ولقد اشتهر بالقصيدة المعروفة بالمنفرجة المبنية على وزن الخبب يقول فيها:

اشتدِّي أزمة تنفرجي فقد آذن ليلك بالبلج
وظلام الليل له سرج حتى يغشاه أبو السرج
وسحاب الخير له مطر فإذا جاء الإبَّان تجي

وهو القائل (ج ١ ص ٥١):

لبست ثوب الرجا والناس قَدْ رقَدُوا وقمت أشكو إلى مولاي ما أجد
وقلت يا سيدي يا منتهى أملي يا من عليه بكشف الضر أعتمد
أشكو إليك أموراً أنت تعلمها مالي على حملها صبر ولا جلد
وقد مددت يدي بالضر مشتكياً إليك يا خير من مدت إليه يَدُ

وأما محمد بن علي بن محمد بن شباط التوزري فقد برع في العلوم البلاغية والأدبية ونظم الشعر وهو الذي خمس الشقراطيسية السابقة الذكر وجعل لها شرحاً مفيداً كان الإسحاقي ينقل عنه من حين لآخر يقول في مطلع هذا التخميس: (ص ٦٥، ج ١).

إبْدَأْ بحمد الذي أعطى ولم تسل وذْ به ريب رين الأين والكسل

فالحمد أحلى جنًى من طيب العسل   الحمد لله منا باعث الرسل

هدى بأحمد منا أحمد السبل

إن زيارة الإسحاقي لقبور هؤلاء العلماء وتدوين أسمائهم في رحلته تعبير عن إجلاله لأهل العلم وتقديره لذويه ولذلك لا تخلو رحلته من هذه الزيارات يتحدث عنها معجباً ويضيفها دائماً إلى زياراته للأحياء فيجمع بين الأخذ المباشر وبين الإشارة إلى من يستحقون الذكر المستمر وإن ماتوا قديماً لأنهم أحياء بعلومهم وسلوكهم وهذه ميزة تدل على حسن أخلاق الإسحاقي وعلى مدى اعتزازه بالعلم وذويه.

(٦)

لا تستطيع إشارة عابرة أن تحدد جميع ما كان يثير اهتمام الوزير الإسحاقي أثناء رحلته إلا أن الطابعَ العلمي والتاريخي والتربوي لا يمكن إهماله ذلك أن الإسحاقي كان يجد لذة في الإشارة إلى ذلك ومتعة في التعليق على ما يرتبط بهذه الإتجاهات.

فهو مثلاً كان يكتفي أحياناً بالإشارة العابرة إلى فقيه أو أديب حفظاً للتاريخ كإشارته في طرابلس إلى فقيه تونسي اسمه محمد وإلى فقيهين مغربيين هما محمد بو قلال وأخوه أحمد وإلى الأديب محمد بن سعيد الطرابلسي وإلى السيد محمد الفرخاني الذي كانت له مشاركة تامة في فنون من العلم ولكنه في الأكثر كان يعلق ويعقب ويلاحظ مثل ما رأينا في كثير من الملاحظات السابقة ومن ذلك مثلاً أنه حينما وصل إلى مصر وبعد وصفه لكثير من حلقات الدروس الموجودة بالجامع الأزهر ذكر أنه اتصل هناك بالفقيه السيد علي الحنفي الذي كان له ولوع بتدريس ألفية ابن مالك فوجده في مستوى غير جيد، ذلك أن السيد الحنفي كان ضيق العطن بين اللكن، يعاني في التقرير شدة وكل من ألح عليه في البحث رده أو صده.

وهنا نلاحظ عمق الملاحظة التربوية التي أبداها الإسحاقي والتي تؤكد مذهبه التربوي الذي أشرنا إليه من حين لآخر فهو يرى أن البحث لا ينمو إلا بالحوار

والحرية وإلا كانت الدروس عقيمة ومملة مثل الحال الذي يتصف بها السيد الحنفي هذا فإن ضيق صدره جعل المؤلف يبتعد عنه رغم تشوقه إلى الإستفادة منه فقد كان يرغب في أن يستمع إلى بعض تقريراته وإلى بعض ما عنده من علوم ولكنه لم يمنحه شيئاً من ذلك فما قال الإسحاقي في وصف هذا الفقيه؟

رَغَّبْتُ الشيخ علي الحنفي المذكور أن أقرأ عليه شرح السعد على العقائد النسفية لما سمعت أنه قرأها عام أول قبل وصولنا فمنع من ذلك كل المنع وأخذ يذم علم الكلام ويزهد في الإشتغال به فينبذه كما نبذت بروايتها الصناع وجعلته من جهة تساقط المتاع وكان ذلك آخر العهد به وكان قبل ذلك أضافني وقال لي تتعشى عندي ولكن عشائي ما فيه لحم فقلت له إني رضيت بما حضر فقال كأن هذا شطر بيت شعر فقلت هو من كلام محمود الزمخشري وأنشدته الأبيات بجملتها فقال لي: لا حمد الله له عاقبة فقلت يا سيدي سمعنا بعض أشياخنا إذا ذكروه يقولون: سامحه الله فلج في الدعاء عليه وقال: الكلب معتزلي

إن المتأمل في هذه الفقرة التي اقتبسناها من الرحلة يستشف منها الروح العلمية التي امتاز بها الإسحاقي والطريقة المثلى التي يراها صالحة في التلقين فهو رغم كبر سنه واطلاعه يرغب في المزيد من المعرفة ويرجو أن يقرأ كتاباً في العقائد بتعليقات شيخ مصري سبق له أن درس هذا الكتاب ثم إننا نراه يشمئز من روح التعصب المؤدي إلى شتم بعض العلماء واستنقاصهم استنقاصاً هجيناً فمن الآداب العلمية إبراز أخطائهم وإظهار الجوانب العقائدية التي لا تتفق مع الاتجاه الآخر بلين قولي ومنطق عقلي وحجة نقلية تساعد على الوصول إلى الأهداف زيادة على الالتماس من الله أن يهدي الضالين ويرجعهم إلى طريق الصواب.

ولقد افتخر في هذه الخطة بشيوخه الذين كانوا إذا ذكروا الزمخشري ترحموا عليه وطلبوا من الله أن يسامحه.

ولعل خطة شيوخه كانت أسلم فقد جعلتهم يطلعون على مختلف الأفكار ويختارون منها الملائم مع عقيدتهم السنية وينصرفون عن غيرها.

وهذا هو السبب الذي جعلهم لا يهملون دراسة كثير من الكتب التي لا تتلاءم مع معتقداتهم فقد درسوا كتب الجاحظ كما درسوا كتب الزمخشري دون أن يجدوا في ذلك حرجاً.

والدليل على ذلك ما أشار إليه الإسحاقي فهو لم يكتف بذكر ما ألفه الزمخشري بل كان يحفظ بعض شعره ويشير إليه في اقتباساته ولهذا ذكر أنه أملى الأبيات على السيد الحنفي والمراد بذلك الأبيات التالية: ٥٧٢/٢

ألا قل لسعدى ما لنا فيك من وطر | وما نطلبن النجل من أعين البقر
فإنا اقتصرنا بالذين تضايقت | عيونهم والله يجزي من اقتصر
مليح ولكن عنده كل جفوة | ولم أرفي الدنيا صفاء بلا كدر
ولم أنس إذ غازلته قرب روضه | إلى قرب حوض فيه للماء منحدر
فقلت له جئني بورد وإنما | أردت به ورد الخدود وما شعر
فقال انتظرني رجع طرف أجيء به | فقلت له هيهات مالي منتظر
فقال ولا ورد سوى الخد حاضر | فقلت له إني قنعت بما حضر

ولما غادر مصر أصبح متشوقاً إلى مكة تشوق الولهان وارتفعت في نفسه التطلعات إلى تلك الأراضي المقدسة وحن إلى أهلها وعلمائها ولم يكتف حين الوصول إليها بأداء المناسك الدينية فقط بل حاول أن يستفيد من علمائها وأن يتبرك من صلحائها ٢١٤.

ففي مكة اتصل بسيدي عمر البار الحسيني وبالعلامة الحافظ ابن عبدالله محمد بن أحمد عقيلة المكي وهو رجل عالم فاضل له من التأليف العلمية عدد كبير أشار إليها وذكر أنه نال منه الإجازة في رواية حديث مسلسل يتعلق بقول الرسول ﷺ لمعاذبن جبل يا معاذ أنا أحبك فقل اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك وفي رواية أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

وقبل مغادرته كتب إليه الوثيقة التالية:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين، وبعد فيقول العبد الفقير إلى الله تعالى محمد بن أحمد عقيلة، إني قد أَجَزْتُ الرجل الصالح الفاضل العالم الكامل الشيخ محمد الشرقي الإسحاقي بالحديث المسلسل، إني أحبك فقل اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

وتمتع أيضاً بالتسلسل فيما يتعلق بحديث المصافحة وبالإجازة في كل ما رواه الشيخ العقيلي.

(٧)

ما زلنا نواصل الحديث عن ثقافة الإسحاقي من خلال الرحلة التي قام بها إلى مكة فهو قد أكثر من الإتصال بالعلماء والصلحاء في هذا البلد الأمين.

ومن الذين اتصل بهم وأظهر فضلهم وتحدث عن قيمتهم العلمية الأستاذ الفاضل السيد محمد الطبري شيخ المقام الحنبلي فقد قال عنه إنه رجل متصوف وعلى مكارم الأخلاق متطوف، عاكف بالحرم على العبادة والتصنيف ملازم له في الشتاء والصيف والخريف لا يخرج فيما حدثنا عنه إلا ليلة السابع والعشرين من رمضان يخرج لمقام إبراهيم عليه السلام ويحيي ليلته تلك حتى يختم الختمة القرآنية ثم لا يراه أحد بعد إلا من قصده لداره وخلوته. تفرغ للعبادة واحتفل للتصنيف أي احتفال وهو أشعري غدا يحمد رأي الناس في الإعتزال دخلنا عليه في داره بعد الإستئذان فأذن لنا وتبركنا برؤيته وتعرضنا لوابل ادعيته وإن لم يصبنا منه وابل فطل.

وبعد وصفه له ذكر أنه قد أجازه مثل الفقيه السابق وانه قد سمح له بأن يروي عنه كل مروياته قال .... وكانت الإجازة المذكورة منه لنا بعد أن قرأت عليه شيئاً يسيراً من أوائل بعض كتب الحديث كالبُخاري والشفا وغيرهما بقصد التبرك وزودنا دعاء صالحاً وانفصلنا عنه ممتلئي الحقائب نائلي الرغائب إن شاء الله (٢٢٥).

واتصل أيضاً بالفقيه أبي الفضل تاج الدين الحنفي مفتي الحنفية بالحرم المكي فأجازه الحديث المسلسل الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء وغيره، وكتب له سنده المتصل عن شيوخه وشيوخ شيوخه إلى أبي قابوس مولي عبدالله بن عمرو بن العاص عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ.

واتصل بأعلام آخرين جلهم كانوا من أهل الفقه والأدب ولقد انسجمت أرواحهم وتألفت ويستطيع كل من يطلع على الرحلة أن يعرف قيمة علم الحديث في نفس الإسحاقي فهو كان يكثر من ذكر الإجازات المتعلقة به ويتبرك غالباً بذكر كتبه وكتب السيرة عامة خصوصاً ما اشتهر منها في المغرب كالبُخاري والشفا ويَبْدُو ذلك حتى فيما لم يشر إليه، فنحن لو خرجنا من مكة معه في رحلته وأشرفنا على المدينة المنورة لوجدناه يقول: وصلنا إلى معهد الفضائل المشهورة ومعقد ألوية الدين المَنْشُورة المظهر الأعلى والبرزخ الأَسْنَى، مشرق الأنوار ومعدن الأسرار من له الفتح والختام والحائز للمقامات العلية بإتمام رسول رب العالمين وسيد الأولين والآخرين سيدنا محمد ﷺ تسليماً كثيراً وعلى آله وصحبه أجمعين وعندما قربنا من الحضرة النبوية وشارفنا أبواب المدينة السنية أنشدنا متمثلين قول القائل:

ولما رأينا رسم من لم يدع لنا　　فؤاداً لعرفان الرسوم ولا لبا
نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة　　لمن بان عنه أن نلم به ركبا

وقول الآخر:

وإذا المطي بنا بلغن محمداً　　فظهورهن على الأنام حرام
قربْنَنَا من خير من وطيء الثرى　　فلها علينا حرمة وذمام

فلم يكن بد ولا شغل سوى تيمم المسجد الحرام بِقصد السلام على سيد الأنام وضجيعيه المولى سيدنا أبي بكر الصديق والمولى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وأرضاهما: ٢٦٤.

فنحن نرى أن ما تمثل من الشعر ولم ينسبه لقائلِهِ إنما هو أبيات وردت في كتاب

الشفا للقاضي عياض استمدها كثير من الزوار للمدينة فأنشدوها واستمتعوا بمعانيها وحفظوها ليجعلوها منطقهم عند الدخول إليها شاعرين بالخشوع معتزين بالخضوع عالمين بأنهم مقدمون على أرض أوت الرسول ونصرته وعاشت أيام كفاحه وجهاده واستمدت منه روحه الطاهرة فظلت إلى الأبد مأوى للزيارة ومنبعاً فياضاً للفضائل ورمزاً قيماً لنصرة المبادىء الصالحة، فإذا زارها المسلم تقمصت روحه أحداث التاريخ وتذكر سيرة رسول الله ﷺ الذي جعله الله أسوة للعالمين.

ولا بأس أن نأخذ من الشفا طريقة عرض الأبيات لنستمع إليها من جديد مقرونة بمصدرها الأصلي فقد قال القاضي عياض ج ٢/٤٥: وحدثت أن أبا الفضل الجوهري لما ورد المدينة زائراً وقرب من بيوتها ترجل ومشي باكياً ومنشداً:

ولما رأينا رسم من لم يدع لنا فؤاداً لعرفان الرسوم ولا لبا
نزلنا عن الأكوار نمشي كرامة لمن بان عنه أن نلم به ركبا

وحكي عن بعض المريدين أنه لما أشرف على مدينة الرسول ﷺ أنشأ يقول:

رفع الحجاب لنا فلاح لناظر قمر تطلع دونه الأوهام
وإذا المطي بنا بلغن محمدا فظهورهن على الرجال حرام
قربننا من خير من وطيء الثرى فلها علينا حرمة وذمام

إن هذه النقول إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الثقافة التي كانت سائدة في المغرب كانت جامعة بين الروح الأدبية والروح الدينية وأن المغاربة كانوا يجدون لذة كبرى في التوجه إلى البقاع المقدسة ليستفيدوا علماً ولينالوا أجراً وليعيشوا من جديد حياة عاشها المسلمون الأولون فتنتعش بذلك أرواحهم وتزكو نفوسهم ويسجلون للتاريخ مرة أخرى صورة البطولة الإسلامية وقصة الحضارة العربية التي لم تنتعش إلا بهذا التآزر الفكري والروحي الذي نتمنى أن يحيا من جديد وأن يبعث بعثاً آخر يربط حاضرنا بالماضي ويمهد لنا طريق الخير للمستقبل والسلام.

فاس: محمد بن عبد العزيز الدباغ

الشعر العربي القديم في المؤلفات اليمنية

وفي هذه الأيام وقع في يدي كتاب من مؤلفات أحد علماء اليمن ممن لم أهتد إلى معرفة مؤلفه، واسم الكتاب «الفاصل بين الحق والباطل، في مفاخر قحطان»، مما أُلّف بعد القرن الرابع الهجري، لأنه ينقل عن الكلاعي المتوفى في أول القرن الخامس ـ انظر «العرب» س ١٤ ص ٢٨٧ ـ ومن قبله كصاحب «الأغاني».

ورأيت في هذا الكتاب أشعاراً منسوبة إلى شعراء مشهورين، ولكنها لا توجد في دواوينهم وأشعارهم التي وصلت إلينا، ومنهم دُريد بن الصِّمَّةِ وعامر بن الطُّفيل ولَبِيد بن رَبيعة، وعَمْرو بن مَعْدِي كَرِب وغيرهم.

وكان مما قرأت في هذا الكتاب من أخبار لَبيد بن ربيعة العامري: كان يزيد بن عبد المدان أسر لبيدَ بن ربيعة العامري يوم وقعة عبد الله بن الصمة، وصار إلى نَجْران، فأقام عنده أياماً ثم مَنَّ عليه وكساه، وحمله وبعث معه صحابةً إلى أرض بني عامر، قال لَبيد يشكر ليزيد ولبني عبد المدان بن الدَّيَّان بن قطن:

إنْ كنتِ ساقيةً يوماً على كرم ... صفوَ الـمُدَام فأَسْقيها بني قطنِ
قـوم إذَا وَرَدَوا أَخْلَى لـواردهم ... أَهْلُ المناهلِ صَفْوَ الْوِرْدِ والعَطَنِ
تَـدَاركَتْني أَيْـدٍ من فـواضلهم ... والغلَ مني في مُسْتَحْكِمِ الذَّقَنِ
فـأطلقُوني ولـو غابَتْ فـوارِسُهُمْ ... عني أقمتُ بدار الْهُونِ في قَرَنِ
فافخر عَلَى مَذْحِج إنْ مذحِجٌ فخرت ... مالم تقلِ مذحج: منّا بَنُو قَطَنِ
وإنْ تَقُلْ مَذْحِجُ مِنّا بنـوقَطَنٍ ... فاذْهَبْ وأَنْتَ سَلِيْمُ الْجَيْبِ والْبَدَنِ

ثم رأيت الهمدانيَّ صاحب «الإكليل» و «صفة جزيرة العرب» ذكر في «شرح الدامغة» ـ ٢٠٠ ـ أسْرَ لبيدٍ في «شرح الدامغة» ـ ١٧٦ ـ في كلامه على يوم لِوَى حَضَن، لبني الحارث بن كعب على قيس، وهو اليوم الذي قُتِلَ فيه عبد الله

بن الصمة الجشمي أخو دُرَيْدٍ، فرثاه بقصيدته الدالية المشهورة التي يقول فيها:

أَمَــرْتُهُمْ أَمْـرِي بِمُنعَـرَجِ اللِّوَى   فَلَمْ يَسْتَبِينُوا النُّصْحَ إلا ضُحَى الْغَدِ

ومنها:

وَهَلْ أَنَا إلَّا مِنْ غَزِيَّةَ إنْ غَوَتْ   غَوَيْتُ، وإنْ تَرْشُدْ غَزِيَّةُ أَرْشُدِ

وذكر الهمداني أسر لبيد أيضاً بقوله ــ من الدامغة ــ:

وطــوَّقنــا الجعــافِــرَ في لَبِيــدٍ   بِــطَوْقٍ كــان عنــدَهُم ثَمِينَــا

وجاء في شرح البيت: كان أسره يزيد بن عبد المدان، يوم قتل عبد الله بن الصمة ــ وقد تقدم ذكر ذلك ــ وصار به إلى نجران، فأقام عنده مُدَيْدةً، ثم مَنَّ عليه وكساه وحمله، وبعث معه صحابةً إلى أرض بني عامر، فقال لبيد في ذلك يشكر يزيد بن عبد المدان بن الديان بن قطن ــ ثم أورد الأبيات ــ.

وإذَنْ: فمصدر الخبر هو الهمداني، وكنت قد أشرت في ترجمته التي نشرت في مقدمة كتابه «صفة جزيرة العرب» ــ إلى تصرفه في الشعر، وإيراده بروايات مختلفة، ففي «شرح الدامغة» ــ أورد أبياتاً لعلقمة، تختلف عن إيراده لها في «الإكليل» ــ ٨/١٥ ــ بل في «شرح الدامغة» أورد بيتاً لقيس بن الخطيم، ثم أورده في الكتاب نفسه مغيراً كلمة (وضعت) بكلمة (جعلت)، ومثل هذا التغيير حدث في شعر لبيد كما في «شرح الدامغة». بل قد صَرَّحَ بمثل هذا فقال عن أرجوزة الرداعي التي أوردها في آخر كتاب «صفة جزيرة العرب» ــ ٤٠١ ــ: (ما كان منها معيباً من جهة الاضطرار ولا فائدة فيه فقد ثَقَّفْتُهُ وأصلحته).

ومن أسوإ أنواع التصرف تغيير أسماء المواضع، فقد أورد في «صفة جزيرة العرب» لذي الأصبع العدواني: جلبنا الخيل من (بقران).

وأورده في «الإكليل»: عدا بالخيل من (جلدان).

وفي «صفة جزيرة العرب»: ياحَرًّ ذات الوعث والجراول. والمعروف: يانَخْلَ ذات الوعث ــ في وادي نخلة ــ كما في كتابِ «بلاد العرب» لِلُغْدَةَ الاصبهاني ــ ص ٣٧٨ ــ

وأبو محمد الهمداني هذا من أجلة علماء اليمن وأوسعهم آطِّلاعاً، وموقفه هذا الذي أوردت نماذج منه من رواية الشعر جدير بالملاحظة.

ثم رجعت إلى أوفى طبعة من ديوان لبيد التي بعنوان: «شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري» بتحقيق استاذنا الجليل الدكتور احسان عباس، فلم أرتلك الأبيات في الديوان، ورأيت فيه أبياتاً تخالف رواية الهمداني في كتابه «شرح الدامغة» ومنها:

أَتَوْنا بشهرانٍ وَجَمْرَةَ مذْحِجٍ وإحداهما أضعافُ بكر بن وائل
وخَثْعَمَ قوم يعدلُون بمذْحِجٍ وهلْ نحن إلا مثل بعض القبائل؟

ــ انظر «شرح الدامغة» ص ٢٥، مع أنه أوردها برواية أخرى في الكتاب نفسه في موضع آخر:

أتونا بِشَهْرَانَ ومَذْحِجٍ كُلِّهَا وهلْ نحن إلا مثل إحدى القبائل

والبيتان في زيادات الديوان ــ ص ٣٦٥ ــ:

أتونا بشهرانَ العريضة كلها وَأَكْلُبِهَا ميلاد بكر بن وائل
وخثعم حيٌّ يعدلُون بِمَذْحِجٍ وهَلْ نحنُ إلاَّ مثل إحدى القبائلِ

ومما قرأت في ذلك الكتاب في أخبار غارات عمرو بن معدي كرب الزبيدي مما رواه محمد بن الحسين الكلاعي ما نصه: (وكان عمرو بن معدي كرب يَهْوَى ريحانة ابنة الصمة أخت دُريد بن الصمة الجشمي فقال فيها:

أمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعُ يُـؤَرِّقـني وأصْحَابي هُجُوعُ

بَـرَاني حُبُّ مَنْ لَا أَسْتَطِيْـعُ ... وَمَنْ هُوَ لِلَّذِي أَهْوَى يَسُوعُ (؟)
إِذَا لَمْ تَسْتَـطِعْ أَمْـراً فَـدَعْـهُ ... وجَـاوِزْهُ إلى مَـا تَـسْـتَـطِيـعُ

وأنَّ عمراً خطبها إلى أخيها دريد فكرهته، لأنَّ عمرا كان مُفرّكاً عند النساء، فتزوجها رجلٌ من قومها يقال له الغِطْريف، فلما علم عمرو أنه قد قرب زفافها خرج غازياً لبني جُشَم، فأوقع بهم وسباها وراح بها فاتخذها عرساً، فوصل إليه دُريدُ قاصداً فقال: أفدنيها (؟) أو تَزَوَّجْهَا مني، وزوجني أختك فيكون ذلك أدْحَضُ عندي للعار، فزوجه عمرو أُخْتَهُ، فولدتْ له أُبيٌّ بن دريد). انتهى

وهذا لا يتفق مع ما أورده صاحب كتاب «الأغاني» ج ١٥ ص ١٧٥ ـ دار الثقافة في بيروت ـ من أن عمرو بن معدي كرب قال قصيدته العينية التي مطلعها:

أمِنْ رَيْحَانَـةَ الـدَّاعِي السَّمِيـعُ ... يُـؤَرِّقُنِي وأَصْـحَـابِي هُـجُـوعُ
بَـرَاني حُبُّ مَنْ لَا أَسْتَطِيْـعُ ... وَمَنْ هُـوَ لِلَّذِي أَهْـوَى مَنُـوعُ

قالها في أخته ريحانة بنت معدي كرب لما سباها الصمة بن الحارث بن بكر، وكان أغار على بني زُبَيد في قيس، فاستاق أموالهم وسبا رَيْحانَةَ، وانهزَمَتْ زُبَيْدُ بين يديه، وتبعه عمرو وأخوه عبد الله ابنا معدي كرب، ثم رجع عبد الله واتبعه عمرو.

ثم نقل عن ابن سلام أنَّ عَمْراً اتبعه يناشده أن يخلي عنها فلم يفعل، فلما يئس منها وهي تناديه بأعلى صوتها: ياعمرو!! فلم يقدر على انتزاعها، وقال:

أمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعُ

ثم قال ما نصه: وأما قصة ريحانة فإنَّ عمرو بن معدي كرب تزوج امرأة من مُراد، وذهب مُغِيْراً قبل أن يدخل بها، فلما قدم أُخْبِرَ أنه قد ظَهَرَ بها وَضَحٌ فطلقها، وتزوجها رجل من بني مازن بن ربيعة، وبلغ ذلك عَمْراً وأنَّ الذي قيل فيها باطل، فأخذ يشبب بها فقال قصيدته، وهي طويلة:

أمِنْ رَيْحَانَـةَ الـدَّاعِي السَّمِيـعُ ... يُـؤَرِّقُنِي وأَصْـحَـابِي هُـجُـوعُ

فصاحب «الأغاني» كما ترى يصرح بأن ريحانة أخت عمرو، بينما هي في المخطوط اليمني ليست أختاً له، وأنها ابنة الصِّمَّة أُخْتَ دُرَيْدٍ، من بني جُشَم

ثم إن الباحث يجد نصوصاً كثيرة في المؤلفات اليمنية ككتاب «الإكليل» وكتاب «شرح الدامغة» للهمداني ومؤلفات نشوان بن سعيد الحميري تخالف بعض نصوصها ما يجده في مؤلفات علماء العراق من متقدمي اللغويين والمؤرخين والأدباء.

ولا يتسع المقام لإيراد نماذج لهذا الاختلاف، والأخبار والأشعار التي ترد في المؤلفات اليمنية تأتي مقترنة بذكر حوادث تاريخية، ومواضع معروفة، وخاصة فيما يورده المؤرخون اليمنيون في اثبات مفاخرهم ومآثر قبائلهم وأخبار ملوكهم.

فما هو موقف الباحث من هذا الاختلاف ؟

إنه لا يستطيع أن ينكر ما للعصبية القبلية من تأثير في كل ما أُثِر عن القبائل من مفاخر وأخبار وحروب، من أبرز آثارها ما وصل إلينا من شعر المفاخرات والنقائض، ولعل من أقدم ذلك قصيدة الكميت بن زيد الأسدي ـ انظر «العرب» س: ١٣ ص: ٦٨٧ وما قام به شعراء اليمن من معارضة تلك القصيدة بما سموه الدوامغ، ومن أشهرها قصيدة الهمداني التي نُشِرَتْ كاملةً بشرحها، ويعتبر هذا الشرح من أوفى ما ضم نماذج من الشعر المتعلق بمآثر القبائل ومفاخرها.

من هنا كان على الباحث فيما يتعلق بأخبار القبائل وفي ذكر الأيام التي جرت بينها أن يقف موقف الدارس المتعمق لكل ما يقرأه في المؤلفات القديمة من هذا القبيل سواء كانت يمنية أو غير يمنية.

ولئن كان لعلماء العراق في تدوين الأدب العربي بل التاريخ بصفة عامة اليد الطولى والسبق في ذلك، مع شدة التحري للصحة غالباً لما يحدث بين أولئك العلماء في مجالسهم ومنتدياتهم من مناقشات فيما يتناقلونه بالرواية من الأشعار أو

الأخبار حتى اكتسبت بذلك تمحيصاً وتحقيقاً في الأعم الأغلب.

فإن مثل هذا ما لم يحدث لعلماء اليمن الذين اقتصروا في الغالب على تدوين تاريخ بلادهم وما يتصل بذلك التاريخ من أخبار القبائل وأشعارها وأنسابها، بدون تمحيص، أو تثبُّتٍ في الرواية. كما أنَّ محصول علماء اليمن من الأدب العربي في بدء تدوينه لا يصح أن يقارن بما أُثر عن علماء العراق شعراً ولُغَةً وتاريخاً.

ولا يمكن للباحث المنصف أن يقارن بين الطريقة التي سار عليها علماء اليمن في تدوين أخبارهم وأشعارهم بالطريقة التي سلكها علماء العراق في مدينتيه اللتين كانتا مركزين من مراكز الثقافة العربية إبَّان نشأتها مقارنة تَفَاضُلٍ، لضآلة حظِّ اليمنيين من العلوم العربية بالنسبة لأئمة اللغة والأدب في البصرة والكوفة وبغداد.

وما أحاوله الآن هو لفت النظر إلى هذا الاختلاف الذي نجده في مصادر كتب الأدب القديمة سواءا منها ما أُلِّف في جنوب الجزيرة أو في شمالها الشرقي.

فهل من السائغ اتخاذ هذا الاختلاف وسيلة لإطِّرَاحِ ما وصل إلينا في المؤلفات اليمنية من أخبار العرب وأشعارهم ما دمنا نُعَوِّلُ من حيث الثقة بما دونه علماء العراق؟

إننا بهذا نفقد جزءاً مُهِمًّا من تراثنا لا نجد له بديلا في المؤلفات المشهورة المعروفة.

بل لا نغالي إذا قُلْنا: إنَّ في مؤلفات الهمداني ونشوان وغيرهما عن القبائل العربية وعن بلادها في جنوب الجزيرة ما لا نجده في المؤلفات الأخرى التي وصلت إلينا.

ولهذا فينبغي أن نتلقى تلك المعلومات بكثير من التعمق والدراسة، والنظر إلى ما قد يعرض لنا فيها من وجوه الإشكال أو الإختلاف نظرة المدرك لروح العصر الذي أُلِّفت فيه تلك المؤلفات والحوافز التي دفعت إلى تأليفها.

حمد الجاسر

تاريخ المدينة المنورة

لعمر بن شبة النميري (١٧٣/٢٦٢ هـ)

ـ ٣ ـ

١٦٠ ـ وفي ص: ١٠٧١: (مع بلوى تكون) وما في الأصل: (مع بلاء سيكون) بلا همزٍ ولا نقط.

وفي الصفحة: (وبشره بالجنة) وفي الأصل: (وابشره بالجنة).

وفي الصفحة: (افتح عن الرجل وبشره بالجنة) وقال المحقّق: (في الأصل افتح عن الجنة، وهو خطأ اقتضى التصويب). والواقع أن ما في الأصل مطابق لما في المطبوعة، فلعل الخطأ وقع في المنقول عن الأصل.

١٦١ ـ ص: ١٠٧٥: (فأقبل خالد بن الوليد بكتيبة أكيدر صاحب دومة الجندل). كلمة (كتيبة) في الأصل بدون نقاط وقد تقرأ (بكسب).

١٦٢ ـ وفي ص: ١٠٧٨: (لم تغزوا بقلب رجل واحد). كلمة (لم تغزوا) مخالفة لما في الأصل القريبة من (لم تصغوا).

وفي الصفحة: (قال: وكيف أنتم إن قتلتموه؟). وفي الأصل: (قال: فكيف أنتم إنْ قتلتموه؟).

١٦٣ ـ وفي ص: ١٠٧٩: (وَازفراه، وَازفراه، وازفراه) والزاي في المواضع الثلاثة في الأصل مقوسة كالدال (د) وفوق الأولى نقطة. (واذفراه).

١٦٤ ـ وفي ص: ١٠٨٣: (قال: فاتحدوا فكلٌّ شديد). كلمة (فاتحدوا) ليست كما في الأصل، وما بعدها (أفكل شديد). وقد تكون الجملة (فأخذه أُفْكَلٌ شَدِيدٌ) ـ كما سيأتي ص: ١٠٨٤ (فأخذه من ذلك أُفْكَلٌ ـ أي رِعْدَة).

١٦٥ ـ وفي ص: ١٠٨٦: (ما هذا الْـمُنْحى). الكلمة الأخيرة لا تطابق

صورة ما في الأصل (النحى) التي تقرأ (النَّجِيّ) وهي أقرب معنى لسياق الكلام، فالقوم خَلَوْا في جانب من الدار يتناجون بينهم. وقد وردت الكلمة مرة ثانية ـ ص ١٠٨٨ ـ.

وفي الصفحة: (قد أُخِذَ منك بالحنو فَذُبِحْتَ). كلمة (بالحنو) في الأصل تشبه (بالبُخْنُق) بدون نقط. والبُخْنُقُ من معانيه البُرنَسُ الصغير، وقد تكون الكلمة (بالمِخْنَقِ) وهي أقرب إلى المَعْنَى المراد.

وفي الصفحة: (وكنا بين يديه نسمعه عابساً) كلمة (نسمعه) في الأصل تقرأ (شمعة) ولكن كلمة (كنا) مطابقة لما في الأصل، وقد تكون خطأً من الناسخ وأن صواب الجملة: (وكان بين يديه شمعة، عابساً) حال من كلمة (فخرج) في أول الجملة. أما كلمة (نسمعه) فهي قلقة في الجملة. وأشار المحقّق إلى أن الخبر في «طبقات ابن سعد»: ٥/٢٣٢ ـ ولم أعثر عليه فيها في طبعة بيروت.

١٦٦ ـ وفي ص: ١٠٨٨: (فما أدخل هذا الاعرابي بيننا). كلمة (بيننا) شبيهة بكلمة (بيتك).

وفي الصفحة: (ولو صَلُحْتُمْ أحبَّ إلي من نفسي) والصواب: (ولو صلحتم كنتم) الخ ـ كما في الأصل.

وفي الصفحة: (تُبْ إلى الله يَتُبْ عليك). وما في الأصل: (تُبْ إلى الله يَتُبْ عليك).

١٦٧ ـ وفي ص: ١٠٩١: (حدثنا نعيم بن محمد قال: حدثنا الفضل بن موسى). في الأصل: (نعيم بن حماد) وهو الصواب، كما يتضح من ترجمة نعيم بن حماد في «تهذيب التهذيب» حيث ذكر من مشايخه الفضل بن موسى.

وفي الصفحة: (يا قاص كذا وكذا). والصواب: (يا مَاصَّ كذا وكذا) وهي كلمة شتم من المصِّ، ويوضح هذا ما ورد بعدها: (لا تشتم أُمِّي).

١٦٨ ـ وفي ص: ١٠٩٢: (ونشبتم في الطعن على إمرتكم). وما في الأصل:

(وبَشمتم في الطعن على أئمتكم). والباء غير منقوطة بحيث تقرأ تاء.

وفيها: (فلا ينزعن أمركم من أيديكم، ولا يخرجنَّ من بين أظهركم). والذي في الأصل: (فلينزعن) و (ليخرجن).

ويحسن مراجعة الخبر في كتاب «الإمامة والسياسة».

وفي الصفحة: (أني قد أبحتها). والصواب ما في الأصل: (أني قد أبحته) أي الحِمَى. وكذا في كتاب «الأوائل» للعسكري: ١/٢٥٨ ـ الطبعة الثانية فقد أورد الخبر عن ابن شبَّة.

١٦٩ ـ وفي ص: ١٠٩٣: (ثَمَّتَ بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما مثل رَجِهِ بي لأوياه). كلمة (ثَمَّتَ) في الأصل (لَهُ) وبها يستقيم الكلام.

وفيها: (من هو أشرف منه، بعث الله رسوله فأسرعتم إلى الله). وفي الأصل: (من هو أشرف منه، ومن تقطع الأمور عليه، بعث الله رسوله) الخ. وجملة (ومن يَقطعُ الأمور عليه) واردة في «الأوائل»: ١/٢٥٩ ـ وقد ورد فيه الخبر عن ابن شبَّة.

وفي الصفحة: (فتركه من يده). وهي: (فتركه في يده).

١٧٠ ـ وفي ص: ١٠٩٧: (وما يُغْضَبُ أَمْرُنا إلا بك). كلمة (يغصب) صوابها: (يُعْصَبُ) بالعين المهملة، وكذا هي في الأصل، أي يُجْمَعُ ـ

وفيها: (ولئن لا يَشْنَأكَ لنكوننَّ أحبَّ إليهم منك). كلمة (لا يَشْنَأكَ) في الأصل (لا بسناك) والباء ليست منقوطة.

١٧١ ـ وفي ص: ١٠٩٨: (لا تمثلوا به فيمثل بكم). قد يُقرأ ما في الأصل: (لا تميلوا به فيميل بكم) لعدم إعجام الحروف.

وفي الصفحة: (قام الأمر فأقمتم به). تقرأ: (قام الأَمْرُ ما قُمْتُمْ بِهِ)

وفيها: (إنَّ الفتنة تنبت على ثلاث: على التَّخَوُّنِ، ثم السكون، ثم الخلع).

وكلمة (التَخوُّن) تقرأ (النَجوى) وهي بدون نقط

وفي الصفحة: (حدثنا القاسم بن الفضيل). وفي الأصل: (القاسم بن الفضل) وهو الصواب ــ وترجمته في «تهذيب التهذيب»: ٣٢٩/٨ ــ ولكن القاسم هذا توفي سنة سبع وستين ومئة. فلم يدركه ابن شبَّـة، فهل سقط اسم شيخ ابن شبَّـة الراوي عن القاسم بن الفضل؟

١٧٢ ــ وفي ص: ١٠٩٩: (وما كان لي على قسره من سبيل). كلمة (قسره) ليست كما في الأصل: (شره) سِنٌّ قبل الشين المعجمة ليس قافاً، قد تكون نوناً أو باء، وقد تكون الكلمة محرفة.

١٧٣ ــ وفي ص: ١١٠٠: (إنهما اثنتان تأكلان الثريد). تقرأ الجملة: (انهما ابنتان تأكلان البَرير) والبرير ثمر الأراك، أي إنهما في صغرهما تأكلان ثمر الشجر ــ أي عاشتا بَدَويَّتَيْن ــ

وفي الصفحة:

لسـاني طويـلٌ فاحْـذَرَنَّ شَذَّاتِـهِ عليك وسَيفي من لسانيَ أَطْوَلُ

صدر البيت غير مستقيم وَزْناً إلَّا إذا غيرت (شَذَّاتِهِ) بكلمة (شَبَاته) أي حَدّه ــ والصدر في الأصل: (لساني طويل فاحذر من سداته)كذا وأشار المحقّق إلى أنه مذكور في «أنساب الأشراف»: ٤٨/٥ ــ

١٧٤ ــ وفي ص: ١١٠٢: (فقام رجلٌ من بَهْز). وفي الأصل: (فقال فيهم رجلٌ من بهز). وغيَّر المحقّق كلمة (فقال) بكلمة (فقام) ولعله كان مصيباً.

١٧٥ ــ وفي ص: ١١٠٣: (مَـرَّ بنا عثمان بن عفّان مُرَحِّلاً مُعْذِقاً). كلمة (مُرَحِّلاً) صوابها: (مُرجِّلاً) بالجيم ــ من ترجيل الشَّعر.

وأما (معذقا) فالدال في الأصل مهملة وهي في مطبوعة تاريخ ابن عساكر ــ «تاريخ مدينة دمشق» ــ ترجمة عثمان ص ٢٧١ ــ (مُعْدِقاً) وفسَّرتها المحققة بما

نقلته من «اللسان»: (أغدف قناعه أرسله على وجهه فهو مغدف).

١٧٦ ــ وفي ص: ١١٠٤: (فأخذتُ بمنكبه ثم لَفَفْتُهُ). الكلمة الأخيرة صوابها ما في الأصْل (لَفَتُّهُ) أي جعلته يلتفت وكذا هو في «تاريخ ابن عساكر» ترجمة عثمان ــ ٢٧٠ ــ

وفي ص: ١١٠٥: (بينما نحنُ مع رسول الله ﷺ على طرف آرَةَ بالمدينة). وفسَّر المحقّق آرَةَ بجبل مُزَينةَ. ولكنَّ هذا الجبل ليس في المدينة. بل خارجها بنحو ثلاث مراحل، ثم إنَّ الكلمة ليست واضحة في الأصل.

١٧٧ ــ وفي ص: ١١٠٧: (أنتجتُ الأحمال). ومع أن الجملة غير مفهومة إلاّ أن الكلمة الأخيرة (الأحمل). وقد تقرأ (أنيخت) بدل (انتجت).

١٧٨ ــ وفي ص: ١١٠٩: (حين خالطت الناس وغفلت الأحاديث). كلمة (غفلت) صوابها: (عَقَلْتُ) أي فهمتها وصرت أحفظها ــ أي بلغت مبلغاً من العمر مكّنني من ذلك ــ كما يفهم من سياق الكلام.

وفي الصفحة: (وَرُفِعَ مصحف من إحدى الحجر فقيل: يعلمه مَنْ عَرَفَ أن محمداً بَرِيءٌ ممن فَرَّق دينه). كلمة (يعلمه) في الأصل: آخرها الف قبل (ان) وقد تقرأ (تعلموا) أما المحقّق فيرى الألف سَهْماً أشير به إلى سقط وانه أضاف (عرف) ليستقيم الكلام. ولينظر «تاريخ الطبري»: ٦/٢٩٧٩.

١٧٩ ــ وفي ص: ١١١٠: (للخليقة من بعد نوح). قد تكون كلمة (الخليفة) بالفاء هي الصواب، إذ الخبر يتعلق بالخليفة عثمان.

١٨٠ ــ وفي ص: ١١١٢: (ونُلحِقك بجبل الدخان. لست هناك). سقطت كلمة (فقال) قبل (لست) وهي في الأصل.

١٨١ ــ وفي ص: ١١١٤: (إلاّهُمْ حِمًى، يرعون فيه عرباء، فنفلت ذلك لهم) كلمة (عرباء) في الأصل: (عربا) وقد تكون (عَزَباً) وكلمة (فنفلت) هي (ففعلت). وكلمة (عَزَباً) أنسب أي يُعْزِبون فيه أنعامهم لِسِعَتِهِ.

وفي الصفحة: (وإن كرهْتُمْ فغيروا، أو فلا تُقِروا). الكلمة الأخيرة في الأصل: (أولا فلا تقروا). وقد تكون خطأ من الناسخ.

١٨٢ ـ وفي ص: ١١١٥: (فعل شيئاً بغير حق). وفي الأصل: (قتل نفساً بغير حق).

١٨٣ ـ وفي ص: ١١١٨: (فاتق الله ألا تكون ذلك الرجل). كلمة (ألا) في الأصل (لا).

وفي الصفحة: (أشر الثنايا). وفي الأصل: (ابس) وفوق السين علامة الاهمال (٧) فإذا صَحَّتْ فقد تكون مأخوذة من البَسِّ ـ كالْبَثِّ ـ وهو التفريق، أي إن ثناياه مفرَّقة.

وفيها: (ومعه محمد بن بكر). وهو محمد بن أبي بكر.

١٨٤ ـ وفي ص: ١١٢٠: (إن ابن أبي حذيفة إمَامُ حَلاَلَةٌ كما علمت). وما في الأصل يقرأ: (إمام ضلالة كما قد علمت).

١٨٥ ـ وفي ص: ١١٢٢: (يطفيء بك ثائرةً). كلمة (ثائرة) في الأصل (نائرة). والنائرة حالة هياج الناس وثورتهم.

١٨٦ ـ وفي ص: ١١٢٣: (ليقوموا بضررك). والصواب: (ليقوموا بِعُذْرِك).

١٨٧ ـ وفي ص: ١١٢٤: (بسيف ينبو عن المؤمن، ويجير على الكافر). كلمة (يجير) تشبه (يجهز) وإن لم تكن الهاء كاملة التقويس.

١٨٨ ـ وفي ص: ١١٢٥:

أبَتْ كبدي ـ لا أكرهَنْك قتالهم   عـليَّ وتـأبـاه عـلي أنـامِـلي

كلمة (لا أكرهنك) تقرأ: (لا أُكْذِبَنْكَ)

١٨٩ ـ و في ص: ١١٢٧: (أشرف عليه يحذروه ويصدوه). وما في الاصل: (أشرفوا عليه فعزروه ونصروه).

١٩٠ ـ وفي ص: ١١٢٨: (نضر بن علي بن نضر). والاسم في الأصل بدون إعجام وهو (نصر بن علي بن نصر) ـ بالصاد المهملة ـ مترجم في «تهذيب التهذيب» ـ ١٠/٤٣٠ ـ

١٩١ ـ وفي ص: ١١٣٠: (قال: أتعجب). وفي الأصل: (قال: العجب).

١٩٢ ـ ص: ١١٣٤: (فليحق بزرعه). والصواب ما في الأصل: (فليلحق بزرعه). والخطأ تطبيع.

١٩٣ ـ وفي ص: ١١٣٥: (فنشرنا المصحف) وفي الأصل (الصحف).

١٩٤ ـ وفي ص: ١١٣٦: (فرجَعْتُ بِسَبَبِهم إلى أمير المؤمنين). وهي (فرجعت فسبقتُهُم) إلخ.

وفي الصفحة: (وما صنع الله بكم) كلمة (بكم) صوابها: (لكم).

١٩٥ ـ وفي ص: ١١٣٨: (آت هاؤلاء). وفي الأصل: (ايت هاؤلاء) أي (إئْت) وفَرْقٌ بين الكلمتين.

١٩٦ ـ وفي ص: ١١٣٩: (إلى حُـجْرةٍ). وهي (في حجرة).

١٩٧ ـ وفي ص: ١١٤٠: (ولا تُحمى الحمى). وهي: (ولا يُحْمَى الحِمَى).

١٩٨ ـ وفي ص: ١١٤٢: (يونس بن أبي اسحاق الهمذاني). وفي الأصل: (الهمداني). وهو الصواب فالرجل من هَمْدَان ـ بالدال المهملة ـ القبيلة اليمنية لا من هَمَذَان ـ بالذال المعجمة ـ المدينة الفارسية، فهو من السَّبيع بطن من همدان ـ يونس بن أبي إسحاق عمرو بن عبد الله السبيعي الهمداني، مترجم في «تهذيب التهذيب» ـ ١١/٤٣٣ ـ

وفيها: (مع أبي ربيعة العنزي) وفي الأصل: (العبدي) بدون نقط. ←

وَأَمَّا الثَّانِي ــ بعد الجِيم باءٌ مُوَحَّدَةٌ مُشَدَّدَةٌ وبعد الألفِ نُونٌ أُخْرَى: ــ جَبَّانَةُ عَزْرَمٍ بِالْكُوفَةِ، وَيُنْسَبُ إِلَيْهَا بَعْضُ الرُّوَاةِ[٣].

وأَمَّا الثَّالِثُ ــ أَوَّلُهُ حَاءٌ مُهْمَلَةٌ بَعْدَهَا نُونٌ مُشَدَّدَةٌ وَبَعْدَ الأَلِفِ نُونٌ أُخْرَى ــ: نَاحِيَةٌ من غَرْبِيِّ الْمُوصِلِ فَتَحَهَا عُتْبَةُ بْنُ فَرْقَدٍ صُلْحاً[٤].

وَأَمَّا الرَّابِعُ ــ أَوَّلُهُ جِيمٌ مَضْمُومَةٌ بَعْدَهَا بَآءٌ مُوَحَّدَةٌ مُخَفَّفَةٌ وبعد الأَلِفِ بَاءٌ أُخْرَى ــ: مَوْضِعٌ عِنْدَ ذِي قَارٍ[٥].

الحواشي:

(١) لم يَرِدْ هذا الباب في كتاب نَصْرٍ ــ فيما ظهر لي ــ

(٢) هذا من تعريف نَصْرٍ، ولكنه اورد الاسم بالألف المقصورة (جَنَّابَا) في (باب جَنَّابَا وجَبَانَا وَخَنَاثَا وحَبَايَاء) من كتاب الجيم. ولم يَقُلْ: (بلدٌ ناحية البَحْرَيْنِ). وحين أورد ياقوتُ في «معجم البلدان» كلامَ الحازميِّ عقَّب عليه قائلاً: وهذا غلطٌ عجيب، لأنَّ مَهْرُوبانَ وسيراف من سواحل برِّ فارس، وكذلك جنَّابة، وأما البَحْرَيْن فهي في ساحل برِّ العرب، قبالة برِّ فارس، من الجانب الغربي. وكذلك قال الأمير أبو نَصْرٍ، وعنه نقل الحازميُّ، وهو غلَطٌ منهما معاً، وبين جنَّابة وسيراف أربعة وخمسون فرسخاً. انتهى كلام ياقوت فقد أوضح خطأ الحازميِّ، وبَيَّنَ انه نقل عن ابن ماكولا، ونَصُّ ما في كتابه «الاكمال» ج٣ ص ٦٧ــ: (وأمَّا الجنَّابِيُّ ــ بعد الجيم المفتوحة نونٌ مشدَّدَةٌ، وبعد الألف بَاءٌ معجمة بواحدة ــ نسبة إلى جنَّابَة بلدة بالبحرين) ــ الخ ــ ونقل محقق كتاب «الإكمال» عن كتاب «التوضيح» لابن ناصر الدين الدمشقي ــ: (يحتمل أن الغلط وقع لاشتهار القرمطي انه كان بالأحساء من البحرين، فَظُنَّ أنَّ جنَّابَةَ من البحرين). انتهى. وقال ياقوت عن جنَّابة: بلدة صغيرة من سواحل بحر فارس، رأيتها غير مرَّة، يُدخل إليها في المراكب في خليج من البحر الملح، يكون بين المدينة وبين البحر نحو ثلاثة أميال او اقل، وقبالتها في وسط البحر جزيرة خارك، وفي شمالها من جهة البصرة مَهْرُوبان ــ إلى آخر ما ذكر ــ وقد أشار صاحب كتاب «بلدان الخلافة الشرقية» ــ ص ٣٠٩ ــ إلى أن خرائب جنَّابة لا زالت تُرَى ــ ورسم موقعها على مقربة من جزيرة خارك ــ المعروفة الآن خطأً باسم (خرج) تقع في الشمال الغربي منها على الساحل، ومهروبان تقع شمال جنابة على الساحل الشمالي للخليج العربي، أما سيراف فتقع في الجنوب من جنابة على ساحل الخليج؛ بمسافة طويلة (جنابة بقرب خط العرض ٣٠َ/٢٩° ومهروبان ٢٠َ/٣٠° وسيراف ٣٠َ/٢٧° ــ على وجه التقريب ــ انظر خريطة إقليمي فارس وكرمان ــ من كتاب «بلدان الخلافة» ص ٢٨٣ ــ.
ويظهر انَّ الحازميَّ رجع الى كتاب «الإكمال» لابن ماكولا في ذكر المنسوب إلى جنابة. وشهرة

القرامطة تكفي عن الحديث عنهم، وقد أُفردت المؤلفات في ذكرهم، وشُحِنَتْ كتب التاريخ بأخبارهم.

(٣) قال ياقوت: الجَبّانُ ــ في الأصل الصحراء ــ وأهل الكوفة يسمون المقابر جبّانة كما يُسَمّيهَا أهلُ البصرة المقبرة، وبالكوفة مَحَالٌ تُسَمَّى بهذا الاسم، وتضاف إلى القبائل منها: جبّانة كِنْدَة، وجبّانة السَّبيع، وجبّانة ميمون، وجبّانة عَرْزَم نُسب إليها بعض أهل العلم عَرْزَمِيًّا، وجَبّانة سالم، وغير هذه ــ انتهى باختصار وقد ورد إسم عرزم بتقديم الراء المهملة على الزاي، على عكس ما ورد في مخطوطة كتاب الحازميّ، وما أورد ياقوت هو الصواب، فقد جاء في كتاب «اللباب» لابن الأثير ــ ج٢ ص ١٣١ ــ: العَرْزَمي: هذه النسبة إلى عَرْزَم قال: وظنّي أنه بطن من فزارة، وجبانة عَرْزم بالكوفة معروفة، ولعل هذا البطن نزلوا بها فنُسِبت إليهم ــ ثم ذكر المنسوبين إلى عَرْزَم ــ ومنه يظهر أنّ النسبة إلى عَرْزَمَ لا إلى الجبّانة، كما يفهم من كلام الحازميّ.

(٤) لَمْ يزدْ ياقوت في «معجم البلدان» على القول: الحَنّانة ــ تأنيث المشدَّد قبله ــ: هي ناحية من غربيِّ الموصل، فتحها عُتْبَةُ بن فَرْقَدٍ صُلْحاً. انتهى. وعُتْبَةُ صحابيٌّ من بني سُلَيْم ثم من بني رِفَاعَةَ منهم، وقد فَتَحَ الموصل سنة ثماني عشرة، مع عياض بن غنم، وكان مِنْ وُلاَةِ عمر بن الخطاب.

(٥) قال ياقوت في «معجم البلدان» ــ الجُبَابَةُ ــ بالضم وقد تقدم اشتقاقه في الجُبَاب ــ وهو موضع عند ذي قارٍ، كان به يوم الجُبَابَات، وقد تقدم. قال أبو زياد: الجُبَابَةُ من مياه أبي بكر بن كلاب. انتهى وقال عن الجُبَاب: هو شيءٌ يعلو ألبانَ الإبل كالزُّبْدِ، ولا زُبْدَ لَهَا. وقال عن الجُبَابَاتِ: موضع قريب من ذي قارٍ، كانت به إحدى الوقائع بين بكر بن وائلٍ والفُرْسِ. قال الأَغْلَبُ:

أمّا الجُبَابات فَقَدْ غَشِيْنَا بِفَاقِرَاتٍ تَحْتَ فَاقِرِيْنَا

يَتْرُكْنَ مَنْ نَاهَشْنَ رَهِيْنَا

وقال أبو أحمد: وهو أيضاً يوم الجُبَابَة، موضع جُبٌّ في دِيَارِ أَوْدِ بن سَعْد العَشِيرة، كانت فيه وقعةٌ بينهم وبين الأزد، والجُبَابَاتُ أيضاً ماءٌ بنجد، قُرْبَ اليمامَة. انتهى.

فظهر مما تقدم أن الاسم يطلق على مواضع:

١ ــ أحدها في شرق الجزيرة، غرب الكوفة، على مقربة منها، عند ذي قار.

٢ ــ ماء من مياه أبي بكر بن كلاب، ومياه هاؤلاء وبلادهم في عالية نجد، وأخشى أن الجبابة التي من مياه بني أبي بكر هي التي أوردها صاحب كتاب «بلاد العرب» ــ ٣٦ ــ باسم الجُبَاجِبة، وذكرها ياقوت بهذا الاسم لربيعة بن قرط من بني أبي بكر.

٣ ــ موضع في ديار أَوْدٍ، وديار هاؤلاء جنوب الجزيرة في اليمن.

أما المواضع التي ذكرها نصرٌ مع (جَبَّانَا) فهي ــ على ما جاء في كتابه ــ:

١ ــ جَبَانَا ــ بفتح الجيم والباء الموحدة وآخره نون وألف مقصورة ــ: ناحية من السَّوَاد قريبة من الأنبار ومن مدينة السلام ــ انتهى. إقتصر ياقوت على القول: جَبَانَا ــ بالفتح وبعد الألف نون ــ: ناحية بالسواد، بين الأنبار وبغداد. انتهى.

٢ ــ خَنَاثَا: قال نصر: وأما بفتح الخاء المعجمة والنون وآخره ثاء مثلثة وألف مقصورة ــ: ــ

مطير: فروعها وأفخاذها

كتب الأخ ماجد بن طاهر المطيري إلى مجلة «العرب»:

أفيدكم علماً ومعرفاً بنفسي أنني من قبيلة الشلالحة من بني عبدالله من مُطير. وحيث أنه سبق أن كتبت كُتُبٌ عن تقسيمات قبيلة مطير. ورد فيها أنها قسمان فقط. وحقيقة الأمر ليس كذلك. بل تنقسم مطير إلى ثلاثة أقسام رئيسة. وسبق أن وردكم عدة رسائل حول ذلك. من متعب بن نويمي بن جبرين ومن ضيف الله بن محمد المطيري. وقد أجبتم بأن من كان لديه أية معلومات فليتفضل بها مشكوراً. وها أنا أتقدم لكم بالمعلومات المرفقة.

علماً أن الجواب ليس لي وحدي بل هناك الكثير ممن ينتظر الإجابة.

ولكثرة الإلحاح المتواصل من بعض رؤساء (مُطَيْر) لأنهم علموا أن هناك من الكتب تناقلت الكتابة عن قبائل (مطير) وتقسيمها إلى قسمين فقط. فاستغرب أهل الرأْي والمعرفة وأهل الخبرة منهم كيف تم هذا التقسيم وهل هناك دليل قائم عليه؟

ومن المشائخ الذين أَلَحُّوا عليَّ في هذا الصدد: علي بن جبرين ومتعب بن نويمي

← موضع نَجْدِيٌّ. ولم يَزِدْ ياقوت على القول: خنانا: موضع بنجد ــ عن نَصْرٍ ــ وما أكثر مواضع نَجْد!! ولا أستبعد عدم صحة الضبط، وانه الموضع الذي ورد في كتب اللغة باسم ذِي خَنَانَا، ورد في قول الشاعر:

شَدَّ لَهَا الذِّئْبُ بِذِي خَنَانَى　　مُسْتَخْبِكَ الظُّلْمَاءِ والأَمْلاَثَا

الأملاث ــ جمع مَلْثٍ ــ: وقت اختلاط الظلام عند العشاء وعند طلوع الفجر ــ

٣ ــ حَبَابَاءُ: قال نصر: وأما بفتح الحاء المهملة وباءَيْنِ مُوَحَّدَتَيْنِ والف ممدودٍ ــ: جبلٌ نَجْدِيٌّ من سبعة أجبل تُسَمَّى الأكوامَ، وهي مُشْرِفَةٌ على وادي الْجَرِيب. انتهى. وفي كتاب «بلاد العرب» ــ ٧٦ ــ: الأكوامُ جبال لغطفان ثم لِفَزَارَة، وهي مُشْرِفَة على بطن الجريب وهي سبعة . . . عن يسار عُوَارَةَ . . وأسماؤها: كومُ حباباء والعاقِرُ، والصُّمْعُل وكومُ ذي مِلْحَة. انتهى ملخصا، والجريب يعرف الآن باسم الجرير من أشهر روافد وادي الرُّمَةِ، ويظهر أن الأكوامَ على مقربة من طرفه الشمالي قبل اجتماعه بوادي الرمة.

بن جبرين ومتعب بن فيصل بن سقيان وكُمَيِّخ المُرَيخي ونائف بن سلطان بن درويش وعَجْمِي بن قُطَيم بن ضَمْنَة، وبجاد بن مِزْنان، وعويض بن مطلق بن لويحق وصقر بن شلّاح والشيخ فهد بن مرزوق التّتو ـ من موظفي الدعوة والإرشاد في المنطقة الشرقية.

وبعد أن أمدوني بالمعلومات وجدت أمامي أنه ليس من الممكن أن أبحث مع الأدباء والمؤرخين والكتّاب قبل أن أبحث مع الرواة وأهل المعرفة منهم. ووجدت أن صحة تقسيم قبيلة (مطير) إلى ثلاثة أقسام رئيسة، كل قسم له أماكن يقطنها وعِزْوَة يعتزي بها، ورئاسة مستقلة ليس لها علاقة بالأقسام الباقية.

وهم بنو عبدالله.
وعِلْوى.
وبُرَيْه.

فعزوة قبيلة بني عبدالله تضمنها بيت شعر للشيخ جهز بن شرار:

عيَّا الولِيْ: والعِزْوَةَ العبدلية   عَبادْلٍ سُوْرَ الحرَايِبْ ومِضْحِيْنْ
عِزْوَتُهُمْ (أولاد عبَّاد).

وقبيلة بني عبدالله غنية عن التعريف في العصر الجاهلي وفي الإسلام وفي الوقت الحاضر. وليس لها ارتباط بالأقسام البافية. وهم ينقسمون إلى قسمين: قسم يتبع قبيلة عِلْوَى، وقسم يتبع قبيلة بُرَيْه. وهذا غير مقبول عندهم إلا أن هذه التقسيمات والعزاوي والرئاسات المستقلة شواهد ثابتة لفرز كل قبيلة على حدة. وهناك دلائل أخرى تكفي لإيضاح تقسيم هذه القبائل وهي الحروب التي سبق أن حدثت بين قبيلة (عِلْوَى) في عهد الحُمَيْدِي بن فيصل الأعور جد فيصل بن سلطان الدويش وبين قبيلة (بُرَيْه) في عهد فِدْغُوش المُريخي. وامتدت تلك الحروب فشملت قبيلة (بني عبدالله) إذ السبب هو اعتداء من عِلْوى على أحد رجال بني (عبدالله) يدعى (الرِّخْل) من ميمون، وقد استجار بالمريخات من قبيلة

(بُرَيْه) واستمرت الحروب بين الطرفين سبع سنوات. وانتهت باتفاق الطرفين على الصلح بالتحكيم. فحكُمت (عِلْوَى) حاكم حائل عبدالله بن رشيد آنذاك. وحكمت قبيلتا (بُريه وبني عبدالله) هادي بن قرملة، رئيس قبائل (قحطان) وذلك بعد وفاة الحُميدي بن فيصل الأعور، وبعد قتل فدغوش المريخي في نفس الحرب.

وهذه شواهد يكتفي بها لهذا التقسيم. وأخيراً أرجو من كل من كتب عن هذا الأمر أن يعيد النظر فيها كتب مشكوراً. وإنني أعلم كل العلم أنه اجتهاد منهم: ولكن لعدم المصادر التي يرجعون إليها اختصروا الأمر على معلومات غير وافية.

١ ــ بنو عبدالله: فروعها وأفخاذها:

ينقسم بنو عبدالله إلى خمسة فروع: بنو عون وميمون. والصُّعَبَة، والشلالحة، والهويملات.

١ ــ ينقسم بنو عون إلى بطنين. بطن ذوي أُصَيْمِع وبطن ذوي سُوَيْعِد، وينقسم بطن ذوي أُصيمع إلى أربعة أفخاذ.

١ ــ السقَاين واحدهم: (سقياني).

٢ ــ الهدابين (هدباني).

٣ ــ الكهاهين (كميهي).

٤ ــ بني شطيط (شطيطي)

بطن ذوي سويعد وهم اثنا عشر فخذاً:

١ ــ الجبارية (جبريني).

٢ ــ البراكتة (بريكيتي) لم يرد ذكرهم في «معجم قبائل المملكة».

٣ ــ المحانية (مُحُنَّا).

٤ ــ السلايمة (سليمي).

٥ ــ القنينات (قنينان) وقد ذكروا في «المعجم» من العضيلات خطأ.

٦ ــ الحرصان (حريّص).

٧ ــ العــاسيـف (عساقي) لم يرد لهم ذكر في «المعجم».
٨ ــ ذوي بدير (بدراني).
٩ ــ الموازين (ميزاني).
١٠ ــ الحِلْف (حلفي).
١١ ــ العزايزة (عزيزي).

٢ ــ ميمون بطنان الصردان، وغُرَابة، وهذه أفخاذ البطن الأول ــ الصرْدان ــ:

١ ــ الوهيطات: (وهيطي).
٢ ــ السكّان: (سكاني).
٣ ــ الشوايبة: (شويِّب).
٤ ــ العيابين: (عيباني).
٥ ــ الهُوْيَان: (هُوياني).
٦ ــ الرِّخَال: (رخل).
٧ ــ المحاميد (محمدي).

البطن الثاني من بطون ميمون: غُرَابة خمسة أفخاذ:

١ ــ السميحات (سميحي).
٢ ــ السلامين (سلماني).
٣ ــ الهدابين: (هدباني).
٤ ــ الجُرَوَة: (جِرْو)
٥ ــ الرمَاثِيَّة: (رميثي).

٣ ــ بطون الصمعة: سبعة:

١ ــ الهِجَال: (هِجْلة).
٢ ــ الوطابين: (وطيباني).
٣ ــ المخافرة: (مخيفري) لم يرد ذكرهم في «المعجم».

٤ ــ العضيلات: (عضيلة).
٥ ــ المهالكة: (مهلكي).
٦ ــ المشاريف: (مشرافي).
٧ ــ الشُّطَّر: (شاطري).

٤ ــ بطون قبيلة الشلاحلة: ثمانية:

١ ــ القمشان: (قميشي).
٢ ــ الذُّهَيْبَاتَ (ذهيبي) لم يذكروا في «المعجم».
٣ ــ السّمُون: (سمني) لم يذكروا في «المعجم».
٤ ــ المُعُوز: (ماعزي) لم يذكروا في «المعجم».
٥ ــ الرحامين: (رحيمي).
٦ ــ الضبطان: (ضبيطي) لا أضبط كما ورد في «المعجم».
٧ ــ القعوان: (قعيَّاني).
٨ ــ الموايق: (مايقي).

٥ ــ بطون الهويملات: ثمانية بطون:

١ ــ الشباشرة: (شبيشيري).
٢ ــ الحنانيش: (حنوشي).
٣ ــ الربعأن: (ربعي).
٤ ــ الحمايين: (حميَّاني).
٥ ــ الجعافرة: (جعفري).
٦ ــ الظوافرة: (ظويفري).
٧ ــ العقالية: : (عقيلي).
٨ ــ اليُبَّس: (يابسي).

٢ ــ قبيلة عِلْوَى وبطونها:

العزوة: خَيَّال الْعَلْيَا: أما بطون قبيلة عِلْوَى فهي ثلاثة وهذا بيانها مع ذكر أفخاذها:

١ ـ المُوهَةُ: سبعة أفخاذ:

١ ـ الدوشان.

٢ ـ الخواطرة.

٣ ـ الجُبَرة.

٤ ـ الصَّعَانِينْ والرئاسة في الأفخاذ المذكورة في بيت الدويش.

٥ ـ الجداعين (بالدال المهملة بعد الجيم).

٦ ـ البراعصة ورئيسهم السُّور.

٧ ـ الرُّخَمان ورئيسهم ابن زَرِيبان.

٢ ـ الجُبْلَان: وهم خمسة أفخاذ:

١ ـ القُعَيْيَات: (بن لامي).

٢ ـ الأُعِنَّة.

٣ ـ العراقِبَة ورئيس الأفخاذ الثلاثة ابن لامي.

٤ ـ المقالِدة: ورئيسهم ابن رَشْدَان.

٥ ـ اليَحْيَا: ورئيسهم ابن شِبْلان.

٣ ـ بنو عَوْن: انْضَمُّوا إلى قبيلة عِلْوَى ويُعَدُّون منهم، وهم الصُّهَبَةُ والمَلَاعِبة، وهذه أفخاذ الصهبة:

١ ـ الصُّهَبَةُ، وهم فَخِذَان:

١ ـ الفُغَمَة.

٢ ـ المطيرات.

٢ ـ الملاعبة: فخذان:

١ ـ الملاعبة.

٢ ــ الأمِرَّة بعد الألف ميم مكسورة فراء مفتوحة مشددة، فهاء.

٣ ــ بُرَيْـه وبطونهـــا:

العزوة: خيال الخيل بريهي. وبُرَيْه بطنان: وَاصِل، والصُّعْرَان. وأفخاذ بطن واصل عشرة:

١ ــ المُريخات: (مُرَيْخي).
٢ ــ البدناء: (بَدِين).
٣ ــ العُبَيَّات: (عُبَيْوي).
٤ ــ الهوامل: (هاملي).
٥ ــ البرزان: (برازي).
٦ ــ الدياحين: (دَيْحَاني).
٧ ــ المحالسة: (مِحْلِسي).
٨ ــ العوارض: (عارضي).
٩ ــ العفسة: (عفسي).
١٠ ــ الوسَامَى: (وَسْمِي).

٢ ــ أفخاذ البطن الثاني من بُريه وهم الصعران: ثمانية:

١ ــ البصايصة: (بصيِّصي).
٢ ــ الشتيلات: (شتيلي).
٣ ــ الشعالين: (شِعْلاني).
٤ ــ ذوي غنمي: (غنمي).
٥ ــ العبادين: (عبداني).
٦ ــ الهدلان: (هَدْلاني).
٧ ــ الحمادين: (حُمَيْدَاني).
٨ ــ ذوي سعدون: (سعدوني).

الرياض: قيادة القوات الجوية ــ الشؤون الدينية. **ماجد بن طاهر المطيري**

المساعيد من بني عقبة

تلقيت من الأخ الكريم راشد بن حمدان بن راشد الأحيوي المسعودي في مدينة العقبة كتاباً هذه خلاصته:

ذكرت في كتابك «معجم قبائل المملكة السعودية» أنَّ المساعيد الذي يسكنون البِدْعَ في الحجاز. ذكرتَ أنهم من الحويطات وأود توضيح الآتي: —

إن أول من نسب المساعيد إلى الحُويطات هو فؤاد حمزة في «قلب جزيرة العرب» ويبدو أنَّك تابعته على ذلك.

مع أن المساعيد ينتسبون إلى قبيلة عُتَيْبَة للأدلة التالية: —

* أن المساعيد في الحجاز يؤكِّدون ذلك.

* حدثني الدكتور يوسف الضامن من مساعيد نابلس أن المساعيد ينتسبون إلى عُتيبة وقال لي: إن الشيخ مشهورَ الضامن مفتي مدينة نابلس سابقاً قد تعرف بمساعيد عُتيبة ــ وهم من فروع النُّفَعَة ــ وقد كان كبيرهم مُقْعِدَ الدُّهَينة.

* أن نَعُوم شُقير في «تاريخ سيناء» عند حديثه عن الأحَيْوَات وهم من فروع المساعيد قال: إن المساعيد كانوا يقطنون بلاد نجد.

* وجود فرع يحمل اسم المساعيد في بلاد نجد وهم قوم الدُّهَينة.

ملاحظـــات: ذكر الجزيري في «الدرر الفرائد» أن المساعيد من بني عطية ثم ذكر فريقاً آخر من بني عقبة، وذكر أنَّ الأحيوات من بني عطية.

إلاَّ أن الحقائق تنفي ذلك لما يلي:

أن المساعيد ذُكِروا قبل الجزيري، ولم ينسبهم أحدٌ ممن ذكرهم إلى بني عطية أو بني عقبة وممن ذكرهم:

١ ــ الحمداني ــ ذكر القلقشندي ذلك نقلاً عنه ــ في «نهاية الأرب» وقد ذكرهم القلقشندي مرة أخرى في كتابه «صبح الأعشى» ج ٤ عند الحديث عن عرب الحجاز، وكتابه «قلائد العقبان» وفي كل كتبه قال: المساعيد بطن من عرب الحجاز دون أن ينسبهم.

٢ ــ ذكرهم ابن فضل الله العمري في القرن السابع دون أن ينسبهم وقد نشرت مجلة «العرب» بحث ابن فضل الله حيث ذكر المساعيد دون أن يُنْسَبُوا.

ومما أود قوله أن بني عطية أنفسهم لا يقولون بانتساب الأحيوات أو المساعيد إليهم. أما عن كون الأحيوات من المساعيد فهذا ما يؤكِّده نَسَّابُوا الأحيوات والمساعيد. وذكر ذلك نعُّوم شُقير في «تاريخ سيناء» وتابعه على ذلك مؤلف إنجليزي اسمه مرِّي في كتاب له عن بدو مصر بعنوان «أبناء اسماعيل» وللأسف فإن الكثيرين خلطوا في نسب المساعيد ومن ذلك:

١ ــ رفعت الجوهري في كتابه عن سيناء نسب المساعيد إلى الأحيوات.

٢ ــ موسل في كتابه «شمال الحجاز» ترجمه عبد المحسن الحسيني ص ١٥١ نسبهم إلى بني لَامٍ.

٣ ــ نعُّوم شقير في كتابه السابق تابع الجزيري في نسبته المساعيد والأحيوات إلى بني عطية.

أَخْلِصُ إلى القول بأن علماء النسب السابقين للجزيري وهم أعلم منه لم ينسبوا المساعيد لا إلى بني عقبة ولا إلى بني عطية. ولعل الباحث في علم النسب يلاحظ أن المساعيد ذُكِروا قبل بني عطية أو الحويطات.

وثَمَّة أمرٌ آخر: إن فخذ النشرة أو النشارة الذي يُعدُّ في بني عطية ليس في الأصل منهم، وإنما يُعَدُّ معهم وهو ينتسب إلى الأحيوات بقولهم، وقول الأحيوات. لذا فإنني أكتب رسالتي هذه إليكم لأستفيد وأحظى بإجابتكم الكريمة حول هذه التساؤلات داعياً الله تعالى أن يوفقكم لما فيه الخير.

انتهى كتاب الأخ راشد، الذي يرى — كما يرى غيره من أبناء قبيلة المساعيد — اتصال نسبهم بـ (ذوي مسيعيد) الفخذ المعروف في عشيرة النُّفَعَة من قبيلة عُتيبة.

★ ★ ★ ★ ★ ★

العـــرب:

ونسبة المساعيد هذه العشيرة التي تسكن شمال الحجاز وصلتها بقبيلة عتيبة يظهر أنها قائمة على أساس تطابق الاسم، للفخذ المعروف باسم (ذوي مسيعيد) من النِّفعة من عُتيبة واسم تلك العشيرة.

والتطابق أو التشابه في الأسماء كثيراً ما أوقع الخلط في النسب، وهذا مما عرفه علماء النسب منذ أقدم العصور، فقد ذكر الهمداني في كتاب «صفة جزيرة العرب» ص ١٨٠ من منشورات «دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر» أن في قبيلة حمير في اليمن فخذاً يدعى (الأجعود) وأن هذا الفخذ ينتسب إلى بني جعدة القبيلة العدنانية مع تباعد النسبة، وقد أوضح الهمداني بطلان هذا، وبين أن مثل هذا الأمر يحدث بين قبائل العرب عندما تتفق الأسماء.

ومن هنا أرى أنه لا صلة بين المساعيد وبين ذوي مسيعيد.

واسم المساعيد يطلق على عدد من العشائر منها من لا يزال معروفاً بين قبائل عصرنا مع تباعدها في النسب، ولا داعي للاطالة بذكر أمثلة ذلك، ومعروف أن اسم مسعود من الأسماء المحبة التي تستعمل كثيراً، ولهذا فلا غرابة أن تكثر العشائر التي تنتسب إلى ذلك الإسم.

أما ما أراه صحيحاً وأطمئن إلى صحته فهو أن المساعيد الذين ينتشرون في شمال الحجاز وما اتصل به من البلاد يرجعون في أصلهم إلى قبيلة جُذام القحطانية النسب، وأنهم من بقايا بني عُقْبة، القبيلة التي كانت تحلُّ البلاد التي لا تزال بقية المساعيد مقيمةً فيها في نواحي البِدْع. فيما بين بلدة ظبا وحقل وقبيلة بني عقبة قبيلة قحطانية، ذات حسب ونسب وكانت لها شهرة في الماضي، حيث تقوم

بخفارة الحجاج القادمين من الشام أو مصر في الطريق البري، قال ابن فضل الله العمري في كتابه «مسالك الابصار في ممالك الامصار» ــ انظر مجلة «العرب» س ١٦ ــ ص ٦١١ ــ : (وعُقبة من جُذام، وديارهم من الشوبك إلى حِسْمَا، إلى تبوك، إلى تَيما، إلى بَرِد وُرواف إلى الحُرَيدا، وهي شرقي الحِجْر. وآخر أمرائهم كان شطّي بين عُبَيَّة، وكان سلطاننا الملك الناصر قد أقبل عليه إقبالاً أحلَّهُ فوق السَّماكَيْن، وألحقه بأمراء آل فَضْل، وآل مِرَاء، وأقطعه الإقطاعات الجليلة، وألبسه التشريف الكبير، وأجزل له الحِبَا، وعَمَر له ولأهله البيت والخِبَا). انتهى كلام ابن فضل الله العمري.

ولا داعي للإطالة بذكر نسب بني عقبة إلى جذام ثم تسلسل النسب من جذام إلى قحطان، فهذا من الأمور المدونة في كتب النسب القديمة.

ومن المعروف أن القبائل عندما تكثر فروعها تنتشر تلك الفروع وتتفرق، فتبرز من بينها أسماء فروع حديثة قد تطغى على الأصل، وهذا هو ما حدث بالنسبة لقبيلة بني عقبة، فقد تفرع منها فروع من أشهرها الحويطات وبنو عطية والمساعيد وبنو شاكر وغيرهم، وبقيت بعض هذه الفروع في منازل أصلهم من بني عقبة وممن بقي فيها عشيرة المساعيد وإخوتهم، واستمرت هذه العشيرة مع الفروع الأخرى تتولى حراسة طريق الحج كما كان أجدادهم يقومون بذلك.

ففي القرن العاشر الهجري يجد الباحث تفصيلاً وافياً عن المساعيد، في كتاب «الدرر الفرائد المنظمة بأخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، الذي نشرته «دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر» حديثاً.

والمعلومات التي يحويها هذا الكتاب عن أصل العشيرة مما لا يتطرق إليه الشكُّ، لأمور منها: أنّ مؤلف الكتاب قد خالط تلك العشيرة عند مروره ببلادها من طريق الحج فنقل ما نقل عن خبره ومعرفة.

ومنها أن تلك المعلومات تدل على تتبع وعناية واهتمام قلَّ أن نجد أمثالها عن ــ عشائر ذلك العهد.

ومنها أنها تتفق في مضمونها مع ما أشار إليه بعض المتقدمين من انتشار الفروع المتفرعة من قبيلة جُذام في تلك النواحي، من أقدم العصور، بخلاف الفروع العدنانية الطارئة من بلاد الحجاز.

وقد يلاحظ الباحث أنَّ صاحب «الدرر» نسب المساعيد آونةً إلى بني شاكر، وأخرى إلى بني عطية، وثالثة إلى بني عقبة، وليس في هذا ما يعتبر تناقضاً أو تضارباً في النسبة، فبنو شاكر وبنو عطية من بني عقبة وفروع بني عقبة قد تختلط أنسابها باختلاط مساكنها، وهذا أمر معروف بين القبائل حتى عصرنا الحاضر.

ويحسن أن نورد نصوص كلام صاحب كتاب «الدرر الفرائد المنظمة» على طولها لما تحويه من تفصيل عن أصل هذه العشيرة وعن فروعها وعما كانت تقوم به بالنسبة لخدمة الحجاج:

١ ــ قال: (بنو شاكر القفعة وهم بدنات ــ منهم الزيادات، والعبيات، والأُحيهاد ــ بضم الهمزة ــ والطليحات، والشنجرَّة ــ بتشديد الراء ــ والمساعيد، والمهانية والعطيات) ص ١١٩٦ .

٢ ــ وقال: (فلما تزايد شرور بني عطية . . وتبعهم طوائف العربان على مثل فعلهم، كالمساعيد من بني عقبة أولاد الأمير سعيفان وغيرهم.) ص ١١٩٧ .

٣ ــ في الكلام على درك النَّقْب من سطح العقبة إلى جانب البحر وأنه ينقسم إلى أربعة أقسام لأربع بَدَنَاتٍ من بني عطية ــ قال: (القسم الثاني لطائفة المساعيد من بني عطية، ومن أكابرهم عتيق بن مسعود بن دغيم، وعليان بن مشور، وعمران بن حُويران من الحوارنة) ص ١٣٣٩ .

٤ ــ وقال: (وأما عربان المساعيد فهم أصحاب درك مبشر الحاج في العود ــ منهم عتيق بن مسعود بن دغَيْم، وعيسى قريبه، وعليَّان بن مشور بن دُغَيِّم، ولهم عن درك الباب والضبة بخان عقبة أيلة قديماً خمسة وسبعون ديناراً ونصف دينار، وهي مستمرة الصرف إلى تاريخه، ثم قُرِّرَ لمسعود بن دغيم في الأيام المظفريَّةِ إنعاماً عليه من غير درك خمسون ديناراً، واستمرت بيد ولده من بعده) ص ١٣٤٥ .

٥ ــ وقال: (في ذكر بَدَنَات العربان من بني عقبة: (أما المسالمة فهم أصحاب درك البحر، ولهم من البر جانب البحر فقط، بعيون الْقَصَب، وحد دركهم من جزيرة عَيْنُونة إلى ما جاوز قبر الشيخ مرزوق الكفافي، وإلى القرب من حضرة دَامة آخر درك بني عقبة) ص ١٣٦٣ .

ثم ذكر أن الدرك أثلاثاً لكل فخذ ثلث، فالثلث الأول لطائفة من المسالمة تدعى الهشايمة ومعهم النجادة، ثم ذكر الثلث الثاني فاستطرد حتى ذكر سلسلة نسب كثير من فروع بني عقبة ومنهم المساعيد. وهاهو نص كلامه: (والثلث الثاني: لطائفة تدعى المقارنة: منهم مُعَزَّي بن سياح بن مجري بن مقرن بن عصيلة بن حسن بن غملاس بن مجري بن مسلم، وهو الذي ينسب إليه طائفة المسالمة، فيقال لهم المسالمة.

ومسلم بن عقال، وعقال هذا أبو طائفة يقال لها العِقالات، وهو أصل من أصول بني عقبة جد العمرو، المناصير والمسالمة.

وعقال بن عمرو، وعمرو، وهو والد الْعَمْرو، الذين شيخهم الآن عمرو بن عامر بن داود.

وعمرو بن سياح، وسياح أبو طائفة الخرشة من بني عقبة، والزبدة والعمرو.

ووالد سياح محمد، ومحمد آل ابراهيم، والمساعيد من بني عقبة.

وعقبة والد بني واصل، وبني عطية، وبني شاكر الحجر، والفقعة وبني واصل حميدة.

ويشارك معزي في الثلث الثاني أحمد بن سبع بن مجري) ص ١٣٦٤ .

٦ ــ وعد بعض أفخاذ عشيرة المساعيد ويسميهم بدنات فقال: (وأما المساعيد من بني عُقْبَة فمنهم بَدَنَات كثيرة، وفروع غزيرة، فلنذكر منها عشرين بَدَنة، ومنهم أمراء أصحاب مرتبات لاتِّقاء شرورهم، لاَعلى درك، وهم أولاد الأمير سعيفان أمير الدِّرْبَين، ومنزلهم الكرك، وحوالي القدس والخليل، وهم الأمير

مرعب وإخوته قضيب وبديع وجماعتهم، وعادتهم يحضر منهم أو من جماعتهم من يقابل أمير الحاج بِعَقَبِةِ أيلة، في الذهاب، فيقبض ما هو معين له بالدفتر السلطاني، ويتوجه فلا يعود إلا في السنة المستقبلة كذلك.

وبَدَنَاتُهم على ما نذكره:

النجادية: شيخهم الأمير مرعب بن سعيفان.

العساسفة: من الهويدفية، منهم محمد بن حميد.

الحياجات: رِبَاعَةُ مرعب آل شطِّي، منهم زعر بن معقل.

الجوادرة: منهم عنيز المسعودي.

المغايثة: منهم حجـــاج.

المواهرة: منهم بكر بن أبي بكر، وطوق بن طلحة، وقراد وأخوه.

الشرشديـــة.

النجادية: منهم شكم بن صعب ومرعي أبو مخطوم.

الدويسات والهبر: منهم زُوَيْـــد.

البراغشة: منهم أحمد بن بـــذال.

الهويدفية: منهم علـــوي.

الصنَّـــاع: ــ بتشديد النون ــ منهم عبيد بن كحيـــل.

العساكريَّة: ــ بالياء المثناة التحتية المشددة.

النضـــــرة: منهم درع.

النّويْجعيـة: ــ بنون مشددة وبعد الواو ياء مثناة ساكنة وجيم مكسورة ــ منهم كـــلاب.

القيـــــوس: ـ بقاف مثناة بعدها ياء مثناة تحتية ـ منهم ميَّـاس.

الحـــــوّة: ـ بحاء مهملة وواو مشددة مفتوحة ـ منهم زبن سعيـدة.

الحطاطبـــة: منهم مربــط) ص ١٣٦٨ .

بعد هذه التفصيلات التي أوردها الجزيري عن عشيرة المساعيد مما لم يوردها غيره من المتقدمين لم يبْـقَ مجال للشك في سعة أطلاعه ومعرفته وعلمه بأحوال هذه العشيرة.

أما ما أشار إليه الأخ راشد من أن المساعيد ذكروا قبل الجزيري في مؤلفات ابن فضل الله والقلقشندي ـ وهما ينقلان عن الحمداني بدون زيادة ـ فليس في تلك المؤلفات ما يمكن الإعتهاد عليه في انتساب تلك العشيرة والجزيري ذكر أصل نسبها، فهو عالم بذلك وهو حجة على مَنْ لم يعرف إلى من تنتسب.

ومما ينبغي أن يلاحظ، هو أن الحمداني واسمه يوسف بن زماج كان (مَهْمَنْدارا) أي مدير ضيافة في مصر عند حكامها في آخر القرن السابع الهجري، وكان يعتني بالأنساب، فيسجل أسماء القبائل التي تفد إلى مصر، وما سجله كان مرجعاً لمن جاء بعده، ومع الأسف فإنَّ ما سجل عن أصول كثير من القبائل كان ناقصاً، ولهذا نجد في مؤلفات القلقشندي فيما نقل عن الحمداني أسماء قبائل ذات أصول معروفة، ونقل عن الحمداني أنه لم يذكر لها أصلاً. من ذلك شَمَّر والدَّواسر، وهما قبيلتان عريقتان في النسب، ولكن الحمداني ليس بعمق النظرة في ذلك، وسبق أن أشرت إلى أن الجزيري حين نسب المساعيد إلى بني عطية وإلى بني عقبة وإلى بني شاكر أنه يقصد من ذلك اختلاط هذه العشائر التي ترجع إلى أصل واحد وهو عقبة من قبيلة جذام من قحطان.

ويقال هذا في كلام فؤاد حمزة الذي نسب المساعيد إلى الحويطات، فإن الحويطات على ما ذكر الجزيري في كتاب «الدرر الفرائد المنظمة» فرع من بني عطية، وبنو عطية من بني عقبة، فلا تخالف فيما ذكر الجزيري وفؤاد حمزة،

فالأصل واحد، وإنما وقعت النسبة إلى بعض فروع العشيرة بسبب اشتراكها في المنازل واختلاطها.

والقول بأن المساعيد من عرب الحجاز قول صحيح، فبلاد المساعيد الأصلية القديمة هي شمال الحجاز، ولا تزال بقية تلك العشيرة تقيم هناك، فيما بين مدينتي ظبا والعقبة، وتلك البلاد هي بلاد بني عقبة، وقبلهم جذام الذين هم أصل القبيلة.

ونَعُّوم شقير وقع في كلامه ـ عن أصول القبائل التي كانت تسكن سيناء ـ أخطاء ليس هذا محل بيانها، وقوله بأن المساعيد كانوا يقطنون بلاد نجد لم يذكر مصدراً لهذا القول من كلام المتقدمين اللذين يعتمد على أقوالهم، ولعله قال هذا حين سمع بأنهم انتقلوا من الجنوب، فظن أن المقصود بلاد نجد، أو أن أحد العامة قال له هذا القول.

وكون بني عطية لا يعرفون انتساب المساعيد أو الأحيوات إليهم، لا يعتبر دليلاً على عدم اشتراك العشيرتين في النسب، فكثير من العشائر جهلتْ أصولها ومن ثَمَّ جهلت الفروع التي تشترك معها في النسب.

بنو لام والمساعيد: أما ما ورد في كتاب موزل «شمال الحجاز» الذي عَرَّب قسماً منه الدكتور عبد المحسن الحسيني ــ رحمه الله ـ عن صلة المساعيد ببني لام، فيظهر أن تعريب الدكتور الحسيني لكلام موزل يحتاج إلى إيضاح، فإن موزل نقل كلام حاجي خليفة في كتابه «جهان نما» في وصف طريق الحج المصري وجاء فيه: (ثم يصل إلى شرف (؟) ويسكنها بنو عطية ويستمر الطريق بين منطقتين جبليتين خلال وادي المطلات حيث يسكن بنو لام، والمنزل المعروف بمغارة شعيب . . .) فشرح موزل كلام حاجي خليفة، وجاء في شرحه على ما عرب الدكتور الحسيني ــ ص ١٥٠ «شمال الحجاز» ــ ما نصه: (فوادي الأبيض هو ما يسميه حاجي بالمطلات، وأما بنو لام فلم يبق منهم الآن سوى المساعيد). انتهى. ولعل مراد موزل فلم يبق في منازلهم المذكورة سوى المساعيد، وهذا كلام

صحيح، فالبلاد إذ ذاك من بلاد المساعيد، ولكن قبيلة بني لام كانت في القرن التاسع الهجري ذات قوة ونفوذ في تلك الجهات، بحيث سيطرت على طريق الحج الشامي وامتد نفوذها إلى بلاد بني عقبة الذي يمرُّ به طريق الحج المصري، وحصل اتصال بالمصاهرة بين شيخي القبيلتين قبيلة بني لام وقبيلة بني عقبة، ثم حدث سنة ٩٢٦ هـ أن شيخ بني لام ويدعى سلامة بن فواز ويلقب (جُغَيْمَان) وهو من المفارجة من بني لَام ــ تعرض لركب الحجاج المصريين ومعه نحو عشرة آلاف نفر، وكان بالقرب من الأزلم فيما بين ظبا والوجه، ولكن ركب الحجاج انتصر على سلامة ومن معه، إلا أن الدولة قررت لسلامة في كل سنة من الخزائن السلطانية ألف دينار راتباً له ولأولاده ليكف الشرَّ عن الركب المصري ودربه، وضمنه في ذلك صهره عمرو بن عامر بن داود أمير بني عُقبة، وصار وكيلاً عنه في قبض ذلك حتى بعد وفاته، واستمر عَمْرُو على ضمانته وتناوله ما هو مقرر لسلامة.

وقد أوضح الجزيري صلة بني لام بطريق الحج، وبين المواضع التي كانوا يترصدون للحجاج فيها وأكثرها واقع في بلاد بني عقبة فيما بين حقل وظبا.

ومجمل القول أن عشيرة المساعيد التي كانت تقطن شمال الحجاز ولها بقية هناك، تتصل بنسبها إلى قبيلة بني عقبة الجذامية القحطانية، وأنها كانت متشعبة الفروع، أما في العهد الحاضر فقد انكمشت بعد انتشار كثير من فروعها واختلاطهم بعشائر أخرى خارج بلادها القديمة.

وهذا لا ينفي وجود فروع تنتسب إلى المساعيد من عشائر أخرى بحيث لا تجتمع معهم في أصل النسب.

إلا أن فخذ الأحيوات لا شك باتصاله بنسب هذه العشيرة فقد عد الجزيري هذا الفخذ من عشيرة بني عطية، فقال ــ ص ١٣٤٥ ــ : (ومن أعيان بني عطية طائفة الرشيدات) إلى أن قال: (ومنهم طائفة الحواريين وأصلهم حضري منهم عمران بن حُويران وهو شريك لعتيق بن مسعود في درك الباب بخان عقبة أيلة.

ومنهم الأحيوات، منهم أولاد أبي سنينة، أصحاب درك الدلالة على المياه ←

المضابرة ـ سكان أَبَانَين ـ

هم سبعةُ رجالٍ، جَلَوْا مُنْذُ بِضعةِ قرونٍ خلتْ، عن قومهم قبيلة بني رَشِيْدٍ، على أثر فتنة وقعت بَين فرعين من فروع القبيلة، فكانتْ بؤرةَ الهزةِ التي أرتجفوا منها، فَأَرْتَحَلُوا صوب جَبَلَيَ أبانين ـ اللذين أصبحا موطنين لهؤلاء السبعةِ الجلويّةِ، ولاحفادهم من بعدهم إلى يَوْمِ النَّاسِ هذا فـ(الـمُضَابِرَةُ) سكان أبانين يعدون اليوم إحدى قبائل منطقة القصيم المشهورة، وهم أحفادُ أولئك السبعة ـ أصحاب الجلوة التأريخية ـ ومن يشأ أن يعرف شيئاً عن فروعهم وديارهم وأرُومة أصلهم فلينظر عنهم (مجلةُ «العربْ»: ج ١، ٢ رجب/شعبان/١٤٠٥ هـ ص ١٢٥).

وقبل أن ألج في صلب الحديث عما هو معروفٌ ومأثورٌ عن هذه الجلوة، لي كليمة قصيرة وددتُ أن ألمح إليها، وهي أن قصتنا التي أتحدثُ عنها ليستْ كغيرها من الحوادث التي يتعرض لها الإنسانُ من وقتٍ لآخر، فهي تعتبر من ألمع القصص التاريخية، طرافةً وإثارةً، من حيث سيرتها ومسار أحداثها، إنها جديرة بأن يُعْنَى

→ والأحطاب، من عقبة أَيْلَةَ إلى شَرَفَةِ بني عطية، ولهم مقرر قديم من الخزائن السلطانية عشرة دنانير، ومن بني عطية طائفة السوارقة) إلى آخر ما ذكـر.

وقد أطلت بإيراد نصوص الجزيري إذْ كتابه ليس معروفاً لدى كثير من القراء، مع احتوائه على معلومات قيمة تتعلق بالقبائل التي تقع منازلها على طريق الحج المصري المار بساحل البحر، وقد سجل تلك المعلومات أثناء تردده في ذلك الطريق، إذْ كان كاتباً لأمير الحج هو ووالده من قبله في خلال النصف الأخير من القرن العاشر الهجري.

حمد الجاسر

بها أدبياً وتاريخياً، لكونها واحدةً من أوفى القصص التي تبين وتحكي لنا حياة وتاريخ ونسب عشيرة، لها شهرةٌ وصيتٌ بين مجتمعها، فالباحث يجدُ فيها من نوادر الأخبار الصحيحة، ومن دروس العبر الكثير، وما أنشره عنها هنا من روايات لا تعدُو كونها جزءاً أقْتَطِفُهُ من أكليلها.

تاريخ الجلاء: إعتاد العربُ في العصور الوسطى لاسيما القبائل منهم التي تعيشُ متجولةً في أرجاءِ مواطنها الأولى داخل الجزيرة العربية أن يؤرخوا أوقاتهم الزمنية منسوبةً إلى الحوادث التي تواجههم، سواء كانت خيراً أو شراً، فمصب اهتمامهم يقع على أحداث زمنهم، الذي يعيشون فيه، ولا يكون الحدث بأي حالٍ من الأحوال مَوْضِعَ اتفاقٍ بينهم أبداً، بل تختلف تسميته بين من يعيش هنا ومن يعيش هناك.

ولذلك فمن الصعب جداً أن نعرف بالتمام التاريخ الحقيقي لهذا الجلاء، في عَصْرٍ جُهِلَ فيه التدوين، وعمَّتْ الأميَّةُ فيه مُجْتَمَعَهُم، ولهذا لا نملك شاهداً يوضح لنا زمانها، ولكننا إذا قارنا بعض الشواهد بما يتحدث فيه بعض الرواة، رجحنا القول بأنها وقعت فيما بين أواخر القرن العاشر وأوائل القرن الحادي عشر، وهذا ما حملني على القول أنها حدثت منذ بضعة قرون لأن (البضع) في اللغة ما بين الثلاثة إلى التسعة.

بواعث هذه الفتنة وأحداثها: اخْتَلَفَ ذوو المعرفةِ اختلافاً ظاهراً في منشإ هذه الفتنة وبواعثها، التي كادتْ تشمل أطرافاً غير طرفيها، لو بقيا متصديَيْن لبعضهما فترة أطول، فالرواة مختلفون في البواعث، لكنهم متفقون على أن الفتنة وقعت بين فرعي (القعابيب) و (النوامسة) من جهة، وبين عصبة قيل إنَّهم تسعةُ رجال من فرع (المضابرة) من جهة أخرى، والجميع كلهم من قبيلة بني رَشِيْدٍ، والفتنة في جوهرها لا تخرج عن خِلافٍ أعْقَبَهُ سوء تفاهمٍ.

أما عن مجريات أحداثها، فالعارفون بها يقولون: اجْتَمَعَ فرعا القعابيب والنوامسة ذات ليلة لِيُعِدَّا خُطَّةً بمقتضاها يهجمان على عصبة الرجال السالف

ذكرهم بغتة، لينالوا منهم ضالتهم، التي كانتْ مَبْعَثَ فَزَعٍ لهم، كل ذلك يجرى وفي القعابيب امرأةٌ نَاكِحٌ فيهم، هي بنتٌ لأحد الرجال العصبة من المضابرة، وكانت يومئذٍ نُفَسَاءَ، تسمع نجواهم وهم عنها غافلون، فما كان منها بعد أن تيقنت بمَا عقدوا عليه العزم، إلا أن ربطت بطنها بحزامٍ من حبلٍ ليساعدها على ما تحسُّ به من ألمٍ، فهرعتْ مُشمِّرةً عن ساقيها، فأتتْ أباها وعصبتها، فأنبأتْهم بما سمعتْ، وعادتْ من حيث ذهبتْ دون أن يعلم أحدٌ بأمرها.

وبواسطة هذه المرأة عَلِمَ الـمُضَابِرَةُ بأن خصومهم سيبيتون من منتصف ليلتهم بما يسمى ذلك الحين بـ (ضُلَيْع ضالٍ)، ليثبوا منه صباحاً عليهم، ولذا بادر المضابرةُ أنْفُسُهُمْ بالوثوب إلى ــ ضليع ضالٍ ــ ليأخذوا الحذَر والحِيطة مما عُلِمُوا بهِ، فما لبثوا إلاّ وخصومهم يصعدون الضُلَيْعَ باتّجاههم سيراً على الأقدام، فأمهلوهم حتى كادوا يختلطون معهم، عندئذٍ أُطْلِقَتْ النَّارُ عليهم، مما أسفر عن مقتلةٍ مؤلةٍ لكليهما، تمخضتْ حسبما قِيْلَ عن مقتل رجلين وإصابة آخر من المضابرة، وثمانية رجال من الجانب الآخر، وقيل ستة، كما قيل أكثر من ثمانية، والله وحده أعلم بمن قُتِلَ، والنتيجة أن كل، قتيلٍ فيها هو رَشِيْدِيٌ.

هذه الوقعة، غيَّرتْ اسم ــ ضليع ضالٍ ــ ليصبح بعدها يعرف بـ (بضليع الرجاجيل) لكثرة ما قُتِلَ بسفحه من الرجال، وهو يقعُ على مسافة ثمانية أكيالٍ تقريباً غرباً من قريةِ (صُفَيْطٍ)(١). و (ضال) وادٍ تنطلق سيوله من شعاب الضليع، حيث تجتمع بأصلهِ مكونة بذلك وادياً يتجه صوب الشمال حتى يصب في وادي المخروق(٢).

---

(١) انظر عن صُفَيْطٍ المعجم الجغرافي لشمال المملكة لحمد الجاسر ج٢ ص ٧٨١.
(٢) كذلك أنظر عن وادي المخروق نفس المصدر ج٣: ص ٩٥٧ في رسم العوشزي

موقف القبيلة من هذا النزاع: مجتمع القبيلة قديماً كان قائماً على أُسسٍ من الروابط الإجتماعية التي منها يستمد مصدر قوته، من أهمها الرابطة العصبية العرقية، التي يتمسك بها تمسك المرضع برضيعها، وقد اعتاد هذا المجتمعُ أن يعيش حياة البداوة بحلاوة مذاقها ومرارة نكدها، في ظل أعرافٍ وتقاليدٍ قبليةٍ بحتة، تحكم بين مختلف فئاته إذا ما نشب بينها نزاعٌ، وقلَّ أنْ تجد فريقاً لا يجنحُ لحكمها، وإنْ وُجِدَ أحدٌ لا ينصاعُ لها، اعْتَبِرَ خارجاً عن إرادة الكل وقُلِلَ من شأنِهِ.

ومن هنا نرى أن المضابرةَ سكان أبان، وهم جزءٌ من قبيلة بني رَشِيد اضطروا في يومٍ ما للجلاءِ عن ديارِ قومهم، من جَرَّاءِ فتنة أوجزنا شيئاً من خبرها في هذا البحث، بعدما تملك اليأس نُفُوسَهُم، من استحالة حلِّ نزاعهم مع إخوتهم بالنسب والحسب، بالطرق التي تحتكم إليها المجتمعات القبلية قديماً.

ولا شك أنَّ الواجب كان يفرض على القبيلة أنْ تتخذ موقفاً يساعد على فضِّ هذا النزاع، الذي أُخَذَ يضطرمُ ناراً في جزءٍ منها، لكن موقفاً كهذا غير معلومٍ، بل يكتنفه كثير من الغموض، إذ لا نجد ما يُبَيِّنُ لنا ذلك، من نزاعٍ أَوْشَكَ أن يبيد حياةَ عصبةٍ أقليةٍ، لو لم يبادر أفرادها بإبعاد نجعتهم عن أنظار خصومهم بالجلاء المشهور.

لكن الشيء الذي يسترعي انتباه الباحث أن السبعةَ الجلويّةَ ما برحوا شبراً من الأَرْضِ جَالِيْنَ حتى ضَمِنَ لهم فرعُ (الفعور) من المهامزة من بني رشيد ضماناً قاطعاً، بالمحافظة على حياة ذراريهم من بعدهم ورعايتهم، حتى ينهي الله أمراً كان مفعولاً، فكان لهم ذلك، وجاء الجلاء من بعده، حيث اجْتَمَعَ شَمْلُهُم بعد عامٍ من جلوتهم، وهذا يُفَسِّرُ لنا أَنَّ الجلاءَ تمّ بإيعازٍ من رؤساءِ القبيلة وحكمائها، فإن كان هذا هو الموقف، وما أظنه إلا كذلك، فأحسنوا صنعاً.

أما اختيارهم لجبلي أبان بالذات ليكون ملجأً لَهُم، فإنَّ الدخولَ في مثل ذلك قد يجرُّنا إلى حديثٍ أطول ويخرجنا عن صلب موضوعنا، ولكن الذي لا جدال فيه

أَنَّهُ من مآثر الآباءِ والجدود، كبني عبس وفزارة من غطفان، فأتوهُ وهُمُ أعرفُ النَّاسِ بِمَسَالكِهِ.

هؤلاء هم السبعة الجلوية:

١ ــ بدوي: وكان عقيدهم، وإليه ينتسب فرع ذوي بدوي من المضابرة.
٢ ــ حُنَيَّةُ: وإليه ينتسب فرع الحُنَيَّات.
٣ ــ فَدْغان: ويلقب بشقامي، وإليه ينتسب فرع الشُّقْمان.
٤ ــ ذِيْخان: وإليه ينتسب فرع الذَّيْخان.
٥ ــ قُصَّان: وإليه ينتسب فرع القصان.
٦ ــ فَرْحَان: ويلقب بالزقع، وإليه ينتسب فرع الزُّقُوع، وهم اليوم في السلام.
٧ ــ سَلَّامُ: وإليه ينتسب فرع السُّلَّام، و ــ سَلَّام ــ هذا فيه وجهة نظر بين المضابرة أنفسهم، فجمهرتهم يقولون: إن السابع هو (عدوان) بينما يؤكد الباقون أنَّ سلاماً نفسه إحدُ السبعة، وأنا لستُ على بينةٍ من ذلك، لكن المنتسبين اليوم إلى سلام هم أكثر فروع المضابرة عدداً.

وهؤلاء هم الذين لحقوا بهم من نفس لحمتهم:

١ ــ عدوان: وإليه ينتسب فرع العدوان، من المضابرة، وهو المقصود بالكلام تجاه سلام.
٢ ــ زُهَيْمِيل: وإليه ينتسب فرع الزهاميل.
٣ ــ رديفان: وإليه ينتسب فرع الرَّدَافين.
٤ ــ الخرمسان.
٥ ــ السقاريسة.
٦ ــ الأصاليت.

وبعد هذه اللمحة التاريخية المصغرة عن المضابرة سكان (أبان) فإن لي كلمة اختتم بها هذا البحث، وهي أنَّ بواعثَ هذه الفتنة قد وَلَّتْ وزالتْ إلى غير رجعةٍ، ـــ

الصُّعانين من الموهة من مُطَير

كتب إلى مجلة «العرب» الأخ ابراهيم بن عبد الرحمن الصعنوني، في إدارة التعليم في بريدة كتابات مطولة حول أصل أسرته التي ينتمي إليها، وهو من الصعانين ــ واحدهم صعنوني.

ويقول الأخ في كتابه: إن الصعانين هاؤلاء من فخذ الموهة من عَلْوَا من قبيلة مُطَيْر، وقد نزحوا من الأرطاوية هم وأقارب لهم يدعون النمير، بين الأسرتين قرابة وصلة صهر، لا من حيث النسب، فسكن الصعانين في قرية الخضر شرق القصيعة من ملحقات مدينة بُريدة، وأما النمير فسكنوا في النبهانية، ثم نزحوا إلى قرية القرعاء بطريق عيون الجواء.

ومن الصعانين أناس في الرياض وفي بريدة، وذكر الأخ الكاتب أنهم لما نزحوا من الأرطاوية نزلوا قرية طريف الحبل قرب مراة، وأقاموا فترة، حدث في أثنائها حرب سببت انتقال الصعانين وأصهارهم آل نمير.

وآل نمير هاؤلاء من قبيلة عنزة ــ على ما ذكر الأخ إبراهيم ــ

وأشار إلى أن لهم آباراً في قرية طريف الحبل معروفة الآن للصعانين وللنمير.

هكذا ذكر الأخ في كتابه وأشار إلى أن الصعنون أو الصعينين في الرس وفي البدائع وفي عنيزة ليسوا من الصعانين الذين ذكر بل من قبيلة أخرى. هذا ملخص ما ذكر الأخ إبراهيم في كتابه.

← فأصبحتْ الروابط الأسريةَ من جهة الخؤولة وغيرها بين من كانوا قطبي رحاها بالأمس، هي اليوم كالرابطة بين أوردة الشرايين وقلب الإنسان.

الرياض: عطاالله بن ضيف الله الرشيدي

أما قرية طريف الحبل التي أشار إليها فأنا لا أعرف قرية بهذا الإسم. وطريف الحبل ليس قرية ــ على ما أعلم ــ بل كثيب من الرمل ممتد شرق الوشم ويعرف قديماً باسم رمل الرغام.

كما ذكر الأخ إبراهيم أن انتقال أسرتهم من الأرطاوية إلى الخضر في عهد جده عبد المحسن المرزوق المريزيق من حوالي ١٣٠ سنة.

إلا أن الأرطاوية لم تنشأ إلا في سنة ١٣٣٦ هـ على وجه التقريب من أوائل هجر الاخوان التي أنشئت في عهد الملك عبد العزيز ــ رحمه الله ــ فعهد إنشائها لم يمض له أكثر من ٧٠ عاماً.

آل سلطان الحرقان ــ من عبيدة

كتب الأخ سيف بن سعد مدير العلاقات العامة في إمارة عسير إلى مجلة «العرب» ملاحظاً عدم ذكر عشيرة آل سلطان الحُرْقان من عَبِيدة في كتاب «معجم قبائل المملكة». وأشار الأخ إلى أن لشيخ هذه العشيرة سيف بن نورة من الأثر الحميد عند بَدْءِ حكم الملك عبد العزيز ــ رحمه الله ــ حيث جمع قبائل عَبِيدة وغيرها من قحطان بموضع يُدْعَى الآن روضة نُورة في وادي الشَّرَف أحد روافد وادي تَثْليث المشهور، ويسمى ذلك الشرف، شرف الحرقان. وقد سارت تلك العشائر بقيادة ابن راشد ومعهم من مشائخ قبائل قحطان ابن شُفْلُوت وابن نورة إلى بدر الجنوب، وبعد معركة طاحنة تمكن عوض بن سيف بن نورة وأحد قومه وهو سيف بن غانم بن جُرَيذي من آل سلطان من حفر أساس القلعة التي تحصن فيها العدو في بدر، ففتحت وتم الاستيلاء عليها.

هذا أحد المواقف لعشيرة ابن نورة شيخ آل سلطان الحرقان من عبيدة.

هذا ملخص ما كتب به الأخ الكريم أحد أفراد تلك العشيرة، وكان من الأفضل لو فصل لنا جميع أفخاذ قبيلة عَبِيدة بما فيهم الحرقان وهل الحرقان يدعون آل سلطان أم هما عشيرتان؟، أما الإشارة إلى ما لشيوخ القبائل من مآثر حميدة فمرجع ذلك إلى كتب التاريخ، أما كتب الأنساب فهي لا تستقصي ولا تتوسع في مثل هذه الأمور وشكراً للكاتب الكريم.

■ **معجم المطبوعات العربية ـ المملكة العربية السعودية:**

وصدر الجزء الأول من هذا الكتاب الذي يعتبر بِحَقٍّ دراسةً وافية لجميع مظاهر الثقافة في المملكة العربية السعودية منذ منتصف العقد الخامس من القرن الماضي إلى منتصف العقد الأول من قرننا الحالي، تأليف أستاذنا الجليل الدكتور علي جواد الطاهر، وماذا يقول المتحدث عن هذا الكتاب؟ أو ماذا يصف به مؤلفه وهو في علمه وسعة اطلاعه وعمق بحثه ممن لا يزداد بالوصف تعريفاً؟! وما يمكن أن يقال عن هذا الكتاب انه سجل حافل تتبع مؤلفه منابع الثقافة على مختلف

القُبَعة لا (القِيَصة) من حرب

كتب إليَّ الأخ الكريم راضي بن عياد القُبعي الحربي من الفوارة في القصيم كتاباً بتاريخ ١٥/١٠/١٤٠٥ يلفت النظر إلى أنه وقع في كتاب «معجم قبائل المملكة العربية السعودية» ـ ص ٧٥١ ـ السطر السابع في ذكر قبيلة مزينة في فرع بني مسعود، ما هذا نصه:

العُوَنة: (عَوْني) ـ القِيَصة (قِيصي).

والصواب: العونة: (عوني) ـ القبعة (قبعي).

وشكراً للأخ الكريم.

أما الإستيضاح عن الكتب التي تبحث في نسب قبيلة حرب وتاريخها فمنها: ـ

١ ـ كتاب «نسب قبيلة حرب» للأستاذ عاتق بن غيث البلادي وهو مطبوع.

٢ ـ وفي كتاب «الإكليل» ـ جـ ١ ـ للهمداني صاحب «صفة جزيرة العرب» بحث مفصل عن انتقال قبيلة حرب من اليمن وانتشارها بين مكة والمدينة ومحاربتها لقبائل تلك المنطقة حتى اخضعتها.

أنواعها في هذه البلاد، فسجلها في خلال تلك الفترة، ولم يقف عند حدِّ التسجيل، بل أضاف إلى ذلك وَمَضَاتٍ فكرية تلقي الأضواء على كثير من جوانب تلك الثقافة، وتوضح بعض آثار الالتقاءات الفكرية، ومنابعها القديمة والحديثة.

وبالإجمال فهذا الكتاب يعتبر بالنسبة لموضوعه أوفى مرجع وأوثقه، كُتِبَ بأسلوب علمي، بعيدٍ كل البعد عن أي مؤثر من المؤثرات التي اعتاد قراء عصرنا أن يجدوا منها ما يصدف عن الرجوع إلى كثير من مؤلفات هذا العصر.

لقد صدر الجزء الأول من الكتاب يَحْوي مقدمة ضافيةً تقع في ٢٢٢ صفحة، عرض فيها الأستاذ الدكتور بعد سرد الرموز والمختصرات أنه في ١٣٨٣/٥/٢١هـ نزل الرياض متعاقداً للتدريس بكلية الآداب من جامعتها، وكان لابُدَّ من أن يُلِمَّ بشؤون الأدب في هذه البلاد، واسترسل في عرض الطريقة التي سار عليها، ثم أفضت به إلى أن يتوسع في هذا السير ليبرز نتيجته في معجم كامل يحوي نتاج الأدباء والمثقفين والعلماء في فترة حدد أوَّلها من سنة ١٣٤٤هـ، ثم سار يزيد في نهايتها شيئاً فشيئاً، وأوفي الكلام عن ذلك مستعرضاً أهم المؤلفات التي رجع إليها، وكما ورد في الأثر: طالبان مَنْهُومان لا يشبعانِ طالبُ علمٍ وطالب مال، وهكذا سار الأستاذ الدكتور في طريقته في تأليف هذا الكتاب الذي صدر جزءه الأول يحوي بعد المقدمة المعجم المرتب على الحروف من ابراهيم إلى عبد الفتاح.

ووقع في ٦١٨ صفحة بطباعة حسنة ساعدت جامعة بغداد على نشره وطبع في (مطبعة اشبيلية الحديثة)، وهو من منشورات المكتبة العالمية في بغداد، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت.

□ محمد حسن عواد شاعراً:

يسر المعنّي بالنشاط الثقافي في بلادنا أثناء استعراض حركته أن آثاره لا تقتصر على الأدباء والباحثين وحدهم، بل تشاركهم في ذالك أخواتهم من الكاتبات والباحثات، وهن — ولله الحمد — قد أصبحن من الكثْرة بالدرجة التي تعجب وتَسُرُّ. ومن آخر ما وقع في يدي من الدراسات الحديثة، ما كتبته السيدة الفاضلة آمنة

عبد الحميد عقاد عن « محمد حسن عواد شاعراً » ، وهو كتاب جاء في مقدمته أنه أُعِدَّ استكمالاً لمتطلبات درجة (الماجستير) في قسم اللغة العربية – كلية الآداب جامعة الملك سعود – أثناء العام الدراسي (١٤٠١/١٤٠٢) ، مع الإشارة إلى أن هذه الدراسة نشرت بدون تعديل أو حذف أو إضافة .

وبمطالعة أبحاث الكتاب وتصفح صفحاته ، يبدو أثر الجهد الذي بُذل في إعداده ، وهو يحوي أربعة أبواب :

الأول : حياة العواد .

الثاني : شعر العواد وآراؤه النقدية .

الثالث : عالم العواد (أي الموضوعات التي طرقها كثيراً في شعره) .

الرابع : الصياغة الفنية .

وهذه الدراسة تقع في ٤٦٤ صفحة بطباعة حسنة (بمطابع دار المدني في جدة) وصدر عام ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م) .

□ الخطيئة والتكفير:

والحديث عن الأستاذ محمد حسن عواد يجر إلى ذكر معاصره الأستاذ حمزة شحاتة، إذ مضى وقت كان لا يُذْكَرُ اسم أحدهما إلا مقروناً باسم الثاني، والأستاذ حمزة شحاتة تصدى لدراسة شعره باحثٌ سار في دراسته على أسس حديثة، ولم تقف تلك الدراسة عما للأستاذ حمزة شحاتة من شعر، بل شملت كثيراً من أفكاره التي عبر عنها نثراً.

هذا الباحث الذي عُني بأدب الأستاذ حمزة شحاتة هو الدكتور عبد الله بن محمد الغذامي، واسم كتابه الذي حوي تلك الدراسة «الخطيئة والتكفير» – من البنيوية إلى التشريحية قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر –

والواقع أنَّ الدكتور الغذَّاميَّ سلك في دراسته هذه مناهج قد لا تكون غريبة ولا جديدة بالنسبة لذوي الدراسات العميقة في الأدب، إلا أنها بمقارنتها بما اشتهر

من الدراسات الأدبية تعتبر على درجة من الجدة والعمق.

وتقع هذه الدراسة في ستة فصول، **أولها**: البحث عن نموذج، **والثاني**: فلسفة النموذج، **والثالث**: آدم حَيًّا، آدم خطَّاءاً، **والرابع**: انفجار الصمت (تشريح النص)، **والخامس**: المَوَّال الحجازي، **والسادس**: الصوت المجروح، ثم مراجع الدراسة التي بلغت ٨٥ مرجعاً منها ٣٣ بغير اللغة العربية ثم فهرس مجمل مرتب على الحروف لمواد الكتاب الذي وقع في ٣٨٢ صفحة، مطبوعاً بمطابع (دار البلاد) في جدة بطباعة حسنة وصدر عام ١٤٠٥، وقام بنشره النادي الأدبي الثقافي في جدة فكان الحلقة ٢٧ من منشوراته.

□ **الحجاز واليمن في العصر الأيوبي:**

وقامت «تهامة» للنشر بنشر كتاب «الحجاز واليمن في العصر الأيوبي». للدكتور جميل حرب محمود حسين، فكان الحلقة الثلاثين من سلسلة الكتاب الجامعي الذي تصدره «تهامة».

والمؤلف الفاضل أقام في الحجاز أكثر من سبع سنين متنقلاً بين مدنها الثلاث، كما زار صنعاء وبعض مدن اليمن مع تردده على المكتبات المشهورة في القاهرة للبحث عن المراجع التي استقى منها معلومات كتابه الذي تقدم به لنيل درجة (الدكتوراه) وهو يحوي خلاصة مستقاة مما رجع إليه من مختلف المصادر التي بلغ تعدادها في آخر الكتاب أكثر من ١٨٠ مرجعاً ـ عن الموضوع الذي خصص له.

ويقع الكتاب في أربعة أبواب:

الباب الأول: الحياة السياسية في الحجاز واليمن.

والباب الثاني: الحياة الاقتصادية في القطرين المذكورين.

والباب الثالث: الحياة الدينية والفكرية فيهما.

والباب الرابع: عن الحياة الاجتماعية، ثم الخاتمة والملاحق، فقائمة المصادر والمراجع.

ويقع الكتاب في ٢٨١ صفحة مطبوعاً بـ (مطابع السحر) بمدينة جدة.

الاشتراك السنوي
١٠٠ ريال للأفراد و ٢٠٠ ريال لغيرهم
الإعلانات: يتفق عليها مع الإدارة
ثمن الجزء: ١٧ ريالاً

العَرَبُ

مجلة شهرية تعنى بتراث العرب الفكري
صاحبها ومنشئها حمد الجاسر

المراسلات
شارع الملك فيصل هاتف ٤٤٢٢٩١٠
ص ب ١٣٧ الرمز البريدي ١١٤١١
الرياض - المملكة العربية السعودية

ج ١١ و ١٢ الجماديان ١٤٠٦هـ ـ كانون ثاني/ شباط (يناير/فبراير) ١٩٨٦م

البلدانيات الحديثية
من مصادر الدراسات الجغرافية

حين قرأت ما كتبه الأخ الحبيب الأستاذ عبدالله محمد الحِبْشيّ عن رحلة الحافظ ابن حجر إلى اليمن في هذا الجزء من «العرب» ذكرت أنني اطلعت في أحد المؤلفات على كلام منسوب للحافظ يتعلق بضبط اسم (أبي عُريش) المدينة المعروفة في منطقة جازان (المخلاف السليماني). وأنه ضبطه بضم العَيْن، خلافاً لما هو معروف الآن.

وحين راجعت الأخ الأستاذ الحِبْشيّ مستوضحاً: أليس للحافظ بن حجر رحلة مؤلفة يصف فيها ما شاهده في بلاد اليمن؟، وذكرت له ما قرأته من الكلام المنسوب إليه، نفى الأستاذ الحبشي علمه بكون ابن حجر ألف عن رحلته، وقال: لعل اسم أبي عريش ورد في أُخذ مرويّات ابن حجر فيما يسمى (بالبلدانيات)

وكان لديَّ نسخة مصورة من «بلدانيات السخاوي» أكرمني الأستاذ الباحث المحقق أبو عبد الرحمن بن عقيل بتلك النسخة، كنت استفدت منها حين نشرت رسالة ابن فهد «حسن القرى في ذكر أودية أم القرى» في مجلة «العرب» ـ س ١٨ ص ١ وما بعدها ـ ونقلتُ من مقدمتها كلام مؤلفها عن أول من ألف في البلدانيات، وهي الأحاديث النبوية التي رواها علماء منسوبون إلى بُلْدان متعددة،

وأنه عتيق بن علي بن داود السمنطاوي الصِّقلِّي المتوفي سنة ٤٦٤هـ تلميذ الحافظ أبي نعيم الاصبهاني.

ثم رجعتُ هذه الأيام إلى مطالعة الكتاب (بلدانيات السخاوي) فرأيت فيه مما يفيد الباحثين في معرفة ما تتصف به أشهر البلدان الإسلامية في القرن التاسع الهجري، مما هو جدير بالاهتمام والدراسة، بحيث يعتبر من المراجع التي لا يستغني عنها من يهتم بوصف البلدان ودراسة أحوالها.

وقد رأيت من المناسب أن أُقدِّم للقاريء نماذجَ مما تحدث به السخاويُّ عن عدد من المدن المشهورة في أقطار العالم الإسلامي حسبما شاهدها في عصره.

ومن المعروف أنَّ الحافظ السخاويَّ ولد سنة ٨٣١هـ في مدينة القاهرة وتوفي سنة ٩٠٢هـ في المدينة المنورة، وأنه قام بسياحة في كثير من البلدان الإسلامية، وله مصنفات كثيرة أشهرها «الضوء اللامع» و «التحفة اللطيفة في أخبار المدينة الشريفة». وقد ترجم نفسه في «الضوء».

والحافظ السخاوي ممن عُنِيَ بعلم الحديث النبويِّ، فهو حينما يورد الحديث الذي يرويه يُتْبِعُهُ بذكر من خَرَّجَهُ، ويورد مختلفَ الروايات فيه، وما يتصل به من الآثار مما يهتم به الدارسون للحديث النبوي الشريف.

وقد بدأ كتابه بذكر خَمْسِ مُدُنٍ ذات فضائل مشهورة في العالم الإسلامي، لم يُرَاعِ في إيرادها ذكرها في مواضعها بحسب ترتيب الحروف، بل قدَّمها لفضلها، ثم اتبعها بالبلدان مرتبة على الحروف، فبدأ باسم (اسكندرية) واستمر في الترتيب حتى كان آخر ما ذكر (ينبع) وهو البلد الثمانون، قال عنه: البلد الثمانون: يَنْبُعُ وهي بفتح المثناة التحتانية وضم الموحدة ـ وقد تُشْبَعُ[1] ـ ثم عين مهملة: قرية كبيرة من بلاد الحجاز، قريبة من المدينة الشريفة، بينها سبع مراحل، بها حصن وعيون جارية حلوة طيبة، وحدائق وبساتين، وينزلها الحجيج المصريُّ ذهاباً وإياباً ولها فُرْضَةٌ على البحر، على مرحلة منها، وبِقُرْبِهَا جبل رَضْوَى مُطِلٌّ عليها من شرقها، يحمل منه حجر الـمِسَنِّ إلى سائر الأقطار، وأكثر سكانها أو الكثير منهم

زَيْدِيَّةٌ شُرَفَاءُ من بني حَسَنٍ، سُمْرُ الألوان، ويقال: إنَّ بها وقفاً لعلي ـ رضي الله عنه ـ يتولاه أولاده، وهي ممن سمع بها شيخنا(*) وشيخه، وحدث بها الولي العراقي بقراءة الشرف المناوي، وكذا سمع بها أبو حيان ومسعود الحارثي الحنبلي على عبد السلام بن محمد بن مَزْرُوعٍ المدني، وكنتُ ممن سمع بها الحديث ممن أوردتُ حديثَه في (العقبة)، وكذا في (سرياقوس) ولقيت بها الشيخ علاء الدين علي بن أحمد بن محمد الشيرازيَّ ثم المكي الشافعي فسمعت من لفظه خطبة شرحه على «الحاوي» وشيئاً من أول تفسيره، وأشياء من تصانيفه، وغير ذلك مما لم يَتَهَيَّأْ لي الآن إيرادُ شيْءٍ منه، وأخبرني أبو الفضل بن أحمد الأزهري وكان جاري في النزول بها حين توجهنا إلى مكة، وغيره بغيرها عن أبي العباس أحمد بن عثمان الحنفي.

ح(٢) ـ وأخبرني عالياً العِزُّ عبد الرحيم بن محمد كلاهما عن الْعِزِّ أبي عمر بن جماعة فيما أنشد لنفسه:

اعـذُرْ أخَـاكَ إذَا وَافَى بِمُنْكَـرَةٍ ... فَهَلْ رَأَيْتَ صَدِيقاً مالَهُ زَلَلُ؟
وَهَلْ رَأَيْتَ صَفَاءً ما بِهِ كَدَرٌ؟ ... ضَوْءُ السِّرَاجِ لَهُ التَّدْخِينُ يُحْتَمَلُ

ستر الله عيوبنا وغفر ذنوبنا وجمعنا مع أحبابنا وأهالينا في مستقر رحمته، وصلى الله على أشرف خلقه سيدنا محمد وسلم تسليماً كثيراً. انتهى.

وسأورد بعضَ ما ذكر من البلدان مرتباً حسب ترتيبه، ولا أُطِيلُ بذكر ما لا يَتَّصِل بتلك البلدان:

١ ـ البلد الأول: جُدَّةُ: وقُدِّمَتْ للضرورة وهي ـ بضم الجيم وتشديد الدال المهملة، ثم هاء ـ بُلَيْدَةٌ بشاطيء البحر على مرحلتين من مكة بينهما أربعون مِيلا، وهي مَرْسَاتُها، وفُرْضَتُهَا بل ساحلُها الأعظم، ومنها يركب المسافر في البحر إلى البلاد، وأول من جعلها ساحلاً عثمان ـ رضي الله عنه ـ بعد استشارته الناس في ذلك لَمَّا سُئِل فيه في سنة ست وعشرين من الهجرة، وكان ساحلُ مكة قبل ذلك الشُّعَيْبَة، ويُروى في فضلها مما لا يَصِحُّ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ مرفوعاً: يأتي على الناس زمانٌ يكون أفضل الرباط رباطُ جدة، وعن علي ـ رضي الله عنه

ـ رفعه أيضاً: أربعة أبوابٍ من أبواب الجنة مفتَّحَةٌ في الدنيا أولهنَّ الاسكندرية، وعسقلان وقَزْوِيْنُ وعَبَّادَانُ، وفَضْلُ جدة على هاؤلاء كفضل بيت الله الحرام على سائر البيوت، ذكرهما ابن الجوزي في «الموضوعات» وعن عَمْرِو بن شُعَيْبٍ عن أبيه عن جده رفعه أيضاً: مكة رباطٌ، وجُدَّةُ جِهَادٌ، أخرجه الفاكهي، وسنده ضعيف جداً، وهو عنده عن ابن جريج من قوله، وقال ابن جريج عَقِبَه: وإني لأرجو أن يكون فضل المرابط بها على غيرها كفضل مكة على سائر البلدان، وعنده أيضاً من جهة ابن جُرَيْجٍ عن عطاء قال: إنَّما جُدَّةُ خزانة مكة، وإنما يؤتي به إلى مكة، ولا يخرج به منها، ومن جهة ضَوْءِ بْنِ فَجْرٍ، قال: كنت جالساً مع عبَّادِ بن كثير في المسجد الحرام فقلت: الحمد لله الذي جعلنا في أفضل المجالس، وأشرفها، فقال: وأين أنت عن جدة؟ الصلاة فيها سَبْعَةُ عشر ألف صلاة، والدِّرهم فيها مِئَةُ أَلْفٍ، وأعمالها بقدر ذلك، يغفر للناظر فيها مَدَّ بصره. قلت: رحمك الله مما يلي البحر؟ فقال: مما يلي البحر. ومن جهة عُبَيدالله بن سعيد بن قِنْدِيلٍ قال: جاءنا فرقد السَّبَخِي بِجُدَّةَ فقال: إني رجل أقرأ هذه الكتب، وإنِّي لأَجِدُ فيها أنزل الله عز وجل من كتبه: جُدة أَوْ جُدَيْدَة يكون بها قَتْلَ وشهداءُ لا شَهيد يومئذ على ظهر الأرض أفضل منهم(٢)، وذكر ابنُ جُبَير(٣) أنه رأى بها أثر سور مُحْدِقٍ بها، وأنه كان بها موضع فيه قبة مشيدة عتيقة، يُذْكَر أنها منزل حَوَّاء أُمّ البشر، زوج آدم ـ عليهما السلام ـ فلعله المكان الذي يقال له الآن قبر حواء، وقد قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ كما عند الفاكهي: إنَّ قبرها بجدة، ومما ذكره ابنُ جريج: أن بها مسجدَيْنِ يُنْسَبَانِ لعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقال لأحدهما مسجد الأبنوس، لساريَتَيْنِ فيه من خشب الأبنوس، وهو معروف إلى الآن، وأما الآخر فيمكن أن يكون هو المسجد الذي تقام فيه الجمعة بها، وهو من عمارة المظفر صاحب اليمن فيما قيل(٤)، وهي من البلاد التي سمع بها الطبرانيُّ على بعض شيوخه، وأبو حَيَّان عَلَى أحمد بن محمد بن الحسن الحرازيِّ الزَّبِيدي، وكذا شيخنا(*)، وإليها ينسب جماعة منهم أحمد بن سعيد بن فرقد، وجابر بن مرزوق أبو عبد الرحمن، وحفص بن عمر بن عبدالله، وعبد الملك بن ابراهيم، وعلي بن محمد القطان شيخ لأبي محمد الأكفاني.

وفي الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من ينسب الجَدّي ـ بفتح الجيم لكون في بعض أجداده من اسمه الْـجَدُّ، وكذا في الألقاب الـجُدَيُّ ـ بضم الجيم وفتح المهملة وتثقيل الياء ـ لسعيد بن عُبْدوسٍ الأندلسي، بل وفي الأسماء عدة كذلك، والله الموفق.

ثم أورد الحديث النبوي الشريف: «الراحمون يرحمهم الرحمن».

وفي آخر الفصل أورد من شعر شيخه أبي الحسن علي بن ابراهيم قوله:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَرَى قُبَّةً بِها حَبِيْبٌ لِـرَبِّ العالمـين رَسُـولُ؟
محمدٌ المختارُ من نَسْلِ هاشِمٍ وهَلْ لِي إلَى تِلْكَ الدِّيَارِ وُصُولُ؟

٢ ـ البلد الثاني: مكة: وهي بلدةٌ شريفةٌ متَّسِعَةٌ، فضائلها متنوعة، في بطن وادٍ، لعظم بركته يتسارع إليه العباد، مُحْدِقٌ بها جبال، هي لها كالسُّور العال، وفيها بيت الله الحرام، الذي تُحَطُّ عن قاصده الأوزار والآثام، ويأمن في المخاوف داخلُهُ، ولا تُرَدُّ مسائلهُ ورسائِلُه، وهو قبلة المسلمين أحياءً وأمواتاً، ونِحْلَةُ الملبِّين جمعاً وأشتاتاً، وقد قرأت الحديث فيه، وفي الحِجْرِ، ومقام سيدنا إبراهيم الوجيه، وبمقام الحنفية المكرم، وعلى شفير زمزم المعظم، وبسقاية سيدنا العباس، وعلى جبل أبي قُبَيْسٍ بدون إلْبَاس، وبالمكان المأثور لمولد المصطفى، وغيرها من الأماكن فخراً وشرفاً، يسر الله إلى الْعَوْدِ إليها سبيلاً، ونَشَرَ على أهلها ظِلّاً ظَليلاً.

أخبرني الإمام الثقة أبو الفتح محمد بن أبي بكر بن الحسين المدني الشهير بالمراغي فيما قرأتُ عليه بالمسجد الحرام تجاه الكعبة ـ زادها الله تعالى شرفاً وتعظيماً ـ وأبو الفتح محمد بن عمر القاهري إذْناً، كلاهما عن الإمام الحافظ البهاء أبي محمد عبدالله بن محمد بن أبي بكر بن خليل ـ وساق السند ـ

ثم أورد حديث: «يا بني عبد مناف إنْ وَلِيْتُم من هذا الأمر شيئاً فلا تمنعوا أحداً طَافَ بهذا البيت فصلَّى أيَّ ساعةٍ شاء، من ليل أو نهار».

ثم تكلم على هذا الحديث بتوسُّعٍ.

٣ ـ البلد الثالث: المدينة: وهي التي إليها هاجر الرسول، وبها قبره الشريف المشتمل على كل خير منقول، والثابت في شريف السنة: أنَّ ما بينه وبين منبره روضةٌ من رياض الجنة، وفي تربتها وحيطانها وهوائها من الرائحة الطيبة مالا يَتَنَاهَى، ولذا كان طابةُ وطيبة والمطيبة من أَسْمَاءِهَا ليطابق ذلك مُسَمَّاها، وهي محروسةٌ عن الأعورِ الدجَّال، ومأنوسة على مَرِّ الأيام والليال، مَنْ أحدث فيها حَدثاً أو آوَى بها مُحْدِثاً فهو ملعون، مستحق للشديد من العذاب الْـهُون، وبمزيد البركة فيها دَعَا الشارع، وشُوهد بها منها ما تَقَرُّ بِهِ العيون، وتَلَذُّ بذكره المسامع، وقد قرأتُ الحديث هناك تجاه الحجرة المعظمة، وتشرفت بذاك أيضاً في عدة من أماكنها المحترمة، حققَ الله لنا إليها الرجوع، ووفق لسلوك تلك المعاهد والربوع.

أخبرني الإمام البدر عبدالله بن محمد بن عبدالله اليَعْمُرِيُّ المغربي المدني قاضيها المالكي، ويعرف كاسلافه بابن فَرْحُون، بقراءتي عليه بالمسجد النبوي تجاه الحجرة الشريفة على ساكنها ــ أفضل الصلاة والسلام.

وأورد بسنده الحديث النبوي: «إنكم ستجندون أجناداً، فَجُنْداً بالشام وجُنْداً بالعراق وجنداً باليمن» إلى آخر الحديث الذي اتبعه بيان طُرُقه ومختلف رواياته.

٤ ــ البلد الرابع: بيت الْـمَقْدِس: واسمه أيضاً إِيْلِيَا، وهو بلد فضائله لا تستقصى، وشمائل بهجتها زائدة بمسجدِهِ الشريف الأقصى، ثالث الحرمين، وثاني المسجدين، وأول القِبْلَتَيْن، ذِي الصخرة المعظمة، والقُبَّةِ النضرة المحترمة، لا تُشَدُّ الرِّحَالُ بعد المسجدين إلا إليه، ولا تُعْقَدُ الخناصر بعد الموطنَيْن إلا عليه، به صلى الرسولُ بالأنبياء عليهم السلام ليلة الإسراء، وعُرِجَ به منه إلى السماء بدون شَكٍّ وامتراء، الصلاة فيه مع الإخلاص، وعدم الاشتباه، تَفْضُلُ عليها في غير المسجدين بخمس مئة أو بألف صلاة، ولشرفه سأل الكَلِيمُ مُوسى ــ عليه السلام ـ عند وفاته رَبَّهُ، الدُّنُوَّ منه ليفوز بتلك القربة، بل استوطنه وَوَرَدَهُ خلْقٌ من الأنبياء والصحابة والأعيان، جديرون بإفرادهم في ديوان، وكنت مِمَّنْ تشرف بسلوكه، وتعرَّفَ بالأَخْذِ عنْ أجلاَّءِ السَّنَدِ فيه وملوكه، تفضل الله الكريمَ بالعَوْدِ إليه، وتَطَوَّلَ بما الـمُعَوَّلُ في تحقيقه عليه.

أخبرني الشيخان الإمام التقي أبو بكر وأسماء ابنا محمد بن إسماعيل القلقشندي، ببيت المقدس، قلت لهما: أخبركما الشهاب أبو الخير أحمد بن الحافظ أبي سعيد العلائي سماعاً للمرأة وإذْناً إن لم يكن سماعاً للآخر ــ وساق السند ــ

ثم أورد الحديث عن ميمونة مولاة لرسول الله ﷺ قالت: قلت يا رسول الله أَفْتِنَا في بيت المقدس، فقال ﷺ: «ائْتُوه فَصَلُّوا فيه» قالت: فكيف والروم إذْ ذَاكَ فيه؟. قال ﷺ: «فإن لم تستطيعوا فابعثوا بزيتٍ يُسْرَجُ في قناديله».

ثم أورد آثاراً وأخباراً تتصل ببيت المقدس.

٦ ــ البلد الخامس: بلد الخليل: ويقال له حَبْرُون ــ بفتح المهملة ثم موحدة ساكنة ثم راء مهملة وآخره نون ــ وهو في وَهْدَةٍ بين جبال كثيفة الأشجار بيقين، أغلب فواكهها الزيتون والخرنوب والتين، وبينه وبين القدس بدون إشكال، ستة أميال، وإنما أضيف للخليل أبي الأنبياء الكرام لشرفه بكونه محلاً لدفنه مع ولده اسحاق وحفيده يعقوب ــ عليهم الصلاة والسلام ــ وكذا لِدَفْن زوجته الصدِّيقة أم اسحاق، المتوفية قبله باتفاق، بل كل ذلك مما تلقاه الجيل بعد الجيل، من زمن بني اسرائيل، وإلى هذا الوقت بدون تبديل، وانهم في المربَّعة التي بناها السيد سليمان، وهي المغارة التي اشتراها الخليل من قرية حبرون بأرض كنعان، وهو محلٌ شريف، مفضل منيف، خصوصاً تلك المربعة، المتضمنة للقبور الشريفة الأربعة، على وجه الإجمال لا التعيين الـمُزيل للاحتمال، ولذا كان المتعيِّن في جميعها الإجلال، وصون كل موضع منها عن أن تدوسَهُ النساء والرجال، وقد قرأت الحديث بتلك البقعة، راجياً بركة ذلك ونفعه، وشهدتُ ذلك السِّماط المأنوس، وودت التفضل من الرب سبحانه بإدراك الاغتباط بالْـعَوْدِ لهذا المحل المحروس.

أخبرني المقرىء الخيِّرُ صلاح الدين خليل بن أحمد بن عيسى بن العلامة صلاح الدين القيمري الكردي الخليلي بقراءتي عليه بمسجدها الشريف.

وروى بسنده إلى كعب بن عجرة ـ رضي الله عنه ـ قال: لما نزلت ﴿إنَّ الله وملائِكَتَهُ يُصَلُّون علَى النبيِّ يا أيها الَّذِينَ آمنوا صَلُّوا عليهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ قلنا:

يا رسول الله قد علمنا السلام عليك فكيف الصلاة عليك؟ قال ﷺ: «قولوا اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد».

ثم بعد أنْ أكمل الكلام على طرق هذا الحديث، وذكر من خَرَّجَه، بدأ بسرد أسماء البلدان التي تلقّى فيها الحديث والآثار مرتبة على حروف المعجم، فعدَّ من بلدان مصر خمسة وأربعين بلداً هي: اسكندرية وأنبابة وبرطس وبركة الحاج وبَلْبَيْس وبولاق وتَرْسا وتَفَهْنَا وجزيرة الفيل والجزيرة الوسطى والجيزة والخانقاه السِّرْيَاقُوسِيَّة (شرقي مصر) والخطَّارة، ودسوق ودمياط ودنجية، وأم دينار ورشيد وسِرْس، وسرياقوس وسمنُود، وشبرا الخيمة، وصالحية القاهرة، والطالبية وطنان وعمريط، وفارسكور وفُوَّة وفيشا الصغرى، والقاهرة، والقرافة وقليوب وكوم الرِّيش والمحلة والمرج ومصر ومنشأة المهراني، والمنصورة وَمنُوف ومنية الأمراء[٥] ومنية الرُّدَيْني، ومنية عسَّاس، ومنية عُقْبَة، ومنية نابت وَوَسِيم.

وذكر من البلاد الشامية (سورية وفلسطين ولبنان والأردن) أربعةً وعشرين بلداً منها بيت المقدس وبلد الخليل اللذان تقدم ذكرهما، والباقي هي: أطرابلس (طرابلس) وبَرْزة وبعلبك وجبرين وحلب وحماة وحمص وداريًّا ودمشق والرملة والزَّبَدَاني وسرميس، وصالحية دمشق، والطُّور، وعقبة ايلة وغزة وقَطْيَا وكفر بطنا والـمَجْدَل والـمِزَّة، ومعرة النعمان ونابلس.

أما بلاد الحجاز فقد بدأ بثلاثة منها هي المدينتان الكريمتان وجُدَّة، ثم اتبعها بذكر ثمانية مواضع هي بحسب ترتيبها الأبجدي: بَدْرٌ والجِعْرانة وخُلَيص ورابغ والطائف، وعرفات ومِنًى وينبع.

وسأكتفي الآن بعرض كلام المؤلف عن المواضع الواقعة في الحجاز في هذا العرض الموجز، قال:

البلد التاسع: بَدْرٌ: وهي قرية شهيرة بين مكة والمدينة، بل هي إلى المدينة أقرب

بكثير، سُمِّيَتْ ـ فيما قيل ـ باسم بئر نُسبت لبدر بن مَخْلَدِ بن النضر بن كنانة لنزوله به، أو لبدر بن الحارث، أو لأنه لاستدارته وصفاء مائِهِ كأنَّ البدر يجري فيه، وقال الواقديُّ فيما حكاه عن غير واحد من شيوخ بني غِفَار: إنه ما ملكها أحدٌ قطُّ يقال له بدر، بل هي ماؤنا ومنازلنا، وإنما هو عَلَمٌ عليها كغيرها من البلاد. انتهى.

وفيها كانت الغزوة الشهيرة المختص كلُّ من شهدها من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بمزيد الفخر، ويقال: إنَّ قبور المستشهدين فيها إذْ ذاك بالقرب منها، من جهة المغرب، بل هناك فيما قيل أيضاً: موضع يُذْكر بأثَر قدم النبي ـ ﷺ ـ وأثر ناقته، وماؤُها حلوٌ، وبها بساتين وحدائق، والنِّسْبَةُ إليها بَدْرِيٌّ.

أخبرني الإمام الكمال محمد بن عبد الواحد السكندريُّ الأصل فيما قرأت عليه ببدر.

وساق سنده إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يتعوَّذُ من خمسٍ، من البخل والجبن وفتنة الصدر وعذاب القبر وسوء العمر.

ثم أورد كلام علماء الحديث عن مرتبته من حيث الصحة.

البلد الحادي والعشرون: الجِعْرانة: وهو بالكسر مع سكون العين وقد تكسر لكن مع تشديد الراء كما لابن وهب، وأكثر المحدِّثين، والأول للشافعي والأصمعي ومحققي المحدِّثين وغيرهم، قال صاحب «المطالع»: وكلاهما صواب ـ: وادٍ في الحلِّ بين الطائف ومكة هو إليها أقرب، أحرم منه النبي ـ ﷺ ـ في ذي القعدة حيث قسم غنائم حُنَيْنٍ، ولذَا كان أفضلَ بقاع الْحِلِّ، وقرأت هناك «الإبانة فيما ورد بالْجِعْرانة» على مؤلفه رحمه الله تعالى(٦) إذْ رَحَلْتُ من مكةَ إليها بقصد الاعتمار.

وأخبرني بها أبو محمد عبد الرحيم بن الإمام أبي إسحاق إبراهيم بن محمد اللَّخْمي بقراءتي أنبأنا أبي، أنبأنا أبو النون الدبوسي عن أبي محمد عبد المنعم بن رضوان، أنشدنا أبو القاسم السُّهيلي لنفسه إجازة من المغرب مما كتبه عنه أبو

الخطاب بن دِحْيَة الحافظ وذكر قائلُها أنه ما سأل الله بها أحدٌ شيئاً إلا أعطاه اياه:

يَا مَنْ يَرَى مَا فِي الضَّمِيرِ وَيَسْمَعُ ... أَنْتَ الْمُعَدُّ لِكُلِّ ما يُتَوَقَّعُ
يَا مَنْ يُرَجَّى لِلشَّدَائِدِ كُلِّهَا ... يَا مَنْ إِلَيْهِ الْمُشْتَكَى والْمَفْزَعُ
يَا مَنْ خَزَائِنُ رِزْقِهِ فِي قَوْلِ (كُنْ) ... أُمْنُنْ فَإِنَّ الْخَيْرَ عِنْدَكَ أَجْمَعُ
مَالِي سِوَى فَقْرِي إِلَيْكَ وَسِيْلَةٌ ... وَبِالإِفْتِقَارِ إِلَيْكَ فَقْرِي أَدْفَعُ
مَالِي سِوَى قَرْعِي لِبَابِكَ حِيلَةٌ ... فَلَئِنْ رَدَدْتَ فَأَيُّ بَابٍ أَقْرَعُ؟
ومن الَّذِي أَدْعُو وأَهْتِفُ بِاسْمِهِ ... إِنْ كَانَ فَضْلُكَ عَنْ فُقِيرِكَ يُمْنَعُ
حَاشَا لِجُودِكَ أَنْ تُقَنِّطَ عَاصِياً ... الْفَضْلُ أَجْزَلُ وَالْمَوَاهِبُ أَوْسَعُ

انتهى ما ذكره في هذا الفصل بحيث لم يورد حديثاً نبوياً.

البلد الثامن والعشرون: خُلَيْص: ـ وهي بمعجمة مضمومة، ثم لام وصاد مهملة بينهما مثنَّاة تحتانية ـ: قرية من أرض الحجاز، قريبةٌ من قُدَيْدٍ بل على مرحلتين فأكثر من مكة بها عينُ ماءٍ طيِّبٍ حُلْوٍ صَافٍ، وبركةٌ هائلة، تنسب عِمارتها لأرغون الدَّوادَار، نائب السلطنة بالديار المصرية في أيام الناصر محمد بن أستاذه قلاوون، وأَظُنُّهُ إنْ صَحَّ كان في سنة عشرين وسبع مئة فما بعدها، لأنه حج في هذه السنة ومشى وهو بهيئة الفقراء مُتَمَسْكِناً، من مكة إلى عرفة(٧)، وقد جددها بعد السبعين سلطانُ الوقت(٨) تجديداً حسناً، وأجرى العَيْنَ إليها، بل وعمر بجانبها مَسْجِداً متسعاً ـ جزاه الله بحسن قصده خيراً.

وقد سمع بها شيخُنا رحمه الله تعالى واقتفيت أثره في ذلك.

أخبرني بها محمد بن النجم القاضي، وبالديار المصرية التقيُّ ابنُ الكمال الحنفي قراءةً.

وأورد بعد السند هذا الأثر: قال علي بن الفُضَيل بن عياض لأبيه: يَا أبتِ ما أحْلَى كلاَم أصحابِ محمد ﷺ ـ. قال: يا بني أو تدري لِمَ حلا؟ قال: لا. قال: لأنهم أرادوا به الله تبارك وتعالى. انتهى ما ذكره في هذا البلد.

البلد الخامس والثلاثون: رابغ: ــ وهي براءٍ مهملة وموحدة ثم غين معجمة بوزن فاعل ــ: بين بدر وخُلَيْصٍ، من نواحي الحجاز، قريبة من البحر، بينها وبين مكة خمسة مراحل أو ستة، وهي ميقات الحجيج المصري، ومن يشركهم، لمحاذاتها للجُحْفَةِ المسماة أيضاً مَهْيَعَة ــ بوزن عَلْقَمَة ــ ميقاتهم وكذا الشاميين، ويُنْصَبُ برابغ سوقٌ عظيم وماءُ حفائرِها حُلْوٌ لكنه ثقيل.

أخبرنا بها أبو محمد بن أبي أحمد المقريءُ بقراءتي عن أحمد بن أبي الفضل وأبي الخير الدمشقي مشافهة منها.

(ح) وأخبرني عالياً عبد الرحمن بن عمر اللخمي في كتابه.

وساق بالسند إلى أنس ــ رضي الله عنه ــ قال: إن الرُّبَيِّعَ عمته لطمتْ جاريةً فكسرت سنها، فعرضوا عليهم الأَرْشَ فأبوا، فطلبوا العفو فأبوا، فأتوا النبي ــ ﷺ ــ فأمرهم بالقِصاص، فجاء أخوها أنس بن النضر فقال: يا رسول الله أَتُكْسَرُ سِنُّ الرُّبَيِّع؟ والذي بعثك بالحق لَا تُكْسَرُ سِنُّها، قال ﷺ: «يا أنس كتاب الله القصاص». فعفا القوم، فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ من عباد الله من لو أقسم على الله لأبَرَّهُ».

ثم ذكر منزلة الحديث وبعض رواته وذكر من خرجه.

البلد السابع والأربعون: الطائف: ــ وهي بفتح الطاء المهملة وكسر المثناة التحتانية وآخرها فاء: مدينة على اثني عشر فرسخاً من مكة، كثيرة الفواكه والمياه الطيبة، طيبة الهواء، أَبْرَدُ مكان بالحجاز، وربما جمد الماء في ذروة غَزْوان الجبل التي هي على ظهره وأكثر ثمرها الزبيب، حاصرها رسول الله ــ ﷺ ــ بعد فتح مكة لما فرغ من حُنَيْنٍ، واستشهد معه فيها غير واحدٍ من المهاجرين والأنصار، ويُنسب إليه بها عدة آبار منها بناحية لِيَّةَ بئرٌ يقال إنه ﷺ شرب منها، وشُهْرتها بالفضل تُغْني عن الإطالة بشرحه، ويروى في سبب تسميتها أنَّ جبريل ــ عليه السلام ــ اقتلع قريةً من الشام ثم طاف بها بالبيت أسبوعاً، ثم وضعها إجابة لدعوة إبراهيم الخليل ــ عليه السلام ــ لما قال: ﴿وارزقْ أهلَهُ من الثَّمراتِ﴾ وبها

مات ابن عباس ومحمد بن الحنفية وغيرهما من السادات ــ رضي الله عنهم ــ ، وأكثر من نزلها ثَقِيف، واعتزل بها المغيرة بن شعبة، وكذا أقام فيها الحكم بن أبي العاص عَمُّ عثمان بن عفان ــ رضي الله عنهما ــ ووالد مروان، بإرسال النبي ــ ﷺ ــ به إليها، فاستمر إلى خلافة عثمان، فأعاده إلى المدينة حتى مات، ولم يزلْ أهلُ مكة وغيرها يرحلون إليها للزيارة والنزهة، وانتسب إليها جماعة قديماً وحديثاً، ويروى: صيد وَجٍّ وعِضَاهُهُ حرام ومحرم، ووجٌّ موضع بناحية الطائف، وقيل: هو اسم لحصونها، وقيل: اسم واحد مخصوص منها[٩] ولذا قال الـحُمَيْديُّ: إنه هو الطائف، وعن سعيد بن المسيب: وَجٌّ وادٍ مقدَّس، وكذا جاء عن كعب، وتحريمه يحتمل أن يكون على سبيل الحِمَى له، ويحتملُ أن يكون حَرَّمهُ في وقت معلوم، ثم نسخ. قاله ابن الأثير.

أخبرني الشيخ أبو القاسم بن أبي أحمد الهاشمي بقراءتي عليه في القبة المباركة تجاه ضريح ابن عباس ــ رضوان الله عنهما ــ من الوادي المقدَّس، عن أبي بكر بن الحسين العثماني.

ثم ساق السند إلى محمد بن موسى البصري قال: كان أحمد بن المعذَّل ــ رحمه الله ــ إذا حَزَبَهُ أمْرٌ قام من الليل يُصَلِّي ويأمر أهله بالصلاة ويتلو هذه الآية ﴿وأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاَةِ واصْطَبِرْ عَلَيْهَا لاَ نَسْأَلُكَ رِزْقاً، نَحْنُ نَرْزُقُكَ والْـعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾.

ثم يُنْشـــد:

أَشْكُــو إليـكَ حَــوَادِثـاً أَقْلَقَتْنِي ... فَتَـرَكْتَنِي مُتَــوَاصِـلَ الأَحْــزَانِ
مَنْ لِي سِوَاكَ يَكُونُ عِنْدَ شَدَائِدي ... إنْ أَنْتَ لم تَكْلأْ فمن يَكْلاَني؟
لَــوْلاَ رَجَـاؤُكَ والَّــذِي عَـوَّدتَّنِي ... مِنْ حُسْنِ صُنْعِكَ لاَسْتُطِيرَ جَنَانِي

وشافهني المذكور عن الجمال محمد بن علي بن محمد القرشي الشيبي[١٠] قوله:

يــا أيّهــا الــطَّائِفُ في حَيِّـهِمْ ... دَمْعِي غَـدَا كـالْـمِـطَرِ الـواكِفِ
مُــذْ غِبْتَ عَنْ عَيْنِي فـأوْحَشْتَنِي ... فَصِحْتُ وَاشَـوْقِي إلَى الطَّائِفِ!

البلد الخمسون: عرفات: وعرفة: اسم موضع الوقوف، قيل: سميت بذلك لأنَّ آدم عَرَف حَوَّاء ـ عليهما السلام ـ هناك وقيل: لأنَّ جبريل عرَّف إبراهيم ـ عليهما السلام ـ فيها المناسكَ وقيل: لاعتراف الناس فيها بذنوبهم، وسؤالهم غفرانها، وقيل: لغير ذلك. وجُمِعَتْ وإنْ كان موضعاً واحداً لأنَّ كُلَّ جزء منها يسمى عرفة، ولهذا كانت مصروفةً كقصباتٍ، قال النحاة: ويجوز ترك صرفه كما يجوز في أَذْرِعَاتٍ ونحوها على أنها اسم مفرد لبقعةٍ ولذا كما حكاه النووي قُرِيءَ ﴿فإذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَات﴾ بفتح التاء بدون تنوين، وقد عمر سلطان الوقت عينها بعد انقطاعها دَهْراً حتى جرت، ووصل الماء إليها في سنة خمس وسبعين[١١]، وكذا أصلح فساقِيَها وقُبَّتَها وأعلامها مع مسجد نمرة منها، بل وعمل بها صِهْرِيجاً، إلى غير ذلك من المآثر التي شرحت في محلٍّ آخر مما عَمَّ الانتفاع به، وكثرت فيها المياه جداً بعد عِزَّتها، جُوزي على ذلك خيراً، وممن سمع بها الذهبيُّ. أخبرني الوالد رحمه الله بها في آخرِيْنَ بغيرها عن أبي زُرعة بن عبد الرحيم الحافظ إذناً (ح) ـ وأخبرني بِعُلُوٍّ العز أبو محمد الحنفي كلاهما عن العز أبي عمر بن جماعة قال الأول سماعاً: أنبأنا أبو الفضل بن عساكر عن أم المؤيد زينب ابنة أبي القاسم الجرجاني، أنبأنا العلامة أبو القاسم الزمخشري أنشدنا أحمد بن محمد إسحاق الخوارزمي، أنشدنا أبو سعيد المحسِّن بن محمد الجشمي في كتاب «جلاء الأبصار في الأخبار» أنشدنا الحاكم أبو الفضل إسماعيل بن محمد بن الحسن أنشدنا عليُّ بن عبد العزيز الجرجاني القاضي[١٢] لنفسه:

يَقُولُونَ لِي: فِيكَ انْقِبَاضٌ وإنَّمَا ... رَأَوْا رَجُلاً عن مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا
تَرَى النَّاسَ مَنْ دَانَاهُمُ هَانَ عِنْدَهُمْ ... وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا
ومَا كُلُّ بَرْقٍ لَاحَ لِي يَسْتَفِزُّنِي ... وَلَا كُلُّ مَنْ لَاقَيْتُ أَرْضَاهُ مُنْعِمَا
ومَازِلْتُ مُنْحَازاً بِعِرْضِيَ جانِباً ... عَنِ الذُّلِّ أَعْتَدُّ الصِّيَانَةَ مَغْنَمَا
إذَا قِيلَ: هَذَا مَوْرِدٌ قُلْتُ: قَدْ أَرَى ... ولكِنَّ نَفْسَ الْحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَمَا
وإِنِّي إذَا مَا فَاتَنِي الأَمْرُ لَمْ أَبِتْ ... أُقَلِّبُ كَفِّي إِثْرَهُ مُتَنَدِّمَا
ولكِنَّهُ إنْ جَاءَ عَفْواً قَبِلْتُهُ ... وإنْ مَالَ لم أُتْبِعْهُ هَلاَّ وَلَيْتَمَا

وأَقْبِضُ خَطْوِي عَنْ حُظُوظٍ قَرِيْبَةٍ ... إذَا لَمْ أَنَلْهَا وَافِرَ الْـعِرْضِ مُكْرَمَا
وأكْرِمُ نَفْسِي أَنْ أُضَاحِكَ عَابِساً ... وأَنْ أَتَلَقَّى بِـالْـمَـدِيْـحِ مُـذَمَّـمَـا
أُنَهْنِهُهَا عَنْ بَعْضِ مَا قَدْ يَشِيْنُهَا ... مَخَافَةَ أَقْوالِ الْـعِدَى: فِيْمَ أَوْلِمَا
ولم أَقْضِ حَقَّ الْـعِلْمِ إنْ كُنْتُ كُلَّما ... بَـدَا طَـمَـعٌ صَيَّـرْتُـهُ لِيَ سُلَّمَا
وَلَمْ أَبْتَذِلْ في خِدْمَةِ الْـعِلْمِ مُهْجَتِي ... لأَخْدِمَ مَنْ لاقَيْتُ إلَّا لأُخْدَمَا
أَأَغْـرِسُـهُ عِـزاً وأَجْنِيـهِ ذِلَّـةً ... إذاً فَاصْطِنَاعُ اللَّهْوِ قد كان أَحْزَمَا
فَإِنْ قُلْتَ: جَدُّ الْـعِلْمِ كابٍ فإنَّمَا ... كَبَـا حِينَ لَمْ يُحْمَ حِمَـاهُ وأَسْلِمَا
ولو أَنَّ أَهْلَ الْـعِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُمْ ... وَلَوْ عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعُـظِّمَا
ولكِنْ اَهَـانُـوهُ فَهَـانَ ودَنَّسُـوا ... مُحَيَّـاهُ بِـالأَطْمَـاعِ حَتَّى تَجَهَّـمَـا

ولم يورد سوى ما تقدم في الكلام على عرفات.

البلد السابع والسبعون: مِنَـى: ـ وهي بكسر الميم مع الصرف وعدمه ـ : سميت بذلك ـ كما قاله جماهير اللغويين وغيرهم ـ لما يُمْنَى بها من الدِّماء أي يُرَاقُ ويُصَبُّ، وهي من حرم مكة، بينهما ثلاثة أميال، وتتسع للحجيج كاتساع الرحم للولد، وفضائلها كثيرة، وممن سمع بها شيخنا وشيخه والذهبي، وأبو حيان وسماعه فيها على أبي اليُمْنِ ابنِ عساكر، بل وسمع بها أبو القاسم ابن عساكر وقال في «بلدانياته»: إنها كانت مدينة بها دُورٌ وسُوقٌ، ومسجدها مسجدُ الخَيْفِ، مسجد شريف، وقد عمره سلطان الوقت(١٣) عمارة هائلة يفوق الوصف، وكنت ممن سمع به وبغيره منها على غير واحد، وقرأت بالغار الشريف النبوي من جبل حِرَاء ظاهرة مكة من جهتها على الحافظ التقي أبي الفضل الهاشمي ـ رحمه الله ـ تصنيفه «بُشْرى الْوَرَى مما ورد في حراء»(١٤) وبأسفل الجبل غير ذلك، أخبرني الكمال أبو الفضايل محمد بن الجمال حمد بن إبراهيم المكي بقراءتي عليه في الغار الشريف، غار المرسلات من مِنَى المعظم وغيره بالقاهرة وغيرها، كلهم عن أبي اسحاق إبراهيم بن محمد بن صديق الدمشقي.

وساق السند إلى ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ ـ : «نِعْمَتَانِ مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ».

ثم ذكر أن هذا الحديث صحيح وأورد أسماء مخرجيه وبعض رواته.

البلد الثمانون: ينبع: ـ وقد تقدم الكلام على ما ذكر عنه.

ويظهر أن الحافظ السخاوي كان أملى «بلدانياته» هذه أثناء إملائه في جامع الغمري في القاهرة إذ ورد في النسخة التي نقلتُ عنها ما تقدم ما هذه نصه: (آخر المجلس السادس والأربعون من البلدانيات، وبه انتهاؤها وهو المجلس الرابع عشر بعد الخمس مئة من الأمالي، وكان الفراغ في يوم الثلاثاء ثامن عشر المحرم الحرام سنة ثلاث وثمانين وثمان مئة بجامع الغمري، باستملاء أخي نفع الله به وصرف عنه كل مكروه، وختم لي وله ولسائر أهلي وأحبابي بخير.

قاله وكتبه محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان السخاوي الشافعي غفر الله له ذنوبه وستر عيوبه حسبنا الله ونعم الوكيل.

هذا لفظه بحروفه أبقاه الله تعالى، والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم كلما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون، والحمد لله رب العالمين تم.

غفر الله لكاتبها ولمن كتبت له ولكل المسلمين أجمعين وذلك يوم الخميس السابع والعشرون من شهر شعبان المعظم سنة ١١٧٤). انتهى

وهي نسخة من مخطوطات القرن الثاني عشر الهجري كما يظهر من آخرها.

الحواشي:

١ ــ تشبُع الباء مضمومة، فيقال (ينبوع) وهذا الاسم لبلدة ينبع لم يرد في كتب المتقدمين، ولكن المتأخرين أكثروا من استعماله، وينبع المقصودة هنا هي ينبع النخل، وهي التي ورد ذكرها كثيراً في كتب المتقدمين.

٢ ــ حرف الحاء (ح) يقصد بها تحويل السند من راوٍ إلى آخر، وهو اصطلاح عند المحدثين يتكرر في كتب الحديث.

(*) يقصد بكلمة (شيخنا): الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني.

٢ ـ كفانا الحافظ السخاوي مؤونة التعليق على هذه الأخبار بقوله في ذكر أولها: (ويُرْوَى في فضلها ممَّا لا يَصِحُّ) فهذه الأخبار غير صحيحة وأمثالها كثيرة في فضائل البلدان.

٣ ـ «رحلة ابن جبير» ص ٤٧ طبعة دار الهلال في بيروت، ولابن جبير كلام طويل حول مدينة جدة يحسن الرجوع إليه.

٤ ـ المظفر صاحب اليمن هو يوسف بن عمر بن علي بن رسول، أحد ملوك الدولة الرسولية، ولد في مكة سنة ٦١٩ وتولى ملك اليمن سنة ٦٤٧ وتوفي في تَعِزٍّ سنة ٦٩٤، وكان من خير الملوك عفة وحسن سياسة، وكان على جانب من العلم وتقدير العلماء، وتنسب إليه مؤلفات في الطب والصناعة وغيرهما.

٥ ـ لما ذكر (منية الأمراء) أضاف قائلاً: ويقال لها منية الشيرج، وبكل من الإضافتين تتميز عن نحو مئتي منية بالديار المصرية خاصة. انتهى.

٦ ـ «الإبانة فيما ورد في الجعرانة» من تأليف الحافظ تقي الدين محمد بن محمد المعروف بابن فهد (٧٨٧/٨٧١) وقد ترجمه السخاوي نفسه في «الضوء».

٧ ـ تجد ترجمة لارغون الدوادار في كتاب «الدرر الفرائد المنظمة» ص ١٤٦١، وفيها: أنه توفي في حلب سنة ٧٣١.

٨ ـ ذكر صاحب «الدرر» أن عين خُلَيص أُصلحت سنة ٩٤٠ في عهد السلطان سليمان القانوني العثماني، وهذا غير السلطان الذي كان في زمن السخاوي، فهو أحد سلاطين المماليك في مصر وهو الملك الأشرف قايتباي.

٩ ـ وج هو اسم وادي الطائف ولا يزال معروفاً بهذا الإسم.

١٠ ـ محمد بن محمد بن علي الشيبي من أشهر علماء مكة ولد سنة ٧٧٩ وتوفي سنة ٨٣٧ وله مؤلفات لا تزال مخطوطة ـ انظر «رحلات حمد الجاسر» ص ١٠٦/١٠٨.

١١ ـ ذكر صاحب «الدرر الفرائد» ـ ص ٧٥١ ـ : أن في سنة ٨٧٥ عمر الأمير سنقر الجمالي عين عرفة، وأصلح الفساقي التي بها إلى آخر ما ذكر، ويظهر أن الأمير هذا عمر العين بامر من سيده سلطان مصر الملك الأشرف قايتباي.

١٢ ـ علي بن عبد العزيز الجرجاني من مشاهير العلماء توفي سنة ٣٩٢ في مدينة نيسابور وله مؤلفات منها «الوساطة بين المتنبي وخصومه».

١٣ ـ سلطان الوقت ـ أي وقت السخاوي المؤلف ـ هو الملك الأشرف قايتباي الجركسي، من المماليك، موصوف بالشجاعة والعقل، وله آثار عمرانية في الحجاز وفي غيره من الأقطار الإسلامية، تولى الحكم سنة ٨٧٢ حتى توفي سنة ٩٠١.

١٤ ـ هو ابن فهد صاحب كتاب «الإبانة» المتقدم ذكره.

ابن حجر العسقلاني في اليمن

كان اليمن في العصور الإسلامية الزاهرة مَحَطَّ رِحَال كثير من العلماء الذين قصدوه ابتغاء الرِّوَاية والإسناد العالي فقصده من العلماء الإمامان الشافعي وأحمد ابن حنبل ومن مشاهير المحدثين إسحاق بن راهويه وسفيان الثوري وجماعة من العلماء استقصيناهم في بحث مُفَصَّل.

وفي العصور التي تَلَتْ العصر الزَّاهر كان للعلماء رحلة أخرى إلى اليمن على إثر سماعهم بقيام الدولة الرسوليّة في اليمن، وتكريمها للعلماء من خلال ملوكها الذين قَدَّرُوا العلماء وسعوا في خَطْبِ وُدِّهم بالغَالي والنفيس، فَدخل اليمنَ من العلماء خِلال مرحلة قيام الدولة الرسولية في القرنين الثامن والتاسع العلامة اللغوي مجد الدين الفيرزآبادي، وعالم القرآآت الجليل محمد بن محمد الجزري، والنّحوي الكبير محمد بن أبي بكر الدماميني وغيرهم كثير لعل أبرزهم في نظري خاتمة المحدثين، وعلامة الدُّنْيَا، شهاب الدين أحمد بن علي بن حَجَرٍ العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢.

وفي رحلته إلى اليمن حديث يشوق الباحثين والقرَّاء سماعُهُ.

ابن حجر والرحـــلات:

لم يَثْبُتْ لابن حَجَرٍ رحلاتٌ حقيقية سوى رحلته تلك إلى اليمن، ورحلة أخرى قام بها إلى الشّام سنة٨٠٢هـ وعدا رحلته الدِّينيَّة إلى الحجاز لقضاء فريضة الحجّ، ومن عدة رِحْلات جِئْنَ في مناسبات مختلفة.

ومن الغريب أنه زار اليمن قبل دخوله مكة لأَدَاء فريضة الحجّ الشرعية، بعد البلوغ. وكان يرحل مع والده وهو في الصِّغَر لأعمال تجارية، وكذا مع وَصِيِّهِ الخرُّوبي.

رحلتاهُ إلى اليمن:

ولكن رحلته إلى اليمن تَظَلُّ ذاتَ وَقْعٍ خاصٌ في نَفسية ابن حجر، شهد به أثره المنثور والمنظوم، ولم يكن في الغالب القصد من الدخول إلى اليمن مهمّةً علمية يحققها علامَتُنا ابن حجر العسقلاني، وإنما مآرب دُنْيَوِيَّةٌ يرجوها من سلطانها الرسوليِّ الذي عُرِف عنه إجلالُ العلماء وإكرامهم.

ولكنَّ هذا لا يمنع أن يتردَّدَ على مشاهير العلماء في اليمن ويستفيد من روايتهم وعلمهم.

وكان دخُولُ ابْنِ حجر العسقلانيِّ الأول إلى اليمَن سنة ثماني مئة، قادِماً من الطُّور عن طريق البحر وقد التقى في تَعِزٍّ وزَبِيْدَ وعَدَن والْمَهْجَمِ بجماعة من أفاضل العلماء منهم علي بن الحسن الخزرجيُّ المؤرِّخُ، والفقيه الضَّليعُ إسماعيل بن أبي بكر المقري، وقال عنه: لَمْ أَرَ أَذْكَى منه في اليمن.

ولعَلَّ أَشْهَرَ مَنْ قابله في اليمن هو مجْدُ الدِّين الفَيروزآبادي صاحب «القاموس» وقد قرأ عليه جُزْءاً من قاموسه المذكور، وكان يُثْنِي عليه ويُخَالِفُهُ في اعتقاده بشأن ابن عربي الصُّوفي وزُمْرتِهِ.

وفي هذه الرِّحْلة آصطحب معه هدايا علميَّةَ فاخرة قدَّمها إلى الملك الأشرف إسماعيل منها «تذكرته» التي جمعها في أربعين مجلَّداً، وكتاب «الأغاني» بِخط ابن الْقُوطِي.

وظَنَّ بعضُ الناس ومنهم ابنُ المقري أنَّ قدومه إلى اليمن كان لتولِّي القَضاءِ بِها، ولم يكن ابن حجر يرغب في ذلك، تلك رحلته الأولى.

أما الثانية فهي سنة ثماني مئة وست، وكانت على حالٍ لا يَسُرُّ صديقاً أو يُغيظ عَدُوًّا فقد وصل صاحبُنا اليمن مَنْكُوباً، مَنْهُوباً، في حالةٍ يُرْثَى لها على أَثَرِ غَرَقِ السَّفِينَةِ التي أَقَلَّتْهُ، ووصوله بَاكِياً نَاعِياً فشكى حَظَّهُ العاثر إلى خليفةِ الوقت الملك النَّاصر. وقال له في شعرٍ مُؤَثِّرٍ ذكر فيه ما تعرض له من غَرَقٍ أتلف كُتُبَهُ، وتلاهُ نَهْبٌ أفسد عليه الْبَقِيَّةَ مِنْ أمره:

مَوْلَايَ هلْ أَشْتَكِي مَا قَدْ عَلِمْتَ بِهِ أَمْ أَكْتَفِي بِالَّذِي قَدْ لَاحَ مِنْ حَالِي؟
قَدْ ضَعْضَعَ الدَّهْرُ حَالِي عِنْدَمَا نُهِبَتْ بِالشَّامِ أَيَّامَ تَيْمُرْلَنْكَ أَمْوَالِي
وَبعْدَهَا بَلَغَتْ مِنِّي الْحَوَادِثُ مِنْ يَدِ ابْنِ عَجْلَانَ مَا لَاقَاهُ أَمْثَالِي
وَقَدْ قَصَدْتُ بِأَنْ أَحْيَا بِظِلِّكُمُ فَكَانَ مَا كَانَ مِنْ خَوْفٍ وَأَهْوَالِ
فَصَارَتِ الْحَالُ فِي حَلْيٍ مُعَطَّلَةً مَا فِي الكنانة سَهْمٌ غَيْرُ قَتَّالِ
وَعُدتُّ مُسْتَنْصِراً فِي الحَادِثَاتِ بِكُمْ فَأَنْتَ حَاشَاكَ أَنْ تَرْضَى بِإِهْمَالِي
مَالٌ تَمَزَّقَ فِي نَهْبٍ وَفِي غَرَقٍ إِنْ فَاتَ مَالِي سَأَلْقَى مِنْكَ آمَالِي

هكذا يَصِلُ حافِظُ العصر وعلاَّمَتُهُ اليمنَ وقد أشرف في الطريق على الفَواتِ بعد أن تحطَّمَ المركبُ الذي هو فيه ثم الْتجاؤُهُ إلى بعض الجزائر، فتأتيه القبائل من كنانَةَ تريد نهبه، إلى غير ذلك من مشاقّ، وقد كانتْ طبيعَةُ الأسفار في ذلك الوقت شديدة الصعوبة قلّما يسلم منها أحد.

وما لنا نستعجل الحوادث ونَتَسَرَّعُ في الإخبار، وعلاَّمَتُنا ابنُ حجر العسقلانيُّ قد حَدّثَنا عن خواطره ونَفْسِيّته وهو في اليمن في شعر جيِّدٍ يكاد يرقى إلى رتْبة شعر فحول الشعراء الكبار الذين صوروا حياة النَّفس وما تلقَّاه في الغربة من فرح وترح، وحزن وسرور، وهذا الأمر هو المقصد من بحثنا.

شعره في اليمـن:

حفل ديوانه المطبوع في الهند سنة ١٩٦٢م بقسط وافر من اليَمَنِيَّات التي قالها في اليمن، وقد قشع شعره عن شخصية رقيقة الإحساس، تتأثر بما يعرض لها ويدور حولها على خلاف الصورة التي صوّرها لنا التّاريخ كفَقِيهٍ صَعْبِ المراس، تولّى القضاء رَدْحاً من الزَّمَنِ وأذاق النَّاس بأس فقهه.

انْظُرْ إليه وهو في غربته في اليمن يتشوق إلى زوجته زَيْنَ خَاتون وطفلته التي تركها بمصر رَضِيعةً في مهدها:

تَرَى هَلْ أُلَاقِي زَيْنَ خَاتُونَ بَعْدَمَا تَنَاءَتْ بِنَا السُّكْنَى وَعَادَ الْمُوَدِّعُ؟!
وَهَلْ أَلْتَقِي تِلْكَ الطُّفَيْلَةَ فَرْحَةً قَرِيباً كَمَا فَارَقْتُهَا وَهِيَ تَرْضَعُ؟!

نعم كان ابْنُ حجر لا يَظنُّ أنه سيعود إلى بلدِهِ مصر، وهو في غُرْبَتِهِ الموحشة بعَدَن وقَيْظِها الملتهب، وهو لا يدري ما يُخَبِّئُهُ له القدر من طول عُمْرٍ وعِزٍّ وجاهٍ يبلغ به أقْصَى المراتب، ويتفوقَ به على الأقران.

وتلك حالة بشريَّةٌ تعرضُ لكثير من الناس عندما يُلاقُونَ أدنى المشاقِّ فتضيق الدُّنْيا في أعينهم حتى لا يظنون مخرجاً، وما أسرع دخول اليأس وبلوغ القنوط مَبْلَغه في كثير من النُّفوس على أنها الأيام تتداول بين منفعة ومضرة وتعاسة وسعادة.

هكذا كان ابنُ حجر العسقلانيُّ الإنسان تتعاوره ـــ وهو في اليمن غَريباً وحيداً ـــ أفكار اليأس والتفاؤل، ولم يكنْ قد لقى من المكانة ما يجعلهُ يثق بالمستقبل المشرق.

على أنَّه يَدْحَضُ الظنونَ ليقول شعراً كثيراً في اليمن وقد جعله صَنْعَةً يتكسَّبُ به أمام أبواب الملوك من أهلها ونَسمعه يأتي بِالعَجَبِ العُجَابِ حيْثُ تظهر فيه براعته وعلمه:

يقول غَزَلاً فلا يترك مُتَرَدَّماً للشعراء إلَّا وضرب أطْنَابَهُ فيه فكان الغزلُ في مُفْتَتَحِ قصائده إعلاناً عن كمال الصنعة وجسامة أمر الممدوح، وربما تحدث عن الهجر والفراق في بدايةِ قصيدتِهِ فقال:

مُحِبٌّ لَكُمْ مِنْ هَجْرِكُمْ يَتَوَجَّـعُ ... نَـدِيْمَاهُ مُـذْ غِبْتُمْ أَسًى وَتَفَجُّـعُ
سَرَى نَفساً عَنْكُمْ فَأَضْحَى وَنَفْسُهُ ... تَذُوبُ جَوىً مِنْ طَرْفِهِ فَهْيَ أَدْمُعُ
أَأَحْبَـابَنَـا حَتَّى الخَيَـالَ قَـطَعْتُمُ ... عَذَرْتكم بَلْ مُقْلَتِي لَيْسَ تَهْجَعُ
فَلَا وَحَيَاةِ الْقُرْبِ لَمْ أَنْسَ عَهْدَكُمْ ... وَلَوْ أَنَّنِي فِي الْبُعْدِ بِالرُّوحِ أُفْجَعُ(١)

لكن الصبغة الغالبة على نسيبه في مطالع قصائده التي قالها أمام الملك الأشرف اسماعيل حديث الغربة والتشوق إلى الأهل والأحباب، مذكِّراً ممدوحه بِحَالِهِ الذي هو فيه:

صَبٌّ لِلُقْيَـاكَ بِالأَشْـوَاقِ مَعْمُودُ ... فَقِيْدُ صَبْرٍ عَنِ الأَحْبَابِ مَفْقُودُ

نَاءٍ عَنِ الْأَهْلِ وَالْأَوْطَانِ مُغْتَرِبٌ وَوَاجِدٌ مالَهُ في الصَّبْرِ مَوْجُودُ
مُتَيَّمٌ قَدْ بَكَى بَعْدَ الدُّمُوعِ دَماً كَأَنَّمَا هُوَ في عَيْنَيْهِ مَقْصُودُ
النَّارُ ذَاتُ وَقُودٍ في جَوَانِحِهِ شَوْقاً وَفِي خَدِّهِ لِلدَّمْعِ أُخْدُودُ

تلك حالة السّهد والفراق والشوق إلى الأحباب، عادة متّبعةً عند الشعراء قديمهم وحديثهم وكأنّها من حديث الحب والغزل، بل من صلبه.

انظر إليه وهو يحدثنا في نفس القصيدة عن الطَّيْفِ والسّهر وملاحقة الهموم إلى غير ذلك فيقول:

وَقَدْ تَطَابَقَ حَالُ الصَّبِّ مِنْ حَزَنٍ فَدَمْعُهُ مُطْلَقٌ وَالقَلْبُ مَصْفُودُ
وَالطَّيْفُ مازَارَ إِذْ بَابُ الزِّيَارَة مِنْ فَرْطِ السَّهَادِ بِفَتْحِ الجَفْنِ مَسْدُودُ
أَبِيتُ أَرْعَى النُّجُومَ الزُّهْرَ أَحْسَبُهُ فِيها إلى أَنْ حَلاَ لِي فِيهِ تَسهِيدُ

على أنَّ للغزل في مفْتتح قصائده مضامين يحلو لشاعرنا ترديدها وهي معان مطروقة عند من سبقه لا نحسبه أبدع فيها أو ابتكر، إذِ الْعواطف في مثل تلك المواقف تتكرر وتتشابه.

عندما يحدثنا عن الحبيب والرقباء وما شابه ذلك يأتي بما سبقه غيره كقوله:

مَنْ لِي بِهِ كَالْبَدْرِ إلَّا أَنَّهُ كَالغُصْنِ يَسْبِي المُجْتَني والمُجْتَلي
لَا عَيْبَ فِيهِ غَيْرَ أَنَّ رَقِيبَهُ لا يَأْتَلِي في لَوْمِهِ أَنْ يَأْتِ لِي

أو يحدثنا عن العَذُول ومرابع الأحباب فيورد ما هو مُعْتادٌ عند غيره:

وَيَا قَلْبُ لَا تَقْبَل شهادَةَ لَائِمِي فما قلت يَوْماً في هَوَايَ بِشَاهِدِ
وَيَا أَيُّهَا الْأَحْبَابُ سُقْياً لِعَهْدِكُمْ بِعَهْدٍ قَرِيْبِ العَهْدِ غَيرِ مُبَاعِدِ

نعم تجدُ أثر الصَّنْعة البديعيَّة واضحةً، في شعره شأنه في ذلك شأن شعر معاصريه من أدباء العصر المملوكي الذين أغرقوا في هذا الجانب حتى غطّى هذا الأثر على سائر إنتاجهم النثري والشعري، وربما خلط في بديعِهِ بين مهنته الحديثيَّة وما عُرِفَ عند أهل مدرسة أهل البديع من صيغ مألوفة.

أنظر إليه في جناسه وتورياته يستعمل مصطلح أهل الحديث فيقول:

مَلِكُ الملوكِ حَقِيقَةً قَدْ كُمِّلَتْ أوْصَافُهُ وَسِواهُ لَيْسَ بِأكْمَلِ(٢)
يَرْوِي (أَحَادِيثَ) النَّوَالِ (صَحِيحة) بـ (مُدَبَّج) من جُـودِه و (مُسَلْسَلِ)
يَرْوِي عن العبَّاسِ اسماعيلُ مَا يروِي كما العباسُ يَرْوِي عن عَلِي

وإسماعيل بن العباس هو ممدوحه الملك الأشرف الرسولي:

وكقوله في التَّورِيَةِ برجال السَّنَد:

وَيَا(سَنَدي الْعَالِي)الَّذِي قَدْ(رَوَيْتُ)عَنْ (ثِقَات)عَطَايَاهُ (صِحَاحُ الْمَسَانِدِ)
و(حدثت) فِي يَوْمَيْهِ فِي الْبَأْسِ والنَّدَى (صحيح)حَدِيثٍ عَنْ (عَطَا)و(مُجَاهِدِ)

وكقوله في مدح الناصر ابن الأشرف:

حَدِّثْ عَنِ الجِسْمِ والْقَدِّ الْقَوِيْمِ ولا تُسْنِدْهُ إلَّا (لِصَفْوَانَ بْنِ عَسَّالِ)
وارْوِ (المُسَلْسَلَ) مِنْ دَمْعِي وعارِضهِ بـ (الأَوَّلِيَّةِ) مِنْ عِشْقِي وَإغْزَالِي

ولا يكتفي في تورياته البديعية بمصطلحات أهل الحديث وإنما يصحب ذلك الجم الطيب من الاقتباس القرآني، وكلام العلماء، من ذلك قوله في مديحه الأشرف إسماعيل:

وَفَصْلُ حُكْمٍ وَصِدْقٍ في الوُعُودِ فَهَلْ علمتم أنَّ إسماعِيلَ دَاوودُ

وقوله:

لَقَدْ صَدَقَتْنَا بِالنَّوَال وُعُودُهُ وَعَادَةُ إسماعيلَ صِدْقُ المَوَاعِدِ

وهكذا يَتَصَنَّعُ ابن حجر في مدائحه لملوك الدّولة الرسولية ليحاكي بذلك أسلوب العصر الشعري الذي برع فيه رجاله من أهل البديع المغرقين في فنهم.

في مدائح الملك الأشرف إسماعيل:

وما لنا نشرّق ونغرّب في الحديث عن مدائح ابن حجر التي قالها وهو في اليمن

وأمامنا ديوانه يطفح بالعديد منها، في الثّناء العاطر على ملوك الدّولة الرسولية باليمن، وفيها من المدح الصريح ما لا يحتاج إلى تورية أو كناية فهو يصفهم بما وصف به سائر الممدوحين من خصال بشرية حميدة.

وكان جلُّ قصائده جاءتْ في الملك الأشرف اسماعيل باستثناء قصيدة واحدة قالها في ولده الناصر أحمد في رحلته الثانية إلى اليمن سنة ٨٠٦.

وهو يمجّد الرسوليين ويذكر ملوكهم بالإكبار والإجلال فيقول:

من آل غسَّانَ ساداتُ المُلُوكِ وَمَا ... يُقَالُ في غيرهم ساداتُ أقيَالِ
فَفِي مَدَائِحِ حَسَّانٍ وَنَابِغَةٍ ... فِيهم غَرَائِبُ مِنْ بَأْسٍ وإفْضَالِ
هُمْ مَهَّدُوا الشَّامَ مِنْ ظُلْمٍ وَمِنْ ظُلَمٍ ... مِنْ قَبْلُ وَالْيَمَنُ الآنَ اغْتَدَى تَالِي
مِنْ كُلِّ أَرْوَعَ سَامِي الذِّكْرِ سائِرِهِ ... عَمَّالِ مَكْرُمَةٍ حَمَّالِ أثْقَالِ
صحابة الْجُود إنْ حَلَّ النَّزِيْلُ بِهِمْ ... يَرِدْ بِحَاراً وَلَا يُخْدَعْ مِنَ الآلِ
يَبِيتُ مَا شَاءَ فِي أَمْنٍ وَفِي دَعَةٍ ... مُفَارِقَ الهَمِّ لا يُرْمَى بِأَوْجَالِ
أَهْلُ الْفَصَاحَةِ إِنْ هَزُّوا سُيُوفَهُمُ ... يَغْدُو خَبَاراً لَدَيْهَا صَرْحُ أَبْطَالِ
خدَّام بَيْتِ الإِلهِ الْحَقِّ كَانَ لَهُمْ ... وَحَالُهُ كَانَ مِنْهُم بالحَلَا حَالِي
تَلَوْا حَدِيثَ الْعُلَا عن سَيِّدٍ سَنَدٍ ... عَنْ سَيِّدٍ سَنَدٍ بَادٍ عَلَى تَالِي
فَأَحْمَدُ مَلْكُ إِسْمَاعِيلَ عَنْهُ رَوَى ... عَنْ (أَفْضَلٍ) عَن عَلِيٍّ خَيْرَةِ الآلِ
عَنِ المُؤَيَّدِ دَاوُود الهِزَبْرِ عَلَا ... عَنِ الْمُظَفَّرِ سُلْطَانِ الْوَرَى الْخَالِي
يَرْوِيهِ عَنْ عُمَرِ الْمَنْصُورِ مُتَّصِلاً ... مَنْ ذَا يُسَاوِيكَ فِي إِسْنَادِكَ العَالِي
مِثْلُ الْكَوَاكِبِ أَنْتُمْ سَبْعَةٌ زُهُرٌ ... هَـذا اتِّفَاقٌ لإِجْـلَالٍ وَإِجْمَالِ
زِنْتُمْ، عَلَوْتُمْ، حُمِيتُمْ، جُدْتُمْ كَرَماً ... أَضَأْتُمْ وَهدَيْتُمْ سُبُلَ ضُلَّالِ

هؤلاء ملوك بَني رسول الغساسنة كما يشيد بهم ابن حجر، وقد اتّسمُوا بصفاتٍ من العلوِّ والحماية والكرم وتأمين السُّبُلِ إلى غير ذلك.

على أنَّ الأوصاف الحقيقية انْجدها في شخص الملك الأشرف إسماعيل الذي يقول فيه صاحبُنا بعد أن يُورد له جُملًا من الشيم الحميدة:

نامَ الرَّعَايَا وَقَلْبُ الْبَرْقِ يَخْفِقُ مِنْ رُعْبٍ بِهِ وَبِطَرْفِ النَّجْمِ تَسْهِيْدُ
وأَمَّنْتَهُمْ مِنَ الآفـاتِ طَلْعَةُ مَنْ أَضْحَى وَطـالِعُهُ بِـالنَّصْرِ مَسْعُودُ

ويصفه بالشجاعة:

بِسِنَـانِ أَسْمَـرِهِ السِّمَاكُ مُشَبَّـهٌ لكنَّـهُ لم يُـدْعَ مِنْـهُ بِـأَعْـزَلِ
ويَكَادُ أَنْ يَمْضِي بِأَبْصَارِ الْعِدَى مَاضِي بَوَارِقِ سَيْفِهِ فِي الْجَحْفَلِ

وبالكرم لحاجة في نفس يعقوب:

الأَشْرَفُ الملك ابنُ الأفضل ابن علي ابن المؤيـد حامي الملك داوود
المانح الفضل صَفْواً فَيْضُ رَاحَتِهِ الْـغَيْثُ إِنْ جَادَ تَعْبَانٌ ومَكْدُودُ

وكان نوال ابن حجر العسقلاني من كرم آل رسول الجم الجزيل، لذا نجِده لا يفتأ يذكر تلك الأيادي الكريمة عليه، وقلّما تخلو قصيدة وجّهها إليهم من إشارة إلى شيء من إكرام بني رسول له، فهم قد أغدقوا عليه العطايا الجليلة:

إِلَيْــكَ أَمِيْرَ الْمُسْلِمِــينَ بَعَثْتُهَــا تَضَمَّنُ شكري مِنْ طَرِيفٍ وتَالِدِ
فَكَمْ مِنْ أَيَادٍ مِنْكَ هُنَّ مَرافِقِي عَلَى الدَّهْرِإن يَسْطُو.وَهُنَّ سَوَاعِدِي
قَصَـرْتُ عَلَى مَمْـدُودِهِنَّ مَمَادِحِي وَطَـوَّلْتُ فِي عَلْيَـائِهِنَّ مَحَامِـدِي

قصيدته في مدح الملك الناصر:

كان تولي الملك الناصر أحمد بن إسماعيل بعد وفاة والده سنة ٨٠٣هـ وعندما دخل ابن حجر اليمن في الرحلة الثانية سنة ٨٠٦ كان هو المتولي لزمام الحكم، وقد سبق أن أشرنا إلى دخول ابن حجر البلاد على تلك الحالة المزرية بعد تعرّضه لتلف متاعه وإشرافه على الغرق، ثم نهب بعض القبائل ماله. فكان أن نظم مديحة مؤثّرة في الملك الناصر مطلعها:

لاَ تَقْطَعُوا بِاتِّصَالِ الْهَجْرِ أَوْصَالِي وَوَافِقُـونِي فَقَـدْ خَـالَفْتُ عُـذَّالِي

وفيها يذكر من محاسن الناصر وأخلاقه:

النَّاصِر المَلِكُ ابْنُ الأشرف [الملك]الـ   مَعْرُوف عزفا بِمِفْضَال ابْنِ مِفْضَالِ
أَوْعَى المُلُوكِ هُدًى أَوْهَى المُلُوكِ عِدًى   أَوْفَى المُلُوكِ نَدًى فِي الحَالِ بِالحَالِ
مُطَهَّر الجَيْبِ مِنْ عَيْبٍ وَمِنْ دَنَسٍ   حَاشَا مَعَالِيهِ مِنْ إِخْلَالِ إِجْلَالِ

ويصف شجاعته وتأمينه السبل فيقول:

أَنْسَى الَّذِينَ مَضَوْا يَوْمَ الوَغَى وَنَدًا   عمَّال هَيْجا، وفي أَلفِ بطال(؟)
أَرْضَى العُفَاةَ عن الدُّنْيَا وساكِنها   وفي رِضَا المُعْتَفِي سُخْطٌ عَلَى المَالِ
أَضْحَتْ بِعِزَّتِهِ الدُّنْيَا (تَعِزُّ) وَمَا   (زَبِيدُ) إِلَّا بِهَا غَايَاتُ آمالي
أُمُورُهَا بِصلاحِ الدِّينِ قَدْ صَلُحَتْ   نَامَ الرعَايَا مَتَى مَا آسْتَيْقَظَ الوَالِي
سَقَى الرِّمَاحَ دَمَ الأَعْدَاءِ مُبْتَدِراً   فَكَانَ أَثْمَارُهَا هَامَاتُ أَبْطَالِ

ثم يخلص من مدحه له ويستنهضه للقيام بالنظر إلى حاله، وفيها يبلغ أقصى درجات الاستعطاف فيقول:

وَالآنَ يَا مَلِكَ العَلْيَا قَصَدْتُكَ فِي   جَبْرِ انْكِسَارِي وَفِي إِصْلَاحِ أَحْوَالِي
لِدَارِ مُلْكِكَ مُدْنُ الأَرْضِ مَرْجِعُهَا   كَالبَحْرِ مَرْجِعُ أَنْهَارٍ وَأَوْشَالِ
مَا شِئْتَ أَيَّدَكَ الله الكَرِيمُ جَرَى   فَانْهَضْ لِمَا شِئْتَ تُسْتَقْبَلْ بِإِقْبَالِ

ثم يُطنِبُ في وصفِ حاله، وما أصابه في رحلته المشؤومة تلك: إلى أن يذكر عطف الملك عليه وتأنيس غُرْبته فيقول:

أَهَّلْتَنِي بَعْدَ تَغْرِيبِ النَّوَى كَرَماً   يَا مَالِكِي لِمَدِيحِي قَدْرُكَ العَالِي
مَلأْتَ طَرْفِي وَكَفِّي هَيْبَةً وَغِنًى   حتَّى تَفرغْتُ للأمْداحِ بِآمَالِ(٣)
وَحَقِّ رَأْسِكَ لَوْلَا أَنْتَ مَاصَبَرَتْ   نَفْسِي عَلَى فُرْقَتِي أَهْلِي وَأَطْفَالِي(٤)
كَحَّلْتُ طَرْفِي بِمِيْلِ السُّهْدِ إِذْ بَعُدُوْا   فَالدَّمْعُ مِنْ مُقْلَتِي يَجْرِي بِأَمْيَالِ
فَعُدْ بِجَاهِكَ تَحْمِينِي وَتَنْصُرُنِي   عَلَى عِدَايَ بِأَقْوَالٍ وَأَفْعَالِ

وفي هذه القصيدة يبلغ الشاعر أقصى درجات التَّزلُّفِ والمجاملة فيصف ممدوحه بأوصاف لا تَلِيقُ بمخلوق ضعيف فيقول:

يَاكَعْبَةً طُفْتُ فِي تَعْظِيمِ حُرْمَتِهَا مُكَبِّراً قَدْرَهَا العَالِي بِإهْلَالِ
أَزُورُهَا مُحْرِماً مِنْ غَيْرِهَا فَإذَا حَلَلْتُ بَدَّلْتُ إحْرَامِي بِإخْلَالِ

ولستُ أدري كيف سمح للرّجل علمه وفقهه أن يقول مثل هذا الكلام مع أنه عندما ترجم للناصر المذكور في تاريخه «إنْبَاء الغُمْر» عند سنة وفاته (سنة ٨٢١) قال في حقه: كان الملك الناصر فاجِراً جائِراً مات بسبب صاعقة نزلتْ على حصنه المسمى «قَوَارِير» فارتاع من صوتها فَتَوَعَّكَ ومات.

مع الوزراء والأدباء في اليمن:

ليس لدينا مصدر تاريخي يرصد كل حوادث العلامة ابن حجر في رحلته إلى اليمن، وهو لم يُعْنَ بهذا الأمر إلاّ فيما يتعلق بالأمور العلمية التي وقعت له من إجازاتٍ وقراءة على الشيوخ وتلمذة عليه إلى غير ذلك.

ويفهم من قصيدة بعثها إلى أحد الوزراء بمدينة عدن أنه قد وقعَتْ بينَه وبين هذا الوزير وَحْشَةٌ اضْطرّت علامتنا ابن حجر العسقلاني أن يكتُب قصيدة يستعطف فيها ذلك الوزير، يبدأها أولا بالمدح كما هو المعتاد يقول:

إلَى ابْنِ عَلِيٍّ قَدْ رَفَعْتُ قَضِيَّتِي وأَرْجُو بِهَذا أَنَّ قَدْرِي يُرْفَعُ
إلَى الأَوْحَدِ القَاضِي الأجلِ وَمَنْ لَهُ ثَنَاءٌ يَفُوقُ المِسْكَ إذْ يَتَضَوَّعُ
رَئِيسٌ إذَا مَا اسْتَبْطأَ الوَفْدُ جُوْدَ مَنْ أتَوهُ أتَاهُمْ جُودُهُ يَتَسَرَّعُ
وَفِيهِ مَعَ القَدْرِ العَلِيِّ تَوَاضُعٌ وَفِيهِ عَنِ الفِعْلِ الدَّنِيِّ تَرَفُّعُ

إلى آخر مِدَحِ ابن حجر التي يكيلها لذلك الرجل جزافاً. إلى أن يصل إلى تلك النفرة التي وقعتْ بينهما فيقول:

أَيَا ابْنَ الكِرَامِ اسْمَعْ شِكَايَةَ مُفْرَدٍ غَرِيبٍ لَهُ فِي بَحْرِ جُودِكَ مَشْرَعُ
لَقَدْ ضَاقَتِ الدُّنْيَا عَلَيَّ بِرَحْبِهَا وَإنْ ضَاقَتِ الدُّنْيَا فَعَفْوُكَ أَوْسَعُ
فَإنْ لَمْ تُعَامِلْ مِنْكَ عَبْدَكَ بِالرِّضَا فَمَنْ فِيهِ بَعْدِي لِلصَّنِيعَةِ مَوْضِعُ؟
لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّي مَقَالَةً لَمُبَلِّغُكَ الوَاشِي أَغَشُّ وَأَخْدَعُ(٥)

رَأْوكَ إِلَى مَا سَاءَنِي مُتَسَرِّعـاً فَقَالُوا وَزَادُوا مَا أَرَادُوا وَأَسْرَعُوا
وَلَوْ كُنْتَ تَرْعَى الْوُدَّ مَا مِلْتَ نَحْوَهُمْ بِسَمْعٍ رَعَاكَ الله دَهْراً وَلاَ رُعُوا
وَكَيْفَ يُعَادِي آلَ بَيْتِكَ عَاقِلٌ وآلُ عَلِيٍّ لِلْمُوَالاَةِ مَوْضِعٌ(٦)
لَظَهْرُكَ أَحْمَى مِنْ مُحَيَّا عَدُوِّهِ وَيُسْرَاكَ مِنْ يُمْنَاهُ أَنْدَى وَأَنْفَعُ
سَأُثْنِي عَلَيْكَ الدَّهْرَ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ وَبَحْرُ امْتِدَاحِي زاخِرٌ فِيكَ مُتْرَعُ
وَقُلْ لِي إِذَا لَمْ تَنْخَدِعْ بِمَدَائِحِي أَلَمْ تَتَيَقَّنْ أَنَّ مَنْ جَادَ يَخْدَعُ؟!!
وَمَنْ يَزْرَعِ النُّعْمَا بِأَرْضٍ كَرِيمَةٍ سَيَحْصُدُ أَضْعَافَ الَّذِي ظَلَّ يَزْرَعُ
وَمَا الشِّعْرُ إِلاَّ دُونَ قَدْرِكَ قَدْرُهُ وَمَا يَسْتَوِي فِي الْقَدْرِ بَاعٌ وَأُصْبُعُ
ولكِنَّمَا سَنَّ الكِرَامُ اسْتِمَاعَهُ وَتَعْظِيمَ مُنْشِيهِ الَّذِي يَتَصَنَّعُ
وَمَا كُلُّ مَنْ قَالَ القَرِيْضَ أَجَادَ فِي الْـ ـمقَالِ وَلاَ كُلُّ الُمجِيدِينَ مُبْدِعُ
فَهَاكَ قَصِيْدُ شَجَّعَتْنِي صِفَاتُكُمْ عَلَيْهَا ففاقتْ كُلَّ مَا قال أشجعُ(٧)

وهذه القصيدة من أطول ما جاء في ديوانه من مدح قالها في اليمن مما يدل على خطورة الأمر بين الرجل وتوقُّع الشرِّ المحيق بصاحبنا من ذلك الوزير، كما تدل عليه القصيدة.

وكان للوزراء مكانة كبيرة عند ملوك بني رسول حتى غدا من شأنهم إصدار الأوامر الجائرة فوق حكم السلطان، وقد وقعتْ حادثة لبعض أدباء ذلك العصر مع بعض الوزراء تشبه تلك التي جرت لابن حجر مع ذلك الوزير فقد ذكر المؤرِّخ البريهي(٨) أنَّ الأديب محمد بن محمد بن إدريس العلوي المتوفي سنة ٨٤١ مدح السلطان الظاهر ببديعيّة عجيبة فأحال له السلطان على المتولِّي بحِصن تَعِزَّ بخمس مئة دينار فمطله، فهجاه العلويُّ المذكور وشكاه إلى السلطان فأذن له بتأديبه، وأراد قتله فشفع له الإمام العلامة ابن الخياط فقبل شفاعته على شرط أن لا يوجد في البلد فأطلقه فدلّت هذه الحادثة على عظم مكانة الوزراء في ذلك العصر، ولا يبعد أن يكون ابنُ حجر العسقلاني قد توجَّس شرًّا من ذلك الوزير فاستعطفه بقصيدته تلك وهي من غرر ديوانه.

على أنَّ مكانة ابنِ حجر لا تخفى على أدباء اليمن وعلمائه وقد ذكر وفادته إلى

اليمن معاصره المؤرخ البُريهي فقال في تاريخه[٩]: (الإمام العلامة عمدة المحدثين، وقدوة المحقّقين، حافظ العصر، ونادرة الدّهر شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. وفَدَ إلى اليمن صُحْبَةَ أمين الدين مفلح بن عبدالله تاجر السلطان الناصر في أول المئة التاسعة، واجتمع إليه جماعة من فقهاء اليمن فأفادهم واستفاد منهم). انتهى

وما كاد يستقر بمدينة زَبيد حتى بَعَثَ إليه شاعر اليمن وفقيهها الأديب إسماعيل بن أبي بكر المقري بقطع شعرية متَناثرة يثني فيها على ابن حجر من ذلك قوله:

قُلْ لِلشهاب ابن عليٍّ بن حَجَرْ ... سُوراً على مَوَدَّتي مِنَ الْغِيَرْ
فَسُورُ وُدِّي مِنْكَ قَدْ بَنَيْتُهُ ... من الصَّفَا وَالْمَرْوَتَيْنِ والْحَجَرْ

وفيه تورية باسم ابن حجر فيجيبه المذكور بقوله:

عَوَّذْتُ سُوَر الْوُدَّ مِنْكَ بِالسُّوَرْ ... فَهْوَ عَلَى الْعَلْيَاءِ بِالْحُكْمِ حَجَرْ
يَامَنْ رَقَى في المَجد أَنْهَى غَايَةٍ ... بِالْحَقِّ أَعْيَتْ مَنْ بَقِيْ وَمَنْ غَبَرْ
فَضْلُ سِوَاكَ مُدَّعَى أَوْ نَاقِصٌ ... كَأَنَّهُ (إنَّ) أَتَتْ بِلَا خَبَرْ
لأَنْتَ بِالصِّدْقِ إسماعيل له (؟) ... وَصْفٌ عَلَى كُلِّ الْوَرَى بِهِ افْتَخَرْ

وهناك قصيدة تُعَدُّ من غُرَر الأدب اليمني كتبها سِيبَوَيْهِ اليمن الأديب برهان الدين إبراهيم بن إسماعيل الجحافي المتوفي نحو سنة ٨١٠ يمدح فيها العلامة ابن حجر لما سمع بقدومه اليمن يقول فيها:

شُكْرِي لِسَيْرِ السَّابِقَاتِ الْعِرَابْ ... الأعْوَجِيَّاتِ بَنَاتِ العِراب
ولِلْمَهَارِيِّ التي لم تَزَلْ ... تَخُوضُ في السَّبْسَبِ لُجَّ السَّرَابْ

وهي من نفائس الشعر، وقد أثنى عليها شاعر اليمن المعاصر الأديب أحمد بن محمد الشامي في دراسته عن أدباءِ اليمن، وقد تحسَّرَ على فقدان نصّها الكامل.

وما كادت تَصِل القصيدةُ إلى يد العلاّمة ابن حجر حتى يجيب عليها بقصيدة على نفس الرّوي وقد ردت كاملةً في ديوانه ص ٩٤ (ط الهند). ومطلعها:

أَهْلاً بِها حَسْنَاء رُوْد الشَّبَابْ وَافَتْ لَنَا سَافِرَةً لِلنِّقَابْ
مُفْتَرَّةً عَنْ جَوْهَرٍ رَائِعٍ لكِنَّ مَأْوَاهُ الثَّنَايَا الْعِذَابْ
جَادَتْ بِوَصْلٍ نَاعِمٍ أَنْعَشَتْ بِهِ فُؤَادَ الصَّبِّ بَعْدَ الْتِهَابْ
فَأَسْكَرَتْنَا بِأَحَادِيثِهَا وَلَمْ نَذُقْ مِنْهُ كَأْسِ الشَّرَابْ
فيها كُؤُوس الشُّرْب مِلأَ طَلِّ أَرْفَعُ مِنْهَا لِلنُّهَى بِانْتِهَابْ
وَمَا الرِّيَاضُ الزَّاهِرَاتُ الرُّبَا جَادَلَهَا الْغَيْثُ بِفَرْطِ انْسِكَابْ
غَنَّاءُ غَنَّى الرَّوْضَ أَوْرَاقُهَا فَنُقِّطَتْ عُجْباً بِدُرِّ السَّحَابْ
فَرَاقَتِ الأَبْصَارَ أَغْصَانُهَا وَأَطْرَبَ الأَسْمَاعَ وَقْعُ الرَّبَابْ
يَوْماً بِأَبْهَى مِن حَدِيثٍ لَهَا أَحْيَا مَوَاتَ الأَدَبِ الْمُسْتَطَابْ
أَهْدَى لَنَا كَانُونُ أَزْهَارَهَا فَقُلْتُ يَا بُشْرَايَ نَيْسَانُ آبْ
قَبَّلْتُهَا ثُمَّ تَرَشَّفْتُهَا وَمَا تَجَاوَزْتُ الرِّضَا بِالرُّضَابْ
كَأَنَّهَا نَابَتْ قَصِيداً زَهَتْ مِنْ نظم (إبراهيم) أُدْنَى مَنَابْ

وفيها يخاطب الجحافي المذكور:

مَوْلاَيَ هذِي خِدْمَةٌ قَصَّرَتْ بِالْعَجْزِ عَنْ نَظْمٍ إِذَا طَالَ طَابْ
بِتُّ بِهَا فِي لَيْلَتِي ظَامِئاً أَرُومُ تَعْوِيضَ الشَّرَابِ السَّرَابْ
أَضْرِبُ أَخْمَاسِيْ بِأَسْدَاسِهَا وَلاَ يَدُورُ النَّظْمُ لِي فِي حِسَابْ
أَثْبَتُّ عَنْ مَرْجَانِكُمْ بِالْحَصَا فَاللهُ يُوْلِيكَ جَزِيلَ الثَّوَابْ

وتُنبِيءُ القصيدة المذكورة أن ابن حجر كان يحلو له تعاطي الألغاز الشعرية مع أدباء عصره كما هي عادة الأدباء في ذلك الوقت، فهو ما يكاد يختم قصيدته السَّابقة حتّى يلحقها بلغْزٍ منْظوم على نفس رَويِّ القصيدة يقدّمه إلى صاحبه الجحافي يقول فيه:

وهَاتِ فَسِّرْ: مَا اسْمُ ذاتٍ إِذَا مَا صَحَّفُوه كَانَ مَأْوَى الرُّضَابْ
وإِنْ تُبَدِّلْ مع إِذَا أَوَّلاً مِنْهُ تَرَ لُغْزاً يَرُومُ الْجَوَابْ

وهو لغز نحويٌّ لعلمه تَمَرُّس صاحِبنَا الجحافي بهذا الفَنّ.

وقد كانت الألغاز عند الأدباء في اليمن خلال ذلك الوقت لعبةَ الأدباء وسلوتهم[١٠] وهذا الجحافي ــ خصوصاً ــ كان مولعاً بهذا الجانب، فقد ذكر البُريهي في ترجمته إعجابه بالألغاز، وذكر أنَّ ابن حجر لما قدم إليه قصيدته السابقة إجابةً عنه، (ذكر بقصيدته شيئاً من اللّغز فعرفه الجحافي وأجاب عليه على غير هذه القافية).

وكذا طارح الأديب إسماعيل بن أبي بكر المقري ابنَ حجر العسقلانيَّ الألغاز، أورد بَعْضاً منها جامع ديوانه.

في الشوق إلى الأحبة:

على أنَّ ابن حجر لم يكن يطيب له المقام في اليمن وقد لاقى من المنغِّصات ما فيه الكفاية، وهو لا يكاد يطيق فراق أسرته التي تركها في القاهرة وحيدةً تنتظر منه العون والمواصلة. وقد كتب ابن حجر في غربته تلك أروع نظمه في التشوق إلى أهله وأولاده. وهو لا يفتأ يُذَكِّرُ ممدوحيه بحنينه وشوقه ذاك. ولعلَّ سر جمال شعره في البعض منه يعود إلى تلك الخصّيصة التي تَمَيَّزَ بها من صدق الإحساس والتعبير عنه.

يحدثنا عن فراق أحبَّتِهِ فيقول:

فَــارَقْتُــهُ فَلَقِيْتُ كُــلَّ تَــذَلُّــلِ ... مِنْ بَعْـدِ عِزِّي عِنْـدَهُ وتَـدَلُّـلِي
بِالله يا مَحْبُـوبَ قَلْبِي هَلْ تَـرَى ... بَعْدَ الْقِلَا عَوْدَ اللِّقاءِ الأَوَّلِ ؟!
مَنْ لِي بِوَجْهِكَ وَالدِّيَارِ وَثَـرْوَةٍ ... وَرِضاً يَدُومُ لَنَـا وفَقْدِ الْعُـذَّلِ

ويخاطب ممدوحه فيقول له لولا سعادته بلقائه لما تجشم صعوبة الرحلة وفراق الأهل:

وَحَقِّ رَأْسِكَ لَوْلَا أَنْت مَا صَبَرَتْ ... نَفْسِي على فُرْقَتِي أَهْلِي وأَطْفَالِي[١١]
كَحَلْتُ طَرْفِي بِمِيْلِ السُّهْدِ إِذْ بَعَدُوا ... فَالدَّمْعُ من مُقْلَتِي يَجْرِي بِأَمْيَالِ

هذا المنحى الإنساني يتكرر في أكثر شعر ابن حجر ويزيده إذْكاء ولوعة نُزُوحه.

عن الوطن، وبُعْدُهُ وعدم تجلّده على فراق من تركهم بقاهرة المعزّ من صبية صغار كَزُغْبِ القطاحسب تعبير الحُطيئة.

نجد في شعر ابن حجر الإفصاح عن ذلك كثيراً، وهو يُعَلِّلُ سَبَبَ فراقه عنهم بالسعي لهم عن أسباب الرزق :

فَـوَالله مَـافَـارَقْتُهُمْ عَنْ مَـلاَلَـةٍ   وَهَلْ مَلَّ ظَام مَوْرِداً فِيْهِ يَشْرَعُ
ولكنَّ ضِيْقَ الْعَيْشِ أوْجَبَ غُرْبَتِي   وَسَعْيِي لَهُمْ في الأرض كَيْ يتوسَّعُوا
فَـإنْ يَسَّرَ الله الكـريمُ بِلُطْفِـهِ   رَجَعْتُ ومِثْـلِي بِـالْمَسَـرَّةِ يَـرْجِـعُ

إنَّها ذَاتُ اليد جعلته يَهيم على وجهه مخلّفاً وراءه من يلوذ به ويُؤْنَسُ بِهِمْ.

وهو يَرَى الْغُربَةَ الحقيقية في فراق الخِلّان، لا الأوطان:

مَنْ سَـرَّهُ وَطَنٌ يَوْمـاً أقَامَ بِـهِ   فـإنني سَـاءَنِي مِنْ بَعْـدِهِ وَطَنِي
إنَّ الْغَـرِيبَ الَّذِي تَـنْـأَى أحِبَّتُهُ   عَنْ طَرْفِهِ لاَ الَّذِي يَنْأَى عَنِ السكَنِ

وفي اليمن يستعيد ذكرياته عن مصر، حيث أيام الصبوة والشباب:

كأنِّيَ لَمْ أمْرَحْ وَأمْزَحْ مَعَ الرَّشَا   بمِصْرَ ولَمْ أفْرَحْ بِصَحْبِي وَأحْبَابِي
وَلَمْ تَـرَنِي عِنْـدَ الْتِقَـاءِ حَبَـائِبِي   هُنَالِكَ لَمْ احفلْ بعِلْمِي وَآدابِي
وَلَمْ أرْمِ عُـذَّالِي وأحْفِظُ قَاتِـلِي   وَحَـاجِبَهُ واللحْظُ قَـوْسِي ونُشَّابِي
وَلَمْ يَكُ نَقْلُ اللَّثْمِ فِي صَحْنِ خَدِّهِ   وَبِالثَغْرِ أوْ بالرِّيق خَمْرِي وأكْوَابِي

وتمر به الخواطر معادة مكررةً حيث يحلو له استجرار أيامه في مصر في ربع الأحبة والأهل:

رَفَعْتُ صَبْرِيَ عَنِّيَ إذْ رَحَلْتُ وَقَدْ   لَقِيتُ في سَفَرِي مِنْ بَعْدِهِمْ نَصَبَا
هَلْ عائِدٌ والأمَانِي لَمْ تَزَلْ عَرَضاً   لِلْقَلْبِ مِنْ جَوْهَرِ الأفْرَاحِ مَا ذَهَبا
يَاكَامِلَ الْـحُسْنِ حُزْنِي وَافِرٌ وأرَى   وَجْدِي مَدِيدٌ وَصَبْرِي عَنْكَ مُقْتَضَبَا
أيَّامَ أمْسَى حَبِيبُ القَلْبِ مُغْتَرِباً   مِنِّي وأبْعَدَ مَنْ قَد كانَ مُرْتَقِباً
لاَ أبْعَدَ الله أيَّاماً بِقربكَ قَدْ   حَلَتْ وَلكنَّهـا مَـرَّتْ فَـوَاعَجَبَـا

حَتّى قَضَى الله بِالتّرْحَالِ عَنْهُ فَقَدْ أمسى الحبيبُ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُحْتَجِبَا
عُوِّضْتُ بِالْبَدْرِ مُحْقاً والرِّضَا سَخَطاً وَبِالْوِصَالِ جَفاً والدُّرِّ مُخْشَلَبَا(١١)

نعم لم يكن ابن حجر راضٍ عن فراق الأحبّة وقد استعاض بهم في اليمن نَصَباً وهمًّا فهو لا يفتأ يصرّح بِغَبْنِهِ في صفقته تلك الخاسرة عندما يذكر مصر ولياليها:

تَرَكْتُ شَرَابَ النِّيلِ حُلْواً وبَارِداً فكم خـدْعَةٌ لِي بَعْـدَهُ بِشَرَابِ
وَفَـارَقْتُ مَـالاَ طَاقَةٌ لِفِـرَاقِـهِ فما طَرَقَ السُّلْوَانُ سَـاحَةَ بَـابِي
وَكَمْ قَطَعَتْ عِيْسِي وَوَاصَلْتِ السُّرى مَهَامِه فِي الْبَيْـدَاءِ جِدُّ صِعَـابِ
مَجَـاهِلَ سَمَّـاهَا الجَهُـولُ مَعَالِماً نَعَمْ لِسِقَـامِي بِـالنَّـوَى وعَـذَابِي
وَكَمْ عَقَبَـات قَدْ تَبَـدَّلَ بَعْدَهَـا نَعِيْمِي بِـأَوْطَانِي بِـطُولِ عِقَـابِ

وهو يَتَلهَّف العودة ويتحسر على أيامه بها في شعر لا يخلو من عاطفة صادقة يقول:

مَتَى يَتَجَلَّى أُفْقُ مِصْرَ بِأَقْمَـارِي وَأرْوِي عَنِ اللُّقْيَا أَحَادِيثَ بَشَّارِ
إِلَى مِصْرَ واشَوْقاً لِـمِصْرَ وَأَهْلِهَا تشـوُّقَ صَبٍّ لِلنَّوَى غَـيْرِ مُخْتَارِ
أَيَا وَحْشَتِي يَامِصْرَ مِنْـك لِبَلْدَةٍ لِدَاخِلِهَا بِالأَمْنِ بُشْرَى مِنَ الْبَارِي
تَهُبُّ نُسَيْمَاتُ الشَّمَالِ بِـأَرْضِهَا فَيَنْشَقُ مِنْهَا الأَنْفُ جَوْنَةَ عَطَّارِ
مُحَسَّـدَةٌ لاَ قَـدْحَ فِيهَـا لِعَـائِب على أنَّ زَنْدَ الْفَضْلِ مِنْ أهْلِهَا وَارِي
إِذَا فَاخَرُوهَـا قَامَ صَـارِمُ نِيْلِهَا بِمِقْيَاسِ صِدْقٍ كَاسِراً كُلَّ فَخَّارِ
مَـرَاتِـعُ لَـذَّاتِي وَمَلْهَى شَبِيبَتِي وَمَبْـدَأُ أَوْطَانِي وغَـايَـةُ أَوْطَـارِي

إلى آخر تشوقه إلى مصر، وتلهّفه لأهلها وهو بقدر حُبِّهِ لموطنه نجده قد كره المقام باليمن حتى صرّح بذلك في تورية لطيفة يشير فيها إلى مدينتي اليمن عَدَن وتَعِزّ، يقول بعد تصريحه بفقدان الصبر عن الأهل والولد:

كلُّ اصْطِبَارِي لما كُلِّفْتُ مِنْهُ وَقَدْ عَدِمْتُ صَبْرِي وَعَزْمِي، حين كَلَّفَنِي
لا أَبْعَدَ الله أحْبَابِي الذين شَرَوْا رِقَّ الـمُحِبِّ بِمَا اخْتَارُوا مِنَ الثَّمَنِ
وَلَا عَدِمْتُ لَيَالِي وَصْلِهِمْ فَبِهَـا مَرَحْتُ وهْيَ شَبِيْهُ الرَّوْض كَالْغُصُنِ

طَابَتْ خَلاَئِقُهُمْ مِنْ صَفْوِهَا فَغَدَتْ تُعْزَى إِلَى عَدَنٍ دع (؟) تُعْزَى إلى عَدَنِ

حديث العودة:

لِذَا كله لا نستغرب أن يستعجل ابن حجر أمر الرحلة عن اليمن، ويُجْمِعُ أمره للنزوح عنها بأقصى سرعة فهو قد مل المقام بها ورضي من الغنيمة بالإياب.

بل نجده يذكر شأن العودة في ممادحه للملوك بني رسول، عند أول قدومه أرض اليمن حيث يقول مخاطباً الملك الأشرف إسماعيل:

وَرَجَائِي تَشْرِيفِي بِمَرْسُوم بِهِ غَضَبُ العَدُوِّ إِذَا بَدَا وَرِضَا الْوَلِي

رحل ابن حجر العسقلاني عن اليمن وقد ترك أمراً لا يُنْسَى في تاريخ الثقافة بها، حيث خلّف تاريخاً له، يذكر كلما ذكر هذا الرجل الجليل.

صنعاء: عبد الله محمد الْحِبْشي

الهوامش:

(١) كيف يخفى على محدث جليل ــ بل عالم الحديث النبوي الشريف في عصره الإمام ابن حجر ــ أنّ القسم بغير الله شركٌ كما ورد في الحديث: «من حلف بغير الله فقد أشرك» إنها شطحات الشعراء، أو ذهول العلماء ــ العرب ــ

(٢) إطلاق وصف (ملك الملوك) على غير الله جَلّ وعلا مما ورد الشرع بحرمته، وجاءت أحاديث عن المصطفى ﷺ بذلك، وعقد شيخ الإسلام الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في كتاب «التوحيد» باباً لذلك، أورد فيه بعض الأحاديث وأقوال علماء السلف في ذلك ــ العرب ــ

(٣) ترخيم يا مالك.

(٤) تقدمت الاشارة إلى حرمة القسم بغير الله.

(٥) مأخوذ من بيت النابغة الذبياني: لئن كنت قد بلغت عني خيانة لمبلغك الواشي أغش وأكذب.

(٦) إشارة إلى حديث من كنت مولاه فعلي مولاه وفيه تورية إلى والد الممدوح.

(٧) يعني به أشجع السلمي أحد فصحاء العرب.

(٨) أنظر تاريخ البريهي ص ٣٢٣ بتحقيقنا.

(٩) المصدر السابق ص ٣٣٩.

(١٠) أنظر على سبيل المثال «ديوان ابن حجر العسقلاني» المطبوع في الهند سنة ١٣٠٥هـ فيه العديد من الألغاز بعضها طارح فيها ابن حجر العسقلاني المذكور.

(١١) لا يجوز القسم بغير الله ــ بنص الحديث النبوي الصحيح...

موقف أدباء الجزيرة من الحملة الفرنسية على مصر

١٢١٣ ـ ١٢١٦هـ (١٧٩٨ ـ ١٨٠١م)

يدرك الناظر في تراث الجزيرة العربية خلال العقد الثاني من القرن الثالث عشر الهجري مدى اهتمام المؤرخين والأدباء باحداث الحملة الفرنسية على مصر عام ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م، فقد سجل المؤرخون أخبار تلك الحملة، وأخذ الأدباء عندئذ يسهمون بشيء من نتاجهم الأدبي في ميدانها، إذ كان لمشاركتهم أثر في تصوير مواقفهم، والتعبير عن مشاعرهم، ولم يكن الأدباء حينذاك بأكثر مشاركة من المؤرخين، وإنما وُجد لهم شيء من النتاج المحدود وبخاصة لدى أدباء اليمن والحجاز، إذ يغلب على ذلك النتاج الأدبي وضوح الحماس الديني، والروح الإسلامية الصادقة، فقد اصطبغت تلك النماذج جميعها بصبغة إسلامية جادة، إذ عدَّ أولئك الأدباء هذا التدخل الأجنبي السافر اعتداءً على البلاد الإسلامية التي لم تشهد مثله من قبل[١].

والحق أن الأدباء بهذه الأنحاء قد استطاعوا أن يصوروا مواقفهم تجاه هذه الحملة، وأن يعبروا عن الآمهم وأحاسيسهم بصدق ووضوح، فقد تبين هذا الشعور الصادق في مضامينهم الأدبية المختلفة، وذلك رغم الروح التقليدية المتكلفة التي برزت في ذلك النتاج الأدبي، ويتحقق هذا القول فيما وجد من نماذج مختلفة في ميداني: الشعر والنثر، وذلك على الرغم من وفرة النماذج النثرية التي قيلت في هذا المجال، وبخاصة في ميدان الرسائل الديوانية، ومع هذا عرفت الخطابة[٢] والوصايا[٣]، وحملت شيئاً من مواقف الأدباء وآرائهم، إلى جانب أساليب المؤرخين الأدبية التي تمثل مواقفهم الثابتة تجاه هذه الحملة الفرنسية، فقد عبرت عن أحاسيسهم وأبانت عن مواقفهم تجاه تلك الأحداث، وذلك في مؤلفاتهم التي ينقلون فيها أخبار زمانهم ومجتمعاتهم[٤].

ويمكن تتبع تلك المواقف الأدبية من خلال دراسة بعض النماذج الشعرية والنثرية، والأساليب التعبيرية، وذلك على الرغم من قلة تلك النماذج في ميدان الشعر التي تعد قليلة بالنسبة لبقية الألوان النثرية الأخرى. ومن ذلك النتاج الشعري قول أحد شعراء الحجاز[٥]:

أيا لهف[٦] نفسي لما قد[٧] جرى ... توالي الخطوب على القاهرة
تولى الفرنج[٨] بها بغتة ... وحلوا منازلها العامرة
ولكن[٩] نرجو[١٠] بفضل الكريم ... تعاد لهم كسرة خاسرة[١١]

ورغم الضعف الذي أصاب هذه الأبيات في أداتها اللغوية وحسها العروضي، ندرك وضوح موقف قائلها من هذه الحملة الفرنسية حينما تحسر على نفسه بصدق، وأشار إلى تلك المحن التي تجري في بلاد المسلمين، إنما هي من الخطوب والرزايا، إذ ظل الشاعر رغم قصوره الشعري يأنس بآماله الواسعة التي يرجو من خلالها أن يصيب الخسران والهوان أولئك المعتدين.

ويزداد موقف أدباء الجزيرة العربية وضوحاً في ميدان النثر، إذ ذكر المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي[١٢] (١١٦٧ ـ ١٢٣٧هـ): أن الناس في الحجاز قد انزعجوا لهذا الأمر، وأخذوا يستجيبون لداعي الجهاد، ويتأثرون بما يقال لهم في المواعظ والخطب، وأضاف لقوله: أن رجالاً من المجاورين لبيت الله الحرام ممن يعدون من نزلاء مكة المكرمة، ومن علماء المسلمين قد أخذوا يدعون للجهاد، وقال: بأن منهم من أخذ يرشد الناس ويدعوهم إلى الجهاد، ويحرضهم على نصرة الحق والدين، وقرأ بالحرم كتاباً مؤلفاً في معنى ذلك، فاتعظ جملة من الناس، وبذلوا أموالهم وأنفسهم[١٣]، ومن هنا ندرك أن العلماء والأدباء قد أسهموا في تأليف النصائح، والمواعظ والخطب من أجل استلهام مشاعر الناس وإيقاظها، فلقد كان المتحمسون منهم يقومون في الناس بالخطابة والوعظ، ويذكرونهم بالمصير، ويدعونهم للجهاد، ويتحقق هذا القول في عمل محمد المغربي الجيلاني الهاشمي[١٤] الذي كان يعظ الناس في البلد الحرام بما يلهب مشاعرهم ويجعلهم

يسهمون في تسيير الجيش وتجهيزه، حتى أن النساء اللاتي سمعن تلك المواعظ والخطب كن يسهمن بالعطايا، ويشاركن بالأموال في سبيل الله، فقد ذكر لطف الله جحاف[١٥] (١١٨٩ ــ ١٢٤٣هـ): أنهن يأتين لسماع ما يمليه من أحاديث الحض على الجهاد، فيلقين إلى الحلقة فتخاتهن وعقودهن وملبوسهن، ويقلن: ذلك الذي علينا ..[١٦]. وهذا يدل على مدى تأثير الخطابة في قلوب الناس، وأن الأدباء والعلماء قد سخروا خطبهم لحض الناس على الجهاد، واشعال حماسهم نحو الفرنسيين المعتدين، وذلك ما يمكن عده من مواقف الأدباء في الجزيرة العربية من هذه الحملة الفرنسية[١٧].

ولم تكن مشاركة الجيلاني تقتصر على دعوة الناس وارشادهم في مكة المكرمة فحسب، وإنما تحقق له شيء من تلك المواقف في بلدان أخرى، فقد ذكر لطف الله جحاف: أن الجيلاني لما نزل بالصفراء[١٨]... دعا إلى الجهاد[١٩]. وأضاف جحاف إلى قوله: أن الناس استجابوا له وأتوه بأموال واسعة[٢٠]، ولم يقتصر اسهام رئيس المجاهدين هذا وخطيبهم على الخطابة فقط بل إنه لما أدركه الموت أوصى الناس بما فيه فلاحهم من الجهاد وتقوى الله، فقد أشار المؤرخ لطف الله جحاف كذلك إلى أن الجيلاني نفسه قد ترك قبل وفاته وصية إلى الناس، أوصاهم فيها بتقوى الله، والجهاد في سبيل الله، والصبر على ملاقاة الأعداء[٢١]، وهذه المشاركات الأدبية في ميدان النثر تعد من مواقف أدباء الجزيرة العربية وعلمائها الذي عدوا هذا الاعتداء الفرنسي تدخلاً في شئون البلاد الإسلامية والعربية.

وفي الحقيقة أن مواقف أدباء الجزيرة العربية من هذه الحملة الفرنسية تزداد وضوحاً في ميدان الرسائل الديوانية التي أسهم في نتاجها عدد من كتاب الدواوين في تلك الفترة وبخاصة أدباء اليمن والحجاز، فقد حفلت كتب المؤرخين حينذاك بشيء من تلك الرسائل الديوانية التي تبادلها حكام الجزيرة العربية وولاتها من أجل هذه الحملة الفرنسية، وبخاصة أشراف مكة المكرمة وأئمة اليمن، وتعد كتب المؤرخين اليمنيين أكثر احاطة بهذه الرسائل، ومن أولئك المؤرخين اليمنيين ــ على سبيل المثال ــ محمد بن علي الشوكاني في كتابه: «البدر الطالع»[٢٢]،

ولطف الله جحاف في كتابه: «درر نحور العين»[٢٣]. إلى جانب بقية مؤرخي الجزيرة العربية، أمثال: ابن بشر والفاخري في كتابيهما: «عنوان المجد»[٢٤]، و «الأخبار النجدية»[٢٥].

ويمكن تتبع مواقف أدباء الجزيرة العربية تجاه هذه الحملة من خلال رسائلهم الديوانية ومكاتباتهم المختلفة، فقد ذكرت المصادر الموجودة بين أيدينا الآن أن المجاهدين الذين خرجوا من الجزيرة العربية من أجل قتال أولئك الافرنج، قد كتبوا عندئذ رسائل لأعدائهم الفرنسيين يدعونهم فيها إلى الإسلام أو للحرب، إذ ذكر لطف الله جحاف في هذا الجانب أن الجيلاني زعيم المجاهدين أوانذاك قد كتب إلى النصارى كتاباً يدعوهم إلى الإيمان بالله ورسوله، فإن أطاعوا، وإلا فهو مقاتل لهم[٢٦]، وأضاف هذا المؤرخ إلى قوله: أن هنالك رسائل متفرقة تحمل أخبار المجاهدين وتعبر عن أحوالهم، وضرب لذلك مثلاً بقوله: جاءت الرسائل إلى مَنْ بأبنود وبئر عنبر مخبرةً[٢٧] بوفاة الجيلاني، وطالبة من المسلمين الوصول للاطلاع على الوصية[٢٨] التي خلفها.

وقد أفاض محمد بن علي الشوكاني في ذكر الرسائل الواردة من شريف مكة المكرمة إلى إمام اليمن حينذاك، وقال بأن شريف مكة غالب بن مساعد[٢٩] ــ ١٢٣١هـ ، أرسل في شهر رجب عام ١٢١٣هـ بكتاب إلى إمام اليمن المنصور بالله علي بن العباس[٣٠] (١١٥١ ــ ١٢٢٤هـ)، وأضاف إلى ذلك قوله أن الشريف المذكور أرسل في طي كتابه بكتاب من سلطان الروم[٣١]، وقد سرد الشوكاني بعد ذلك أخبار تلك الرسائل الديوانية التي ترد من مكة المكرمة إلى اليمن من أجل هذه الحملة، فقال: وصل من الشريف كتاب فيه التبشير باستيلاء المسلمين على من بالقاهرة فضلاً عن الذين منهم بسائر الأقطار المصرية وبالاسكندرية وسنذكرها هنا[٣٢] كتاب السلطان، ثم كتاب الشريف الأول، ثم كتابه الثاني، ثم الجواب من مولانا الإمام حفظه الله تكميلاً للفائدة وتبييناً للقضية، فإنها من الحوادث العظيمة التي ينبغي التعريف بها والإعلام بشأنها[٣٣]، وقد ذكر الشوكاني في موضع آخر بأن هنالك رسائل كثيرة[٣٤]، وصلت من

الشريف فيما يتعلق بهذه القضية[٣٥]، وهذه العناية الفائقة برصد أحداث هذه الحملة، وما جرى بسببها من الرسائل والمكاتبات المختلفة تدل على مواقف الأدباء الواضحة وتشير إلى غيرتهم الدينية، وحماستهم الإسلامية.

ومن الواضح أن تلك المكاتبات لم تقتصر على إمام اليمن وشريف مكة فحسب، وإنما جرى شيء منها بين إمام اليمن نفسه، والحاج يوسف باشا[٣٦] والي المدينة، فقد ذكر الشوكاني أنه ورد ليوسف باشا كتاب من إمام اليمن[٣٧]، وقال بأن هذا الباشا رد على إمام اليمن بكتاب آخر[٣٨]. وعقب الشوكاني من بعد ذلك بقوله: ثم جاءت الأخبار الصحيحة والكتب من شريف مكة وغيره في شهر جمادى الآخرة سنة ١٢١٦هـ ست عشرة ومئتين وألف أن الجنود الإسلامية السلطانية أخرجت طائفة الافرنج اقماهم الله من الديار المصرية بعد أن ضايقوهم وحاصروهم وقتلوا أكثرهم وخرج الباقون في أمان، وعادوا إلى ديارهم، وتواترت هذه الأخبار وصحت والحمد لله رب العالمين[٣٩].

وقد عبر الشوكاني عن موقفه بقوله: فإن هذه الحادثة العظيمة اضطربت لها جميع الديار الإسلامية ورجفت عندها قلوب الموحدين، وتزلزلت بسببها أقدام كثير من المجاهدين، فالحمد لله الذي نصر دينه[٤٠]، وهذا يدل على موقف أدباء هذه الجزيرة العربية وعلمائها من هذه الحملة الفرنسية ويشير إلى اليقظة الأدبية التي انتعشت في هذه الفترة بسبب هذه الظروف العصيبة التي هب فيها الأدباء والأمراء يذودون عن عقيدتهم وأوطانهم، ويعبرون عن مواقفهم تجاه أعدائهم بكل وضوح وصراحة.

وإذا كان محمد بن علي الشوكاني قد أرخ لحركة الرسائل الديوانية في هذا الميدان، وأشار إلى نتائج الحملة الفرنسية على مصر، فإنه قد شهد أسباب تلك الحركة، واستطاع أن يسهم بشيء من نتاجه الأدبي في ميدانها، فالواقع أن محمد بن علي الشوكاني ممن نهض بتدوين الرسائل الديوانية في هذا العهد، إذ ذكر الشوكاني نفسه أنه هو كاتب تلك الرسائل الصادرة من اليمن إلى بقية أجزاء الجزيرة العربية من أجل هذه الحملة، فقد أشار إلى ذلك بقوله: وهذا جواب

مولانا الإمام خليفة العصر المنصور بالله حفظه الله، وهو جواب عن مجموع كتابي الشريف، والمنشى له على لسان مولانا الإمام هو الحقير مؤلف هذه التراجم التي اشتمل عليها هذا الكتاب[٤١]، وقال في موضع آخر: وأنشأ راقم الأحرف جواباتها عن أمر مولانا الإمام[٤٢]، وقال كذلك: وهذه صورة جواب مولانا الإمام حفظه الله على وزير السلطنة من انشاء الحقير أيضاً[٤٣]، ويدل هذا الحال على مشاركة الأدباء في هذا الميدان، وأنهم قد وجدوا في ذلك اللون الأدبي سبيلاً للتعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم مما يعكس مواقفهم الأدبية تجاه تلك الحملة.

ومن تلك الرسائل رسالة الشريف غالب بن مساعد إلى إمام اليمن المنصور علي بن مهدي العباس التي يقول فيها: . . . وإن[٤٤] سألتم عنا فنحمده سبحانه على جزيل فضله وعظيم امتنانه، طيبين بخير وعافية، ونعمة من المولى[٤٥] وافية، والذي نبديه إلى مسامعكم العلية، وأفهامكم الذكية من الأمور الحادثة في الوجود، وجريان[٤٦] أحكام الملك المعبود، لموجب احتياج أهل الإسلام إلى الترفهات عن نهج المهام، وترك حزم الأمور، وغفلتهم عن حفظ الثغور حتى صار ما صار من شرذمة أهل البغي والإنكار من التهجم على بلاد إسكندرية ومصر[٤٧] القاهرة بجنود من البحر على سفائن متواترة، وهم طائفة من جمهور الفرانسة، والملة الباغية التي بفضل الله أعلامهم ناكسة لمشاهدتهم في أحوال المسلمين ترك الثغور[٤٨] من[٤٩] التحصين فهجموا على تلك البلاد فلم يجدوا لجامحهم مدافع ولا حصن راد . . .[٥٠].

وقد بعث الشريف غالب بن مساعد برسالة أخرى إلى إمام اليمن المنصور يخبره فيها بجهاد المسلمين في مصر، وأن الله قد أظهرهم على الفرنسيين، وكان لهاتين الرسالتين أثر كبير في اذكاء روح الحماس الديني عند الأئمة في اليمن، إذ يبدو أن خبر دخول الفرنسيين مصر قد أفزعهم وأحزنهم كما أن أخبار النصر التي وردتهم من مكة المكرمة من بعد ذلك قد أطربتهم وزادت في أفراحهم، لذلك صدرت الرسائل من صنعاء إلى شريف مكة معبرة عن الحالين ومظهرة موقف الأئمة والأدباء في اليمن من هذه الأحداث، ومن تلك الرسائل الرسالة التي كتبها

الأديب محمد بن علي الشوكاني على لسان المنصور علي إلى شريف مكة غالب بن مساعد، وفيها يقول: . . . فإنه وصل من جنابكم العظيم ومقامكم الفخيم كتاب كريم[٥١] يحكي ما صنعت أيدي الكفر بمصر، صانها الله عن كل نكر، فياله من حادث يبلبل الألباب، ويجلب من الأحزان ما لم يكن في حساب، فلقد أبكى وروع وأوجع وأقام وأقعد، وشتت شمل كل أنس وبدد[٥٢]. وآهاً له من خطب يصك مسامع الإسلام، ويخدد الخدود بفيض مدامع الأنام[٥٣]، لا سيما وتلك ديار مطهرة عن أدناس الكفران، مقدسة عن أرجاس الطغيان، معمورة بالإيمان وعبادة الملك الديان على مرور الأزمان، فقد افتتحتها سيوف حزب الله ومحت أدران كفرانها صوارم أصحاب رسول الله، فلقد أظلم الخطب، وادلهم الكرب، وضاقت الصدور، وغلت من الأحزان قدور، ورغب النفير إلى سبيل الله الصغير والكبير، وتشوق إلى جهاد أعداء الله كل جليل وخطير، وكيف لا وهذه نازلة قد نزلت بالإسلام والمسلمين، وفادحة قد عمت المؤمنين أجمعين لأنها في الدين. ومن بعدت عنه ديارها، فقد أحرقت قلبه وقالبه نيارها . . .[٥٤].

ثم قال بعد ذلك: ولقد كنا على عزم شن[٥٥] الغارة، وارسال طائفة من جنودنا المختارة . . . وعند ذلك العزم المتين وافى كتابكم الأخير المشير بالفتح المبين، الحاكي لاستئصال شأفة الكافرين أجمعين، فأنشد لسان حال السرور، وحدا[٥٦] بنا حادي الحبور الذي عم الجمهور:

هناءً محا[٥٧] ذاك الأسى[٥٨] المتقدما فما عبس المحزون حتى تبسما

فلقد انجابت ظلمات الهموم، وتقشعت غيوم الغموم[٥٩]، وابتلجت الخواطر وقرت النواظر، وعند بلوغ تلك الأخبار أشعرنا هذه المسار الكبار بما شاع في جميع الأقطار وذاع بين البوادي والحضار، فيالها من مسرات شدت من عضد الدين، وفتت سواعد الملحدين، وقصمت ظهور الكافرين، وقلقلت معاهد المعاندين، اللهم إنا نحمدك حمداً لا يحيط به الحصر، ونشكرك على ما منحت أمة نبيك من هذا الفتح والنصر . . .[٦٠]، ولم يكتف المنصور علي بمكاتبة شريف مكة، وإنما أرسل خطاباً آخر إلى وزير السلطنة الحاج يوسف باشا والي المدينة يبين له فيه

موقفه الواضح من هذا الاعتداء على مصر، ويظهر له استعداده لحرب أولئك الفرنسيين، ويرى أن لمّ الشمل، واتحاد الكلمة من أسباب النصر والظفر[٦١]، وهذا يعكس مواقف ولاة الأمر في هذه الجزيرة العربية من تلك الأحداث، إذ برزت واضحة لدى الأدباء الذين تولوا حينذاك كتابة هذه الرسائل وتدوينها.

وإذا كانت تلك المواقف الأدبية قد تجلت في الأنماط النثرية المعهودة فإنها قد تحققت أيضاً في الأساليب التعبيرية الأخرى التي نقل بها المؤرخون أخبار هذه الحملة، فقد اتسمت تلك الأساليب بالروح الأدبية، واصطبغت بصبغة ذاتية مميزة، ولعل ذلك يتحقق في كتابات المؤرخين بهذه الجزيرة العربية من أمثال: الشوكاني[٦٢]، ولطف الله جحاف[٦٣]، وابن بشر[٦٤] والفاخري[٦٥] وغيرهم ممن تعرض لذكر هذه الأحداث، ومما قاله الشوكاني في هذا الشأن: ومما ينبغي ذكره هاهنا[٦٦] أنه وصل من الشريف المذكور في عام تحرير هذه الأحرف، وهو سنة ١٢١٣هـ في شهر رجب كتاب ... يتضمن الأخبار بالرزية العظمى، والمصيبة الكبرى والبلية التي تبكي لها عيون الإسلام والمسلمين، وهي استيلاء طائفة من الفرنج يقال لهم الفرنسيين على الديار المصرية جميعها ووصولهم إلى القاهرة وحكمهم على من بتلك الديار من المسلمين ...[٦٧]، وهذا يدل على احساس الشوكاني بأحداث عصره التي رآها من الرزايا العظمى والمصائب الكبرى، فالحق أن مشاعر هذا المؤرخ الأديب لتفيض بالأحاسيس الصادقة تجاه الإسلام والمسلمين.

ويشبه لطف الله جحاف معاصره الشوكاني من حيث اتصاف أساليبه التعبيرية التي نقل بها هذه الأحداث بالمسحة الأدبية والاحساس الصادق، فقد قال جحاف في صدر أحاديثه عن هذه الحملة: وفيها وردت الأخبار بدخول الفرانسة جعل الله ديارهم دارسة، وغيرهم من الافرنج الأبالسة، ديار مصر طهرها الله من الدنس، فاستولوا عليها، ومدوا أيدي الكفر إليها وأظهروا بها الفساد، وعاثوا وتسلطوا على من بها من المسلمين ولاثوا كل ذلك بضرب من الخداع والمكر والحيل والأطماع ...[٦٨]، ويمكن للناظر في هذه النصوص أن يدرك مواقف المؤرخين الأدباء من

هذه الحملة الفرنسية، وأن يلمح صدق المشاعر وحسن العرض، فالحق أن هذه الأساليب لا تخلو من الملامح التصويرية المناسبة التي يمكن إدراكها في بقية الألوان النثرية الأخرى.

ومهما يكن الأمر، فإن هذه النصوص السابقة التي حملت مواقف الأدباء بهذه الجزيرة العربية تجاه الفرنسيين قد اتسمت بالروح الدينية الصادقة إذ كانت معانيها تدور حول ابراز المشاعر الإسلامية(٦٩) والدفاع عن الوطن العربي الإسلامي أمام الفرنسيين(٧٠)، ولكنها رغم ذلك لم تسلم من التكلف البديعي، والمحافظة على الأساليب المعهودة في العصور الأدبية الضعيفة، وذلك من حيث التزام السجع، والاكثار من استخدام ألوان البديع المعروفة، ولعل ما يمكن ملاحظته في هذه النصوص أن أصحابها قد أسرفوا إلى حد ما في اطالة الديباجات، والميل الشديد إلى التفخيم(٧١)، ولكنهم كانوا حينما تنتابهم مشاعر الجد يهملون إلى حد ما هذا النهج التقليدي، وينصرفون إلى التعبير عن مشاعرهم وأحاسيسهم، ويؤكد هذا القول ما ذكره الشوكاني في معرض حديثه عن إحدى الرسائل الديوانية التي حررها، إذ قال: هذا الكتاب عن أمر مولانا الإمام حفظه الله، وهو على نمط ما قبله من كتابي الشريف في عدم انتخاب أعلى طبقات بلاغات الكتاب، إذ المقام مقام مكالمة في رزية في الدين ومصيبة عمت المسلمين، فمعظم المراد وغاية القصد هو الإفهام بلسان الأقلام لا التأنق في تحرير الكلام على أتم نظام(٧٢).

ولعل ما يمكن الخروج به من هذه النصوص أن أدباء الجزيرة العربية في ذلك العهد قد شاركوا إخوانهم الأدباء في مصر والشام في تصوير مواقفهم ومشاعرهم تجاه هذه الأحداث، وأنهم قد أسهموا بنصيب ما في هذا الميدان الذي يعد مجهولاً لدى كثير من مؤرخي الأدب، فقد تبين من هذه الألوان النثرية والأساليب التعبيرية وضوح الرابطة الإسلامية، وقوة المشاعر الدينية، وذلك ما يأنس له الباحث ويستحسنه في تلك الفترات العصيبة من تاريخ الأمة الإسلامية.

أبها: كلية اللغة العربية   د. عبدالله بن محمد أبو داهش

فهرس المصادر والمراجع:

أولاً: المخطوطات:

(١) عاكش، الحسن بن أحمد عاكش، «عقود الدرر في تراجم علماء القرن الثالث عشر»، نسخة جامعة الملك سعود، المكتبة المركزية، قسم المخطوطات، رقم ١٣٣٤، تاريخ النسخ ١٣٤٦هـ .

ثانياً: المطبوعات:

(١) القرآن الكريم.

(٢) ابن بشر، عثمان بن عبدالله . «عنوان المجد في تاريخ نجد»، ج ١، ط ٤، مطبعة دار الهلال للأوفست الرياض ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م (من مطبوعات دارة الملك عبد العزيز ٢٧).

(٣) الجاسر، حمد. «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية»، مقدمة تحتوي أسماء المدن والقرى وأهم موارد البادية، القسم الأول أ ــ ض، ط ١ مطبعة نهضة مصر، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر الرياض .

(٤) الجبرتي، عبد الرحمن. «تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار»، ج ٢، دار الجيل بيروت، بدون تاريخ.

(٥) ابن زبارة، محمد محمد. «نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر»، ج ٢، مطبعة السلفية القاهرة، ١٣٤٨هـ .

(٦) سالم، سيد مصطفى، (جامع). «نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر»، مطبعة الجبلاوي مصر، ١٩٧٤م، منشورات مركز الدراسات اليمنية (٣).

(٧) الشوكاني، محمد بن علي. «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع»، ج ٢، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.

(٨) الفاخري، محمد بن عمر، «الأخبار النجدية»، تحقيق عبدالله بن يوسف الشبل، مطبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر، بدون تاريخ.

(٩) كحالة، عمر رضا. «معجم المؤلفين، تراجم مصنفي الكتب العربية»، دار احياء التراث العربي، بيروت، توزيع مكتبة المثنى لبنان، بدون تاريخ.

(١٠) مردم، خليل. «أعيان القرن الثالث عشر»، ط ٢، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٧٧م.

الهوامش:

(١) قال محمد بن علي الشوكاني: «وهذا خطب لم يصب الإسلام بمثله . . .» «البدر الطالع»، ج ٢، ص ٨.

(٢) انظر «نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر»، جمع سيد مصطفى سالم ص ٩٦، ٩٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٠٣.

(٤) لقد اعتمدت في إيضاح هذه المواقف على كتابي «البدر الطالع» للشوكاني، و «درر نحور العين»، للطف الله جحاف، ورغم وجود نسخة مصورة من «درر نحور العين» في مكتبتي إلا أنني فضلت الإفادة من كتاب «نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر»، جمع سيد مصطفى سالم في ميدان الاقتباس من النصوص وذلك لعدم وضوح المصورة التي في مكتبتي والمأخوذة من مصورات بعثة الجامعة العربية إلى اليمن.

(٥) قال ابن بشر في تاريخه «عنوان المجد»: إنه من: أدباء أهل الحرمين ج ١، ص ٢٥٠ ووافقه المؤرخ محمد بن عمر الفاخري في تاريخه «الأخبار النجدية» وقال بأنه من: فضلاء أهل الحرمين ص ١٣٠، واتفق المؤرخان على أن هذه الأبيات قيلت في تاريخ دخول الفرنسيين مصر، وأضافا بيتاً للشاعر في هذا الشأن هو عند ابن بشر: (وقد صح ما قال تاريخه إله حكمته قاهرة) ج ٢، ص ٢٥٠ وفيه كسر، ويستقيم إذا قيل: (إله له حكمة . . .). وعند الفاخري: (وقد صح ما قال تاريخه إله له حكمة بالغة)، ص ٢٥٠.

(٦) هكذا في «الأخبار النجدية»، وفي «عنوان المجد»: (بالهف)، ص ٢٥٠، والصحيح ما أثبت.

(٧) هكذا في «عنوان المجد»، وفي «الأخبار النجدية»: (على ما) ص ١٣٠.

(٨) هكذا في «عنوان المجد» وفي «الأخبار»: (الافرنج) ص ١٣٠.

(٩) كذا في الأصل، ولعل الصواب: لكنّا.

(١٠) زيادة في «عنوان المجد»، ص ٢٥٠.

(١١) عثمان بن بشر، «عنوان المجد في تاريخ نجد»، ج ١، ص ٢٥٠.

(١٢) من مؤرخي مصر وعلمائها، ولد سنة ١١٦٧هـ، تلقى تعليمه في الأزهر، وعمل ضمن كتبة الديوان إبان حملة نابليون على مصر، وتولى الافتاء الحنفي في عهد محمد علي، له مؤلفات ومشاركات في بعض العلوم، توفي سنة ١٢٣٧هـ. انظر «معجم المؤلفين» لعمر رضا كحالة، ج ٣، ص ١٣٣.

(١٣) «تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار» ج ٢ ص ٢٥٠.

(١٤) قال سيد مصطفى سالم إن لطف الله جحاف، والجبرتي اللذين أرخا للحملة الفرنسية على مصر لم يذكرا ترجمة للجيلاني هذا، وإنما أشار إلى أن الجبرتي فقط ذكره باسم الكيلاني، وأضاف سيد مصطفى أن هذين المؤرخين: اكتفيا بتتبع أحداثه حتى استشهاده، «نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر»، ص ٩٦، وقال جحاف: إن الناس استمعوا إلى ارشاده إلى أنهج الطرائق وفعل دعاه بالقلوب ما فعل، المصدر نفسه، ص ٩٦.

(١٥) من مؤرخي اليمن وفقهائها، ولد بمدينة صنعاء سنة ١١٨٩هـ، وتلقى العلم على يد جملة من علمائها، ترجم له شيخه الشوكاني، وتلميذه عاكش، وقد وصفاه: بالذكاء والألمعية والتقوى والميل إلى العزلة والزهد. له عدد من المؤلفات الدينية والتاريخية، وله مشاركات شعرية ونثرية توفي سنة ١٢٤٣هـ. انظر

«البدر الطالع» للشوكاني، ج ٢، ص ٦٠، و «عقود الدرر» لعاكش، ورقة ٨١، ٨٢، و «نيل الوطر» لزبارة، ج ٢، ص ١٨٩ ـ ١٩١.

(١٦) سيد مصطفى سالم، كتابه السابق، ص ٩٦ ـ ٩٧.

(١٧) قال لطف الله جحاف: كان السيد محمد الجيلاني قد دعا العباد بالحرمين إلى فريضة الجهاد، فممن أعانه بالحرمين محمد باصلاح الحضرمي، فإنه تصدق في سبيل الله بخمس مئة بندق صغار مغربية، ومئتي حربة من حراب الشام، ومئتي سيف، وأربع مئة كيس حبوب الرز، وألفي نعل يتعملها فقراء المجاهدين، ومنهم الشيخ عبد الرحمن العسيري بمهملات، جهز ثلاث سواعي، يركبها المجاهدون وملأها ميرة ومنهم الشيخ أحمد فاس جهز داوين في سبيل الله ومنهم الشريف غالب بن مساعد جهز خمس سواعي في سبيل الله شاحنة ومن أهل ينبع محمد أبو العسل جهز داوا من داواته، وثلاث سواعي أخرات من أهل ينبع. سيد مصطفى سالم كتابه السابق، ص ٨٧ ـ ٩٨.

(١٨) قال حمد الجاسر: بأنها وادٍ ذو قرى كثيرة . . بمنطقة المدينة وسكانها بنو سالم من حرب. «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية»، المقدمة القسم الأول، ص ٦٩٨.

(١٩) سيد مصطفى سالم، كتابه السابق، ص ٩٨، ٩٩.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٩٩.

(٢١) المصدر نفسه، ص ١٣٣.

(٢٢) «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع».

(٢٣) «درر نحور العين بسيرة الإمام المنصور علي وأعلام دولته الميامين».

(٢٤) «عنوان المجد في تاريخ نجد». وقال ابن بشر في هذا الشأن: (قلت قد نقلت أخذ الفرنسيين هذا لمصر من أوراق تاريخ وجدت في الطائف حين فتحها عثمان المضائفي فنقلتها باختصار . .) ج ١، ص ٢٥٠، وهذا يدل على اهتمام مؤرخي الجزيرة العربية بهذا الأمر، وأن هنالك عدداً من المؤرخين الآخرين الذين أرخوا لهذه الحملة، ولم تبلغنا مؤلفاتهم.

(٢٥) قال محمد بن عمر الفاخري: (وفيها أخذ نابليون مصر خديعة) ص ١٢٩.

(٢٦) سيد مصطفى سالم، كتابه السابق، ص ١٠٠.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ١٠٣.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ١٠٣.

(٢٩) تولى إمارة مكة المكرمة عام ١٢٠٢هـ، وانضم إلى صفوف الدولة السعودية الأولى في عهد الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود (١١٧٩ ـ ١٢١٨هـ)، ثم في عهد الإمام سعود بن عبد العزيز (١٢١٨ ـ ١٢٢٩هـ)، نفاه محمد علي باشا إلى مصر عام ١٢٢٨هـ، وتوفي سنة ١٢٣١هـ بسلانيك. انظر «البدر الطالع» للشوكاني ج ١ ص ٤ ـ ٢٤. وانظر «أعيان القرن الثالث عشر» لخليل مردم، ص ١٢٧ ـ ١٣١.

(٣٠) ولد بصنعاء عام ١١٥١هـ، تولى إمامة اليمن عام ١١٨٩هـ وظل فيها حتى سنة ١٢٢٤هـ، تاريخ وفاته أفرد له لطف الله جحاف مؤلفاً مستقلاً، انظر «نيل الوطر» لزبارة، ج ٢، ص ١٤٠ ـ ١٤٢.

(٣١) «البدر الطالع»، ج ٢، ص ٩.

(٣٢) في المصدر ههنا.

(٣٣) «البدر الطالع» ج ٢، ص ٩.

(٣٤) «البدر الطالع»، ج ٢، ص ٢٣.

(٣٥) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣.

(٣٦) أمير المدينة المنورة وبندر جدة في العقد الثاني من القرن الثالث عشر الهجري، وصفه الشوكاني بقول: وصلت إلينا الأخبار بأنه من أعظم الأمراء في الدولة العثمانية، وأن له من الجهاد في بلاد الافرنج ما لم يكن لغيره، وله فتوحات عظيمة. «البدر الطالع» ج ٢، ص ٣٥٧.

(٣٧) شكك الشوكاني في كون إمام اليمن المنصور أرسل بخطاب إلى الحاج يوسف باشا والي المدينة في بادىء الأمر، وقال: وصل منه في سنة ١٢١٤هـ كتاب إلى حضرة مولانا الإمام المنصور بالله، وذكر فيه أنه وصل إليه كتاب من مولانا الإمام حفظه الله، ولا حقيقة لذلك فلعله افتعله بعض المفتعلين . . «البدر الطالع»، ج ٢ ص ٣٥٨، ولكن الشوكاني أفاد بأن الإمام المنصور بعث بكتاب إلى الحاج يوسف باشا بعد ما وصله كتاب منه. وقد أورده الشوكاني في كتابه «البدر الطالع»، ج ٢، ص ٣٦٤، ولعل الشوكاني صادق في قوله إذ يبدو أن الحاج يوسف نفسه قد بدأ بالكتابة، ثم أجابه المنصور من بعد ذلك.

(٣٨) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٥٨.

(٣٩) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٦٨.

(٤٠) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٦٨.

(٤١) كتابه السابق، ج ٢، ص ٢٠.

(٤٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٣.

(٤٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٦٦.

(٤٤) كذا في «البدر الطالع»، وفي «درر نحور العين»: فإن.

(٤٥) زاد في «درر نحور العين»: الكريم.

(٤٦) كذا في «درر نحور العين»، وفي «البدر الطالع»: وجزيل.

(٤٧) كذا في «البدر الطالع» وفي «درر نحور العين»: مصر.

(٤٨) كذا في «البدر الطالع»، وفي «درر نحور العين»: ثغورهم.

(٤٩) كذا في «البدر الطالع»، وفي «درر نحور العين»: عن.

(٥٠) محمد بن علي الشوكاني، كتابه السابق، ج ٢، ١٥، ١٦.

(٥١) لعله قبس هنا من قوله تعالى: ﴿قالتْ يا أيُّها الملأُ إنِّي أُلقِيَ إليَّ كتابٌ كريمٌ﴾ «النمل» آية ٢٩.

(٥٢) زيادة في «البدر الطالع».

(٥٣) كذا في «البدر الطالع»، وفي «نحور العين»: الأيام.

(٥٤) محمد بن علي الشوكاني: كتابه السابق، ج ٢، ص ٢١، ٢٢.

(٥٥) كذا في «البدر الطالع»، وفي «درر نحور العين»: بعث.

(٥٦) كذا في «البدر الطالع»: حدى، وقبل هذا خلاف ظاهر في لفظ الرسالة عند لطف الله جحاف في «درر نحور العين»، والشوكاني في «البدر الطالع».

←

كشف الحجب والستور
عما وقع لأهل المدينة مع أمير مكة سرور

— ٣ —

ثم توجه نصار إلى الحمراء، وبقي محمود ومعه اثنى عشر نفراً، فأرسل إلى الوزير، وأمره بالمسير، وقد فاز أهلُ المدينة بالمرابطة للذبِّ عن جيران سيد وَلَدِ عدنان، وسارتْ بِمآثرهم الحميدة الركبان.

فلما أتقنوا الاستعداد، وجدُّوا في تحصين البلاد، وكَمُلُوا عَدَداً وعُدَداً، وتحرُّوا في أُهْبتهم رَشَداً، أقبل العدو المخذول، وبُوْمُ الإدبار تحوم عليه ولا تحول، بعد أن نفته المدينة من حصونها، وأبْرَزَتْهُ من مصونها، أعاد في غُرَّةِ القعدة الحربَ عواناً، ولم يعلم أنَّ مِنْقَارَ عزمه صادفَ صَوَّاناً، فأتى الصائحُ، الصادق الناصح، ونادى:

---

(٥٧) كذا في «درر نحور العين»، وفي «البدر الطالع»: محى.

(٥٨) كذا في «درر نحور العين»، وفي «البدر الطالع»: العزا.

(٥٩) كذا في «البدر الطالع»، وفي «درر نحور العين»: العموم.

(٦٠) محمد بن علي الشوكاني، «البدر الطالع»، ج ٢، ص ٢١، ٢٢.

(٦١) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٦٤.

(٦٢) في كتابه السابق: «البدر الطالع».

(٦٣) في كتابه السابق: «درر نحور العين».

(٦٤) في كتابه «عنوان المجد»، ج ١، ص ٢٤٥.

(٦٥) في كتابه «الأخبار النجدية»، ص ١٣٠.

(٦٦) في الأصل: مهنا.

(٦٧) كتابه السابق، ج ٢، ص ٨.

(٦٨) سيد مصطفى سالم، كتابه السابق ص ٨٧.

(٦٩) المصدر نفسه، ص ٧٦.

(٧٠) المصدر نفسه، ص ٨١.

(٧١) المصدر نفسه، ص ٨٠.

(٧٢) كتابه السابق، ج ٢، ص ٢٠.

ياجيرانَ خيرِ الأنام، قد جردَ أميرُ مكة عليكمْ جردة، فيها ما ينوف ألْفاً من الخيل والركاب والأزلام، وأمّرَ عليهم ناصر بن مستور، لازال مخذولاً مكسور، ونزلَ شرقيُّ المدينة النبوية، فأَخَذَتْ أهلهَا عند نزوله الحَمِيَّة، وقد تأهبوا للنزال، واستعدوا للقتال، واستعدوا للقتال، وتوسلوا في رفع هذه المصائب العظام، بسيد الرسل الكرام[1]، وتَضَرَّعُوا إلى مولاهم، في كَشْفِ بَلْوَاهُمْ، فناداهم: عبادي لا تناموا: ينال النصر من هجر المنام.

فخرج من أهلِ المدينة ما ينوف عن ثلاثين، وخرج محمود ومعه من حرب مقدار تسعين، فركضت عليهم الخيلُ والأزلام والرّكَاب، فهربت أكثر الأعراب، وثبت أهل المدينة وبعض من حَرْب، وصادموا الخيل وصبروا للطعن والضرب، فاستشهد منهم تسعة ساروا إلى عِلِّيِّينْ، وزُوِّجُوا الْحُورَ العِينْ، وقد أَذَاقوا الأعداءَ كؤوس الْحُمَام، أَذَلَّهُم الله إلى يوم القيام، وجملة من قُتِل منهم نيفاً وعشرين، وقيل ثلاثين، ما بين عبد وبَدَوِيّ ومُوَلَّدٍ، شتت الله شملهم وبَدَّد:

ومن تكن برسول الله نصرته. إنْ تَلْقَهُ الأسْدُ في آجامِهَا تَجِمِ
هُو الحبيبُ الذي تُرْجَى شفاعَتُهُ لِكُلِّ هَوْلٍ مِنَ الأَهْوَال مُقْتَحِمِ

وقد نشرتِ الجَرْدَةُ الأعلام المكسورةَ، وقصدتِ البابَ الشرقي من البلدة المنصورة، وقد امتلأ أَعْلَى الباب بأهل المدينة السادات، فلما رأوا الأعلام رَمَوْها بالرصاص من تلك الجهات، فَوَلَّوا الأَدْبَارَ حَيَارَى ﴿ولم يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ الله أَنْصَاراً﴾، فَتَلَوْتُ عند ذلك طالباً من القاهر عَوْناً وانتصاراً، ﴿رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِيْنَ دَيَّاراً﴾ . . ﴿ربِّ اغفرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ ولِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً، ولِلْمُؤْمِنِينَ والْمُؤْمِنَاتِ، ولاَ تَزِدِ الظَّالِمِيْنَ إلاَّ تَبَارَا﴾.

تذييـــــــــــل:

وكان تمام هذا الحال في أول القعدة، والوجود في اضطراب ما بين قَوْمَةٍ وقَعْدَة، والساعي في الفساد، ما بين هالك ومَنْفِيٌّ من البلاد، إلى يوم التَّنَاد ﴿والله بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾، والهواجسُ في الخاطر خاطرة، والعين إلى نحو الطريق ناظرة،

ولسان المقال مترنم بقول من قال:

أَقْبَلَ الْـمَوْسِمُ المبارَكُ فيه، مِنْ جَمِيعِ الْجِهَاتِ خَلْقٌ كثيرُ
فَدَعَوْنَا الإله، بين يدي رسول الله[٢]
أَعْطِنَا خَيْرَهُمْ إِلٰهَ الْـبَرَايا واكْفِنَا شَرَّهُمْ وأنْتَ الْقَدِيرُ

فَمَا مَضَتْ أيامٌ من الْـمُثُولِ بين يَدَيْ مصباح الظلام، إلَّا وورد البشير بما أَقَرَّ العيون، وسكن هواجس الظنون، وهو ورود نَجَّابِ الهمام الغطريف، (أفندينا) محمد باشا أمِير الحج الشريف، وقد أَعْلَنَ بالبشر، لجيران من انشقَّ له القمر، ثم بعد ثلاثة أيام، وكان يوم الثالث والعشرين من ذي القعدة الحرام، وصل الحجاج من كل فج عميق آمِّيْنَ البَيْتَ العتيق، وأَقْبَلَ السَّمَيْدَعِيُّ القمقام، الفارس الهام، الليث الضرغام، بركةُ الأنام، من صَيَّر كل عَدُوٍّ وَاني، وكُلَّ صَخْرِيٍّ[٣] فاني (أفندينا) محمد باشا، بلغه الله من الخيرات ما شاء، وحماه بحماه المصون، وجعل الأمور له منقادة، بِقَوْل: كُنْ فيكون، ومعه المكرم المحترم علي أغا شيخ الحرم، فلما وصل حضرة أفندينا محمد باشا الأَجَلُّ، وَبِوَادِي رُوْمَة نَزَلْ، طلع على المعتاد للملاقاة نائب الحرم و(الخزيندار)، و(كتخذا النوبتجية) وكل (جاووش) و(بَيْرقْدَار)، فلما وصلوا، وبين يديه حصلوا، قام يسألهم عن كيفة الحال، ومن الْـمُبْتَدِيء بهذا الضلال، فقام (الخزيندار) وولغ في إناء أهل الدار، وحطَّ فيهم ما حطّ، وكلما ولغ انحط، فانتبذ له عند ذلك الإكسير، نائب الحرم بشير، وأتقن جداله، وكَذَّبَ ما قاله، فأَصْغَى حضرة الباشا لنائب الحرم بشير، ولسان الحضرة ينادي: ﴿وما لِلظَّالِمِيْنَ مِنْ نَصِيرٍ﴾.

ثم نزل حضرة الباشا بنظامه إلى باب الشامي، فإذا النساء المنهوبات واقفات ودمعهن كالمزن الهامي، ينادون (؟): شـرع الله جيران رسول الله !! أحرار ومخدرات، أبكار وثيِّبات، هتك منا الأعراض، وكادت عسكره أن تبلغ منا الأغراض !!، ولسان الحال ينشد بقول من قال:

ياغَارةَ الله إنْ لَمْ تُدْرِكِي سَحَراً فَعَجِّلِي بِالضُّحَى يَـاغَـارَةَ الله

يَاغَارةَ الله حُثِّي السَّيْرَ مُسْرِعَةً   فِي حَلِّ عُقْدَتِنَا يَاغَارَةَ الله

فقصد حضرة الرسالة، وقدأهمل دمعه وأساله، شوقاً لعليِّ الجناب، وحُزْناً على ما صار على المصونات رَبَّاتِ الْحِجَا والحجاب، ثم بعد أن زار، وتحقق ما وقع وما صار، سأل الصلحاء والأعيان، فلم يختلف فيها قاله النائب اثنان، ثم أتَاهُ (الخزيندار) وطلب منه الإِذْنَ بالمسير، إلى الحرم المكيِّ فمنعه وحذره أشدَّ التحذير.

ثم في يوم الخامس والعشرين، تَرَجَّى أهلُ المدينة أجمعين، عند حضرة الباشا وأربابِ دَوْلَتِهِ، ومن هو تحت شوكته وصولته، أن يقيم (الجُورَبجي) محمد سعيد المغيربي (كتخذا) القلعة السلطانية، وأحمد رجب (كتخذا اليانشرية)، وعبد الله الطيار (كتخذا النوبتجية) فحينئذ تصلح إن شاء الله أحوال المدينة النبوية، فامتنع الطيار واختبأ في الدَّار، فاختار الناس عوضاً عنه (الجوربجي) عمر رشيد، وطلبوا الإعانة من رب الطول والأَيْد، فَأُلْبِسَ عمر، وأُلْبِسَ أحمد وأُلْبِسَ محمد سعيد (الباسين)، كتخذا و (دِزْدَاراً) بِلاَمَيْنِ، ثم رحل وقصد مكة في الحين، ــ أمده الله وأيده بالنصر والفتح المبين ــ :

وقد كان مسيره من الطريق السلطاني، محفوفاً بالبشر والتهاني، فأنشد لسانُ الحال مُتَرَنِّماً وقال:

إِذَا اهْتَزَّتْ مَنَاقِبُ ذِي افْتِخَارٍ   بِقُرْبِ مَلِيكِهِ وعُلُوِّ دَارِهْ
فَإِنِّي لَاأَزَالُ أَهُزُّ عِطْفِي   بِجِيْرَةِ أَحْمَدٍ حَاوِي جِوَارِهْ

وأنشد وغنّى، في هذا المعنى:

لُذْ بِطهَ فِي جَمِيعِ النُّوَبِ   وأَنِخْ نُجْبَ الرَّجَا واحْتَسِبِ
وادْعُهُ إنْ مَسَّكَ الضُّرُّ الَّذِي   عَجَزَتْ عَنْهُ الأَطِبَّا تَطِبِ(٤)

وقد وصلتْ مع الحج دَرَاهِمُ للعمارة والمباشر فيها (صره أميني) سابقاً طاهر أفندي، وهي له بالجوار نعم الإمارة.

ثم بعد أيام، وهو يوم خمسة عشر شهر ذي الحجة الحرام، قلع الباب الذي وضعه أمير مكة سرور، جيرانُ صاحب القبر المغمور بالنور، وفي هذا براءة من الله ورسوله، إلى عدم قبوله.

ثم لما كان يوم الثاني من محرم، بلغنا أنَّ الوزير المكرم، مُدَبِّرَ أُمُور الجمهور بالرأي الصائب، والمفخم الدستور بالفكر الثاقب، حضرة أفندينا محمد باشا أمير الحج الشريف ووالي الشام حـالاً ـ جعله الله في غرة الزمان هِلاَلاً ـ خاطَبَ أمير مكة في أهل المدينة المربوطين، وخاطبه أيضاً رؤساء الحج أجمعين، فأَبَى، ولم يرد ذلك، فأشهدَ عليه حضرة الباشا مَنْ مِنْ رجال الدولة هنالك، وقد صار بين الحج المصري والعربان قتال، فأراد حضرة الباشا أن يأتي به معه ويصلح له الحال(٥)، والمتسبب في هذا القتال أمير مكة الخَتَّال، فَأَذْعَنَ لحضرة الباشا بالإطاعة والسير معه، فغضب عليه أمير مكة ومنعه.

ثم بلغنا أنه أمره بالخروج من الطريق الشرقي، وأرسل معه مقدار الفين من كل أعرابي شقي، وأمره أن يُقَاتِل أهل المدينة النبوية، ويضع هاؤلاء الأعراب بالقلعة السلطانية، فحين تواتر عندهم هذا الخبر، صاروا في غاية من القلق والضجر، فجمعوا عند ذلك جمعية، ونادى المنادي: نَفِيرٌ عامٌ ياجيران خير البرية!! ، فخرجوا وسدَّدُوا السدود، وحمل الطينَ والحجرَ للعمارة السيد والمسود. وكان في ذلك اليوم نوبة الحقير(٧) بالمنبر النبويِّ الشريف، فَخَطَبْتُ، وحرَّضْت في الخطبة على القتال تحريضاً يعمُّ القويَّ والضعيف، وهي هذه:

الحمد لله الذي حمده أتقنُ ما أُرْهِقَتْ به مخاذِمُ البراعة، وأحسن ما نظمت بمنثوره لبَّات البراعة، أحمده أنْ بَعَثَ سيدَنا محمداً ﷺ بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وأمره بقوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فدعا إلى الله سراً وجهراً، وَوفَّقَ للسبق إلى إجابته أقواماً كراماً يُسِّرُوا لليُسْرَى، وجاهدوا في الله حقَّ جهاده، فحقت لهم المثوبة والبشرى (بيت):

تَلاَعَبُوا تَحْتَ ظِلِّ الرُّمْحِ مِنْ مَرَحٍ   كَمَا تَلاَعَبَتِ الأَشْبَالُ فِي الأَجَمِ

وأشكره أنْ قهر بجنوده الرحمانية جنودَ النفس الأمّارة، وألاح لِمَنْ لبس لأْمَةَ حَرْبِهِ راياتِ الفلاح فأوسع في المسرة مِضْمارَه، وأتوكل عليه وأستبصره، فمنه الهداية وإليه الرُّجْعَى والمصير، وأستهدِيه واستنصره، نعم المولى ونعم النصير، وأشهد أنْ لاإله إلا الله وحده لا شريك له ولا ضِدٌّ ولا نِدٌّ ولا مثيل له، المرجو للنوازل يكشفها، وللنوائب يصرفها، وللملة الحنيفية ينصرها ولا يخذلها، هكذا عوائده الجليَّة التي نألفها يوصلها، ولطائِفه الخفية التي لا يُخْلفها، شهادة أُعِدُّها وسيلةً للظفر بالسُّوْل، وَجَوَاباً للسؤال بالمأمول، وأشهد أنَّ سيدنا محمداً عبده ورسوله، وصفيه وحبيبه، وخليله نبي أُنْزِلَ عليه في حقه ﴿وما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوْحَى، عَلَّمَهُ شَدِيْدُ الْقُوَى﴾ نبيٌّ كساه الله صبْراً وحلماً وعلماً، القائل: «من أخاف أهلَ المدينة أو كادهم، أذَابَهُ الله كما يذوب الملحُ في الماء»، والقائل مُنَبِّهاً للميت والحي: «من أخاف أهل المدينة فكأنما أخاف ما بين جنبي» رؤوف نَشَرَ بُرودَ الرأفة والعناية على معاطف جيرانه الكرام، وعطوفٌ سبقَ لإغاثتهم عند ضجيج صارخهم قائلاً: «لن تُرَاعُوا لنْ تُراعوا» في دياجير الظلام، صلى الله عليه وعلى آله الموفون بعهد الله بالجهر والإسرار، البررة الأخيار، وأصحابه الجهاضمة الذين لم يكن نِداؤُهم عند اللقاء والنضال إلا نَزَالِ نَزَالِ، والقرائِعةُ الذين احتزُّوا في نُصْرة الدين هامَ كُلٍّ مبارز من الأقران الأبطال، صلاة وسلاماً دائمين ما قامتْ أئمة أسياف عساكر الإسلام مُصَلِّيَةً في محاريب ضلوع الكفرة اللئام، وخفقت راياتُ أفراجِهِم بريح النصر، والدَّهرُ لها بَسَّام، أما بعد: عَبِيد الله، إن أحسنَ الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدْيِ هَدْيُ محمد ﷺ وزاده شرفاً وإجلالاً، وشرُّ الأمور محدثاتُها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

فمن المصائب الدينية العظمى، والبدع التي أوْهَنَتْ لحماً وعظام، تلك الحادثة الفظيعة، والنازلة الماضية الهائلة الشنيعة، التي أُصَمَّتِ الأسماع، وأعمت الأبصار، وأذهلت العقول بانتهاك حرمة الجوار، فمِنَّا المنسوب إلى الرسول والوصيِّ والْبَتُول، ومنا المنسوب إلى الْعِلْمِ العلي، والفضل الجلي، ومنا المولود بالدار، المتشرف بالدخول تحت هذه الأستار، والوصف المشترك بين الجميع،

التشرُّفُ بجوار المشفَّع الشفيع ﴿والسابِقُونَ السابقون، أولئك الْـمُقَرَّبُون، في جنَّاتِ النَّعيم﴾. ﴿ذلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ والله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيم﴾، فلم يحفظ لنا أميرُ مكة هذه الحرمة، ولم يرقُبْ فينا إلًّا ولا ذِمَّة، وهتك أستاراً كانت بيننا وبينه وذِمَامًا، وَجَارَ عَلَيْنَا ولم يراع للأحاديث الواردة في حقِّ الجوار أحكاماً، ونحن معاشر المشمِّرين للدعاء، وللطعن في الوغا، من الذين أوجب الله لهم احتراماً، ومن الذين يقولون: ﴿ربَّنا اصْرِفْ عنَّا عَذابَ جَهَنَّمَ إنَّ عَذَابَهَا كانَ غَراماً﴾، ونصب مِنْوالاً لحِيَاكَةِ حكاية المَكْر، ومدَّ شباكاً للنسج على ذلك المنوال، وفِخَاخاً لصيد الْغَدْر، واستفرغ في السعاية جُهْدَه، واستخرج أقصى ما عنده، وتنوَّع في الفساد، وعثا في البلاد، وتجلد في الجلاد، فأبى الله تعالى [. . . . . .][8] في البئر من حَفَرَ، وأنْ لا يحيق المكرُ السيِّئُ إلا بِمَنْ مَكَر، فعندما ضاق الخناق، ولجَّ الكربُ في السياق، وبلغت الروح التراق، والْتَفَّتِ الساقُ بالساق، وسالت الأدْمُعُ الذوايب، وشابَتِ الأفئدة والذوائب، سمع النداء من عالم الأسرار: البدار البدار، لنصرة سيد الأبرار، قبل هتك الأستار، قبل نزول غضب الجبار، قَبْلَ أن يقال: لا تقال العثار.

فيا أيُّها الحاضرون ﴿إنْ أحسنْتُمْ أحسنتم لأنفسكم، وإنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ وما الله بغافل عما تعملون: ﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ تلك أشراط الساعة برزتْ علامة علامة تَتْرَى وطوالع لم ينتظر بعدها إلاَّ مجيء الطامة الكبرى، فكأنكم بها كَعِقْدٍ جُزَّ سِمْطُهُ فانتثر نَثْراً، سيَّما وأمير مكة قد أقبل يُقَدِّمُ رِجْلاً ويُؤَخِّرُ أُخْرَى، فالسعيد من سمع النداء فأجاب، والشقي من أبصر الحقَّ فأرخى الحجاب، فانْهَضُوا وشَمِّرُوا للقيام بحقوق الجوار، وابْذِلُوا مُهَجَكُمْ في حفظ هذه الدار، واصبروا لِقَضَاءِ مَنْ أَمْرُهُ بين الكاف والنون ﴿فالصابِرُوْنَ فِي الْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وحِينَ الْبَأْسِ، أولئكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولئك هُم المتقون﴾ سيظلهم الله بِرِدَاءِ عِزَّتِهِ يومهم بارزون، ويناديهم ﴿إنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْم بِمَا صَبَرُوا أنَّهُمْ هُم الْفَائِزُون﴾ فَذُبُّوا عن الانتهاكِ بأرواحكم، في غُدُوِّكُمْ ورواحكم، فقد ورد في الخبر عن صاحب هذا القبر الأعطر ﷺ أنه قال: «مَنْ قُتِلَ دون ماله وروحه فهو شهيد».

جعلني الله وإياكم من أهل التوحيد، إن أحسن الكلام وأبين النظام كلام الله تعالى الملك العلام، والله سبحانه وتعالى يقول على لسان سَيِّدِ الأنام(٩)، وبقوله يهتدي المؤمنون: ﴿وإذَا قُرِىءَ الْقُرآنُ فاسْتَمِعُوا لَهُ وأَنْصِتُوا لعلَّكُم تَرحَمون﴾ أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم ﴿بسم الله الرحمن الرحيم: ياأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصابِرِوا واتَّقُوا الله لعَلَّكُم تفلحون﴾. بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بالآيات والذكر الحكيم، وآمركم عباد الله بما أمر الله به من حُسْن الطاعة فأطيعوه، وأنهاكم وإياي عن ما نهى الله عنه من قبح المعصية فاتقوا الله ولا تعصوه، واستغفر الله العظيم، لي ولكم ولوالدي ولوالديكم، ولجميع اخواننا في الإسلام، واستمنحه بعد ذلك حسن الختام.

وهذا آخر ما تيسر جمعه من هذه الرسالة، مع غاية من الاختصار في المقالة، لِضِيق الوقت وخشية التطويل، وسَنُذَيِّلُهَا ــ إن شاء الله ــ بما يصدر في هذا العام، من الأمور التي يشاهدها الخاص والعام، والمرجو ممن يقف عليها، أن ينظر بعين القبول والإنصاف إليها، فإن رآى خللاً أصلحه بقلمه، أو زَلَلاً ستره بذيل كرمه، فقد قيل: من صَنَّفَ فقدِ اسْتَهْدَفَ، ومن أنصف فقد أسعف، وعلى كل حال فقد أجادَ الشاعر حيث قال:

كَتَبْتُهُ مُجْتَهِداً وَلَيْسَ يَخْلُو مِنْ غَلَطْ
فَقُلْ لِمَنْ قَدْ لاَمَنِي: (مَنْ ذَا الَّذِي مَا سَاءَ قَطّ)؟

والله الموفق للصواب، وإليه المرجع والمآب، وكان الفراغ من تَبْييضها ليلة الجمعة ٩ من محرم الحرام، افتتاح سنة ١١٩٥ ألف ومئة وخمسة وتسعين من هجرة سيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه اجمعين والحمد لله رب العالمين.

الحواشي:

(١) التوسل إلى الله بمحبة الرسول عليه الصلاة والسلام وبطاعته بإتباع أوامره واجتناب نواهيه توسل مشروع، أما التوسل بدعائه والالتجاء إليه بعد وفاته فهو من الأمور التي جاء الشرع الشريف بتحريمها.

(٢) دعاء الله في المسجد النبوي الشريف من الأمور المستحبة، أما بين يدي الرسول عليه الصلاة والسلام ــ

رحلة فتح الله الصائغ إلى البادية

من سنة ١٨١٠ إلى ١٨١٤(؟)

[انظر «العرب» س ١٩ ص ١٥٢ و ٦٩٧]

إنَّ المؤلفات عن البادية وسكانها وعاداتها وتقاليدها وقبائلها وأحوالها تكاد لا تحصى. وقد اهتمَّ بهذا الموضوع الشيِّق كثير من باحثي العرب من المستشرقين، ومن أشهرهم بوركهارت وموسيل وجوسَّان. غير أننا إذا رجعنا إلى فهارس الكتب التي تصف الحياة البدوية لا نجد ذكراً لرحلة قام بها شاب سوري يدعى فتح الله الصائغ من سنة ١٨١٠ إلى سنة ١٨١٤(؟) تجوّل خلالها في بادية الشام والعراق وصحراء نجد، ووصل إلى تخوم بلاد العجم، بل تجاوزها على ما يزعم، إذ زار الأمير سعد البخاري رئيس قبائل عرب الهند، الذي كان مقيماً عند حدود الهند الشرقية، على ما يقول صاحب الرحلة.

← فالمشروع السلام عليه والدعاء له لا دعاءه ولا قصد الدعاء عنده.

(٣) إشارة إلى ما لأمير الحج الشامي محمد باشا هذا من مواقف في الصراع مع بني صخر الذين كانوا مسيطرين على طريق الحج الشامي.

(٤) في هذين البيتين من الأمور المحرمة ما هو موجب لحذفهما لولا المحافظة على الأمانة العلمية بايراد نصوص الأصل كما وردت بدون تغيير. فاللياذ والرجاء والدعاء كلها من أنواع العبادة التي لا يجوز صرفها لغير الله تعالى، والمصطفى عليه الصلاة والسلام وإن كانت حياته برزخية إلا أنه لا يستطيع أن يعمل شيئاً من الأمور التي تطلب منه الآن، وهو لا يرضى بأن يُصرف له ما هو من حقوق الله جل وعلا. فالعبادة بأنواعها كالدعاء والرجاء والخوف واللياذ من الأمور الخاصة بالله لا يجوز صرفها لغيره.

(٥) لم يرد ذكر هذا الذي عبر عنه المؤلف بجملة: (أن يأتي به معه) ولعله القمقمجي الذي تقدم ذكره في أول الرسالة.

(٦) كلمة (الشرقي) ليست واضحة في الأصل.

(٧) المقصود بالحقير هنا المؤلف من قبيل التواضع.

(٨) كلمة غير واضحة ولعلها: (إلا أن يوقع).

(٩) لا محل لجملة: (على لسان سيد الأنام).

وتحدث الصائغ في مذكراته عن الأعراف البدوية وأتى على ذكر القبائل التي زارها، وذكر اسماء شيوخها وعدد مقاتليها. وتكلم عن الوهابيين وحروبهم وغزواتهم على عرب الشام ووقائعهم مع الدُّريعي بن شعلان، شيخ عرب الرولة، وذهب إلى أنه زار الدرعية، عاصمة الدعوة الوهابية يومئذ، ووصفها كما وصف عدداً من البلدان والقرى السورية مثل معرة النعمان وحماه وحمص وتدمر والقريتين وصدد.

والغريب في هذه الرحلة أنها ترجمت إلى الفرنسية منذ أكثر من مئة وخمسين سنة على يد الشاعر الرومانتيكي لامرتين، ونشرها في الجزء الرابع من كتابه «رحلة إلى الشرق» الصادر سنة ١٨٣٥ (الطبعة الأولى). ولا يغفل لامرتين عن ذكر الأسباب التي جعلته يهتم بمذكرات السائح السوري، ويخبرنا أيضاً كيف تمَّ له الحصول عليها فيقول: كنتُ نازلاً في وسط الصحراء التي تمتدّ من طبريّا إلى الناصرة، وكنا نتحدث عن القبائل التي التقينا بها خلال ذلك اليوم. فأعْرَبْتُ لدليلي عن رغبتي في التعرّف بالبعض منها والعيش معها ردحاً من الزمن، وتتبع خطواتها من دمشق إلى شواطىء الفرات، لكشف اللثام عن (حضارة الصحراء). ولكن لم يَبْقَ لدينا الوقت الكافي لمثل هذه المغامرة التي لم يَجْرُؤْ أحد من المسافرين على القيام بها إلا رجل واحد يدعى (لاسكاريس) ولكنه مات وضاعت معه المعلومات التي جمعها عن سكان البادية خلال عشر سنوات.

ثم تحدث (لامرتين) عن (لاسكاريس) وكيف التقى بالجنرال (بونابارت) في جزيرة مالطة، عند حملته على مصر سنة ١٧٩٨، وكيف تبعه إلى الشرق إلى أن عاد إلى فرنسا مع بقايا الحملة. وبعد أن خرقت انجلترا معاهدة (أمْيَان) سنة ١٨٠٣ رأى (نابوليون) أنه لا يستطيع أن يضرب عدوَّه في عقر جزيرته بسبب تفوق الأسطول البريطاني فحاول أن يقضي على اقتصادياته، واعتقد أنه يصيبه في الصميم إذا تمكن من أن يقطع عليه طريق الهند. ولأجل الوصول إلى هذه الغاية لا بُد له أوَّلاً من توطيد العلاقات مع أمراء البادية ومشايخها، فأرسل (لاسكاريس) لهذه المهمة. ونجحتْ مساعي جاسوس (نابليون) ولكن حين أراد أن يعود إلى

(فرنسا) علم بسقوط الأمبراطور الفرنسي، فذهب إلى القاهرة مغموماً يائساً، حيث وافاه أجله، فوضع القنصل البريطاني يده على جميع مخلفاته، وخاصة على مذكراته وأوراقه، ولا يعلم أحد ما كان مصيرها. وختم (لامرتين) كلامه معرباً عن أسفه على ضياع هذه الوثائق الهامة. فقال له دليله: لعلها لم تفقد تماماً لأنه على معرفة طيبة بالشاب الذي كان يرافق (لاسكاريس) ولطالما سمعه يتحدث عن هذه الرحلة إلى البادية وعن اليوميّات التي كان يكتبها بناء على طلب معلمه (لاسكاريس). وهكذا مكّنت الظروف (لامرتين) من شراء مذكرات فتح الله الصائغ، وتمّتْ ترجمتها إلى الفرنسية على يده.

ولم يَنَلْ كتاب (لامرتين) «رحلة إلى الشرق» نجاحاً كبيراً لأنه ضعيف المادّة، قليل الفائدة، فسرعان ما نسيه الناس ودخلت معه مذكرات الصائغ في خبايا الزوايا.

وكان من المنتظر أن يقبل المستشرقون على رحلة الصائغ لما فيها من أخبار طريفة عن أحوال البادية وقبائلها، ووصف بعض القرى والبلدان السورية. إلاّ أن رئيس الجمعية الآسيوية شكّ في صحتها، فسكتت عنها مجلة هذه الجمعية، وكانت يومئذ لسان حال المستشرقين، ولم تتناولها بالنقد، بل إنها لم تذكرها بخير أو شرٍّ إلا بعد وفاة الشاعر (لامرتين) ويتضح من رسالة طويلة وجّهها المستشرق (فولْجَنْسْ فرنيل) إلى رئيس الجمعية سنة ١٨٣٨ ــ ولكن لم تنشرها المجلة الآسيوية، إلا سنة ١٨٧١ ــ أنه كان من المسلِّمين بصحة هذه الرحلة، ثم بدّل رأيه بعد أن عرض على أرباب الخبرة من العرب الصفحات التي جاء فيها وصف الدرعية، عاصمة الوهابيين يومئذ، وذكرُ الإمام الوهابي عبدالله بن سعود. وأصدرت المجلة الآسيوية حكمها الصارم في تقريرها السنوي لعام ١٨٧٢ (ج٢٠ ص ٣٦)، جاء فيه: إن هذه الرحلة وليدَة الخيال كتبها رجل عارف بأحوال البادية.

ولم يتساءل صاحب هذا الكلام كيف تم لبائع من صغار التُّجار ــ يكاد يجهل اللغة العربية الفصحى، مثل فتح الله الصائغ، يخشى البادية كما يخشاها كل

حضريٌّ من سكان المدن، لا سيما أنّه كان نصرانياً ـ أن يكون مطلعاً أتمَّ الاطلاع على أحوال البدو، حتى أنه تكلم عن عادة دَفْنِ الحصى أو دفن الذنوب، يكاد يجهلها حتى المختصون بدراسة البادية ولكن ذكرها قبله شهاب الدين العمري المتوفي سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م في كتابه «التعريف بالمصطلح الشريف»[١]، فأنّى له هذه المعرفة الدقيقة بالقبائل وتقاليدها إن لم يكن عاش معها رَدْحاً من الزمن. أما الأخطاء التي نددت بها المجلة الآسيوية مما حملها على الطعن برحلة الصائغ إلى الدرعية، فإنَّ صاحبنا منها بريء كبراءة الذئب من دم يوسف، لأنَّ المسؤول الأول عنها هو سوء الترجمة بل الترجمات العديدة (من العربية إلى الفرنسية القديمة، ثم إلى الفرنسية ومنها إلى العربية)، كما بيناه في مقال نشرته مجلة «العرب»[٢].

ونحن لا نريد أن نُثير النِّقاش من جديد حول هذه الرحلة لأن العدد الكبير من القراء يكاد يجهل كل شيء عنها. بل إنه يكاد يجهل اسم فتح الله الصائغ، إذْ لم يطبع كتابه إلى تاريخ هذا اليوم. وإننا سنبذل جهدنا لنشر هذه المذكرات الفريدة بعد تحقيقها، وهي بنظرنا من التراث الثقافي السوري والعربي على الرغم من المبالغات التي وقع فيها المؤلف ومن أخطائه اللغوية العديدة لأن لغته أقرب إلى اللهجة الحلبية القديمة منها إلى الفصحى. أما اليوم فإننا نكتفي بسرد وقائع هذه الرحلة وحوادثها ثم نتناولها بالنقد ليكون القارىء العربي على بينة من أهمية هذا الكتاب الذي عرفه الغرب منذ أكثر من مئة وخمسين سنة.

كان فتح الله الصائغ شاباً لم يتجاوز العقد الثاني من عمره حينما اتصل به رجل في مقتبل العمر، من أصل إيطالي يدعى (تيودور لاسكاريس) وطلب منه أن يعلمه اللغة العربية. وكان ذلك بمدينة حلب، سنة ١٨٠٩، وهي يومئذ مركز تجاري هام، ومحط قوافل الهند والأناضول. ومع أن فتح الله المذكور كان يميل إلى التجارة، ويجهل مهنة التعليم، إلا أنه كان صِفْرَ اليدين فرضي بالشروط السخيَّة التي عرضها عليه (لاسكاريس) لا سيما بعد أن عرف أن المذكور من كبار الافرنج وأشرافهم. ولكنه على الرغم من كرم محتده كان يلبس الألبسة الشرقية الشعبية الزريَّة، ويأكل في الأسواق.

وبعد مضيٍّ ستة أشهر عرض (لاسكاريس) على فتح الله أن يقوما برحلة في أنحاء البلاد السورية، سعياً وراء أرباح التجارة، وأعطاه الأموال لشراء البضائع التي تصلح لسكان البادية. وشرط عليه أن يطيعه طاعة عمياء، ولا يخالفه في شيء. فقبل الصائغ هذه الشروط.

وبعد استعداد طويل للسفر غادر (لاسكاريس) وترجمانه حلب إلى سرمين يوم الخميس الواقع في ١٨ شباط ١٨١٠، على طريق القوافل، ثم قصدا مَعَرَّة النُّعمان، ومنها إلى خان شيخون، ثم إلى حماه حيث سجنا، ثم إلى رستان(؟) فحمص. وطابت لهما الإقامة في هذه المدينة فبقيا فيها إلى نهاية الشتاء.

وكان الصائغ على جَهْلٍ بغايات معلمه السياسية، ويتساءل ما هو مصير البضائع التي معهما؟ لأن (لاسكاريس) كان يمنعه من عرضها في الأسواق. ثم اتَّضح له شيئاً فشيئاً أنَّ معلمه يرمي إلى هدف سياسي، لا علاقة له بالتجارة وهو التعرف بالبدو، والاطلاع على أحوالهم. ولذا طلب (لاسكاريس) من رفيقه أن يُسَجِّل يومياً، على ورقة جميع ما يقع لهما من حوادث، وهو بدوره يكتب ملاحظاته في دفتر باللغة الفرنسية، مستعيناً بمذكرات الصائغ. ويعلمنا فتح الله أنه ظل يكتب يومياته مدة ست سنوات إلى يوم وفاة (لاسكاريس) في القاهرة.

وتابعا رحلتهما فذهبا إلى صدد، قرية جميع سكانها من السُّريان النَّصارى، وعرضا بضاعتهما على الناس ليظنُّوا أنَّ غايتهما من هذه الزيارة البيع والشراء، ثم توجها إلى القريتين ومنها إلى تدمر بصحبة رفيق بدوي، تعهد بإيصالهما إلى قبيلة الحسنة. فنزلا عند شيخها مهنا الفاضل المعروف بالملحم.

ونلاحظ أنَّ الصائغ لا يكتفي بسرد الحوادث بل يصف أيضاً وصفاً موجزاً دقيقاً الأماكن التي زارها والرجال الذين اتصل بهم. ويصف أيضاً رحيل البدو وهوادج النساء، ولا شك عندي في أنه شاهد كل ما ذكره عياناً.

وبعد أن أقاما مدة مع عرب الملحم تبين للاسكاريس ــ أو الشيخ ابراهيم كما تسمى عند البدو ـ أن الأمير مهنا وبالأولى ابنه ناصراً يتبع سياسة خرقاء ترمي إلى

فرض سيطرته على القبائل بواسطة العثمانيين، مما تأباه الفردية البدوية ولا يتماشى مع الأهداف التي يتوخاها جاسوس (نابوليون) واتضح له بعد أن درس أحوال البادية أن الشيخ الذي يتمكن بواسطته من تحقيق مآربه هو الدُرَيْعي بن شعلان، أمير عرب الرولة. فطلب عندئذ من رفيقه ـ الذي تسمى عبدالله الخطيب ـ أن يبذل جهده للوصول إليه، على الرغم من المشقات وبُعد المسافة، لأنه كان ضارباً خيامه في الجزيرة.

وكان لا بُدَّ للشيخ ابراهيم من اطلاع ترجمانه على الغرض الحقيقي من هذه الرحلة، فأعلمه عندئذ أنَّ الغاية منها الكشف عن أحوال البدو، والتعرف بكبار أمرائهم، وكسب صداقتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإبعادهم عن العثمانيين، والعمل على معرفة الصحارى، ومسالكها ومياهها، وأن الهدف السياسي هو توحيد صفوف البدو، ليكونوا عوناً لجيش كبير سيمر بالشرق ويقطع الصحراء قاصداً بلاد الهند، وان الدريعي بن شعلان هو الشيخ الكبير الذي يمكن الاعتماد عليه لتحقيق هذه المآرب.

وتمكنت الصحبة بين (لاسكاريس) والدريعي بن شعلان، الواحد يدبِّر الأمور، والآخر يعمل على اتحاد القبائل. أما الصائغ ـ أو عبدالله الخطيب فكان يكتب الرسائل ويكسب القلوب بطيب لسانه. وتمكن بدهائه من ربط بعض كبار الشيوخ برباط عظيم، على أن يكونوا يداً واحدة مع ابن شعلان في كل الأمور، وعوناً له في خلافه مع العثمانيين والوهابيين. وتمَّ التوقيع على وثيقة الاتحاد في الثاني عشر من شهر تشرين الثاني سنة ١٨١١م.

ويطول بنا الكلام إذا أردنا أن نتحدث عن جميع تحركات الدُّريعي وسعيه الحثيث للحصول على موافقة أكبر عدد من القبائل على هذا الحلف. فنراه يقطع الفرات، ويجتمع مع شيخ عرب البصرة، ثم ينزل على عين الوساد قرب نهر الشابور، ثم يرحل إلى جبل سنجار، وبعد إقامة قصيرة في تلك الربوع يعود إلى الجزيرة، ومنها إلى غوطة دمشق ويصطدم بغزو وهابي ما بين القريتين وتدمر.

ويتحدث الصائغ أيضاً عن لقاء (لاسكاريس) بسائح بريطاني يدعى أيضاً

الشيخ ابراهيم ــ وهو الرحالة (بوركهارت) وعن اجتماعه مع (اللادي ستنهوب) حفيدة رئيس وزراء انجلترا، ويظن أنها موفدة لتعطيل أعمال (لاسكاريس).
ويتابع وصفه لتحركات الدريعي فنجده قرب حماه يحارب مع (الروم)، أي العثمانيين، جيشاً وهّابياً كبيراً يقوده عبدالله الهدال، كيخيا ابن سعود (أي المشير الأول)، وأبو نقطة. ويستمر القتال أكثر من عشرين يوماً، وينتهي بانتصار الدريعي واندحار القوات الوهابية.

ويصف الصائغ هذه المعارك وصفاً شيِّقاً، ويتكلم عن عادات البدو عندما يطلبون النجدة من القبائل، وعن النخوة والعطفة والقتال على ظهور الجمال، وغير ذلك من أمور الحياة القبلية التي لا يجدها القارىء إلاّ عند الخبراء بأحوال البادية، وما أقلّ العارفين منهم!! ولا نعلم متى كانت معركة حماه لأن الصائغ يكتفي بسرد الحوادث دون أن يذكر تاريخها. ولكن يظهر من سياق الحديث أن الغزو الوهابي كان خلال صيف سنة ١٨١٢م.

وبعد أن ربح الدريعي معركة حماه قطع الفرات، واجتاز الجزيرة، ودخل طراق العجم(؟)ثم تابع رحيله مع (لاسكاريس) والصائغ وبعض أمراء البادية إلى بلاد كرمان، ووصل إلى نهر خراسان وأرض الهندوان، وذلك بعد مسير اثنتين وأربعين مرحلة كبيرة، وحلّ أخيراً على الأمير سعد البخاري، وتم الاتفاق معه. ودخل أيضاً بالحلف الأمير الرُّدَيْني، شيخ عرب العجم، وهو رجل من الرافضة لا يأكل مع أهل السنة.

وهكذا توصَّل الدريعي إلى تحقيق مآرب (لاسكاريس) فتمَّ على يده اتحاد معظم القبائل العربية من برِّ الشام إلى حدود الهند، وتحالفت معه ضد (الأروام) أي الأتراك، واتفقت على مساعدة الجيش الكبير الذي سيمرُّ بالشرق عبر الصحارى، وينوي السيطرة على طريق الهند.

ويذكر الصائغ في نهاية كتابه أسماء القبائل التي دخلت في هذا الحلف وأسماء شيوخها وعدد المقاتلين، فكان المجموع خمساً وأربعين قبيلة تعد نحو ألف ألف نفس.

وعاد الدريعي إلى طبراق بغداد (؟) بعد أن تحالف مع عرب العجم، ثم سار مع رفقائه قاصداً بَرَّ الشام، إذْ أتَتْهُ رسالة من عبدالله بن سعود يطلب حضوره إلى الدرعية. فتشاور القوم فيما بينهم، وتمَّ قرارهم على تلبية دعوة الوهابي، وإرسال وفدٍ يضمّ الدريعي وبعض أقربائه والصائغ وعدداً من العبيد. أما (لاسكاريس) فرأى أنه من الأنسب أن يبقى مع سائر أفراد القبيلة.

ويتابع الصائغ وصف رحلته فيتحدث عن وصول الوفد إلى الدرعية ونزوله في ضيافة الإمام الوهابي، الذي كان حاقداً على الدريعي، فاستقبله استقبالاً سيئاً، ثم أمر بالحوطة عليه وعلى أعضا الوفد. وبعد أخذ وردٍّ تمّ الصلح بين الطرفين، على أن يكون (الدريعي سلطان الشمال) وابن سعود (سلطان القبلة) وعلى أن (يكونا روحين في جسد واحد)، كما جاء في مذكرات الصائغ. فتمكن عندئذ صاحب الرحلة من التنزه في الدرعية فوصفها ووصف أسواقها ونساءها، وأتى أيضاً على وصف العاهل الوهابي ومجلسه وأحواله. وقد ذَكَرَتْ مجلة العرب تفاصيل رحلة الصائغ إلى الدرعية بناءً على الترجمة التي قام بها المستشرق (فرنيل) من الفرنسية إلى العربية[٣]، وهي مشبعة بالأخطاء كما بيناه على صفحات هذه المجلة.

وقبل أن يغادر الوفد عاصمة الوهابيين وصل العلم إلى ابن سعود أن قوات محمد علي خرجت من ينبع، وتوجهت إلى المدينة لاحتلالها. فلم يأبه العاهل الوهابي بهذا الخبر.

أما (لاسكاريس) فقد سُـرَّ جداً بنتائج رحلة الصائغ إلى الدرعية، إذ أصبح طريق الهند ممهداً أمام جيوش (نابوليون) ورأى أن التوفيق كان حليفه وأنَّ بوسعه العودة إلى فرنسا لاطلاع الأمبراطور على نجاح مهمته. فذهب مع فتح الله الصائغ من حلب إلى اسلامبول (استنبول)، وهناك علم بانكسار القوات الفرنسية في روسيا. ثم تتابعت الأخبار المشؤومة وهوى (نابوليون) من على عرشه فسافر (لاسكاريس) إلى إزمير لمقابلة الجنرالين (سافاري) و (لالمان)، وبناءً على شورهما طلب الحماية البريطانية ليأمن على حياته من شرّ العثمانين، وذهب وحده إلى القاهرة حيث وافاه أجله. فوضع القنصل البريطاني (سالطْ) يده على جميع

مخلفات العامل الفرنسي، بما فيها مذكراته وأوراقه.

أما الصائغ فقد علم بوفاة (أبيه الروحي) أثناء إقامته مع والدته باللاذقية. ثم أتته رسالة من (دُروفيتي) قنصل فرنسا في الاسكندرية، يطلب حضوره. فلبّى الطلب وحاول عبثاً أن يحصل على أوراق معلمه فلم ينل من القنصل البريطاني إلا الإهانة والطرد.

وهكذا انتهت رحلة الصائغ التي طالت ــ على زعمه ــ سبع سنوات. وقد عرضناها عرضاً سريعاً لا يعطي إلا فكرة خاطفة وغير كاملة عن محتوياتها. والواقع أن المخطوطة المحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس تقع في مئة وثلاثين ورقة أي مئتين وستين صفحة، وكل صفحة فيها نحو ثلاثة وعشرين سطراً. ولو أردنا أن نذكر جميع ما جاء فيها من حوادث وأخبار لطال بنا الكلام. إنما الغاية من هذا المقال التنبيه إلى أهمية هذا الكتاب والحث على نشره على الرغم مما جاء فيه من مبالغات وتمويه وأخطاء تاريخية كما سنراه، لأنه في الوقت نفسه وثيقة هامة عن أحوال بادية الشام وعن بعض القرى والبلدان السورية في أوائل القرن التاسع عشر.

أما قصة (لاسكاريس) فليستْ وليدة الخيال، وإن كان الخيال لعب بها حتى أصبحت موضوع شك المؤرخين. والواقع أنَّ فرنسا كانت تطمع بالاستيلاء على مصر من قبل قيام ثورة ١٧٨٩، فزارها عدد من سياحها ووصفوها، ومن أشهرهم (فولنه) الذي تجول في الشرق من سنة ١٧٨٣ إلى سنة ١٧٨٥ وكتب كتاباً قيماً عن وضعه الجغرافي والسياسي والعمراني وقال عن مدينة الاسكندرية: إنَّ تحصناتها الحربية عديمة الوجود[٤]. وعندما أبحرت القوات الفرنسية متوجهة إلى مصر، فُقِد هذا الكتاب من الأسواق. وبعد أن استولى (بونابارت) على الحكم أرسلت السلطات الفرنسية الجنرال (سَبَسْتِيَاني) سنة ١٨٠٢[٥]، و (فانسان بوتان)، سنة ١٨١٠، للكشف عن الوضع العسكري في الشرق[٦]. ولعل القرار على مهمة (لاسكاريس) صدر عن نفس الدوائر الفرنسية العالية.

وهنا يقف المؤرخ وقفة الحائر إذْ لا يجد أيَّ وثيقة تؤكد صحة ما ادعاه (لاسكاريس) بناءً على ما ذكره الصائغ، من أنَّ (نابوليون) أوفده إلى الشرق ليكسب صداقة أمراء البادية. ولم أجد في المخابرات القنصلية الفرنسية الخاصة بمدينة حلب ذكراً للاسكاريس، مع أنه أقام في هذه البلد أكثر من سنة، وكانت تأتيه الأموال منها، على ما يقول الصائغ. ولكن ليس من عادة الدوائر الجاسوسية أن تعطي تعليمات بالطرق الرسمية، ولا يمكن أن تكون هذه القصة من ابتداع الصائغ، فأنّى لِشاب سوري لا يحسن غير البيع والشراء أن يكون عارفاً بالسياسة العالمية وعلى علم بأسماء عدد من كبار الشخصيات الفرنسية المقيمة في الشرق. حتى أنه تحدث عن وصول الجنرالين (سافاري) و (لالمان) إلى إزمير بعد سقوط نابوليون؟ ولا شك في أن رحلة الصائغ قد لعب بها الخيال، ولكنها ليستْ وليدة الخيال ولا يمكن لأيِّ ناقدٍ قرأ هذه المذكرات، واطلع على دقة الوصف فيها لبعض القرى السورية والأماكن الأثرية والحياة البدوية إلا أن يُسَلِّمَ بحكمنا هذا. ولعل (لاسكاريس) أوهمه أنه كان موفداً من قبل (نابوليون) لأنه تكلم عن هذه الرحلة في مقال صدر بعد وفاته(٧)، ذكر فيه بعض حوادث نوّه بها الصائغ أيضاً. أو لعلّ بعض الشخصيات السياسية الفرنسية طلبت من (لاسكاريس) أن يقوم بالتمهيدات الأولية لكسب صداقة أمراء البادية، إذْ بقي في مصر عدد من الفرنسيين بعد إخفاق الحملة اعتنقوا الإسلام، وخدموا أصحاب البلاد، منهم (الكولونيل سافْ) المشهور بسليمان باشا وهو الذي أعاد تنظيم جيش محمد علي(٨). والحقيقة أن قصة (لاسكاريس) من الألغاز التاريخية التي لم تَجِدْ حـلاً إلى هذا اليوم. وتفيدنا رسالة وجهها قنصل فرنسا بالاسكندرية إلى الوزارة الخارجية بباريس، بتاريخ ٢٣ نيسان ١٨١٧ أن السائح (بوركهارت) ــ الذي اكتشف خرائب بترا ــ كتب ترجمة حياة (لاسكاريس) بعد وفاته بالقاهرة(٩). ومن المؤسف أنني لم أجد أثراً لهذه الترجمة، ولعلها لم تطبع، إلاَّ أنها تدلنا على أنَّ الرحالة السويسري ـ البريطاني كان على اتصال وثيق بجاسوس (نابوليون) وينظر إليه نظرة النِّدِّ للند. ونعلم من مذكرات الصائغ أن (لاسكاريس) التقى فعلاً بالشيخ إبراهيم، صاحب «الرحلة إلى الجزيرة العربية»، عندما زار (لادي ستنْهوب).

ومتى سلمنا بهذه الأمور الأساسية وهي أنَّ قصة (لاسكاريس) ليست وليدة الخيال وأنه رَحَلَ فِعْلاً مع ترجمانه فتح الله الصائغ إلى البادية واتَّصلا بعدد من شيوخ القبائل، اتّسع علينا مجال النقد لنتبين الصحيح من الخطإ في مذكرات الصائغ، لأنه شوَّهَ الحقيقة وتحدث بأمور هي من نسج خياله، إلا أنه صدق أيضاً في أمور كثيرة فأفاد إفادة جمة.

وأول ما تجب الإشارة إليه هي الأخطاء التاريخية العديدة في هذه الرحلة. فالصائغ يعلمنا أنه غادر حلب مع (لاسكاريس) قاصداً حماه يوم الخميس الواقع في ١٨ شباط سنة ١٨١٠ وأنه ابتدأ بكتابة يومياته بعد نهاية الشتاء. وتابع تسجيل مذكراته مدة ست سنوات إلى تاريخ وفاة (لاسكاريس) ومعناه أنه مات سنة ١٨١٦، والواقع أنه توفي سنة ١٨١٧[١٠].

ويذكر الصائغ أيضاً أنه بعد رحلته الأولى إلى تدمر وبرِّ الشام ذهب إلى دمشق، وكان ذلك بتاريخ ٢٣ كانون الأول سنة ١٨١٠. ثم اتصل بالدريعي ابن شعلان وتمكن من إحضار معلمه الشيخ ابراهيم إلى مخيم الدريعي في خريف سنة ١٨١١. وأثناء ذلك قامت بعضُ القوات الوهابية بغزوة على عرب الشام فتبعها الدريعي وربح المعركة ضدَّ القائد الوهابي الشهير بابي نقطة. إلا أنَّ أبا نقطة حاكم عسير تهامة توفي قبل هذا الغزو بسنتين، قتله الشريف علي حمود قائد عرب اليمن، عندما اندلعت نيران الحرب بين الوهابيين واليمنيين[١١] ويذكر الصائغ من جديد أبا نقطة ويزعم أنه قاد حملة على بر الشام، وكان معه يومئذ عبدالله الهدال، كيخيا ابن سعود، وذلك خلال صيف سنة ١٨١٣. وكان النّصر أيضاً حليف الدريعي. ويتحدث من جديد عن أبي نقطة عند زيارته الدرعية، ويزعم أنه تناول معه طعام العشاء، ولكنه لا يذكر تاريخ هذه الزيارة، إلا أنّنا إذْ تتبعنا سياق الحديث نعلم أنَّ ذهابه إلى عاصمة الوهابيين كان بعد سفره إلى أطراف الهند واتحاد الشيخ الرديني مع الدريعي خلال صيف سنة ١٨١٤. وفي الوقت نفسه يعلمنا أنَّ خبر زحف القوات المصرية على المدينة بلغ ابن سعود عند نهاية هذه الزيارة، ومن المعلوم أن الجيش المصري احتلّ المدينة المنورة في شهر تشرين الثاني سنة ١٨١٢.

وبعد أن نَجَحت مساعي (لاسكازيس) ذهب إلى (استنبول) قاصداً فرنسا. ويُسْتَدَلُّ من سياق القصة أنه سافر خلال شتاء ١٨١٥. ولكن الصائغ يخبرنا أنه علم هناك باندحار القوات الفرنسية في روسيا، ثم تتابعت الأخبار المشؤومة وبلغه تراجع (نابوليون) وعودته مكسوراً إلى باريس. ومن المعروف المشهور أن هذه الحوادث جرت في شتاء سنة ١٨١٣.

فيتضح من هذا النقد السريع أنَّ الصائغ خبط بالتاريخ خَبْطَ عَشْواء. وإذا أضفنا إلى ما تقدم مغامراته العديدة المزعومة والأخطار التي مَرَّ بها وكاد يذهب ضحيتها وسفره إلى طبراق العجم ووصوله إلى حدود الهند وحديثه عن أثواب الحيات وهو أشبه بقصص ألف ليلة وليلة أصبح من اليقين لدينا أنه تساهل تساهلاً شديداً بالأمور التاريخية وأن الناقد على حق إذا شك في صحة أقواله، ونسب عدداً منها إلى الخيال.

ولكن، (لعل له عذر وأنت تلوم) والواقع أن الصائغ كان يكتب يومياته على (ورقة طيارة)، على حسب تعبيره، وإن هي إلا مذكرة للشيخ إبراهيم تسهل عليه تسجيل الوقائع. وما أظن أنَّ صاحبنا كان يفكر يوماً بوضع كتاب عن رحلته، لأنه كان لا يحسن اللغة العربية. ولكنه احتفظ بمذكراته، وعندما عرض عليه (لامرتين) شراءها قام عندئذ بتحريرها باللهجة الحلبية، متتبعاً سير الحوادث، والدليل على ذلك أنه كثيراً ما يضع علامة على بعض صفحات المخطوطة تشير إلى أن الحادث الذي ذكره يجب أن يقدم أو يؤخر. ولا عَجَبَ إذًا أخطأ بالتواريخ لأنه أراد باديء بَدْءٍ سَرْدَ قصة أبيه الروحي (لاسكاريس) فكتب ما علق بذاكرته دون اهتمام كبير بالأمانة التاريخية، لا سيَّما وأنه وضع كتابه بعد مضي نحو خمس عشرة سنة على رحلته، فذكر القائد أبا نقطة لأن حاكم عسير تهامة كان مشهوراً بقوته وجسارته وأخطأ باسماء الاعلام والانساب. وكان على جهل بالتاريخ العربي والإسلامي فظن أنَّ قبر النبي في مكة، وزعم أن الإمام سعود نَهَب أم القرى عند فتحها. وجمع به الخيال فسرد حوادث من الصعب تصديقها مثل رحلته إلى بلاد كرمان، ووصوله إلى نهر خراسان وأرض الهندوان، بعد مسير اثنين وأربعين

مرحلة كبيرة، ثم نزوله على نهر عظيم اسمه جيستان (يبعد عن حدود الهند نحو عشرين ساعة فقط بالقرب من بلد آخر بلاد العجم يسمونها المتونا). فجميع تفاصيل هذه الرحلة الكبيرة، ذهاباً وإياباً، حصرها الصائغ في ست صفحات، مع أن من عادته الإسهاب، مما يجعلنا نشك في صحة هذه الرواية، والغرض منها إعلام القاريء أنَّ الطريق أصبح ممهداً أمام جيش (نابوليون) من بر الشام إلى حدود الهند.

وهناك نقطتان أساسِيَّتان أثارتا بنوعٍ خاصٍّ شكوكَ المؤرخين، ولا بُدَّ لنا من التحقيق عنهما: الأولى معركة حماه والثانية الرحلة إلى الدرعية.

وصف الصائغ معركة حماه وصفاً رائعاً، وذكر عدد المقاتلين، فزعم أن الجيش الوهابي كان يضم نحو مئة وخمسين ألف مقاتل، أمَّا عرب الشام فإن جميع القبائل التي أنجدت الدريعي لا تزيد على ثمانين ألف مقاتل، يضاف إليهم جنود الجيش العثماني الذي تصدَّى أيضاً للغزو الوهابي.

ولكن هل وقعت هذه المعركة حقاً؟ يعتقد الدكتور منير العجلاني أن الإمام سعود قام فعلاً بغارة على أطراف الشام سنة ١٢٢٥هـ. ووقعت معركة كبيرة مع عرب هذه الناحية[١٢]. إلا أنه يظن (أن أعداد المقاتلين أعداد مبالغ فيها كثيراً، وأما المعركة، فيترجح عندنا، بغلبة الظن، أنها وقعت: يقول ابن بشر في أخبار سنة ١٢٢٥ إن الإمام سعود سار في شهر ربيع الثاني إلى الشام[١٣]. إلاَّ أن الغارة التي تكلم عنها ابن بشر قام بها سعود، أما معركة حماة فلم تكن بقيادته، ووقعت على ما يذكر الصائغ بعد هذه الغارة بسنتين. وعندما عرض المستشرق (فرنيل) على ذوي الخبرة من العرب وصف رحلة الصائغ إلى الدرعية، علّق الشيخ أحمد بن حسن بن رشيد الحنبلي على هذه الغزوة بقوله: (هذا كلام غير معقول، ما كسرت جيوش الوهابي عند حماه إذ كان العرب بعضها مع بعض، اللهم ...)[١٤]، وهذا معناه أن الشيخ الحنبلي يسلم بإمكان وقوع مثل هذا الغزو، إلا أنه لم يكن بقيادة سعود.

ولدينا شاهد على وقوع هذه المعركة الكبيرة في كتيب لمؤلف فرنسي يدعى

أوغست دي نرسيا، طُبعَ سنة ١٨١٨، يقول فيه: «لما وقعت الحرب بين قبائل عنزة والفِدعان غطت خيام الفئتين المتقاتلتين جميع المساحة بين سلمية وتدمر . . . واننا نؤكد أن عدد المتحاربين في معركة السلمية [قرب حماه] التي وقعت سنة ١٨١٢ زاد على أربعين ألف فارس يحملون الرماح إلا أنّ العدد الذي ذكرناه أقل بكثير مما ذهب إليه بعض الأناس المعروفين بصدقهم وبعد نظرهم، وذلك لأننا نخشى أن تنسب إلينا المغالاة في الأمور». ومن البديهي أن ما يقوله الكاتب الفرنسي لا يعني أن القتال كان بين الوهابيين وعرب الشام لأن الفدعان فرع من قبائل عنزة. ولكن عنوان الكتاب يدل على أن حديث المؤلف له علاقة بالغزو الوهابي (نبذة عن البدو وعن الملة الوهابية، ص ١٨).

أما رحلة الصائغ إلى الدرعية فهي التي أثارت بنوع خاص شكوك المستشرقين، وسار على خطاهم بعض المؤرخين العرب[١٥] دون الرجوع إلى المصدر الأول أي مذكرات فتح الله الصائغ. وقد سبق وأثبتنا في مقال نشرته مجلة العرب[١٦] أن المسؤول عن الريبة التي تحوط بهذه الرحلة هو سوء الترجمة بل الترجمات. وليس في الإعادة إفادة إنما نكتفي ببعض الأمثلة ليكون القارىء على بينة من صحة كلامنا.

كلام فتح الله الصائغ:

— (وركبنا وكان عددنا اثنى عشر نفراً لا غير وهم الدريعي وابنه سعدون وابن أخيه الأمير هجري وابن عمه جبل الدريعي واثنين آخرين من أوجاه العرب وأنا لله عبد وخمسة عبيد لا غير كل واحد على هجين).

تعليقنا: هذا كلام الصائغ دون زيادة أو نقصان، ولا نجد في المخطوطة عبارة تشير إلى هذه السلطة الواسعة التي كان يتمتع بها الدريعي، بناء على كلام المستشرق فرنيل.

— (وقرب العصر . . . توجه الدريعي ومن معه إلى مواجهة [ابن سعود] من غير طلب إذن، لأن ما في عادة، فدخلنا إلى المحل الذي جالس فيه. وكان عنده جمع كبير من خواصّه فسلمنا عليه، كل واحد منا وحده، من غير أخذ

يده ولا تقبيل أذياله، على حسب عوايد العثماني، بل من دخولنا كل واحد يؤشر بيده ويقول: السلام عليك يا ابن سعود ويجلس. فقط العبيد قائمون على أرجلهم . . . عمره نحو خمس وأربعين سنة بذقن سوداء . . . وبيده محجان من شجر المحلب).

تعليقنا: شتان ما بين كلام الصائغ وترجمة فرنيل!

- (والشيء الذي ينقص [سكان الدرعية] يجلبه لهم أهالي الينبع بحر إلى مكا، كرسي اليمن، محل الذي يخرج مبالغ القهوة منها، لا مكة الذي بها قبر محمد . . . فأهالي مكا [مخا] يجيبوا اللوازم الناقصة للدرعية . . . لأن كل يوم اربعاء يوجد بازار بالدرعية).

(نساهم غير محسنات أكثرهن سمر غامقات، والبيضاء كمثل السمراء في بلادنا . . . يخرجن للطريق مغطايين بمشالح سود إلى فوق رأسهن).

ترجمة فرنيل عن الفرنسية وتعليق الشيخ الحنبلي عليها:

- (ثم وصلنا إلى كرسي المملكة الوهابية . . . والمسافرون، غير الفقير، أحد عشر وهم الدريعي بن شعلان، شيخ الرولة، وكان يحكم على القبائل الشمالية والشرقية جميعها من حدود الهند إلى البصرة وحد نجد، ومن العراق والجزيرة والحماد إلى الشامين وحوران والجليل).

يقول الشيخ الحنبلي: (الدريعي شيخ عرب الشام، ولا يحكم على جميع عربان الشام، كيف يحكم على ما ذكره هذا الكذاب، وفي القبائل الشمالية والشرقية والشامية نحو من سبعين حاكماً مثل الدريعي).

- (ولما جاء المساء نظمنا ملابسنا، ثم حضرنا لمقابلة الملك. فرأينا رجلاً كان عمره خمساً وأربعين سنة، في عينيه عبوس واتساع . . . وفي يده قضيب ملك، كأنه علامة ملكه. وكان جالساً في صدر قاعة واسعة مفروشة بالحصر والبسط الفاخرة، وأكابر مملكته واقفون بين يديه).

تعليق الشيخ الحنبلي: (ليس بقضيب بل مشعاب، وليس علامة الملك بل ينقله العام والخاص. لا يرون الوقوف بين أيديهم وعلى رؤوسهم، بل خادمهم ومخدومهم سواء في الجلوس).

- (وفي كل يوم اربعاء يجيء أهل مكة واليمن ويقايضونهم على المتاجر بإبلهم وغنمهم وليس لها متجر سوى هذا السوق).

تعليق الشيخ الحنبلي: (لم يصدق ... في قوله إن أهل المدينة وأهل مكة واليمن يأتون إلى الدرعية في كل اربعاء للسوق).

(وتخرج النساء في الأزقة بغير براقع، إلا أنهن يغطين رؤوسهن بالمشلح الأسود، وهذا غير مليح، وأغلبهن قبيح في غاية السمرة).

تعليق الشيخ الحنبلي: (لم يصدق [في كلامه] عن خروج النساء).

بِوُسْعِنا أن نعطي أمثلة عديدة على سوء الترجمة، مما حمل الشيخ الحنبلي على القول عند قراءتها: (لا أرى هذا الرجل إلا كذاب مزور أشر بطر)[١٧]. والواقع أنه صدق في أمور عديدة وجاء كلامه موافقاً لتعليق منتقده، إنما أصدر الشيخ الحنبلي حكمه على أقوال لم يذكرها الصائغ في كتابه. ونراه على صواب أيضاً، خلافاً لما قاله مُكَذِّبه، حين ذكر أن العاهل الوهابي حرّم لبس الحرير في بلاده. يقول حافظ وهبة: «وأمر [سعود] ... بترك لبس الحرير والذهب[١٨]. وكذلك أخطأ الشيخ الحنبلي في تقديره لما أخذه سعود من الحجرة[١٩].

ثم يظهر من كلام الصائغ أن المقابلة لم تكن مع سعود بل مع ابنه عبدالله، ولي العهد. فالصائغ يقول لنا: إنه رأى رجلاً كان عمره خمساً وأربعين سنة، أسمر اللون. أما سعود فكان يومئذ في الخامسة والستين من عمره، وكان أبيض البشرة.

ولا شكَّ في أن الصائغ وقع في أخطاء عديدة، فكتب (مكا) بدلاً من (نجا) وزعم أن قبر النبي في مكة، وأن سعوداً نهب هذا البلد، فخلط بين مكة والمدينة. وهنالك أيضاً مجال للشكِّ في صحة الكتاب الذي أرسل به عبدالله بن سعود إلى

الدريعي بن شعلان، ولكن علينا ألاّ ننسى أن الرسالة موجهة إلى شيخ بدوي يجهل الكتابة والقراءة ولعلها صيغت عمداً بأسلوب يفهمه أهل البادية. ولكني أميل إلى الظن أن الصائغ سجّل في مذكراته وصول كتاب من الوهابي إلى ابن شعلان ولما عرض عليه (لامرتين) شراءها صاغ الكتاب بانشائه العامي البدوي. ولا عجب إذا أخطأ في نسب عبدالله بن سعود فإنّ خلطه بين مكة والمدينة يكفي لإظهار قلة معرفته بالأمور العربية.

أجَلْ إنّ الصائغ لم يكن حريصاً على الأمانة التاريخية، لأنه أراد فقط أن يكتب قصة رحلة، فنمّق وزاد، واتخذ أسلوباً روائياً، فشوّه الحقائق أحياناً. وعلى الرغم من هذه الأخطاء، فإن في كتابه من الفوائد الجمة والأوصاف الدقيقة، والمعلومات الشيِّقة ما يجعله مرجعاً لكل من يهتم بالبادية وأحوالها، بل بالدعوة الوهابية لأنه تكلم مراراً عنها وعن عادات سعود وأحواله. وإني أميل إلى تصديقه عندما يتحدث عن الدرعية، لأن الشكوك التي أثارتها هذه الرحلة مُتأتية عن سُوء الترجمات، كما بيناه.

ولكي يكون نَقْدُنَا نَزِيهاً وشاملاً علينا الآن أن نظهر محاسن هذا الكتاب، وهي عديدة، بعد أن نوهنا بمطاعنه وأخطائه. وأول ما يسترعي النظر هو وصفه الدقيق السريع لكثير من الأمكنة، مما يدل على أنه رآها حقاً. ومن ذلك كلامه عن حمّام طبيعي قرب قرية صدد، قال: (كان مسيرنا أربع ساعات لطرف الشرق منحرف لجهة الشمال، فوصلنا ووجدنا عمارات قديمة وكثيراً من الخراب. ثم وجدنا مخدعاً بقدر أوضه [غرفة] كبيرة لم تزل قائمة، عمارته على الطريقة القديمة بحجار كبيرة جداً، تهدم منها فقط قسم من الحائط من جهة الباب، فسَدّ نصفه. فدخلنا الغرفة، ووجدنا طاقة من جهة الشرق طولها نحو ذراع وعرضها كذلك، بناؤها قديم جداً، ويخرج من تلك الطاقة بُخار عظيم بكثرة . . .) (المخطوطة، ورقة ١٠).

ولنقرأ أيضاً وصفه لقرية صدد: (وثاني يوم قمنا دورنا بالضيعة ووجدناها ضيعة عظيمة، تحوي على متين بيت، جميعهم نصارى سُرْيَان، من غير واحد

مخالطهم. صنعتهم شغل العبي والمشالح. بها خمس كنائس وخمسة قسوس، كل واحد له كنيسة. ماؤها جاري من عينتين، وعندهم قليل من البساتين لأنهم كلهم مشغولون بصنعتهم. وهم يزرعون قليلاً من الحنطة والشعير، ومحصولهم يكفيهم نصف السنة فقط، والسبب أن كل زرعهم يسقى من العين لأن الأمطار عندهم قليلة، وأكثر السنين لا تسقط الأمطار كلياً. أما الماء فإنها يتقاسمونها بالساعة)، (المخطوطة، ورقة ١٠).

ويقول واصفاً القريتين: (إنها ضيعة [قرية] كبيرة جداً يَحُقُّ لهم أن يسموها القريتين . . . بها نصارى سريان قُدُم، نحو عشرين عائلة فقط، وبها إسلام مقدار مئتين وخمسين عائلة . . . وهذه الضَيعة حصينة، من دايرها حيطان ملتحمة وبيوت في بعضها، وما لها غير باب واحد فقط، وسبب ذلك خوفهم من العربان أن يسطوا عليهم ليلاً . . . ثم لها ماء كافية لهم جارية ونبعها بعيد عن [القرية] نحو خمس ساعات من محل يقال له شعب اللوز، ولها بساتين وكروم عنب، وزرعهم سقي على الماء يقتسمونها بالساعة الرملية) (المخطوطة، ورقة ١٢).

وبِوُسْعِنا أن نعطي أمثلة كثيرة من هذا النوع كوصفه آثار تَدمر، ومغارة كبيرة قرب هذه المدينة وكلامه عن ريح السموم، إنما أهم ما جاء في هذا الكتاب ــ باعتقادنا ــ هو حديثه عن عادات البادية وتقاليدها وقبائلها، فهو حديث الشاهد الأمين الذي يتكلم عما رآه وسمعه، وعرفه بالخبرة والمشاهدة. ويطول بنا المقال إذا أردنا أن نعطي أمثلة على كل ما ذكرناه، إذْ علينا عندئذ أن نستشهد بعدد كبير من الصفحات، لأن الصائغ تعرض لنواحٍ عديدة من حياة البادية، مثل الرحيل في حالة السلم، والنّساء في الهوادج، وأمامَهُنَّ الفرسان الخبيرون بالضرب والطعن (ورقة ٢١)، والرحيل السريع في حالة الطوارىء، فَتُجِدُّ القبيلة بالسير المداوم، من غير نزول ولا راحة، بل النوم على ظهور الجهال والأكل كذلك، والنّساء تعجن وتخبز على ظهور الجهال أيضاً (ورقة ٦٣). ويتكلم عن مكانة المرأة في المجتمع البدوي وتكريمهم لها (ورقة ٥٨)، وعن الطب البدوي (ورقة ٥٧) والخوة (ورقة

٢٣) والنخوة (ورقة ٨٩) والعطفة (ورقة ٩٠)، بل إنه يفرد فصلاً خاصاً لعادات البادية (ورقة ١١٤ وما بعدها). ويحدثنا أيضاً مطولاً عن مراسيم الزواج فيقول: (ركبنا جميعاً وكل لَبِسَ أفخر الذي عنده، وراح العريس معنا لتراه العروس، فإن أعجبها أعطت كلامها وإن لم تَرْضَى ما صار شغل، مثل طرائق الافرنج . . . وكانت العروس من خلف الستار تنظر العريس فأعجبها وقالت إلى أمها: قد أعجبني العريس. فصار لنا خبر برضا الفتاة . . .). ثم تم الاتّفاق على المهر وصار الوعد إلى ثلاثة أيام. وفي اليوم الثالث الذي هو يوم الوعد، (زَيَّنُوا رؤوس الناقات بالحشيش الأخضر، وزينوا العبد والعبدة واركبوهما على الأفراس . . . وركب نحو خمس مئة خيال، وساقوا الجمال أمامهم، بالغناء الحربي وإطلاق النار. وكذلك نحو مئتين امرأة كلهن مزينات، والغنم تُسَاق أمامهن، والعبدة راكبة معهن. أما سائر النساء فكنّ ماشيات بالغناء والتهاليل والزراغيط. وأمام الجميع خيَّالٌ ناشر زنار أبيض على رمحه، كأنه علم، وينادي: هذه راية بركز بن هديب(*). ومشت امرأة أمام الغنم، وبيدها آنية من الفخار تصنع فيها بخور البان كل الطريق وكان أمام الجميع حامل الراية البيضاء، وبعده النوق، وبعد النوق البواردِيَّة المشاة، وبعدهم الخيالة، وبعد الخيالة المرأة التي بيدها البخور، وبعدها الغنم، وبعد الغنم العبدة راكبة، وبعد العبدة النساء، وبعدهن الأولاد، ومعهم جمل يحمل الحوائج من غير حزم موضوعة على ظهره، من رأسه إلى ذنبه، الحاجة فوق الحاجة، حتى الجزمات كانت مربوطة بالخيطان ومدلاة على جوانب الجمل، وعلى ظهره فوق الحوائج ولد من أكابر القبيلة ينادي: أخمد الله نيران الخصوم، كسر الله قوات عدونا، ونصرنا الله على من يعادينا، والأولاد ترد عليه آمين). (ورقة ٨٠ ــ ٨١) ويتابع الصائغ وصفه فيعلمنا أنَّ من عادة البدو في مثل هذه المناسبة أن يقع شبه حرب بين أهل العريس وأهل العروس: (فاستقام الحرب نحو ساعتين من الزمن، ووقعت الجرحى من الطرفين، وأخيراً انتصر خيالة أهل العريس وهجموا على بيت بركز(*) وأخذوا الفتاة وسلموها إلى النسوان. ثم حضر الجميع وشربوا القهوة فإذا أقبل علينا نحو امرأة يقال لهن حبابات العروس ليذهبن معها، ومعهن ثلاثة جمال: الواحد عليه هودج العروس

المزين بالجوخ الأحمر، والمرصع بالودع الأبيض، وأنواع الخرز، وريش النعام والمرايا الصغيرة، وعلى الثاني البيت والعواميد، وعلى الثالث أواعي البيت . . .) (ورقة ٨١).

والحقيقة أن الصفحات التي جاء فيها وصف حفلة زواج ابن الأمير بركز(*) من أحسن ما كتبه الصائغ في رحلته. ويماثلها بالدقة كلامه عن العادات المتبعة عند البدو، حين طلب النـجْدة في وقت الحرب، قال: ابتدأ الدريعي بتدبير أموره لصدِّ الغارة الوهابية، فأحضر (ناقة بيضاء وسودها بشحوار الدست، وربط في رقبتها شقة بيت شعر سوداء، وأركب عليها فتاة لابسة السواد، ومسودة أيضاً وجهها، ومعها عشرة رجال تدور على القبائل وتدعوهم إلى معونة الدريعي. وكانت كلما وصلت إلى قبيلة تقول: الفزاع الفزاع يا أهل الخيل، يا أصحاب المرؤة والنخوة، يا من يبيض عرض هذه الناقة ويغسل سوادها، هذه شقة بيت الدريعي المزعم يخرب، يا أهل الحشيمة والغيرة، انهجوا انهجوا، ترى ربعكم ذبحهم الوهابي وعدمتوهم، يا سامعين الصوت صلوا على النبي، أولكم محمد وآخركم علي) (وربة ٨٨).

ويصف أيضاً الحرب على الجمال فيقول: (وكان الوهابيون نحو عشرة آلاف منهم خيالة ومنهم مراديف أي كل اثنين على جمل، ومنهم مضاعف أي أربعة رجال على جمل بأربع بواريد فتيل ظهورهم إلى بعضهم فوق الجمل، الواحد من الأمام، والواحد من خلف، والآخر على جانب، والرابع على الجانب الثاني. وهم عاملون لهم مقاعد من عشب مثل الكراسي مربوطة بحبال. وعندهم أكلهم مشترك بينهم وهو جراب طحين وجراب تمر، وعكّة سمن . . . يأكل كل واحد منهم كمشة [قبضة] طحين يعجنها بالسمن ويعمل منها ثلاث قطع مثل الجوزة ويأكلها ويأكل معها بعض التمرات، ويشرب شيئاً من الماء أو الحليب، حيث معهم جود[٢٠] لأجل الماء مربوطة تحت بطن الذلول، النتيجة كمثل القلعة لا يحتاجون إلى شيء أبداً) (ورقة ٨٣).

ويتحدث الصائغ عن الحرب مع الوهابيين، وعن سلاح البدو يومئذ، فنعلم

أن السيف والرمح كانا من الأسلحة التي يكثر استعمالها في البادية، وأنَّ منهم من كان يلبس الخوذة وقميص الزرد، أما الأسلحة النارية فإن الدارج عندهم البارودة ذات الفتيل، (لأن عادة العربان لا تحوي (تفنك) بقداحة لأجل أولاً قليل من يأخذ لهم من هذا الصنف للبيع، ثانياً بسبب غلاء أسعارهم، ثالثاً إذا انعكسوا ليس عندهم من يقوم بتصليحهم، رابعاً بسبب الخطر لأنهم دائماً يرحلوا وينزلوا وتبقى (التفنك) مرميَّة بين حوائجهم، وبأيدي النسوان والأولاد . . .) (ورقة ٣٨).

ومن أغرب ما جاء في مذكرات الصائغ عن أعراف البادية عادة (دفن الحصا)، ويكون ذلك بعد الصلح التام وصفاء القلوب بين خصمين عنيدين وعدوين لدودين طال الخلاف بينهما، وجرى عليهما بسبب ذلك الأمور العظام. وعندئذ ينسى كل واحد منهما ما مضى، ولا يطالب بثأر أو مال. ويعلمنا الصائغ كيف تتمّ عملية دفن الحصا إذْ شاهد ذلك عياناً بعد أن رضي الدريعي بالصلح مع مهنا الفاضل، شيخ قبيلة الحسنة، قال: (فأمر الدريعي بالقهوة فقال مهنا: يا ابن شعلان، ما نشرب قهوتك إلاَّ حتى نتصالح ونتصافح ونطمر الحصوات. وحالاً قام مهنا والدريعي وأشْهَرَا سيفيهما، وقَبَّلَ كل واحد منهما سيف الآخر، ثم إنهما تصافحا، وصار كل من يقبل الآخر من الحاضرين، وابتدأت النساء تهاهي وتزلغط. ثم أخذ مهنا سبع حصوات من الأرض وحفر مقدار نصف ذراع في الأرض، وأمسك الحصوات بيده وقال: يا دريعي هذا حقك وحقي طمرناه إلى الأبد، ودفن الحصوات في الحفرة ورد التراب عليها، وداسها برجْلَيْه وتفل هو والدريعي عليها، بعد الطمر. ثم جلسا وأمر [الدريعي] بالقهوة، ولم يُسْمع بعد ذلك كلمة واحدة فيها يَخُصُّ ذلك. فتعجبنا أنا والشيخ إبراهيم (لاسكاريس) من ذلك، من حيث ما كنا بعد شفنا هذه النكتة ولا سمعنا بها. فسألنا عنها فأخبرونا أنَّ ذلك من عوايدهم. ومَعْنَى السبع حصوات هي الفتن السبع التي صارت ضدَّ الإمام علي بالكوفة بعد محمد. وعلامة الطمر أنه شيء مات ولا عاد يُذكر، والتفل فوقه معناه على الشيطان خزاه الله لأنه هو محرك الشر بالعالم) (ورقة ٧٩). ويتكلم الصائغ مرة أخرى عن طمر الحصوات، بمناسبة صلح آخر: ففرح الناس عندئذ

(وأيقنوا بالصلح الأكيد حيث عندهم متى انطمرت الحصوات كان صلح حقيقي من غير انتقاض قطعاً) (ورقة ٩٥).

ويظهر أن هذه العادة طاعنة بالقدم، إذْ تكلم عنها، كما ذكرناه أعلاه، شهاب الدين العمري في كتابه: «التعريف بالمصطلح الشريف»[٢١]، ووصفها أيضاً ابن ناظر الجيش في «تثقيف التعريف»[٢٢] والقلقشندي في «صبح الأعشى»[٢٣] ولا نعلم أن أحداً من المختصين بالبادية وأحوالها أتى على ذكرها. واعتقادنا أنها زالت اليوم أو أنها آخذة بالزوال. إلاَّ أنَّ ذكرها بقي محفوظاً عند بَدْو الأردن، فهم يقولون: (حفار ودِفان عليهما إدامة، إلى يوم القيامة).

ولا يسعنا هنا أن نعدّد جميع محاسن كتاب فتح الله الصايغ، لأنه على الرغم من أخطائه التاريخية وغلوِّ مؤلفه وثيقة حية عن بلاد الشام وباديته. وعلاوة على ذلك ذكر الصائغ عدداً من الحوادث قد نطعن بصحتها لولا ورودها أيضاً في مصادر موثوق بها. ومن ذلك حرب الدريعي مع سليمان باشا والي بغداد، على إثر غَدْر العثماني به، وإيداعه السجن، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن فدى نفسه بالأموال الطائلة. فتأهب عندئذ للحرب، وهاجمت القوات البدوية الجيش العثماني، وأرغمته على التراجع والهرب، ووضعت السيف في رقاب العراقيين، ونُهِبَتْ بغداد، وغنمت أضعاف ما خسرت (مذكرات الصائغ، ورقة ٤٥). وقد ذكر أيضاً هذا الحادث الخطير عبدالله فيلبي في كتابه: تاريخ نجد[٢٤].

وهذا التنويه بكتاب الصائغ لا يعني أنه مُنَزَّهٌ عن الأخطاء، أوْ أنَّ صاحبه صدق في كل شيء. وقد تكون قصة (لاسكاريس) وسعيه في توحيد القبائل البدوية لقطع طريق الهند على (انجلترا) من مبتدعات هذا الرجل الغريب الشأن. ولكن مغامرات (الكولونيل لورنس) تعلمنا أن مثل هذه الأمور لا يستحيل وقوعها إذا ساعدت على تحقيقها الدوائر الجاسوسية. ولكنها ليست وليدة خيال الصائغ، وإن كان صاحبنا زاد فيها ونمّق، إذْ نراه يتحدث عن البدو وأحوالهم بدقة ومعرفة، وسعة اطلاع، لا تتأتّى إلا لرجل عاش في البادية وعرفها واختبر أحوالها.

باريس، المركز القومي للبحث العلمي — د. يوسف شُلْحُـد

الهوامش:

(١) انظر الهامش رقم ٢١.

(٢) العرب ج ٩، ١٠، س ١٩، ١٤٠٥، ص ٦٩٧ وما بعدها.

(٣) العرب ج ٣، ٤، س ١٩، ١٤٠٤، ص ١٥٢ وما بعدها.

(٤) فولنه: رحلة إلى مصر وسوريا، ص ٢٨ (بالفرنسية)، تحقق جان غوليه، باريس، ١٩٥٩.

(٥) الاب لامنس، تاريخ سوريا، ج ٢، ص ١٢٨ (بالفرنسية)، بيروت، ١٩٢١.

(٦) ج.م. كَرّي، الرحالون والكتبة الفرنسيون في مصر، (بالفرنسية)، ج ٤، باريس، ١٩٦١. وقد اغتال العلويون بوتان سنة ١٨١٥.

(٧) ميشو، كتاب التراجم العام (بالفرنسية)، مادة لاسكاريس، ص ٢٩٧.

(٨) فيليب حتي، ادوار جرجي، جبرائيل جبور، تاريخ العرب (مطول)، ج ٢، س ٨٥٢، دار الكشاف، بيروت، ١٩٦١.

(٩) المخابرات القنصلية رقم ١٩، سنة ١٨١٧، ورقة ٢٠٠، باريس، الوزارة الخارجية (بالفرنسية).

(١٠) كما جاء في المخابرات القنصلية المذكورة في هامش ٩. والغريب أن الصائغ يذكر اسم القنصل البريطاني الذي وضع يده على أوراق (لاسكاريس) أي (مستر سالط) إلا أن المذكور لم يتسلم مهام وظيفته إلا سنة ١٨١٧.

(١١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، الدولة السعودية الأولى، ص ١٦٨، القاهرة ١٩٦٩، عبدالله فيلبي، تاريخ نجد، ص ١٢٤، المكتبة الأهلية، بيروت (دون تاريخ).

(١٢) منير العجلاني، تاريخ بلاد العربية السعودية، ج ٣، ص ٦٥، دار الكاتب العربي، بغداد (دون تاريخ).

(١٣) منير العجلاني، المصدر نفسه، ص ٢٣، فيلبي، تاريخ نجد، ص ١٢٧، وأخطأ ميخائيل مشاقه في تاريخ هذه الغارة فزعم أنها كانت سنة ١٨١٧ وأن الجند الحجازي الذي أمّ الشام أرسله محمد بن عبد الوهاب (انظر: بلاد الشام في القرن التاسع عشر، دراسة وتحقيق سهيل زكار، ص ١٠٠، دار حسان، دمشق، ١٩٨٢ ــ ١٤٠٢.

(١٤) العرب، ج ٣، ٤، س ١٩، ١٤٠٤، ص ١٦٢.

(١٥) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، المصدر نفسه، ص ٢٧٤.

(١٦) انظر هامش رقم ٢.

(١٧) العرب، ج ٣ و ٤، س ١٩، سنة ١٤٠٤، ص ١٥٤.

(١٨) حافظ وهبة، الجزيرة العربية في القرن العشرين، ص ٢١٦، القاهرة، ١٣٦٥ ــ ١٩٤٦.

(١٩) منير العجلاني، المصدر نفسه، ص ٥٣.

(*) لعل صواب الاسم (برجس).

(٢٠) الجود: أوعية من جلد لحفظ الماء.

(٢١) شهاب الدين العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١٦٥ وما بعدها، القاهرة، ١٣١٢.

(٢٢) ابن ناظر الجيش: «تثقيف التعريف» مخطوطة الاسكوريال، ورقة ٩٧ و ٩٨، انظر أيضاً مقالنا بالفرنسية: «دفن الذنوب عند العرب»، مجلة تاريخ الديانات، نيسان ــ حزيران ١٩٥٩، ص ٢١٥ وما بعدها. ←

نقد وتعليق :

المعجم الجغرافي للمنطقة الشرقية

إذا استحق العلامة الشيخ حمد الجاسر جائزة الدولة التقديرية في الأدب فذالك عن كفاءة وجدارة، فهو الرجل الذي وهب حياته للحرف، فأعطى الكثير الكثير، ووفى لشعبه وبلاده فاستحق أن يكافأ بالحُبّ والتقدير، ولعل أهم كتبه الموسوعية كتابه القيم «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية» الذي حذا فيه حَذْوَ مؤلفي معاجم البلدان القدماء في تتبع أسماء البلدان والأماكن والبقاع، وترتيبها وفق الحروف الأبجدية، فكان للمنطقة الشرقية حصة الأسد، إذْ خَصَّصَ لها أربعة أجزاء، صدر منها ثلاثة، ولعل ذلك عائد إلى أهميتها قديماً وحديثاً، فقدِيْماً منذ العصر الجاهلي قطنتها قبائل عربية كثيرة، نزحت إليها من جميع أنحاء شبه الجزيرة العربية، وتركت بصماتها على كل بقعة فيها، حيث وَعَى الشعر العربي أسماء كثيرة للأمكنة والبقاع المنتثرة فيها، فمن الدهناء إلى الصَّمَّان إلى صحراء البياض إلى وادي المياه، إلى غيرها من الصحاري والواحات الغنية بالمياه والجَنَى والثمار والعشب والكلا، كل هذه المناطق تزخر بمرابع بقيت أسماؤها حَيَّةً في ذاكرة الشعر العربي، حتى أصبحت جزءاً لا يتجزأ من تاريخنا الأدبي والحضاري، وحتى استأثرت بعناية الجغرافيين منذ القدم، أما أهميتها في العصر الحديث فتعود إلى كونها تحوي أضخم احتياطيٍّ (بترولي) على سطح الكرة الأرضية كما قرر الخبراء، وقد استرعت اهتمام الكتاب والباحثين مؤخراً لا سيما الغربيين — لموقعها (الاستراتيجي) وتدفق (البترول) بغزارة في أراضيها.

---

(٢٣) القلقشندي: «صبح الأعشى في صناعة الانشاء» ج ١٣، ص ٣٥٢ وما بعدها، دار الكتب السلطانية، القاهرة، ١٩١٨.

(٢٤) عبدالله فيلبي، «تاريخ نجد» ص ١٢٣.

وكان لمجهوده القيم، واطلاعه الواسع على المؤلفات القديمة المخطوطة والمطبوعة، ودواوين الشعر العربي دور بارز في تجسيد الصورة الواقعية عن أهمية هذا الإقليم منذ القدم، بالإضافة إلى قيامه برحلات ميدانية للوقوف عن كثب على تلك المواضع والأماكن التي ذكرها الشعراء والمؤلفون القدماء، مما مكنه للقيام بدراسة مقارنة في تحديد الأمكنة وتصحيح الأسماء التي حدث فيها تغيير أوْ تصحيف وتحريف.

وبين يديَّ فَصْلٌ كتبه الأستاذ الجاسر عن القطيف ونشره في جريدة «اليوم» في عددها (٤١٧٧) الصادر بتاريخ ١٤٠٤/١٢/٨هـ وهو من ضمن مادة حرف القاف [من المعجم] الذي توقفت أجزاؤه الثلاثة عند ذلك الحرف، وكُنْتُ كتبتُ منذ صدور ذلك العدد بعض الملاحظات تعليقاً على ذلك المقال، إلاَّ أنَّ ما كتبته فُقِدَ مني فلم أعْثُرْ عليه، وصرفتني شواغلُ عنه، وقبل فترة وجيزة عثرتُ عليه بين تلافيف أوْرَاقي وكتبي، وقد تحدثت مع أستاذنا الجاسر أثناء لقاءاتي به بفندق (انتر كنتنتال) في أبها عن تلك الملاحظات فطلب مني أنْ أوافيه بها، وإني إذْ أبْدِي إعجابي بروحه العلمية، ومنهجه في البحث للوصول إلى الحقيقة، حين طلب من المعنيين بهذا الموضوع أن يُبْدُوا آراءَهم متطلعاً إلى الاستفادة مما لديهم من معلومات، وبتصحيح ما هو في حاجةٍ إلى التصحيح استميحه العفو في إبداء هذه الملاحظات:

١ ــ إن الأستاذ الجاسر حين أورد المعلومات عن مدينة القطيف كان عليه أن لا يقتصر على النقل في معلوماته الجغرافية بل يضيف إليها ما طرأ عليها من تطور لا سيما في العهد الحاضر، فكتاب «دليل الخليج» كتب من قبل نحو من سبعين عاماً، ورغم أنه كان يصور واقع البلاد في ذلك الحين بدليل أن المؤلف ج. م. لوريمر في معلوماته الجغرافية الدقيقة كانت مسجلة من واقع المشاهدة، فالأبعاد بين كل مدينة وضاحيةٍ وقرية لا يمكن أن تكون مجرد نقل، وكذلك وصف المظاهر العمرانية، وإحصاء المباني والأكواخ، وتقدير عدد السكان، أمَّا الآن فقد اختلفت الصورة عما قبل وتباينت، حتى كادت أن تَنْمَحِي تلك المعالم القديمة،

وكان ينبغي للأستاذ الجاسر بصفته جغرافياً متخصصاً أن يفعل كما فعل لوريمر في نقل الصورة الحاضرة التي عاصرها وشاهدها عن كثب.

٢ ــ إن هناك تحريفاً في بعض الأسماء في كتاب «دليل الخليج» نتيجة لنقل الكلمات من الحروف اللاتينية إلى الحروف العربية، ونتيجة لجهل المترجم بأسماء الأماكن وغيرها وقع في تحريف فظيع أبعده عن الاسم الحقيقي، فعلى سبيل المثل قرية (القُدَيْح) التي ترجمها إلى (قوديه)، والتي وردت في موضعين أحدهما في تحديد موضع عين الجوهرية في قوله: (الجوهرية تقع على بعد ميل ونصف غرب شمال قرية قوديه) والثاني في تحديد عين أم المجالي (أم المجالس) حيث ذكر (أنها تقع بين قريتي العوامية والقوديه). والواقع أن اسم القوديه لا وجود له، وقد أدركنا أنَّ الخطأ نشأ من جهل المترجم، فهذا الاسم هو تحريف عن اسم قرية (القُدَيْح) المعروفة، وقد نشأ الخطأ من نطقه بالحروف اللاتينية، حيث أن حرف الحاء لا وجود له فيها، فينطق (هاءآ) فكتبت كلمة قديح هكذا (QODAIH) إلَّا أنَّ المترجم ــ سامحه الله ــ نطقها (قديه) ونقلهاإلى العربية هكذا دون معرفة سابقة بنطقها الصحيح، وجاء شيخنا الجاسر فنقلها على علاتها دون أن يبحث عن الحقيقة وكما يقال في (قديه) يقال في (سدين) تحريف عن صَدَّيْن، وهي العين المشهورة بعذوبتها والتي تقع بقرية الجارودية، والتي هي أعذب عين في واحة القطيف، ولا يبعد أنَّ اسمها كان في الأصل (صَدَّاء أَوْ صَدْءآء) وهي العين التي يضرب بها المثل في عذوبة الماء: (ماءٌ، ولا كصدَّاء)[1] وقد أخطأ المترجم حين أَبْدَلَ الصاد سيناً، فحرف الصاد لا يوجد له مقابل في الحروف اللاتينية. وهناك بعض الأسماء المحرفة كعين القشورية، ووردت (القشيرية) ومدارس وجراري والصحيح نطقهما بالألف واللام والشويكية وصحتها (الشوكية) وعين أم المجالي والصحيح (أم المجالس)، وأعتقد أنَّ كثيراً من الأسماء وردت محرفة نتيجة لجهل المترجم، وكان عليه أن يتأكد من صحتها وضبط ألفاظها وذلك لا يَتأَتّى إلا بالقيام بجولة ميدانية في تلك المناطق التي كتب عنها لوريمر.

وهناك بعض الملاحظات سجلتها أثناء قراءتي للمعجم في أجزائه الثلاثة التي

صدرت، أثبتها هنا لصلتها بالموضوع:

٣ ـ ذكر في مقدمة المعجم أنَّ هذه المنطقة تُعرف قديماً باسم البحرين ثم أطلق عليها اسم الاحساء حتى منتصف القرن الرابع عشر الهجري ثم المنطقة الشرقية.

والواقع إن هذه المعلومات غير وافية ودقيقة فالمعروف الذي أثبته الدراسات والآثار أنَّ أقدم اسمٍ عرف لهذه المنطقة هو (ديلمون) كما في النصوص السومرية والاكدية والاشورية، وهي تعني جزيرة أوال والسواحل المقابلة لها حتى القرن السادس قبل الميلاد، ثم عرفت باسم قطيف أو خط أو هجر في العصر الهيليني والسلوقي ثم باسم البحرين قبيل الإسلام وبعده ويشمل كلًّا من القطيف وهجر (الأحساء) وأوال، ثم استأثرت جزيرة أوال بهذا الاسم حين استولى عليها الفرس عام ١٠٣١هـ ولم يطلق على الاحساء والقطيف اسم (الاحساء) إلا في العهد التركي حين اعتبرت القطيف قضاءٍ تابعاً لسنجق الاحساء ثم أُطلق عليها اسم مقاطعة الظهران بعد اكتشاف (البترول) ثم المنطقة الشرقية عام ١٣٧٠هـ حين جعلت الدمام عاصمة لهذه المنطقة.

٤ ـ يقول الأستاذ الجاسر في مقدمة المعجم ج١ ص ٦٢ ما نصه: ولما لم يُؤَلَّف فيها أعلم من الكتب ما يعالج هذا الجانب (ويقصد الجانب التاريخي) باستثناء كتاب «تحفة المستفيد في تاريخ الاحساء في القديم والجديد». فقد رأيت إيراد لمحة مختصرة عن تاريخ هذه البلاد. وقوله في نفس المقال المنشور بجريدة «اليوم»: (ولكن المؤلف لم يُعْنَ بالناحية التاريخية كثيراً وله العذر في ذلك، فالطريق ليس مُمَهّداً)، بينما ذكر في مقدمته لكتاب «ساحل الذهب الأسود» ما نصه: إن مؤلفه جمع معلومات قيمة ليس من اليسير جمعها، ولم يقف ذلك الجهد عند الجمع بل تجاوزه إلى الترتيب والتنسيق ومحاولة إيجاد صورة متكاملة الأجزاء لتاريخ هذه البلاد، فبرز مؤلفاً يضم من المعلومات التاريخية المنسقة ما لا يضمه غيره مما أُلِّف في موضوعه على قلة ما أُلِّف) فكيف نوفق بين ما قاله الأمس وما قاله اليوم؟

٥ ـ قال في المقدمة التاريخية ج ١ ص ٦٣ (والعبيد هو فترة من عصور ما قبل

التاريخ) والواقع أن العبيد مكان لازمان، ويقع في الجهة الجنوبية من العراق، وهو الموضع الذي اكتشفت فيه تلك الآثار الموغلة في القدم لأول مرة، ولعدم معرفة علماء الآثار هوية أولئك القوم الذين خلفوا تلك الحضارة نسبت تلك الآثار إلى ذلك الموقع ونسبوا إليه أيضاً ما وجدوه من نظائر مماثلة اكتشفوها في مواقع أخرى(٢).

٦ ـ إن الأستاذ الجاسر بعد أن ذكر بعض الآثار الموجودة في المنطقة أورد نبذة من تاريخها منذ بداية العهد الإسلامي، دون أن يذكر لمحة عن تاريخها ما قبل الإسلام، فلم يذكر شيئاً من تاريخها في عهد الإغريق والجرهائيين والفرس، ثم سيطرة القبائل العربية عليها أيام ملوك الطوائف، ثم بعد قيام الدولة الساسانية وسيطرتها عليها أول الأمر إلى أن تحررت بانضوائها تحت لواء الإسلام، كما أن هناك فجوة كبيرة حين انتقل من حكم القرامطة رأساً إلى حكم العيونيين وبين انقراض دولة القرامطة وبين قيام الدولة العيونية نحو من ٨٨ سنة قامت فيها حكومات، فقد أطاح بدولة القرامطة آل بويه سنة ٣٧٨هـ فاستولى الأصفر بن أبي الحسن الثعلبي على الأحساء سنة ٣٩٨هـ واستمرت دولته متوارثةً في أعقابه حتى تغلب عليهم بنو عُقَيْل، وفي منتصف القرن الخامس ضعفت دولة بني عُقَيْلٍ فتغلب عليها أمراء محليون، فسيطر ابن العياش على القطيف كما استقل أبو البهلول بجزيرة البحرين (أوال)، وتَحفَّز عبدالله العيوني للسيطرة على الأحساء عام ٤٦٦هـ فتمت له السيطرة على منطقة البحرين بأسرها وأسس دولة العيونيين.

٧ ـ جاء في تحديده لقرية الآجام بأنها تقع في طرف الواحة في شمالها الغربي ص ٩٧ وفي مكان آخر ص ١٨٦ يقول بأنها غير بعيدة عن الساحل. والصحيح أنها تقع إلى الغرب موازية لمدينة القطيف، وهي واحة صغيرة منفصلة عن الواحة الأم، بحوالي كيلين، وهي بعيدة عن الساحل بحوالي عشرة أكيال.

٨ ـ ذهب الأستاذ الجاسر ص ١٦٣ج١ إلى أن المسعودي حدد موضع أفْأنْ تحديداً واضحاً، وهي على تحديده الأرض الواقعة بين مدينة القطيف والدمام

المتاخمة لساحل البحر، وتقع عنك إلى جانبها الشمالي الشرقي، وعمران مدينة الدَّمام اتصل بجانبها الجنوبي، وكان فيها نخل وعمران قديم .. الخ) وهذا غريب من استاذنا الجاسر وكان الأوفق أن يقول: أنَّ المسعوديَّ ذكر موضعاً سماه أَفْأَنَ، ربما ينطبق وصفه حسب رأينا على موضع كذا وكذا، وعند الرجوع إلى كتاب المسعودي «التنبيه والاشراف»[٣] نجده يصف موقع أفأن بأنه سبخة طولها سبعة أميال، على بعد يومين من ساحل البحر، وفيها ماء ونخيل، وأنَّ الخليفة العباسي المعتضد أرسل العباس الغنويَّ لمحاربة القرامطة، فأراد العباس بعد ارتحاله من الأعياء (الاعباء) أن ينزل بِأَفْأَنَ، ولكن أبا سعيد الجنَّابي سبقه إليها فغور ما وراءهُ من المياه، واستطاع أن يلحق بهم هزيمة فادحة، حيث أُسرَّ العباس وأكثر من كانوا معه، ومن سياق القصة يفهم أن جيش الغنوي نزل أولاً بالأعباء (المعروفة الآن بالعبا)[٤] وهي تقع إلى الشمال تليها سبخة الرياس في الاتجاه إلى القطيف، وهي سبخة كبيرة، ينطبق عليها وصف المسعودي وتقع فيها واحة (أبو معن (والدريدي)[٥]، وهناك حدثت المعركة. فأين منها سبخة الدَّمَّام التي تبعد عنها كثيراً، والتي تقع على ساحل البحر مباشرة ولا يتجاوز عرضها نصف ميل، ثم إنَّ الزراعة فيها كانت حديثة العهد حداثة وجود الآبار (الارتوازية) في المنطقة، وكانت صحراء ساحِليةً لا يوجد فيها عمران ولا زراعات حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي كما ذكر لوريمر، وكلما يوجد فيها بقايا قلعة كبيرة وأخرى صغيرة[٦] أُقيمتا لأغراض دفاعية. على أنه بعد أن كرر هذا الرأي في مواضع أخرى من كتابه في الحديث عن سيهات عاد أخيراً في الجزء الثالث ص ١١٢٥ في كلامه عن العبا فذكر أن السبخة (أفأن) المذكورة في كلام المسعودي هي المعروفة الآن بسبخة الرياس.

٩ ــ ذكر في حديثه عن قرية أُمِّ الحَمام أن هذا الاسم غيِّر لقبحه بطريقة التصحيف فصار أم الحمام بالحاء المهملة. والواقع أنَّ هذه القرية كان يطلق عليها سابقاً أم الحمام وكنيت به لكثرة الحمام فيها، حيث كانت تزرع أراضيها بمختلف الحبوب، ويدرس الحصاد بالأراضي الجبلية في القرية، إلا أنَّ مخلفات التبن كانت

تنتشر في طرقاتها بفعل الرياح مكوِّنةً أكواماً من الكناسة (الجهام)، فمر عليها عابر سبيل واشمأز من تلك الأوساخ وقال: إنها لا تستحق هذا الاسم، بل يصدق عليها (أم الجهام) فصحف الاسم فعلق الاسم بها منذ ذلك الحين إلاَّ أنَّ أحد علمائها وهو المرحوم الشيخ منصور المرهون قام بإحياء اسمها القديم، وصارت معروفةً به حديثاً.

١٠ ــ ذكر في حرف الباء (باب الشمال) ونقل ما جاء في كتاب «دليل الخليج»، إلا أنه عقب بقوله: (لست على ثقة من صحة هذا الاسم. فقد تكون الترجمة خاطئة) ولو بحث عن حقيقة هذا الاسم أثناء تردده على مدينة القطيف لعرف أنه حيٌّ من أحيائها، ومازال معروفاً بهذا الاسم حتى الآن طبقاً لما ذكره مؤلف «دليل الخليج».

١١ ــ ذكر في تحديد قرية البِحَاري بأنها تقع جنوب قرية القُدَيْح، والواقع أنها تقع في الشرق الجنوبي منها.

١٢ ــ ذكر موقع البَدْرَاني بأنه أرض تقع غرب القطيف. وتحديده على وجه الدقة أنه يقع إلى الجنوب الغربي من مدينة القطيف، إلى الغرب من سَيْحة الجارودية، حيث يمر طريق قديم عبر قرية الخويلدية ثم قرية الجارودية وهناك يتجه غرباً إلى الصحراء وهو طريق القوافل المتجهة إلى الأحساء ونجد سابقاً.

١٣ ــ ذكر في تحديد قرية التُّوبِي بأنها تقع بين مدينة القطيف وبين قرية الجارودية.

وهذا خطأ، والصحيح أنَّ قرية التُّوبِي تقع إلى الغرب من مدينة القطيف، ويحدها من الشمال سيحة البحاري، ومن الجنوب سيحة الخويلدية، وتمتد سيحتها إلى البر من الناحية الغربية.

١٤ ــ الحُلَيْلَة. ذكر أنها قرية بالأحساء شمال شرقي الهفوف، ولم يذكر بأن هناك قرية صغيرة تقع بين القُدَيح والجَبَّاكة، بجوار عين الحُليلة، وتنتسب إليها بعض العائلات من سكانها سابقاً ومن علمائها الشيخ حسن بن ربيع الذي نزح

إلى تاروت وقطن الربيعية فنسبت إليه.

١٥ ــ ذكر في حديثه عن الخُبَرِ أنها كانت قرية صغيرة قبل نزوح الدواسر إليها. والمعروف أن موضعها كان امتداداً للصحراء وأنّ أول مَنْ عمرها هم الدواسر حين نزحوا من البحرين عام ١٣٤١ فبنوا فيها أكواخاً واستقروا فيها. ويلاحظ أن الأستاذ الجاسر ذكر أنهم يدعونها أي الأكواخ (برستيات) واحدها (برستي) حسب لهجتهم التي تبدل الجيم ياء إذ كان الأصل (برستجاب) جمع (برستج) وهي كلمة غير عربية شائعة في المنطقة. كما أنه لم يشر إلى أصل كلمة الخبر، وما وقع فيها من تحريف، حيث تنطق بضم الخاء وفتح الباء والصحيح أن تنطق بفتح الخاء وكسر الباء جمع خبرة بفتح أوله وكسر ثانيه وهي الخبراء ومعناها مستنقع الماء أو التي ينبت حولها من العشب وشجر السدر والاراك كما تذكر معاجم اللغة.

١٦ ــ بعد أن ذكر الأستاذ الجاسر روايات المتقدمين وآرائهم في كلمة الخط استنتج أن مدينة الخط هي القطيف.

وحسب استنتاجي من أقوال المؤرخين والجغرافيين القدماء أنّ الخط والقطيف اسمان مترادفان إذا قصد بهما المنطقة الساحلية أما إذا قُصِد بهما مدينة بعينها فالقطيف كما يبدو ــ تعني الزارة وما حولها أما مدينة الخط فهي التي بنى اردشير بن بابك[٧] مؤسس الدولة الساسانية في موقعها القلعة[٨] وضواحيها. وهذا التفريق يوضحه خبر تغلب بني عبد القيس على بلاد البحرين واقتسامها فيما بينهم، حيث نزل بنو جذيمة بن عوف الخط وأفناءها وبنو نُكْرة من لُكَيْز القطيف وما حولها، وبنو حفص صفوى .. الخ[٩] واعتقد أن اسم القطيف لم يطلق على المدينة الحالية إلا بعد خراب الزارة عام ٢٨٣ هـ حيث انتقل إليها مركز الثقل، فأصبح لهذه المدينة منذ ذلك التاريخ اسمان: هما الخط والقطيف.

١٧ ــ ذكر الأستاذ الجاسر ص ٦٣٩ ج بأن الخويلدية مؤنث خويلد تصغير خالد) والصحيح أن الخويلدية نسبة إلى خويلده تصغير خالدة مؤنث خالد. أما

عين القشورية لا (القشيرية) كما ذكر لوريمر ــ فهي بسيحة الجارودية، وإن كانت تسقي بعض نخيل الخويلدية.

١٨ ــ ذكر اسم الخضيرية الواقعة في طرف سيهات الجنوبي الغربي، واسمها الصحيح الخضرية بدون تصغير.

١٩ ــ ذكر أن اسم العين الشهيرة في صَفْوَى (دَاريوس) مرتين ص ٥٦٦ و ص ٩٧٧ واسمها المتداول (داروش)[١٠] ويقال أنها سميت باسم الملك الفارسي داريوس اودارا (٥٢١ ــ ٤٨٥ ق. م) لنزوله فيها.

٢٠ ــ ذكر اسم الدالوة، وعدَّها من قرى الأحساء وهناك في القطيف عين تسمى الدَّالُوَة، تقع في سيحة الجِشّ على مقربة من البلدة.

٢١ ــ ضبط الأستاذ الجاسر تنوره (رأس تَنورة) بضم التاء المثناة الفوقية، ولا أعرف مصدر هذا الضبط، والمعروف المتداول على السنة الناس (تنوره) بفتح التاء وضم النون المشددة وكأنه مؤنث تنور.

٢٢ ــ ذكر في تحديد قرية الزَّوْر بأنها تقع بين بلدة تاروت وقرية سنابس والواقع أنها تقع إلى الشمال من قرية السنابس، بينما بلدة تاروت تقع في الجهة الغربية بعيدة عنها.

٢٣ ــ ذكر في تحديد مدينة سيهات بأنها تقع جنوب مدينة القطيف غرب بلدة عنك بقربها، والواقع أنها تقع جنوب بلدة عنك، وكلتاهما تقعان على الساحل مباشرة. وفي الوقت الحاضر لا يفصل بينهما سوى الطريق المُؤَدِّي إلى مدينة الدمام.

٢٤ ــ جاء في تحديد ضاحية (الشريعة) بأنها تقع على بعد مئة ياردة غرب وسط مدينة القطيف، والصحيح أنها تقع إلى الجنوب من القلعة وشرق سوق القطيف أما الآن فقد التهمتها الأسواق ولم يبق منها سوى القليل من البيوت.

٢٥ ــ ذكر في ص ٩٧٢ أنَّ نهر مُحَلِّم أصبح مجهولاً وكذلك الصفا. وهذا ما

انتهى إليه تحقيقه في مادة (الصفا) إلاَّ أنه عندما تحدث عن بلدة صَفْوَى وذكر ما جاء في كتاب «ساحل الذهب الأسود»[١١] عقب بقوله: إن هذا غير صحيح، فنهر محلم في منطقة الأحساء وهي بعيدة عنها، فكيف نوفق بين قوله الأول وقوله الأخير؟ مع أن الأستاذ الجاسر يعرف كل المعرفة أن اسم هجر يطلق على القطيف والأحساء قديماً، فمن الجائز أن يكون اسم صفوا مشتق من نهر الصفا لاسِيَّما إذا أخذنا في الاعتباران عين داروش القوية التي تتفرع منها سبعة أنهر تتوسط بلدة صَفْوَى وأنها تسقي معظم نخيل القرية.

٢٦ ـ ذكر في ص ١١٦٩ ج ٣ أن العقربية إحدى القرى التي نشأت في عهد النفط، وهي من قرى مدينة الخبر وتقع جنوبها بنحو سبعة عشر كيلاً).

وتصحيحاً لهذه المعلومات نذكر أنالعقربية هي احد أحياء مدينة الخبر وتقع في الجهة الغربية منها ولا توجد فواصل بين أحيائها. ولا تتجاوز المسافة بين ساحل مدينة الخبر والعقربية سوى ثلاثة أكيال إلى أربعة، فمن أين استقى تلك المعلومات؟

٢٧ ـ ذكر في تحديد قرية عنك بأنها تبعد عن القطيف بنحو خمسة عشرة كيلاً وشرق بلدة سيهات بنحو خمسة أكيال.

ولا أعرف كيف بنى هذا التحديد، فبلدة عنك لا تبعد عن مدينة القطيف سوى أربعة أكيال سابقاً، وكانت تبعد عن سيهات بنحو كيلين وقد التهم العمران هذه المسافة. ففي الوقت الحاضر لم يبق من تلك المسافة بينها وبين القطيف سوى ثلاثة أكيال تغطيها غابة من النخيل. أما المسافة بينها وبين سيهات فقد أنمحت والتصقت بها، ولا يفصل بينها وبين سيهات سوى شارع الشاطىء (الكورنيش) وهو الطريق المؤدي لمدينة الدمام، ومن الملاحظ أن مدينة الدمام اتصلت بسيهات من الناحية الجنوبية بعد دفن البحر، والعمران في طريقه لالتهام تلك الأراضي القليلة التي أُعِدَّتْ لتكون مناطق سكنية، ثم إن المسافة بين مدينة القطيف وبين مدينة الدمام سابقاً لا تتجاوز ١٨ كيلاً فكيف ببلدة عنك التي هي أقرب بلدة ساحلية لمدينة القطيف.

٢٨ ـ ذكر في الهامش عند الاستشهاد بشعر جعفر الخطي:

واجتازت المزن العشار فطبقت بالسقْيِ من عنك إلى بنكات

أن ناشر الديوان ذكر أن بنكات من قرى القطيف. واستدرك الأستاذ الجاسر بأنه فاته ذكرها. والواقع أنه لا توجد بالقطيف في الوقت الحاضر قرية بهذا الاسم وهي من القرى التي اندرست.

٢٩ ـ جاء في مادة (العين) ذكر (عين أبو لَوْزة) بأنها في الجهة الجنوبية من الأحساء) ومن الجائز أن تكون هناك عين بهذا الاسم، ولكن العين المسماة (أبو لوزة) هي موجودة أيضاً بالقطيف بهذا الاسم ذاته، وهي المعروفة بالحَمَّام المقام عليها قُبَّة قديمة بناها الأتراك وهي التي استحم فيها الأستاذ الجاسر وشوى سمكته بقربها، كما حدثنا بذلك في قصة من ذكريات أيام شبابه. وهذه غير عين الخباقة (الحباكة) التي تبعد عنها إلى الشرق بنحو مئة متر. وعين الحباكة مكشوفة وكان يوجد بمجراها الشرقي مبنى لاستحمام النساء.

٣٠ ـ جاء في صفحة ١٢٢٨ ذكر عن (صَدَّين) وصفها مؤلف دليل الخليج بأنها عين من عيون القطيف تقع وسط قرية الجارودية وتروي زراعتها، وقد عقب الأستاذ الجاسر بقوله: وقد يكون الاسم محرفاً. والصحيح أنها معروفة بهذا الاسم وهي المشهورة بعذوبة مائها بل تعتبر أعذب عين في واحة القطيف، وقد سبق أن تحدثنا عنها آنفاً.

٣١ ـ ذكر في حديثه عن (الفرضة) أقوال المتقدمين واختلافهم في تعيين موضعها، هل هي قرية بالبحرين أو بهجر؟ وهذا غير مستغرب فاسم البحرين واسم هجر كانا يطلقان على هذه المنطقة الممتدة من البصرة إلى عُمَان، فإذا ذكرها البعض بأنها قرية بالبحرين أو بهجر فيعني نفس المنطقة، كما لو أطلقت قبل نحو من خمسين عاماً بأنها في الأحساء حيث كان اسم الأحساء يشمل المنطقة الشرقية بأسرها، والواقع أن اسم الفرضة والقلعة مترادفان فهما لِمُسَمًّى واحد، وقد سميت بالفرضة لكونها محط السفن كما تقول معاجم اللغة، وسميت بالقلعة لأنها حصن

منيع يشرف على البحر والنسبة إليها فُرْضي، وإن كان المتداول في كتابة وثائق العقود القديمة أن يعرف البائع أو المشتري إذا كان من سكنة القلعة بأن فلان الفلاني من أهل الفرضة. وهذه الوثائق ما تزال موجودةً ولديَّ نماذج منها.

٣٢ ــ ذكر تمر التعضوض الذي اشتهرت الفرضة بكثرته فيها، ووصف بأنه تمر أسود حُلْوٌ. وهذا الوصف ينطبق على نوع من التمر يسمى (الخُنَيْزَي) بضم أوله وفتح ثانيه ويوجد في القطيف بكثرةٍ، وهو أَحَدُ الأصناف الثلاثة لتمور القطيف (البكيرة والخنيزي والأبيض) والأبيض يدخل فيه بقية الأنواع، ويعتبر تمر الخُنيزي الأَجْوَدَ صنفاً والأغلى ثمناً. وهذه الأصناف جرى على أساسها تحديد استيفاء الزكوات وكذلك اتفاقات الضمانات بين الملاكين والفلاحين.

٣٣ ــ ذكر في مادة (فسا ازدشير) بأنَّ مدينة الخط هي القطيف. أو الزارة . . الخ).

والواقع أن مدينة الخط ــ كما سبق أن تحدثنا عنها سابقاً ــ غير مدينة القطيف أو الزارة كما يفهم من أخبار الردة في التفريق بينهما وكذلك أخبار اقتسام بني عبد القيس بلاد البحرين فيما بينهم حين تغلبوا عليها، وأعتقد أنَّ مدينة الخط هي قلعة القطيف التي بناها أردشير الأول مؤسس الدولة الساسانية وسماها (فسا أردشير) كما يحدثنا بذلك الطبريُّ في تاريخه[١٢] وهي إحدى ثمان مدن بناها اردشير نفسه في مناطق متفرقة، ويبدو أنه بناها لتكون قلاعاً دفاعية، إلاَّ أن قلعة القطيف تحولت إلى منطقة سكنية لمناعتها، ومازالت بعض الأسماء الفارسية عالقةً بها حتى قبل أن تهدم، كالدَّرْوَازَة التي يطلق على كل بوابة فيها وكذلك اسم (الخان) الذي كان يسمى به أحد أحيائها.

٣٤ ــ ذكر في الملحق (تصحيح واستدراكات) قرية الحريف (تصغير حرف) وهي فعلاً من القرى الصغيرة التي اندرست، وكانت تستقر على منطقة جبلية كسائر قرى الواحة، وهي تقع إلى الشمال الشرقي من بلدة القُدَيْح على بعد ثلاثة أكيال، وهي على الجانب الأيمن من الطريق المؤدي إلى الْعَوَّاميَّة، وقد استخدمت

سابقاً لتجفيف التمور وقت صرام النخل، أما الآن فقد أُقيمت فيها إنشاءات تابعة لوزارة الصحة.

هذه ملاحظات عنَّتْ لِي وأنا أتتبع ما كتبه أستاذنا الجاسر في معجمه عن المنطقة الشرقية، وقد تركزت على المدن والمناطق المأهولة، وأنا أعترف بأن معلوماتي عن المناطق الصحراوية لا تؤهلني للمناقشة، وقد ينبري من هو أعلم مني بهذه المناطق فيناقش ما كتبه باستدلال علميٍّ، أو يكتشف أخطاءً وقعت عن غير قصد، أو نتيجة اجتهاد، والمجتهد ــ كما يقول الفقهاء ــ إن أخطأ فله حسنة، وإن أصاب فله حسنتان، وقد قال الأستاذ الجاسر في استهلال مقدمة المعجَم: (لن يبلغ الْـمَرْءُ الكمال في أي عمل من الأعمال، مهما بلغ من القوة عقلاً وعلماً وعملاً، والأعمال ــ في هذه الحياة تنمو وتقوى بتظافر العاملين وتعاونهم على كر العصور).

هذا هو منطق الباحث الحق، لذلك قمت بتسجيل هذه الملاحظات، وأنا على ثقة من تقبله لهذه المناقشة، فالعالِم الباحث الحق من لا يعتد برأيه، ولا يداخله الغرور مهما بلغ من العلم، أو أُوتي حظاً من المعرفة، بل يكون شعاره: (الحقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ) وهذا ما لمسته في علامة الجزيرة الشيخ الجاسر أثناء لقاءاتي به، وهو الذي دفعني إلى كتابة هذه الملاحظات، وكنت أود لو استأنس برأيي أو رأي أهل الخبرة قبلاً لتجافي تلك الأخطاء ومع ذلك فإن هذه الملاحظات لا تنقص من قيمة الكتاب العلمية أو من جهد المؤلف، فهو عمل كبير لا يقابل إلا بالشكر والتقدير، وحسبه هذه المكانة المرموقة التي يتَبَوَّأُها، وهذا الحب الكبير الذي يكنه له أبناء الوطن جميعاً، والذي انتظم في إكليل غارٍ مضفور على جبينه أينما حلَّ وارتحل في هذا الوطن الغالي.

القطيف: محمد سعيد الـمُسْلِم

العرب: للكاتب الكريم الشكر الجم ولصاحب المعجم تعليق في جزء رجب إن شاء الله.

الهوامش:

(١) جاء في «لسان العرب» مادة (صداء) أن هذا المثل أول ما نطقت به قذور بنت قيس ابن خالد الشيباني وكانت زوجة لقيط بن زرارة فتزوجها بعده رجل من قومها فقال لها يوماً: أنا أجمل أم لقيط؟ فقالت: (ماء ولا كصداء) أي أنت جميل ولست مثله، فذهب مثلاً. ←

علي جواد الطاهر و "معجم المطبوعات"

[نشر الاستاذ الدكتور يحيى الساعاتي في جريدة (الرياض في ١٤٠٦/٢/٧هـ وما بعدها) دراسة مركزة لمعجم المطبوعات العربية السعودية، الذي قام بتأليفه الأستاذ المحقق الدكتور علي جواد الطاهر، والذي يعتبر بحق أوفى مؤلف عن الحركة الثقافية في هذه البلاد خلال ما يزيد على نصف قرن من الزمان، أي منذ قيام الدولة السعودية الميمونة بقيادة الإمام عبد العزيز ـ رحمه الله ـ إلى منتصف العقد الأول من القرن الخامس عشر. وترى «العرب» أن تقدم لقرائها ما نشره الدكتور الساعاتي عن ذلك الكتاب القيم الذي تعتز «العرب» بكونها نشرته في ٥٦ حلقة في نحو خمسة عشر عاماً ابتداء من الجزء السابع من السنة الخامسة (محرم ١٣٩١) إذ من القراء مَنْ لا يطلع على ما ينشر في الصحف اليومية، ولأن هذه الدراسة التي قام بها الدكتور الساعاتي تعتبر بالنسبة لهذا الكتاب من حيث الشمول والعمق والأصالة فريدة في موضوعها].

إن الحديث عن الحركة الفكرية في بلد من البلدان وإصدار أحكام عن مدى تطورها أو تخلفها، لا يمكن أن يتأتى إلا من خلال متابعة مسار حركة النشر فيها، لمعرفة توجهات الاسهامات العلمية والثقافية فيها، ونشاطها أو خمولها على مدار السنين، ومن هنا فإن الحكم القاطع، أو محاولة التقويم دون استناد على معرفة شاملة بالنشاط الفكري، يعتبر أمرا غير مقبول، نظراً لقيامه على الافتراض، أو

---

(٢) راجع كتاب منطقة الخليج العربي خلال الألفين الرابع والثالث قبل الميلاد لسليمان سعدون البدر.

(٣) ص ٣٤١ ط دار الصاوي بمصر.

(٤) تحريف من اللهجة العامة الدارجة بأدغام حرفي الحلق (الهمزة والعين).

(٥) أنظر الخريطة رقم ٢٠٨ ـ ١ أبحاث جيلوجية مختلفة اصدار وزارة المالية والاقتصاد الوطني.

(٦) دليل الخليج ص ١٨٨١ ط ثانية.

(٧) امتد حكمه من ٢٢٦م إلى ٢٤١م وقد بنى ثهان مدن منها مدينة الخط ببلاد البحرين.

(٨) تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٤ ص ٣٠١.

(٩) تبسطت في الأدلة على هذا الرأي في كتابي الجديد (واحة على ضفاف الخليج) الذي سوف يظهر في سلسلة (هذه بلادنا) التي تصدرها الرئاسة العامة لرعاية الشباب.

(١٠) عاد مرة أخرى ص ١٢٢٥ في حديثه عن العيون فذكر اسمها المتداول (داروش).

(١١) قال مؤلف الكتاب عند ذكر صفوى (ولعل اسمها في الأصل مقتبس من نهر الصفا الذي يتخلج من نهر محلم): ص ٥٤.

(١٢) ج ١ ص ٤٨٠ طبعة مؤسسة الأعلمي ببيروت.

عشوائية المتابعة، كما أن دراسة جانب محدد من جوانب المعرفة لا يعطي صورة كاملة عنها، إذا لم تربط بالجوانب الأخرى ذات العلاقة القريبة بها التي تؤثر وتتأثر بمضامينها، وتعين على كشف قضايا فكرية يتصل بعضها ببعض.

هذه النظرة التي تقوم على ترابط المعارف وتأثر بعضها ببعض، كانت المنطلق الذي تبناه الدكتور علي جواد الطاهر عندما أراد دراسة الأدب في المملكة العربية السعودية، حينما جاء إلى الرياض ليعمل في التدريس بكلية الآداب في جامعة الملك سعود، ويوضح الدكتور الطاهر هذه القضية عندما يقول: (. . ورغبت أن أكتب عن هذا الأدب، أو أن أدرسه وقد عهد إليَّ تدريس الأدب الحديث في الكلية، ولكن المسألة ليست رغبة، إنها مسئولية فمن المعقول إذاً أن أبدأ بالبداية، والبداية تقتضي عملاً مكتبياً منهجياً، أي حصر الآثار الصادرة من دواوين وغيرها، وبدأت، ولكن أين؟ ليس هناك من مكان يجمعها أو يجمع أكثرها، وما عليك إلا الجد والصبر، وهذا ديوان، وهذه قصة، وتلك مقالات . . ولكن هذه لا تكفي للدراسة، وانها لو اجتمعت ــ فرضاً ــ لديك لا تفي بالغرض، فلا بد لك من الإلمام بالتاريخ . . والفقه . . وكل شيء، فليس الأدب منقطعاً عما حوله . .).

ووجد الدكتور الطاهر نفسه التي انشغل عن القضية الأساسية التي أرادها، وهي دراسة الأدب ليشغل بأمر متابعة النتاج الفكري في المملكة، الذي تحول إلى حب وهواية، ثم إلى رسالة وواجب، وفي سبيل ذلك تحمل الكثير من العناء والجهد والتعب، ومع مرور الأيام تجمعت لديه حصيلة وافرة، ونبعت في رأسه فكرة إصدار معجم للمطبوعات في المملكة، فقد كان يشعر كما يقول: (بأهمية معجم للمطبوعات خاص بكل بلد عربي، فلقد مضى العهد الذي يمكن أن يعمل فيه شخص واحد معجماً لكل البلدان، وأشير كذلك بأهمية عمل المعجم الخاص مبكراً، كي يمكن الاستدراك عليه، ولكي يحصر ما يمكن حصره من مؤلفات الحاضر، قبل أن تصير ماضياً).

وكانت الخطوة التنفيذية عندما نشر الحلقة الأولى من عمله على صفحات مجلة

«العرب» في الجزء السابع من السنة الخامسة (محرم ١٣٩١) تحت عنوان (معجم المطبوعات العربية في المملكة العربية السعودية)، وتوالت الحلقات لتصل إلى ست وخمسين حلقة، جاءت في أكثر من ثمان مئة صفحة، موزعة على أجزاء تتصل أحياناً وتنقطع حيناً، نشر آخرها في الجزء الرابع من السنة السابعة عشرة (ذي القعدة ١٤٠٢هـ)، وإذا عرفنا أن المرحلة الأولى من إعداد المعجم بدأت في عام ١٣٨٣هـ، وهي السنة التي جاء فيها الدكتور الطاهر إلى الرياض، فإن مجموع السنوات التي قضاها في إعداد ونشر هذا العمل بلغت تسع عشرة سنة.

وبعد توقفه عن نشر حلقات المعجم في العرب، نشر الدكتور الطاهر قصة المعجم تحت عنوان (الخاتمة ــ أو المقدمة الثانية) في عدد (الربيعان ١٤٠٣هـ) بمجلة «العرب»، ثم نشر في عدد رجب وشعبان من عام ١٤٠٣هـ) المقدمة الثالثة، التي تضمنت ردوده وتعليقاته على بعض الذين كتبوا عن المعجم مثل الدكتور منصور الحازمي، والدكتور ناصر السويدان، والأستاذ محمد الحمدان.

وفي عام ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م) صدر للدكتور الطاهر المعجم بتعضيد من جامعة بغداد، وقامت بنشره المؤسسة العربية للدراسات والنشر في بيروت، والمكتبة العالمية في بغداد، وجاء في مجلدين الأول في ٦١٨ صفحة والثاني في ٧٤٠ صفحة من القطع المتوسط وقد جعل عنوانه «معجم المطبوعات العربية: المملكة العربية السعودية».

وبصدور المعجم منشوراً في عمل مستقل يضع الدكتور الطاهر بين أيدي القراء ثمرة جهده وكفاحه الطويل الشاق، الذي دلل به على حبه وإخلاصه للمهمة التي حملها على عاتقه متطوعاً، دون أن يقصد من ورائها الحصول على مقابل مادي أو شهرة أو كسب معنوي، وهنا يكمن مقدار البذل والعطاء الذي منحه هذا الانسان للحركة الفكرية في هذه البلاد.

والمعجم الذي نتحدث عنه هنا يبدأ بقائمة للرموز والمختصرات التي تعبر عن المراجع التي استقى منها معلومات، أو التي رجع إليها فيشير إلى اختلافات فيما بينها. ويعقب ذلك المقدمة التي بدأ بها الحلقات التي نشرها مسلسلة في مجلة

«العرب»، وضمنها بعض التوضيح والشرح للأهداف والأسس التي بني عليها المعجم، ثم المقدمة الثانية وهي الخاتمة، وفيها عاد إلى الحديث بشكل مسهب عن الدوافع التي دفعت به إلى وضعه، والمشاكل والصعوبات التي واجهها، والمصادر والأشخاص الذين استفاد منهم.

فقد كان أدب الحجاز الذي جمعه محمد سرور صبان ونشره عام ١٣٤٤هـ، أول كتاب من المملكة العربية السعودية يتصل به الطاهر حيث اقتناه كما يقول: (بعيد الدراسة الثانوية) (سنة ١٩٤٠م) ومن خلاله وقف على نماذج من أدب هذه البلاد، وتتسع الدائرة، فيشترك في «المنهل» بعد تخرجه في دار المعلمين العالية في بغداد مباشرة، بعد عام ١٩٤٥م ــ ١٩٤٦م.

ثم كان مجيئه إلى الرياض في عام ١٣٨٣هـ وهنا (يرى الدنيا أوسع كثيراً مما رآها، وتزداد هذه السعة إذا تصفح جريدة أو قرأ كتاباً أو ديواناً، وزار مكتبة).

وفي الرياض يقرأ التيارات الأدبية لعبدالله عبد الجبار..

وشعراء الحجاز في العصر الحديث للساسي.

وشعراء نجد المعاصرون لعبدالله بن ادريس.

ويتوالى اتصاله بالنتاج المحلي بدايته الأدب..، ثم يلتقي ببعض الأدباء، ويتجول في مكتبات، وتفتح له كتب التراجم، من مثل دروس من ماضي التعليم وحاضره بالمسجد الحرام لعبدالله عبد الجبار، ومشاهير علماء نجد وغيرهم لعبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ، آفاقاً أرحب للاتصال بالمعارف الأخرى.

ويتنقل بين مخازن بيع الكتب في الرياض، وله حديث شيق في هذا الصدد ننقله بنصه من المقدمة الثانية حيث يقول: (وكانت مكتبات البيع ــ في البطحة (البطحاء) خاصة ــ باباً مهماً يمكن أن يعد مهماً جداً، لما يعثر فيه المرء على خبايا يسمع بها ولم يرها في مكتبة خاصة. وفي البطحاء مكتبات كثيرة، أكبرها: «النهضة» وهي تعنى بالكتب الحديثة، وأكثر الحديثة عربية مستوردة من مصر ولبنان. وربما كان هذا في الأسباب التي هيأت لي فيها فرصة اقتناء دواوين محمد

حسن عواد. ولكن فيها مكتبات صغيرة كثيرة، لا تعدم أن تجد فيها ــ على غير تصميم ــ كتباً قديمة لا توجد في غيرها. وقد تعددت إليها الزيارات مصحوبة «بالدفاتر».

وتميزت مكتبة نسيت اسمها ولن أنسى رسمها، فهي على يسار القادم من المطار، واجهتها صغيرة، لا تثير اهتماماً، يديرها اثنان لعلهما أخوان. إذا دخلت فيها وجدتها مستطيلة على وجه لا يتناسب مع عرضها، وقد توزعت فيها الكتب على غير نظام ذات اليمين وذات الشمال، وفي الوجه، كما أقيمت في الوسط منضدة مستطيلة تحمل الكتب في بطنها وعلى ظهرها.

كنت أكثر الزيارة لهذه المكتبة، ولم يكن صاحبها ــ أو صاحباها ـ يعبآن كثيراً بالداخل ــ أو الداخلين ــ فاستغل الفرصة وأملأ ألواحاً من الدفتر. وكنت أحتال على وجودي المتكرر فيها ــ أو أسوغه ــ بشراء كتاب في كل مرة أدخل فيها بغير أن تكون لي حاجة إلى هذا الكتاب، وبغير أن تكون للكتاب نفسه قيمة علمية أو أدبية، ذلك هو الغالب في الكتاب المشترى، وإلا فقد تجد كتاباً مهماً مثل كتاب حسين بن غنام: «روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام» طبع على نفقة المكتبة الأهلية بالرياض، باسم: تاريخ نجد المسمى. . ، والكتاب مصدر أساسي لا غنى لباحث ــ أو معجم ــ عنه.

ورأيت ذات يوم في مكتبة قريبة منها، بين الكتب المعروضة تعليقا كتابا كنت أود اقتناءه، ولم يتهيأ لي تحقيق المطلب، هو كتاب عثمان بن بشر: «عنوان المجد في تاريخ نجد»، وكنت مصمماً على شرائه، فمددت يدي إليه وأنزلته، فرأيت أن صاحب المكتبة قد كتب عليه سعراً ـ بدا لي غير معقول (٨٠) ريالاً. فاستكثرت المبلغ في ساعته، وقلت في نفسي: إن حاجتي إليه مكتبية فقط: تاريخ الطبع ومكانه وعدد الصفحات، وأخرجت (الدفتر) لأنقل هذه الحاجة المحدودة، فثقل ذلك كثيراً على البائع، ولعله قال (كلمة رأيتها غير لائقة به (وبي) وسحب الكتاب من يدي، فتألمت في حينه، ومازالت آثار الألم على أن الحق معه.

وفي (الثميري) مكتبـة حديثـة، اقتنيت منها (قلق) أبو أحيمد. . ، وفي (دخنة) مكتبة فيها مطبوعات قديمة مهملة، قد تكون هي المكتبة الأهلية التي نشرت عدداً من الكتاب، ودأبت على ذكرها على الأغلفة الأخيرة منها.

وفتحت في السنوات الأخيرة مكتبتان جديدتان في (البطحاء)، نسيت اسم إحداهما على سعتها ولعلها في مواجهة الثميري، وقد يكون اسمها (مكتبة الرياض)، وأذكر اسم الثانية وهي (مكتبة النصر الحديثة)، لأنها مكتبة يتولى صاحبها ــ أو صاحباها ــ الطبع أو إعادة الطبع (في بيروت)، ومما أعادت طبعه كتب فؤاد حمزة: «قلب جزيرة العرب» و«في بلاد عسير» و«البلاد العربية السعودية» وهي نادرة، ونشرت كذلك القسم الأخير من كتاب ابن كثير: «البداية والنهاية»، وقد ظل هذا القسم مخطوطاً حتى نشرته (مكتبة النصر الحديثة) في مجلدين بعنوان «نهاية البداية والنهاية في الفتن والملاحم».

ويمكن أن يستدل من نشوء هاتين المكتبين، ومن الثانية خصوصاً على تقدم خاص في عالم الكتاب.

وكنت أبحث ــ بوجه خاص ــ عن دواوين محمد حسن عواد وأحمد قنديل، وقد حصلت على عدد لا بأس به من آثار الشاعر الأول، ولم أحصل على أي من دواوين الثاني. أما الثالث ــ من الشعراء الثلاثة ــ حمزة شحاتة ــ فقد علمت جيداً أنه لم يطبع شعره في ديوان، ولا يريد أن يطبعه. . ».

ولم يكتف بما وجده في الرياض . . فسافر إلى المنطقة الغربية عام ١٣٨٥هـ، (ولكنه لم يطل الإقامة (الإجازة) ولم يفد كثيراً، لأن سفره وقع في رمضان، ثم أن مكتبة الشيخ محمد حسين نصيف بجدة لم تكن مفتوحة، ولأنه عني خاصة بمخطوطات مكتبة شيخ الاسلام في المدينة، ومع هذا فقد أمكنه أن يلتقط بعض الأسماء من مكتبات البيع، وأن يقتني بعضاً منها، مثل كتاب «صحيح الأخبار» لابن بليهد، وقصة «فكرة» لأحمد سباعي. .

وربما كانت الفائدة الكبرى في مكتبة المدينة المنورة العامة، فقد وجدت فيها

بعض كتب كنت أطمع أن أراها، مثل قصة «التوأمان» لعبد القدوس الأنصاري ـ أول قصة في الأدب السعودي فيما هو معروف.

ولا بد من ذكر مديرها (الخياري) بالخير، لما سهل من مغلق الأمور، وما فتح من باب كان مسدوداً..

أما (المنطقة الشرقية) فقد زارها زيارة عابرة، وكان له في كتابي محمد جابر الانصاري «لمحات من الخليج العربي» وعبد الرحمن العبيد «الأدب في الخليج العربي» ما يسد مكاناً كبيراً من المساحة اللازمة، زيادة على أحاديث جرت مع القليلين الذين رآهم من أبنائها في الرياض ـ وليس الذي وجده فيها بذي بال أو دلالة على نهضة، وكان في ديوان محمد سعيد الخنيزي «النغم الجريح» ما يشير إلى شاعرية مبدعة، ولكن الشاعر الشاب لم يثن. ثم إن كتاب عبدالله علي الخنيزي عن أبي طالب كان مدار حديث الناس في السعودية، مثار سخط في أحيان غالبة. ولم يقع في يدي كتاب محمد سعيد المسلم (ساحل الذهب الأسود) إلا متأخراً..).

وظل الطاهر دؤوباً وهو مستقر في الرياض يطالع الصحف اليومية، يستلّ منها ما قد يكون من أخبار عن إصدارات جديدة، أو ما قد يعثر عليه في ثنايا السطور عن الترجمة للأعلام.

ثم ودعها، كما يقول في عام ١٣٨٨/١٩٦٨م عائداً إلى بغداد، ومعه عدد كبير من الدفاتر المشحونة بالمؤلفين والمؤلفات على غير نسق، وفي بغداد شغل بالحياة والتدريس وإعداد المؤلفات.

وبين فينة وأخرى يعود إلى المعجم .. ثم شرع ليصنف أوراق الدفاتر على حروف الهجاء للمؤلفين...، فأخرج المكررات، وعندما فرغ من الترتيب الأولي، اتصل بـ «العرب»... وجرى الاتفاق ونشرت الحلقة الأولى في عدد (محرم ١٣٩١هـ).

وكان الدكتور طاهر على يقين من أن هناك خطأ، وهناك فوتا، وهناك سهواً،

لذا فقد جعل على رأس الحلقات التي نشرها في أعوام ١٣٩١هـ، ١٣٩٢هـ، ١٣٩٣هـ، ١٣٩٤هـ عبارة نصها: (رجاء أن ما يبديه القارىء من الملاحظات وإكمال النقص وتصحيح الأخطاء يقابل من كاتب البحث ومن «العرب» بالقبول مقروناً بالشكر والتقدير).

ولكن كما يشير هو ذاته فقد كانت الاستجابة ضعيفة.

وقد أفاده وهو بعيد عن المكان الذي يرصد نتاجه الفكري مجموعة من الأعمال البيليوجرافية، التي صدرت من مثل «معجم المطبوعات السعودية» لشكري العناني، «والأدب العربي في المملكة العربية السعودية»: ببليوجرافيا مختارة، «وحركـة التأليف والنشر في المملكة العربية السعودية» لكاتب هذه السطور، فأخذ يكمل النقص، ويستدرك الفائت مع النص على المصدر الذي استفاد منه.

وإذا كانت المقدمة الثانية توضح مسار المعجم، والمصاعب التي عمل على تجاوزها، والأشخاص الذين أمَدُّوه بمعلومات، والأعمال التي أفاد منها في التصويب والتصحيح والاستدراك، وقصة نشره على صفحات مجلة «العرب».

فإن المقدمة الثالثة كانت تضم تعقيبه، وردوده، على بعض الذين كتبوا عن المعجم، وهو في شكله الأول عندما كان ينشر في «العرب» من مثل الدكتور الحازمي والدكتور السويدان، والأستاذ الحمدان، واستغرقت المقدمات الثلاث الصفحات من ١١ إلى ١١٠، وأعقبها بالتمهيد الذي تحدث فيه حديثاً مستفيضاً عن الطباعة والصحافة والكتاب قبل العهد السعودي، وشغل هذا التمهيد الصفحات من ١١١ إلى ٢٢٢، وجاء حافلاً بالمعلومات عن تلك الفترة التي لازال الحديث عنها يحتاج إلى الكثير والكثير.

أما المعجم فيبدأ من الصفحة ٢٢٣، وقد جعل مداخله بأسماء المؤلفين وبعض الهيئات الناشرة، من مثل الرابطة والرئاسة، كما أنه يتحدث في السياق الهجائي عن بعض الجوانب الثقافية، من مثل الصحف، حيث عرض لها تحت هذا المدخل. وتختلف مادة المعجم هنا عن المادة التي نشرها في مجلة «العرب» فرغم أنه

حافظ على البنية الأساسية له كما نشرت في «العرب»، إلا أنه كان يعقب ويورد ملاحظات استفادها فيما بعد تضيف جديداً أو تضم تعديلاً.

ويختلف منهج الدكتور الطاهر في معجمه عن المناهج المتبعة في الأعمال البيليوجرافية، التي تُعَدُّ من قبل المهنيين المتخصصين في المكتبات الذين يلجأون عادة إلى استخدام رؤوس موضوعات محددة تتوزع عليها المداخل، ولمثل هذا الاستخدام فائدته، إذ ان بواسطة تجمع الأعمال المتقاربة من مثل الشعر، والقصة، والتاريخ.. إلى غير ذلك، وهي بذلك تيسر للقارىء الوصول إلى حاجته بسهولة.

كما أنه يختلف عن العمل البيليوجرافي المهني في ناحية أخرى، تتمثل في التعريف بالمؤلفين تعريفاً مطولاً، عندما تتوفر له المعلومات، فقد تحدث عن خالد الفرج في قرابة ثلاث صفحات، ثم عرض لأعماله بعد ذلك، وهو هنا دون شك يقدم معلومات مفيدة لا يمكن توفرها في العمل البيليوجرافي المهني.

ويقترب المعجم في بعض نواحيه من العمل المهني، ويتمثل ذلك في استخدام الطاهر للإحالات، فهو يحيل من الخجندي إلى محمد سلطان، ويحيل من طاهر كردي إلى محمد طاهر كردي وهكذا..

ولا تعني الإشارة إلى اختلاف المنهج الذي سار عليه الدكتور الطاهر عن منهج المهنيين التقليل من شأنه فهو في واقعه موسوعة للحركة الفكرية في هذه البلاد، لا يستطيع وضعها غير إنسان يملك مثابرة وصبر وحب الدكتور على جواد الطاهر..

(للبحث صلة) الدكتور يحيى محمود ساعاتي

ـ ١٠ ـ

حرف اللام

اللَّبَـــا

جاء في كتاب «المُحَبَّر» لمحمد بن حبيب[١] ذُو اللَّبَـا: صنم لعبد القيس بالمُشقَّر سدنته منهم بنو عامر. ومثل هذا في «معجم البلدان». ولم أر لهذا الصنم ذكراً في كتاب «الأصنام» لابن الكلبي والمُشَقَّرُ سيأتي الكلام عليه.

لَبْــدَاء

من مياه آل مرة في سلوا، بقرب حدود قطر.

لَبَــنُ

بفتح اللام والباء وآخره نون: جَوٌّ مِنْ جِوَاء الصَّمان قال ذو الرُّمَّة:

حتى إِذَا وَجَفَتْ بُهْمَى لِوَى لَبَنٍ ... وابْيَضَّ بَعْدَ سَوَادِ الْخُضْرَةِ الْعُودُ

وجفتْ: أي ذهبت به ــ بالبُهْمَى ــ الريح[٢].

وهذا الجو لا يزال معروفاً. وفي سنة ١٣٢١ ــ أغار الملك عبد العزيز آل سعود، وجابر المبارك الصباح على قبيلة مُطَيْر، بقيادة فيصل الدويش، في جَوِّ لَبَنٍ، فهزمت القبيلة، وغنمت أموالها[٣]. وذكر مقبل الذكير أن هذه الوقعة حدثت في شوال سنة ١٣٢٠ وفَصَّلها بما ملخصه: أن ابن رشيد سار غازياً ونزل حفر الباطن ثم سار قاصداً بوادي الكويت فأغار على (عُرَيب دار) قرب الكويت وأخذ إبلهم وبيوتهم، ثم رحل ونزل الباطن فتخوف ابن صباح وكان فيصل الدُّويش قد

مال إلى ابن رشيد فكتب ابن صباح إلى ابن سعود يستنجده فلبّى طلبه وأقبل ومعه من الجيش ما ينوف على خمسة آلاف مقاتل، فوصل الكويت فجهز ابن صباح ابنه جابرا فاتّحَدَ جيشاهما وسارا قاصدين ابن رشيد، وكان قد رحل من موضعه وسار جنوبآ، وكان سلطان الدويش قريبآ منهم، فأغارا عليه في موضع يُسَمَّى (جَوّ لَبَنٍ) في الصَّمَّان، فحصل بينهم قتال شديد، أبليتْ فيه قبيلة مطير بلاءً حسنآ، ولكنها غُلِبَتْ في النهاية، فأخذهم القوم، وحصل منهم حلال كثير، وقتل من الطرفين عدد غير قليل، لأن مطيرآ في تلك الوقعة استبسلوا وقاموا مقاومة عنيفة وكان حلالهم بين أيديهم فدافعوا عنه مدافعة شديدة ولكن القوة التي هاجمتهم تفوقهم عددآ وعدة، وقتل يومئذ عَمَّاش الدويش وابنه.

وذكر الأستاذ عبدالله بن خميس أنَّ جَوّ لَبَنٍ يدعى جَوّ عَمَّاش(٤).

اللُّبْــــــدَةُ

بضم اللام وإسكان الباء بعدها دال فهاء ــ: من مياه آل مُرَّة، بمنطقة الدكَاكَة، في الرُّبْعِ الخالي.

لَحْظَــــــــةُ

قال في «معجم ما استعجم»: لحظة علم بجوف اللَّهَابة ــ ماءٌ لبني تميم، قال أوفى بن رز أحد بني مرة بن فُقَيْم:

وأَغْنَتْ رماحَ القوم عنَّا سُيُوفُنا ... بلحظَةَ إذْ هَزُّوا الوشِيجَ الْـمُقَوَّمَا

وفي «معجم البلدان»: لحظة: مأسدة بتهامة، يقال: أُسْدُ لَحْظَةَ، كما يقال: أُسْدُ بِيشَة.

قال الجَعدِيُّ:

سقَطُوا عَلَى أَسَدٍ بلَحْظَةَ مَشْبُو ... حِ السَّــواعِـدِ بَــاسِــلٍ جَهْمِ

انتهى. فلعل الاسم يقع على موضعين.

أما كلمة (بجوف اللهابة) فأرى صوابها (بِجَوِّ اللهابة) إذِ اللهابَةُ آبارٌ تقع في جَــوٍّ واسع.

اللَّحْـــــــــيُ

بفتح اللام وسكون الحاء المهملة بعدها ياء ــ : هما لَحْيَانِ: جبيلان يقعان في الجنوب الغربي من القليب، جنوب العُيَيْنَة (عُوَيْنَةِ كِنْهِل) في جنوب وادي المياه (الستار قديماً) يدعى أحدهما اللَّحْيُ الريَّان، وهو الشرقي منها، والثاني: اللَّحْيُ العطشان.

اللِّــــــــدَامُ

بكسر اللام وفتح الدال المهملة بعدها ألف فميم، ويغلط بعضهم فيسقط اللام من الاسم فيقول (دام) ظنا أنها (ال) التعريف.

وهو جبل يقع شمال بلدة عَيْنِ دَارٍ، شرق الأَطْوَلَةِ، في منطقة الحَبْل، ويقع غربه جبل فِرْزَان، وفي جنوبه جبل يدعى الأمغر، ويرتفع اللِّدَام عن مستوى سطح البحر مئتين وخمسة عشر متراً، ويقع بقرب خط الطول: ٢٩َ/٤٩° وخط العرض ٢٠َ/٢٦°.

وجاء في كتاب «دليل الخليج» اللِّدَامُ: جبل يقع على مسافة ٤٠ ميلاً إلى الشمال الغربي في قاع دَوْحَةِ رحيم و ٥٠ ميلاً جنوبي غربي مدينة القطيف، وشمال شرقي الهفوف بطول عدة أميال من الشمال للجنوب، وعلى مسافة ٦٠ ميلاً بأقصى الشمال ــ قِمَّتَانِ باسم جبلي الفرز وجبل اللدام وعلى مسافة أقل من خمسة أميال من الحبل والبياض والجوف وأبو الدُّلاسيس وجو السعدان. انتهى.

لَصَـــــــــاف

بفتح اللام والصاد المهملة وسيأتي في كلام ياقوت اشتقاق الاسم ــ : وهو اسم منهل من مناهل الصُّمان القديمة.

ففي «معجم ما استعجم»[٥]: كانت لَصَاف لإياد وفيها يقول عَبْدُ باجر:

إنَّ لَصَافِ لاَ لَصافِ فَاصْبِرِي   إذْ حَقَّقَ الرُّكْبَانُ مَوْتَ الْـمُنْذِرِ

كانت من منازل تلك القبيلة قبل أن تنتقل إلى خارج الجزيرة قال ياقوت[٦]: قال أبو عُبَيْد السَّكُونيُّ: سِنْدَادُ منزل لإياد نزلتها لما قاربت الرِّيْفَ، بعد لصاف وشَرْج وناظرة، وهو أسفل سواد الكوفة، وراء نجران الكوفة ـ انتهى يقصد سنداد.

وقبيلة إيادٍ انتقلت من شرق الجزيرة قبل الإسلام بعد أن انتشرت فروع ربيعة من عبد القيس وبكر بن وائل وغيرهما. ثم حلَّتْ تلك البلاد قبيلةُ بني تميم فأزاحت أكثر سكانها من ربيعة، سوى عبد القيس. وجاء الإسلام وفروع تميم منتشرة في تلك النواحي، ولما ذكر صاحب كتاب «بلاد العرب»[٧] أنَّ القرعاء ماءةٌ بأسفل الصَّمَّان قال: ثُمَّ بجنبها مما يلي فَلْجاً لصافِ وفيها يقول الراجز:

يَـالَـيْـتَ عَـنَّـا وبـنِي مَـنَـافِ   والـنَّـهْـشَـلِـيِّـينَ عـلَى لَـصَـافِ
قَدِ ارْتَمَيْنَا حَجَرَيْ قِذَافِ

ولهم يقول أبو الْـمُهَوِّشِ الأسديُّ:

قَدْ كُنْتُ أَحْسِبُكُمْ أُسودَ خَفِيَّـةٍ   فإذَا لَصَافِ تَبِيضُ فيهـا الْحُمَّرُ

وليس لبني نهشل غيرها، وغير القممية وهي ببطن فلج، فوق الجفر ـ انتهى.

وقال[٨]: والقرعاء واللِّهابَة ولصاف وطُوَيلع وما حولهن يُسَمَّيْنَ الشاجنة، وهي دون الصَّمان، في أسافله. انتهى.

وقال ياقوت في «معجم البلدان»: لَصَافِ بوزن قَطَام، كأنه معدول عن لاصفة، وتأنيثه للأرض أو البقعة يكثر فيها اللَّصَف[٩]، قال أبو عبيد: اللصف شيء ينبت في أصل الكبر كأنه خيار، وقال الليث: ثمرة شجرة تجعل في المرق ولها عصارة يصطنع بها الطعام ـ ولَصَافِ وثَبْرَة: ماءان بناحية الشواجن في ديار ضبة، قال الأزهري[١٠] وقد شربت منها، وإياهما أراد النابغة حيث قال:

بِمُصْـطَحِباتٍ مِنْ لَصَـافِ وثَبْـرَةٍ   يَـزُرْنَ إلالاً، سَيْـرُهُنَّ التَّـدَافُـعُ

وقال أبو عبيدالله السَّكُوني: لصاف ماء بالقرب من شرجٍ وناظِرةَ وهو من مياه إياد القديمة وقد صرفه الشاعر فقال:

إنَّ لَصَافاً لَا لَصَافَ فَاصْبِرِي ... إذْ حَقَّقَ الرُّكْبَانُ هُلْكَ الْمُنْذِرِ

وقال أبو زياد: لصاف ماء بالدَّوِّ لبني تميم، وقد بلغ مُضَرِّسَ بنَ رِبْعِيٍّ الأَسَدِيَّ أن الفرزدق قد هجا بني أسد فقدم البصرة، وجلس بالمِرْبَدِ ينشد هجاءه الفرزدق، فبلغ الفرزدق ذلك فجاءه حتى وقف عليه فقال له: من أنت؟ قال: أَسَدِيٌّ أنا، قال: لعلك ضريس؟ قال: أنا مُضَرِّس، فقال له الفرزدق: إنك بي لَشَبِيهٌ فهل وردتْ أُمُّكَ البصرة؟ فقال: لَمْ ترد البصرة قطُّ ولكنَّ أبي، قال الفرزدق: ما فعل مُعَمَّرٌ؟ قال مُضَرِّسٌ: هو بِلَصَافِ حَيْثُ تَبِيضُ الْحُمَّرُ، فقال له الفرزدق: هل أنت مجيزٌ لِي بَيْتاً؟ قال مُضَرِّسٌ: هاته، قال الفرزدق:

وَمَا بَرِئَتْ إلَّا عَلَى عَتَبٍ بِهَا ... عَرَاقِيبُهَا مُذْ عُقِّرَتْ يَوْمَ صَوْأَرِ

قال مُضَرِّسٌ:

مَنَاعِيشُ لِلْمَوْلَى تَظَلُّ عُيُونُهَا ... إلَى السَّيْفِ تَسْتَبْكِي إذَا لَمْ تُعَقَّرِ

فنزع الفرزدق جُبَّتَهُ ورمى بها على مُضَرِّس وقال: والله لاهجوتُ أَسَدِيًّا قطُّ.

أراد الفرزدق بقوله: (ما فعل معمر؟ قول)[11] نهشل بن حَرِّيٍّ يهجو بني فقعس حيث قال:

ضَمِنَ الْقَنَانُ لِفَقْعَسٍ سَوْآتِهَا ... إنَّ الْقَنَانَ لِفَقْعَسٍ لَمُعَمَّرُ

وأراد مُضَرِّسٌ قولَ أبي المُهَوِّش الأسديِّ يَرُدُّ عليه:

قَدْ كُنْتُ أَحْسِبُكُم أُسودَ خَفِيَّةٍ ... فَإِذَا لَصَافِ تَبِيضُ فِيهِ الْحُمَّرُ
فَتَرَفَّعُوا مَدْحَ الرِّئَالِ (؟) فَإِنَّمَا ... تَجْنِي الْهُجَيْمُ عليكم والْعَنْبَرُ
عَضَّتْ تَمِيمُ جِلْدَ أَيْرِ أَبِيكُمُ ... يَوْمَ الْوَقِيطِ وعَاوَنَتْهَا حَضْجَرُ

وهي أبيات كثيرة. انتهى.

وقال البكري في «معجم ما استعجم»: لصاف بفتح أوله وكسر الفاء وآخره مبني: ماء لبني تميم، ثم أورد بيتي أبي المهوش في هجوهم، غير منسوبين.

وأورد في «النقائض» خبر هجو ضابيء بن الحارث البرجمي بني عبدالله بن هوذة من بني دارم، وأن عثمان ـ رضي الله عنه ـ قضى لبني هوذة على ضابيء بجزّ شَعَرِه وخمس إبله وانحدروا من المدينة إلى لَصافِ فحبسوه عند أمهم، فأطلقته، فأخذ ضابيءُ ثمامة بن عبدالله بن هوذة، بإثبيت، فضربه وشجه، فاستعدوا عليه عثمان، فأمر به فحبس ـ في خبر طويل.

وقال جرير[١٣]:

وأجَـرُّ مُـطَّرِدَ الكُعُـوبِ كَـأنَّـهُ مَسَدٌ يُنَازِعُ مِنْ لَصَافِ جَرُوْرَا

الإجرار: أن تطعن الرجل ثم تخلِّي الرمح فيه، والجرور: البئر البعيدة القعر التي تسنى ببعير.

ولصاف: ماء لبني نهشل.

وقال الفرزدق يهجو فُقَيْماً ونهشلاً[١٤]:

إذَا حَلُّوا لَصَـافِ بَنَـوْا عَلَيْهَـا بُيوت الْلُؤْمِ والـذُّلِّ الـطَّويـلِ

وبنو فقيم وبنو نهشل بطنان مشهوران من تميم.

وقد بقيتْ لصافِ من مياه بني تميم إلى عصرنا، فهي الآن من مياه الجبْلان وهاؤلاء وان كانوا معدودين من قبيلة مُطَيْر، إلا أنَّ من المتواتر بين النسابين أنهم من بني تميم أصلاً. وتُعَدُّ لصاف ـ من الطِّوال، طِوَال مُطَير، وهي آبار بعيدة القعر، هي واللهابة والقرعاء، وتعرف لصافِ الآن باسم اللِّصَافَة.

اللِّصَـافَـــــــةُ

ـ بكسر اللام وفتح الصاد المهملة بعدها ألف ففاء مفتوحة فهاء ـ من هُجَرِ قبيلة مُطَيْر، لِلْجِبْلاَنِ المعدودين منهم وإن كانوا في الأصل من بني تميم ـ وتقع

بمنطقة قرية، في أسفل الصمان.

واللصافة هذه كانت تعرف قديماً باسم لَصَاف ــ كما تقدم ــ وكانت من مياه بني تميم في العهد الإسلامي، والجِبْلَانُ يرجع أصلهم إلى بني تميم، لأن قبيلة مُطَير كغيرها من كثير من قبائل العرب في هذا العهد ــ تضم فروعاً من قبائل مختلفة الأصول.

واتخاذ اللصافة هجرة ــ بعد أن كانت منهلاً غير مسكون، حدث في عشر الأربعين من القرن الماضي. ولكنَّ الاستقرار فيها لم يستمر.

وتُعَدُّ اللِّصافة من الطوال ــ طوال مطير ــ لأنها بعيدة القعر، يبلغ رشاؤها نحوا من أربعين باعا.

ولِلِّصَافَة ذكر إبَّانَ نُشُوءِ الدولة السعودية في دورها الأول، فقد مهدتْ وقعةُ اللصافة وتسمى وقعة الشَّيِّطِ الموضع المعروف شرق اللصافة ــ لإزالة حكم بني خالد عن الأحساء، والاستيلاء على تلك البلاد.

وملخص الخبر ــ كما ورد في تاريخي ابن غنام وابن بشر(١٥)، أن سعود بن عبد العزيز سار في سنة سبع ومئتين وألف غازياً، يريد بني خالد، فلما اقترب منهم وجد آثار الجيوش والخيل، غازية، ولم يكن يعلم بما أحدثه براك وجماعته. وذلك أن براك بن عبد المحسن تولى رئاسة بني خالد والأحساء بعد مقتل أبيه عبد المحسن بن سرداح رئيس بني خالد(١٦)، فنهض بهم غازياً وورد ماء (اللصافة) وأغار على سُبَيْعٍ، وأخذ منهم إبِـلاً كثيرة.

فلما علم بذلك سعود استشار من معه: هل يقتفي آثار براك وبني خالد، أو يقصد أهلهم ومحالَّهُمْ وليس عندهم من يحول دونهم ويدافع عنهم؟

فأشاروا عليه بأن يعمد إلى أهلهم فيصبحهم ويعود منتصراً غانماً. فأبى سعود عليهم ذلك. ورأى أن الأَوْلَى ملاقاة هاؤلاء ومقاتلتهم.

فسار حتى وصل ماء اللصافة، وأقام يترصد بني خالد وينتظر عودتهم، فلما

بدت طلائعهم أسرعت إليهم بعض فرسان يناوشونهم القتال، فظنهم بنو خالد بعض الاعراب الغازين، فطمعوا فيهم ووثقوا من النصر، فلما تلاحم الفريقان، هجم عليهم الجيش، فلم يلبثوا أن انهزموا، وجَدَّ كل منهم يطلب النجاة لنفسه.

فتبعهم المسلمون وأخذوا يقتلون فيهم قتلاً ذريعاً، حتى قتلوا منهم ست مئة في يوم واحد غير من قتلوه وهم يقتفون أثرهم(١٧)، وأخذوا ما معهم من الخيل والإبل: وكانت الخيل مثتين، مختلفة النوع واللون. انتهى ملخصاً.

وتعتبر اللصافة من أطيب المناهل، لتوسط موقعها في المراتع المفضلة عند أبناء البادية في الصمان، وشرق الدهناء، على مقربة منها. وكذا ما بقربها من المياه كاللهابة والقرعاء.

وكما هُجِيَتْ لصاف (اللصافة) قديماً فإن اللصافة لم تسلم من ذلك، فقد تعرض لذكرها حنيف بن سعيدان ـ من شعراء العامة في عهدنا ـ فرد عليه شاعر من أهلها بما لا داعي لذكره، وكما قيل (ومازالت الأشراف تُهجَى وتمدح).

وتقع اللصافة في أعالي الشيِّطين، في مفيض شعيب فيصل، شمال القرعاء، بقرب خط الطول: ٤٧/٤٦َ° وخط العرض: ٢٥/٤٠َ°.

لَطِيــــــــط

ـ بفتح اللام وكسر الطَاء المهملة بعدها مثناة تحتية ساكنة فطاء مهملة أيضاً ـ: ماء يقع في الجهة الشمالية من الرُّبْعِ الخالي الشمالي الغربي، شرق جنوب المليحة الشرقية. وغرب ماء هقشة.

ويبعد عن يبرين نحو مئة كيل، وهو من موارد آل مُرَّةَ.

وفي أحد البيانات الرسمية: لطيط: هجرة لآل عازب وآل مهدية من آل مُرَّة، بمنطقة حَرَضٍ انتهى. وما أراه سوي ماء من مياههم.

لَعْبَــــــــاء

ـ بالفتح واسكان العين المهملة بعدها باء موحدة فألف ممدود ـ: في «معجم

البلدان»: اسم لسبخة معروفة بناحية البحرين، بحذاء القطيف، على سيف البحر، فيه (؟) حجارة مُلْس، سُمِّيَتْ بذلك لأنها لَعِبَ فيها كلُّ واد، أيْ سال، وتنسب إليها الكلاب والنسبة إليها لَعْبَاني ــ كالنسبة إلى صنعاء صنعاني ــ قال مُزَرد:

وعَالاً وعامًا، حينَ باعَا بِأعْنُزٍ وكَلْبَيْنِ لَعْبَانِيَّةً، كالجلامد

وقال المهلَّبِي: قوله (لعبانية) يعني نُوقاً شبهها في صلابتها بحجارة اللعباء. وكلام المهلبي هو المفهوم من خبر قصيدة مُزَرِّد، وهي في «المفضَّليات»[١٨].

وتعريف ياقوت للعباء هو نص كلام الأزهريِّ في كتاب «تهذيب اللغة»[١٩] ففيه: اللعباء سبخة معروفة بناحية البحرين، بحذاء القطيف، وسيف البحر. انتهى. ونقله الحازمي في كتاب «البلدان» بنصه منسوباً إليه. وهو في كتاب نصر. وفيها بين القطيف والجُبَيل أرض واسعة بقرب ساحل البحر، تدعى (الْعَبَاء) يرى بعض الباحثين أنها هي اللعباء التي تقدم ذكرها. وأرى أنها ما كان يعرف قديماً باسم (الأعباء) وورد مصحفا في بعض الكتب (الأعناء) وقد تقدم ذكر ذلك في موضعه من هذا الكتاب.

لُعْبَـــــــا

في «معجم البلدان»: بالضم ثم السكون والباء موحدة، فُعْلَى من اللِّعِب، مقصور ــ: هو موضع في ديار عبد القيس، بين عُمَانَ والبحرين، عن الحازمي. انتهى. ومثله في كتاب نصر.

وإذا صح هذا فالموضع غير لَعْبَاء التي بقرب الْقَطِيف، إذْ تلك في شمال البحرين وهذه في جنوبه.

لَعْلَـــــــعُ

في «معجم ما استعجم» بفتح أوله، واسكان ثانيه، بعده لام مفتوحة، وعين مهملة مثلها: موضع مذكور في رسم العذيب، وهو مؤنث لا يُجْرَى، وفي رسم

صيلع ما يدل أنه جبل. قال ابن وَلَّادٍ: لعلع: من آخر السواد إلى البر، ما بين البصرة والكوفة، وقال غيره: لعلع: ببطن فَلْجٍ، وهي لبكر بن وائل وقيل: هي من الجزيرة. وقال أبو عبيدة: كانت بكرُ بلعلع في أول الإسلام، من غير أن يكون أسلم أهلُ نجد ولا أهل العراق، فأجدبتْ لعلع، وَوُصفت لهم الشُّيُطَانِ بالخصب، وهي من منازل بني تميم، وبينهما مسيرة ثمان، فأتوا الشَّيِّطَيْنِ في أربع، وسبقوا كل خبر، وقتلوا بني تميم أُبْرَحَ قَتْلٍ، قتل منهم ذلك اليوم ست مئة، وأخذوا أموالهم، فيقال: إنَّ بكرا أتاهم كتاب رسول الله ﷺ، فأسلموا على ما في أيديهم.

وقال رُويشد بن رميض العنزيُّ[٢٠]:

ما كان بَيْنَ الشَّيِّطَيْنِ ولَعْلَعٍ   لِنِسَائِنا إلَّا مَنَاقِلُ أَرْبَعُ

وقال الـمُسَيَّبُ بن عَلَس:

قَطَعُوا الْمَزَاهِرَ واستَتَبَّ بِهِمْ   عِنْدَ الرَّحِيلِ لِلَعْلَعٍ طُرُقُ

وقد ورد في شعر قِرواشِ بن حَوْطٍ الضَّبِّيِّ، ما يدل على أن لعلع من ديار بني ضبَّة[٢١]، قال:

سَيَعْلَمُ مَسْرُوقٌ ثَنَائِي ورَهْطُهُ   إذَا وَائِلٌ حَلَّ الْقِطَاطَ ولَعْلَعَا

يعني وائل بن شرحبيل بن عمرو الضَّبُعِي، وكان أسيراً، فخيروه فاختار قرواشاً.

وقال المتلمس:

فلا تَحْسَبُنِّي خاذِلاً مُتَخَلِّفاً   ولاَ عَيْنُ صَيْدٍ من هَوَايَ ولَعْلَعُ

قال: وعَيْنُ صيد: هناك قريب من لعلع. وقال أبُو دُواد وذكر سحاباً:

فَحَلَّتْ بِذِي سَلَعٍ بَرْكَهُ   تخالُ البوارِقَ فيه الذُّبَالاَ
فروَّى الضوافة من لَعْلَع   يسح سجالا ويفرى سجالا[٢٢]

ولعلع: دانٍ من ذي قار، يدل على ذلك قول رُؤْبَةَ:

أَقْفَــرَ مِنْ أُمِّ الْيَمَــانِي لَعْـلَعُ فَبَــطْنُ ذِي قَــارٍ فِفَــارٌ بلقــع

وقال في «معجم البلدان» لعلع: بالفتح ثم السكون، واللعلع في لغتهم: السراب ولعلع: جبل كانت به وقعة لهم، قال أبو نصر(٢٣): لعلع ماء في البادية وقد وردته وقيل: لعلع منزل بين البصرة والكوفة، وقال العَزيزيُّ: من البصرة إلى عين جَمَلٍ ثلاثون ميلاً، وإلى عين صَيْد ثلاثون ميلاً، وإلى الأخاديد ثلاثون ميلاً وإلى أُقُر ثلاثون ميلاً وإلى سَلْمَان عشرون ميلاً وإلى لعلع عشرون ميلاً.

وقال المسيَّبُ بن عَلَسٍ الضُّبَعِي:

بــانَ الْـخَلِيطُ ورفّـع الخُـرُ ق ففـؤادُهُ فِي الْـحَيِّ مُـعْـتَـلِقُ
مَـنَـعُــوا كَــلاَمَـهُـم ونَــائِلَـهُـمْ يَــوْمَ الْـفِـرَاقِ ورَهْـنُهُـمْ غَـلِقُ
قَـطَعُوا الْـمَـزَاهِـرَ وَاسْتَتَبَّ بِهِمْ يــوم الـرَّحِيــل لِلَعْلَعٍ طُــرُقُ

وإلى بارق عشرون ميلاً وإلى مسجد سعد أربعون ميلاً، وإلى الـمُغيثة ثلاثون ميلاً، وإلى العُذَيْبِ أربعة وعشرون ميلاً، وإلى القادسية ستة أميال، وإلى الكوفة خمسة وأربعون ميلاً. انتهى.

وأورد في «النقائض»(٢٤) لجرير:

ولو شَهِدَتْ يومَ الْوَقِيْطَيْنِ خَيلُنا لَمَا قَاظَتِ الأَسْرَى الْقِطَاطَ ولَعْلَعَا

القطاط ولعلع: واديان معروفان، كانت الأسرى فيهما.

النصوص المتقدمة واضحة الدلالة على أنَّ لعلع في سواد العراق، بين البصرة والكوفة، وأنه كان من بلاد بكر بن وائل، وأنه يبعد عن الشُّيَّطَيْنِ الواقعين شرق الصمان مسيرة ثمان ليال للابل، قطعها البكريون في أربع ــ كما في قول رُشَيد بن رميض العنزيّ:

ومـاكـانَ بَـيْنَ الشُّيَّـطَيْنِ ولَعْلَعٍ لِنِسْـوَتِنَـا إلاَّ مَنَـاقِـلُ أَرْبَـعُ

ــ وتقدم في رسم الشيطين.

إلاَّ أن القول بأنه في بطن فلج ــ وهو وادي الباطن الذي فيه الْحَفَرُ ــ دعا إلى

ذكره، إذ الاسم قد يُسَمَّى به موضعان فأكثر. ثم إن صلة الموضع بالشُّيُّطَيْنِ تدعو إلى الاشارة إلى موقعه.

لُيَمَـــــــــــــة

بضم اللام وفتح الميمين بينهما ياء ساكنة ـ : جبل يقع شرق بلدة النُّعَيرِيَّةِ، وغرب طُريف والطَّرَيْفة، يرتفع عن سطح البحر ثلاث مئة وثلاثين متراً.

اللِّـــــــــــــوى

ـ بالكسر والواو بعدها ألف مقصورة، وهو منقطع الرمل، فهو في الأصل وصفُ سميت به مواضع بعينها، وكما قال ياقوت في «معجم البلدان»: قد أكثرت الشعراء من ذكره، وخلطت بين ذلك اللِّوَى والرمل، فعزَّ الفصل بينهما. انتهى، واكتفي بما ورد في ذكر اللِّوَى بما جاء في شعر ذي الرُّمَّة، إذ غالب ما ذكر من المواضع داخل فيها أُلِّفَ هذا الكتاب لتحديد موقعه قال:

وخَاضَ الْقَطَا في مَكْرَعِ الْحَيِّ بِاللِّوَى ... نِطافاً بقاياهُنَّ مَطْـرُوقَـةٌ صُفرُ[٢٥]

وقال[٢٦]: يصف مَيَّةَ:

تَحِلُّ اللِّوَى أوْجُدَّةَ الـرَّمْلِ كُلَّما ... جَرَى الرِّمْثُ في مَاءِ الْقَرِيْنَةِ والسِّدْرِ

وقال[٢٧]: ـ يصف الظعائن:

تَعَـرَّجْنَ بِالصَّمَّـانِ حَتَّى تَعَذَّرَتْ ... عَلَيْهِنَّ أرْتَـاعُ اللِّوَى ومَشَـارِبُـهْ

تَعرجْنَ: اقَمْنَ. أرتاعُ اللِّوَى: المرتعى

وقال[٢٨]:

غَدَاةَ اللِّوَى إذْ رَاعَنِي الْبَيْنُ بَغْتَةً ... ولَمْ يُودَ مِنْ خَرْقَاءَ شَيْئاً قَتِيْلُهَا

وقال[٢٩]:

أرِقْتُ لَـهُ والثَّلْجُ بَيْنِي وبَيْنَـهُ ... وحَوْمَانُ حُزْوَى فَاللِّوَى فَالْحَرَائِرُ

وقال[٣٠]:

أَقَامتْ بِهَا حَتّى تصوَّح بِاللُّوَى لِوَى مَعْقُلاَتٍ في مَنَابِتِهِ البَقْـلُ

البيت الأخير واضح في أنَّ بقرب مَعْقُلاتٍ موضعاً يعرف باللُّوَى، يضاف إليها، كما أن عطفه اللُّوَى على حُزْوَا يفهم منه تقارب الموضعين.

ووصف المرتعَى في اللوى بالصُّمَّان يدل على أن هذا الموضع في الصُّمَّان.

ومن هنا يمكن القول بأن اللُّوَى الوارد في شعر ذي الرُّمَّة المذكور هنا يقع شرق الدهناء بقرب مَعْقُلَةَ في نواحي الصُّمان، والصُّمان وإن كان حُزُوناً وقِفَافاً ورِيَاضاً إلَّا أن فيه أماكن ذات رمل.

اللُّـوَيْمِـــــــــــي

بلام مضمومة وواو مفتوحة بعدها مثناة ساكنة فميم مفتوحة فياء النسبة ـ : قصر اللويمي كان مقراً للجند في عهد الدولة التركية، ويقع بقرب مدينة الهفوف، وقد درس الآن. جاء في «دليل الخليج» في الكلام على قرى الأحساء: قصر اللويمي: على مسافة ميل شرقي الهفوف في الجهة الجنوبية من طريق الجِشَّة، وهو قلعة كان قد احتلها الجنود والشرطة التركية حيث تعتبر مركزاً للمدفعية وبها بصفة دائمة جند مشاة و ٢٥ من فرسان الضبطية.

وتروى الأراضي المتصلة بالقلعة من عين اللويمي.

لِهَـــــــــاب

بكسر اللام وفتح الهاء بعدها ألف فباء ـ : قال جرير[٣١]: يهجو عَمْرو بن لَجَاءٍ التَّيْمِيَّ:

فَـأَنْتَ عَـلَى مُجُـودَةَ مُسْتَـذَلٌّ وَفِيُّ الْحَيِّ الـذين عـلى لِهَـابـا

بجودة ولهاب: موضعان. كذا في ديوانه.

ويجودة: أراد الموضع المعروف الآن باسم جودة ـ حذفت العامة الياء كما حذفتها من ينوف ويعقوب ـ وتقدم الكلام في هذا في رسم (جودة).

أما لهاب فقد يكون أراد اللهابة فاضطره الشعر إلى تغيير الاسم.

الحواشي:

(١) ٣١٧.
(٢) ديوانه: ١٣٥٦.
(٣) «تاريخ الكويت» ٩٤/٢ الطبعة الأولى و «نجد الحديث» للريحاني: ١٣٤ ـ الطبعة الثانية.
(٤) «معجم اليمامة»: ٨٠/٢.
(٥) رسم (توضح).
(٦) «معجم البلدان» رسم سنداد.
(٧) ص ٣٥٣.
(٨) ٣٥٥.
(٩) اللصف على ما هو معروف الآن في نجد نوع من الحجارة أبيض لامع أملس رقيق.
(١٠) «التهذيب»: ١٩٠/١٢ من قوله: (لصاف وثبرة ماءان) وفيه (وقد شربت بهما).
(١١) ليس ما بين المربعين في الأصل ولا يستقيم الكلام بدونه.
(١٢) ص ٢٢٠.
(١٣) ديوانه: ٢٣١.
(١٤) ٦٥٢.
(١٥) «تاريخ نجد» لابن غنام تلخيص الدكتور ناصر الدين الأسد، ص ١٨١ و «عنوان المجد» لابن بشر ـ حوادث سنة ١٢٠٧.
(١٦) في «عنوان المجد» أن عبد المحسن قتل سنة ١٢٠٦، قتله زيد بن عربعر واخوته.
(١٧) في «عنوان المجد»: أن القتلى من بني خالد، أكثر من ألف رجل وقيل أن الذي هلك قريب ألفي رجل.
(١٨) انظر (اير) من كتاب «شمال المملكة».
(١٩) ٤١١/٢.
(٢٠) كذا والمعروف رُشيد ـ وهو مترجم في «الإصابة» مع تحريف نسبته (العنزي) إلى (العنبري).
(٢١) كذا ويظهر أن الصواب (بني ضبيعة) كما يدل على ذلك النص.
(٢٢) الصوافة هنا سماها ياقوت (الضرافة) انظر هذا الاسم.
(٢٣) لعل الصواب (أبو منصور) وهو الأزهري الذي كثيراً ما يعبِّر هذا التعبير في وصف أمكنة كثيرة في هذه الجهات.
(٢٤) ٨٣٦.

الحجون: مرة أخرى

انظر «العرب» س٢ ص٨٦٥ وما بعدها]

كنت تحدثت في مجلة «العرب» ـ س ٢ ص ٨٦٥ وما بعدها ـ عن الحَجُونِ وكَدَاء، إثْرَ محاضرة ألقاها الأستاذ الشيخ أحمد السباعي ـ رحمه الله ـ عن (عبدالله بن الزبير)، جاء فيها: تعارفنا وتعارف الناس من أجيال سحيقة على تسمية هذه الثنية الماثلة أمامنا الحَجُون، والواقع أنها سُمّيت بذلك بعد الإسلام)، ثم تَساءل: أين الحجون الجاهلي وأين ثنية كداء عنه؟! وقال: لعلَّ أقربَ شيء إلى الصحة أن تكون الثنية أو الجبل الصغير المتصل بشعب عامر، أما الحَجُون الحالي على يمين الصاعد إلى أعلى مكة هي ثنية كَدَاء ـ بالفتح انتهى.

ولقد حاولتُ أن أُبطلِ رَأْيَ الأستاذ السباعي ـ رحمه الله ـ فأوردتُ نصوصاً عامة عن الحِجُون، أردتُ منها تأييد ما هو متعارف من أنَّ الحجون هو المكان المعروف الآن بهذا الاسم الذي تقع فيه المقبرة، ويخترقه طريق كان ثَنِيَّةً يُهبط منها إلى جرول.

وقلت في آخر البحث: (ولهذا فإنني أُخالف الأستاذ السباعي مخالفة تقوم على ما ذكرت من الأدلة، حتى يتضح خطأ هذه المخالفة، فأكون أولَ المسارعين إلى

---

(٢٥) ديوانه: ٥٦٣.
(٢٦) ٥٧٣.
(٢٧) ٨٢٨.
(٢٨) ٩٠٨.
(٢٩) ١٠١٦.
(٣٠) ١٦١٣.
(٣١) ٥٨٢.

رفضها، إذِ الحَقُّ هو غاية كل منِ ينظر إلى هذه الناحية نظرة مجردة عن كل غاية لا توصل إلى الحقيقة).

ثم إنني بعد ذلك حاولت التعمق في فهم النصوص الواردة في تعريف الحَجُون في كتاب «أخبار مكة» للازرقي، وهو أقدم كتاب تحدث عن هذا الموضع مما وصل إلينا من الكتب المطبوعة، فظهر لي أنَّ رأي الأستاذ السباعي كان مبنياً على نصوص واضحة أوردها الأزرقي، ولا يتسع المقام لإيراد تلك النصوص.

ثم رأيت ابن ظهيرة صاحب كتاب «الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف» قد تعرض لتحديد الحَجُون في كتابه فقال ص ٣٨٥: (الفائدة السابعة: المشهور عند أهل مكة أنَّ الحَجُون هو الجبل الذي فيه الثنية التي يدخل منها الحاج، الهابطة على المقبرة، وعَرَّفَها الأَزْرقيُّ بثنية المَدَنِيِّين، ويسمونها الحَجُون الأول بالنسبة إلى الخارج منها إلى جهة ذي طُوَى والزاهر، ويقولون لما بينها وبين الثنية الأخرى ـ الهابطة على المختلع وطريق الوادي وتسمى الخضراء ـ: بين الحجونين، ويمين الخارج منها إلى جهة منى، كما هو صريح كلام الأزرقي والخزاعي والفاكهي والنووي، فأما الأزرقيُّ فقال عند ذكره لما في يمانيِّ المِعْلَاة من المواضع والشعاب والجبال ما نصه: الحَجُون الجبل المشرف جدًّا على مسجد البيعة الذي يقال له مسجد الحَرْس.

ومثله كلام الفاكهي، وأما كلام الخزاعي فنصُّ كلامه: الحجون الجبل المشرف على مسجد الحرس بأعلى مكة على يمينك وأنت مُصْعِد. وقال النووي في «شرح مسلم»: الحَجُون وهومن حرم مكة الجبل المشرف على مسجد الحرس بأعلى مكة على يمينك وأنْتَ مُصْعِدٌ. قال السيد الفاسيُّ ـ رحمه الله ـ: وقد ذكر المُحِبُّ الطبري في «القِرى» ما يوافق ما يقوله الناس، وكنتُ قلَّدتُّه في ذلك فظهر لي أنَّ الأزرقي بذلك أدْرَى، كيف وقد وافقه الخُزَاعيُّ والفاكهي وغيرهما، وإذا كان كذلك فلعله الجبل الذي يزعم الناس أن فيه قبر عبدالله بن عمر، والجبل المقابل الذي بينهما الشعب المعروف عند الناس بشعب العفاريت والله أعلم. انتهى.

وأغرب السُّهيليُّ في محل الحجون فقال: والحَجُون على فرسخ وثلث من مكة. انتهى.

والحَجُون ـ بفتح الحاء وضم الجيم ـ كذا ضبطه النووي والطبري وصاحب «المطالع» وضبطه ابن خَلِّكَان بضَمِّ الحاء، والمعروف الفتح). انتهى كلام ابن ظهيرة.

ويظهر من كلام الأزرقي أنَّ أهل مكة في الجاهلية وفي صدر الاسلام يدفنون موتاهم في مواضع منها: الحجون الواقع على يمين المتجه إلى منى من الحرم، على مقربة من شعب عامر، وكان يسمى موضع الحجون شعب أبي دُبٍّ ـ إلى شعب الصُّفيِّ ـ صفي السِّباب ـ كما يدفنون في الشعب الملاصق لثنية المدنيين الواقع على يسار الذاهب إلى منى في مقابلة الحجون، وهو مقبرة أهل مكة اليوم، وتمضي المقبرة مصعدة لاصقة بالجبل إلى ثنية أُذاخر بحائط خَرْمان.

وبعد أن جاء الاسلام حولوا قبورهم إلى هذا الموضع الذي في أصل الثنية.

ولعل اسم الحجون انتقل إلى هذا المقبرة الأخيرة بعد أن أصبحت في العهد الاسلامي مقبرةً، ومن هنا وقع الاختلاف في تحديد موضع الحجون منذ عهد قديم حيث ذكر الحافظ أحمد بن عبدالله الطبري (٦١٦/٦٧٤) في كتابه «القرى لقاصد أم القرى» ما نصه ص ٢٢٢: (وكداء ـ بالفتح والمدِّ غير مصروف ـ هي الثنية العليا مما يلي مقابر مكة عند الحجون). فهو كما ترى سمى الثنية التي سماها الأزرقي ثنية المدنيين سماها الثنية العليا، وذكر أنها تلي مقابر مكة عند الحجون. والحجون الذي ذكره هنا ليس الحجون الذي ذكر الأزرقي أن أهل الجاهلية يدفنون فيه موتاهم، لأن نص كلام الأزرقي: كان أهل مكة يدفنون موتاهم في جنبتي الوادي يَمْنَةً وشأمَةً في الجاهلية وفي صدر الاسلام، ثم حوَّل الناس قبورهم في الشعب الأيسر، لما جاء فيه من الرواية، ففيه اليوم قبور أهل مكة. ـ «أخبار مكة» ج ٢ ص ٢١١.

وقال قبل هذا: كان أهل الجاهلية وفي صدر الاسلام يدفنون موتاهم في شعب أبي دُبٍّ من الحجون إلى شعب الصفي ــ صفي السباب ــ وفي الشعب الملاصق بثنية المدنيين الذي هومقبرة أهل مكة اليوم.

لقد اتضح لي مما تقدم من النصوص أنَّ الحجون كان في الأصل يطلق على موضع يقع على يمين الذاهب إلى منى على مقربة من شعب بني عامر، وكان هناك مقبرة في العهد الجاهلي. ثم في صدر الاسلام انتقلت المقبرة إلى الشعب التي هي فيه الأن الملاصق لثنية المدنيين التي سهلت منذ عهد قديم، وتمتد المقبرة في سفح الجبل لاصقة به إلى ثنية أُذاخر والخرمانية في طرف المعابدة، ثم أُطلق على هذه المقبرة اسم الحجون. ولإطلاق هذا الاسم على الموضعين وقع الاختلاف في تحديد الموضع بين متقدمي العلماء، مما نشأ عنه وقوع بعض المتأخرين في الخطأ، حيث زعم أحدهم في مؤلف له أن الحجون هو المكان المعروف الآن الذي فيه المقبرة. وليس هذا صحيح كما تقدم.

وفائدة التفريق بين الموضعين أن من المؤرخين القدماء من ذكر أن عبد المطلب جد الرسول ــ ﷺ ــ وخديجة زوجه ــ رضي الله عنها ــ قبرا في الحجون، فأي حجون هذا؟!

يظهر من كلام الأزرقي وغيره أنه الحجون الذي كان مقبرة في صدر الاسلام وقبل ذلك في العهد الجاهلي ــ يقع على يمنة الوادي للمتجه من مكة إلى منى، لا الموضع المسمى بهذا الاسم الآن الواقع على يسار المتجه.

والعلم عند الله سبحانه وتعالى . . .

حمد الجاسر

الحمدة: من فروع ثقيف

قبيلة الـحُمَدَة هي من عوف الأحلاف من ثَقيف:

كانت قبيلة ثقيف تنقسم إلى فرعين رئيسَيْنْ هما عوف الأحلاف، وبنو مالك، وسميت عوف بعوف الأحلاف لتحالف قسم من بني مالك يقال له: غاضرة، تحالف مع عوف، تركوا بني عمومتهم وانضموا إلى عوف، عُرفت بعوف الأحلاف، وذكر في كتاب رسول الله ـ ﷺ ـ لثقيف «للأحلاف أميرهم ولبني مالك أميرهم» و ثقيف سكان الطائف وما حوله يرجعون إلى عوف الأحلاف من ثقيف.

عشائر قبيلة الـحُمَدَة المعروفة قديماً وحديثاً:

١ ـ النغور	٢ ـ ذوو سميح	٣ ـ العرامية
٤ ـ الوداودة	٥ ـ الْـمُقَدَّم	٦ ـ القواسم
٧ ـ ذوو بريك	٨ ـ ذوو مُسلَّم	٩ ـ الجرشان
١٠ـ العرافية	١١ـ الزربات	١٢ـ المطالقة
١٣ـ العقلان	١٤ـ ذوو هندي	١٥ـ المهادية
١٦ـ ذوو معروف	١٧ـ الزواهرة	

قراهم القديمة والحديثة:

١ ـ السلامة وسكانها النغور، ذكرهم صاحب «ذيل إتحاف الورى» مخطوط مكتبة الحرم بقوله: سنة ٩١٦هـ أن عبدالله بن محمد النغر الحميدي أرضى الشريف بركات بوجبة من عين السلامة. وذكر الجزيريُّ صاحب «الدرر الفرائد

المنظمة» ــ ص ١٧٩٦/١٧٩٧ ــ : أن القاضي محيي الدين الشلبي حج سنة ٩٤٥ هـ فذهب بعد أدائه الحج بشهرٍ إلى الطائف، بسبب مرض اعتراه، وحصل بينه وبين عرب مُطَيْرٍ مشكلة فالتجأ إلى عصبة من ثقيف منهم العفيف عبدالله بن محمد النغر. أقول: ولا يزال في السلامة بستان يعرف ببستان النغر إلى الآن.

٢ ــ قرية الهَضْبة: سكانها بعض ذوي سُمَيح، وبعض الزواهرة ولا يزال بها سكان منهم إلى الآن، وذكرها صاحب «إهداء اللطائف» وتُعرف الآن بباب الريع وحيٍّ أسفل.

٣ ــ سكان الـمَثْنَاة: عرفت بهذا الاسم في حدود القرن العاشر الهجري، أما قبل ذلك فتعرف بـ (وج) سكانها بعض عشيرة الجرشان وبعض عشيرة الزواهرة، ولا يزالون في الـمَثْنَاة إلى الآن.

٤ ــ قرية العَقِيق: سكانها عشيرة العرامية وبعض ذوي سميح والوداودة والمقدَّم.

٥ ــ القَيْم: وتعرف قديماً باسم لُقَيم، ذكرها صاحب «لسان العرب»: لقيم اسم رجل. وأورد هذا البيت في رسم لقم.

لُقَيم بن لقمان من أخته وكان ابن أخت له وابنها

وذكر في «شرح مقامات الحريري» ــ ج ٥ ص ١٣٤ ــ : أن الشاعر هو النمر بن تَوْلب، وذكرت قرية لقيم سنة ٦١٣هـ وذكرها الميورقي في «بهجة المهج».

أما الآن فيضم وادي القيم مزارع وقرى كثيرة، ومن قرى وادي القيم الـمُلَيْساء، وهي في أعلى الوادي ويسكنها بعض عشيرة العرافية، والزربات والمطالقة والعقلان وبعض الزواهرة وبعض القواسم وبعض ذوي سميح وبعض الجرشان وبعض ذوي هندي، وأكثر عدد وسكان من الحمدة في قرية المليساء الآن.

ووادي القيم أعلاه الـمُلَيْساء بعد مستشفى الأمير منصور العسكري، وأسفله المريسية والجبال المطلة على الْـقُدَيْرة. ومن قراه: —

١ ــ المختلطة	٢ ــ الـحُسَيْرج	٣ ــ المرقب
٤ ــ الطويلة	٥ ــ السريج	٦ ــ الخضراء
٧ ــ الخضيرة	٨ ــ السالمية	٩ ــ أم الفضلين
١٠ــ أم صَدْعَين	١١ــ المريسية	

هذه القرى والمزارع التي حولها قديمة ويسكنها من عشائر الحمدة قديماً وحديثاً: ذوو هندي، ذوو معروف، المهادية، القواسم، ذوو بُريك، بعض عشيرة العرافية، ذوو مسلم.

وفي وادي القيم قرى أخرى سكانها من غير الحمدة، وهي حديثة الأسماء: الغنامين (؟)، البخاتين (؟)، سور النوامي (؟)، الحلقة وغيرها.

الحوادث والحروب التي حصلت على الحمدة:

يتناقل الحمدة ثلاثة أخبار متواترة يرويها الأبناء عن الآباء والآباء عن الجدود: —

الخبر الأول: أن جد أبي نمي الأول حارب الحمدة وأضاع حججهم (وثائق أملاكهم).

الخبر الثاني: أن أبي نمي الأول حارب الحمدة وشتتهم.

الخبر الثالث: أن الشريف زيد بن نمي ــ حسب قولهم ــ حارب الحمدة وكانوا في حصنهم الموجود في الـمُليساء، وبارودهم مجمع فيه فوضع الشريف عليه ناراً فاحترق البارود وهدم الحصن واحترق جميع من في الحصن من الحمدة وقتل من الحمدة من غير الموجودين في الحصن واستسلم الباقون.

هذه الأخبار الثلاثة متواترة عندهم.

وقد بحثت عن هذه الأخبار الثلاثة في ما لديَّ من الكتب التاريخية المتعلقة بأخبار مكة المكرمة وأمرائها.

الخبر الأول: وجدت أن الشريف قتادة بن ادريس قتل مشايخ ثقيف بدار ابن يسار، بقرية لقيم، فتحصنت ثقيف في حصونهم ولم يقدر عليهم، فطلب منهم الخروج إليه ويؤَمنهم وحلف لهم فتشاوروا فيها بينهم وقرروا الخروج إليه، فخرجوا إليه فقتلهم وجعل على بلادهم نواباً وعضدهم بعبيد من مواليه فلم يبق لأهل الطائف كلمة ولا حرمة.

وذكر الـمُيُورقي أنَّ في هذه الوقعة فُقِد كتاب رسول الله ﷺ لثقيف، وكان عند حمدان الثقفي العوفي، لكونه شيخ قبيلته، وقتل في هذه الوقعة قاضي الطائف عيسى وقيل يحيى بن عيسى، وكانت هذه الوقعة سنة ٦١٣هـ.

الخبر الثاني: لم أجد في كتب التاريخ التي اطلعت عليها أن الشريف أبا نمي الأول له حرب مفصلة أخبارها سوى خبر واحد غير مفصل وهو أن الشريف أبا نمي الأول ذهب إلى الطائف لمحاربة ثقيف، ذكر ذلك صاحب «إتحاف فضلاء الزمن» ــ مخطوط ــ وذكر الحرب مفصلة الشيخ محمد سعيد كمال ونشره في مجلة «العرب» ــ س ٢ ص ٣٨٨ وما بعدها ــ وذهبت إلى الشيخ محمد سعيد كمال وسألته عن حرب أبي نمي الأول لقبيلة الحمدة أجاب قائلاً: إنَّ هذا الخبر أخذه من شيخ قبيلة الحمدة المرحوم محمد سعيد سعد الحميدي.

الخبر الثالث: حرب الشريف زيد بن محسن لقبيلة الحمدة ومحاصرتهم في حصنهم، واحتراق البارود، وقتل الشريف صناديدهم، وذلك في حدود سنة ١٠٤٠هـ، وذكر ذلك صاحب كتاب «اهداء اللطائف».

ومن الحوادث التي مرت عليهم أن الشريف حسن بن عجلان شريف مكة

كان يأخذ القطعة المقررة على الحمدة وعلى بني موسى أهل لِيَّة وعلى آل بني النمر سنة ٨٠١هـ وما بعدها، وكان عسكر الشريف حسن يخربون مزارعهم في لقيم والعقيق ووج من الطائف، إذَا صَعُب على قبيلة الحمدة تسليم القطعة المقررة وهدم حصنهم الذي في جبل السُّكَارَى في قرية السلامة، وهذه الأخبار مذكورة في كتاب «العقد الثمين» لتقي الدين الفاسي ــ ج ٤ ص ٩٤، ١٢٩، ١٣٢ ـ وفي كتاب «إتحاف الورى» ــ ج ٣ ص ٤١٣، ٤١٤، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٦٣، ٥٦٤، ــ وذكر العصامي في كتابه «سمط النجوم العوالي» عن الحمدة: أنه جرت مناوشات بينهم وبين قبيلة قريش وبينهم وبين قبيل النفعة.

وذكرهم صاحب «إهداء اللطائف» في قرية العقيق وقرية لقيم وحرب زيد بن محسن لهم، وذكرهم العبيدي في كتابه «الطائف وقبيلة ثقيف».

ولا يزال الحصن الذي احترق فيه البارود موجوداً في قرية المليساء في جبل شمالي مستشفى الأمير منصور، وهذا الجبل حجر واحد، وشكله نصف كروي ويصعب الارتقاء إليه، والحمدة نقروا فيه طريقان أحدهما للصعود، والآخر للنزول، ولازال النقر وآثار الحصن وآثار بركة موجودة إلى الآن، ويحتمل أن حرب الشريف قتادة جد اشراف مكة لثقيف كانت في هذا الجبل.

وتوجد آثار حصن وقرية في أعلى جبل المرقب في وادي القيم، ويوجد لهم حصن مبني على جبل صغير في وسط قرية المليساء والذي بناه عائش بن زائر الذي كان شيخ القبيلة في ذلك الوقت، والحصن لا يزال موجوداً إلى الآن، ذكر حماد السالمي تحقيقاً عن وادي القيم في العدد ٤٦٨٤ في جريدة الجزيرة تاريخ ٩ ذي القعدة ١٤٠٥ ــ : أن في قرية المليساء قلعة تعرف بقلعة آل عبد السلام.

ولكن حماد السالمي أخطأ هو أو الذي أدلى بالمعلومات ليس لديه اطلاع أو

معرفة كاملة عن قبيلة الحمدة وقراها وحصونها، والذي أعرفه ويعرفه غيري من الحمدة أن القلعة أو الحصن في وسط القرية وليس عند آل عبد السلام، والذي بناه عائش كما ذكرت، أما اسم الشخص الذي قتل في زمن قتادة وفقد كتاب الرسول ـ ﷺ بعد قتله فهو حمدان الثقفي العوفي كما في «العقد الثمين» ـ ج ٧ ص ٤٦ ـ وكما ورد اسم حمدان الثقفي ـ بالدال ـ أيضاً في «إتحاف الورى» ـ ج ٣ ص ٢٢ ـ وذكر في مجلة «العرب» ـ س ٢ ص ٤٠٠ ـ والمقال للشيخ محمد سعيد كمال أن الشخص اسمه حمدان الثقفي العوفي ـ بالدال ـ أما من ذكره بحمران الثقفي فقد وهم أو أخطأ لأن اسم حمدان كثيراً ما يسمى به سكان وادي القيم، بخلاف حمران ـ بالراء ـ فلم أسمع أن شخصاً اسمه حمران والمعتقد أن اسم شيخ ثقيف الذي قتل وفقد كتاب الرسول ـ ﷺ ـ بعد قتله هو حمدان وليس حمران ـ والله أعلم.

بعض قضاة الطائف من سنة ٦٠٠ إلى نهاية ٩٠٠ هـ :

١ ـ القاضي عيسى الذي قتل في نوبة حرب الشريف قتادة لثقيف سنة ٦١٣هـ .

٢ ـ يحيى بن عيسى.

٣ ـ يحيى بن محمد بن أحمد بن فتوح الانصاري الأندلسي أصلاً اللُّقَيْمي موطناً ذكره صاحب «العقد الثمين» ـ ج ٧ ص ٤٤٦ ـ وقبره معروف أو قبر ابنه يعقوب بمقبرة القيم.

٤ ـ يعقوب بن يحيي بن محمد الأنصاري الأندلسي ذكر في «العقد الثمين» ـ ج ٧ ص ٤٧٨.

٥ ـ محمد بن عيسى بن محمد بن عبدالله اليماني الأصل السلامي ـ نسبة لقرية السلامة بالطائف ـ ذكره صاحب «العقد» ٦/٤٦٤

٦ ـ عيسى بن محمد بن عبدالله المليساوي نسبة لقرية المليساء بالطائف مات بالسلامة من قرى الطائف سنة ٨٤٠ ذكره السخاوي في «الضوء اللامع» ـــ

ما اتفق لفظه وافترق مسماه

من أسماء المواضع

للإمام محمد بن موسى الحازمي (٥٤٨/٥٨٤هـ)

(٣٧)

٢١٢ ـ بابُ جَنَفَاءَ وَحَيْفَاءَ(١)

أَمَّا الأَوَّلُ: بِفَتْحِ الجِيْمِ والنُّونِ وَبِالْمَدِّ: ـ مِنْ مِيَاهِ بَنِي فَزَارَة، قَالَ إسماعيلُ بنُ إبراهيمَ، ومُحَمَّدُ بنُ فُلَيْحٍ جَمِيعاً عن مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ عن ابنِ شِهَابٍ قال: كانَتْ بَنُو فَزَارَة مِمَّنْ قَدِمَ عَلَى أَهْلِ خَيْبَرَ لِيُعِينُوهُمْ، فَرَاسَلَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ لاَ يُعِينُوهُمْ، وَسَأَلَهُمْ أَنْ يَخْرُجُوْا عَنْهُمْ ولَكُمْ مِنْ خَيْبَرَ كَذَا وَكَذَا. فَأَبَوْا فَلَمَّا فَتَحَ الله خَيْبَرَ أَتَاهُ مَنْ كَانَ هُنَاكَ مِنْ بَنِي فَزَارَةَ، فَقَالُوا: حَظَّنَا وَالَّذِي وَعَدْتَّنَا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «حَظُّكُمْ أَوْ قَالَ: لَكُمْ ذُو الرُّقَيْبَةِ» لِجَبَلٍ مِنْ جِبَالِ خَيْبَرَ. فَقَالُوا إِذَنْ نُقَاتِلكَ، فَقَالَ: مَوْعِدُكُمْ جَنَفَاءُ فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ خَرَجُوا

← ج ٥ ص ٦٠.

٧ ـ عبدالله بن محمد بن عيسى بن محمد بن عبدالله الطائفي قاضي الطائف مات بالسلامة من قرى الطائف سنة ٨٤٠ ذكره السخاوي في «الضوء اللامع» ـ ج ٥ ص ٦٠.

٨ ـ عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن محمد السلامي توفي بقرية السلامة سنة ٨٤٣ ـ «الضوء اللامع» ج ٤ ص ١٤٣.

الطائف/مكتبة المؤيد   محمد بن سعد بن أحمد الحميدي

هَارِبِينَ: ... وفي حديث ابن فُلَيْحٍ: جَنَفَاءُ: مَاءٌ مِنْ مِيَاهِ بَنِي فَزَارَةَ، وَقَالَ السِّيْرَافِي: جَنَفَاءُ أَرْضٌ: قال الشَّاعِرُ:

رَحَلْتُ إِلَيْكَ مِنْ جَنَفَاءَ حَتَّى أَنَخْتُ فِنَاءَ بَيْتِكَ بِالْمَطَالِي[٢]

وَأَمَّا الثَّانِي: ــ بَعْدَ الحَاءِ الْمُهْمِلَةِ المفْتُوحَةِ يَاءٌ تَحْتَهَا [نُقْطَتَانِ] سَاكِنَةٌ:ــ مَوْضِعٌ بِالْمَدِينَةِ، مِنْهُ أَجْرَى النَّبِيُّ ﷺ الْخَيْلَ فِي الْمُسَابَقَةِ، وَيُقَالُ فِيهِ الْحَفْيَاء، وَهُوَ الأَشْهَرُ، وَيَأْتِي ذِكْرُهُ[٣].

٢١٣ ــ بَابُ: جِنَابٍ وجباب وَحِثَاثٍ[٤].

أَمَّا الأَوَّلُ: ــ بَعْدَ الجِيْمِ المَكْسُورَةِ نُونٌ وآخرهُ بَاءٌ مُوَحَّدَةٌ ــ: مِنْ بِلَادِ فَزَارَةَ، بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَفَيْدَ: قال سُحَيْمٌ:

يُـذَكِّـرُنِي قَيْسـاً أُمُـورٌ كَثِيـرَةٌ وَمَا اللَّيْلُ مَا لَمْ أَلْقَ قَيْساً بِنَائِمِ
تَحَمَّلَ مِنْ وَادِي الْجِنَابِ فَنَاشَنِي بِأَجْمَادِ جَوٍّ مِنْ وَرَآءِ الْخَضَارِمِ

قَالَ ابنُ حَبِيْبَ: الجِنَابُ مِنْ بِلَادِ فَزَارَةَ، والْخَضَارِمُ بِالْيَمَامَةِ. وقالَ الْوَاقِدِي: الْجِنَابُ بِعِرَاضِ خَيْبَرَ وَوَادِي الْقُرَى[٥].

وأَمَّا الثَّانِي: ــ بَعْدَ الجِيْمِ بَاءٌ مُوَحَّدَةٌ والباقِي نَحْو الأَوَّلِ ــ: مَوْضِعٌ فِي دِيَارِ أَوْدِ بْنِ صَعْبِ بْنِ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ، وَكَانَتْ فِيهِ وَقْعَةٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الأَزْدِ[٦].

وأَمَّا الثَّالِث: أَوَّلُهُ حَاءٌ مُهْمَلَةٌ مَكْسُورَةٌ بَعْدَهَا ثَاءٌ مُثَلَّثَةٌ وَفِي آخِرِهِ مِثْلُهاــ: مِنْ أَعْرَاضِ الْمَدِينَةِ[٧].

الهوامش:

(١) لم أرَ في كتاب نَصْرٍ باباً ذكر فيه هذين الاسمين، وقد أورد في المفردات ما يشابهها.
(٢) إسماعيل بن إبراهيم هو ابن عُقْبَةَ، يروي عن عَمِّهِ موسى بن عقبة، وغيره، ممن روى عنهم البخاري والترمذي والنسائي، توفي سنة ١٦٩ ــ «تهذيب التهذيب»

ومحمد بن فُلَيح هو ابن سليمان المكي، روى له البخاري والنسائي وابن ماجه، وتوفي سنة ١٩٧ ـ على ما في كتاب «تهذيب الكمال» لِلْمِزّي.

وموسى بن عقبة ـ من أوائل من أَلَّف في المغازي، قال الإمام مالك: عليكم بمغازي مُوسى فإنه ثِقَةٌ، وقال يحيى بن معين: كتاب موسى بن عُقبة من أصَحِّ هذه الكتب، توفي موسى سنة ١٤١ ـ «تهذيب التهذيب».

وابن شهاب هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبدالله بن شهاب الزُّهري القرشي، أحد الأئمة الأعلام، توفي سنة ١٢٤ عن اثنتين وسبعين سنة.

وبنو فزارة من غَطَفَان، وكانوا مُظَاهِرين ليهود خَيْبَرَ.

وذُو الرُّقَيبة: جبل في خَيْبَرَ يشاهد من مدينتها رَأْيَ العَيْنِ، ولكنه يعرف الآن باسم (أَبُو رَقبة) في الناحية الشمالية الغربية من البلدة.

وَجَنَفَاءُ: كانت من أشهر مياه بني فزارة ثم أَصْبَحَتْ بلدةً، وقد درست الآن، ونشأ مكانها هجرة تعرف باسم الشملي، وتقع في ضِغْنِ حَرَّةِ اثنان (حرة ليلى) الشرقي ـ أي سفح تلك الحَرَّةِ، بقرب خط الطول: ١٤َ/٤٠° وخط العرض: ٥٦َ/٢٦°.

والخبر بنصِّه أورده ياقوت في «معجم البلدان» في رسم جنفاء.

والسِّيرافي هو يوسف بن أبي سعيد السِّيرافي (٣٣٠/٣٨٥هـ) وورد قوله في كتابه «شرح أبيات سِيبَوَيه» ـ ج٢/٤١٢.

والبيت الذي أورده السِّيرافي لِزَبَّانَ بن سَيَّارِ الفَزَارِي من شعر له قِصَّةٌ أوردها أبو محمد الغُنْدُجَاني في تَعَقُّبِهِ على ما أورده السِّيرافي، انظر كتاب «فرحة الأديب» ص ٥٤ ـ والمِطَالِي ـ جَمْعُ مَطْلَى: أرض واسعة في بلاد بني أبي بَكْرِ بن كلاب، في الجنوب الغربي من نَجْدٍ، في شرقي ظَلْم، وجنوب مَنْهل سَجَا، وتعرف الآن باسْم العِبْلَة، ولزيادة الإيضاح يحسن الاطلاع على «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية» قسم (عالية نجد) رسم العِبْلَة.

وفي كتاب نَصْرٍ ـ في مفردات حرف الجيم ـ: الجَنَفَاءُ: موضع يقال له ضِلَعُ الجُنَفَاء بين الرَّبَذَةِ وضَرِيَّةَ من ديار محارب، على جادَّة اليمامة إلى المدينة. وأيضاً: بين خَيْبَرَ وفَيْدَ، وقيل: بِضَمِّ الجِيْمِ. انتهى. وعلى هذا فضِلَعُ الجنفاء موضع آخر، وهذا غرب حِمَى ضَرِيَّة ـ أما الذي بين خَيْبَرَ وفيد فهو الذي ذكر الحازمي، وقد أورد ياقوت كلام الحازمي وكلام نصر غير منسوب إليهما.

(٣) أورد الحازمي في باب حَفْيَاءَ وحَفْنَاءَ خبر سباق الخَيْل من الْحُفْيَاء ـ وسيأتي ونقله عنه ياقوت وأضاف: ورواه غيرهُ بالفتح والقصْر. وقال البخاريُّ: قال سفيان: بين الحَيْفا إلى الثَّنِيَّةِ خمسة أميال أو ستة، وقال ابنُ عُقبة: ستة أو سبعة، وقد ضبطه بعضهم بالضم والقصر، وهو خطأ ـ كذا قال عياض ـ انتهى. وأعاد ياقوت الاسم في رسم حَيْفَاءَ ـ كأنه تأنيث، والحيف الذي يعبر به عن الجور، وهو موضع بالمدينة منه أجرى النبي ﷺ الخيل في المسابقة، ويقال فيه الحفياء (في المطبوع الحيفاء خطأ) وقد ذُكِر فيما مَرَّ: وحَيْفَا حِصْنٌ على ساحل بحر الشام قُرْب يافا ـ إلى آخر ما ذكر عن حيفا البلدة المعروفة في فلسطين ـ وأورد البكريُّ في «معجم ما استعجم» ـ رسم الحفياء ـ حديث السِّباق بهذا النص: روى مالكٌ عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ سابَقَ بين الخيل التي أُضمرت من الحفياء، وكان أمَدُهَا ثَنِيَّةَ الوداع، وسابق بين الخيل التي لم تضمر من الثَّنِيَّةِ إلى مسجد بني زُرَيق. وأضاف وبين

الحفياء وثنية الوداع ستة أميال.

وأورد صاحب «وفاء الوفاء» ـ ١١٩٢ ـ كلام ياقوت في الحفياء فيه زيادة عما في «معجم البلدان» المطبوع: حَفْياء: موضع قرب المدينة، منه أُجريت الخيلُ المُضَمَّرة إلى ثنية الوداع قاله الحازمي، ورواه غيره بالقصر. فالثنية فيما نقل السمهودي ثنية الوداع، وهي من المواضع المعروفة في المدينة. ونقل عن المجد صاحب «المغانم المطابة» في تعريف الحفياء: وهي على مقربة من البِرْكة فيما يغلب على الظنّ ثم أضاف: قُلْتُ هي شاميّ البركة، مغيض العين، لأن الهجريّ قال بعد ذكر مجتمع السيول بِزُغابةَ: ثم يفضي إلى سافلة المدينة وعين الصُّورين بالغابة وبها الحيفاء صدقة الحسن بن زيد بن علي، وعبارة الزبير: فينحدر على عين أبي زياد والصُّورين في أدنى الغابة. فالحفياء التي عبَّر عنها الهجريُّ بالحيفاء بأدنى الغابة، ولهذا جاء في حديث السباق: من الغابة إلى موضع كذا. انتهى كلام السمهودي. وقال في رسم حيفاء: حَيفاءُ لغة في حَفياء ـ كما تقدم فيها ـ على أن البكريَّ في «معجم ما استعجم» في الكلام على النقيع. أورد كلاماً طويلاً في تعريف حمى النقيع وما حوله يظهر أنه من كلام الهجريِّ ـ على ما يفهم مما نقله السمهودي عن الهجري في الكلام على الأحماء، ومما جاء فيما أورده البكري ـ ص ١٣٣٣ ـ في الكلام على سَيْل أودية المدينة بعد اجتماعها في إضم ـ: ثم يفضي ذلك إلى سافلة المدينة، الغابة وعين الصُّوَرَيْن، وبالغابة أموال كثيرة . . وبها الحفياء وغيرها. انتهى فسمَّاها الحفياء لا الحيفاء التي أراها تحريفاً.

أما ثنية الوداع فقد أطال السمهودي الكلام عليها، وذكر الاختلاف في موقعها، ومما قال: وكل هذه الروايات متظاهرة على أن هذه الثنية هي المعروفة بذلك، اليوم في شاميِّ المدينة، بين مسجد الراية الذي على ذباب، ومشهد النفس الزكيَّة، يَمُرُّ فيها المارُّ بين صَدْيَيْن مُرْتَفِعَيْن قرب سَلْعٍ، ومن تأمَّل كلام ابن شبَّة في المنازل وغيرها لم يَرْتَبْ في ذلك، وسوق المدينة كان هناك ـ إلى آخر ما ذكر ـ.

فتلخص مما تقدم أنَّ الحفياء ـ في أدنى الغابة التي لاتزال معروفة، وأن الثنيَّة ـ ثنية الوداع بين مسجد الراية ومشهد النفس الزكية المعروفين الآن داخل المدينة. أما المسافة بين أدنى الغابة وبين الثنية فهي تقارب سبعة أميال.

(٤) في كتاب نصر في باب الجيم: (بابُ الجِبَاب والجُبَابِ والجِنَاب والجِنَاث)

(٥) قال نصْرٌ ـ الجناب ـ: بكسر الجيم تليها نون ـ: من ديار فَزارة بين المدينة وفَيْدَ، وجِنَابُ الحنظل: باليمن. انتهى.

والأقوال الثلاثة التي أوردها الحازمي في تعريف الجِنَاب مَدْلُولُها واحِدٌ.

فهو من بلاد فزارة، واقع في الطريق بين المدينة وفَيْد، لمن يأتي على تَيْمَاء، وهو مُعْتَرِضٌ فيما بين خَيْبَرَ ووادي القرى ـ منطقة العلا الآن.

ويُعرف الجنابُ الآن باسم الجهراء، وقد أوْفَيْتُ الكلام في تحديده في (قسم شمال المملكة) من «المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية».

وسُحَيْمٌ ـ قائلُ البيتين ـ هو ابن وَثِيْلٍ الرِّياحِيُّ اليربوعيُّ التميمي، صاحب البيت المشهور:

أَنَا ابْنُ جَلاَ وَطَلاَّعُ الثَّنَايَا ... مَتَى أَضَعِ العِمَامَةَ تَعْرِفُوني

وهو شاعرٌ مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام. ←

أسرتا النُّقير والأطرم من المشاعيب من سُبيع

بعد إطلاعنا على كتابكم القيم «جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد» لم يرد

← أجماد جو ــ جمعُ جُمُدٍ بضم الجيم والميم وتسكّن ـ المكان المرتفع الغليظ ــ وجَوٌّ هنا هو جَوُّ اليمامة الذي كانت تقع فيه مدينتها، وهو جَوُّ الخضارم، وسط إقليم الخرج، على ما يفهم من نصوص متقدمي العلماء، ثم عرف باسم اليمامَة، ثم الخِضْرِمَة، وهو الجوُّ الواسع الذي تقع قرية اليمامة في شماله الغربي، وقرية السُّلمِيَّة في شماله، وروضة السُّهْبَا شرقه، والسَّيْح ــ بعيونه ومزارعه ــ في جنوبه.

(٦) قال نصر: الجِبَابُ: بكسر الجيم تليها باء موحدة: في ديار أود بن صعب بن سعد العشيرة، وكانت فيه وقعة بينهم وبين الأزد، وأيضاً ماء بين نجد واليمامة، وأما بضم الجيم (الجُبَاب) ذكر أبو النَّدى أنه في بلاد بني سعد. انتهى.

ولم يذكر ياقوت في «المعجم» الجباب، وإنما ذكر الجُبَابات ــ بالضم ــ موضع قريب من ذي قار، كانت به إحدى الوقائع بين بكر بن وائل والفُرْس . . . وقال أبو أحمد: وهو أيضاً يوم الجُبَابَة موضعٌ جُبٌّ في ديار أود بن صَعْب بن سعد العَشِيرة، كانت فيه وقعة بينهم وبين الأزْد. والجُبَابَاتُ أيضاً: ماءٌ بنجد قُرْب اليمامة. ثم قال: الجُبَاب ــ بالضمِّ ــ ذكر أبو النَّدى أنَّه في ديار بني سعد بن زيد مناة بن تميم . .

فهل صواب الاسم الذي أورده نصْر والحازمي الجبابة ــ كما ورد في كلام أبي أحمد العسكري الذي نقله ياقوت، إنَّ الحازمي لم يضبط أول الاسم بالحركة وهي الجيم، ولكنها جاءت في مخطوطة الأصل مكسورة مطابقة لضبط نَصْرٍ وبلاد أود ــ على ما ذكر الهمداني في «صفة جزيرة العرب» ص ١٨١ ــ تقع في الجنوب الغربي من بلاد اليمن، فيما كان يعرف قديماً بِسَرْوِ حِمْيَر، وفي عهدنا الآن يسمَّى بلاد البيضاء، ولم أرَ في كتاب الهمداني ولا في معجم الحجري تحديداً للجباب ولا للجبابة.

(٧) هذا نَصُّ كلام نَصْرٍ في تعريف هذا الموضع، ولم يَزِدْ ياقوت في «معجم البلدان» عليه إلا بقوله: كأنه جمع حثيث، أي سريع. ومع تَقَصِّي السَّمْهودي في ذكر ما يتعلق بالمواضع المدنيَّة فإنه وقف عند حدِّ: جِثَاث ــ بالكسر وثائين مثلثتين ــ: عرضٌ من أعراض المدينة. انتهى فكيف يكون عِرْضاً ويكون مجهول الموقع؟ لا أستبعد أن يكون الاسم تصحيف جِنَاب ــ المتقدم ذكره ــ فهو الذي يصح بأن يوصف بأنه من أعراض المدينة لسعته وشهرته، إذ أعْرَاضُها قراها التي في أوديتها، وحيث الزرع والنخيل.

ذكر أسرة النُّقَير ونُقَير هو لقب لجدنا ابراهيم ابن عبدالله بن إبراهيم الراشد الشخيتي. والشختة من المشاعيب، والمشاعيب من الجرَّاح من بني ثور من سبيع. وللشختة منزلة يقال لها الجادّة في عنيزة. ولجدنا ابراهيم الملقب بـ (نقير) نخيلات وبويت في مدينة عنيزة وأُصيب بصرعٍ، ومزق أوراق ملكيته لنخيلاته وبويته فأخذت منه. . !! فمرض أثر ذلك ونزحَ إلى قصر ابن عُقَيِّل قرب الرس. قاصداً ابنه عبدالله. وتوفي هناك رحمه الله وكان آخر من بقي من أسرتنا في مدينة عنيزة، وكان ذلك أثناء إمارة صالح اليحيا الغانم لمدينة عُنيزة في حدود عام ١٣١٧هـ.

ولابراهيم الملقب بـ (نقير) خمسة أبناء وبنت. وهم:

١ ــ عبدالله بن ابراهيم. سقط في البئر ومات في الحجناوي رحمه الله، وله ولد مات شاباً وبنتان.

٢ ــ سليمان بن ابراهيم توفي في المدينة المنورة رحمه الله حدود ١٣٣٢هـ وابنه الشيخ المعروف عبدالله ابن سليمان ابن نقير رحمه الله. وللشيخ عبدالله ستة أبناء وعدد من الأحفاد والبنات في الرياض وحائل، وسيأتي نبذة عن حياته.

٣ ــ راشد ابن ابراهيم. توفي في عَمَّان رحمه الله عام ١٣٨٩هـ وله ولد مقيم مع أبنائه في جازان.

عبد الرحمن ابن ابراهيم توفي في الرس رحمه الله عام ١٣٨٧هـ وله خمسة أبناء وثلاث بنات وعدد من الأحفاد في الرس والخرج والظهران والطائف وخميس مشيط.

٥ ــ محمد مات صغيراً رحمه الله.

ومن الشُّختة أبناء عم لنا يقال لهم الأطرم. وهم ذرية ابراهيم بن حمد بن ابراهيم الراشد الشخيتي. فقد نزح ابراهيم بن حمد ــ الملقب بـ (الأطرم) ــ من عنيزة إلى الرس قبيل نزوح النُّقَير من عنيزة ثم نزح ابنه سليمان ابن ابراهيم الأطرم من الرس إلى المدينة المنورة ولسليمان الأطرم ثلاثة أبناء وعدد من البنات وهم:

١ ـ عبدالله ابن سليمان مقيم وذريته في المدينة المنورة.

٢ ـ محمد ابن سليمان توفي رحمه الله وله ولد يعمل طياراً ومقيم في جدة.

٣ ـ صالح ابن سليمان مقيم وذريته في المدينة المنورة..

أما آل الأطرم الذين منهم الشيخ صالح بن عبد الرحمن الأطرم فقد أفادني أحد أبناء الشيخ أنهم من الأساعدة من الرُّوَقَة من عتيبة، وهم من أهل الزُّلْفِي.

ومن المشاعيب أيضاً آل نصرالله والجهالة والرشيد المعمر ومن ينحدر منهم وكذلك من المشاعيب آل جارالله وآل نصار في الزبير في العراق.

ومن المشاعيب أسرة كريمة تدعى (الدبة) وهاؤلاء جميعاً من آل علي من ذرية زهري بن جرَّاح الثوري.

وهذه نبذة عن حياة الشيخ عبدالله ابن سليمان ابن نقير رحمه الله.

ولد الشيخ عبدالله في مدينة بريدة عام ١٣٢٦هـ وتوفي والده سليمان في المدينة المنورة وهو في السادسة من عمره، وترعرع في كنف والدته رحمها الله.

أخذ عن الشيخ عبدالله ابن الشيخ محمد بن سليم رحمه الله. ثم أخذ عن الشيخ عمر بن محمد بن سليم رحمه الله. ثم أخذ عن الشيخ عبد العزيز العبادي رحمه الله.

وكان إماماً ومرشداً وعاقداً للأنكحة في كثير من قرى وهجر منطقة حائل. منها العُظَيم والسبعان والنُّعي وفيد والرِّمثية والكهفة والكهيفية والنقرة. ثم استقر في الرياض عام ١٣٧٠هـ وأخذ عن الشيخ محمد بن ابراهيم آل الشيخ رحمه الله. ثم لازم الشيخ عبدالله بن ابراهيم آل الشيخ في مسجد الشيخ صالح آل الشيخ رحمه الله.

وبعد وفاة الشيخ عبدالله بن ابراهيم رحمه الله تولى الإمامة في مسجد الشيخ صالح في الرياض إلى جانب عمله مدرساً للقرآن الكريم لدى الإدارة العامة

للكليات والمعاهد. حتى أقعده المرض وأحيل للتقاعد عام ١٣٨٤هـ وكان رحمه الله صابراً محتسباً شكوراً، إلى أن توفاه الله في مدينة الرياض يوم الأحد الموافق ١٥/٣/١٣٩٤هـ عن عمر يناهز الثامنة والستين عاماً.

وقد ورد ذكره في كتاب «مشاهير علماء نجد» وغيرهم للشيخ عبد الرحمن ابن عبد اللطيف آل الشيخ في طبعتيه الأولى والثانية.

كما ورد ذكره في كتاب «آل سليم وتلامذتهم وعلماء القصيم» للشيخ صالح السليمان العمري في الصفحات التالية من الجزء الأول ص: ١٣٩. ص: ١٨٨.

وهناك أسرتان كريمتان تحملان نفس اسم (النُّقَيْر) لا علاقة لهما بأسرتنا. وإحداهما من الشمال والأخرى من القصيم.

وخلاصة القول أن أسرتي النُّقَير وبني عمهم أبناء سليمان الأطرم سكان المدينة المنورة هم من الشختة من المشاعيب من الجراح من بني ثور من سبيع.

سليمان بن عبدالله بن سليمان النُّقَير

علي بن موسى مؤلف رسالة «وصف المدينة»

يستوضح الأخ الكريم محمد أديب السلاوي من المغرب، ويقيم في الرياض، في كتاب مؤرخ في ٢٤ تشرين الأول ١٩٨٥م عن صلة علي بن موسى مؤلف رسالة في «وصف المدينة» بعائلة ابن موسى المغربية، كما يستوضح عن العشيرة العربية التي ينتسب إليها المذكور وعن معلومات أخرى تتعلق به.

والواقع أن المعلومات المتعلقة بحياة علي بن موسى مؤلف الرسالة التي أشار إليها الأخ الكريم ونشرها صاحب «العرب» مع رسائل أخرى تحت عنوان «رسائل في تاريخ المدينة» ــ أنَّ تلك المعلومات قليلة جدًّا، وكل ما عرفته منها أوضحته في مقدمة تلك الرسائل، كما أوردت نص كتاب أجابني به مؤرخ المدينة وعالمها الأستاذ عبيد مدني ــ رحمه الله ــ عن علي بن موسى.

ومع أن المؤلف المذكور كان من ذوي الأملاك المشهورين في المدينة ــ كما يتضح من رسالته ــ إلا أن المعلومات المتعلقة به وبأسرته هي من القلة كما ذكرنا.

شهاب الدين عمر الجازاني
كاتب مغمور من جازان

نشرت جريدة «الشرق الأوسط» في يوم الثلاثاء [شهر ذي الحجة سنة ١٤٠٥هـ ص ١٠] حديثاً لرئيس لجنة العلماء بجبهة تحرير (صومال أبو السلطنة العفرية قديماً، وهي منطقة مسلمة متاخمة لأثيوبيا، جاء في ذلك الحديث بأن تلك الامبراطورية الاسلامية اجتذبت اهتمام المؤرخين مثل الرحَّالة ابن بطوطة، والدكتور فتحي الغيث، والأمير شكيب أرسلان والكاتب عمر شهاب الدين الجيزاني الذي رافق الإمام أحمد ابراهيم في غزواته وفتوحاته في منتصف القرن السادس عشر الميلادي. انتهى.

فمن هو هذا الكاتب الجيزاني؟ ضمد: يحيي خبيري

«العرب»:

إلى مؤرخ المخلاف السليماني الأستاذ محمد بن أحمد العقيلي تتوجه «العرب» بالسؤال، مقروناً بالإجلال والتقدير.

الحمادا والمريزيق: من بني وائل

كتب الأخ حمود بن عبد العزيز القُصَيِّر إلى مجلة «العرب» بانه لاحظ بعض الأخطاء في كتاب «جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد» حيث ورد ذكر أسرتي الحمادا والمريزيق في أربعين موضعاً، وقدم لكلامه في بيان تلك الأخطاء: بأنه في منتصف القرن الحادي عشر وبعد ما دب الخلاف بين بني وائل الموجودين في التُّويم وحَرْمة من منطقة سُدَير تفرق كثير من فروع هذه القبيلة، فارتحل الهزازنة إلى الحَرِيق، والمبارك والراشد إلى حُرَيْمِلاَء، وارتحل الحُمَيْدي ــ جد الحَمَادا ــ وابن عمه مريزيق إلى القصيم ــ ونسب الحميدي هو الحميدي بن حمد بن حملي

بن الحميدي بن حسن بن صامل بن مرشان بن حسن بن رباع من الحسني (الحسنة) من الرباع من السلقا من العمارات من بِشْر من قبيلة عنزة ـ فاشترى الحُميدي الشُّقَّة التي تبعد عن مدينة بريدة بحوالي ١٥ كيلاً. قال: اشتراها بشِقٍّ بيت من الشعر من امرأة كانت هناك، وعَمَرَها.

وأبناؤه هم:

١ ـ محمـد.
٢ ـ سالم.
٣ ـ عبدالله.
٤ ـ علـي
٥ ـ سليمان.

وتفرع من هاؤلاء نحو ٢٥ أسرة:

١ ـ محمد: ولا ينتسب إليه سوى عائلة القُصَيِّر (القصارى) الذين منهم العسَّاف أبناء عساف بن عبدالله القصير، وهاؤلاء موجودون في السماوة في عَيْن صَيْد، التي يملكونها ـ في العراق.

٢ ـ سالم: وينتسب إليه من الأسر: الخضيري، والشويهي، والجوعي، والمديهش، والصبحاوي، والحمودي، والفهدي، والطعيسان ـ لا يوجد من الطعيسان سوى رجل واحد هو محمد بن ابراهيم الطعيسان في بغداد ـ ويوجد من عائلة المديهش من هو مقيم في العراق وهو تركي بن عبد العزيز المديهش وأولاده.

٣ ـ عبدالله: وينتسب إليه ست أسر: الرَّشيد، والكُلَيَّة، والبعاما، والسعود، والغازي والعَقيل ـ ويعرف العقيل هاؤلاء بالرَّشيد لتميزهم عن العقيل أبناء عمهم علي ـ.

ومن الكُلَيَّة من يقيم في المنصورة في مصر.

٤ ـ علي: وينتسب إليه خمس أسر هي: (١) الخويلدي (٢) العصالا

(٣) والرعوجي (٤) الفايزي (٥) العقيل.

٥ ــ سليمان: وينتسب إليه خمس أسر: (١) الفراج ــ ومنهم البيداء والعصيص ــ (٢) السديس (٣) الجفير (٤) الحـواس (وهم الصعب) (٥) الحظيف.

أما مريزيق ابن عم الحميدي فتنتسب إليه ثمان أسر:

(١) الروضان (٢) السعودي (٣) الجريش (٤) الزمعان (الزميع) (٥) الأرباع (الربعي) (٦) السحيمان (٧) البراك (ومن عائلة البراك من يقيم في بلبيس والقاهرة في جمهورية مصر).

[ولم يذكر الأسرة الثامنة]

وها هو بيان ما حاول الأخ تصحيحه:

١ ــ الأرباع: ص ٢٥ و٣٠٠: أسقط من مريزيق عائلة الروضان.

٢ ــ الحظيفي: ص ١٦٣: يقول الصواب: الحظيف.

٣ ــ الحمود ــ العصالا: ص ١٨٣: قال: ليس لقب العائلة الحمود العصالا والصحيح الحمودي.

٤ ــ الحوَّاس: ص ١٩٩: من أبناء سليمان وهم الصعب.

٥ ــ الخضير: ص ٢٢٨: الصواب: الخضيري.

٦ ــ الخنين ــ الخنانا ــ الخوالد: ص ٣٣٨: وهذه الأسرة لا نعلم عنها شيئاً.

٧ ــ الرشيد: ص ٣١٤ و٧٢٢: ورد القحفان ــ انظر الرشيد ــ كلمة القحفان ليست اسماً لهم بل لقب ينبزون به ولا يعترفون به.

٨ ــ الرشيد: ص ٣١٦: (العقيل ويسمون العقيل الرشيد لتميزهم عن أبناء عمهم)

■ جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد:

كتاب «جامع الأصول» تأليف المبارك بن محمد بن الأثير الجزري المتوفي سنة ٦٠٦هـ وكتاب «مجمع الزوائد» لعلي بن أبي بكر الهيثمي المتوفى سنة ٨٠٧هـ

---

٩ ـ الروضان: ص ٣٢٦: ورد في الكتاب أنهم من الحماداء، والصحيح أنهم من المريزيق.

١٠ ـ الشايع: ص ٤٣٨: الصواب: الشوايع أو: الشوايعة.

١١ ـ الطعيسان: ص ٥١٤: لا يوجد من هذه الأسرة سوى رجل واحد وأولاده، وهم محمد بن ابراهيم الطعيسان في بغداد.

١٢ ـ العسَّاف: ص ٥٩٤: هذه الأسرة في عَين صَيْدٍ في السماوة من العراق، وهم منسوبون إلى عساف بن عبدالله القُصَيِّر، من أسرة القصارا.

١٣ ـ العصوص: ص ٥٥٧: الصواب: العصيص وهم من الفراج، ولا يوجد منهم سوى نفر قليل ولا يرغبون في هذا الأسم بل يسمون العلي من الفراج.

١٤ ـ الفهد: ص ٧٠٧: الصواب: الفهدي.

١٥ ـ القصارا: ص ٧٢٦: ذكر أنهم من ذرية محمد بن حمد، والصحيح أنهم من ذرية محمد بن الحميدي بن حمد.

١٦ ـ الكُلَيَّة: ص ٧٤١: منهم من يقيم في المنصورة من بلاد مصر.

١٧ ـ المديهش: ص ٨٠١: منهم من يقيم في العراق وهو تركي بن عبد العزيز المديهش وأبناؤه.

يعتبران من أوسع كتب الحديث النبوي الشريف، وأشملها، وقد قام الإمام محمد بن محمد بن سليمان الروداني المغربي ثم المكي المتوفي في دمشق سنة ١٠٩٤هـ بجمع الكتابين في كتاب واحد هو «جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد» يحوي أحاديث أربعة عشر كتاباً من كتب السنة هي: صحيحاً البخاري ومسلم وسنن الترمذي والنسائي وأبي داود وابن ماجة، والموطأ لمالك، والمسانيد لأحمد وأبي يعلى والدارمي وأبي بكر البزار، ومعاجم الطبراني الثلاثة.

وقد رتب الكتاب على أبواب الفقه، فبدأ بكتاب الإيمان ثم الاعتصام بالكتاب والسنة ثم كتاب العلم فكتاب الطهارة، واستمر بذكر الصلاة فالزكاة فالصوم فالحج إلى آخر أبواب الفقه، ثم الخلافة والإمارة فالجهاد فالسِّيروالمغازي، فكتاب التفسير فتعبير الرؤيا فالطب فكتاب الآداب فالفضائل فالقصص فالأذكار والأدعية فالتوبة فكتاب القيامة وما يتعلق بها.

ووقع الكتاب في مجلدين (٥٠٣) + (٤٩٦) = ٩٩٩ صفحة كبيرة.

وقد قدم الكتاب الأستاذ الجليل إبراهيم أمين فودة ـ رئيس نادي أم القرى الأدبي ـ فأوضح في المقدمة أن هذا الكتاب يعتبر الحلقة الأولى من سلسلة كتب مختارة نحو المئة ستنتشر باسم (مكتبة الجامعة) وأشار في المقدمة إلى أنَّ عدداً من الإخوان ـ سمّاهم ـ أسهموا بجمع مبالغ من المال بلغت خمس مئة ألف ريال للإنفاق على نشر تلك الكتب التي ستباع بأقل الأثمان، ويقوم الأستاذ ابراهيم باختيارها والإشراف على نشرها.

والحق يقال: إنَّ هذا العمل لا تقتصر أهميته وفائدته على النشر فحسب، بل لعل أهم من ذالك اختيار الكتب الصالحة للنشر، ولعل في البدء بنشر هذا الكتاب القيم الحاوي لجل ما في كتب السنة المطهرة من أقوال الرسول ﷺ وأفعاله ما يقوِّي الأمل بأن تكون المنشورات الأخرى على غرار هذا الكتاب من حيث القيمة العلمية المعنوية، في حسن الاختيار.

أما الملاحظات على طريقة نشر ذلك الكتاب فهي من الأمور التي لا أثر لها

بالنسبة لما لهذا المشروع من آثار نافعة متوخاة متى حقق الله إكماله.

■ **معجم المطبوعات العربية ـ المملكة العربية السعودية:**

تحدثت العرب ـ س ٢٠ ص ٧١٧ ـ عن صدور الجزء الأول من هذا الكتاب القيم، وسرَّ صاحبها بتلقي الجزء الثاني منه بعد كتابة ما تقدم، ومجال القول في هذا الكتاب ذو سعةٍ، إلا القراء وقد وقع بين أيديهم سيجدون فيه ما يغني عن الحديث عنه، وهذا الجزء يقع في ٧٤٠ صفحة ويحوي من الأسماء من (عبد القادر) إلى آخر الحروف (يوسف الشيخ يعقوب)، ويحوي فيما يحوي تفصيلات وافية عما قامت الجهات الرسمية في الدولة من وزارات وإدارات وغيرها من أعمال في ميدان النشر، وفيه لمحات عن أعمال المطابع في هذا السبيل وبعض المؤسسات والنوادي.

ومجمل القول أن كتاب «معجم المطبوعات العربية ـ المملكة العربية السعودية» لأستاذنا المحقق الدكتور علي جواد الطاهر يعتبر من أوفى المراجع ـ بل هو أوفاها حسب علمنا ـ في دراسة جميع جوانب الثقافة في هذه البلاد في خلال المدة التي خصص لها، ولإبراز آثار أدباء البلاد وعلمائه في خلالها أي منذ قيام الدولة السعودية الكريمة في دورها الأخير إلى سنة ١٣٩٠ (١٩٧٠م).

وقد دعى المؤلف في خاتمة كتابه وأوصى بأن لا يقف المعجم عند الحد الزمني حيث وقف، وهي وصية جديرة بأن يتلقاها الباحثون من أدبائنا بالاستجابة والقبول.

وقد علمت «العرب» بأن الأستاذ الدكتور علي جواد الطاهر قد يعمل فهارس مفصلة لما يحويه هذا الكتاب من أسماء الاعلام وأسماء الكتب وغيرها.

كما سيلحق بتلك الفهارس بياناً يحوي استدراكات وتصحيحات بما ورد فيه، مما يحتاج إلى استدراك أو تصحيح، ولهذا تأمل «العرب» بأن يُفضل القراء بإبداء ملاحظاتهم حول ذلك الكتاب وفي هذا خدمة لهذا الأثر الجليل الذي صرف أستاذنا الطاهر في سبيل تقديمه للقراء من الجهد ما لا يدركه إلا من عانى مثل ما

عانى، ثم نظر إلى أثر هذه المعاناة نظرة المقدر المنصف.

■ مجمل اللغة:

ونشر معهد المخطوطات العربية كتاب «مُجْمَل اللغة» تأليف أحمد بن فارس الرازي المتوفي سنة ٣٩٥ وهو من أهم المصادر اللغوية، ولمؤلفه ابن فارس لدى اللغويين منزلة عالية، وقد قام بتحقيق الكتاب الشيخ هادي حسن حمودي، أستاذ فقه اللغة بجامعة وهران في الجزائر، ووضع له مقدمة ضافية تبلغ ١٣٨ من الصفحات، تحدث فيها بإسهاب عن ترجمة المؤلف وعن منزلته في اللغة، ووصف كتابه وصفاً وافياً، وذكر المخطوطات التي عول عليها في التحقيق وأضاف إلى ذلك ما ازدانت به صفحات أجزاء الكتاب الخمسة التي شملت محتويات جميع الكتاب.

فالأول: من حرف الألف إلى حرف الجيم في ٤٩٢ صفحة.

والثاني: من حرف الحاء إلى آخر حرف الراء في ٤٨٨ صفحة.

والثالث: من حرف الزاي إلى حرف العين في ٥١٤ من الصفحات.

والرابع: من حرف الغين إلى حرف الياء في ٥٧٦ صفحة.

أما الجزء الخامس: فيحوي الفهارس المفصلة للآيات القرآنية وللحديث النبوي، وللشواهد الشعرية، وللامثال، وللأعلام والأمكنة والبقاع، ثم المصادر والمراجع، ويقع هذا الجزء في ٢٤٢ صفحة.

وقد طبع الكتاب طباعة جيدة من حيث الورق والحرف في مطبعة (الفيصل الإسلامية) في الكويت سنة ١٤٠٥/١٩٨٥.

■ التبصرة في القراءات:

وصدر عن معهد المخطوطات العربية في المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم كتاب «التَّبْصِرَةُ في القراءات» تأليف مكي بن أبي طالب القيسي المتوفي سنة ٤٣٧ وهو من مشاهير علماء القراءات ويعتبر كتابه من المراجع المهمة في موضوعه، وقد حقق الكتاب الدكتور محيي الدين رمضان، وصدر في مجلد بلغت صفحاته ٤٥٤ بطباعة حسنة، ولم يذكر مكان الطبع ولعله في الكويت.

■ سرايا رسول الله ﷺ :

وأفرغ الأستاذ الجليل الباحث المحقق أبو تراب الظاهري قدراً كبيراً من جهده في جمع ما يتعلق بسرايا رسول الله ﷺ من النصوص التاريخية والأخبار، مما يجد فيه الباحثون بغيتهم في معرفة ما يتعلق بتلك السرايا بدون الرجوع إلى مراجعة أمهات كتب السير والتاريخ، كما قال الأستاذ الجليل الشيخ علي الطنطاوي: (لو لم يكن في هذا الكتاب إلا أنه جمع لك بين دَفَّتَيْهِ في مجلداتِ خزانةٍ كاملةٍ فقربه إليك ووضعه بين يديك، لكفاه ... وإنه لجهد كبير). وكنت أتمنى لو أن الأستاذ الجليل أبا تراب وضع للكتاب مصوراً جغرافياً لتحديد مواقع الغزوات، وجلها إن لم يكن كلها مما عرف موضعه في بلادنا لدى المهتمِّين بالدراسات الجغرافية، ولكنه ــ بالنسبة للباحثين من غيرهم ــ بحاجة إلى تحديد وإيضاح، وعلى كل حال فما بذله الأستاذ عمل جليل، جدير بالشكر والتقدير.

وقد صدر هذا الكتاب في ٥٥٠ صفحة بطباعة حسنة بمطابع دار البلاد في جدة، وصدرت طبعته الأولى سنة ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م) وقامت بنشره «تهامة». التي أثرت المكتبة العربية بالكثير الجيِّد من مؤلفات أبناء هذه البلاد.

■ تاريخ مدينة دمشق ــ ترجمة عثمان بن عفان:

وهذا التاريخ المعروف أيضاً باسم «تاريخ ابن عسكر» ليس خاصًّا بمدينة دمشق، ولكنه تاريخ عام شامل لكل من دخل تلك المدينة أو كما قال مؤلفه: (من حلها أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها).

وقد كانت دمشق قاعدة الخلافة كما هو معروف، فقلَّ أن لا تكون مقصداً لجميع المشاهير في ذلك الزمن. وقد صدر من هذا التاريخ مجلدات لم يراع في نشرها ترتيب مؤلفها، وكان من آخر ما صدر بعد المجلد الخاص بالنساء ــ العرب س ١٩ ص ٧١٦ ــ مجلد يحوي ترجمة الخليفة عثمان بن عفان ــ رضي الله عنه ــ بتحقيق الأستاذة سكينة الشهابي.

وهذا الجزء من أشمل المؤلفات في ترجمة الخليفة الراشد عثمان بن عفان ــ رضي الله عنه ــ ويقع مع فهارسه في نحو (٦٣٠) صفحة من القطع الكبير، بدون

المقدمة التي تقع في (٢٤) صفحة.

وجهد المحققة الفاضلة يبرز في كل صفحة من صفحات الكتاب، وفي فهارسه التي تزداد كمالاً وفائدة لو شملت جميع الأسماء وخُصِّص فيها مكان لأسماء المواضع، ولكن المحققة الكريمة لم تفهرس من الأسماء سوى أسماء شيوخ ابن عساكر وأسماء رجال السماع.

وقد صدر الكتاب في سنة ١٤٠٤هـ (١٩٨٤م).

■ ديوان حسين عـــرب:

وصدرت «المجموعة الكاملة» ـ من شعر الشاعر الأستاذ حسين عرب (انظر «العرب» س ٦ ص ٣٦٢) مقدماً بدراسة شاملة للأستاذ الدكتور عبدالله بن محمد الغذَّامي تقع في ٣٥ صفحة. جاء فيها: (حسين عرب يمثل الأديب السعودي بل صفاته المتميزة إيجاباً وسلباً، فهو شاعر متمكن، وأديبٌ صافي الجذور، وقويُّها، وهو رجل ملتزم فنيًّا وخلقيًّا، فقضيته هي (العربية) لغةً وأمة وتراثاً وحضارة، وهي له مستقبل مشرق، ووعد مأمول، مهما تكالبت عليه الكوارث، والمحن، وهذه صفة تكاد تكون عامة لدى شعرائنا، ولكن حسين عرب يمثلها في شعره في ديوانه خير تمثيل، وأصدق تمثل).

وقد رتب الديوان في ثمانية أبواب:

١ ـ إيمان: ويحوي ٧ قصائد تعبر عن تأثر ديني عميق.

٢ ـ أوطان: ويحوي قصيدتين إحداهما تحية للملك عبد العزيز في ذكراه الخمسينية، والثانية في الملك فيصل بمناسبة قدومه من أمريكا وأوربا سنة ١٣٨٧هـ.

ثم قصائد عن جبل النور وأم القرى والمدينة المنورة وعكاظ والرياض.

٣ ـ الوطن العربي: والشعر في هذا القسم يتعلق بالجامعة العربية ـ وسورية ولبنان ـ والجلاء عن مصر والسودان ـ ومصر ـ وقناة السويس.

٤ ـ ثماني قصائد تتعلق بفلسطين.

٥ ـ ثم مجموعة من الأناشيد كنشيد العلم، ونشيد الطيران، ونشيد الملك، ونشيد أمة العرب، إلى آخر الأناشيد وهي اثني عشر.

تلك محتويات الجزء الأول، ويحوي الجزء الثاني:

٦ ـ أشجان: وهي قصائد منوعة منها: قال الصديق، والعام الجديد، وآلام قلب، والعباءة والعقال، والنفس المغتربة، وثورة اليأس، إلى آخر تلك الأشجان.

٧ ـ ألحان: ١٤ قصيدة تعبر عن عواطف مختلفة منها: زفرة البين، والحب الضائع، والقلب المحزون، وظَبية الردف، ولهيب النفس، والشاعر والشاعرة، وغيرها.

٨ ـ ثم ألوان: ١٩ قصيدة في موضوعات مختلفة منها: المعهد العلمي، وأشبال الكنانة، ورهين المحبِسين، والدكتور طه حسين، والشعر الحر، ونداء الروح، وغيرها.

أما طباعة الديوان فحدث عن حسنها ولا حرج، جودة ورق، ووضوح حروف، وأناقة رسوم.

وصدر هذا العام (بدون ذكر تاريخ الطبع، في جزءين بلغت صفحاتها: ٢١٦+٣٠٤=٥٢٠ عن (شركة مكة للطباعة والنشر) في مكة المكرمة.

■ شعر إبراهيم أمين فـــــودة:

ليس الأستاذ إبراهيم أمين فودة بحاجة إلى التعريف، فهو من أبرز أدباء المملكة وشعرائها («العرب» س ٥ ص ٦٧٩) وهورئيس نادي مكة الثقافي الأدبي، رئاسة بانتخابٍ لثلاث دورات متتالية منذ تأسيس النادي حتى الآن.

وقد صدر له:

١ ـ حديث إلى المعلمين.
٢ ـ المهمة الصعبة
٣ ـ الرياضة والهدف
٤ ـ الشاعر المحسن.

وهي رسائل موجزة تحوي آراء على جانب من العمق والاصالة.

ثم صدر للأستاذ ابراهيم مجموعة شعر في خمسة دواوين، هي:

١ ـ مطلع الفجـر:

وكان قد طبع سنة ١٣٦٩هـ ولكنه لم يوزع لظروف خاصة، وقد قدم هذا الجزء الأستاذان محمد حسن فقي ومحمد حسن عواد ـ رحمه الله ـ وهو مقسم إلى ثمانية أقسام:

١ ـ في معترك الحياة.
٢ ـ مجال قلب.
٣ ـ من نشيد الطبيعة.
٤ ـ صدى النفس.
٥ ـ من منظار أسود.
٦ ـ شعر معقول.
٧ ـ مع الرفيق الأعلى
٨ ـ مسك الختام.

ويقع هذا الديوان في ٢٦٢ صفحة.

٢ ـ مجالات وأعمـاق:

وهذا هو الديوان الثاني للأستاذ ابراهيم، كتب مقدمته الأستاذ الشاعر ضياء الدين رجب ـ رحمه الله ـ.

ويحوي قصائد منوعة للمناسبات فيها مكانٌ بارز، وللإخوانيات والشؤون الخاصة.

ويقع في ٣١٣ صفحة.

٣ ـ صورة وتجاريـب:

وهذا القسم احفل أقسام الديوان بالحكم، وألصقها وأعمقها بالتفكير المتأني، فجلُّ ما فيه صادر عن أثر تجارب وطول معاناة لما لهذه الحياة من أحوال متغيرة.

ويقع هذا القسم في ٢٦٦ صفحة.

٤ ـ حياة وقلـب:

افتتح بجملة: (اهداؤه إلى الحب في معناه، أهدي ترنيمة حب).

ولا يكاد يتجاوز محتوى هذا الديوان ما خصص له وافتتح به من قول الشاعر:

الشعر ألحان ومُو سِيْقَى يؤلِّفُها شعورٌ مستهامْ

فهو يُصوِّر جوانب عاطفيَّة.

ويقع في ٣٣١ صفحة.

٥ ـ تسبيح وصلاة:

جلُّ ما يحويه هذا القسم من شعر الأستاذ إبراهيم يتعلق بالحياة الروحية، ففيه مقطوعات كثيرة بعنوان: نَجْوَى السماء، وأخرى بعنوان: في رحاب النبي ﷺ.

ثم تأتي المراثي وهي سبع عشرة قصيدة (أو مقطوعة). ثم قصائد اختار لها الشاعر عنوان: (زفرات) وهي تعبر في مجموعها عن حالات نفسية، منها: جنَى العمر ـ لحظة ضعف ـ نَجْوى نفس ـ جراح وضماد ـ غربة ـ تزويج البنات ـ سخرية الزمن ـ السبيل الوعر ـ مدارات ـ في لحظة صمت ـ وختمها بمقطوعتي: أرجو لقاء الله! ـ وتصميم.

ويقع هذا القسم في ٣٢٣ صفحة.

هذه الأقسام الخمسة من شعر الأستاذ ابراهيم، صدرت عام ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م) وطباعتها حسنة ولم يذكر اسم المطبعة.

■ معجم أسماء النباتات في منطقة جازان:

هذا الكتاب طريف في موضوعه، فقد حاول صديقنا الأستاذ المؤرخ محمد بن أحمد العَقيلي أن يضع معجماً يحوي أسماء النبات وتحلية كل ما يعرفه من أنواعه حين اقترح عليه ذلك الأستاذ حمد بن محمد العبيدي المتوفى سنة ١٣٩٢هـ ـ رحمه الله ـ فوضع لبناتٍ قوية في أساس ذلك البناء في هذا العهد، حين نشر كتاب «معجم أسماء النباتات في منطقة جازان» الذي تبلغ صفحاته ١٦٨ من القطع الصغير، ولم يكتف بما أورده من أسماء النبات مرتباً على حروف المعجم بضبط الاسم ووصف النوع، وإيراد اسمه باللغة اللاتينية، بل أضاف إلى ذلك صوراً لبعض النباتات.

وقد يلاحظ بعض القراء الاختلاف في التسمية بل في الوصف كما يلاحظ ورود أسماء بعض النبات التي قد يستغرب وجودها في تهامة من أشجار العضاه وغيرها وكذا العرفج. مما قلَّ أن ينبت في غير بلاد نجد ومهما يكن الأمر فإنَّ الأستاذ العقيلي قدم للقراء ثمرة دراسة نافعة.

وقد صدر الكتاب في العام الماضي (١٤٠٥هـ) بمطابع (دار البلاد) في جدة.

□ تاريخ ينبع:

ويتابع ابننا الكريم الأستاذ عبد الكريم بن محمود الخطيب الينبعي البحث والتنقيب عن كل ما يتعلق ببلادنا الحبيبة بلاد ينبع من نصوص وأخبار في كتب المتقدمين والمتأخرين فيسجلها، ثم ينشرها في كتاب صدر حديثاً باسم «تاريخ ينبع»، حوى مباحث متنوعة عن هذه البلاد في فصول خمسة:

١ ــ الأول: عن تاريخ ينبع.
٢ ــ الثاني: عن الحياة العامة.
٣ ــ الثالث: عن الحسنيين في ينبع.
٤ ــ الرابع: عن تاريخ ينبع السياسي.
٥ ــ الخامس: ينبع في كتب الرحلات.

وقد رجع فيما جمع إلى نحو خمسين كتاباً، سرد أسماءها في آخر كتابه الذي زينه بعدد من الصور. ويقع هذا الكتاب في ٣١٢ صفحة، وقد صدر عام ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م).

وقد علمت «العرب» من المؤلف الكريم أنه لا يزال يواصل أبحاثه ودراساته ليضيف إلى هذا الكتاب كلَّ ما يعثر عليه مما يتعلق بموضوعه، وهذا جهدٌ لا شك أنه جدير بالتقدير، وبالأمل بأن يبلغ صاحبه إلى نتائج طيبة لكي يصبح كتابه مرجع مَنْ يُعْنَى بدراسة هذا الجزء الحبيب من بلادنا الكريمة.

فهـــارس السنـــة العشـــــرون

أولاً : الكتاب والمعلقون والمؤلفون

ثانيًا : الموضوعات العامـة

ثالثًا : الأعـــــلام

رابعًا : الأسَر والقبائل والجماعات

خامساً : الكتب والصحف والمجلات والمكتبات

سادساً : المواضع

سابعاً: الشعـــر